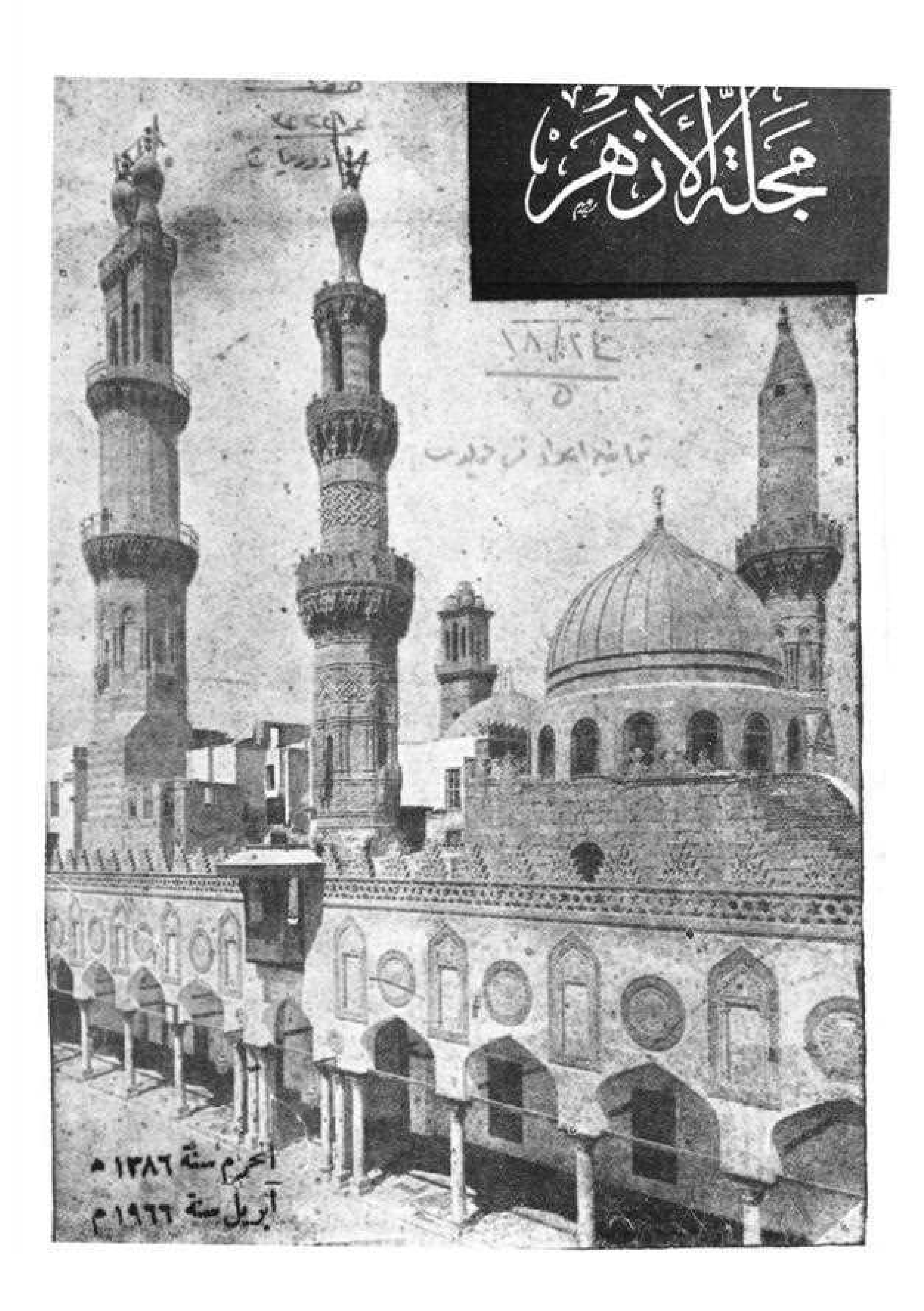

مجلة الأزهر
المحرم سنة ١٣٨٦ هـ
أبريل سنة ١٩٦٦ م

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الأول - السنة الثامنة والثلاثون - المحرم سنة ١٣٨٦ هـ - إبريل ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الربيع في الشعر المطبوع

بقلم أحمد حسن الزيات

إن الذين قضوا يوم شم النسيم البهيج المرح على بساط الربيع ، يجتلون جمال الطبيعة المتبرجة في الزهر والنهر ؛ ويستوحبون أسرار الحياة المنبثة في السماء والأرض ، يسرهم أن يقرأوا تعبير الشعر عما شهدوه من جمال النيل ، وأحسوه من فتنة واديه ولم يستطيعوا الهتاف به ولا التعبير عنه .

وماكان أحب إلى نفسى أن أهيىء لهم هذا السرور لو وجدت السبيل إليه ؛ فإني قرأت ما نظم الشعراء المصريون قدماؤهم وحدثوهم في الربيع المصرى ، فلم أجد فيه على قلته وتبعيته صدقا في الشعور ولا مطابقة للواقع . قرأت ما قال ابن وكيع التنيسى ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتى ، وابن نباتة ، والشاب الظريف ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، من نوابغ المتقدمين ، ثم قرأت ما قال شيوخ الشعر وشبابه من صفوة المتأخرين ، فلم أجد إلا كلاما عاما يقال في كل ربيع ، ووصفاً مجملا يصدق على كل روضة ؛ تعبيرات محفوظة من لغة الشعر ، وتشبيهات منقولة من موروث البيان ، صاغها كل شاعر على حسب طاقته وآلته فجاءت وصفاً لربيع مجهول لاحقيقة له في الخارج ، ولا أثر له في الذهن .

أما الشعور النفسى الذى يدرك الشاعر - الأصيل - في جو معين ومنظر محدود وزهرة خاصة ، فيصل به بين النفس والطبيعة ،

وبين الفكر والصورة، وبين الفن والواقع، فذلك مالا أثر له فيه. ولعلك إذا استثنيت من أشعار العرب فى الربيع، شعر ابن الرومى فى العراق، وشعر البحترى فى الشام، وشعر ابن خفاجة فى الأندلس، وجدت سائرها من هذا النمط المصرى الذى تجد فيه الألفاظ المبهمة، ولا تجد فيه المعانى الملهمة.

فأشعارهم فى الربيع أشبه بأشعارهم فى الغزل، أقلها نفسى صادق يصدر من القلب وينقل عن الوجدان، وأكثرها حسى كاذب يصدر عن الحافظة وينقل عن الكتاب: والمصريون أولى من غيرهم بالعذر إذا خلا شعرهم من وحى الربيع، لأن الربيع الذى يزور الأرض فى إبريل ومايو، لا يزور مصر إلا فى أكتوبر ونوفمبر. فالخريف فى مصر هو الربيع الحق فى نضرته وزينته وعطره. فأينما تدر بصرك فى حقول الذرة وقصب السكر والبرسيم لا تجد إلا رياضا شجراء من شراب وحب، ومروجا فيحاء من زهور وكلأ. ثم ترى النيل فى أعقاب فيضانه كذوب التبر ينساب هادراً فى الترع والقنوات، فيجعل من ضفاف الجداول، وحفا فى الطرق، وحواشى الغيطان، سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب. لذلك افتن شعراء الريف فى وصف الخريف وأبدعوا. وأما ذلك الربيع الجغرافى الذى يقبل على مصر مع الرياح الخمسينية والعواصف الرملية والتقلبات الجوية فإنه أردأ فصول العام: يطرد النسيم بالسموم، ويخنق العطر بالغبار، ويذبل الزهر باللهب، ويرمى الطير بالبكم، ويفسد المزاج بالوخومة. ثم يكون حلوله بعد رحيل شتاء هادىء جميل، فى هوائه الدفء، وفى جوه الصحو، وفى سمائه الإشراق، وفى أيامه النشاط، وفى لياليه الأنس. فإذا رأيت الريف فى الشتاء، رأيت الأرض على مدى البصر قد غطاها بساط من السندس الأخضر، تخف خضرته فى حقول القمح فتكون كالزمرد، وتثقل فى البرسيم فتكون كالفيروزج، فلا يجد الشاعر المصرى وقد انتقل من رقة هذا الشتاء إلى قسوة ذلك الربيع ما يجده الشاعر الأوربى من الحياة والمرح والبهجة والنشوة والطلاقة حين ينتقل من شتائه المكفن بالثلوج إلى ربيعه المكسو بالورود.

للربيع فى الشعر الأوربى أرخم الأوتار وأعذب الألحان من موسيقى الشاعر لأن الشتاء فى أوربا عناء طويل وهم ثقيل: ظلام متكاثف يحجب السماء، ومطر واكف يغمر الأرض، وبرد قارس يهرأ الأجساد، وغمام متراكم يسد الأفق، فلا ترى شعاعة شمس ولا خفقة طائر، وثلج متراكب يطمر الثرى فلا تجد عشبة فى مرج ولا زهرة فى حديقة، والناس هناك فى حنين دائم إلى الربيع، لأنه فى دنياهم حياة بعد موت. وابتهاج بعد كآبة، والشعراء فيها يبشرهم بمقدمه رقائق من الشعر الشاعر تقرؤها فى البشريات الأولى

كشيوع الدفء فى النسيم، ودبيب الحياة فى الشجر، وعودة العصفور المهاجر إلى عشه، وخرير الجدول الجامد بعد صمته. فإذا أقبل الربيع متهم بما حرموه طويلا من جلوة الطبيعة فى الأفق المشرق، والروض البهيج، والجو المعطر، والطير الصادحة، والضواحى الأنيقة والغابات الوريفة والمتنزهات اللاعبة.

والربيع الأوربى على الجملة تغيير فى النفس وتجديد فى الحياة والتغيير والتجديد يلهمان القرائح الخلاقة شعرا يمتزج فيه الوجدان بالوجود، ويتصل به الخيال بالحقيقة. أما شعراؤنا المصريون فأى جديد يأتيهم به الربيع فى آفاقهم وفى أنفسهم! إن الشمس والدفء والصحو والطير والزهر والزرع والماء من خصائص مصر الطبيعية، لا تنفك عنها طيلة العام، حتى ألفتها المشاعر والنفوس، فلا تشتاقها لأنها لا تغيب، ولا تحتاجها لأنها لا تنقطع. ومن هنا تشابهت الفصول الأربعة فى حس الشاعر فلا يكاد يرى اختلافا بينها إلا فى حيوية الشتاء وشاعرية الخريف ولذلك لم يجد الشعراء ما يقولونه فى الربيع، فإذا قالوا مدفوعين بغريزة المحاكاة أو بشهوة المعارضة قالوا كلاماً قد يكون منضد الألفاظ بجود التشابيه ملون الصور، ولكن الفرق بينه وبين الشعر الصحيح، يكون كالفرق بين الجماد والحى، أو بين الدمية والمرأة.

ولقد نظرت فى شعرنا القديم والجديد فلم أر شاعراً قبل شوقى ولا بعده خص الربيع بقصيدتين من محكم الشعر وجيده، إحداهما طويلة مستقلة، أهداها إلى الكاتب القصصى (هول كين) والأخرى قصيدة تابعة جعلها صدراً لقصيدته التى نظمها فى المهرجان الذى أقيم لتكريمه، يقول فى الأولى:

آذار أقبل قم بنا يا صاح
حى الربيع حديقة الأرواح

واجمع ندامى الظرف تحت لوائه
وانشر بساحته بساط الراح

صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها
فالصفو ليس على المدى بمتاح

واجلس بضاحكة الرياض مصفقا
لتجاوب الأوتار والأقداح

إلى أن يقول:

ملك النبات فكل أرض داره
تلقاه بالأعراس والأفراح

منشورة أعلامه من أحمر
قان وأبيض فى الربى لماح

لبست لمقدمه الخمائل وشيها
ومرحن فى كنف له وجناح

الورد فى سرر الغصون مفتح
متقابل يثنى على الفتاح

ضاحى المواكب فى الرياض مميز
دون الزهور بشوكة وسلاح

مر النسيم بصفحتيه مقبلا
مر الشفاه على خدود ملاح

هتك الردى من حسنه وبهائه
بالليل ما نسجت يد الإصباح

ينبيك مصرعه ، وكل زائل ،
أن الحياة كغدوة ورواح
ويقاتق النسرين فى أغصانها
كالدر وكب فى صدور رماح
والياسمين لطيفه ونقيه
كسريرة المتنزه المسماح
متألق خلل الغصون كأنه
فى بلجة الإصباح ضوء صباح

ثم يقول فى الأخرى :

مرحبا بالربيع فى ريعانه
وبأنواره ، وطيب زمانه
زفت الأرض فى مواكب ، آزا
ر ، وشب الزمان فى مهرجانه
نزل السهل ضاحك البشر يمشى
فيه مشى الأمير فى بستانه
عاد حليا براحتيه ووشيا
طول أنهاره ، وعرض جنانه
لف فى طيلسانه طرر الأر
ض فطاب الأديم من طيلسانه
ساحر ، فتنة العيون ، مبين
فصل الماء فى الربا بجمانه
عبقرى الخيال ، زاد على الطيـ
ـف وأربى عليه فى ألوانه
صبغة الله ، أين منها رفائيـ
ـل ، ومنقاشه وسحر بنانه ؟
رنم الروض جدولا ونسيما
وتلا طير أيكه غصن بانه
وشدت فى الربا الرياحين همسا
كتغنى الطروب فى وجدانه
كل ريحانة بلحن ، كعرس
ألفت للغناء شتى قيانه
نغم من السماء والأرض شتى
من معانى الربيع ، أو ألحانه

هذه وتلك أبيات من قصيدتى شوقى فى الربيع ، وهما مثالان من الشعر العالى الطبقة الرفيع النسق إذا وازناهما بالمأثور من الشعر المصرى فى هذا الباب ، وربما انقطع نظيرهما أو ندر فى الشعر العربى كله ! ولكننا إذا وازناهما بما قرأنا فى موضوعهما من الشعر الأوروبى شالت كفتهما فى هذه الموازنة . فإن شوقى رحمه الله جرى على مذهب من سبقوه ، فلم يصف فيهما ربيعاً بعينه فى إقليم يصح أن يختلط به نفسه ، ويضيف إليه شعوره ، ويعرض ما يرى فيه من شجر وطير وعطر وفتون ، على ما يجد فى نفسه من حب وذكرى ونشوة وصبابة ، فيأتلف المنظر والناظر ، ويتحد الشعر والشاعر ، إنما وصف شوقى ربيعاً عاما كما تخيله لا كما رآه وكما تمثله لا كما أحسه ، فجاء الوصف معجبا مهما قد يطرب بألفاظه ، ولكنه لا يؤثر ولا يعرب بمعانيه ، والقصيدتان على أى اعتبار مشاركة جميلة من الشعر المصرى للشعر العالمى فى تمجيد ذلك السر الذى يبثه الله كل عام فى الربيع ، فيعيد الحياة ويرجع الشباب ، ويجدد الأمل ، وينشر الجمال ، وينشأ عنه فى الدنيا هذا البعث العجيب ! .

أحمد حسن الزيات

بركات الإيمان

للأستاذ محمد محمد المدنى

يقول الله عز وجل :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

وحين يقول القرآن الكريم لو حصل كذا لكان كذا ، فإنما يحدث عن سنة من سنن الله الكونية التى لا تتبدل ولا تتحول ، كما لو قال قائل : إننا إذا ألقينا بحجر فى الماء غاص فى أعماقه ، أما إذا ألقينا فيه بقطعة من « الكاوتشوك » فإنها تعوم ولا تغوص .

إن الحياة كلها قوانين وسنن إلهية من هذا القبيل ، وتارة تكون القوانين والسنن مادية يعرفها المشتغلون بالعلوم الكونية ، وتارة تكون اجتماعية يدركها الدارسون لأحوال الأمم ، ومظاهر الاجتماع البشرى ، فالله سبحانه وتعالى يعرفنا فى هذه الآية الكريمة بقانون من قوانين الاجتماع والمجتمعات ، فينبئنا أن المجتمع المؤمن التقى يفتح الله عليه ألوانا من بركات السماء والأرض ، وأن المجتمع المكذب المتمرد على الله يؤخذ بالتضييق والبأساء جزاء بما يكسب .

وهذه السنة الإلهية فى القرآن الكريم بالنسبة لكل هداية جاء بها الكرم الإلهى على الناس .

فالله تعالى يذكرها فى قصة آدم أبى البشر حين أهبطه إلى الأرض : « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . « قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

والله تعالى يذكرها فى شأن هداية التوراة والإنجيل فيقول : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

بل إن الله تعالى أجرى الحديث عن هذه السنة الإلهية على لسان خلقه الخفى الذى نؤمن بوجودهم ولا نعرف كنههم ولا نشاهد عالمهم ، وهم الجن ، إذ يقول : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه »

أي لنختبرهم به - « ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعداً » - أي شديداً - .

فهذه الآيات الكريمة كلها متضافرة على تقرير هذا القانون الإلهي في شأن الاجتماع البشري : أن الإيمان الصحيح ودين الحق ، سبب لسعادة الدنيا ونعمتها بالحق والاستحقاق وأن التكذيب والبطر والإعراض أسباب الشقاء في الدنيا ، تجر على أصحابها كثيراً من الاضطراب والفساد .

* * *

ولكن ما هي بركات الإيمان ؟ وما هو الإيمان الذي تترتب عليه هذه البركات ؟

إن تحديد المراد الشرعي من هذا وذاك يقيد الناس ، ويعصمهم من الغرور والتردي في مهاوي الخديعة والأوهام :

إن « البركة » هي الزكاة والنماء وثبوت الخير الإلهي في الشيء ، وقد وصف الله بها كتابه الكريم حيث يقول :

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون » .

ووصف به الليلة التي أنزل فيها هذا الكتاب حيث يقول :

« إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ووصف بها رسوله عيسى بن مريم حيث يقول :

وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا » .

بل وصف بها نفسه جل جلاله إذ يقول :

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

« تبارك الله أحسن الخالقين » .

« تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

« ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » .

ويتبين من هذا أن « البركات » ليست مجرد هبات إلهية تمنح أو يحابي الله بها بعض خلقه دون بعض على غير أساس من الاستحقاق والحق ، وإنما هي عطايا وهبات لمن يستحقونها ، فهي تنبثق وتتولد عن عمل العاملين ، وإخلاص المخلصين ، وتقوى المتقين .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نقص مال من صدقة » والقصد أن هذا المال الذي يعرف صاحبه حق الله فيه ، ويخرج منه صدقته ، لا ينقص بإخراج هذه الصدقة منه نقصا معنويا وإن نقص نقصا حسيا ، لأن الشأن فيمن يحرص على أداء زكاة ماله أن يكون تقيا بارا بمجتمعه رءوفا رحيما بالفقراء والمساكين ، إذا كان ما يفعله ابتغاء مرضاة الله ، وذلك يجعله محبوبا ،

ويجعل الناس يحرصون على ما ينفعه ، وعلى أن يدفعوا عنه كل ما فى إمكانهم أن يدفعوه من السوء ، فيكون قد استفاد بما قدمه فى الدنيا « وما عند الله خير وأبقى » .

والإيمان الذى ترتبط به البركات ليس هو الدعوى الانتسابية التى لا يقوم عليها دليل من العمل والسلوك .

إن كثيرا من الناس يقولون : نحن مؤمنون ، ولكن الأعمال هى التى تصدق هذا القول أو تكذبه .

إنه لا يتفق مع الإيمان أن تكون القلوب ممتلئة بالحقـــد ، منطوية على الغل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنكم لن تؤمنوا حتى تحابوا » .

ولا يتفق مع الإيمان أن نؤثر على الله ورسوله أحدا أو شيئا ، سلطانا ، أو جاها أى أن تؤثر الباطل على الحق ، والفساد على الصلاح والاستقامة على الاعوجاج والالتواء فإن الله هو الحق ، وهو العدل .

وقد زعم قوم من الأعراب أنهم آمنوا لمجرد أنهم نطقوا بالشهادتين ، وقد علم الله ما فى قلوبهم من الفساد ، فلم يقبل منهم هذه الدعوى ، وذلك حيث يقول :

« قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ... »

فبين بذلك أن المظهر لا يغنى عن المخبر ، وأن الله تعالى لا يروج عليه ما يروج على الناس من الخديعة ، لأنه هو العليم بذات الصدور ، وفى أمثال هؤلاء أيضا يقول الله عز وجل .

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون » .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ألين شىء فى هذا الدين وأصعبه ، فقال « إن ألينه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأصعبه الأمانة » .

فدل بذلك على أن الدين صبر واحتمال وأداء لحقوق الله وحقوق الناس ، وليس مجرد شهادة يتلفظ بها اللسان .

لهذا لا يمكن أن ترتبط «البركات» بالدعاوى الهينة ، وفى النفس ما فيها ، وفى التصرفات والسلوك ما ينا فيها .

* * *

فإذا سألنى سائل : ماذا ترى فى المدنية الغربية وما فيها من الزينة والمتاع مع الانحراف عن مقتضيات التدين والإيمان الصحيح ؟ فإنى أقول له : إن هذا من قبيل

الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

---

١ — يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« لقد من الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم : يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

وآيات القرآن كثيرة فى هذا المعنى تؤكد كلها : أن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت نعمة عظمى من الله ، سبحانه ، على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله ، سبحانه وتعالى ، إنما هو منة كريمة من لدن رب كريم .

ذلك أن هذا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إنما هو لسان صدق فى تبليغ آيات الله ، فهو يتلوها على المؤمنين ، إنه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ، ووعاها ، وتشربتها روحه ، فانطبع بها ، وعاشها ، ومن أجل ذلك كان هذا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مصدر تزكية لهم . إنه وقد أصبح طابعه آيات الله أصبح — من أجل ذلك — مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسى للمؤمنين .

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وإنه يتلوها ، ويحياها : فهو يبشر بها بقوله ، أو بتلاوتها ، ويبشر بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها ، وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب : إنه لا يتلو فحسب ،

(البقية على الصفحة السابقة)

المتاع الذى يتلوه الخراب والعذاب الأليم ، وذلك أن الله تعالى يقول فى شأن نبيه نوح ومن معه :

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

فكل مدنية لا تقوم على الإيمان ورعاية مقتضياته ، لا بد أن تنتهى إلى مصير مظلم ، وعذاب للشعوب مؤلم ، وها هى ذى مدنية الغرب المادية العمياء تتخبط مجتمعاتها فى مهاوى الرذيلة ، مما يؤذن بسوء المصير ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

« ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد » .

محمد محمد المدنى

وإنما يعلم أيضا ، إنه يشرح ويفسر ، ويطبق ، ويقـوم تطبيق الآخرين إذا انحرفوا ، إنه يعلم القرآن .

وهو يعلم القرآن بعد أن انطبع به ، وبعد أن أصبح هو قرآنا ، لقد أصبح فكره قرآنا ، وأصبحت عواطفه قرآنا ، وأصبحت إرادته قرآنا !!!

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير وأخصره ، حينما سئلت عن خلق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت ، رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » .

وما كان يتأتى أن يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة عائشة ، رضوان الله عليها إنما هى كلمة بديهية عند كل متبصر : فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها فى الخارج لو لم تطبق فعلا ، ولو لم تتحقق واقعيا ، وكان لا بد من أن تتحقق بالفعل ، وكان لا بد من صورة حية تتمثل فيها هذه المبادئ : تتمثل فيها ذاتيا ، وتتمثل فيها من جهة تطبيقها على الغير ، وقيادة الغير إلى الأخذ بها فى صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة .

ولو لم يكن الأمر كذلك ، لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادئ .

٢ — بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق ، كما يحب الله ، سبحانه ، لبنى الإنسان : قد تحققت بالفعل : حققها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ؛ وحققها فى ذاته ، وحققها فى مجتمعه ، حققها سلوكا ، وحققها واقعيا ، حققها هو فى نفسه على أكمل ما يكون التحقيق ، وحققها تطبيقا فى مجتمعه على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع .

ونقول : على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع ، لأن لكل نظام من النظم حد أدنى لا يتأتى أن يكون النظام بدونه ، وحد أسمى يتسامى نحوه المخلصون .

ولقد تحققت الصورة الإسلامية فى حدها الأسمى فى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وكان بذلك ـ بنص القرآن ـ أول المسلمين .

وترسم الآيات القرآنية الكريمة ، كيف ، ولم ، كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أول المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

« قل : إن صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .

لقد كانت أعماله ، وحياته كلها ، بل ومماته لقد كان كيانه كله : حركة وسكونا ، حياة وموتا ، لله رب العالمين ، فكان بذلك أول المسلمين .

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدها الأدنى فى آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وجد المجتمع الإسلامي بالفعل :

ولقد انتفى بذلك فكرة هؤلاء الذين رأوا في الماضي ، أو يرون في الحاضر أن الإسلام مبادىء لا تطبق ، مبادىء نظرية ، مبادىء خيالية يستحيل تطبيقها .

لقد تحقق الإسلام بالفعل ، فوجد مجتمعا أسلم نفسه لله : وإن مجتمعا يسلم نفسه لله ، لا يتأتى أن تتمخض الإنسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذي وجد إنما كان ثمرة من ثمار جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وكفاحه في أن يخرج بالفعل الصورة التي أوحاها الله إليه : لقد كان أثرا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم آيات الله ، ولتزكية الرسول صلى الله عليه وسلم لمن حوله ، بمثله القرآني ، ولتعليمه صلوات الله عليه القرآن لمن حوله .

وتشربت روح رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، وامتلأت به ، وصفت بصفائه وتزكت به ، واستنارت بنوره ، ففاضت بالحكمة : أثرا من آثار الهداية التامة ، ونتيجة للنور يغمر القلب ، والسناء يتلألأ في الفؤاد : فكان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يعلم الكتاب ، ويعلم الحكمة ، وما الحكمة إلا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ينير بها قلوبا ، ويرشد بها عقولا ، ويقود بها عباد الله إلى الله ، وكما أن الكتاب من عند الله ، فإن الحكمة أيضا من عند الله ، يقول الله تعالى :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

وما كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى : فآيات الله يتلوها ، وكتاب الله يعلمه ، والحكمة التي أنزلها على قلبه يعظ بها .

يقول الإمام الشافعي ، رضي الله عنه :

فذكر الله الكتاب ، وهو القرآن وذكر الحكمة ، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله .

وهذا يشبه ما قال ، والله أعلم .

لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة ، وذكر الله منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلم يجز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله .

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره - فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله .

لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به .

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصه وعامه ، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله .

٣ — هذه الصورة التى ترسمها الآية الكريمة ـ التى صدرنا بها هذا المقال ـ هى الصورة التى تمناها سيدنا إبراهيم ودعا الله ، سبحانه حينما كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل فقال عليه السلام :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

ولقد صادفت دعوة سيدنا إبراهيم ما قدره الله أزلا ، لقد وافقت التقدير الإلهى الأزلى الذى أراد الله سبحانه به أن يكمل الدين ، ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم الأديان هو الدين الأزلى الخالد الذى لا دين سواه ، والذى يرضاه الله ولا يرضى غيره ، وهو الإسلام :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » .

« إن الدين عند الله الإسلام » .

ولا يتأتى فى عرف المنطق ، وفى منطق الحق ، وفى بداهة العقول ، أن يكون الدين الخالد شيئا آخر غير إسلام الوجه لله .

وما دام الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أول المسلمين ، وما دام الدين عند الله هو الإسلام ، فالرسول إذن أول المتدينين على الإطلاق : إنه وصل إلى الدرجة التى سبق بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع أبناء عصره ، وسبق بها من سيأتى بعد : إنه أول المسلمين فى الماضى البعيد ، والماضى الذى يبتدىء منذ بدء الإنسانية .

وما من شك فى أن آدم عليه السلام ، كان مسلما ، ولكنه لم يكن أول المسلمين ، ولقد كان نوح مسلما ، ولكنه لم يكن أول المسلمين وهكذا كان الأنبياء جميعا ، صلوات الله وسلامه عليهم ، من المسلمين ، ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين : وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول المسلمين ، لأن الدين الذى جاءوا به ، صلوات الله عليهم وسلامه ، وإن كان إسلاما ، فإن الصورة الكاملة التامة للإسلام ، إنما هى القرآن :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » المائدة ٤٨ .

ويقول سبحانه : « اتبعوا أحسن ما انزل إليكم من ربكم » .

وهو أول المسلمين فى الحاضر ، وهو أولهم فى المستقبل إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وإلى ما بعد ذلك من آباد الله السرمدية ، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

وفى مقال تال نتحدث عن طابع الرسول صلى الله عليه وسلم وشعاره ، وبالله التوفيق .

دكتور عبد الحليم محمود

وجوب دراسة الدين فى مراحل التعليم الثلاث

للأستاذ الدكتور محمد غلاب

نشرت جريدة الجمهورية فى عددها الصادر بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٩٦٥ أنه قد عرض على مجلس الأمة فى جلسته السابقة على هذا التاريخ ، اقتراح بقانون بجعل مادة الدين أساسية فى جميع مراحل التعليم : الإبتدائى والإعدادى والثانوى » .

وقد أثارت هذه العبارة فى نفسى ذكريات بعيدة المدى ، إذ أنى قد نشرت هذا الاقتراح ذاته منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وسجلت وجوب العمل به ، وطالبت الحكومة إذ ذاك بتنفيذه على الفور ، بل رسمت لها تفاصيل دراسة الدين ومناهجها فى مراحل التعليم الثلاث ولكن هذه المطالبة - برغم أنها كانت فى أسلوب جدى ، بل فيه شىء من العنف - قد ذهبت صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد كما قال القدماء غير أن هذا الاقتراح الجديد قد أعاد إنعاش هذا الأمل فى نفسى ، ودفعنى إلى المبادرة بتأييد مقترحيه من أعضاء مجلس الأمة والوقوف إلى جانبهم فى مطالبة حكومتنا الرشيدة بإبرازه إلى حيز النور حرصا على أبناء الوطن من التفكك الخلقى ، والانحلال الاجتماعى ، وسنقيم لها فى الإلماعة التالية أنصع الأدلة على أن هذا العمل هو الوسيلة المثلى للاحتفاظ بجدية الشباب ورجولته ومقدرته على المقاومة والجلاد والكفاح . وبالتالى هو فى مقدمة الأعمال الوطنية الرئيسية وهو فوق ذلك أساس للوحدة التى هى الهدف الأعظم للنظام الحاضر كله . وإليك البيان :

يجب أن يمتزج الدين بكل أفكار الإنسان وأعماله فى هذه الحياة ، لأن موضوع الأخلاق هو دراسة علائق بنى الإنسان بعضهم ببعض ، ولا يمكن أن ينظم هذه العلائق تنظيما محكما غير البارى ، الأعلى فى قانونه الخالد وهو الدين . ولأن واجب الإنسان نحو أسرته ومواطنيه ، ونحو أفراد الإنسانية جميعا منبجس من منبع واحد وهو واجب الإنسان نحو ربه « من اتقى الله اتقى الناس » :

والواقع المحسوس الذى نشاهده كل آن فى الحياة العملية هو أن الإنسان ضعيف عاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية ، وأنه فى أشد الحاجة إلى معونة صوت الإيمان ليقوده فى هذه الظلمة المخيفة التى تحوطه من كل جانب ، وهذا أمر طبيعى لاغرابة فيه ،

إذ منذا الذى يستطيع أن يقود الوجدان البشرى إلا تلك القوة العليا التى تحيط بكل شىء ثم أى جزاء هو أكثر رهبة فى نظر الروح الخالدة من جزاء الله الأبدى الذى سيلتقى بها فى حياة طويلة لا يدرك مداها، ولا يعرف منتهاها ؟ وأى عزاء يسلى عن أحزان الحياة وآلامها أعلى من التفكير فى عدالة الله التى ستوفى الصابرين أجرهم بغير حساب ؟ .

هذا كله بالنسبة إلى أثر الدين على الفرد ، وأما أثره على الجماعات فهو لا يقل أهمية عما تقدم ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يفهمنا احترام الأنظمة المقررة ، ومعنى الفضيلة الأسرية ، والإذعان للسلطات الشرعية ، ويعودنا الصبر على المكاره واحتمال الآلام وتخفيف وقع منظر الفروق الهائلة بين شقائنا وسعادة غيرنا على نفوسنا أكثر من الدين ؟ .

وفى الحق ان الحكومة التى تشعر بأن عليها واجبا تؤديه لأفراد الشعب لا تستطيع أن تؤسس تعاليمها الأخلاقية منفصلة عن الدين بل يجب عليها أن تشركه على الأقل فى تأسيس هذه الأخلاق إن لم تعتمد عليه اعتمادا كليا، وأن تفسح له مكانا عظيما فى مدارسها ومعاهدها ومنتدياتها ، ليستطيع أن يؤدى مهمته فى تهذيب النفوس كما ينبغى ، لأننا جميعا نعمل على صيانة القوانين الوضعية ، ونسهر على احترامها وحفظها من عبث العابثين ، بل إنها تصل من نفوسنا أحيانا إلى مرتبة الإجلال والتقديس ، فإذا دوت فى المكان هذه الجملة : « باسم القانون أفعل كذا » .

عند ذلك تخفق القلوب وتهلع النفوس . وتنحنى الرؤوس ، وتسود المجلس الرهبة ، ويخيم عليه السكوت .

ولاريب أننا لم نخلع على القانون هذه القداسة إلا لأنه يقر الأمن ويصون الحقوق ، وينشر السلام والاطمئنان ، ولكن من يدقق النظر فى أحوال الأمم وظواهرها الاجتماعية ، وخصائصها النفسية يتضح له تمام الاتضاح أن الممتنعين عن الجرائم منهم عشرة فى المائة متأثرون بالأخلاق فى ذاتها ، وعشرون يخشون القانون ، وسبعون يتجنبون الرذائل اتقاء الله وخوفا من عقابه الذى هم موقنون بأنه أشد وأقسى وأطول مدى من عقوبات القوانين الوضعية . فإذا كان الدين قد نال من النفوس البشرية هذا المنال الذى لم يفز القانون بنصفه ولا بثلثه ، فإنه يجب علينا كمواطنين مخلصين لبلادنا ، راغبين فى صلاح أحوالنا الاجتماعية أن ننمى فى نفوس الجماهير هذه العقيدة النبيلة ما دام لها على أخلاقهم هذا الأثر الجليل .

ومن أهم وسائل تنمية الدين فى النفوس دراسته فى مدارس الدولة على اختلاف

أنواعها ، وفى جميع مراحل التعليم فيها ، ولكن بهيئة تتلاءم مع تطور عقول الطلاب، وتتوافق مع نشوء أفكارهم ورقيها، فيدرس مثلا فى المدارس الابتدائية فى ثوب بسيط سهل بعيد كل البعد عن التعقد والتركيب ، كأن يعلم الطفل أن للكون إلهـا عظيما جليلا وهو الذى خلق كل هذه العوالم ، وهو لا يشاهد ولا يقع تحت الحس ، وهو خير وعادل ومحب للأخلاق السامية كالصدق والأمانة والحلم والحياء ، ومبغض لأضداد هذه الصفات من : كذب وخيانة ، وغدر ووقاحة ، وأن أول واجب علينا هو الاعتقاد بوجوده ثم العمل على إرضائه .

وفى المدارس الإعدادية يعلم التلميذ أن هذا الإله القادر اتصل فى كثير من الأزمان المختلفة بقوم من البشر قد اختارهم من بين الناس لمزات قد خلقها فيهم ، فأوحى إليهم أن يقوموا على الأرض بتبليغ أوامره إلى الناس ، وأن هذه الأوامر هى اتباع الخير الذى يوصلهم إلى السعادة واجتناب الشر الذى يقودهم إلى الشقاء ، ثم يجب على المعلم فى هذه المرحلة أن يغرس فى قلوب النشء أن هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة ، وهى التى تفرق بين الإنسان والحيوان ، والتى يلقى فيها كل شخص جزاءه على عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فإذا انتقل الناشىء إلى مرحلة التعليم الثانوى وجب على الأستاذ أن يتبسط معه فى نظريات الدين ، وأن يقوم أمامه بدور مناقشة البراهين ، ومناقضة الأدلة ، وتحليل العلل والبواعث والأسباب .

فإذا درس الشاب الدين على هذا النحو المؤسس على التعقل والتفكير ، ونشأ على احترامه وتقديسه كان له على أخلاقه العملية أثر لا يجحده إلا من أوتى من الجرأة على تشويه الحقائق حظا يمكنه من إنكار البديهيات .

غير أننا مع ذلك كله نشاهد أن بعض فلاسفة أوربا المحدثين يرفعون الصوت عاليا بوجوب فصل الأخلاق عن الدين ، وينتحلون لذلك أعذارا سنذكر هنا أهمها وأجدرها بالعناية ثم نرد عليها بما يدحضها فى نظر المنطق الصحيح :

١ — أن كثيرا من الدول تعتنق كل واحدة منها ديانات مختلفة ، وأن نشر أخلاق دين من الأديان ، وإهمال أخلاق الأديان الأخرى يعد خنقا لحرية معتنق تلك الأديان المهملة .

ونحن من جانبنا نرى أن هذا الاعتراض واه من أساسه ، لأن الديانات على اختلاف ألوانها وطقوسها لا تتعارض مع الفضائل الجوهرية ألبتة .

فإذا نشرنا أخلاق الإسلام مثلا فى مصر ، فإننا لا نرتاب أقل ارتياب فى أن المسيحيين المخلصين لدينهم سيستريحون لهذه الأخلاق

الإسلامية كل الاستراحة وسيجدون فيها أنواع السعادة الاجتماعية . على أن هؤلاء المعترضين يجزمون بأن الأخلاق الحرة لا تنال الاحترام إلا إذا كانت تتسع لإرضاء المؤمنين والملحدين جميعا ، وهى بالطبع لا يمكن أن ترضى المؤمنين جميعا على اختلاف أديانهم إلا إذا كانت تلتقى مع هذه الديانات كلها عند نقطة خاصة ، وهذا هو عين ما ندعيه من أن جميع الديانات متفقة فى الفضائل الأساسية وإذن ، فلا معنى للتخوف من أن نشر أخلاق دين بعينه يعدو على حرية الذين لا يعتنقونه .

٢ — أن المشاهد أن بعض الحكومات لا دينية كجمهورية فرنسا : وأنه يكون من التناقض أن تربط هذه الدول (اللادينية) الأخلاق بالدين بعد أن فصلت عنه قوانينها وتشريعاتها وسياستها .

ويمكن أن يجاب على هذا الاعتراض بأن القياس هنا مع الفارق ، لأن القوانين المدنية والدساتير السياسية يمكن أن تتبع العصور المختلفة والأمزجة المتباينة . أما القوانين الأخلاقية ، فيجب أن تكون ثابتة لا تتأثر بزمان ولا بمكان ، ولا ينبغى لها أن تتبع أهواء الزعماء والمشرعين اللادينيين ، وإلا كانت بشرية متناقضة تستحسن اليوم ما استهجنته بالأمس . ولا ريب أن هذه الصفة تفقدها عالميتها التى هى ألزم لها من الهواء للكائنات الحية . وإذن فهذه العالمية وذلك الثبات الضروريان للقوانين الأخلاقية لا يتحققان إلا إذا كان المنبع ثابتا وخالدا . ومن أكثر ثباتا وخلودا من منشىء الديانات .

فكل عاقل تهمه الحالة الاجتماعية العامة يرى وجوب نشر الأخلاق الدينية حتى فى البلاد اللادينية ، فكيف ببلد كمصر يستمد كثيرا من قوانينه المدنية وكل تشريعات الأحوال الشخصية من الدين .

وفوق ذلك فإن العلم يعترف فى صراحة بأن أكمل الأسس الاجتماعية ، وأرقى الأنظمة العمرانية مدينة بحياتها للدين وحده ، لا لتلك الأخطاء المرعبة ، والسقطات المروعة التى امتلأت بها نظريات العلماء كما يعلن أن العقل لا يستطيع أن يصل إلى كل الحقائق . أما الدين فإنه يقرر دائما حقائق مطلقة ، وهذا الفرق كاف لرفعته ولجدارته بأن يكون منبعا للأخلاق .

والذى أدعى إلى الدهش والاستغراب هو أن (كانت) وله منزلته الفلسفية فى العصور الحديثة ـ يعلن أن فصل الدين عن الأخلاق يعد ضربا من الخطأ الخطر على الحياتين : الأخلاقية والاجتماعية معا .

فإذا كان هذا هو رأى (كانت) ـ وهو يعد فى تاريخ الحركة العقلية الأوروبية مدرسة

بتمامها - ورأى الأكثرية المحترمة من الفلاسفة الروحيين والعقليين . فما بالنا نرى بعض المعاصرين الذين يعالجون هذه الموضوعات فى مصر يتنكبون السبل السوية ويقحمون فى مهامه التقليد والانقياد وراء هذه الشرذمة المادية من فلاسفة أوربا الذين حطمتهم أدلة الروحيين ، وصيرت مذاهبهم خرائب وأطلالا ، وإليك شيئا من هذه الأفكار السطحية التى سار فيها بعض مؤلفينا على أنساق بعض فلاسفة الغرب اللادينيين دون تأمل ولا روية .

يرى أحد المربين أن الواجب فى دراسة الدين فى المدارس هو الاقتصار على ذكر ما فى الدين من أخلاق وفضائل دون تعرض إلى دراسة الدين نفسه ، ولا إلى تحليل نظرياته الجدلية التى لا يعود منها على الطالب إلا إثقال كاهله ، وكد رأسه ، وإنهاك عقله فيما لا يفيده ، بل يئد قواه ، ويقتل ملكاته ثم يستمر فى نقده فيقول : إذ ماذا يستفيد الطفل من معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلية إلى آخر ما قال .

ونحن نرى أن هذا الرأى بعيد عن التعمق والدقة كل البعد ، ولو عملنا به لآب شبابنا من الأخلاق الدينية خالى الوفاض صفر الأيدى ، ولتقدمنا جميعا نحو الفشل فى اتباع تعاليم السماء بخطوات واسعة ، لأننا لا نرى أدعى إلى السخرية ولا أبعث على الاستهزاء من شخص يتبع أخلاق دين وينسج على منوال فضائله الظاهرية ، وهو يجهل أصوله ومبادئه كل الجهل ، لأن هذا الدين يتهدم من رأسه ، ويزول الاعتقاد به من ذهنه عند أول عاصفة شك أو إلحاد تهب على هذا الذهن الذى لم يتحصن بمعرفة هذا الدين، ولم يدعم إيمانه بالأدلة والبراهين ومتى زال من قلبه الإيمان ، انمحت من نفسه تلك القداسة العليا التى كانت تقوده إلى الإذعان لما جاء فى هذا الدين من فضائل وأخلاق ، وليس لهذا كله من سبب إلا الجهل بأسس الدين ومبادئه ، ذلك الجهل الذى يدعو إليه هذا المربى المعاصر وأمثاله .

وإذا كان هذا المؤلف يخشى أن يدرس الطلاب الدين فيجدوا فيه ما يتنافى مع العقل فيهملوه ويتهاونوا به وبما جاء فيه من أخلاق إذا كان يخشى هذا كما يلوح فى كتابه . فإننا نؤكد له أن دين الإسلام لن يرتاع من هذا التهديد ولن ينزوى وراء ستار الجهل خوفا من اصطدامه مع العلم الحديث أو مع العقل المثقف المستنير ، وإنى لمستأنس لك هذا برأى أحد كبار المستشرقين الفرنسيين ، وهو الأستاذ دزيريه بلانشيه ، مؤلف كتاب (فى الدراسات الدينية) إذ قال حين عرض للإسلام ما يلى :

ومن جانب آخر ينبغي أن نذكر أن الدين الإسلامى يخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة ، لأن فيه قوة كامنة ، وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة مقدرة تامة ... وإنى أعتقد أن الشرق إذا تغلب على جموده الراهن وتخلص منه ، فإن الإسلام لن يضع أية عقبة جديدة فى سبيل التفكير الحديث » . بقى فى هذه النقطة بعد الذى قد مناه أن نعلن - تتميما لما نحن بصدده - أننا نعلم علم اليقين أن أسس الأخلاق الدينية مرتكزة على الوحى الإلهى إلى الأنبياء عليهم السلام ، ونعلم كذلك أن الله أوحى إليهم أنه سبحانه أصل الخيرات والمعارف ، وأنبأهم بالعنصر الذى خلقهم منه ، وبطبيعتهم التى كانوا يجهلونها ، وبمصيرهم العام وبواجبهم الذى لا ينبغى أن يحيدوا عنه قيد أنملة لو أنهم ساروا على النحو الذى يحبه لهم ، وأوحى إليهم أيضا أن عقل الإنسان فى حاجة دائما إلى المرشد الأعلى ليهديه إلى سواء السبيل ، وأن مصلحته الخاصة تقضى عليه بأن يطيع ربه مقتنعا بأنه تعالى لا يأمر إلا بالخير ، ولا يحض إلا على الفضيلة ، وأن هذه الحياة الدنيا - على ما فيها من بهر ولألاء - ليست إلا معبراً يعبر عليه الإنسان إلى الحياة الخالدة ، وأن حظه لاينتهى عند هذا الأجل الدنيوى القصير ، بل سينتهى إلى ما قدر له فى العالم الآخر الذى سيلاقى فيه جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

ومن أوائل مميزات الأخلاق الدينية أنها مؤسسة على حب الله وإطاعة كل أوامره ، ثم على حب المؤمنين إلى حد تسويتهم بالنفس « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولا ريب أنه إذا أحب الإنسان خالقه وأطاع أوامره ، وأحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فقد وصل إلى أرقى درجات الكمال .

هناك فضل آخر قد سكبه نور الأخلاق الدينية على بنى الإنسان ، وهو أنه ربط وجداناتهم وضمائرهم بالعروة الوثقى التى لا تنفصم ولا تنحل ، وهى عروة الإيمان . ولا شك أن لهذا الارتباط أثرا فى الحياتين الاجتماعية والسياسية لا يجحده أى عالم ببواطن الأمور ، بل إن الأمم المفككة بسبب انحلال عقائدها أو جهلها بدينها وانمياع أخلاقها ، لا تصل إلى مثله مهما بذلت فى ذلك من جهود ، ولكن المسلمين يجدون ذلك معدا ميسورا واضحا فى كتابهم الكريم الذى يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

دكتور محمد غلاب

نفحات القرآن

دعوة الرحمن لكل إنسان

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « والله يدعو إلى دار السلام » .
(ب) « ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . آية - ٢٥ - يونس

(ا)

١ — دار السلام طبقة من طبقات الجنة الثمانية ، وهى لأقوام ممن آثرهم الله بنعيم خاص ، فى مقابلة أعمال طيبة بادروا إليها فى دنياهم .

ولكن المراد منها فى هذه الآية هو عموم الجنة ، لأن الجنة كلها دار سلام ، وأمان ، ونعيم ، ورضوان ، ومهما تنوعت طبقاتها بالنسبة لتفاوت الدرجات بين المقبولين عند الله ، فالسلام من غضب الله قد اشتمل جميع الفائزين بالجنة ، والأمان فيها قد تحقق للظافرين ، فهم فى رضوان ربهم خالدون .

ودعوة الله إلى الجنة دعوة رحيمة . أشرقت بها الدنيا قبل أن تعمر بأهلها ، وترددت فى هذا الكون قبل أن يتلبد جو الحياة بالمآثم .

وذلك لأن الله ملأ دنياه بآيات وجوده ، ونصب لنا معالم هداه فى ملكوته ، لنشأ على معرفته من طريق المشاهدة . والتعقل . ونجنح إلى توحيده دون شك منا فى وحدانيته وقـــدرته .

فهدايتنا إلى الله من جانب الله . . وهذه دعوة منه - سبحانه - بلسان الحال إلى خـــير مآل .

ثم جاءت الدعوة الناطقة على ألسنة رسله تباعا ، بالتنبيه إلى ما خلق ، والتذكير بما ننسى ، والتوجيه إلى التماس النجاح عنده بما نقول ، وبما نعمل فى ضوء شرائعه .

٢ — وهذه الدعوة إلى دار السلام : سواء كانت فيما نشهده من أمارات ألوهيته ، أو فيما نسمع من طريق رسالاته ، دعوة موصولة فى كل زمان ، وعامة إلى سائر خلقه ، وليست خاصة برجال ، ولا بنساء ، ولا فى جيل دون جيـل . . وإن كانت متعاقبة من رسول إلى رسول .

وقد استقرت أخيراً فى نداء القرآن إلى الناس عامة، وعلى لسان محمد خاتم الرسل عامة: «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً».

وهذه الدعوة إلى دار السلام ذات ألوان فى أسلوب القرآن، وليست محصورة فى وضع واحد، فالله - تعالى - يقول مثلا: «يا أيها الناس اتقوا ربكم»، ويقول: «يا عبادى فاتقون»، «فاتقون يا أولى الألباب»، ويقول: «فاذكرونى أذكركم، واشكروا لى ولا تكفرون»، «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم». وهكذا من آيات كثيرة يوجه الله فيها الخطاب إلى جميع خلقه، منذ هتف بها الإسلام فى أرجاء الدنيا.

ويفتح بها باب الأمل فى وجه كل عبد من عباده، ويضرب الأمثال فى التنبيه، والعبرة، وإصارحهم بوعده، ووعيده، ويعشقهم فى رضوانه، ويخيفهم من غضبه، وعذابه.

٣ — وكل هذه التوجيهات دعوة منه تعالى إلى دار السلام، وستظل دعوة الناس يجهر بها القرآن إلى نهاية الدنيا.

كما نجد آيات أخرى، فيها خطاب للمؤمنين - خاصة - ليشجعهم إلى المزيد من عمل الطاعات وليشعرهم بأن لهم حظوة عنده ليست لغيرهم وليشعر الكافرين بالحرمان إن لم يؤمنوا كذلك..

«يا أيها الذين آمنوا، اركعوا، واسجدوا واعبدوا ربكم، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون»، يعنى لتفلحوا كما وعدتكم.

«يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله، والكتاب الذى أنزل من قبل»، يعنى الكتب.

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا، وسبحوه بكرة وأصيلا»، وهكذا من آيات خاصة.

ثم يعمم الله خطابه ووعده فى نحو قوله تعالى «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما»، وفى نحو قوله - سبحانه - «للذين أحسنوا، الحسنى، وزيادة»، فذلك وعد لكل مستجيب.

ومن هذه الأساليب المتنوعة فى الدعوة إلى دار السلام ندرك رحمة الله بعباده جميعاً فى دنياهم.

ونؤمن بأنه فتح أبواب الإيمان للجميع، ثم دعاهم جميعا إلى المبادرة.. ثم ألقى عليهم مسئولية الاختيار، وقال: «فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين نارا، أحاط بهم سرادقها...».

(ب)

٤ — وهذا ما يكشف عنه شطر الآية: «ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»، والمعنى: أن الله وحده يهدى إلى الخير، والإيمان من يشاء.

فمن هو فاعل المشيئة التى تترتب عليها

كتاب الحياة الأخرى

للأستاذ الدكتور عفيفي عبد الفتاح

أغرت اكتشافات علماء الفضاء الحديثين للعوالم الأثيرية بعض شبابنا المتعلمين فحدت بهم إلى الخوض فى مشاكل الغيبيات والاندفاع فى تيار المجهول ، كحقيقة الروح والنفس ومسائل الحياة الأخرى ، وخيل لهم طموحهم الجائر أن قد أتيح لهم تناول ذلك على ضوء تلك الاكتشافات ، وأن قد هيء لهم شرح الميتافيزيقا ، مادام فى الامكان تناولها بضرب من التمثيل والتصوير وأسلوب من التقارب أو المقابلة بين الصور الأثيرية (الميتافيزيقية) والصور الفيزيقية .

وبين يدى من الكتب المؤلفة حديثاً فى الموضوع كتابان : أحدهما للسيد مصطفى الكيك بعنوان (بين عالمين عالم المادة وعالم الروح) فى ١٥٠ صفحة من طبع دار المعارف بمصر لسنة ١٩٦٥ والثانى للسيد عبدالرازق نوفل بعنوان (الحياة الآخرى) فى ١٦٤ صفحة من طبع المكتبة الفنية الحديثة .

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

هداية الله ؟ هل هو العبد الذى يوجه إرادته الاختيارية إلى ناحية الطاعة ، يعنى : يهدى العبد الذى يشاء لنفسه .

وبناء على هذا تتحقق له هداية الله ، هذا احتمال قوى فى الآية . فإن الله قال : فمن شاء فليؤمن ، وتلك مشيئة شخصية ، علم الله قديما حصولها من عبده ، ورتب عليها قضاءه أزلا بهداية هذا العبد ، الذى علم الله ما سيحصل منه .. فإيمانه باختياره المعلوم لله قديما ، ومن قبل أن يوجد العبد ، أو يختار ، وربما كان فاعل المشيئة هو الله - تعالى - والمعنى : أن الله لما علم من عبده ما يختاره ، شاء له الهداية ، فمشيئة الله مبنية على مشيئة العبد ، ولهذا نجد الغاية واحدة ، وهى أن مشيئة الإنسان ، هى حجر الأساس فى الأعمال الاختيارية ، دون الأعمال الاضطرارية . .

فلا يصح أن يقول قائل : إن الإنسان مجبور فى كل شىء ، ولا مختار فى كل شىء .

بل هو بين هذين الاعتبارين .. ولذلك دعانا الله كثيرا إلى العمل لدار السلام ، ثم تفاوتت درجات الناس فى علمهم ، تبعا لتفاوتهم فى اختيارهم « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير » .

عبد اللطيف السبكى

ونورد هنا أهم ما ورد فى الكتابين ، معرضين عن بعض الهنات والتوافه وما أكثرها:

١ ـ الإنسان ثنائى الجسد ، يتكون من جزأين : من جسده الترابى المطبوع من مادة العالم الأرضى ، ومن جسده الروحى أو (النفس) المطبوع من مادة العالم الأثيرى (بين عالمين ص ٩٦ ، والحياة الآخرى ص ٢٣) .

وكلا الجسدين يتألف من ذبذبات يحددها علم الميكانيكا الموجية مع اختلاف هذه الذبذبات عدداً ، فبينما يتألف الجسم الطبيعى من جماع إشعاعات تتراوح ذبذباتها بين ٤٠٠ ألف مليون و ٧٥٠ ألف مليون ذبذبة فى الثانية الواحدة يتألف الجسد الأثيرى من جماع إشعاعات أكثر ، وبناء على ذلك يقع الجسد المادى داخل حدود الموجات المرئية لما له من كثافة نسبية ، أما الأثيرى فلا يرى لشفافيته الحادة ، وحيث إن مستوى تكوين النفس الذرى داخل النطاق الأثيرى فهو داخل فى مستوى التكوين الذرى للعالم الآخر الذى تنتقل إليه بعد مفارقتها للجسد الأرضى ، وتبعا لذلك تكون النفس خارجة عن حدود العالم المنظور (بين عالمين ص٢٨).

٢ ـ وعلى مثال الجسد الأثيرى تكون الحياة البرزخية (حياة ما بعد الموت) المستمرة إلى البعث وقيام الساعة ، فالموت ليس هدما ولكنه انهيار للجسد وقيامة للنفس (بين عالمين ص ٤٠) .

هو فقدان الجسد الترابى دون الأثيرى (النفس) الذى يحمل معه العقل حيث يعمل الإنسان بعقله ويدير وظائفه فى أوساط مغايرة (الحياة الآخرى ص ٤٨) .

٣ ـ ويشبه العالم الأثيرى فى كثير من الوجوه عالمنا هذا ، وحواسنا هناك تستجيب كما تستجيب هنا لما يثيرها ، وأهل ذلك العالم يجدون أنفسهم فى أوساط تكاد تكون شبيهة بأوساطنا هنا ، فهناك ينمو الشجر وتينع الزهور ... والحياة النباتية كلها بدلا من الذبول تفقد تصدعها وتختفى عن النظر ... وللقاطنين هناك نفس المشاعر التى لنا ... فهم يحسون بالزهور ويلمسونها ويشمونها .)

(الحياة الآخرى نقلا عن ارثر فندلاى ص ١٠٧/١٠٨) وللنفس (وتختلط فى عباراتهم بالروح) شكل وصورة (بين عالمين ص ٢٣ ، ٢٤) إذ تلبس بعد الموت جسما آخر (أثيريا) يشبه جسمها فى الدنيا ويأخذه ، إذ لا يوجد روح بلا جسم ولا جسم بلا روح ، وبذلك يتعارف الناس فى حياة البرزخ (الحياة الآخرى ص ٣٠) .

٤ ـ وقد تمكن العلم الحديث (كذا) من إخضاع الروح للدراسات المعملية :

(فى المعهد الروحى بباريس أجرت مدام كورى الباحثة والعالمة المعروفة تجارب للتيقن معمليا من وجود الروح ، بأن جاءت بثلاث كشافات كهربية وشحنتها وطلبت من الوسيطة التى تمارس الوساطة الروحية أن تطرح روحها وتفرغ هذه الكشافات الثلاث

من بعد ، وفعلا قامت الوسيطة بتفريغ شحنات الكهرباء عدة مرات وهى فى مكانها بعيداً عنها ، واستنتجت مدام كورى ومن معها أن ثمة شيئا (كذا) خرج من جسد الوسيطة البعيدة عن الكشاف ثم لمسه ففرغت شحنة خلاله إلى جسم الوسيطة ثم إلى الأرض ، وقد صدر عن ذلك تقرير من المعهد السيكولوجى بباريس ونشر فى أكثر من صحيفة كمحاضر جمعية البحوث الروحية البريطانية ...) ، ويستطرد الكاتب فيذكر نتيجة تجربة للدكتور (وامز) تدل على (أن الطاقة التى يفقدها الجسم بالموت جسيم غير مادى انسل من الجسم المادى فى لحظة حدوث الموت وقد أمكن أن يرى باستخدام بخار الماء) (الحياة الأخرى ص ٣٢) .

٥ — وإذا كان الأثير هو المادة المشتركة بين العالمين اللذين هما جزء من كون واحد فتغيير الاهتزاز الموجود داخل الذرة هو السبيل إلى الانتقال من العالم المادى إلى العالم الروحى أو من المرئى إلى غير المرئى .

فالسموات السبع كرات تختلف فيها الاهتزازات قلة وكثرة وليس من المستطاع النفاذ إليها إلا مكيفين بالطاقة المعهدة من القوى الأثيرية (الحياة الأخرى ص ٩٩) ويشهد حديث المعراج بأن جبريل لم يستطع مراصلة الرسول فى الصعود إلى السموات العلى نظراً لعدم حصوله على الطاقة الذرية التى امتاز بها الرسول ويستند الكاتب هنا إلى ما ذكره جلال الدين السيوطى فى الاتقان (ج ١ ص ٤٤) فى صدد حديثه عن كيفية نزول القرآن ، إذ قال : وفى التنزيل طريقان أحدهما أن النبى انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل ، والثانى أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه (بين عالمين ص ٢٩) .

تعليق على ما تقدم :

(١) خلط الكاتبان هنا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، فالإنسان مكون من جزأين جسم وروح مع ميل المذاهب الإسلامية إلى وضع النفس فى المحل الأول .

وللروح بقاء بعد الموت وشعور بالألم والراحة ، كما وردت بذلك الآثار المستفيضة وقد اختلف الفلاسفة فى تحديد النفس واحتملت ألفاظ القرآن معانى مختلفة لها كما اختلفت الفلسفة العقلية والمادية فى تحديد العقل ، ولا يزال الأطباء يضطربون فيه حتى اليوم ويفصل الغزالى بينها بفروق اعتبارية ومثل ذلك ما شاع عند بعض الفلاسفة من أن النفس مبدأ الحس والحركة ، والروح مبدأ الحياة ، والعقل مبدأ الإدراك ، وذلك رأى غير حاسم لأنه تعريف بالرسم . على أنه مفيد من الوجهة المنهجية . والخلاف هنا غير ذى بال والحديث فيه غير خطير ، إذ يختلف فى نتائجه وغايته عن حديث كتابنا المعاصرين .

(ب) وإنا لنتساءل : أى علم حديث هذا الذى تمكن من إخضاع الروح للدراسات المعملية ؟

والحق أن النتائج الخطيرة للدراسات التي يشيعها هؤلاء الكتاب على الجماهير هي قبل كل شيء امتداد لدعاوى بعض مستحضري الأرواح . ومستمدة في أغلبها من بحوث الجميات الروحية التي انتشرت منذ طليعة القرن الحديث في أمريكا وأوربا بعيدة عن محيط الجامعات مسلحة بتنظيم حديث من أجهزة إذاعية ، مجلات وكتب ونشرات ، ومن دعاة (دكاترة) يحاضرون بصفة منتظمة لبث أفكارهم والإعلام بالمكشوفات التي يدعونها نتائج تجاربهم وبحوثهم ، ويختلف إلى تلك الجميات رواد من المصابين بالشذوذ وبالعقد و لمنكسات النفسية .

ولا يخفى على من يتعرف عليهم أن التجارب التي يجرونها على الوسطاء (Les Sujets) يتخيرون لها أشخاصا ذوى قابلية واضحة للاستهواء . والتجرد من تتوافر في أجسامهم مادة خاصة (fluide) قابلة للتأثر والتأثير ، وهذه المادة موجودة بقدر موفور في الدكتور القائم بالتجربة (أو عملية التنويم) حتى إذا تسلط على الوسيط بطريق النظر الحاد أو توجيه كفيه إليه أو المساس به أو ببعض آثاره التي لامست جسده نزع منه قواه وأخرجه عن وعيه وإرادته كما هي موفورة في العائن الذي يؤثر بنظره في الحيوان والجماد نفسه ، ومن مستلزماتها حساسية شديدة تتجاوز حدود التصور . تسمى هـــذه الجميات (Les esprites) الروحيين وقد شاهدت بعض تجاربها وشهدت الكثير من اجتماعاتها في باريس ومن تلاميذها عندنا السيد/ فهمى أبو الخير ومدرسته .

إلى بحوث هؤلاء يرجع كتابنا عن الروح والعالم الأثيرى كما نبهوا على ذلك في منهج بحثهم (الحياة الأخرى ص٩٦-٩٧) على أنهم لا يعدمون أن يتصيدوا أسانيدهم من خواطر غلاة الصوفية أو حدس بعض الفلاسفة ومن تلقائيات لا ضابط لها ولا حائط مما لا يمكن أن يعتد به كركيزة لبحث علمى ، فضلا عن موضوعات شديدة المساس بذات الله وجوانب حماه من النفس والروح والملأ الأعلى .

(ح) وواضح أن هذه الاشتات المضطربة من مصادر كتابنا الشبان لا يمكن أن ينم عن شيء في مجال الروح والنفس والحياة الأخرى.

فقد حدد العلم نفسه موقفه من هذا المجال واستقل بعد عناء الشوط بدرس ظواهر الموجود عن طريق التجارب والملاحظات ولم تجد الفلسفة نفسها بدا - بعد كانت - من أن تعزف عن الميتافيزيقا بعد أن تكشف عقمها وعدم جدواها . ولقد تحدث فلاسفة الإشراق - وسبقهم الغزالى - عن عالم الغيب والشهادة ووسائل العروج من الحجب بينهما إلى الجانب الإلهى ، ولكن كان مرجعهم في ذلك الذوق والوجدان لا تحاليل الضوء وتجارب المعمل .

واذكر هنا ما كتب الدكتور (اليكسس كاريل) فى موضوع الجسم والروح والمنهج الصالح للبحث :

(ولقد وقف الفلاسفة العظماء حياتهم فى جميع الأزمان والبلدان على بحث هذه المعضلات ولكنهم لم يصلوا إلى حلها .... وستظل بدون إجابة حتى يمكن اكتشاف وسائل جديدة للتغلغل إلى عمق أبعد فى الشعور .... وإذا أردنا تقدما لفهمنا هذا الجانب الجوهرى المحدود للكائن الحى وجب علينا أن نقوم بدراسة دقيقة للظواهر التى يمكننا الحصول عليها بوساطة طرقنا الراهنة للملاحظة وكذا العلاقات الموجودة بينها وبين وجوه النشاط الفسيولوجى . . .

(الإنسان ـ ذلك المجهول ص ٩٩) .

وهو منهج الدراسة العلمية وينصب بالطبع على دراسة الكائن المادى .

وإنه ليدهشنى ما يضفيه هؤلاء الكتاب على بحوثهم من صفات جامعية لا تتفق مع ما نعلم ويعلم غيرنا ما للجامعات من مواد ومناهج بارزة ومحددة .

(د) وإذا كان من الممكن أن نسلم ـ جدلا ـ بمعطيات الميكانيكا الموجيه فى ضبط الطاقات الأثيرية بالآف ملايين الهزات أو الذبذبات فأنى لهم الادعاء بتطبيق ذلك على الروح أو النفس وتعزيز ذلك بما يدعون من تجارب السيد / أرثر فندلاى حتى كان موضوع الروح أو الحياة الأخرى من الهوان بحيث لا يجد من يتصدى له إلا ذلك السيد / فندلاى !!! ولعل كتابنا لم يعلموا أن شرح ظواهر الضوء فى علم الفيزيقا ـ استنادا على وجود ما يسمى بالأثير ـ قد انتهى العلماء من العدول عنه منذ أوائل هذا القرن .

(هـ) على أنه إذا كانت رسالة العلم قائمة على شرح ظواهر المعطيات للتجربة . واستنباط القوانين على أساس من الفروض والتحاليل والأقيسة والموازين وكان هؤلاء قد وصلوا بزعمهم إلى هذه الرسائل فى دراسة الروح وعالم الميتافيزيقا فوقفوا على ملامحها وخواصها وانتهوا إلى اليقين فى خفاياها ومشاكلها (الحيـــاة الأخرى ص ٩٥/٥٠/٤٧/٣١) فماذا بقى من العالم الغيبى بعد أن دخل المعمل مع عالم المشاهدة ؟ وماذا عسى أن نقول لهم بعد أن سمعوا لمستر جون وليمسن (إنه قد يحل فى القريب العاجل اليوم الذى يستطيع فيه المرء أن يرفع سماعة تليفون خاص ليخاطب الموتى فى عالم الأرواح وبعد أن سمعوا بتلك الأجهزة التى ستستخدم للاتصال المباشر بسكان القبور ؟ (الحياة الأخرى ص ٥١) .

(و) إن تسليمهم التلقائى بالسيد فندلاى وإيمانهم العفوى بدعاوى أمثاله يرمز إلينا بأنهم على الأهبة لخطوة أخرى لن تكون غريبة ولا خطيرة ولا طفرة ، خطوة عن

البحث عن الله تعالى وتنزه ، أفيكون فى قمة الذبذبات وذروة الاهتزازات ؟

فالروح شبيهة بالإله الخالد كما يقول السيد نوفل (ص ٤٠) الذى ينسى (ليس كمثله شىء) ويرتكز سيادته على رأى أفلوطين فى اتحاد النفس بالله . (عند أفلوطين اتحاد النفس بالنفس الكلية) والاتحاد يقتضى الوحدة بالتكوين أو التشابه ، (ص ١٧) وسبحان من تنزه عن الشبيه . وأيا كان فالقول بالإتحاد - أفلوطينيا أو صوفيا - لا يتفق ومبدأ التنزيه .

أفلا يترقب البسطاء الأغرار المعجبين بالسيد نوفل أن يروا فى حوانيت الباعة كتابا عن الله ليصير به إلى أن الله هو عقله الأعظم وعلمه الأحكم ؟

(ز) ولقد شاءت حرية البحث لهؤلاء السادة أن يتناولوا الكتاب والسنة ويؤولوهما فى غير تورع أو تحوط على ما رأى (ارثر فندلاى) فى شرح الروح والنفس والإسراء والمعراج ومعالم الحياة الأخرى .

ولقد غفلوا عن أن حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه ولو كلفوا أنفسهم قليلا بالنظر إلى قوله تعالى :

« قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » لعلموا أن عجز الآية يؤيد هذا الاستئثار بما لا يدع مجالا للإنكار . أما حديث الإسراء والمعراج فلا يخرج على أن يكون من السمعيات التى نؤمن بها ونمسك عن تكييفها والخوض فى شرحها .

وليعلم أولئك الذين يستنجدون بالقرآن فى تعزيز مذاهبهم أنه كتاب هداية ورحمة وتوجيه للإنسانية ، وليس فى ألفاظه وعباراته السخية العامرة بالمعانى والإشارات شبه بالألفاظ الاصطلاحية المستخدمة فى التحديد المنطق المذاهب والنظريات ، حتى ليضل هؤلاء الذين يميلون به للبرهنة على مذاهب وأولئك الذين يميلون به للبرهنة على عكسه ، ولقد شهد الكاتبان كم من المعانى ذكرها القرآن للنفس .

وبعد :

فلقد شغل الناس بما كتب هؤلاء الناس ، ولقد فتحوا ثغرة تلج منها الفتنة وتشيع فيها الضلالة ويزيغ بمداخلها هواة الجديد وغواية التجديد ، حتى لا يمكن بعد ذلك أن يكبح لهم جماح أو يقدع طماح ، وكان حريا بهم أن يستوثقوا فيما يكتبون بالثقات الأثبات من علماء الفيزيقا ورجال العقيدة وألا يستهويهم ما يكشف العلم عن بعض جوانب الوجود ، فمعارفنا لا تزال فى بدايتها ، وعقولنا فى مستهل ريادتها ، وليس لنا أن نخف أو نستخف كلما لمح بارق أو عن جديد .

أشوقا ولما تمض لى غير ليلة
فكيف إذا شط المطى بنا عشرا

عفيفى عبد الفتاح

الجنس الملعون

للأستاذ عبد الجليل شلبي

هل المرأة جنس ملعون فى نظر الإسلام ؟ هـذا ما يقوله الكاتب اليهودى جوردبان ترولار ورفيقته كلاوده ديفارجه فى مقال نشر بهذا العنوان فى مجلة شيترون الألمانية [1].

وقد صور هـذا الكاتب بقدر ما سمح له ضميره اليهودى كثيرا من عادات الشرقيين . وعلى الأخص سكان وسط إفريقيه . إزاء معاملة المرأة ، وهو يتتبع بعناية وفضول كل عادة بمقوتة ولو منقرضة فيبالغ فى تصويرها مبالغة لا يسمح بها إلا ضميره وضمير أمثاله من اليهود وأعداء الشرق من الغربيين ، وفى كثير من المواقف يطيع هواه فيختلق ثم يعزو هذه السوءات لتعاليم الإسلام .

وقبـل أن نستعرض الصور التى ذكرها من عادات الشرقيين فى معاملة المرأة نذكر أن البلاد التى خصها الكاتب بالنقد والازدراء هى الأقاليم التى رزحت تحت عبء الاستعمار ردحا طويلا من الزمن وبعضها لا يزال يعانى أثقاله وبعضها حديث عهد بالاستقلال لم يفق بعد من خماره ، وليست هذه البلاد مسلمة بقدر ما هى مسيحية ولا لنشاط الدعوة الإسلامية هناك بعض ما لنشاط المبشرين ، وقد ذكر الكاتب نفسه أن حال المرأة فى مصر وبعض البلاد الشرقية الأخرى غير حالها فى الأقاليم النائية : إفريقية وآسيوية ، فالمسئول إذن عن هـذه السوءات هم المبشرون والمستعمرون وليسوا هم الشرقيين والمسلمين .

وأهم التقاليد والعقائد التى ذكرها ترجع إلى هذه الأشياء .

١ — إن المرأة — فى نظر الشرقيين — محملة بالذنوب وهى بطبيعتها نجسة تعدى بنجاستها كقذارة الكلاب والخنازير ، وأن النبى محمدا (ص) أوصى الرجال بعدم الإخلاص لها ، ولهذا أباح للرجل أن يتزوج من أربع نساء قانونا وأن يشترى ما شاء من الجوارى بينما لا يسمح للمرأة أن تظهر من جسمها إلا وجهها فقط للرجل الذى باعها والدها له أو أهداها إليه .

وتفنيد هذه الدعاوى كلها والأصل الذى بنيت عليه قد يطول ويمتد ، ولكن الكاتب نفسه لم يذكر دليلا واحدا على صحة هذه المفتريات ، وقد خانته فطنته فلم يتنبه لما فى كلامه من تضارب واختلاف ، فلو كانت المرأة كما يقول فى نظر المسلمين نجسة تعدى بنجاستها كالكلاب والخنازير ما قبلوا أن

---

(١) تلقت مجلة الأزهر ترجمة المقال وتاريخ نشره واسم المجلة التى نشرته من إدارة الشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية .

يستكثروا منها هذا الاستكثار الذى ذكره ، إذ لا يقبل أحد أن يستزيد من هذه النجاسة ، وهو مخطىء فى الأمرين جميعاً فلا النبى أوصى بعدم الإخلاص للمرأة ، ولا الإسلام طلب كل هذا الاستكثار من النساء .

والذين قرأوا تاريخ النبى محمد صلى الله عليه وسلم يعلمون أنه أوصى بالمرأة وأنصفها ولم يوص ضدها ومن مأثور أقواله فيها : استوصوا بالنساء خيرا ، اتقوا الله فى الضعيفين: اليتيم والمرأة ، حبب إلى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة ، من كان عنده ثلاث بنات فاحسن تربيتهن كن له حجابا من النار قيل : واثنتان ، قال : واثنتان .

فهل كان يوصى هكذا بها لقذارتها وحقارتها؟

أما إباحة الإسلام للرجل أن ينكح زوجتين أو يزيد إلى أربع فأمر تكفلت كتب التشريع بشرحه وتناوله كثير من الباحثين فى الإصلاح الاجتماعى فرأوا أنه أمر تدعو إليه الضرورات أحيانا وأن الوضع الاجتماعى يحتمه فى بعض الظروف ، وقد طالبت بعض فتيات فى البرازيل وأمريكا الجنوبية بإباحة تعدد الزوجات إزاء كثرة النساء التى قضت على الكثيرات بالتعنس والحرمان من الزوج والولد ، وإزاء قيود الزوجية الشديدة وتحريم أكثر من زوجة أباح العرف فى بعض البلاد الأوربية - ومنها هولنده والنمسا - أن ترضى الفتاة غريزتها من طريق غير شرعى وأن تنجب ولدا غير شرعى ، ولعل الكاتب - وهو ألمانى - لا يجهل ما يحدث فى بلاده من نتائج المخالة وإفساد الشباب ، ويشيع بينهم من بهيمية الشهوة ما يجعل الإفريقيين البدائيين أحسن منهم حالا . وتعدد الزوجة ولا ريب هو الذى يمكن أن يطهر هذا الفساد . على أن الإسلام لم يدع إلى تعدد الزوجات وإنما أباحه بشرط المقدرة بكل أنواعها وبشرط العدل أيضاً بين الزوجات ، ومن ليس له كل هذه الطاقة كان آثما بالزواج من غير واحدة وفى القرآن فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة .

ولا توجد فى الإسلام ولا فى البلاد الإسلامية امرأة تباع ولا توهب كما يقول الكاتب وإنما هو مجرد افتراء .

وأما أن المرأة محملة بالخطيئة منذ بدء الخليقة وأنها بطبيعتها نزاعة إلى الحرام فتلك شريعة التوراة [1] وليست شريعة القرآن ، فقد نص سفر التكوين على أن حواء هى التى أكلت من الشجرة المحرمة وجرت آدم معها إلى ارتكاب الخطيئة ، وأن الله عاقبها لذلك بآلام الحمل والوضع وقضى أن تخضع لسيادة الرجل عقوبة لها . أما القرآن فلم يخصها بهذا الإثم ولا حملها وحدها وزره فرة يسوى بين آدم وحواء فى هذا فيقول : « فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ، فوسوس

---

(١) نقصد بها العهد المتداول المسمى بالعهد القديم ، ويجمع المؤرخون على أنه لم يكتب زمان موسى ولا الذى يليه

لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، ومرة يذكر آدم وحده فيقول : وعصى آدم ربه فغوى .

فالمرأة ليست جنسا ملعونا فى القرآن كتاب المسلمين وإنما الذى سجل عليها اللعنة هى التوراة كتاب اليهود .

٢ — يذكر الكاتب أن المسيحية لاعترافها بهذه الخطيئة الموروثة وقابليته الإنسان بسببها أن يزل تسامحت مع المرأة إذا زلت ولا تتشدد فى حجابها ، بينما تحجز المرأة المسلمة عن الأعين وتنالها الرهبة بقدر ما يتطلب شرف الرجال . والنقطة الرئيسية لإرهابها هى بكارتها ، ولحرصها عليها حرمت من الألعاب الرياضية العنيفة ، فإذا حدث لها رغم هذه المحافظة ما يجرح الشرف وجب أن تحصل على شهادة طبية بأن بكارتها لم تزل بعمل رجل وتعلن ذلك حتى لا تسوء بها الظنون .

وللحرص على إعلان شرف الفتاة وأنها ما زالت تحتفظ ببكارتها يفتضها الزوج ليلة الزفاف أمام الأقرباء ، وتنشر بين الناس فى الخارج قطعة من القماش عليها دم البكارة . الخ .

ومن الحق إن الإسلام لم يفترض فى المرأة هذه الخطيئة ، وقد اعترف الكاتب على نفسه . ولكن الإسلام مع هذا أرق فى عقوبة العذراء وأرحم من التوراة ، فعقوبة العذراء - إذا زلت هى الجلد لا فرق بينها فيه وبين الرجل أما التوراة فقد جعلت عقوبتها هى الرجم بالحجارة حتى تموت (تثنية ٢٠/٢٢) ونصت التوراة أيضا أن المرأة إذا دافعت عن زوجها وهو فى شجار فامسكت بعورة خصمه فإن عقوبتها هى قطع يدها بغير شفقة بينما يؤدبها الإسلام بغير هذه العقوبة فهى أكرم على القرآن مما هى على التوراة ، والقرآن فى تشريعه العام مدنيا وجنائيا ، لا يفرق بين الذكر والأنثى ، فهو يقول : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » .

وأما اعتزاز الفتاة ببكارتها علامة على شرفها فلم يمنعها من الرياضة البدنية ، وفى مصر معاهد خاصة بالبنات لهذه التربية وقد نشر الكاتب صورة منها ، ولا أدرى كيف يرى المحافظة عليها عيبا . إنه على أقل تقدير أبعد عن الشبهة والمرأة الأوربية عرضة للشك والاتهام إذ لا يدرى أزالت بكارتها بسبب الرياضة العنيفة أم بسبب سقوطها أمام رجل أجنبي ، وقد ذكر الكاتب حالة رجل تركى تزوج من فتاة إنجليزية وأن الشك ينهش قلبه لهذا السبب وإذن فلو احتفظت فتاته بعلامة شرفها ما عرضت نفسها لهذا الاتهام ولا عرضته لهذا الشك .

ويظهر أنه يريد الناس جميعا أن يتصفوا بصفات اليهود من أهدار الشرف والاستهانة بالعفاف . ونحن لا يغيب عنا أن الأنثى

الآدمية هى التى تمتاز بين الأناث جميعا بهذا القفل الطبيعى ، ومن حق زوجها وحده أن يزيله، والإنسان وحده هو الذى يعتز بسلالته ويدرك معانى القرابة وطهارة الأسرة . فمن حق المرأة وهى وعاء النسل أن تحتفظ بهذه المنحة الإلهيـة وأن تحافظ عليها حتى يزيلها من له الحق فى إزالتها. وليس من حق اليهودى أى يهودى ـ أن يتحدث عن معانى النخوة والشرف وغيرة الرجال على النساء فهذه معان يدركها غير اليهود .

وقد كان على الكاتب ليكون حديثه أدنى إلى الحق أن يذكر لنا أين رأى هذه العادات المقبوحة فى إزالة البكارة أمام الناس أو أعلان دمها للآخرين ؟ إنه يذكر أنه طاف بكل هذا العالم الشرقى من المغرب الأقصى إلى ما وراء العراق وجاب أواسط إفريقية وكشف من ربوع آسية فهل رأى هذه العادات . إن كان رآها حقا . فى بلد تشيع فيه تعاليم الإسلام أو هل هو يعرف نصا إسلاميا يدعو لهذا ؟.

إن الإسلام يدعو إلى الستر حتى فى مجرد النوم المنفرد ، ويدفع الحد بالشبهة ويلتمس للناس الأعذار، فكيف تنسب إليه هذه العادات ؟!

ونود أن نذكر الكاتب اليهودى . أن إعلان دم البكارة أمام الناس هو تشريع يهودى لا إسلامى . وقد وضح الإصحاح الثانى والعشرون من سفر التثنية . أن الفتاة المتهمة من زوجها يخرج والدها ووالدتها بعذرتها أمام شيوخ المدينة فيبسطان الثوب الذى عليه دماؤها وإذن فلا يجوز له أن يرمينا بدائه ويصمنا بما فى شريعته .

ولا توجد هـذه العادة الآن إلا فى بعض الشعوب المتأخرة وهى مع الأسف لم تتشبع بتعاليم الإسلام ولا كل أهلها مسلمون وإنما هى التى تعانى تسلط المستعمر الأوروبى وخرافات المبشرين .

٣ — تعرض الكاتب لختان الأنثى وما يسببه للزوجين من متاعب جنسية ، وأنه هو الذى يوجه الزوج إلى تعاطى الحشيش والإسراف فيه ليدفع عن نفسه وصمة الضعف الجنسى أمام برود زوجه وبطء استثارتها ، ولكن ذلك لا جدوى فيه لأن استذلال المرأة وهتك أنوثتها على مر الزمن هو الذى سبب برود روحها قبل جسمها .

وقد بينا أن الإسلام لا يستذل المرأة ولا يقبل مهانتها .

وإزاء هذا البحث النفسى فى عملية الختان وشعور المرأة أنها أقل من الرجل لا نجد قاعدة يحكم بمقتضاها . فقد يكون شعورها بنفاسة الزوج وأنه شىء ثمين بالنسبة لها مدعاة إلى شدة الاستجابة الجنسية واستثارة الروح والجسد جميعا .

والإسلام لا يحتم ختان الأنثى ولا يعاقب على تركه ، وهو يسمى خفاضا لا اختتانا وهذه التسمية تشعر بعدم المبالغة فيه .

وقد بحثت هذه المسألة من الناحية الفيزيولوجية البحتة ، وأصبح من الثابت فى عالم الطب أن ترك الختان للفتاة أصلا - يسبب لها وهى فى دور المراهقة متاعب جسدية بقدر ما يسبب لها الختان المبالغ فيه من متاعب بعد الزواج وإن أحسن الحالات الأنثى أن تختن ختانا هينا غير مبالغ فيه - وهو ما سماه الفقه الإسلامى خفاضا .

أما تعاطى الحشيش أو أى مخدر آخر فهو محرم فى الإسلام ، والحكومات الشرقية تحرمه وتعاقب عليه أما الحكومات المستعمرة فإنها تشيعه كأداة مفسدة للشعوب تمكن المستعمر من إقامة أطول وسيادة أشد . وقد اعتمدت فرنسا على هذا السلاح فى استعمارها فى شمال إفريقية وفى كل مستعمراتها الأخرى فهو عيب المستعمر لا عيب الإسلام .

٤ — أحس الكاتب بتهافت دعاواه ، ومبالغات كذبه فراح يستدرك أن هذه العادات لا تجرى فى جميع البلاد العربية وأن الحكومات الحديثة قضت عليها ، كما ذكر أن القرآن فى كثير من آياته ينصف المرأة ولكن حالها ليست على ما رسم القرآن .

وحقا أنه يكاد المريب أن يقول خذونى ، فقد توقع الكاتب أن مقاله سيلقى معارضة من العلماء الشرقيين وذكر أنه لا يتهم بهذا التكذيب ، وفقط يثنى على الحاكم التونسى بورقيبة وله الحق فى هذا الثناء ، فبورقيبه هو الحاكم الوحيد بين حكام العرب الذى يطلب الصلح مع اسرائيل » .

واعتراف الكاتب بهذا هو اعتراف بأن أسلوبه يجافى البحث العلمى وأن كتابته مجرد مغالطات ولو كان حقا يعنى بالحقائق لذكر البلاد التى رأى فيها هذه العادات ويمينها ويبين أصابع المبشرين وعمل المستعمرين ، والذى يذكر الحقيقة لا يتوقع التكذيب .

٥ — تناثرت خلال المقال هفوات كثيرة أعرضنا عنها لوضوح أكاذيبها ، ومنها أن الإسلام يحرم إسعاف غير المسلم بدم الحياة .

والإسلام لا يعرف هذا التعصب الدينى وقد آوت حكومات الإسلام كثيرين من غير المسلمين وأسعفتهم بكل مطالب الحياة من طعام وطب وسكنى وغيرها ، وقد مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة يهودى فوقف لها وظن الناس أنه لا يعرف أن الميت يهودى فأخبروه به فقال أليست نفسا فهو يحترم الإنسان لإنسانيته لا لدينه ، أما التفرقة بين عنصر وآخر فهى شريعة التوراة وحسبنا أن بينا أن الكاتب لا يكتب للعلم ولا للحقيقة وأن مقاله يحمل أدلة كذبه ، والصور الفوتوغرافية التى نشرها توضح الفرق بين سكان بلد مسلم مستقل وسكان بلد مستعمر يقوده المبشرون بشريعة التوراة ؟

عبد الجليل شلبي

طلائع الثقافة العربيّة فى السّودان

للأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى
الأمين المساعد لمجمع البحوث الإسلامية

١ — مقدمة : لم يكن سودان وادى النيل من البلاد التى اشتملت عليها الدولة العربية الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، ولذلك تأخر انتشار الثقافة العربية فى ربوعه مثلما حدث البلاد التى أسلمت أو تعربت[1] بطريق التغلغل السلمى . ولقد خضع هذا الانتشار لمختلف العوامل والملابسات التى كانت بعيدة عن أى تنظيم سياسى أو حربى صادر من مراكز القوة الإسلامية فى الدولة العربية الناشئة . واستغرق فعل هذه العوامل وقتاً طويلا إلى أن اكتمل التوغل الثقافى العربى بصورة جلية بعيد سقوط مملكة دنقلة فى القرن

(١) استعملنا كلمة تعرب هنا كتأدية معنى اكتساب العروبة عن طريق مصاهرة العرب واستعمال لغتهم ، ولم يرد هذا المعنى فى معجمات اللغة العربية والمقصود بالتعرب فى هذه المعجمات هو العودة إلى سكنى البادية بعد سكنى الحضر والتعرب بعد الهجرة من المساوى التى تسقط عدالة صاحبها عند الشهادة لدى القاضى وقد افتخر الحجاج فى خطبته فى الكوفة بأنه مهاجر وليس بأعرابى ويعير الأعرابى إذا قيل له : يا عربى والعكس إذا قيل للعربى يا أعرابى وكان التعرب بعد الهجرة إلى قرية من القرى بمثابة الردة ، راجع هذه المادة فى لسان العرب .

السابع الهجرى . ولكن كان لابد أن تنقضى ثلاثة قرون أخرى منذ هذا التاريخ ، حتى يتسنى أن نعد سودان وادى النيل داخلا فى نطاق الشعوب العربية أى ابتداء من القرن العاشر الهجرى وهو التاريخ الذى يحدده لنا الأثر الفكرى الوحيد مما خلفه السودان الإسلامى ، ممثلا فى تراجم العلماء والأولياء والصالحين المعروف بكتاب طبقات ود ضيف الله .

ولقد اعتمد عدد من الباحثين من عرب ومستعربين[1] على كتاب الطبقات هذا

(١) ممن اعتمد على كتاب طبقات ود ضيف الله من الباحثين العرب المرحوم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه تاريخ التربية فى السودان — القاهرة سنة ١٩٤٩م كما كان من مراجع الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان — القاهرة سنة ١٩٥٣ وممن عنى به من المستعربين هيلسون البريطانى فى مقالات نشرها فى مجلة : السودان فى رسائل ومعروفات فى المجلد ٦ ، ٧ سنتى ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ حيث ترجم منه إلى الانجليزية عدة مختارات . بيد أن بكميكل فى كتابه تاريخ العرب فى السودان الذى نشره فى مجلدين فى لندن سنة ١٩٢٢ وكان قد ترجم جزءا من كتاب الطبقات مع مقدمة وتعليقات .

لكى يصوروا لنا الحياة الفكرية والدينية والاجتماعية لسودان وادى النيل خلال القرون الثلاثة السابقة على الفتح التركى للسودان فى أوائل القرن الماضى، مع أنه لا يسجل لنا فى تلك الحقبة سوى تراجم علماء مملكة سنار المعروفة باسم مملكة الفونج دون أن يذكر لنا شيئا عن علماء دولة إسلامية أخرى فى السودان كانت معاصرة آنذاك للفونج ألا وهى سلطنة دارفور التى كانت لا تقل - إن لم تزد - عن الدولة السودانية الأخرى قوة وازدهارا. فالصورة المستمدة من كتاب الطبقات تعد لذلك صورة ناقصة مبتورة. فقد ترددت دون ريب فى جنبات السودان الأخرى أصداء لحياة فكرية ودينية لم يستوعبها ود ضيف الله فى تراجمه المائتين والستين، نستدل على ذلك من مقدمة محمد ابن عمر التونسى لكتابه عن دارفور المسمى (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) فى ترجمته لنفسه وآبائه، كما نقف على ما يماثل هذا فى خبر عابر لم يفطن إليه مؤرخو الثقافة العربية فى السودان، وذلك فى ترجمة المرتضى الزبيدى المتوفى فى سنة ١٢٠٥ هـ فى ذيل شرحه للقاموس المحيط للفيروز أبادى المسمى بتاج العروس فى شرح القاموس الذى استغرق فى تصنيفه أربعة عشر عاما وقد جاء فى هذه الترجمة أن سلطان دارفور - ولعله محمد الفضل (١٢٠٢ - ١٢٥٥ هـ) لما سمع بنبأ هذا الشرح وإتمامه أرسل فى استنساخه ليكون من الذخائر النفيسة فى مخطوطات خزانته.

ولم يتح لمؤرخ آخر أن يستدرك على ما فات ودضيف الله، فيسجل لنا تراجم الأعلام الذين نبغوا فى ظل سلطنة الفور، كما أنه ليس من الإنصاف أن نعد كتاب الطبقات الذى صنفه ودضيف الله قبل وفاته فى سنة ١٢١٦ [1] هـ والذى كان معاصراً الشيخ عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ العصر العثمانى فى مصر، هو مبلغ ما أنتجه السودانيون فى عالم الفكر والتأليف الإسلامى، إذ من الجائز أن يكون السودانيون فى تلك القرون الثلاثة السابقة على الفتح التركى قد صنفوا كتباً أخرى أتت عليها يد الحدثان أو لم تصل إلى علمنا بعد.

٢ — تأخر انتشار الثقافة العربية فى السودان:

يرى من المستبعد كثيراً أن تكون الحياة

---

(١) هذا هو التاريخ الهجرى المقابل للتاريخ الميلادى وهو سنة ١٨٠٩ الذى أورده هل فى معجمه لأعلام السودان لورد اكسورد منه ١٩٥١ ص ٢٦٨ ولم يبين المؤلف قصده فى استيفاء مادة الترجمة كما هى عادته فى جميع تراجم أعلام السودان وقد ذكر عبد المجيد عابدين فى ثبت مراجع كتابه تاريخا آخر لوفاة ضيف الله وهو فى سنة ١٢٢٤ هـ راجع ص ٣٦٠ من كتابه تاريخ انتشار الثقافة العربية فى السودان.

الإسلامية فى سودان وادى النيل ، قد بدأت لجاءة سوية كاملة التكوين فى القرن العاشر الهجرى وذلك دون أن تسبقها إرهاصات أو فترة تنشئة تمهد لها ، استغرقت فيما نرجح وقتاً طويلا قبل هذا التاريخ . ولكن كيف السبيل إلى معرفة مراحل هذه التطورات السابقة التى مهدت لانتشار الثقافة العربية فى السودان ؟ إن المصادر العربية الخاصة بالسودان الإسلامى قليلة أو عديمة الأثر ، ومنها ما باد فيما باد من ذخائر الكتب العربية ، وقد حاول الرحالة السويسرى « بوركهارت » (١٧٨٤ - ١٨١٧ م) فى مطلع القرن الماضى أن يعثر على نسخة من كتاب تاريخ النوبة لعبد الله بن سليم الأسوانى الذى أخذ عنه المقريزى فى خططه ، ولكنه لم يظفر بطائل ، وكانت الكتب العربية آنذاك ، قبل إنشاء مطبعة بولاق ، لا تزال مخطوطة لم يكن قد طبع شىء منها بعد .

وكنا قد رسمنا برنامجا أعلن عنه أكثر من مرة فى الجمعية التاريخية السودانية وكذ لدى المهتمين بالدراسات السودانية فى مصر ، وهذا البرنامج شبيه بما قام به المستشرق الإيطالى عمارى (١٨٠٦ - ١٨٨٩ م) فى جمعه للنصوص العربية الخاصة بتاريخ وطنه جزيرة صقلية فى عهد المسلمين والتى نشرها تحت عنوان « المكتبة العربية الصقلية » . وذلك بإعداد جزازات تدون فيها الإشارات العابرة والبيانات القصيرة أو المطولة المتعلقة بالسودان عموما ، والسودان الشرقى بصفة خاصة ، والتى وردت فى المصادر العربية المختلفة مثل كتب الأدب والتاريخ والتراجم المعروفة باسم كتب الطبقات ومؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب وغيرها مما يشير إلى البلاد السودانية ويتناول أحوالها جملة أو تفصيلا ، ثم تجمع هذه الجزازات تصنيفا زمنيا وموضوعيا ، وتنشر تحت عنوان « المكتبة السودانية العربية » لتكون مصدراً يجمع بين دفتيه النصوص العربية المتعلقة بالسودان جمعاً يتسم بالدقة والتقويم والإحاطة ، يرجع إليها الباحثون فى تاريخ السودان الإسلامى والمتتبعون لحركة انتشار الثقافة العربية فى ربوعه .

وبما أن هجرة القبائل العربية إلى السودان ترتبط إلى حد كبير بما وقع من التطورات فى تاريخ البلاد الإسلامية المجاورة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالتقلبات الناشئة عن قيام الأسرات الحاكمة وسقوطها والتجاء جماعات عربية إلى السودان فراراً من الأذى والاضطهاد ، ونظراً لما قام من اتصالات بين الإمارات الإسلامية فى السودان وما يجاورها من الدول الأخرى وتأثرها بما يقع فى هذه الدول من أحداث ، فمن الراجح أن نظفر بمادة وفيرة عن السودان

فيما دونه الكتاب الوطنيون فى البلاد المجاورة فضلا عما يوجد منها فى مصادر العصر المملوكى وفيما كتبه المؤرخون المسيحيون العرب . ولا نظن أن استخلاص هذه المادة التاريخية مما يقوى على النهوض به فرد واحد ، إذ لابد أن يتضافر على إعدادها جمهرة من الباحثين المعنيين بالدراسات السودانية .

ويتضح مما سبق أن الثقافة العربية فى السودان قد تأخر ظهورها عن بقية البلاد الأخرى المجاورة لجزيرة العرب التى اصطبغت بصبغة عربية قوية بعيد الفتوحات الإسلامية الكبرى فى القرن الأول الهجرى كالعراق والشام ومصر وبلاد المغرب والتى لا تزال محتفظة بعروبتها إلى اليوم . وذلك دون أن نذكر شيئاً عن بلاد أخرى أسلمت دون تعرب ، إذ لم يستبق أهلها من ذكريات الحكم العربى سوى العقيدة الإسلامية وما يتعلق بها دون اللغة العربية وثقافتها ، مثل بلاد أواسط آسيا وإفريقية جنوبى الصحراء الكبرى . ولقد كان لهذا التأخير فى تعريب السودان أو فى عروبته أثر هام على ثقافته العربية فيما بعد ، إذ أنه لم يتح له أن يشارك فى عصور ازدهارها فى دمشق وبغداد والقاهرة وفاس ، ولم يسهم أبناؤه فى إنتاجها الفكرى الأصيل . فلما وصلته فى حوالى القرن العاشر الهجرى كانت هذه الثقافة مكتهلة قد تطرق إليها الوهن والضعف وفقدت بعض ما كان لها من عناصر القوة والابتكار ، وجمدت مظاهرها فى قوالب محدودة من الفكر والعاطفة ولذلك لا غرابة فى أن يكون تفاعلها مع العقلية السودانية ضعيف الأثر قليل الثمرة .

٣ — العوامل المختلفة التى عاقت انتشار الثقافة العربية فى السودان : قد يقال : إن تأخر سودان وادى النيل عن ركب الثقافة العربية إبان عصورها الزاهرة فى القرون الأولى للهجرة يرجع إلى أنه لم يكن من المراكز الرئيسية لحضارات الشرق القديم فى العصور السابقة للإسلام ، إذ يلاحظ أن الثقافة العربية ازدهرت فى مواطن أنتجت فى الماضى ثقافات عريقة مثل إيران والعراق والشام ومصر ، وأن سودان وادى النيل لم يكن فى عداد تلك المواطن الحضارية ، مع أنه أخذ بنصيب من ثقافة الفراعين والإغريق والرومان ، ولكن يرد على ذلك بأن الحركة الإسلامية قد نفثت الحياة والقوة فى بلاد لم تكن لها حضارات أصيلة سابقة كأسبانيا وشطر كبير من البلاد المغربية ، وعلى العموم فإن مسألة ازدهار الثقافات ، أو ضمورها ، ليست من المسائل التى يقوى التاريخ على تعليلها فى حالات كثيرة .

ولكن يمكن أن نفرق بين ظاهرتين إحداهما تمهد للأخرى . الأولى هى تعريب السودان أى هجرة القبائل العربية إلى ربوعه والثانية هى انتشار الثقافة العربية عندما تصل

موجات الهجرة إلى حد يهيء السبيل لغلبة الثقافة العربية وسيطرتها على ما عداها من الثقافات المحلية ، وإن الخلط بين هاتين الظاهرتين قد أدى إلى قدر من الاضطراب فى دراسة تاريخ الثقافة العربية فى السودان فالعوائق التى قد نراها مؤخرة لانتشار الثقافة العربية فى السودان سواء أكانت جغرافية أو تاريخية أو اقتصادية ، لا تكون لها نفس القوة فى الحيلولة دون التغلغل العربى عن طريق الهجرة فمن الظروف التاريخية التى حالت دون انتشار الثقافة العربية بقاء دولة دنقلة المسيحية حتى أوائل القرن السابع الهجرى ، ومن العوائق الجغرافية وجود البحر الأحمر فاصلا بين الجزيرة العربية والسودان ، أو الجنادل الحائلة دون الملاحة فى مجرى النيل النوبى ، أو استغراق المنطقة الاستوائية لجزء كبير من أراضى السودان بيد أن هذه العوائق لم تحل منذ القدم دون هجرة القبائل العربية إلى السودان .

٤ — هجرة القبائل العربية هى العامل الأول فى تعريب السودان : يمكن أن نرى فى هجرة القبائل العربية إلى السودان فى موجات متواصلة منذ أواسط القرن الثانى للهجرة ، الدعامة الأولى للثقافة العربية فى السودان ، فهذه الهجرات هى مصدر التطورات التاريخية التى وقعت فيما بعد وهى التى قررت لسودان وادى النيل طابعا عربيا يعد أقوى بكثير من الطابع العربى للجماعات العربية التى نزحت إلى الساحل الشرقى لإفريقية منذ عصر الأمويين فقد اقتصر تنظيمها السياسى على إنشاء ما يسمى بدول المدن ولم تفلح فى ضم المناطق الخلفية إليها التى كان مبلغ أثر العروبة فيها هو قيام لغة ملفقة من لهجات زنجية وهندية وعربية هى المعروفة اليوم باسم اللغة السواحلية .

ولم يحدث شىء من هذا فى سودان وادى النيل شمالى خط عرض ١٢ وهو الخط المصطلح عليه للتقسيم بين السودان الشمالى والسودان الجنوبى ، وإذا كانت هناك صيحات يرددها المتعلمون من أبناء السودان الجنوبى المتخرجة فى مدارس الإرساليات التبشيرية تزعم أن السودانيين إفريقيون وأن من الواجب الاعتزاز بالقومية الإفريقية دون القومية العربية لأن العرب دخلاء على الوطن السودانى وإذ كان قد تابعهم فى هذه الدعوى بعض المفتونين بثقافة الغرب ممن تأثر بالفرقة التى بثها الإدارة المختلفة السابقة بين الدخلاء والأصلاء من أبناء السودان ، إمعانا فى تمزيق وحدة الشعب السودانى فإن الاتجاه التاريخى للشعب السودانى الحديث ينزع نحو العروبة وهو اتجاه نعده من الناحية الثقافية اتجاها أصيلا وأكيداً .

عبد العزيز عبد الحق ملكى

الحرية الفردية فى الإسلام

للأستاذ الدكتور أحمد ابراهيم مهنا

يقول الله تعالى :

١ — من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا (١) .

٢ — ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا (٢) .

٣ — تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين (٣) .

٤ — من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب . (٤)

٥ — يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره (٥) .

٦ — بل يريد الإنسان ليفجر أمامه (٦) .

فى جميع الآيات السابقة أسند الله سبحانه الإرادة إلى الإنسان فى وضوح وجلاء ، فالإنسان إذاً فى نظر الإسلام وكتابه الأول حر مختار مريد فى دائرة تصرفاته كلها ، وهذه الحرية هى حجر الأساس فى تقييم أعمال الفرد سواء كان ذلك من ناحية العقيدة أو من ناحية العمل .

وإذا كان الناس قد تواضعوا على أن المجموعة الإنسانية المثلى هى التى يحكمها قانون يتوفر للفرد فى ظله أن يكون حراً فى اعتناق دينه ، وحرا فى إبداء رأيه ، وحراً فى تصرفاته الاجتماعية ، فإن الدارس للقرآن الكريم - وهو الدستور الأول لأتباع محمد النبى صلوات الله وسلامه عليه - يجد بلا مشقة أن الإسلام قد كفل لكل فرد هذه الحريات كلها فى أوسع دائرة يطمع فيها إنسان .

الحرية فى العقيدة :

ففى العقيدة يقول الله تبارك وتعالى : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » (١) ، ويكرر هذا المعنى فى قوله

---

(١) سورة الاسراء آية ١٨ .
(٢) سورة الاسراء آية ١٩ .
(٣) سورة القصص آية ٨٣
(٤) سورة الشورى آية ٢٠ .
(٥) سورة الصف آية ٨ .
(٦) سورة القيامة آية ٥ .

(١) البقرة آية ٢٥٦ .

تعالى : «وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر» [١] . وتمشيا مع هذه القاعدة رسم الإسلام لأهله الطريقة المثلى فى الدعوة إلى دينهم ، وهى طريقة الإقناع وإقامة الدليل وقرع الحجة بالحجة ؛ يقول تبارك وتعالى : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» [٢] ، ويقول جل شأنه : «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» [٣] . ويعطى القرآن نفسه نماذج للطريقة التى يقصدها حين يتحدث إلى معارضيه فى مثل قوله تعالى : «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» [٤] ، «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون» [٥] ، «قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ؟ إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين» [٦] ، «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله» [١] .

ويؤكد الإسلام الحرية فى اعتناق الإنسان لدينه عند ما حدد وظيفة الرسل عامة فى قوله تعالى : «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين» [٢] ، وعند ما خاطب الرسول محمدا خاتم أنبيائه بقوله : «يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا» [٣] ، «إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل» [٤] ، «فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ» [٥] «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» [٦]

ويؤكد القرآن مرة أخرى حرية الفرد فى اختيار دينه وتأسيس عقيدته حين يعقد المقارنة بين المؤمن والكافر فى مثل قوله تعالى : «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا

---

(١) الكهف آية ٢٩ .
(٢) النحل ١٢٥ .
(٣) العنكبوت آية ٤٦ .
(٤) النمل آية ٦٤ .
(٥) الأنعام آية ١٤٨ .
(٦) الأحقاف آية ٤ .

(١) آل عمران آية ٦٤ .
(٢) الأنعام ٤٨ .
(٣) الأحزاب ٤٥ ، ٤٦ .
(٤) الزمر آية ٤١
(٥) الشورى ٤٨ .
(٦) الغاشية ٢١ ، ٢٢ .

جرف هار فانهار به فى نار جهنم ؟ » (١) .
وقوله جل شأنه : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون » (٢) ، « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (٣) ، « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » (٤) ، « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ؟ » (٥) .

إن هذه التفرقة الواضحة بين المؤمن وغير المؤمن لا يمكن أن تفهم ولا أن تستساغ ما لم يكن الإيمان وعدمه مبنيا على حرية مطلقة للفرد ، واختيار نفسى ، وإرادة مثمرة .

ثم نجد القرآن أيضاً يؤكد هذه الحرية الدينية للفرد مرة ثالثة حين يعفى المشرك من الحساب إذا استطاع أن يقيم البرهان على صحة اتجاهه فيما يعتقد - ولن يستطيع - يقول تبارك وتعالى : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » (٦) ، وهذا منتهى ما يمكن أن يتصور من الإنصاف والعدل .

(١) التوبة آية ١٠٩ .
(٢) السجدة آية ١٨ .
(٣) سورة ص آية ٢٨ .
(٤) الجاثية آية ٢١ .
(٥) سورة القلم آية ٣٥ ، ٣٦ .
(٦) المؤمنون آية ١١٧ .

ولم يكتف القرآن الكريم فى تثبيت هذا المبدأ بالناحية النظرية التى ذكرنا ، وإنما طبقها بنفسه تطبيقا عمليا حين أهدر مظاهر الاعتقاد إذا لم تكن مصحوبة باطمئنان النفس المنبعث عن الحرية والاختيار والتروى ، نلمس ذلك فى حديثه عن المنافقين الذين أكرهوا على أن ينطقوا بالإسلام تقية فى مثل قوله تعالى « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون » (١) .

كما نلمسه فى حديثه عمن أكره على أن ينطق بكلمة الكفر وقد عمر قلبه بالإيمان فى قوله جل شأنه : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (٢) .

ويذهب القرآن الكريم فى هذا المعنى إلى مداه فيهدر إيمان الكافر إذا كان عند حضور الموت لما فيه من معنى الإكراه ، يقول الله سبحانه وتعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن » (٣) .

(١) سورة المنافقون آية ١ ، ٢ .
(٢) سورة النحل آية ١٠٦ .
(٣) سورة النساء آية ١٨ .

هذه الحرية الفردية فى الاعتقاد التى تحدث القرآن عنها ، لم تكن فى تاريخ المسلمين نظرية فقط ، وإنما طبقوها تطبيقا عمليا فى تشريعاتهم وفى معاملاتهم مع غير المسلمين فى عصورهم المختلفة ، ولعل أروع تطبيق لها هو ما نعرفه جميعا من أن المسلم يحل له أن يتزوج بالكتابية مع بقائها على دينها ، ومن أن الذميين الذين يعيشون فى ظل الدولة الإسلامية لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات ، فلهم الحرية الكاملة فى عباداتهم وشعائرهم وقضائهم .

وليس لإنسان أن يعترض بما يدفع هؤلاء لبيت مال المسلمين من جزية ، فإنها ضريبة الدفاع للدولة التى تحميهم ويعيشون فى كنفها فهى فى نظرنا دليل على احترام الإسلام لحرية الفرد فى اختيار دينه .

والذى يقرأ كتب التاريخ الإسلامى سيجد فى وصية خليفة الرسول الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لأسامة بن زيد وجيشه قوله لهم : « وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » وسيجد كذلك أن عمر بن الخطاب الخليفة الثانى كتب لأهل بيت المقدس عهداً عقب فتح المسلمين له قال فيه : « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم ؛ لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » .

وينقل الأستاذ أحمد أمين عن كتاب نهضة الإسلام للأستاذ « متز » أن « مما يميز المملكة الإسلامية عن أوربا النصرانية فى القرون الوسطى ، أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الإســـلام ، وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبيع ظلت فى المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكون جزءا من المملكة ، معتمدة فى ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوربا فى القرون الوسطى » .

أحمد إبراهيم مهنا

الحقيقة فى مشكلة فلسطين

للكاتب الهولاندى ف. هـ. ليونارد

ترجمة عن الإنجليزية : محمد حسام الدين

— ٣ —

وفى سنة ١٩٤٧ عرضت بريطانيا المشكلة الفلسطينية على الأمم المتحدة ، فقررت الجمعية العامة إرسال لجنة إلى فلسطين لبحث المشكلة واقتراح حل مناسب لها ، سميت باللجنة الخاصة للأمم المتحدة فى فلسطين فاقترحت أغلبية هذه اللجنة مشروعا للتقسيم .

وأعطى مشروع تقسيم فلسطين لليهود الجزء الأكبر من الأرض المنتجة المأهولة بالسكان ، هذا الجزء يشمل الشريط الساحلى الخصب الذى استوطنه الفلسطينيون منذ القدم وتتركز فيه زراعة الموالح . وهو الذى أقام اليهود فى أغلب نواحيه ، بالرغم من أن نصفه على الأقل ممتلكات عربية .

وخصص المشروع للعرب أقل جزء من الأرض المنتجة ، ويشكون معظم نصيبهم من الأرض الصحراوية الجرداء ، أرض يهوذا ، أو أرض الآباء كما يسميها اليهود ، حيث لم يقيموا بالفعل .

ولكى يضمن المشروع استمرار الحياة للدولة العربية المقترحة جعلها تعتمد على اتحاد اقتصادى ، يستمد معوناته وقروضه من دولة اليهود ، وهكذا يقضى على العرب أن يحكموا فى غير استقلال بينما تكون الدولة الوحيدة المستقلة فى فلسطين هى دولة اليهود .

وعارض العرب مشروع التقسيم وقبله اليهود . وواضح أن قبولهم التقسيم يحقق غرضين فى آن واحد . أولهما : استقلال بدولة وثانيهما : اتخاذها قاعدة للتوسع . واستغلالها فى أغراض ترفضها الأخلاق .

ولهذا فقد حرصوا أن يضمنوا قبول المشروع من المنظمة العالمية . استهدافا إلى تحقيق السيادة التى هى جد ضرورة لمرحلتهم التالية .

قبل اليهود مشروع التقسيم ودافعوا عنه . استجابة لرأى أول ممثل لهم فى الأمم المتحدة ، آبا إيبان ، الذى رأى أن يتطلعوا إلى قرار آخر أكبر تصدره المنظمة العالمية . وأن يعطوا الضمير المسيحى فرصة ليستريح .

هذا الضمير الذى أراح نفسه على حساب العرب الذين لم يكونوا فى يوم ما محل لوم بالنسبة للمشكلة اليهودية .

وفى مجال المنظمة العالمية . لم تكن اللجنه الخاصه بفلسطين قادرة على أن تقدم أكثرية

كافية بالجمعية العامة للموافقة على مشروعها . ولكن انتخابات الرئاسة الأمريكية لاحت فى أفق هذا العام . وفى الأيام القليلة التى سبقت الاقتراع النهائى فى الجمعية العامة على المشروع قام البارزون من الصهيونين ومن يطمعون فى أصوات اليهود بتدبير ضغط عالمى فظيع . وذلك بأوامر مباشرة من البيت الأبيض - واستخدم الأمريكان المسئولون كل أشكال الضغط المباشر وغير المباشر على الدول الخارجة عن نطاق العالم الإسلامى . من الدول التى لم تحدد موقفها تجاه مشروع التقسيم أو التى تعارضه .

وكان الممثلون والوسطاء البيت الأبيض يعملون على أن يتأكدوا من الحصول على الأكثرية الضرورية عند التصويت وفى هذه الأيام القليلة كان عدد من الدول التى تعتمد على أمريكا اعتماداً ما قد غيرت موقفها . وبهذا مر مشروع التقسيم فى الجمعية العامة .

وإذا رجعنا إلى معالجة المنظمة الدولية لهذا الموضوع وجدنا أن قصر النظر فى تناوله هو الذى أدى إلى هذه الفضيحة العالمية . فقد أصدرت توصية قصدت بها تبرير القرار أمام الضمير العالمى وهى « أن قيام الدولة اليهودية يجب أن يتبع تحديداً ووقفاً للهجرة إليها » ويفهم من هذا أن التقسيم لا يمكن أن يكون حلا حقيقياً للمشكلة اليهودية .

هذه المشكلة التى كان التطلع إلى حلها علة وجود الصهيونية وسبب مطالبتها بدولة وهو الذى أوصى بأن جميع اليهود يجب أن يجمعوا فى الدولة المقترحة .

ولم يفهم بأى حال أن ذلك سوف يكون على حساب فلسطين .

وعلى الفور وفى وقت بحث المسألة فى اللجنة الخاصة للأمم المتحدة ، وبعد إقرارها لإمكان التقسيم ، ذاع بين اليهود الفلسطينيين « أن الحدود ليست من الأشياء الخالدة » .

وهذا يشير إلى آمال اليهود وتطلعاتهم الواسعة كما صرح بها «ابن جوريون» عن المجلس الصهيونى فى العشرين سنة ١٩٤٧ بالنسبة للمشروع « إن النقاش لم يكن حول قبول التقسيم لأرض فلسطين أو رفضه ، فإنه لا يوجد صهيونى واحد يمكن أن يستغنى عن أصغر جزء من أرض إسرائيل ، ولكن النقاش كان حول : أى الطريقين أسرع للوصول إلى الهدف العام ...؟ »

وطبقا لدعاوى الدينيين اليهود فإن أرض إسرائيل هى الرقعة الواقعة بين نهر الفرات ونهر مصر « النيل » فتشمل وادى العريش وشبه جزيرة سيناء .

وقد اتخذ الصهيونيون غير الدينيين نفس المنهج حين وجدوا « ابن جوريون » يتصور مطالبهم ويبسطها حسب الظروف فوضعها فى حدود ثابتة واسعة تشمل شمال مصر وشبه جزيرة سيناء وتمتد إلى الفرات ثم ترتفع إلى جبال طوروس فى شمال سوريا والبحر

الأبيض المتوسط ، وكانت هناك خطة معدة وضعها هرتزل تربط بين التوسع وبين جمع اليهود ، نحن نطالب بما نحتاج : بأكبر قدر من المهاجرين وأكبر قدر من الأرض »

أما وايزمان فإنه يقول : « سيظل اليهود إلى الأبد فى جوع إلى أرض أكثر . وليست فلسطين إلا مفتاحا يمكن » فتح المنطقة التى تمتد من الأردن إلى الفرات ومن الفرات إلى المحيط الهندى » .

وكانت خططه تتألف من خلق حقائق يعتمد عليها فى بناء أوضاع تتخذ كسلم إلى هدف أبعد بحيث يستطيع أن ينكر هذه الأهداف عند الضرورة .

وإذا رجعنا إلى سنة ١٩٢١ وجدناه قد جعل التفوق السكانى لليهود فى فلسطين وسيلة للتوسع عبر نهر الأردن .

هذا حال من يسمون بالصهيونيين المعتدلين أما المتطرفون منهم فقد كانوا يتابعون نفس الأغراض بمنهج أكثر صراحة وأقصر مدى

فنى سبتمبر سنة ١٩٤٧ حينما أعلنت اللجنة الخاصة بفلسطين مشروع التقسيم أعلنت « الارجون » المنظمة الإرهابية الصهيونية « إننا سوف لا نقبل توصيات اللجنة الخاصة للأمم المتحدة وسوف نقاتل حتى نحصل على جميع حقوقنا » .

وبهذا عرف عرب فلسطين والدول العربية المجاورة كما عرف أعضاء المنظمة العالمية . ما ينبغى أن يكون واضحا لديهم جميعا حينما كان موقفهم « أن تاريخ الصهيونية السياسى يكشف أن الأهداف المعلنة صراحة من المتطرفين الصهيونيين هى ذاتها ما يقره المعتدلون منهم . ولكن الذى يختلف هو التوقيت والتاريخ » .

ولقد أصبح معروفا أنه فى شهر سبتمبر ذاته . أى قبل شهرين من الموافقة على مشروع التقسيم فى الأمم المتحدة وقبل ثمانية أشهر من تدخل الدول العربية . كانت الهاجاناه « الجيش السرى للوكالة اليهودية » قد وضعت خطتها لغزو المنطقة التى حددت لليهود فى المشروع .

وقبل ذلك بوقت طويل وفى يونيو سنة ١٩٤٥ كان ابن جوريون قد أتم جميع الترتيبات سرا فى نيويورك للحرب مع العرب حينما تغادر بريطانيا فلسطين ، وحصل على موافقة بمعدات حربية ثقيلة .

وفى سنة ١٩٤٧ ، وتحت اسم مستعار قام ضابط أمريكى يهودى برتبة كولونيل بتنظيم وتدريب قوات الهاجاناه وزودها بالإمدادات العسكرية الكافية .

ولقد كان من الوهم أن يقف « جود ماجنز » مدير الجامعة اليهودية فى القدس فى أكتوبر سنة ١٩٤٧ فيتحدث باسم أعلى قيم اليهودية مؤمنا أنها انتهكت على يد الصهيونية ويرفع صوته بأشد تحذير لشعبه لما يتسم به من روح العدوان والغزو .

وكان وهما أن يتذرع عرب فلسطين

فى الدفاع الذاتى عن وجودهم فى وطنهم بأنه مقاومة لدولة اليهود .

وكذلك فعل الانتداب البريطانى ، فإنه ـ كما وضح سابقا ـ قد حرمهم حق الدفاع عن النفس فضلا عن العدوان

كما قدم وثيقة جديدة للقانون العالمى الإيجابى (حل تقسيم فلسطين) والآن فقط قد سمح للفلسطينيين العرب بالدفاع عن النفس فى بلدهم ليرد عليهم بالعدوان وأخيرا جاء رد منظمة الأرجون على نفس الوثيقة بهذا التصريح (إن تقسيم أرض الوطن غير شرعى وسوف لا نعترف به ، إن توقيع المنظمات والأفراد لاتفاق التقسيم سوف لا يجبر الشعب اليهودى ولا يرتبط به ، إن القدس عاصمة إسرائيل وسوف نحتفظ بها بأكملها لشعب إسرائيل وإلى الأبد) .

وخلاصة الأمر أنه بعد أن قبل مشروع التقسيم فى الأمم المتحدة رأينا الوكالة اليهودية التى كان من المفروض أنها قبلت هذا المشروع وجدناها تدخل فى مفاوضات ومباحثات مع منظمات الأرجون التى عارضت المشروع فى صراحة ، وأخذت المناقشات وقتا طويلا ، بينما الاضطرابات والمعارك تنتشر فى البلاد .

وفى بداية أبريل سنة ١٩٤٨ ختمت المفاوضات باتفاق مفاجىء فى التاسع منه ، وقبل خمسة أسابيع من إعلان قيام دولة إسرائيل ، ومن تدخل الدول المجاورة .

وحدثت غارة (دير ياسين) . ودير ياسين كانت قرية عربية صغيرة منعزلة تقع فى نطاق القدس التى قرر مشروع التقسيم لها أن تكون دولية ، وفى منطقة لم يخطط لها المشروع أن تكون لليهود ، ولم يكن هناك أى هجوم أو مناوشة أو إثارة من جانب هذه القرية موجها ضد الصهيونيين .

على أية حال فقد كان أهل هذه القرية زهاء ٤٠٠ نسمة أكثر من ٣٠٠ نسمة منهم من النساء والأطفال وكان الرجال فى عملهم فى البلد أو فى الحقول فذبحوا وأريقت دماؤهم بالسكاكين ، القتال على يد عصابات الأرجون ، وبعد المذبحة عقد قادة الأرجون مؤتمرا صحفيا صرح فيه القائد بقوله : (إن لنا حق الفتح والغزو والاستيلاء) .

وأخذ اليهود مجموعة صغيرة من الفلاحين حملت على سيارة مصفحة فى وضح النهار وطيف بهم فى الحى اليهودى بالقدس ، وأمامهم اليهود وبصقوا عليهم ، وبعد ذلك أطلق سراحهم ، فنقلوا لمواطنيهم تجربتهم المريرة ورعبهم وفزعهم .

ثم عبرت بعد ذلك السلطات الرسمية للوكالة اليهودية عن استنكارها ، ومهما يكن فإن هذه الغارة قد نفذت واقترنت بزفة ، مع قائد الهاجناه المحلى الذى كان يرغب فى إنشاء مطار فى هذا المكان وتم الاتفاق على ذلك مع قائد الأرجون ؟

محمد حسام الدين

زمن الـورد ...

للأستاذ علي الجندي

كان الناس قديماً يرقبون زمن الورد رقبة الأعياد، ويحتفلون بحلوله، ويتحاضون على الاستمتاع بأيامه، والحرص كل الحرص على تملي السرور والبهجة فيه، وعيشه ساعة ساعة، عيشة عريضة عميقة كأنها آخر زادهم من الحياة!!

ومن أقوالهم في ذلك: الربيع شباب الزمان، ومقدمة الورد والريحان. زمن الورد موموق مرموق، وكأنه من الجنة مسروق. قد ورد كتاب الورد، بإقباله إلى أهل الود. إذا ورد الورد. صدر البرد، مرحباً بأشرف الزهر، في أظرف الدهر!!

وقد كانوا يضربون به المثل في الحسن والطيب، وفي قصر عمره أيضاً.

يقول أبو تمام في مدح أبي المغيث الرافقي:

ومن زمن ألبستنيه كأنه
ـ إذا ذكرت أيامه ـ زمن الورد

ويقول الصابي:

وزائرة لنا في كل حول
لها حظان من حسن وطيب
تنال النفس ـ حين تشم منها ـ
منال العين من وجه الحبيب
كأن زمانها نمتاض منه
ـ إذا طلعت ـ شباباً من مشيب

ويقول الرقاشي:

إذا أقبل الورد أهدى لنا
سروراً بأيامه مقتبل [1]

ويقول آخر:

سقى الله ورد أصار خد ربيعنا
فقد كان قبل اليوم ليس له خد

وزمن الورد هو شهر «نيسان» إبريل، و«أيار» مايو.

وفي نيسان يقول بعض المصريين:

وأهلا بنيسان تهفو الغصون
طراباً إلى لحن أطياره
ويهدي لنا الورد أنفاسه
إذا حل معقود أزراره

وفي أيار يقول أبو العلاء المعري:

تشتاق أيار نفوس الورى
وإنما الشوق إلى ورده

وقد قدر أيامه علي بن الجهم بخمسين يوما فقال:

زائر يهدي إلينا
نفسه في كل عام
حسن الوجه ذكي الريح
إلف المـــدام
عمره «خمسون» يوما
ثم يمضي بسلام

وقد وصف الثعالبي هذا الشعر بأنه مما يدخل على الأذن بغير إذن!!

---

(١) مقتبل كرتجل: مأخوذ من قولهم: رجل مقتبل الشباب لم يظهر فيه أثر كبر.

ويقول آخر :

اطرب إلى الورد فى أيام دولته
فالورد ضيف مليح فى زيارته
خمسين يوما توافى والنفوس إلى
رؤياه شيقة من طول غيبته

وبعضهم قدر زمانه بشهر واحد ، قال :

الورد ضيف فلا تهمل كرامته
فإنها طاقة كالنار تلتهب
سقياً له زائراً تحيا النفوس به
يجود بالوصل شهراً ثم يحتجب

وكان المتوكل العباسى لا يلبس أيام الورد إلا الثياب الموردة !!

وكان يفرش فى أيامه الفرش الموردة ، كما كان يورد الآلات !!

ورفع إلى الخليفة المأمون : أن حائكا يعمل السنة كلها ، لا يتبطل فى عيد ولا جمعة .

فإذا ظهر الورد طوى عمله !!

فإذا انقضى زمن الورد عاد إليه !!

فقال المأمون : لقد نظر إلى الورد بعين جليله ؛ فينبغى أن نعينه و نساعده على مروءته !

أما زمن الورد عند النساك والعباد وأهل التصوف ، فهو كما يقول الصوفى الأشهر : « إبراهيم الخواص » : إذا جاءت أيام الورد ، أمرضنى طلبى بكثرة من يعصى الله ـ تعالى ـ فيها !

ولكل شرعته ومنهاجه ونظره إلى الأشياء وسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله !!

وليس يعاب زمن الورد إلا بقصر مدته !!

يقول فى ذلك على بن الجهم :

ما أخطأ الورد منك لوناً
وطيب ريح ولا ملالا
أقام حتى إذا أنسنا
بقربه أسرع انتقالا

أخذه أبو سعيد الخالدى فقال :

أنت مثل الورد لوناً
ونسيما وملالا
زارنا حتى إذا ما
سرنا بالقرب زالا

ويقول أبو الحسن على بن أبى غالب الأندلسى :

وإذا ذكرت الورد فاعلم أنه
للنور أجمع فى الرياض منار
طيب لأنفاس النفوس ومنظر
للعين إلا أنه « غدار »

يريد بغدار : أنه قليل الإقامة .

ويقول بعض الشعراء :

الورد أحسن زائر لو لم تكن
تلك الزيارة ـ حين زار ـ لماما

ويقول الثعالبى : وعهدى بغير واحد من الفضلاء يستظرف قول ابن أبى البغل الشاعر :

تمتع من الورد القليل بقاؤه
فإنك لم يفجأك إلا فناؤه
وودعه بالتقبيل والشم والبكا
وداع حبيب بعد حول لقاؤه

ولأن الورد قليل البقاء فضل بعضهم عليه الآس ؛ لدوام خضرته وطول لبثه .

والآس ضرب من الريحان يضرب به المثل فى دوام الخضرة ، قال أبو حنيفة الدينورى : الآس بأرض العرب كثير ، ينبت فى السهل

والجبل ، وخضرته دائمة ، وهو ينمو حتى يكون شجرا عظاما ، وله زهرة بيضاء طيبة الريح ، وثمرة سوداء ، إذا أينعت تحلو ، وفيها مع ذلك علقمة ، وهو باليونانية « المرسين » .
يقول الأخيطل الأهوازي في مدح الآس :
للآس فضل بقائه ووفائه
ودوام نضرته على الأوقات
ويقول شاعر يفضله على الورد :
يقبل الورد حينه ثم يمضي
وإلى الآس نلتجي كل حين
إنما الآس للوداد أساس
وهو يبقى على ممر السنين
ويقول آخر :
الآس سيد أنوار الرياحين
في كل وقت وحين في البساتين
يبقى على الدهر لا تبلى نضارته
من المصيف ولا من برد « كانون »[1]
ويقول بعضهم :
الآس يبقى – وإن طال الزمان به –
والورد يفنى ولا يبقى على الزمن
ومن قول العباس الأحنف :
لا تجعلي وصلنا كالورد حين مضى
ذا قلعة وأديمي الود كالآس[2]
أخذه ابن زيدون فقال – يخاطب أبا حفص ابن برد الوزير الكاتب الأندلسي – :
لا يكن عهدك وردا
إن عهدي لك آس

وهو من تشبيه المعنوي بالحسي .
وقد كرره في موضع آخر فقال :
ولكنني شبهت بالورد عهدها
وليس يدوم الورد والآس دائم
ومن المحاورات الطريفة ما كتب به أبو دلف العجلي إلى عبد الله بن طاهر ، وهو :
أرى ودكم كالورد ليس بدائم
ولا خير فيمن لا يدوم له ود
وحبي لكم كالآس حسنا ونضرة
له زهرة تبقى إذا فني الورد
فأجابه ابن طاهر بقوله فكان كما قيل :
« إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا » :
وشبهت ودي الورد – وهو شبيهه –
وهل زهرة إلا وسيدها الورد
وودك كالآس أزور مذاقه
وليس له في الطيب قبل ولا بعد
وهو كلام دقيق المسلك لطيف المأخذ ، فقد استطاع صاحبه أن يبطل قضية مشهورة كانت مسلمة قبله ، ويحتج احتجاجا دقيقا لفضل الورد على الآس بصفات انتزعها من كليهما فتم له ذلك ، وهو أول من صنع هذا .
ومما يتصل بما نحن فيه : أن امرأة رأت في منامها : أن زوجها أعطاها طاقة ورد ! !
فذهبت إلى بعض مؤولي الأحلام ، فقال لها : إنه سيطلقك ! !
فقالت : ولم ذلك ؟
فقال : أما سمعت قول الشاعر :
ولكنني شبهت بالورد عهدها
وليس يدوم الورد والآس دائم
فكان الأمر كما قال ! !

علي الجندي

---

(١) كانون : شهر من الشهور السريانية وهو كانون الأول ، ويوافق من الشهور الرومية ديسمبر ، وكانون الثاني ويوافق يناير .
(٢) ذو قلعة – بضم فسكون – : كل ما لا يدوم .

طائفة البهرة

للأستاذ محيي الدين الألوائي

نشأتها وتطوراتها

كلمة بهرة أو «البوهرة» Bohra تطلق في اللغة الهندية «الكجراتية» على التجار، وهي لغة ولاية «كجرات» الواقعة في غربي شبه قارة الهندية قرب مدينة بومباي. أما الآن فلا تكاد تطلق إلا على جماعة من الشيعة الإمامية التي تتمسك بمعتقدات وتعاليم الفاطميين ويبلغ عدد أتباع الطائفة اليوم حوالي مليون ونصف مليون نسمة، وهم منتشرون في الهند وشرق إفريقيا واليمن والباكستان والشرق الأقصى وانجلترا، وتعتبر الهند مركزهم الرئيسي ومقر سلطانهم.

ويرجع تاريخ نشأة طائفة البهرة في الهند إلى تاريخ وصول دعوة الشيعة الإسماعيلية إليها في القرن الثالث الهجري، حيث أخذ أئمة الاسماعيلية في الاختفاء ونشر دعوتهم في طي الكتمان على أثر تضييق الخلفاء العباسيين على الشيعيين، فاتخذوا مدينة «سلمية» في الشام مركزاً لنشر دعوتهم وأرسلوا دعاتهم إلى بلاد اليمن والبحرين والهند ومصر والمغرب.

ويقال إن إمام طائفة الإسماعيلية المستعلية في اليمن قد بعث عالماً يدعى عبد الله الفارسي إلى الهند لينشر الدعوة الفاطمية فيها وبفضل نشاط هذا الداعية، نالت الدعوة نجاحاً في أرجاء شبه القارة الهندية، ثم هاجر إليها بعض أتباع الفاطميين من بلاد العرب ومصر واستوطنوا «كجرات»، واشتغلوا بالتجارة واشتهروا بها، ويقولون عن سر تفضيلهم التجارة: إنها أبعد المهن من مواقع الريبة ومواطن الظنة وأقربها إلى الكسب الحلال مع ما فيها من تيمن بالرسول عليه الصلاة والسلام، حيث كان يمارس مهنة التجارة قبل البعثة.

ويعتقد أتباع طائفة البهرة بإمامة إسماعيل ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبعد وفاة جعفر الصادق، الإمام السادس من طائفة الشيعة الإمامية انقسمت إلى قسمين: الإمامية الإسماعيلية (المذكورة)، والإمامية الموسوية القائلة بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع ولما مات إسماعيل في حياة أبيه حول أنصاره الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وصار عندهم الإمام السابع، بحجة كون اسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق، وعرفت هذه الطائفة بعد ذلك باسم «السبعية» لتميزهم عن طائفة الاثنا عشرية، الذين يسوقون الإمامة إلى محمد

ابن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم .

ويعتقد الشيعة الإمامية الاثنا عشرية أن محمداً « الإمام الثانى عشر » قد اختفى من الدنيا ولكنه سيظهر ويملأ الأرض عدلا ، ومن ثم سموه « الإمام المنتظر » .

وكان عبيد الله المهدى (٢٩٧ هـ ٩٠٩ م) مؤسس الدولة الفاطمية الأولى فى المغرب أول إمام ظهر على الأرض وجاهر بدعوته بعد أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم سراً من مدينة سلمية المذكورة وقد أسس عبيد الله المهدى الخلافة الفاطمية التى عرفت أيضا باسم دولة العبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدى ، كما عرفت باسم دولة الفاطميين ، أو الفواطم ، ثم صادفت الدعوة الفاطمية نجاحا كبيراً فى بلاد غرب وشمال إفريقيا ، ولقب المهدى « أمير المؤمنين » وفى عام ٣٤١ هـ . ولى المعز لدين الله ، الخلافة الفاطمية ، وأخذ يعد العدة لنشر دعوتهم فى مصر واتخاذها مقراً لخلافتهم ، وقد عهد المعز لدين الله إلى قائده جوهر الصقلى ليعد العدة لفتح مصر واستولى جوهر على الإسكندرية أولا ثم تابع سيره حتى وصل إلى الفسطاط فى عام ٣٥٨ هـ وبعد أن استولى جوهر على مصر وضع أساس مدينة القاهرة المعزية .

ثم نجح الفاطميون فى نشر الدعوة الإسماعيلية وبسط سلطانهم على اليمن وجزيرة العرب والشام وآسيا الصغرى ، كما نجح الفاطميون فى تأسيس دولة شاسعة الأرجاء وحضارة باهرة مشهورة بنظمها الإدارية وفنونها وعلومها ، وفى مقدمة معالم تلك الحضارة العظيمة التى خلفوها للعالم الإسلامى « الأزهر الشريف » . وقد أصبح الأزهر منذ إنشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى ومركز نشر الدعوة الإسماعيلية فى شتى أنحاء العالم وقد أسند الخلفاء الفاطميون رياسة الدعوة إلى موظف كبير يحمل لقب « داعى الدعاة » وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ، وربما يسند المنصبان إلى شخص واحد ، ويساعد داعى الدعاة فى نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا ، ويكون له نواب ينوبون عنه فى مختلف البلاد للإشراف على الدعوة الفاطمية ، وأخذ العهد على المتبعين المذهب الإسماعيلى بالتمسك بأصول عقائد الطائفة ، وتتلخص هذه العقائد فى : التصديق بما جاء فى القرآن ، والعمل به ظاهرا وباطنا ، والاعتراف بالأنبياء والرسل وعصمتهم ، وأن محمدا خاتم النبيين ، والقول بوصاية على وولاية الأئمة من ذريته . (١)

وممن تقلد منصب داعى الدعاة كبار علماء الفقه وأصوله للمذهب الشيعى ، وقد بلغت الدعوة الفاطمية ذروتها على يد الخليفة المعز لدين الله ، وقاضى قضاته أبى حنيفة النعمان المغربى ، وباب أبوابه جعفر بن منصور اليمنى ،

(١) القول بوصاية على . . الخ هو نقطة الخلاف بين السنة وهؤلاء الشيعة .

وبعد سقوط الدولة الفاطمية فى مصر عقب وفاة الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فيها عام ٥٦٧ هـ انتقلت زعامة الدعوة الفاطمية من مصر إلى اليمن . ولما اقتضت الظروف عزلة الإمام الواحد والعشرين من سلسلة أئمتهم اختار بنفسه خليفة له باسم « الداعى المطلق » لينوب عن الإمام المختفى فى الإشراف على أمور دينهم ودنياهم

وتعتقد طائفة البهرة بوجود إمام يعيش فى الخفاء ، وهو يتولى مركزه بالتوارث المباشر ابتداء من الإمام الواحد والعشرين ، ولا يخلو زمان من هؤلاء الأئمة المستترين ، بينما يقوم « الداعى المطلق » بالدعوة العلنية والإرشاد والإشراف الروحيين ، كما أنه مصدر سلطة يحتكم إليه أتباع الطائفة فى شئونهم ، وظل الداعى المطلق للطائفة يقيم باليمن حتى عام ٩٤٦ هـ (١٥٣٩ م) وبعد أن انتشرت الدعوة الفاطمية فى الهند وازداد عدد أتباعها واتسع نطاق نفوذهم فى شئون الطائفة تقرر أن يتحول مركز الداعى المطلق ومقر الدعوة الرئيسى إلى الهند نظرا للعلاقات التاريخية القديمة والوطيدة بين الهند واليمن ولكون الهند ملتقى الأديان والطوائف العديدة التى تعيش جنبا إلى جنب منذ مئات السنين وأملا فى وصول الدعوة إلى أسماع الطوائف المختلفة ، ومساعدة على انتشارها فى أرجاء شبه القارة وحواليها من بلدان الشرقيين : الأوسط والأقصى المتاخمة لقاعدة الدعوة فى الهند .

وهكذا انتقلت قاعدة الدعوة الفاطمية ، والمكاتب الرئيسية للفاطميين ومقر الداعى المطلق ، إلى الهنـــد فى عام ٩٤٦ هـ ، ومنذ ذلك الحين دخلت الدعوة فى دور جديد من التنظيم والتطور ، وبدأ الدعاة الذين تنتخبهم الطائفة يديرون الشئون الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية العامة المتصلة بأفراد الطائفة المنتشرين فى مختلف البلاد من مقرهم بأرض الهند ، وأصبح هذا الانتقال بمثابة تحول خطير فى تاريخ الدعوة الفاطمية المديد وصار الداعى المطلق الذى انتخبته الطائفة فى الهند ـ بعد انتقال مقر رياسة الدعوة إليها ـ هو الداعى الرابع والعشرين فى سلسلة الدعاة الفاطميين ، منذ عهد الإمام الواحد والعشرين المختفى باليمن فى عام ١١٣٢ م .

وتعتقد طائفة البهرة أنها دخلت فى مرحلة مليئة بالنهضة والتقدم فى الميادين العلمية ، والثقافية والتنظيمية منذ أن تولى منصب الداعى المطلق (١) الواحد والخمسين الدكتور « طاهر سيف الدين » فى عام ١٩١٥ م وقام بنشاط ملحوظ فى سبيل النهوض بالدعوة الفاطمية فى القرن العشرين ، وجمع ما توزع

(١) نلاحظ أن جماعة من البهرة خرجت على الدكتور طاهر سيف الدين ، ولا تعترف بزعامته الدينية ، وهم طائفة « البهرة السليمانية » وعددهم قليل واتخذوا مركزهم فى مدينة « برودا » بكجرات الهند ، وأما أتباع سيدنا طاهر سيف الدين فيعرفون الآن باسم : طائفة « البهرة الداوودية » ومركزهم بمدينة سورت فى كجرات .

من مخطوطات الفاطميين ونوادر حكمهم وعلومهم وفنونهم ونشرها فى مؤلفات ، أو أعاد طبعها أو أدرجها فى الكتب التى ألفها باللغة العربية نظما ونثرا ، وله نحو خمسين كتاباً ومؤلفا تتناول شتى مراحل تاريخ الدعوة الفاطمية وعلومها وفنونها ورجالها . وزار الدكتور طاهر سيف الدين القاهرة عام ١٩٣٧ م . وهو أول زعيم للفاطميين وفد إلى مصر بعد خروجهم منها قبل ثمانية قرون ، وقال مبينا هدف تلك الزيارة : إننى جئت إلى القاهرة لأجدد فيما بيننا وبينكم تلك الروابط الأصلية القديمة وأوطد صلات التوادد والتحابب .

وتعتبر طائفة البهرة جميع الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر من عهد المعز لدين الله أئمة لهم ، ولا يذكرون أحداً من هؤلاء الخلفاء إلا مقرونا بلقب « الإمام » ويتخذون مؤلفات الفقهاء الفاطميين مراجعهم الدينية الرئيسية والكتب المعتمدة عندهم فى المسائل الفقهية ، ومن أهم الكتب المعتبرة لدى البهرة فى الفقه ، كتاب : « دعائم الإسلام » لأبى حنيفة النعمان المغربى ، الذى يسميه الفاطميون « سيدنا القاضى النعمان » ليميزوا بينه وبين أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى ، ويعرف عندهم أيضا « بأبى حنيفة الشيعة » ، ومن مؤلفاته القيمة فى الفقه : « كتاب الطهارة » و « كتاب منهاج الفرائض » و « كتاب كيفية الصلاة » و « كتاب مختصر الإيضاح » وغيرها .

ومن كتبه فى العقائد : كتاب « الهمة » ، وكتاب « القصيدة المختارة » ، وفى السير والتاريخ : كتاب « الدعوة الزاهرة » (١) ، و « شرح الأخبار » و « أرجوزة ذات المحن » وفى الوعظ : « كتاب المجالس والمسايرات » وهو فى ثلاث مجلدات ويعد أحسن ما ألف فى وصف حياة الخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب ، ويتناول هـذا الكتاب أحكام الأئمة من أهل البيت ، ويرد على خصوم المذهب الفاطمى ، ويعطى صورة حية للأدب الفاطمى والعقائد الفاطمية .

ومن أهم المصادر لتاريخ الفاطمى كتاب « عيون الأخبار » لسيدنا إدريس عماد الدين الإمام التاسع عشر ، المتوفى سنة ٨٧٢ هـ ، ويوجد أقدم نسخ « عيون الأخبار » فى مكتبة طائفة البهرة بالهند ٢) . ويلقى هذا الكتاب ضوءاً على تاريخ مصر الفكرى والثقافى ، وعلى الخدمات التى قدمتها مصر فى العصر الفاطمى للعلم والدين ، وقد قدم سلطان البهرة الراحل الدكتور طاهر سيف الدين صورة فوتوغرافية لتلك النسخه الأثرية من « عيون الأخبار » إلى السيد جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، أثناء زيارته للهند فى عام ١٩٦٠ ، وأودعت هذه النسخة القيمة بدار الكتب المصرية ، وأثناء زيارة السلطان الراحل لمصر فى عام ١٩٣٧ قدمت إليه الحكومة المصرية

(١) هو من الكتب الخطية بمكتبة جامعة القاهرة
(٢) مكتبة الدكتور طاهر سيف الدين بمدينة بومباى .

قطعا ثمينة من المنسوجات الأثرية من عصر الفاطميين المحفوظة بدار الآثار المصرية ، وتتألف هذه الهدية الثمينة من ٣٩ قطعه أثرية وكل منها محفوظ فى غلاف من الزجاج فى مقر السلطان بمدينة بومباى ، وكذلك قدمت إليه الحكومة المصرية خلال تلك الزيارة بعض النقود الذهبية المتداولة فى عهد الفاطميين بمصر.

المؤيد الشيرازى

يعتبر (المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى) من أشهر فلاسفة الدعوة الفاطمية ، وقد أصبح داعى الدعاة فى سنة ٤٥١ ﻫ ، وكان بارعا فى العربية والفارسية ، وخلف كثيرا من الكتب التى تمد من أمهات كتب الدعوة الفاطمية ومصادر عقائد المذهب الفاطمى (١) . ومن أشهر كتبه (المجالس المؤيدية) و (ديوان المؤيد) و (المجالس المستنصرية) و (شرح المعاد) و (قصيدة الإسكندرية) و (كتاب أساس التأويل) و (كتاب الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير) و (المسألة والجواب) وقد انحدر المؤيد فى الدين من أسرة اتخذت التشيع لها دينا ، والفاطمية مذهبا . وتقلد رياسة الدعوة الفاطمية فى (شيراز) وفى عام ٤٣٩ﻫ رحل إلى مصر وقلده الخليفة المستنصر الفاطمى (ديوان الإنشاء) ثم تقلد منصب (داعى الدعاة) ، واستطاع بقوة حجته وبلاغته أن ينشر الدعوة الفاطمية فى كل بقعة نزل فيها .

جعفر بن منصور اليمنى

ومن أشهر فقهاء المذهب الفاطمى ، جعفر بن منصور اليمنى ، الذى اعتنق الدعوة الفاطمية ، وترك اليمن موطنه الأصلى ، وقصد بلاد المغرب فى سنة ٣٢٢ ﻫ . وكان جعفر بن منصور موضع تقدير لدى الخلفاء الفاطميين فى المغرب ومصر حتى تولى منصب (باب الأبواب) - وهو أعلى من رتبة قاضى القضاة - أيام المعز لدين الله الفاطمى . ومن أهم مؤلفاته : كتاب (تأويل الزكاة) و (كتاب الشواهد والبيان) و (كتاب النطقاء) ويعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى تصدت لبحث تاريخ فرق الشيعة بعد جعفر الصادق ، كالموسوية الاثنا عشرية ، والأبطحية المنتسبة إلى الأبطح بن جعفر الصادق، والمحمدية المنتسبة إلى محمد بن جعفر .

أصول عقائد البهرة :

تقتبس طائفة البهرة أصول عقائدها (١) من النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، صهر النبى عليه الصلاة والسلام وعن خلفائه من بعده ، الذين نشروا الدعوة فى المدينة المنورة أولا ثم بلاد المغرب بإفريقيا

(١) يوجد بمكتبة جامعة القاهرة مخطوط مصور لكتاب (السيرة المؤيدية) برقم ٢٦٠٥٦ .

(١) مقدمة كتاب دعوة الحق ، نشرته الجامعة السيفية بمدينة سورت بالهند ، عام ١٩٦٢ باللغة الإنجليزية ، عن تاريخ حياة الداعى الواحد والخمسين الدكتور طاهر سيف الدين .

ومصر واليمن . ونلخص أصول عقائدهم من مراجعهم ومصادرهم الرئيسية :

(١) توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك فيه نفيا باتا .

(٢) الاعتراف بالأنبياء والرسل وعصمتهم من كل خطأ وأن محمدا خاتم النبيين .

(٣) التصديق بما جاء في القرآن الكريم والعمل به ظاهرا وباطنا .

(٤) وجوب وجود إمام روحي في كل عصر لقيادة العالم وحمل معرفة الحقيقة إليه حتى لا يخلو من الهداة والمرشدين ، الذين يرشدون الناس إلى طريق الحق والصواب مباشرة ، أو في حالة تسترهم بواسطة الدعاة .

(٥) القول بوصاية على وولاية الأئمة من ذريته .

(٦) وجوب الأخذ عن الأئمة ، أو عن الدعاة الذين ينوبون عنهم في جميع أمور الدين والدنيا ، فيما لم يرد فيه النص من الكتاب والسنة .

(٧) وجوب الجهاد في سبيل نشر دين الله بكل ما يملكونه من مال ونفس ، حسب إرشاد الداعي المطلق ، والعمل لبث رسالة الإسلام والنهضة العلمية ، والتقدم الاقتصادي .

(٨) وجوب التمسك بالشعائر الإسلامية بكل دقة ـ حسب المذهب الفاطمي وفقهه ـ من الصلاة والزكاة ، والصوم ، والحج .

الميثاق :

إن أخذ (الميثاق) لخطوة هامة في حياة كل فرد من طائفة البهرة عند بلوغه الخامسة عشر من عمره ، ذكرا أو أنثى ، ويعتبر هذا الميثاق بمثابة عهـد ، يتعهد به كل معتنق لمبادىء البهرة ، بالتمسك بما جاء فيه من أصول عقائدهم ، وتعاليم مذهبهم . ويطلق عليه بعد ذلك (المؤمن البالغ) . وقد قال أحد الأئمة الفاطميين الذين تأخذ عنهم البهرة ، وهو الإمام المنتصر بالله الفاطمي : (واعلم أن موضوع الحكم الدينية على الأوامر والنواهي الشرعية كموضوع القوى الروحانية على الأشكال الجسمانية ، فمن أحسست منه فتورا في الشريعة فاعلم أنه سبة شنيعة على الشيعة ، وامح من ديوان أهل الاستجابة اسمه ، واقطع من مجالس الدعوة أثره) . وأن الدعاء الشائع عند البهرة ، والذي يوصى به دعاتهم دائما أتباعهم وغيرهم من المسلمين هو : « إهدنا الصراط المستقيم . ربنا آتنا في الدنيـا حسنة وفي الآخرة حسنة . وقنا عذاب النار . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب (١) .

معاهدهم العلمية :

وأحرزت طائفة البهرة في حياة الداعي الراحل الواحد والخمسين سيدنا طاهر سيف الدين تقدما ملحوظا لم يسبق له مثيل

---

(١) خطبة السيد : محمد برهان الدين داعي البهرة الحالي (٥٢) بالأزهر في مارس ١٩٦٦ .

خلال ثمانية قرون من تاريخ الدعاة الفاطميين ، فى المرافق التعليمية والاقتصادية والتنظيمية ، ومنذ أن تولى منصب « الداعى المطلق » فى عام ١٩١٥ م قام برحلات فى مراكز الطائفة فى الهند وخارجها لتنظيم شئون الدعوة ، وتم تحت زعامته بناء أكثر من ٣٥٠ مسجداً ونحو ٣٠٠ مدرسة خاصة بأتباعه . ومن المعاهد العلمية الكبيرة ، الجامعة السيفية ، والأكاديمية العربية ، بمدينة « سورت » بولاية « كجرات » وتعتبر الجامعة السيفية مركز التعليم المذهب الفاطمى فى العالم اليوم . ويفد إليه الطلاب من أبناء الطائفة من البلاد العربية والإفريقية والأوربية وغيرها .

وأقامت الطائفة معهداً عالياً للتعليم الفنى بمدينة بومباى وذلك فى عام ١٩٦٢ بمناسبة العيد الذهبى لتولى سيدنا طاهر سيف الدين منصب « الداعى المطلق » ، وكذلك أنشأت مؤسسة كبرى على طراز « مؤسسة فورد » للخدمات التعليمية والثقافيـــة والتعليمية وتشجيع البحوث . وللطائفة البهرة جمعية خاصة تعرف باسم « جمعية الشباب المسلم » ويرأسها نجل الداعى الراحل ، السيد خزيمة قطب الدين ، وهو شقيق السلطان محمد برهان الدين ، وللجمعية فروع فى أنحاء الهند ومختلف بلدان إفريقيا ، وتقوم بخدمات مشكورة فى سبيل نشر رسالتها واللغة العربية إلى جانب العناية بالرياضة البدنية والخدمات الاجتماعية .

إنعاش الفن الفاطمى :

تقوم طائفة البهرة بإنعاش الفن الفاطمى العربى فى العهد الحاضر ، فحينما جدد الداعى الواحد والخمسون لطائفة البهرة السلطان طاهر سيف الدين المسجد السيفى الملحق بالجامعة السيفية بمدينة سورت بالهند ، أمر بعمل محرابه على طراز محراب الجامع الأزهر الفاطمى ، فتم نقش ذلك المحراب من المرمر الأبيض على شكل المحراب الأزهرى المعزى القديم وكتبت الآيات القرآنية وأسماء الأئمة والدعاة الفاطميين على جدران المسجد بالخط الكوفى الذى كان مستعملا فى العصر الفاطمى . وجدير بالذكر أن الدكتور طاهر سيف الدين قد كتب بخط يده العبارة الآتية على قوس المحراب : « بسم الله الرحمن الرحيم قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، هذا المحراب مماثل لمحراب الجامع الأزهر ، ولقد كنت زرت القاهرة المعزية فى أوائل سنة ١٣٥٦ ألف وثلثمائة وست وخمسين بعد الحج وزيارة سيد المرسلين وتشرفت بالصلاة بالجماعة فى محراب الجامع الأزهر وقد كان بنى هذا المسجد ولى نعمتنا الداعى الأجل العلامة سيدنا أبو محمد عبد على سيف الدين ، ثم إنى جددت بناء هذا المسجد ووسعته وبنيت فوقه مسجد النسوان وفوق ذلك ثلاث منازل لدرس العلوم الحكمية والمعارف القدسية والأدب الفاطمى وغير ذلك من أفانين

العلوم ، ولقد اختيرت بناء هذا المحراب على صورة محراب الجامع الأزهر متيمنا بذلك المحراب الشريف حتى يدوم اتصال بركات الجامع الأزهر بسوارى فيوض مؤسسه الإمام المعز لدين الله إلى هذه الجامعة السيفية أبدا ، وهذه الجامعة كان أسسها سيدنا عبد على سيف الدين ثم إلى شيدتها بنشر فنون العلوم وتهذيب طلبة العلم بالأدب الفاطمى . حررت هذه العبارة وأنا مملوك آل محمد الفاطميين الطاهرين وداعيهم أبو محمد طاهر سيف الدين سنة ألف وثلاثمائة وثمانين هـ » .

السلطان برهان الدين :

ولد الداعى المطلق الثانى والخمسون لطائفة البهرة السلطان محمد برهان الدين فى ٦ مارس ١٩١٥ م أى بعد أربعين يوما كاملة من تولى والده المرحوم الدكتور طاهر سيف الدين منصب الداعى الواحد والخمسين .

ولما بلغ محمد برهان الدين سن الخامسة عشرة أخذ الميثاق ثم منح لقب « برهان الدين » وهو لقب يمنح لشخصيات بارزة فى سبيل هذه الدعوة ، وفى عام ١٩٣٠ م رشحه والده خلفا له لمنصب « الداعى المطلق » بعد وفاته .

وفى ١٢ نوفمبر ١٩٦٥ توفى السلطان طاهر سيف الدين بعد أن قاد الطائفة مدة خمسين عاما كاملة وهى أكبر مدة قضاها داع فى تاريخ الدعوة الفاطمية . وتولى من بعده زعامة الطائفة نجله وولى عهده محمد برهان الدين ، فأصبح « الداعى المطلق » رقم « ٥٢ » فى سلسلة الدعاة الفاطميين ، وقد قام السلطان محمد برهان الدين بزيارة للقاهرة فى مارس عام ١٩٦٦ لمشاهدة المقصورة الفضية التى أهداها والده إلى مقام سيدنا الحسين رضى الله عنه بالقاهرة فى أواخر عام ١٩٦٥ ، وأزاح عنها الستار رئيس الجمهورية العربية المتحدة السيد جمال عبد الناصر ، عقب صلاة عيد الفطر المبارك شوال ١٣٨٥ يناير ١٩٦٦ .

وفى ١٣ مارس ١٩٦٦ منحت جامعة الأزهر درجة العالمية (الدكتوراه) الفخرية السلطان محمد برهان الدين تكريما له ولوالده ولطائفة البهرة فى شخصه ، وتقديراً لخدمات الطائفة فى مختلف الميادين التعليمية والثقافية .

وقد وجه السلطان محمد برهان الدين الدعوة إلى فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد حسن الباقورى ، مدير جامعة الأزهر ، للتفضل بالحضور إلى الهند للاشتراك فى حفل التتويج الرسمى لعظمته (داعياً) للطائفة ، والوقوف على نشاطها فى نشر العلوم الإسلامية واللغة العربية فى الهند ، فتفضل سيادته بقبول هذه الدعوة رغبة منه فى الاطلاع على حياة الطائفة ونشاطها فى تلك البقاع ، ومساهمة فى مساعى التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وتوطيد ركن التعارف والتفاهم بين الجماعات الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ؟

محيى الدين الألوائى
المدرس بجامعة الأزهر

أثر الأزهر فى الحركات الشعبية

للدكتور ابراهيم على شعوط

– ٢ –

أمام صمود الأزهر لكل ألوان التحدى ، لم يجد نابليون بدا من مغادرة مصر راجعا إلى بلاده ، تاركا قائده « كليبر » يعمل على إخضاع المصريين لحكم فرنسا ، ولكن الأزهر الذى أجج الثورة ، وفجر براكين الغضب على المستعمرين الدخلاء ، لم يجد بدا من أن يحمل الخنجر بيده ليغمده فى صدر خليفة نابليون ، ويضع حدا لهذا الاستعمار الذى سخر بمقدرات المصريين ، وكان الذى يمثل الأزهر فى دور الخلاص الأخير هو الطالب الأزهرى « سليمان الحلبى » الذى قدم نفسه مختارا ليكون فداء لدار الإسلام التى دنستها أقدام الطغاة من أهل الصليب وأغلق الأزهر ليشهد مصرع الفتى سليمان الحلبى ، الذى لقى الله وهو يبتسم لرصاص الفرنسيين حين اخترق صدره بوحشية ليس لها نظير .

ورحل الفرنسيون عن مصر وهم يحسبون كل صيحة من الأزهر عليهم . وفتحت أبواب الأزهر لطلابه وعلمائه ليصنعوا من جديد المستقبل الكريم لهذه الأمة ، ويكونوا من النشء الجديد فتية آمنوا بربهم واقتنعوا بوطنهم ، واستعذبوا الموت فى سبيله .

لم تكد مصر تسترجع أنفاسها من الجهود التى بذلتها فى محاربة الفرنسيين ، حتى وجدت نفسها أمام مطمع جديد من الإنجليز فى الوطن العزيز ، فبعد مضى ست سنوات فوجىء المصريون بحملة « فريزر » تهاجم رشيد وتهدد البلاد كلها بالاستعمار والدمار .

وبدا علماء الأزهر هم الطليعة لقتال العدو وهم القذيفة التى تنطلق فى وجهه باسم الدين والوطنية ، وتولى السيد عمر مكرم زعامة حركة المقاومة ، وإقامة الاستحكامات ، وحفر الخنادق حول القاهرة ، يعمل بنفسه مع العاملين فى العاصمة فى الوقت الذى انتشر فيه علماء الأزهر وطلابه يجوبون القرى والمدن دعوة إلى الجهاد والقتال ضد الإنجليز .

وبهذا الجهود وتلك القيادة الأزهرية ، اضطرت الحملة الإنجليزية أن تغادر البلاد بعد الفشل الذريع الذى لقيته فى مصر من كافة الجماهير .

علماء الأزهر يفرضون رغبتهم فى تعيين الوالى :

ولما استقرت قيادة الشعب فى أيدى العلماء ، أصبح من حق الشعب عليهم أن

يختاروا لهم الحكام الذين يتوسمون فيهم العدل . وكان محمد على معروفا لدى علماء الأزهر بشجاعته وحبه للخير ، فقرروا أن يولوه على مصر ، بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير فى الناس سيرة حسنة ، ثم طلبوا من الخليفة العثمانى أن يوافقهم على اختيارهم لمحمد على ، فنزل الخليفة على رغبة العلماء .

وفى حفل بهيج اجتمع فيه العلماء بوصفهم ممثلين الأمة وألبسوا محمدا عليا خلعة الإمارة على مصر ، ولكن محمداً لم يحفظ هذه اليد للمصريين ، ولم يضمر الخير للعلماء الذين ولوه . فكانت بينه وبين السيد عمر مكرم وإخوانه العلماء عداوة صارخة أدت إلى نفى السيد عمر مكرم بعيدا عن القاهرة كما شرد باقى العلماء بأسلوب الخديعة والغدر وبقيت هذه العداوة فى صدر العلماء متأججة على أسرة محمد على ، يتحينون الفرصة للتخلص من حكمهم وتقويض عرشهم فلما كانت الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م وعلى رأسها الزعيم أحمد عرابى الذى تخرج فى الأزهر ، وأتم دراسته الحربية ، كان العلماء هم سنده الذى يسنده ويشد أزره ، فظهرت شخصيات أزهرية أمثال السيد عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية وزعيم الصحافة الحرة ، والشيخ محمد عبده المصلح الاجتماعى الكبير .

ومن خلال الأحداث فى الثورة العرابية وضح دور الأزهر ورجاله فيما قاموا به من أعمال جليلة ، وتمخضت الأحداث عن ثورة دينية عارمة ، مشى على هديها الأزهر واستضاء بنورها . ثم نضجت فى صدور الأزهريين معنى الجهاد الحق الذى عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائرة »

وحمل شباب الأزهر مشعل النور فى طريق القيادة الشعبية ، وأعلنوا حربهم ضد الحكام المستبدين ورؤسائهم الرجعيين ، فكانت الخطوة الأولى فى طريق الجهاد والتحرر إعلان الثورة ضد الشيخ محمد العباسى شيخ الإسلام والمطالبة بخلعه لأنه لم يستطع إصدار فتوى بوجوب الحكم الدستورى فى البلاد خوفا من بطش الخديوى توفيق ، وتم خلع الشيخ محمد العباسى من مشيخة الأزهر ، ونادى العلماء الأحرار بوجوب انتخاب شيخ جديد للسادة المالكية ، وفعلا انتخب الشيخ عليش وتولى رياسة السادة المالكية بالانتخاب لا بأمر من الخديوى كما جرت العادة ، واعتبر انتخاب الشيخ عليش الذى عرف بالصراحة التامة والوطنية الصادقة مظهرا من مظاهر قوة علماء الأزهر ورسوخ قدمهم فى الوطنية .

ولقد حقق الشيخ عليش أمل الأزهر

وطوائف الشعب فى كبار العلماء ، فأصدر فتوى سجلت قداسة الدين وعظمة الأزهريين ونصها : بما أن الخديوى قد حاول أن يبيع البلاد للأجانب وأطاع إشارات قناصل أوربا فإنه لم يعد يصلح لأن يكون واليا على المسلمين المصريين ويجب لذلك خلعه .

وصدق على هذه الفتوى جميع علماء الأزهر وأرسلوا بها الشيخ محمد خضير أحد العلماء الذين عرفوا بالجرأة ومعه عدد من الأعيان إلى درويش باشا ، الذى انتدبه الخديوى لمقابلة وفد العلماء والنظر فى العريضة التى يحملونها معهم وما فيها من فتوى العلماء بخلع الخديوى .

وكانت هذه العريضة موقعة من عشرة آلاف من علماء الأزهر وطلابه وتتضمن العريضة مطالب قومية ، وأهدافا وطنية تتلخص فيما يأتى :

أولا : رفض طلبات الدول بالتدخل فى شئون مصر السياسية والمالية .

ثانياً : خلع الخديوى الذى عجز عن تحقيق رغبات الشعب ومالأ الأجانب .

وكان من الطبيعى أن يستعمل ، درويش باشا ، كل أنواع الشدة مع العلماء ويلحق صنوف الأذى بالأزهريين ، وأحس الشعب بما يصنع علمائه ورجال الدين فى بلده فثارت الخواطر ، وعقدت اجتماعات ومؤتمرات وطنية فى القاهرة والإسكندرية ، وكان من أهم هذه الاجتماعات الاجتماع الذى عقد فى الأزهر على هيئة مؤتمر وطنى ، وتعاقب الخطباء فيه ، وعلى رأسهم السيد عبد الله النديم ، ثم قرر المجتمعون الاحتجاج على معاملة درويش باشا للعلماء وإبداء السخط على سياسة الحكومة ، وقد ترتب على هذه الحركة أن سحبت المقترحات الأوربية التى أثارت هذه الاضطرابات ، وعادت البعثة التى جاءت من أوروبا للحصول على موافقة الحكومة بعد أن واجهتها الأمة بهذا الموقف .

ولما فشلت الثورة العرابية التى كان علماء الأزهر يمدونها بالوقود كان من الطبيعى أن تصب عليهم اللعنات ، ويساموا كل أنواع العذاب .

وفى هذه الشدة ، وفى المواقف الحرجة . ظهرت بطولات أزهرية ، صورت مدى عمق الإيمان بالفكرة ، ومقدار الصبر على المكاره ، والشجاعة المنقطعة النظير من علماء الأزهر مع علمهم بأن حبال المشنقة تنتظر أعناقهم .

من هؤلاء : الشيخ ، حسن العدوى ، الذى وجهت إليه تهمة الاشتراك فى الفتوى بعزل الخديوى توفيق ، وهذه التهمة كفيلة بأن تؤدى إلى الإعدام ، فلما استدعى من السجن إلى المحكمة ، وسئل : هل أفتيت بعزل الخديوى ؟ قال : لم أفت ، ومع هذا :

إن جئتمو نى الآن بفتوى بذلك فإنى أوقعها لأنكم لا تستطيعون أن تذكروا أن الخديوى توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن .

فأى شجاعة هذه وأى إيمان لرجل فى موقف يتوقع فيه الحكم عليه بالإعدام ، ومع ذلك يؤثر الموت شهيدا على أن يكتم الشهادة وقد حكم عليه بتجريده من جميع رتبه وامتيازاته .

وهكذا أثبت الأزهر أنه جدير بأن يحمل المشعل فى يده ، والمدفع فى اليد الأخرى ليدك صروح الظلم ويردكيد البغاة المتجبرين .

ولما كانت ثورة سنة ١٩١٩ م كان العنصر الأزهرى هو عمادها وجوهرها ، فقائدها سعد زغلول ابن الأزهر ، الذى سواه خطيبا وأقامه زعيما ، فما كاد خبر هذه الثورة يصل إلى حلقات العلم فى الأزهر حتى تبناها وفتح صدره لإمدادها بالوقود واللهب ، واعتبر الشعب المصرى أن المهد الطبيعى لهذه الثورة هو الأزهر ، لأنه يعلم أن جميع ثورات مصر وفوراتها كانت تصدر عن الأزهر ، وتشتعل فيه ، ويتولى شيوخه الأفذاذ الإشراف عليها وتوجيهها إلى الغاية المرجوة .

وفجأة رأى الشعب بعينيه أن الأزهر بيت الله يشتعل حماسة ، وتتأجج فيه الوطنية المشبوبة ، وتلتقى فيه عشرات الألوف من القلوب الثائرة ، وأصبح رواد الأزهر يقصدونه فى أوقات النهار والليل فيجدون فيه منبرا وخطيبا ، يبعث بكلماته الضارية فى نفوس أبناء هذا الشعب جذوة الوطنية ، ويرسم لهم طريق البذل والتضحية والفداء .

وفى كل يوم تخرج الحشود الثائرة من الأزهر لتعلن استياءها من الاحتلال الإنجليزى وجيش الإنجليز يتعقب هذه الجموع بمدافعه الرشاشة ، يحصد بها أبناء الأزهر الذين خلت أيديهم من السلاح ، وفى كل شدة وفى معمعان كل ثورة يقدم الأزهر أبطالا آمنوا بربهم ، فاحتقروا الجيش الإنجليزى وسلاحه وراحوا يستقبلون رصاص المدافع بصدورهم ، ويذكر الشهود الذين شاهدوا هذه الثورة أن شابا أزهريا دفعته وطنيته إلى أن يحاول الهجوم على مدفع من مدافع الإنجليز ، فألقى بنفسه على حراس المدفع ، واغتصبه فعلا من الحراس ، ولكنه لم يكد يوجهه إليهم حتى أصابته رصاصة من بندقية أخرى فأردته قتيلا بعد أن سجل بطولة الأزهر والأزهريين .

وهكذا مضت ثورة ١٩١٩ م فى طريقها قوية جبارة ، يغذيها الأزهر ، ويفتح أمامها أبواب الأمل فى نصر حاسم وفوز أكيد ، وفى الوقت الذى كان فيه معظم حصاد المدافع الإنجليزية من الأزهريين كانت طلائع الأزهر فى كل مكان من الوطن المصرى ، يقطعون السكك الحديدية وخطوط التليفونات ، ويلقون القنابل على معسكرات العدو ،

ويشتركون فى اغتيال الإنجليز على غرة ، ويصيدونهم من الطرقات كما تصاد العصافير وظهر فى الشعب مجموعة من الوطنيين كانت هوايتهم الوحيدة هى قتل الإنجليز أينما كانوا .

قيادات أزهرية فى ثورة ١٩١٩ م :

هذه القيادات رشحتها مواهب مختلفة فنهم من رشحته موهبة الخطابة والتأثير فى الجماهير أمثال الشيخ أحمد يوسف الذى لم تعرف المنابر إلا القليلين من أمثاله فصاحة وقوة فى التعبير ، وفهما حقيقياً للثورة ، وإدراكا كاملا لمقتضياتها ، ونزوعا دائماً إلى الهاب عواطف العامة وشعور الجماهير ، ومنهم من رشحه مكانه فى الدرس والتوجيه أمثال المرحوم الشيخ مصطفى القاياتى الذى كان درسه فى الأزهر عبارة عن تدريب الشباب على اعتناق روح الفداء والتضحية ، ولهذا كان اسمه بارزاً فى كثير من المحاكمات الإنجليزية بتهمة التحريض على اغتيال الانجليز فى كل مكان .

الحكومة الأزهرية :

ولعل من أهم ما يلفت النظر فى ثورة سنة ١٩١٩ م أن علماء الأزهر الذين منهم الشيخ مصطفى القاياتى والشيخ محمود أبو العيون والشيخ على الزنكلونى ، والشيخ عبد ربه مفتاح ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، ألفوا حكومة مستقلة فى قلب القاهرة يخضع لمشيئتها الوطنيون ، ولا يعترفون بالحكومة الخاضعة لسلطان الإنجليز وقد أصبح الشيخ محمود أبو العيون حكمداراً للعاصمة ، وكان مقر منصبه ، مسجد المؤيد ، ومنه تصدر بين الحين والحين القرارات والتعليمات التى استقر عليها رأى حكومة مجلس الثورة الأزهرى ، فينقلها الناس وينفذونها فى رضا واطمئنان .

الفن الأزهرى فى الثورة :

لقد ألقى الأزهر بكل ثقله فى الثورة وسخر إمكانياته فى سبيلها ، فلما وجد أن الثورة وجدان ثائر وعواطف ملتهبة وأعصاب مشدودة أفسح للفن طريق وقدم الفنان سيد درويش أحد أبناء الأزهر أيضا فاندفع سيد درويش فى تيار الثورة الجارف بكل قوة فكانت أغانيه وأناشيده تزيد الثورة اشتعالا ، وتفعل فى الجماهير كما كانت تفعل كلمات أحمد سعيد فى معركة بور سعيد .

الأزهر فى العدوان الثلاثى :

كان للأزهر جهاد فجر به طاقات الشعب كلها وألهب بحماس النفوس حتى اشتعلت المعركة وارتفع لهيبها ، فأخذ الشعب يلتهم أعداءه من غير وعى كالأسد المسعور ، والأزهر من وراء المجاهدين ، يعطى الشباب شحنة الحماس ، ويحببهم فى الموت ويعرض عليهم منازل الشهداء عند ربهم ، حتى لم يبق رجل ولا امرأة ولا طفل إلا وقد بذل فى هذه المعركة جهداً مشكوراً .

تأثير ابن خلدون فى أسلوبنا المعاصر

للأستاذ محمد رجب البيومى

إذا قرأت كتابا أندلسيا وجدته يتحدث عن ابن خلدون علما من أعلام الفكر الأندلسى ، وإذا قرأت تاريخ الأدب المصرى فى عصر المماليك وجدت الحديث عن ابن خلدون قطبا من الأقطاب بوادى النيل ، وإذ ألممت بالحركة الفكرية فى المغرب شاهدت ابن خلدون قائدا من كبار قادتها فى تونس ؛

وذلك يؤكد منزلة هذا العملاق فى الفكر العربى ، وحرص كل قطر من الأقطار على فخر انتمائه ، ونحن هنا نتابع الأستاذ أحمد أمين فى عده أندلسيا ، لأنه كما قال فى ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٢٥ من أصل أندلسى بأشبيلية وهو وإن ولد فى تونس فقد درس على علماء أندلسيين ، وأقام بالأندلس زمنا

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

ولم يقتصر دور الأزهر فى الميدان الثلاثى على التعبئة الروحية والشحنات العاطفية بل إنه اشترك فى المعركة بكتيبة ضخمة من طلاب الأزهر المدربين على القتال .

ولقد كان لشعور السيد رئيس الجمهورية بمكانة الأزهر فى الثورات السياسية أثر كبير فى لجوئه إلى الأزهر ، وإرسال ندائه للعالم الإسلامى من منبر الأزهر ، فاستجابت لهذا النداء أمة العرب والإسلام .

دور الأزهر فى حرب اليمن :

فى اليمن كان للأزهر دور خطير فى دفع الشبهات والتهم الموجهة ضد الجمهورية العربية المتحدة التى كان ينشرها بين الشعب اليمنى خصومهم من الرجعيين وصنائع الاستعمار

وهى تهمة المروق من الدين والسير فى طريق الشيوعية . فكان العالم الأزهرى ببيانه وقوة إيمانه ، وتمكنه من المعرفة بالإسلام يقنع السامع ، ويحمل الشاهد على أن يبلغ الغائب أن رسالة الإسلام يحمل مسئوليتها الأزهر ، وقيادة العالم الإسلامى تضطلع بها الجمهورية العربية المتحدة .

وهكذا حتى وقر فى أذهان اليمنيين أن الأزهر حصن حصين للدين يقوم أركانه ويحمى حماه .

هذا هو الأزهر وهذا هو بلاؤه فى القيادة الشعبية حين تشتد الأزمات ، وينادى منادى الجهاد ؟

دكتور ابراهيم على شعوط
أستاذ التاريخ المساعد بجامعة الأزهر

من أحفل حياته ، فالأندلس به أولى وقد عاش بمصر غريبا فى زيه وطباعه ولهجته ، حتى إذا وقد مع علمائها على (تيمور لنك) قارن بينهم وبينه فى المظهر واللهجة ، ولولا مخالفته إياهم فى مرأى العين ما لفت نظر الطاغية التترى لأن الحديث كان جاريا عن طريق الترجمان ؛ وهو مما يؤكد أن الرجل لم يتمصر فيكسبه المشرق ؛ على أننا نتحدث عنه الآن لنبرز أثره القوى فى نهضة مصر الأدبية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولك أن تعجب معى كيف عاش ابن خلدون بالقاهرة ، وشرح العلم بالأزهر وتولى قضاء المالكية عدة مرات وتنقل فى شتى مدنها ليرعى شئون منصبه ، ويجنى حصاد أوقاته ثم لا يؤثر ذلك فى حياته تأثيرا ذا بال حتى إذا مضت القرون ، وأقبل عصر البعث كانت مقدمة ابن خلدون صاحبة التأثير الرنان فتضع للكتاب أسلوبا جديدا ، وللكتابة منهجا واضح الأغراض .

لقد سكت الأستاذ الكبير المغفور له الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذا للأدب العربى ثلاثين عاما بدار العلوم ، وهو فى كل عام من أعوامه الثلاثين يملى على طلابه هذه الفقرات من مذكرته الشهيرة عن الأدب العباسى .

«كان ابن خلدون أحد نوابغ العالم الذين عاشوا أفذاذا فى عصور مظلمة لم يصطدم فيها مشاكل ، أو تعرف قدرهم أمتهم ، فكانت حياتهم بين الأمة التى عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة ، فقد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره إلى الاهتداء إلى كثير من علل الحوادث التى تنتاب الاجتماع البشرى وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه ، حتى وقرت فى نفسه بصور قوانين عامة وأقيسة مطردة ، سال بها قلمه دون أن يفطن لها أهل قرنه ، ولم يكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع إلا بعد انقضاء عدة قرون .

ولم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها فى وقت أظهر منه فى العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية فى تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الأدبية والعربية والسياسية من كتاب العربية فى مصر والشام وتونس وخاصة من ألف منهم فى مثل موضــــوعاته أو كتب فى الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب ولأنه أرحب أسلوب أدنى على للنقلة والمترجمين عن اللغات الأجنبية المحافظين على أصل المعنى ، فهو الأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات فى نهضتنا الأخيرة » .

هذا ما قاله أستاذنا السكندرى ينقله عنه

تلميذه الباحث المفضال الأستاذ محمود رزق سليم فى المجلد السادس من موسوعته عن عصر المماليك ثم يقول تعقيبا عليه ص ٢٣٥ .

« ولا ريب فى أن أدباء النهضة تأثروا - إلى جانب ما تأثروا به - بآراء ابن خلدون ومنها آراؤه فى نثر معاصريه فكان لذلك أثر مضاعف جعلهم يتجهمون لأسلافهم وينظرون إليهم نظرة عابسة ، ويرمون أدبهم بالضعف والانحطاط ويتأبون على دراسته وإذا أخذوا فى دراسته أخذوا وآراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم فيدرسونها وبأقلامهم لوثة من هذه الآراء ، وبدهى أن تأتى النتيجة وفق مقدماتها ، والأحكام رهن مقوماتها » . وللدكتور على عبد الواحد وافى ملاحظة طريفة فى هذا المجال فقد رأى أن أخطاء ابن خلدون الأسلوبية فى المقدمة قد انتقلت أيضا إلى أقلام كتابنا وكأنها صواب لا يقبل التصحيح مما يدل على الثقة المفرطة فى مقدرته والولوع الهائم باحتذائه والدكتور يبسط بعض هذه الأخطاء حين يقول ص ٢٤٨ من كتابه عن ابن خلدون .

« ويلاحظ أن أسلوب ابن خلدون قد انتقل إلى كتابنا بجميع ما فيه حتى بأخطائه نفسها ، فمن ذلك مثلا التراكيب المخطئة الآتية : « لابد وأن » ، « لا يترك شيئاً إلا وأحصاه » ، « لم يقتصر على هذا بل وأخذ يعمل كيت وكيت » ، وهذه الشروط تتوفر فى ، « يوقفنا على كذا » ، « وهذا الأمر وإن كان كذا إلا أنه كيت وكيت » ، وإن كاتباً يقبل منه الخطأ ويحتذى دون مناقشة لذو سيطرة بعيدة النفوذ ! وإذا كان من المعقول أن تهمل صوابه دليل سبقه فإن من الطريف هنا أن يكون خطؤه كذلك يتضمن هذا الدليل » .

ولإيضاح تأثير المقدمة فى النهضة الأدبية المعاصرة . نذكر أنها طبعت لأول مرة بمصر سنة ١٨٥٧ م ، وكانت الأذهان إذ ذاك متطلعة إلى عهد جديد تلوح تباشيره فيما أعقب احتكاك مصر بالحضارة الأوروبية فى عصر إسماعيل ، ثم جاء جمال الدين الأفغانى لينشر أفكاره عن الاستقلال والحرية والكرامة ومحاربة الاستعمار والتجبر وحكم الفرد مما يؤدى إلى فساد العمران كما يقول ابن خلدون : وقد وجه الثائر الأفغانى تلاميذه إلى الكتابة السياسية فى محاربة الاستبداد والتجبر ، والنعى على الطغاة من المحتلين وصنائعهم من الحاكمين . فاتجه الأدب العربى من ناحية المضمون وجهة جديدة بعد أن كان مقصوراً على المراسلات الإخوانية والأوصاف الإنشائية التى تقف عند الظواهر التافهة دون أن تعمد إلى الدقة والتحليل ، وبدأ الأدب الاجتماعى المصلح والتفكير السياسى الثائر يأخذ طريقه إلى الأسماع مقلداً أسلوب ابن خلدون فى ترتيب

المقدمات واستخلاص النتائج ورصد الظواهر وتعليلها ؟ وإذا كان ابن خلدون قد تحدث فى مقدمته عن السياسة والملك وعاقبة الترف وأثر الظلم والاضطهاد وحكم الفرد وعمر الدولة وأسباب فنائها وتدميرها ، وبغى السلطان ورياء الحاشية فإنه بذلك قد أمد تلاميذ جمال الدين بأكثر ما يبتغون ، وأضاء أفكاراً صائبة فى الحرية تسيل بها الأقلام فى أنهار الصحف موقظة داعية ، فوجد دعاة الثورة سبيلا مقيداً للقول فأفرغوا حماستهم فى اتجاهه ، أما من ناحية الشكل فقد انطلق أسلوب ابن خلدون مسترسلا سمحا دون قيد بديعى أو حلية لفظية ، فقدم بذلك الأنموذج المختار لما يريده جمال الدين ، ومضى تلاميذه يحاكونه عذوبة واسترسالا ؟ فتحرروا من أوهاق السجع والازدواج ، وكسروا قيود الجناس والطباق ، وساعدهم على هذا النهج المتحرر ما يذكو فى صدورهم من لهيب الحرية والعزة إذ أن الجذوة الملتهبة التى أذكاها جمال الدين فى نفوس تلاميذه وهم صفوة الأدباء لعهده كانت أعظم من أن يخمد شرارها تحت رماد التكلف اللفظى والعبث البديعى ! وما بقى لدينا من آثار جمال الدين على عجمته قريب من منهج ابن خلدون على عروبته — فى السرد والاسترسال ! !

وإذا كان الأستاذ الامام محمد عبده أنبه تلاميذ الأفغانى ذكراً وأمحهم فكرة ، وأقومهم طريقة ، فسنتخذ من أسلوبه دليلا على تأثير ابن خلدون فى الحركة الأدبية لعهده إذا ننقل هنا أثرين موجزين من آثاره : أحدهما قد خطه الإمام فى مطلع شبابه قبل أن يقع على أسلوب المقدمة ، وثانيهما مما كتبه الأستاذ بعد أن نضج فكره واستوى على سوقه . وتفتحت عليه المقدمة الخلدونية من سداها الصائب ما أحكم نسجه وأوثق عراه .

كان شيخ محمد عبده — لأول عهده بالكتابة — ينشر مقالاته بجريدة الأهرام ، فيهتم بالمقدمات الطويلة ويتناول الأغراض الثانوية ، ويحرص على الصبغ البديعى لا يشذ عن طريقة معاصريه متأثراً بشاهيرهم فى التنميق والتلفيق كأن يقول فى موضوع عن الكتابة والقلم سنة ١٨٧٦ (ولما انتشر نوع الإنسان فى أقطار الأرض ، وبعد ما بينهم فى الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا إلى التخاطب فى شئونهم مع تنائى أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدى المرسل وما يعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ، بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول ، أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس

ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، فالتجئوا إلى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم) .

فما ترى فى أسلوب الشيخ غير أنه يعترك فى غير ميدان فيتحدث عن فضيلة الكتابة بالقلم كأنها من الخفاء بحيث ينبه عنها فى مقال سيار ، يتخذ له من الأسجاع حلى موشاة يظنها تحدث أقوى الرنين فى الأسماع . وأعمق التأثير فى النفوس ... لقد كان من حظ الأدب دون نزاع أن يعدل عن أسلوبه هذا غرضا وتعبيرا إلى أسلوب إصلاحى حى - يتحدث عن ظلم الرعاة وبغى الحاكمين - قريب من نهج ابن خلدون إذ يقول فى العدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها بباريس مع أستاذه جمال الدين : (إن الأمة ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ؛ وإنما هى خاضعة لحاكم واحد ، إرادته قانون ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ؛ فتلك أمة لا تثبت على حال واحدة ، ولا ينضبط لها سير فتعتورها السعادة والشقاء ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم ، فإن كان حاكمها أصيل الرأى على الهمة رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ورفع فيها شأن العلم . ومهد لها طريق اليسار والثروة ، وفتح لها أبوابا للتفنن فى الصنائع والحذق فى جميع لوازم الحياة ، وبعث فى أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلى بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة وإباء الضيم ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهية وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

وإن كان حاكمها جاهلا سيء الطبع سافل الهمة ، جبانا ضعيف الرأى أحمق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار فى سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبوابا للعدوان فيتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ويغلب اليأس فتمد إليها أنظار الطامعين . وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة ، عند ذلك إن كان فى الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها وأراد الله بها خيرا اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها ، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة فتميتها وينقطع الأمل من العلاج ؟

محمد رجب البيومى

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

— ٩ —

الروحية الحديثة والقرآن الكريم :

اتسعت الأبحاث الروحية ، وكثر أنصارها المؤمنون بها ، المدافعون عنها ، والناس في شأنها بين مصدق ، ومكذب . وبين مأخوذ بها ، وساخر منها .

فبينما نرى أحد المؤمنين — من رجالنا — يؤكد أن العلم الروحي قد أصبح علماً تجريبيا لا لبس فيه ، ولا غموض ، ونرى آخر — من علماء أوربا — يقرر بكل ما في وسعه من قوة أن التواصل بين الأحياء والموتى لا شك فيه ، وأنه هو في حالات كثيرة تحدث وناقش الموتى ، واستمع إلى أحاديثهم ونقاشهم مع من كانوا يحضرون معه ، وأن هؤلاء الموتى بالذات هم الذين طلبوا الحديث [1] ، ونرى — أيضاً — أحد أعضاء الجمعية الملكية البريطانية يعلن : إني أقول لكم بكل تأكيد : إني أعرف أن بعض أصدقائي المتوفين مازالوا موجودين لأني قد تكلمت معهم .

(١) على حافة العالم الأثيري . تأليف م . آرثر فندلاى ترجمة أحمد فهمي أبو الخير ص ٥٣ .

بينما نقرأ ذلك ، نقرأ لآخرين — وهم كثير — من كبار المفكرين ، أنهم يعدون كل هذه الأمور من المغناطيسية الحيوانية ، وتحريك الموائد ، وتحضير الأرواح ومناجاتها والتنويم المغناطيسي ، والتخاطب بالدقات والنقرات الروحانية ، والكشف ، وما إلى ذلك ، يعدونه من الخرافات الممقوتة ، والأوهام الخادعة وكلها ليست إلا نتيجة خطأ في الملاحظة يمتزج أحياناً بالتزوير المتعمد على عقل بسيط جائع للتصديق [1] .

ثم نرى فريقا ثالثا من الباحثين أيضا لا يصدق ولا يكذب . ومن هؤلاء المرحوم الأستاذ عباس العقاد الذي يرى أن حق الفكر الإنساني في قبول هذه الظواهر أرجح جداً من حقه في إنكارها ، فلا استحالة في ظاهرة من هذه الظواهر غير مستثنى منها النادر المستغرب بالغا ما بلغ من الندرة والغرابة في جميع الأزمان

ويؤكد ذلك في موضع آخر من كتاب (الله) فيقول : وما من حقيقة علمية إلا وهي تطوى في سجلها تاريخا طويلا من تواريخ

(١) كتاب (الله) للأستاذ العقاد ص ٤٢ بتصرف

الإحساس والرجاء والأمل فى الثبوت ، وإن تكررت دواعى الشك بل دواعى القنوط (١).

ويقول : ولا يشعر العالم اليوم أنه يعطى العلم حقه من الوقار حين يبتدىء بالإنكار فى هذا المجال أو يرجح الإنكار بغير دليل قاطع يقاوم أدلة التصديق فمن لم يقبلها من من العلماء لم يأنف من اعتبارها صالحة للقبول ، مع توافر الأدلة ، وتمحيص التجربة من الوهم ، وخطأ الملاحظة (٢) .

وهذا كلام جميل ، وهو أوسط كلام وأعدله فى مثل هذا الموضع ؛ فالمسألة ترجع فى كل شىء إلى قدوة الأدلة وضعفها .

غير أن الأساس الذى بنى عليه الروحانيون أبحاثهم لم يقم عليه - إلى الآن - أى دليل إلا الادعاء ، فهم يقولون : إن للإنسان جسمين ، أحدهما مادى هو الذى نراه ، والآخرى أثيرى لا يمكن لمسه ولا رؤيته ، وإن كان مادياً ملموساً بالنسبة للعوالم الروحية التى يعيش فيها .

والموت - عندهم - هو انفصال الجسم الأثيرى عن الجسم المادى ، ثم يوغلون فى الغرابة فيؤكدون أن الأجسام الأثيرية تعيش فى عالم كعالمنا تماما ، فيه كل ما فى عالمنا من مدارس وكليات ، وأن أصحاب الأعمال العظيمة فى هذه الحياة لا يزالون يواصلون البحث لإتمام أعمالهم هنا ... إلى آخر هذه المقالات .

وليس بحثنا هذا فى مدى صدق هذه الآراء ، وبعدها أو قربها من الحقيقة ، وإنما نبحث فى شىء خاص ، ذلك هو محاولة بعض المشتغلين بالأبحاث الروحية من المسلمين أن يربطوا بين هذه الأبحاث وبين القرآن الكريم .

وإذا كانت استنباطاتهم تستقيم فى بعض الأحايين فإنها تنحرف فى أحايين أخرى ، ونحن لا نحب لأحد أن يعتسف فى تأويل آيات القرآن بما يظن أنه المراد بهذا الرأى أو ذاك . فالقرآن عربى مبين ، هكذا أنزله الله تعالى على العرب بلغتهم ليفهموه ، وليعملوا بما فيه ، وقد فهموه ، وعمل منهم من عمل ، وما كلفهم الله إلا بما فهموه من معانى القرآن . فمحاولة التمحل فى تفسير آية من آياته لتدل على شىء خاص مما أظهرته هذه الأبحاث الروحية غير مأمونة العواقب ، وربما أدت إلى أن يوصف الباحث بأنه يقول على الله ما لم يقله سبحانه .

ولقد قرأت بعض ما أغرب به فريق من هؤلاء الباحثين فى تفسير بعض الآيات فما سرنى ما صنعوا .

وقبل أن أسوق أمثلة من هذه الإغرابات أحب أن أثبت هنا لمحة من لمحات المفسر الكبير فخر الدين الرازى ، أراها مناسبة كل المناسبة لما نحن بصدده الآن .

(١) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٢) نفس المصدر ٤٢ .

جاء فى تفسير قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » : القول الخامس ، إن نون ههنا آخر حروف (الرحمن) فإنه يجتمع من الرحمن (ن) اسم الرحمن - هكذا فذكر الله هذا الحرف الأخير من هذا الاسم ، والمقصود القسم بتمام هذا الاسم ، وهذا أيضا ضعيف ؛ لأن تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية » .

فالإمام الرازى يرد مثل هذا التفسير المتعسف خشية ان يفتح للناس ضروبا من الإغراب فى تفسير القرآن الكريم ، كما كان يفعل الباطنية ، فقد كانت لهم تأويلات ليس فى باب الغرابة والتكذيب أبعد منها ، فكانوا يفسرون القرآن على ما يؤيد معتقداتهم الفاسدة .

وقد كان الرازى دقيقاً ، ومحقا حين سمى تفسيراتهم (ترهات) .

ولكن الحق أن هذه التفسيرات التى لجأ إليها بعض من كتب من الباحثين الروحيين لم تكن - فيما أعتقد - عن قصد سيء ، وإن كانت بعيدة عن الحق ، وأخطر ما فيها أنها تدل على اتجاه غير محمود فى فهم كتابنا العزيز .

فينبغى أن يعلم أن الزج بالقرآن فى كل معترك يختصم فيه العلماء حول أبحاث لم تثبت بالدليل القاطع صحتها ليس مما يؤمن معه العثرات التى تجعل المؤول أو المفسر قائلا على الله بغير علم فهذه القوانين عرضة للتطور والتغيير ، وما لم يكن المراد واضحا فإن التمحل خطأ بين ، وانحراف لا ينبغى أن يقر لاتصاله بكتاب الله تعالى .

جاء فى بعض هذه الكتب(١) أن العلم الحديث أثبت أن لكل إنسان هالة أى جوا أو طيفا يحيط بجسمه ، ويتحرك معه ولا يراه . هذه الهالة تمتد حول الجسم بمقدار نصف المتر أو المتر فى الشخص العادى ، وتزيد عن ذلك كثيرا فى الشخص الموهوب .

ويقول الأرواح - كما يزعم الكاتب - إن موضع العقل الروحى يرتفع حوالى عشرين سنتيمترا فوق الرأس .

هذا كلام لا نصدقه ولا نكذبه ، ولا اعتراض لنا على من يقوله أو يعتقده ، ولكن الخطأ بعد ذلك فى ربط هذا الكلام بآيات القرآن .

فمؤلف الكتاب يقول : إنه يعتقد اعتقادا جازما أن هذه الهالة ما هى إلا جلد نورانى للإنسان هى الجلد الذى يشهد على صاحبه فى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، والذى جاء ذكره فى الكتب السماوية : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » .

وليس يشفع له فى ذلك أن يؤكد وجود هذه الهالة ، وأنها يمكن تصويرها بأجهزة خاصة ، والجلود كلمة معروفة فى لغة العرب ،

(١) كتاب (الروحية والدين) ص ١٠ ، ١١

والله خاطب العرب بهذه اللغة المعروفة لهم، فكيف ندعى أن للجلود معنى ليس فى هذه اللغة التى خوطبوا، وتحدوا بها. وأشد خطرا من ذلك أن الكاتب يقول: أنه يعتقد اعتقادا جازما أن هذا هو المراد، أى أنه يجزم بمراد الله تعالى.

ثم يستطرد فيرى أنه رأى العقل الروحى أى مركز الهالة قريبا من الرأس، وعلى هذا وجد تفسير الآيات القرآنية التى نزلت فى هذا المقام - مثلا - قوله تعالى: «وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

ونظرة واحدة من ملاك - يقول - تكشف له عن طبيعة الشخص الذى يتولاه «وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم» «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام»، «ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون».

فالسيما والكتاب إنما هى الهالة التى قالت بها الأرواح.

وفى بعض هذه الكتب (١) نقرأ أن سكان العالم الروحى الذين أفاقوا وأدركوا الحياة الروحية الصحية فى نشاط دائم، وأنهم مسخرون - مع أهل السماء - لمعاونة أهل الأرض، وأن الله سبحانه قرر عودة سكان السماء أى العوالم الروحية لأهل الأرض ومساعدتهم. يقول تعالى: «والسماء ذات الرجع».

هذا فهمه، وهذا تفسيره. فهو يريد أن يثبت النظريات الروحية بالاعتماد على قول الله تعالى، ولهم أن يروا أن الأرواح يعاون أهل الأرض فى ميادين مختلفة، ولكن ليس لهم أن يوهموا أن هذا الذى رآه (علمهم الحديث) هو مراد الله تعالى.

وللمفسريين فى كلمة (الرجع) ثلاثة تفسيرات: ذات الرجع أى ذات المطر، ورجع السماء إعطاء الخير الذى يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعا أى تعطيه مرة بعد مرة، والرجع هو رجعها شمسها وقمرها بعد مضيهما. وأكثر المفسرين على الرأى الأول.

ولكل إنسان أن يفهم آيات القرآن - فى حدود المعانى اللغوية - على ما يستطيع ذهنه أن يدركه، ولكن الخطأ أن يتخذ القرآن وسيلة لإثبات نظريات علمية ليست فى مدلولات ألفاظه، ولم يثبت العلم صحتها بعد.

وإذا كان يراد لهذه النظريات أن تروج بين المتدينين باتخاذ القرآن وسيلة من وسائل الترويج فهذا خطأ بين، وانحراف عن الجادة لا يقره مسلم.

كما نرى نفس المؤلف يردد ما قاله زميله عن (الهالة) ويزيد عليه أنه ورد فى القرآن

(١) الرسالة الروحية فى القرآن الكريم.

الكريم ذكر لهذه الهالة ووصفها الله سبحانه وتعالى بأنها نور ينبعث من المتقين : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

والأرواح تقول لهم : إن الهالة مقياس دقيق للصحة الروحية وإن فيها الألوان المختلفة من أسود إلى أحمر إلى قرمزى إلى أزرق ، وبالجملة فهى تدل رائيها على جميع صفات صاحبها من أخلاق وصحة وتاريخ أى أنها (صحيفة الأعمال)

ونحن لا نمنع أن تكون الأعمال نورا ، وأن يخلق الله نورا كهذا النور المعروف يسعى بين أيدى المؤمنين وبأيمانهم ، ولكن ألا يمكن أن تقول : إن هذا النور هو هذه (الهالة) التى أخبرت عنها الأرواح وخبر الأرواح عندنا وعند كثير لا يزال موضع شك .

ويعتسف هذا المؤلف فيمنع أن يكون المراد (برحمة الله) تخفيف الجزاء ، أو تكفير الخطايا . ولكنها عنده ما أرسله الله إلينا من رسالات سماوية توضح لنا الخير والشر ، وهى - كما يقول - ما حقق لنا من اتصال بعوالم الروح لنسترشد بها فيما ينفعنا فى مستقبل حياتنا الروحية .

وكيف نفسر مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة) ؟

وليست آيات القرآن هى وحدها التى استخدمت فى تأييد النظريات الروحية ، بل إنهم لجأوا أيضاً إلى الأحاديث النبوية .

فالأرواح أخبرتهم بأن الطفل الذى يغادر الأرض صغيراً ينمو حتى يستكمل رجولته أو أنوثته ، فإذا ما بلغ هذا الطور ظل كما هو رجلا كاملا ، تام النمو ، أو امرأة كاملة النمو وأن له هناك مدارس وكليات ويبحثون عما يؤيد ذلك فيجدونه فى قول النبى صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم ، وقد بلغ ثمانية عشر شهرا : (إن له لمرضعا فى الجنة) .

(وبعد) فنحن لا نريد أن ندخل فى بحث تفصيلى عن تفسير القرآن بالرأى أو استخدام القرآن فى إثبات النظريات العلمية ، أو فى الإشارة إليها ، وإنما نريد أن نقول : إنه لا ينبغى مطلقا أن نحاول اعتساف التأويل كلما عن لنا أو لغيرنا رأى جديد ظانين أن ذلك يخدم قضايانا أو يخدم القرآن .

فما لم يكن المراد واضحا ، يمكن فهمه على أسلوب من أساليب العرب فى كلامهم فإن ضرره أكثر من نفعه .

والله الهادى لأقوم طريق ؟

على العمارى

الجبال في القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي

— ٣ —

بقيت بعد آيات الجبال والقيامة وآيات الجبال في القصص القرآني آيات إحدى عشرة جاءت الجبال فيها بلفظها في عشر سور ست منها مكية هي : مريم والغاشية والنحل وإبراهيم والنبأ والنازعات ، وأربع منها مدنية هي الأحزاب والرعد والنور والحج مرتبة هكذا حسب ترتيبها في نزول الوحي بها .

وآية سورة مريم هي ثالثة الآيات الكريمة (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) .

وهي آيات قد تؤخذ على أنها من باب المبالغة عند من لا يفقه كيف يكون قول من ينسب الولد إلى الله سبحانه سببا يدني السموات من الانفطار ، والأرض من الانشقاق ، والجبال من الانهداد لكن المبالغة لا تكون إلا في كلام محدودي القدرة . ما يعجزون عنه أو يعلمون أنه لا يمكن أن يتحقق يقولون عند المبالغة : إنه تحقق أو كاد ، في ظرف من الظروف لأمر من الأمور . أما الحق سبحانه الذي لا يعجزه شيء والذي بيده أمر السموات والأرض فلا يمكن أن تكون هناك مبالغة فيما يخاطب به عباده ، إلا أن ترد على لسان بعض من يحكي عنهم القرآن من الإنس أو الجن أو الملائكة . وإذن فالآيات الكريمة الثلاث ليست من المبالغة في شيء وإنما تقرر حقيقة ، من الحق أن نسبة الولد إلى الله سبحانه هي من الشناعة ومن الإجرام في جنب الله بحيث تغضبه الغضب الذي لولا حلم الله سبحانه ولولا حكمته لعجل الله من أجله بالقيامة ليحاسبهم على ما يفترون إذ الأحداث الهائلة المذكورة في الآية الكريمة لن تقع إلا عند القيامة .

ونسبة تلك الأحداث إلى السما والأرض والجبال في الآية الكريمة هي من الإعجاز البلاغي ومن أدلة أن القرآن من عند الله إذ ليس يخطر ببال مخلوق أن يحكي عن السماء أنها تنفطر ، وعن الأرض أنها تنشق ، وعن الجبال أنها تهوي منهدة لقول يقوله فريق من عباد الله ينسبون به الولد إلى الله سبحانه

ولعل هذه الصيغة الإيجازية وخلوها من التصريح بأن الله هو فاعل ذلك كله لو كان ، لعل ذلك هو الذى ييسر حمل الآية على المبالغة عند بعض الناس لكن الآية لم تخل من إشارة إلى أن تلك الأجرام الهائلة من سماء وأرض وجبال ، لا تنفطر ولا تنشق ولا تهد من نفسها ، والإشارة هى أولا فى المصدر المنصوب على التمييز فى ختام الآية الكريمة (وتخر الجبال هدا) ، والهد هو الهدم الشديد ، كما فى القاموس ، والهدم لابد له من فاعل ، ولا يقدر على هدم الجبال وهدها إلا الله سبحانه ، وإذ قد ظهر أن أحد الأحداث الثلاثة المذكورة فى الآية الكريمة هو من فعل الله ، فالحدثان الآخران هما من فعله أيضا . يؤيد ذلك ويشير إليه الفعل المطاوع المسند إلى السماء وإلى الأرض لأن المطاوعة فى الفعل تقتضى فعلا متعديا يناسبه ، وليس يقدر على شق الأرض وتفطير السماء إلا الله سبحانه فانظر إلى هذا الإعجاز فى الإيجاز وفى المعنى .

وعجيبة عن الجبال فى الآية الكريمة ينبغى ألا تغيب عن تاليها المفكر فيها ، تلك هى أن الجبال قد ذكرت مع السموات والأرض على سواء ، فلا بد أن يكون فى الجبال من أسرار الخلق ومن الخصائص ما يجعل انهدادها جديراً أن يسلك مع تفطر السماء وانشقاق الأرض فى سلك خصوصا من حيث أثره فى حياة الناس .

وأسرار الخلق ، خلق الجبال ، قد أمرنا فى آية سورة الغاشية أن نتعرفها وننظر فيها نظر تأمل واعتبار ، والآية هى ثالثة الآيات الكريمة الآتية : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » . وهنا نلتقى بتلك العجيبة مرة أخرى عجيبة ذكر الجبال مع السماء والأرض على سواء ، وإن جاء ذكرها بعد ذكر السماء وقبل ذكر الأرض لما بين رفعة السماء وارتفاع الجبال من تناسب ، وما بين نصب الجبال وبسط الأرض من تقابل . والجبال جزء من الارض ، فأى سر ذاك وأية حكمة فى رفعها عن سطح الأرض؟ أو - إذا نظرنا إليها من الناحية المقابلة - أى سر ذاك وأية حكمة فى خفض سطح الأرض من سطح الجبال ، وفى خفض سطوح الجبال بعضها عن بعض أو فى رفع بعضها عن بعض كما نشاء أن نقول ! إن علوم الفلك وطبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية وما إليها من فروع العلم هى الكفيلة بالإجابة على ذلك وتبيانه لمن أراد التعمق ، وإلا ففى ما يعرفه الناس ، كل بقدر علمه وعقله ، ما يكفى للهداية إلى رب السماء والأرض والجبال .

ونستقرى بقية الآيات لنرى هل بينها

ما تحققت فيه أيضا تلك العجيبة ، عجيبة ذكر الجبال مع الأرض والسماء على سواء . فنجدها تحققت فى أربع آيات من التسع الباقية : مكيتين ومدنيتين - فى سورة النبأ والنازعات المكيتين ، وسورتى الأحزاب والحج المدنيتين .

أما المكيتان فالأولى هى « والجبال أوتادا » من قوله تعالى فى سورة النبأ : « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجا ... وبنينا فوقكم سبعا شداداً » .

والثانية هى « والجبال أرساها » من قوله تعالى فى سورة النازعات :

أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها » .

وأما المدنيتان فهما آية آخر سورة الأحزاب : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا » .

ثم الآية (١٨) من سورة الحج : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، الآية .

وفى هذه الآية ذكرت الشمس والقمر والنجوم بدلا من السماء ، وذكرت الجبال والشجر والدواب بدلا من الأرض ، مادام المقام مقام تعديد كل ما يسجد لله فى الكون أى كل ما يطيعه سبحانه تمام الطاعة وينقاد لحكمه أتم انقياد . لم يستثن من هذا الشمول إلا الناس ، فكثير منهم يسجد ويطيع ويلزم من هذا أن باقيهم لا يفعل ، فهو داخل فى الكثير الذى حق عليه العذاب . لكن هذا الكثير ليس مقصورا على الكافرين والعاصين من الناس بل يشمل الشياطين وعصاة الجن أيضا ، وإلا لدخل هؤلاء فى الساجدين المنقادين الذين دل عليهم الاسم الموصول للعاقل فى قوله تعالى : (ومن فى الأرض) ، وهذا غير معقول ولا مقبول ولا يمكن أن يكون هؤلاء مسكوتا عنهم مادام قوله تعالى : (وكثير حق عليه العذاب) يمكن أن يشملهم ويشمل العاصين والكافرين من الناس ، لتكون الآية الكريمة شاملة حكم كل مخلوق خلقه الله .

وآية سورة الحج هذه تبين النتيجة العلمية لما أخبرت به آية آخر سورة الأحزاب : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، الآية (٧٢) فإن الأمانة عند جمهور المفسرين فيما حكاه أبو حيان « كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دين ودنيا . والشرع كله أمانة ، فهى فيما يبدو

أمانة العقل والاختيار وما يتبعها فى الدين من التكاليف ومن الجزاء. فالسموات والأرض والجبال هابت أن توهب نعمة العقل والاختيار مقرونين بشرط التكليف والجزاء، بالمثوبة إن أطاعت والعقوبة إن عصت، وآثرت السلامة والعافية فى تمام الطاعة والانقياد لـ من الله فيها، خوفا وإشفاقا أن يضلها النظر والاختيار فتزيغ عن أمر الله فتتعرض لعذابه. أما الإنسان فقد قبل أن يحمل ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله، راجيا أن يقوى على أداء ما يكلفه الله به، عازما أن يطيع ولا يعصى، حتى إذا ابتلى بإبليس الذى لا يملك من فتنته إلا أن يوسوس إليه ويقترح عليه الكفر والمعصية بمجرد اقتراح ووسوسة لا يملك معها أن يجبره، وهو مع ذلك قد حذره أنه له عدو مبين - حتى إذا كان ذلك نسى العهد، وأهمل وأساء الاختيار، فكان ذلك منه سفها وجهلا وظلما لنفسه ولمن معه من الناس، اللهم إلا من أعطى الأمانة حقها فى الكثير الغالب، واستغفر الله وتاب إليه كلما خدعه الشيطان عن شئ من دينه فكان ممن قال الله فيهم: «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما» ولم يكن من الكثير الذين حق عليهم العذاب.

وواضح أن موضوع هاتين الآيتين المدنيتين غير موضوع الآيات المكية الأربع: آيات مريم والغاشية والنبأ والنازعات، وإن اتفقت كلها فى ذكر الجبال مع السموات والأرض أو السماء والأرض، على سواء.

والاختلاف بينها فى الموضوع كالاختلاف بينها فى البيئة التى نزلت فيها. فالبيئة المدنية غلب فيها الإسلام فلم تحتج إلى ما احتاجت إليه البيئة المشركة المكية من إقامة الدليل على الله من آيات الله الواضحة الظاهرة فى الكون، ومنها آياته فى السماء والأرض والجبال على النحو المتجلى فى آيات الغاشية والنبأ والنازعات، أما آية مريم فالمخاطب بها فيما يبدو من كان يغشى البيئة المكية من النصارى، والزجر الشديد الذى فيها وفى الآيات التى تليها، يذهب بما يوسوس به المستشرقون من النصارى من أن محمداً أخذ عن نصارى مكة أو بعض رهبان الشام شيئاً مما جاء به من الدين، لكن المهم فيما نحن بصدده أمران: أن ذكر الجبال على الخصوص وهى جزء من الأرض فى آيات ست ذكرت فيها السموات والأرض أو السماء والأرض دليل ليس بعده دليل على الأهمية القصوى للجبال من ناحية ما أودع الله فيها من أسرار الخلق الدالة على عظمة الله وقدرته وحكمته سبحانه، ومن ناحية عظم أثرها فى حياة الناس وحياة غيرهم مما على الأرض من

أحياء . وعلينا نحن معشر أهل القرآن أن نحيط بما عرفه العلم من ذلك ، ونكشف عما لم يعرفه وأشار إليه القرآن

هذا أمر . والأمر الثانى هو التنوع العجيب فيما ذكر عن السموات والأرض والجبال فى تلك الآيات .

فآية مريم لم تزد على ذكر السموات والأرض والجبال شيئاً من صفاتها أو خواصها ، لأن ما لها من الروعة فى النفوس يكفى فى الزجر الذى سيقت الآية من أجله .

وآيات الغاشية لفتت الناس من السماء إلى رفعتها كيف كانت ، ومن الجبال إلى ارتفاعها عن الأرض وتماسكها ، ومن الأرض إلى كيف سطحها الله حول الجبال .

وآيات النبأ لفت الله فيها الناس من الأرض إلى أنه سبحانه قد سطحها على وجه يجعلها صالحة للعيش عليها والراحة فيها كأنها مهاد للإنسان ، ولفتهم من الجبال إلى سر فيها لم يكشف الإنسان عن كنهه إلى الآن وأشار الله إلى مفتاح كشفه فشبهها بالأوتاد ثم لفتهم من السموات إلى عددها ، وإلى أنه سبحانه قد خلقها يشد بعضها بعضا شد البنيان بعضه بعضا ، بحيث لا تسقط علينا وهى فوقنا .

وآيات النازعات لفتت منكرى البعث من الناس إلى أن الله بناها — وفى الفعل بنى مفتاح سر إنفائها ولفتهم إلى عظم البعد بينها وبين الأرض ، وبين بعضها وبعض ، وإلى أن لها ليلا مظلما غير ليل الأرض ، وإلى أن الله أخرج ضوءها أى ضوء ما فيها من شمس ونجم لا بجرد ضوء شمسها كما يقول الزمخشرى وتبعه أبو حيان وغيره . والعلم قد أثبت أن نجومها شموس يتفجر الضوء منها بتفجر ذاتها كالذى يحدث فى التفجر النووى فى القنابل الأيدروجينية وما إليها ، بل أشد .

أما الأرض فقد لفتنا الله فى الآيات الثلاث المتعلقة بها إلى أنه سبحانه بسطها وأخرج منها الماء والمرعى بعد أن كان قد خلق السماء والأرض ، إذ خلق إحدهما يستلزم خلق الأخرى لما بينهما فى اللغة من تقابل . فهما خلقتا معا لا قبل ولا بعد بينهما كما تدل عليه آيات سورة فصلت . ثم لفتنا سبحانه إلى ارساء الجبال فى الأرض ، وهو أمر نرجو أن نتناوله بتبين هو ووتدية الجبال فى مقال إن شاء الله . ويكفى الآن التنبيه إلى ما فى الآيات الأربع المكية حسب ترتيب نزول الوحى بها ، من مثل رائع للترقى بالناس فى معارج النظر إلى آيات الله فى السماء والأرض والجبال حتى أن يهتدوا إلى خالقها سبحانه ؟

محمد أحمد الغمراوى

بحث نقدى: إنْ وإذا ...

للأستاذ كامل السيد شاهين

١ — رأى القدماء

قال الزمخشرى :

وللجهل بموقع إن وإذا يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب ، فيغلطون ، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع فى قوله يخاطب بعض الولاة ، وقد سأله حاجة فلم يقضها ، ثم شفع له فيها فقضاها :

ذممت ولم تحمد ، وأدركت حاجتى
تولى سواكم أجـرها واصطناعها
أبى لك كسب الحمـد رأى مقصر
ونفس أضاق الله بالخـير باعها
إذا هى حثته على الخـير مرة
عصاها ، وإن همت بشر أطاعها

فلو عكس لأصاب (١) . انتهى .

ومراده أن حق البلاغة يقضى على الشاعر أن يقول : (إن هى حثته على الخير مرة عصاها ، وإذا همت بشر أطاعها) ، فذاك هو العكس الذى يرى الزمخشرى أنه الصواب :

وإنما كان هو الصواب ، لأنه يرى كما يرى جمهرة البلاغيين أن (إن) للشك ، ومدخولها النزر القليل ، وأن (إذا) للتحقيق ، ومدخولها الكثير الفاشى

(١) الإيضاح ص ٩ مطبعة السعادة .

وما دام الشاعر يقصد إلى الهجاء ، فينبغى أن يكون الحث على الخير أمراً مشكوكا فيه ؛ فيكون الموقع لإن ، وأن يكون الهم بالشر أمراً مجزوما به ، فيكون الموقع لإذا :

فهذا تأويل قوله (لو عكس لأصاب) .

وهذا الأصل تسنده شواهد جمة .

فأما إن ، فنراها فى قوله سبحانه ، إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ، فإن إيتاء الصدقة لا جزم بإبدائه ، ولا جزم بإخفائه ، فكان المقام لإن .

وفى قول الحماسى ، وقد قتل قومه أخاه ، فبات لا يدرى أيثأر فيشتفى ، أم يعفو فيستبد به الغيظ والأسى :

قومى هم قتلوا - أميم - أخى
فإذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفون جللا
ولئن سطوت لأوهنن عظمى

فإن كلا من العفو والسطو أمر مشكوك فيه .

وأما إذا ، فنراها فى قوله سبحانه ، وإذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم

إلى المرافق » ، فقيام الذين آمنوا إلى الصلاة أمر محقق لا شك فيه ، فكان المقام لإذا .

وفى قول ابن عنقاء الفزارى يصف رجلا اسمه عميلة :

إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ذليل بلا ذل ، ولو شاء لانتصر

استعمل إذا ، لأن قول العوراء من أى قائل أمر مجزوم به .

• • •

وقد سبق إلى ذلك سيبويه ، قال فى الكتاب (١)

وسألته — يعنى الخليل — عن إذا ، ما منعهم أن يجازوا بها (٢) ، فقال : الفعل فى إذا بمنزلته فى إذ ، إذا قلت أتذكر إذتقول فإذا فيما يستقبل بمنزلة إذ فيما مضى .

ويبين هذا أن إذا تجىء وقتا معلوما ، ألا ترى أنك لو قلت آتيك إذا أحمر البسر كان حسنا ، ولو قلت آتيك إن أحمر البسر كان قبيحا ، ف (إن) أبداً مبهمة . وكذلك حروف الجزاء .

وقد شرح المبرد فى المقتضب معنى الإبهام فى حروف الجزاء (وهو يعنى بها جوازم الفعلين) ، فقال : (٣)

ألا ترى أنك إذا قلت : إن تأتنى آتك فأنت لا تدرى أيقع منه إتيان أم لا ، وكذلك من أتانى أتيته . فإن معناه إن يأتنى واحد من الناس آته .

فإذا قلت إذا أتيتنى آتك وجب أن يكون الإتيان معلوما .

ألا ترى إلى قوله عز وجل : (إذا السماء انفطرت . . إذا الشمس كورت . . إذا السماء انشقت) أن هذا واقع لا محالة .

ولا يجوز أن يكون فى موضع إذا (إن) ، لأن الله عزوجل يعلم ، و (إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر .

وقد عرض ابن الشجرى (١) فى أماليه للفرق بين إذا وإن ، بما لا يخرج فى مضمونه عما ذكره المبرد فى مقتضبه .

• • •

على هذا الأصل درج نحاة البصرة ، وذهبوا يتأولون ما خرج عليه ، وتلقاه البلاغيون من بعدهم بالقبول ، وتوسعوا فى التأول ، حتى إن الزمخشرى عندما عرض للآية الكريمة : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) ، ورأى أن مدخول إذا ، وهو مجىء الحسنة ، محقق ، بدليل (قالوا : لنا هذه) وأن مدخول إن ، وهو إصابة سيئة ، محقق كذلك ، بدليل (يطيروا بموسى ومن معه) ذهب يتأول ، فقال :

فإن قلت : كيف قيل (فإذا جاءتهم الحسنة) بإذا وتعريف الجنس (٢) ، (وإن تصبهم سيئة) بإن وتنكير السيئة ؟ .

(١) ج ١ ص ٤٣٣ .

(٢) مراده أن يجزموا بها ، وإلا فهى للمجازاة أيضا .

(٣) ج ١ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤

(١) ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) أنظر الإيضاح، ص ٩٠، ٩١، مطبعة السعادة .

قلت : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتساعه ، أما السيئة فلا تقع إلا فى الندرة، ولا يقع إلا شىء منها... انتهى كلامه .

ولما وجد البلاغيون أن السيئة فى الآية مقارنة لإن ، وأن الضر فى قوله تعالى: (وإذا مس الإنسان ضر) بمعنى السيئة فى الآية السابقة وقد اقترن بإذا ذهبوا إلى أن استعمال إذا ههنا نظرا إلى لفظ المس ، المفيد فى المقام التوبيخى أن مساس قدر يسير من الضر لأمثال هؤلاء حقه أن يكون فى حكم المقطوع به

وليت شعرى كيف يدافعون عن وجود (إن) مع لفظ المس فى قوله سبحانه (وإن مسه الشر فيئوس قنوط) ؟

وقد اعتبروا من أسباب استعمال إن فى المقطوع به، التجاهل، والتوبيخ، وتغليب غير المجزوم بوقوعه على المجزوم بوقوعه وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب متأخرة البلاغيين(١).

وإذا كان هذا مسلك البصريين فى التخريج والتمحل ، فإن مذهب الكوفيين كان أقرب إلى التسليم بخروج إن على أصلها ، واعتبارها بمعنى إذ ، أى أنها للتحقق فى الماضى ... وقد أجروا على هـذا الاعتبار آيا من الكتاب العزيز ، وطرفا من كلام العرب .

وقد بين ذلك صاحب الإنصاف (٢) ، فى قوله سبحانه : «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا» . لأنهم كانوا مرتابين فلا شك هناك ، وحيث لا شك فإن إن لا تكون شرطية لأن إن الشرطية لا بد أن يكون مدخولها مشكوكا فيه ، وحيث إن المعنى على تحقق ما بعدها فيما مضى ، وهذا المعنى هو مفاد إذ ، فقد وجب أن نصير إلى أن (إن) ههنا بمعنى إذ .

ومثله قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين» ، فدعاؤهم فى صدر الآية بعنوان الإيمان، يمنع أن يكون هناك شك فى إيمانهم فإن ههنا بمعنى إذ ، لتحقق إيمانهم فى الماضى .

وكذلك قوله عز وجل : «وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين» ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون المعنى - والله أعلم - إذ كنتم مؤمنين ، وإذ شاء الله) .

وقول الشاعر :

وسمعت حلفتها التى حلفت

إن كان سمعك غير ذى وقر

قال صاحب الإنصاف ، والشواهد على هذا النحو أكثر من أن تحصى . قلت : والذى طوع لهم هذا التخريج خلو الكلام من الجواب ومن دليله ، فصلحت (إذ) فى مكان (إن) دون إخلال بالمعنى .

ولكن كيف تقول الكوفية إذا جاءهم صريح الجواب ، كقوله سبحانه «وإن تؤمنوا

---

(١) انظر الإيضاح ص ٩١٤٩ مطبعة السعادة .

(٢) المسألة ٨٨ ، ص ٣٦٧ .

هجرة وجلاء

للأستاذ على الخطيب

ما كان خروج بنى إسرائيل من مصر هجرة . فما كانت مصر أرضهم ؛ إنما هى أرض استضافتهم حينا حتى قضى الله بخروجهم ، فكان أصدق وصف لهذا الخروج أن يسمى : جلاء .

لكن مكة وطن النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأحب الأرض إليه ، وهى أرض المهاجرين الأولين إلى الحبشة ، وأرض المهاجرين - قبل هجرته عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة ... وتلك حقيقة لا نزاع فيها ، ولذلك كان خروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة هجرة .

وهذا هو الفرق بين الهجرة والجلاء .

فى الأول رحيل « مالك » ، وفى الأخير رحيل « طارئ » .

وعلى ضوء الهجرة والجلاء يمكن أن نتبين صفات نفسية واضحة لعنصرين متمايزين من بنى الإنسان هما : العرب وبنو إسرائيل .

(البقية على الصفحة السابقة)

وتتقوا يؤتكم أجوركم » ... أو دليل الجواب كقول طرفة :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

حيث لا سبيل إلى تقدير إذ ، فما هى من حروف المجازاة :

• • •

وقد نقض البصريون أكثر ما جاء به الكوفيون من شواهد على اعتبار أن العرب تستعمل إن فى غير المشكوك فيه ، جريا على عادتهم فى إخراج كلامهم مخرج الشك وإن لم يكن هناك شك .

ويجرى هذا التأويل فى جميع الشواهد ماعدا قوله سبحانه : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » وقوله عليه الصلاة والسلام : (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، فمثل هذين محمول عندهم على أنه من باب التعليم والتأديب الذى ندب إليه القرآن الكريم .

• • •

وإذا قد انتهينا من بيان كلام القدماء من نحاة وبلاغيين ، فإننا نتبع ذلك - إن شاء الله تعالى - بما يعترض قاعدتهم ، ونختم بما نراه حقيقة مدلول الكلمتين والله المستعان ؟

كامل السيد شاهين

لقد كانت الهجرة صحبة مباركة بين محمد صلى الله عليه وسلم والصديق أبى بكر رضى الله عنه .

وكان الرحيل رفقة نافرة بين موسى صلوات الله وسلامه عليه وبين قومه بنى إسرائيل .

كان مع محمد صلى الله عليه وسلم عربى صديق يحفظ الرسول بنفسه وماله ... ويمهد له هجرة ميسرة لا تكون عبئا عليه ، ويجند له نفسه ، وآل بيته ، وطفلة تسعى فى الظلماء إلى غار « ثور » فلا تهيم فى نفسها أوهام الطفولة ، أو تردها مخاوف الطريق .

وكان مع موسى صلوات الله وسلامه عليه قومه بنو إسرائيل فآذوه بقارص الكلم ، وأليم التهم « فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » .

* * *

وخرج المهاجرون من قريش .. فرادى .. وجماعات ... يمرون بمحمد صلى الله عليه وسلم مودعين لا يسألونه شيئا أكثر من دعواته الباقيات الصالحات ، لا يلقون عليه كلالة ... وما أكثر وأغلى وأعز ما تركوا لكنه ـ بجانب دين الله ـ لا شىء ... وخرجوا يودعون مكة عن حب خالص ثم درجوا إلى الصحراء متجردين من مؤنة تخفف بها آلام الطريق وليس معهم إلا وعد الله بالنصر .

وجلا بنو إسرائيل من مصر جماعة ضخمة ... لا يتركون من أموالهم شيئاً ... خرجوا بأبقارهم وأغنامهم حتى العجين أخذوه قبل أن يختمر . . وليس هذا فقط .. فما أكثر ما نهبوا ـ كما يذكر العهد المتداول ـ من المصريين من أوانى الفضة والأمتعة وحلى الذهب (١) واعترافهم بذلك يجله القرآن الكريم « ... حملنا أوزاراً من زينة القوم » سلبوا ذلك كله ... ثم ضاقوا بموسى فى الطريق وعنتوا عنتاً لا يعترف بجلال الحق ولا بقداسة النبوة ، ولا بأدب الطاعة ، وفى هذا العهد جاء قولهم له :

« أخذتنا لنموت فى البرية .. ؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ... ؟ ... أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين : كف عنا فنخدم المصريين ، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية ... » .

وقال موسى : « ماذا أفعل بهذا الشعب ؟ بعد قليل يرجموننى ... » ، خروج ١٤ - ١١ ، ١٧ - ١٣ ، ١٤ .

والقرآن الكريم يصدق ذلك كله فيخبرنا عن قولهم لموسى : ـ « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » .

* * *

وحين صاح رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليعترض « النفير » : أشيروا على أيها الناس . قال سعد بن معاذ رضى الله عنه : والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا

(١) خروج ١٢ ـ ٣٤ إلى ٣٧ .

البحر لخضناه لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ... وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب ... صدق فى اللقاء . لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

أما القوم بنو إسرائيل فقالوا لموسى : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »

* * *

وكان الصديق رضى الله عنه مصاحبا لمحمد صلى الله عليه وسلم خير ولد آدم ، وقد علا القافة (قصاص الأثر) الأرض فوقهما وأقسموا لأهل مكة : والله ما جاز مطلوبكم هذا الغار !.

هنا حزن رضى الله عنه ، وطاف بفكره مصير دين الله بعد محمد ... ماذا يحدث لو أصيب عليه الصلاة والسلام بسوء ، واشتد حزنه على دين الله وعلى رسوله وكان — كما حدثت عائشة — رقيق القلب فذدت عيناه وقال للرسول : والله ما على نفسى أبكى ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره !.

وقد صدق رضى الله عنه ... فقد كان شعاره : احرص على الموت توهب لك الحياة واطمأن رضى الله عنه إذ قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تحزن إن الله معنا » .

وشتان بين الخوف ... والحزن ... هذا يعكس جبنا ... وذاك يبين عن شهامة ... وحب جارف لرسول الله وأمل فى سلامته.

وحين لحق فرعون وجنوده بنى إسرائيل طاف بنفوسهم رهب القتال فطارت قلوبهم شعاعا ونسوا موسى بل نسوا وعد الله وصاحوا به : « إنا لمدركون » .

ترى ماذا كان يحدث لو أن الله أراد أن يدركهم فرعون وجنوده ... ؟ .

ما كان بعيداً أن يتقدموا من الكليم عليه الصلاة والسلام فيوثقوه ويسلموه لفرعون ثم ليكن ما يكون . أليس أسوأ ما يكون أن يعودوا لخدمة المصريين .. وقد كانوا بها راضين .

وكان موسى عليه الصلاة والسلام مقتنعاً بنصر الله وحمايته له ولهم فقال : كلا ، إن معى ربى سيهدين » .

* * *

ولقد كانت عشر سنوات بعد الهجرة — هجرة محمد وأصحابه — كافية — بهذه النفوس العربية — لإتمام الفتح ونصر دين الله وإعلاء كلمته على ما سواه ، وترك الرسول عليه الصلاة والسلام قومه يستعدون لنشر الإسلام على أوسع نطاق فى الأرض من الشرق إلى الغرب .

وكافح موسى فى بداية قومه فما اهتدوا وما أن ترك البحر ورأوا قوما يعكفون على أصنام لهم حتى قالوا لموسى : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون » .

ولما طلب منهم القتال انفضوا من حوله فلم يملك إلا أن يجأر لربه قائلا : رب إنى

لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » .

وقضى موسى بعد الجلاء أربعين سنة فى قومه ـ لا عشرا كتلك التى قضاها المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ فما أطاعه بنو إسرائيل ، وما انتفعوا بدين الله ، وتناسوا ما استحفظوا من كتابه ثم ماتوا فاسقين . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » .

• • •

وفى هذا بيان لنفسية العرب . . . ونفسية بنى إسرائيل .

فى بنى إسرائيل جبن وذلة وحب للحياة على أى وجه تكون . . وليس بعد الله على ذلك شهيد قال تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » وقال سبحانه : يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » وسخر سبحانه من ادعائهم أنهم أكرم الخلق على الله : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

وما كانت هذه الصفات فى عربى :

فما أهون الحياة على نفسه . . وما أحقرها مطلبا فيحرص عليه . هو الشجاع حتى تعصم المروءة نكاله والعزيز النفس حتى تثنيه الشهامة ، والمستميت دفاعا حتى تتحقق الحرية .

تلك صفاته التى حفظها التاريخ فلا يعليها هوى ، ولا يدفع بها ملق .

أيها العرب فى كل مكان :

هؤلاء هم بنو إسرائيل ولأنتم « أشد رهبة فى صدورهم من الله » وإنهم ليخافونكم فى هلع ويخشونكم فى جزع ، والله يخبركم عنهم كيف يقاتلون

« لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ـ بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

هكذا أخبركم الله عنهم . وهكذا وجدتموهم داخل المستعمرات فى أرض فلسطين .

رسم الله لكم فى وضوح موقفهم من الحياة وموقفهم من القتال وموقفهم منكم . . . ألا هجرة إليهم تقذف بهم فى البحر أو تستأنف بهم « الرحيل » . . . الرحيل الأبدى الذى كتب عليهم . . . إن النصر ملك يمينكم ، وجند الله فى دروعكم ، والفداء الكريم فى نفوسكم ، ولن يخلفكم الله وعده ، ووالله لا بد من لقاء . . . لقاء فاصل أخبر عنه محمد صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح فقال :

لتقاتلن اليهود . . . حتى يقول الحجر : هذا يهودى ورائى فاقتله .

وسوف تنوء ظهور الذين يساندونهم ، وليس خلف هذا الظهور إلا البحر ، وليس أمامها إلا أنتم والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

على الخطيب

إلى أى مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

— ١٠ —

تحدثنا - فيما مضى - عن الأطوار التى مرت بها فريضة الصلاة وفريضة الصوم حتى استقرتا على ما عليه المسلمون - الآن - .

واليوم نتحدث عن فريضة الزكاة فنقول قال ابن حجر فى فتح البارى ج ٣ ص ١٧١ طبعة المطبعة الخيرية ما حاصله : أن العلماء اختلفوا فى أول فرض الزكاة ، فمنهم من قال : إنها فرضت قبل الهجرة ، ومنهم من يقول : إنها فرضت فى السنة الثانية من الهجرة قبل فرض صوم رمضان ، ونسب هذا القول للأكثر من العلماء ، وهو ما اختاره النووى فى الروضة ، ومنهم من قال : إنها فرضت فى السنة التاسعة ، وبه جزم ابن الأثير .

وحجة من قال بفرضها قبل الهجرة حديث السيدة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها فى قصة هجرتهم إلى الحبشة ، وفى هذا الحديث أن جعفرا رضى الله عنه قال للنجاشى - فى جملة ما أخبره به عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » .

وقد دلل ابن حجر على أنها فرضت بعد الهجرة قبل السنة التاسعة - وهو الرأى الذى يدافع عنه بما حاصله .

أولا بحديث أنس بن مالك فى وفادة ضمام ابن ثعلبة - وكان ذلك فى السنة الخامسة - وفى الحديث أن ضماما قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « أنشدك الله ، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا » ؟

وثانيا : أن الإجماع على أن فرض صيام رمضان كان بعد الهجرة ، لأن الآية التى أوجبت صيامه مدنية بالإجماع ، وقد ثبت عند الإمام أحمد وابن خزيمة والنسائى وابن ماجة والحاكم من حديث قيس بن سعد ابن عبادة قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة ، ثم نزلت فريضة الزكاة ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ، ونحن نفعله . فهذا دليل على أن فرضها بعد الهجرة وقبل السنة التاسعة .

ولم يذكر لنا دليلا يدل على أنها فرضت قبل رمضان مع أن هذا الحديث ظاهره يدل على عكس ما نسبه ابن حجر إلى الأكثر .

وأما حجة من قال : إنها فرضت فى السنة التاسعة - وهو ما جزم به ابن الأثير - فهو ما وقع فى قصة ثعلبة بن حاطب الذى نزل فى حقه « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » إلى آخر الآيات ؛ وفى هذه القصة أن حاطبا قال : ماهذه إلا جزية! ماهذه إلا أخت الجزية!

والجزية - كما يعرف المتتبع لتاريخ التشريع - شرعت فى السنة التاسعة حينما أنزلت سورة براءة - وتليت فى الحجة

التى كان أبو بكر رضى الله عنه أميرا فيها .

هذا ومن العجب أن يقع هذا الخلاف فى تاريخ تشريع الزكاة ، ومن المقطوع به أن الحديث عن الزكاة ورد فى نصوص كثيرة مكية تذكر على المثال لا الحصر ، يقول الله تعالى فى سورة (المؤمنون) - وهى بقينا مكية - «قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون» .

ويقول جل شأنه فى سورة الروم - وهى أيضا مكية - «وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» .

وفى سورة المعراج - وهى أيضا مكية : «إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم» .

والذى يظهر لى بعد تتبع الآيات والأحاديث الواردة فى هذا الباب أن أصل مشروعية الزكاة كان قبل الهجرة ، بل وفى أوائل سنى الرسالة ، كما نطق بذلك حديث السيدة أم سلمة رضى الله عنها ، ولكن تحديد النصب وتحديد القدر وبيان المصارف المعروفة كان بعد الهجرة وكان أمرها موكولا إلى الممولين .

وأمر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بجبايتها من أربابها وتوزيعها على مستحقيها كان فى السنة التاسعة فى قصة ثعلبة بن حاطب التى احتج بها ابن الأثير على رأيه ما يأتى :

وأنزل الله - جل ثناؤه : «خذ من أموالهم صدقة» (الآية) ونزلت فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة من المسلمين ، وقال لهما : «مرا بثعلبة ، وبفلان - رجل من سليم - فخذا صدقاتهما» فخرج حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قولته المشئومة : «ما هذه إلا جزية ! ما هذه إلا أخت الجزية ؟ ما أدرى ما هذا ؟» إلى آخر القصة .

والصلاة والزكاة والصوم التى عناها جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه فى حديثه للنجاشى ليست - هى - الصلوات الخمس ولا الزكاة المعلومة ذات النصب والمقادير المحددة والصوم ليس - هو - صوم رمضان بل هى صلوات وزكوات وصيام كان يتعبد بها المسلمون أولا ، فالصلوات الخمس - كما هو معلوم - فرضت ليلة الإسراء ، وهو بعد هجرة الحبشة ، والصوم - كما عرف - كان معروفا قبل الهجرة ، ولكن صوم رمضان هو الذى فرض بعد الهجرة ، وهذا ما حققته فى المقالين السابقين ، فليس هناك ما يمنع أن الزكاة كانت مفروضة قبل الهجرة - كما نطقت بذلك الآيات المكية ، ولكن كان لها نظام آخر ، لم يتعرض له المتتبعون للتشريع ؛ لأنه أصبح غير ذى موضوع ؛ ومما لا شك فيه أنه كان نظام مواساة بين أغنياء المسلمين وفقرائهم .

ثم إن حق الإمام فى جباية أموال الزكاة حق ثابت ، لا نزاع فيه سواء كان ذلك فى الأموال الظاهرة ، وهى السوائم والزروع ،

أو الأموال الباطنة ، وهى الذهب والفضة وعروض التجارة ؛ بدليل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» . والنص ـ وإن كان خطابا للرسول الأكرم ـ بوصفه إماما . فقد قال الخليفة الأول أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : «والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه» ، ففهم من النص عدم الخصوصية ، والصحابة قد أقروه على ذلك ، وهم أعلم بقرائن التنزيل التنزيل وأسرار التشريع .

وفى عهد الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه لما رأى العمال يتعنتون مع أرباب الأموال ، ويركبون الشطط لمعرفة أسرارهم المالية اكتفى بجباية زكاة الأموال الظاهرة التى يسهل معرفتها ، ووكل إلى أرباب الأموال أن يؤدوا زكاة الأموال الباطنة إلى مستحقيها .

وليس صنيع أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه تعطيلا للنص بالاجتهاد ، ولكن من حق ولى الأمر أن ينيب عنه من يقوم ببعض ما يجب عليه ممن يرى أن المصلحة تقتضى ذلك . والأغنياء ـ بقيامهم بإعطاء الزكاة إلى مستحقيها ـ وكلاء عن الإمام ، وإذا عرف أنهم لا يقومون بما وكلوا به كان من حقه ، بل من واجبه أن يجبيها منهم بالوسائل التى يراها محققة لغرض الشارع من تشريع الزكاة .

ومع هذا فإن عمل عثمان هذا ليس من قبيل تطور الأحكام بالنص ، وهو ما نتحدث عنه ـ الآن ـ بل هو من قبيل رعاية المصلحة فى تطبيق أحكام الشرع ، وهذا سيكون له موضع آخر سأتحدث عنه إن شاء الله تعالى فى بحث آخر .

وليس ـ أيضاً ـ من قبيل تطور الأحكام بالنص ما فعله عمر رضى الله عنه من منع المؤلفة قلوبهم من سهمهم فى الزكاة ، بل ـ كما ذكرت ـ فى مقدمة هذا البحث من قبيل تطبيق النص عند تحقق مناط الحكم ، والتوقف فى تطبيقه عند عدم تحقق المناط . وسنعود ـ بإذن الله تعالى ـ إلى تفصيل ذلك فى موضع آخر .

والخلاصة مما تقدم أن الزكاة شرعت ـ أولا ـ بمكة ، ولم تكن لها هذه القيود المعروفة والشروط المعلومة ، ثم شرعت بالمدينة فى أوائل الهجرة ، وقد بينت شروطها وأنصبتها ومقاديرها ثم جعل حق الجباية للرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولمن قام مقامه ، وعلى هذا استقر التشريع ، ولا يجوز لمسلم أن يحدث ـ فى تشريع الزكاة ـ شروطا لم يرد بها نص من كتاب الله أو سنة رسول الله ، أو يزيد أو ينقص فى أنصبة الزكاة أو قدرها ، أو يحدث مصارف غير التى وردت فى كتاب الله ؛ فهذه ـ كلها ـ أمور استقر عليها أمر التشريع إلى يوم القيامة ، كما لا يجوز جباية زكاة من أموال لم يوجب فيها الشرع جباية الزكاة .

وإلى مقال آخر نتحدث فيه عن الحج وما أصابه من تطور بحول الله ومشيئته ؟

بدر المتولى عبد الباسط

استدراك على كتاب "كشف الظنون"

للأستاذ عبد الرحمن أحمد شادى

ألف ملا كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة كتابه المشهور (كشف الظنون) عن أسامي الكتب والفنون ورتب فيه أسماء الكتب ترتيبا محكما ولعلماء اللغة الفضل الأول في هـــذا الترتيب الدقيق الذي تخضع له معاجمهم... ويسهل الكشف على طلاب البحث ومحبي العلم، وينجي المؤلف من التكرار.

وكشف الظنون معجم ضخم للمكتبة العربية في مدى ألف عام وزيادة، بذل فيه مؤلفه مجهوداً عظيما يستحق الحمد والثناء من جيل المؤلف ومن الأجيال التالية، أضاع فيه زهرة شبابه وأفنى أطيب عمره ليحفظ التراث العقلي والروحي لأمتنا خوفا عليه من الأحداث والنكبات والقارئ الحديث لكتب التراث يعجب لهذه الهمة التي بذلها أسلافنا في تأليف الكتب الضخمة وأسفارهم الطويلة في طلب العلم في وقت لم تكن الشهادات العالية والدرجات العلمية فيه من الحوافز والدوافع.

وكثير من شبابنا لا تدنو همته إلى الصبر على قراءة هذه الكتب، وهناك بون شاسع بين التأليف والقراءة، فقد اكتسحت الثقافة الخفيفة والأدب السطحي وقصص الإثارة الجنسية العقول والقلوب والأذهان، ومع تقديرنا لهمم المؤلفين القدامى التي تسامت إلى بذل هذا المجهود الذي يستغرق العمر ويستنفد الشباب، والذي التفت إليه المستشرقون قبلنا، وقدره المفتونون منا بالحضارات الأجنبية عنا تبعا لتقدير المستشرقين لا يمنعنا كل ذلك من الاستدراك على المؤلف فالكمال لله وحده.

اطلعت على الكتاب في طبعة ١٣١١ هـ. وهي في جزأين الأول من حرف الألف إلى حرف الراء ص ٥٩١ والثاني من حرف الزاي إلى الياء ص ٦٦٢.

(١) ولد المؤلف عام ١٠١٧، وتوفى عام ١٠٦٧ أو في العام التالي على التقدير الأقصى وقد ذكرت نصوص كثيرة في الكتاب تدل على (وفاة المؤلفين) غالبا أو (سنة التأليف) بعد السنة التي توفى فيها المؤلف وانتقل إلى رحمة ربه ١٠٦٨ هـ جـ ١ ص ٣٢٥ حاشية السيد عثمان آلات بازاري المتوفى بقبرس سنة ١١٠١ هـ، إحدى ومائة وألف وفرغ من تأليفها عام ١٠٨٤ هـ أربع وثمانين وألف.

جـ ١ ص ٤٢٨ توفى عثمان زاده بمصر سنة ١١٣٦ ست وثلاثين ومائة وألف.

---

(١) راجع البحث عن الكتاب والمؤلف في تراث الإنسانية المجلد الثالث ص ٤٠٤ إبراهيم الابياري.

جـ ١ ص ٤٢٤ شرح الشيخ الإسكندرانى المكى الضرير المالكى نزيل مكة المتوفى سنة ١١٤٤ هـ أربع وأربعين ومائة وألف وشرح الشيخ عثمان العريانى الكليس الراحل إلى مكة فى سنة ١١٦٨ ثمان وستين ومائة وألف للمجاورة بها .

جـ ١ ص ٤٥٩ « خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا » مجلد لأديب العصر شهاب الدين أحمد الخفاجى المصرى المتوفى ١٠٦٩ ترجمة لأدباء عصره .

جـ ١ ص ٤٧٣ « خلع الأنوار فى الصلاة على النبى المختار » للشيخ العارف أبى اليسر محمود بن محمد العنانى العمرى ألفه فى سنة ١٠٩٥ خمس وتسعين وألف .

جـ ١ ص ٤٧٩ « درر الكنوز لعبد الراجى أن يفوز » للشيخ حسن بن عمار بن على الشرنبلالى الحنفى المتوفى ١٠٦٩ تسع وستين وألف فى الفقه .

جـ ١ ص ٤٨٣ « درة التاج فى سيرة صاحب المعراج » كله الشاعر المشهور بنابى الزهاوى المتوفى ١١٢٤ هـ . أربع وعشرين ومائة وألف .

جـ ١ ص ٥١٤ ديوان صائب الملقب بمستعد خان التبريزى فارس من رجال هذا العصر توفى ١٠٨٧ سبع وثمانين وألف

جـ ٢ ص ١٩ سبع السيارة فى أخبار ملوك التتار مجموعة تركية للمولى الشريف محمد رضا النقيب السابق فى الدولة العثمانية المتوفى ١١٦٩ تسع وستين ومائة وألف .

جـ ٢ ص ٣١ ترجم شيخ الإسلام محمد أمين أفندى بن خليل الأسود المعروف بقرة خليل افندى المتوفى ١١٦٨ ثمان وستين ومائة وألف كتاب سلوان المطاع فى عدوان الطباع إلى التركية .

جـ ٢ ص ٢٤ وشرحه (والكلام على سنن ابن ماجـــة) الشيخ أبو الحسن السند بن عبد الهادى المدنى المتوفى ١١٣٩ تسع وثلاثين ومائة وألف .

جـ ٢ ص ٣٨ سياسة جند الوزارة وحراسة حصن الصدارة الشيخ حسن بن عبد الكريم بن محمد البرزنجى ١١٢٦ ست وعشرين ومائة وألف .

جـ ٢ ص ٦٤ وشرح الشفاء شهاب الدين أحمد الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ تسع وستين ومائة وألف وترجمه بالتركية شيخ الإسلام المولى إسحق بن شيخ الإسلام إسماعيل افندى المتوفى ١١٤٧ سبع وأربعين ومائة بعد الألف .

جـ ٢ ص ٦٦ تذييلات على كتاب الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ذيله السيد إبراهيم بن السيد عبد الباقى المدعو بابن العشاقى المتوفى سنة ١١٣٦ بأمر شيخ الإسلام فيض الله افندى المتوفى ١١١٥ هـ وبدأ المولى المذكور من ترجمة صاحب الذيل عطائى أفندى حتى وصل إلى سنة ١١١٢ وذيله الشيخ الفاضل محمد بن الشيخ حسن الفيضى المعروف بالشيخى المتوفى سنة ١١٤٥ .

جـ ٢ ص ٦٨ ترجم المولى أحمد بن خير الدين الاندبنى المشهور بخواجه إسحاق أفندى شمايل النبى إلى التركية وتوفى المترجم ١١٢٠ هـ ونظمه بالتركيـة مصطفى بن الحسين الحاج الأصل المشهور بمظلوم زاده على البحور الستة عشر وأتمه سنة ١١٥٨ .

جـ ٢ ص ٨٠ صكوك المولى محمد بن مصطفى المشهور بحاجب زاده المتوفى سنة ١١٠٠ مائة وألف .

جـ ٢ ص ٩٩ الطريقة المحمدية فى الموعظة شرحها محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حسن باللغة التركية شرحا حافلا سنة ١٠٨٠ وشرحها المولى محمد الزهرى القيصرى المتوفى سنة ١١٣٠ ثلاثون ومائة وألف وشرحها أحمد بن أبى بكر بن محمد بن رضوان العاقورى المعروف بالكشفى المتوفى سنة ١١٦٠ ستين ومائة وألف وشرحها عبد الغنى النابلسى الدمشقى المتوفى ١١٤٤ أربع وأربعين ومائة وألف وترجمها بالتركية اعتقاد الطريقـة الشيخ المعروف بالطريقتجى أمير أفنـدى السيد مصطفى ابن السيد عبدالله المتوفى ١١٦٠ الخ .

فهذه أمثلة من الكتاب وقد تركت الكثير غيرها إيثارا لعدم التطويل ، ولا يعقل أن يكتب حاجى خليفـة ذلك وهو حى رجما بالغيب ، وربما كان مصدر هـذه الأخطاء زيادات المذيلين على الكتاب ، وكان الأولى أن يفرق فى الطبعة بين الكتاب وبين حواشيه وذيوله وزياداته وتصويباته الخ . والجزم بذلك يستلزم الاطلاع على النسخ الخطية الأم التى كتبها المؤلف وعنها أخذت النسخ الأخرى الخطية ثم المطبوعة ، وهذا ليس بالميسور ، والمطلوب على كل حال أن تراعى هذه الأخطاء ، وأن تكون كل طبعة جديدة خيراً من سالفتها .

ومن المآخـذ الظاهرة فى الكتاب ترك المؤلف لكثير من الوفيات حتى بلغ هذا الترك أحيانا فى بعض الصفحات إلى صبع مرات فى الصفحة الواحدة .

وربما ذكر وفاة المؤلف فى مكان وتركها فى مكان آخر من الكتاب .

(١) وقـد اعتنى عربه جى باشـا إبراهيم ابن على المتوفى سنة ١١٩٠ بالاستدراك على هذا ، النقص بالذات وأضاف إلى الكتاب بعض الزيادات وقد صدرت طبعة المستشرق فلوجـل معتمدة على استدراك وتصويبات عربه جى باشا .

وقد تركت هـذا الموضوع الأخير لأنى سبقت إليـه ، وكانت عناوين الكتب محلا للعناية والرعاية فطغى عليها السجع حتى عند من تحرروا منه داخل كتبهم ، وظل هذا الطغيان أمداً طويلا ، حتى ضاعت معالمه فى النهضة الأدبية الحديثة .

وتحرر منه المؤلفون داخـــل الكتاب وفى العنوان .

وعلى الله قصد السبيل ؟

عبد الرحمن أحمد شادى

---

(١) تراث الإنسانية المجلد الثالث ص ٤١٢ إبراهيم الابيارى .

أميرُ الكُويْتِ الرّاحِل

للأستاذ حسن جاد

أقامت جامعة الأزهر حفل تأبين للمغفور له سمو الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت الراحل . وذلك فى تمام الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شوال ١٣٨٥ الموافق ١٥ من فبراير ١٩٦٦ بقاعة الشيخ محمد عبده بمقر الجامعة فى حى الأزهر .

ومن الكلمات التى قيلت فيه قصيدة الشاعر : حسن جاد الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية جاء فيها :

ساجع أرق الليالى نواحه ... خضبت دوحة (الكويت) جراحه

جرد الساق بالخيل المسجى ... وارتمى فوقه مهيضا جناحه

موحش ينفض الخريف عليه ... عصف أوراقه ، وتهوى رياحه

راح عن روضة الربيع المرجى ... فشجاه غيابه ورواحه

إيه يا روض هل شهدت طريحا ... خنقت عذب شدوه أتراحه

كم شدا بالأفراح فوق روابيك ، ... وروت ظماءها أفراحه

هزنى خطبه وهاج شجونى ... وأنا شاعر الأسى صداحه

عربى أنا ، بكاء بكائى ... وسلاحى على الخطوب سلاحه

وطن العرب واحد يتلاقى ... من أقاصيه سقمه وصحاحه

وإذا ريع منه ركن تداعت ... لأساه هضابه وبطاحه

إنما مصر للكويت شقيق ... ضج فى سمعه الشجى صياحه

روعت فلكه العواصف حتى ... غاب فى لجة الردى ملاحه

ولغشته وجمة جلل الأفق دجاها فاسود منها وشاحه

مات (عبد الله الصباح) وولى ... فصحا ليله ونام صباحه

من يصد المنون أو يتقيه ... إن عدا ريبه وند جماحه
هو ساق ، كل الأنام نداماه ، سواء قباحه وملاحه
دائر الكأس ما تخطى نديما ... مذ أديرت مريرة أقداحه
نحن أبناؤه ، فيالك من ساق لأبنائه تشعشع راحه
إنما هذه الحياة سراب ... ضل من غره بها لماحه
غربة يغتدى إليها البرايا ... ولكل بعد الغدو مراحه
وقيود للروح لابد أن يطلق يوما من سجنهن سراحه
وغد غيبه المحجب عنا ... بيد الله وحده مفتاحه
زفرة بين أن نموت ونحيا ... عش كريما بها عزيزاً طماحه

* * *

رحل العامل الذى صان ملكا ... شاد مغناه عزمه وكفاحه
وبنى مجده ، ولم يأل حتى ... عمرت بالرخاء والعلم ساحه
ورعى الله فى غناه فلم يبطر ... ولم يأتشب بظلم ضراحه
أويحى السخاء ما فارقته ... بسمة البذل أو عداه ارتياحه
كم حبا العلم جوده ونداه ... وحمى الدين بره وصلاحه
فإذا الأسود الدفوق نضار ... شع فى غمرة الدجى مصباحه
قوة الحاكمين مال وعدل ... إن أتيحا الشعب تم فلاحه

* * *

عرف الأزهر الوفى له الفضل ، وقد هز جانبيه سماحه
نفحات له توالى نداها ... عاطراً كالشذا توالى نفاحه
وهبات لنهضة الدين والعلم حبتها الأزهريين راحه
وأقامت للأزهريات حصنا ... عصم الدين بيضه ورماحه
قدوة أكبرت رسالته الكبرى ، لمن ضاق بالعطاء شحاحه
واحتساب لله ، لا لرياء ... تترضى غروره أمداحه

إنما المال للغنى امتحان   فيه خسرانه وفيه رباحه

* * *

إيه آل الصباح ما ضل شعب   أنتمو في سمائه أصباحه

كلما مال للغروب صباح   لاح منكم صبح يشع لياحه

فخذوا الراحل الكريم مثالا   رائع النهج يحتذى إصلاحه

واحفظوا نعمة الإله بشكر   عاطر يغمر الحمى فواحه

واذكروا الأزهر الذي فرع النجم ذراه وأعرقت أدواحه

لم يزل يقهر النوائب حتى   أعجز الدهر سبقه ونجاحه

قبس ما خبا سناه اسار   ومعين لم يمنه نزاحه

وابذلوا للنهوض بالدين والعلم ، ففى أرضكم يفيض متاحه

مال بالنفط نبعها لحاكم   لا لعاد على الحمى يمتاحه

إن أوطانكم أحق وأولى   من غريب يجبى له مستباحه

أشعلوه على يهود جحيما   وانفثوه صواعقا تجتاحه

لفلسطين في العروبة ذنب   كل أبنائها عليهم جناحه

ولشعب الجنوب حق علينا   تقتضيه دماؤه وجراحه

جرحه جرحنا ، وما غاب عنا   ما جناه بأرضه سفاحه

* * *

يا بني السالم الصباح سلمتم   وصفا وردكم وطاب قراحه

الصباح الجديد أشرق فيكم   فجلا غيمة الأسى وضاحه

وعلى أرضكم أطل سناه   فأدالت أحزانكم أفراحه

حسبكم في العزاء أن خلف الراحل منكم من لا يفل سلاحه

ماهل من بني الصباح عريق   تفتديه من شعبه أرواحه

حسن جاد
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

في المجتمع الغربي

للأستاذ احمد عبد الواحد ابراهيم

— ١ —

الجنس الموحد :

(نيوزويك ١٤ فبراير سنة ١٩٦٦)

« برز جنس موحد ، طبقة جديدة غريبة من المراهقين المتخنثين ، وقد صاحب الجنس الموحد موجة من حالات الخطأ في معرفة شخصياتهم بين الآباء والمدرسين وكتبة المحلات التجارية والخدم ورجال البوليس ، حتى فيما بين أنفسهم أحيانا ، وقد قالت إحدى الفتيات : « إن الفتيان الذين أعرفهم يلبسون زيا أكثر تأنثا من الفتيات اللاتي أعرفهن » .

ومعظم المراهقين يرفضون بعنف فكرة أن اللوثة السائدة في الفروق الجنسية أعمق من المظاهر الخارجية ، وقد قال أحد الذكور من ذوي الشعور الطويلة : « أنا لا أرى شيئا أنثويا في هذا ، إنني ألبس وأتصرف بالطريقة التي أحبها ، وأعرف أنني ذكر ، وحتى إذا كانت هناك فتاة صلعاء فإني أعرف أنها بنت » .

جنون الشباب الصاخب (الخنافس) :

وفي محاولة علماء النفس والأطباء النفسيين لتفسير الجنس الموحد فإنهم يعودون — مع بعض التردد — إلى جماعات (الموسيقى المفرقعة) وفي دراسة للغموض الجنسي بين الكبار نشر أحد الأطباء النفسيين كتابا بعنوان (الأجناس المختفية) تناول فيها التأثير النفسي لجماعة (الشباب الصاخب) على المراهقين : (استطاعت الفتيات أن تكون لهن شخصياتهن وكذلك الفتيان ، والأغاني التي غنوها كانت بالضرورة غير جنسية ، وتلك علامة أبعد على أنهم مثلوا موضع التلاقي العام للفتيان والفتيات) وتقول النظرية : (إن طريقة الشباب الصاخب في الملبس والسلوك قد التقطها هؤلاء كنوع من التعمية الوقائية الجنسية) ويقول أحد الأطباء النفسيين : (إن الواحد منهم يستطيع أن يقول : إنه أو إنها ليست مختلفة عني ، وهكذا تكون إقامة العلاقات أسهل لهم) .

ومن ناحية أخرى فإن خبراء المراهقة يعمرون أن الأساليب الجديدة هي شكل جديد لتمرد المراهقين على ما يحافظ عليه آباؤهم ، ويعزو بعضهم هذا الاتجاه إلى المعارضة ولكن للمجتمع كله ، ويقول :

(منذ خمس سنوات كان المراهقون يرفعون الأعلام ، واليوم يلبسونها ، ولهذا يلبسون أشد ما يضايق من الملابس التي يستطيعون الحصول عليها ، التي هي بالنسبة للفتاة زى ذكورى ، وبالنسبة للرجال زى نسوى) .

وليس مدهشا أن معظم علماء النفس يرجعون باللوم على الأم فيما يختص برخاوة المراهق الذكر ، ففي حالة عدم وجود تأثير قوى من ذكر خلال اليوم فإن متوسطى السن من الأولاد قد يرون أن الأم هي مركز القوة الحقيقي في الأسرة ، وحينما يحدث هذا فإن الذكر قد يصل طبيعيا إلى أن يقبل توجيه الأنثى ، بل حتى يتلمسه في رفيقات المراهقة .

وكيفما كان الأساس النفسى للجنس الموحد فإن معظم الكبار في غاية الاهتمام بتبين ما إذا كان لوثة عابرة أو واقعا ثابتا دائما .

ولكن أحد الأطباء النفسيين يشك في أن الجنس الموحد سينتهى حالا لأنه تسرب إلى المستوى الأدنى في المدارس العالية) اهـ

• • •

وظهور هذه الفئة من الشباب في المجتمع الغربى ليس إلا إحدى المراحل التي وصل إليها في معالجته لما أسماه بالكبت الجنسى .

فقد بدأ - في أول انحلاله - بأسطورة الاختلاط البرئ ، وراح علماؤه يهولون في فائدتها المطلقة وخيرها العميم ، ثم نكلوا عن الحديث عنه بعد ما تبين لهم أن كل اختلاط من شأنه أن يهيج المشاعر الجنسية لا أن يخمدها ، وإذا كانت هذه المشاعر تحكمها ظروف الاجتماع التي لا تمكن من التنفيذ العملى فإن هذا على أى حال يحدث لونا من القلق النفسى والعصبى بعد الهدوء المؤقت الذى قد تحدثه الاجتماعات المختلطة ، وعندئذ يحدث أحد أمرين : فإما أن يلجأ الشاب إلى تفريغ الشحنة المستثارة في مكان آخر لا تقوم حوله الحواجز ، أو يظل في قلقه المفسد للأعصاب .

ولهذا تطرقوا إلى إباحة اللقاء الجنسى بين الفتيان والفتيات ... ولكن هذه الوسيلة قد فشلت أيضا في إيجاد السلامة النفسية والعصبية ولم تزد على أن تستبدل به الجوع الدائم واللهفة التي لا تشبع فضلا عن حالات القلق المتزايد .

ولعل هذا الاتجاه الذى أشارت إليه المجلة هو اندفاع المراهقين والمراهقات نحو « التمازج الجنسى » بعد الوصول إلى غاية الشوط في « الاختلاط » ، وقد أعان المجتمع هناك على هذا الاتجاه حين أفسح المجال لعوامل « التخنيث » من الموسيقى الصاخبة التي تثير في كلا الجنسين مشاعر ملتاثة تتميع بها الخصائص الأصيلة في الجنس ، وحين هلل لجماعة « الشباب الصاخب » المعروفين لدينا باسم « الخنافس » فطير صورهم وأخبار

« فتوحهم » إلى أركان الدنيا الأربعة وطوقتهم بأوسمة دولتها ملكة الإنجليز .

وفي المجتمع الإسلامي الحق لا توجد تلك المهيجات العنيفة التي تعمل على استثارة الشهوة على الدوام بدرجة غير طبيعية ، إذ أتاح الإسلام لغريزة الجنس الإشباع في الجانب الشرعي ، أما فيما عداه ، فقد ضبطت من الانطلاق المدمر بتحريم الزنا وتحريم مقدماته ومنع التبرج والتبذل والحرص على زي محتشم للنساء ومنع الإباحية في الاختلاط ، والمراهق فيه - فتى أو فتاة - يشغله بما يستنفد طاقته ، ويحول أفكاره بما يملأه به من مثل وأهداف ثم يفتح له باب الزواج وهو العلاج الحقيقي للمشكلة والحل الذي لا يغني عنه حل آخر .

— ٢ —

اليهود . والتبشير :

(نيوزويك ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٦٥)

« منذ ألفي عام قبل ظهور المسيحية كانت اليهودية عقيدة تبشيرية روحية ، تهدي الكفار وتختن المقتنعين الجدد ، ولكن أحبارها اليوم يمرنون على ألا يشجعوا من كان يصبح تحولهم إلى العقيدة ، ويقبلونهم فقط بعد مدة طويلة من الدراسة والتفكير .

ويود الحبر « موريس أيزندرات » رئيس الاتحاد اليهودي للطوائف العبرية الأمريكية أن تعود إلى أيام الدعوة (الهداية) القديمة . وفي المؤتمر الثامن والأربعين الذي يعقد كل سنتين في سان فرانسسكو قال أيزندرات « في هذا العصر الذي تملأ المسيحية يبحث رجال العلم عن عقيدة عقلية ويسألون أسئلة محيرة عن الأديان المبنية على الملائكة والقديسين والبعث الجسدي وتناسخ الأرواح والميلاد العذري ، وأخشى أن يعكس فشلنا في تقديم برنامج للهداية عدم ثقة بغير المؤمنين باليهودية ، ومظهراً طائفياً غير محبوب تجاه عقيدتنا » .

واستجابة لنداء أيزندرات تحرك المندوبون بحذر ، وألفوا لجنة لكسب غير المنتمين ، ووافقوا على سياسة الباب المفتوح « لدعوة غير المنتمين للكنيسة للدراسة والعبادة معنا » اهـ .

* * *

ولا يعكس هذا في نفوسنا - نحن المسلمين - سوى شعور التقصير إزاء حمل الرسالة وتبليغ دعوتها إلى الملايين المضيعة من المسلمين في قارات العالم ، وإلى الملايين من غيرهم ممن لم تبلغهم دعوة سماوية ، أو بلغتهم على تحريف وتشويه فلم يبلغوا منها حاجتهم ، والمسلمون هم أصحاب هذا الدور بحكم عموم رسالتهم : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » وبحكم كونها آخر الرسالات السماوية « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ودينا الفطرة « فطرة الله التي فطر الناس عليها » ؟

أحمد عبد الواحد إبراهيم
مجمع البحوث الإسلامية

عقوبة الجلد

للدكتور مختار القاضى

يود لهؤلاء الذين يقرأون هذا المقال أن يعرفوا منذ البداية أنى لا أكتب من هذه العقوبة من زاوية الدين ، وأنى لم أكتب فى مجلة الأزهر مقالى هذا ، إلا لأنى أستاذ بجامعة الأزهر ، وأن كثيرين من قراء هذه المجلة هم أصدقاء أو زملاء أو تلاميذ فى هذه الجامعة . وإذن سوف آخذ على نفسى أن أعرض الموضوع عرضا علميا اجتماعيا خاليا من التعصب لشريعة من الشرائع .

عقوبة الجلد عقوبة قديمة وردت فى الشرائع السماوية كالتوراة ، والقرآن الكريم ، وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما طبقتها كثير من الشرائع الوضعية كالقانون الإنجليزى والقانون الفرنسى فى حالات كثيرة ، وكانت تطبق فى مصر إلى عهد قريب فى جرائم الأحداث ، وفى المدارس وفى جرائم أخرى قليلة ، ثم ألغيت من مصر نهائيا .

ولقد ثار جدل بالنسبة لصلاحية هذه العقوبة بوجه عام ، وفى مصر بوجه خاص .

ورأى المعارضين لتطبيق هذه العقوبة يتلخص فى أمر واحد ، وهو أنها عقوبة وحشية تؤدى إلى تعقيد نفسية المجرم وشعوره بالإهانة واحتقار نفسه ، لأن عقوبة الضرب أو الجلد هى العقوبة الوحيدة التى تطبق على الحيوان !.

هذه هى الحجة الجدلية ، وهى حجة ينقصها المنطق وإن كان لا ينقصها البريق . ذلك بأن الحبس يشترك مع الجلد فى تعقيد نفسية المجرم وإلحاقه بالحيوان أيضا ، فالذى يفرق بين الإنسان والحيوان هو العقل والحرية أما العقل فالحيوان محروم منه بحكم طبيعته ، وأما الحرية فإن حرمان الحيوان منها حرمان صناعى من عمل الإنسان فالإنسان قد استعبد كثيراً من البهائم وحبسها لمتعته كالعصافير أو للحمها وصوفها ولبنها كالجمال والغنم والبقر ، أو ليركبها كالبغال والحمير وغيرها فإذا حكم بحبس إنسان ، وفى طبيعته التطلع للحرية ، فإنما يكون حبسه إهانة وإلحاقا له بالعجماوات ، فيشعر بالنقص وبمركب النقص وبأنه وضع فى موضع غير كريم لارتكابه جريمة غير كريمة وهكذا .

وإذا بينت أن الجدل فى هذا الأمر يقوم على مقدمات خاطئة ، فعلى القارىء أن يسألنى ولماذا يخاصم بعض الناس هذه العقوبة — عقوبة الجلد ، ولا يخاصمون عقوبة الحبس وهما متساويتان من حيث الحط من قدر

المتهم المحكوم عليه بأحداهما ؟ والجواب عندى لا يحتاج إلى عناء كبير ، فخصوم هذه العقوبة إما غربيون متعصبون ضد عقوبة وردت فى الشريعة الإسلامية فى القرآن والسنة فهم يهاجمون من طريق غير مباشر القرآن والسنة ، وإما شرقيون مستغربون ، عاشوا فى أوروبا وثقفوا ثقافة الأوروبيين وتشيعوا لها فهم يرددون أصوات سادتهم كما تردد الببغاء ما تسمعه دون وعى سوى أن الببغاء لا تزيد على ما تسمعه. أما أولئك فيحاولون أن يضيفوا إلى ما سمعوا حجة جديدة ودليلا مبتكراً .

إن السجون قد تصلح للحفاظ على مجرم تعبت الهيئة الاجتماعية فى إصلاحه فأرادت له أن يحبس أذاه عن الناس بوضعه فى سجن يأكل فيه ويشرب ، والناس خارج السجن آمنون من شره وأذاه . أما أن يراد لنزيل السجن أن ينصلح حاله ، فهذا لا يحدث فى معظم الحالات . بل إن حال نزيل السجن قد يسوء أكثر من ذى قبل .

فالسجون مدارس يتعلم فيها نزلاؤها الإجرام ، ويتداولون فيها دروسا فى الحيل وطرق ارتكاب الجرائم والفرار من "عقوبات والإيقاع برجال الشرطة وتعميتهم ، وتتوطد بين تلاميذ السجون صداقات وتتوثق عهود واتفاقيات على الانتقام من الهيئة الاجتماعية بعد ترك السجن .

وفى السجون ذاتها وقبل مبارحتها ترتكب جرائم التهريب للمخدرات والرشوة للحراس وجرائم خلقية أخرى لا سبيل إلى عدها أو الإفصاح عن كنهها وإن كانت معرفتها لا تحتاج إلى عناء .

والسجون مصارف تصرف الدولة عليها فى الطعام والشراب والكساء والنوم ودروس الإصلاح ، وهذا كله يكلف نفقات طائلة، الدولة أحوج إليها لتنفقها فى عمل منتج متى وجدت عقوبة أخرى تنوب عن عقوبة السجن وتؤتى ثمارها أو خيراً من ثمارها .

وفى السجون تتعطل طاقات بشرية كانت تعمل خارج السجن فأودعت بين جدران أربعة لا تستطيع أن تعمل باطمئنان حتى إذا وجد العمل داخل السجن ، وهو لا يمكن أن يوجد إلا لبعض الناس دون البعض الآخر .

وفى خارج السجن توجد أسر المسجونين وقد حرمت من رعاية عائلها المودع فى السجن فيتشرد الأطفال وتسهل على المرأة سبل الجريمة الأخلاقية ، وقد تطلب المرأة الطلاق من زوجها السجين ثم تتزوج غيره ، فيكون لها من هذا وذاك أطفال يجوع بعضهم ويشبع بعضهم ، فتتوطد بين الإخوة مشاحنات وإحن لا داعى لها ، ولا سبب لها إلا ان رب الأسرة الأول قد غاب فى سجنه زمناً لم تستطع المرأة أن تصبر على البقاء فيه من غير زوج .

فإذا أخرج الإنسان من السجن شهر به وحرم من وظيفته إن كان موظفاً ومن عمله إن كان عاملا هكذا ورد فى اللوائح والقوانين هل تدرى أن (فيكتور هوجو) عند ما كتب

قصته « البؤساء » إنما كان ثائراً على نظام السجون وآثار السجن بعد الخروج منه حين يحرم الإنسان من العمل بحجة أنه مجرم لا يجوز له أن يعمل بقية حياته فى أى عمل كان .

هذا كله ينطبق على أولئك الذين يدخلون السجن رغم أنوفهم .

ولكن هناك طائفة أخرى يدخلون السجن طائعين لأنهم يجدون داخل السجن شبعاً وريا، وحياة قد تكون أيسر من حياتهم خارج السجون ، فهم يصنعون الإجرام للإقامة فى السجن يأكلون ويشربون ويسمعون القصص ويهيئون لأنفسهم مجتمعاً داخل السجن ينعمون فيه بالأمن والدعة ، هؤلاء قد تعودوا البطالة والكسل فوضعهم فى السجون جريمة على المجتمع وعلى الثروة القومية .

فإذا انتقلنا بعد هذا إلى عقوبة الجلد وجدنا هذه العقوبة خيراً من السجن فى أكثر من موضع .

فهى قبل كل شىء عقوبة اقتصاد لا تكلف الدولة أكثر من عصا أو سوط ، ورجل يقوم بتوقيعها . ثم ينصرف المجرم ، وقد لا يسمع به أحد ، لأن توقيع العقوبة لا يستغرق زمنا يكفى للفضيحة ، كما يحدث فى عقوبة السجن .

وبعد ذلك يعود المجرم لعمله ولأسرته فلا تطلق عليه زوجته ولا يشرد طفله ولا تخرج عن رقابته ابنته . ولا يحتقره أحد منهم لأنهم قد لا يعلمون من أمره شيئاً .

ثم إن الجلد أردع للمجرم من الحبس ، وخاصة فى الجرائم الصغيرة ، فالجلد مؤلم للمجرم ، ترتعد منه فرائصه وتتأذى منه أعضاؤه . أما الحبس فإيلامه على النفس بطىء لأن المحبوس لا يحرم من طعام ولا شراب ، بل قد يكون حاله فى السجن خيرا من حاله عند ما كان خارج السجن فلا يشعر بألم إطلاقاً أما عقوبة الجلد فهى (ديموقراطية) ، الألم يتساوى فيها الصغير والكبير ، والغنى والفقير بخلاف السجن ، يتأذى منه قوم ويرحب به آخرون !

إن المجتمعات الفقيرة التى يختل فيها ميزان المعيشة بين الحياة خارج السجن وداخله فينحط فى الأولى عن الثانية لا ينتظر من السجن أن يصلح مذنبا ، هو فى سجنه خير مما كان عليه وهو حر طليق . والأموال التى تنفق على السجون أولى أن تنفق على المدارس والمستشفيات والمجتمعات المنطلقة إلى النمو والعلو والنهضة الصناعية يجب ألا تعطل طاقات الناس ولو كانوا مجرمين ، إنما عليها أن تعاقبهم بغير السجن وتتركهم إلى أعمالهم ليضيفوا إلى الثروة القومية ثمار جهودهم ، وتتركهم إلى زوجاتهم وبنيهم ومن يعولون ، ذلك بأن الحبس يؤثر على أسرة المحبوس فلا تصبح العقوبة شخصية خاصة بالمجرم ذاته ، وإنما تتعدى إلى أشخاص آخرين لا ذنب لهم، وبذلك تخرج على المبدأ السائد فى العقوبة ،

عائدٌ من الفلبّين

للأستاذ محمّد زيتون

— ١ —

ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر قضيتها فى البلاد المشرقة التى لا ترى فيها إلا مياها زرقاء أو أرضا خضراء مكسوة بالحشائش والأشجار المثمرة وغير المثمرة ، حرارة محتملة ومطر غزير متصل وحياة بدائية بسيطة وإن بلغت درجة عالية من الحضارة فى بعض الأماكن .

وكانت مهمتى تقتضى أن أعيش بين إخوانى المسلمين هناك وأتنقل بين ديارهم وأعرف منهم الكثير من الناحية الدينية والاجتماعية والأخلاقية وعلاقتهم بالعرب والمسلمين ، وأحاول علاج ماخالف الحقائق الواضحة للدين الإسلامى الحنيف ، فقد كنت مبعوثا للأزهر هناك لنشر اللغة العربية والدين الإسلامى .

ولذلك يسرنى أن أحدث إخوانى القراء عن بعض مشاهداتى وملاحظاتى فى هذه البلاد البعيدة التى تقع فى جنوب شرقى آسيا بين خطى عرض ٥ — ١٨ شمال خط الاستواء وبين خطى طول ١٢٧ — ١٢٠ شرقى خط جرينتش على شكل أرخبيل ممتد جنوب شرقى القارة الآسيوية بجزره البالغة ٧١٠٠ جزيرة منها الكبير والصغير بمساحة قدرها ١١٥٦٠٠ ميلا مربعاً يقيم عليها ثلاثون مليون نسمة منهم قرابة ثلاثة ملايين من المسلمين . وهى ذات طقس ليس حاراً جداً

(بقية المقال على الصفحة السابقة)

وهو « شخصيتها » والذى لخصه القرآن الكريم فى قوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

هل عرفت قصة الحطيئة مع سيدنا عمر بن الخطاب حين كتب الحطيئة إليه من سجنه قصيدته المشهورة التى ورد فيها :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله ياعمر

وهل عرفت أن عمراً لما قرأ هذين البيتين اغرورقت عيناه بالدموع وأخرج الحطيئة من سجنه لأنه رأى أن العقوبة قد تعدت إلى غير المجرم من بنيه ؟ .

هذه بعض الخواطر ولعل كبيرا مسؤلا يعمل على تجربة هذه العقوبة فى بعض الجرائم كجرائم التموين ، إن فعل ذلك سوف يتضح له وللناس أن الجرائم قد تناقص عددها تناقصا ملموساً . والله الموفق وهو أحكم الحاكمين .

مختار القاضى

ولا بارداً غنية بحيواناتها الكثيرة ونباتاتها المتنوعة وثروتها الزراعية ذات المحاصيل المختلفة وغاباتها الكثيفة ثم أسماكها وبحارها الذي يفوق الوصف منظراً ومذاقاً .

وعن كيفية تكوين اللبنة الأولى - الأسرة - في المجتمع الفلبيني سوف أتحدث في هذا المقال .

من عادات الزواج في الفلبين :

إن تفرق سكان الفلبين في الجزر التي يسكنونها وتباعد بعضها عن بعض جعلهم يختلفون في عاداتهم وتقاليدهم من جزيرة إلى أخرى بل ربما في الجزيرة الواحدة وذلك لصعوبة المواصلات في داخل كل جزيرة إما لكثرة الغابات وعدم وجود طرق ممهدة أو لوجود المرتفعات التي جعلت الاتصال شاقا بين مكان وآخر كما أن تفرقهم في الأديان التي يدينون بها أدى إلى اختلاف عاداتهم في الزواج .

وفي هذا المقال أريد أن أتحدث عن عادات الفلبين في الزواج ، وسأبدأ بالحديث عن الزواج بين المسلمين لا سيما وقد حضرت كثيراً من حفلات الزواج كما قمت بعقد القران في كثير منها .

وأول خطوات الزواج هناك أن يبدأ الشاب فيتودد إلى البنت التي يريد أن يتزوجها أو يتحبب إليها . وهم يعطون الشاب مطلق الحرية في أن يمشي مع البنت إلى أن يحب أحدهما الآخر فإذا رضيت البنت أن يكون الشاب زوجا لها بدأ أقرباء الفتى يقدمون إلى أسرة الفتاة بعض المتاع مثل البقر والجاموس ، وأجولة الأرز ، والطعام المطبوخ واحيانا تمثالا لمركب صغير فإذا رضى أهل الفتاة بهذا الزواج بدأ أهل الفتى يعقدون مجلس الأسرة لكي يتفقوا على هذا الزواج ، واتفاقهم على الزواج ليس مشورة فقط . بل على كل عضو من أعضاء الأسرة أن يتقدم بمبلغ من المال لكي يشارك في المهر وفي تكاليف الزواج وهذا يعتبره المسلمون نوعا من التعاون بين أعضاء الأسرة ، وفي بعض الأحيان إذا كان الذي يتزوج من أسرة مشهورة أو حاكمة فإنهم يعملون استعراضا في المدينة إعلانا من الزواج وبعد ذلك يتقدم كل واحد بظرف خطاب وفيه المبلغ المتبرع به وقد كتب على الظرف اسمه والمبلغ الذي بداخل المظروف وقد شاهدت مرة استعراضا لأجل جمع المال بسبب زواج شاب غني جدا وأبوه محافظ وربما ليس في حاجة إلى المساعدة ولكنهم عملوا استعراضا كبيرا جدا وبدأ الناس ينهالون بالتبرعات على القائمين بشأن جمع التبرعات لأجل زواج هذا الشاب والناس هناك يحبون الفخر فربما يكون الشخص غير قادر على المساعدة ولكنه في مثل هذه الظروف لا بد من أن يقدم مساعدة حتى ولو أدى إلى أن يقترض من غيره ، وهذه في الحقيقة طريقة قد جاوزت طريق المساعدة لا سيما إذا كان الشاب غنياً وليس في حاجة

إلى المساعدة ولكن الصفة الاجتماعية التى تمارس بها هذه العادة جعلت المساعدة فرضا اجتماعيا حتى من الفقير

وكذلك يبدأ أهل الفتاة يعقدون مجلسا عائلا فإذا اتفق كل مجلس على هذا الزواج بدأ رؤساء الأسرتين يتفقون على المهر، وقد أخبرنى أحد تلامذتى بأن أخاه عندما تزوج دفع إلى أهل العروس ١٢ حصانا، ١٤ بقرة وثمانية كربا و جاموس، وعندما سمعت ذلك كنت أظن أن هذا هو المهر ولكنه أخبرنى بأن أخاه دفع فوق ذلك ... ٤ بيزو أى ما يعادل ... ٤ جنيه مصرى عندنا.

وبعد أن تتفق الأسرتان على المهر يحددون موعد ومكان الزواج، وفى يوم الفرح يدعى الأصحاب والأحباب والأقارب ويذبح البقر ويقدم الأرز واللحم والسمك إلى الحاضرين وتغنى لهم بعض الفتيات أغانيهم التى يعشقونها كما ترقص بعض الفتيات رقصاتهم الشعبية وقد يستمر ذلك طول الليل.

ثم تتم مراسيم الزواج وبعد ذلك يبدأ أهل الفتاة بتقسيم المهر على الحاضرين وكل يأخذ من المهر حسب منزلته الإجتماعية أو حسب قرابته من الفتاة، ولابد للزوج من أن يقدم إلى أهل الفتاة آلة ثمينة وقيمة من آلات الحرب والقتال فمثلا يقدم سيفا أو رمحا وربما يقدم خنجرا ثمينا محلى بالذهب.

وفى بعض المقاطعات لابد أن يقدم الزوج بعض المال إلى الداتو «الأمير» الحاكم غير المدنى، وإن لم يكن حاكما من قبل الحكومة ولكن الناس يعترفون بإمارته وبطاعة أمره.

وأحيانا إذا لم يرض الداتو عن الزواج لا يتم الزواج - وقد حدث مرة أن وصلت إلى وأنا فى محافظة «لاناردلس» دعوة من من أحد تلامذتى وكان يتزوج فى محافظة «كوتاباتو» وكان لابد أن أركب الطائرة لكى أصل إلى مكان الزواج ولكن الطيران توقف لرداءة الجو حينئذ فاكتفيت بأن أرسل برقية أهنئه فيها بالزواج وأتمنى له حياة سعيدة، ولكن بعد حوالى شهر وصلنى خطاب من تلميذى يخبرنى فيه بأن الزواج لم يتم لأن «الأمراء» قد امتنع بعضهم عن حضور حفلة الزواج وكان ذلك دليلا على عدم رضاهم عن هذا الزواج، وقد ضاعت التكاليف التى أنفقتها بسبب تساقط هؤلاء الأمراء.

وقد حدث ذلك فى أوائل سنة ١٩٦٣ فى محافظة «كوتاباتو».

وربما يعتبر من حفلات الزواج المشهورة خاصة بين المسلمين زواج بنت رئيس جمعية المسلمين فى الفلبين عضو مجلس الشيوخ السابق أحمد ألنتو، وقد حضر هذا الحفل كثير من علية القوم فى الفلبين وقد حضره سفير الجمهورية العربية المتحدة وممثلون من سفارة باكستان وأندونيسيا وثلاثة من الوزراء، وبعض أعضاء مجلس الأمة وكثير من

المحافظين ، وقد تمت حفلة الزواج فى كلية كامل الإسلام التى كنت أقوم بالتدريس فيها وقد زينت المدرسة ومسرحها زينة تفوق الوصف وأقيمت الأعلام الخاصة بهم أثناء الحروب القديمة والتى يعتزون بها وفرش المسرح بالسجاد ووضعت على السجاد الحشايا لكى يجلس عليها كبار المدعوين بعد أن يخلعوا أحذيتهم الرجال فى جانب والسيدات فى الجانب الآخر ، وقد لبس كل مدعو على رأسه غطاء الرأس الذى يستعمله الوطنيون هناك ، ثم بدأت حفلة الزواج بأن حضر العريس من بيته ماشيا وقد لبس بدلة السلطان الحريرية التقليدية الحمراء المحلاة بالذهب وفى وسطه الخنجر وبجواره من يحمل المظلة المزخرفة بنقوش عجيبة ، ثم بجواره الحراس يحملون سيفين طول كل واحد منهما متر ين ونصف ثم خلف الزوج على حد تعبيرهم الأمراء وبجوار كل أمير خادم يحمل المظلة المزركشة التى تظله من الشمس . وبعد أن قاموا باستعراض فى شوارع المدينة وصلوا إلى مكان الاحتفال فقام والد الزوج واستقبل إبنه على مدخل مكان الاحتفال وصحبه إلى المسرح حيث خلع حذاءه وجلس بجواره على خشبة المسرح مع كبار المدعوين .

وبعد ذلك وصل موكب العروس وهى تجلس فى محفتها التى يحملها أقرباؤها الأمراء من بيتها إلى مكان الاحتفال مارين ببعض شوارع المدينة وفى وسط كل أمير خنجر وبجواره خادمه الذى يحمل المظلة المزركشة يحميه بها من الشمس وخلف المحفة ٢٠ من الأميرات والوصيفات فى ثيابهن الفاقعة المزركشة . وعندما وصلت المحفة إلى مكان الاحتفال قام والد العروس واستقبل ابنته العروس واصطحبها من المحفة إلى المنصة الذى يجلس عليها كبار المدعوين والمدعوات . وجلست بجوار أبيها على الحشية أيضا بعد أن خلعت حذاءها. وبدأت مراسيم الزواج بقراءة القرآن الكريم ثم ألقيت خطبة الزواج وأتممت العقد وبعد ذلك جلست الزوجة إلى جوار زوجها وجلس والد الزوج إلى جوار والد الزوجة .

وبعد ذلك بدءوا يقدمون بعض رقصاتهم الشعبية فرقصت بعض الفتيات رقصة السلطانة وبعضهم رقصة البامبو كما قدموا بعض الألحان الموسيقية الوطنية ثم قدم شابان رقصة الحرب التى دهش لها كل الحاضرين حتى كان يخيل إلينا أننا نعيش مع أقاصيص ألف ليلة وليلة

فالراقص كان فى ثياب الحرب لا يبدو منه إلا عيناه فقط وعليه ملابس الحرب القديمة برمحه وسيفه وخوذته وبدأ يعرض بعض الحركات العجيبة الدالة على سروره بالحرب والتى يغازل بها سيفه ورمحه وخوذته قبل أن يلبسها وكأنه ذاهب إلى حفلة زفاف وليس إلى ميدان القتال ، وبعد أن انتهى برنامج الحفلة بدأوا يقدمون الطعام للحاضرين الذين حضروا

حفلة الزواج وقد بلغني أنه ذبح في هذا الحفل ثلاثين بقرة وقدر المهر بعشرة آلاف بيزو أي حوالي ألف جنيه مصري . والمغالاة في المهور عادة مشهورة بين المسلمين أدت إلى إعراض الشبان المسلمين عن الزواج بالفتيات المسلمات حيث لا يستطيعون أن يدفعوا لهن هذا المهر الكبير وجعلهم يتزوجون بالمسيحيات حيث لا يكلفهم مبلغا كبيرا من المال . وهذه لا شك عادة غير محمودة ، لأنها أدت إلى عدم زواج البنات المسلمات وقلة عدد الشبان الذين يتقدمون للزواج من الفتيات المسلمات .

كما أن هناك شيئا ربما لا يستطيع أن يتصوره الناس عندنا وهو أن المهر يفرق بين أقرباء الزوجة ثم ينتقل الزوج إلى بيت أسرة الزوجة لكي يكون فردا من أفراد أسرة الزوجة ويعيش معهم كواحد منهم . ولا يكون هناك شيء من الأثاث الذي تقوم أسرة الزوجة بإعداده ـ كما يحدث عندنا هنا ـ وإنما الذي يحدث بين عامة الناس أن الأثاث عبارة عن حصير ووسادة وربما مرتبة وهذا هو أثاث الزواج . ولكن بين أسر الأغنياء يكون هناك سرير وصوان وبعض الكراسي للجلوس عليها .

وقد حضرت مرة زواجا في قرية تسمى قرية « رماين » في محافظة لاناودلس وابتدىء الحفل بحديث من أقرباء الزوج وبحديث من أقرباء الزوجة ، وطال حديث كل منهما في مكبر الصوت حتى مللت السماع لأنهم يتكلمون باللغة المحلية فسألت بعض الحاضرين عما يقول هؤلاء الخطباء. فأخبرني أن كل واحد يعدد مآثر أسرته وبجدها والأبطال الذين كانوا فيها وبعض المعارك التي خاضوها وأنهم أصحاب حسب ونسب وجاه وسلطان وأن كلا منهما كفء للطرف الآخر، وبعد حوالى ثلاث ساعات من سماع هذا الحديث الطويل قمت فأتممت مراسيم الزواج على الطريقة الشرعية .

هذه بعض عادات الزواج التي تحدث بين المسلمين في الفلبين وقد رأيت بعضها رأى العين . كما كانت مجالا لبيان خطأ بعض التقاليد التي يتبعونها ومعارضتها الإسلام مثل تفريق المهر بين الأقارب وزواج المسلمات بالمسيحيين وغيرها من العادات بذلنا جهدنا في توضيح رأى الإسلام فيها .

وإنه ليسرني أن أكتب شيئا عن عادات الزواج بين القبائل غير المسلمة وذلك لأن قليلا من الفلبينيين من يمارس الزواج المدني وإن كان يقبل عليه كثير منهم الآن .

فمن عادات الزواج بين قبيلة « البولاكان » Bulacan أن يذهب والدا الفتى إلى والدى الفتاة في ستر من ظلام الليل حتى لا يعلم أحد شيئا عن الزواج ، ثم يتشاورون بحضور رئيس القرية ، وبعد أن يتم الاتفاق بحوالى شهر يعلن الزواج .

وفى جزيرة بناى يبدأ الشبان يتغازلون بالشعر مع الفتيات ، وقد يستمر هذا إلى سنة أو أكثر ، وبعد أن ترضى الفتاة بالشاب يتم الزواج .

ولكن الأغرب من هذا ما يحدث فى قبيلة تريال Trial فى محافظة الجبل ، وهو أن يجتمع النساء اللاتى يردن الزواج فى بيت ثم يحضر الرجل ويختار التى يرضاها ، ثم يستمر معها يعاشرها معاشرة الأزواج إلى أن تلد ، فإذا ولدت تقام حفلة الزواج وتصير زوجة له فإن لم تلد بعد عام أخذ غيرها لأن ثمرة الاتصال بين الرجل والمرأة لم تأت بالثمرة المرجوة وهى البنوة ، ولذلك لا يكون هناك زواج .

أما بين قبائل « باجوبس » BAGABOS فى جزيرة منداناو فيجلس الرجل والمرأة على حصير وحولهما أرز على أوراق الموز فإذا أكل الزوج والزوجة منه ، أعلن أن الزواج قد تم بينهما .

ولكن بين قبيلة « نجريتج » NEGRITAGE يحضر الشاب والفتاة أمام رئيس القبيلة ويضع رئيس القبيلة يد الشاب فى يد الفتاة ثم يأخذ رئيس القبيلة برأس الفتى والفتاة ، ويجعل رأسيهما تتلامسان أو ينقر أحدهما بالأخرى وبذلك يتم الزواج .

وفى غرب جزيرة باسيلان فى قبيلة ياكنس YAKANS تتزين الزوجة وتلبس أحسن الثياب وتضع المساحيق البيضاء على وجهها ثم يرقص العريس مع العروس وتبدأ حفلة الزواج بتقديم الطعام والشراب . ثم يذهبون إلى المسجد حيث تتم مراسيم الزوج على يد البنديتا .

أما فى جبل بروتنتس بين قبيلة كالنجس KALINGAS فليس الزوج هو الذى يدفع المهر وإنما والد الفتاة هو الذى يدفع المهر للزوج ويكون مثلا فى عدد من البقر وبعض أجولة الأرز .

والطلاق مسموح به بين هذه القبيلة وإذا وقع ترجع الزوجة ومعها المهر الذى دفعته وفى هذا الطلاق قد تسيل الدماء أحيانا .

كما يتم الزواج بين قبيلة مانجاين MANGYAN فى جنوب شرق جزيرة مندورو بأن يتزين الفتى ويأخذ عوده معه ثم يذهب إلى كوخ الفتاة ويغنى لها فإذا رضيت الفتاة به زوجا ذهب معها إلى الغابة وفرش حصيرا وجلس يغنى لها ويضرب العود إلى أن تجيبه هى أيضا وتغنى له وذلك يكون دليلا على كمال الرضا بين الفتى والفتاة وفى الصباح يذهب الفتى والفتاة إلى والدى الفتاة حيث يباركان لهما هذا الزواج .

هذه بعض عادات الزواج التى شاهدتها والتى سمعت عنها بين سكان الجزر هناك فى الفلبين . وسوف نتحدث عن مظاهر الاحتفالات الدينية فى مقالة قادمة ؟

محمد زيتونه

رؤى المؤرخ الفقيه أبى شامة

للدكتور عباس حلمى اسماعيل

أبو شامة هو شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل ، وعرف بأبى شامة لأن فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة ، وهو ينتمى إلى أسرة عريقة فى بيت المقدس انتقلت إلى دمشق وأقامت فى درب الفواخير داخل الباب الشرقى حيث ولد فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٩٩ ﻫ (٩ يناير ١٢٠٣ م) وحكى أبو شامة عن أمه أنها رأت فى منامها وهى حامل به : كأنها فى أعلى مكان من المئذنة عند هلالها وأنها تؤذن ، فقصت أمه حلمها على عابر فقال « تلدين ذكراً ينتشر ذكره فى الأرض بالعلم والخير » وأورد أبو شامة أنه ولد ليلة الجمعة وهى ليلة مباركة عند المسلمين ، وأن النجوم ماجت سنة ولادته فى السماء شرقا وغربا وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا [١] .

وأحب أبو شامة التردد على المكتب منذ طفولته المبكرة على غير عادة الأطفال ، فعجب أبوه منه ، غير أن أمه نهت أباه عن التعجب ، لأن هذا أوضح دليل على صدق حلمها ومال أبو شامة إلى حفظ القرآن فختمه حفظاً وهو دون العاشرة ، وأتقن القراءات السبع على الشيخ علم الدين السخاوى وله ست عشرة سنة ، فدل هذا كله على ذاكرة قوية وحافظة واعية . [١] ثم أخذ أبو شامة فى طلب علوم اللغة والفقه والحديث والتاريخ وبعد أن أتقنها شرع فى التأليف فيها ، وأهم مؤلفاته شرح المفصل للزمخشرى ، والمرشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز ، والباعث على إنكار البدع والحوادث ، والحديث المقتفى فى مبعث المصطفى ، وكتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، والذيل على الروضتين ، وضوء السارى إلى معرفة البارى والمؤمل فى الرد إلى الأمر الأول ، وكتاب السواك ، وكتاب القيامة ، ونية الصيام وما فى يوم الشك من الكلام ، ومشكلات الآيات ومشكلات الأخبار ، وبلغ أبو شامة رتبة الاجتهاد ، حتى عجب منه أحد تلامذته أن يظل منتسباً إلى الشافعى (٢) .

والواقع أن أبا شامة لم يبلغ ذلك المقام السامى من العلم إلا بعد أن تردد كثيراً على جامع دمشق ليقرأ القرآن الكريم ، ويقلد الشيخ فخر الدين بن عساكر فى القراءة والافتاء

(١) أبو شامة الذيل ص ٣٦ – ٣٨ .

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ح ٥ ص ٣١٨ .

(٢) أبو شامة : الذيل ص ٣ و ٣٨ – ٤٩ .

ويسمع الحديث من الشيخ فخر الدين بن عساكر فى القراءة والافتاء، ويسمع الحديث من الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء والنحو من تاج الدين الكندى، والفقه من تقى الدين بن الصلاح كما توطدت مكانته العلمية بعد أسفار كثيرة ذلك أنه حج سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٣ م) مع والده، ثم حج من غيره سنة ٦٢٢ هـ واستطاع أبو شامة أن يحج مرتين متتاليتين لرخص الأسعار واستتباب الأمن فى الحجاز بفضل الجهود التى بذلها الملك المسعود ابن الكامل الأيوبى صاحب مكة واليمن وقتذاك، ولأن الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبى مهد الطريق من الشام إلى الحجاز وزود حجاج الشام بالمؤن ثم سافر أبو شامة إلى بيت المقدس سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام لزيارة الخليل والمسجد الأقصى وغيره من المقدسات وفى آخر ربيع الآخر سنة ٦٢٨ هـ (٦ مارس سنة ١٢٣١ م) سافر أبو شامة إلى مصر فدخل دمياط فى جمادى الأولى، والقاهرة والفسطاط فى جمادى الآخرة، والاسكندرية فى ذى الحجة. وفى القاهرة قابل الشيخ أبا الخطاب عمر بن دحية شيخ دار الحديث الكاملية وأخذ منه إجازة، وصلى على جثمان العالم النحوى يحيى بن معطى الزواوى مع السلطان الكامل عند قلعة الجبل، وشيع جنازته حتى دفن بقرافة الشافعى.

وبالفسطاط تقابل مع خطيبها الشيخ أبى الطاهر المحلى مراراً، وبالاسكندرية زار عمرو بن الحاجب أستاذ علم النحو والشيخ محمد القبارى أحد الأولياء الصالحين على سبيل البركة (١).

وصادف وجود أبى شامة فى مصر حدوث الغلاء لانخفاض النيل إلى ثلاثة عشر ذراعا، ومجىء القاضى بهاء الدين بن شداد من حلب لإحضار فاطمة خاتون ابنة السلطان الكامل وزوجة العزيز ملك حلب وأختها غازية خاتون زوجة المظفر ملك حماة، وقدوم الملك الأشرف ومعه الملك سنجر شاه بن مودود بن زنكى صاحب جزيرة ابن عمر، ووصول مجير الدين بن العادل إلى القاهرة بعد أن كان مأسورا عند خوارزمشاه جلال الدين ومشاركة السلطان الكامل الأجناد حفر النيل بين المقياس والفسطاط فى شهور شعبان ورمضان وشوال من هذه السنة (يونيو ويوليو وأغسطس) وقدوم رسول الخليفة المستنصر بالتقليد للكامل (٢)، غير أن أهم ما استرعى اهتمام أبى شامة فى آخر هذه السنة فإنه حياة زاهد الإسكندرية الشيخ محمد القبارى، ذلك أن هذا الشيخ اشتغل بنفسه

(١) نفس المرجع ص ٣٧، ١٣٢، ١٦٤.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٤٠ - ٢٤٢.

فى زراعة بستانه ، وزاره أبو شامة وهو يسقى بجرار الماء من خليج الإسكندرية على حمار له رغم قلة الماء بالخليج لإهمال تطهيره ، لم يدع القبارى الإرواء ليتحدث مع ضيفه أبى شامة ، بل أجلسه مع غيره من الضيوف فقص أحدهم عن ورع القبارى قائلا : إنه حريص فى تحصيل ثماره ، إلى حد أنه إذا رأى ثمرة ساقطة تحت شجرة من أشجاره ولا يشاهد سقوطها منها يتورع عن أكلها خوفا من أن تكون من شجر غيره ، قد حملها طائر فسقطت منه فى بستانه ، ولما فرغ القبارى من عمله جاء إلى ضيوفه وقدم لهم بعضا من ثمار بستانه كما هى عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم . والواقع أن بستان القبارى بقى مزاراً لكل طامع فى بركته حتى وفاته وبلغ من اعتقادهم فى بركته أن تنافسوا على شراء كل أثاثه حتى إبريق الوضوء ، وتزايدوا فيه حتى بيع بنحو عشرين ألف درهم مع أن قيمته لا تزيد عن خمسين درهما [١] .

ولم يلبث أبو شامة أن رجع إلى دمشق فى ٧ ربيع الآخر سنة ٦٢٩ هـ (أول فبراير ١٢٣٢ م) وكأنه أراد ألا يمكث أكثر من سنة بمصر حتى لا ينساه علماء دمشق ، ولذا استغنى عن السفر إلى دقوقا وإربل ، لأنه قابل أعظم شيوخهما سنة حجته الأولى عبد المحسن بن العميد المدعو بالحجة ، والمقرئ عثمان بن أحمد بن بذال الإربلى ، وبدمشق علم أبو شامة أن الملك الأشرف انتهى من بناء دار الحديث الأشرفية سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) واختار تقى الدين بن الصلاح شيخا لها ، فسره هذا الاختيار لأن أستاذه ابن الصلاح جدير بهذا المنصب ، واستأنف أبو شامة عمله مدرسا بمدرسة شبل الدولة بقاسيون ، وظهر الشيب فى لحيته ورأسه وله من العمر خمس وعشرون سنة ، فزاد فضلا ووقارا لدى تلاميذه ، ويظل يعمل فى هذه المدرسة ما يقرب من عشرين سنة تزوج فى خلالها وأنجب ابنه الأكبر سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦م) وسماه محمدا وجعل كنيته أبا الحرم ، وكان لمحمد عم صغير اسمه عبد الحليم ولد قبله بسنتين فقط فلعب الابن مع عمه ، وتتلمذ محمد على الشيخ تقى الدين بن الصلاح كما تتلمذ عليه أبوه من قبل ، وسمع محمد من ابن الصلاح بعض مؤلفاته فى الفقه ومعظم السنن الكبير للبيهقى ، كما سمع من كتب الحديث والعلوم على نحو مائة وأربعين شيخا منهم تقى الدين عبد الرحمن بن أبى الفهم اليلدانى ، والطريف أن محمدا استوعب كل هذا ولم يتجاوز عمره عند وفاته ثمانى سنين ونصف سنة [١] .

ثم ترك أبو شامة مدرسة شبل الدولة وتولى

(١) أبو شامة : الذيل ص ٢٣١ .

(١) قس للرجع ص ١٤٢ – ١٩٥

مشيخة دار الحديث الأشرفية خلفا للشيخ تقي الدين بن الصلاح الذي توفي سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وكأن أبا شامة أراد أن يقول إن منصبه الجديد قد جر عليه الأنكاد لحسد الحساد، فتوفي ابنه أبو الحرم محمد كما توفيت ابنته زينب بعده بأربعة أيام، ثم جاء الغلاء لعبث الخوارزمية في البلاد، وتولى أبو شامة كذلك مشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية، والإفتاء في صدر الإيوان بالمدرسة العادلية التي وقف كتبه على خزانتها [1]، ولهذا كله زاد حساده الذين استكثروا عليه منزلته العلمية وأخذوا يكذبونه ويسفهون آراءه، والواقع أنه أوجد لهم مدخلا إليه باعتقاده الراسخ في الأحلام، وادعائه اختراق حجب الغيب، والإنباء بما كان وسيكون، فقال متحدثا عن نفسه: «رؤيت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم وما يرجوه من الخير، كما قال: «سطرت هذه المنامات وغيرها تحدثا بنعم الله تعالى. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» [2]، ومن هذه المنامات التي أشار إليها أنه رأى كأن عمر بن الخطاب قد أقبل إلى الشام منجدا لأهله على الفرنج، وبلغ من مكانته لدى عمر في هذا المنام أن عمر أفضى إليه بأسراره وتحدث معه في أمور المسلمين وهو يمشي إلى جانبه ملاصقا منكبه حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم، وكأنه واسطة بينه وبين الناس. كذلك رأى أبو شامة في منام آخر والفقيه عز الدين بن عبد السلام داخل باب الرحمة ببيت المقدس، وقد أرادا فتحه عن وقفوا خلفه يدفعونه لينغلق، فما زالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحا تاما بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه. ويروي أبو شامة أنه رأى هذه الرؤى في سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) وهي السنة التي زار فيها بيت المقدس مع عز الدين بن عبد السلام، ولذا دارت هذه الرؤى حول بيت المقدس والصليبيين، لا سيما أن المسلمين أرجفوا عن اعتزام السلطان الكامل تسليم بيت المقدس لفردريك ملك الألمان وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (١).

غير أن أعجب منامات أبي شامة هو منامه في جمادى الآخرة من هذه السنة أي سنة ٦٢٤هـ (مايو سنة ١٢٠٧ م) حين رأى كأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شديد وهو خائف عليهم من العطش، ثم منامه كأنه في صدر الإيوان بالمدرسة العادلية بدمشق، وأن قائلا يقول للناس تنحوا فالنبي صلى الله عليه وسلم يمر. ورأى بعض الصالحين له أنه متوجه إلى الحج وقد تزود تزودا تاما.

(١) السبكي: طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦٢.
(٢) أبو شامة: الذيل ص ٣٨ – ٣٩.
(١) نفس المرجع ص ٣٨.

هذا عدا المنامات الأخرى التى رآها له أخوه الشيخ برهان الدين إبراهيم وهو أكبر منه بنحو تسع سنين : رأى أن أباهما يحثهما على العلم ، وعندئذ انكشف لهما بيت المقدس والمسجد الأقصى (١) . ولا شك أن هذه المنامات تدل على أن أبا شامة استغرق فيها ومما يؤيد هذا الاستنتاج منام آخر لبرهان الدين حين رأى كأنه جالس إلى جانب أخيه الذى يكتب شيئا ويقرؤه ، فكان ما كتبه قوله تعالى : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا » (٢) .

ثم ذاع صيت أبي شامة بين الدماشقة على أنه كثير الرؤى ، فوفدوا عليه ليفسر لهم أحلامهم ، ولا سيما بعد أن ادعى أبو شامة أنه يعرف علم الفلك : ويرقب النجوم ويفسر ظاهرتى الكسوف والخسوف (٣) . وممن جاءوا إليه الشيخ تقى الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلدانى الذى أخبره أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : يارسول الله ، بالله ما أنا رجل جيد ؟ فقال : بلى أنت رجل جيد ، وهنا صمت أبو شامة لأنه أدرك أن مريديه استولى عليه الخوف بدعوى أنه ناهز المائة . وسبق أن قص له أنه حضر ختان ابن نور الدين زنكى ، ولعب الأمراء بالميدان احتفالا بختانه ، ولعب الصبيان مع الأمير فى فراشه حتى برىء جرحه (١) . ثم قص قصاب نصرانى على أبي شامة أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة وهو مضجع من أثر مرض ، فقال له الرسول : قم واخرج من الضلالة إلى الهدى واذهب إلى أبي شامة وأسلم على يده . وأخبر الرسول أن صاحب مصر سوى يهدم عكا ويملكها وأن القصاب سيعمل بمسجدها ، ثم حكى أن الرسول ارتفع بعد هذا إلى السماء فى صورة أكمل من القمر وأتم من الشمس ، وحين سأله القصاب عن إتجاه سيره طلب منه أن يسأل ربه فى الناس نصرهم على الكفرة ، وعندئذ تنبه القصاب وبقى فى حيرة من أمره ، فلما كان ليلة السبت رأى مثل ذلك المنام ثم ليلة الأحد كذلك ثلاث ليال متوالية ، فصمم على أن يسلم وسأل عمن يقال له أبا شامة فدله المشايخ عليه وأمره أبو شامة بالإسلام فأسلم (٢) وهذا الحلم إن دل على شىء فإنما يدل على أن الناس تمنوا اقتراب اليوم الذى يخرج فيه الصليبيون من عكا آخر بلد لهم بالشام بعد أن استولى بيبرس على أنطاكية وقلاون على طرابلس ، ولم يتحقق لهم هذا الحلم إلا بعد أن مضى ما يقرب من سبعين عاما على حلم القصاب ، وحققه لهم السلطان المملوكى الأشرف خليل (٣) .

(١) نفس المرجع ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٣٧ .
(٣) نفس المرجع ص ١٨٩ .

(١) نفس المرجع ص ١٩٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٢١ .
(٣) تم ذلك سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) .

ومهما يكن من أمر هذه المقامات ، فإن العلماء استكثروا على أبي شامة أن يخلف أستاذه تقي الدين بن الصلاح في وظائفه ، وهو منشغل عنها بأحلامه ، فضايقوه واعتبروه منجما . وزادت مضايقتهم له عندما أخذ أبو شامة يحاضر في التاريخ بدلا من الفقه ، حتى أنه فرغ من إسماع كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) [1] على حين أنه لم ينه شيئاً من كتب الفقه . فلم يسعه قبالة هذه المضايقة إلا الاستقالة من كل وظائفه ، ولم يشر في كتبه إلى تاريخ استقالته ، ويبدو أنها حدثت سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) حين توجه ابن خلكان إلى دمشق ليتولى بعض وظائف أبي شامة [2] الذي قال عندئذ : « دمشق في عصرنا مع فضلها بليت ،من القضاة بجهال وأوقاع » (٣) . وبرر استقالته بأنه « محب العزلة والانفراد ، غير مؤثر للتردد على أبواب أهل الدنيا ، متجنب المزاحمة على المناصب ، لا يؤثر على العافية والكفاية شيئا » . واستطرد قائلا : « أردت راحة سري مما يضيق صدري ، لما ألاقي من جفاء وغدر وحسد واغتياب ، فياضياعا لعمري . فاخترت أن أتنحى واستقل بأمري » (٤) .

(١) نفس المرجع ص ١٨٧ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٥

(٣) أبو شامة : الذيل ص ٢١٤ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٣ ، السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦١ .

ومن ثم عكف أبو شامة في داره على إنجاز مؤلفاته ، غير أنه لم يتفرغ للتأليف كلية ، بل احترف الزراعة مثل الشيخ محمد القباري زاهد الإسكندرية ، ليأكل مما تزرعه يداه حلالا طيبا بدلا من أن يعيش على الأوقاف التي اعتبر أموالها حراما ، وحدث أن عاتبه أحد أصدقائه لاشتغاله بالزراعة فرد عليه مدافعاً :

لا تلمني على الفلاحة واعلم ... أنها من أحل كسب وأثرى

وبها صنت ماء وجهي عن النا ... س جميعاً وعشت في القوم حراً

إذ بها صار منزلي ذا غلال ... مع عيال من بعد ما كان قفراً

فعليك المعاش يا طالب العـ ... ـلم ولا تترك المعيشة كبراً

عجبا من مدرسين قضاة ... يتبارون في اللباس بطراً

وهم في نفوسهم في عظيم ... يركبون البغال عزاً وزهواً

حسدتني جماعة قال منهم ... قائل : ذا ومن أين أثرى ، (١) .

وتمكن أبو شامة من الاعتكاف بداره بعد فراغه من الزراعة ، لأنه رزق زوجة صالحة هيأت له حياة منزلية و د . ألما مدح رجل زوجه مثلما مدح أبو شامة فوصفها بأنها : « ولود ودود ، نظيفة لطيفة صبورة شكورة ، مطاوعة موافقة ، مطرزة

(١) أبو شامة : الذيل ١٩٥ ــ ٢٦٦ .

خياطة، مربية حنانة، تحفظ مال الزوج، وتفعل حتى الكنس والطبخ والغسل، قانتة صوامة، وتعمر البيت فى عينها أحلى من العزل »(١) . وبتعاون زوجته أمكنه أن يخصص بعض وقته لكتابة التاريخ، وكأنه أراد أن يعتبر دراسة التاريخ نوعا من العبادة فقال: « إن فى مطالعة كتب التاريخ معتبراً، وفى ذكرها عن الغرور مزدجراً، لا سيما إذا ذكر بعض من مات فى كل عام من المعارف والإخوان والأقارب والجيران وذوى الثروة والسلطان، فإن ذلك مما يزهد ذوى البصائر فى الدنيا ويرغبهم فى العمل للحياة العليا والاستعداد لما هم ملاقون، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه »(٢) . وحاز كتاب الروضتين إعجاب سامعيه فبعث سعد الدين ابن العلامة محيي الدين بن العربي يستعيره منه قائلا :

هذى ثمار الروضتين زكاتها
وجبت عليك فداة ثم نصابها
فامنن على بها لعلى اجتلى
ثمرات علم راحتاك سحابها
وأنا الكفيل بحفظها وبحفظها
ويكون أسرع من نداك إيابها

فلم يسع أبو شامة إزاء إعجابه بقوله : إلا أن يعيره الكتاب ؛ برغم حرصه الشديد عليه (٣) . أما كتابه الذيل على الروضتين فقال فى مقدمته : « حملنى على تأليفه كثرة موت المعارف، فأوردت إثباتهم لعلى بعطا لتهم أجد قلبا على الآخرة يساعف »(١) . ولذا جاء كتابه هذا أقرب إلى كتب التراجم منه إلى كتب التاريخ، وترجم لنفسه، فضرب المثل لبعض من جاء بعده من الكتاب مثل ابن خلدون .

غير أن أبا شامة لم يفس أن يشتغل بالإفتاء إلى جانب التأليف، فتوافد الناس على داره ليفتيهم فى شئون دينهم ودنياهم، برغم عزله من وظيفة الإفتاء، ذلك أنهم وجدوه حريصا على الاجتهاد فى الأحكام المختلف فيها، فيفتى بما يراه أقرب إلى الحق وإن كان المستفتى على خلاف مذهبه . على أن نبوغ أبى شامة فى الإفتاء تبعاً للأدلة جر عليه حسد الحساد وكيد الكائدين، فدخل عليه اثنان وهو فى بيته فى صورة المستفتين، وضرباه ضرباً مبرحا فى ٧ جمادى الآخرة سنة ٦٦٥ هـ (٥ مارس ١٢٦٧ م) أحدث به عاهات مستديمة، وأحجم عن تبليغ أولى الأمر قائلا : « يقيض الله تعالى لنا من يأخذ الحق ويشفى الغليل، إذا توكلنا عليه كفى فحسبنا الله ونعم الوكيل »(٢) . وظل أبو شامة عليلا من أثر هذا الضرب حتى توفى فى ١٩ رمضان سنة ٦٦٥ هـ (١٣ يونيو ١٢٦٧ م) .

عباس حلمى إسماعيل

(١) نفس المرجع ص ص ١٩٦ – ١٩٨ .
(٢) نفس المرجع ص ٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٠٠ .

(١) نفس المرجع ص ٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٤ .

التأمين

للأستاذ علي الخفيف

— ٨ —

وإذا قيل : إن هذا ضمان لما سيثبت في الذمة فيكون صاحبها مديناً به وضمان المؤمن ليس كذلك لأنه التزام بأداء ما يرتفع به الضرر من تعويض سواء ثبت ذلك التعويض في ذمة أحد من الناس بسبب اعتدائه أم لم يثبت بأن وقع الضرر قضاء وقدراً وعلى ذلك فلا وجه للمناظرة والقياس — قلنا في الإجابة عن ذلك : إننا لا نريد هنا قياساً على الكفالة بالدين المعدوم المنتظر وجوده أو الموعود بوجوده لنستدل به على جواز الضمان في التأمين وإنما نريد به الاستدلال على أن ضمان شيء أو تحمل تبعته مالا يستلزم أن يكون ذلك لشيء فعلا بل يصح أن يكون لشيء غير موجود موجود وهو على خطر الوجود قد يوجد وقد لا يوجد — وإلا فإن محل الضمان في التأمين مغاير لمحل الضمان في الكفالة إذ محل الضمان في الكفالة هو الدين في ذمة المدين ، أما في التأمين فهو التعويض عما أحدثه الخطر الحادث من ضرر وجوازه لا يقوم على هذا القياس وإنما يقوم كما سيأتي على أنه مباح جرى عليه التعامل لحاجة الناس إليه ولم يرد فيه دليل يدل على حظره وعلى ذلك فلا وجه للقياس .

أما جهالة مقدار ما يرتفع به الضرر من التعويض عند إنشاء التأمين فلا تحول دون صحة الضمان ووجوده ذلك لأن الجهالة الممنوعة هي الجهالة التي تؤدي إلى استحالة تنفيذ الالتزام . أما ما لا يؤدي منها إلى ذلك كما كان مآلها إلى الزوال فلا تمنع من صحة الضمان ألا يرى أن الكفالة بما سيقرضه فلان جائزة مع جهالة مقداره ، وأن الكفالة بما لك في ذمة فلان جائزة مع جهالة المكفول بمقداره وأن الكفالة بما سيثبت لك في ذمة فلان جائزة مع الجهالة بمقداره وخلاصة المذاهب في ذلك : أن الكفالة بمجهول المقدار جائزة عند الجميع خلافاً للشافعي والثوري والليث ابن سعد وابن أبي ليلى والشيعة — وأهل الظاهر غير أن الحنابلة يشترطون في صحة كفالته أن يكون مآله إلى العلم بمقداره ، وفي الواقع أنه شرط ليس محل خلاف إذ تقتضي الكفالة المطالبة ولا مطالبة بمجهول فلابد أن يكون المآل العلم به عند المطالبة به وعلى ذلك فضمان التعويض في التأمين أو تحمل التبعة لا يحول دون صحته جهالة مقداره كما لا تحول دون صحة الكفالة بالدين جهالة مقداره .

٤ - الأساس الشرعي الذي يقوم عليه حكم التأمين :

يرى رجال القانون الذين كتبوا في عقد التأمين أنه عقد معاوضة - وهذا الرأي منهم على ما يبدو لي من تصريحهم بأنه يقوم على التعاون بين المستأمنين وأن الشركة المؤمنة ليست إلا وسيطا بينهم مسايرة منهم لما يكون في نفوس المستأمنين عند إقدامهم على عقد التأمين مع شركة من شركات التأمين فليس يقوم في نفوس أكثرهم عندئذ إلا الموازنة بين ما يلتزمون بدفعه إلى الشركة وما سينالهم منها بناء على هذا التعاقد من تعويض نتيجة التزامها بموجبه تحمل تبعة ما ينزل بهم من ضرر - ثم هو رأى إلى هذا يتفق مع الصورة الظاهرة للعقد وهي تلك الصورة التي فرضها التكييف القانوني الفني كوسيلة لإعطاء هذا التعاقد من القوة والأحكام والآثار ما للعقود لتكون الأساس في الفصل إذا ما حدث بشأنه نزاع بين المتعاقدين - وقد ساعد على هذا التكييف ما ينشأ به العقد من عبارات وما يحويه من شروط مما يضفي عليه صورة المعاوضة .

وإذا فرضنا أن هذا هو أساس التأمين وحقيقته وواقعه فليس ذلك بحائل دون جوازه شرعا لما بينا من أنه على هذا الوضع يكون نوعا جديداً من التعاقد وضربا مستحدثا من ضروب المعاوضة التي لا تقف عند حد ولا تنتهي صورها عند صور معينة محصورة وذلك بسبب تطـــور المعاملات المالية التعاملية والاتفاقات الاقتصادية وتغيرها والمبادلات بمضي الزمن وما يأتي به المستقبل من اكتشافات ومخترعات تدعو إلى هذا التنوع من التعاقد والمبادلة ألا ترى أن اكتشاف الكهرباء وإرادة الانتفاع بها دعا إلى التعاقد على الحصول عليه فكان عقداً جديداً ليس هو بعقد البيع ولا بعقد الإجارة ولا يتناوله عقد من العقود المعروفة وإذا استطعنا في مستقبل الزمن أن نصل إلى إحراز حرارة الشمس وتوزيعها للانتفاع بها رأينا أنفسنا في حاجة إلى عقد جديد بشأن ذلك مع الهيئة التي تقوم على تنظيم ذلك يومئذ وهكذا لا تقف صور عقود المعاوضة عند حدود معينة .

وعلى ذلك فليس يمنع من جواز التأمين مع الشركات أن يعد عقد معاوضة أحد البدلين فيه التزام المستأمن بدفع أقساط مالية في أوقات معينة والبدل الآخر التزام شركة التأمين بتحمل تبعة ما يصيب المستأمن من ضرر نتيجة لنزول كارثة معينة به - ويكون قيام الشركة بدفع التعويض نتيجة لازمة لتحميل التبعة أو لهذا الضمان الذي أفاد العقد . كما لا يمنع من جواز هذا العقد أيضا أن يكون عقد ضمان لما قد يحدث وأن يكون مقدار التعويض الذي يرتفع به الضرر مجهولا عند إنشاء العقد وذلك لما بينا في النقطتين الثانية والثالثة .

وهذا النظر من رجال القانون على ماله من

سند واقعي ليس بالنظر المحيط العميق الذي يصيب وحدة الأساس في جميع أنواعه واحد ســـواء فيه التأمين الاجتماعي والتأمين الاشتراكي اللذين تقوم بهما الحكومات والتأمين التعاوني والجماعي والتأمين بالتعاقد مع الشركات وهذا الأساس قيامه في جميع أنواعه على التعاون بين المستأمنين ـــ فالتعاون الاجتماعي الذي تقوم به الحكومات يقوم على ما تجمعه الحكومة التي تقوم بذلك من المستأمنين من مال تستقطعه من مرتباتهم لديها أو من مرتباتهم لدى من يستخدمونهم من أرباب الأعمال مضافا إلى ذلك ما يدفعه أرباب الأعمال وما تدفعه الحكومة معونة لهم ومن الحصيلة يدفع التعويض لمن يستحقه وهذا من غـــير شك يحقق التعاون بين المستأمنين من العمال وبين أرباب الأعمال والحكومة في تخفيف الضرر أو رفعه .

وكذلك يبدو واضحاً كما بينا فيما سبق قيام التأمين التعاوني على التعاون وليس يختلف عنه في ذلك التأمين الاشتراكي مع الشركات فهما في الحقيقة نوع واحد له أساس واحد هو التعاون بين المستأمنين ولا اختلاف بينهما إلا من حيث النشأة ذلك أن التأمين التعاوني يبدأ وجوده وحيـــاته باجتماع المستأمنين واتفاقهم فيما بينهم على القيام بالتعاون بينهم في دفع ما ينزل بأحدهم من ضرر بسبب حادث هم معرضون له جميعا ثم يتلو ذلك قيامهم بتأليف هيئة منهم أو ممن يرونه أهلا للقيام عنهم بهذا العمل لخبرته وأمانته وتفرغه فتقوم هذه الهيئة بكل ما يقتضيه تحقيق هدفهم هذا من أعمال كجمع الاشتراكات وتثمير المال ومباشرة التعاقد مع من يريد الانضمام إليهم ودفع التعويض لمن يصيبه الخطر منهم إلى غير ذلك ، وذلك نظير أجر يعطى لها .

أما التأمين الاشتراكي بواسطة الشركات فإنه يبدأ وجوده وحياته بظهور جماعة يرغبون في هذا العمل ـــ عمل التأمين ـــ لما يرون من قدرتهم عليه ويسره عليهم ولما يأملون فيه من جزاء مالي مرضي أو مطمع فينصبون أنفسهم له ويتفرغون لأعماله ويقومون بالدعاية اللازمة ويدعون النـاس إلى التعاقد معهم بوصف أنهم عملاء ووسطاء يعرضون أنفسهم وخدماتهم على من يرغب في التأمين من خطر معين أو أخطار معينة فيجتمع عليهم العدد العديد يتعاقدون معهم على ذلك ليقوموا بجميع الأعمال التي يتطلبها التأمين بناء على التزامهم بذلك نتيجة للتعاقد معهم ـــ وعلى ذلك تثبت لهم صفة النيابة عن المستأمنين أو الواسطة بحكم هذا التعاقد ووضعه وما سن له من قوانين وبذلك يصبح مركزهم من المستأمنين مركز ـــ النائب والوسيط كما هو الحال في الهيئة التي تقوم بذلك في التأمين التعاوني فلا يرى فارق بين الحالين إلا في النشأة والوجود ـــ وعلى ذلك يرى أن من له القيام بأعمال التأمين في الحالين : حال التأمين التعاوني وحال التأمين الاشتراكي

مع الشركات فى مراكز الوصى أو النائب فليس له ملك ما يجمع من الأموال ويقتضيه من الأقساط ملكا مطلقا يتصرف فيه تصرف المالك كما يشاء ولكنه يعد ملكا للمستأمنين كما كان قبل أخذه منهم غير أن ملكيتهم له أصبحت بهذا التعاقد ملكية مقيدة بمقتضى القوانين التى سنت فى هذا الشأن وكما يأخذ القائمون بالعمل أجورهم من حصيلة المال الذى تحت أيديهم فى التأمين التعاونى كذلك يكون الفرق الناتج من موازنة ما يجمع من الأقساط وما يستحق من التعويضات بعد احتجاز ما يجب احتجازه للاحتياط أجراً وربحا للقائمين بالعمل ومن إليهم من أعضاء الشركة نظير العمل فى رأس مالهم الذى أسهموا فيه ابتداء عند تكوين الشركة ليكون دعامة لا يتجاوزها لقيامها وعملها وهذا الربح أيضاً مقيد بجدول بمقتضى القوانين حتى يكون لحصيلة الاحتياط ما يقويها ويدعمها .

من ذلك يتبين أن الوضع فى الحالين واحد وأن كلا منهما قائم على التعاون بين المستأمنين والتضامن بينهم جميعاً فى دفع ما يصيب أحدهم من ضرر إصابة لخطر معين نزل به وذلك بواسطة ما يجمع منهم من مال يقوم على جمعه واستغلاله وحفظه على هيئة تنوب عنهم فى الحالين . وليس يختلف فى الحالين وضعها ولا حقوقها ولا ولايتها ـ ومن هذا يظهر أن أساس التأمين واحد فى جميع أنواعه لا يختلف نوع منه عن نوع آخر فى ذلك ـ وإذا كان هذا هو أساس التأمين فإن التعاقد الذى يقوم على هذا الأساس تعاقد لا يخرج عن أصول الدين ولا يتعارض معها ويجب لذلك أن يكون الحكم واحداً فى جميع أنواعه وعلى ذلك تكون التفرقة فى الحكم بين التأمين التعاونى وبين التأمين الاشتراكى مع الشركات التى ذهب إليها بعض الباحثين إذ أجازوا النوع الأول دون الثانى لا أساس لها إذ أنهما فى الوضع والتكييف والأساس سواء فكلاهما يقوم على التعاقد والالتزام والأساس فيهما واحد كما بينا والتعويض فيهما إنما يدفع من أموال المستأمنين التى جمعت منهم لهذا الغرض وكلا العقدين فى الحالين عقد جديد مستحدث دعت إليه الحاجة والمصلحة ـ والدافع للتعويض فيهما هى الهيئة التى تمثل المستأمنين فى الحالين . أما أنه عقد جديد مستحدث فلما هو ثابت من أنه لم تكن له بداية وجود إلا فى القرون الوسطى.

وقد بينا فيما سبق أنه قد خلا من كل سبب يدعو إلى حظره وأن ما أثير حوله من الشبهات ليس له واقع ولا أساس وأنه إذا لم تكن المصلحة داعية إليه فهو على الإباحة الأصلية يجوز للناس أن يقدموا عليه وأن يتجنبوه دون إثم ولا لوم ولكننا قد بينا فيما سبق ما للتأمين من فوائد ومزايا وما يترتب عليه من مصالح أدت إلى ذيوعه وتنوعه وانتشاره وتغلغله فى نطاق الصناعات على اختلاف أنواعها وفى مجال التجارة على اتساعه وفى

معظم وجوه النشاط الاقتصادى وإلى عناية الحكومات بأمره تشريعا ومراقبة وتنظيما وإلى قيامها به مراعاة لمصلحة عمالها وموظفيها ثم إلى فرضه فى نواح عديدة بما شرعته الحكومة من القوانين وهذا على امتداد انتشاره إلى ما يصيب الإنسان من مرض أو عجز أو شيخوخة ثم إلى ما بعد حياته بالنسبة إلى ما قد تتعرض له ورثته بسبب وفاته من حاجة أو فاقة .

إن كل هذا مما يقطع بأنه مفيد وبما يترتب عليه من مصالح أحلته فى المجتمع الإنسانى محلا له خطره وأنزلته مكانة لها إشعاعها وسموها بسبب ما قام بأمواله من منشآت ومصانع ومؤسسات كان لها أعظم الأثر فى الثروة القومية والمجال الاقتصادى - وهى مع ذلك مصالح تحقق حكمة الشارع فى كثير مما شرعه من الأحكام فهى تحقق التعاون فى البر وقد أمر به فى قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى » والحذر وقد أمر به فى كثير من المواطن منها قوله تعالى فى بعضها : « وخذوا حذركم » ، والوقاية من المكروه والضرر وقد نفى ذلك الشارع إذ قال : (لا ضرر ولا ضرار) إلى غير ذلك مما يدل على أن الشارع الحكيم لم يهدف فى تشريعه إلى العقود والاستسلام وعدم النظر إلى العواقب وترك الحيطة والحذر . إن وصول التأمين إلى هذا المستوى من الانتشار والأهمية يدل على أنه قد صار عرفا عاما معروفا فى جميع البلاد الإسلامية شرقية وغربية فهو منتشر فيها كله ذائع فى جميع مجالاتها الاقتصادية وإذا لم يكن هذا الانتشار محققا للعرف العام فبم يتحقق إذن هذا العرف ؟ وليس يقدح فى ذلك أن عدد المستأمنين بالنسبة إلى غيرهم قليل وأن من الناس من ينكره إذ لا يشترط فى أن يصير الشىء عرفا عاما أن يباشره كل فرد من أفراد الأمة ولا أن يعمل به أكثرها من ناحية العدد ولا ألا يكون عليه إنكار فالعرف هو الأمر المتكرر من غير علاقة عقلية [1] ويصير عاما إذا ما تعارف عليه الناس فى جميع الأمصار فجروا عليه فى معاملاتهم أو فى حياتهم وتصرفاتهم كعقد الاستصناع وذلك متحقق فى التأمين بل إن اشتهار عقد التأمين وشيوعه أشد وأعظم من انتشار عقد الاستصناع وشيوعه ولم يقدح فى أن يكون عقد الاستصناع عرفا عاما أن الشافعية ومن ذهب مذهبهم ينكرونه وليس يباشر الاستصناع كل فرد ولم يعمل إحصاء لمن باشر الاستصناع ومن لم يباشره .

ومع ذلك فليس الإنكار على التأمين إلا قائما على شبهات لا واقع لها ولو علم المنكرون أساسه ما أنكروا عليه ، وهم عدد قليل ممن عنوا بالبحث فأخطأوا النظر فكان من ذلك إنكار .

ولما تقدم بيانه ولما هو واضح من أنه يؤدى إلى مصالح اجتماعية وفردية لها قيمتها

(١) شرح التحرير ج ١ صفحة ٢٨٢ .

ووزنها فإنى أرى أن جوازه شرعا لا ينبغى أن يكون محلا للخلاف - وفيما ذهب إليه بعض المالكية من وجوب الوفاء بالوعد قضاء مسوغ قوى صالح لأن يكون الرأى فى التأمين هو الجواز والإلزام سواء نظرنا إلى رأى من ذهب إلى وجوبه مطلقا أم إلى رأى من ذهب إلى وجوبه إذا كان على سبب فالتأمين لا يقل منزلة عن وعد أقيم على سبب إذ أنه يتضمن الالتزام بدفع التعويض عند نزول الضرر بالمستأمن وإذا كان الوعد واجب الوفاء قضاء فأولى أن يجب الوفاء بالالتزام بالتعويض فى التأمين .

٥ — من النقطة الخامسة بما يصاحب عملية التأمين :

أما ما يصاحب عملية التأمين من شروط أو رغبة فى الادخار فليس يمس ذلك الحكم فى عملية التأمين ذاتها لأن ذلك أمر خارج عنها ومن اليسير على المستأمن أن يجعل عقده خاليا من كل ذلك فلا يطلب ادخارا ولا يقبل شرطا يحل حراما أو يحرم حلالا إذ ما عدا ذلك من الشروط جائز أما ما قيل من أن شركات التأمين تستثمر أموالها فى أعمال ربوية فإن المستأمن يستطيع كما قدمنا أن يبرأ لدينه بأن يشترط عليها ألا تستثمر ماله فى عمل ربوى وبذلك يرى أن من أتم إنكاره على التأمين بناء على ما يصاحبه من شروط أو رغبة فى الادخار لم ينكر على التأمين نفسه وإنما أنكر شيئا آخر .

الرأى فى التأمين من الناحية الشرعية .

إن ما قدمناه من الأسباب يستوجب أن يكون حكم التأمين شرعا هو الجواز وهى أسباب نجملها فيما يأتى :

أولا : أنه عقد جديد مستحدث لم يتناوله نص خاص ولم يشمله نص حاظر والأصل فى ذلك الجواز والإباحة .

ثانيا : أنه عقد يؤدى إلى مصالح بيناها وبينا وزنها ولم يكن من ورائه ضرر وإذا ثبتت المصلحة فثم حكم الله

ثالثا : أنه أصبح عرفا عاما دعت إليه مصلحه عامة ومصالح شخصية والعرف من الأدلة الشرعية .

رابعا : أن الحاجة تدعو إليه وهى حاجة تقارب الضرورة ومعها لا يكون للاشتباه موضع إذا فرض وكان فيه شبهة .

خامسا : أن فيه التزاما أقوى من التزام الوعد وقد ذهب المالكية إلى وجوب الوفاء به قضاء .

هذا ما أدى به النظر فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمنى وما توفيقى إلا بالله . . ؟

على الخفيف

لفت نظر : طلب أحد كبار العلماء إلى المجلة أن تذكر القراء بأن هذا البحث لم يصدر مجمع البحوث قرارا فيه وقد سبق أن بينت المجلة السبب فى نشره ؟

ما يقال عن الإسلام

الأخلاق الإسلامية

للأستاذ الدكتور احمد فؤاد الأهوانى

الأخلاق الإسلامية موضوع من أهم الموضوعات وأعظمها خطراً ، لأن الأخلاق فى الأمم هى الأساس المتين الذى تقوم عليه ورحم الله الشاعر حين قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

وقد ظهر الإسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولا تزال الدول الإسلامية باقية حتى اليوم ، وذلك بفضل ما يسودها من أخلاق إسلامية متينة .

وعلى الرغم من أهمية الأخلاق ، ومن أن مفكرى الإسلام كتبوا فى كل ما يخطر على البال من موضوعات ، إلا أن كتب الأخلاق قليلة جداً ، وما نجده فى بطون الكتب المطولة من فصول تتصل بالأخلاق قليل أيضا . وعلة ذلك أن كتاب المسلمين الذى يرجعون إليه فى أمور دينهم ، وهو القرآن الكريم ، هو كتاب دين كما أنه كتاب دنيا كذلك ، إنه كتاب أخلاق ، إنه هدى للمتقين .

والأخلاق هى السلوك الصالح الذى يجب على المرء أن يفعله ليصلح من أمره فى نفسه ، كما يصلح أمر المجتمع الذى يعيش فيه . وقد نزل القرآن ليبين للناس الطريق الصحيح الذى يجب عليهم أن يسيروا فيه ليصلوا إلى صلاح معاشهم ، أو بلغة القرآن ليهديهم إلى الصراط المستقيم . ولذلك سمى القرآن الهدى ، ومن سلك سبيل القرآن اهتدى .

غير أن القرآن ليس كتابا مؤلفاً على أبواب وفصول كما هى الحال فى الكتب التى يؤلفها البشر ، أو فى كتب الأخلاق المتداولة . إنه كتاب سماوى ، نزل على محمد عليه السلام منجما فى عشرين عاماً بحسب المناسبات ، فيه الترهيب والترغيب ، والأمر والنهى ، والإقرار بالوحدانية ، ومجادلة الكفار ، وضرب الأمثال بالأمم التى بادت حين كفر أهلها بأنعم الله ، وفيه بيان للعبادات الأساسية كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وما لهذه العبادات من أثر فى القرب من الله ، والاتصال به ، ومعرفته ، وخشيته ، وفيه إلى جانب ذلك تشريعات خاصة بالميراث والتملك وعقاب السرقة والقتل وغير ذلك ، ثم فيه أيضا قواعد السلوك التى تسمى بالأخلاق .

إن الذى يتتبع الآيات الواردة فى القرآن عن الأخلاق يرى أنها تحث على الإيثار ،

لا على الأثرة ، إنها فى جملتها أخلاق اجتماعية ، لا أخلاق فردية . وليس معنى ذلك أن القرآن ينظر إلى المجتمع ويلغى الفرد ، ولكنه ينظر إلى الفرد فى ضوء مصلحة المجتمع ، وإذا تضاربت المصلحتان فلا عجب أن يؤثر الفرد مصلحة المجتمع ، وأن يضحى بنفسه فى سبيله.

والمبدأ الثانى الذى يستخلص من القرآن أن الأخلاق الإسلامية هى أخلاق « تقوى » بكل ما تحمل التقوى من معان سلبية وإيجابية أى تجنب الحرام ، والإقبال على الحلال ، والحرام والحلال - فى الأخلاق - ليس الحرام والحلال المنصوص عليهما فى التشريع والفقه ، وما رتب عليهما من جزاء كالسرقة التى يعاقب مرتكبها بقطع يده أو دفع الزكاة التى يثاب عليها صاحبها وإنما الذى يدخل فى قبيل الأخلاق هى تلك الأفعال التى يقوم بعملها المسلم بمحض « ضميره » وبدافع من « التقوى » ولذلك قال الشاعر :

تقوى الإله مدار كل فضيلة

الإيثار والتقوى هما لحمة الأخلاق الإسلامية وسداها .

وهذا شىء لم يفطن إليه المستشرقون الذين ألفوا فى الأخلاق الإسلامية ووازنوا بينها وبين الأخلاق اليونانية أو الأخلاق المسيحية . وكلاهما مختلف اختلافا أساسياً عن الأخلاق الإسلامية ولهذا لم يوفق معظم هؤلاء الكتاب ، ومنهم الأستاذ (دونالدسون) صاحب كتاب « دراسات فى الأخلاق الإسلامية » طبع فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٣ ، وأعيد طبعه سنة ١٩٦٣ .

والأستاذ (دونالدسون) معروف لقراء العربية من كتابه عن « عقيدة الشيعة » الذى نقل إلى اللغة العربية وقد يكون كتابه عن الشيعة ، وبخاصة الاسماعيلية ، جيداً فى بابه ، لأن هذه الفرقة صاحبة عقيدة سرية ، ولها كتب خاصة بها ، وكل ما كان باطنياً سرياً فلا يقبل المناقشة الصريحة المعقولة .

أما الأخلاق الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة بوجه خاص ، فهى أمر واضح مكشوف لا سر فيه ، وهى أخلاق تعم كافة المسلمين فى الشرق والغرب على السواء ما داموا متبعين لكتاب الله وسنة رسوله .

جرى المؤلف على سنة غيره من المستشرقين الذين أرجعوا الفضائل الإسلامية إلى ما كان موجودا عند العرب فى الجاهلية من الكرم وحفظ الجار والحلم ، وغير ذلك ، والواقع أن الطبيعة البشرية مزيج من الفضائل ومن الرذائل ، وهذه الخصال موجودة فى كل زمان ومكان لأنها مستمدة من طبيعة الإنسان نفسه وما فعله القرآن هو أنه امتدح الفضائل التى بها تزكو النفس وتقرب من الخير وتصلح المجتمع ، وذم الرذائل المفضية إلى هدم الأمة وضياعها وذلك فى ضوء المبدأين المذكورين من قبل وهما : الإيثار والتقوى .

وقد خلط المؤلف بين أصول الدين والفقه وبين أصول الأخلاق حين تحدث في الفصل الثاني عن الأخلاق في القرآن ، مثال ذلك أنه يذكر الآيات الخاصة بحسن معاملة اليتيم والرضاعة ، أي إرضاع الأم وليدها خمسة عشر شهرا وإجراءات الطلاق ، والميراث وغير ذلك مما يعد من جملة التنظيم الفقهي لا الأخلاق .

والعجب أن المؤلف قسم الأخلاق الإسلامية المستمدة من القرآن إلى أخلاق أخذ الرسول يعلمها في مكة ، وأخرى في المدينة وهذه قسمة لا محل لها ؛ لأن القرآن كتاب واحد ، وتعاليمه واحدة ، ولا يفيد هذا التتبع التاريخي في شيء ، ما دام الباحث يرغب في معرفة الأخلاق الإسلامية الصالحة لكل زمان ومكان . ثم خرج المؤلف عما قصد إليه ليحدثنا في صفحة ٢١ : « أن الأستاذ (تور أندريه) وغيره قد اعتبروا أن محمدا لا بد قد سمع التعاليم المسيحية ، إذ يلاحظ غالبا في الوحي الذي هبط على محمد أسلوبا بلاغيا يقرر على وجه التقريب الأمور الآتية : (١) وصفا لأنعم الله المتجلية في عنايته وبخاصة خلق الإنسان ، وإنزال المطر الذي ينبت الزرع الذي يأكله الإنسان . (٢) واجب الإنسان بناء على ذلك أن يعبد الله وحده بالإيمان والعمل الصالح . (٣) الجزاء الذي يصيب كل من يتخلى عن أداء واجبه ،

أما أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد أخذ هذه التعاليم عن المسيحية ، وسمعها كما يقال عن (قس ابن ساعدة) وغيره ، فالرد على ذلك يخرجنا عن موضوعنا ، أما الذي نأخذه على المؤلف فهو أن الأمور الثلاثة التي ذكرها أدخل في باب أصول الدين منها في باب الأخلاق ، وهـــذا الخلط بين أصول الدين والفقه والعبادات والأخلاق يسود الفصل الذي عقده المؤلف عن اخلاق القرآن .

ومن قبيل الاستطراد والإطناب الفصل الثالث الذي عقده عن أخلاق السنة والذي اضطر فيه أن يشرح : ما الحديث .؟ وما السنة .؟ وما السيرة .؟ وأن يذكر أبواب كتب الحديث حتى يصل إلى ما يتصل بالأخلاق وهو باب « الآداب » ، وكان الأجدر أن يحدثنا المؤلف عن أخلاق النبي ، باعتبار أن سلوكه قدوة يحتذيها المسلمون ، وباعتبار أن القواعد النظرية التي وردت في القرآن ، حققها النبي في هيئة أفعال ، وبهذا الفصل يبلغ الكتاب الثلث ويبقى ثلثان للأخلاق الفلسفية وغيرها .

ولست أدري هل تعد الأخلاق الفلسفية ، أي المستمدة من الفلسفة اليونانية من جملة الأخلاق الإسلامية أم لا ، وقد ظهر في تاريخ الحضارة الإسلامية كتب تبحث في الأخلاق على الطريقة اليونانية ولكنها لم تؤثر في حياة المسلمين ، إذ حجبها كتاب الله ، ولم تستطع أن تبلغ إلى مقامه ، ونحن نعني بوجه خاص

كتاب (ابن مسكويه) المسمى « تهذيب الأخلاق » فإنه يناقش الأخلاق الموروثة عن اليونانيين عن أفلاطون وعن أرسطو بخاصة ، وعن مدرسة الإسكندرية ، ولما كان الأساس الذى تعتمد عليه الأخلاق الأفلاطونية أو (النيفوماجية) مختلفا عن أساس الأخلاق الإسلامية ، فلا جرم لا يحس المسلم وهو يقرأ كتاب (ابن مسكويه) بأثر فى نفسه ، وظل الكتاب بعيداً عن الشعبية ، ولم تعرفه إلا طائفة قليلة من المثقفين الذين كانوا يقرءونه للذة العقلية فقط . ومن الطبيعى أن يحفل بهذا الكتاب جماعة المستشرقين ، ولذلك عقد له المؤلف فصلا على حدة ، كما نقل بعض أجزائه إلى اللغة الإنجليزية ، وهو الفصل الذى يتحدث فيه عن السعادة . وقد قلنا من قبل إن الأخلاق الإسلامية ليست أخلاق سعادة ، وهى بغية اليونانيين ، ولكنها أخلاق تقوى ، لأنها أخلاق دينية .

ولم يغب عن بال المؤلف أن يعقد فصلا للغزالى ، ولكن الغزالى كتب نوعين من الأخلاق ، أحدهما على الطريقة اليونانية فى (ميزان العمل) ، والآخر على الطريقة الإسلامية فى (الإحياء) ولم يفطن المؤلف إلى هذه التفرقة ، كما لم يفطن إلى أن أخلاق الإحياء تنحو نحو الزهد والتصوف ، وهو الطريق الذى اختاره الغزالى فى آخر حياته ، وهذا النوع من الأخلاق لا يمثل الاتجاه العام للأخلاق الإسلامية ، ذلك أن الإسلام لم ينه عن الدنيا ، ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها والزهد فيها ، ولم يحرم زينة الله . ولذلك كان ينبغى أن يضيف المؤلف الغزالى الذى بحثه فى الفصل السادس إلى أخلاق الزهاد فى الفصل الثامن .

والفصل السابع مخصص للمؤلفين الإيرانيين ، وبوجه خاص (ناصر خسرو) و (فخر الدين الرازى) و (نصير الدين الطوسى) وقد كتب الطوسى بالفارسية « أخلاق نصيرى » ، واهتم المؤلف به خاصة لأنه شيعى متعصب ، احتضنه الإسماعيلى (نصير الدين) الذى تحصن فى قلعة (سرتخت) وكان نصير الدين من طائفة الحشاشين الإسماعيلية ، وباسمه كتب الطوسى « أخلاق نصيرى » على الطريقة اليونانية . وهو يبدأ الكتاب بالتفرقة بين الإنسان والحيوان ، وبوجوب التسامى عن سلوك البهائم ، واللذات البدنية من طعام وشراب وملبس ونساء .

صفوة القول : يعد الكتاب نافعاً إلى حد ما بما يكشف من آراء دخيلة على الإسلام ، يجهلها معظم أهل السنة ، ولكنه لم يأت بجديد فيما يختص بالأخلاق الإسلامية الخالصة المستمدة من القرآن والسنة ، والتى يعرفها المسلمون فى المشرق عن كتاب الله وسنة نبيه مباشرة ، وعن ممارستهم للعبادات فعلا ؟

أحمد فؤاد الأهوانى

الكتب

للأستاذ : تحسين عبد الحي

تأملات في المجتمع العربي

تأليف مالك بن نبي

عندما قامت الحضارة العربية الإسلامية على مدى فترة زمنية طولها أربعة عشر قرنا من الزمان . تصنع الحياة على هدى القيم التي غرسها الإسلام في نفس الإنسان المسلم - كانت تضع هذا الإنسان في مكانه الملائم الصحيح من حركة مجتمعه الذي يدافع ويجاهد ويحيا ويموت من أجله ... كان الإنسان المسلم هو محور الحركة المستمرة لحضارته الخالدة . ولقد أعطى الإسلام للإنسان مبررات وجوده في عالمه الرحيب ، فأعطى الإنسان للإسلام مادة حضارته . من عمله وجهده وطموحه ونبوغه في شتى الميادين العلمية والعمرانية .

وعندما تفتتت الدولة الإسلامية وسرى الوهن في جسد حضارتها كان السبب في ذلك هو فقدان هذه الحضارة لمؤثراتها وفاعليتها في ضمير الإنسان المسلم .

وعندما وقف الإنسان المسلم وحيداً محطما من داخله فاقداً لمبررات وجوده ، أصبح لديه قابلية لا حدود لها ليستعبد ويستعمر ويستذل ، ومن ثم أسلم قيادة نفسه لغيره . وتخلى عن حضارته يوم تخلى هو عن ضميره الواعي وشخصيته الفعالة - تخلى لإنسان جديد هو المستعمر ولحضارة جديدة هي الحضارة الاستعمارية بوسائلها الرهيبة . ولم يقف عند هذا الحد بل ترك لهذا الاستعماري ولحضارته الدخيلة أن تصوغ له أسلوب حياته وطريقة تفكيره ... بل ولتتدخل في شئون دينه ، من حيث استعمالها لقيم هذا الدين الذي زيفته في كثير من الأحيان لفرض مزيد من القيود على حريته وحركته في حياته عن طريق استخدامها لأدعياء الدين والجاهلين به كعملاء مأجورين لها . كان ولا يزال الإنسان المسلم هو ضحية هذا التواطؤ العدواني بين هؤلاء وهؤلاء .

ولقد اهتم الفيلسوف الجزائري المسلم مالك ابن نبي بمشكلة هذا الإنسان ومشكلة حضارته الإسلامية ... فكانت سلسلة كتبه الرائدة التي أصدرها تحت عنوان (مشكلات الحضارة) والتي بلغت تسعة كتب تشكل في مجموعها دراسة فريدة ورائدة في هذا المجال الحيوي . الذي اتخذ فيه المؤلف من الإنسان المسلم مادة دراساته العميقة الواعية .

فبعد أن قدم لنا كتابه الأول - شروط النهضة - جاء كتابه الثاني « فكرة الإفريقية الآسيوية » الذي عالج فيه مشكلة الإنسان الإفريقي وموقفه من عالم اليوم من حيث مواجهته لقوى الإنسان الأوربي وحضارته الاستعمارية إذ يقول في صفحة ٢٣ من هذا الكتاب : « لقد سيطرت على الحياة الدولية بكل أسف « إرادة القوة » التي لا تفارق حضارة القرن العشرين ، فهي قانون النفسية الغربية ، قانون يسجل التأخير الخلق لإنسان الغرب ، حتى كأنه يعيش في القرن التاسع عشر . وأحياناً يبدو وكأنه يحو خطاه في القرون الوسطى عندما يستمد غذاءه الروحي من تاريخ محاكم التفتيش ومن سيرة فرسان الاستعمار » .

وبعد دراسة موضوعية للقيم المتخلفة التي تحكم عالمه اليوم يقول لنا مالك بن نبي في نفس الكتاب صفحة ٢٦٧ : « ومما لاجدال فيه أن الإسلام قد احتفظ بعضائه الذي صيغت به الحضارة الإسلامية كدرة فريدة في التاريخ ، ولكن المسلم هو الذي فقد استخدامه الاجتماعي ، ومع هذا فقد احتفظ بالجوهر ، أي بهذا الغذاء الروحي الضروري لحل عقدة العقد في العالم الراهن حيث لا يمكن أن تحل الأزمة بوسائل القوة ، فالعالم يجب أن ينقذ من أخطار القوة . ولكي يتم إنقاذه منها فمن الواجب أن يختط سبيله بحيث لا يغوص في أوحال السيطرة مرة أخرى .

وهنا نجد أن المنقذ هو الإسلام ! وهكذا يستمر مالك بن نبي في كتابه الثاني في شرح وتحليل القيم الإسلامية على المستوى الآسيوي الإفريقي شارحاً خلالها موقف الإنسان المسلم في عالم اليوم ، ثم يأتي بعد ذلك كتابه الثالث عن « الظاهرة القرآنية » ليشرح لنا فيه جزءاً هاماً من موضوع مشكلات الحضارة على أساس مبادئ القرآن الكريم ، وفي كتابه الرابع « وجهة العالم الإسلامي » يستمر في نفس القضية وأسلوب معالجتها .. وقد ركز في كتابه الرابع على توضيح وجهة نظره فيما يقصده بالإسلام والعالم الإسلامي ، والمسلمين مهاجماً فيه أولئك الذين يرتزقون باسم الإسلام بعمالتهم للقوى الاستعمارية فيقول : في صفحة ١٢١ كان لدينا في الجزائر بعض المناظر المضحكة المبكية ، فكنت ترى بعض دعاة التصوف المسمين (بالمرابطين) يدعون الناس إلى الرجوع إلى الإسلام وهم يتلذذون بكأس خمر معتقة ، ويركبون السيارات الفاخرة التي منحتها لهم إدارة الشئون الإسلامية ، وفي صفحة ١٢٣ يقول : « وبمثل هذا تختار الإدارة الاستعمارية شخوصاً مطعونين في خلقهم لكي يمثلوا الشعب المسلم » .

ثم يتحدث في نفس الكتاب عن الأوضاع المادية والروحية للعالم الإسلامي فيقول في صفحة ١٨٩ : « وما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم والكيف

بين الروح والمادة ، بين الغاية والسبب ، فمهما اختل هذا التعادل فى جانب أو فى آخر كانت السقطة رهيبة » .

« والحضارة الإسلامية قد فقدت تعادلها يوم فاتها أن ترعى سلامة هذه العلاقة بين العلم والضمير ، بين العناصر المادية والوجود الروحى ، فغرقت فى هاوية الصوفية الخالصة وفى الفوضى التى سببت سقوطها ، وها نحن اليوم نشهد تجربة أخرى تنتهى إلى اختلال آخر فالحضارة الغربية التى فقدت معنى الروح تجد نفسها بدورها على حافة الهاوية » ثم يقول فى صفحة ١٩٠ . « فنهضة العالم الإسلامى إذن ليست فى الفصل بين القيم ، وإنما هى فى أن يجمع بين العلم والضمير ، بين الخلق والفن ، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة حتى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقاً لقانون أسبابه ووسائله أى طبقاً لمقتضيات غاياته » وهكذا يستمر فكر مالك بن نبي المستنير فى معالجة مشكلة الحضارة الإسلامية ومشكلة الإنسان المسلم فيصدر بعد ذلك كتابه الخامس ، « مشكلة الثقافة » ثم كتابه السادس الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة ثم كتابه السابع فكرة كومنولث إسلامى ، ثم كتابه الثامن « حديث فى البناء الجديد » إلى أن يأتى كتابه التاسع « تأملات فى المجتمع العربى » الذى نحن بصدده اليوم وهو امتداد لنفس الأفكار السابقة وفى نطاق سلسلة واحدة هى سلسلة كتب « مشكلات الحضارة » وفى تأملات مالك بن نبي فى المجتمع العربى نراه ينظر إليه من وجهة نظر فلسفته الحضارية الإسلامية ذات الخصائص المتميزة ، فقضيته هنا أيضا هى الإنسان ومشاكله ووضعه الاجتماعى وهو يفرق دائما بين عالم الأشخاص وعالم الأشياء ، ويرفض أن يتحول الإنسان من عالم الأشخاص إلى عالم الأشياء فالإنسان هو الإنسان والآلة هى الآلة ولا يمكن أن يكونا شيئا واحداً .

ويعقد المؤلف فصلا كاملا عن الحقوق والواجبات . فيقول فى صفحة ٣١ : « إن الباب الثانى الذى ينبغى أن نعود منه للحضارة بعد التخلص من نفسية السهل والمستحيل ، هو باب الواجب ، وأن نركز منطقنا الاجتماعى والسياسى والثقافى على القيام بالواجب أكثر من تركيزنا على الرغبة فى نيل الحقوق لأن كل فرد بطبيعته تواق إلى نيل الحقوق ولديه نفور من القيام بالواجب . والمجتمع الذى يرتفع وينمو هو ذلك المجتمع الذى لديه رصيد من الواجب يفيض دائما على الحقوق » . والإنتاج الاجتماعى يرتق بقدر ما يكون النشاط الفردى موجهاً لسد حاجات غير فردية ، أى عندما يكون موجها من أجل مصلحة عامة . ويحتاج النشاط الفردى باستمرار إلى نوع من الفعالية النفسية فى إطار الواقع الاجتماعى ، فكل

طاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب ومن مبررات وتوجيهات العقل ومن حركات الأعضاء ، وكل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر . والفاعلية تكون أقوى فى الوسط الذى ينتج أقوى الدوافع وأقوم التوجيهات وأنشط الحركات .

وعندما ننظر إلى أن اليد والقلب والعقل هى أساس الفعالية يجب أن نحدد معنى هذا بالنسبة إلى مجتمعات متخلفة . وهنا يمكن لنا أن نقف على عنصر جديد وعلى مصطلح نتفق عليه ، وهو أن نرد المبررات والدوافع والأسباب القريبة والبعيدة التى تدفع إلى خلق نشاط فعال إلى حالة خاصة وهى التوتر .

فالمجتمع العربى قبل العهد القرآنى يختلف اختلافا كبيراً عنه بعد العهد القرآنى ، فإذا بحثنا عن إنتاجه قبل ذلك مثلا فى الفترة التى تقدر بأربعة آلاف عام من عهد إسماعيل إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم نجده ينحصر فى عشر معلقات وهذا معناه أن الطاقات الاجتماعية ، طاقات القلب والعقل واليد فى حالة غير حالة التوتر الاجتماعى الذى يدفع إلى الإنتاج بقوة وحرارة ، ولكن الإسلام استطاع أن يخلق حضارة خلال نصف قرن ، ومعنى ذلك أن الإسلام أتى بالمبررات الدافعة لليد والعقل والقلب لكى تحقق مساندة حضارة ذات إشعاع .

ومن مظاهر التوتر فى هذا المجتمع الجديد تلك المرأة ذات الضمير الملىء توتراً حينما تأتى لمحمد صلى الله عليه وسلم وتطالب بإقامة حد الزنا عليها رغم الخفاء الذى أحاط بعملها فأبى توترها إلا أن يلح فى المطالبة بالحد بإصرار عجيب فصدها النبى لأنها كانت حاملا وقال لها حتى تضعى حملك ، ولما وضعته عادت إليه مطالبة بإقامة الحد لاتصال اليقظة فى الضمير والتوتر فى القلب بعمق أصيل ، حتى أقيم عليها الحد . وكان هذا التوتر مظهراً من مظاهر الحياة الناشئة مع الإسلام تشاهد أثره فى سلوك الحاكم حين طالب الشعب بأن يقوم اعوجاجه ويعدل انحرافه ، وفى ذلك اعتراف ضمنى بإمكان صدور الاعوجاج عنه كما نشاهده فى شئون الرعية فى شخص ذلك الأعرابى البسيط الذى يرد على سيدنا عمر بقوله : لو شاهدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

والخنساء التى ظلت فى الجاهلية تسكب عبراتها على أخيها (صخر) سنين طويلة أصبحت فى صورة جديدة فريدة تحمد الله على أن شرفها باستشهاد أبنائها الأربعة فى سبيل الدعوة ، وهذا يعنى انتقال مجتمع بأكمله من حالة (فتور إلى حالة توتر) وحركة وهذه الحركة حركة رقى فى جميع الاتجاهات ، فظاهرة البطولات كانت فى الجاهلية تهدف إلى الغزو والفخر ، أى تدور حول محور الـ (أنا) فبدت فى صورة جديدة هى الاستشهاد فى سبيل مثل عليا لأن الإسلام رفع المصلحة أو مبررات النشاط إلى أعلى مستوى ، فجعلها

فى عالم الآخرين ، فالبطولة فى الجاهلية تهدف إلى إعلاء شأن « (أنا) ولكن الإسلام يحول محور البطولة لكى تجد مبرراتها فى عالم الآخرين ، أى أصبحت تعبر عن اهتمام أسمى يرتبط بغريزة ال (نحن) أكثر منه با (أنا) « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ويعتبر ذلك تغييراً كاملا لمبررات البطولة .

وهكذا يستمر الكتاب فى دراسة آثار التغيرات الاجتماعية كنتيجة حتمية لاقتناع الإنسان بالمبررات الحيوية التى تعطيه معنى وجوده - تلك المبررات التى تجعله أكثر فاعلية وأكثر تقدما وارتباطاً بمشاكل عصره ومشاكل وجوده ... ولعل أروع ما استطاع مالك بن نبى أن يقدمه لنا فى هذه السلسلة الفريدة من الدراسات هو إرجاعه أسباب تخلفنا إلى فقداننا لمبررات وجودنا عند ما انفصلنا عن المبادىء الأساسية التى شرعها لنا ديننا الإسلامى الحنيف ... والإسلام الذى نقصده هنا هو الإسلام كما يراه مالك ابن نبى وكما نراه معه قوة دافعة إلى حياة فاضلة عادلة يحس فيها الإنسان بأهميته وبنفسه وسط مجتمعه الذى يرعاه ، وليس الإسلام الذى حرفه أولئك الذين لا ينظرون إليه إلا من زاوية مصالحهم الخاصة ومصالح أسيادهم المستعمرين .

أولئك الذين قال عنهم مالك بن نبى - يدعون الناس إلى العودة إلى الإسلام وهم يتلذذون بكأس خمر معتقة ويركبون السيارات الفاخرة .

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

للعلامة المحقق المغفور له أحمد تيمور « باشا »

قدم له العلامة المهندس أحمد عبده الشرباصى

(الطبعة الثانية)

الكتاب كما يقول السيد / المهندس أحمد عبده الشرباصى فى تقديمه ، كتاب عن سيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - نموذج لتأليف (أحمد تيمور) ويمتاز بأمرين :

أولهما : وجازته التى تتيح القارىء أن يستخلص فكرة عامة عن حياة الرسول فى وقت قصير مع الإحاطة بأهم أحداث السيرة .

والآخر : خلوه من المجازيات والمرويات الضعيفة التى كثيراً ما يتعلق بها بعض الكاتبين فى السيرة النبوية .

ويحتوى الكتاب على فصول فى أنساب العرب وطبقاتهم ، وممالك العرب قبل الإسلام ، وأخلاق العرب وعاداتهم ، ونسب النبى صلى الله عليه وسلم وأدوار حياته ، من ولادته إلى النبوة ، ومن النبوة إلى الهجرة ، ومن الهجرة إلى الوفاة ، هذا بالإضافة إلى فصول أخرى عن الغزوات وبعثها وجملها ، وفتح مكة المكرمة ، وحجة الوداع ووصف النبى لأصحابه وغيرها من الدراسات الشيقة .

ويقع الكتاب فى ١٩٨ صفحة من القطع الكبير ونشرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية ؟

محسن عبد الحى

أنباء وآراء

الفصحى والعامية فى رأى مستشرق فرنسى

بدعوة من جامعة الأزهر ألقى المستشرق الفرنسى ريجيس بلاشير Regis Blachere محاضرة بقاعة «عباس محمود العقاد» بكلية اللغة العربية فى ١٩٦٦/٣/٥ تناول فيها بلغة عربية فصحى - تاريخ دراسة العربية فى فرنسا ابتداء من مطالع هذا القرن، وأشاد - فى كلمته - بالمعاجم العربية وطريقتها «المنطقية» - على حد قوله - فى ربط المعانى بعضها ببعض، وأشار - فى تلك الكلمة - إلى ميزة اللغة العربية فى احتفاظها بطبيعتها مدى هذه القرون «وتلك ميزة - كما قال - لا تتوفر لكثير من اللغات، فقد تغيرت طبيعة اللغة الفرنسية تغيراً أبعدها فى العصور الوسطى عن اللغة القديمة كما أبعد الفرنسية المعاصرة عن الوسطى والقديمة معا»، وطالب بضرورة الاهتمام «بشكل الحروف» وبخاصة فى الشعر حتى يتيسر الانتفاع بالعربية بين أبناء الشعوب الذين يتعلمونها.

وفى السبت ١٢ / ٣ / ١٩٦٦، وفى نفس القاعة عقد الأستاذ ندوة تحدث فيها عن مشكلة الساعة ... «العربية بين الفصحى والعامية»، وحضر الندوة الملأ من رجال الأدب والصحافة فى مصر وبخاصة أولئك الذين يحملون لواء المعركة فى شطريها ... وهى المعركة التى أثار الذياد فيها عن الفصحى الأستاذ الشاعر عزيز أباظة الذى حضر الندوة.

أشرف على الندوة الأستاذ الدكتور محمد نايل رئيس قسم الأدب والنقد بالكلية وقدم المستشرق ... وقد حرصت مجلة الأزهر على أن تحظى بكلمته فى هذا الموضوع قال:

«قبل الشروع فى كلمتى ينبغى أن أكرر لكم شكرى معبرا عن جزيل السرور الذى يملأ نفسى لحضوركم واليوم أقترح أن أتحدث إليكم فى قضية مرتبطة بالتطور الذى نشاهده كلما نظرنا فى لغتكم الأصيلة.

إن التطور الذى أدرك لغتكم الشريفة لم يمس أسسها فبقيت على صفتها الأولى التى كانت لها فى عهد نزول القرآن الكريم، وما قد نشاهده من تغيير فى هذه الأيام، فهو تغيير سطحى لا ينال أصلا ولا ذوقا يفسد على هذه اللغة طبيعتها - فالفصحى الحديثة - كما سبق أن قلت، متينة الصلة بأصولها القديمة.

إن من بين الدواعى التى حملتنى على الدفاع عن لغتكم أنى لاحظت بعض المتخصصين فى أوربا يزعمون أن الفصحى الحديثة للغتكم لا تستحق أن نطيل فيها النظر، وأنا - على العكس - أزعم أنه لابد من التأمل فى جوهرها فهذه اللغة الحديثة أداة قوية للتفاهم بين الغرب والشرق، وذلك ما أكرره دائما، فاللغة عندى وعند المتخصصين توثق الارتباط

الثقافى ، وتيسر التفاهم بين البشر عامة ، وبين الشرق والغرب خاصة ، وكلما قرأت دراسة ممتعة مما يصدر هنا أتحقق أن لغتكم الشريفة لا تنقصها قوة التعبير فى كل الميادين ، ولست أسوق كلامى هذا عن عاطفة ، فنى ضميرى دواع لغوية وعلمية تدفعنى إلى هذا القول بما يحملكم على أن تستعملوا الفصحى أداة للتفاهم .

وإذا كان فى الفصحى صعوبات فليست ناجمة منها ، وإنما سببها القصور فى استعمالها

إننى لا زلت على رغم دراستى فى العربية أشعر بنقصان يرجع إلى ما استغرقته من وقت فى عنفوان شبابى منذ نصف قرن فى دراسة اللغة العامية ، ولكننى تبينت ، عن خبرة ، كيف أن اللغة العامية كانت حائلا بينى وبين الاطلاع على الكنوز الثمينة التى خلفها العرب فأصبحت أشجع باستمرار طلبتى فى باريس على أن يقبلوا على الفصحى قبل كل شىء لأعطيهم آلة تفيدهم وتشجعهم وتمكنهم من النمو إلى مستوى العلم والمعرفة الذى يفوقنى ولهذا أنبه على خطر اللغة العامية فأنا لا أشك أبداً أن الاعتناء بها يبتعد بالدارس عن توسيع ثقافته .

بقيت نقطة أصيلة أحدثكم بها عن لغتكم التى حببت إلى منذ نصف قرن ، ولن أنسى ما وجدت من سرور بتلك الذخيرة التى وصلت إليها على قدر استطاعتى .

إن الإنسان يحب اللغة التى يتعلمها فى صغره وقد أكببت سنين على لغتكم كانت مفيدة لثقافتى . . إننى أود أن يتم التفاهم بين البشر وأصرف عنايتى إليه ، والمعرفة باللغات الأجنبية وبخاصة اللغة العربية عندى ممكنتى من توسيع حبى للبشر عامة وللعرب خاصة » .

وعندما فرغ الدكتور بلاشير من كلمته أبدى استعداده لأى استفسار او مناقشة . .

وكان من المتوقع — وقد حضر الندوة قواد المعركة فى ميدانها — أن ينزع إلى المناقشة أولئك السادة الذين يؤثرون طرح الفصحى غير أنه يبدو أن كلمة المستشرق لم تدع لهؤلاء حجة يمكن أن تكون ردءا للعامية ، فتقدم الأستاذ عبد الرحيم فودة مدير مجلة الأزهر وشكر باسم الأزهر سيادة المستشرق الذى يعد من طبقة الاستشراق الحرة التى لا تتخذ من الهجوم على الإسلام والعربية ميدانا لنشاطها .

ثم توالت كلمات الترحيب ، وكانت تنطوى كلها على الانتصار للفصحى . كما أبانت عن زيف النداءات المغرضة لدعوى العامية فقد قال الدكتور كمال بشر الأستاذ بدار العلوم فى تعقيبه: الحق أن المستشرقين — باستثناء عدد محدود جداً خدموا — ولا يزالون يخدمون — لغتنا وأذكر أن واحداً منهم نبهنى إلى شىء مهم يتعلق بالأبجدية العربية ، وبموضوع كتابة العربية بالحروف اللاتينية فأكد لى أن الأبجدية العربية ليست وسيلة كتابية فحسب . إنها — فوق ذلك — تتضمن خواص مهمة من خواص العربية نفسها ، خواص صوتية وحرفية ونحوية ، فنحن إن طرحناها جانباً واستعملنا أبجديات أخرى فقدت العربية كثيراً من خواصها الأساسية التى لا تستطيع الإفصاح عنها إلا الأبجدية العربية ذاتها ؟

في محيط العالم الإسلامي

كانت كارثة الطائرة التي أودت بحياة الرئيس الراحل المغفور له المشير الركن عبد السلام محمد عارف رئيس الجمهورية العراقية - كارثة في قلب كل مسلم وعربي ؛ فقد كان - رحمه الله - إحدى الشخصيات التي توفر فيها دواعي الوطنية وصدق العروبة والعمل لمجد الإسلام وما كان على مصابه من صبر إلا فيما يبثه الإيمان من رضا بقضاء الله ويقين بيقائه وحده ، ولا عليه من عزاء إلا فيما يستقبله من « نعيم » عند الله ، وضراعة إليه - سبحانه - أن يحمي العراق الحبيب شر الفتن ويجمع أمره على الرشاد .

وقد شارك الأستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر الأمة العراقية وأسرة الفقيد مصابهما في برقيتيه :

السيد الدكتور عبد الرحمن البزاز رئيس الجمهورية العراقية بالنيابة - بغداد :

« فجع الأزهر بفقد نصير العروبة والإسلام المشير الركن الشهيد عبد السلام محمد عارف . والأزهر إذ يعزي شعب العراق وحكومته والأمة العربية والإسلامية ليبتهل إلى المولى القدير أن يلهمنا جميعاً في فقده جميل الصبر ، وأن ينزل الفقيد منازل الأبرار مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

شيخ الأزهر
حسن مأمون

أسرة المرحوم الشهيد الرئيس عبد السلام محمد عارف - بغداد :

في غمرة الأسى والحزن على مصاب العرب والمسلمين بفقد الزعيم الراحل ترفع أكف الضراعة إلى الله سبحانه في أن يسبغ عليه فيض رحمته ، وأن يكرمه في مثواه جزاء كفاحه وجهاده في سبيل العروبة والإسلام . وإني إذ أبعث إليكم بعزاء الأزهر وعزائي أسأل الله سبحانه أن يلهمكم الصبر ، وأن يعوض العرب والمسلمين خيراً - وإنا لله وإنا إليه راجعون .

شيخ الأزهر
حسن مأمون

● أرسل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر للجامعة العربية المذكرة التي تلقاها من علماء المسلمين في « عدن » احتجاجاً على انتهاك السلطات البريطانية لحرمة المساجد . وقد أرسلت الجامعة العربية صورة من المذكرة إلى الأمانة العامة لهيئة الأمم المتحدة .

● أقامت جامعة الأزهر في يوم الأحد ٢١ من ذي القعدة ١٣٨٥ الموافق ٦٦/٣/١٣

حفلا جامعيا فى قاعة الشيخ محمد عبده لمنح العالمية الفخرية للسلطان محمد برهان الدين صاحب سلطنة طائفة البهرة الإسلامية فى الهند ، وألقى كلمة الاحتفال الأستاذ أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر . وقد حضر الحفل كبار الشخصيات الجامعية بالقاهرة .

● حمل الشيخ أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر - عند سفره إلى الهند لحضور حفل تنصيب سلطان البهرة - شهادة العالمية الفخرية التى أهدتها جامعة الأزهر إليه . وهذه الشهادة مكتوبة بالعربية والإنجليزية .

● أقامت الإدارة العامة لرعاية الشباب بالأزهر المعرض الفنى الثامن لطلاب المعاهد الأزهرية بصالة العرض بوكالة الغورى فى المدة من : ١٨ إلى ٢٨/٤/٦٦ لعرض إنتاج الطلاب فى الرسم والخط العربى والهوايات العملية والتصوير الضوئى ، وقد تفضل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بافتتاحه مساء يوم الخميس ١٨/٤/٦٦ . وقد شرف الحفل السيد الأستاذ عبد الفتاح حسن وزير الدولة لشئون الأزهر والسيد الدكتور سليمان حزين وزير الثقافة .

● أقامت الإدارة العامة لرعاية الشباب بالأزهر مهرجان القرآن الكريم والأدب والفنون والتمثيل المسرحى بقاعة الشيخ محمد عبده وافتتح فضيلة الإمام الأكبر المهرجان مساء يوم الأحد ٢١/٤/٦٦ وشرف الحفل السيد الأستاذ الدكتور وكيل الأزهر والسيد صاحب الفضيلة المدير العام للمعاهد الأزهرية والسيد الأستاذ الأمين العام المجلس الأعلى للأزهر والسيد صاحب الفضيلة الأستاذ وكيل المدير العام للمعاهد الأزهرية .

وقد وزع فضيلة الإمام الأكبر الكئوس والميداليات والجوائز على المعاهد وعلى الطلاب الفائزين فى هذه المسابقات جميعاً .

● أعلنت فى ٢٨/١٢/١٣٨٥ هـ شروط قبول حملة الشهادة الإعدادية الأزهرية المعادلة فى المرحلة الثانوية بمعاهد الأزهر ومدارس وزارة التربية والتعليم ، وسوف تقوم مكاتب التنسيق بالمحافظات بقبول أوراق الطالب ويشترط أن يكون بين أوراق الطالب شهادة من إدارة المعاهد الأزهرية تثبت أنه لم يسبق له الالتحاق بالمعاهد الأزهرية الثانوية أو فصله منها . ويكون قبولهم بعد ترتيب درجاتهم تنازلياً فى قائمة واحدة مع درجات حملة الإعدادية العامة بدور المعلمين العامة والريفية ثم التعليم الفنى الثانوى ، ثم مدارس التعليم الثانوى العام ويسمح بزيادة عامين فى سن الطالب الأزهرى ، ولا يجوز تحويل من المعاهد الأزهرية بمراحلها الثلاث إلى مدارس التعليم العام ؟

THE STATISTICS OF AL AZHAR UNIVERSITY

FEBRUARY 1966

STUDENTS	LICENCE (B. A.)	HIGHER SECTION (M.A. & Ph. D.)	TOTAL
1 — Faculty of Law	2004	515	2519
2 — » » Theology	1968	233	2201
3 — » » Arabic Language	2371	1372	3743
4 — » » Medicine	797	4	801
5 — » » Engineerin	692	—	692
6 — » » Agriculture	499	10	515
7 — » » Commerce and Administration	1143	—	1143
8 — Girls College	533	—	533
9 — Higher Institute for training	—	—	395
10 — Higher section for Islamic and arabic studies	—	—	2210
11 — Institute for preparation and guidance	—	—	906
B. A. (Licence) 13123 Higher Section (M.A. and Ph. D.) 2535 } Total 15658			
Foreign students.	2808	398	3206
Percentage of foreign students :	22 %	18 %	

(*Continued from page 6*)

city as conqueror. The Prophet proclaimed a general amnesty and the whole population of Mecca hastened to swear allegiance. The prophet caused all the idols which were in the sanctuary to be destroyed, saying:

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ... »

(And say : Truth hath come ; falsehood hath vanished away)*

---

* Extracted from an Introduction of Islam by Muhammad M. Pickthall.

assumed his office in 1964. He has come to embody in himself all that is best in the long history of Al Azhar scholars, as he is a great scholars of Islamic studies and Arabic literature, writer, poet, administrator, organiser, educationist and pious man of religion. Since then he has been working for the progress of the university and to put the house in order with characteristic energy and zeal. The special plans of reforms have come to fruition in his time; immediately after his assumption of office the new Faculties of Medicine, Engineering and Agriculture are inaugurated. This was a great event in the history of New Al Azhar, which brought it more in line with other great modern universities. He took serious care to complete the new buildings of Al Azhar university in its new premises in Nasr City of Abbasiya, five miles away from the ancient mosque of Al Azhar. In 1965 the new Faculties of Medicine, Engineering, Agriculture and Commerce are already shifted to the new city. With the completion of other Faculties, the university hospital and a new Al Azhar Mosque on the pattern of its glorious Father mosque of Al Azhar, the new city will be one of the unique and picturesque centre of learning in the world.

His Excellency A. H. Al Baquri has in mind great plans to enable Al Azhar university to spread its message to the whole world at large and meet the increasing demand of the various institutions abroad, for lecturers and scholars of Islamic studies and Arabic Literature. He is playing an important role to renew and develop the influence of Al Azhar University in the world, to remove the barriers between it and other universities and educational institutions to achieve the ultimate aim of the great Al Azhar, that is to produce qualified scholars who may serve the humanity in the spiritual and academic spheres.

(Please turn over)

2— A minister of Al Azhar affairs shall be duly appointed by a decree of the President of the Republic.

3— The University Rector, who would be appointed by a decree of the president of the United Arab Republic, shall manage the universitys academic, administrative and financial affairs, and will represent the University before other bodies.

4— Having been the University of all Muslims, Al Azhar provided for equal opportunity of enrolement in its Faculties and sections attached to them, for muslim students from any country in the world.

5— Al Azhar is, as the supreme muslim educational institution, attaching great importance to its cultural and educational relations with Islamic and other foreign universities and educational institutions in the World.

By this law, new Faculties were established, i. e. Faculties of Medicine, Engineering, Agriculture and Commerce. As one of the main aims of the university is to provide educational Facilities for women the new Al-Azhar university has established a girls college with its different branches of studies i. e. Islamic Studies, Medicine, Arts, Science, Philosophy, Pscychology, etc. This college will be the nucleus of a Muslim University for girls. It is recalled that women were getting their share in Al Azhar circles until recently. The history says that special study circles were held in many times for women in Al Azhar. After shutting its doors in the face of women for many years, Al Azhar has, now come forward to give women the same chance which men are already getting in the fields of knowledge and sciences.

From the time of its foundation, Al Azhar has opened wide its doors to students and research scholars from all over the world. Special facilties offered to foreign students by providing them free education and lodging. In 1959 a University Hostel was established for Al Azhar in the name of Nasser City Of Islamic Missions. This city consists of 41, three storied - buildings. Now the number of foreign students in this new hostel are more than five thousand instead of about 2500 stndents in 1950. They are getting there, living quarters in modern, comfortable and healthy circumstances. Besides free meals and recreational facilities an allowance of not less than five egyptian pounds per month is paid to every student.

The present Rector of Al Azhar University, His Excellency Sheikh Ahmed Hassan Al Baquri, has

important turning point in the history of Al Azhar. In that year, by a new law, the study courses divided into stages and modern subjects were introduced to each stage. A grant ULAMA Committee was created and new modifications were made in rules of the appointment of teaching staff, admission of students and examination systems. In the year 1936 Al Azhar entered the first stage of a full scale modern university. According to the law No. 26 of 1936, the education in Al Azhar had been classified into stages i. e. The primary stage of four years, the secandary stage of five years, the Higher section of four years and the section of specialisation (تخصص) or license (اجازة) of two years.

Thus immediately after the promulgation of that law, three faculties were inaugurated. They are: The Faculty of Law and the Faculty of Arabic literature. Students completing the four year course of study with success in any of these faculties are granted the Higher certificates equal to B. A. Candidates admitted to the specialisation section were required to be holders of the higher certificate from Al Azhar or its equivalent, from a recognised higher institution and after completing the two year course of study they were granted the certificate of ALIMIYA with licence (M. A.) in the subject in which they were specialised. There was another section of specialisation in the subject matter extending over a period of five or seven years after obtaining the higher certificate. Candidates completing this course of specialisation were granted the ALIMIYA degree with the title of USTAD, that is equivalent to Doctorate or PH. D.

When the revolution occurred in Egypt in 1952 and it started a complete and perfect reform in the country it payed due attention to Al Azhar in a manner compatible with the statutes and aims of this great international centre of learning. This law which is known as the law No. 103 of 1961, has referred to the following points:

1— Having regard to the special character of Al Azhar, as a university of all Muslims throughout the world, Al Azhar University should be independent of other universities in the United Arab Republic, by being attached to the Presidency of the Republic; Care has however taken to coordinate it with other universities in so far as this coordination will be consistent with the special character of Al Azhar and the purpose of its studies.

As we mentioned, the Al Azhar was established as a centre for the service of Islam. Islam has two sides, the spiritual side and material side. The first one will serve the spiritual side of man, and the second will serve the material side of him. Islam gives to minkind a complete and perfect system deeling with all walks of life and the Holy Quran declared that the true religion is to follow man's original nature.

« فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(So set thy purpose for religion as a man by nature upright - the nature (framed) by God, in which He has created man. There is no altering (the law of) God's creation. That is the right religion, but most men know not) 30 : 30.

We can sum up the basic aims of Al - Azhar in the following three points : Firstly : communicating the message of Islam, in all its simplicity, moderation and clarity. Secondly : Paving the way to coordinate the relations among people in the light of religious principles. Thirdly : calling people to rise above colour and race fanatism and distinction of people must be bassed upon the course of moral conduct and good deeds.

As the Holy Qur'an says :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(O mankind ! Lo ! we have created you male and female and have made you nations and tribes that ye may know one another. Lo, the noblest among you in the sight of Allah, is the best in conduct) XLIX : 13. These bases are clearly represented in the teachings of Islam and in its social, economical and political systems. By carrying out this great human mission Al Azhar has carried out great service for all people and by its great efforts it has taken many people from darkness to light.

In its long history, various necessary reforms have been made, from time to time, both in the methods of study in the Al-Azhar and the rules of administration. Al Azhar entered in a new era from the time of Iman Muhammad Abdu (1848 - 1905 A. D.) who had made great efforts to introduce modern reforms into Al Azhar and many scholars followed him in that field.

As the result of those efforts several laws and regulations were adopted to reorganise and to develop Al Azhar. The year 1911 A. D. (1329 A. H.) was most

AL-AZHAR UNIVERSITY

An Introduction

By : A. M. Mohiaddin Alwaye

AL-AZHAR is the oldest and the most famous Univesity in the World. It was first housed in the glorious mosque of Al-Azhar more than one thousand years ago. The building of the mosque was started in the year 971 A.D. (359 A.H.) on the 14th of Ramadan, by GAWHAR the sicilian, commander of the Fatimid caliph, AL MUIZZU LI DINILLAH. He founded the mosque immediately after the building of the new capital city of Al Kahira (Cairo) for Fatimids. The building of the mosque of Al Azhar was completed on the 7th Ramadan 361 A. H. Since then it was a place of worship, and a centre of learning. The title of Al Azhar signifies the meaning of flourishing or shining. It is said that the name of Al Azhar came from Al Zahra, a title of eldest daughter of prophet MUHAMMAD, FATIMA, from whom the Fatimid caliphs descended.

It was remained so far many centuries as a proof positive that in Islam worship and learning go hand in glove with each other and that Islam knows no conflict between religion and learning in the widest sense of the word. Al Azhar rose to the position of a most important educational institution for muslims and it has attracted students and research scholars from different parts of the world, and Egypt, since then, has become the unique destination to which students of Islamic studies and Arabic literature repair from all countries.

The system of education adopted Al Azhar since its inseption was a simple and natural one. No conditions of admission were imposed on the seekers of knowledge. The student had full freedom to choose his own subject as well as his own professor. Al Azhar was the teaching centre of all branches of Islamic studies i. e. Tafsir (interpretation of the Quran) Hadith (Traditions of the prophet), Fiqh (jurisprudence) Tasawwuf (Mysticism) etc and all branches of arabic literature as well as it was the teaching centre of other sciences i.e. Geography, astronomy, engineering medicine - mathematics etc.

tradition: "My brothers from amongst the emigrants were engaged in earning their living, whilst Abu Hurayra used always to be with the Prophet, earning no more than his belly-full, thus, being present on those occasions when they were not present and memorizing that which did not memorize "

When the Muslims emigrated to Medina, Sa'd ibn al-Rabi al-Ansari invited 'Abd al-Rahman ibn 'Awf to live with him, and offered to give him half of his possessions. But 'Abd al-Rahman declined, thanked his host and chose to work as a trader in the markets of Medina, instead of being supported by him.

When 'Asim ibn 'Umar ibn al-Khattab got married, his father supported him from him the treasury for one month, then he ceased to support him and ordered him to work. He allotted him the produce of some of his possessions, and asked him to sell it, and to join in with other traders to earn his living and support himself and his family. 'Asim did as his father ordered him, and so we find the son of the Caliph engaging in work on the same basis as any ordinary Muslim.

Again, 'Ali ibn Abi Talib, the Prophet's cousin and son-in-law, did not find it degrading to work as a hireling. Ibn Maja quotes a hadith that Ibn 'Abbas said : " Once the Prophet was in need. The news of this reached 'Ali and he went in search of work to obtain some money to help the Prophet. He came to a garden belonging to a jew. 'Ali drew for him seventeen buckets of water at the rate of a date for each bucket, the jew allowed him to choose seventeen excellent dates which he brought to the Prophet ".

The direct exhortation to work is a recurring theme in both the Qur'an and the hadith. In the Qur'an, for example, it is stated that God has "appointed the night as a cloak" in which people may rest in order to regain the vigour necessary for work, and " appointed the day for earning a living, in order that they may seek His bounty by its light. Another quotation on the same theme is found in "surat al Mulk " ; " He has made the earth subservient to you, so walk in its paths, and make use of His provision." Again in surat " al-Nahl " : He has constrained the sea to be of service that you may eat meat, from it and bring forth from it ornaments which you wear, and you see the ships ploughing it that you (mankind) may seek His bounty and that you may give thanks. These quotation from the Qur'an have two basic morals : In the first place they express explicitly the exhortation to work. Secondly, that God's bounty has been made available in such a way as to encourage man and enable him to work.

said « I know that you are willing to relieve me, but I hate being distinguished over you, because God hates seeing a servant of His bein distinguished over his companions. Then the Prophet got up and cut wood.

It is note worthy that woodcutting was one of the mostlowly occupations in the eyes of the Arabs, as appears from the Prophet's tradition : « It is better for one of you to cut a bundle of wood and carry it on his back then to ask (beg) anyone who may give him or not ». The Prophet did not hesitate to cut wood, in order to set a practical example for respecting labour, however lowly, it be. This principle of identifying prophecy with labour can be further illustrated by the fact that David, for instance, worked as a blacksmith, zakaria as a carpeuter, and Moses as a hireling.

Besides all the Prophets worked as shepherd, as we have already mentioned, and all of them attended markets as the following Qur'anic verse pointed out : « And we have not sent before you any messengers but they most surely ate food and went about in the markets ».

The Prophet's companions were also labourers. Abu Bakr did not hesitate, the morning after he had been chosen as a Caliph; to carry on his head the cloth he was engaged in selling. He hurried to the market, and wanted to resume his work as a trader, but 'Umar and Abu'Ubayda dissuaded him, saying : « How can you do this when you have been made responsible for the affairs of the Muslims ? » Abu Bakr answered « How, then, can I feed my dependents ? They said : «We will establish a salary for you ». And Abu Bakr was given half a sheep every day ».

The other companions of the Prophet were labourers also al-Bukhari quotes the following tradition ascribed to Aisha in the section of the Sahih entitled, "Earning one's living and working with one's own hands" : " The Companions of the Prophet performed their own menial work, and they smelt (i. e. because of work) ; so it was said to them " If only you would wash yourselves ! "

Also in al-Bukhari, we find the following hadith : "One day ' Umar ibn al-Khattab found himself unaware of some traditions of the Prophet and excused this by his being engaged in trading, saying : " Have I been unaware of some affairs of the Messenger of God ? I have been preoccupied with trading in the markets ! " The same point can be further exemplified by Abu Hurayra's

his family by a share of the booty. His position as head of the Islamic community did not, however, prevent him from lending a hand in more mundane responsibilities. He helped his servants in their daily work by patching up his clothes ; soleing his goat ; fastening up his camel ; preparing fodder for his working she camel, sweaping his house ; buying in markets ; carrying his goods to the house ; serving his guests; and even serving his servants, to the extent that Anas said : " I served him (the Prophet) for about ten years. By God I never accompanied him on a journey nor settled with him in a place but he served me more than I served him.

On certain occasions he took his part in more general activities of the community ; such as building the mosque of Quba', and digging the ditch as a defence against Quraysh and their affiliated tribes. On the occasion of the building of the mosque of Quba', the Prophet carried the bricks on his shoulders like any others Muslim repeating whilst doing so :--

" Oh God, the reward is the reward of the thereafter.

Have mercy on the Helpers and the Emigrants.'

So encouraged, the Muslims worked enthusiastically, reciting the following verse :--

"Were we to sit whilst the Prophet works,

That would be an erroneous act on our part.

On the occasion of digging of the trench, the prophet himself carried earth until it covered the whiteness of his belly, saying :

" Oh God, were it not for you, we would not find the right way ;

Nor give alms, nor pray,

So send down reassurance upon us.

And make firm our feet when we meet the enemy.

On another occasion, the Prophet came to the well of zamzam, while its workers were giving water to the thirsting people. The Prophet said to them : " Work You are carrying out a righteous labour ! Were it not that you might be displaced (from your special work) I would descend until I put the rope (of the bucket) here ! (pointing at his shoulder-blade).

In one of his trips, he suggested that a goat be cooked. One of his companions said, oh. Messenger of Allah, I undertake to slaughter it. Another said : I undertake to skin it. A third said : I undertake to cook it. The Prophet then said : « and I undertake to cut wood (for fuel) ». The Companions said : « Oh Messenger of Allah, we can cut wood instead of you ». The Prophet

THE MERITS OF LABOUR IN ISLAM - 3

By : M. Gamaluddin Ayyad, M. A.

Nothing can lend more dignity to labour and to labourers than the fact that the Prophet himself was a labourer. He worked as a hired hand looking after sheep belonging to some citizens in Mecca. Al-Bukhari quotes a hadith to this effect :- On one occasion, the Prophet said to his companions : " There is no prophet sent by God who has not worked as a shepherd." His companions then asked him : " You also ? He said : "Yes, I have looked after flocks for citizens of Mecca in return for small payment." It is of little significance to the theme we are dealing with that the Prophet should have worked as a shepherd, since he was at that time poor and needy. What is important is that he recalled that he had worked as a shepherd after his call to the prophethood. Had his previous occupation been a source of shame, it is unlikely that he would have mentioned it in the presence of his companions, or stated that all the prophets of God had worked as shepherds.

The Prophet also worked as a factor travelling to Syria to sell and buy on behalf of Khadija, whom he later married.

Ibn Ishaç also narrates that the chiefs of Quraysh met with the Prophet to argue with him. They tried to tempt him by offering to give him money and make him their king, but he refused and called them to Islam. They asked him to ask his God to send an angel to confirm his claims; and to give him gardens and castles and treasures of gold and silver to enrich him and so make it unnecessary for him to do that which he had been doing, such as standing in the markets as they did, and earning a living as they did. Thus, they said, they might recognize the bounty and status he received from God. This reference in Ibn Ishaq suggests that the Prophet used to earn his living by trading even after his call to prophethood. It seems probable that he continued to do so during the whole Mecca period.

In the Medina period, when the proceeds of the expeditions undertaken by the Muslims began to flow into the coffers of the Islamic community, he was permitted by Qur'anic injunction, to support himself and

words "Bismika Allahumma" (In thy name, O! Allah). When they saw that marvel the ban was removed and the Prophet was again free to go about the city. The Prophet went on warning, pleading and teaching his message at length, while the Qureysh did all they could to ridicule his teaching and deject his followers.

At the season of the yearly pilgrimage the Prophet came upon a little group of men who heared him gladly. They came from Al-Madina (Yathrib) a city more than two hundred miles away from Mecca. The Jewish 'rabbis' had often spoken to the pagans of a Prophet soon to come among the Arabs, with whom, when he came, Jews would destroy the pagans. When the men from Yathrib saw Muhammad they recognised him as the prophet whom the Jewish rabbis had described to them. On their recturn to yathirib they told what they had seen and heard and the next season of pilgrimage a deputation came from yathrib purposely to meet the Prophet. They then returned home with a Muslim teacher and soon there was not a house in Yathrib wherein there was not mention of the messenger of Allah. In the following year seventy-three muslims from yathrib came to Mecca to vow allegiance to the prophet and invite him to their city. They swore o defend him as they would defend their own wives and children.

With the result of that pact (the second pact of Al-Aqabah) the Hijrah, the flight to yathrib (Medina) was decided. Qureysh hated Muhammad in their midst but dreaded what he might become if he escaped from them and they decided to destroy him now. They had choosen a slayer out of every clan. All these were to attack the prophet simultaneously and strike together as one man, thus his blood would be on all Qureysh. The Prophet was waiting Gods command and it came at the night appointed for his murder. The slayers were before his house. He gave his cloak to Ali, bidding him lie down on the bed. The slayers were to strike him as he came out of the house whether in the night or early morning. Then the Prophet of Allah left the house and a blindness fell upon the would be murderers so that he put dust on their heads as he passed by, without their knowing it. He went to Abu Bakr's house and called to him and they two went together to a cavern in the desert hills and hide there till the hue and cry was past, then they set out on the long ride to Madina. The thirteen years of humiliation, of persecution and of seeming failure were over. The ten years of success, the fullest that has ever crowned one man's endeavour, had begun. In the eighth year of the Hijrah the Prophet marched to Mecca and entered his native

(Continued on page 16)

THE "HIJRAH"

—M. ALWAYE

The Hijrah, the flight of the Prophet Muhammad (June 20th 622 A.D.) from Mecca to Medina, which counts as the beginning of the Muslim era was a turning point in the history of Islam. The Hijrah makes a clear division in the story of the Prop'iets' mission. For the thirteen years of his mission he had been a preachnr only. After the Hijra he was a lawgiver, reformer, ruler of a state and perfect example for a growing social and political community.

At the end of the third year of his mission, the Prophet received the command to "arise and warn". For the first three years of his mission he preached only to his family and his intimate friends. When he began to preach in public pointing out the folly of idolatry in face of the tremendous laws of day and night, of life and death, of growth and decay, which manifests the power of Allah and attest His sovereignty, the 'Qureysh' became actively hostile to him. They tried to bring the Prophet to compromise, offering to accept his religion if he would so modify it as to make room for their gods as intercessors with Allah. They came forward and offered to make him their king if he would give up attacking their gods and idolatry. It was then, when their efforts at negotiation failed, that Qureysh went to his uncle Abû Tâlib offering to give him the best of their young men in place of Muhammad and to give him all that he desired, if only he would let them Kill Muhammad. When Abû Tâleb refused their demand they grew more and more embittered and decided to boycott the Prophets' whole clan. They drawn up a document to the effect that none of them would hold any intercourse with that clan or sell to them or buy from them. Then for three years the Prophet was shut up with all his kinsfolk in their stronghold in Mecca.

Only at the time of pilgrimage could he go out and preach, or did any of his Kisnfolk dare to go into the city. At the season of the pilgrimage they posted men on all the roads to warn the tribes against the Prophet who was preaching in their midst. At last some elders of Querysh felt worry of the boycott of their old friends and neighbours. They managed to have the document (Sahifah or deed of ostracism) which had been placed in the Kabah brought out for reconsideration. Then it was found that all the writing had been destoryed by white ants, except the

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك . . . . »

« Verily we sent messengers before thee, among them those of whom we have told thee, and some of whom we have not told thee; ....» (XL : 78).

The law of nature is throughout the same, in every corner of existence, and so is divine guidance the same for mankind throughout the ages and in every corner of the earth. That universal path is submission (Islam) to the One Lord of the Universe and living a life of right action. Every religious leader, always invited men to follow the one common religion and to avoid differences and factions.

God created all men alike us human beings but they divided themselves into groups and factions on the basis of race, colour, language nationality, etc. Mankind was thus divided and sub-divided by innumerable artificial differences. There remained but one single relationship, one sacred bond which still held mankind together and which could unite them again in spite of all differences; this, as every Prophet or Messenger of God pointed out, was the common worship of the one God. No matter how we may differ from each other, our God cannot be different; no matter what our race, colour, country or nationality, when we bow in submission before the Same God ; all our earthly differences disappear and we feel as if the whole world is our home and the entire mankind our family ; we are all children of the sam Divine Father. Hence it was that the teachings of all Messengers of God were basically the Same confirming each other, and the Qur'an professed to do no more than confirm and reiterate the teachings of all the Prophets gone by.

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ... »

"And unto thee have We revealed the Scripture with the truth, confirming whatever Scripture was before it, and a watcher over it. . ." V: 48.

It may be asked why, if the founders of the various religions all taught the same basic principles, differences grew up between religions. The Quran explains that these differences are of two kinds, those which the followers of various religions have themselves created, through having turned or strayed away from the real teachings of those religions, and those genuine differences which are to be found in the canons and practices of those religions as, for instance, in the form of worship. These latter differences pertain not to the real teaching or spirit of a religion but only to forms and externals. They are but a secondary part of religion and such differences are both inevitable and necessary.

instinct, senses and intellect, is alike for all, without distinction of race or creed, time or place, and any guidance which is confined to a particular group or which seeks to divide mankind into different groups is false. There is but one true path, the universal path for all mankind and the Quran calls it Islam, i.e. unqualified and complete submission to God. This is the cardinal principle on which the entire teaching of the Quran is based.

(Mankind were one community; then they differed ....) X : 20.

Originally man led a natural life and there was no difference or clash with his fellowmen. Gradually, however, mankind, multiplied and its needs grew, giving rise to differences, clashes of interest and then open struggle, exploitation and oppression. The common life of harmony and content gave way under the growing stresses and strains; men came to hate each other and the strong oppressed the weak. When this hoppened, it became necessary to provide right guidance for mankind and to ensure that justice and truth should prevail. So it was that there was a succession of Divine Messengers who brought and affirmed the message of God.

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . . . . » .

(Mankind were one community, and Allah sent (unto them) prophets as bearers of good tidings and as warners, and revealed therewith the Scripture with the truth that it might judge between mankind concerning that wherein they differed; ....) 11 : 213.

This guidance was not confined to any particular race, community, time or place.

« إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

(Lo ! we have sent thee with the truth, a bearer of glad tidings and a warner; and there is not a nation but a warner hath passed among them) XXXV : 24.

It is sad to reflect that men at different times and in different places have appropriated to themselves the exclusive privilege of divine guidance and have believed that their own religion was the only right religion and their religious leader the one and only true Prophet or bearer of God's Message. The Qu'ran has over and over again stressed the universality of divine guidance and grace and proclaimed that there have been countless Messengers of God in various places and at different times and that it is not right to discriminate between them. « For every people (there has) been a guide» (XIII : 7). « For every people (was sent) a messenger » (X : 47).

highest place in creation. All these three stages of natural guidance have their well defined limits and cannot go beyond them. Instincit makes us aware of the needs of life and gives us the faculty of striving for the fulfilment of those needs, but it cannot enable us to acquire knowledge of the world outside our own being. That function is left to the senses, but senses too can only take us thus far and no further. The eye, for instance, sees but only under certain conditions; if there is no light or the distance is too great, we cannot see any object even though it is there to see. Our knowledge, therefore, remains imperfect, and there is need for deducing knowledge through reasoning from cause and effect and framing rules and principles of universal application. That is the function of intellect, but intellect too can guide us only up to a point, and beyond that there is need for further guidance. Just as the world of senses is strictly limited, so also are there definite restrictions which intellect cannot break through. Intellect is confined to the limits imposed by the senses for it can function only within the limits of such knowledge as we can reach through the five senses. What is there beyond the world of senses? Intellect is itself lost in wonder and can guide us no further.

Moreover, intellect is hardly an adequate or effective guide in practical life. Man is so pressed by desires and emotions that when there is conflict between reason and emotion the victory is very often with the latter. How often are we warned by reason to refrain from an act that is harmful or even fatal and yet are unable to resist the emotions which persuade us to that act! The most powerful arguments of reason cannot keep us from losing control of ourselves when in anger or from eating something harmful when compelled by hunger. If, therefore, He Who sustains and tends us has equiped us with senses, so that we may guard against instinct leading us astray, and endowed us with intellect, to correct the errors of the senses, does it not follow that He must have provided us with something else also to afford us guidance when intellect is exhausted and helpless? The Quran answers in the affirmative and says that this fourth stage of guidance is that of revelation or divine inspiration.

« إن علينا الهدى »

(Lo! Ours it is (to give) the guidance) XCII : 12.

"The path of divine guidance is Al Huda (The Guidance)", the path of true and universal guidance. This guidance, like the guidance of

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Muharram 1386	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	April 1966

THE QURAN'S CONCEPTION OF GOD - IX.

By : Moulana Abul Kalam Azad

« إهدنا الصراط المستقيم »

(Guide us on the Straight path)

It has already been indicated that the divine attribute of the Preserver carries with it also the essential quality of Guidance, for without the guidance of nature no being can sustain itself. This guidance is the last gift of nature to enable every creature to get on its feet.

« سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى »

(The Lord Most High, Who has created and then bestowed order and proportion, Who has fixed a mea[illegible]e for every thing and then granted it guidance) LXXXVII : 2-3.

There are three stages of guidance. The first is that instinct, which is present even in a new-born babe; no sooner is he born than he begins to cry for food and then without any external instruction, sucks at his mother's breast to find it. The second stage is that of the Senses, which give us the faculties of sight, hearing, taste, touch and smell, and it is through them that we acquire knowledge of the external world. These two stages of guidance are for animals also, but for man there is yet a higher stage, that of intellect. It is this guidance which has opened for man the gates to limitless progress and has given him the

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثاني - السنة الثامنة والثلاثون - صفر سنة ١٣٨٦ هـ - مايو ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

دين الله دين القوة

بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لمأساة فلسطين

بقلم أحمد حسن الزيات

الإسلام دين القوة ؛ وهل في ذلك شك ؟

شارعه هو الجبار ذو القوة المتين ؛ ومبلغه هو محمد الصبار ذو العزيمة الأمين ، وكتابه هو القرآن الذي تحدى كل إنسان وأعجز ؛ ولسانه هو العربي الذي أخرس كل لسان وأبان ، وقواده الخالديون (١) هم الذين أخضعوا لسيوفهم رقاب كسرى وقيصر ؛ وخلفاؤه العمريون (٢) هم الذين رفعوا عروشهم على نواصي الشرق والغرب . فمن لم يكن قوى البأس ، قوى النفس ، قوى الإرادة ، قوى العدة ، كان مسلما من غير إسلام ، وعربيا من غير عروبة .

الإسلام قوة في الرأس ، وقوة في اللسان وقوة في اليد ، وقوة في الروح .

هو قوة في الرأس لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجة ، وتصحيح الشرع بالدليل ، وتوسيع النص بالرأي ، وتعميق الإيمان بالتفكر .

---

(١) نسبة إلى خالد بن الوليد .

(٢) نسبة إلى عمر بن الخطاب .

وهو قوة فى اللسان لأن البلاغة هى معجزته وأداته — والبلاغة قوة فى الفكرة، وقوة فى العاطفة، وقوة فى العبارة.

وهو قوة فى اليد لأن موحيه - وهو الحكيم الخبير - قد علم أن العقل بسلطانه واللسان ببيانه لا يغنيان عن الحق شيئا إذا ما أظلم الحس وتحكمت النفس وعميت البصيرة، فجعل من قوة العضل ذائدا عن كلمته وداعيا إلى حقه، ومنفذا لحكمه ومؤيداً لشرعه. كتب على المسلمين القتال فى سبيل دينهم ودينه، وفرض عليهم إعداد القوة والخيل إرهابا لعدوهم وعدوه، وأمرهم أن يقابلوا اعتداء المعتدين بمثله. ولكن القوة التى يأمر بها الإسلام هى قوة الحكمة والرحمة والعدل، لا قوة السفه والقسوة والجور، فهى قوة مزدوجة، أو قوة فيها قوتان: قوة تهاجم البغى والعدوان فى الناس، وقوة تدافع الأثرة والطغيان فى النفس.

والإسلام بعد ذلك قوة فى الروح لأنه يمحص جوهرها بالصيام والقيام والاعتكاف والارتياض والتأمل.

وأنت إذا عرضت على الفكر السليم الحكيم مرامى العقيدة الإسلامية، وجدتها كلها تتجه إلى القوة، أو إلى ما تحصل به القوة. فالصلاة نظافة جسدية بالوضوء، وطهارة روحية بالذكر، ورياضة بدنية بالحركة. والزكاة تقوية للضعيف بالتصدق، وتنمية للمال بالتطهير، وتمكين للمجتمع بالتعاون. والحج قوة اجتماعية بالتعارف والتآلف، وقوة سياسية بالتشاور والتحالف وقوة اقتصادية بالبياعات والتسوق.

وإن أشد ما تجتمع به القوة وتتسق عليه الحال هو الوحدة والجماعة، وهما لباب الدعوة الإسلامية. فالوحدة هى الأساس الذى حمل، والجماعة هى الصرح الذى قام، كانت الوحدة هى الأساس لأنهما توحيد لله بعد إشراك، وتوحيد للعرب بعد شتات، وتوحيد الرأى بعد تفرق، وتوحيد للغة بعد تبلبل، وتوحيد للقبلة بعد تدابر. وكانت الجماعة هى الصرح لأنها جمعة القلوب التى ألف بينها الله، وجملة الشعوب التى رفع شأنها محمد. ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة. فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل، والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين تقاتل، والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة. وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات كل يوم، ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام، ثم تضخم فى أداء الحج مرة - على الأقل - فى كل عمر.

على ذلك كان إسلام محمد وأبي بكر وعمر . وعلى ذلك كانت عروبة خالد وسعد وعمرو . كان العرب والمسلمون حينئذ يحملون المصحف للحق والسيف للباطل . وكان خلفاؤهم يجمعون بين إمامة الصلاة وقيادة المعركة ، حتى بلغوا من القوة أن فعل كتاب الرشيد ما يفعل الجيش[1] ، وبلغوا من المروءة أن سير المعتصم جيشاً لإنقاذ امرأة[2] . فلما شقت الوحدة ، وتفرقت الجماعة ، وصارت سيوف المسلمين خشباً يحملها خطباؤهم على المنابر ، ومصاحفهم تمائم يعلقها مرضاهم على الصدور ، أصبحت دولهم تبعاً لكل غالب، وتراثهم نهباً لكل غاصب ، وبلغوا من التخاذل والفشل أن الأندلسيين يجليهم النصارى عن أقطارهم بالأمس فلم يجدوا الرشيد ، وأن الفلسطينيين يشردهم اليهود عن ديارهم اليوم فلا يجدون المعتصم !

إن مسلمي هذا الزمن الأخير صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم في الدنيا على أخلاق العبيد ؛ يطاطأ إشرافهم فلا يندى لهم جبين ، وتنتقص أطرافهم فلا يحمى لهم أنف ، وتنزل بهم الشدة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب ، ويغير عليهم العدو فيتواكلون تواكل الأخوة دب فيهم الحسد . وتجمعهم الخطوب فيفرقهم الطمع والهوى كأن الإسلام الذي كان عامل قوة وائتلاف ، قد انقلب اليوم علة ضعف واختلاف ! وكأن الذين كنا نقول لهم بلسان الجهاد : أسلموا تسلموا ، يقولون لنا بلسان الاضطهاد: تنصروا تنصروا ! ولكن الإسلام دين الله لا يغيره الزمن ، ولا تجافيه الطبيعة ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب، وإنما المسلمون اليوم هم أعقاب أمم وعكارة أجناس وبقايا نظم ورواسب حضارات ورواسب جهالات وطرائد ذل ، ففسدت مبادئ الإسلام في نفوسهم أشوبة كما يفسد الشراب الخالص في الإناء القذر .

إن جامعة الدول العربية كانت تعبيرا جميلا لحلم ساور النفوس الطيبة حقبة من الزمن . ولكن الحلم قد يقع ولا يقع ، والتعبير قد يصدق ، ولا يصدق . ولو كان ميثاق هذه الجامعة قبساً من نور الله وهديا من سنة الرسول لما رأيناها في نكبة فلسطين تعد ولا تنجز ، وتقول ولا تفعل ، ولو ظل أمرها قائماً على الخطب الحماسية والوعود المغرية والتصريحات البليغة والاجتماعات المتعاقبة ، لظلت في نفوس العرب والمسلمين مناط الثقة ومعقد الرجاء ومثابة الأمن ؛ ولكن طالعها السيء ابتلاها وهي لا تزال

---

(١) إشارة إلى كتاب الرشيد إلى نيقفور إمبراطور الروم .

(٢) إشارة إلى فتح المعتصم لعمورية .

فى زهو النشأة وصفو المآدب بحرب الصهيونية المهينة ، فتحمست الدول السبع وصيرت كتائبها المظفرة إلى عصابات اليهود فى فورة من الأناشيد والخطب . فلما صار الأمر جداً والكلام فعلا وقفوا على أطراف الميادين وقفة الحائر القلق هذا يتجه إلى بريطانيا وفى يده التاج الناقص ؛ وذاك يلتفت إلى أمريكا وفى كفه العقد المبرم ؛ والآخرون يتهيبون الأمر وينتظرون فى ظلال الهدنة المفروضة ما تلده الأحداث ويقره مجلس الأمن !

وليس من هؤلاء الآخرين المنتظرين والحمد لله مصر ؛ فقد قضت عليها حمايتها للإسلام ورعايتها للعروبة وأمانتها للجامعة أن تقف وحدها فى الميدان الغادر تكافح فى صدق وصبر جيوش اليهود وأسلحة الأمريكان ومكر الإنجليز ؛ ثم لا تتلقى من أخواتها الشقيقات إلا هتافا كهتاف الحمام وحنانا كحنان الأوز : بروق باسمة من غير غيث ، وصكوك ضخمة من غير رصيد !.

لقد تكشفت مأساة فلسطين ـ واسوأتاه ـ عن قلوب شتى ووجوه متعارضة . والإسلام ـ كما رأيت ـ وحدة وجامعة . فمن فصم العروة بعد توثيقها ، ونقض اليمين بعد توكيدها ، وفرق الكلمة بعد توحيدها ، فهو مسلم من غير إيمان ، وعربى من غير شرف ، وإنسان من غير ضمير .

أحمد حسن الزيات

يا رســـول الله

شعوبك فى شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف فى عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة	فما بالهم فى حالك الظلمات ..؟
وذلك ماضى مجـدهم وفخارهم	فما ضرهم لو يعملون لآتى ..؟!

« شـــوقى »

الرسالة الروحية للشباب الجامعي

للأستاذ محمد محمد المدني

شبابنا الجامعي هم الطليعة الأولى في جيش الحياة الزاحف إلى المستقبل.

هم المقدمة من فصول الكتاب الذي ستنشر صفحاته غداً يوم تعود القومية العربية بإذن الله كما كانت في أزهى عصورها مصدر إصلاح عالمي واسع النطاق يقوم على أساس من العلم والهدى والإيمان والرغبة الصادقة في إنقاذ البشر من جميع صور الاستغلال والإذلال والطغيان.

هم سفراؤنا إلى الأجيال القادمة الذين لن يطول بنا الزمان حتى نواهم بأعيننا، ولكن سترفرف عليهم أرواحنا، وستنتقل إليهم أفكارنا، وتأتيهم أنباؤنا، ويحكمون لنا أو علينا.

هؤلاء هم شبابنا الجامعي في مختلف جامعاتنا العربية قديمها وحديثها، من الأزهر الرابض تحت سفح المقطم منذ ألف عام أو تزيد، إلى هذه الصروح الشامخات من أطواد العلم، في جيزة الفسطاط، أو في مشارق عين شمس، أو في مدينة (الإسكندر) أم الفلسفات والمكتبات في عصور التاريخ، أو في عاصمة الصعيد أسيوط ذات التاريخ العلمي الذهبي.

ومن حق هؤلاء الشباب علينا أن نعدهم لهذه الرسالة إعداداً قويا صالحا، وأن نوجه إليهم كرائم جهودنا، ونهديهم زبد تجاربنا، ونتهج بهم صراطاً مستقيما يكونون به هادين مهتدين، صالحين مصلحين.

إن أية نهضة إصلاحية لابد أن تكون قائمة على أسس معنوية، وأن يكون لها نبع روحي يمدها، ويبعث فيها القوة والاستمرار والقدرة على المكافحة والمجاهدة.

والتاريخ يثبت أن العرب أمة صافية الجوهر، أصيلة المعدن في صفات المروءة والشهامة والنجدة، ولكنه يثبت في الوقت نفسه أن عنصرهم الأصيل، وجوهرهم الكريم، إنما لمع وبرز في العالم ذا بريق أخاذ، ونور وهاج، حينما حملوا راية الإسلام واهتدوا بهدى القرآن، والقرآن روح من أمر الله، ونور يهدي به الله، وصراط مستقيم رسمه الله «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا..؟ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم».

وإذن فالعروبة لم تبرز إلى العالم حين برزت أول مرة، كعنصرية كل ما لها هو الانتساب إلى عدنان أو قحطان، ولكن كجوهر صاف صالح لأن يحمل دعوة إصلاحية عظمى للعالم كله.

ولذلك يتجه الرأي العلمي السليم إلى تفسير قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»، بأن هذه الخيرية ليست

خيرية عنصر من الناس على عناصر أخرى ، ولكنها خيرية مبدأ وفكرة ودعوة ، فإن من فخر العروبة أنها تجاوبت مع دعوة الإسلام ، ودانت لها ، وآمنت بها ، وحملتها إلى الناس .

فالعالم لم يعرف العرب إلا وفى أيديهم مشكاة الهداية ، وراية الإصلاح ، ومقاييس الفضيلة والمثل الرفيعة .

* * *

وإذا أردنا أن نقيم نهضتنا على أساس متين لا يمكن أن يتزلزل ، فإن هذا الأساس هو « الإيمان » :

١ - الإيمان بالله . ٢ - الإيمان بأنفسنا .
٣ - الإيمان بالقيم . ٤ - الإيمان بالعلم .

إنها أسس أربعة يجب أن يقوم عليها صرح البناء الذى أخذنا على أنفسنا أن نبنيه .

● فالإيمان بالله هو الأساس الأول ، وهو عقيدة باعثة هادية منشطة ، وليست كما يزعم الملاحـــدة وأشباههم عقيدة مثبطة أو معوقة أو مكبلة للعقول .

إن القلوب إذا فرغت من الإيمان بالله ضعفت أمام الأحداث وتزلزلت وانهارت مقاومتها ، ولكن المؤمن الصادق الإيمان قوى القلب ، يقشع عنه إيمانه غياهب الظلمات ، ويهديه فى أوقات الحيرة .

والإيمان بالله هو ارتباط عملى بين الإنسان والمثل العليا ، لأن الله تعالى هو منبع هذه المثل ومصدرها ، وهذا المعنى هو المعبر عنه فى القرآن الكريم « بالأسماء الحسنى » ، فالله تعالى يقول : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » ، ودعوة الله بهذه الأسماء هى التعلق بها ، والتعشق لمعانيها وما توحى به وتفرضه على المؤمن :

إن الله هو « الرحيم » فرحمته مبدأ الرحمة ، والمثل الأعلى الذى يوحى به هذا الاسم إلى المؤمن هو أن يكون رحيما .

إن الله تعالى هو « البر » فالمؤمن يجب أن يكون « برا » .

إن الله هو « العزيز » فيجب أن يستوحى المؤمنون من هذا الاسم كل معانى العزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

إن الله هو الغفور ، هو الودود ، هو الحكيم ، هو العليم ... إلى غير ذلك من صفات الجمال .

فدعوة الله بأسمائه الحسنى ليست هى مجرد ترديدها على سبيل الذكر اللسانى ، والعد الإحصائى ، ولكن هى إدراك معانيها إدراكا يخالط النفوس ، ويؤثر فيها ، حتى يطبعها بطابعها ، ويملأها بعظمتها ، ويديرها فى مدارها .

وإذا كان لله تعالى صفات أخرى بجانب صفات الجمال ، وهى صفات العظمة والجلال ، فإن لها أيضا إيحاءها للمؤمنين .

إن الله هو « الجبار » ولكن جبروته فى موضعه - أى مع المتجبرين - عدل ورحمة : عدل ، لأنه جزاء لمن ظلم ، ورحمة لأنه إنصاف لمن ظلم ... وهكذا .

ولذلك لا ينبغى أن ينظر إلى صفة من صفات الله وحدها ، ولكن ينظر إلى جميع الصفات

ككل، لنعرف الله بجميع صفاته . ومن هنا رأينا القرآن الكريم يتبع الصفات واحدة بعد واحدة دون عطف كأنها جميعا وصف واحد فيقول مثلا « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك، القدوس ، السلام ، المؤمن، المهيمن، العزيز ، الجبار ، المتكبر » .

فمن أهم ثمرات الإيمان العملية أن المؤمن يرتبط قلبه بربه، أى بالمثل والصفات العليا، فيستوحيها ويهفو دائما إليها ، ويدير حياته وتصاريف أفعاله على هدى منها ، وفى نطاقها وفلكها .

والإيمان بالنفس ثمرة من ثمرات الإيمان بالله ، لأن المؤمن يعلم أن الله وحده هو الذى يملك ناصيته ، وهو الذى له الملك وله الحكم ، وله الأمر ، وبهذا لا يذل ، ولا يتنازل عن نفسه ، ويعرف أنه هو وسائر الناس متساوون أمام ربوبية الله ، وأمام تقدير الله وحكم الله .

وهذا منبع القوة والكرامة وكسب النفس ، ولذلك نجد القرآن الكريم يقرن بين خسارة النفس وعدم الإيمان ، فيقول : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

والإيمان بالقيم هو الذى يجعل الحياة كريمة لها طعم ومذاق ، وهو الذى يعلو بالإنسان إلى صعيد فوق مستوى الحيوان الأعجم .

والذين يتنكرون للقيم والفضائل هم الذين يضطربون عادة ، وإن ظنوا أنهم بمنجاة من الاضطراب إلى حين .

ولذلك يقسم الله عباده إلى فريقين : فريق المصدقين بالحسنى ، وفريق المكذبين بالحسنى ، فالحسنى هى القيم ، والتصديق بها هو الإيمان بقيامها ووجودها ووجوب رعايتها ، والتكذيب بها هو إنكارها والتحلل منها ، والخروج على مقتضياتها وأحكامها ، ومن صدق بالحسنى يسره الله لليسرى، وهى حياة اليسر والسعادة ، ومن كذب بالحسنى فالله ييسره للعسرى، وهى حياة الشقاء وملابسة الصعاب.

أما العلم فحسبنا أن نعلم أن الله تعالى كرمه ورفع أهله إلى مقام عظيم ، حيث ذكرهم معه ومع ملائكته فقال « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » وأنه جعل معرفة الحق ورؤيته رأى العيان من شأن أهل العلم حيث يقول « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » .

وأولو العلم هنا ، ليسوا أصحاب العلم الدينى فقط ، وإنما هم أهل كل علم : علم الحياة ، علم الآفاق ، علم السنن الكونية فى مظاهرها المختلفة : فى النبات ، فى الحيوان ، فى الإنسان، فى الجبال ، فى الأنهار ، فى عالم الأفلاك ، فى كل ما يدرسه شبابنا الجامعى من علوم الدين والدنيا ، وفى كل ما تقوم عليه رسالة الإنسان باعتباره خليفة فى الأرض ؟

محمد محمد المدنى

الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

— ٢ —

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الإسلامية، وعن طابع الرسول، صلى الله عليه وسلم: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

لقد كان إرسال الرسول، صلى الله عليه وسلم، رحمة، إذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية وكان إرساله رحمة، إذا نظرنا إلى شخصيته، يقول، صلوات الله وسلامه عليه:

«إنما أنا رحمة مهداة»:

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة، وكان رحمة مهداة من حيث الذات.

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه إلى الرحمن رسالة، وينتسب إلى الرحمن صفات، وكان ينتسب إلى الرحيم رسالة، وينتسب إلى الرحيم صفات إنه ـ رسالة وصفات ـ يسير فى حياته، باسم الله الرحمن الرحيم مبشرا باسم الله الرحمن الرحيم. إنه نبى الرحمة وإنها رسالة الرحمة، والله سبحانه وتعالى، قد ربى رسوله على عينه، واصطنعه لنفسه، فنشأه على الرحمة، فهو، صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده.

وإننا، إذا أردنا تعبيرا مجملا جامعاً لمعانى الرحمة التى اتصف بها نبى الرحمة، فإننا نجده فى وصف السيدة خديجة، رضوان الله عليها للرسول، صلى الله عليه وسلم، حينما فاجأه الوحى وحدثها به وقال لها: «لقد خشيت على نفسى».

فقالت، رضى الله عنها، فوراً:

كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إن هذا الوصف الصادق للرسول، صلى الله عليه وسلم، إنما يعبر فى كل جملة من جمله عن الرحمة، وهو وصف اتسم به الرسول صلى الله عليه وسلم، طيلة حياته، والآية القرآنية:

«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» لا تخصيص فيها، لا من ناحية نوع الرحمة، ولا من ناحية موضوع الرحمة، ويشرح هذه الآية فى شمولها وعمومها: يشرحها فى دقة وفى عمق، موقف كريم من مواقف التوجيه النبوى: لقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتحدث عن الرحمة، ويدعو إليها، ويعرف بمنزلتها من الدين. فقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: «إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا».

فلم يرض هذا القول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لأنه فهم قاصر محدود لما ينبغى أن يكون عاما شاملا، إنه تقييد للمطلق، ولذلك رد عليه الرسول، صلى الله عليه وسلم بقوله: «ما هذا أريد، إنما أريد الرحمة العامة».

وما من شك فى أن من الرحمة: رحمة الأزواج، والأولاد، والأهل، وقد حث على ذلك رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه. بيد أن ما أراده الرسول، صلى الله عليه وسلم،

إنما هو أن تتغلغل الرحمة فى الكيان الإنسانية كله ، حتى تصبح ، وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته ، فيكون الإنسان وكأنه قبس من الرحمة الإلهية : ينثرها إذا سار ، وينثرها إذا جلس ، وينثرها أينما كان وينثرها حيثما حل .

وإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الإسلامية : رحمـــة للعالمين .

ولقد حقق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هذا الطابع : بقوله ، وحققه بفعله ، ولقد كانت الرحمة ـ وهى طابع الرسالة الإسلامية ـ هى طابع تصرفاته ، وانظر إلى الحادثة التالية الحادثة التى نزل فيها قوله تعالى « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

وهى لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون وأسر سبعون ، استشار النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا فقال أبو بكر يا نبى الله هؤلاء بنو العم ، والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنني من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه ، يعنى العباس ، فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة ، أى ميل للمشركين » .

أما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان معروفا ، يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه ، وعرف صلة هذا الطابع بطابع الرسالة الإسلامية ، إنه أخذ الفدية ، ولقد كان أبو بكر ، رضى الله عنه ، أمثل الناس فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه بل زاد عليه حينما خير رسوله ، فيما بعد ، بأنه إذا وضعت الحرب أوزارها : له أن يمن وله أن يأخذ الفداء : « فإما منا بعد وإما فداء » .

وقبل بدر ، أخذ الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الفداء ، فقد فادى فى سرية عبد الله ابن جحش ، قبل بدر بنحو عام .

فلما كانت بدر ، سار الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، على سننه ، وتصرف مستلهما طابع الرسالة التى أرسله الله بها ، ولكن بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم ، نظر إلى موضوع الفداء نظرة مادية ، وأخذ فى تقدير الفدية : وزنا وكيلا ، وقيمة ومقدارا وكما وكيفا ، وأخذ فى تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر ... إن بعض الصحابة نظر إلى المسألة نظرة مادية ، فنزل قول الله ، سبحانه وتعالى ، مصححا الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الأمور فى وضعها الصحيح ، ولم يزنوها بميزان التوجيه الإلهى .

يقول الخطيب القسطلانى فى كتابه « المواهب اللدنية » فى ذلك : « فيه بيان ما خص به

وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فكأنه قال : « ما كان هذا لنبي غيرك » اهـ ، ويقول القاضي بكر بن العلاء : « أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء » اهـ.

والتوجيه الإلهي في خاتمة رسالات السماء ، أنها رسالة رحمة ، ولرسالة الرحمة ميزات ، وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها ، وما كان لنبي من قبل ، ما كان لنبي من قبل نبي الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض فلما كانت رسالة الرحمة ، ولما كان نبي الرحمة : أباح الله له التصرف بحسب الرحمة ، وهو الفداء ، ثم زاده تكريما على تكريم حيث زاده رحمة على رحمة ، فجعل له الخيار بين المن والفداء .

وإن كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لا ترى ولا تحس ولا تشعر بالجانب المادي ولكنكم ياهؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية : تريدون عرض الدنيا وتتخذونه مقياساً ، إنه ليس بمقياس ، إن المادة ليست في موازين الله مقياساً ، فإن الله يريد الآخرة ، ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات رسوله ، صلى الله عليه وسلم : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة » وإنه لمن أفضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل : « أسوة » وحسب وإنما قال : « أسوة حسنة » ، وقال سبحانه .

« أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

ثم إن الله ، سبحانه : لم يأمر المسلمين برد الفدية ، وما كان أيسر ذلك ، ولم ينقض الله سبحانه . ما أبرمه رسوله ، المبرأ عن أن يسير إلا على بصيرة ، والمنزه عن أن يهدي إلا إلى الصراط المستقيم ، صراط الله .

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، على أن يكافح طيلة حياته في غير فتور ، ولا هوادة ، لهداية الإنسانية وإسعادها ، لقد كان ، صلى الله عليه وسلم ، يشق على نفسه في سبيل ذلك ويحملها من الأمور ما لا تطيق . حتى لقد قال الله له :

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

وقال سبحانه : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

ولقد رسم الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، موقفه من الناس ، ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردي في نار يتهافتون على الاحتراق فيها ، ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحيمة التي كان يستعملها الرسول : صلى الله عليه وسلم في سلوكه مع الناس . وهي ، وإن كانت خاصة برجل معين ، فإنها ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم

جاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له مستفسراً متودداً : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابي لا : ولا أجملت ، فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم الرسول ، صلى الله عليه وسلم

أن كفروا ، ثم قام ، ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده ، ثم قال : « أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال له النبى ، صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شئ من ذلك . فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

وتحدث الأعرابى إليهم ، وطابت أنفس أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بقول الأعرابى فقال ، صلوات الله وسلامه عليه ، هذا التعقيب الرائع :

« إن مثلى ومثل هذا الأعرابى : كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة أن خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه إليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » ا هـ .

لقد كانت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رحيمة حتى مع الأعداء .

لقد قيل له يوم أحد ، وهو فى أشد المواقف حرجا : لو لعنتهم ، يا رسول الله فقال ، صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت رحمة ، ولم أبعث لعانا » .

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالهداية والصلاح وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون ؛ بل الناس على وجه العموم ، بالتعاطف فيما بينهم . سئل مرة : أى الناس أحب إليك ؟ فقال : أنفع الناس للناس ، وسئل أى الأعمال أفضل ؟ فقال : إدخال السرور على المؤمن . وقال : أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً ، وألطفهم بأهله .

وكانت رحمته ، صلوات الله وسلامه عليه عامة شاملة حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم لقد قال — يحث على الشفقة بالحيوان : — « بينما رجل يمشى ، فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج منها ، فإذا هو بكلب يلهث الثرى (يأكل الثرى من شدة العطش) فقال : لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذى بلغ بى ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال (نعم) لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر .

وقال ، صلى الله عليه وسلم : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

لقد كان صلى الله عليه وسلم رحمة وكان رحمة للعالمين ؟ .

الدكتور عبد الحليم محمود

نفحات القرآن

من تصوير القرآن لمشاهد الآخرة

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

« ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ، يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين » .
آية - ٤٥ - يونس

١ — هذا نبأ من أنباء الغيب عن الحياة الآخرة بالنسبة للكافرين .

ومثل هذا النبأ ليس من العلم الذى تتعلق به حواسنا ، ولا مما تتكهن فيه بعقولنا . ولكننا نؤمن به كغيب عرفناه من طريق السمع والنقل عن كتاب الله ، أو تبليغ الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ومن لم يؤمن بالغيب : فهو المكذب بلقاء الله ، وهو الذى تشهد عليه الآية هنا بأنه لم يكن من المهتدين .

ومع ما نعرفه من أن مواهب الإنسان ، وجهوده الباحثة فى مجال المعرفة قد انطلقت فى مجالها ، وأبعدت فى دنيا العلم وأحاطت بالكثير من طرائفه ، ولا تزال تبرز لنا عجائب مطوية عنا فى هذا الوجود : فإن تلك المواهب ، والجهود لا تتجاوز عالم الشهادة ، ولا يتاح لها أن تتصل لشىء مما استأثر الله بعلمه : ديناً ودنيا كالآجال ، والأرزاق ، والحظوظ ، وكشئون الآخرة وما هناك من أقدار « قل إنما الغيب لله » .

ولكن شاءت حكمة الله فى تدبيره أن يتفضل فيسوق إلينا بعض الغيب عنا قبل أوانه ، ليكون ذلك تثقيفاً لنا ، وتبصيراً ، وعونا لأفهامنا على إدراك ما يناط بنا من تكاليف ، وليكون استنهاضا لنا إلى عمل الخير طمعاً فى جزائه ، وإلى تحاشى العصيان خوفا من عواقبه .

٢ — ومن هذا الغيب الذى يصوره لنا القرآن أن الكفار حينما يبعثون من قبورهم فى اليوم الآخر يتخيلون أن الأزمنة الطويلة التى مرت على الأجيال فى دنياها . ثم فى قبورها لم تكن أكثر من ساعة واحدة من ساعات النهار التى كانوا يعهدونها فى الحياة الأولى ، وكانت تمر بهم فى سمر لاه ، وعمل باطل « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون . ما لبثوا غير ساعة » ... ولماذا يتخيلون ذلك ؟ هل كانت أرواحهم فى هناءة حتى انطوى عليهم الزمن سريعاً كما تنقضى متع الحياة ؟ ؟ لا ... ولكن لأنهم كانوا فى دنياهم يستبعدون البعث ، ولا يؤمنون بالغيب بعد ما هم

فيه من حياة فاتنة ، أو كانوا يزعمون لأنفسهم كرامة عند الله ليست لسواهم ، فلن يعذبهم الله كما يعذب آخرين لأن هؤلاء أبناء الله ، وأحباؤه كما يزعم اليهود .

فهؤلاء جميعاً يخرجون من الأجداث ، وحينما يفجأهم الموقف الرهيب بأهوال القيامة يتلاشى زعمهم الجاحد، ويبدو لهم من كروب الآخرة ما لم يكونوا يحتسبونه ، ويتأكدون أن موعد القيامة كان حقاً ، وكان قريب الحصول ، حتى كأن حياتهم ، وقبورهم لم تستغرق أكثر من ساعة واحدة .

فهم حينئذ بين ماض تبدد منهم فى غفلة ولن يعود ... وبين حاضر تكشف لهم عن هوان غير محدود .

٣ — وهم حينئذ يتعارف بعضهم على بعض بالتحسر ، وبالدهشة من ذلك الهول الذى طاشت له عقولهم ، وهم يتلاومون على على ما فرط منهم ، ويحاول كل امرئ أن يلقى وزره على غيره .

فيقول الضعفاء فى الدنيا للذين كانت لهم السيطرة عليهم : « إنا كنا لكم تبعا ... لولا أنتم لكنا مؤمنين » .

ويقول الذين استكبروا : « أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟؟ بل كنتم مجرمين » .

يعنى لم نمنعكم من الإيمان ، وإنما كنتم كفاراً باختياركم .

وهكذا من الحوار الأسيف الذى يتردد بينهم .. ويحكيه لنا القرآن منذ نزل القرآن .

وذلك كله من الغيب الذى يبادرنا الله بعلمه قبل أن يحين موعده لتكون العبرة شاخصة أمام بصائرنا جميعاً ، ولا يكون للكافرين معذرة عند ربهم .

٤ — وهناك مواقف أخرى تنقطع فيها المحاورة ، ويسرون فيها الندامة المكبوتة ، ويشغلهم الهم المحدق بهم عن محاولة التنصل والاعتذار . « ولا يسأل حميم حميما » عن معونة أو دعوة كما كانوا يتعاونون فى الدنيا على الإثم والعدوان .

« يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته ، وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه » هذا الفداء لو استطاعه .

ورب قائل : « كيف نسمى هذا علم الغيب والمعروف كما سلف أن الغيب لله وحده » .

والجواب : أن الله - تعالى - يحيط علمه بكل شىء عما كان، أو يكون إجمالا، وتفصيلا.

ولكنه رحمة بعباده يكشف لهم عن بعض جوانب الغيب تبصيراً لهم بما هنالك ليتبينوا الرشد من الغى .

وليس معنى ذلك أننا شاركناه فى علمه المطلق ... ولا أنه يطلعنا على جميع غيبه .. بل هى نسب محدودة من فيض علمه ، وبقدر ما نحتاج ... والذى نعلمه من ذلك لا يظل على غيبته ، بل صار معلوما لنا ولو إجمالا « ولا يحيطون بشئ من علمه : إلا بما شاء » .

٥ — ونحن نعلم أن الدنيا وما فيها كانت غيباً عن عالم الشهادة ... ثم تعلقت إرادة الله

بإبرازها شيئاً فشيئاً على صفحة هذا الوجود طبقاً لما جرى به علمه، وقضاؤه.

ونحن فى كل وقت نستقبل من عالم الغيب أقضية، وأحداثا لم تكن مكشوفة لنا، ولم نكن نعلمها حينما كانت محجبة عنا، ثم أصبحت مشهودة لنا فى غير إنكار، ولاريبة.

فلا غرابة عندنا أن يخبرنا الله ببعض الغيب فى الآخرة عن أهوال القيامة، وعن الجنة ونعيمها، وعن النار وشقائها، وعن المؤمنين والكافرين فى أخراهم بعد أن يقضى الله فيهم قضاءه العادل.

٦ — وانقرر فى تراثنا العلمى أن الله — تعالى — حينما يأذن بتنفيذ أمر غيبى حان موعده يعهد به إلى ملائكته الموكلين بتنفيذ ما يريده، فلا يعتبر هذا الأمر غيباً عند الله كما كان، بل أصبح معلوما للملائكة، وإنما يظل غيباً عنا نحن إلى أمد.

فإذا وقع الأمر فى موعده صار مشهوداً لنا، ولم يبق غيباً.

والله يقول فى ذلك: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ... إلا من ارتضى من رسول».

ومعنى ذلك: أن الغيب سر عند الله. محجوب عن عباده، ولا يظهر الله غيبه إلا لمن اختاره من رسله ... والرسول هو الملك الذى يفضى إليه المولى بشىء من علمه الغيبى: كجبريل بالنسبة للوحى، وكعزرائيل بالنسبة للموت. وكإسرافيل بالنسبة للرياح وبالنسبة للنفخ فى الصور: إيذاناً بيوم القيامة، وميكائيل بالنسبة للأرزاق، على ماهو مذكور فى مواضعه من كتب السلف

والرسول كذلك.. هو النبى الذى يختاره الله للنبوة، أو يبعثه بالرسالة... فإن الله يوحى إليه بما يشاء من علمه ليقوم بتبليغه إلى قومه..

وسواء أكان الرسول ملكا. أو إنساناً فإن الله يفضى إليه بشىء من الغيب عنده...

وهكذا ما نحن فيه من حديث الآخرة، فهو غيب، أخبرنا به الله، تفضلا علينا... كما أضفى على رسله علما عن الأولين، وقص علينا سيرهم، وما كنا ندريها، لأنها غيب سابق... والله ذو فضل على الناس.

وتلك كلها تصرفات علوية، اقتضتها حكمة الله فى خلقه، فلا نستهين بها، ولا نتصرف عن تعقلها، ولا ننسى أن القرآن حافل بالتوجيهات إلى الإيمان بالغيب عامة ... حتى لا نتعثر فى جهالتنا المطلقة لما يغيب عنا، ولا نغتر بقشور علمنا كما يغتر الماديون، فينكرون ما يغيب عن حواسهم.

والله ينبهنا إلى ذلك فى قوله تعالى: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون».

ومهما يكن العلم فتنة لبعضنا فهو علم ضئيل لا ينبغى أن نستطيل به: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»؟

عبد اللطيف السبكى

اللغة العربية بين الفصحى والعامية

للأستاذ عارف النكدي

(الإنسان مدني) هـذا ما قاله الفقهاء والفلاسفة من قبلهم. وسواء أكانت مدنيته هذه بطبعه، رغبة منه في الاجتماع، أم كانت لحاجة له إلى التعاون طلباً للمعاش، فهو في الحالتين لا بد له من مجتمع بشري يعيش فيه، والاجتماع يقتضي التعارف والتكامل، ولا سبيل إليهما إلا باللغة.

واللغة بدأت أول ما بدأت صرخات وصيحات نفسية كان يعبر بها الإنسان عن خلجات نفسه وعن حاجاته. ثم ارتقى فارتقت فصارت أصواتاً وحركات وإشارات ثم تحولت ألفاظاً اتفق عليها الجمع، للإفصاح عن أغراضهم ومقاصدهم. وبدأت اللغة ضيقة، على ما يبدأ الطفل لغته، يعبر بها عن الأشياء الضرورية له، المحيطة به. ثم جعلت تتسع مع الأيام، وتزداد بازدياد حاجات الإنسان، وتنوع أغراضه. ثم أخذت ترتقي، ولا تزال، بارتقاء أبنائها في التفكير وفي العلوم والآداب، وباتساع الدولة وامتداد سلطانها وما يتبع ذلك من مدنية وحضارة وسائر مقومات العمران.

وقد تكون اللغة نشأت واحدة، على فرض الإنسان الأول كان واحداً، ثم تشعبت هذه اللغة وتفرعت، بتشعب الشعوب وتفرقهم، فصارت لهجات ولغيات ثم لغات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض. هذا مذهب علماء اللغات.

وقد تكون نشأت منذ نشأت لغات عديدة تبعاً لتعدد الأناسي الأولين، وتعدد مواطنهم وهذا مذهب علماء الأحياء.

وبأي الرأيين أخذنا، فقد انتهى الناس إلى أن يكون لكل أمة منهم لغة مستقلة منفصلة عن غيرها. ولو كان بعضها واحداً، إلى زمن غير بعيد.

وصرنا إلى يوم تعد فيه وحدة اللغة، دليلاً على وحدة القوم، بل وحدة الأمة. فليس الناس بأبناء الدم الواحد، وإنما هم أبناء اللغة الواحدة. والقول بأن الأمة تؤلف وحدة دموية بفعل التكاثر بالتوالد، لا يخرج عن أن يكون خرافة يكذبها التاريخ بما وقع فيه من فتوحات أدت إلى اختلاط العناصر وازدواجها وتداخلها بعضها في بعض، تداخلاً لا سبيل إلى فصله ولا إلى تمييزه. وإذا صدقت هذه القرابة الدموية على شعب من الشعوب، فإنما تصدق على القبائل البدائية المنعزلة، التي لم تؤثر في الحضارة العالمية، ولا أثرت هذه الحضارة فيها.

فالأمم والشعوب المعروف تاريخها ذوات

الحضارات والوحدات السياسية والقومية، ما تمت وحدتها بالقرابة الدموية، بل بالقرابة الصناعية من وحدة الإقليم، والعادات، والتاريخ، والمصالح المشتركة. وأم من هذا كله والعامل فيه وحدة اللغة.

هذا كان في الأمس الغابر البعيد، وهو كائن إلى اليوم فليس في الأمم أمة يجمعها الدم الواحد، وإنما هي جماعات جمعتها اللغة الواحدة.

فالأميركان، إن هم إلا مجموعة من شعوب الأرض. والافرنسيون خليط من الغول والجرمان وغيرهما. والإنجليز أنفسهم على اعتدادهم بنسبهم، لا يخرجون عن أن يكونوا مزيجا من شعوب كثيرة، وأن تكون لغتهم تجمع بين السكسونية واللاتينية. وملوكهم دمهم سكسوني وجرماني إلى اليوم، وسيكون سكسونيا وجرمانيا ويونانيا غداً، ونحن العرب على عنجهيتنا الجاهلية، وإبائنا السابق أن نصهر إلى غير عربي، وامتناع العرب أن يدينوا لهجين ... ولو أنه سليمان ابن عبد الملك - نحن فينا أيضا العرب المستعربة وهم قوم تعلموا العربية واتخذوها لغة، فصيرتهم عربا. وقديما قال أفصح من نطق بالضاد: (ليست العربية لأحدكم باب ولا أم، وإنما هو اللسان. من تكلم العربية فهو عربي).

وإذا كان في الأمم أمة خرجت عن هذا، فلأسباب أقليمية أو تاريخية ليس هنا موضع تفصيلها.

عرف العرب قيمة اللغة ومكانتها، فحرصوا على لغتهم، وبالغوا في صيانتها - وتهذيبها، حتى كان الغريب عنهم، إذا هو انتسب إليهم، ودخل فيهم فاستعرب، جرى على سننهم فسهر لياليه يتلمس العربية في مظانها مستفرغا جهده، مستنفذا كده حتى يخرج وكأنه واحد من آحادهم، لغة وأدبا، وبلاغة وفصاحة في شعره ونثره وفي أماليه وتآليفه.

بل هم جعلوا من أسواقهم التجارية، أسواقا أدبية، كانت من أسباب نقاء اللغة وصفائها، وتقريب مصطلحاتها وتهذيب ألفاظها. إلى أن نزل كتاب الله فألقى إليه العرب بمقادهم والعربية بمقاليدها. فكان دستورهم الأعظم. يؤخذ عنه ويرجع إليه.

فما أن انتشر العرب بالفتح، وامتد سلطانهم إلى الشرق والغرب، في آسية - وإفريقية وأوربا، وطال بهم الزمن، ووقع لهم الاختلاط بمجاوريهم وكثر بينهما الأزواج والأصهار وتعددت المعاملات من تجارية وزراعية وصناعية بينهم وبين جيرانهم. كان من نتيجة ذلك وطبيعته أن تفسد اللغة، وأن يكون للعامة لغة سوقية لم تقف عندهم، فتعدتهم مع الزمن إلى الخاصة.

يقول أبو عبيدة في الرقاشيين:

(وكان أبوهم خطيباً. وكذلك جدهم. وكانوا خطباء الأكاسرة. فلما سبوا وولد لهم الأولاد في بلاد الإسلام، وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق، فقاموا في أهل هذه اللغة

مقامهم فى أهل تلك اللغة . فيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم . ففسد ذلك العرق ودخله الخور) .

وزاد الأمر بلاء ، واللغة فسادا ، ضعف الدولة العربية . ثم صيرورة الحكم إلى غير العرب . فكان من الملوك والأمراء من لا يعرفون من العربية كثيرا ولا قليلا . فرغب الناس عن العربية وعلومها لكساد سوقها ، وعاد اللغوى والأديب لا يجد فى العلم رزقه ، بعد أن كان الأدب واللغة سببا من أسباب المكاسب والجاه والمناصب .

وكان الخطأ واللحن فى الصدر الأول وما بعده ، نقيصة وضلالا . قال صلى الله عليه وسلم لنفر لحن صاحبهم : (أرشدوا أخاكم فقد ضل) . وقال المازنى : سهرت عند المأمون فأجرى ذكر النساء فقال : (إذا تزوج الرجل امرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز) فقال المازنى : فقلت : نعم يا أمير المؤمنين عن رسول الله : (إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عوز) .

قال : وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا وقال : كيف قلت (سداد) قلت نعم لأن السداد هنا لحن قال أو تلحنني ؟ قلت : إنما لحن هشيم ـ وكان لحانا ـ فتبع أمير المؤمنين لفظه .

وكتب رجل الصاحب بن عباد يطلب إليه عملا . وختم كتابه بقوله : فإذا رأى أشغاله (يريد نفسه) فيه بعض أشغاله (يريد أشغال الصاحب) فعل إن شاء الله . وكأنه أراد من هذا التجانس بين أشغاله وأشغاله إظهار بيانه تقربا من الصاحب وهو هو بأدبه وفضله .

غير أن الأمر وقع خلاف ما أراد ، إذ وقع له الصاحب : من يقول أشغالى لا يصلح لأشغالى .

ويروى عن سيف الدولة ابن حمدان : أنه ما قال لقائم : اجلس :

إلى كثير من أمثال ذلك مما يروى عن الخلفاء والأمراء والوزراء . من المبالغة فى سلامة اللغة ، والرغبة فى تخير الراجح السليم من الألفاظ ، ونبذ المرجوح السقيم . والابتعاد عن معرة الخطأ واللحن .

وتراخى الأمر حتى ما كان نقيصة وضلالا صار فضيلة وجمالا . ولزم الخطأ المأمور والأمير والصغير والكبير . فقد أمر أحد الوزراء ببناء يوضع عليه اسم الأمير . فكتب الوكيل (أمر ببناء هذا المكان أبو فلان) وكأن الوزير كان يرى أن (أبى) أجل قدراً وأرفع شأناً للتعبير . فلام الوكيل أن استعمل (أبو) بدلا من (أبى) فاعتذر له الوكيل بأن الإعراب اقتضى الرفع فـ (أبو) هنا فاعل . فغضب الوزير وقال : ومتى رأيت الأمير فاعلا يحمل الطين والحجارة) .

يقول ابن حزم : (إن اللغة يسقط أكثرها وتبطل بسقوط دولة أهلها ، ودخول غيرهم عليهم فى أماكنهم أو بنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم . فإنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها

قوة دولتها ونشاط أهلها . وأما من تلفت دولته، وغلب عليهم عدوهم واستقلوا بالخوف والحاجة والذل ، وخدمة أعدائهم ، فضمون منهم موت الخاطر . ولربما كان ذلك لشتات لغتهم ، ونسيان أنسابهم ويبود علومهم) .

(هذا موجود بالمشاهدة ، ومعلوم بالعقل ضرورة) .

فتلف الدولة العربية ، واختلاط العرب بغيرهم ، وغلب العجم عليهم ، أفسد العربية ولولا كتاب الله لذهب بها جملة .

هذا الفساد جعل من اللغة العربية الواحدة لغتين اثنتين : لغة فصحى ، ولغة عامية وهى مشكلة لغوية وقومية ليس عند غيرنا من الأمم مثلها . نعم : قد يكون عند بعض الأقوام ألفاظ وتعابير تستعملها العامة ، وأحياناً بعض الخاصة ، فى أحاديثها الخاصة وفى بعض شئونها البيتية اليومية تختلف عن لغة الكتابة وقد لا تدخل فيها . ولكنها ألفاظ وتعابير محدودة لا تبلغ أن تكون لغة مستقلة ، كما يكاد يكون الحال عندنا . وليس من شك أنها مشكلة من أعقد المشاكل أن يكون للأمة الواحدة لغتان أصليتان . هذه المشكلة لتحتم علينا بابا للبحث فى اختيار إحدى هاتين اللغتين ، واعتمادها اعتماداً عاما شاملا للكتابة والخطابة .

ولعل المستشرقين كانوا أول من فتح هذا الباب ، وعالج هذا الموضوع . وكان أكثرهم أو كلهم ينزعون إلى اللغة العامية . وقد يكون الدكتور « فولارس » ألمانيا من السابقين أو كان السابق الذى تناول هذا البحث . فألف كتابا بالألمانية جمع فيه — على زعمه — قواعد اللغة العامية المصرية . كان ذلك لستين سنة وتزيد ، ثم تابعته طائفة من إخوانهم المستشرقين : منهم — فى رأيهم — عن رغبة فى توحيد اللغة العربية وتسهيلها ومنهم — عن سوء نية — خدمة للاستعمار بتمزيق وحدة الأمة العربية اللغوية ، تمكيناً لتمزيق وحدتها السياسية والقومية .

ولم ينحصر هذا البحث فى المستشرقين . فعالجته جماعة من العرب كانوا لسانا واحداً فى جانب اللغة الفصحى وتأييده . إلا نفرا قليلا جداً ذهبت به شعوبيته وعداؤه للعرب والعربية إلى الانتصار للعامية .

والذين انتصروا للعامية ولا سيما من المستشرقين كتبوا عنها وألفوا لها ، بلغاتهم لا بها . عجزا منهم ومنها أن يؤدوا أغراضهم بها ، لاستحالة القراءة والكتابة بالعامية إلا بالجهد والمشقة .

إلا أن واحداً من أبناء العرب ، كتب كتاباً بالعامية ، جاء أضحوكة الأضاحيك لا يقرأ وإذا هو قرئ بعد كد الذهن وأعمال الروية فلا يفهم إلا بالتفسير والتأويل والترجمة . ثم هو بعد يحتاج إلى الاستعانة بأبناء القرية التى أنجبت عالمنا النحرير .

وسكت المؤلف بعد ذلك سكوت أهل الكهف . انقطع صوته . ومات كتابه . وماتت فكرته معه .

والمقارنة بين اللغتين : الفصحى والعامية مقارنة مع الفارق . لا تحتاج إلى دليل إلا إذا احتاج النهار إلى دليل . فصلاح اللغة الفصحى شامل لكل غرض من أغراض الحياة والتعبير عن كل جليل ودقيق من المعانى الجليلة الشريفة الرفيعة ، إلى الحاجات العادية السوقية الوضيعة . هذا على حين أن اللغة العامية عاجزة عن تأدية معنى يخرج عن المعانى الساذجة العادية المتعارفة . لذلك كان صوت القائلين باللغة العامية ينقطع بين حين وحين ويخرج ضعيفاً خافتاً ثم تذهب به الريح ، وتبقى هذه اللغة الفصحى مرفوعة الرأس ثابتة البنيان والفصحى التى لم تؤثر فيها صروف الزمان ولا تحكم الأعاجم لا تقوى عليها محاولات استعمارية هزيلة وحجج واهية .

ولا سيما بعد أن زادت قد مها رسوخاً بانتشار العلم والصحافة والإذاعة ، وبقيام دول عربية لها مجالسها النيابية وقوانينها وبلاغاتها ومنشوراتها وكلها لا تصلح لها إلا اللغة العربية الصحيحة الفصيحة . نعم إن الفارق لعظيم بين اللغتين من حيث الصلاح والقابلية ، مما يجعل المفاضلة بينهما مضيعة للوقت . غير أنه بحث أريد فلابد لنا من نلم به على عجل متسائلين : إذا شئنا أن نعدل عن الفصحى إلى العامية أنجعل هذه العامية عامة لجميع الأقطار العربية أم نجعل لكل قطر لغته .

فإذا كانت الأولى ، وأردنا أن نوحد هذه اللغات العامية فنجعلها لغة واحدة ، أفقدر هؤلاء الهازلون مبلغ الصعوبة التى تواجه هذا العمل العسير بل المستحيل ؟ !

أليس رفع العامية إلى مستوى الفصحى أيسر وأهون سبيلا . فأى قطر ينزل عن عاميته لعامية قطر آخر لم يألفها ولم يفهمها . إن مثل اللغة العامية فى قطر بالنسبة إلى اللغات العامية فى الأقطار الأخرى ، مثل الطفل فى لغته ، يسمع الكلمة من أبويه فيعيدها محرفة ، فإذا هو كبر كان بين أن يمضى على لغته المحرفة أو يعدل إلى لغة بيئته ، ولما كان يصعب عليه أن يفهم الآخرين لغته ، وأن يتفاهم وإياهم بها ، كان مستحيلا عليه أن يفرض عليهم لغته ، كان لابد له من أن يستعمل لغة قومه وبيئته .

هذا مثلنا مع اللغة العامية . لا نملك أن نفرض عامية قطر على عامية قطر آخر ولا سبيل إلى التفاهم بها فعلينا أن نستعمل اللغة الفصحى : اللغة التى يرضى عنها جميع العرب ، ويفهمونها فى جميع أقطارهم إلا من شذ وقليل ما هم .

وإذا كانت الثانية ، وأريد لكل قطر لغته العامية ، لغة خاصة به مستقلة عن أخواتها فقد مزقنا هذه الوحدة اللغوية الجامعة لمختلف

الأقطار العربية وفيها عشرات الملايين من البشر إخواننا فى الحضارة والتاريخ وأبناء اللغة الواحدة. نفعل هذا فى زمن يقوم فيه بعض العلماء على وضع لغة عالمية واحدة يتفاهم بها الناس أجمعون.

ثم المصلحة من نمزق هذه الوحدة، ونقضى على هذه اللغة فتصير اللغة الواحدة لغات، وتعود الأمة الواحدة أمما وشعوبا شتات. شتات.

وهبنا تغلبنا على هذه المستحيلات كلها، أفلا نريد لهذه العامية أن تصبح لغة حية، وهل فى اللغات الحية لغة لا قواعد لها ولا ضوابط. والقواعد والضوابط تستخرج فى وضعها الأول من اللغة نفسها: من صحيح ألفاظها، ومن ثابت استعمالها ومن وحدة أساليبها، وبما فيها من قياس ومن إجماع أو اتفاق. فأين نجد هذا أو بعضه فى اللغة العامية.

والأمر أدهى وأمر، إذا نحن تركناها مطلقة لا ضابط لها ولا قاعدة، خلافا لكل لغة باب مشرع على مصراعيه، وحبل ملقى على الغارب.

ومع هذا البـــاب المفتوح، والحبل المطروح. يأتى يوم يكون لهذه اللغة العامية لغة عامية أخرى فى جانبها. ما دام الاختلاط واقعا، والمصالح متشابكة. واللغة لا وازع لها ولا ضابط. ومعنى هذا أننا فى قلق دائم وتطور مستمر. ولغة تتجدد فى كل عصر.

ثم ما عسى أن نفعل لهذا التراث التليد الجليل الضخم الجبار الذى نعيش فيه منذ ألفى سنة وتزيد، أنطرحه كله غير مأسوف عليه وهو مفخرتنا الخالدة، ومأثرتنا المعجبة، وتاريخنا الصادق الناطق بملوء الصفحات بالعلم الثاقب الرفيع والأدب الرائع البديع. من شعر ونثر. أفنترك هذا كله من أجل لغة عامية سقيمة وركيكة لا تاريخ لها ولا آداب فيها.

وشىء نعيده، وهو أن هذه اللغة العامية لا تصلح للكتابة وإذا هى كتبت صعبت قراءتها وعز على المجموع فهمها. وعلى العكس ما يكتب باللغة الصحيحة تفهمه حتى العامة التى لم تؤت نصيبا من العلم، ولا حظا من الدراسة. تفهمه كما تفهم ما تنشره الجرائد، وتذيعه الإذاعات، وما يلقى من خطب، وما يصدر من منشورات. وهى لغة عامة لكل قطر يفهمها أهله فهما صحيحا مستقيما.

وهذا كتاب الله، على قدمه، وعلى علو أسلوبه، ومحكم سبكه. قل ما يخفى من ألفاظه ومعانيه حتى على الطبقة العامية. فكيف يعدل عن الصحيح الراجح الذى يفهم، إلى السقيم المرجوح الذى لا يفهم. فنبدل ما هو خير بما هو أدنى.

(يتبع)

عارف النكدى

تيارات منحرفة في التفكير الديني المعاصر

للأستاذ علي العماري

١١ — عثرات الطريق

لا ننكر أن الله يمتن على بعض خلقه من العباد الصالحين، فيكشف عن بصيرته الحجاب فيرى بنور الله ما لا يراه غيره من الناس.

والأدلة كثيرة وواضحة على ثبوت (كرامات الأولياء) ولا ينكر ذلك إلا مجادل أو جاهل. ولا شك أن في رجال (الطريق) الذين أقبلوا على عبادة الله بنفوس صافية، وقلوب خالصة، وندبوا أنفسهم لإرشاد الضالين، وهداية الحائرين ودافعوا عن الشريعة، وناضلوا في سبيل إعلاء كلمة الله.

لا شك أن في هؤلاء من سمت نفوسهم، وخلصت نياتهم، وقربوا من الله، فكانوا من عباده المقربين.

كل ذلك حق لا ننكره.

ولكن المغالاة في رفع هؤلاء عن درجاتهم والغلو في وصفهم بما لا يقبله مسلم صحيح العقيدة ليس من التفكير الديني السليم

والأقوال التي تحكى عنهم يجب النظر فيها قبل تسجيلها في الكتب، وإذاعتها على الناس ولا ينبغي أن تكلف القارئ أن يتلمس لها التأويلات، فليس كل قارئ بقادر على أن يعرف مرامي الأقوال البعيدة، بل إن القارئ المثقف ليحار حيرة شديدة حين يحسن الظن بهذه الأقوال، وأصحابها الذين صدرت عنهم حين يكلف نفسه التماس التأويلات لها.

وماذا ينقصنا في ديننا إن نحن جهلنا حديث هؤلاء عن أنفسهم، أو حديث أتباعهم عنهم؟

هذه الأحاديث التي تحمل الإنسان المنصف المتمسك بدينه على أن يتنكر لها، ويظن بها الظنون.

إن مقامات بعض هؤلاء قد تكون أسمى، وأرفع حين تحوطها هالة من التواضع، ومن إنكار الذات، وحين يقتصد المحبون لها في إطرائها، والغلو في وصفها وتمجيدها.

وقديما قيل: ما آمن بالله من أحب أن يعرف مكانه.

كل هذه الخواطر جالت في نفسي حين أخذت في قراءة كتاب ألفه أحد العلماء في الثناء على شيخه، وعلى أصحاب شيخه. فرأيت فيه من الأقوال ما لا ينبغي أن يصدر عن عالم مثله.

وقد كان من اليسير أن أترك هذا الكتاب دون الوقوف معه، والتنويه بشأنه، لو كان مؤلفه أحد الخاملين من العلماء، أو أحد الجاهلين من أتباع الطرق.

ولكن المؤلف - كما يقول عنه ناشر الكتاب - (حامل السر المحمدى، ووارث النور الأحمدى، ومرجع التحقيق، وقد كان عضو المحكمة العليا بإحدى المدن المغربية)، وقد أخذ عنه - كما يقول الناشر أيضاً - كثرة فى مشارق الأرض ومغاربها، من كبار العلماء والأدباء، وذوى الرأى، وله تآليف فى جميع الفنون معقولها ومنقولها.

ويكفى أنه نظم كتاب (الشفا) للقاضى عياض فى نحو ثمانية آلاف بيت، مما يدل على سعة اطلاعه وفهمه.

بعد هذه المقدمة نعرض بعض ما ورد فى كتاب من كتبه مما نعده مغالاة فى أمور كان ينبغى أن يتحرج منها عالم مثله.

وقبل أن نذكر هذه الأمور نشير إلى الناشر - أيضاً - التزم جانب المغالاة، فهو يقول فى أوائل الكتاب عن بعض الشيوخ: (وهو الذى كان الغاسل يغسله وهو يقرأ معه صلاة الفاتح) ويقول عن آخر: (وكان مشهوراً بالفتح، وهو ممن يجتمع بالمصطفى صلى الله عليه وسلم فى اليقظة).

ومعنى العبارة الأولى أن ذاك الشيخ بعد أن فارق الحياة كان لسانه يردد صلاة الفاتح مع غاسله، ومعنى العبارة الثانية أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يزال يجتمع ببعض الشيوخ فى يقظتهم وكلا الأمرين مما لا يقبله إلا المغالون.

نقل مؤلف الكتاب عن (شيخه) فقال: (وأما سيدنا رضى الله عنه فقال: أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنى أنا القطب المكتوم منه إلى مشافهة لا مناما.

والقطب المكتوم فى رأى هذا الشيخ (هو الذى حاز ما عند الأولياء من الكمالات الإلهية والأسرار الربانية، واحتوى على جميعها.

ثم يقول المؤلف: (وقد قال لى سيدنا رضى الله عنه ما كشف الله لأحد من الأنبياء والأولياء عن بواطنها وأسرارها وخباياها وعلومها إلا سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وأنا معه، حمداً لله وشكراً، وأما غيرنا فيعلم ظواهرها فقط).

وهو الذى قال: إن الفيوض التى تفيض من ذات سيد الوجود صلى الله عليه وسلم تتلقاه ذوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ما فاض وبرز من ذاتهم تتلقاه ذاتى، ومنى يتفرق على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ فى الصور، ولى علوم خصصت بها بينى وبينه بلا واسطة لم يكن لأحد بها علم ولا شعور إلا الله عز وجل).

وأيسر ما يقال فى هذا الكلام أن صاحبه يفضل نفسه على جميع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان (الشيخ) يشطح فى بعض أحواله بما لا يليق أن يصدر عن (يقظان) أفما كان الواجب على (تلميذه) وهو عالم جليل أن يستر هذا القول على شيخه؟.

وأبعد من هذا فى (الشطح) ما نقله المؤلف عن شيخه من ادعائه (أن أصحابه لا يدخلون المحشر مع الناس فيالها من عظمة!

بل إنه - أعنى شيخه - يتجرأ فيقول: (إن صاحبى لا تأكله النار ولو قتل سبعين روحا إذا تاب بعدها).

ويزيد جرأة فيقول: (ليس لأحد من الأولياء أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب إلا أنا وحدى، ولو بلغوا ما بلغوا

من الذنوب ، وعملوا ما عملوا من المعاصي) .

ويتطوع ناشر الكتاب فيطلعنا على السر في ذلك فيقول معلقا على هذه العبارة الأخيرة : (فقد سأل الله عز وجل أن لا يموتوا إلا على التوبة والولاية) . فناشر الكتاب يؤكد مقال شيخه ، ويجزم بأن دعوته أجيبت ، وأن جميع الأتباع يموتون على الولاية ، فهم يدخلون الجنة بغير حساب مهما بلغوا من الذنوب ، وعملوا من المعاصي !! .

ولا يكتفي الشيخ بأن يشفع في أتباعه ، بل هو يزعم أن الله أعطاه الشفاعة في عصره ، يشفع في أهله إلا من أبغضهم فإنه لا يموت إلا كافرا ، ولو حج وجاهد .

ويدعى (الشيخ) أن كل ذلك من سيد الوجود بوعد صادق !!

ويستطرد الشيخ فيقول : (قال لى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم : كل من نظر في وجهك يوم الجمعة ويوم الاثنين دخل الجنة بغير حساب)

وعبارة الشيخ ـ كما نرى ـ مطلقة ، فيدخل فيمن رأوه في هذين اليومين المسلم ، والكافر والوثني ، والنصراني ، واليهودي ، فكل هؤلاء لا يحتاجون في دخول الجنة إلا إلى النظر في وجه الشيخ يوم الجمعه ويوم الاثنين!

ويعود الشيخ إلى تفضيل نفسه على الصحابة ، وعلى جميع العلماء والأولياء والعباد فيقول : (أعطاني الله في السبع المثاني ما لم يعطه إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام) .

ونترك (سيد المؤلف) فلعل القارئ قد أدرك مدى الانحراف في ادعاء هذه المزاعم ، وفي حكايتها ، ونشرها ، مما يضلل العامة ، وأشباه العامة ، ومما لا يتفق مع الأصول الصافية القويمة للدين الإسلامي الواضح المستقيم .

نترك سيد المؤلف لنشير إشارة عابرة إلى ما يسيطر على ذهن المؤلف الفاضل من الإغراق في الحكم ، تحدث عن صلاة (الفاتح) وهي صيغة معروفة للصلوات على النبي عند رجال الطريق ، فيقول : (إن المرة الواحدة منها بأربعمائة غزوة ، كل غزوة بأربعمائة حجة... وإن المرة الواحدة منها تعدل ستمائة ألف صلاة من مطلق الصلوات ، من صلاة كل ملك ، وصلاة كل إنس ، وصلاة كل جان) .

هذه بعض فقرات من كتاب وصل عدد صفحاته إلى خمسمائة وخمسين صفحة ، وقد طبع هنا في القاهرة بلد (الأزهر الشريف) ، وفي هذه الأيام التي تعمل كل أجهزة الدولة فيها على تصفية الإسلام من كل الشوائب ... ومع ذلك فلا يستحي أحد من نشر مثل هذا الكتاب :

أما الكتاب فهو : (كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب) .

وأما مؤلفه فهو (العلامة الأديب الورعى الأريب القاضي الحاج أحمد سكيرج) .

والله يهدينا جميعا إلى سواء الصراط ؟

علي العماري

طلائع الثقافة العربية فى السودان

للأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى
الأمين المساعد لمجمع البحوث الإسلامية

— ٢ —

٥ — أسباب الهجرات العربية إلى السودان

ذكر المقريزى فى خططه (جراص ٣٠٩) أنه من بمجموعة جزائر دهلك فى البحر الأحمر عبر من نجا من بنى أمية عند هربهم إلى النوبة ، ولا بد أن ذلك حدث بعد سنة ١٣٢ هـ أى فى أواسط القرن الثانى للهجرة . ومع أن من نجا من بنى أمية لم يكن جما غفيراً ، فإن هذا الخبر يدلنا على أن التقلبات السياسية كانت من أسباب الهجرات العربية إلى السودان ، كما أن إغارات (البجة) على حدود مصر الجنوبية وإيذائهم للمسلمين فى بلادهم حمل المأمون العباسى على إرسال عبد الله بن الجهم على رأس حملة لقتالهم أعادت الأمن إلى نصابه وأذعن فيها (كنون) رئيس (البجة) لشروط المسلمين فى معاهدة أورد نصها المقريزى ، ومع أن هذه المعاهدة نقضت فى أيام المتوكل فإنها أتاحت للإسلام أن ينتشر فى منطقة (البجة) . وجاء فى رسالة للمقريزى عنوانها (البيان والإعراب عمن سكن أرض مصر من الأعراب): أن أولاد (الكنز) من ربيعة وبنى هلال وجهينة سكنوا أعلى الصعيد واختلط الكنزيون بالبجة ثم صاهروهم وصارت لهم مرافق ببلادهم . وكانوا قد قدموا مصر فى خلافة المتوكل أعوام بضع وأربعين ومائتين ، ولما تغلب الترك على الدولة العباسية - ابتداء من خلافة المعتصم - كثرت الفتن بينهم وبين العرب فانتقلت بعض القبائل العربية إلى السودان .

ويلاحظ أن القبائل العربية الراغبة فى مواصلة حياة الرعى لم تطب لها الإقامة فى بلاد كمصر خصصت أرضها للزراعة ، فكانت تنزح إلى ربوع السودان انتجاعاً للكلأ وسعياً وراء الرزق . ومما يسترعى النظر أن الاضطرابات السياسية فى دولة الخلافة لم تؤد إلى هجرة جماعات من أصحاب الفرق والمذاهب الكلامية إلى السودان، كما حدث فى المواطن العربية على ساحل إفريقية الشرقى وبعض بلاد المغرب حيث نزحت إليها جماعات من فرق الخوارج والشيعة .

٦ — تاريخ وقوع الهجرات العربية :

لقد بدأ التغلغل العربى فى السودان منذ القرن الثانى للهجرة . ويذهب بعض الباحثين فى علم الأجناس البشرية إلى أن الدماء العربية سبق لها أن تسربت إلى شرق القارة الإفريقية فى العصور السابقة للإسلام ولعله كان من أثرها أن اللغة الأمهرية فى الحبشة تعد من

اللغات السامية . ويؤيد هذه الصلات بين الجزيرة العربية وإفريقية أن الحبشة كانت أول بلد فكر المسلمون الأوائل فى الهجرة إليه حين اشتد كفار مكة فى إيذائهم واضطهادهم وعلى العموم فإن الهجرات العربية تلاحقت منذ منتصف القرن الثانى ولكن زاد عددها ابتداء من القرن الثالث الهجرى عندما اضطربت أحوال الخلافة العباسية وانسلخت عنها دول كثيرة فى أطرافها. ومما يدل على مدى التغلغل العربى فى قلب القارة الإفريقية أنه قبل أن يوفق الغربيون إلى كشف منابع النيل فى أوائل النصف الثانى من القرن الماضى كان النيل وروافده فى السودان يحمل أسماء عربية مثل بحر الجبل وبحر الغزال وبحر الزراف وبحر العرب فضلا عن مسميات المدن فى ساحل إفريقية الشرقى مثل كلوة ودار السلام.

(وقد أوضح الكاتب الفرنسى « شارل دى لارونسيير » فضل العرب فى ارتياد مجاهل إفريقية فى كتابه : كشف إفريقية فى العصور الوسطى الذى نشره بالفرنسية فى القاهرة من سنه ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٢٧ م.)

٧ — نتائج الهجرات العربية : وقد كان للهجرات العربية المتلاحقة إلى السودان آثار هامة ، تضح فى طليعتها عروبة الدم أو السلالة فى المناطق التى استقرت فيها القبائل العربية كالمديرية الشمالية وأرض الجزيرة وسهل البطانة وبعض جهات البحر الأحمر ومديريتى كردفان ودارفور ، ويتجلى هذا فى مجموعتى القبائل الجعلية التى تمثل عرب عدنان أو عرب الشمال فى جزيرة العرب ، والقبائل الجهنية التى تمثل عرب قحطان أو عرب الجنوب ، فهذا هو الأثر السلالى الناجم عن هجرة العرب إلى السودان ، وهناك أثر لغوى ، يمكن أن نسميه عروبة اللغة وقد نشأ عن مخالطة القبائل العربية للجماعات الإفريقية السودانية ، وهى جماعات لم تتلاش نهائيا فى المجتمع العربى الجديد ، واحتفظت بلغاتها الأصلية بالإضافة إلى ما أمكنها أن تتعلمه من اللغة العربية كالنوبيين والبجة والفوريين والنوباويين . ونظراً لأن ثقافة القادمين كانت أقوى من ثقافة السكان الأصليين ، ونقصد بالثقافة هنا بمدلولها الواسع فى علوم البشريات ، فقد أدت هذه الهجرات العربية إلى انحلال كثير من التقاليد الإفريقية وغلبة التقاليد العربية ، ونرى فى غلبة الأخيرة بعد عروبة السلالة وعروبة اللغة الخطوة الثانية الممهدة لانتشار الثقافة العربية فى السودان .

٨ — انتشار القصص الشعبى : وقد جلب العرب معهم مادة ثقافية أولية ممثلة فى تقاليدهم التى نشروها فى بيئتهم الجديدة مما أشرنا إليه آنفاً . ومن هذه المادة ما تداولوه من قصص شعبى أقبلوا عليه أيما إقبال ، وهو يمثل مفاخرات الحياة العربية ومآثرها ويردد ما اتسمت بها من شيم الحماسة والحلم والسخاء

وضعه قصصيون مجهولون فى مصر ، فى عهود الدول الإسلامية المتقطعة ، واتخذ المؤلفون أبطالهم من رجالات التاريخ والأدب ، وبنوا هيكل قصصهم على وقائع تاريخية أو على ما دخل فى روعهم بأنه من صلب التاريخ ثم أطلقوا لخيالهم العنان بتنميقها بحواش وإضافات ، إيثاراً للمتعة الفنية وإشباعاً للميول والعواطف وقد أنزله النقادة الفرنجة المحدثون منزلة رفيعة فى تقديرهم وعدوه من أبدع ما أنتجه الأدب العربى من الفرائد والروائع . ولكننا نرى فى عامية عبارته وإسفافها فى مواضع غير قليلة وإغفالها أحياناً للمغزى الخلقى مايشين إبداعها ويذهب بروعتها بيد أنه فى جملته حافظ على الإطار الحماسى الحياة العربية ، وأطنب فى ذكر فضائلها ومآثرها ، وفى ذلك سر شعبيته وشدة الإقبال على ترديده ومن هذا القصص تغريبة بنى هلال وسيرة سيف بن ذى يزن وقصة عنترة العبسى وغيرها وقد عملت القبائل العربية فى السودان على التنويه بنسبتها إلى عدد من أولئك الأبطال كما احتفظت بوثائق عبارة عن جداول أنساب تؤكد اعتزازها إلى أصول عربية .

وإنا نعلق على انتشار القصص الشعبى فى السودان أهمية كبرى باعتباره سجلا للمثل العليا والمآثر التى يحدوها المجتمع الإسلامى وقد كان على ما فيه من مآخذ قوة تهذيبية نافذة الأثر فى بيئة لم تتيسر فيها وسائل التربية والتعليم فى تلك الأزمنة البعيدة ، كما زود القبائل العربية بما يؤنس وحشتهم فى وطنهم الجديد ، ويخفف عنهم ما كانوا يبذلونه من جهد فى إعداد البيئة السودانية لتكون مستقراً لهم . وقد اشتمل هذا القصص على كثير من الأمثال والعبارات المأثورة تبلورت فى تعبيراتها تجاوب أجيالهم المتعاقبة تحمل إلى الخلف ينابيع الحكمة الصافية وموازين الخلق والهداية وترشدهم إلى ما يحسن بهم إتباعه ، إذا ما حزبتهم أمور ومآزق مماثلة لما حدث لسلفهم .

٩ـ الدعامة الإسلامية للثقافة العربية فى السودان

نظراً لأن تاريخ الهجرات الأولى للقبائل العربية إلى السودان كان سابقاً على قيام الطرق الصوفية فقد انتشر الإسلام فى البداية فى ربوع البلاد السودانية طبقاً للصورة التى كان عليها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، ولعل عرب السودان آثروا الاقتداء بمذهب (مالك) فى ذلك الحين وهو المذهب الذى انتشر فى خارج الجزيرة العربية فى بيئات تماثل تلك التى نشأ فيها فى بلاد الحجاز . أما الطرق الصوفية فقد أخذت على عاتقها فيما بعد حين استوى عودها واتضحت مناهجها فى نشر الدعوة الإسلامية بين كثير من الجماعات السودانية إلى أن غدت أكبر ظاهرة تتسم بها الثقافة العربية فى السودان .

ومما يجدر ذكره أن الإسلام الذى انتشر

فى ربوع السودان كان خاليا من منازعات الفرق ما بقى منها أو اندثر ، ولقد امتدت هذه الخلافات إلى بعض نواح فى العالم الإسلامى كالجنوب الشرقى للجزيرة العربية والساحل الغربى للمحيط الهندى وبعض جهات المغرب بما يضم جماعات من الخوارج أو الشيعة . ولكن لم يصل شىء منها إلى السودان إما لأنه لم يهاجر إلى البلاد السودانية أتباع هذه الفرق ، أو لأن الطابع الإسلامى للسودان اكتمل فى فترة متأخرة نسبيا كانت فيها حدة الخلافات بين الفرق الإسلامية قد هدأت بعـــد أن استقرت جمهرة المسلمين فى العالم الإسلامى على عقيدة أهل السنة أو لسبب آخر لايزال خافيا علينا إلى الآن . ويضاف إلى هذه الظاهرة أن مصر مع أنها ظلت دولة شيعية طيلة قرنين من الزمان فى عهد الفاطميين منذ أواسط القرن الرابع إلى أواسط القرن السادس الهجريين ، فإنه لم يبق بها أثر للتشيع بعد سقوط هذه الدولة كما لم يتسرب هذا التشيع إلى السودان .

وعلى ذلك فإن الإسلام انتشر فى الديار السودانية خالياً من نزعات الفرق ومقالات المتكلمين ، إذ كان أوائل من هاجر إليه من العرب يقتدون بفقه الإمام (مالك بن أنس) ذكر المقريزى فى خططه (ح ١ ص ٣١٣) نقلا عن كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل لعبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى : « إن أول من بث الإسلام فى النوبة الهادى العثمانى الذى ادعى أنه من ولد عثمان ابن عفان ، وصارت الدعوة من بعده لليزنيين من بنى سيف بن ذى يزن ، وهم على مذهب مالك ، والعدل قائم بينهم ، وهم يابسون فى الدين ، لا يلينون ، وبنوا بمصر مدرسة المالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، فى سنى أربعين وستمائة وصارت وفودهم تنزل بها » .

بيد أن المقريزى لم يحدد لنا تاريخ انتشار المذهب المالكى فى بلاد النوبة : وذهب المستشرق (ماسينيون) فى كتاب وجهة الإسلام المطبوع بلندن سنة ١٩٣٢ ص ٨٤ إلى أن البلاد الواقعة شرقى بحيرة تشاد كان أهلها حتى القرن الثامن الهجرى يقلدون مذهب الشافعى ، وذلك نقلا عن المقريزى ولم يذكر لنا من أى مؤلفات المقريزى استقى هذا الخبر كما أنا لم نوفق فى العثور عليه فيما بين أيدينا من مؤلفات هذا المؤرخ العظيم . ولعل فى كتب طبقات المالكية ما يحدد لنا تاريخ انتشار المذهب المالكى فى السودان .

وبينما كان المحور التقليدى لتيارات الفكر العربى فى شمالى إفريقية يتجه من الشرق إلى الغرب فقد كان هذا المحور بالنسبة للسودان يتجه من الشمال إلى الجنوب ولكن شاركته تيارات عربية أخرى من الشرق إلى الغرب عبر البحر الأحمر ومن الجنوب الشرقى إلى السودان ومن الشمال والشمال الغربى

من ليبيا وبلاد المغرب ، بل ومن الغرب من السودان الأوسط والسودان الغربى ولعل أقواها ما كان قادما من الشمال والشرق .
وترجح أن حظ سودان وادى النيل من الثقافة العربية فى هذه العصور كان أوفر من حظ بلاد : كانم والبرنو ومالى والتكرور ، نظراً لأن موقعه الجغرافى هو أقرب نسبياً للمواطن الثقافية الكبرى فى العالم الإسلامى كالحجاز والعراق والشام ومصر . ومع ذلك فقد ترك لنا علماء السودان الأوسط والغربى من المؤلفات ما يربو على إنتاج نظرائهم فى السودان الشرقى نخص بالذكر منها كتابا فى طبقات المالكية من أبناء منطقة النيجر لأحمد بابا التمبكتى جعله ذيلا على ديباج ابن فرحون وأسماه : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، وكتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى ، وهذان من أعلام القرن الحادى عشر الهجرى . كما لا يفوتنا أن نذكر كتاب تاريخ الفتاش لمحمود كعت ، وإنفاق الميسور فى تاريخ التكرور لمحمد بلو ، وتزيين الورقات لعثمان دان فوديو ، وغير هذا من المؤلفات مما لا يتسع المقام لذكره .
غير أن النابهين من أبناء السودان الشرقى كان لهم نصيب فى الاشتغال بالعلوم الإسلامية فى القرون الأولى للهجرة وأحرزوا فيها من التفوق ما يثبت كفايتهم العقلية ، نذكر منهم فقيها جليلا وراوية من رواة الحديث ، عده الذهبى من الطبقة الثالثة من التابعين ، ذلكم هو يزيد بن أبى حبيب البصرى الذى اطنبت كتب الطبقات فى ذكر مناقبه ، ولد سنة ثلاث وخمسين ونشأ بمصر وتوفى سنة ثمان وعشرين ومائة . ذكر الذهبى فى كتابه تذكرة الحفاظ (جـ ١ ص ١٢١ و ١٢٢) أنه كان أسود نوبياً من أهل دنقلة وأنه كان مفتى أهل مصر وأول من أظهر العلم والمسائل والحلال والحرام وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن » . وذكر المقريزى فى خططه أن الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز جعل إليه الفتيا فى مصر مع رجل آخر مثله من الموالى هو عبد الله بن أبى جعفر ، وثالث من العرب هو جعفر بن ربيعة وقد أنكر العرب على عمر بن عبد العزيز إسناد الفتيا إلى هذين الموليين فقال : ماذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعداً وأنتم لا تسمون ؟ » .
وهناك علم آخر نوبى الأصل مصرى الإقامة أشار اليه القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى (جـ ٥ ص ٢٧٦) إذ قال : « ومن هذه البلاد ـ أى النوبة ـ نجم ذو النون المصرى الزاهد المشهور وإنما سمى المصرى لأنه سكن مصر فنسب إليها » ، كان عبداً أعتقته قريش وأدخلته فى ولائها وتوفى سنة ٢٤٥ هـ . ذكر ابن خلكان أنه كان وحيد مصره علماً وعبادة وحالا ومعرفة بالأدب ،

والمؤرخون المحدثون للثقافة العربية يعدون ورعه نقطة التحول فى تاريخ التصوف الإسلامى لأنه نقل حركة الزهد القديمة التى كانت تتجه نحو اطراح متع الحياة الدنيا وزخارفها إلى حركة يغلب عليها الاستغراق فى التأمل والتفكير فنقلها بذلك من الزهد إلى التصوف . فهو أول من عرف التوحيد بالمعنى الصوفى ، روى عنه القشيرى فى رسالته (ص ١٣٥) أنه قال : التوحيد هو أن تعلم قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه الأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه وليس فى السموات العلا ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله وكل ما تصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك ، وسئل ذو النون عن التوبة فقال : توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة ، وقسم المعرفة ثلاثة أقسام: والأول حظ مشترك بين عامة المسلمين ، والثانى معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء ، والثالث وهو العلم بصفات التوحيد خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . ولاحد لما أثر عنه من الأقوال الدالة على أثره فى الفكرة الصوفية .

١٠ — الطرق الصوفية فى السودان : تعد الطرق الصوفية ركناً من أركان الثقافة العربية فى السودان ، فالتصوف فى نطاق السنة الإسلامية بما يشتمل عليه من معان إنسانية واجتماعية وتوجيه تهذيبى يسدد من سلوك الفرد وما يقترن به من توسيع آفاق المعرفة والتأمل يعتبر متفقاً إلى حد كبير مع مايشترطه الباحثون فى الوقت الحاضر عند تعريفهم لمدلول الثقافة غير أن البعض ينكر على الطرق الصوفية فى السودان نسبتها إلى التصوف ويميل إلى تسميتها بالطرق الدينية لخلوها فى زعمهم من الخصائص التى عرفت بها حركة التصوف فى العالم الإسلامى واشتمالها فى الأغلب على مايعد إحياء لتقاليد سابقة غير أنا لا نرى فيها شيئاً مغايراً لنظائرها فى سائر البلاد الإسلامية ، فالطرق الصوفية السودانية هى فى غالبيتها فروع ممتدة من مواطنها الأصلية خارج حدود السودان ، جعلت من البيئة السودانية مسرحاً لنشاطها الروحى ، ليس فى أساليبها وتعاليمها من خصائص تنفرد بها عن نظائرها فى سائر البلاد الإسلامية . وقد أرجع بعض الباحثين الفرنجة ازدهار الطرق الصوفية فى السودان إلى سطحية العقيدة الإسلامية لدى جمهرة الشعب السودانى ، غير أن هذا التعليل لا يثبت للنقد ، فقد أوردت دواوين الأدب العربى القديم كثيراً من النوادر عن سطحية العقيدة فى نفوس أعراب البادية فى جزيرة العرب ذاتها ؟

عبد العزيز عبد الحى حلمى

الحضارة العقيم

للأستاذ رشاد محمد خليل

كيف بدأت مأساة الحضارة الحديثة ، وكيف تتابعت فصولها الفاجعة ، وكيف تشكل فى ظلها الرجال الجوف الذين عرفنا أمرهم فى المقال السابق [١] .

ذلك هو موضوع القصيدة الدرامية العظيمة والصعبة المعقدة فى نفس الوقت : « الأرض الخراب The wast, Land » .

وربما كان « إليوت » ، كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل هو أوضح شاعر فى العصر الحديث ، التفت إلى قيمة المنهج الأسطورى فى الشعر نظريا وعمليا . ولا شك فى أن شعراء آخرين سبقوه قد أنجزوا بعض أعمالهم الشعرية وفقاً للمنهج الأسطورى مع تفاوت ، لكن إليوت هو الشاعر الحديث الذى أكد فى أعماله الشعرية ضرورة هذا المنهج وأهميته بالنسبة للشعر . وقد كان منذ البداية يؤمن بأن العاطفة الشخصية أو التجربة الشخصية إنما تمتد وتتم فى شيء غير شخصى . وليس المقصود بهذا الشيء غير الشخصى أنه منفصل عن التجربة أو العاطفة الشخصية ، فالشعر الذى ينتج عن هذا لا يكون شعراً جيداً . ذلك أن قيمة الشعر لا تتركز فى مشاعرنا ولكن فيما نصنع من مشاعرنا من صور . وقد استطاع فى قصيدته « أغنية حب لالفردبروفروك » ، على سبيل المثال - أن يبلور - الفكر ، فى شعور ، والشعور فى صورة حسية استطاع أن يبرز الحياة الداخلية فى إطار من المشاهد الطبيعية ، والطقس والأصوات والصور ... الخ ، بالإضافة إلى أنه نمى المنهج الجديد فى استخدامه التحليل الفلسفى فى الإطار الشعرى ، وخرج من المزج بينهما بشعر تأملى هو حسى بمقدار ما هو عقلى » [١] .

وفى قصيدة الأرض الخراب يتجلى منهج إليوت الأسطورى والرمزى بصورة توشك أن تجعل من القصيدة (كرنفالا) من الأحاجى والألغاز ، فإليوت لا يقول لنا مباشرة ماهى الأرض الخراب ، ولكنه يجبرنا أن نلهث وراء بطله الخرافى « تريزياس » باحثين منقبين وراء الرمز ، لنفض عن كلمات الحكمة سرها المغلق .

« وتريزياس » هذا بطل أسطورى ،

---

(١) مجلة الأزهر جـ ٥ ، ٦ - السنة السابعة والثلاثون مقال الرجال الجوف فى الأرض الخراب

(١) مجلة الشعر - العدد الأول - السنة الأولى مقال للمنهج الأسطورى فى الشعر المعاصر .

تروى أساطير اليونان ، أنه كان ضحية تعذيب الآلهة التى انتقمت منه بأن جعلته شخصية تجمع بين الذكورة والأنوثة .

ولكن إليوت يترك الموضوع الأصلى للأسطورة اليونانية ، ليفسح من عنده حول « تريزياس » أسطوره جـــديدة ، حافلة بالأساطير والرموز .

وتقع القصيدة فى حوالى خمسمائة بيت مقسمة على خمسة مقاطع هى على الترتيب :

١ ــ دفن الموتى . ٢ ــ لعبة الشطرنج .
٣ ــ موعظة النار . ٤ ــ الموت غرقا .
٥ ــ ما قاله الرعد .

ويشكل كل مقطع فى النهاية بناء (هارمونياً) وعضوياً متكاملا تتجسد فيه مأساة الحضارة العقيمة ، فى الرجل العقيم .

وتشير الرموز التى تمتلىء بها القصيدة إلى مجموعة من الحضارات : إغريقية ورومانية وإسرائيلية وغربية حديثة .

وتقول مسز وستون فى كتابها « من الطقوس إلى الرومانسية from ritual to romance » ، إن فكرة القصيدة تدور حول أسطورة الأرض الخراب التى عانت من ضعف ملكها الجنسى والإدارى ، وأنه لابد لاسترجاع ذلك الخصب من أن ينهض فارس للبحث عن الكأس المخصبة « Grail » وهى رمز قديم للمرأة ، وأن خصب هذه الأرض أو جدبها متوقف على العثور على هذه الكأس ، وقد ارتضى إليوت نفسه هذا التفسير ، واعترف بأن ما كتبته مسز وستون يعتبر أفضل توضيح لفكرة هذه القصيدة .

والشىء المقطوع به على أى حال هو أن معانى الخصب والجدب ، والحياة والموت ، والخضرة والجفاف والأمطار والصخور . هى المعانى الرئيسية التى تدور حولها الرموز ، وتحوم حولها الأساطير .

* * *

يبدأ مقطع دفن الموتى بحديث عن فصول السنة على لسان « تريزياس » الذى يبدو عليه كراهيته للربيع فصـــل الخصب والحياة المتفتحة ـ ونلاحظ هنا أن تيرزياس ـ هو رمز الإنسان الحديث ـ ابن الحضارة العقيم ـ مفضلا عليه الشتاء الذى يكتم أنفاس الحياة ويشيع فيها روح الجدب :

إبريل أقسى الشهور ـ ينبت
الزنبق من الأرض الموات ، ويخلط
الذكرى بالرغبة ، يحرك
الجذور الكئيبة بأمطار الربيع
والشتاء يحفظنا فى الدفء ، ويغطى
الأرض بثلوج النسيان ، مغذيا
الحياة الضئيلة بالدرنات الجافة

ولكننا سرعان ما نعرف لماذا يكره الربيع إلى هذا الحد ، ولماذا يحب الشتاء ، لقد كان له أيضاً ربيع فى مطلع شبابه ، ربيع عرض نفسه عليه فى صورة الفتاة (مارى) ، وعرض عليه الحياة والخصب ، ولكنه رفض الخصب ، واختار الحرية ، وحدثه

عقله المثقف أن الخصب والحرية لا يجتمعان :

وعند ما كنا أطفالا نقيم فى قصر الأرشيدوق

وأخرجنى ابن عمى على مزلقة الجليد

وكنت خائفاً ؛ فقال : مارى ...

مارى امسكى بشدة ثم انحدرنا إلى أسفل

وفى الجبال تحس بالحرية .

فأنا أقرأ كثيراً بالليل ،

وأرحل شتاء إلى الجنوب

لقد عرضت عليه مارى الجنس رمز الخصب ، ولكنه عجز ، والعجز هنا رمز الجدب فى شخصيته ، وفى الحضارة الغربية كلها :

ولكن حين عدنا متأخرين من حديقة الياسنت

ذراعاك مليئتان وشعرك مبتل

عجزت عن الكلام ، وكلت عيناى

ولعل القارئ يستعيد فى ذاكرته ذلك الخيار المشئوم الذى وقع فى مطالع الحضارة الحديثة بين الإيمان (الخصب) وبين العقل (الحرية) وكيف وجد الإنسان الغربى نفسه مضطراً لأن يدير ظهره للإيمان الذى تجســد مع الأسف فى كل ما كانت تمثله الكنيسة الكاثوليكية وقتئذ من جهل وتزمت وتعصب وتسلط وفساد ، وظن أنه اختار الصفقة الرابحة حين حمل (حريته) أو (عقله) ومضى فى الطريق ، لم يكن يخطر فى ذهنه قط أنه حمل فى نفس الوقت عقمه وجدبه ، ولم يفهم حينذاك أن الخيار الذى تم كان خيارا مغلوطا ومضللا ، وأن الكنيسة فى نهاية القرون الوسطى لم تكن تمثل إلا فسادها وطغيانها ، وأن المسيح عليه السلام كان قد هرب منها منذ أن تحول (بابواتها) إلى أباطرة مستبدين ، يقتلون ويسجنون ويسلبون ، ويكدسون الثروات ويحتازون أملاك الفقراء .

لم يكن فى مقدوره أن يتصور أنه لا مجال للخيار ألبتة بين الإيمان ، والحرية أو العقل وأن هذا وذاك هما جناحاه فى رحلة الغربة فى أفق هذا العالم ، وأن وظيفة الإيمان هى أن يحقق للإنسان حريته على أكثر الأسس صلابة واستقراراً ، وعلى أكثرها تعمقا وأبعدها جذورا .

ولكن ما الحيلة ؟ وهو قد اختار وقضى الأمر ، وسار فى طريقه :

حيث الأشجار بلا ظل والجندب يثير الأعصاب

وعلى الحجر الجاف لا تسمع خرير الماء لا شئ

هناك سوى ظل تحت هذه الصخرة الحمراء

ثم تتوالى رموز الجدب الواحد تلو الآخر فهو يصادف على الطريق ، تارة الغيب الشهيدة « سيزو ستريس » التى تقرأ له طالعه

هذا هو (الكارت) الذى يخصك : البحار الفينيقى الغريق .

* * *

هذا هو الرجل ذو العصى الثلاث ، وهذه هى العجلة وهذا هو التاجر الأعور .

ثم يتجسد الجدب والجفاف فى مدينة لندن وأهلها المكدودون السائرون بلا هدف .

يا مدينة الوهم :

تحت الضباب الأسمر ، ضباب فجر شتاء
على جسر لندن تدفق جمع غفير
لكثرته نسيت أن الموت حصد جمعا غفيرا
وصعدت آهات قصيرة ، كل حين طويل
وثبت كل بصره أمام خطاه

ثم تتجسد صور الجدب هذه كلها فى صورة « ستيتسون » و « ستيتسون » هنا هو كل الناس الذين اختاروا طريق « تريزياس » ودفنوا خصبهم ، والذين يعايشون هذا الخصب المدفون فى أعماقهم يخشونه ويرهبونه ويحسبون حساب يقظته على حياتهم الجدبة .

هنا رأيت رجلا أعرفه فاستوقفته صائحا « ستيتسون » .

يا رفيق على السفينة فى (ميلاى)
الجسد الذى زرعته فى حديقتك فى العام الماضى هل اخضر يا ترى ؟ وهل سيزهر هذا العام أم فاجأه الصقيع فأفسد مرقده ؟
لا تجعل الكلب صديق البشر يقترب منه
وإلا نبش عنه بأظفاره وأخرجه

والكلب هنا يشير إلى « الكلب الجبار » وهو نجم قدماء المصريين الذى كان يبشر بموسم الزراعة والخصب و « تريزياس » ينصح هنا « ستيتسون » أو « الآخرين » بأن يكون حريصا على دفن خصبه وعدم تعريضه لعوامل الإثارة والحياة

وكأن « تريزياس » يخشى أن يفلت من مصيره المجدب أحد فقراء يتجه بنصيحته الكريهة إلى القارئ .

« وأنت يا قارئى المنافق يا شبيهى وشقيقى »

* * *

وبهذا النداء ينهى إليوت المقطع الأول ليبدأ مقطعه الثانى « لعبة الشطرنج » .

وهنا يتجسد لنا الجدب عن طريق رمزين أحدهما يشير إلى حياة الطبقة الأرستقراطية التى تملك كل شىء ، وتعيش على الرغم من ذلك تمتص الضجر والسأمة . والآخر يشير إلى حياة الطبقة الفقيرة التى لا تملك إلا غوغائيتها وضجيجها وضحالتها .

وتريزياس يعمق عن طريق استعراض هاتين الصورتين إحساسه المر بالعقم ويعمق بالتالى إحساسه بيأسه وضيعته .

والصورتان مرسومتان ببراعة فنية فائقة ولكن الأولى على الأخص تذكرنا (بالأرابسكوا) العربى ، وروائع الفسيفساء فكل لفظة أشبه بصدفة صغيرة فى هذا البناء الزخرفى الذى يتجمع ببطء ومهارة ليكسف الشكل الدقيق المركز الذى تعبر عنه اللوحة أو الصورة .

وقد استغرق رسم صورة القاعة التى تجلس فيها السيدة المترفة قرابة تسعة وثلاثين بيتا ، اشتركت فى رسمها المقاعد والتماثيل وصور الحائط والقلائد والعطور والملابس وتحس ، وأنت تقرأ هذه الأبيات ، أن إحساسك بالفتنة والانبهار بهذا الجو السحرى ينمو ببطء مع تتابع الأبيات ، ولولا خشية الإطالة لنقلت لك هذه الصورة الرائعة التى لا يمكن

التعبير هنا بنقل أبيات منها لأن ذلك يفسد تركيبها الفسيفسائى الدقيق ، وإذ توشك أن تهتف حسدا فى نهاية هـــذه الأبيات لهذه المخلوقة التى تعيش فى هـذا النعيم حتى تطالع بصورة مناقضة تماما لهـذا الجو الساحر ، صورة امرأة قلقة متضجرة ، لا تحس إطلاقا بهذا الجو الذى تعيش فيه ، ولا تكاد تحتمل حياتها ، ولا عالمها ، ولا زوجها ، وتستمع إليها وهى تتحدث بعصبية :

أعصابى الليلة متوترة ، نعم متوترة ، ابق معى حدثنى ... لماذا لا تتحدث أبداً ؟ تكلم

فيم تفكر ؟ فيم تفكر ؟ فيم . . ؟

أنا لا أعلم قط فيما تفكر . . فكر ؟

إنى أتصور أننا فى ممر الجرذان

حيث يفقد الموتى عظامهم

ما هذه الضجة . . ؟

الريح تحت الباب . .

ما هذه الضجة الآن ؟ ماذا تفعل الريح ؟

لا شىء ثانية لا شىء

هل أنت لا تعرف شيئا ؟ هل أنت لا ترى شيئا ؟ هل أنت لا تذكر شيئا ؟

« لا شىء ! ؟ »

حياة جدباء . . جدباء تلك هى حياة هؤلاء الناس ، على الرغم من كل ما يملكون .

والآخرون . . المطلقون . . الذين يعيشون فى قعر المجتمع ، أى نوع من الحياة يا ترى يمارسون . . ؟

إن « تريزياس » تنتقل بنا ذاكرته إلى حانة فقيرة يسمعنا فيها (رغى) نسوة ، يقضين وقتهن ، وكل وقتهن ، وكل ليلة فى ثرثرة فارغة ، تمتد ساعات وساعات ، بلا معنى . . بلا هدف . تنصح إحداهن زميلتها بشراء طقم أسنان لتعجب زوجها ، وأنه سيكون فى حاجة إلى وقت طيب بعد عودته من الجيش وحديث عن الإجهاض والحبوب . . والأطفال . .

وفى نهاية الليل يودعهن صاحب الحان كالمعتاد قائلا :

طابت ليلتكن ، ياسيداتى ، طابت ليلتكن يا سيداتى الجميــلات ، طابت ليلتكن ، طابت ليلتكن .

وبهذا ينسدل الستار على شريط الذكريات ذكريات العقم والجـــدب فى الطبيعة وفى « تريزياس » نفسه وفى الآخرين على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم ، العقم الذى يجعل الحياة فارغة من المعنى خالية من الهدف .

وقد عانى هذه الحالة كل الأبطال الوجوديين واللامعقوليين فى العصر الحديث ، وقد تبلور هذا الإحساس المرير ، منذ اللحظة التى أطلق فيها فيلسوف الوجودية الأول « كيركيجارد » صيحته ضد حقارة العصر ، وضعة المجتمع ، وتخاذل النفس البشرية أمام المادة ، وغلبة روح المساومة عليها .

بل وصل الأمر إلى الحد الذى جعل (سارتر) يعلن على لسان بطله الحر « أورست » ، وهو

تأثير ابن خلدون فى أسلوبنا المعاصر

للأستاذ محمد رجب البيومى

— ٢ —

هذا الأسلوب وما جرى بجراه فى الدفاع عن الحرية من أقلام مجاهدة تحمل روح ابن خلدون وطابعه ، ولا أعنى بذلك أنه ينهج نهجه فى التحليل والاستدلال ولكنه يعيش فى جوه ويستلهمه ، وينطق بأثره الواضح أحيانا ، والخفى حينا ، وأنا إذ أقرر ذلك أوجه النظر إلى ناحية هامة من نواحى التأثير الخلدونى إذ أن بعض الباحثين يقف بتأثير المقدمة عند الصياغة والتركيب فقط ويرى أثرها لا يتعدى التحرر من القالب البديعى وهذا غير الواقع لأن الأقلام التى اتجهت وجهة الإصلاح السياسى والاجتماعى ، قد وجدت معينها الدافق فى أفكار ابن خلدون ، وإذا كان قد اشتهر عنه تفوقه فى إدراك حقائق

(بقية الصفحة السابقة)

من الإنسان الغربى المعاصر : أن حرية الإنسان تبدأ فى اللحظة التى يدرك فيها تفاهة وجوده ، وأن البديل الوحيد لهذا الوجود التافه هو اليأس منه .

جوبيتر : وماذا تنوى أن تعمل ؟

أورست : أناس (أرجوس) هم أمامى ، فيجب أن أفتح أعينهم .

جوبيتر : مساكين هؤلاء الناس ! ستهدى إليهم العار والوحدة ، وستنزع عنهم ذلك اللباس الذى أسدلت عليهم ، وتكشف لهم — على غير انتظار منهم — عن وجودهم ، ذلك الوجود التافه البذىء الذى أغدق عليهم بالمجان .

أورست : ولماذا أضن عليهم باليأس الذى فى نفسى ما دام اليأس نصيبهم فى هذه الدنيا ؟

جوبيتر : ماذا يصنعون به ؟

أورست : فليصنعوا به ما شاءوا ، إن الحياة الإنسانية لا تبدأ إلا فى الشط الآخر من اليأس [1] .

• • •

لقد حاول الوجوديون على اختلافهم مؤمنين وملحدين البحث عن بديل لهذه الحال أو على الأقل عن أسلوب لمواجهتها وكذلك حاول صاحبنا «تريزياس» فى الشق الثانى من الأرض الخراب أن يواجه هذه الحال بأسلوب مناسب ، فماذا تراه فعل ! ؟ .

ذلك حديث آخر . (يتبع)

رشاد محمد خليل

---

(١) الندم أو الذباب : Les Mouches ، جان بول سارتر ، ترجمة الدكتور محمد القصاص .

الاجتماع بما يسعف الكاتبين في إصلاح المجتمع المصري فإن آراءه السياسية لا تقل خطورة عن آرائه الاجتماعية ، وبعبارة أخرى فإن الإصلاح السياسي في منطق ابن خلدون نتيجة من نتائج الإصلاح الاجتماعي ، فكلا الإصلاحين قضية واحدة ذات مقدمة ونتيجة ومن الذائع المشتهر أن آراء المفكر العربي في حقل السياسة والاجتماع قد وجدت من يتحمس لها تحمسا يصل بصاحبها إلى ذروة العبقرية والإبداع حتى اعترف به واضعا أول لعلم الاجتماع وأقيمت الموازنات الطويلة بينه وبين فلاسفة هذا العلم في أوربا ، إذ قرنه الباحثون بأرسطو وأفلاطون وقال عنه (غوميلوفتس) أحد زعماء علم الاجتماع بألمانيا : « إن ابن خلدون يعتبر مفكراً عصريا بكل معنى الكلمة . إنه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين ، وأبدى آراء عميقة جدا لا أقول قبل (كانت) فحسب بل قبل (فيكو) أيضا ، والحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم بعلم الاجتماع » .

وقال (فارد) كبير علماء الاجتماع الأمريكان « كانوا يظنون أن أول من قال بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو) أو (فيكو) في حين أن ابن خلدون قال بذلك ، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بقرون ، حينما كان الغرب مستسلما للفلسفة الدرسانية والكهانية استسلاما تاما » .

وليس لي أن أملأ الصفحات بمثل هذه الاعترافات المنصفة التي سجلها مفكرو الغرب من أمثال استفانو كولوزيو الإيطالي ، وناثانيل شميث الأمريكي وتوينبي الإنجليزي لعبقرية ابن خلدون ، ولا أن أشير إلى المقارنات التي عقدها كبارهم بين ميكافيللي وأرسطو ومونتسكيو وبين صاحب المقدمة فقد شاعت وذاعت حتى أصبح ترددها المتكرر لا يأتي بجديد ، وإنما أريد أن أقول : إن صاحب هذه العقلية الفذة قد أنقذ الأسلوب الأدبي إنقاذا ناجحا حين جعل الفكرة عنصرا هاما من عناصره ، وحين جعل صاحب القلم مفكرا ذا رسالة ، وليس صاحب أسجاع ومترادفات وقد ظل أثره الأسلوبي في قومه ضئيلا لا يكاد يحس حتى استيقظت العربية من إغفاءتها الطويلة في نهضتها المعاصرة وقدر لها أن تحتذي مقدمة ابن خلدون فتنتقل من دور إلى دور ، وطبيعي أن جميع الرواد في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يكونوا من محتذي أسلوب المقدمة ، بل أن فيهم من لم تظهر على أسلوبه سمة واحدة من سماتها كعبد الله فكري وإبراهيم المويلحي وحمزة فتح الله والنديم ، ولكن صفوة الكتاب إذ ذاك كجمال الدين ومحمد عبده وأديب إسحاق وعبد الرحمن الكواكبي قد نشروا أسلوب المقدمة كل جهد طاقته !! وكان من حسن الحظ أن يتتلمذ على جمال الدين ومحمد عبده بصفة

خاصة أكثر كتاب الجيل اللاحق فيردوا موردهما ، وينهجوا منهجهما ، وإذ ذاك يقفز الأدب قفزته الطافرة ، ويتمرر الأسلوب نهائيا من أوهاقه ، وتصدق كلمة أستاذنا السكندرى حين قال « لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فى وقت أظهر منه فى العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين فهو الأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات فى نهضتنا الأخيرة » .

ويعن لنا أن نسأل فى هذا المجال ؟ لماذا لم يؤثر أسلوب ابن خلدون فى معاصريه ، كما أثر فى أسلوب الأدب المعاصر ، والرجل لم يكن خامل المكانة مجهول المنزلة بين قرنائه حتى يفقد تأثيره النفاذ بل كان كما قال عنه منافسه الخطير الوزير الأديب لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة فى تاريخ غرناطة « باهر الخصال رفيع القدر أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالى الهمة ، عزوفا عن الضيم صعب المقادة ، قوى الجأش طامحاً لقنن الرياسة خاطباً للحظ ، متقدما فى فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ، مغرى بالتجلة . فأما نثره فخالج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع يفرغ عنها يراعه الجرىء ، شبيهة البداءات بالخواتم ، فى نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع ، وأما نظمه فقد نهض لهذا العهد قدما فى ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة » . ولعل السبب فى فقد تأثيره إذ ذاك أنه دعا إلى منهج جديد فى التحرر ، وصاحب الجديد مقصى السبيل نائى الإجابة ، إذ أن معاصريه قد درجوا على حب الصنعة والزخرف ، وأصبح الاعتكاف فى البديع لديهم إيماناً لا يتزلزل ، فهم عن غيره منصرفون ، ولو نادى به عملاق خطير كابن خلدون ، لا نقول ذلك فى الأسلوب الأدبى وحده بل فى كل منهج جديد فى مختلف العلوم والفنون والآداب يفتح العيون على آفاق لم تكتشف بعد . وللتدليل على ذلك نذكر فى تاريخ النحو الأندلسى رجلين كبيرين ، أحدهما مجدد خطير وهو (ابن مضاء) القرطبى ، الذى نادى بإبطال نظرية العامل وذهب إلى أن الذى يسبب الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وجزم إنما هو المتكلم نفسه لا ما يزعمه النحاة من الأفعال وأشباهها ، وبين ما جرت إليه نظرية العامل من التعسف فى التأويل والشطط فى العلل والأقيسة ، وأكثرها مرفوض إن استقام من جهة تطرق إليه الخلل من جهة ثانية !! وقد ألف فى مذهبه ثلاثة كتب ، منها كتابان كبيران مفصلان طواهما الزمن ، وكتيب صغير ظل بجفو المنزلة حتى عثر على جزء منه فى المكتبة

التيمورية ، ونشره الدكتور شوقى ضيف منذ سنوات !! هذا البحاثة المجدد لم يجد من يستمع إلى دعوته الإصلاحية أو من ينسخ كتبه فقط للأجيال اللاحقـــة ، فضاعت صفحاتها بدداً فى خضم الزمان لأنه صاحب مذهب طريف ! أما الرجل الثانى فهو ابن مالك الأندلسى صاحب الألفية الشهيرة ! فقد كان جماعا لآراء النحاة حسن الترتيب لما يتناول من القواعد المقررة ، لم يأت بجديد فى تحرير مذهب أو تأصيل بحث ، ولكنه قرأ فوعى ثم جمع فأوعى ، فسارت مؤلفاته النحوية مسير الشمس ، وظلت تجتاب القرون منذ القرن السابع الهجرى إلى الآن ، وقد كان الأزهر ولا يزال يدرس آثاره فى الأقسام الابتدائية والثانوية والعالية محاطة بالشروح والتقريرات حتى هـذه الساعة !! فإذا فقد ابن مضاء تأثيره فى معاصريه ، فقد التقى مع ابن خلدون فى العمل والنتيجة ، ومثلهما الكثرة الكاثرة من المجددين الذين دفنتهم أيامهم الجائرة فى حفائر الإهمال ، حتى هبت الريح العاصفة فكشفت التراب عن الذخائر المطموسة وأقبل عليها الراغبون مقدرين !

ويخيل إلى أن تردد ابن خلدون قبل تأليف المقدمة بين الترسل والسجع قد ضاءل من تأثيره فى معشره إذ روبعه عنه مراسلات بديعية نحا فيها منحى معاصريه ، وقد حفظت عنه وتعورفت بين الناس بل فى تاريخــه الكبير كان يميل إلى السجع فى بعض الفقرات على قلة ، واختار لتاريخه أطول عنوان مسجوع لكتاب عرفه القراء. ونذكر هنا نموذجا من كتابته المسجوعة فى رسالة بعثها إلى لسان الدين ابن الخطيب بدأها بقوله :

« سيدى مجداً وعلوا ، وواحدى ذخراً ومرجواً ، ومحل والدى براً وحنواً ما زال الشوق منذ نأت بى وبك الدار ، واستحكم بنا البعاد ، يرعى سمعى أنباءك ويخيل لى من أيدى الرياح تناول رسائلك، حتى وردكتابك العزيز على استطلاع وعهد غير مضاع ، وود ذى أجناس وأنواع ، ... الخ .

ونحن فى ميزان النقد المخلص لا نؤاخذ الكاتب على التزامه قيود البديع فى مراحله الأولى قبل أن يكون صاحب مذهب يؤثره لأن أبعد المتطرفين فى الدعوة إلى الجديد ، كان يتلقى دراسته الأولى على النهج الذى نادى بالتخلص منه ، بعد أن فتقت الأيام ذهنه بالتأمل والتمحيص ! فكل ما صدر عنه قبل أن يهتدى إلى منهجه الخاص لا يزحزح من دعوته التجديدية فى عيون الناقدين ونحن حين نطالع آراء ابن خلدون بالمقدمة فى الأسلوب الأدبى المختار نلمس من ثباته وأصالته وتمكنه ما نعتبره به قائد دعوة وحامل راية يحاول أن ينقل الكاتبين من مجال إلى مجال فهو يقول .

« واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون

يعنى فنون الشعر والنثر أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا فى الأقل النادر وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف ثم إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم ، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك ! وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه فى سائر أنحاء الكلام كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى أنهم ليخلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس ، والكاتب الذى يحمل هذه الجملة على البديع ! يفرق فرقا واضحا بين البديع المتكلف المستكره ، والبديع الفطرى المطبوع فيرى فى الأول ركاكة وإسفافا وفى الثانى جمالا وإبداعا وإنه ليفصح عن ذلك حين يقول — ببعض التصرف :

« ويقع تراكيب الكلام فى هذه السجية ضروب من التزين والتحسين فيحصل للكلام لذة ، وجمال زائد على الإفادة وهذه الصفة موجودة فى الكلام المعجز ، وفى كلام الجاهليين بعد كمال الإفادة لكن عفوا وبغير تعمد ، وفى كلام الإسلاميين عفواً وقصداً ، والمنثور فى الجاهلية والإسلام كان مرسلا معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه حتى نبغ ابراهيم بن هلال الصابى فتعاطى الصنعة والتقفية ، ثم انتشرت الصناعة بعده والكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف قاصر عن المطبوع لقلة الاكتراث بأصل البلاغة والحكم فى ذلك الذوق » .

لقد كان ابن خلدون نابغة عصره دون نزاع ثم قدر له أن يقود النهضة الأدبية فى عصرنا الحديث ليصبح فى رحاب التاريخ الأدبى نابغة العصور !! طيب الله ثراه .

محمد رجب البيومى

المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

في مقارنة الأديان:

المعجزات

للأستاذ عبد الجليل شلبي

من طبيعة الإسلام أنه لا يعتمد كثيراً على المعجزات والخوارق، ومعجزته الكبرى هي القرآن الكريم، وهي معجزة باقية يستمر التحدي بها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات أخرى كثيرة، بعضها ثابت ثبوت اليقين ولا يحتمل أدنى نزاع، وبعضها لم يقو سنده، ولكن غصت به كتب السير، وشاع على ألسن الرواة من زمن بعيد.

وقد أقر القرآن الكريم للأنبياء السابقين بمعجزاتهم المادية، وذكر قصصهم في كثير من سوره وفي كثير من آيه، فالقرآن ليس حربا للديانات السماوية، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل، كل ماهناك أن المعجزات المادية تفقد فاعليتها بمضي زمنها، ويبدأ تأثيرها يبهت في نفوس الناس، فمن شأن هذه الحوادث أن تكون موقوتة التأثير وقد كانت رسالات هؤلاء الأنبياء موقوتة أيضا، أما الإسلام فمعجزته خالدة لأنه دين خالد، ولهذا لم يعتمد على المعجزات الأخر وإن كانت في الواقع حقيقة ثابتة، وحسبها أنها أدت أغراضها حين حدوثها.

وفي هذا العصر المادي ذهب كثير من المستشرقين يفسرون المعجزات في ضوء العلم الحديث، ويظهر أن إسراف التوراة في ذكر المعجزات المادية للأنبياء وغير الأنبياء مما حدا بهم إلى الدرس المادي أيضا، وقد اتخذوا من دراسة الآثار ومستكشفات الحفائر أدلة يعتمدون عليها، والحق أن هذه الدراسة أمدتنا معلومات تاريخية قيمة، ولكنها عجزت عن تفسير كل ما ذكرت كتب الأديان من معجزات الأنبياء، ومن ناحية أخرى كان ما وفقت لتفسيره تأييداً جديداً لحدوث هذه المعجزات.

وهناك شيء آخر، وهو أن التوراة سكتت عن ذكر أنبياء جاء ذكرهم في القرآن الكريم لأن التوراة - وهي في حقيقتها تاريخ للشعب الإسرائيلي - لم تعن بذكر الأنبياء العرب حتى من يمتون للعبرانيين بصلة جاء تاريخهم عرضا، فيونس عليه السلام جاء ذكره في القرآن غير مرة وجاءت قصته مفصلة، وهو بحكم بعثه في أرض الكلدانيين ذو صلة ببني إسرائيل. ومع ذلك لم يأت ذكره في التوراة إلا عرضا، واسمه بها (يونان)،

وشعيب عليه السلام ذكرت قصته وآفة قومه وجزاؤهم ، وصلته بموسى عليه السلام وتسميه التوراة يثرون ، وجاء ذكره عرضا أيضا كتوقية لتاريخ موسى ولم تحفل التوراة بعاد وهود مثلا ، بل لم تذكر أى تفصيل أو توضيح لحياة إبراهيم فى الجزيرة العربية ، كأن الفترة التى قضاها بين العرب ليست من حياته ، وقد ذكر القرآن ما نال المعاندين لهؤلاء الأنبياء من عقوبات « فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا » . وكانت مواطن هؤلاء الأنبياء مجالا لمحاول الحفريات الحديثة، وآثارها مواضيع درس فثبت أنها كانت فى هذا الزمن بوجه التقريب عرضة لأحداث الزلازل وثوران البراكين وفهم أن هذه الهزات الأرضية كانت معجزة هؤلاء الأنبياء ، وأنها تصدق بالرجفات والصيحات ، كما أنها كانت أيضا تتعرض لتقلبات النوء وعواصف الرياح ومن شأنها أن تكون حاصبة ومدمرة .

ويكفى أنهم وجدوا بوجه ما مصداقا لما جاء فى القرآن ، ولسنا نحن المسلمين وليس قرآننا أيضا بحاجة لهذا التصديق ولكنه خليق أن يكف من غلوائهم فى تحدى المعجزات .

وتهيب بعض الباحثين من المسلمين فى العصر الحديث حدة النقد الغربى للمعجزات وعدم ركون العقلية المادية إليها أو اطمئنانها لها ، فعملوا من قبلهم على تهوينها أحيانا أو جعلها مصادفة من أحداث الطبيعة أحيانا أخرى ، وربما أعرضوا عنها نهائيا ، وجرت فى هذا الطلق كتب فى التفسير ، وقصص الأنبياء والسيرة النبوية .

وربما كان الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا أول سابق لهذا العمل فى وقتنا الحاضر ، ولسنا بصدد أن نعرض للكثير أو القليل من آرائهما ، ويكفى أن نشير إلى مواضع يرجع إليها من شاء .

من ذلك ما مال إليه الشيخ محمد عبده فى تفسيره سورة الفيل من أن الطير الأبابيل والحجارة من السجيل يمكن أن تكون من الحشرات حاملات العدوى والميكروبات وهى عادة تكون جماعات لا يحصيها إلا بارئها ومنها ما ذكره الشيخ رشيد عن تابوت موسى فى سورة البقرة تفسيراً للآية « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة » ، وما ذكره عن مائدة عيسى فى تفسير هذه الآية من سورة المائدة « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » وفى كلهما يتحاشى المعجزة .

وقد غالى الشيخ أبو زيد حين كتب « تفسير القرآن بالقرآن » فجعل معجزات الأنبياء جميعا من المصادفات التى وافقت أحداث الطبيعة

أو مما بالغ فيه المؤرخون ، والحق أنى لم أقرأ تعليقات الشيخ أبى زيد وإنما قرأت تقرير اللجنة التى صادرت كتابه ، وقريب من هذا ما فعله الشيخ عبد الوهاب النجار فى (قصص الأنبياء) فعلى ما فى كتابته من النضج والميل إلى الشرح المستفيض لم يعط المعجزات ما كانت تستحق من عناية ، بل مال إلى تهوينها .

وعلى هذا المنهج جرى الدكتور هيكل فى كتابه (حياة محمد) إذ كان يجرد حياة النبى صلى الله عليه وسلم من كل معجزة عدا القرآن ولعل هذا هو الذى اضطره إلى الإغضاء عن عمل الملائكة يوم بدر والوعد بهم يوم أحد ، وتأييد جنود الله للنبى والمؤمنين يوم الأحزاب ويوم حنين ، وعن كون الإسراء والمعراج بالروح والجسد معا ، فقد اكتفى بعرض ما فى المسألة من خلاف وعنى بشرح الأدلة التى تؤيد أنها بالروح ، كما فسر حادث سراقة بأنها كانت كبوات جواد أجهده السير حتى تطير سراقة ورجع .

وعمل الدكتور هيكل أهون هذه الأعمال وأدناها للقبول ، فهو فى عرضه هذه السيرة لم يشأ أن يجعلها قائمة على المعجزات والخوارق وإنما جعلها جارية مع المنطق تصرف فيها النبى بذكاء وحيطة غالبا وبوحى قليلا ، ولا بأس عليه فى كل هذا ، وهو يثبت الوحى والقرآن .

واست أيضا أنهم الآخرين ولكنى لا أرى داعيا للتهيب من ذكر المعجزات أو الإشفاق من نقد المستشرقين ، فهؤلاء الذين لا ترضيهم معجزة النبى محمد صلى الله عليه وسلم هم اليهود والمسيحيون أتباع الكتاب المقدس ، والعهد القديم والعهد الجديد جميعا تنص أسفارهما بمعجزات لا يتقبلها العقل ولا تخضع لمصادفات الطبيعة - فهذا يشوع ينفخ له الكهنة فى الأبواق فتتداعى لنفخهم أسوار « أريحا » وتسقط المدينة فى يده [1] ثم تقف له الشمس والقمر [2] ويظهر له رئيس جند الرب وسيفه المسلول فى يده [3] ويعبر وجنوده نهر الأردن من غير أن تبتل قدم واحد منهم ، لأن الماء انحسر وجف المجرى الذى عبروا منه ومن العجيب أن يقال من مجاوزة الله بنى إسرائيل البحر أنه كان يوم جزر قلت فيه المياه أو صادف حدوث التواء فى القشرة الأرضية عاد بعده إلى الانخفاض ولا يقال شىء عن حادث يشوع فى عبور الأردن .

وأتباع الكتاب المقدس يؤمنون بما فى سفر التثنية من أن الرب تولى دفن موسى بنفسه [4] ويؤمنون بأن ثلاثة من أصدقاء

---

(١) يشوع ٦ / ٢١
(٢) ١٠ / ١٢ .
(٣) ٥ / ١٣ .
(٤) التثنية ٣٤ - ٥ .

دانيال القائم (نبوخذ نصر) فى النار فكانت عليهم بردا وسلاما [١] كما ألقى دانيال نفسه فى جب الأسود فلم تمسه بسوء [٢] وهكذا وهكذا .. فيض من المعجزات .

فاذا انتقلنا إلى عهد المسيح فلندع معجزاته هو ولننظر معجزات التلاميذ .

هذا بطرس يخبر وهو فى (اللدة) أن فتاة ماتت فى يافا فيحضر إليها فلا يزيد على أن يناديها فتفتح عينيها وتستوى جالسة [٣] وقد حلت روح القدس على هؤلاء التلاميذ فكانوا يتكلمون فى لحظة واحدة بلغات مختلفة لم يتعلموها من قبل [٤] . واخرج ملاك الرب بطرس من السجن وكان مربوطا بالسلاسل والحراس من حول سجنه [٥] حتى بولس عدو المسيحية فى حياة المسيح والذى لم يقابل المسيح قط عندما دخل المسيحية أصبح يشفى المقعد [٦] ولا يؤذيه الرجم وهكذا وهكذا ... أيضا معجزات لا تقل عن السابقة .

أيكون محمد أقل من واحد من هؤلاء أو يكون بيت الله الحرام أقل عند الله قيمة من أريحاء ؟

(١) دانيال ٣ ـ ٢٠ .
(٢) نفسه ٦ ـ ١٢
(٣) أعمال ٩ ـ ٣٧ .
(٤) ١٠ ـ ٤٤ .
(٥) ١٢ ـ ٦ .
(٦) ١٤ ـ ٨ .

وهناك شىء أهم من ذلك كله وهو أن معجزات الإسلام عدا القرآن لا يترتب عليها تغيير فى شريعة الإسلام أو عقائده ، فسواء حاربت الملائكة يوم بدر وقتلت بعض المشركين أو كان وجودها لمجرد التشريع لا يغير ذلك شيئا فى جوهر الإسلام وكذلك شأن المعجزات الكثيرة الأخرى ولكن نزول عيسى من السماء بعد حادث القبض عليه ومحاكمته وملاقاته بولس بعد نحو عامين من هذا الحادث ترتب عليه تشريعات لم تكن بالمسيحية من قبل ، فبولس هو مؤسس المسيحية والذى أدخل عليها معظم مراسمها الدينية ، وبولس لم يكن نبيا وإنما كان من أعداء المسيح الألداء ومن أكبر موقدى الحرب ضد أتباعه بعد رفعه ، ومع هذا يدين له أتباع المسيح بكل هذه المعجزات ، ويقدسون ما جاء به من تعاليم .

أما التوراة فتجرى المعجزات على أيدى مرتكبي الكبائر والآثمين :

وإذن فلا ضير على الإسلام من هؤلاء الطاعنين فإما أنكروا المعجزات المادية جميعا فتذهب كل معجزاتهم وتبقى معجزة القرآن ، وإما صدقوا بالمعجزات فلا ينبغى إنكارها على محمد صلى الله عليه وسلم دون أنبيائهم ؟

عبد الجليل شلبي

من الفلسفات الشرقية :

الفلسفة الصينية

للأستاذ محيي الدين الألواني

تناولنا في هذا الباب من الفلسفات الشرقية : البوذية ، والهندوكية ، والجينية . وإذا كانت الفلسفات الهندية تعنى بالتنسك والزهد كثيراً ، فإن الفلسفة الصينية تعنى بالأخلاق كثيراً . ويقول الأستاذ «زنكر» "Zenker" في معرض الكلام عن الفلسفة الصينية وعلاقاتها بالأخلاق: «إن المبشرين المسيحيين حينما اتصلوا بالصينيين في القرن التاسع عشر ورأوا ما عندهم من أخلاق وحكم سامية ، أخذهم الخجل من جهلهم حقيقة هذه الأمة وفلسفتها العميقة التي تسمو فيها الحكمة والأخلاق إلى هذا الحد» . ولا شك أن الفلسفة الصينية قد عرفت في العالم المتحضر قبل مئات السنين إذ ترجمت أعمال الفيلسوف الشرقي الكبير «كونفيشيوس» والفيلسوف «مانسيوس» إلى الألمانية واللاتينية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفي هذه الفترة قد ظهرت أيضاً بحوث قيمة في العالم الغربي عن الفلسفات الهندية ، ونشرت كتب شاملة لجميع نواحي هذه الفلسفات القيمة ، ولكن الغرور الأوروبي المتغطرس كان يحاول الحط من قيمة الحياة العقلية الشرقية ، بل ويصرح بأن هذه العقلية غير قادرة على أن تنتج آراء فلسفية قيمة ناضجة . وكانت دعاوى هؤلاء السطحية ، مبنية على حجج واهية ، مثل أن هذه الفلسفات الشرقية القديمة لم تعرف المناهج العلمية الحديثة ، وأنها لم تنجح في أن تودع أفكارها ومبادئها في كتاب منظم شامل ، كما استهانوا بها بحجة كونها خالية من الفلسفات النظرية .

وإن الدراسات الفلسفية الأخيرة قد كشفت عن أن الأمم الشرقية فلسفات عميقة مبتدعة جديرة بالدراسة والتقدير . وأما الفلسفة الصينية فيرجع تاريخها إلى عشرين قرناً قبل المسيح ، وقد استطاعت أن تحفظ الكيان الخلقي الكامل للبلاد الصينية وأمتها مدى أربعة آلاف سنة ، ولكنها ظلت مدروسة دراسة ناقصة إلى ما قبل هذه السنين الأخيرة ، لأسباب عديدة مثل : صعوبة اللغة الصينية ، وتعسر استكناه أسرار هذه الفلسفة من منابعها الأصلية ، وفقدان الثقة التامة ببعض الترجمات للنصوص الصينية ، وفوق هذا وذاك محاولة الغرب إخماد التراث الفلسفي للشرق ، وإبراز فلسفته في أرجاء العالم بجميع الوسائل. وإننا - حينما ننظر إلى فلسفة أو أخرى - فإنما ننظر إليها كثروة

إنسانية عامة وإنتاج عقلى مثمر يستفيد منها الإنسان — شرقا وغرباً — فى حياته ؛ ففى الفلسفة الصينية نرى كثيراً من الحكم والأمثال والمواعظ التى من شأنها السمو بالناحية الأخلاقية فى الإنسان ، كما أن دراسة فلسفة شعب أو عقيدته تربط الماضى بالحاضر، وتوسع نطاق المعارف للأفراد والجماعات ، وتساعد على تضييق شقة الاختلاف بين الأمم والشعوب

يمتاز الشعب الصينى عن غيره بالإغراق فى تقديس الأرض لما تفيضه عليهم من نعمة الخصوبة ووفرة الإنتاج ، وكانوا يطلقون عليها اسم : « القوة المحسنة » ، ويقولون عنها : « إنها تتلق منا البذور لتردها إلينا ثماراً يانعة » . ومصدر هذه العقلية أن الشعب الصينى كان منذ عصور بالغة فى القدم شعباً زراعياً يضع الاستنبات من الحقول والاستغلال من الأراضى فى المنزلة الأولى من حياته ، وفى الوقت نفسه كانوا يعبدون السماء لما لها من فضل على الأرض وما فيها . وظهر فرق بين عقيدة العامة والخاصة من الصينيين على أساس هاتين القوتين العظيمتين : « السماء ، والأرض » ، فبينما يرى الخاصة فى السماء السلطان الأعلى ، والنظام الدقيق ، يرى العامة فى الأرض الخصوبة والنعم الأخرى . وبقدر ما كان الخاصة يقدسون السماء ، كان العامة يقدسون الأرض . ومن هنا نرى مقدار أثر الكون والقوى المتصرفة فيه ، فى العقلية الصينية وهذه العقلية تربط القوى الثلاث ، أى السماء والأرض والإنسان برباط وثيق ، وإن كان لكل واحدة من هذه القوى طريق خاص وهدف معين ، إلا أن الغاية النهائية لكل منها واحدة ، فهى غاية الكون ، أو ناموس الفطرة ، وقبل أن ندخل فى تفاصيل الفلسفة الصينية نلق ضوءا على النظرية الفلسفية الصينية عن الكون ، وقانون الطبيعة ، ومكانة الإنسان من بين الكائنات .

الإنسان فى الفلسفة الصينية

والإنسان فى الفلسفة الصينية : هو جزء الطبيعة وأنه خير بفطرته ، وليس مجبرا على اتباع طبيعته الخيرية دائماً مثل النبات والحيوان . وأنه كائن مفكر له كسب واختيار ، وأن الشر لا يقع منه إلا إذا حاد عن طبيعته ، وأن هذه الحيدة لاتأتيه إلا من حرية الاختيار والتفكير . وأما الخير الموجود فى نفسه فليس مكتملا واقعيا ، وإنما هو موجود على صورة استعداد تام ، وعليه أن يحققه باختياره وسعيه حتى يصبح ذلك الخير خلقا له » .

ويقول كتاب « شوكنج » : إن القدر نوعان ، الأول هو الحظ الذى تقوم السماء بتوزيعه على الإنسان ، وهذا يمكن تلطيفه أو تحويل شره إلى خير ، والثانى هو القدر الناشىء عن أفعال الإنسان ، وهذا النوع لا يمكن التغيير فيه أو تعديله ، وأن الفضيلة

وحدها هى التى تؤثر فى السماء . وأن المتكبر منخفض ، والمتواضع مرتفع . وأن السماء والأرض هما أبوا الكائنات جميعا ، وأما الإنسان ، من بين الكائنات ، فهو وحده الموهوب روحا والفضائل التى تجعل الإنسان غاية فى الكمال هى الصلابة فى الاستقامة مع الوداعة ، وسهولة الانقياد مع القوة ، والحزم فى السلطان مع الحكمة ، والرضا مع الجد ، والتلطف مع الثبات ، والشجاعة مع العدالة ، والشدة مع الإخلاص ، والحشمة مع البساطة . والذى يتحلى بهذه المحامد يسير على الطريق السوى .

الفلسفة الصينية تربط المظاهر الطبيعية بالأخلاق والفضائل ، لأنها تقول : إن السماء كائن متحرك تبعاً لقانون منظم ، وهذا القانون يربط القوى الثلاث ، أى الإنسان والسماء والأرض رباطاً وثيقاً بوضع محكم ، ولكل من هذه القوى طريقه الخاص ، وغايته المقصودة ، بحيث يحدث اضطراب بسيط فى إحداها صداه فى جميع جزئيات القوتين الأخريين . وإذا حاد الإنسان عن الطريق السوى ، فاقترف جريمة أو ارتكب خطيئة تنافى فطرته السليمة ، فيحدث نتيجة لذلك اضطراب محسوس فى السماء والأرض ، وليس الاضطراب الطبيعى الذى يحدث حينا فآخر فى أرجاء السماء أو الأرض من كسوف وخسوف ، وظهور الكواكب المذنبة والزلازل والجدب والأوبئة والقحط والمجاعة ، إلا نتيجة جرائم الإنسان ، وانحرافه عن طريقه المستقيم . وتوضيحاً لهذه النظرية الفلسفية يقول « أونج فان » ، أقدم المستندات الفلسفة الصينية : « إن احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث فى الوقت المراد ، واحتقار من يستحق الاحترام يجلب الجدب ، والحق يجلب العاصفة ، والتهوس يجلب البرد من غير انقطاع ، والتبصر يجلب الحرارة فى الوقت المطلوب ، والتأمل يجلب البرودة فى الوقت المناسب ، كما أن حكمة الملك تجلب الهواء عند الحاجة ، وفظاظته تجلب المطر من غير انقطاع » .

ورأينا من ربط الفلسفة الصينية المظاهر الطبيعية بالأخلاق الإنسانية أن الفضيلة وحدها هى التى تؤثر فى حوادث الكون وتقلبات الطبيعة ، ويجب على كل فرد من المجموعة الإنسانية أن يحاول بقدر المستطاع أن يكون فاضلا حتى لا يكون جالبة للجدب ، أو الكارثة للأمة جمعاء . والفضيلة فى نظر الفلاسفة الصينيين هى كمال الخلق ، وتحقيق الاستنارة التامة للنفس ، واتباع الصراط السوى فى كل شىء واحترام النفس الإنسانية وربطها بالسماء .

الهدف الرئيسى لهذه الفلسفة :

إن النظرة العميقة فى الفلسفة الصينية وأصولها ومبادئها من خلال مستنداتها القديمة تنتج النتيجة التالية : أن هذه الفلسفة العريقة مبنية على أساسين جوهريين : المثالية العليا وسعادة المجتمع ، وأن النجاح الذى تقصده الفلسفة الصينية هو نجاح المجتمع فى تحسين أحوال البيئة والظروف التى يعيش

فيها ، وليس هو نجاح الفرد . ويقول أحد العلماء المعلقين على الفلسفة الصينية : إن الأثرة - عندهم - من أقبح الرذائل ، والإيثار من أسمى الفضائل ، وأن الفضيلة تنحصر بوجه عام في خضوع الفرد طواعية نحو مجتمعه لتحقيق مطالبه الجماعية ، ومصالحه المشتركة .

وفي هذا المعنى يقول كتاب « إي كنج » المشهور : « إن الهواء الذي يصفر في السماء ماهو إلا تصوير لقوة الرجل الذي يبدو صغيراً ، والذي يمشي فوق ذيل النمر دون أن يعضه هو الذي سينجح ، وأن الحكيم المتواضع يستطيع أن يجتاز البحر الأعظم ، وأن التواضع يخلق النجاح ، وأن الفضيلة طريق السعادة » .

كونفيشيوس - وفلسفته :

إن كونفيشيوس يعد في طليعة الرجال البارزين الذين خلقوا المدنية العالمية عامة ، والمدنية الصينية خاصة ، إذ هو الذي وضع قواعد الفلسفة الصينية على أسس علمية قيمة ، وقسم الفلسفة العلمية إلى ثلاثة فروع : الأخلاق الشخصية ، والأنظمة الاجتماعية ، وأنظمة الدولة ، بل هو الذي رفع علم التاريخ في الصين إلى مصاف العلوم الأخرى عند الأمم الراقية .

وقد أعلن حكمته الخالدة على الملأ : « إن الجوهر الأساسي العملي للشعوب يجب أن يكون هو الأخلاق ، وأن نظام الدولة لا ينجح نجاحاً حقيقياً إلا إذا كان مبنياً على أسس أخلاقية » .

ويرجع الفضل الأكبر في بلوغ الحكمة الصينية أوجها إلى هذا الحكيم .

ونظراً لصدارة كونفيشيوس في الفلسفة النظرية وأصالة منهجه الفلسفي وتأثيره لا ينبغي لباحث عن الفلسفة الصينية ، أو فيها ، أن يتغاضى عن تعاليم كونفيشيوس القيمة ، وآرائه الجليلة في مختلف المجالات الإنسانية .

وينبغي لنا الآن أن نشير إلى بعض آرائه عن الإنسان وأخلاقه وكماله لترسم لنا تلك الآراء لوحة واضحة عن مدرسته الأخلاقية والاجتماعية :

« إن الإنسان ، في نظر كونفيشيوس ، مشتمل على القوة الإيجابية المؤثرة والقوة السلبية ، وأن مدى الفروق الموجودة بين الأفراد البشرية ، بتغلب إحدى هاتين القوتين على الأخرى » .

ثم يتعرض الفيلسوف لإلقاء مزيد من الضوء على هذه النظرية الفلسفية ، فيقول : « إذا كانت الغلبة في الإنسان للقوة الإيجابية المؤثرة كان هو حكيماً كاملا ، وإذا كانت الغلبة فيه للقوة السلبية كان حكيماً عادياً ويظل هكذا حتى يكون عرضة لتيار الأهواء والشهوات ، فإذا نجا منها كان على الفطرة ، وإذا غلبه الهوى وانقاد للشهوات حاد عن الصراط السوي » . وعنده : « أن الكمال الحقيقي الذي يناله الإنسان نوعان :

الأول : الكمال الذي يتحقق لرجل ، تقوم السماء في إلهامه الحقيقة دون مجهود شخصي من جانبه فهو يحصل في المبدأ على ما يحصل عليه الآخرون في النهاية ، ويسمى هذا الرجل : الحكيم الموحى إليه .

والثاني : الكمال الذي يحصل عليه الإنسان ببحوثه المتواصلة وجهوده المستمرة وأعماله الشخصية .

وأما الإنسان الملهم ، أو الموحى إليه فهو ابن السماء الذى يرعى الصراط المستقيم ويحرسه فى جميع مرافق الحياة البشرية . وأما الذى يتلق الكمال المكتسب بمجهوداته فهو ابن الأرض ويحتاج إلى مجهوده الشخصى لأن يكون فى منأى عن شرور الهوى والشهوات » .

وأردف كونفيشيوس يقول : « إن مهمة الحكيم الملهم هى نشر قانون السماء والسهر على تنفيذه فى الأرض ، والسعى لإنقاذ بنى الإنسان من الخروج عن الصراط السوى ، بينما الحكيم السوى يكتسب الحكمة بمجهوداته الخاصة يعتمد فى احتفاظه بفطرته الأصلية وفى مقاومة ضعيفة أمام عواصف الهوى والشهوات المختلفة على نفسه فقط ، فإذا حاد عن صراط الفطرة نزل من درجة الحكمة العادية إلى درجة أولئك الذين يحدثون الشر ، ويشعلون نار الفتن فى البشر » . وهكذا قرر كونفيشيوس أن الخضوع للقانون الطبيعى ينتج الخير والرخاء والتقدم نحو الكمال ، وأن الانحراف عن نهج القانون الطبيعى يؤدى إلى الاضطراب ، وتفشى الشر والسوء .

وأسس كونفيشيوس مذهبه الأخلاقى على أساس تنفيذ أوامر الطبيعة ، وتطبيق قوانينها القديمة .

ومن آرائه الاجتماعية : « إن النبيل هو من اجتهد فى تكميل نفسه وحافظ على نبل قلبه وراعى آداب اللياقة وأذعن لقواعد الأخلاق ، ولو كان من الطبقة السفلى . وإن كل فرد مغروس فى بيئته غرس النبات ، ومتأثر بالظروف المحيطة بمجتمعه وطبقته ، ولكن يستطيع ابن الطبقة الوضيعة [1] أن يسمو بعلمه وأخلاقه إلى مصاف النبلاء والشرفاء . وعند كونفيشيوس إن أول ما يجب على الإنسان هو ضبط نفسه ومراقبة قلبه ، وتكميل شخصيته علميا وأخلاقيا . وأن المثل الأعلى عنده هو حب الإنسانية وتخليصها من آلامها ، وجعل الفضيلة الشرط الأساسى لجميع وظائف الدولة لأنها مسئولة عن أفراد الشعب جميعا ، فيجب أن تكون السلطة العليا مثلا أعلى للشعب فى الفضيلة والأخلاق .

وهذا الرأى الحكيم الصينى أقرب إلى القول المأثور : « الناس على دين ملوكهم » .

إن الآراء الفلسفية الكونفيشيوسية فى الأخلاق والعمران والمدنية قد أنتجت خيرا كثيرا للمجتمع الإنسانى ، كما أنتجت الحضارات المصرية والهندية خيرا كثيرا أيضا ، وأن كل ما حفظه لنا التاريخ من تراث هذه الفلسفات القديمة يدل على مدى ارتباط حظوظ بنى الإنسان ومصائرهم بالفضيلة والأخلاق ، وأهمية دور العلم والفلسفة والحكمة فى تكوين مجتمع حى سليم ؟

محيى الدين الألوائى

---

(١) يشير كونفيشيوس إلى التقسيم القديم السائد فى زمنه بين النبلاء والطبقات الدنيا ، ويصرح بأن النبيل فى رأيه ليس من ينتسب إلى أسرة معينة بل هو النبيل بعلمه وأخلاقه .

الحرّية الفرديّة في الإسلام

للأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم مهنا

— ٢ —

الحرية المدنية :

فإذا جئنا إلى تصرفات الفرد أو ما يسمى بالحرية المدنية ، نجد أن موقف الإسلام منها لا يختلف عن موقفه من حرية العقيدة ، فآيات القرآن الكريم صريحة في تحميل الإنسان تبعة كل ما يصدر عنه من أعمال يقول الله تبارك وتعالى : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى » الإسراء ١٥ « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » فصلت ٤٦ ، « كل نفس بما كسبت رهينة » المدثر ٣٨ .

ولن يستقيم لهذه الآيات معنى إلا إذا كان الإنسان حرا مختارا ، إذ المسئولية فرع الإرادة الحرة المنبعثة عن التفكير السليم والنظر الصائب ، ولذلك أسقط الإسلام التكليف عن من ليسوا أهلا له كالصغير والمجنون والنائم .

وتمشيا مع هذا المنطق لم يكلف الله عباده إلا بما يكون في استطاعتهم أن يفعلوه يقول سبحانه : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » البقرة ٢٨٦ ويقول جل شأنه : « فاتقوا الله ما استطعتم » التغابن ١٦ . ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وكما أهدر الإسلام مظاهر العقيدة إذا أكره الإنسان عليها ، فكذلك أبطل أثر العمل إذا أكره الفرد على ارتكابه ؛ فلا عقاب على مضطر أكل محرما كالميتة ولحم الخنزير ؛ يقول الله في كتابه الكريم : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » البقرة ١٧٣ ولا احترام — في نظر الإسلام — لعقد أكره أحد طرفيه على إبرامه ؛ فقد روى أن فتاة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو إليه أن أباها زوجها من ابن أخيه لترفع خسيسته ، فرد الرسول نكاحها وقال : « الأيم أحق بنفسها من وليها » ، وكما أن الإسلام لا يعترف بالزواج إلا برضى الطرفين كذلك لا يفرق بين زوجين إذا أكره الرجل على تطليق زوجته ؛ قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا طلاق في إغلاق » .

ونجد في القرآن تطبيقا عمليا لتقييم الأعمال بناء على قوة الإرادة وحرية الاختيار ، وذلك حين يفرق بين السابقين الأولين من المؤمنين وبين غيرهم ممن ساروا في الدرب

مع أفواج الناس بعد أن جاء نصر الله والفتح ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » ، وليس هناك من سبب - فيما نرى - للتفرقة بين هؤلاء وأولئك إلا الإرادة الحرة الغالبة فى إيمان السابقين والإرادة المشوبة بشىء من إكراه الظروف المحيطة بالنسبة للآخرين .

هل الإسلام يقوم على القضاء والقدر ؟

وهنا نحب أن نقف قليلا مع هؤلاء الذين ينكرون حرية الفرد فى تدينه وفى تصرفاته على سواء . إنهم يقولون إن الإنسان مجبور فى إيمانه وكفره ، مجبور على إتيان الفعل أو تركه ، إنه لا إرادة له ولا حرية ولا اختيار وإنما هى مشيئة الله التى تتحكم وتوجه ، ويستندون إلى مثل قوله تعالى « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » الإنسان ٢١ .

ولن نتعب أنفسنا فى النقاش مع هؤلاء ، فقد حدثنا القرآن عنهم وعن محاولتهم تبرير كفرهم ومعاصيهم ، ورد عليهم قولهم فى بيان واضح لا زيادة بعده لمستزيد ؛ قال تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » الأنعام ١٤٨ ، ١٤٩ .

فليس هناك إذاً إكراه على كفر ، كما أنه ليس هناك إكراه على إيمان ، نعم إن الله سبحانه قادر على أن يكره الإنسان على طاعته لو أراد « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا » يونس ٩٩ . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » السجدة ١٣ ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ، وإنما ترك الإنسان حرا مختارا لنفسه بعد أن منحه القدرة ووهبه العقل ، وذلك ليصح تكليفه ويتحقق عدل الله فيه ، وصدق الله إذ يقول : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » الشمس ٧ - ١٠ .

ومن هنا كانت التفرقة بين إيمان ونفاق ، وبهذا كانت أوامر الله ونواهيه إلى خلقه مفهومة ولم تكن ضربا من العبث ، ولم يكن إرسال الرسل ضربا من التمويه والمغالطة كما يريد سالبو الإنسان حريته أن يكون ، ولابد من أن نوضح هنا أننا نؤمن بالقضاء والقدر على معنى أن كل شىء يصيب الإنسان - وليس داخلا تحت إرادته التى يحاسبه الله عليها عدلا - إنما يسير تبعا لما قدر الله وأراد ، ولحكمة يعلمها هو ، والمرء ليس مؤاخذا به ، وعليه أن يؤمن بالقدر خيره وشره ، فلا يتسخط على ما يصاب به من بلاء أو قحط ، وهذا هو المراد - فيما نعتقد - من قول الله تبارك وتعالى : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من

بحث نقدى :

إن ... و إذا ...

للأستاذ كامل السيد شاهين

— ٢ —

اضطراب القاعدة :

القدماء من ألطف الناس ذوقا ، وأرقهم فهما ، وأنفذهم إلى حقيقة ، وأدعاهم للثقة ، ولتلقى كلامهم بالجلالة والاعتبار ارتكبت طرق بعضها عهود ، وبعضها عسوف .

ولو وقف العلماء المتأخرون موقف القاضى اللقين يأخذ ما صفا ، ويرد ما لا يسوغ ، لكانت الطريق أقصد ، والثمرة أدنى .

ولكنهم ـ رحمهم الله ـ اتخذوا موقف المحامى الذى يؤمن بصدق قضيته ، فهو ينافح بكل حجة ناهضة أو ساقطة .

ومن ثم اشتملت كتبهم على خير كثير ، وعلى غثاء كثير ، واضطربت المعايير حتى صارت كل قضية تقبل الخطأ ، وتقبل الصواب ، وانقلب الأمر من نشدان الحق ، والبحث عن المعرفة والوقوف عند الدليل النير ، إلى المهارة فى التأويل والتخريج ، والنطاسة فى النبش عن وجوه الاحتمال والتشكيك .

(بقية الصفحة السابقة)

عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » النساء ٧٨ .

أما مايدخل تحت تصرف الإنسان وإرادته مما فيه من خير يثاب عليه فهو من فضل الله ونعمته وتوفيقه ، وما فيه من شر يعاقب عليه فهو من سوء اختياره وفساد إرادته ، وهذا هو ما يشير إليه قوله تبارك وتعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . . » النساء ٧٩

ومن هنا كانت التفرقة ـ فى حكم الشرع ـ بين إنسان فقد ماله بسبب جائحة لا يدله فيها ، وآخر فقد ماله بسبب سفهه وسوء تدبيره ، فالأول غير مسئول عما حدث له ، أما الثانى فهو مؤاخذ بما فعل ويحجر عليه ويمنع من التصرفات المالية تطبيقا لقوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » النساء ٥ .

وكانت التفرقة كذلك بين إنسان قدم نفسه للجهاد فى سبيل الله فقتل وآخر ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه فانتحر ، فالأول شهيد مثاب ، والثانى مؤاخذ بما فعل وبما ارتكب .

أحمد إبراهيم مهنا

وحين يصبح العلم مهارة وتنطساً وشقاشق كلام، فقد انسلخ من تداسته وحريته وأصبح لاحقاً بالشعوذات التى تسحر أعين الناس وتسترهبهم، ولكنها لا تقنعهم ولا تردهم إلى برد اليقين.

ومن القضايا التى داخلتها الحيل حتى غلبت على الأصل المقرر، قضية إن وإذا، فقد رأى القوم أن (إن) لا تدخل إلا على الأمر يشك فيه، وأن (إذا) لا تدخل إلا على الأمر يجزم به.

ولقد تعب العلماء فى أن يجبروا صدوع هذه القاعدة، فتأولوا وأكثروا، وكم كنا نحب أن يطرد هذا التأول على ما فيه، ولكن هناك مواقع عزت على التأويل فأبت أن تنقاد. فن ذلك:

١ — مواضع يمكن فيها المبادلة بين (إن وإذا) دون أن تكون إحداها أحق بموضعها من الأخرى.

نرى ذلك فى قوله سبحانه ؛ يصف المنافقين بكمال الأجسام، وفصاحة الألسن:

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم».

فهل يمكن المجادلة بأن الرؤية محل يقين، وأن القول محل شك؟ أم أن اليقين والتحقق واحد وبدرجة سواء فى الرؤية والقول جميعا؟

ولو قيل فى غير النظم القرآنى العظيم: «وإذا قالوا سمعت لقولهم». لجاز ولم يكن الكلام خارجا عن معنى التحقق فى القولين؟

ونراه فى قول جميل بن معمر:

إذا قلت: ما بى يا بثينة قاتلى
من الحب. قالت: ثابت ويزيد
وإن قلت: ردى بعض عقلى أعش به
مع الناس، قالت: ذاك منك بعيد

القاعدة تسوقنا إلى أن قول جميل لبثينة: (ما بى يا بثينة قاتلى) أمر محقق لا يحتمل الشك، أما قوله لها: (ردى بعض عقلى.) فأمر مشكوك فيه.. وبين أن قوله الاول كقوله الثانى يريد أن يدفعنا الشاعر إلى أن كلا منهما محقق لا يداخله شك...

ولو سمح النظم لجميل أن يأتى بإذا مع القول الثانى لفعل، ولو فعل ما نقص وزن الكلام ولا تقديره، ولا تغير فهمنا له.

ونراه فى قول أبى الطيب يعتب على سيف الدولة:

إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

فالمتنبى قد سطا عليه الحسدة عند سيف الدولة، وسيف الدولة قد تلقى ذلك السطو بالسرور والرضا.

والمتنبى أصحب (إن) لفظ السرور فى الشطر الأول، وأصحب (إذا) لفظ الرضا فى الشطر الثانى. إذن فالذى سر سيف الدولة هو الذى أرضاه.. فما بال إن تدخل مرة، وإذا تدخل مرة؟

وهل يجوز فى العقل أن يكون الشىء الواحد مشكوكا فيه محققاً فى الوقت ذاته؟

ونراه فى قول الجارم يمتدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

إذا صال فالدنيا مجر رماحه
وإن قال فالأيام عين ومسمع

فمن ذا الذى يستطيع أن يدعى أن صيال الرسول الكريم أمر محقق كثير ، وأن قوله أمر مشكوك فيه أو نزر .

ومن ذا الذى يستطيع أن يدعى أن الشاعر لو قرن الصيال بإن ، والقول بإذا يكون قد أخل ببلاغة الكلام ؟

• • •

٢ — ومن ذلك مواضع تجىء فيها إذا للاستحالة والامتناع ، وتجىء فيها إن للاستحالة والامتناع أيضا .

ونحن نجد ذلك عندما نقرأ قول الشاعر ، يونس امرأته من عودته :

فرجى الخير وانتظرى إيابى
إذا ما القارظ العنزى آبا

والقارظ العنزى لن يئوب ... (فإذا) داخلة على الممتنع المجزوم بعدم حصوله .

ونقول : إذا شاب الغراب ... إذا انهد ثهلان ... إذا نظمت لى النجوم عقوداً ...

كل ذلك لا يكون ، ومع هذا يصحب إذا التى ترافق ما يجب أن يكون ...

وعليه فى جانب إن قوله سبحانه : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ، وقوله جل ثناؤه « ولئن اتبعت أهواءهم » ، وقوله تعالى « قل إن كان للرحمن ولد » ، وغير ذلك مما هو مجزوم بعدم وقوعه . . فالنبى ـ صلوات الله عليه لا يشرك ، ولا يتبع أهواء المشركين ، وجل الله من أن يكون له ولد .

ولقد تقول : إنما ذلك على سبيل الفرض والتقدير .

فيقال لك : إن الفرض والتقدير أوجبه مطلق التعليق ، كما تقول : إن جاءك كتابى هذا فاقدم إلى ، فمجئ الكتاب على سبيل الفرض والتقدير .

أما حديث الشك والتحقق فحديث آخر بعد مرحلة الفرض .

• • •

٣ — ومنها استعمال (إن) فى الأمر المحقق .

وأنت واجد ذلك فى قول طرفة :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

فصاحب طرفة لا يمارى فى أنه لا يستطيع أن يدفع منيته عنه ، ومن ذا الذى يزعم أن له قبلا بدفع المنايا ؟ ، ولا ينبيك مثل أبى ذؤيب (وإذا المنية أقبلت لا تدفع . .) فهذا أمر محقق .

وسبيل ذلك سبيل الآية « وإن يقولوا تسمع لقولهم » ، والآية « وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » ، فإن إعجاب النبى صلوات الله عليه بفصاحة المنافقين ، وزعم الكفار أن البلاء بشؤم موسى ومن معه ، أمر واقع فلا مجال لادعاء الشك فيه .

وعليه قول الكلحبة اليربوعى فى حزيمة ابن طارق :

فإن تنج منها يا حزيم بن طارق
فقد جعلت ما خلف ظهرك بلقعا

ضمير (منها) القرادة فرس الكلحبة . . ولقد نجا - والله - حزيمة بن طارق من القرادة وفارسها ، فلا محل للشك بعد .

وكذلك قول بشامة بن الغدير يصف ناقته :

إذا أقبلت قلت مذعورة
من الربد تلحق هيقا ذمولا
وإن أدبرت قلت مشحونة
أطاع لها الريح قلعا جفولا

يصفها بالسرعة فى إقبالها وإدبارها ، فهى مقبلة كأنها نعامة ربداء مذعورة ، تلحق ظليما شديد السرعة ، وجعلها مذعورة ليكون ذلك أمد لسرعتها .

وهى مدبرة كأنها سفينة واتت الريح قلاعها .

واستعمال إذاً ههنا جار على أصله .

واستعمال إن ههنا مع أمر محقق ، ولا معنى لادعاء الشك فيه إذ لا فرق بين إقبالها وإدبارها .

ومنه قول العبلى يرثى جماعة من الأمويين قتلهم عبد الله بن على عند نهر أبى فطرس :

إذا ركبوا زينوا المركبين
وإن جلسوا زينة المجلس

يصفهم العبلى بالشجاعة والعقل ، تزدان بهم المراكب إذا حاربوا ، وتزدان بهم المجالس إذا تصدروا للحكم والقضاء .

ولعمرك ليس الامتداح بالعقل والفصل دون الامتداح بالشجاعة والجراءة ، ولئن كان الركوب لهم محققا ، إن الجلوس فى الأندية محقق كذلك .

وإنما ألححنا فى الاستشهاد لأن اللغة رواية ، وليست حذاقة فى التخريج ، وبراعة فى التأويل ، وقدرة على الاحتيال .

وإذا ثبت أنه يمكن المبادلة بين إن وإذا وإحلال إن محل إذا فى بعض المواطن .

وثبت أيضاً أن إذا التى تستعمل - فيما قالوا - عند الجزم بوقوع شرطها ، قد تقع مع المحال المجزوم بأنه لن يكون ، وأن (إن) التى تستعمل - كما زعموا - فى الأمر يشك فيه قد تستعمل مع ما لا يكون .

وثبت كذلك أن (إن) تستعمل فى الأمر المحقق .

إذا تقرر هذا كله وجب أن تكون القاعدة التى بنوا عليها حكمهم منقوضة ، وأن يعاد النظر فيها ، وفيما بنى عليها .

وتمام البحث أن ننظر فيما أوردوه من قاعدة ، ونتبين مدى استجابتها ، ومدى إخلافها .

وأن ننظر فى استعمال العرب لهاتين الأداتين وما يريدونه بهما ، وطريقتهم فى إيرادهما .

ثم نقارن ذلك بما ورد عن سيبويه لنرى مدى ما يمكن أن يتسع له ذلك النص القديم من أحكامهما .

وموعدنا بذلك - إن شاء الله - المقال المقبل ؟

كامل السيد شاهين

إلى أى مدى تتغير الأحكام الشرعية بتغير الأزمان؟

للأستاذ بدر عبد الباسط

تحدثت — فى المقالات السابقة — عن تدرج التشريع فى كل من الصلاة والزكاة والصوم ، واليوم أود أن أتحدث عن تدرج التشريع فى الحج ، وما يتصل به من أحكام الحرم والأشهر الحرم فأقول — وبالله التوفيق :

متى فرض الحج : اختلف العلماء اختلافا كبيراً فى تحديد السنة التى فرض فيها الحج فقيل فى السنة السادسة ، وحجة القائلين بذلك أن أول آية نزلت فى شأن الحج قوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » ، وهذه الآية نزلت فى السنة السادسة ، وهذه الآية ليست نصا فى فرضية الحج ؛ فانه يمكن أن يكون معناها أتموا الحج والعمرة لله إن شرعتم فيهما ، وهذا لايدل على أنهما قد فرضا فعلا وذهب قوم إلى أن الحج شرع فى السنة الخامسة ، وقد استدلوا على ذلك بوفادة ضمام ابن ثعلبة رضى الله عنه - وكانت سنة خمس من الهجرة ، وفيها أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ، فعد منه حج البيت .

وذهب قوم إلى أنه فرض سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة ، بدليل استخلاف الرسول صلوات الله وسلامه عليه لعتاب ابن أسيد رضى الله عنه ليحج بالناس عامئذ ، وقد رد هذا بأن الثابت أن استخلافه له كان على مكة بعد الفتح وقد حج الناس على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كعادة العرب ، وقد حج معه المسلمون والمشركون .

وقيل فرض سنة تسع ، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر رضى الله عنه للحج عامئذ ، بعد أن نزل قوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

هذا وتحديد وقت التشريع للحج له أهمية قصوى لمعرفة مدى تطور أحكامه ، فإن صح أنه فرض قبل الفتح - وهو فى سنة ثمان - فإن هذا من إعلام النبوة ، إذ يبعد أن يفرض الله على المسلمين الحج وجميع مناسكه بمكة وما حولها - وتكون تحت سلطان أعدائهم ، وأيضا فإن المسلم الذى مكنته ظروفه من الحج - وقتئذ - كان - من البدهى -

يؤدى المناسك على ما توارثه القوم من ملة إبراهيم عليه السلام ، وقد دخلها كثير من التغيير والتبديل لتقادم الأزمان ، والدليل على هذا أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لم يبين مناسك الحج إلا فى حجة الوداع وقال : « خذوا عنى مناسككم » ، ومما لاشك فيه أن مفهوم الحج - فى الجملة - كان مفهوما - عند القوم - حينما نزل قوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » وعندما نزل قوله جل شأنه « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » ، وعندما علم (ضماما) شرائع الدين وعد منها الحج .

بعض الأحكام التى كانت مشروعة ثم نسخت :

١ - كان من المباح إلى السنة التاسعة أن يطوف بالبيت المشرك والعريان إلى أن نزلت أوائل سورة براءة ، وأرسل الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عليا خلف أبى بكر رضى الله عنهما ليعلم الناس - يوم الحج الأكبر - وهو يوم اجتماع الحجيج فى منى يوم النحر بأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

٢ - ترك الناس - أول الأمر - على ما اعتادوه من تقديم أو تأخير أيام الحج ، فقد ذكر القرطبى فى تفسيره لآية « إنما النسىء زيادة فى الكفر ... الخ ... نقلا عن مجاهد ، قال : كان المشركون يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين ، ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين ، وكذلك فى الشهور كلها ، حتى وافقت حجة أبى بكر التى حجها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة ، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع ، فوافقت ذا الحجة ؛ فذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها وعاد الحج إلى ذى الحجة . وبطل النسىء .

وهذا يدل على أن حجة أبى بكر هذه قد وقعت فى ذى القعدة ، وقد أقرها الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى هذا فتكون حجة عتاب بن أسيد كانت - كذلك - فى ذى القعدة .

وانكر قوم أن تكون حجة أبى بكر كانت فى القعدة ، واستدلوا على هذا بقوله تعالى « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ... » وأن الإجماع منعقد على أن هذا الأذان (الأعلام) كان فى حجة أبى بكر ، وقد سمى الله تعالى يوم إبلاغه إلى الناس بيوم الحج الأكبر فكيف يسميه الله بالحج الأكبر ، ولا يوافق أيام الحج التى حددها الله ؟

ولكن يجاب عن ذلك بأن المراد بالحج الأكبر فى الآية يوم اجتماع الحجيج إما فى عرفة أو منى ، ولما كان تشريع النسىء لم يبطل - بعد فصح أن نسمى هذا اليوم بيوم الحج الأكبر فإن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، ولا تشريع بغير نص أوما يقوم مقام النص .

ولما كانت رواية مجاهد مثبتة ، وكان رأى التابعين مجرد اجتهاد منهم فى فهم الآية كان الإثبات مقدما على النفى ولاسيما أنه نفى لم يعتمد على نص صريح .

مغزى هذا التدرج فى التشريع : نستطيع أن نفهم من هذا التدرج أن العرف له مكانته وأن القضاء عليه يتطلب الحكمة والتروى ، فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح مكة ، فيبدأ بالقضاء على الوثنية من غير هوادة ، ولا تأجيل ، وأما ما وراء ذلك من العادات والتقاليد التى توارثوها فقد ترك للزمن ولاختلاط المشركين بالمسلمين أن تهذب من هذه العادات ، وأن تعد النفوس لتقبل حكم الله الحكم فى هذا الأمر الخطير وإذا كان لا يزال - هناك - من يصر على تحكيم هذه العادات فسيكون هناك أضعافهم ممن يتقبلون هذا التشريع بنفوس طيبة .

والآن وبعد أن نزل قوله تعالى : « الحج أشهر معلومات » ، وبعد قوله تعالى : « إنما المشركون نجس » ، وبعد أن نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أن يطوف بالبيت عريان فليس لأحد أن يجيز شيئا مما كان مشروعا من قبل .

هذا ومناسك الحج لا يجوز لمسلم أن يتصرف فيها بحذف أو زيادة أو تقديم أو تأخير فإن الله تعبدنا بهذه الفريضة ليتبين العبد الطائع من العبد المتمرد ، نعم يجوز أن ننظم كيفية الأداء ، والانتفاع بهذا الاجتماع ، كما يجوز أن ننظم طرق الانتفاع بالهدى والأضاحى بما يكفل الخير لأهل الحرمين ، وليس هناك - مانع شرعى أن ننظم كيفية الطواف والسعى ، فإن هذا ليس تغيير لما شرع الله ، وإنما هو تيسير لما شرع .

ومن مبادىء الإسلام التى نادى بها الرسول صلى الله عليه وسلم « يسروا ولا تعسروا » .

بدر المتولى عبد الباسط

الحربُ الوقائيّة في عصر الرسُولُ

للأستاذ حسن فتح الباب

تناول الرئيس جمال عبد الناصر فى الحديث الذى أدلى به فى المؤتمر الصحفى الذى عقده مع الصحفيين العراقيين بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٦٦ وشهده المغفور له الرئيس عبد السلام عارف رئيس جمهورية العراق ، أهم مشكلات العالم العربى ، وفى مقدمتها قضية الوحدة الوطنية والوحدة العربية وأسس تحقيق هذه الوحدة ، وقد أوضح قائد الأمة العربية ما يتعرض له العالم العربى فى المرحلة الراهنة من مخاطر تهدد حريته وتقدمه ووحدته ، وبين الحلول الكفيلة بتحدى هذه المخاطر والتغلب عليها ، وأهاب بالشعب العربى أن يضم صفوفه وينسق خطوات كفاحه لمواجهة تحركات الاستعمار والرجعية وعملائهما .

وحين سئل السيد الرئيس عن موقف الجمهورية العربية المتحدة من تزويد إسرائيل فى الآونة الأخيرة بالأسلحة من أمريكا ومن ألمانيا الغربية ومحاولتها الحصول على القنبلة الذرية ، أجاب سيادته :

« نحن أيضاً نحصل على أسلحة ، وإننا حينما نفكر فى إسرائيل يجب أن نفكر فى إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل من الذين أقاموا إسرائيل ومن الذين حافظوا على إسرائيل . وفى عملنا أن نلاحظ أن إسرائيل تحصل سراً على الأسلحة ، ويجب أن نقابل هذا العمل بمثله بحيث لا نمكن إسرائيل من التفوق علينا . أما إذا سارت إسرائيل فى إنتاج القنبلة الذرية ، فأنا أعتقد أن الرد الوحيد على هذا هو الحرب الوقائية ، يجب أن تقوم الدول العربية فى الحال بالقضاء على كل ما يمكن إسرائيل من أن تنتج قنبلة ذرية » .

ولم تمض أيام قليلة على هذا التصريح حتى عاد السيد الرئيس إلى ترديد مضمونه دلالة على خطورته بالنسبة للأمة العربية بأسرها فقال :

« ونحن إذا شعرنا بأن إسرائيل تتجه نحو إنتاج سلاح ذرى ، فليس أمام الجماهير العربية التى تخلصت من الاستعمار من سبيل إلا الحرب الوقائية .

إننا بهذا نحمى الجماهير العربية من مؤامرات الصهيونية وعدوان الصهيونية » .

وهذا القرار الذى أصدره رائد العروبة بضرورة قيام الدول العربية بشن حرب وقائية ضد العصابات الصهيونية المغتصبة قبل أن تتمكن من إنتاج القنبلة الذرية

واستخدامها فى العدوان على الشعوب العربية يتفق مع السياسة العسكرية للإسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويجمل بنا قبل تحليل هذه السياسة أن نمهد لذلك بتعريف الحرب الوقائية كما وردت فى القانون الدولى العام وفى علوم (الاستراتيجية) العسكرية .

معنى الحرب الوقائية :

يطلق هذا الاصطلاح على الحرب التى تشنها دولة على دولة أخرى معادية لها ، بأن تبادر بالهجوم عليها قبل أن تستكمل الدولة الأخيرة استعدادها الحربى وتحشد قواتها وتبدأ عمليات الغزو العسكرى . فالقصد من الحرب الوقائية - كما يستبين من وصفها - هو وقاية الدولة من الهزيمة العسكرية التى تتعرض لها إذا لم تأخذ هى زمام المبادرة بين يديها وتبدأ بتدمير الأداة الحربية للعدو قبل أن يدمر هو أداتها . وينطبق على هذه السياسة العسكرية ذلك الشعار القائل : إن الهجوم خير وسيلة للدفاع

والمعيار الذى تأخذ به الدولة فى تحديد الزمن الذى تبدأ فيه بشن حرب وقائية يستند إلى نظرية التوازن الدولى ، ومقتضاها أن تعمل الدولة على تدعيم طاقاتها الدفاعية بحيث لا تتفوق عليها الدولة المعادية ، أو - بعبارة أخرى - بحيث لا تختل كفتها فى ميزان القوة العسكرية . وقياس كل دولة بالنسبة للأخرى يخضع للعوامل المادية والمعنوية وهى تكوّن فى مجموعها وزن الدولة بالنسبة للدولة المنافسة لها . وأهم عوامل توازن القوى فى الدولة موقعها الجغرافى وأثره فى تقدمها ووقايتها من الأخطار ، ومواردها الطبيعية والصناعية ، والكفاية العملية لشعبها ، وعدد سكانها ، والروح القومية ويعنى بها القوة المعنوية التى تلم شمل الشعب فى وطن واحد يكافح ويضحى فى سبيله .

متى تبدأ الحرب الوقائية :

وتأسيساً على ذلك ، فإن الدولة التى تأخذ بنظرية الحرب الوقائية تعمد إلى تطبيقها فى الوقت الذى تتأكد فيه أن العدو قد عقد النية وأتبع ذلك بالأعمال الإيجابية التى من شأنها أن تمكنه من إحراز تفوق عسكرى يتيح له فرض المعركة واتخاذ زمانها ومكانها المناسبين له والعدوان على الدولة الأخرى والقضاء على مقوماتها . وهكذا ترى تلك الدولة أن عامل الزمن فى غير صالحها إذا اتخذت موقفاً سلبيا ، فتلجأ مكرهة إلى البدء بالهجوم وقاية لكيانها ودفاعا عن نفسها .

مزاعم إسرائيل الباطلة :

ويرى الكثرة الغالبة من العلماء والباحثين والقواد العسكريين أن الحرب الوقائية حرب مشروعة وعادلة ، ولكن الخلاف يظهر فى التطبيق ، إذ قد تشن دولة معروفة عيوبها العنصرية التعصبية واتجاهاتها العدوانية حربا على دولة أخرى مسالمة ، وتدعى الدولة

المعتدية بالباطل أنها تقوم بحرب وقائية وهذا ماتردده إسرائيل فى تبرير هجماتها الغادرة التى تقوم بها حينا بعد آخر على القرى العربية الآمنة الواقعة على خط الهدنة ، كذلك فإن إسرائيل تتذرع بنظرية التوازن الدولى لتخفى خلف ستارها نواياها التوسعية ورغبتها فى السيطرة على الدول العربية تحقيقاً لشعارها المدون على جدران الكنيست (البرلمان الإسرائيلى) من الفرات شرقا إلى النيل غربا وتحصل بذلك على مزيد من العتاد الحربى والاستراتيجى من الدول الغربية .

خطة الحرب الوقائية وصورها فى الغزوات:

طبق المسلمون نظرية الحرب الوقائية بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا رغبة فى الحرب وإنما دفاعا عن العقيدة والوطن فالإسلام دين سلام يشجب الظلم ويدين العدوان ، وقد شرعت الغزوات لدفع الفتنة والذود عن العقيدة لا للإكراه على اعتناقها وجميع هذه الغزوات حروب دفاعية سواء أكان المسلمون فى موقف المهاجمين أم كانوا مهاجمين ، إذ كانت تفرض عليهم الحرب الوقائية أحياناً بوصفها خطة عسكرية لا مناص من انتهاجها لإحباط نية العدوان التى بيتها الخصوم ودل عليها انتهاكهم للعهود ونقضهم للمواثيق .

ومن المعروف لدى القادة العسكريين أن الحرب فنون كثيرة بمعنى أن ثمة أساليب مختلفة للحروب ، فالخطة التى تصلح فى هذه ربما تخفق فى تلك ، والقائد المحنك الخبير هو الذى يضع الأمر فى ميزانه الصحيح ، ومن أهم الخطط الحربية معاجلة العدو قبل تمام استعداده ، متى دلت الشواهد والقرائن على أنه يضمر الشر ، وهذا ما يطلق عليه الحرب الوقائية ، لأن احتمالات الفوز هنا ترجح احتمالات الهزيمة .

ولا شك أن مبادرة العدو الذى أجمع أمره على العدوان بهجمة خاطفة مباغتة يحقق للقائد أفضل الظروف المواتية للنصر ، من اختيار الموقع الملائم والفرصة المناسبة والزمن الأمثل ، وبذلك يمكن القضاء على إرادة العدو بالقضاء على قوته العسكرية وعدم إضاعة الوقت سدى فى انتظار ما يختاره هذا العدو وترك زمام الحركة بين يديه ، ومن الواضح أن القائد لا يلجأ إلى الحرب الوقائية إلا بعد أن يحسب حسابه ويتيقن من نجاح خطته ويرى أن الإقدام على الهجوم لن تترتب عليه خسائر حربية جسيمة .

وكانت الحروب الوقائية التى قام بها الرسول تتخذ صورا مختلفة ، أهمها مداهمة العدو فى معقله أو مكان تجمعه أو محاصرته حيث يقيم باعتبار أن هذا الهجوم أو الحصار هو الوسيلة التى لامفر منها لمجابهة العدو ومفاجأته قبل تأهبه لشن الحرب أو لإلحاق الأذى

بالمسلمين من طريق النكث بالعهود وتدبير الفتن والمؤامرات والفتنة أشد من القتل .

هل كانت مقدمات غزوة بدر حربا وقائية ؟

يذهب إلى ذلك أكثر المؤرخين .

ويصدق وصف الحرب الوقائية على غزوة بدر فى مقدماتها كما يصدق على بعض الغزوات الأخرى ، فلقد كانت هذه الحرب هى الخطة السليمة التى لا بديل لها فى الخطط الحربية ، ولم يكن من ثم مفر من انتهاجها بوصفها ضرورة حتمية للدفاع عن العقيدة الإسلامية وكيان الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويتبين ذلك جليا من استعراض الظروف والملابسات التى أحاطت بالمسلمين و هجرتهم من مكة إلى المدينة ، واتخاذهم لديار الأنصار مقاما لهم يتآخون فيه ، وحرصهم على صيانة دينهم ، ونشره فى الجزيرة العربية والقضاء على الحوائل الغاشمة التى تصد عن سبيل الله متمثلة فى العصبية الباغية من قريش ، ومن تبعها من الموالى والقبائل الأخرى المشايعة لها .

لقد أجلى المسلمون غصبا عن موطنهم مكة حيث ديارهم وأبناؤهم وأموالهم بغير جريرة اقترفوها إلا أن يقولوا ربنا الله ولئن قبلوا السكوت على ما أصابهم فى بنيهم وأموالهم ، فكيف يجوز لهم أن يسكتوا على وقوف قريش موقف الصد عن دينهم وتأليب القبائل عليهم ، وهى لا شك فاعلة كيدا للإسلام وأهله ولحصاره فى عقر المدينة لايعدوها حتى لايخرج نوره فينتشر فى الآفاق ويخسف معتقداتهم ويهدد نفوذهم الروحى والمادى ؟ إذن فلا مناص من استمرار الثورة على الشرك والمشركين والتصدى لهم ومبادأتهم بالهجوم بعد أن أعلنوا عداءهم وأصروا عليه حتى أجبروا محمدا وأصحابه على الخروج من موطنهم .

العقيدة وسلامة الوطن :

اتجهت سياسة الرسول فى رأى كثير من المؤرخين إلى البدء بالقتال وهو ما يطلق عليه الحرب الوقائية طالما أن قريشا تركب رأسها وتضمر الشر للإسلام ، وأن جميع الدوافع إلى الجهاد متوافرة فى نفوس المسلمين تحركهم ، وتثيرهم . وبدأت الحرب الوقائية بعد ثمانية أشهر من مقام الرسول والمهاجرين بالمدينة ، إذ بعث محمد عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين راكبا من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطىء البحر حيث لقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، وكان حمزة على أهبة مقاتلة قريش لولا أن حجز بينهم مجدى ابن عمرو الجهنى ، وكان موادعا الفريقين جميعا ، فانصرف بعض القوم عن بعض دون قتال . كما بعث الرسول سرية أخرى لمناوشة قوافل المشركين وتخويفهم حتى تنقطع قريش عن التفكير فى مهاجمة المسلمين ، وتيأس من قدرتها على الصد لهم عن دينهم وتألفت هذه السرية

من ستين راكبا من المهاجرين بقيادة عبيدة ابن الحارث ، فساروا إلى ماء بالحجاز ، فلقيهم به جمع من قريش يزيد على مائتين على رأسهم أبو سفيان ، فانسحبوا من غير قتال إلا ما روى من أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به في الإسلام . بل إن النبي خرج بنفسه بعد اثنى عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة ، واستعمل عليها سعد بن عبادة وسار إلى غزوة (الأبواء) حتى بلغ (ودان) يريد قريشا وبنى ضمرة فلم يلق قريشا وحالفته بنو ضمرة . وخرج بعد شهر من ذلك على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى (بواط) ، يريد قافلة يقودها أمية بن خلف عدتها ألفان وخمسمائة بعير يحميها مائة محارب فلم يدركها ، فقد اتخذت طريقا غير طريق القوافل المعبد . ثم خرج في أكثر من مائتين من المسلمين بعد شهرين أو ثلاثة من عودته من بواط ، حتى نزل (العشيرة) من بطن (ينبع) فأقام بها شهرا وبعض شهر من السنة الثانية للهجرة ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته ، وكسب من رحلته هذه أن وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة

مقاصد التصدى لقوافل قريش :

وفي رأى المؤرخين أن المسلمين قد بادءوا قريشا بالحرب في صورة تلك الغزوات المبدئية المسماة سرايا وغزوات تحقيقا لمقصدين ، أولهما : الوقوع على قوافل قريش في ذهابها إلى الشام أو عودتها منها حين رحلة الصيف واحتمال ما يمكن احتماله من الأموال التي تذهب هذه القوافل وتعود بالتجارة فيها . والمقصد الثاني : أخذ الطرق على قريش في رحلتها إلى الشام بعقد الموادعات والأحلاف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطىء البحر الأحمر بما يسهل على المهاجرين مهاجمة هذه القوافل دون أن تلق في جوار هذه القبائل ما يحميها من محمد وأصحابه ، حماية تمنع أخذ المسلمين رجالها ومالها أخذ عزيز مقتدر .

سرية عبد الله بن جحش :

وفي رأينا أن هذه السرايا سواء أطلقنا عليها غزوات أو مناوشات هي إجراء عسكرى يدخل في باب التدابير الحربية الوقائية ، طالما أن هذه الوحدات الحربية كانت مسلحة وكانت تمثل المبادرة والمباداة في صراع العدو . والإسلام يفرض القتال دفاعا عن النفس ودفاعا عن العقيدة ، دفعاً لمن يريد فتنة صاحبها عنها ، وهذه السرايا هي حرب عادلة ، وأقوى سند على ذلك هو حكم الله في سرية عبد الله بن جحش الأسدى .

في قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من

القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

مشروعية الحرب الوقائية فى الإسلام :

فالله تعالى يشرع القتال دفعاً للظالم من صد عن سبيل الله ، وكفر به ، وصد عن المسجد الحرام ، وإخراج أهله منه ، وفتنة الرجل عن دينـه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب ، فهذه جميعاً أكبر من القتل فى الشهر الحرام وفى غير الشهر الحرام وقريش والمشركون الذين ينعون على المسلمين ماقتلوا فى الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا . فلا جناح على من تقع عليه أوزار المشركين وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم فى الشهر الحرام . وإنما الكبيرة أن يقاتل فى الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزار وزراً .

ومن يتأمل فى هذا المبدأ الإلهى ، يتبين له أن مثل هـذا القتال الذى يشنه المؤمنون فى هذه الظروف يسمى فى المصطلح الحديث حرباً وقائية لأنها الحرب التى لا مفر منها لوقاية العقيدة والدفاع عن النفس بالمبادرة إلى الهجوم ، ومداهمة قبائل قريش نوع من الحرب الوقائيـة إذ يقصد بها القضاء على مصادر قوة العـدو منعاً من استخدامها فى العـدوان ، وكان المصدر الأساسى لأداة الحرب عنـد قريش هى تجارتهم إلى الشام ، وكانت تجارة واسعة النطاق .

الحرب الوقائيـة فى بدر :

من استعراض وقائع غزوة بدر يتبين أنها كانت حربا وقائيـة هدف النبى وأصحابه من خوضها إلى الدفاع عن العقيدة وما تمثله من القيم والمثل الخالدة ، ولم تثنهم قلة عددهم وعدتهم عن عزمهم ، إذ لم يكن مفر من مجاهدة المشركين الذين صـدوا عن المسجد الحرام وعن سبيل الله ، ولئن سكت المسلمون على تهديد قريش لهم ، تمـادت العصبة الباغية فى عدوانها ، واستمرت فى حصارها المسلمين ومنعهم عن نشر دين الله . ولم يكن ثمة سبيل لاتقاء المخاطر غير الحرب التى تقضى على عدة المشركين الحربية ، ومن ثم كان النبى يحرض أصحابه ويدفعهم لمقاتلة العدو والصيحة بهم أن الجنـة لمن أحسن البـلاء منهم ومن غمس يده فى العدو حاسراً ، وكان يرجو استئصال عدو الله وعدوه ، حتى تعلو كلمة الحق ويسقط البغى والعدوان .

وقد يرد على الخاطر هذا السؤال : أكانت غزوة بدر حربا وقائية ولم يتجاوز فيها عدد المحاربين المسلمين ثلاثمـائة ، والرد على ذلك بالإيجاب ، فلقد كانت تلك الموقعـة حربا وقائية شاملة بمفهومها المتعارف عليه ، إذ لم يكن فى طوق المسلمين أن يحشدوا لها أكثر من هذا العدد ، يتبين ذلك إذا لاحظنا أنه لم يتخلف بغير عذر مسلم قادر على القتال من المهاجرين والأنصار على السواء ، وكان من

الطبيعي أن يقيم في مكة بعض الرجال لا تخلفاً عن الحرب وإنما للاضطلاع بشئون المدينة ، فالحرب كانت تشمل العسكريين والمدنيين جميعاً ، فلكل دوره الذي نهض به . وآية ذلك أن محمداً عليه السلام جعل قسمة الفيء - غنائم الغزو - بين المسلمين على السواء ، فكان لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد بدراً حصة يستوى في ذلك من كان قائماً في يثرب بعمل للمسلمين ، ومن تخلف عن الخروج إلى بدر لعذر قبله الرسول . وهكذا قسم الرسول الغنائم بالقسط ، فليس المقاتل وحده هو الذي اشترك في الحرب والنصر ، بل اشترك في الحرب والنصر كل من كان لعمله في الفوز أيا كان هذا العمل ، وفي ميدان القتال كان أو بعيداً عنه .

غزوة تبوك حرب وقائية :

ويصدق وصف الحرب الوقائية على بعض الغزوات الأخرى التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسوف نختتم هذه الدراسة بغزوة تبوك باعتبارها نموذجاً لمثل هذه الغزوات . فلقد تم فتح مكة ونصر الله المسلمين نصراً عزيزاً ، واستقر لهم المقام في أم القرى بعد أن كانوا قد أخرجوا منها ونزحوا عن مواطنهم بها ، وطهر النبي مكة من آثار الوثنية ، ورفع فيها منار التوحيد ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستتب الأمن في ربوع مكة .

وبدأ الرسول يمكن للدولة الإسلامية وينصرف لتنظيم شئون الرعية ولكن عينه كانت على بلاد العرب جميعاً من أقصاها إلى إلى أقصاها حتى لا يؤخذ على غرة ممن قد تسول لهم أنفسهم الانقضاض على الإسلام . وصدق حدس الرسول عليه السلام إذ نمى إليه أن الروم يجهزون جيوشاً لغزو حدود العرب الشمالية المتاخمة لدولة الرومانية . فعقد النبي العزم على الحرب الوقائيـــة صيانة لعقيدة التوحيد وذوداً عن دولة الإسلام . ولم يتردد في التصدى لهذه القوى الغاشمة ومداهمتها قبل أن تداهمه .

ولم تكن مثل هـــذه الحرب يسيرة على المسلمين إذ كان الوقت صيفاً والقيظ شديداً ، والمسافة بين مكة وبين الشام حيث سلطان الروم طويلة شاقة تحتاج إلى الصبر وقوة التحمل وإلى حفظ خطوط التموين والإمداد بالماء والزاد والعدة الحربية ، وفضلا عن ذلك كله فإن الروم معروفون بكثرة العدد ووفرة العدة . بيد أنه لا مفر من الحرب الوقائية ، ولا بد من إعداد المسلمين لها نفسياً ومادياً حتى يأخذوا أهبتهم لخوض القتال ... ومن ثم حرض الرسول المؤمنين على التهيؤ لغزو بلاد الروم ، فتدافعوا يلبون النداء مقدمين بين يدى الرسول أموالهم بل أرواحهم رخيصة في سبيل الله . ولكن المنافقين الذين دخلوا في الإسلام رغباً ورهباً

يتخلف بغير عذر مسلم قادر على القتال من المهاجرين والأنصار على السواء ، وكان قد قال قوم منهم بعضهم لبعض : « لا تنفروا فى الحر » ، فنزل قوله تعالى :

« وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون » وعمد بعض أولئك المنافقين إلى تضليل الناس وتحريضهم على التخلف عن الحرب فأخذهم الرسول بالشدة وأمر بتأديبهم جزاء عصيانهم وتمردهم وتثبيطهم همم الناس عن الجهاد ، فامتثلوا وأذعنوا وكفوا مقهورين عن غيهم وتسابق المسلمون القادرون فى الإنفاق على تجهيز الجيش وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وقد بلغت عدته ثلاثين ألفا من المسلمين منهم عشرة آلاف فارس ، ونقبض من كثرة هذا العدد إحدى خصائص الحــــرب الوقائية بمعناها الحديث ، فهى حرب لتقرير المصير أو هى بعبارة أخرى حرب بقاء أو فناء ، فلا مفر من أن يحشد القائد فيها كل ما يستطيع من قوة كى يتمكن من القضاء على جيوش العدو وصدق الله العظيم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وصدر أمر الرسول للقائد بالتحرك إلى الشام لمباغتة الرومان قبل أن يجهزوا أنفسهم ويعدوا قواهم للاعتداء على ديار المسلمين وأموالهم ولوقف انتشار دعوتهم ، فبدأ الجيش الإسلامى العظيم مســـيرته الكبرى باسم الله ، متغلغلا فى أعماق الصحراء ، مستهينا بالحر والظمأ ومشقة الطريق مستجيبا لدعوة القائد الأعظم ، رائع المهابة ، بادى القوة مرتفع الروح المعنوية كأنما يحمل بين جنبية قلب رجل واحد .

ولقد تقدم كل قادر على نفقة نفسه بعدته ونفقته وأقبل كثيرون من الفقراء — وبالروعة البذل والفداء — يريدون أن يحملهم النبى معه ، فحمل منهم من استطاع ، واعتذر الى الباقين وقال « لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » ، ولبكائهم هذا أطلق عليهم اسم (البكائين) .

ويحق القول فى هذا المقام : إن التاريخ لم يسجل فى صفحاته التى تروى وقائع التضحيات والبطولات واقعة شرف فيها البكاء وارتفع فيها قدر الباكين مثلما سجل فى جيش العسرة ، ولقد أطلق هذا الاسم على جيش رسول الله فى غزوة تبوك لشدة مالاقى منذ بدء تجهيزه ، تلك الشدة التى لم تثن من عزم القائد الأعظم وجنوده على مقاتلة الروم فى عقر دارهم ، ذلك أن الحرب الوقائية تفرض على المحاربين فرضاً مهما جشمتهم من عناء وكبدتهم من نفقة ، لأنه لا سبيل غيرها لكف أذى العـــدو ولتأمين العقيدة والوطن .

وسار جيش رسول الله فى زحفه العظيم حتى بلغ تبوك ، وكان الرومان قد نمى إليهم أمر الجيش الإسلامى وقوته ، فآثروا الانسحاب من الحدود والاحتماء داخل بلاد الشام فى حصونها اتقاء لبأس المسلمين ، ولم ير الرسول أن يتتبعهم ، فأقام عند الحدود يكفلها حتى لا يتخطى إليها أحد ، ووجه إلى يوحنا بن رؤبة صاحب (أيلة) ـ وكان أحد الأمراء المقيمين على الحدود ـ رسالة أن يذعن أو يغزوه ، وفى هذا أبلغ الدليل على أن غزوة تبوك كانت حربا وقائية ، بمعنى أنها مبادرة بالهجوم على العدو فى بلاده وليست انتظاراً داخل حدود الوطن للدفاع عنه ورضخ الأمير وصالح النبى وأعطاه الجزية وحذا بعض جيرانه على الحدود حذوه ، فكتب لهم رسول الله كتب أمن تضمنت شروط المعاهدة وأهمها دفع الجزية والكف عن مناوءة المسلمين وذلك فى نظير تأمين هذه البلاد .

* * *

وبانسحاب البيزنطيين ، ومعاهدة أهل الحدود ، حققت غزوة مؤتة أهدافها ، لولا خشية انتقاض (أكيدر بن عبد الملك الكيدى) النصرانى أمير (دومة) وتقديمه العون لجيوش الروم إذا زحفت من ناحيته ، ومن ثم أصدر النبى أمره الى خالد بن الوليد أن يهاجم دومة الجندل ثم عاد النبى بجيشه إلى يثرب . وانقض خالد على رأس خمسمائة فارس فما وجد مقاومة تذكر وأسر أكيدر وهدده بالقتل إن لم تفتح المدينة أبوابها . ففتحت الأبواب فداء لأميرها وعاد خالد إلى المدينة ومعه كثير من الغنائم . وأسلم أكيدر وأصبح حليفا للرسول .

وكذلك أقام الرسول ـ بهذه الغزوة ـ بلاد الشام الواقعة على الحدود بين الروم والمسلمين معاقل بينه وبين الروم .

ومثلما كانت غزوة بدر التى نصر الله فيها رسوله وكانت أول الغزوات حربا وقائية كانت خاتمة الغزوات وهى غزوة الجندل حربا وقائية ، ولكلتا الغزوتين أهمية كبيرة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد استقر بغزوة بدر الأمر للمسلمين فى بلاد العرب جميعا ، وكانت مقدمة وحدة شبه الجزيرة فى ظلال الإسلام ، ومقدمة الامبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف والتى أقرت حضارة غيرت مجرى التاريخ فى العالم ووجهته فى طريق الخير والرحمة والحرية والفضيلة ، كذلك ، فقد تمت كلمة الحق فى شبه الجزيرة العربية كلها بغزوة تبوك ، وحققت الأمن للإسلام والمسلمين ، فسارت الدعوة فى سبيلها وأقبل سائر العرب على المدينة يقدمون الطاعة بين يدى الرسول ويعلنون لله الإسلام ؟

حسن فتح الباب
ماجستير فى العلوم السياسية

شخصية العقوبة في القانون المقارن

للأستاذ الدكتور مختار القاضي

شخصية العقوبة ، أى عدم تعديتها إلى غير المجرم ، مبدأ من المبادىء العتيدة فى التشريعات المتحضرة . وهو مبدأ عرفته الشريعة الإسلامية فى قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، ولكن هذا المبدأ لم يطبق فى المجتمعات البدائية . حيث كان الأبناء يؤخذون بذنب آبائهم والزوجات بذنب أزواجهن ، وحيث كانت القبيلة كلها تعاقب إذا اقترف أحد أفرادها ذنباً فى حق قبيلة أخرى ، حتى ولو كانت قبيلة الجانى غير راضية عن فعله :

بيد أن القوانين المتحضرة عندما أخذت بمبدأ شخصية العقوبة ، اختلفت فى تطبيق هذا المبدأ ، فضاق نطاقه أو اتسع وفقاً لدقة هذه الشرائع ولسعة نظرتها الاجتماعية لأسباب الجريمة .

والأمر الذى لا شك فيه أن الشرائع المتحضرة جميعها مجمعة على أن فعل الجانى لا يسأل عنه غيره ، إلا إذا كان هذا الغير مسئولا شخصياً عن حركات المجرم أو أفعاله ، كمسئولية الأب عن أفعال ابنه ، فإن الأب يسأل عن هذه الأفعال بسبب إهمال رقابة الابن ، ومادام الإهمال منسوباً إلى الأب ، فعقاب الأب لا يكون بسبب فعل منسوب إلى الابن ، بل بسبب فعل منسوب إلى الأب نفسه وهو الإهمال . أما فعل الابن ذاته فقد يعاقب عليه الابن نفسه .

ولكن هناك أمراً أكثر مما ذكرت دقة فى الفهم والتأصيل ، وهو الأمر الذى اختلفت فيه الشرائع المتحضرة اختلافاً بيناً . ويمكن أن نوضحه بمثال : شاب اقترف جريمة سرقة فهو مسئول عنها . ولكن هل يكون من العدل أن نعاقب هذا الشاب إذا كان قد نشأ منذ طفولته فى بيئة يعمل أهلها قطاعاً للطرق ومتلصصين يستحلون أموال الناس بالباطل . ما ذنب هذا الشاب الذى تلقى عن قومه هذه النقيصة ، ولماذا نعاقب هذا المجرم على فعله المباشر بينما يشترك معه آخرون فى ارتكاب هذا الفعل وخلق أسبابه ؟ ألا يخل هذا بمبدأ شخصية العقوبة إذا نظرنا إلى هذا المبدأ نظرة واسعة ؟

لقد قامت فى العصر الحديث فى إيطاليا مدرسة ، سمت نفسها : المدرسة الإيطالية الوضعية ، قامت بوضع هذه المشكلة أمام العلماء المتخصصين فى علم الاجتماع القانونى ، وتزعم الدفاع عن هذا الوضع المعقد أساتذة أعلام أمثال : لومبروزو ، وفيرى ، وجاروفالو ، وجراماتيكا . وانتهوا إلى تقسيم المجرمين أنواعاً ثلاثة : مجرم بالصدفة ، وهو الرجل الذى ليست لديه صفات الإجرام ، ولكن شيئاً أثاره فلم يستطع أن يمسك أعصابه أو يسيطر على عواطفه وارتكب

جريمة وقد أسف وندم بعد ذلك . ومجرم بطبيعته ، وهو الرجل الذى نشأت فى دمه الجريمة ، وعادة ما يكون الإجرام موروثا عنده من أب أو أم أو جد أوجدة . مثل هذا الشخص يرتكب الجريمة للجريمة والإيذاء حباً فى الإيذاء . ورجل ثالث نشأ فى بيئة دنسة وإن كان أصله طيباً وعنصره مسالما إلا أن البيئة لقنته دروساً فى الإجرام ، فهو لا يسأل عن جريمته وحده بل يشاركه فيها أولئك الذين عاصروه فى بيئته وعلموه الإجرام .

إن الوضعيين الإيطاليين نظروا إلى المجرم من هذه الزاوية واعتبروه فى كثير من صور الإجرام السابقة ، مجنياً عليه لا جانياً واقترحوا فى سبيل ذلك أنواعا من العلاج مختلفة ، وتعبيرات أطلقوها على المجرمين لتخف من أذاها النفسى عليهم فهم يعبرون عنهم أحيانا باسم المرضى وأحيانا أخرى باسم المجنى عليهم . وعاملوا هؤلاء الناس معاملة رحيمة وأعطوا القاضى سلطة واسعة فى تخفيف العقاب عنهم ، أو الأمر بعلاجهم علاجا نفسياً ، ولم يروا أن يعدم إلا أولئك الذين لا يمكن علاجهم وهم المجرمون بطبيعتهم الذين تحار الهيئة الاجتماعية فى أمرهم ولا تتقى أذاهم إلا بإعدامهم أو إبعادهم عن المجتمع مدى الحياة .

هذه هى المدرسة الإيطالية ، وهى تخالف المدرسة الفرنسية التى لا تتعمق أسباب الجريمة بل تنظر إلى العمل المادى المباشر الذى يرتكبه المجرم ، فإن كان من فعله عوقب عليه فهى إذن مدرسة شكلية تأخذ بالظاهر ولا تتعمق الأسباب الدقيقة ولا تحلل الفعل تحليلا نفسياً دقيقاً . ومع ذلك فقد تأثر القانون الفرنسى تأثراً ملحوظاً بالمدرسة الإيطالية حيث بدأ الاتجاه فى التشريعات الجنائية الفرنسية يتبلور حول إعطاء القاضى سلطة أوسع فى تقدير العقوبة والتوسع فى حالات رد الاعتبار وتخيير القاضى بين أكثر من نوع من العقوبة .

والمتعمق فى مبادىء الشريعة الإسلامية يستطيع أن يؤكد أن هذه الشريعة وقفت من هاتين المدرستين (قبل أن تنشأ) موقفا وسطاً : فمما لا شك فيه أن الإنسان الحر العاقل الرشيد لابد أن يسأل عن فعله وهذا أمر تقتضيه ضرورة اجتماعية ملحة . ونحن إن لم نفعل ذلك اختل النظام العام وأصبح الناس عرضة للنهب والسلب والقذف والقتل . ومع ذلك فقد رأت هذه الشريعة أن ينال المجرم نوعا من العدالة كبيراً وجديراً بأن يمحو زلاته الناشئة عن طبيعة موروثة أو بيئة محيطة أو ظرف طارىء .

والشريعة الإسلامية لا تنهج منهاجا فلسفياً كما نهج الوضعيون الإيطاليون ولكنها تأتى بالأحكام وعلى الناس ، إن أرادوا ، أن يكشفوا عللها وأسبابها .

لقد شرعت هذه الشريعة الوسط نوعا جميلا من العلاج حين أباحت العفو عن المجرم

الموسوعة العربيّة الميسّرة

بإشراف المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال

للأستاذ محمد الدسوقي

---

١ — الموسوعة العربية الميسرة دائرة معارف عربية عامة ، أخرجتها مؤسسة فرانكلين حديثاً ، وقام بإعداد موادها عدد غير قليل من أساتذة الجامعات والمختصين في الوطن العربي، وأشرف عليها المؤرخ المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال ، وقد ظهرت في مجلد واحد أربت صفحاته على الألفين .

وقد جاء في مقدمة هذه الموسوعة أنها جهد جماعة من المديرين كل في اختصاصه، وقد روعي في كل مادة تخصص اختيار الذي يكتبها وقدرته على جمع المعلومات العديدة، ثم تمييز الأهم فيها من المهم ، وهي عملية عسيرة ، ثم إخراجها في أوضح أسلوب وأشده اختصاراً ، كما جاء في المقدمة أيضا أن المادة الواحدة يكتبها عدة متخصصين كل في دائرته ، ثم تجمع هذه الكتابات لتخرج مادة واحدة متناسقة تدل على تعاون العلماء من جهة ، وتدل على احترام التخصص إلى أبعد مدى من جهة أخرى ، هى

(بقية الصفحة السابقة)

عند التوبة مقدرة أن المجرم التائب إنما يندم على فعله إذا كان . قد انساق إليه بمحض المصادفة دون أن يريده حقاً وأنه حين يندم في بعض الأحيان الأخرى إنما يكون الندم لأنه عاش في بيئة دنسة فهو يريد أن يبتعد عنها . فالتوبة تنذر بأن المجرم قد قاس جرمه وعرف أسبابه وأخـــذ يتجنب تكراره في المستقبل . والمشرع يقدر في نفس الوقت أن الجريمة قد تكون أثراً من آثار الظروف المحيطة ، فلا يسأل عنها المجرم وحده، فلا أقل من أن نعطيه فرصة ليفكر في تجنب الأفعال المماثلة في المستقبل . ولو عاقبناه رغم التوبة لاحتمل أن يكون هذا العقاب عن فعله المباشر وفعل غير مباشر لغيره . ومن أجل ذلك أباحت الشريعة الإسلامية التصالح في معظم الجرائم تقريباً، على خلاف بسيط في المذاهب . ومبدأ التصالح مكمل لمبدأ التوبة .

ولكن المشرع الفرنسي لم ير الأخـــذ بالفلسفة الوضعية الإيطالية ، ولا الأخذ بالمبادىء المقررة في الشرائع السماوية ، واختط لنفسه نهجاً رومانياً جافاً وهذا ما تعانيه البيئة الفرنسية والبيئات التي أخذت عن التشريعات الفرنسية قوانينها الجنائية ؟

مختار القاضي

جهود كبيرة متعاونة، ولقد عملت هذه الجماعة وفق أحدث الأساليب فى عمل الموسوعات .

٢ — وقد تطرقت المقدمة إلى الحديث عن سبب تسمية الموسوعة فقالت : إنها موسوعة ، لأنها تهدف إلى جمع المعلومات الأساسية العلمية والتاريخية حول مسمى بعينه ، وأما أنها ميسرة ، فلأنها فى مجلد واحد مختصرة ، سهلة التناول ، والمعلومات فيها تخاطب المثقف العربى بما يهمه ، سواء أكانت عربية ، أم عالمية ، ولهذا كانت أول موسوعة عربية بمعنى الكلمة ، فهل تعد هذه الموسوعة أول موسوعة عربية بمعنى الكلمة ؟ وهل المعلومات التى اشتملت عليها تخاطب المثقف العربى بما يهمه كما ذهبت المقدمة ؟ وهل التزمت الموسوعة بمنهجها الذى أشرت إليه آنفاً ؟ .

لقد قرأت هذه الموسوعة من ألفها إلى يائها قراءة واعية متأنية ، فبدت لى بعد هذه القراءة مآخذ كثيرة ، واستجابة لما جاء فى مقدمة الموسوعة من أنها تطمع فى أن تتلقى عشرات بل مئات من الملاحظات فى النقد الأمين المخلص ، لتكون طبعتها المقبلة أقرب إلى الكمال — فإنى أذكر أهم هذه المآخذ .

٣ — أول ما يؤخذ على هذه الموسوعة أنها أهملت ذكر التاريخ الهجرى ، وكأنها بذلك لا تعترف بهذا التاريخ ، ولا تراه جزءاً لا يتجزأ من حياة العرب الفكرية والسياسية ، فمثلا إذا تحدثت عن علم من أعلام العرب ، أو عرضت لأحداث التاريخ العربى ، فإنها تكتفى بذكر التاريخ الميلادى فقط ، ولو كانت هذه الموسوعة تخاطب أمة غير عربية ، أو غير إسلامية ، ما كان هناك اعتراض على ما فعلت ، ولكن الموسوعة عربية وتخاطب المثقف العربى بما يهمه — كما ذهبت المقدمة — ولذا كان إهمال التاريخ الهجرى قطعاً للروابط التى تربط المثقف العربى بتاريخه وحضارته ، لأن تاريخنا الفكرى والسياسى مرتبط فى أذهان المثقفين العرب وحتى بعض الأجانب من المستعمرين بالتاريخ الهجرى ، ومن يتصفح كتب التاريخ والتراجم العربية يجد أنها واكبت التاريخ الهجرى وصاحبته حتى الآن ، مثل تاريخ الطبرى وابن كثير ، وطبقات الشافعية للسبكى ، والدرر الكامنة لابن حجر ، والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى . إلخ

فإذا عرفنا أن المصادر التى رجع إليها لتحرير المواد العربية فى هذه الموسوعة ، تقتصر على التاريخ الهجرى فقط ، أدركنا مدى الجهد الضخم الذى بذل من أجل إهمال هذا التاريخ ، وطالعتنا حقيقة خطيرة وهى أن إهمال التاريخ الهجرى جاء قصداً ولغاية خاصة ، ولو أن الموسوعة أهملت التاريخ الميلادى بحجة أن المصادر العربية القديمة لا تذكره ، فقد يلتمس لها بعض العذر فى

هذا ولكن أى عذر فى إغفال التاريخ الهجرى يمكن أن يدرأ عنها تبعة النقص والقصور ، ويحول دون اتهامها بقطع الأواصر التى تربط المسلمين بتاريخهم وحضارتهم ؟ ! وما الذى كان يضير لو نصت الموسوعة على التاريخين الهجرى والميلادى معاً ؟ ! ...

٤ — كذلك يؤخذ على هذه الموسوعة أنها لم تكن لديها خطة منهجية فى الحديث عن الموضوعات التى يجب أن تشتمل عليها، فهى تنقل القول عن كثير من الأعلام ، أو البلدان العربية ، فلا تتحدث عن محمد توفيق رفعت الذى كان أول رئيس للمجمع اللغوى ، ولا عن أحمد إبراهيم الفقيه اللغوى الذى امتاز فى أبحاثه بالمقارنة بين الشريعة الإسلامية والشرائع الوضعية ، وكذلك الشيخ أحمد السكندرى العالم اللغوى الضليع إلى غير هؤلاء مما لا مجال هنا لحصره وذكره وقد لاحظت أن الموسوعة فيما يتعلق بالأعلام أو البلدان الأجنبية ، وبخاصة الأمريكية تحاول الاستقصاء ، ومن يطالع هذه الموسوعة تقابله صفحات تربو على الثلاثين لا ترد فيها كلمة عن موضوع عربى ، وكان من نتيجة هذا طغيان المادة الأجنبية على المادة العربية ، بحيث أصبحت هذه وكأنها هى الأجنبية ، ولست أعنى أن الموسوعة كان يجب أن تكون خالصة للموضوعات القومية ، فطبيعة الموسوعات ترفض هذا ، فضلا عن أن المعرفة لا وطن لها ، غير أن الذى أود أن أقوله : هو أن الناحية القومية كان يجب أن تكون أبرز ما فى هذه الموسوعة إلا أنها جاءت — مع الأسف — ضئيلة ومبتورة ومشوهة .

وإذا أضيف إلى ما سبق أن المواد الأجنبية فى معظمها لا تهم المثقف العربى من قريب أو من بعيد ، مثل الحديث عن بعض المدن والأعلام (كرنيه لاليك) المصمم الفرنسى للزجاج والجوهرات،و(سوليفان) الذى كان وزيراً للبحرية الأمريكية فى وزارة الدفاع سنة ١٩٤٧ ، تبين لنا أن الذين قاموا بأمر هذه الموسوعة قد لجأوا إلى دوائر المعارف الأجنبية ، وترجموا ما شاء لهم أن يترجموا — دون تحديد دقيق لما يجب أن يترجم — وهم قد أشاروا فى مقدمة الموسوعة إلى اعتمادهم على موسوعة (كولمبيا فايكنج دسك) الأمريكية على أن هناك أعلاما ترجمت لهم الموسوعة دون أن تشير إلى دورهم البارز فى الإساءة إلى العرب مثل لورنس وتشرشل وغيرهما ، وكان الأخلق بموسوعة عربية تخاطب المثقف العربى بما يهمه — كما تذهب المقدمة — أن تكون عونا له على معرفة من مزقوا وطنه ، ومكنوا لليهود فى بلاده ، والغريب أن مقدمة الموسوعة تقول : وهواطفنا العربية ظهرت ولا شك فيما كتبنا ، والواقع أن العواطف الأجنبية — وبخاصة الأمريكية —

كانت أكثر جلاء ووضوحا وأن العواطف العربية كانت غريبة فى هذه الموسوعة .

٥ — والموسوعة قد ترجمت لبعض الأعلام الأحياء ، غير أنها لم تتبع خطة منهجية فى هذا أيضاً ، فهى قد تحدثت عن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، والأستاذ محمود تيمور ، والأستاذ توفيق الحكيم . . الخ ، غير أنها لم تتحدث عن الأستاذ أحمد حسن الزيات الذى يرجع إليه الفضل فى إنشاء مجلة الرسالة التى ظلت أكثر من عشرين عاما تحمل راية الأدب الرفيع وتجمع بين الماضى والحاضر على هـدى وبصيرة ، وكان لها دورها الكبير فى إحياء النهضة الأدبية الحديثة لا فى مصر وحدها بل فى العالم العربى كله ، ومثل هذا كثير والتتبع والإحصاء له مجال آخر .

ومما يتصل بالناحية المنهجية أن ترتيب المواد لم يخضع لخطة سليمة تسهل مهمة الرجوع إلى الموسوعة فمثلا بالنسبة للأعلام ـ وبخاصة العربية ـ ترتب أحيانا تبعا للقب ، وأحيانا تبعاً للكنية ، أو الاسم دون التزام منهج واضح فى كل ذلك ، وهذا يوقع القارئ فى حيرة حين يود معرفة شىء عن علم ما فإنه مضطر إلى البحث فى كل المظان التى يمكن أن يرد فيها هذا العلم ، وهذا عيب كان يجب أن تسلم منه الموسوعة ، ولكن يبدو أن الاتجاهات الفردية والمذاهب الشخصية هى التى صبغت الموسوعة بهذه الصبغة ، وأن الموسوعة قد افتقدت المهندس الذى يشذب ويضيف وينسق ، بحيث تبدو فى النهاية نمطا واحدا ، وكأنها من عمل فرد واحد .

٦ — وكان من جراء تحكم الاتجاهات والأمزجة الفردية ، ظهور التفاوت العجيب بين مواد الموسوعة من نواح مختلفة ، فمثلا يكتب عن أبى هريرة الصحابى الجليل نحو خمسة أسطر ، على حين يكتب عن أبى الهول أكثر من عشرين سطرا ، ويكتب عن المثنى ابن حارثة الصحابى البطل ، والقائد المظفر الذى كان له الفضل الأول فى فتح العراق ، عبارة مقتضبة ناقصة فى سطر ونصف كذلك يكتب عن الشيخ السحيمى أحد شيوخ الأزهر عبارة مضطربة فى نحو ثلاثة أسطر ، ومثل هذا كثير وشائع فى الموسوعة ، غير أنى لاحظت أن كل ما يتصل بغيرنا يحظى باهتمام وعناية لا يحظى بهما ما يتصل بنا ، فأطول مادة فى الموسوعة كتبت عن الولايات المتحدة الأمريكية جاءت فى خمس صفحات أما ما كتب عن الإسلام وتاريخه وعقائده وعدد المسلمين فى العالم الآن فقد جاء فى نحو ثلاث صفحات .

وإذا كانت المقدمة تقول بأن المادة الواحدة يكتبها عدة متخصصين كل فى مجاله ، تنسق

وتحرر أخيراً فى صورة متكاملة دقيقة ، فإن هذا لم يتحقق فى كثير من المواد بما يؤكد سيطرة الاتجاهات الفردية والخاصة ، فمثلا عند الكلام على تحريم الخمر ، أو التوحيد العنصرى انصب القـــول كله على ما فعلته الولايات المتحدة لتحريم الخمر والقضاء على التمييز العنصرى دون أن يشار إلى الإسلام وموقفه بكلمة واحدة ... ومثل هذا كثير

٧ — وقد تعرضت الموسوعة للحديث عن بعض المسائل الفقهية فى الشريعة الإسلامية وعن بعض أعلام الفقهاء ، وأشهر مؤلفاتهم ولكن هذا الجانب الجليل من تراثنا وثقافتنا جاء الحديث عنه مضطرباً وقاصراً فى كثير من المواضع ، فالكلمة التى كتبت عن مادة « فقه » غير دقيقة كما أنها غير وافية والنص فيها على أن معرفة وجوب الصلاة من الفقه لا معنى له ، لأن معرفة وجوب الصلاة مثل معرفة وجوب الحج والزكاة والصيام من الأمور التى يجب أن يعرفها كل مسلم فقيهاً كان أو غير فقيه ، وعند الحديث عن أنواع الصلاة أهملت صلاة الاستسقاء ، وجاءت ترجمة الإمام الشافعى خالية من الإشارة إلى مذهبيه القديم والجديد ، وجاء الكلام عن كتاب « الموافقات فى أصول الأحكام » للإمام الشاطبى بأن المؤلف قد تعرض فى هذا الكتاب إلى التربية والتعليم فجاء ببحث طريف فى التوجيه المهنى ... الخ ومع أن الإمام الشاطبى قد مس هذه الناحية مسا خفيفا فى مقدمات الكتاب إلا أنه أساسا فى أصول الفقه ، والاقتصار فى التعريف بالكتاب على ما ذكر نقص قد يوهم القارىء غير المتخصص أن الكتاب فى أصول الأحكام التعليمية بمفهومها الحديث ، وهذا غير صحيح فكتاب الموافقات من أمهات الكتب فى أصول الفقه ، فتبرز قيمته فى حملته على التقليد والتعصب المذهبى ، ودعوته إلى الاجتهاد والنظر العقلى . ولست أدرى لماذا لم تتحدث الموسوعة عند ترجمتها للإمام ابن حزم عن كتابه (المحلى) مع أنه أم كتبه ، ويمثل الفقه الظاهرى أصدق تمثيل ، وهو أولى فى الذكر من كتابه (الأخلاق والسير فى مداراة النفوس) وكما سبق أن ذكرت لست فى مجال الإحصاء . بل ضرب الأمثلة فحسب .

٧ — أما الأخطاء العلمية فى هذه الموسوعة فهى كثيرة ومبثوثة فى تضاعيف موادها ولا مجال هنا لحصرها وتصنيفها ـ على أن الدكتور عبد العزيز مطر قد ذكر بعضها فى صحيفة الأهرام ـ غير أنى أود أن أشير هنا إلى بعض الأخطاء التى جاءت ـ فيما أظن ـ نتيجة للتأثر بالأفكار الاستشراقية ؛ نظراً لخطورتها ، فمثلا ترجمت الموسوعة لجولدتسهير المستشرق المجرى المعروف فقالت عنـــه : إنه يعد من أوسع المستشرقين علما وأعمقهم بالإسلام ، وأفهمهم لعقائده الدينية واتجاهاته

الفكرية ، هذا المستشرق الذى يقول بأن التوحيد مذهب عسير الفهم ، أما التثليث فمذهب واضح فى فهم الألوهية [١] ، والذى قال بأن الإسلام قد أخذ عن اليهودية كثيرا من تعاليمه [٢] والذى طعن فى السنة ورجالها وتدوينها ، هذا المستشرق الذى صدرت منه مثل هذه الآراء أو الأباطيل، يعد من أعرف المستشرقين وأعلمهم بالإسلام ، وأفهمهم لعقائده ومذاهبه ؟ !

والحروب الصليبية تقول عنها الموسوعة إنها كانت لاستعادة الأماكن المقدسة بفلسطين من أيدى المسلمين ، فهل كانت هذه الحروب حقيقة لهذا الغرض ؟ إن شواهد التاريخ تؤكد أنها كانت حروبا استعمارية هدفها استغلال الشرق وتقويض حضارته وصرف الأنظار عنه ، أما حجة حماية الأماكن المقدسة أو استعادتها من أيدى المسلمين فستار استغله دعاة هذه الحروب لإخفاء مطامعهم ونيل أغراضهم . لقد كان يجب فى موسوعة عربية حديثة أن تكون بمنجاة من هذه الأباطيل التى جند المستشرقون بوجه عام أنفسهم لإذاعتها وترويجها بين العرب - لتؤدى رسالتها العلمية كما يجب أن تكون .

٨ - وبعد فقد كنت أطمع حين تناولت هذه الموسوعة لأقرأها أن أجد عملا تفخر به المكتبة العربية فى العصر الحديث، وأن تكون بداية طيبة لانطلاقة جبارة نحو عمل الموسوعات التى تخدم ثقافتنا القومية ، وتربطنا فى الوقت نفسه بجوهر الثقافات العالمية ، غير أنى لم أجد فى هذه الموسوعة ما تمنيت ، وتألمت ؛ لأنها تخدم ثقافة غيرنا وتدعو إليها أكثر مما تخدم ثقافتنا ، ومن ثم فليست أول موسوعة عربية بمعنى الكلمة ولا تخاطب المثقف العربى بالمعلومات التى تهمه - على خلاف ماذهبت المقدمة - وإذا كان القائمون على أمر هذه الموسوعة يعدونها مجرد "بداية المتواضعة فى سبيل الموسوعة العربية الكبرى وإذا كانوا أيضا يرغبون فى معرفة رأى القراء لتكون الطبعة المقبلة أقرب إلى الكمال ، فإنى أدعو كل مثقف غيور على تراثه أن يدلى برأيه ، فقد يبدو لغيرى ما لم يبد لى من مآخذ لتظهر الطبعة الجديدة فى صورة غير هذه الصورة ، فى صورة عربية أصيلة مادة وروحا ، وإلا فلتحمل الموسوعة فى طبعتها الثانية عنوانا غير عنوانها ، وليكن (الموسوعة الأمريكية المعربة) فهو أدق عنوان - فيما أرى - يمكن أن يصدق عليها فى صورتها الراهنة ؟

محمد الدسوقى
المحرر بمجمع اللغة العربية

(١) راجع كتاب العقيدة والشريعة ، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين .

(٢) انظر كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر .

من تاريخنا الوطنى :

لحية شاعر تؤرق الإنجليز

للأستاذ على الجندى

من مضحكات « السلطة العسكرية الإنجليزية » أيام الاحتلال المقيت » زمن الحرب العالمية الأولى ، أنها سيرت قوة من الجند بقيادة « الميرالاى ولسلى » مفتش الداخلية ، إلى قرية « ميت خلف » من أعمال شبين الكوم فهاجمتها تحت جنح الظلام ! ! والناس هاجعون فى مراقدهم غارون آمنون ! ولله المتنبى حيث يقول :

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا

أتدرى لم ساقت السلطة العسكرية إلى هذه القرية الآمنة المطمئنة ، هؤلاء الجنود الأشاوس ، والأبطال المغاوير ، بقيادة هذا الفارس النجيد الصنديد ، على حين غرة من أهلها ، والليل ضارب برواقه الأسود على البلاد والعباد ؟ ! !

لأنه بلغها من العيون التى أذكتها على الأحرار ، ومن الجواسيس الذين يحصون حركاتهم وسكناتهم ويعدون أنفاسهم أن هناك شاعراً من الشعراء يسكن هذه القرية ، قد أتى شيئاً إداً ! ! قد أتى أمراً نكراً ! ! قد اقترف جريمة شنعاء ! !

أتدرى ما هى هذه الجريمة ؟ أرجو ألا تضحك ! ! وإن كان شر البلية ما يضحك ! ! لأن الأمر جد لا هزل ! ! إن الشاعر : « أبو الوفاء محمود رمزى نظيم » قد استهان بالقانون ، وتجرأ على « السلطة » وخالف عن أمر الاحتلال ، فأرسل لحيته ؟ ! ! ولكنه تركها كما شاءت نفسه الأمارة بالسوء ! حتى عرضت ، وطالت ، وانتشرت ، وانتفشت ، وتلففت على عارضيه كالنبات الشيطانى ! ! وأصبحت شيئاً مزعجاً الجيش البريطانى المظفر ! !

وكيف لا ينزعج الإنجليز ذوى « المزاج الرقيق » و « الدم الخفيف » والطبيعة « الحارة جداً » من هذه اللحية التى قال فى أمثالها « العسكرى » :

إن أبا عمرو له لحية
بعيدة البعض من البعض
مضى إلى السوق ، وعثنونه
أقام فى البيت فلم يمض
يدوسها الناس بأقدامهم
كأنها أرض على الأرض

وهو إذا ماس فى سكة
يملؤها بالطول والعرض

وكان أن جىء بالشاعر بين كوكبة من الفرسان ، إلى حيث ينتظره القـــائد الباسل ! !

وما أن رأى هـذه اللحية الكثيفة ، حتى ورم أنفـــه ، وانتفخت أوداجه ، واحمر وجهه فوق احمراره ، وجحظت عيناه الزرقاوان ، أو الخضراوان ، أو الرماديتان - لا أدرى - وصرخ بصوت بحه الغيظ والحنق ، حتى استحال مواء قطاط أو هرير كلاب ! : لماذا أطلقت لحيتك يا هذا ؟

أبو الوفاء : لأن هذا أمر يتطلبه الدين !!

ولسلى : ولماذا لا تطلقها من قبل ؟

أبو الوفاء : لأن الله هدانى إلى الصراط المستقيم ! !

ولسلى : أظن الصراط المستقيم ، يمكن تأجيله إلى ما بعد الحرب ! !

وما كان أسرع أن نطق بأمر عسكرى إلى حلاق الفرقة بالجيش أن يحلقها ! !

وهنا يجب أن نشكر للجندى الحلاق رقته وأدبه ، وحرصه على تطبيق القوانين العسكرية تطبيقاً دقيقاً ، إنصافا للحق وللتاريخ ! !

فقد تقدم بخطوات عسكرية رانبة ، رزينة متئدة ، نحو الشاعر الملتحى - كان الله فى عونه - فأدى له - وإن شئت فقل للحيته المبجلة - التحية العسكرية ! !

ولا ندرى إن كان أبو الوفا حياه بمثلها ، أو بأحسن منها ، أو أمسك عن ذلك ؟ ! !

ثم أمره - فى رفق ولطف ودعة - أن يجلس مطمئناً ! ! فجلس بين حلقة مفرغة من الجنود فى شكتهم العسكرية الزاهية ! ! وعيونهم مفتوحة عليه ، وبنادقهم حافة به ، وحرابهم مشهرة إليه ! ! يتوسطهم « ولسلى » نفسه ؛ تفخيما للأمر ، واحتفاء به ، وتهويلا على المشاهدة ! !

وشرع الحلاق الحاذق فى القيام بهـــذه العملية العسكرية الضخمة ! ! أو بهذا الهجوم الخاطف على هذه اللحية الشائكة ، أو الغابة السوداء ، حتى فرغ منهـا ! ! فعاد إلى مكانه ، والزهـــو يرنح عطفيه ! ! والمخيلة تهز رانفتيه [1] ، لانتصاره فى هذه المعركة الطاحنة التى عوضت قومه عن هزائم « الدردنيل » ! !

وقد كانت قصة هـذه اللحية التاريخية ، حديث المقيم ، ولهو السارى ، وفاكهة الأدباء والكتاب والشعراء ، كما كانت مبعثاً للتهزؤ والسخر اللاذع من الإنجليز الذين ربما كانوا يظنونها أجمة يختبىء فيها المصريون ! ! أو لعلهم خالوا شعراتها سيوفا مشهورة ، أو

---

(١) الرانفة : أسفل الألية إذا كان الإنسان قائماً .

رماحا مشرعة ، أو سهاما مشددة !! وما أصدق قول المتنبي في تصويره الخوف !!

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم

إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وأكبر الرأي : أنهم كانوا يعتقدون أن حلق هذا الشعر ، سيقطع من هذا الشاعر وحي الشعر !! وللاستعمار - أو على الأصح الاستخراب - في الجنون فنون !!

وموضع العبرة التي تعنينا من هذه اللحية وما لابسها : أن هذا الشاعر الأعزل إلا من سلاح الحق وإلا من هذه اللحية الممتدة على صدره ، قد استطاع أن يجنن السلطة العسكرية البريطانية ، وأن يذهب بوقار الإنجليز المأثور ، وينزع عنهم « برودهم » الموروث ، فيفعلوا ما لا يفعله إلا نزلاء (المارستانات) !!

وقد بعث بعض إخوان الشاعر إليه بتعزية رقيقة ورثاء شاج لهـذه اللحية الباسقة !! ورد عليه أبو الوفاء بقصيدة ضافية عنوانها « لحية شاعر تؤرق الاحتلال » !!

ولست مبالغاً إذا قلت : إن هذه القصيدة بغرابة موضوعها وإحكام نسجها ، وطرافة أخيلتها ، وبما حوته من حكم وأمثال ، ومعان مخترعة ، وبما تضمنته من جد وهزل ، واستطراد إلى أغراض شائقة تعد من القلائد والفرائد في الشعر العربي الفكاهي !!

وإذا كان المقام يضيق بنشرها ، فلا بأس من إيراد طرف منها . يقول في أولها :

دعوا تشبهنا بالوحش في الصور

ما الحسن للوحش ، إن الحسن للبشر

لا بارك الله في ذقني ، ولا نبتت

من بعدها شعرة من ذلك الشعر

كأنما شعرها في عارضي إبر

وكيف أبقى على وخز من الإبر

تلوي الغواني عني عند رؤيتها

ذعراً !! كأني ذو ناب وذو ظفر

ومنها :

مضى القضاء بمن أهوى مودتهم

من الأجنة !! يا ويلي من القدر

أبكي على لحيتي من بعدها أسفاً

كلاهما عن سمعي وعن بصري

ويختمها بقوله مخاطباً صديقه الذي واساه في حلقها ! :

وأنت يا شاعر الإلهام لا برحت

تحظى المسامع من معناك بالدرر

يا من تصبته يوما لحيتي فمضى

يلقي على عارضيها أعطار الزهر

خذها إذا شئتها مني مكافأة

واستر بها ما بدا من صفحة القمر

علي الجندي

جهاد الواعظ سبط بن الجوزى

للدكتور عباس حلمى اسماعيل

ولد سبط بن الجوزى فى بغداد سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) وظل مقيما بها حتى بلغ عمره ثمانى عشرة سنة ، وعندئذ تملكه حب الترحال ، فغادر بغداد سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٢ م) إلى بلدة قريبة تسمى دقوقا حيث سمع الحديث من خطيبها عبد المحسن بن العميد الأبهرى الذى ادعى بالحجة تدليلا على تضلعه فى علوم الحديث . ثم ذهب سبط إلى (إربل) حيث وعظ كثيراً من شباب المسلمين ، ولم يلبث أن غادرها إلى الموصل ، حيث تزاحم الناس عليه فقال : « حصل لى القبول التام ، بحيث إن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس فى الجامع من كثرة الزحام » [١] ، وعبارته هذه تدل على أنه عرف قدر نفسه ، فعمل على أن يسمو بوعظه وإرشاده . ثم استأنف سبط رحلته إلى حران وحلب ودمشق ، وفى جامع دمشق تقابل مع أستاذه تاج الدين الكندى والمؤرخ عماد الدين إبراهيم الحنبلى ، وأقام فى قاسيون إلى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) فاشتال الدماشقة عليه ، وبلغ من وثوقه بنفسه أن قال : « ودعت الناس ، فلم يتخلف بدمشق إلا اليسير ، وامتلأ جامع الجبل بالناس ، فصاحوا علينا من الشبابيك والأبواب ، ووقعت عمامة الكندى » [١] ، وتاب على يدى سبط فى يوم واحد خمسمائة شاب قطعوا شعورهم إمعانا فى الندم على ما ارتكبوه من المعاصى ، وما لبث أن رجع إلى حلب آخر السنة حيث تقابل مع النقاش الشاعر الحلبى .

ثم حج سبط بن الجوزى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧م) ولما عاد إلى دمشق حازت مواعظه كل إعجاب ، ولذا تباهى قائلا : « كانت مجالسى لله ، ولله الحمد ، والله مثل غدوات الجنة » . ولم يلبث أن ذهب سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) إلى نابلس ليرتل بعض آيات القرآن الكريم بصوته الجميل ، فى حضرة الملك المعظم عيسى بن السلطان العادل الأيوبى بجامع نابلس ، حيث تجمع لدى سبط شعور كثيرة من شعور النادمين ، لما رآها المعظم أخذ يبكى بكاء مراً ندما على ذنوبه ، عسى أن يقبل الله توبته ، ويوفقه فى مقاتلة الصليبيين الذين من أجلهم خرج من نابلس . وتجمع لدى سبط شعور كثيرة ، عمل منها شكلا لخيل المجاهدين ، ثم ذهب مع المعظم صوب معاقل الصليبيين ، فهدم المسلمون كثيرا منها ،

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٣٦

(١) نفس المرجع ص ٣٤٥ .

وأسروا بعض الصليبيين ، فلم تحصر بقيتهم على الخروج من عكا حينا من الوقت ، فذهب المسلمون إلى الناصرة حاملين كثيراً من الغنائم . ولم يكد سبط يأخذ قسطاً من الراحة بعد الجهاد حتى ذهب إلى حلب ليصالح بين السلطان العادل وابن أخيه الظاهر غازى ملك حلب الذى أغضب العادل باتخاذه لقب سلطان ونقشه على منشآته [1] .

وما لبث أن رجع سبط إلى دمشق سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣م) ليستأنف وعظه فى جامعها تلبية لرغبة الدماشقة رجالا ونساء ، غير أنه أراد هذه المرة أن يجعل مجالسه أكثر نظاما ، فاختار السبت من كل أسبوع وقتاً لمجلسه ، وحرص على إقامة حاجز بين النساء والرجال كيلا يحدث اختلاط فى أثناء الزحام . ودأب الدماشقة على الحضور مبكرين من يوم الجمعة والمبيت ليلة كل سبت حلقاً يقرءون القرآن بالشموع فرحا بالمجلس ومسابقة إلى الأماكن وأتى كثير منهم ليسمعوا صوته العذب ، ويتسلوا بحركاته وتأنقه وبالأسئلة والأجوبة المتبادلة بينه وبينهم ، ويتذاكروا بعد المجلس ما قيل من النوادر وما أنشد من الأشعار ومن أسلم فى المجلس أو تاب . وتباهى سبط بأحد مجالسه فى هذه السنة ، لأن الملك المعظم حضره كما حضره القضاة والأشراف أو الأعيان والعلماء أمثال : جمال الدين الحصيرى شيخ الحنفية بدمشق ، وتاج الدين الكندى الذى حرص على الحضرة رغم سقوط عمامته فى أحد المجالس السابقة . وأسرف سبط فى مباهاته ، فقال إن مجلسه هذا الذى حضره المعظم : « احتوى على عشرة آلاف وزيادة » [1] . وبلغ من صراحته مع الملك المعظم أن أنكر عليه إلباس القاضى زكى الدين القباء والكلوتة [2] .

غير أن سبطاً سئم الإقامة الطويلة بدمشق ، فارتحل سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) إلى (خلاط) قصبة أرمينية الوسطى ، ليحظى بمقابلة صاحبها الملك الأشرف موسى بن العادل ، ويسمعه آيات القرآن الكريم ، ذلك أن سبطاً سمع بوجود مقرىء صيت فى خلاط اسمه (الضياء بن الزراد) يقرأ القرآن الملك الأشرف بمختلف القراءات ، فأراد سبط أن يظهر تفوقه عليه بصوته الجميل ، لكن الضياء فاز عليه لأنه جمع بين النغمة الرقيقة والقراءة الصحيحة ، فقال الأشرف له : « والله لو خيرت أن أحفظ القرآن كما تحفظ وأدع ملكى لاخترت حفظ القرآن » [3] .

---

(١) Wiet : Une Inscription de Malik Zahir gazi à Latakieh, B.I.F.A.O. 1931, P. 281.

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ٤٩ .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآن الزمان ج ٨ ص ٣٩٧ - ٣٩٨

(٣) أبو شامة : الذيل ص ١٣٥ .

ثم حج سبط بن الجوزى حجة أخرى فى نفس السنة ، وفى هذه المرة أعطاه المعظم ناقته ، كما أعطاه الأشرف سبيلا طمعا فى الثواب . وفى المحرم سنة ٦١٤ ھ (إبريل ١٢١٧ م) زار سبط قبر الخليل بالقدس ، ليجمع بين زيارته وزيارة الرسول عليهما السلام .

وعرف المعظم أن سبطاً واعظ محبوب ، فاختاره سنة ٦١٥ ھ (١٢١٨ م) ليحرض الدماشقة على الجهاد ضد الصليبيين فى دمياط مساعدة للمصريين . ونجح سبط فى إقناعهم أول الأمر ، ثم تقاعدوا خشية أن تضيع أملاكهم إذا تركوها ، رغم تهديد المعظم لهم بأخذ الثمن والخمس من أموالهم كل حسب ثروته . ثم أمر المعظم سبطاً بمقابلته وهو على حصار قيسارية ، فذهب سبط وشهد استيلاء المعظم عليها عنوة من الصليبيين .

غير أن سبطا نجح فى إقناع الملك الأشرف بضرورة الذهاب إلى دمياط لمشاركة المعظم فى مقاتلة الصليبيين ، عند ما وعظه بقوله : (إن المسلمين فى ضائقة ، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت وعفوا آثار مكة والمدينة والشام ، وأنت بلعت ، قم الساعة وارحل)[١] وفعلا تقابل ثلاثتهم فى حمص ، وقرر الأخوان الذهاب إلى دمياط وفضلا هذا على مناوشة الصليبيين فى طرابلس مما يضعف جيوشهما ويضيع وقتهما .

ولم يفقد سبط مكانته بدمشق لما توفى المعظم سنة ٦٢٤ ھ (١٢٢٧م) بل زاد حظوة لدى ابنه الملك الناصر داود ، لا سيما بعد أن تولى سبط التشهير بالسلطان الكامل الأيوبى منذ أن سلم بيت المقدس لفردريك الثانى أمبراطور الألمان والدولة الرومانية المقدسة[١] . وظل بيت سبط على ثوراء مفتوحا للخاصة والعامة سواء ، وواظب على القراءة والتأليف بالإضافة إلى التدريس بالمدرسة الشبلية القريبة من منزله ، إذ حرص شبل الدولة الحسامى أحد مماليك ست الشام بنت أيوب على بناء هذه المدرسة للأحناف ولذا اختار سبطا الواعظ الحنفى مدرسا بها[٢] .

ثم زار سبط بن الجوزى القاهرة سنة ٦٤١ ھ(١٢٤٣م) وتوجه منها إلى الإسكندرية حيث قال : « فوجدتها معمورة بالعلماء مغمورة بالأولياء كالشيخ محمد القبارى والشاطبى » ولم يلبث سبط أن رجع إلى دمشق وهناك أحس بالشيخوخة وكان عمره وقتئذ ستين سنة ، فغادر سكنه على ثوراء واتخذ بيتاً آخر على جبل قاسيون حيث شيد قبرا قبالة بيته ، وترك المدرسة الشبلية وأخذ

---

(١) سبط بن الجوزى : نفس المرجع ص ٤٠٦ — ٤٠٩ أبو شامة : الذيل ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(١) ابن ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٨٠ .

(٢) أبو شامة : الذيل ص ١٤٨ و ١٩٥ .

الأمل

للسيدة نعمت عامر

يا نفس لا تبكى على شىء مضى
يا نفس أحرى أن تلوذى بالرضا
وتبصرى .. كى لا تكونى غرة
لملاجك السلوى ، وما فات انقضى

* * *

الكون حولك والطبيعة كلها	منقوشة بيــدى إله قادر
والورد يبسم والخمائل قد بدت	فواحــة بشذى عبير ساحر
والطير يشدو بالغناء مصفقاً	بجوانح ولهى وحب سافر
والموج يجرى فى البحار معانقاً	لنسائم مرت مرور العابر
والبدر فى كبد السماء ضياؤه	يهدى السبيل مسامراً للساهر
والشمس من فوق السحاب تمدنا	بخيوط عسجدها ودفء باهر

نعمت عامر

(بقية الصفحة السابقة)

يعلم فى مدرسة حنفية أخرى عندسفح الجبل واقتصد فى هندامه تزهداً واشترى حماراً دأب على ركوبه طالعاً إلى منزله بالجبل ونازلا عليه إلى المدرسة (١) .

وكتاب سبط بن الجوزى « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان هو تاريخ الدول الإسلامية حتى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) التى توفى فيها والجزء الثامن من هذا الكتاب يشتمل على أخبار السنوات الواقعة بين ٤٩٥ - ٦٥٤ هـ (١١٠١ — ١٢٥٧ م) وهى السنوات التى شاهد سبط كثيراً من حوادثها بنفسه ، واهتم فى كتابه هذا بتراجم أئمة الدين والمدرسين والوعاظ أكثر من اهتمامه بتاريخ الملوك والحكام لجاء كتابه خاليا من التمحل ومصانعة المعاصرين (٢)

عباس حلمى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ص ٣٤٧ .

(٢) سبط إبن الجوزى مرآة الزمان ج ٨ مقدمة Jewett, P.VIII

عبقريات العقاد الإسلامية

للدكتورة نعمات احمد فؤاد

عبقريات العقاد الإسلامية أسلوب فى الترجمة ومنهج فى الدراسة ، ومستوى فى التصوير ، وتفرد فى التناول قلما تخطئه عين منصفة .

والعقاد فى عبقرياته يبث قيما ينشدها الدارس والقارئ بعامة والمسلم بخاصة ، ولا سيما إذا كان طريق الوصول إليها صعبا والريادة فيه عسيرة . وهنا تتصدى للأمر قوة المنطق فى العقاد ، وحركة الذهن عنده وهى قوية قادرة تستمد من الذهن الثاقب قدرة المناقشة التى تخدم المقابلة ، والمضاهاة ، والعلم ؛ بل تخدم الزمن نفسه بما تعين عليه أحــداثه قبل ظهور السيرة وبعدها .

وتمثل قوة المنطق فيه وقوة التفلسف التاريخى فى تناوله موضوع تقديم أبى بكر فى الاستخلاف .

ومن خصائص العقاد تقديم الأفعال اليومية للوصول إلى دلالات كبيرة على الشخصية ، وهذا هو الجديد الذى فعله العقاد ، فالحوادث والتصرفات وقعت من أصحابها وعرفت عنهم مروية أو مدونة ولكنها فى كلتا الحالين صماء إلا عن المعنى الظاهر من مظاهر الألفاظ والحروف حتى إذا استشفها العقاد ونفذ إلى أغوارها بدت خلقا جديدا بالمعنى المستبطن والعبرة المستفادة والدلالة الكامنة . وبمثل هذه الإضافات تغدو للتاريخ قيمة حضارية لأنها قيمة إنسانية .

والعقاد فى كتابه العبقريات يجمع بين فلسفتين ممتازتين فى تدوين التاريخ :

هل البطل يصنع التاريخ أم التاريخ هو الذى يصنع البطل ؟؟

ومنهج البحث عن الفتات الإنسانى انتهجه (أندريه موروا) و (ستيفان زفايج) و (لودفيج) . كما أن منهج تفسير الأحداث التاريخية تفسيرا عقليا وكشف القوانين المتحكمة فى سير الحوادث ومحاولة إيجاد ترابط بينها أخذ به المفكر الألمانى (اشبنلجر) ، ومن المعاصرين الأستاذان (أرنولد توينبى) و (بيتريم سوركين)[1] غــير أن العقاد اختلف عنهم فى عدم التزام الخط التاريخى حين زاد عليهم التفسير النفسى والخلق

---

(١) اقرأ بحث (توينبى وفلسفة التاريخ) للأستاذ على أدهم ـ مجلة الكتاب العربى ـ العدد الحادى والعشرون الصادر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٦٦ .

(والوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لا يزال اليوم وبعد اليوم صعبا وجديدا إلى أمد بعيد) . ص ١٣٦

والتفسير النفسى يتمثل فى تناوله الشخصية من جميع جوانبها النفسية وعرض هذا على ما تواضعنا عليه من صفات التفوق الإنسانى.

فيقابل العقاد شخصيته المختارة بالنموذج الإنسانى الذى رسمه الإنسان لنفسه . ووجه القوة عند العقاد فى قوة الصفة عند (البطل) ذلك الوجه الذى يعطيها خصيصة أقوى من الامتياز التقليدى المقترن بها أى السمة التى تميز موصوفها بين من يتصف بها من الناس الممتازين (بالإنصاف) فعمر مثلا كان قويا لا كواحد من أقوياء ، ولكنه كان قويا من طراز متميز القوة إذ كان قويا (لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قويا ليطغى بقوته على الضعفاء ص) ٦٥

وقل مثل هذا فى عديد الصفات التى اتصف بها عمر حتى لتعد دراسته أو بالذات دراسة العقاد له (غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة ... ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى) ص ٥٦ (عبقرية عمر) وما بالقليل هذا ولا بالسهل المنال حتى حين ينتهى إلى مفتاح شخصية عمر (بطبيعة الجندى) لا يقف ولا يتوقف بل يعطى هذه الصفة سمة خاصة (عمرية) تبدو معها بالتفوق ، بعيدة عن طبيعة الجندى هذه وهى منها جد قريب .

فأهم الخصائص التى تتجمع لطبيعة الجندى فى صفتها المثلى إنما تجمعت لها بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش ، ولكنها اتفقت لعمر بالفطرة القوية الموهوبة حتى لا تحتاج - من أصالتها فيه - الى اكتسابها بطول المرانة وادمان التعود كالجنود وهذا وجه التفوق الذى يرتفع بصاحبه وحده إلى أوج العبقرية ولو اشترك معه آخرون فى صفة أو صفات .

وهنا نلمح ظاهرة الاستقصاء عند العقاد ظاهرة (التفصيص) ،فحين يقول: إن عمر مهيب لا يقف عند الهيبة فحسب ولكنه يمضى مع المعنى إلى أقصاه (فهى هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعا يهول من يراه ، ولايذهب الخوف منه الا الثقة بعدله وتقواه .) ص ١٨ عبقرية عمر .

وهو إذا وصل الى حكم الشخص أو عليه يمضى يفصله أو يفصصه كأنه قاض يفرع الحيثيات ثم يزيد هو فيجمع إلى الظاهر ... الباطن حتى ليبدو الأمر استقصاء أفقيا رأسيا معا . فطبيعة الجندى فى عمر يلتقط لها الفتات الإنسانى فى أقواله وأعماله بما يؤيدها بل يقنع بها الآخرين إقناعا . فحرصه على النظام فى صفوف الصلاة وحلقات المسجد

وتجمعات السوق ومجالس الحكم حرصا يأخذ به نفسه قبل الآخرين فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم (ذلك هو السمت العسكرى بالأسوة والتعليم .) ص ٦١

ثم يرتقى فى عملية التشريح من جزئيات الشخصية إلى التقسيم الأعم الأكمل كما يسميه فيجمع التصرفات والأقوال فى خطوط كبيرة تحدد معالم الشخصية، وتؤكد خصائصها، وقد تحدد هذه الخطوط من قوتها وعمقها بفعل الحفر على الورق الذى يمارسه العقاد فى اقتدار، معالم عصر وخصائص حكم بعينه أو دولة بذاتها فلفتات عمر فى بيئته القريبة المحيطة انبسطت فغدت فعالها على مستوى الدولة إذ (دون الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاه الموكلون بالتجنيد فى العالم الحديث .) ص ٦٢

وهكذا تطرد نظرات العقاد الخاصة فى السيرة معمقة كأنها أحكام حروفها محفورة فالعدل فى عمر حاسة كحواس البدن عملها أن تسمو به على نفسه ، وكانت نفسه أسمى من عامة الأبطال.

ومن عباراته الجامعة التى تغنيك عن أسفار ولو حوت مئات الصفحات قوله فى إسلام عمر تعليقاً على واقعة أبى مريم السلولى قاتل أخيه : (حسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد فى دينه ، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق) ص ٩٥ .

هذه قيمة دينية وقيمة إنسانية معاً . فليس الدين بالطقوس والعبادات ولو صحت وصدق فيها صاحبها ، ولكنه ارتفاع على الضعف الإنسانى لا سيما الغرزى منه ، بفعل الدين .

وليس بحق يستأهل التنويه من العقاد إن لم يشمل الأولياء والأعداء على سواء (فإن الحق الذى يقبمه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية . وإنما يصبح جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه .) ص ٩٠ .

وعمر كان بلا ريب أشد المسلمين فى إسلامه وعمر كان أشد المسلمين رعاية لعهد أهل الكتاب وهى قيمة إسلامية إبرازها أجدى على التاريخ الإسلامى من القصص الشائق والرواية المسهبة .

كان العقاد دقيقا دقة عمر حين أوصى قاضيه أن يؤاسى بين الناس فى مجلسه ووجهه ولحظه وطرفه وكم فى اللحظ من معان تدرك ولا تحس فتسبق الأحكام قبل صدورها بما أرادها عليه القضاة .

والعقاد معنى بالمعانى فهى وحدها المقياس والتوقيت الصحيح وإن سبقت التاريخ الزمنى لها أو سبقها فعمر ثانى الخلفاء. ولكنه فى ميزان

العقاد مؤسس الدولة الإسلامية (إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسسا لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسسا لها يوم بسط يده إلى ابى بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها ... وكان مؤسسا لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم ، وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم .) ص ٩٦ عبقرية عمر .

في البداوة البادية وضع عمر حجر الأساس لتاريخ وحضارة استطالا آمادا بعيدة عن البداية الصغيرة التي استهلا بها ، وإن كانت أصيلة بقدر ما رزقه عمر من سليقة التأسيس . تلك السليقة التي هدته أن ينشئ حكومة ، وأن يجعل الأمر فيها شورى والقضاء تقاليد وأصولا .

وحين تكون الحادثة أو التصرف غريباً بعيد التصديق أو مظنة للنفي لا يصر عليه بدفاع أو تسويغ ، لأنه ليس همه انحـــال الشخصية خوارق الأعمال ثقة بها وبغناها الذاتي عن إضافات لا تزيدها حين يكشفها المسلم لهابه والثابت الصحيح مما صدر عنها بلا افتعال نسبة أو تفسير . فقصة سارية والجبل يكتفي منها العقاد بدلالة لها أشياء في تاريخ عمر تقوم وحدها دليلا على المعنى المراد فهي في السيرة تعزز النظائر ثم لا تزيد .

إن البطولة في مفهوم العقاد : إنسانية ممتازة والبطل إنسان ممتاز وعبقري موهوب حتى صفاء الرؤية أو النظر البعيد (تلك المزية الإنسانية النادرة) لا يقفها العقاد على التدين والعمق فيه بل صرح بعقلية رجل العلم بأن من الناس من مارسوا (التلباثي) وسجلوا مشاهداته (وهم ملحدون لا يؤمنون بدين) .

كل شيء عند العقاد مقنن وبحساب فهو لا يخلع على البطل الصفات الحسنى غمرا بلا ضابط ، ولكنه يتقصى الأسباب والعوامل ويكشف عن مكنونها ، فقوة العدل في عمر شيء طبيعي لأنها قوة اجتمعت له أسبابها حين تعددت هذه الأسباب من وراثه حيث مارست أسرته القضاء في الجاهلية واستشعرت رضا العدل ، وذاقت الظلم من أقربائها في الوقت نفسه حيث تكثروا عليها بالعدد ، ومن عقيدة دان بها تأمر بالعدل وتتشدد فيه ، ومن تكوين ، ومن عبر الحوادث ، وهكذا تعددت الأسباب وكان تعددها (هو العاصم الذي حمى هذه الصفة أن تتناقض في آثارها ص ٦١ عبقرية عمر) وأن تهتز فيه حتى ليسوى عمر في عطاء بيت المال بين المولود اللقيط وبين المولود من زوجين وهي رحمة وعدل قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته

فى نفوس أناس ينفرون ، فلا يرحمون ولا يعدلون .

وحين يجمع إلى عدل عمر ورحمته الغيرة على الحق والحرمات والذكاء وألمعية الذهن لا يقول : إن عمر رضى الله عنه خلق (بذهن عالم بحاثة منقطع للكشف والتنقيب ، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر فى مناحى الظنون والفروض ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين ، فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه) ص ٤٠ عبقرية عمر .

ومن اقتدار العقاد ابتداؤه بالصفة وانتهاؤه بعكسها عما قد يبدو تناقضا وهو تكامل ، فتصرفات وأقوال التواضع العمرى ليس تصاغرا يكشف الصغر (إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد) . ص ١٤٠ عبقرية عمر .

ويمضى العقاد فى مقابلاته المعمقة الشيقة فيصف ما كان عليه الحال بين النبى صلى الله عليه وسلم وعمر فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكثر من عمر .

ولم يكن أحد مستقلا برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر ، فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح .

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبى عليه الصلاة والسلام برأى يراه ، ولو كان ذلك الرأى من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال) ص ١٤٠ .

الإنسان فى البطل :

وينتصر العقاد لروعة البطولة الإنسانية فى البطل بقدر ما فيه هو من انتخاب الامتياز فعمر العبقرى إنسان فيه فن وحب للجمال . فى الكتاب عمر المنوه بهموم الدولة ، عمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ، فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل ويكتب إلى الأمصار أن : (علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر) ص ١٩٥ .

فى كتاب العقاد عمر إنسان عطوف حتى لينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره ، ويتمدح أمام عمر بأن له عشرة أولاد ماقبل أحدا منهم ولا أدناه) فيجيبه عمر ، ولما يزل معه الصبى الصغير الذى كان يجلسه فى حجره يلاطفه ويقبله : (وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك إنما يرحم الله من عباده الرحماء) ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول : أنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

عمر فى كتاب العقاد بطل يروع ويعرف روعة البطولة فى غيره (فعمر كان يحب محمدا حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ،

وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس) ص ١٣٧ .

ومن قوة الشخصية فيه قوة الكلمة الجامعة ومن هذا قوله لقاض يوصيه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا : (إنى أسألك أن أفتى بعلم وأن أقضى بحلم وأسألك العدل فى الغضب والرضا) . ص ٧١ .

ومفتاح منهجه فى رسم الشخصية (كل صفة تتمة لجميع الصفات كما يقول : وكأنما اتفقت لتصبح كل صفة أو (كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغه كما لها وتحقيق غايتها) فلا العدل ينقصه جهل الطبيعة البشرية وضعفها الفطرى ولا الرحمة يغلبها الهوى فلا تدين بالمساواة إنما هى ميزات تهديها الفطنة ويعصمها الإيمان برقابة ساهرة فلا تضل ولا تغوى .

ولعل هذا يفسر وصفه لعمر أو لصفاته بـ (التركيبة) ولم يقل : التركيب لأنها تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحـــد مفهوم ، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط .

وهو فى رسم العبقرية لا يتكثر بالأخبار والروايات ولو أجمعت على صفة تعزز رأيه أو تؤيد اتجاهه بل هو يفترض الشك فى بعضها ويبيح إسقاط الكثير منها ثقة منه بإنسانية الشخصية التى اختارها وامتياز هذه الإنسانية فيها حتى ليبقى منها بعد الشك فى الأخبار والإسقاط ما يدل على خصائصها فى مجال العبقرية الخاصة بها وسيبقى : (ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار) ص ٥٥ .

وعبقريات العقاد الإسلامية فيها قيم بمثلها تقيم الكتابة والكتاب ، فالعقاد فى العبقريات الإسلامية يثبت الإيمان الحائر لا بتحلية الوقائع التاريخية أو التزويق الأدبى ولكن بمناقشة المسائل الشائكة التى يجهر بها العدو ويخافت الصديق .

ففى عبقرية محمد ناقش دعوى انتشار الإسلام بالسيف وإذ سلط على الاتهام عقله ومنطقه تهافت الباطل إذ الإسلام كما يقول العقاد حين حارب بجيوش إنما كان أصحابه يحاربون بوصفهم دولة لا بوصفهم مسلمين وبوصفه نظاما لا بوصفه ديناً : « هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها » عبقرية محمد ص ٥٨ .

ويعزز هذا ولا ينفيه فرض الجزية التى جعلها الإسلام ضريبة حرية العقيدة يتحلل بها من الالتزام من لا يريد اعتناقه ، وحتى هذه الجزية رفعها عمر عن أهل الكتاب للسن والحاجة .

و (الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وســـوغته جميع الحقوق ، وإن الذين خاطبهم بالسيف قد

خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك ، إلا أن يحال بينها وبين اقتضائه أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها) ص ٦٠ .

كما ناقش بمثل هذه الفحولة مسألة زيجات النبي وخاصة زواجه من زينب بنت جحش .

أما في عبقرية عمر فقد ناقش ثلاث مسائل شائكة في سيرة عمر :

١ — نهيه عن استخدام بعض الذميين .

٢ — منعهم أن يتشبهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين .

٣ — إخلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في إبان الفتوح .

فاحتكم إلى منطق العقل وإلى مقاييس السياسة والحكم في الدولة القديمة أي بمعناها القديم ، والدولة الحديثة .

ومن الحقائق التي جلاها كتاب عمر حقيقة : موقف الإسلام من الفتوح هل في الأمر شهوة السيطرة والتهجج بالحكم ؟ أم هو تأمين الجزيرة مهد الإسلام من الدول العظمى التي تتهددها وتتحيفها وهي تتاخمها ؟ وهي نقطة يغني فيها حديث العلم والواقع التاريخي عن دفاع طويل عن اقتران الإسلام في رأى البعض بالسيف ويزيد في قيمة هذا العمل أنه لم يشر إلى موضوع الانتشار بالسيف من قريب أو بعيد في هذا الموضوع من الكتاب .

كما ناقش العقاد في (عبقرية عمر) حريق مكتبة الإسكندرية وما إلى هذا من أمهات المسائل .

كما ناقش من متعلقات السيرة :

عزل خالد .

وحادثة الوأد في الجاهلية . التي (ما نحسبها إلا إحدى جنايات الإغراب على من خلقوا وفي سيرتهم مثال للإغراب والإعجاب) .

ص ٢١٤ عبقرية عمر . (يتبع)

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

العلم

- أفضل الصدقة أن يعلم المرء علماً ثم يعلمه أخاه
- العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس
- ما جمع شيء أفضل من علم إلى حلم .

تحريف وتخريف

للأستاذ على الخطيب

فى السنوات الأخيرة ، وابتداء من عام ١٩٦٣ م ، توالى ظهور كتب مسيحية تتناول العقيدة الأرثوذكسية بالشرح والتحليل . نذكر منها « التثليث والتوحيد » و « المسيح ابن الله » للقمص زكريا بطرس وصدرا بمدينة طنطا ، و « الحق » للقمص باسيليوس إسحاق وصدر بالإسكندرية .

والذى يستدعى الانتباه فى هذه الكتب هو اتخاذها « القرآن الكريم » مرجعاً لتقرير العقيدة الأرثوذكسية ، والمؤلم — هنا — أن كلا الكاتبين يعلمان يقينا ، وقد قرآ القرآن الكريم ، أنه لا يشهد لأى طائفة مسيحية ، وآياته فى معتقداتها واضحة بلا لبس أو غموض لذلك لم يكن عجيباً أن يبيت المؤلفان على احتيال بالقرآن ، ثم يسفران عن كيد ، ثم ينتهيان بتكذيب لهذا الكتاب الأمين .

فالقمص باسيليوس يتعمد تفسيراً خاطئا لآية كريمة وردت فى شأن إبراهيم عليه السلام ضمن عدة آيات أخر وهى قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » ٢٧ العنكبوت ، فيدعى أن الضمير فى « ذريته » بالذات لإسحاق ، وقبل ذلك نحو ثمانية ضمائر مفردة كلها فى إبراهيم... منها على سبيل المثال : فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ، ومنها فآمن له لوط ومنها ما فى الآية ، والغرض من فعل القمص واضح ، فهو يريد : حصر النبوة والكتاب فى ذرية إسحاق ، وليس منها قطعاً محمد عليه الصلاة والسلام ، وبذلك يسقط النبوة والكتاب عنه لأنه من نسل إسماعيل عليه السلام هذا هو أسلوب القمص بشأن القرآن الذى اعتمده مصدرا لتقرير العقيدة الأرثوذكسية ، فما هذا الخلط بين التأييد بالقرآن تارة ثم التكذيب له أخرى ! ؟ وواضح هنا أن الضمير لو كان لإسحاق لاقتضى قرينة قطعاً تصرف القارئ والسامع إليه حتى لا يختلط المعنى فى ذهنه ، لا سيما وأن استيعابه للمعانى مرتبط بإبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا من جهة البيان العربى ، على أن فى القرآن غنى . ففيه يقول تعالى : « أم يحسدون

الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة : ٥٤ النساء وقال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » ٢٦ الحديد ، وإسماعيل عليه الصلاة والسلام من ذرية إبراهيم .

والحقيقة المؤكدة أنه لم يفعل ما فعل هو أو زميله لهداية رعيتهما ، فلا شك أن لهما فى ذلك وسائل يريانها معينة وهادفة ، كذلك لم يحدث أن طرحت قضايا الإيمان الأرثوذكسية على بساط البحث فى أى من البلدتين حتى يكون الأمر مجال دفاع ، ومجال ذياد ، وثمة أمر ثالث مهم هو أنه ليس مطلوبا منهما (كفنسيا) تقرير الأرثوذكسية بالقرآن ، كما أنهما — وقد قرآ القرآن الكريم — يعلمان يقينا مدى وصاياه للمسلمين من التزام الحسنى مع أهل الكتاب : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ١٢٥ النحل « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » ١٠٨ الأنعام . فما بقى بعد ذلك إلا سبب واحد أسفرت عنه تلك الكتب هو : الكيد للإسلام ، والنيل من نبيه كما سنتبين بعد ، وإلى هنا ، وعملا بقوله تعالى: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم » ٤٦ العنكبوت نبين مدى ظلم القمصين ، وحتى نلتزم « الموضوعية العلمية » فى كتابتنا لنبين — فى جلاء — أن القرآن الكريم يجب ألا يقحم فى ميدان تقرير العقائد المسيحية نضع تحت نظر القارئ قانون الإيمان الذى أقره المجمع النيقاوى عام ٣٢٥ م ... حتى يرى ... هل يمكن أن يكون القرآن صاحب تقرير فى هذا المجال ؟!

قانون الإيمان :

١ — أومن بإله واحد . آب ضابط الكل . خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى .

٢ — وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو الآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء .

٣ — الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السموات ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس

٤ — وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى ، وتألم وقبر .

٥ — وقام فى اليوم الثالث على ما فى الكتب .

٦ — وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الآب .

٧ — وأيضا يأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات . الذى لا فناء لملكه .

٨ — وبالروح القدس الرب المحيي ، المنبثق من الآب ، المسجود له والممجد مع الآب والابن ، الناطق فى الأنبياء .

٩ — وبكنيسة واحدة مقدسة ، جامعة رسولية .

١٠ — وأعترف بمعمودية واحـــدة لمغفرة الخطايا .

١١ — وأترجى قيامة الموتى .

١٢ — والحياة فى الدهر الآتى آمين [١].

هذا هو نص القانون الأرثوذكسى يخالفه النص الكاثوليكى فى المادة الرابعة منه فنصها « وتألم ومات وقبر » وفى المادة السادسة : « وجلس عن يمين الله الآب » وفى الثامنة « المنبثق من الآب والابن [٢] » ولذلك يعتبر الأرثوذكس الكاثوليك خارجين على المسيحية

وقد عقد أحد بطاركة القسطنطينية مجمعا فى القرن السادس عشر « قرر فيه أن البابا وسائر الكاثوليك وثنيون [٣] » ، ورد الكاثوليك بنفس الصاع فقرروا أنه « لا وحدة إيمان عند الأرثوذكس [٤] » ، ونصيب البروتستانت عند الكاثوليك ليس بأفضل منه عند الأرثوذكس .

فأى شئ إذن يمكن أن يقرره القرآن بين هؤلاء ؟ وأين هى المسيحية بينهم ! ؟ وأى شئ يشهد له فى القانون أبتداء من النص الثانى حتى نهاية العاشر ؟ وهل يمكن أن يعتبر « الأقانيم » صفات ؟ كيف . . ؟ وقد أسند لها أفعال مثل : وجلس عن يمين الله الآب .

ومن هنا . كان الشطط فى المحاولة كما نتبينها بما يأتى :

(ا) التشويه فى النص بحذف ما يتمم المراد من الآية :

فعل ذلك كلا القمصين فبطرس فى كتابه التثليث والتوحيد وضع قول الله تبارك وتعالى : « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر » الآية ، بعد أن حذف (من) لتظهر الآية فى ثوب المبتدأ فى (أهل الكتاب) والخبر فيما بعده ، ودخل فى روعه أنه تمكن بذلك من مقصوده ، ولو قد علم أن تعبير « أهل الكتاب » فى القرآن شامل اليهود والنصارى لآثر بقينا عدم الاستشهاد بالآية ، فهو لا يرضى لليهود أن يكونوا مؤمنين ، ولا هم بدورهم يفهمون فيه إيمانا ،

(١) ص ١٢ التعليم المسيحى الأرثوذكسى : أثناطيوس فرزلى مطبعة أناتولى . الإسكندرية

(٢) انظر ص١٠٤٩ من « شرح التعليم المسيحى للقس الكاثوليكى يوسف لويس مطبعة البرتيرى .

(٣) (٤) انظر ص ٩٨ ، ٩٩ من كتاب : « سلاحك أيها المسيحى » لنعمة الله الغندارى . جونيه . لبنان .

وإذا كان هو يناقض بذلك نفسه ، فالقرآن الكريم لا تناقض فيه ، والقمص يعلم يقينا تقرير القرآن فى التوراة والإنجيل ، ففيها حذف وتغيير وتبديل ، فكيف بعد ذلك يطلق القرآن لفظ «آيات» على ما أنكره واعتبره محرفا ، والأمر ليس عصى الفهم . . فالمراد فى الآية : من آمن من أهل الكتاب وعكف على تلاوة القرآن .

وكذلك فعل باسيليوس فقرأ قوله تعالى : «يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا» ١٧١ النساء فأخذ من الآية - ليقرر التثليث كما توهم - هذا الجزء : «إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» ولما كان ما يلى ذلك مباشرة ضد ما قرره آثر الاستغناء عنه ، على أن الله سبحانه قد كشف للمسلمين عن هذا المخطط التبشيري فكتب راعى كنيسة باقور : إبراهيم خليل فيلبس بعد إسلامه طريقة هذا التبشير واعتماده على هذه الآية بالذات للتقرير - بعد السكوت عن باقيها - ببسطاء المسلمين لتقرير هذه العقيدة [1] ... فأما عن الكلمة فى الآية فهى قوله تعالى للشيء : كن فيكون ، وأما الروح ، فهى القوة التى يرسلها الله فى أى مخلوق لتدب فيه الحياة ، وهى فى عيسى عليه السلام كما هى فى غيره سواء بسواء .

ويلحق بهذا التشويه التغيير المتعمد فى التفسير المراد من الآى ليستخرج بذلك ما يريد ، فنظرية الفداء فى مذهبه تقول : بإنسان واحد - هو آدم عليه الصلاة والسلام - دخلت الخطيئة إلى العالم ، وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس حتى يأتى الفادى ، أو المخلص - وهو هنا عيسى عليه الصلاة والسلام فى مقصود المذهب - فيستقبل هو الآلام ويرفع الخطيئة ، هذه خلاصة النظرية واقتضى الأمر - الذى بات القمص عليه - أن يفسر قول الله تعالى : «فمن تبع هداى» الآية بجعل معنى (هداى) الهادى أو الفادى يريد القمص (عيسى) عليه الصلاة والسلام . ويريد سبحانه (كتبه ورسله) .

وموقف القرآن فى ذلك محدد فى أمرين :

١ - أن الله سبحانه تاب على آدم ... والنص واضح : فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

٢ - كل نفس بما كسبت رهينة ...

(١) انظر . المستغربون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى لإبراهيم خليل أحمد . مكتبة الوعى الكبرى .

فمن اجترم جرما فعليه وحده عقوبته ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ويعنى ذلك فى وضوح أن البشر لم يرثوا خطيئة ، ولا تداولتها أعقابهم. وضلال البشر بعد آدم حدث لأسباب لا تمت بصلة لآدم - تماما كما يحدث من ضلال للبشر فى أيامنا - وبهذه المناسبة نسأل القـ.ص : إذا كان عيسى صلب ، وفدى البشر ، واحتمل الألم ، ورفع الخطيئة فلماذا الغفران ؟ وأى شيء تغفرون ؟ وإذا كانت هناك خطيئة . يرفعها الصلب أليس يجب أن تكون قدوة حسنة فتصلب نفسك وترفع خطيئة جيل وتفسح للناس الطريق إلى الجنة ... ! ؟ ! ؟ ...

وبعد التشويه فى المعنى المقصود يأتى بتشويه آخر فيصطنع «آية» من آيتين ويخرجهما هكذا فى كتابه الذى أسماه «الحق» : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، والجزء الأول إلى واحدة من الآية رقم ٣ من سورة النساء ، والأخير من الآية رقم ١٢٩ النساء ثم يدعى أن المسلمين أخذوا عن المسيحية نظام الزوجة الواحدة ص ٢١ ، ٢٢ من الكتاب .

وهذا موضوع لم يخطط له فى كتابه ، ولا هو من رصيد هذا الكتاب ، وفضلا عما فى عمله من (خيانة) للنص ففيه إنكار لوحى القرآن ، ومع ذلك نسأله فى بساطة : أن يتفضل فيرشدنا - نحن المسلمين - إلى موضع «الأخذ» من أى الأناجيل المتداولة ؟ ويعود بأحكام الولى والصداق والشهود والبكر والثيب ... الخ . إلى مواطنها من الأناجيل ، وله من الزمن حتى قيام الساعة ، فإنا على رأى تولستوى (ليس فى الإنجيل تعاليم بشأن الزواج بل فيه ما ينافيه[1]) ، (لم يوجد زواج مسيحى ولا يمكن أن يوجد[2]) .

(ب) الدعاوى الكاذبة :

حفلت هذه الكتب بمفتريات مقصودة ضد الإســلام منها على سبيل المثال ما جاء فى كتاب باسيليوس باختصار :

البسملة دالة على الآب والابن والروح القدس

القسم كان ثلاثا ليدل على الآب والابن والروح القدس .

الطلاق كان ثلاثا ليدل على الآب والابن والروح القدس .

ولما كانت مراجعنا بريئة من هذا الزيف وكانت أناجيله أيضا بريئة من هذا الخلط لم يقدم لنا شيئاً عن عبقرية هذا الاكتشاف فأما عن معنى الرحمن والرحيم فى «البسملة» فرجعة إلى أى قاموس عربى مختصر كفيلة بتوضيح المراد ، وأما القسم فإنه ينعقد بالمرة كما ينعقد بالثلاث ، وأما الطلاق فكان ثلاثا مرة بعد مرة بعد مرة حتى يتيح فرصة قرار قاطع لكلا الزوجين .

---

(١) (٢) ص ٣٤١ ، ٣٤٥ الآفات الاجتماعية وعلاجها كونت ليون تولستوى طبعة أولى .

ثم نحن - المسلمين - لسنا فى حاجة إلى ثلاثيات تؤكد لنا عقيدة الأب والابن والروح القدس لغنانا عنها بتوحيد الله ذاتاً وصفاتاً وعدم إشراكنا معه أحداً من خلقه ، ويقيننا بانحراف أهـــل الحلول وأولى بالثلاثيات الأرثوذكسية ، وما دام ذلك « بيانا » يراه (باهراً) فلم خلت الأناجيل منه ؟ وهو يراه أمراً ألصق بحيـــاة الأرثوذكسى دينيا واجتماعيا .

ويشبه هـذا الخلط ما فعله زميله بطرس فى كتابه (المسيح ابن الله) فقد أبى إلا أن ينقل عن (الملل والنحل) أو (الله) للأستاذ العقاد - وهى كتب تعنى ببسط العقائد المختلفة من وجهة نظر أهلها - نصوصا تصور على أنها آراء شخصية للكاتبين انظر ص ١٠ ، ١٢ و ١٤ ، ١٨ . . الخ من الكتاب ، فعل ذلك خديعة بالمسلمين ، ليصور لهم أن أئمتهم فى الفكر والدين يؤمنون بالتثليث . وجدير بالذكر أن هذه الكتب بالذات تحوى ردودا ضد التثليث ، وبدهى أن يحذفها بطرس .

(ح) الترهـات :

وأولاها بالملاحظـة رأى باسيليوس فى سلام المسلم فى نهاية صلاته ، رأى ذلك رسما للصليب ، ولعله يريد بهذه الدعوى أن يلقى فى روع الساذج أن الأرثوذكسية أو أختها دين فطرى ، وأنها لذلك ذات رمز يسيطر على الإنسان مهما كان دينه فينطبع قسراً عنه فى تصرفاته . . فإذا كان الأمر كذلك نقول: ما كان فطرة كان العلم به ضرورة عقلية بدهية ؛ فالواحد نصف الاثنين وهى ضعفه أمر قطرى لا يختلف فيه اثنان ، فلم ترى المذاهب المسيحية المختلفة أن تعليم التثليث فوق إدراك العقل ، كتب ذلك باسيليوس ، كما كتب ذلك العندارى[1] ، والأخير كاثوليكى ، ثم هل يعلم سيادته أن لفظ (السلام عليكم) هو الواجب للخروج من الصلاة .

وينبغى أن أنبه هنا إلى ترهات باسيليوس حتى عن المسيحية نفسها فهو خلو تماما عن معرفة تاريخها وبخاصة فى القرون الثلاثة الأول فهو لا يعلم شيئاً عن المسيحيين الموحدين لكن حسابه فى ذلك ليس علينا . أما عن جهله بالإسلام فقد كان سافراً إلى أكثر من موضع وحسبنا فى ذلك ، يقينه ، بأن الحجر الأسود هو الكعبة نفسها وتوكيده له أنه : ليست الكعبة أو الحجر الأسود « أيقونة » ! ومن سجد للكعبة مقدساً ذاتها أو قبل الحجر عابداً له فليس من الإسلام فى شىء : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

(د) النيل من الإسلام ورسوله وكتابه :

لقد أشرت فى مقدمة هذا المقال إلى طريقة

---

(١) ص ٢٧ من كتاب : سلاحك . . . الخ .

الاستشهاد بالقرآن لتقرير التثليث ثم الرجوع إلى التكذيب له ، وقد كان هـــذا كافيا فى تصوير الموقف جملة . . فلنر إلى أى مدى سار باسيليوس متناسياً كل ما يجب مراعاته من احترام للأديان وتقدير إحساس معتنقيها وقسياته - فى ذلك - حتى حق الوطن . فما ورد صريحا من تكذيبه للقرآن دعواه أن :

« القرآن يثبت صلب المسيح » ، وهو يعلم قوله تعالى : وما قتلوه وما صلبوه ١٥٧ النساء وقوله « القرآن يؤيد التثليث وينفى التحريف » وسورة المائدة كفيلة بالرد ، بل لقد كتب باسيليوس نفسه ص ٦٢ من كتابه يقول باختصار : « إن النسخ الأصلية للتوراة والإنجيل قد فقدت » ثم يلتمس لذلك حكمة حيث يقول : « والذى يحار له الإنسان هو لماذا لا يحفظها القدير من التلاشى ؟ ولكن فقدها كان لحكمة عالية لأنه لو بقيت النسخ الأصلية لعبدها البشر » ، ولعل هذا كاف القـــول « من باسيليوس إلى باسليوس » فعليه أن يبتعد عن القرآن .

ومما كتبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى اختصار أنه كان قبل الإسلام وثنياً وأنه أراد أن يرضى كل الطوائف . فأرضى الوثنيين بتقبيل الحجر الأسود - الأمر الذى أغضب أبا بكر (هكذا) وأرضى المسيحيين فاعترف بالإنجيل ، واليهود إذ قال عنهم : يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ، وأرضى العرب فقال لهم : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأخذ من اليهود والمسيحيين الكثير من الطقوس فى عباداتهم ... إلخ

وإلى هنا نجد الكتاب نسخة مكررة من دعاوى الطاعنين فى الإسلام مشرقا ومغربا وتتبين هدف الكتاب فى وضوح يستتر وراء ذلك كله دعوة واحدة هى : أن الإسلام « صناعة محمد » ، ومثل هذه الدعوى تدخل فى « المنطق » باب المكابرة ، واستمساك المجادل برأيه ، دون التماس وجه الحق . . ! إن الإسلام دين وحدانية لله لا شرك فيه وقد أمر أتباعه بتجنب الكهانة والبعد عن الوثنية ، ولم يجعل التوبة مرتزقا خبيثاً لأحد فإنما هى كلمة : « أستغفر الله وأتوب إليه » يقولها العبد لربه ، ليس بين يديها مال ولا تجر إلى دعارة فما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما .

وما ينقم القمصان منا إلا أن آمنا بالله وحده إيمانا لا يلغى عقولنا ، أو يهزأ بها وبالعقل - وحده - كنا مكلفين بواجبات ديننا مسئولين عنها . لذلك كان فى الدنيا مسلمون وكان فيها إسلام ولا أحسب أحد القامصة يجهل ما فى العهد القديم : من مات مصلوبا مات كافرا ومعاذ الله أن يكون المسيح كذلك ؟

على الخطيب

سـرّ ...!

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

عشت أمنى النفس أن استريح ... يوما من السر الذى فى دمى
فها أنا أحيا بماض جريح ... وحاضر باكى الرؤى مظلم
وليس لى من أمل فى غدى ... فكل آمالى ضاعت سدى
حتى الذى أبصرته فى يدى ... رأيتـه يذهب لما بدا

عشت وبى شوق إلى ما أريد ... فلم أنل إلا عذاب الرحيل
كأننى أرجو امتلاك الوجود ... أو أننى أصبو إلى المستحيل
وسرت فى الدنيا بقيد وحيد ... لكنه قيـد عتى رهيب
لو صاغ هذا القيد بأس الحديد ... لكان خطبى دون كل الخطوب

لكنه من نبض قلبى الرقيق ... ووقدة الحس ، وخفق الشعور
حملته فى مهجتى ، لا أفيق ... من ناره إلا لكى أستجير
حملته محفـة روحى التى ... عاشت تبث الكون أحزانها
وتسكب الدمع من الحرقة ... لعـله يطفىء نيرانها

وليس قيداً ما تراه العيون ... لكنه ما عاش طى الخفاء
يفرى الحنايا ، ويثير الشجون ... فتستر الدمع يد الكبرياء
وكم دعوت الله فى خلوتى ... أن يكشف البلوى عن البائسين
فهأنا ما زلت فى محنتى ... ولم أزل أحيا كطير سجين

علام يا ربى تضـيع الحياة ... من أجل سر لا يريد الرواح ؟
ما فى حياتى من عذاب سواه ... ولا بقلبى غيره من جراح
لولاه يا ربى عرفت المنى ... خضراء مثل الجنة الزاهره
وانساب فى عمرى رقيق السنا ... فجراً ينادى روحى الحائره

لولاه ما عشت بقلب سجين ... وما انطوت نفسي على يأسها
ولم تذق روحي عذاب السنين ... تفرغه الأقدار في كأسها
لولاه قبلت جراح الهوى ... وباركت روحي دموع الوداع
وقدست نفسي لهيب الجوى ... وأبصرت فيه رقيق الشعاع
لولاه غنيت فكان الغناء ... يشيع في القلب ابتسام الربيع
ويجعل الدنيا تريق الصفاء ... في أرض أيامي كنهر وديع
يا سر ، يا من لا تراه العيون ... وناره في القلب لا تخمد
قد كنت في ماضي حياتي تهون ... إذ كانت الآمال لا تنفد
وكنت في فجر الصبا لا أزال ... والعمر يمتد امتداد الرجاء
والنفس نشوى بعبير الخيال ... والكون رفاف بسحر الضياء
فكنت إن طافت بقلبي الهموم ... وكاد يطويني ظلام المساء
قلت لقلبي سوف تمضي الغيوم ... ويقبل الفجر ، وتصفو السماء
والآن والعمر وشيك الفناء ... والسر ما زال رهيب العذاب
هل ينفع الصبر ، ويجدي الرجاء ... إذا خبا العمر ، وضاع الشباب ؟
يا رب إن ثرت على قسمتي ... ثورة نفس تتحدى القدر
فأنت تدري السر في ثورتي ... والسر خاف عن قلوب البشر
يا رب قد مارست بعض الذنوب ... ليعرف النسيان قلبي الحزين
وأنت أدرى بخفايا القلوب ... يا من خلقت النار للمذنبين
قد اكتوت روحي بنار الهموم ... وعذب النفس شقاء الحياة
فإن ترى روحي عذاب الجحيم ... يأبى عذاب الروح عدل الإله
هذا عزائي : وهو نعم العزاء ... عن محنتي ... عن محنتي العاتيه
ولي رجاء يا إله السماء ... ألا أراها مرة ثانيه

إبراهيم محمد نجا

إلى البطل الشهيد عبد السلام عارف :

في رحاب الخلود

للأستاذ محمد الهادي السيّد (*)

أي رزء أصاب قلب السلام ؟ — أي رزء في العرب والإسلام ؟

أي خسران قد أصاب بلادي ؟ — أي خطب من الخطوب الجسام ؟

فجع النيل والفرات ، وأدمى — قلب من في الجنوب أو في الشام

صفحة من صحائف الخلد تطوى — علم قد هوى من الأعلام

أمل شامخ ، وتاريخ شعب — وجدوه الفداء بين الحطام

عاش يقضي على العواصف هوجا — وأتى عاصف بموت زؤام

يا أبا الثورات الثلاث .. وداعا — في رحاب الخلود (عبد السلام)

كم أتاك الحمام وجها لوجه — فتحديت وجه هذا الحمام !

قد أجرت العراق من قبضة المل — ك ظلوما ، ومن يد الإجرام

ومن الخلف جاء الخل غدراً — ثم يقضي عليك بالإعــدام

ودنا منك حبل مشنقة الغد — ر ، فلم يبصروا سوى الإقدام

وعظيما دخلت زنزانة السج — ن ، تلاقي قضاءهم بابتسام

إنها منك بسمة الثقة الك — برى ترى الله حاكم الحكام

ثم أعدمت من أتى بك للسج — ن ، وحطمت قلعة الآثام

وتقدمت في الطريق ، تنادي : — وحدة العرب ، تلك كل مرامي

محمد الهادي السيد

بور سعيد الثانوية بنين

الحقيقة فى مشكلة فلسطين

للكاتب الهولاندى ف. هو. ليونارد

ترجمة عن الإنجليزية : محمد حسام الدين

— ٤ —

وقد أعطت (دير ياسين) قوة دافعة للجماهير الهاربة من عرب فلسطين حينما انتشرت أخبار المذبحة بينهم ، وكانت وسيلة ـ كما جاء فى تقرير رئيس البعثة الدولية للصليب الأحمر فى فلسطين ـ لنشر الرعب على نطاق واسع كما رتبه اليهود ، وكما نفذوه ببراعة . هذا الأسلوب قد دبر فى صورة خفية ونفذ بوسائل الحرب النفسية كتهديد للجماهير بمصير دير ياسين .

وكانت الخطة الصهيونية للإرهاب ضد الفلسطينيين العرب قد أزاحت وأبعدت أى شعور بالتردد فى البلاد العربية المجاورة بالنظر إلى استعمال القوة وأدت إلى حرب فلسطين مباشرة عقب إعلان دولة إسرائيل فى ١٤ مايو ١٩٤٨ .

وفى خلال هذه الحرب ساق الجيش الإسرائيلى الأهلين المدنيين خارج المدن والقرى واحتلها . وبهذه الطريقة وكما حدث قبلها نتيجة للإرهاب الذى ارتكب فى دير ياسين ظهرت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين العرب إلى الوجود .

وفى تقرير للكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة الذى عين فى مايو ١٩٤٨ هاجم فيه المبادىء الصهيونية فقتل بسببه على يد الإرهابيين الإسرائيليين ، كتب عن اللاجئين العرب يقول : « إنه من الظلم ومن المجافاة لمبادىء العدالة الإنسانية أن تنكر على ضحايا الصراع الأبرياء حقهم فى العودة إلى وطنهم بينما المهاجرون من اليهود يتدفقون على فلسطين ، هذه الهجرة فى حقيقتها ، على أقل تقدير ، تشكل تهديداً أو تعتبر خطراً على إعادة التوطين الدائم للاجئين العرب الذين استقروا وامتدت جذورهم فى هذه الأرض منذ قرون » .

وفى ١١ ديسمبر ١٩٤٨ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً لحل مشكلة اللاجئين العرب ، هذا القرار يعطى حق الاختيار للاجئين بين العودة إلى وطنهم أو التعويض وقد اختارت الأغلبية الساحقة لأول وهلة العودة إلى الوطن ، ولكن إسرائيل رفضت الإعادة أو التعويض وحبذت أن يندمجوا فى البلاد العربية المجاورة

وهذه الدول بالتالى رفضت أن يندمجوا فيها ولكن رفض هذه الدول - مهما تكن الاعتبارات التى أملت هذا القرار بالنسبة لمصالحها القومية والتى يمكن أن تكون ضرورية - يؤيد اختيار اللاجئين أنفسهم كما يؤيد قرار الأمم المتحدة ، وفى الواقع أن رفض السماح لهم بالعودة انتهاك للحق الطبيعى للإنسان ، الذى يتمتع به ضحايا الحرب ، والذى اعترفت به الأمم المتحدة وهو سلب لحق الاختيار الذى منح وخول للاجئين أنفسهم بصفة خاصة وليس لإسرائيل؛ لأن عرب فلسطين فى الحقيقة ليسوا ضحايا لأعمال الحرب فحسب وإنما هم ضحايا الطرد المتعمد ، الذى بدأ قبل خمسين عاما بوسائل تدريجية ، ثم عجلت به أعمال العنف وفيما يتعلق بانتهاز الفرص فإنهم يترقبونها تحت إرشاد وتوجيه زعماء بعيدى النظر يخططون لعشرات السنين .

يقول (ولسن) : « حينما تم إجلاء الشعب العربى عن هذا الجزء من فلسطين الذى أصبح إسرائيل فيما بعد تبين أنه شرط ومقدمة لهجرة على نطاق واسع ولولا هذا الإجلاء لما كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تهديداً حتى ذلك المجال الحيوى النادر المحدود الذى أمكن الوصول إليه .

لقد قيل: إن العرب قد باعوا وطنهم بأكله لليهود بعد أن أهملوه عدة قرون ، وهذا يظهر اللاجئين كما لو كانوا يطلبون العودة إلى وطن قد بيع ودفع ثمنه آخرون دفعوه إلى التقدم والرقى ، ولكن ينفى هذا ، أنه فى الرابع من يوليه ١٩٤٧ صرح بن جوريون أمام اللجنة الخاصة بفلسطين بقوله « إن العرب يملكون ٩٤ ٪ من الأرض ويملك اليهود ٦٠ ٪ فقط .

وحينما قامت دولة إسرائيل كانت ممتلكات اليهود تشكل ٧٠ ٪ من فلسطين ومجموع ٩٠ ٪ من إسرائيل وكان أكثر من ٨٠ ٪ من المساحة الكلية لأرض إسرائيل هو تركة اللاجئين العرب ، هؤلاء اللاجئون خلفوا مدنا بأكملها مثل يافا وعكا واللد والرملة وبيسان والمجدل وأكثر من ٣٨٨ مدينة وقرية وكذلك معظم أجزاء ٩٤ بلداً أخرى تشتمل تقريباً على ربع العمارات والمبانى فى إسرائيل ١٩٥٣ وقد ضرب الصهيونيون واليهود جزءاً من هذه المبانى عمداً ليمنعوا عودة اللاجئين ، وزيادة على هذا ، المحلات التجارية والصناعية والمنشآت الزراعية ، وعربات النقل والجرارات ، و٥٢ محجراً وما يقرب من ٩٥ ٪ من أشجار الزيتون فى إسرائيل كانت موجودة قبل قيامها وكذلك الكروم والبساتين .

وفى ١٩٥٤ كان أكثر من ثلث السكان اليهود الإسرائيليين يعيشون على أرض

اللاجئين الفلسطينيين أى زهاء ربع مليون إسرائيلى يعيشون على هذه الثروة السليبة .

وفى ١٩٤٩ كان ناتج الزيتون العربى ثالث صادرات إسرائيل وفى عام ١٩٥١ ، ١٩٥٢ كانت الفواكه والموالح العربية تشكل نصف الموالح الإسرائيلية المصدرة تقريباً ، وكانت تساوى ٢٩ فى المائة من الدخل عن الصادرات الإسرائيلية بعامة .

إن الثروة العربية فى فلسطين لم تكن مدداً ومعونة اقتصادية وفرصة للعمل للمهاجرين اليهود بل كان لها أكبر الأثر فى تحديد وإبراز النموذج الحى للحياة الاجتماعية العامة فى إسرائيل ومن (إيهود) - وهى مجموعة صغيرة من معاونى (ماجنز) احتفظ بهم - كانت تظهر معارضة يقوم بها فرد معتزل لم يستطع أن يصالح نفسه مع دولة يهودية تتأسس على هذه الحال فيقول ، وفى النهاية يجب أن نخرج إلى العالم بالحقيقة وهى أنه ليس لنا حق أخلاقى ، مهما يكن من أمر ، فى معارضة عودة اللاجئين إلى ديارهم ، ذلك إلى اللحظة التى يجب أن نبدأ فيها التفكير عن ذنبنا ، إنه ليس لنا حق فى أن نستمر فى جمع المنفيين ، وليس لنا حق فى أن نطالب اليهود الأمريكان أن يغادروا بلدهم الذى تعلقوا به ليستوطنوا بلداً آخر قد سرق من أهله بينما أصحابه الأصليون بؤساء لا وطن لهم إنه ليس لنا حق أن نبقى استقراراً لتحقيق فكرة الصهيونية بثروة شعب آخر إذا فعلنا هذا فنحن لصوص » .

أما تصوير الموقف وتحديده لدى اليهود بعامة فيأتى فى عبارة (صامويل) أقرب مساعدى (وايزمان) اليه : « نحن لا نستطيع أن نفيد العرب ، وسنحارب حرباً شاملة لنمنع ذلك ، هؤلاء العرب الفلسطينيون قد تحولوا إلى شعب من المنفيين بوساطة إسرائيل ، والسياح وزائرو إسرائيل لا يرون إلا دولة الرفاهية الحديثة وإنجازاتها القوية وواقعها الرائع بينما يخفى اليهود عن أعينهم الأسس التى قامت عليها الدولة : التمزق ، والتصدع ، والخلل ، هذه الأسس كلها كشفت الغش والخداع والنهب والقتل بالجملة وبؤس اللاجئين .

إن حق اللاجئين فى العودة معترفاً به بغض النظر عن السبب فى جلائهم وعندما يكشف عن سبب الجلاء سيجد الحق أنصاراً كثيرين فى كل مكان ، إنه لم يكن عبثاً أن يخطط هرتزل سياسة العمل للسكان الوطنيين المساكين عبر الحدود وأن يكون تنفيذها سراً .

وعلى هذا فإن وجود اللاجئين الفلسطينيين العرب يمثل فكرة محددة وخطة موضوعة ولكنه يكشف عن الفشل الصهيونى العمل

فى توطينهم هناك ، ولهذا فإن كثيرا من الصهيونيين يبذلون هم وإسرائيل جهودا جبارة ليمنعوا وجود اللاجئين وليخفوا سبب جلائهم بخاصة ، وبالتالى النقد المتعلق به ومما أصبح معروفا أن اليهود يعارضون كل شىء يتعلق باللاجئين حتى ما كان متصلا بأغراض إنسانية بحتة ، ومن أجل أن يبرئوا أنفسهم من اللوم تجاه إجلاء العرب فإن الصهيونيين ممثلى اليهود فى إسرائيل طلبوا من العرب أن يبقوا فى حيفا ، وبوصفهم الشارحين للموقف اليهودى العام فقد ألقوا اللوم على عاتق قادة العرب باتهامهم أنهم الذين حضوا على الجلاء . وقد أثبت البحث الدقيق أن طلب اليهود من العرب البقاء فى حيفا كان قد اتفق أن يبدأ به استثناء ، فضلا عن أنه كان مجرد دعاية بعد أن نجحت عصابات الإرهاب فى إتمام عملها : الطرد بالإكراه وبعد أن بدأ الجلاء بالفعل .

إن السياسة العربية الإيجابية تجاه إجلاء الفلسطينيين العرب لم تتوثق ولم تؤيد بقوة قادرة على الدفاع بينما كانت التحذيرات العربية ضد الجلاء حقيقة واقعة .

إننا لا نجد إلا شاهدين فقط كدليل على مسئولية العرب تجاه الجلاء ، وكشخصين مسئولين ، وقد استغل شهادتهما (آبا إيبان) فى خطاب له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة أولهما إميل خورى سكرتير اللجنة العربية العليا ، أما الثانى فهو البطريرك جورج حكيم بطريرك الجليل .

وقد وجد بالبحث أنه بحذف المقدمة والسياق اللذين قدمت بهما هذه الشهادة الأولى ، صار لها معنى آخر يختلف عن النتيجة التى سيقت من أجلها .

أما الثانية : فقد أسست على خطاب من البطريرك نفسه تعمدت السلطات الإسرائيلية سوء استعمال كلماته وتحريفها على غير أساس وفى الحقيقة أن البطريرك يلقى مسئولية جلاء العرب كاملة على عاتق إسرائيل بسبب الإرهاب والطرد الجماعى .

لقد بقى فى إسرائيل قلة قليلة من عرب فلسطين وانتزعت منهم معظم أراضيهم بوساطة القوانين الخاصة ، بيع بالجملة ونهب ولكن مع ستر وجه الحقيقة ، .

وأكثر من هذا وهما : أن ينهض معارضون من جماعة اليهود ضد المعاملة غير العادلة التى يلقاها الشعب العربى الفلسطينى فى إسرائيل وضد التفتيت والتمزيق للعرب فى أحياء يهودية متفرقة - كما رسم لهم منذ تأسيس الدولة اليهودية - والقوانين الخاصة العسكرية والاعتقال بواسطة السلطات التنفيذية دون إذن ومحاكمة ، ومجالس المحاكمات العسكرية دون حق ، والطرد الاختيارى ، والغرامات

التى تفرض على القرى العربية بسبب جرائم يرتكبها أفراد .

وباختصار : نظام الطبقة الثانية من المواطنين الذى يصور هبوط أصحاب البلد ملاك الأرض الأصليين إلى مجموعة من الأذلاء المنحطين ليتميز عليهم شعب آخر ويصور اضطهاد جنس من الناس ويجعلهم فى فزع دائم من غزاتهم المنتصرين عليهم « عنصر السادة الإسرائيليين » .

وقد برر بن جوريون هذه السياسة تجاه الأقلية العربيه ودافع عن هذا الموقف بأن نسب هذا الوضع إلى ما سماه « الخضوع التلقائى العاطفى » .

وفسره « بأن عرب فلسطين مع الشعوب المجاورة لهم ذوو طابع عاطفى ينطوى على الخضوع للأغلبية التى يستند إليها » ثم قال « إن كل يهودى سواء كان ماركسيا أو غير ماركسى يعتبر نفسه فرداً من العنصر المختار ويعتبر العرب شعبا أدنى منه » .

وحينما أقيمت إسرائيل فعلا واستقرت ، ظلت المعارضة قائمة مع جيرانها ، وكانت المرحلة الثانية للصهيونيه وهى « الاكتفاء الذاتى قد بدأت » .

والدولة التى كانوا قد أنكروا أن تكون هدفا فى أول الأمر ثم عادوا فجعلوها كهدف أخير ، هذه الدولة وصفها بن جوريون أخيراً بأنها ليست هدفا فى ذاتها ولكنها وسيلة إلى الغاية الكبرى غاية الصهيونية » .

« إن الهجرة المحدودة وتمزيق الشعب اليهودى سوف لا يغير القدر وسوف لاينفذ العهد التاريخى لنا ، إن الهجرة فى أعداد ضخمة غزيرة ، هذا فقط ماتسمح به السيادة ولا بد أن تكون بدقة وفى حدود الإمكان للوجود الإسرائيلى ، هذا وحده هو الذى تسوغ به الهجرة ، إنها إذا لم تكن بدقة وبراعة لايمكن الاستفادة بدعوة أكبر عدد من المهاجرين الذين يجب أن يكونوا مئات الآلاف » .

إن واجب الدولة أن تضع نهاية للنفى والاضطهاد الذى يعانيه اليهود . . . » وبالرغم من الاتجاه إلى تقـــوية النزعة الصهيونية والصفة الإسرائيلية فى العالم اليهودى بوساطة إسرائيل والمنظمات الصهيونية فقد كانت هناك مقاومة لهذه المرحلة من جانب غير الصهيونيين اليهود قائمة على أساس ومستندة إلى آمال واعية ونظرات فقهيه، وكان فيهم ذوو الولاء العالمى وذوو القدرة الواسعـــة فى التعبير والتوضيح ، ولكن رجح أصحاب رأى التوسع فى الهجرة بقصد التعادل والتوازن فى الدولة الجديدة، وبخاصة بالنسبة إلى ما اتفق أن يكون دولة للعرب طبقا لمشروع التقسيم .

أصحاب هذا الرأى كان لم تعبير رسمى فى نفس اللحظة التى أعلن فيها قيام إسرائيل كدولة مستقلة .

وفى وقتنا الحاضر فإن الترجمة الخاطئة إلى اللغة العربية لما يحمله التعبير فى النص العبرى الأصلى يخفى الحقيقة عن أذهان العالم الخارجى .

وبعد وقف القتال مع الدول العربية المجاورة فى ١٩٤٩ ، صدرت تصريحات توسعية جديدة تكشف لهذه الدول ما يمكن أن تتوقعه بالرغم من وقف القتال ، هذه التصريحات لم تكن قاصرة على حزب حيروت - الحزب البرلمانى السياسى الذى تحولت إليه منظمه الارجون ذاتها .

وطبقا لتصريحات بن جوريون رئيس الوزراء فى كتاب حكومة إسرائيل السنوى ١٩٥١ - ١٩٥٢ « إن اليهود يملكون الآن جزءا من أرضهم » .

وفى الكتاب السنوى سنة ١٩٥٥ « إنه ليس هناك من سبيل للتخلص من التفكير البعيد فى أرض إسرائيل التاريخية » .

وحينما احتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء ووصلت إلى قنال السويس صرح بن جوريون « إن حدود أرض مصر لم تنتهك على يد الجيش الإسرائيلى » .

وبعد هذه الغارة وجه اليهود إنذارا إلى جميع الأجانب ويحوى هذا الإنذار قولهم « إننا ، وبخاصة حكومتنا ، يجب أن نوقف هذه التعبيرات : التحرير والاسترداد . . . مع مراعاة كل تلك الأجزاء لأرض إسرائيل التى هى خارج حدود دولة إسرائيل . لقد رأى العرب فى حملة سيناء شاهدا جديدا على أخلاق وطبيعة إسرائيل وبالرغم من أن إسرائيل استعرضت قواتها العسكرية فقد برهنت فى عام ١٩٥٦ كما برهنت فى عام ١٩٤٨ على أنه بموجب القوة سوف تكون قادرة على علاج قبول العرب للأمر الواقع . »

ولسوء الظروف أو لنقص المعدات العسكرية لدى العرب بالنسبة لما لدى الصهيونية فإن نظام المقاطعة الذى أشار به (هرتزل) ونقله خلفاؤه إلى الشرق الأدنى فى بداية القرن الحالى كوسيلة لإجلاء العرب الفلسطينيين عند انعدام وسائل القوة الخاصة التى يمكن أن تستغل ، هذه المقاطعة تستعمل الآن على يد الدول العربية بالعكس كسلاح ضد إسرائيل ، وفى بناء الصهيونية لدولتهم نجحوا فى خلق حقيقة واقعة من القوة ولكنها لم تقبل كحقيقة كاملة .

ولقد تأكد لدى العرب أن أية موافقة من جانبهم سوف تكون أداة فى يد الصهيونية تمهد بها الطريق إلى حقيقة تالية من حقائق القـوة .

لقد كتب هرتزل فى (نظريته) بالنسبة للدول التى أمل أن يكسب موافقتها لاستقرار اليهودية فى كنفها : (إن واحداً من أهم الامتيازات التى لا بد أن يمنحونا إياه هو السماح بأن يكون لنا قوة حماية .

وفى البداية سوف نحتاج إذنهم وسماحهم وبالتدريج سنصبح أكثر قوة وسنمنح كل شىء نحتاجه وسنكون قادرين أن نتحدى كل كائن) .

هذا دليل واضح على أن عبارة (ما نحتاجه) فى مرحلة التحقيق والإيجاد الذاتى للصهيونية والتى ابتدأت الآن لا تعنى كل شىء بعد .

إن الحقيقة حول مشكلة فلسطين تتركز فى تتابع حقائق تاريخية فى سلسلة من الأفعال وردود الأفعال خلقت واستمرت فى خلق هذه الحقائق ثم فى قيادة ودفع القوة بعدها ، هذه الحقيقة برهنت على أن العرب حين قادوا القوات لم يكن ذلك صادراً عن روح عدوانية أو طبيعة كراهية وعداء تجاه اليهود ولكن عن دافع أساسى هو (المحافظة على الذات) إنهم كانوا يدعون دائماً كقوات مجموعة فى رأى الصهيونية التى لم تكن تبحث عن الخلاص فى تعاون حقيقى معهم .

ولكن بأن تبقى فى قلب العالم العربى وضعاً يعتمد على القوة فى غاياته التوسعية ويقف فاصلا بين الأمة العربية ـ وضعاً لا تقبله أمة أخرى بإرادتها فى مجالها أو على حدودها .

إن الصهيونية التى حولت المجتمع اليهودى عن بيئته إلى تعبئة كل قواه من أجل حقائق جديدة من التسلط والعدوان ستؤدى إلى كوارث متتابعة فى الشرق الأدنى .

إن الصهيونية التى تنادى بالسلام هى فى طبيعتها تهدد السلام بالخطر .

إن هرتزل هذا الذى صور الصهيونية كمجاهدة فى سبيل السلام ومن أجل هدف عكس لأنه من الأفضل أن يعملوا بعيداً فى أرض قديمة من أن يستقروا فى حدود جديدة بين الناس ، قال : (إن الأخوة العالمية ليست شيئاً ، وليست حلماً جميلا ، إن العداوة هى الجديرة حقاً بأعلى الجهود الإنسانية) .

وبعد : فإن تنبؤات هرتزل وأحلامه قد تحققت ، وإسرائيل ليس لديها نقص فى العداوات ولأجل الفهم الصحيح لتطور مشكلة فلسطين فى المستقبل ، ومن أجل ربطها بحل يستهدف السلام الحقيقى ؛ فإنه من الضرورى أن نتذكر : كيف صنعت إسرائيل هذه العداوات ! ؟ ؟

تمت

ترجمة : محمد حسام الدين
مجمع البحوث الإسلامية

الأسرة بين الشريعة الإسلامية و"الميثاق"

للأستاذ محمد ابراهيم عبد الرحمن

يعتبر اهتمام الميثاق بالطفولة صانعة المستقبل هو نفس اهتمام الإسلام بها وفى حديث الرسول عليه السلام ، وكلام الصحابة مايفيد وجوب العناية بالطفل وتوجيهه إلى ما ينفعه : علموا أولادكم السباحة والرماية، والوثوب على الخيل

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه موصياً بالأولاد : « أقرئوهم القرآن ، وروّوهم الشعر » .

فمثل هذه النصوص ، وغيرها كثير ، تدعو إلى تعليم الطفل الفروسية ، وأساليب الحرب ، وتسديد الهدف ، إلى جانب تنشئتهم تنشئة أدبية ، بمرانهم على القول الجيد ، وإعدادهم إعداداً طيباً لمجابهة الحياة التى سيحيونها .

ولعمرى إن هذا لهو روح الميثاق الذى يدعو إلى توفير كل ما يلزم للعناية بالطفل ، وإعداده للمسئولية الخطيرة التى ستواجهه فى المستقبل القريب ، حتى ينهض بها على خير الوجوه ، ويقود البلاد بنجاح تام .

المساواة بين الرجل والمرأة :

وقد نادى الميثاق بالمساواة بين الرجل والمرأة حين قال : إن المرأة لابد أن تتساوى بالرجل ، ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية فى صنع الحياة » .

وكى نناقش هذه العبارة نسأل هذه الأسئلة : ما المراد بالمساواة ؟ وما المجالات التى يمكن أن تطبق فيها هذه المساواة ؟ وما مدى التوفيق بين الشريعة والميثاق ؟

المرأة - فى نظر الإسلام - كالرجل من حيث مسئوليتها مسئولية كاملة عما تلى من أمور ؛ فهى مسئولة عما تباشر من شئون الأسرة ، وهو مسئول عما يديره من عمل : « الرجل فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة فى بيتها راعية وهى مسئولة عن رعيتها » ، وقال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ... [1] » .

وقد عرف عنها منذ فجر الإسلام تحملها لمسئوليتها كاملة ، ووقوفها إلى جانب الرجل مشجعة ومثيرة ؛ فكانت خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - تشجع النبى عليه السلام برأيها ، وجهدها لينهض بعبء الرسالة ، ويحدثنا التاريخ وكتب السير بأنه عليه السلام كان يقرع بين زوجاته للخروج بإحداهن فى الغزوات ، وكن - عليهن الرضوان - حريصات على شهودها إلى جوار النبى الكريم . وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنسقى الجيش ، ونطهو الطعام ، ونأسو الجراح .

(١) سورة التوبة .

وكانت عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما تشترك فى الفتيا ، وتدلى برأيها فى كثير من مسائل الدين .

وليس أدل على مساواة المرأة بالرجل فى مجال الرأى ومجال العمل من هذه النصوص وتلك الأخبار .

حقيقة إن المرأة تختلف عن الرجل فى كثير من الصفات الجسمية ، والنفسية ، ولا يعقل أن ينادى الميثاق بهذه المساواة غير الطبيعية بين كلا النوعين ، كما لا يمكن أن يساوى الدين بينهما فيما من شأنه أن يختلفا فيه ، لأنه اختلاف من صنع الله .

إن معظم الأعمال التى تولتها المرأة ، وتفوقت فيها كانت تتناسب مع وظائفها الطبيعية ، واستعدادها الفطرى ، والنفسى ، فعلى مدار التاريخ لم نرها قائدة عسكرية ناجحة ، أو قاضية بين خصمين ، وإنما مكانها الطبيعى مؤازرة الرجل ، والوقوف إلى جانبه ، أو من ورائه . ولعل هذا راجع إلى ما فى طبيعة الأنثى - عادة - من ضعف وقلة استعداد لمواجهة المواقف الحرجة ، وسيطرة العاطفة عليها فى كثير من الشئون .

فحين ينادى الميثاق بتحطيم الأغلال التى تعوقها عن الحركة الحرة لا يقصد إعطاءها ما ليست له أهلا ، ولا تقليدها من الوظائف ما ينافى طبيعتها الرقيقة ، إنما يقصد تيسير السبل ، وتذليل الصعاب ، والإطاحة بالتقاليد التى تعترض طريق تقدمها ، وتفتحها والقيام بوظائفها الطبيعية .

حقيقة إن هنالك أعمالا شاقة . وبعض مجالات العمل لا يمكن اقتحامها ، ومن صالحها وصالح المجتمع أن تظل بمنأى عنها .

نشاط المرأة فى الإسلام :

والدين الإسلامى يدعو المرأة إلى العمل ، ويفرض عليها التثقيف ، ولا يمنعها من المشاركة الجادة فى توجيه سياسة الأمة ، ما دامت أهلا لذلك ، مسلحة بالوعى والفكر والخلق الفاضل ، والدربة الكاملة وفى السنة الشريفة والكتاب الكريم ، ما يشير إلى ذلك صراحة ، وتلميحا ، وفى سير فضليات المسلمات غناء أى غناء .

فالقرآن يدعو إلى العمل فى قوله : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وفى قوله : « كل نفس بما كسبت رهينة » .

والرسول يدعو إلى تثقيفها وتعليمها : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة (اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة واليتيم) ، وليس أدل على تقوى الله سبحانه من معاملة المرأة معاملة كريمة ، تبدو فى توجيهها إلى ما ينفعها كالعلم ، والحرية .

أساس القرابة فى الأسرة :

على أى أساس تقوم القرابة بين أفراد الأسرة ؟ وإلى أى الوالدين ينسب المولود ؟ من البحث أن نلتمس الإجابة عن هذين

السؤالين فى الميثاق ، لأن الميثاق لم يتعرض لنشأة الأسرة ، ولا للعلاقة بين الرجل والمرأة فى ظل الحياة الزوجية ، ولا يضيره أن يهمل ذلك ، إذ هو ليس كتاب اجتماع أو فقه ، إنما هو خطة عمل ، ومنهج إصلاح لفترة من الزمان فى تاريخ شعبنا العظيم .

ولكن يمكن الإجابة على هذين السؤالين ونحوهما من الأسئلة الدائرة حــــول محور القرابة فى الأسرة من خلال كتب السنة والفقه والقرآن الكريم ، كما أنه لا بد من التعرض لنشأة الأسرة فى بداية تكوينها بغض النظر عن رأى علماء الاجتماع فى تعريف معنى الأسرة قديما وحديثا ، وتطور هذا المعنى على مر الأجيال فى مختلف الأمم والشعوب .

فالأسرة تقوم فى أساسها الأول على الترابط بين الرجل والمرأة ، وهذا الترابط تهذب على مر العصور حتى أصبح بطريقة مشروعة حددتها الديانات السماوية ، لا سيما الديانة الإسلامية التى ورثت ديانات السماء ، فكانت عامة لجميع الناس، صالحة لكل زمان ومكان .

وإذاً فمحور القرابة فى الأسرة هو وحدة الدم الذى يجرى فى العروق من الأبوين إلى أولادهما ، حتى لقد قال الرسول عليه السلام مبينا هذه الصلة الخالدة فى بعض مواقفه المشهورة : فاطمة منى ، وأنا من فاطمة ، ما يؤذيها يؤذينى ، وما يرضيها يرضينى وقوله « حسين منى ، وأنا من حسين » .

وحدثت عائشة رضى الله عنها أنه أهدى للرسول صلى الله عليه وسلم هدية فيها قلادة من جزع فقال : لأهدينها إلى أحب أهلى إلى . فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة . ولشد ما دهش الجميع حين دعا عليه الصلاة والسلام (أمامة) بنت زينب (ابنته) فأعلق القلادة فى عنقها .

وهذا الأقرع بن حابس ـ سيد قومه ـ يقول للرسول صلى الله عليه وسلم حين رآه يقبل حفيديه الحسن والحسين ـ يارسول الله إن لى عشرة أولاد ما قبلت واحدا منهم . فقال عليه الصلاة السلام : وماذا أفعل إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك ؟ !

هذه الرابطة غريزية عند بنى الإنسان ـ ولو كره علماء الاجتماع ـ لأنها غريزة حب البقاء وخلود النوع ، وامتداد الإنسان بعد فنائه فى الأولاد والأحفاد .

صحيح أن هناك خلافا بين نسبة الولد إلى أبيه ، أو أمه ، أو إليهما معا ، ويرجع ذلك إلى وجهة نظر كل فريق فى تكوين الأسرة .

رأى الشريعة الإسلامية فى نسبة الولد إلى أى الأبوين :

وقد ارتضت الشريعة الإسلامية قرابة الأبوين مع ترجيح قرابة الأب ، ويظهر أثر هذا الترجيح فى كثير من الحقوق ، والواجبات المتعلقة بالميراث ، والنفقة ، والديات . وعلى هذا النظام تسير الآن جميع

أم الإسلام ، وهو الأوفق عقلا ، والأنسب طبيعة ، لأن قرابة الأب هي قرابة العصب قرابة التضامن الأخوى ، قرابة الميراث وتحمل المسئوليات حيال سائر أفراد الأسرة.

صحيح أن العربي كان ينسب إلى أمه أو قبيلتها في بعض الأحيان كما ينسب إلى أبيه أو قبيلته دون شعور بحطة أو ضعة ، سواء في ذلك موقف التواضع أو موقف المفــاخرة والمناجزة والتعالى على الخصوم ، فهذا النبي عليه السلام يقول لبعض الأعراب : « أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة » لكي يهون على الأعرابي ما شعر به من ضآلة نفس في حضرة النبي ، وهذا معاوية بن أبي سفيان يفخر بنسبته إلى أمه هند ، وكان الشعراء يمدحونه بذلك في الرد على الإمام على كرم الله وجهه والمتشيعين له ولا يتحرج بهذه النصبة حين يقول شاعره :

وقالوا : على إمــام لنــا
فقلنا : رضينا ابن هند رضينا

الزواج :

هو العقد الذى يجمع بين الرجل والمرأة في بيت واحد بطريقة مشروعة ليستمتع كل منهما بالآخر ، دون توجس من أعين الرقباء أو ثورة من المجتمع ، أو هو الرباط المقدس الذى حرصت الشريعة الإسلامية على استمراره وسنت له من النظم والضمانات ما يكفل تحقيق الغرض من شرعيته ولم يقر الإسلام أية علاقة بين الذكر والأنثى من بني الإنسان بغير هذه السبل المشروعة ، فهو ينكر تلك العلاقات التي تقوم بين النوعين في معظم بلاد الغرب ، الأمر الذى يندى له الجبين الشريف ، وترتاع له الفضيلة .

ذلك أن الإسلام لا يعرف نظام الخليلة أو العشيقة ، ولا الأركان المظلمة التي تنتشر بكثرة في غير بلاد الإسلام .

ولو أتيح للمرأة الغربية أن تطلع على نظام الزواج في الإسلام ، وعوامل استمراره ، والميزات التي تتمتع بها المسلمة المتزوجة لو أتيح لها ذلك لرثت لحالها . ولعدت نفسها ذليلة لا حرة ، ومهددة لا مستقرة .

الغرض من الزواج :

وليس الغرض منه إشباع حاجة الجنس فحسب ، بل هناك مقاصد نبيلة هدف إليها الدين حين دعا إليه ، ومن تلك المقاصد استمرار الذرية التي يحرص عليها كل رجل وكل امرأة ، وتأكيد الصلات بين الأسر ، وزيادة الترابط بين الجماعات ، ووجوب المؤازرة والمناصرة بين العائلات كما هو الحال في معظم زيجات الرسول عليه السلام ، ومن أغراضه كذلك إراحة القلب ، وتقويته على العبادة كما يقول الإمام الغزالي في كتابه (الإحياء).

حكم الزواج :

والزواج قد يكون واجبا ، وقد يكون سنة ، وقد يكون أدخل في باب التحريم في بعض الحالات ، وهذا الاختلاف في الحكم مرجعه حال الزوج الصحية ، ومقدرته

المالية ، وسلوكه فى المجتمع ؛ فإذا كان صحيح الجسم قادرا على الإنفاق ، وعلى مطالب الحياة الزوجية ، وكان يخشى على نفسه من التردى فى حماة الرذيلة فالزواج واجب عليه ، ولعل هذا هو ما يشير إليه الرسول صلى الله عليه وسلم « يامعشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فإن المراد (بالباءة) المقدرة المالية ، والطاقة النوعية ، وهما أمران يتوقف عليهما سعادة الزوجين .

أما إذا كان الانسان قادرا على نفقات الزواج وتحقيق مقاصده ، ولايخشى على نفسه الزلل ، والوقوع فى المعاصى فزواجه سنة لأن له من دينه ، وخلقه ، ما يمنعه من التردى فى مهاوى الرذيلة ، وإن كان الأحسن التزوج لما فيه من الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: « فمن رغب عن سنتى فليس منى » فضلا على الانجاب الذى هو المقصد الأهم من الزواج ، ولأن الإسلام لا يحب الرهبنة التى يدعو إليها المسيحيون ، ويعتبرونها قمة العبادة إلى الله .

عوامل استمرار الزواج :

ولقداسة رابطة الزواج ، وضمان استمرارها أحاطها الدين الإسلامى بعوامل عدة ، حتى يكفل لهذه الرابطة أن تستمر وتثمر الخير ، والفضيلة ، وتماسك الأسرة وصدم تأثرها بالأزمات والأعاصير . ومن هذه العوامل ما يأتى .

(ا) الدين

إن الدين هو أهم العوامل فى استمرار الحياة الزوجية ، وهو أحد المرغبات فى النكاح ،ويعتبر الإسلام خير الأديان .

وقد أباح الإسلام للمسلم التزوج من المسلمة أو الكتابية المتدينة ، بل دعا إلى ذلك فى حديثه « تنكح المرأة لأربع لمالها ، ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» والحديث دعوة صريحة إلى وجوب الحرص على الزواج من ذات الدين السماوى المعترف به ،لأنها أحرص على استمرار هذا الرباط المقدس ، وأرعى لحقوق الزوج ، وأشفق على تربية الأبناء بوازع من دينها كما أن الحديث لم يفرق بين المسلمة والكتابية مادامت ذات دين فى إيثارها بالزواج دون ذات المال ، أو الحسب ، أو الجمال ، وإن كانت المسلمة أولى بالإيثار من المسيحية أو اليهودية .

وبهذا يكمل للأسرة أسباب الاستقرار النفسى ، وتصبح بحق خلية حية من خلايا الأمة ، ولبنة متينة فى بنيانها .

(ب) قوامة الرجل على المرأة :

ومن عوامل استمرار الحياة الزوجية فى إطار من المحبة ، والوئام اعتراف المرأة بقوامة الرجل عليها ، وقد اختص الدين الإسلامى الرجل بهذه القوامة تمشيا مع الواقع ؛ فالزوجة فى بيت الزوج ، وهو سيد البيت ، والعائل لمن فيه ، وبخاصة الزوجة ولأن القوامة فيها معنى الحماية ، والقيادة ،

وهاتان الصفتان يلزمهما قوة الجسم والاستعداد للبذل، والتحصن بالعقل، وتقديرا سليما بعيدا عن حدة العاطفة، وهذه أمور تفتقر إليها المرأة فى جملتها، فاختصاصه بالقوامة دون المرأة راجع إلى استعداده الطبيعى، وإلى امتيازه فى مقومات القيادة والحماية.

والقرآن الكريم يوضح هذا الحق معللا له خير تعليل، وذلك حين يقول فى سورة النساء «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات، حافظات للغيب بما حفظ الله».

ولعل فى هذا الجزء الأخير ما يشير إلى سلوك المرأة الصالحة حيال قوامة الرجل عليها «فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله».

ولا تجد رجلا على خلق كريم يستغل هذا الحق استغلالا سيئا، أو يستخدمه فى غير موضعه، لأن القوامة فى يده سلاح للوقاية، أو صمام أمن للحياة الزوجية.

(ج) مكاتب الكشف على راغبى الزواج

وقد أحسنت حكومة الثورة الرشيدة صنعا حين فتحت مكاتب فى بعض المدن الكبرى للكشف على الراغبين فى الزواج.

على أن المجتمع قد يكون من مقاصده بفتح هذه المكاتب بالمجان هو حماية نفسه من إنجاب غير صالح للبقاء، أو للإنتاج، لتشويهه، أو ضعفه، أو نقصه.

وفكرة هذه المكاتب، على العموم فكرة تقدمية تقتضيها طبيعة العصر، واستخدام الأساليب العلمية فى مناحى حياتنا، والأخذ بأسباب الوقاية قبل محاولة العلاج.

(د) أداء كل من الزوجين واجباتهما :

ومن نافلة القول الإشارة إلى هذا العامل المهم فى سير سفينة الحياة الزوجية بعيدة عن العواصف الهوج التى تعرضها للأخطار، أو الدمار، وذلك بأداء كل من الزوجين واجباته نظير ما ينتفع به من حقوق، ولعل قوله عليه الصلاة السلام «اتقوا الله فى الضعيفين: المرأة والعبد» ما يوحى بالمعاملة الطيبة، ويلزم الرجل بمراقبة الله سبحانه فى معاملة زوجته. وبهذا تطمئن الزوجة إلى زوجها، وتخلص له «وتمنحه الراحة التى تزيل الكرب، وتروح عن القلب».

أما الزوجة فعليها أن تكون بحيث يريدها زوجها، طاعة، واحتراما، وتفانيا فى أداء واجباتها نحوه، كالعناية به، وتهيئة الجو المريح له، والمحافظة على مظهرها والرعاية لماله، والصيانة لشرفها وعرضها.

وبهذه العوامل التى أسلفنا الإشارة إليها، وبمراعاة تحققها يحاط الزواج بسياج متين، ويرجى له الاستمرار والدوام، وتحقيق الأغراض التى من أجلها شرعه الله بين الذكر والأنثى من بنى الإنسان ؟

محمد ابراهيم عبد الرحمن

ما يقال عن الإسلام

الإسلام والعلاقات الدولية

للدكتور أحمد فؤاد الإهوانى

العلاقات الدولية مع الدول الإسلامية فى الوقت الحاضر لها أهمية كبرى ، ذلك أن الدول الإسلامية تمتد من أقصى المحيط الأطلسى غربا إلى أقصى المحيط الهادى شرقا ، من المغرب إلى أندونيسيا ، وإلى جانب ذلك هناك دول ليست إسلامية ولكن فيها نسبة كبيرة من المسلمين . من أجل هذا حفلت الدول الغربية والشرقية على السواء بفهم حقيقة هذه الدول الإسلامية ، ومعرفة الأصول الدينية التى تقوم عليها ، حتى يتيسر التعامل معها وإقامة العلاقات الدولية وإياها.

ومنذ أعوام ثلاثة عقدت جامعة (ديوك) بالولايات المتحدة الأمريكية حلقة بحث من الأساتذة المشتغلين بالإسلاميات، لمناقشة مدى تأثر السياسة المعاصرة بالإسلام ، ثم نشرت البحوث فى كتاب بعنوان : « العلاقات الدولية والإسلام » ، صدر فى سنة ١٩٦٥ . ومعظم أصحاب هذه الأبحاث معروفون فى العالم العربى . فالأستاذ (جب) رئيس الندوة مستشرق مشهور ، وهو إلى ذلك عضو بمجمع اللغة العربية ، وهو يشغل الآن منصب رئيس الدراسات الشرقية بـ(هارفارد) . وقد افتتح الحلقة ببحث عن الدين والسياسة فى المسيحية والإسلام ، جاء فيه فيما يختص بمصر واتجاهها نحو القومية العربية ، ومدى الصلة بين القومية العربية والإسلام ، ما نصه : « إن موقف الإسلام التقليدى من الحكم لا يزال ذا أثر كبير حتى داخل القومية العربية ، وهذا أحد العوامل التى يقوم عليها نجاح الرئيس جمال عبد الناصر ، وهو ما أظنه يدركه إدراكا تاما ، ويعمل حسابه . وإذا نظر المرء إلى جمال على أنه مجرد رجل قوى حربى هو معبود الشعب ، فإنما يرى فيه المظهر الخارجى دون أن يلمح قوته الباطنة وفى أقاويله الأخيرة عن الاشتراكية العربية ، أعلن أنه لا يبنى سياسته على أساس من فلسفة الرفاهية المستمدة من الغرب فقط ، بل يصل هذه الفلسفة كذلك بالأفكار الإسلامية عن العدالة الاجتماعية » (ص ١٩) .

ويبدو أن العلاقة بين القومية العربية

والإسلام هي المشكلة التي اجتهد أصحاب الحلقة في حلها على أساس موضوعي . وقد اختلفت حولها الآراء ، كالحال تماما عند المفكرين العرب . ذلك أن الدول العربية من المحيط إلى الخليج ، وهي التي تتميز بأن لغتها هي العربية ، تدين كذلك بالإسلام ، بحيث يمكن القول : إن العروبة والإســــلام صنوان لا يفترقان .

وفي مقال عن الشيوعية والإسلام ، يذهب صاحبه إلى أن هناك مدرستين إحداهما تقول : إن الإسلام بالطبع لا يتفق مع الشيوعية التي لا تؤمن بالأديان . والمدرسة الثانية تقرر وجود نوع من التقارب بينهما . وقد عالج الكاتب الموضوع على أساس تاريخي منذ ظهور الثورة الشيوعية ، وعلاقتها بالدولتين الإسلاميتين تركيا وإيران ، وصلتها خاصة بكمال أتاتورك . وقد أشار الكاتب كذلك إلى شراء مصر الأسلحة من روسيا سنة ١٩٥٥ ومساعدتها في بناء السد العالي بعد ذلك ، دون أن يعلق على هذه الحوادث التي ينظر إليها تاريخياً لا مذهبيا . ويبدو أن الكاتب لم يطلع على مناقشة الرئيس جمال لهذا الموضوع في أكثر من مناسبة ، حين وضح الفرق بين الشيوعية وبين الاشتراكية العربية .

ونود أن ننوه بالمقال العميق الذي كتبه الأستاذ فايز صايغ عن (الإسلام والحياد) تلك السياسة التي تبناها وتزعمها جمال عبد الناصر واتخذ هذا الحياد مع تطور الأحداث أشكالا مختلفة سريعة .

ووزع الأستاذ فايز الدول الإسلامية إلى دول إسلامية عربية ، هي أعضاء في جامعة الدول العربية ، ثم إسلامية أسيوية غير عربية ، وإفريقية غير عربية ، ودول أخرى ولنا على تقسيمه الدول العربيـــة بضعة ملاحظات : أولها اعتباره لبنان دولة غير إسلامية ، وهذا ما يقول به المسيحيون دون رجوع إلى إحصاء ، والأمر على كل حال موضع أخذ ورد . والملاحظة الثانية اعتباره الأردن وليبيا والسعودية دولا غير حيادية أي منحازة إلى الغرب . أما ليبيا فالذي نعرفه أنها جاهدت حتى تخلصت من القواعد البريطانية ، وبذلك تم لها الحياد ، والأردن لم يعلن أنه محايد أو غير محايد ، ولكنه مضطر إلى الحياد بحكم موازنة أمريكا وانجلترا لإسرائيل ، وموقفها من إسرائيل لا يمكن أن نتجاهله ، وهو مضطر إلى التمشي مع دول الجامعة العربية في سياستها الحيادية . والدليل عندنا على حياده أنه لم يرتبط بالأحلاف الغربية حتى أيام حلف بغداد .

النتيجة التي انتهى إليها الكاتب هي أن الإسلام لا صلة له بالحياد ، لأن السياسة الخارجية لبعض الدول الإسلامية حيادية ، وبعضها الآخر غير حيادي ، وأن الإسلام

ـ دينيا ـ لا يوجه السياسة الخارجية للدول الإسلامية فى الوقت الحاضر .

والأستاذ (بايارددودج) معروف جيداً فى الجمهورية العربية المتحدة ، إذ كان فى وقت من الأوقات مدير الجامعة الأمريكية بها ، وهو يعرف اللغة العربية واختص بدراسة الأزهر وتاريخه ، وعاش طويلا فى الشرق إن فى مصر أو لبنان ، والموضوع الذى عالجه هو : الدين والقومية العربية ، عرضه تاريخيا منذ ظهور الإسلام حتى صلاح الدين الأيوبى ، الذى ولو أنه كان مسلما إلا أنه من أصل كردى لا عربى ، وعندما غزا لويس التاسع مصر ، آثر العرب فى مصر حكم المماليك على حكم ملك مسيحى ، فنازلوا جيشه ، وهزم الملك وأسر ، وكذلك الحال عندما جاء نابليون إلى مصر ، وزعم أنه حامى الإسلام ، ومع ذلك لم يستطع أن يبقى سوى ثلاث سنوات ، وهكذا كانت الصلة بين الإسلام والعروبة قوية أيام نابليون كما كانت أيام لويس .

كان ذلك فى الماضى ، أما فى الوقت الحاضر وفى المستقبل ، فإن كثيراً من المؤرخين المحدثين يرون أن الصلة بين الإسلام والقومية العربية لن تستمر طويلا ، ويرجع هذا الانفصال إلى أمرين : الأول : الانفصال الواضح بين الدين السلفى وبين الاتجاه المدنى لحكام الدول ، والأمر الثانى : الاختيار بين شيوعية الشرق ومسيحية الغرب واستعماره وفى الأولى هدم الإسلام بالمادية ، وفى الثانية القضاء عليه بالثقافة الغربية .

وقد اضطرت الدول العربية ، منذ القرن التاسع عشر إلى المسارعة باتخاذ خطوات للإصلاح الاجتماعى على يد الأفغانى ومحمد عبده وإقبال وفى الوقت الحاضر بالاشتراكية العربية التى توفق بين القومية والدين .

ولنا على مقال الأستاذ دودج ملاحظة خاصة عما سماه التجديد أو « المودرنزم » فى الفقه والدين والتعليم وغير ذلك . ومما لا شك فيه أن مظاهر الحياة الإسلامية تطورت وتغيرت وتجددت بسرعة سريعة ، ولكن ذلك فى المظاهر فقط ، أما أصول الدين والعبادات فلا يمكن أن يقنا ولها التغيير ، وإلا انحرف الدين نفسه ، ولذلك فإن ما قرره (فى صفحة ١٠٨) من أن ، المتعلمين من أبناء الجيل الحديث لا ينظرون إلى العبادات على أنها مهمة ، وأنهم يكرهون هذه الحركات البدنية التى تؤدى فى الصلاة ، لا يصور الواقع ، حقاً هناك بعض المستهترين بل الملاحدة ، ولكنهم قلة وشذاذ ، وليس وجودهم دليلا على تغير الإسلام ، وهؤلاء كانوا موجودين دائماً منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، ثم إن الصلاة فى الإسلام لها أركان لا تصح إلا بها ، من وضوء ونية وركوع وسجود وقراءة ما تيسر من القرآن إلى غير ذلك ، وكذلك فى المسيحية طقوس وأسرار لا يكون المسيحى مسيحياً

إلا باتباعها ، اللهم إلا إذا خرج عن دينه وأصبح لا دينياً أو حر الفكر أو ملحداً .

اختتم الأستاذ دردج مقاله بأن الإسلام والقومية العربية ارتبطا منذ ظهور محمد حتى اليوم ارتباطا وثيقا ، وسيظل الدين يلعب دوراً هاماً فى القومية مستقبلا ، ونحن نوافقه على ذلك كل الموافقة .

ومن هذا المقال ننتقل إلى بحث آخر عن الإسلام وسياسة مصر الخارجية ، يستهله صاحبه بقوله : «مع أن الرئيس جمال عبد الناصر يبدو أنه يحاول استبدال الاشتراكية الثورية بالأساس الإسلامى لشخصية مصر العربية ، إلا أن مركز مصر التاريخى فى العالم الإسلامى لا يزال حاسما من الناحيتين الثقافية والسياسية ، عندما ننظر إلى الدور الذى يلعبه الإسلام فى السياسة الخارجية والداخلية » .

وقد رجع صاحب المقال إلى خطب الرئيس قبل الميثاق ، وإلى الميثاق نفسه ، كما ناقش آراء المفكرين المصريين حول علاقة الإسلام بالقومية العربية ، وهل هما منفصلان أم متصلان . يقول الكاتب (ص ١٣٣) : إن وحدة العرب فى نظر عبد الناصر ترجع إلى أمور أربعة (١) تحرر الدول العربية حديثا من الاستعمار الأجنبى (٢) رغبتها فى التجديد اقتصاديا واجتماعيا (٣) تطلعها نحو القوة والوحدة (٤) الإيمان بالإسلام ، وقد نسى الكاتب أن يضيف إلى هذا كله وحدة اللغة ووحدة التاريخ والأمل .

وقد أشار الكاتب إلى بعض المفكرين المصريين ، ومنهم الأستاذ أحمد حسن الزيات رئيس تحرير مجلة الأزهر (١٤٢) ، الذى يقول عنه : إنه أكثر الأزهريين تطرفا فى القول بأن ثورة ناصر ستكون مرادفة لخلاص المجتمع العربى الإسلامى ، وإعادة مجد الإسلام وقوته .

لن يتسع المجال لعرض المقالين الأخيرين عن أثر الإسلام فى الدول الإفريقية ، وعن الجامعة الإسلامية فى العالم الحديث . ونود القول : إنه على الرغم من اختلافنا مع الباحثين فى بعض آرائهم ، إلا أن المجهود المبذول ، والبحث العميق ، والتحرى الدقيق ، كل ذلك يستحق التنويه ، ومنه يتضح أن سياسة الغرب تجاه الدول العربية والإسلامية لا تجرى مع الهوى جزافاً ، بل نتيجة البحث الموضوعى ، وتحليل الأمم الإسلامية إلى عناصرها المكونة لها . وبهذا التحليل الواعى يتيسر للغرب وضع السياسة التى تحقق أغراضه ، وتجعله ينجح فى تحقيقها .

وجدير بنا أن نتدبر هذه المباحث ، ونفطن إلى المقصود منها ، وأن نعمل على حفظ تراثنا الإسلامى ، وإعادة مجده ، ونفض ما علق به من تقاليد بالية جامدة ، وأن نسير بهذا الدين القويم الذى هو روح الأمة العربية بما يتفق مع حاجات مجتمع القرن العشرين ؟

أحمد فؤاد الأهوانى



للأستاذ : تحسين عبد الحى

الإسلام والمسلمون
فى غرب إفريقيا

تأليف : الدكتور عبد الرحمن زكى

خضعت إفريقيا منذ قرنين إلى أبشع أنواع الاستغلال الاقتصادى والعنصرى الذى اتسمت به الحركة الاستعمارية العالمية .. فمنذ أن وطئت قدم الرجل الأوربى أرض إفريقيا ، وحياة شعوبها أشبه بمأساة دامية لا يبين أولها من آخرها . فلقد استولى الاستعماريون على كل شىء ولم يتركوا لأصحاب البلاد الأصليين حتى القوت الضرورى ، مما جعل الإفريقيين تحت ضغط الحاجة الملحة ، وحق الحياة ، يعملون أجراء لدى المالكين الغرباء ، وبأجور بخسة وبطريقة أقرب إلى السخرة . ويخرج الإفريقى إلى سوق العمل وإلى المناجم والحقول ، حيث يساق مع أبناء جلدته كالسائمة داخل معسكرات العمل وحظائر تخصص لهم ، ويحضر الرجل الأبيض صاحب الصناعة أو الفلاح الأوربى أو سيدة المنزل ، إلى هذه الحظائر والمعسكرات ليختاروا منهم من يشاءون لاستخدامهم فى المصانع أو المنازل أو الحقول ، أما فى المدن فعلى الرغم من الحاجة إلى أيديهم فإنه لا يسمح لهم بالبقاء فيها ، وإذا قدر لأى إنسان أن يزور اتحاد جنوب إفريقيا أو روديسيا راعه ما يشاهده فى الحدائق العامة ومداخل المدن ومحطات السكك الحديدية والقطارات والسيارات "عامة.. الخ ، حيث يرى فى هذه الأماكن لافتات كتب عليها « غير مسموح للإفريقيين ولا للكلاب » ولن تنسى إفريقيا فظائع الاستعماريين البلجيكيين فى الكونغو ويكفى أن نذكر على سبيل المثال أنه فى خلال حكم (ليوبولد) قتل ما يقرب من ثمانية ملايين إفريقى ، قتلهم الإداريون الأوربيون الذين كانوا يبحثون عن العاج والمطاط ، ولقد كان الإفريقى

الذى يعجز عن جلب الكمية المطلوبة منه من المطاط أو العاج للرجل الأوروبى ، يتعرض للتشويه ، تقطع يده أو رجله . وهكذا عاشت إفريقيا طوال تاريخها مع الاستعماريين الأجانب ، الذين دخلوا إلى إفريقيا وراء المبشرين بالدين . . ولا يسعنا هنا إلا أن ننقل كلام أحد المواطنين الإفريقيين الذى نشر فى كتاب القومية الإفريقية ترجمة عبد الواحد الإمبابى ، عندما قال : « لقد أتى المبشر إلى أرضنا ، وطلب منا أن نعبد الله معه ، وأمرنا أن نغمض أعيننا زيادة فى الخشوع ففعلنا . . وعندما قلنا فى نهاية الصلاة آمين ، وفتحنا أعيننا وجدنا الإنجيل فى أيدينا ، ولكننا لم نجد أرضنا التى ضاعت منا » .

وبهذه الوسيلة وغيرها من الوسائل الفتاكة ضاعت إفريقيا . ولكن إفريقيا التى أذلها الاستعماريون ، طوال هذه الفترة تعنى بالنسبة لنا أكثر من كونها مجموعة من المستعمرات أو من دول لا تحمل من الاستقلال سوى علم مزيف ومقعد فى الأمم المتحدة ! لأننا فى الواقع جزء منها ، وتضم إفريقيا أكثر من ٧٢ ٪ من مساحة وطننا العربى الكبير ، وبالإضافة إلى ذلك فإن أكثر من خمسة وتسعين مليونا من المسلمين الإفريقيين ما زالو يعيشون تحت استبداد السلطات الاستعمارية وعملائها واحتكاراتها .

ولهؤلاء المسلمين وأجدادهم العظام دورهم الذى لن تنساه إفريقيا فى محاربة الاستعماريين المعتدين إذ وقف السلطان سعيد فى (زنجبار) والزبيرى باشا فى حوض النيل الأعلى ، والسلطان رابح فى حوض (تشاد) وهو الذى هزم الفرنسيين ثلاث مرات متوالية ، وما زال الناس فى أواسط إفريقيا يتغنون ببطولته الخارقة كأسطورة قومية ضد الاستعمار ، وكذلك الإمام المهدى وخليفته فى السودان ، وماء العينين فى (موريتانيا) وكذلك حميد بن محمد بن جمعة المرجبى أو (تيبوتيب) فى حوض الكونغو . كل هؤلاء الرواد حاربوا الاستعمار وثاروا عليه . وعن هؤلاء المسلمين فى إفريقيا يتحدث كتابنا لهذا العدد « الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقيا » مبينا دور الأمة العربية فى إمدادها لشعوب القارة — طوال العصور الماضية — بالهداية الإسلامية ، مضفية عليها ثدر استطاعتها الكثير من معالم الحضارة الإسلامية .

يقول الكتاب :

لقد انتشر الإسلام فى مناطق الساحل الغربى بين موريتانيا فى الشمال ، والسنغال وغينيا وغانا فى مرحلته الانطلاقية الأولى ، ثم كان لقبائل الفولة الفضل فى نشره فى منطقة السنغال فى القرنين ١٦/١٧ . وقد تحمس المسلمون لدينهم لدرجة واضحة فيما بين ١٧٧٦ ، ١٨٨٠ . وفى القرن التاسع عشر

أسلم كثير من أفراد قبائل (الولوف والليبوس)، وفي القرن السابع عشر انتشر أتباع الطريقة القادرية في غينيا، ولا سيما بين قبائل (الفولة). وانتشر الإسلام في (مالى) في أخريات القرن ١٣ أو ما قبل ذلك، كما تسربت الطريقة القادرية التي تفرعت عنها القادرية البكائية وكان ذلك بهمة الشيخ عمر البكاى، ومن ثم كثرت المراكز الإسلامية والمعاهد.

ودخل الإسلام المنطقة التي تحتلها اليوم جمهورية ساحل العاج، ولا سيما في الشمال. بفضل الجماعة الإسلامية الأولى التي اعتنقته في القرن الثالث عشر في أثناء سطوة دولة مالى، وكانت أهم مراكز المسلمين في (توبة وكونج واندوكو وجويلة)، ولكننا نلاحظ أن المد الإسلامى قد تراجع هناك بعد اضمحلال نفوذ مالى حوالى القرن الخامس عشر، ثم استرد مكانته في النصف الأول من القرن التاسع عشر حينما نهض الزعيم الروحى عمر تال بدعوته في السودان الغربى.

وانبثق نور الإسلام في (داهومى)، ولاسيما في مناطقها الساحلية، فيما بين عامى ١٧٠٠، ١٧٢٠ بواسطة التجار القادمين من (كانو ـ شمال نيجريا) الذى عرفوا باسم المعلمين، وقد وفدت هجرة إسلامية قوية بزعامة مشايخ القادريه من الشمال الشرقى منذ القرن السابع عشر، ثم انتشرت التيجانية بعد عام ١٨٧٠، كما نشط مسلمو مدينة (بورتونوفو) وعملوا بهمة في سبيل الدعوة وأقاموا المدارس الدينية كما شيدوا المساجد.

وقد انتشر الإسلام في شمال نيجيريا بفضل الإمبراطوريات الإسلامية التى ضمت هذه البلاد إليها، وهى مالى وصنغاى وبرنو، ومنذ ذلك الحين سادتها في فترات كثيرة روح إسلامية قوية، ومن أهمها تلك الحركات المباركة التى نهض بها الشيخ عثمان ابن فوديو والشيخ محمد الأمين الكانمى.

ويعرض الكتاب بعد ذلك لدور الامبراطوريات الإسلامية ــ التى شيدها المسلمون في إفريقيا قبل الاحتلال الاستعمارى بمئات السنين، ومن هذه الإمبراطوريات إمبراطورية مالى الفتية. التى اهتم بها طائفة لا بأس بها من مؤرخى العرب ورحالتها ومنهم البكرى، والإدريسى والعمرى وابن خلدون وابن بطوطة، والقلقشندى في القرن الخامس عشر صاحب «صبح الأعشى»، وقد أجمع كل المؤرخين على أن فترة الازدهار الحقيقية لإمبراطورية مالى كانت في عهد عاهلها العظيم منسا موسى (١٣٠٧ ــ ١٣٣٢) حيث انتعشت في عهده التجارة والعلوم في تمبكتو، وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربى، ولا سيما بعد انتقال سوق الذهب إليها، كما اجتذبت التجار من درعة وسوس وسجاجلة وفزان ومن مصر أيضاً.

وعندما مات منسا موسى عام ١٣٣٢ ترك وراءه إمبراطورية مهيبة الجانب متقدمة على دول إفريقيا الزنجية ، فى اتساع رقعتها ، وفى أحوالها الاقتصادية ، والثقافية ، بل وفى نظامها الاجتماعى .

ويمكن أن تقول بحق : إن منسا موسى كان رائداً لفكرة إنشاء اتحاد إفريقية الغربية ، حيث كان الرجل المالى فى أيامه لا يشعر بالغربة ، سواء أقام فيما يعرف اليوم بغامبيا أو سيراليون أو غانة ، حيث كان لا يعرف إلا موطناً واحداً يعيش فيه هو « مالى » .

وقد أمدنا ابن بطوطة بمعلومات قيمة عن مجتمع مالى ، فقال : « إن من أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شىء منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً ، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن الكريم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه » .

وكان لمالى صلة قوية بمصر فى أيام المماليك الشراكسة . وكان للتكاررة (نسبة إلى تكرور أى مالى) جالية كبيرة فى مصر منذ العهد الفاطمى ، وعرفت مدينة بولاق « ببولاق التكرور » — « بولاق الدكرور الحالية ، نسبة إلى أحد الصالحين التكاررة ، وهو الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكرورى ، وكان يعاصر الخليفة العزيز الفاطمى وخصص فى الأزهر رواق من أروقته للتكاررة عرف باسمهم .

ويتحدث الكتاب بعد ذلك عن دولة سنغاى الكبرى ثم عن دولة كانم وبجرمى ووادى ، ثم عن إمبراطورية الفولة وحركة الإصلاح الدينى — التى قام بها عثمان دان فودبو . وينتقل بعد ذلك إلى الإسلام بين قبائل غرب إفريقيا ، ثم بين الطرق الصوفية فى غرب إفريقيا مثل القادرية والفضلية ، والمريدية ، والشريفية ، والتيجانية .

ثم ينتقل إلى الحديث عن الإسلام فى جمهورية موريتانيا — فى الوقت الحاضر . التى يبلغ عدد سكانها حوالى المليون من المسلمين ، وفى جمهورية مالى حيث يشكل المسلمون ٧٥ ٪ من عدد السكان ، وكذلك جمهورية السنغال حيث يصل المسلمون إلى ما يزيد على ثلاثة أرباع المجموع الكلى لعدد السكان ٧٥ ٪ وهم حوالى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ويقدر عدد المسيحيين بمائة ألف والباقى من الوثنيين .

وفى جمهورية جامبيا المستقلة يصل المسلمون فيها إلى أربعة أخماس عدد سكانها ، ويزيد

المسلمون على نصف عدد السكان فى جمهورية غينيا . ومازال الإسلام ينتشر بصورة مذهلة فى غينيا وخاصة بين القبائل السوسو . أما فى سيراليون فيؤلف المسلمون حوالى ٥٠٪ من عدد السكان البالغ عددهم ثلاثة ملايين تقريباً . ويلاحظ أن العروبة وانتشار الإسلام نهضا بسرعة أذهلت المؤسسات المسيحية فى أثناء نصف القرن الأخير . ففى عام ١٨٩١ كان عدد مسلمى سيراليون وهى (مستعمرة) ١٠٪ من السكان ، وارتفعت هذه النسبة إلى ١٤٪ فى عام ١٩١١ ، ثم أصبحت فى عام ١٩٣١ حوالى ٢٧٪ ، وفى عام ١٩٥٢ تجاوزت النسبة ٥٠٪ - وفى عاصمتها « فريتون » تتنافس القبائل المسلمة فى بناء المساجد ، فإذا بنت قبيلة مسجداً سارعت الأخرى إلى بناء مسجد آخر ، وقد أصبح فيها وحدها أكثر من عشرة مساجد بالرغم من صغرها ، منها الجامع العتيق والجامع الجليل ، وجامع القدس ، وجامع السلام ، وجامع الاجتهاد ، بالإضافة إلى المساجد الأخرى التى يطلق عليها أسماء القبائل الإسلامية ، كالتمنى ، والمنندى ، وهما أكبر القبائل هناك . وقد تخلوا عن معظم تقاليدهم الوثنية .

ويستعرض الكتاب بعد ذلك عدد المسلمين فى غانا حيث يكون المسلمون أكثر من ٢٥٪ من عدد السكان ، وداهوف حيث يزيد عددهم على ٥٠٠ر٢٥٠ مسلم أى بنسبة حوالى ٢٠٪ من عدد السكان ، وينتشر الإسلام فى داهوف بسرعة مذهلة أيضاً ولاسيما فى الشمال حيث يكثر علماء الدين والدعاة والوعاظ . ثم ينتقل الكتاب بعد ذلك إلى « توجو » التى تضم ٥٠٠ر٤٥٠ مسلم ، وجابون ، وساحل العاج .

أما فى نيجريا التى يصل عدد سكانها إلى ٥٤ مليون نسمة ففيها أكثر من ٣٩ مليون مسلم ، وحوالى ٩ ملايين من المسيحيين ، بالإضافة إلى ثلاثة عشر مليونا من الوثنيين ، وما زال الإسلام يكسب أرضاً جديدة كل يوم بانضمام جموع غفيرة من الوثنيين إلى الدين الإسلامى الحنيف . وقد انتشر الإسلام فى نيجريا انتشاراً سريعا أذهل رجال الإرساليات التبشيرية وذلك على الرغم من إمكانياتهم الأدبية والمادية ، حيث فشلت كل محاولاتهم فى الشمال النيجيرى .

أما فى النيجر فإن ٨٣٪ من السكان مسلمون ، وتقدر نسبة المسلمين فى تشاد بأكثر من ٦٥٪ من عدد السكان ، ويزيد مسلمو الكمرون على ٣٠٪ من عدد السكان .

فلاشك أننا بعد هذا الاستعراض السريع لمسلمى غرب إفريقيا نستطيع القول بأنه

يتحتم علينا أن يكون لنا دورة أكثر فاعلية فى نطاق العمل الإفريقى التحررى . وبخاصة بعد أن كشف الاستعماريون القناع عن وجوههم البشعة أخيراً . حيث قدروا العودة إلى إفريقيا من الأبواب الخلفية عن طريق عملائهم الانقلابيين ، لقد قتل الاستعماريون أحمدو بللو ، وأبو بكر تافارا باليو ومثلوا بجثثهما ، وشردوا وقتلوا ، وهم على استعداد لأن يفعلوا أى شىء محافظة على نفوذهم واحتكاراتهم ، ومن ثم يجب على كل من يهمه أمر حرية إفريقيا أن يعى تماماً أن لكل هذه الانقلابات الأخيرة مغزاها الحقيقى المؤثر فى مجرى الأحداث العالمية . . إن الاهتمام بقضايا إفريقيا ومشاكلها يجب أن يخرج من نطاق العمل العاطفى إلى نطاق الوعى الكامل بالأحداث التى تدور من حولنا . ولعل كتاب (الإسلام والمسلمون) فى غرب إفريقيا قد فتح المجال واسعاً أمام احتمالات الدراسة الجادة لكثير من القضايا ، وعلى الرغم من أن الكتاب يلتزم بالمنهج العلمى الدراسى .. فإننا يجب أن نعترف بأن قضايا إفريقية الحيوية تزيد كثيراً على مجرد السرد التاريخى لأحداث مضت من خلال السلاطين الحاكمين . إذ أننا يجب أن نهتم إلى جانب ذلك بحركة الشعوب ذاتها وتطلعاتها المشروعة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية والتقدم . ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا حاولنا أن نقوم بمزيد من الدراسات الجادة حول النظم الاجتماعية والتركيبات الطبقية للمجتمعات الإفريقية .. حتى نستطيع أن نقدم مساعداتنا وخبراتنا كحلول جذرية للمشاكل الملحة التى تواجه المجتمعات الإفريقية .

* * *

الإمام البخارى

محدثاً وفقيهاً

تأليف : الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم

الدار القومية للطباعة والنشر

صدور هذا الكتاب فى هذا الوقت يعتبر تلبية سريعة للحاجة الملحة إليه . فقد شاءت الظروف ، وللمفارقات حكمها ، أن تثور فى هذا الوقت ضجة كبيرة حول صحيح البخارى وأن يتعرض جامعه الصحيح للطعن وتنوشه السهام ممن يعرفون وممن لا يعرفون ، وكأن المؤلف كان ينظر بلحظ الغيب حين تعرض لجوانب الاعتراضات والمغامز وأجاب عنها بما يدفعها ويدفع أصحابها إما بالجهل أو التحامل . وهو يشعر أن الهجوم على إمام المحدثين وعلى كتابه إنما هو هجوم على الإسلام قبل كل شىء إذ هو هدم لركن حصين اعتمد عليه المجتهدون من عهد البخارى إلى اليوم .

وهناك سؤال يشعر الإنسان بالحاجه عليه ويعجب له عند ما يشرع فى قراءة هذا

الكتاب كيف ظل البخارى وهو إمام الحديث طوال هذه المدة من غير أن يكتب عنه كتاب مستقل يوضح جوانب حياته العلمية ويشرح نشأته والظروف التى أحاطت به والعوامل التى كونت عقليته ووجهته هذا التوجيه ؟ أما وجدت دوافع طوال هذه هذه السنين تدفع بمؤلف إلى إخراج كتاب جامع عنه ؟ وهل يليق بإمام كهذا أن تظل المعلومات عنه مبعثرة هنا وهناك من غير أن تجمع ويتناولها الدرس والبحث طوال هذه السنين ؟

سؤال له مكانته فى النفس ولا ريب ، ومن المعروف أن مدرسة فقهية قام اجتهادها على الحديث أكثر من غيره بدأت من عهد ابن تيمية وظلت أفكارها تعمل فى عقول الناس إلى يومنا هذا فكيف سكتت هذه المدرسة عن مثل هذا الإمام ولم تفصل حياته ؟

يبدو أن أكثر المعنيين بتاريخ التشريع كانوا يتجهون إلى صحيح البخارى بالدرس لأنه هو الذى يعنيهم ويتعلق به عملهم أما تفصيل حياة الإمام والحديث عن جوانبه العقلية فلم يكن من صميم بحوثهم ولا مما تتأكد صلته بعملهم .

وبهذا بقى هذا البحث حتى كان الدكتور الحسينى أول رواده .

وقد وفى المؤلف هذا البحث فى بابين ضافيين أولهما عن : نشأته وحياته العلمية وثانيهما عن : حياته العامة . وإذا جاز أن أختلف معه على الشكليات العامة فإنى كنت أوثر أن تكون المقدمة التى كتبها عن مكانة السنة فى الدين الإسلامى ، وعن حركة تدوين الحديث قبل البخارى تالية لهذين الفصلين لا سابقة لهما وذلك لتكون متصلة بالحديث عن الجامع الصحيح والدراسات التى خصه بها .

وإذا نحن استثنينا الباب الرابع الذى تحدث فيه عن فقه البخارى نجد بقية الكتاب دراسة للجامع الصحيح . فى الباب الثالث تحدث عن هذا الكتاب ومنهج البخارى فيه وشرح مكانته فى السنة وعرض لآراء الكثيرين من القدامى والمحدثين فيه ، ويبرز فى هذا المنهج نزعتان للمؤلف تشيعان فى الكتاب كله فهو من ناحية حريص على الدفاع عن البخارى وعن كتابه حريص على البعد عن مسه بأى نقد ، وقد يرجع هذا إلى مكانة البخارى فى نفسه كما يرجع إلى نزعته الدينية ومن ناحية أخرى يحرص على تتبع آراء الغربيين فى مختلف الجامعات الأوروبية ومختلف المؤلفات ليناقشها ويرد عليها إن كان فيها ما يدعو لذلك . وهو لعروبته البحتة يكتب أسماء هؤلاء الكتاب الغربيين بحروف عربية وحدها فلا يمكن النطق بها نطقا سليما .

وقد وقف بنا متأنيا أمام نقاد البخارى ليعرض وجهة نظرهم أولا ثم يرد عليها فيدحضها ثانيا . واستغرقت دراسته النقدية

ثلاثة فصول هي أقوم ما في الكتاب ، وهي تحمل بين طياتها أقوى ما يرد به على الثورة الأخيرة التي قامت حول البخاري ومنهجه ورمى كتابه بأنه يحوى الصحيح وغير الصحيح ، وقد ذكر المؤلف عدداً من الأحاديث التي عيبت على البخاري فبين خطأ الناقدين في الفهم أحياناً ومتابعتهم بعض المستشرقين أحياناً أخرى .

وخص المرحوم أحمد أمين من نقاش المؤلف جانب أوسع على ما كتبه عن البخاري وصحيحه في فجر الإسلام وضحاه ، وهو يسوقه مع المستشرقين مساقاً واحداً وما كنا نحب ذلك منه ، والدكتور أحمد أمين بعد أن ذكر عدداً من أحاديث البخاري التي لم تستوف شرائطها والتي يرى أنها ضعيفة أو غير صحيحة لاحظ أن رجال الحديث وجهوا كل عنايتهم إلى السند أعنى سلسلة رواة الحديث ولم يهتموا بنقد المتن نفسه كما لم ينظروا للظروف المحيطة به وهل هذا التعبير يلائم عصر النبي أولا يلائمه ... الخ وقد رد المؤلف كلا من الجانبين على حدة .

أما الأحاديث التي كانت موضع نقاش ونقد فبعضها لم يكن مفهوما على وجهه الصحيح مثل حديث : لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة . الخ فقد فهمه المعترضون على أن العالم يفنى بعد مائة سنة ، وبين المؤلف أنه جزء من حديث كامل ذكره هو ووضح المعنى المقصود من أن الرسول أخبر أصحابه أن لا يعمر واحد منهم أكثر من مائة سنة ، وقد مات آخرهم وهو أبو الطفيل عامر بن واثلة قبيل نهاية المائة من ذكر الحديث وكذلك شأن الأحاديث الأخرى إذ دافع عنها دفاعا علمياً مشكوراً .

وأما الجانب الثاني وهو قلة العناية بالمتن فقد رده المؤلف بأن هناك محدثين أو دارسين للحديث فعلوا ذلك مثل ابن قيم الجوزية ، وابن دقيق العيد وهو رد كما ترى لا يكفي لأن هؤلاء من المتأخرين الذين جاءوا بعد جمع الحديث والفراغ من تأليفه ، فلا حجة بهم على صاحب ضحى الإسلام ، ونلاحظ أنه لم ينف هذه العناية أصلا وإنما ذكر أنها ضئيلة جداً بجانب العناية بالسند . والأستاذ أحمد أمين لا يسوق هذا مساق الاعتراض وإنما هو يؤرخ مرحلة عقلية من حياة المسلمين ، ولم يكن في هذا الوقت فارق طويل من الزمن يؤثر في الأساليب هذا الأثر الذي لاحظه وأيضاً لم تكن اتجاهات النقد كما لاحظ .

وبوجه عام هذا الكتاب سلسلة من المعارك العنيفة ولكن مؤلفه عاد منها بمغانم ثمينة لدارسي الحديث كله لا لدارسي البخاري وحده .

ولعلي أعود لهذا الكتاب بحديث أطول وتفصيل أكثر ؟

أنباء وآراء

تقرير عن مصادرة مصحف باكستاني
المطبوع بمطبعة شركة تاج لطباعة القرآن بلاهور
إشراف الشيخ عنايت الله

وارد من السيد / عبد الفتاح محمد عطية شراق — أهدى إليه بالمدينة المنورة عام ١٣٨٥هـ قامت لجنة فحص المصاحف بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بمراجعة المصحف مقاس (الثمن) المكتوب بالخط المصرى برواية حفص والمطبوع بمطبعة « شركة تاج لطباعة القرآن بلاهور تحت إشراف الشيخ عنايت الله مقرر الشركة فى لاهور »

فوجدت به الأخطاء والملاحظات الآتية :

أولا : طبعت بعض صحائفه بصفة تغير نظم القرآن الكريم وترتيب سوره وآياته مثال ذلك :

رقم وجه الصفحة والسورة	رقم ظهر الصفحة نفسها والسورة
٢٥٣ يس	٣٩٠ الشورى
٣٦٩ الزمر	٤٠٦ محمد
٣٩٩ الجاثية	٣٦٤ ص
٣٥٧ الصافات	٣٨٦ الشورى
٤٠٣ الأحقاف	٢٧٦ غافر
٢٩٥ الزخرف	٢٦٨ الزمر
٢٦١ الصافات	٣٩٨ آخر الدخان وأول الجاثية
٣٩١ الأحزاب	٣٥٦ آخر يس والصافات
٤٠٧ محمد	٢٧٢ الزمر
٣٦٥ ص	٢٩٤ الزخرف
٣٨٧ الشورى	٣٦٠ الصافات
٣٧٧ غافر	٤١٤ سورة ق

ثانياً : به صحائف ساقطة بأكملها وهى الصحائف الآتية :

٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٢٨٣ .

ثالثاً : وجد به سقوط لبعض الحروف وأخطاء فى الحركات تغير المعنى وقد أشر عليها بهامش المصحف المذكور .

رابعاً : ضبط مخالف لما قرره علماء الضبط .

وقدرأت اللجنة إزاء هذه الأخطاء الكثيرة

وجوب مصادرة هذا المصحف وعدم الإذن بتداوله ونشره صوناً لكتاب الله تعالى من العبث والتحريف .

مدير البحوث والنشر بالأزهر
دكتور (عفيفى عبد الفتاح)

● صرح السيد عبد الفتاح حسن وزير الدولة لشئون الأزهر فى حديث صحفى بعدة أمور تناولت جوانب هامة يدور الاستفسار كثيراً عنها فقد سئل سيادته : لماذا لم تصدر اللائحة التنفيذية لقانون تطوير الأزهر حتى الآن وقد مضى على إصدار القانون أكثر من خمس سنوات ؟

فأجاب : لقد تم فعلا إعداد اللائحة ، وسبب التأخير فى إصدارها محاولة التنسيق بين جامعة الأزهر والجامعات الأخرى ، وهناك لائحتان : الأولى للأزهر وإداراته وهيئاته ، والثانية لجامعة الأزهر وفى خلال أسابيع قليلة ستصدر اللائحتان

وعندما سئل سيادته عن موعد انعقاد مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الثالث أجاب : سيجتمع — إن شاء الله — فى أواخر سبتمبر القادم .

ونفى سيادته ما أشيع عن احتمال وجود سياسة جديدة بالنسبة للتعليم فى الأزهر ثم قال : المهم أن ندعم السياسة القائمة حالياً ، وهدفنا هو التعليم الدينى والنهوض به ، والاحتفاظ بكيانه حتى يحقق رسالته :

وقال سيادته - بشأن كثرة المواد المقررة على طلبة المعاهد الدينية - : .. نحن نعمل على إعادة النظر فى المواد التى تدرس فى المعاهد الأزهرية ، وفى مدة الدراسة أيضاً وسنحاول التنسيق بين سياسة المعاهد الأزهرية وسياسة التعليم العام فى الدولة ، وسنحقق ما فيه مصلحة الطلاب ، ومصلحة الوطن والأزهر .

● قررت إدارة المعاهد الأزهرية افتتاح فروع للتعليم الابتدائى الأزهرى بمعسكرات اللاجئين بغزة ، وقد تم إنشاء مدينة أزهرية تضم مساكن الطلبة والعلماء ، ومبنى المعهد الذى يضم المرحلتين : الإعدادية والثانوية ، وكذلك تم بناء أول فرع للتعليم الابتدائى ، وتدرس الجهات المختصة إنشاء أول كلية فى المدينة تتبع جامعة الأزهر فى القاهرة .

● دكتوراه بتقدير ممتاز فى البلاغة والأدب .

حصل الدكتور عبد اللطيف عبد الغنى خليف مدير مكتب الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية على شهادة العالمية من درجة أستاذ (دكتوراه) بتقدير ممتاز فى البلاغة والأدب بعد مناقشة رسالته : مسلم بن الوليد : حياته وشعره .

جرت المناقشة مساء الخميس ٢١ من المحرم ١٣٨٦ الموافق ١٢ من مايو ١٩٦٦ فى مدرج كلية اللغة العربية ، وقد استمرت أكثر من ثلاث ساعات .

وكانت لجنة المناقشة برياسة الدكتور محمد نايل رئيس قسم الأدب والنقد فى الكلية ،

وعضوية الأستاذ الشيخ أحمد الشمراوى وكيل كلية البنات الإسلامية ، والأستاذ الشيخ عبد الحسيب طه وكيل كلية اللغة العربية وقد أعلنت اللجنة منحه الدرجة العلمية بتقدير ممتاز.

● وافقت لجنة الخدمات الثقافية والإعلام بمجلس الأمة على اقتراح من العضو محمد حافظ سليمان - مفتش الوعظ بالأزهر سابقاً - بتطوير محطة إذاعة القرآن الكريم بأن تقدم برامج دينية ، وأن تقوى المحطة حتى يمكن أن تصل برامجها إلى الدول الإفريقية والآسيوية لنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة على أوسع نطاق .

وقد عقد مجلس التخطيط الأعلى بوزارة الإرشاد القومى - عقب ذلك - اجتماعا هاما برئاسة السيد أمين هويدى وزير الإرشاد تقرر فيه تنفيذ هذا الاقتراح بحيث يتناول : تدعيم برامج محطة إذاعة القرآن الكريم بإضافة مواد فى تفسيره ، وفى خدمة تلاوته .

● قررت الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم تخصيص جائزة تحمل اسم الرئيس : جمال عبد الناصر لتشجيع حفظ القرآن الكريم ، وستكون الجائزة من درجتين :

(ا) كأس فضية تأخذها المحافظة التى تقدم أكبر عدد من حفظة القرآن الكريم ، سواء كانوا من طلاب المعاهد الدينية أو مدارس الجمعية أو غيرهم .

(ب) كأس لكل محافظة على حدة تحمل شعار هذه المحافظة ، وتعطى للمعهد أو المدرسة التى تقوم بتخريج أكبر عدد من الحفاظ باعتبارها الأولى فى محافظتها .

● قررت مشيخة المقارىء العربية إصدار مكتبة قرآنية كاملة تبدأها بثلاثة كتب : « مع القرآن الكريم » ، و « أحسن الأثر فى تاريخ القراءات الأربع عشرة » ، و « السبيل الميسر فى قراءة الإمام أبى جعفر » والكتب الثلاثة من تأليف الشيخ محمود خليل الحصرى المستشار الفنى لوزارة الأوقاف بالجمهورية العربية المتحدة .

● أعدت وزارة الأوقاف بالجمهورية العربية المتحدة مشروعا هاما خاصاً بأداء الخدمات الدينية فى مناطق الأراضى المستصلحة لتيسير إقامة الشعائر الإسلامية على المواطنين الذين استقروا فى هذه المناطق ... وضع تخطيط المشروع على أساس إنشاء مسجد فى كل مساحة قدرها ١٣٥ فدان ، وقدرت تكاليف المسجد بنحو خمسة آلاف جنيه ، ثم إنشاء مساكن للموظفين بمبلغ ٢٤٠٠ جنيه ، وإنشاء مساكن للعمال بمبلغ ستمائة جنيه ، وبذلك يعتمد للمنطقة الواحدة مبلغ ثمانية آلاف جنيه ، وقد اتفقت وزارة الأوقاف على تنفيذ هذا المشروع مع المؤسسة العامة لتعمير الصحارى .

● عثر على مخطوطين من تأليف المغفور له الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر السابق بمكتبته : الأول باسم « التضامن الاجتماعى

فى الإســـلام » ، والثانى باسم « السلام والإسلام » ، وقد تقرر نشرهما.

● أهدت الجمهورية العربية المتحدة خمس مكتبات إسلامية إلى كل من : الجمعية الإسلامية بتنزانيا ، والمركز الثقافى الإسلامى فى هونج كونج ، والجمعية الإسلامية بسنجام فى الهند ، والجمعية العربية للمرأة المسلمة بسيلان ، والبرنامج الدينى بإذاعة ألمانيا .

وتضم المكتبات الخمس خمسة عشر ألف مجلد وكتاب إسلامى تتحدث عن أركان الإسلام باللغات : العربية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والأردية ، والألمانية .

● أصدر السيد أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف قراراً بإيفاد بعثات من قراء القرآن الكريم للعمل على تحفيظه لأبناء المسلمين فى مختلف المعاهد والمدارس بالبلاد الإسلامية .

● افتتح الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس لوزراء للثقافة والإرشاد القومى المركز الجديد للمعهد الإسلامى فى « مدريد » عاصمة أسبانيا .

● وافق السيد / السيد يوسف وزير التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة على إنشاء معهد عربى لتعليم اللغة العربيـــة فى (كوناكرى) عاصمة غينيا .

● فاز فى المسابقة الأدبية لمجمع للغة العربية عن « محمد توفيق البكرى : حياته وأدبه » الأستاذان : محمد رجب البيومى المدرس الأول بمعلمات الفيوم ، وماهر حسن فهمى المدرس بجامعة عين شمس والمنتدب بالعراق . كان عدد البحوث المقدمة خمسة .

● صدر عن المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربى المعجم الفقهى المالكى بالعربية والفرنسية من تدوين الأمين العام للمكتب الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، وقد استوفى فيه جميع المصطلحات المدونة فى كتب الفقه المالكى قديما وحديثاً .

● أصدر المستشرق المجرى « عبد الكريم جرمانوس » عضو مجمع البحوث الإسلامية كتابا عنوانه : « الأدب فى المغرب » .

● أصدر الكاتب الأردنى زيد الكيلانى كتابا عن إسرائيل باسم « سنوات الاغتصاب » .

● انتهت لجنة تقييم المخطوطات النادرة بجامعة القاهرة من مهمتها بعد أن استمرت فى أعمالها ثلاثة شهور أنقذت اللجنة خلالها نحو أربعة آلاف مخطوط كانت مهملة بالمكتبة العامة ، وسوف تقوم الجامعة بإعادة طبعها وتضم هذه المخطوطات علوما شرعية وعربية وفلسفية ، وأدبية ، وفنوناً متنوعة .

● انتهت لجنة توحيد المصطلحات للإدارة العامة من عملها فى توحيد المصطلحات المستعملة فى الدوائر والمصالح الحكومية بالدول الأعضاء بالجامعة العربية . وتواصل

اللجنة اجتماعاتها لبحث توحيد المصطلحات القانونية والمالية فى البلاد العربية .

● وفى بغداد انتهى مؤتمر التدريب العسكرى للجيوش العربية من توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية .

● طالب شباب المغرب من اتحاد طلاب الجمهورية العربية المتحدة عدداً من الكتب العربية التى تساعدهم فى معركة التعريب بالمغرب ، كما طالبوا بزيادة المنح القومية للشباب المغربى بالدول العربية .

● وافقت وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة على إهداء الأمانة العامة للجامعة العربية مجموعات من كتب المرحلة الابتدائية لتعليم اللغة العربية لتزويد بعض الجهات الأجنبية بها لمساعدتها فى تعليم مواطنيها اللغة العربية .

● أصدر فريق من الطلبة الألمانيين الذين اعتنقوا الإسلام مجلة سموها «صوت الإسلام» تتولى هذه المجلة الرد على المفتريات الموجهة ضد الإسلام من اليهود وغيرهم فى الصحافة والإذاعة الألمانية .

● أصدر وزير داخلية السنغال قراراً بمنع تشغيل الفتيات بمحال الملاهى والخمور ، ويمنع هذا القرار أيضا النساء والفتيات — حتى الصغيرات منهن — من ارتداء الملابس القصيرة التى تظهر الركبة ، وفى قرار لاحق لهذا القرار منع الوزير السهر بعد منتصف الليل ، وهذا القرار يقضى بإغلاق الملاهى فى نفس الموعد .

● قررت حكومة الكويت تقديم معونات لاتحاد الطلبة المسلمين فى الولايات المتحدة وكندا وأوربا ، وهيئة العلماء فى لكنهو بالهند ، ولجنة تأسيس المدرسة الإسلامية فى البرازيل ، والمركز الإسلامى فى مونتريال ، ومؤسسة الدعوة الإسلامية فى سورا بايا بأندونيسيا .

● صرح وزير خارجية تركيا بأن الحكومة التركية قد أغلقت عدداً من المكاتب السياحية الإسرائيلية فى تركيا ، وقال : إن تركيا تعمل على أن تكون علاقاتها بإسرائيل لا تؤثر على مصالح الدول العربية .

● وصلت إلى المغرب المكتبة الإسلامية التى أهدتها وزارة الأوقاف بالجمهورية العربية المتحدة للمغرب ، وتضم ثلاثة آلاف مجلد وعدداً من اسطوانات تعليم الصلاة باللغتين العربية والفرنسية .

● أصبحت اللغة العربية لغة «دولية» فى منظمة العمل الدولية .

● أبدت الجزائر فى العمل على تعريب النظام القضائى فى البلاد حيث يتم خلال هذا العام تعريب جميع القوانين حتى يمكن أن تتم بها مرافعات الادعاء والدفاع داخل قاعات المحاكم باللغة العربية بدلا من الفرنسية .

News from Muslim World

* The Grand Sheikh of Al-Azhar, H.E. Sheikh Hassan Mamoun, received during this month a number of Islamic and cultural delegations and discussed with them the matters relating to the cultural and religious developments of the muslim community in their countries.

He received, among others, a chinese cultural friendship delegation headed by Mr. loi changh, Deputy Minister for Foreign cultural Relations, the president of the Muslim Ladies Arabic College in Ceylon, Al-Haj Muhammad Ali Muhammad Abul Hassan, and President of the Indo-Arab friendship Society, Mr. Sharif I. Hussain Ahmed. He also received H.E. Lakdasa Re Mel, Bishop of the Church of India, Pakistan, Burma and Ceylon.

* H.E. Ahmed Abdu Sharabasi, Deputy prime Minister of U. A. R. and H. E. Sheikh Ahmed Hassan Al-Baquri, Rector of Al-Azhar university, visited India last month to acquaint themselves with the system of Islamic education and Arabic studies in India. They also met with the president, the vice-president, the prime Minister and muslim leaders and educationists.

* The supreme Council for Islamic Affairs gave a contribution of 3000 copies of Islamic books, 200 prayer records and a set of Quran recitation records to the muslim Ladies Arabic college in Ceylon.

* It appears that the three year old differences between the two great muslim Countries, Indonesia and Malaysia, will be solved soon by mutual negotiations and peaceful means.

* The U. A. R. Deputy primier for Culture and Information, Dr. Abdul kader Hatem, paid a state visit to Spain this month. During which he visited several Islamic monuments and historical places there. He also met with Genral Franco in his El-Pardo palace in Madrid.

M. ALWAYE

that the Islamic world in Asia has revolted against the shackles of political subordination and economic binding to Europe for many reasons. Some of these reasons may be attributed to the Islamic parties, some to the consequences of the first and second world wars, others to the appearance of generations of conscious citizens and good rulers. This consciousness must have been transported to Africa where muslims were the pioneers of the African liberation revolutionary movements which were originated in North Africa. This origination is only a matter of historical precedence. Egypt was the starting point for the procession of independence, then it proceeded to Soudan, Libya, Morocco, Tunis, Ghana, Guinea, Somalia and to other countries of West and central Africa. In all these areas Islam was the driving force which pressed the people forward. This may be quite evident if we know that the number of muslims, according to the latest statistics, is 80 millions while the christians were only 20 millions and the rest pagans and other religions. However, the proportion of muslims in the continent north of the Equator equals 90% of the total number of Africans.

On the other hand, Islam, for the Africans, is their own religion, not an importation, nor a religion of imperialists and invaders. It is one of the strong and active props which formed the character of the Africans and their society. It was, too, a more important factor in creating and propagating African languages, such as Arabic, Hausa and Sawahili. Islam is and will remain the huge progressive driving force which pushes the African peoples toward their desired future under its everlasting principles of freedom, justice and peace.

☆ ☆ ☆ ☆

President Jamal Abdul Nasser's May Day speech of this year was hailed by the leaders of the free world. The leader of the Najjada' party of Lebanon Mr. Adnan el-Hakim said that the speech of President Nasser was 'a slap in the face of Arab reactionary powers and the plotters who raise Islamic slogans'. Mr. Hakim added that President Nasser will remain, not only a leader of Arabism 'but a leader of Muslims' who acts according to the true spirit of Islam, away from fake slogans'.

looked after the roads of trade. It is a well-establised historical fact that the Islamic roads of trade linked Africa with Asia and Europe and made the centre of the area an integral part called the Islamic world.

Africa has witnessed, too, the ebb-tide of Islam, and suffered from its consequences when the continent was victimised by the foes who sucked its blood, divided it into units and regions and imposed on it their systems, religions and customs.

In this connection we can assert that the prime motive behind the geographical discoveries and the Portuguese explorations of the seas, was to destroy the muslims' economic and commercial power and to weaken them so as to make easy the seizure of their countries. Our source of reference as far as this point is concerned is the book "Asia and the Western Domination" by Sardar Panikar, a top authority on this historical epoch. He asserts, depending on Portuguese and Spanish documents, that the first objective of discovering a trading road to India and the Far East other than the road of Egypt and the Red Sea, was to reach the sources of wealth, to usurp it and to contain the muslims in the centre between Europe in the north and European troops in the far east. On the other hand, the portuguese worked to destory the Islamic towns and principalities in East Africa where Zanzibar, Malindy, Soufala... etc. are located, and spent several years destroying the regimes of these countries. After the Portuguese came the Duch, then the French and the British who engaged themselves in fighting the Islamic Emirates and tribes in West Africa and the Arab West.

If we refer to the European sources which treated the subject of invading and dividing the African continent, we get surprised by the role of European churches and christian missionary societies in this invasion. Livingstone, Stanley, Brazza,.. etc. represented societies of European churches, driven by the desire of fighting Islam. In Ugand, for instance, the Catholic and Protestant parties fought against one another, but when they found that their conflict leads to the strengthening of Islam, they joined together in league against the Islamic party. The alliance resulted in the victory of the Protestant party by force assisted by England.

Secondly : the other factor which influenced greatly and directly our present time in Africa is

is of the opinion that the continuation of this state is the rope of survival to the white culture whose seeds were sown in Africa by the Boer people.

Hence, we have to cast a free glance into these situations and search for their reasons including the heritage of both Islam and Christianity. Within the general framework of the relation between Islam and the political development of Africa, we should in the outset recognize the Islamic heritage at present in Africa, because this heritage is one of the factors which is now pressing the African continent forward in the way of development.

We can recognize the main outlines of this Islamic heritage in the following points :

First : Since the advent of Islam, the history of the continent has become that of Islam. It is true to say that Africa has had ancient history before the appearance of Islam, but it assumed a new position unknown of Africa before Islam entered the continent. The source of this report is Dr. De Graft Johnson, a Ghanaian author who, in his book "Glory of Africa" wrote the history of the continent from the point of view of the African nationalists.

Africa which had known the flood tide of Islam through which it lived, was reshaped and witnessed the Islamic influences getting deeper in its society. Even the names of African countries and towns were formulated by the Islamic thought from its earliest times till the time of modern European colonialsm.

The flood tide of Islam prevailed over the countries of North Africa from Sinai peninsula to the Atlantic Coast. Then it took the direction southwards to include the African Sahara, and eastwards to the Red Sea and Indian Ocean. Islam took another direction when it crossed the strait of Bab el Mandab and the Arabian Sea to the eastern coast of Africa beginning from Eritrea in the north to Mozambique in the south. Then the eastern tide met with the northern in Central Africa.

This Islamic tide was not a wave of war or invasion but of civilization, culture and belief, It was even a glorious event in the life of people as it conveyed them from the stages of bodage and primitiveness to the stage of the well-arranged society whose laws, customs and authorities are well defined. This cultural tide and the spread of its influences was strengthened because the muslims cared for and

The Effects of Islam in the Development of Africa

By : Abdul Khaliq Amer

Africa is now passing through an important phase of its history, and the number of Africans is getting an increase in the various fields of international relations. It, consequently, became a fertile field for numerous studies all over the world.

One of these studies is the study of religions and the scope of their relation to the development of Africa in general, and to the African political movements in particular. The core of this relation is that the African political movements are working against the links of subordination to Christian Europe. These political movements also look with doubt to the intents of the European religious men and churches. Take for example, the study made by Goerge Carpenter, secretary of the National Council of Churches in the United States, and commented on by Dr. Glora, member of the World Council of Churches. The study which dealt with the role of Islam and Christianity in shaping contemporary Africa was issued by an American publishing house under the title of "Africa Today".

When we speak of the relation of Islam to the political development we mean to make a pure scientific study, driven by a realistic situation evident in the north and south ends of the African continent.

In the north, lies the United Arab Republic which, drawing its African policy on the principles of Islam, supports peoples' selfdetermination, opposes racial segregation, consolidates independce and calls for non-alignment.

Whereas in the South, the situation christallizes in the policy of the South African government favoured by the teachings of the Duch Church which is the formal church of the state. Hence, it follows a policy of the fiercest forms of violence, terror and Apartheid, opposing any idea of equality between the whites and the coloured, consolidating the white domination and denying the role and rights of the coloured. The government of South Africa

the Banu Shaiba have retained this title until the present day.

In the year 64/683, the Kaba was destroyed by the Umaiyads during their seige of Mecca and the Black Stone was split into three pieces. After the Battle, Abdullah led the people of Mecca in the rebuilding and the Black Stone was replaced, bound together with a silver band. At this time certain alterations were made which were shortly afterwards removed by order of Caliph Abdul-Malik, when the Umaiyad army conquered Mecca in 74/693. From then on, apart from some renevation in 1011/1630 when the building threatened to collapse, the Kaba has kept its present form. Only once has the Black Stone been removed from the Kaba and that was in 317/930, when the Karmatians invaded Mecca and carried off the stone, only returning it after twenty years.

There is a very interesting view in Islamic cosmology which states that before the world was created, the Kaba was a focus in the flux of pre-existence and that the world was formed from this particular point. Thus it becomes the navel of the earth. Also, in Islamic cosmography, the Kaba corresponds with the Pole Star and as the latter is the highest point in the heavens, so the former is the highest point on the earth. For some, the Kaba and the Black Stone represent the throne of the Khalifa of Allah, Adam. For all, the whole area of Mecca is regarded as sacred and the Kaba as a sanctuary. Mecca is the capital of Islam and at every prayer all Muslims, in every part of the world, face towards this holy city; however one may remember the words of al-Arabi when he said that the true Kaba is our own being. Muhammad al-Fadl said : "I wonder at those whe seek His temple in this world and do not seek contemplation of Him in their hearts. The temple is sometimes attained and sometimes not, but contemplation may always be known. If they are bound to visit a stone, which is looked at only once in a year, then surely they are more bound to visit the temple in their heart — for there He may be seen every night and day of the year.

The Kaba is important to all Muslims and it is an inescapable part of the Islamic religion, all Muslims are under an obligation to make the pilgrimage to the Kaba. It is something wonderful and unforgettable to gaze upon this sanctum of Allah, for here is concentrated the adoration of millions. Islam rejects all forms of idolatrous worship and the Kaba is but a holy place where man has worshipped Allah since the time of Adam, no more, no less.

THE KA'BA

The Ka'ba is a simple stone structure about fifty feet square, which stands on a marble base in the middle of the great mosque of Mecca. To this cenfre of Islam come thousands of Muslims every year to pay homage to the One God, Allah. The outside of the Ka'ba is covered with a black brocade cloth, into which are woven the 'shahada' and verses from the Qur'ân. This 'kiswa' is renewed every year, at the end of the Hajj ceremonies the old kiswa is taken down and the new one hung in its place. The inside of the Ka'ba has no furnishing apart from numerous lamps of silver and gold which hang from the ceiling, this ceiling is supported by three wooden pillars rising from a marble covered floor. In the eastern corner of the room is the Black Stone, 'al-hajar al-aswad,' this is surrounded by a ring of stone which is encircled by a silver band. The four corners of the Ka'ba indicate the cardinal points of the compass, the front of the building faces north-east and contains the entrance, this door is a few feet from the ground and a detachable wooden staircase is used to enter the building.

There are many traditions and legends surrounding the Ka'ba and Black Stone, but it is accepted by all Muslims that the Ka'ba is the first sanctuary to be erected on earth and was built by Ibrahim and his son, Ismail. The Black Stone being the only original stone left after many years and many reconstructions. Historical reference to the Kaba is very limited before Islam and only begins at the time of Muhammad, when the Kaba was destroyed by fire and was rebuilt of stone and wood. It is said that when the time came to replace the Black Stone, the people of Mecca quarrelled for the honour and so Muhammad, placing the stone on his cloak, ordered the chiefs to take each end and carry it to its position. Thanks to his wisdom, everyone was pleased and no one was offended. It is known that before Islam, the Kaba became a place of heathen worship and that when Muhammad conquered Mecca there was found nearly four hundred idols around the Kaba. All these were destroyed and the building then purified to become once more a place of true worship, all idolators were forbidden to enter Mecca and in the year 10 A. H. Muhammad led the first pilgrimage in which no idolator was present. At this time the guardianship of the Kaba was entrusted to Uthman, and

Mohammad and asked him to allow his son to return with him to his home and family, Mohammad answered, "He is free to do as he please, if he chooses to go with you then he has my blessing but, if he chooses to stay with me, then I will love him and treat him as if he were my own son". The father then asked his son what he wanted to do. "O my father, though I love you dearly and owe you much, to this man Mohammad I owe even more and love even more and if you will allow me, I will stay with him". His father, understanding, replied "So be it, remain then with this man who is the chosen of Allah."

This story helps to show us the kind of man Mohammad was, it shows that he had not only the many essential qualities which the other prophets possessed and who were taught, as he, in the ways of prophethood by Allah, but also other qualities which caused him to be loved by many. The fact of his wisdom, purity, compassion, integrity, faith and love, made Mohammed, even then, a guide to his people and many came to him seeking knowledge at his feet... for already the Light of Allah was shining from his face. Though some at first denied this Light, for when the Light of Truth shines forth man's guilt causes him to be ashamed and seek refuge in mockery.

However, it was this Light which, after Mohammad became the last Prophet of Allah, insistently blazed forth to enlighten the minds and hearts of men with the true religion of Allah, Islam. All of this tells us just a little of what Allah meant when He said to Mohammed:

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

(. . . I have sent you to be a mercy to all mankind . . .). Indeed he was, and still is, for the Light of Islam which first shone forth so meny years ago in Mecca, is now spreading all over the world and will continue to spread until the whole world is lit by the Faith of Islam. Only then will this world's mad rushing whirl into nuclear oblivion be halted, shedding its false facade of superficiality to gain a sanity and strength it has never known . . . and then, then this world will be a beacon of faith to the entire universe; with the Light of Allah, like some precious jewel, blazing forth brighter than any star.

A Story of the Prophet

By : Raschid Ansari (wellesley)

I would like to tell a story of another time... a time when many men walked in darkness, the majority worshipping idols and full of a superstition that made cacophony of life's harmony.

This story took place many, many years ago during the time before Mohammad (may peace be with him) became a prophet, in those days there lived a man who had a son whom he loved dearly. One day, however, the boy disappeared and, as the time passed, his father became frantic with worry thinking of his son perhaps wandering lost in the desert or lying somewhere, hurt and alone. For it seemed no one knew what had become of the boy.

At last he decided he must look for his son further afield, no matter where it took him or how long, and mounting his camel he set out determined not to return until he found his lost son. He rode and rode, searching north, south, east and west, in the heat and in the cold, always asking the same question of all he met... "Have you seen my son ?", and always the answer was the same... "No". Until one day, after many weary months had passed, one answered his question with... "Yes, I have seen your son. He is in the house of Mohammad in Mecca".

The man was overjoyed and rushing to Mecca he went to Mohammad's house and knocked on the door asking news of his son, on being told to enter he went in and found to his delight his dear son sitting with Mohammad. He embraced his son tenderly, kissing and caressing him while their mutual tears mingled on each others cheek as they expressed their joy at finding each other. Then Mohammad bade the father sit and take refreshment, after which the father asked his son what had happened to him all this long while. "O my father," his son replied, "much has happened since last I saw your face, I was captured and later sold as a slave to Khadija, the wife of Mohammad, who then gave me to him and he, from his boundless compassion, in turn gave me my liberty."

His father then turned to

unqualified allegiance to the one God. He says: "It is only Thou before Whom I bow in worship, and it is Thee alone to Whom I look for support and sustenance". Having thus offered Him his whole allegiance and entrusted himself to His exclusive care and protection, he can no longer bow befor anyone else, he no longer fears any person on earth and he neither can nor need stretch his hand before anyone else for a favour.

He then goes on to make but one prayer to his Lord, and that is to be able to follow the straight path, the path not of any particulr race, nation or group but the path that is common to all religious leaders and all upright men of all times and all countries. He prays for guidance so that he may not go astray with those, irrespective of their race, creed or nationality, who are misguided. He prays for grace so that he may be able to attain good that is universal and to avoid evil that is universal.

Such a conception of religion cannot but so mould the heart and intellect of its devotee that his worship will be for the One God, Whose mercy and beneficence are universal, he will be at once self-respecting, humble and charitable and he will be free of all faction and narrow-minded group mentality; he will belong not to this or that race, community or group but to mankind; he will be a man, and his allegiance will be to humanity. This is the call of the QURAN, the real spirit evil of its message.

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(O mankind ! Lo ! We have created you male and female and have made you nations and tribes that ye may know one another. Lo, the noblest among you in the sight of Allah, is the best in conduct) XLIX : 13.

« فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(So set thy purpose for religion as a man by nature upright - the nature (framed) by God, in which He has created man. There is no altering (the law of) God's creation. That is the right religion, but most men know not) 30 : 30.

groups in diffent places and at diffent times.

e) It further explained the externals of religion and the customs of religious groups had no bearing on man's spiritual advancement and salvation. These groups are man made, while God given religion remains the same and consists only of right faith and right action.

f) Finally, it proclaimed in unequivocal terms that its message was no more than that all religions were true but that their followers had turned away from their true teachings. The commnn true core of all religions. referred to by the Quran as "Deen" (the religion) or "Islam" (submission to God).

6— Man has shattered all bonds that could unite mankind into a single community or brotherhood. There was but one race, but it has been split into thousands of races; there was but one nation, but it has been divided into innumerable nations; all men were of one status, but there are now countless classes of rich and poor, high and low. There is but one single bond which can again gather together the scattered and divided family of man, and that is common worship of the One God. The realisation that we are all creatures of the same Lord, that our Cherisher and Sustainer is the Same, can reawaken that sentiment of relationship and unity which will conquer and transcend all man-made differences.

Let us now, by way of Summing up, consider this opening chapter of the Quran, Al Fatehah, as a whole and see what spiritual Lesson or guidance it contains for mankind. It is a prayer which is offered several times daily. What effect is it likely to produce on the emotional, intellectual and spiritual development of a man who repeats it so often, day and night, not only with his lips but from his heart ?

Such a man loses himself in adoration of God, who is not the God of this or that race, nation or religious group, but the Lord of the entire Universe, the Cherisher and Sustainer of all mankind, Whose mercy, therefore, extends to all beings alike. This not only makes him humble before God but, at the same time, also gives him a sense of dignity and self-respect, for he too is the object of Divine care, and a feeling of oneness on terms of equality and brotherhood with the rest of his fellow creatures. He calls to God by His attributes which he most readily recalls are those of mercy and justice.

He immediately bows his head in reverence and gratitude and offers

revelations of Allah (will find that) lo ! Allah is swift at reckoning. And if they argue with thee, (O Muhammad), say : I have surrendered my purpose to Allah and (so have) those who follow me. And say unto those who have received the scripture and those who read not: Have ye (too) surrendered? If they surrender, then turly they are rightly guided and if they turn away, then it is thy duty only to convey the message (unto them). Allah is Seer of (His) bondmen) III : 19—20.

It may be well at this point, for a clearer exposition to recapitulate the argument of this chapter briefly.

1—When the Quran was revealed, the position was that religion was regarded no more than as a basis of group organisation in the same way as social groups were formed on the basis of race, clan or family. Every religious group considered truth to be its exclusive preserve ; everyone within the group was assured of salvation and everyone outside was doomed to perdition.

2 — In every religious group, religion had come to be identified with outward practices and rituals, such as form of worship, sacrificial customs, eating or abstainin from certain articles of food, etc. Salvation depended upon the observance of these practices and customs.

3 — Since these practices and customs varied from religion to religion, every group considered the religion of another group as devoid of truih.

4 — Since every religious group not only believed its own religion to be true but also considered other religions to be false, it necessarily led to bigotry, hatred and bloodshed.

5 — The Qur'an, therefore, placed before mankind once again the Univrsality of true religion.

a) It declared that all religions were true and that religion was a common gift of God to mankind, not confined to any one grop.

b) It proclaimed that, like all laws of nature, the law of man's spiritual fulfiment was also the the same for all and that the greatest error of followers of religion was to divide themselves into mutually hostile groups.

c) It explained that God's religion was intended to unite mankind, not to divide them.

d) It went on to explain the difference between religion and religious regulations and customs. While religion is the same for all, regulations and customs vary according to the requirements of social

inspiration, as we inspired Noah and all the Prophets who came after him, as We inspired Abraham, Ismael, Isaac, Jacob and the Tribes and Jesus, Job, Jonah, Aaron and Solomon, and as we gave to David the Psalms, and (as we inspired) the Prophets about whom we have told thee and those about whom we have not told thee" (IV: 163). "They are those who recieved God's guidance. So thou too (O Muhammad) follow their guidance." (VI: 91).

It is, therefore, assential that we must accept all the Prophets. It is not possible to accept one or some of them and to reject the others, for they all brought the same Message. To differentiate between the various Prophets is to lose the right path.

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ... الآية »

(Lo! those who disbelieve in Allah and his messengers, and seek to make distinction between Allah and His messengers, and say: We believe in some and disbelieve in others, and seek to choose a way in between; such are disbelievers in truth) IV: 150—151.

The Quran did not, therefore, ask men to accept a new religion but instead called upon them to act honestly in accordance with the teaching of their own religion. "O! people of the Book! You shall have naught (of religion) until you observe truly the teachings of the Torah, the Gospel and all that has been revealéd to you from your Lord". (V: 68)

The basic teachings of all the religions were the same and the Quran merely reiterates them; it enjoins those actions which are universally acknowledged as right and forbids those actions which are universally considered wrong. It is this universally recognised path of rectitude which the Quran calls upon man to follow, and all other paths and diversions which lead to differences and divisions he is told to avoid. This true path this common religion of all Prophets, is referred to in the Quran as "Islam" because it holds that the essence of religion is submission (Islam) to God and the law He has made for man's conduct in the same way as there are laws of nature for every other being in existence.

« إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ... الآية ».

(Lo! religion with Allah (is) The Surrender (to His will and guidance). Those who (formerly) received the scripture differed only after knowledge came unto them, through transgression among themselves. Whoso disbelieveth the

which followers of the various religions had fallen. One of the greatest errors was forming separate groups and developing a spirit of narrow-minded clannishness and faction. This evil grew to such proportions that every religious group forgot the object of religion, ignored the fundamental teachidgs of religion, disregarded faith and conduct and conridered only whether a person affirmed allegiance to that group or to some other. Irrespective of his faith and deeds, a person was supposed to be doomèd if he belonged to another group and was assured salvation if he joined that group. This naturally led to begotry and mutual hatred, and the path of religion was turned into an evenue for prejudice, enmity, malice, oppression, slaughter and beastliness. Even places of worship, dedicated to God, were destroyed because they were identified with agroup other than one's own,

The Quran, therefore, recalled men to true religion and reminded them that :

a) Man's salvation depends not on his belonging to a particular group but on his own right belief and right action;

b) God's religion is the same for all mankind, and to forget this unity and universality of religion and to form mutually antagonistic groups is to stray from the right path altogether; and

c) The Essence of all religions is to worship directly the One God, the Lord of the Universe. This is what was taught by every founder of a religion.

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم لآخر .. الآية » .

(Lo ! those who believe (in that which is revealed unto thee, Muhammad), and those who Jews, and Christians and Sabeans-Whoever believeth in Allah and the Last Day and doeth right - surely their reward is with their Lord, and there shall no fear come upon them neither shall they grieve) 11 : 62.

So it was that the Quran explicitly and repeatedly warned men that it did not invite them to form a new group but instead called upon them to sweep away all artificial differences and factions and reunite into a single brotherhood as God intended them to be. The Quran says that it has brought no new religion but is merely a reiteration of the divine message that has come to mankind so often through various Prophets in different lands from time to time. "He has ordained for you (O Muhammad) the same religion which He enjoined on Noah, Abraham, Moses and Jesus" (XL 11 : 13). "(O Muhammad), We have sent thee

When the Quran was revealed to the world, religion had been identified with forms, practices and rituals, and every group looked upon followers of other ways as not only inferior beings but also beyond salvation; they alone were the true followers of God and His chosen and beloved. It was this misguided arrogance and blasphemy which the Quran set out to correct by distinguishing between the principles and forms of religion and directing attention to the essence of religion.

« .. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم .. الآية»

(For each we have appointed a divine law and a traced-out way. Had Allah willed He could have made you one community. But that He may try you by that which He hath given you (He hath made you as ye are). So vie one with another in good works. Unto Allah ye will all return, and He will then inform you of that wherein ye differ) V. 48.

It follows, therefore, that one's attitude towards followers of other religions must be one of broad-minded and understanding tolerance. It is a frailty of human nature that every group regards its own ways as the best and cannot look at them through the eyes of its critics. The only right course for man, therefore, is one of patience and tolerance.

« ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

(And if thy Lord willed, all who are in the earth would have believed together. Wouldst thou (O ! Muhammad) compel men until they are believers ?) X : 99.

« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم .. الآية »

(Revile not those unto whom they pray beside Allah lest they wrongfully revile Allah through ignorance. Then unto every nation have we made their deed seem fair. Then unto their Lord is their return, and He will tell them what they used to do) VI : 108.

It was this division of mankind into so many exclusive and mutually antagonistic groups which made the message of the Quran necessary. There should otherwise have been no need for the revelation of the Quran, since the object of all religions was the same and they were all founded on truth. While, however, all religions were true, their followers had strayed from truth and it was, therefore, necessary for a fresh divine call, which was the Quran, to bring all mankind together again to the eternal but long lost truth.

The Quran enumerates, repeatedly and at some length, the erros into

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Safar 1386	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	May 1966

THE QURAN'S CONCEPTION OF GOD - X

By : Moulana Abul Kalam Azad

The Straight Path

The object of religion is reform and welfare of mankind. This object can be fulfilled only in the context of the prevailing conditions and circumstances, which differ from time to time and from place to place. It is necessary, therefore, that the code of conduct must be such as to suit the circumstances of the time and place and the social fabric and intellectual capacity of the people for whom the code is evolved. This is, however, no more important than the physical and social differences which distinguish one people from another and has no bearing on the essence of religion. It is a sign of a people straying away from true religion when they begin to attach primary importance to such differences of form and practice. The Quran has repeatedly warned against this and set forth before man clearly what constitutes true religion.

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ... الآية ».

(It is not righteousness that ye turn your faces to the East and the West ; but righteous is he who believeth in Allah and the Last Day and the angels and the Scripture and the prophets ; and giveth his wealth, for love of Him, to kinsfolk and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask, and to set slaves free ; and observeth proper worship and payeth the poor-due. And those who keep their treaty when they make one, and the patient in tribulation and adversity and time of stress. Such are they who are sincere. Such are the God-fearing) II : 177. This is the definition of true religion and the picture of a true beliver, be he called a Muslim or by another name, which the Quran placed permanently on record nearly 1400 years ago.

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
للمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثالث ـ السنة الثامنة والثلاثون ـ جمادى الأولى سنة ١٣٨٦ هـ ـ أغسطس ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم



تحرير معنى الحرية

للأستاذ عبد الرحيم فوده

لم ترد كلمة الحرية فى نص قرآنى فيما أعتقد ولا فى حديث نبوى فيما قرأت وفيما يغلب على ظنى ، وإنما وجدت كلمة « تحرير » بمعنى تخليص الإنسان من غل الرق وذل العبودية وذلك المعنى يطلق عليه اسم الحرية وهو من أهم وأعظم المقاصد الإسلامية ، فإن أول ما يدعو إليه الإسلام هو الإيمان بأنه لا إله إلا الله ، ومعنى ذلك أن يتحرر الإنسان من الخضوع لغيره ، لأنه دون سواه ، الحقيق بأن يعبد ، ويحمد ثم لأنه لا يستقيم مع كرامة الإنسان أن يخضع لمن هو دونه أو مثله فى الخلق والعبودية .

غير أن معنى الحرية قد اتسع لمعان تغض من قيمة الحرية ، وتبعد به عن المعانى الكريمة العظيمة التى كانت تفهم من هذه الكلمة فى الاستعمالات العربية .

فالدعوة إلى التبذل والتحلل تجد لها عند أصحابها سندا من الحرية .

والترويج للمذاهب المنحرفة كالوجودية مثلا يجد له سندا من الحرية .

والنقد المغرض الهدام لبعض الأوضاع والتقاليد الصالحة يجد له سندا من الحرية ، والانطلاق المطلق وراء النزوات والشهوات يجد له سندأ من الحرية .

وقد يجد الكذب والنفاق والدجل والتغرير سندا يؤيد فساده وإفساده من الحرية مادامت الحرية تحرراً من كل قيد ، وتحللا من كل سلطان .

ومن ثم كان علينا أن نحرر معنى الحرية حتى يخلص للمعانى الكريمة العظيمة التى كانت تراد منها ، وحتى تكون الحرية بحق وصدق القاعدة الأساسية للكرامة الإنسانية ، ولسنا بحاجة ، فى تحرير معنى الحرية ، أن نضع معها قيد الالتزام كما قيل أو يقال ، فإن هذا القيد يلغى مفهومها الواسع الطويل العريض عند من يفهمونها فهما واسما طويلا عريضا ، وإنما علينا لتحرير معناها أن نرجع إلى مفهومها العربى والإسلامى ، فإنه يكفينا ويهدينا إلى أنبل وأكمل وأجمل معانى الحرية .

فالحر - كما هو معروف - ضد العبد ، والحرية على هذا الأساس هى التحرر من القيود التى تحد من إرادة الإنسان وتغض من قيمته وكرامته .

وحرية العرب ، إشرافهم ، فالشرف - داخل فى مفهوم الحرية .

والسحابة الحرة الكثيرة المطر فالخير كذلك داخل فى مفهوم الحرية .

وحر كل أرض وسطها وأطيبها ، والأحرار هم الأخيار الأفاضل .

هذه المعانى التى تفهم من هذه الكلمة فى الاستعمال العربى تضع الحرية فى إطار من الشرف والخير والكرامة ، فإذا انحرف استخدامها إلى معان لا تتفق مع الشرف والخير والكرامة فقدت قيمتها الاجتماعية والأخلاقية والشرعية ، وأصبحت فى نظر العرف العربى والإسلامى اسماً لا يدل على مسماه ، وإنما يدل على مسميات أخرى ينكرها العرف والشرف والطبع السليم والدين القويم .

ولاشك أن كل إنسان نزاع بفطرته إلى الحرية ، لأنها السبيل إلى تلبية حاجات قلبه وعقله وإرضاء ميوله وغرائزه ، ولكنه كائن اجتماعى لا يستطيع أن يستقل بشئون نفسه أو يعيش منعزلا عن غيره ، بل إنه لا يكاد يستقل بصنع أبسط شىء يتناوله ، سواء فى ذلك مسكنه وملبسه ومأكله ، ومن ثم كانت حاجته الدائمة إلى المجتمع الذى يعيش فيه تتقاضاه أن يعرف له حقه عليه ، وأن يقوم بواجبه نحوه ، وأن ينهض بأداء هذا الواجب على الوجه الذى يتحقق به التعادل بين ماله وما عليه ، ولهذا لا يتصور وجود الحرية بمعناها المطلق الواسع فى مجتمع يصون لكل فرد فيه حريته ، ويلقى عليه تبعات بمقدار ما يعطيه من حقوق وخدمات بل إنه لا يتصور معنى الواجب والعرف والقانون إلا على أساس الحد من الحرية وتقييدها بالحدود التى تحول بينها وبين العدوان على حريات الآخرين ، ومن ثم كان الخروج

على العرف الذى تواضع الناس على احترامه نشازاً فى النظام العام ، وكان التمرد على القانون الذى يؤخذ الناس بالتزامه جريمة تواجه بالعقاب الرادع والعلاج الناجع ، ومعنى هذا أن الحرية بمعناها الذى يتسع للفوضى والفساد لا توجد فى ظل عرف محترم أو قانون مطاع ولا يتصور وجودها فى مجتمع يسوده الأمن والنظام ، ومعنى ذلك كذلك أن الحرية ، كما كان يتصورها العرب والمسلمون ، خير وكرامة وشرف ، وقد حرص الإسلام على ضمانها لكل إنسان ، لأن قدر الإنسان فى تقديره كما يفهم من قول الله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » فكرامة الإنسان تقوم أول ما تقوم على الشعور بالحرية ، إذا لا قيمة ولا كرامة لإنسان يعيش مسلوب الإرادة ضائع الشخصية ، وذلك بعض ما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم »

ولكن حرية الإرادة والفكر شىء وحرية الهوى والشهوة شىء آخر ، فهذه مظهر الضعف والعجز والهوان ، وتلك مظهر القوة والكرامة والإنسانية ، ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، ويقول الله جل شأنه : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ؟

عبد الرحيم فوده

نفس الحر

إذا قيل : هذا منهل ، قلت : قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

أنزهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أو لما ؟

ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لى سلما

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذن فأتباع الجهل قد كان أحزما

(القاضى الجرجانى)

المصالح المرسلة كما يراها الإمام مالك

للأستاذ محمد محمد المدني

اشتهر عن الإمام مالك رحمه الله تعالى أنه يقول : (بالمصالح المرسلة) ويعتبرها أصلا من أصول التشريع ، ومع أنا لو تأملنا في جميع المذاهب الإسلامية لوجدناها كلها تعتبر (المصالح) وتبني عليها ، فإن لمذهب مالك مزيد اختصاص بذلك جعل منه في باب العادات والمعاملات مذهبا مرنا متمشيا مع منطق التطور يمكن به حل كثير من المشكلات التي تجد للناس ، ولا يجدون فيها بخصوصها نصا شرعيا ، وقد كان لتوسع مالك في هذه القاعدة رد فعل عند بعض المتحرجين الذين دفعهم حرصهم على صيانة الشريعة وحياطتها من المدعين للصالح في كل زمان ، وهم إنما يبطنون تطويع الشريعة للأهواء ، ولذلك ترى مثل الفقيه الجويني يحمل على مالك ، ويقول في كتابه البرهان ، كما نقله عنه الشوكاني في إرشاد الفحول : « وأفرط مالك في القول بها - أي بالمصالح المرسلة - حتى جره ذلك إلى استحلال القتل ، وأخذ المال لمصالح يقتضيها في غالب الظن ، وإن لم يجد لها مستندا » - ص ٢٢٥ من إرشاد الفحول - وقد رد على ذلك الإمام المالكي أبو إسحق الشاطبي في كتابه الاعتصام حيث قال ، بعد أن بين أن مالكا إنما يقول بالمصالح المرسلة في شئون العادات والمعاملات فقط دون العبادات :

« ودورانه في ذلك كله على الوقوف مع ما حده الشارع دون ما يقتضيه معنى مناسب إن تصور - اقلة ذلك في التعبدات وندوره بخلاف قسم العادات الذي هو جار على المعنى المناسب الظاهر للعقول ، فإنه استرسل فيه استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحية ، نعم مع مراعاة مقصود الشارع ألا يخرج عنه ولا يناقض أصلا من أصوله ، حتى لقد استشنع العلماء كثيرا من وجوه استرساله ، زاعمين أنه خلع الربقة ، وفتح باب التشريع ، وهيهات ما أبعده من ذلك رحمه الله ! - انظر ص ٣١١ ج ٢ من الاعتصام .

ولكي يتضح للقارىء : ما هي المصالح المرسلة ، وكيف يعتبرها مالك .

نذكر ما يأتي :

• من المعروف أن قصد الشارع في كل ما صدر عنه هو (تحقيق المصالح) و (درء

المفاسد) ، بل يمكن الاقتصار على العبارة الأولى ، فإن المفاسد إذا درئت لزم إثبات المصالح ، لأنهما نقيضان لا واسطة بينهما ، فالشريعة كلها مبنية على هذا الأصل ، ولذلك ينظر المجتهد فى المعنى المناسب الذى يرتبط به الحكم فيقول مثلا : إنما شرع القصاص لحفظ النفوس ، وإنما حرمت الخمر لحفظ العقول ، فيكون حفظ العقول والنفوس مصلحة مقصودة للشارع ، ويكون التحريم للخمر ، والإيجاب للقصاص تحقيقـــا للمصلحة المقصودة .

وهذا المعنى المناسب الذى يرتبط به الحكم تارة يكون من الواضح أن الشرع قد اعتبره كما مثلنا ، وتارة يكون من الواضح أن الشرع قد ألغاه ولم يرتب عليه ، كالمنافع التى تتصل بالخمر والميسر فإن الله تعالى قد ألغاها وردها حيث يقول : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » .

وتارة يكون هناك معنى مناسب ، ولكن لم يرد فيه بخصوصه عن الشارع شهادة واضحة فى جانب الاعتبار أو الإلغاء ، مع أنه يلائم تصرفات الشارع ، ونراه يعتبر جنسه فى الجملة دون دليل معين .

فهذا الثالث هـو « الاستدلال المرسل » الذى يسمى « بالمصالح المرسلة » ، وقد وصف الاستدلال فيه بأنه (مرسل) والمصالح بأنها (مرسلة) كذلك ، على معنى الإرسال الذى هو ضد التقييد ، يقال : هـذا شىء مقيد ، وهذا شىء مرسل من القيد ، أى مطلق ، فلما كانت المصلحة مطلقة غير مقيدة ، بأنها معتبرة من الشارع أو ملغاة ، سميت بالمصلحة المرسلة ، أى الخالية من شهادة الشارع لها من طريق نص معين بالاعتبار أو الإلغاء ، وإن كان الشارع يعتبر ما هـو من جنسها على الجملة .

٥ إن مالكا رحمه الله تعالى يفرق بين ما هو من (العبادات) وما هـو من (العادات) ويقصد بالعادات ما يشمل أحكام التعامل ، فيرى : أن (العبادات) لها دائرة ونطاق خاص ، فهى لم تبن غالبا على المعانى المعقولة التى يمكن للناس أن يدركوها إدراكا كاملا ، وإنما هى رسوم رسمها الله ، الذى من حقه أن يعبد ، للمؤمنين الذين عليهم، إذا أرادوا إرضاءه ، أن يلتزموا ما رسمه لهم ، فليس من حقهم فى هذا النطاق أن يبتكروا ، ولا أن يحوروا ، فلو أننا أبحنا العمل بالمصالح المرسلة فى باب الصلاة مثلا فربما قال قائل : إن الركوع فى الصلاة هو خضوع لله ، وقد جعلته الشريعة ركوعا واحدا فلماذا لا نجعله ركوعين ، كما أن السجود مرتان ليتم التنسيق بأن يكون فى

الركعة الواحدة من الصلاة ركوعان وسجودان ، أو يقول إن المصلحة العامة فى البلاد الحارة أن يصوم الناس شهرا من شهور فصل الشتاء أو فصل الربيع دون التقيد برمضان . ونحو ذلك من كل ما هو خروج عما حده الله ورسمه لعباده .

أما دائرة « العادات » و « المعاملات » فهى مبنية فى الشريعة على المعانى المعقولة التى يمكن الوصول إليها ، والاهتداء إلى قصد الشارع فيها ، فما وجدنا فيه نصاً بالاعتبار المصلحى اعتمدنا عليه ، وما وجدنا فيه نصا بالإلغاء وعدم اعتبار مصلحة بخصوصها ألغيناه ولم نعتبره نزولا على حكم الشرع ، أما النوع الثالث : وهو موضوع المصالح المرسلة ، فإن للمجتهد أن يقدر هذه المصلحة التى لم يرد فى شأنها نص شرعى خاص ، فإذا وجد الشارع يعتبر جنسها على الجملة فى مواضع أخرى حتى يطمئن إلى عدم خروجها عن نطاق الروح الإسلامى ، فإن له أن يعتبرها بل يجب عليه ذلك شرعا ، وإلا كان مظهراً الشريعة بما هى براء منه من التزمت والتحرج والانكماش عن مجاراة ما هو خير وصلاح باعترافها هى .

ولقاعدة المصالح المرسلة أمثلة كثيرة ، ذكر الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » عشرة منها ، وفى هذا المقال يكفينا أن نذكر المثال الأول من هذه الأمثلة ، ونعقب عليه بما يجليه وبما يبين آراء الناظرين المختلفين فى شأن هذه المصالح :

ذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفقوا على جمع المصحف وليس هناك نص على جمعه وكتابته ، فقال بعضهم : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر رضى الله عنه مقتل أهل اليمامة — أى فى زمن الحرب مع أهل اليمامة — وإذا عنده عمر رضى الله عنه ، قال أبو بكر : « إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة — أى اشتد وكثر ، والقراء حفظة القرآن — وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها ، فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن — قال : فقلت له : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لى هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى له ، ورأيت فيه الذى رأى عمر — قال زيد : فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، قال زيد : فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على من ذلك فقلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله

صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني في ذلك أبو بكر حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدورهما، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف - العسب جمع عسيب وهو جريد النخل واللخاف حجارة بيض رقاق والرقاع جمع رقعة، وكل ذلك كان يكتب فيه القرآن - ومن صدور الرجال».

فهذا عمل لم ينقل فيه خلاف عن أحد من الصحابة، إلا هذا الذي كان بين عمر وأبي بكر، ثم بين أبي بكر وزيد بن ثابت وانتهى إلى الوفاق بينهم؛ بأن شرح الله صدر أبي بكر لما رآه عمر، وشرح صدر زيد لما رآه أبو بكر.

ولمالك في ذلك أسوة حسنة، فإنه لم يرد نص عن النبي صلى الله عليه وسلم بما صنعوا ولم يجدوا أيضا نصا يمنع ذلك، ولكنهم رأوه مصلحة تناسب تصرفات الشرع قطعا، فإن ذلك راجع إلى حفظ الشريعة، والأمر بحفظها معلوم، وإلى درء المفسدة التي يخشى أن تقع لو اختلف الناس في القرآن أو ضاع منه شيء، وقد علم النهي عن الاختلاف في ذلك بأدلة كثيرة، وإن لم يأت دليل خاص بهذه الحادثة بعينها، فمالك رحمه الله تعالى وقف موقف عمر رضي الله عنه، حيث اعتبر ذلك مصلحة وخيرا وإن لم يرد به نص معين ولم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وقف أبو بكر أولا موقف المتحرج من هذا، ووقف كذلك زيد، ولم يكن تحرجهما إلا احتياطا على الشريعة، وصيانة لها من أن يتجرأ أحد على فعل شيء لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالذين يأخذون على مالك قوله بالمصالح المرسلة إنما يدفعهم إلى ذلك خوفهم من اتساع بابها، ودخول من ليس أهلا للدخول من هذا الباب، فيقتحم الناس على الشريعة، ويدخلوا عليها ما تأباه بحجة المصالح، وفي الناس أدعياء على الاجتهاد والفقه، أصحاب أهواء، وإن تظاهروا بالإخلاص والتجرد عن الهوى.

أما مالك رحمه الله تعالى؛ فكان فوق مثل هذه الظنون وقد قال بها فيما يرجع إلى حفظ ضروري، أو رفع حرج، فهي في حفظ الضروري من باب «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وفي رفع الحرج من باب الميل إلى التخفيف والتيسير، لا إلى التشديد والتعسير؟

محمد محمد المدني

أولُ المسلمينْ

للاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

سئلت السيدة عائشة ، رضوان الله عليها ، عن خلق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت :

« كان خلقه : القرآن » .

ومع أن هذا الوصف ، من أم المؤمنين واضح وضوحا لا لبس فيه ، فإننا مع ذلك نحاول له تحديداً نراه ضروريا ، وبيانا نراه حتما :

ذلك أن الأخلاق القرآنية : تحدد الخلق الكريم ، فى حده الأدنى ، وترسم الفضيلة فى درجتها الأولى ، ثم لا يقتصر القرآن على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السنام منها ، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين :

إنه يتحدث عن : « المقتصد » .

وعن : « السابق بالخيرات » :

إنه يتحدث عن : « أصحاب اليمين » ، ويتحدث عن المقربين ، ويبين أن المقربين ، أقل عدداً من أصحاب اليمين ، فهم ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين .

أما أصحاب اليمين : فإنهم ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ، على حد التعبير - عن أصحاب اليمين ، وعن المقربين - فى سورة الواقعة .

ولنضرب لذلك مثالا :

إن مقابلة السيئة بالسيئة : عدل .

يقول الله تعالى :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

ولكن القرآن - مع بيان عدالة هذا - يذكر درجة أعلى من الخلق الكريم ، تلك هى : درجة « كظم الغيظ » .

وهذا الذى - مع مقدرته على مقابلة السيئة بالسيئة - يكظم غيظه ، أسمى فى ميزان الأخلاق الكريمة ، من الذى يقابل السيئة بالسيئة .

ولا يقف القرآن عند هذا الحد ، ذلك : أنه رسم درجة ثالثة ، من الخلق الكريم ، فتجاوز « مقابلة السيئة بالسيئة » ، « وكظم الغيظ » إلى « العفو » .

والعفو مع المقدرة : أسمى من « مقابلة السيئة بالسيئة » ، وأسمى من « كظم الغيظ » .

ثم يتجاوز القرآن كل ذلك ، إلى الدرجة

العليا : درجة المقربيين : وهى الإحسان .

يقول تعالى :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله » .

ويقول تعالى :

« والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

إنها درجات من الخلق الكريم ، كلها كريمة ، بيد أنها تتفاوت ، فيما بينها ، من كريم إلى أكرم ، بتفاوت الناس فى الشرف : من شريف إلى أشرف .

ويحق لنا الآن ، أن نتساءل :

هل تريد السيدة عائشة رضى الله عنها ، حينما تصفه صلى الله عليه وسلم ، بأن خلقه القرآن :

هل تريد الخلق القرآنى الكريم ، فى حده الأدنى أم تريده فى حده الأوسط ؟ أم تريد فى حده الأسمى ؟

ويحل لنا القرآن ، هذه المسألة ، فيحدد ـ بصورة عامة وبطريقة مجملة ـ الدرجة التى وصل إليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من الخلق القرآنى :

فيقول سبحانه لرسوله ، صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

يقول صاحب الشفاء :

« أثنى عليه بما منحه من هباته ، وهداه إليه ، وأكد ذلك ، تتميما التمجيد ، بحرف التأكيد ، فقال تعالى :

« وإنك لعلى خلق عظيم » .

قيل القرآن :

وقيل الإسلام :

وقيل الطبع الكريم .

وقيل ليس لك همة إلا الله ، اه

قال الواسطى :

أثنى عليه بحسن قبوله ، لما أسداه إليه من نعمة ، وفضله بذلك على غيره : لأنه جبله على ذلك الخلق .

وقد تحدث الصحابة والتابعون عن هذه الآية الكريمة قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : معناه : « على دين عظيم ، لا دين أحب إلى الله ، ولا أرضى عنه منه ، وهو دين الإسلام » .

وقال قتادة :

هو ما كان يأتمر به من أوامر الله ، وينتهى عنه ، من نهى الله تعالى .

والمعنى : أنك على الخلق ، الذى أمرك الله به فى القرآن .

ومع ذلك ، ومع كل ما قيل : فى هذه الآية الكريمة ، من أنها تكريم ، وتمجيد ، ومدح وثناء ، ومع إيماننا ، بأنها تتضمن كل المعانى الكريمة التى قيلت ، والمعانى الشريفة التى ستقال :

فإننا نرى ، أن الأمر ما زال بحاجة إلى بيان الدرجة ، بيانا تاما .

فقد يتساءل بعض الناس ، عن هذا الخلق العظيم ، أكان يشرك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيه نبي مكرم .

أكان يشركه فيه رسول مجتبى ؟

أكان يشركه فيه ملك مقرب ؟

ألم يكن سيدنا إبراهيم على خلق عظيم ، وهو الحليم الأواه المنيب ؟

ألم يكن سيدنا إسماعيل ، على خلق عظيم ، وكان عند ربه مرضياً ؟

ألم يكن سيدنا عيسى ، على خلق عظيم ، وقد جعله الله مباركا أينما كان ؟

والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ومنهم : جبريل ، وميكائيل ، وحملة العرش ، أليسوا على خلق عظيم ؟

أيشرك أحد من هؤلاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في درجته ؟

أيماثلون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في الخلق العظيم ؟

ويسعفنا القرآن بهذا التحديد ، إسعافا يرضى التطلع إلى المعرفة ، ويشرح صدور المحبين لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إن القرآن يحسم الأمر حسما ، لا يدع فيه مجالا للبس ، ويسفر عنه إسفاراً لا يدع مجالا لريب ، يقول الله تعالى ، لرسوله الكريم :

« قل إن صلاتي ونسكي ، ومحياي ومماتي ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

هذه الآية القرآنية الكريمة ، تحدد درجة الأخلاق القرآنية ، التي وصل إليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنها ذروتها وسنامها .

ولقد بعث صلى الله عليه وسلم ، ليتمم - على حد تعبيره - مكارم الأخلاق :

إنه صلى الله عليه وسلم ، بعث ليتمم المكارم الأخلاقية .

ليتممها بذاته : بسلوكه ، وليتممها بقوله : برسالته .

إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وإنما بعث ليتمم مكارمها .

ومكارم الأخلاق لم تكن - قبل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه - قد تمت ، إن أول المسلمين ، لم يكن قد وجد بعد ، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصة ، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق ، وهي إسلام الوجه لله ، إسلاما تاما .

إن الكائنات لم تكن قد وصلت - لا في نبي مرسل ، ولا في ملك مقرب - إلى الذروة من إسلام الوجه لله ، والذروة من إسلام الوجه لله ، أو أول المسلمين - والتعبيران سواء - إنما هو الذروة من مكارم الأخلاق .

إن المكان الرباني : إن أول المسلمين ،

أولهم بإطلاق ، أولهم بالنسبة للملائكة ، وأولهم بالنسبة لبنى آدم ، أولهم قديما ، وأولهم إلى الأبد ... إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد .

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة .

كان الكون ناقصا مادة ومعنى ، كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد ، وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح ، وكان لابد من وجود كائن ، بهذه المناسبة يكمل الله به الدين ، ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته دينا عاما خالدا للإنسانية أجمع : هو إسلام الوجه لله ، وينزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائل ، ومحدداً إسلام الوجه لله غايات ، محدداً إسلام الوجه لله طرقا وأساليب ، ومحدداً له بواعث وأهداف .

ومن هنا كان من يبتغى غير الإسلام دينا فلن يقبل منه .

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله ؟

إن إسلام الوجه لله هو الذروة ، من مكارم الأخلاق ، وهو جوهر التدين ، إنه دين القيمة ، إنه الدين الخالد .

والنص الوحيد ، النص الإلهى الفريد فى العالم كله الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله ، إنما هو القرآن ، وإذا ما وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله ، كان بذلك فى ذروة الإنسانية ، وفى الذروة من مكارم الأخلاق ، ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله ، ولا بد من أن يكون أحدهم أول ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولهم بإطلاق مطلق

« قل : إن صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى : لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .

ولم يصف القرآن بأول المسلمين ، شخصاً آخر ، غير الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يوجد أول المسلمين ، المتمم لمكارم الأخلاق ، ذلك الذى كانت صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين . . . لو لم يوجد هذا الكائن الربانى لظل العالم مستشرفا إليه ليكمل به ولظل العالم ناقصاً مادة وروحا ...

فلما وجد صلى الله عليه وسلم انتهت حكمة الله بوجوده ، وبرسالته إلى ما بينه الله تعالى بقوله :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

ولنا – إن شاء الله – مع هذه الآية الكريمة مقال آخر ؟

عبد الحليم محمود

حقوق الإنسان في الإسلام

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

ترجع أهم حقوق الإنسان ، حسب ما تقرره شرائع الأمم المتحضرة ويقتضيه عرفها الخلقي العام ، إلى خمسة حقوق تتصل بخمسة أنواع من الحريات وهي : حرية التدين وحرية التفكير والتعبير ، وحرية العمل ، وحرية التعلم والثقافة ، والحرية المدنية .

وسنعرض فيما يلي موقف الإسلام حيال كل حق من هذه الحقوق الخمسة على حدة :

١ — الحرية الدينية ، أو حق الإنسان في اعتناق ما يرتضيه من دين :

قرر الإسلام هذا الحق في أوسع نطاق ، وحرص على دعمه في جميع ما سنه من مبادئ ، وخاصة في المبدأ الذي ينص عليه القرآن بصريح العبارة في أكثر من موضع ، وهو أنه لا يجوز أن يرغم أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام ، وأن مهمة الرسول عليه السلام ومهمة كل داع للإسلام تقتصر على بيان تعاليم الدين ، وتوضيحها للناس ، والدعوة إليه « بالحكمة والموعظة الحسنة » ولكل فرد بعد ذلك مطلق الحرية في الدخول في الإسلام أو عدم الدخول فيه . وفي هذا يقول الله تعالى : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، ويقول مخاطباً الرسول عليه السلام : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ » . وجاء هذا المعنى نفسه في عبارات صريحة في آيات أخرى كثيرة من القرآن .

وعلى هذا المبدأ سار المسلمون مع أهل الأديان الأخرى . فكانوا يبيحون لأهل البلاد الخاضعة لهم أن يبقوا على دينهم ، وكانوا يأخذون على أنفسهم احترام عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم . وفي هذا يقول عمر ابن الخطاب في معاهدته لأهل بيت المقدس :

« أعطى عمر بن الخطاب أهل إيلياء أماناً لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم . لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » . ويقول عمرو بن العاص في معاهدته مع المصريين :

« أعطى عمرو بن العاص أهل مصر أماناً على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم » .

هذا إلى أن الإسلام لا يعتد إلا بالإيمان المنبعث عن اقتناع . ومن ثم أنكر القرآن على بعض الأعراب ادعاءهم أنهم مؤمنون ، لأن الاقتناع النفسي لم يكن قد دخل بعد

فى قلوبهم . وفى هذا يقول الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وغنى عن البيان أنه لا يمكن الإكراه ولا يعقل فى أمر لا يتحقق إلا بالاقتناع النفسى .

٢ — حرية التفكير والتعبير :

وهو حق الإنسان فى أن يفكر تفكيراً مستقلا فى جميع ما يكتنفه من شئون وما يقع تحت إدراكه من ظواهر ، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه ، وأن يعبر عنه بمختلف وسائل التعبير .

ولا يختلف موقف الإسلام حيال هذا الحق عن موقفه حيال الحق السابق ؛ فالإسلام لم يحاول مطلقا أن يفرض أية نظرية بصدد أية ظاهرة من الظواهر ، ولم يعرض القرآن ولا السنة الشريفة لتفاصيل هذه الأمور ، وكل ما فعله القرآن فى هذه الناحية أنه استحث العقول على النظر فى ظواهر الكون ، وحفز الناس على التأمل فى هذه الشئون واستنباط قوانينها العامة . وفى هذا يقول الله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ؟ » . وجاء الحث على النظر فى هذه الأمور فى آيات أخرى كثيرة من القرآن ، بل إنه لا تكاد تخلو سورة من سوره من توجيه النظر إلى ذلك — ويظهر فى صورة واضحة من جميع النصوص القرآنية الواردة فى هذا الصدد أن القرآن لا يقصد بالتوجيهات الواردة فيها إلا مجرد حث العقول على النظر فى محتويات الكون ، وحفز الناس على التأمل فى هذه الشئون واستنباط القوانين الدقيقة التى تسير عليها ظواهر الأرض والسماء ، والاستدلال بها على قدرة الخالق وعظمته وإتقان صنعه ، ثم ترك بعد ذلك لكل فرد كامل الحرية فى تقرير ما يراه والانتصار له واعتناق ما يقتنع بصحته من نظريات .

وعلى هذا المبدأ سار الرسول عليه الصلاة والسلام وسار الخلفاء الراشدون من بعده فقد كانت حرية الرأى فى عهدهم جميعاً مكفولة ومحوطة بسياج من القدسية . وباستقراء تاريخ هذه المرحلة التى تمثل مبادئ الإسلام أصدق تمثيل لا نعثر على أية محاولة من جانب أولى الأمر للحجر على حرية الآراء .

ولا أدل على ذلك من أن الرسول عليه السلام حينما أشار على بعض الناس بعدم تلقيح النخل ، ثم تبين أن ذلك يؤدى إلى عدم إثمارها ، ذكر أنه إنما تحدث فى ذلك برأيه الخاص ، وأن رأيه الخاص عرضة للخطأ والصواب ، وأن هذا الحكم يسرى على كل ما يتحدث عنه من أمور الدنيا ، وأن للناس الحق فى البحث فى أمر دنياهم وعلاجها على الوجه الذى يهديهم إلى تجاربهم وأفكارهم ، وأنهم قد يكونوا أعلم ببعضها من الرسول نفسه ، وأن الأمور التى كلف

تبليغها إلى الناس من قبل الله والتى لا يمكن أن يتطرق إليها الشك مقصورة على شئون الدين من عقيدة وشريعة . ونص عبارته فى هذا الحادث : « إنما أنا بشر : إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر ، وأنتم أعلم بأمور دنياكم » .

٣ — حرية العمل :

وهى أن يكون لكل فرد الحق فى أن يزاول أى عمل مشروع وأن يتمتع بثمرات أعماله . ولا يختلف موقف الإسلام حيال هذا الحق عن موقفه حيال الحقين السابقين . فالإسلام لا يقر نظام الطبقات فى الوظائف والمهن régime des castes وإنما يعطى كل فرد الحق فى أن يزاول أى عمل مشروع يروق له وتكون لديه الكفاية للقيام به فى الحدود التى تسنها النظم الاجتماعية لتحديد الكفاية والصلاحية لمختلف الأعمال . وجميع الأعمال المشروعة أعمال شريفة فى نظر الإسلام ، سواء فى ذلك الجسمى منها والعقلى والإدارى .

وقد حث الإسلام على العمل أيا كان نوعه ، ما دام داخلا فى نطاق الأعمال المشروعة ، وأمر به ، وأعلى من شأنه . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « ما أكل أحدكم طعاما قط خيراً من عمل يده » .

وعلى أساس هذه النظرة المقدسة للعمل ، يقدس الإسلام حق العامل فى ثمرات عمله وملكية أجره ، فهو يدعو إلى الوفاء بأجر العامل وينذر من يجور عليه من أصحاب العمل بحرب من الله ورسوله . قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه فى الحديث القدسى : « قال الله عز وجل : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، وعد منها « رجلا استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » ، وهو يدعو كذلك إلى التعجيل بأداء الأجر ، وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » .

* * *

هذا ، وقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق العمل ، فأباح للمرأة أن أن تضطلع بالوظائف والأعمال المشروعة التى تحسن أداءها ولا تتنافر مع طبيعتها ، ولم يقيد الإسلام هذا الحق إلا بما يحفظ للمرأة كرامتها ، ويصونها عن التبذل وينأى بها عن كل ما يتنافى مع الخلق الكريم . وقد كانت النساء المسلمات فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يقمن بكثير من الأعمال فى داخل منازلهن وخارجها ، بل لقد اضطلعت المرأة المسلمة ببعض شئون الحرب نفسها فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فلم تخل

غزوة من غزواته من نساء يقمن بمساعدة الرجال وشئون الإسعاف للجرحى .

وأما نظم الحريم وحبس النساء فى البيوت ، فهى نظم استحدثت فى بعض البلاد الإسلامية تحت تأثير ظروف اجتماعية وتقاليد محلية خاصة ، وليست من مبادىء الإسلام فى شىء .

٤ — حرية الثقافة والتعليم :

أعطى الإسلام كل فرد الحق فى أن ينال من العلم والثقافة ما يشاء وما تتيحه له إمكانياته وظروفه ويتيحه له استعداده ، بل جعل ذلك فرضا عليه فى الحدود اللازمة لأمور دينه وشئون دنياه ، وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « تعلم العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . ويشيد الله تعالى فى كتابه الكريم بالعلم والعلماء فيقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » . وقد جاءت الآيات الأولى نفسها التى نزلت على الرسول عليه الصلاة والسلام من الكتاب الكريم منطوية على تعظيم العلم ووضعه فى المكانة الأولى من نعم الله على الإنسان ومن دلائل عظمته وقدرته : « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (آيات ٣ - ٥ من سورة ٩٦ ، سورة العلق ، والآيات الخمس الأولى من هذه السورة هى أول ما نزل من القرآن) .

ومع أن الإسلام يوجه قسطا كبيرا من عنايته إلى علوم الدين وما يتصل بها ، فإنه مع ذلك يحث على تحصيل العلوم والآداب والفنون بمختلف فروعها . وبفضل ذلك نبغ فى مختلف هذه الفروع عدد كبير من علماء المسلمين ، ولم يغادروا أى فرع منها إلا ألفوا فيه كتبا قيمة لا يزال كثير منها يعد من أمهات المراجع .

هذا ، وقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق التعلم والثقافة فأعطى المرأة الحق نفسه الذى أعطاه الرجل فى هذه الشئون ، وأباح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علم وأدب وثقافة وتهذيب ، بل أنه ليوجب عليها ذلك فى الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بوظائفها فى الحياة . وقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم ، وجعله فريضة عليهن فى هذه الحدود فى الحديث الذى سبق ذكره وهو قوله عليه السلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وضرب عليه السلام أروع مثل فى الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجه حفصة أم المؤمنين . فقد روى البلاذرى فى كتابه « فتوح البلدان » أن الشفاء العدوية ، وهى سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب ، كانت كاتبة فى الجاهلية ، وكانت تعلم الفتيات ، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه السلام ، ولما تزوجها طلب إلى الشفاء العدوية أن تتابع تثقيفها

وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصول الكتابة . وتدل شواهد كثيرة أن أبواب التعلم والثقافة بمختلف صنوفهما كانت مفتحة على مصاريعها للبنت العربية منذ عصر بنى أمية ، وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء العربيات ، وبرزن فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون ، بل لقد كانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام .

٥ — الحرية المدنية :

هى الحالة التى تجعل الشخص أهلا لإجراء العقود وتحمل الالتزامات المدنية والتصرف فيما يملك .

وقد منح الإسلام هذا الحق جميع الأفراد العقلاء الراشدين .

وقد سوى الإسلام فى حق الحرية المدنية بين الرجل والمرأة ولا فرق فى ذلك بين أن تكون متزوجة أو غير متزوجة ، فالزواج فى الإسلام لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ولا حقها فى التعاقد ولا أهليتها فى التملك ، بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية ، وبأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء وهبة ورهن وما إلى ذلك ، ومحتفظة بحقها فى التملك تملكا مستقلا عن زوجها وبالتصرف فيما تملكه .

وكما قضى الإسلام على التفرقة بين الرجل والمرأة فى حق الحرية المدنية ، قضى كذلك على جميع الأساليب التى كانت تفرق بين الأفراد فى هذا الحق تبعا لاختلاف شعوبهم أو أجناسهم أو طبقاتهم أو ألوانهم، أو تبعا لتفاوتهم فى الأحساب والأنساب . وفى هذا يقول الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول الرسول عليه السلام فى خطبة الوداع التى جعلها دستورا للمسلمين من بعده ولخص فيها طائفة من أهم أحكام الإسلام : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » . وتناقش مرة أبو ذر الغفارى مع بلال الحبشى الأصل فى حضرة الرسول عليه السلام ، فاحتد أبو ذر على بلال ، وقال له يا ابن السوداء فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام لذلك غضبا شديدا ، وقال « طف الصاع طف الصاع » أى قد تجاوز الأمر حده ، ثم توجه إلى أبى ذر وقال له . « أنك امرؤ فيك جاهلية . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى » .

وسوى الإسلام كذلك فى حق الحرية المدنية بين المسلمين وغير المسلمين فقرر أن غير المسلمين فى بلد إسلامى أو فى بلد خاضع للمسلمين لهم ما للمسلمين من حقوق مدنية وعليهم ما عليهم من واجبات وتطبق عليهم القوانين نفسها التى تطبق على المسلمين إلا ما تعلق منها بالشئون الدينية فتحترم فيه عقائدهم وشرائعهم ، وتدل على ذلك كله آيات كثيرة من القرآن الكريم ، كما تدل عليه عدة أحاديث نبوية .

هذا ، وقد أخذ بعض الباحثين على الإسلام أنه أباح الرق ، وأن فى هذا هدما لأهم ركن من أركان الحرية المدنية ، لأن الرقيق بحسب تعريفه : إنسان مجرد من الحقوق المدنية ، فلا يحق له إجراء أى عقد ، ولا تحمل أى التزام مدنى ، ولا يحق له التملك ، بل يعتبر هو نفسه من ممتلكات سيده .

وردنا على هؤلاء يتلخص فى ثلاث نقط :

(أحدها) أن الإسلام قد ظهر فى عصر كان نظام الرق فيه دعامة ترتكز عليها جميع نواحى الحياة الاقتصادية ، وتعتمد عليها جميع فروع الإنتاج فى قسم كبير من أمم العالم . فلم يكن من الإصلاح الاجتماعى فى شىء أن يحاول مشرع إلغاءه مرة واحدة لأن محاولة كهذه كان شأنها أن تعرض أوامر المشرع للمخالفة والامتهان . وإذا أتيح لهذا المشرع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به تنفيذ ما قرره ، فإنه بذلك يعرض الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهزة عنيفة ، ويؤدى تشريعه إلى أضرار بالغة لا تقل فى سوء مغبتها عما تتعرض له حياتنا فى العصر الحاضر إذا ألغى بشكل فجائى نظام البنوك أو الشركات أو حرم استخدام العمال وقضى على كل مالك أن يعمل بيده ، أو يبطل استخدام السكك الحديدية أو استخدام البخار : فالرقيق كان بخار الآلة الاقتصادية فى تلك العصور . فإذا كان الإسلام قد أقر الرق فإنه قد أقره تحت تأثير هذه الضرورات الاقتصادية والاجتماعية القاهرة .

(والنقطة الثانية) إن الإسلام لم يقر الرق فى صورة مطلقة ولا دائمة ، وإنما أقره فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدرج ، بدون أن يحدث ذلك أى أثر سيء فى نظام المجتمع الإنسانى ، بل بدون أن يشعر أحد بتغير فى مجرى الحياة . والوسيلة التى ارتضاها للوصول إلى هذه الغاية من أحكم الوسائل وأبلغها أثراً وأصدقها نتيجة . وهى تتلخص فى مسلكين : يتمثل أحدهما فى : تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه ، بل فى العمل على تخفيفها تخفيفاً كاملا ، ويتمثل الآخر فى توسيع المنافذ التى تؤدى إلى العتق

والتحرير . وبذلك أصبح الرق أشبه شيء بجدول كثرت مصباته وانقطعت عنه موارده التي يستمد منها الماء ، وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف . وبذلك كفل الإسلام القضاء على الرق في صورة سلمية هادئة ، وأتاح العالم فترة للانتقال يتخلص فيها شيئاً فشيئاً من هذا النظام .

وسنعرض فيما يلي بشيء من التفصيل لكل مسلك من هذين المسلكين :

(المسلك الأول) تضييق روافد الرق :

قضى الإسلام على ستة روافد هامة من روافد الرق قبل الإسلام ، فحرم الرق الناشيء عن الأسر في حرب أهلية أو في حرب بين المسلمين بعضهم مع بعض ، والناشيء عن القرصنة والخطف ، وعن ارتكاب بعض الجرائم ، وعن عجز المدين عن دفع دينه ، وجرد الوالد من سلطة بيع أولاده ، وجرد الحر من سلطة بيعه لنفسه . ولم يبق الإسلام من روافد الرق إلا رافدين اثنين ، وهما رق الوراثة وهو الذي يفرض على من تلده الأمة ، ورق الحرب الخارجية المشروعة الذي يفرض على الأسرى في حرب خارجية يجيزها الإسلام ، وعمد إلى هذين الرافدين نفسيهما فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل .

فن أهم القيود التي قيد بها رق الوراثة إنه استثنى منه أولاد الجواري من أسيادهن . فقرر أن من تأتي به الجارية من سيدها يولد حراً ، وإذا لاحظنا أنه كان الغالب في أولاد الجواري أن يكونوا من مواليهن أنفسهم ، لأن الأغنياء ما كانوا يقتنون الجواري في معظم الأحوال إلا لمتعتهم الخاصة ، تبين لنا أن هذا القيد الذي قيد به الإسلام رق الوراثة وانفرد من بين جميع الشرائع التي كانت تقر الرق ، كفيل بالعمل على جفاف هذا الرافد نفسه ونضوب معينة بعد أمد غير طويل .

ومن أهم القيود التي قيد بها المورد الثاني وهو الحرب الخارجية المشروعة أنه اشترط في الحرب حتى تكون مشروعة شروطا لا تكاد تتوافر إلا في الحروب التي اضطر إليها الإسلام في مبدأ أمره للدفاع المشروع أو للقضاء على ما كان يدبر له من فتن ومؤامرات ، أو لتأمين دعوته ، كما تدل على ذلك آيات كثيرة من القرآن . وحتى مع توافر هذه الشروط في الحرب فإن الإسلام لا يجعل الرق نتيجة لازمة للأسر ، بل يبيح للإمام أن يمن على الأسرى بدون مقابل ، أو يطلق سراحهم في نظير فدية تتمثل في نقد أو في عمل يؤدونه أو في نظير أسرى من المسلمين عند العدو ، بل إن القرآن قد تحاشى أن يذكر الرق بين الأمور التي يباح للإمام

أن يعامل بها الأسرى ، واقتصر على ذكر المن والفداء ، قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء » . ومسلك الرسول في جميع غزواته يدل كذلك على إيثاره دائماً المن والفداء . فالإسلام لم يجعل الرق نتيجة لازمة للأسر ، بل جعله مسلكا من المسالك التي يصح أن يتخذها الإمام ، ولم يرغب فيه ، بل رغب في غيره وفضله عليه ، هذا إلى أنه لم يجز الالتجاء إليه إلا بشروط لا تكاد تتوافر إلا في الحروب بين أمه والأمم الأخرى فإنه يندر أن تتوافر هذه الشروط ، وذلك يعني أن الإسلام لم يبق على هذا الرافد إلا لأجل قصير . فسلك حياله المسلك نفسه الذي سلكه حيال الرافد الأول : فقيده بقيود تكفل جفافه بعد أمد غير طويل .

(المسلك الثاني) توسيع منافذ العتق : كانت منافذ العتق قبل الإسلام ضيقة كل الضيق ، فلم تكن له إلا سبيل واحدة ، وهي رغبة المولى في تحرير عبده ، هذا إلى أن معظم الشرائع السابقة للإسلام كانت تحظر على السيد أن يعتق عبده إلا في حالات خاصة وبشروط قاسية وبعد إجراءات قضائية ودينية معقدة كل التعقيد ، وبعض هذه الشرائع كان يفرض على السيد الذي يرغب في عتق عبده غرامة مالية كبيرة يدفعها للدولة لأن العتق كان يعد تضييعاً لحق من حقوقها .

جاء الإسلام وهذه حال العتق في ضيق منافذه وقسوة شروطه ، فحطم كل هذه القيود ، وفتح لطائفة الرقيق أبواب الحرية على مصاريعها ، وأتاح لتحريرهم آلافا من الفرص وتلمس للعتق من الأسباب ما يكفي بعضه للقضاء على نظام الرق نفسه بعد أمد غير طويل .

وفيما يلي طائفة من أهم هذه الأسباب :

١ — أن يجرى على لسان السيد في أية صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده ، سواء أكان قاصداً معنى اللفظ أم لم يكن قاصداً له بأن جرى خطأ على لسانه ، وسواء أكان جاداً في إصداره أم كان هازلا ، وسواء أكان مختاراً أم كان مكرها إكراها على التلفظ به ، وسواء أكان في حالة عادية أم كان فاقداً لرشد ، بفعل الخمر وما إليها من المحرمات ، ومن هذا يظهر أن الإسلام يتلمس أوهى الأسباب لتحرير العبد .

٢ — أن يجرى على لسان السيد في أية صورة لفظ يفيد « التدبير » أي يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده ، فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تفيد هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده .

٣ — أن يأتي السيد من جاريته بولد .

فى هذه الحالة يعتبر الولد حراً من يوم ولادته كما تقدم بيان ذلك ، وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها .

٤ – أن « يكاتب » السيد عبده ، أى يتفق معه على أن يعتقه إذا دفع له مبلغاً من المال ، وقد ذلل الإسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال فى صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على الحرية ، فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار ، فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود ، حتى يستطيعوا أن يجمعوا المبالغ التى كوتبوا عليها فتتحرر رقابهم ، وحث جميع المسلمين وحث الدولة نفسها على مساعدتهم والتصدق عليهم ، فقال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

٥ – وقد جعل بعض أئمة المسلمين من أسباب العتق أن يؤذى السيد عبده إيذاء بليغاً ، فيصبح العبد فى هذه الحالة حراً بدون حاجة إلى حكم حاكم ، بل لقد ذهب بعض أئمة المسلمين إلى أن مجرد لطم السيد لعبده أو ضربه له يؤدى إلى عتقه عملا بما رواه ابن عمر عن النبى عليه السلام أنه قال : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » .

٦ – عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والخطايا التى يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرق ، فبينما كانت الجرائم فى الشرائع السابقة للإسلام تؤدى إلى استرقاق الأحرار إذا بها تصبح فى شريعة الإسلام مؤدية إلى تحرير العبيد .

٧ – حبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق فى غير الحالات السابق ذكرها ، وجعل ذلك أكبر قربة يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى ، كما تدل على ذلك آيات كثيرة من القرآن وآثار كثيرة من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

٨ – خصص الإسلام سهما من مال الزكاة ، أى جزءاً من ميزانية الدولة للإنفاق على تحرير العبيد ومساعدة من يحتاج منهم إلى مساعدة فى سبيل تحريره كالمكاتبين ومن إليهم ، قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » ، أى فى فك القيود عن رقاب العبيد ، والمقصود بالصدقات فى الآية الزكاة التى كان يتألف منها أهم مورد من موارد الدولة ، فبينما كان بعض الشرائع السابقة للإسلام يفرض على من يعتق عبده غرامة يؤديها للدولة وتضاف إلى ميزانيتها ، إذا بشريعة الإسلام تخرج جزءاً من ميزانية الدولة وتخصصه لعتق العبيد .

٭ ٭ ٭

ومن هــــذا يظهر صدق ما قلناه من أن الإسلام لم يقر الرق إلا لضرورات اجتماعية واقتصادية قاهرة ، وقد أقره في صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج وذلك بأن ضيق روافده ، بل لم يسمح ببقائها إلا لأجل معلوم ، ووسع منافذ العتق إلى أبعد الحدود ، وبذلك أصبح الرق كما قلنا أشبه شيء بجدول كثرت مصباته وانقطعت عنه منابعه التي يستمد منها الماء . وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف .

وقد جف بالفعل هذا الجدول من وجهة النظر الإسلامية منـــذ أمد طويل ، وأما ما يوجد في الوقت الحاضر في بعض البلاد الإسلامية وغيرها من رواسب الرق فهى اعتداءات صريحة على حقوق الإنسان . لا يجيزها الإسلام ، وتتنافر كل التنافر مع قواعده وأحكامه وروحه .

• • •

(والنقطة الثالثة) أن الإسلام لم يجرد الرقيق من جميع الحقوق المدنية كما فعلت الشرائع السابقة له ، بل اعترف بإنسانيته ، واحتفظ له بكثير من الحقوق المدنية المقررة للأحرار ، فمن ذلك مثلا أنه أقر أن يكون للرقيق أسرة بالمعنى القانوني لهذه الكلمة ، وحث الموالى على أن ييسروا للعبيد والإماء سبل الزواج كما تدل على ذلك نصوص القرآن نفسه ، وأباح للرقيق الزواج من أمة مثله ومن حرة وللأمة الزواج من رقيق مثلها ومن حر ، بنفس الأوضاع والشروط والعقود التي يتزوج بها الأحرار ، ومن ذلك أنه منح الرقيق الحق في أن يطلق زوجته ، والحق أن يخاصم سيده أمام القضاء ، وفي أن يجرى مع سيده أى تعاقد يؤدى إلى تحريره وإذا تم هذا التعاقد فإن الإسلام يمنح الرقيق الحق في جميع التصرفات المدنية حتى يستطيع أن يجمع المبلغ الذى كوتب عليه فتتحرر رقبته ، ومن ذلك أنه منح الرقيق حق التعليم والثقافة ، وحث الموالى على تعليم عبيدهم وإمائهم ، وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام . « أيما رجل كانت عنده وليدة (أى جارية) فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . وينبئنا التاريخ الإسلامى أن فرص التعليم والثقافة كانت متاحـــة للعبيد والجوارى في أوسع نطاق في مختلف العصور الإسلامية ، وأن هذه الفرص قد آتت ثمرتها الطيبة ، فأنشأت منهم آلافا من المبرزين والمبرزات في علوم القرآن والحديث والفقه واللغـــة والأدب وشتى أنواع المعارف والفنون ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

نفحات القرآن

القرآن مأدبة الله لعباده

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « يا أيها الناس : قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ، ورحمة للمؤمنين » .

(ب) « قل بفضل الله ، وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » . ٥٧ - ٥٨ يونس

١ — فى الآية الأولى : بيان كريم لبعض مناقب القرآن .

وفى الثانية : دعوة من الله لاغتنام هذه المناقب ، وانتهازها أكثر من سواها .

والله تعالى : يفتح بابه لعباده ، ويوجه خطابه إليهم جميعا بقوله : « يا أيها الناس » ، وفى هذا النداء إعلام جهير ، يطرق الأسماع فى كل زمن ، وفى كل بيئة ، ويرافق الدنيا على مداها الطويل ، إلى أن يبدل الله الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، ويبرز الناس من الأجداث لله الواحد القهار .

وتوجيه الدعوة إلى الناس بهذا النداء العام قد تكرر فى الكتاب العزيز سبع عشرة مرة منها تسع مرات فى مكة . . وثمان مرات فى المدينة .

ومرة تكون هذه الدعوة العامة إلى عبادة الله : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » ، ومرة إلى تقواه « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ، ومرة ثالثة تكون إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به من قرآن ، وسنة « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » ، وهكذا من أهداف متنوعة ، وكلها متلاقية عند غاية واحدة : هى الإيمان وصالح الأعمال للدين ، والدنيا ، والنهى عن البغى ، والإفساد فى الأرض الخ .

٢ — وأنت ترى فى الآية التى معنا أربعة مناقب، يؤكدها الله - تعالى - بعد هذا النداء العام - بلفظ «قد جاءتكم».

وتلك المناقب للقرآن هى المقاصد التى تتعلق بها دعوة الله للناس ليأخذوا بها.

٣ — المقصد الأول: «موعظة من ربكم» والموعظة: هى ذكر ما يلين به القلب من جموده، ويهتز به خشية من الله: ورغبة فيما عنده من المثوبة.

وربما صفا القلب من كدرته، وتسامى فى طهره، حتى يكون تعلقه بالله فوق الخوف منه، والطمع فيما عنده، بل يكون محبة محضة وتفويضا لله فيما يريده لعبده من الجزاء عنده دون اعتداد بما قدمه العبد من طاعة، وتلك هى تقوى الأبرار، الذين أيقنوا بأن الطاعة حق عليهم، ولم يفرضوا لأنفسهم حقا على الله إلا أن يكون تفضلا منه على عباده، كما تفضل فوعدهم بذلك.

٤ — المقصد الثانى: «وشفاء لما فى الصدور».

والشفاء. هو البرء من السقم، والمراد: أن القرآن هو الدواء المعنوى، الذى يشفى صدورنا من النفاق، والأحقاد، ويكون النظر فيه، وتفقه معانيه كتناول الدواء الحسى فى علاج الأسقام الجسمانية، ولذلك أمرنا بتلاوته، وترتيله، ونهينا عن هجره، ونسيانه، لئلا تصدأ القلوب، ويغشاها الضلال، فتعرض عن ذكر الله.

وقد أفاد بعض الأئمة أن شفاء القرآن يكون للأجسام، أيضاً من بعض الأضرار، كما أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتحصن من السحر، ومن الحسد بقراءة المعوذتين، وكما كان النبى ينصح بالرقية لمن يشكو بعض مواجعه فيأمرهم بقراءة «قل هو الله أحد، والمعوذتين» الخ، ولا شك أن هذا ليس بكثير على كتاب الله، وإنما يحتاج إلى صدق الإيمان، وتمامه.

٥ — المقصد الثالث والرابع: «وهدى ورحمة للمؤمنين».

أما الهدى فهو البيان لما يحتاجه المرء من إرشاد، أو هو نفس الاهتداء الحاصل به للعبد، والاهتداء أثر القرآن، وأطلق عليه كأنه هو نفس الاهتداء المسبب عنه، وأى سبب يكون مجديا فى الهداية كالقرآن».

٦ — وأما الرحمة: فهى النفع بالخير المجلوب، وهى الإحسان، والتفضل من جانب الله بكل ماينفع العبد: ماديا، وأدبيا ويجمل ذلك: أن الكتاب الكريم جامع لما سلف من المناقب، فهو الموعظة، والشفاء، والهدى، والرحمة، وفى ذكر هذه المناقب توعية لنا، وتوجيه إلى الأخذ به فيما ننشده من أسباب الهناءة، عاجلا، وآجلا!.

(ب)

٧ — ثم تجيء الآية الثانية مصرحة لنا بما تضمنته الأولى « قل بفضل الله ، وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » .

قل يا محمد للناس : إن كانت الدنيا متاعا لكم ونعمها فرحة لأنفسكم ، فليكن فرحكم أجدر بما تفضل الله به من هداية ، ودعوة ، ووعد كريم ، فإن فرحة الدنيا تغريكم باللهو ، وتشغلكم عن الباقيات الصالحات ، أما فرحتكم بالقرآن ، وما جاء به فإنها فرحة بالأمل الحق وبالمتاع الخالد ، ولا نسبة بين ما هو زائل مهما كثر ، وبين ما هو باق ، وإن لم يكن هو الكمال المطلوب منهم فى الأخلاق ، والأعمال .

وهذه التوصية ليست تحريما للدنيا ولا صداً عنها ، بل هى تنبيه من الغفلة ، وتحذير من الخطأ .

ثم هل تنحصر مناقب القرآن فيما ذكرنا من الأربعة مقاصد ؟

والجواب : أن القرآن فسيح الجنبات ، ولكنه لا يستوعب مقاصده فى كل مقام ، بل يكتفى بالاحتمال عن التفصيل حينا بعد حين ، وإجماله يشير دائما إلى تفصيله بمثل قوله « إن فى ذلك لآيات » ، وذلك هو منهج الإسلام فى تربيته الناس .

٨ — ثم إذا كانت دعوة الله للناس عامة ، فلماذا ختمت الآية الأولى بقوله تعالى : « ورحمة للمؤمنين » ؟ فربما أوهم ذلك : أن من لم يكن مؤمنا بالفعل لا يجديه القرآن شيئا ؟ ! وهذا مناقض لما تقرر أن دعوة الله عامة .

والجواب : أن ذكر المؤمنين ليس حصرا للدعوة فيهم ، ولا صدا لغيرهم عن الإقبال عليها مثلهم ، بل القصد : تشريف المؤمنين بذكرهم ، والتنويه بحرصهم على الاستجابة لدعوتهم ، والقصد كذلك : استنهاض غيرهم إلى القدوة بهم ، والمسارعة إلى ربهم وحسن الاختيار منهم ، وفى هذا إشعار للناس أن دعوة الخير إنما تفيد فى النفوس الخيرة ، وتنفذ من الأسماع الواعية إلى القلوب المتهيئة للإصلاح ، كالأرض الطيبة ، يخصبها الماء العذب ، وتنبت من كل زوج بهيج .

أما من غلبت عليهم شقوتهم ، وطغت عليهم أهواؤهم ، وجمحوا عن نداء الله لهم ، فقد استحوذ الشيطان عليهم ، وتركهم الله لأنفسهم فلا أمل فيهم ، ولا أمل لهم ، والله تعالى يقول : « إنما يذكر أولو الألباب » ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ونعوذ بالله من الغفلة ؟

عبد اللطيف السبكى

عبقريات العقاد الإسلامية

للدكتورة نعمات احمد فؤاد

— ٢ —

فى عبقريات العقاد الإسلامية إضافات كبيرة :

فعمر من عطاءات الإسلام بما طور من حياته وشكل سيرته .

(كان جاهليا فأسلم . . . فأصبح إسلامه طورا من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام رجل طورا من أطواره الكبار .) ص ٩٥ عبقرية عمر

عمر إذن من عطاءات الإسلام كما أن مواضع البأس فى الإسلام على عصره من معطيات عمر . يعزز هذا سؤال النبى ربه أن يعز الإسلام بعمر الذى وضح أنه أحب الرجلين إلى الله .

وأسلم عمر وحسن إسلامه فكان النبى (يدخر للإسلام سورته كما يدخر له تسليمه وطاعته) ص ١٤٦

وأسلم عمر فكان إسلامه كما قال عبد الله ابن مسعود (فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة .) ص ١٦٩

وكتاب عبقرية عمر كتاب (يقرأ . . فيه القارىء قبل كل شىء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التى تسيطر على هذا الوجود : كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى ، وتلابس القوى فتنمى قوته وتجرى به فى وجهته ، وكان يدا خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه فإذا هى صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضمائر والأذهان .) ص ٨٢

وحسب الكتابة وكاتبها أن تصور حياة فرد فتؤرخ لدين بأسره من خلاله . . دين هو أحوج مايكون إلى تصوير فذ يدحض عنه التهم ويرحض عنه الأذى ويجلو عن مراميه الشكوك

ويقارن العقاد فى كتابه « عبقرية الصديق » بين شخصيتى أبى بكر وعمر أو بين النموذجين الكبيرين فى التاريخ الإسلامى فيجمع الموقف كله فى تقديم وصف على موصوف يكفى فى الإبانة عما بين عمر والفاروق ، من فروق .

فأبو بكر كما يقول العقاد كان يعجب بمحمد النبى وعمر كان يعجب بالنبى محمد أى أن (حب أبى بكر لشخص محمد هو الذى هداه إلى الإيمان بنبوته وتصديق وحيه) .

وأن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذى

هداه إلى حبه والولاء له والحرص على سنته، وعلى رضاه.

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمدا فيفهم القرآن، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمدا حتى يثوب إلى الفهم الصحيح.

هما قريبان جد قريبين.

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب.) ص ٨٤ - ٨٥

ويمضى العقاد فى المقابلة حتى ما يتعلق منها بتكوين البنية وتركيب المزاج فتكون فى جماعها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر، وكلتاهما فعالة، وكلتاهما ذات أثر فى الإسلام، وفى العالم جليل.

(وإن العقيدة التى تتسع لهذين الرجلين، ولهذين الخلقين ولهذين العقلين، ثم يكون كلاهما إماما فيها عظيما فى اتباعها، لهى عقيدة تتسع لكثير) ص ١٢٨ عبقرية الصديق

لكأن العقاد موكل بتحريك السطح الراكد أو تحقيق المفاهيم الثابتة ونقض التلقائية عنها

فإسلام أبى بكر مثلا لا يقف به العقاد عند دلالة السماحة والطيبة التى قد تغرى الغرض بتحميلها معنى الضعف أو الاستسلام ولكنه بتعمقه كالعادة مستبطنا الأسباب البعيدة والقريبة أنظر ص ٩٨ - ١٢٤.

فإذا إسلامه الموقف الذى يتخذه كل إنسان فى مثل مواضعاته وظروفه التى خلت من الموانع حين حفلت بالموجبات وعلى رأسها انطباعه، سليم الفطرة، على الإعجاب بالبطولة.

(إن أبو بكر إذن بالإسلام سريعا إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية وليس تلقائية ساذجة... فكان جديرا أن يكتب له من اللحظة الأولى أن يكون (ثانى اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين. فكان ثانى اثنين فى الإسلام، وثانى اثنين فى غار الهجرة، وثانى اثنين فى العريشة التى آوى إليها النبي يوم بدر الذى لا يوم مثله، وثانى اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين وأقرب صاحب إلى النبى فى شدة الإسلام ورخائه، وفى سره وجهره، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين.) ص ١١٣

هكذا العقاد لا يسرد ولا يقص ولا يتسلى ولكنه يقف وراء التجارب والأعمال والأقوال والظاهرات والأحوال كعلامات طريق...

ففى عبقرية الإمام صور عصر على لا بالإنشاء والتحبير واكتفى بتصرفات أصحابه على مسرحه وأقوالهم وسلوكهم وما وراء هذا من دلالات وعبر.

كانت الخلافة منذ تولاها عثمان مسرحية

كبيرة شغلت أذهان النظارة والنقاد معا وبلغت (الدراما) ذروتها بمقتل عثمان.

واعتلى على خشبة (المسرح الأصغر) وهو الذى استفاضت شهرته وأعماله على مسرح الحياة الكبير فى حربها وسلمها ... فى علمها وقضائها ... نخسرته الحياة ولم تكسبه الخلافة.

لم يكن صاحب عصره . عاش فى مرحلة تحويلية يسرع فيه الحكم الإسلامى إلى الملك فى سمته وأسلوبه وغاياته ووسائله وكلها تتعارض مع فروسية الشجاعة وزهد الروحانية وتقوى العالم بالدين ... تتعارض مع الإمام .

(فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارىء من الطارىء كا عرف بالإقبال على الدنيا . . ؟) عبقرية الإمام ص ٢٠٤

ومرة أخرى يقول الأستاذ العقاد :

(خرج على دالى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام) .

ولكن موتته لم تكن هلكا ، وخلافته لم تكن مقطوعة ، فقد عاش على موته الملوك، وقامت باسمه الدول . وهو الذى لم تقم له دولة فى حياته .

وبين البداية والنهاية أو المقدمة والنتيجة عرض العقاد حياة الإمام بألوان عبقريتها فى الشجاعة والرأى والعلم والروح فا فرغ من العرض إلا وفى كل ناحية من نواحى النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه ... ملتقى بالعاطفة المشبوبة أو بإحساس الرحمة والإكبار ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى أجواء الذين ألحقوه بأبطال الأساطير . . .

أو ملتقى بالعقل يفصل بنفسه لنفسه بين اختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين .

ملتقى للذوق الأدبى حيث يقع من نوابغ الكلام عند على على مهوى للتذوق الحسن الجميل من التعبير .

إن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء ، وتمس قلبه حين يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ويتراءون من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء وهم على حياض المنية جياع ظماء .

على بن ابى طالب فى كتاب العقاد ، الإمام العبقرى ، والشهيد أبو الشهداء .

ومنهج العقاد مطرد فى كل عبقرياته كأنه

علامة مميزة . هذا المنهج تستطيع أن تطبقه فى (عبقرية خالد) فقد رسم خلفيه مادية وإنسانية للبطل تفسر موقفه وتصرفاته وآراءه ومنازع السلوك عنده .

وهذه الخلفيه لا تستثنى خالجة من مشاعر أو ظاهرة من الظاهرات فى بيئة البطل العامة أو الخاصة ولو كانت بعيدة فى رأى العين أو النظرة الأولى عن الموضوع . فجمال المخزوميات يحسب فى خلفية صورة القائد خالد بن الوليد (فقديما كانت الفروسية والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال .) ص ٢٧ عبقرية خالد .

يعالج العقاد اسلام خالد فلا يستريح إلا أن يكون إسلامه (تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح) ٤٢ .

ولا يبدأ العقاد عند الأقوال المقررة فيقيم عليها بناءه الأدبى أو التاريخى ولكنه يعرضها على الدرس والتعميق فإذا هو يبدأ من حيث انتهى . والبدايات عند العقاد جذرية إلى أبعد امتدادات الجذور فى تربة البطل أومنبته المادى والمعنوى على السواء .

فالقول بأن خالدا (سيف من سيوف الله) لا يتعلق به العقاد ليعفى نفسه من متناقضات السيرة فيتجاوز بالقارىء أو بالحقيقة العلمية (ميدان حنين) أو صنيع خالد فى سرية بنى جذيمة .

لا . . بل لعل العقاد يرى فى مثل هذه المزالق مجاله الذى يصول فيه بطاقة الجدل عنده وقدرة الإقناع فيه .

يقول العقاد : (كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه فى ظلام المحنة والبلاء) ص ٤٨ عبقرية خالد .

ويعنى العقاد بهذا القول الملهم عين النبي الملهمة فقد سمى خالدا سيف الله (قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام ... وهى الأعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام) ص ٤٨ عبقرية خالد .

ولا يتردد العقاد فى تقرير الخطأ إذا قامت عليه الأحداث والروايات ووقائع الحال ما تقوم به الأدلة عليه . ومن هنا أثبت على خالد الخطأ فى وقعة البطاح (لأنها لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيرا ولا قليلا وأحدقته لسلام أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون) ص ٩٦ عبقرية خالد .

وقد أثبته عليه عملا بمبدأ تقرير الخطأ كالتنويه بالصواب (لأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ) ص ٩٦ .

ناقش العقاد عزل خالد (ص ١٤٥ - ١٥٣ عبقرية خالد) فلم يقدم امتناع خالد عندما أفاء إلى الهدوء بهذا العمل جنوحا إلى الأسهل بل أجله إلى آخر المناقشة فانتهى به حيث بدأت النفس القارئة فى الاقتناع. وهنا لم يترك لها فرصة أطول للتفكير أو الترجيح بل انتهى بها إلى قرار معروف إذ توفى خالد (وهو يحمل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب) ص ١٥٤.

العقاد نفسه إنسان رقيق الإحساس فى الكتابة عن العباقرة والعظماء.

ففخرة خالد بن الوليد أعنى موقعة (اليرموك) قصة نصره الحربى فى تاريخه كله لا تلهى العقاد الإنسان الرقيق عن موضع الدلالة فى قصة قلنسوة خالد القائد الظافر، الذى يصر على البحث عن القلنسوة فى موقف الهول وماهى بالنفاسة التى توجب الحرص عليها أو تؤلم عند افتقادها. ولكن إصرار خالد على العثور عليها إنما كان لتيمنه بها لما حلت من شعر ناصية الرسول.

ويؤمن العقاد أقرب ما يكون إلى القلب الإنسانى:

(ما فى ذلك من عجب فليس أحوج إلى صلته بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء) ص ١٦٢.

لا يستطيع إدراك فعل هذه الكلمة من العقاد إلا من يقرأ كتابه عبقرية خالد الذى يقيد فيه العقاد أنفاس القارئ ليسمعه بمنطق ويجادل ويفلسف الأشياء الصغيرة حتى تغدو لها قيمة، ويصاول الحجة بالحجة ويستقصى حتى يقفل الدائرة تماما حتى إذا لهث القارئ من التصعيد إليه وحسب أن مهمته صعبة مع الكاتب العالم المحلق المحقق، وظن أنه بعيد بعيد إذا به يراه منه قريب قريب... إنسان مثله يحنو على ضعف الإنسان أمام القوة الكبيرة فيتوسل إليها بالتبرك. والتيامن. ونافلة من صلاة.

إن عبقريات العقاد الإسلامية أجدى على الإسلام من حيث هو دين ونظام، وعلى الأدب العربى من حيث هو تصوير وتعبير وعلى الأدب الإنسانى من ناحية إعلائها الشمائل الإنسانية من خير وحرية واستقلال رأى وشعور بالتبعة وإيثار للعدل. أجدى على الدين والدنيا فى إجلالها العقيدة واحترامها العقل الإنسانى من كتب كثيرة ليس فيها من الجهد والعلم والقيم - وإن أغنت فى ناحية أو أخرى - معطيات العقاد التى أسداها مخلصا لله، وللإنسان من إيمان.

نعمات أحمد فؤاد

هل أتم الفخر الرازى كتابه فى التفسير...؟

للأستاذ على العمارى

— ١ —

بدا لى أن أكتب ترجمة للإمام فخر الدين الرازى ، فلما وصلت إلى الحديث عن تفسيره الكبير المسمى : (مفاتيح الغيب) فجأنى رأى غريب جعلنى أعيد النظر فى كل ما كتب عن هذا التفسير .

ذلك أن نسبة هذا الكتاب للفخر الرازى بلغت حد التواتر ، ولكن طبعة أخيرة صدرت منه على نفقة صاحب المطبعة البهية المصرية ، وقد قام على تحقيق الكتاب ، والتعليق عليه جماعة من أفاضل العلماء – كما جاء على الصفحة الأولى منه .

وفى تفسير سورة (الواقعة) جاءت عبارة تفيد أن كاتبها ليس هو الفخر الرازى ، ولكن هذه الجماعة من (أفاضل العلماء) علقت عليها بهذه الكلمة الغريبة : (هذه العبارة تشعر وتؤكد أن الكتاب لمؤلف آخر غير فخر الدين الرازى ، وإنما هو لأحد تلامذته ، وربما كان من العلماء المتأخرين)[١] .

وقد بذلت جهدى ما وسعتنى القدرة فى تحقيق هذه القضية ، ما لا يكن الرأى الذى انتهيت إليه صحيحا كل الصحة ، فإنى لأرجو أن يكون أقرب إلى الصواب .

* * *

فيما كتب المتقدمون من العلماء ما يدل على أن الفخر الرازى لم يتم كتابه هذا ، وهاهوذا بعض ما وقفت عليه من ذلك

(١) لعل أول من أشار إلى ذلك هو (ابن أبى أصيبعة) المتوفى سنة ٦٦٨ هـ[١] .

فقد جاء فى كتابه (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) فى ترجمة الإمام أحمد بن الخليل الخوبى هذه العبارة : (ولشمس الدين من الكتب تتمة تفسير القرآن لابن خطيب الرى)[٢] .

(٢) قال ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ فى كتابه : (وفيات الأعيان) فى ترجمته لفخر الدين الرازى : (له التصانيف المفيدة فى فنون عديدة . منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة ، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله) .

(١) ج ٢٩ ص ١٥٥ من الطبعة المذكورة .

(١) توفى الفخر الرازى سنة ٦٠٦ هـ .

(٢) ج ٢ ص ١٧١ .

(٣) ج ٣ ص ٣٨١ .

(٣) وفى شذرات الذهب نقــلا عن ابن قاضى شهبة أن "الفخر الرازى (لم يتم) تفسيره [١] .

(٤) وقال تاج الدين السبكى فى كتابه (طبقات الشافعية) فى ترجمة (نجم الدين القمولى) (وله تكملة فى تفسير الإمام فخر الدين)[٢]. توفى ابن السبكى فى سنة ٧٧١ هـ .

(٥) وذكر ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ فى (الدرر الكامنة (فى أعيان المائة الثامنة) أن الذى أكمل تفسير فخر الدين الرازى هو أحمد بن محمد بن أبى الحزم نجم الدين المخزومى القمولى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، وهو مصرى [٣] .

(٦) وقد ردد ذلك صاحب كشف الظنون ، فقال : (وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولى تكملة له ، وتوفى سنة ٧٢٧ هـ . وقاضى القضاة شهاب الدين بن خليل الخوبى الدمشقى كمل ما نقص منه أيضا وتوفى سنة ٦٣٩ هـ تسع وثلاثين وستمائة [٤])

(٧) وقد جاء فى هامش كشف الظنون هـذه العبارة : (الذى رأيته بخط السيد مرتضى نقلا عن شرح الشفاء للشهاب أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء) .

ويتلخص من كل هـذه الكلمات :

أولا : أن الفخر الرازى لم يتم كتابه فى التفسير .

ثانيا : أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء

ثالثا : أن عالمين كتبا تكملة له كل واحد على حدة ، أولهما شمس الدين الخوبى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ . وثانيهما نجم الدين القمولى المتوفى فى سنة ٧٢٧ هـ .

وكان ينبغى أن تكون عبارة كشف الظنون التى نقلتها آنفا تحت رقم (٦) على هـذا الوضع لا على الوضع الذى جاءت عليه .

رابعا : وهو الرأى الغريب الذى كتبه المعلقون على الطبعة الحديثة أن الكتاب كله ليس للفخر الرازى ، وإنما هو لعالم آخر قد يكون من العلماء المتأخرين .

* * *

أما العبارات التى جاءت فى تفسير سورة الواقعة ، والتى علق عليها العلماء الأفاضل ، فهى ما جاء عند تفسير قوله تعالى : (كأمثال اللؤلؤ المكنون) فقد عرض المفسر لقوله تعالى : (ليس كمثله شىء) ثم قال : (وشىء من هـذا رأيته فى كلام الإمام فخر الدين الرازى ـ رحمه الله ـ بعد ما فرغت من كتابة هذا بما وافق خاطرى خاطره ، على أنى معترف بأنى أصبت منه فوائد لا أحصيها)

وعبارة أخرى قريبة من هذه جاءت فى تفسير قوله تعالى : (جزاء بما كانوا يعملون)

(١) جـ ٥ ص ٢ .
(٢) جـ ٥ ص ١٢٩
(٣) جـ ١ ص ٣٠٤ .
(٤) جـ ٢ ص ٢٩٩

من نفس السورة . قال المفسر : المسألة الأولى أصولية ذكرها الإمام فخر الدين ـ رحمه الله ـ فى مواضع كثيرة ، ونحن نذكر بعضها ، فالأولى : قالت المعتزلة : هذا يدل على أنه يقال : الثواب على الله واجب ، لأن الجزاء لا يجوز المطالبة به ، وقد أجاب عنه الإمام فخر الدين ـ رحمه الله ـ بأجوبة كثيرة ، وأظن أنه لم يذكر ما أقول فيه ، وهو ما ذكروه ... الخ) .

• • •

ثم نأخذ فى مناقشة ما دوناه من آراء .

وأول ذلك أنى عجبت أشد العجب لهؤلاء الفضلاء الذين علقوا على الطبقة الأخيرة كيف ذهب عنهم أن ينظروا ـ قبل أن يصدروا حكمهم القاسى الغريب ـ فى هذا التفسير نظرة إمعان وتأمل ، ولو فعلوا لتوقفوا طويلا قبل أن يكتبوا ما كتبوه .

فكل الكتب التى ترجمت للفخر الرازى ذكرت فى ثبت كتبه هذا التفسير ، والفخر نفسه قد سجل فى أواخر كثير من السور التى فسرها ـ وقد مروا بهذا طبعاً ـ تاريخ فراغه من تفسيرها ، وهذه هى التواريخ كما جاءت فى تفسيره :

١ ـ سورة آل عمران : فى يوم الخميس أول ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة من الهجرة .

٢ ـ سورة النساء : فى يوم الثلاثاء الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

٣ ـ سورة الأنفال : فى يوم الأحد . رمضان سنة إحدى وستمائة فى قرية (بغدان) .

٤ ـ سورة التوبة : فى يوم الجمعة الرابع عشر من رمضان سنة إحدى وستمائة .

٥ ـ سورة يونس : فى يوم السبت من رجب سنة إحدى وستمائة .

٦ ـ سورة هود : قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب سنة إحدى وستمائة .

٧ ـ سورة يوسف : فى يوم الأربعاء السابع من شعبان سنة إحدى وستمائة .

٨ ـ سورة الرعد : فى يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة إحدى وستمائة .

٩ ـ سورة إبراهيم : فى يوم الجمعة أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة فى صحراء (بغداد) .

هكذا وردت فى النسخة التى نقلت عنها ، وأظنها (بغدان) المتقدمة فإن العلماء لم يذكروا فى تاريخ الفخر أنه رحل إلى بغداد اللهم إلا إذا كان مر بها فى طريقه إلى الحج ، ويوم الجمعة المذكور يوافق آخر شعبان على ما أرجح .

١٠ ـ سورة الإسراء : الثلاثاء بين الظهر والعصر فى العشرين من المحرم سنة إحدى وستمائة فى بلدة (غزنين) .

ونلاحظ أنه فسر سورة الإسراء قبل

تفسيره لكل هذه السور التى فسرها فى سنة إحدى وستمائة .

١١ — سورة الكهف : فى يوم الثلاثاء العاشر من صفر سنة اثنتين وستمائة فى بلدة (غزنين) .

١٢ — سورة الصافات : فى يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة .

١٣ — سورة ص : فى آخر الثلاثاء الثانى من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة .

١٤ — سورة الزمر : فى ليلة الثلاثاء آخر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة .

ونلاحظ أن أول ذى القعدة فى تلك السنة كان يوم (الأربعاء) .

وعلى ذلك فالثلاثاء الثانى يوم الرابع عشر منه ، فيكون الإمام الفخر - على هذا - قد فسر سورة (ص) قبل سورة (الصافات) كما يكون قد فسر (الصافات) فى ثلاثة أيام .

١٥ — سورة المؤمنين : فى يوم السبت الثانى من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة فى بلدة (هراة) .

١٦ — سورة السجدة : وقت الظهر الرابع من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة .

١٧ — سورة الشورى : آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة .

١٨ — الزخرف : فى يوم الأحد الحادى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة .

١٩ — الدخان : فى ليلة الثلاثاء نصف الليل الثانى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة .

٢٠ — سورة الجاثية : يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، الخامس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة .

٢١ — سورة الأحقاف : يوم الأربعاء العشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة .

٢٢ — سورة الفتح : يوم الخميس ، السابع عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة .

ونلاحظ أن أول ذى الحجة فى سنة ثلاث وستمائة يوافق يوم (جمعة) إذ كان الثامن الذى فسر فيه سورة (الشورى) والخامس عشر الذى فسر فيه سورة (الجاثية) . كما أن (السبت) الذى فسر فيه سورة (المؤمن) كان (الثانى) من الشهر ، وكان (الثلاثاء) من هذا الشهر يوافق (الثانى عشر) الذى فسر فيه سورة (الدخان) ، وكان (الأربعاء) يوافق (العشرين) الذى فسر فيه سورة (الأحقاف) .

وعلى ذلك فلعله من خطأ الناسخ جعل (الأحد) الذى فسر فيه سورة (الزخرف) يوافق (الحادى عشر) فهو إنما يوافق (العاشر) ، وكذلك من الخطأ جعل (الخميس) الذى فسر فيه سورة (الفتح) يوافق (السابع عشر) فهو إنما يوافق (الرابع عشر) . والتصحيف فى الموضعين قريب .

كما نلاحظ أن المؤلف فسر في شهر (واحد) ثمانى سور، بل كان يفسر السورة الواحدة فى (يومين) كما هو الشأن فى سورة (الدخان) فقد انتهى من تفسير سورة (الزخرف) فى العاشر، وانتهى من تفسير سورة (الدخان) فى اليوم (الثانى عشر) بل ربما فسر السورة فى يوم واحد، وذلك إذا كان (السابع عشر) الذى فسر فيه سورة (الفتح) محرفا عن (الواحد والعشرين) كما هو مساق التاريخ، فيكون ـ حينئذ ـ قد فسر سورة (الأحقاف) فى اليوم (العشرين) وهو يوم (الأربعاء).

كما نلاحظ ـ أيضاً ـ أن تفسير هذه السور من أول سورة (الصافات) جاء متتابعاً.

* * *

هذه هى التواريخ التى جاءت فى تفسيره، وقد كانت تسبق عادة بعبارة (قال المصنف) أو (فرغ المصنف رحمه الله) أو (قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان) أو (قال مولانا رضى الله عنه).

ومن الواضح أن أكثر هذه العبارات من (الناسخ) ومما يدل على ذلك قوله فى آخر تفسير سورة (هود): (وقد وجد بخط المصنف ـ رضى الله عنه ـ فى النسخة المنتقل منها: ثم تفسير ... الخ).

* * *

وطبعى أن تفسير هذه السور ليس من تصنيف واحد من العالمين اللذين ذكر أصحاب التراجم أنهما أتما تفسير الفخر.

أما القمولى فأمره واضح إذ توفى عام ٧٢٧ هـ، وأما شمس الدين الخوبى فقد كان فى ذلك التاريخ فى سن أقل من العشر، فميلاده ـ على ما ذكروا ـ كان فى سنة ٥٨٣ هـ.

كما أنه كان فى سنة ٥٩٥ هـ، وهى السنة التى فسر فيها الفخر (آل عمران والنساء) وكان قبل ذلك قد فسر سورة (البقرة) كما يفهم من إحالته فى تفسير سورة (آل عمران) على تفسير سورة (البقرة)، أقول كان الخوبى فى ذلك التاريخ فى سن لا تسمح له بأن يفسر القرآن، ولا سيما فى هذا النحو من العمق والاتساع.

وأيضاً. ليس من الطبيعى أن يفسر تلميذ القرآن، ثم ينسبه الأستاذ إلى نفسه، ويكتبه بخطه.

ويرفع كل وهم يتطرق إلى هذه الأدلة ما جاء فى تفسير سورة (يوسف): (قال مصنفه فخر الدين الرازى) عند تفسير قوله تعالى: «وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك»، وما جاء فى آخر تفسير هذه السورة عند قوله تعالى: «رب قد آتيتنى من الملك»، فقد جاءت هذه العبارة: (قال الإمام فخر الدين الرازى ـ رحمة الله عليه ـ وهو مصنف هذا الكتاب، أنار الله برهانه)؟

(للحديث بقايا) علي العماري

الجبال في القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي

— ٤ —

« والجبال أوتادا » :

نبدأ بهذه الآية الكريمة مستعينين بالله في محاولة لالتماس حكمته سبحانه في أن ذكر الجبال مع السموات والأرض على سواء في مواطن عدة من القرآن الكريم ، أحدها في سورة النبأ في آيات هذه إحداها .

والجبال في هذه الآية الكريمة منصوبة بالفعل (نجعل) في الآية التي قبلها : « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا » ، وهي واردة في معرض من الله على عباده بآيات له في الخلق هي من مظاهر قدرته وجمالي حكمته ، ففي منافعها للناس بعض تجليات حكمته ، وفي أسرار خلقها وتصييرها إلى صورتها التي يشهدها الناس بعض دلائل قدرته التي ليس يعجزها شيء .

وينبغي أن يتحقق الأمران جميعا في معنى الكلمتين الكريمتين « والجبال أوتادا » . ينبغي أن يكون في تشبيه الجبال بالأوتاد هذا التشبيه المحذوف منه أداة التشبيه والذي يسميه علماء البيان من أجل ذلك بالتشبيه البليغ لأنه يجعل المشبه عين المشبه به توكيداً للشبه الشديد بينهما - ينبغي أن يكون في ذلك هاديا إلى أطراف المعنى من ناحيتيه : ناحية الدلالة على القدرة وكمالها ، وناحية الهداية إلى الحكمة وجلالها ، وأطراف المعنى إنما تتبين من تعدد أوجه الشبه بين الجبال والأوتاد تعدداً يدل على مجاوزته المألوف في كلام الناس إذا بالغوا في التشبيه . إن التشبيه البليغ هنا هو من قبل الحق سبحانه ، ثم هو تشبيه للأعلى بالأدنى ، والفخم الرائع بالضئيل الممتهن عند الناس ، فليس هو في شيء من تهويل الناس ومبالغاتهم في تشبيهاتهم البليغة ، ولكنه دليل إلى أمور في الجبال هي من آيات الله في الخلق تناظرها أمور يعرفها الناس في الأوتاد ، على عظم الفرق بين الجانبين في النسبة والمقدار فكأن ذلك التشبيه العجيب : مفتاح أو مصباح يستكشف به المجهول من أمر الجبال عن طريق المعروف من نظائر لها في الأوتاد .

والجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض ، وناحية الرسوخ فيها ، لكن التشابه والتناظر بينهما أشمل وأدق من هذا ، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز فى مداه وفى درجات الميل ، والجبال تختلف فى الارتفاعات وفى درجات الميل كذلك . والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلابتها وشكلها ومدى ذهابها فى الأرض وطبيعة تلك الأرض ، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ فى ذلك كله وإذا كان تفسير هذا فى الأوتاد هينا فتفسيره فى الجبال يحتاج إلى علم واختصاص ، فالأوتاد إلى هنا لم تزد على أن تشير إلى نواح يتبغى أن يتجه إليها الباحث ليقف على مظاهر من آيات الله فى الجبال .

لكن هناك عوامل فى اتخاذ الأوتاد تدل بذلك التشبيه البليغ على نظائر لها فى نشأة الجبال لم تكن تخطر ببال إنسان عند نزول القرآن ، فالأوتاد لابد فى إنشائها من تشكيلها ثم من تثبيتها فى الأرض بقوة ما . وإذن فجعل الجبال أوتادا فيما أنبأنا الله فى كتابه ، من شأنه أن يقتضى أن تكون الجبال قد أنشئت بفعل قوة أو قوى ، وهذا وحده حقيقة علمية حديثة دل عليها القرآن عن طريق ذلك التشبيه البليغ ، فما بالك إذا كان بين القوى فى الحالتين تناظر وتشابه من أكثر من وجه ؟

إن أهم أنواع الجبال وأعظمها من غير شك سلاسلها ، وسلاسل الجبال عند علماء طبقات الأرض قد نشأت نتيجة لقوى عظيمة عملت جانبيا فى القشرة الأرضية لما هبطت بثقلها حين خلا ما تحتها بانقباض باطن الأرض وانكماشه لما برد بالتدريج فى الأحقاب الطويلة ، وشبهوا ذلك بتغضن جلد التفاحة لما ينقبض وينكمش باطنها تدريجيا بالجفاف البطىء ، تلك القوى الهائلة لها نظائر ، على قدر ، عند دق الأوتاد ، فالدق من أعلى لأسفل يناظر فعل التثاقل عند هبوط قشرة الأرض والضغوط الجانبية على التربة من حوالى الوتد عند دقه تناظر تلك القوى الجانبية العاملة فى القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها حتى تتموج إلى نجاد هى الجبال والهضاب ووهاد منها الوديان ، أليس هـــذا التشابه والتناظر بين القوى بعجيب ؟

وفى علم طبقات الأرض أن ما يسمى بعوامل التعرية ـ من نحو الرياح والأمطار ، والتمدد بحرارة الشمس والتقبض بالبرودات المختلفة حتى تتفتت بتعاقبهما المستمر طبقات الصخر طبقة بعد طبقة وتأتى الرياح السافية والأمطار الجارفة فتزيل ما تفتت ، ويتجدد ذلك هكذا دواليك حتى قد يتضاءل به نسبيا فى النهاية الجبل الأشم ، فيدل تضاؤله على أنه فى العمر أسن وأقدم من مثله المحتفظ بشموخه ـ هذه

العوامل تعمل فى انتقاص الجبال فى الوقت الذى تنشأ فيه بفعل تلك القوى ، وما نراه اليوم من الجبال هو حاصل تنافس قوى هذين النوعين ، فحتى تناقص الجبال بفعل قوى التعرية هذه له نظير فى تآكل الأوتاد بنفس العوامل وغيرها فى الزمن المتطاول ، إذ المقارنة والمشابهة ينبغى أن تكون بين الجبال وبين ما يترك من الأوتاد قائما غير منزوع .

فالتناظر والتشابه ، كما ترى ، تام أو يكاد يكون تاما بين الجبال والأوتاد فى النشأة وفى طوارئ الحدثان عليها ، حتى ليكاد تاريخ حياة الثابت من الأوتاد يدل بذلك التشبيه البليغ القرآنى على تاريخ حياة الجبال ، ولا يزال فى أوجه الشبه بقية ، فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين اثنتين من كتابه العزيز هما الآية السابعة من سورة النبأ : « والجبال أوتادا » .

* * *

على أننا لم نتناول من الآية الكريمة إلا ناحية ما أودع الله فيها من دلالة على قدرته ، وبقيت الناحية الأخرى ناحية الدلالة على حكمته سبحانه متمثلة فى وظيفة الجبال المناظرة لوظيفة الأوتاد عند الناس .

والمفسرون جميعاً قالوا فى تفسير آية النبأ أن الله سبحانه ثبت الأرض بالجبال كى لا تميد كما تثبت بيوت الأعراب والخيام بالأوتاد ، ولكنهم فى قياسهم هذا لم يكونوا منطقيين دقيقين ، لأن الأوتاد حين تدق فى الأرض لا يقصد بها تثبيت الأرض ولكن تثبيت شىء فوق الأرض هو الخيمة أو بيت الجلد الذى من الله علينا به سبحانه إذ يقول فى الآية (٨٠) من سورة النحل « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم » فالدقة فى قياس الجبال على الأوتاد فى المنفعة والوظيفة تقتضى شيئاً فوق الأرض يعلو سطحها فى جملته ، ويمسه فى أطرافه كما تفعل الخيمة ، وتكون الجبال معينة على الاحتفاظ به على الأرض ، لأن الأوتاد وحدها لا تكفى للاحتفاظ بالخيام ، إذ لا بد لكل خيمة مع الأوتاد من عماد ، فما هو الشىء الذى فوق سطح الأرض يعلوها كالخيمة ، وتساعد الجبال على حفظه على الأرض ؟ ثم ما هو العامل الآخر الذى يتمم عمل الجبال فى الاحتفاظ بذلك الشىء كما يتمم العماد عمل الأوتاد ؟

أظن الجواب صار قريبا أو ينبغى أن يكون فالشىء الذى فوق الأرض يعلو الناس ويعمل عمله فى وقايتهم ، كما تعلو الخيمة أهلها وتقيهم أشعة الشمس ، هو الغلاف الهوائى

الذى يحيط بالأرض من جميع الجهات ويرتفع فوق سطح الأرض مئات الكيلومترات ويكفى الناس على الأقل شر الشهب وشر القـــدر المؤذى من أشعة الشمس البنفسجية وفوق البنفسجية . وهذا كاف فى تحقيق الشبه الكبير فى الوضع والمنفعة بينه وبين خيام لا عماد لها تغطى وجه الأرض . فالله سبحانه يلفتنا بآية النبأ إلى أن الجبال تعمل فى الاحتفاظ بتلك الخيمة الجوية الهائلة على الأوتاد ، أما الذى يعمل عمل العماد متمما عمل الجبال ، أو الجبال متممة عمله ، فهو قوة الجاذبية بين الأرض وجملة الهواء .

والعماد لم يرد لها ذكر فى الآية ولكن الآية تفيدها عن طريق اللزوم ، إذ لا تقوم الخيام بالأوتاد إلا مع العماد ، وهـــذا مثل عجيب للاكتفاء البلاغى فى القـرآن ، ثم هو مثل أعجب للإشارة إلى حقيقة كونية كبرى حقيقة التجاذب بين الأرض والقبة الهوائية ذات الكتلة الهائلة ، ذلك التجاذب العمودى الاتجاه على سطح الأرض بالضبط كاتجاه العماد .

وقوة الجاذبية الأرضية هذه ينسب العلماء إليها سر احتفاظ الأرض بهوائها الجـوى ولا يزيدون ، لكن خالق الأرض والهواء يشير إلى القوة التى عرفها العلماء تلك الإشارة الرمزية العجيبة فى آية النبأ ، ويزيد عباده علما بعامل ثان يجهلونه يتمم عمل الجاذبية التى يعرفونها ، وهذا معناه أو هذا مقتضاه حقيقة أخرى غير معروفة : أن جاذبية الأرض وحدها غير كافية لاحتفاظ الأرض بهوائها ، فهاتان حقيقتان قرآنيتان لم يكشفهما علماء الفلك والطبيعة إلى اليوم ، وعلى مسلميهم المؤمنين بالقـرآن البحث عنهما عليا حتى ينكشفا ويثبتا ، فينكشف بهما ويثبت للعالم الإسلامى وغير الإسلامى معجزتان كونيتان جديدتان للقرآن .

وسيكون البحث عنهما صعبا وربما كان عويصا ، وسيحتاج فيه إلى الرياضة العالية وربما إلى إجراء تجارب لتقدير كتل الجبال كتلك التجربة البندولية التى أجراها (مسكلين) على جبل (شيهالين) لتقدير كتلته ليتوصل بها إلى تقدير كتلة الأرض عن طريق قانون الجاذبية العام لنيوتن ، وأهل هـذا البحث أخبر بما يلزم له وبالمسلك الذى يسلك فيه لكننى أرجو ألا يصدم عنه ما يتوقعونه من صعاب فيه ، لأن الحق سبحانه لا يشير فى كتابه إلى آية من آياته فى الخلق إلا وييسر فقهها لمن يصدقه الجهاد فى سبيل كشفها .

والبحث فى هـذا الأمر الخطير - إذا كان لمثلى أن يشير فيه برأى - يمكن أن يؤخـذ على خطوات أو يتخذ عدة اتجاهات :

فمن الممكن مثلا التساؤل عن جاذبية الأرض أكانت تكون كافيـة للاحتفاظ بالطبقـة

الموائية لو أن كتلتها نقصت بقدر كتلة جبالها؟ وهذا طبعا يحتاج إلى تقدير كتلة مجموعة الجبال ولو بالتقريب ، فإذا ظهر أن الجبال هى من الكبر بحيث لو نقصت عن كتلة الأرض لعجزت الأرض عن الاحتفاظ بجوها ، كان هذا حقيقة جديدة أدت الآية الكريمة إلى كشفها .

لكن الجبال كما اختصت بثقلها اختصت أيضا بارتفاعها ، فهل لارتفاعات الجبال دخل فى احتفاظ الأرض بجوها وباستمرار الحياة فيها بالتبع ؟ أى لو أن الجبال اندكت فى الأرض فلم تبرز ، وكان سطح الأرض لا نتوء فيه مع احتفاظ الأرض بكتلتها غير منقوصة أكانت جاذبيتها عندئذ تكفى للاحتفاظ بهوائها ؟ أم كان يتسرب منها إلى الفضاء الكونى بالتدريج حتى إذا مضت حقبة كافية فقدت الأرض جوها كما فقد القمر جوه ؟ هذا سؤال يبدو أصعب حلا ، لكنه أمس بجوهر معنى الآية الكريمة لأنه يتعلق بالجبلية نفسها متمثلة فى ارتفاعات الجبال .

ثم يبقى بحث أثر الجبال من حيث توزيعها على سطح الأرض ، فهى فيما يبدو تكون سوراً هائلا فيه ثغراته ، لكنه على العموم يكون فى كل من جانبيه شبه حوض تعلو الكتل الموائية وتنخفض فيه من غير أن تزايله ، فالرياح تصطدم بالجبال وترتد عنها صاعدة أو هابطة أو راجعة ، فماذا يا ترى كان يؤول إليها أمرها لو لم تجد هذا السور يحبسها على صورة ما فى شبه الحوض الذى تكونه سلاسل الجبال فى توزيعها الحاضر على سطح الأرض ؟

إن وتدية الجبال - التى من الله بها على عباده ولفتهم بآية النبأ إلى سر جديد فيها من أسرار خلقه هو الذى عرضه هذا المقال - جديرة بتضافر الجامعات الإسلامية على بحثها مع الثقة مقدما بالنتيجة ، فقد أنبأ الله بها عن طريق تلك المشابهة العجيبة بين الجبال والأوتاد وهذا ينبغى أن يثبت أهل هذا البحث من المؤمنين بالقرآن ويعينهم على تذليل صعوباته حتى يفوزوا بالإثبات العلمى لتلك الحقيقة الكبرى المنطوية فى تلك الآية الكريمة من كتاب الله العزيز .

إن الرجاء كبير فى أن تكون جامعة الأزهر هى البادئة بالنظر فى أمر هذا البحث الخطير وسواء أطال أمد هذا الأمر أم قصر فإننا نرجو أن يكون قد تبين للآية الكريمة بعض مظاهر أخرى لإعجازها العلمى عن طريق الفحوى وبالزوم والقياس التمثيلى الدقيق ؟

محمد أحمد الغمراوى

أين المبشرون بالإسلام...؟

للأستاذ محمد رجب البيومي

هذا موضوع يجب أن نكثر الحديث عنه وألا نمل الكلام فيه ، فلسنا بمسلمين حقا إذا لم نفكر في هداية الشعوب الوثنية وتوجيهها من الظلمات إلى النور وسأقول هنا ما أعتقد أنه سيفيد .

حين انعقد المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية كان من أبرز متحدثيه فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ على عبد الرحمن الوزير السودانى السابق والداعية الإسلامى الموفق ، فأفاض فى ضرورة نشرة الدعوة الإسلامية بين الوثنيين من سكان إفريقيا وآسيا وأستراليا وتحدث عن تجربة شخصية قام بها فى هذا المضمار حيث قال « وقد قضيت نحوا من ست سنوات وأنا أتنقل فى أرجاء المديريات الجنوبية الثلاث (أعالى النيل والاستوائية وبحر الغزال) وأتصل بالمواطنين البدائيين الضاربين بين منابت الأحراش والغابات ، ومواطن الحشائش والمستنقعات وزرت مراكز المبشرين من كاثوليك وبروتستانت محاولا فى أوقات فراغى أن أعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين أولئك متعاونا مع بعض الغيورين من التجار والموظفين ، مع دراسة لأحوال المبشرين المسيحين وتتبع لأساليبهم وأنشأنا جمعية (المؤلفة قلوبهم) فاستطعنا أن نبث الدعوة الإسلامية حسبما نملك من إمكانيات ومن جهد ووقت ومال واقتنعنا بأن العمل فى هذا الميدان سهل ميسور ، وأن ما يبذله المبشرون المسيحيون من جهود لو بذل المسلمون عشر معشاره لأثمرت جهودهم أضعاف ما تثمره جهود المبشرين » ثم أسهب الداعية الكبير فيما يعرض من وجهة نظره ، فكان لحديثه المقام الأول بين أحاديث أعضاء المؤتمر ، وحسبه أن أيقظ النائمين .

ومع أهمية ما ذكره الأستاذ الداعية فإننا فى مدى ما يقرب من عام كامل لم نر من الكتاب من تناولوا قضية التبشير الإسلامى بالتحليل والدراسة ، وهى القضية الأولى للمسلمين إذا آمنوا عن يقين أن الإسلام دين البشرية بعامة وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى الناس كافة ! على حين نرى كتب التبشير المسيحيى تنثال من يمين وشمال ، لا يقتصر تأليفها على رجال الدين وحدهم بل على رجال السياسة والأدب والاجتماع والتاريخ ومن أطرف ما قرأت فى هذا المجال كتاب « الديانات فى إفريقيه السوداء » للكاتب الفرنسى الأستاذ هوبر ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية وأستاذ الدراسات السياسية بجامعة باريس وقد نقل

الكتاب إلى العربية فى سلسلة الألف كتاب نقلا دقيقا قام به الأستاذ أحمد صادق حمدى ! ودراسة هذا الكتاب الموجز تفتح مغاليق كثيرة أمام الفاحص البصير ، لقد اعترف الأستاذ هوبر ديشان ـ وهو داعية مسيحى متحمس ـ أن انتشار الدعوة الإسلامية فى غالب الظروف لم يقم على القهر والتسلط بل قام على الإقناع لأن الذين قاموا به كانوا مشايخ متفرقين لا تحوطهم قوة أو تحميهم دولة ، وإنما كان الإخلاص دافعهم إلى إظهار محاسن الإسلام وسماحته وقد يسر انتشار الإسلام فى رأى المؤلف أنه دين فطرة سهل التناول خال من التعقيد وأنه لا يفرض على المسلم طقوسا مبهمة بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين لذلك كان التجار المسلمون من (الديولا) أو (الهوزا) يحملون بذور الدعوة الإسلامية فى هدوء ويسر !

وما قاله الأستاذ هوبير عن الدعاة من التجار فى إفريقيا هو عين ما يقوله كتاب التاريخ عن انتشار الإسلام فى أكثر بقاع العالم بعد انحسار موجة الفتح الإسلامى ، فقد وصل الإسلام إلى الصين بجهود التجار الرحل الذين يجوبون البلاد بحراً عن طريق الهند وبراً عن طريق ما وراء النهر ، وإذا قرأت تاريخ انتشار الإسلام فى جزائر سومطرة وجاوة وسرنديب والفيليبين وسيام واستراليا والبرازيل تجد من قاموا بانتشاره هم زملاء الذين قاموا من التجار والرحل بعثة فى السودان وبلاد السنغال وغينيا وساحل العاج وتوجو ونيجيريا وساحل الذهب ومدغشقر وزنجبار وأثيوبيا !! دعاة عزل فهموا بساطة الإســلام وسهولته واعتقدوا صلاحيته وهدايته ، فبسطوه كما فهموه فلم يحتج إلى جيوش استعمارية تتقدم الأوربيين بالحديد والنار لتأخذ الوثنيين إلى المسيحية عن يد وهم صاغرون ! بل إن التتار والمغول وكانوا فى مبدأ جبروتهم كارثة الإســـلام ومحنته لم يلبثوا وهم الغالبون أن اعتنقوا دين المغلوبين ! وتلك عجيبة لا نرى لها نظيرا فى التاريخ البشرى كافة حتى قال السير توماس أرنولد ما ترجمته ، لا يعرف الإسلام بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولا من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ، ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما المسيحية والبوذية ، اه. نقلا عن تاريخ الإسلام السياسى .

وسنقوم هنا بدراسة مقارنة لأساليب

انتشار الإسلام والمسيحية معا فى إفريقيا كما دونها كتاب المسيحية أنفسهم لنرى مصداق ما ذكره الأستاذ على عبد الرحمن من أن ما يبذله المبشرون المسيحيون من جهود لو بذل المسلمون عشر معشاره لأثمرت جهودهم أضعاف ما تثمره جهود المسيحيين ! وأظننا نستطيع فى ضوء ذلك أن نغير خططنا الفردية فى نشر الإسلام بما نشاهد من أساليب أوربا فى تنمية المسيحية وازدهارها، لا على حساب الوثنية وحدها بل على حساب الإسلام، دون اعتبار لمبادئه الرائعة وصراطه القويم لم تكن المسيحية شيئاً متوقع الازدهار قبل مبدأ القرن التاسع عشر ، حتى نهضت حركة الكشف الإفريقى مواكبة بعثات التبشير المسيحى ، فتدفقت البعثات الأوربية من إنجليزية وهولندية وفرنسية وأمريكية وبرتغالية . وقد استوطن الرجل الأبيض مناطق كثيرة فانتهز فرصة الانحلال القبلى وضعف المقاومة أمام أسلحة الدمار من حديد ونار وقذائف وجعل يفرض المسيحية على الإفريقيين فرضا ، والغريب أن هذا الدين الذى جاء به عيسى لينشر المحبة والتسامح كان مبعث شقاق بين أتباعه ، حيث عمل البيض من الهولنديين على تخصيص كنائس مهملة للملونين ، ومعابد شاهقة للبيض وطبيعى أن يحدث هذا الامتياز العنصرى أثره فى النفوس إلا أن وسائل الإغراء الأخرى قد خففت بعض نتائجه وحين صدر تحريم بيع الرقيق واختطافه كانت عصابات الاستعمار الأوربى هى التى تزاول هذه التجارة الفاضحة ، وقد تركت أسوأ الأثر فى نفوس الإفريقيين الذين راعهم أن تكون قبائلهم نهباً ضائعاً يتخطفه أعداء الإنسانية فى شراهة تلحق العار بكل متحضر ، وبدلا من أن يسدل مبشرو المسيحية الستار على أحداث هذه الفجائع المروعة ، فقد جعلوا منها سلاحا يحاربون به الإسلام فأذاعوا أن تجار الرقيق من مسلمى العرب لأن دينهم الإسلامى يبيح الرق ويدعو إليه ، فكانت هذه الدعاية المسمومة ، يتجه بها قسس يظهرون الرحمة، ويبالغون فى التودد تفعل فعلها الأليم فى بذر الكراهية لكل ما يتصل بالإسلام والمسلمين حتى تنصرت قبائل ساذجة كانت قد اعتنقت الإسلام . لأنه فى منطقهم الغافل جعل أتباعه يتخطفون الرقيق ! ...

أما السلاح البارد الحاد الذى صوب إلى معتنق الإسلام فهو إنشاء مدارس فى المناطق الإسلامية تتظاهر بأنها لا تتعرض للمسائل الدينية ولكنها تنشر الثقافة والتعليم لا أكثر ولا أقل ، وقد خدع بها المسلمون فقذفوا بأبنائهم إليها ، ثم مضى بهم الزمن فكانوا قادة الأمر فى البلاد ، وقد اعتقدوا من خلال الدراسات المفرضة أن المسيحية دين الحضارة والمدنية ، وأن الإسلام صحراوى بدوى أدى دوره فى الزمن السحيق ثم تمسك به أتباعه فى عصر الحضارة لجمدوا

على الجهل، ودان عليهم التأخر، وكان الإسلام علة العلل فى احتلال العالم الإسلامى وتخبطه فى الظلمات ، وإذا كان هذا اعتقاد أبناء المسلمين أنفسهم ممن تعلموا فى مدارس التبشير ، فاذا يكون اعتقاداً بناء الوثنيين ممن لجأوا إلى المدارس المسيحية الخالصة فعلموا بها أن أوربا لم تبلغ منزلتها الحضارية بغير تعاليم السيد المسيح .

هذا وقد أنشئت بمختلف العـــواصم الأوربية معاهد عالية لدراسة أصول الأديان وهدفها الأعظم دراسة المناخ الجغرافى والاجتماعى والنفسى لسكان القبائل من الزنوج لرسم الخطط التى تتفق وميــولهم النفسية فتسهل مهمة اجتذابهم إلى المسيحية وقد كان أوائل المبشرين فى مفتتح القرن التاسع عشر يعتقدون أن الحضارة الأوربية والديانة المسيحية جزء لا يتجزأ ، وأن الديانات الوثنية خرافات محتقرة فاتجه همهم الأكيد إلى استئصالها من النفوس ليرسوا على أنقاضها تعاليم المسيحية ومبادئها ولكن تباطؤ التقدم المسيحى على نحو لا يرضى المتعجلين قد دفع أساتذة التبشير إلى تغيير هذا الاتجاه العدائى ، وأتوا بنظرية معارضة تدعمها دراسة الأجناس بعامة ، وتتلخص فى إظهار التقدير للعقائد الوثنية ، على أن تستغل بذورها للتطوير السريع نحو المسيحية وقد أفاض الأستاذ هوبير ديشان فى شرح أساليب التطبيق العلمى لهذه النظرية الجديدة وكان مما قاله نقلا عن الترجمة العربية ص١٧٢

« ولذلك فرض على أعضاء البعوث التبشيرية قبل أن يقصدوا تلك الجهات أتباع خطة مرسومة تقضى بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة وتفهم نظمها الاجتماعية وعاداتها ولغتها كما يجب على المبشر أن يختلط بالسكان للزيارة وأداء الخدمات ، والإخلاص فى التعاون معهم فى كل فرصة تتطلب ذلك فالمدرسة والمستشفى والمستوصف والمثابرة على الدعوة المسيحية وترجمة الكتاب المقدس والتعليمات الدينية إلى لهجة السكان ومعرفة الأعياد المقدسة وغرس شعور الإخوة المسيحية بين الجميع » .

على أن أنجح خطة ، مهدت لانتشار المسيحية هى اتجاه الكنيسة إلى تعيين قساوسة من الزنوج الإفريقيين ليفاجأ الوثنيون بإخوانهم فى لباس كهنوتى فيحدثون تأثيرا ينعدم معهما وقرفى بعض الأذهان عن حقيقة ألمية من عداء صارخ للرجل الأبيض المستغل ولذلك انتشرت المدارس الكهنوتية التى تخرج القساوسة الملونين .

نقرن هذه الإمكانيات الضخمة لدى أمم أوربية حاذقة متسلطة بما قام به مبشرو الإسلام تجاه الزحف المسيحى ، وإذا كان المعروف أن دول الإسلام فى القرن التاسع عشر إلى منتصف هذا القرن تقريبا كانت من الهوان والجدب والاحتلال بحيث لم تستطع أن تدرأ عن نفسها ، والمستعمر فى كل دولة يغزو الإسلام بشبهاته بين أتباعه ومعتنقيه ويستطيع فى هوادة أن يمنع بطلقة

مدفع واحدة كل تسلل للتبشير الإسلامى يقوم به أفراد عزل متحمسون ! وفى هذه الحالة اليائسة الموئسة فقد استطاع التبشير الإسلامى الفردى الأعزل أن يسير تجاه التبشير المسيحى الجماعى المسلح ؟ أى قوة للإسلام تلك التى أمدته بعناصر قوية قاومت الحضارة المزدهرة والتسلط المتمكن والجبروت النافذ والافتراء الكاذب المموه إن لم تكن قوة الحق فى دين أرسله الله لإنقاذ الناس ! ...

ليت هؤلاء العزل المتحمسين من مبشرى المسلمين يكونون تحت قيادة جماعية مثقفة تهديهم الطريق ، كما كان الأمر فى مبدأ انتشار الدعوة من زوايا المتصوفين من السنوسيين والعلويين وأتباع الحاج (عمر بن قدوه) وروّاد الجلابة من السودان وأعضاء جمعية التبشير السودانية فيظل للدعاة منهجهم المستنير ، ولكن الكارثة كل الكارثة أن ينتمى للتبشير الإسلامى جهلة أقــرب إلى المشعوذين لم يفهموا شيئاً من تعاليم القرآن ، وأطلقوا لحاهم ليشبهوا السحرة فقط فيقوموا بأدوارهم الشائنة فى استحضار الجن وإطلاق البخور والتبرك ببعض الحيات والحشرات والتكهن عن طريق ضرب الرمل وتلاوة آيات من القرآن تفهم لديهم على غير وجهها الصحيح ومداواة المرضى بالأحجبة والتمائم وتدليك المريض ليصح ، ووضع الريق على مكمن الداء ! وكل ذلك يستغل لدى قساوسة التبشير استغلالا متعصباً فيكون أداة التنفير من دين يقوم رؤساؤه بهذه الأوهام وهى بذلك فى رأيهم من صميم الإسلام إن لم تكن لبه اللباب .

هذا وقد انجلت مناقشات المؤتمر الأول لمجمع البحوث عن حقائق أليمة ، إذ تحدث بعض الأعضاء عن خلافات القاديانية والأحمدية والبهائية وأتباع أغاخان وإلياس أكثر مايدور من جدل ثوب الإسلام فيستدعى الرد من أصحاب العقيدة الخالصة وتدور رحى طاغية لا تقل عنفاً عن صراع التبشير المسيحى الموجه مباشرة إلى معتنق الإسلام ! ..

من الواجب ــ أتم الواجب وآكده ــ أن نبدأ العمل الجاد فى نشر الدين الإسلامى بعد أن تقوم دول الإسلام فى هذا العصر بأمر حاسم هو دراسة أساليب التبشير المسيحى فى تخريج الدعاة ، وإنشاء المنظمات ، ورصد الأموال الضخمة ، وتنشيط وسائل الإعلام والدعاية والنشر ، ودراسة المناخ النفسى والاجتماعى والاقتصادى للوثنيين ! وان يعوز ممالك الإسلام أن تنفق على ذلك فى إخلاص برئ من الغرض لتتم كلمة الله ! على أننا بعد لا نتعصب على المسيحية فى شئ فنحن نهدى الوثنيين من الزنوج فإذا سمى هذا العمل تعصباً إسلامياً فبماذا نسمى عملهم فى تنصير المسلمين . ؟

محمد رجب البيومى

اللغة العربية بين الفصحى والعامية

للأستاذ عارف النكدى

— ٢ —

إن العدول عن الفصحى إلى العامية فكرة عقيمة ، ومحاولة فاشلة ، فالعربية العامية غير صالحة للحياة ، إنها وليدة الجهل ، وقد بدأ الجهل ظلامه ينحسر والعلم نوره ينتشر ، وما خلقه الجهل لا بد أن يميته العلم .

غير أنه مهما كان من صواب هذا الرأى ، ومن اعتقادى بأن اللغة العامية لكى تكون لغة علم وأدب ، فإن ثمة حقيقة لا بد من الاعتراف بها ، وهو أن وجود لغتين اثنتين لأمة واحدة ، مشكلة صعبة معقدة وفيها من عوائق التحصيل ما تبقى العربية معه فى مستوى أضعف من سائر اللغات الحية ،

فلغتنا الفصحى تعيش فى نطاق محدود لها مواقف خاصة ، ومواطن خاصة ، وليست هذه حال اللغات الحية ، فاللغة الحية تكون واسعة الآفاق ، عامة الاستعمال فى الكتاب والكلام ، دائرة على لسان كل طبقة من طبقات أبنائها ، معبراً بها عن كل غرض من أغراضهم فى كل ناحية فى مرافقهم ، لا تختلف إلا بالأساليب من حيث الفصاحة والبلاغة ، لا من حيث اللغة نفسها .

نعم يجب أن تخرج العربية الصحيحة من خدرها إلى السوق وإلى المعمل وإلى المزرعة فتكون لغة أصحاب التجارة والصناعة والزراعة وإلا كانت الحجة علينا بأن اللغة الفصحى لغة غريبة عنا نتعلمها ككل لغة أجنبية ، وهى حجة المستعمرين وصنائعهم من المستشرقين وأتباعهم من العرب العاميين.

إن تعميم اللغة الفصحى ليس بالأمر الصعب ولا هو بالأمر الذى يعوزه الإمكان على قدر ما تعوزه الإرادة ، ولا بد لنا قبل البحث بالوسائل الممكنة لتعميم العربية الصحيحة من أن نمهد لكلامنا بهذه الكلمة . ليست مسافة الخلف بين اللغة الفصحى واللغة العامية بالمسافة التى بعدت شقتها ، بحيث لا يمكن الجمع بينهما ورجع وحدتهما ، فقد ندر أن تستعمل العامية كلمة عامية - إذا استثنينا الألفاظ الأجنبية الدخيلة - إلا ولهذه الكلمة أصل فى اللغة الفصحى ، أبعدها عن أصلها هذا ، خطأ فى لفظها ، أو تصحيف أو تحريف فى بنيتها بتقديم حرف على حرف أو بتأخيره منه ، أو بنقل حرف إلى حرف آخر مخرجه أو لفظه قريب منه ، أو بزيادة حرف للزيادة فى المعنى الأصلى ، أو بنحت كلمة من كلمات .

أما التحريف بالتقديم والتأخير ، أو بالتبديل والتغيير ، فالخطب فيه سهل ، ترد الكلمة إلى أصلها والزيادة بالخطأ لغير معنى تحذف ، وتقر الزيادة بمعنى جديد يتصل بالمعنى الأصلي ، وهي الطريقة التي جرى عليها العرب الأولون .

وتقر الألفاظ العربية الفصيحة التي تستعملها العامة مجازاً أو استعارة أو اشتقاقا فيما لابد منه من معنى جديد .

وكذلك اللفظ فيها لغتان : بناء أو ضبطا اختارت العامة منهما اللفظة المرجوحة لخفتها في السمع والاستعمال .

أما الألفاظ الأجنبية فالمجامع العلمية اللغوية كفيلة بأن توجد لها مترادفاتها العربية وهو ميسور في جملته ، حتى فيما يظن أنه من أحدث المسميات التي اقتضتها المدنية الحاضرة .

لعل هذا يجمل الخلاف بين الفصحى والعامية من حيث اللفظ المفرد ، أما من حيث الخطأ في تركيب الجمل فانتشار العلم يصلحه .

ومن ينكر على اللغة العامية أنها خطت في هذه الثلاثين السنة الأخيرة نحو اللغة الفصحى خطوات واسعة فلقد أدركنا من العلماء من لا يشق لهم غبار في معرفة اللغة ، والتضلع من النحو استنزفوا أيامهم في طلب هذين العلمين ومعاناتهما وتخريج الطلاب والآداب فيهما ، وقد لا يكون في يومنا هذا نظراء لهم في موضوعهما كان هؤلاء الأعلام يلقون دروسهم بلغة سوقية محضة ، أوقروية بحتة كأنهم ما أدركوا شيئاً من اللغة ، ولا ذرأ من النحو ، وليس بين أساتذة اليوم من يرضى لنفسه بأن يلقي درساً بهذه اللغة التي كان يرضاها أولئك الأعلام .

هذه الخطوات السديدة نحو اللغة الفصحى موصلة حتما إلى توحيد اللغتين بموت العامية واستقلال الفصحى بالأمة وحدها ، تعبر بها عن كل غرض من أغراضها في كل شأن من شئونها الخاصة والعامة .

ولكن هذا السير سير بطيء متروك للزمن أن يحققه على مهل ، وليس هذا من الصواب ولا هو من فعل الأمم الحية ، فالأمة الحية الواعية تستبق الزمن وتختصره ، تلقي بين عينيها همها وتتنكب عن ذكر العواقب والعوائق إلى أن تصل إلى هدفها .

والسبيل إلى هذا يكون على أركان منها :

١ — التربية البيئية : يعمل الوالدون على تلقين أبنائهم الصحيح المأنوس من الألفاظ ويجنبونهم الملحون والمغلوط والمحرف ، يبدأون أول فأول فيما يحتاج إليه من كلمات تعبر عن أغراضهم وما يحيط بهم ، وهذا حق اللغة والوطنية على المتعلمين من الأدباء يأخذون في التقصير عليه ، إذ ليس لائقا أن تكون لغة المتعلمين المثقفين وأبنائهم ، كلغة الأميين الجاهلين وأبنائهم ، وأن يعنى كل قوم بتقويم ألسنتهم وألسنة أبنائهم .

٢ — التربية المدرسية — ثم تنتقل هذه المهمة إلى المدرسة فى نطاق أوسع . تكون اللغة الفصحى العمدة فى إلقاء الدروس وفى مراجعتها وفى المذاكرة فيها . ويكون لها النصيب الأوفر فى المحادثات والمعاملات ، فإذا مضى المتعلمون على هذا ، ألفته ألسنتهم واستساغته أسماعهم فأصبح ملكة يجرون عليها فى المستقبل ، واختلاط المثقفين بالعامة كفيل بأن ينقل إليها كثيراً من لغتهم ومصطلحاتهم وتعابيرهم لتقلدهم فيها ، فيكون ذلك من قبيل رد الفعل ، فكما أفسد على العرب لغتهم اختلاطهم بغيرهم يعود هذا الاختلاط المثقف فيصلح ما يمكن إصلاحه من هذه العامية .

ويكون حسناً إذا وضعت وزارات المعارف والمدارس جوائز للمتفوقين فى حسن التعبير وصحة اللغة ، ومن المفيد أن يكثر المتعلمون من الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم وبالشعر وبالأمثال والحكم تلقى بلفظها العربى الفصيح .

٣ — القضاء — يجب أن تكون لغته صحيحة سليمة ، لغة القاضى ولغة المحامى كما هو واقع فى كل لغة عند كل أمة ولقد كانت عندنا فى الأمس المحاكم المختلطة ، وكان القضاة والمحامون العرب يأخذون أنفسهم بالتعبير الأجنبى الصحيح ويفتخرون به إذا هم رافعوا أمامهم ، فإذا هم عادوا إلى المحاكم الوطنية عادوا يفخرون بجهلهم لغتهم ، وهل من شىء أدعى إلى اللوم وأدل على الجهل من أن يعرف العربى اللغة الأجنبية أو شيئاً منها وأن يجهل لغته .

ولعل أغرب ما يستشهد به فى هذا الباب ما وقع أخيراً فى محاكم مصر يوم كان القاضى الدارس المثقف ، يمنع المحامى المثقف مثله أن يرافع بالفصحى ، ويأبى إلا أن تكون مرافعته باللغة العامية .

٤ — المجالس النيابية — لسنا ننكر على السواد الأعظم من النواب أنهم أخذوا فى استعمال اللغة الفصيحة ، ولكنه استعمال على مدى لا يزال محدوداً وضعيفاً ، ومكانة اللغة تقضى على النائب أن يجيد لغته إجادة تامة ، فسلاحه عمله وحجته وعمادها ومظهرها فى حسن التعبير وسلامته .

٥ — الجندية — وفى الجيوش العربية أمراء ملكوا ناصية العربية فأحسنوا التعبير بها وأجادوا فى اختيار الألفاظ النقية ، تدل على ذلك مكتوباتهم ومنشوراتهم وفوق هذا معاجمهم العسكرية التى وضعوها ، ولغة الجندية لغة الحزم والعزم والجزالة ، وهى مطالب لا يستقيم أمرها بالعامية ولا يصلح لها إلا اللغة الفصحى ، فلو اشتد الضباط فى أوامرهم ومعاملاتهم فى استعمال اللغة الفصحى لانتقل هذا من الآمر إلى المأمور ومن الجندى إلى السوق بحكم التعامل والتباين .

٦ — لغة الدواوين — وقد صلحت

كثيرا عما كانت عليه من قبل وهوشيء تحمد الحكومة عليه على أننا نطلب منها المزيد صيانة للغة وحفاظاً عليها.

٧ — الصحافة والإذاعـــة ـ والخطابة في المنتديات العامة كان لها كثير من الفضل في إصلاح كثير من الكلم واللفظ ومن العامية إلى الفصحى ولكنه إصلاح جاء أكثر عفواً عن غير تعمد ولا تعهد، والذى نريده، أن تلق محاضرات للخاصة والعامة فيها التنبيه إلى الأغلاط والحث على تصحيحها وبيان فوائد هذا الأمر من الناحيتين العلمية والوطنية.

ومهمة الصحافة أن تتشدد على الذين يهملوا شأن لغتهم ويكون لها ما يشبه المراقبة تحققه بالنقد الصحيح على المدارس والمعلمين، وعلى النواب والخطباء والقضاة والمحامين وعلى سائر المعاملات الرسمية حتى يمتنع بعد ذلك أن يمالن رجل بجهل لغته.

على أن العامل الأول في هذا الأمر مرده إلى عزة النفس وعلو الهمة والغيرة والوطنية والإباء القومي.

فنحن إلى اليوم تأخذنا العزة بالجهل فيقول لك أحدنا إذا أنت استدركت عليه خطأ لست سيبويه ولا أعرف العربية.

وقد يكون هذا القائل من أبناء العلم قاضياً أو محامياً أو مدرساً أو طبيباً مفروضاً فيه وفى من هم من طبقته معرفة لغته، وليس في الأمم الأخرى من أمثال هذه الطبقة تتنكر للغتها ثم تفاخر بجهلها لها.

نحن نفخر مرتين، ونخجل مرتين نفخر أننا نجهل لغتنا، وأننا نعرف لغة أجنبية أو شيئاً منها ونخجل أن نجهل لغة أجنبية أو ألفاظاً منها وأن نستعمل في لغتنا الدارجة الألفاظ العربية الصحيحة المأنوسة.

وتجاوزنا هذا الحد في الاستهانة بلغتنا فأردنا لها أن تخضع في كثير من نواحيها إلى اللغات الأجنبية.

وزاد الأمر متابعة أن قام فيها من يطلب أن يستبدل بحروفنا العربية حروفا لاتينية، وللعربية اشتقاقاتها وتصريفاتها وضمائرها وإعرابها وأكثرها يختلف عما هو في اللغات الأجنبية، واللغة الأصلية لا يستقيم أمرها إلا على أصولها وقواعدها التى جرت عليها.

ومن المستغرب أيضاً الدعوة إلى إصلاح الإملاء العربي، هذا الإملاء السهل المبنى على أصول صحيحة مدروسة ليس أيسر منه في لغة من اللغات الأجنبية التى نعرفها أو نعرف عنها.

فلكل حرف في العربية نطق خاص به، لا يختلف باختلاف موقعه في الكلمة أو وضعه من الحروف فالسين لا تكون إلا سينا، والثاء ثاء، والذال ذالا، والزاى زاياً، والضاد ضاداً، والظاء ظاءاً.

وليس من حرف يقرأ ولا يكتب،

أو يكتب ولا يقرأ إلا هـذه الألف التي دعوها ألف الإطلاق تفريقاً بين المفرد والجمع ، وإلا واو عمرو تميزاً له عن عمر . هذا ومثل - إن كان له مثل - قاعدة لها ضابط معروف وفيه من الحرص على اللغـة والدقة في الرسم واللفظ ما يقضي بالحمد لا بالنقد .

فأين هذا من اللغات الأجنبية ومن شذوذها في إملاءها ورسمها ومن غرابتهـا في أحرفها أو في وضعها فقد تنقلب السين عندهم زاياً ، وتصير الجيم غيناً ، والثاء شيناً أو سيناً ، والياء ألفاً . وتأتي بحرفين لتؤدي لفظ حرف واحـــد قد يكون له مثيل عندهم ، وتترك حرفا أو أحرفا لا تلفظها وتلفظ حروفا لا وجود لها ، وعلى الجملة فإن إملاءهم خطأ في خطأ تحفظه - إذا استطاعت حفظها - من غير قاعـدة تجري عليها .

وعلى الشذوذ عندهم والاطراد عنـدنا ، لا تسمع لهم أصواتاً أو مقترحات أو اعتراضات عن يوثق بعلمهم تستنكر هذا الشذوذ .

وكلمة أخيرة هي أن اللغة تحتاج إلى مرجع يرجع إليه في ضبطها وتوحيد مصطلحاتها .

وقد كان هذا المرجع عندنا من قبل أهل البادية وأبناء قريش - قبل أن خالطوا وخولطوا فضمدت لغتهم ، ثم كان القرآن ولا يزال .

والسلطة اللغوية عند الأمم في يدي مجامعهم اللغوية ، فلابد لنا من أن نجري على ماجروا عليه ، غير أن المجامع عندنا تعددت وليس بينها ارتباط وثيق يساعد على وحدة العمل فوحدة اللغة ، ودواء هذا وعلاجه في أن يكون أكبر المجامع العلمية الرأس الجامع لهذه المجامع يكون المرجع والضابط غير ملون بلون إقليمي ولا مصطبغ بصبغة موضعية ويكون الرئيس ونائب الرئيس في المجامع العلمية الأخـرى عضوين طبيعيين في المجمع الآخر بنص قانوني غـير محتاج إلى ترشيح وانتخاب ، هذا عدا من يجوز أن ينتخب انتخابا إلى المجمع الأعلى من مجامع الأقطار العربية الأخرى .

تتبادل المجامع اللغوية الآراء في اختيار الألفاظ وفي إقرارهـا وذلك بأن يبعث كل مجمع برأيه ومقترحاته إلى المجمع الآخر ، وهذا يعيده إليه مقرونة بدراسته وملاحظته فإذا اجتمع هـذا كله عقد له المجلس الأعلى جلسة عامة للمذاكرة الأخيرة ، فما وقع عليه الإجماع أو الاتفاق صـد في الكلمات والمصطلحات المعجمية ، ويكون الأخذ بها صوابا والخروج عنها خطأ ولا يقولن قائل : إنها طريقة طويلة فأطول منها أن تبقى الأمور على حالتها الحاضرة وفي المجامع اللغوية العربية من الألفاظ ما يبقى عشرات السنين قبل أن يبت فيه برفض أو قبول .

هذه آراء نعرضها على أنظار أقطاب اللغة وعلى مجامعنا اللغوية قابلة للتعديل والتصحيح إذا هي استحقت النظر والدراسة .

والشيء الذي نريده أن يكون اتصالنا بلغتنا اتصالا أكيداً وثيقا فتكون منا ونكون منها فتصبح لغـة العرب الحاضرين كما كانت لغة آبائنا الأولين ؟

عارف النكدي

حول تدريس الدين الإسلامى فى المدارس

للأستاذ السيد شحاته
المفتش العام بوزارة التربية والتعليم

تقوم مدارسنا الابتدائية ، والإعدادية ، والثانوية بدراسة (الدين) ضمن براجها ، وترصد لهذه المادة الموضوعات ، والحصص ، والمدرسين فى كل مراحلها الثلاث .

والشائع الأغلب على ألسنة المدرسين والتلاميذ أن دراستهم دراسة دينية ، وفى تقدير القائمين على المدارس أن هذه الدراسة تخلق فى التلاميذ روحا دينيا ، وتطبعهم على التخلق بأخلاق الدين ، ورعاية أحكامه ، والتأدب بآدابه .

وقد دلت التجربة على أن الدراسة القائمة فى مدارسنا لا تخلق تلميذاً متخلقاً بأخلاق الدين عاملا بأحكامه ، متأدباً بآدابه ولأن التربية إنما تعتمد على التمرين ، والتدريب ، والرياضة ، والأخذ بالطريقة ، فهى تربية لا تصل إلى غايتها المنشودة ، ولا تثمر ثمارها المرجوة .

ودراسة الدين فى مدارسنا تسير على طريقة غير صحيحة ولا مجدية ، فهى لا تغرس عقيدة ، ولا تنمى رأيا ، ولا تقوم على رعاية الضمائر رعاية صالحة .

الدين عقيدة وخضوع ، ولا يمكن أن تؤدى دراسة أحكامه ، واستقراء مسائله ، وحفظ قواعده إلى تربية صالحة .

والأصح أن تقوم فى مدارسنا (تربية دينية) ؛ لأن التربية تقوم على التدريب والتنمية والرياضة . والتربية (والحمد لله رب العالمين) .

ونحن نحمد الله رب العالمين إذ خلقنا على صورة خاصة ، ثم نمانا . وزاد فى إدراكنا على صورة خاصة ، فهو الخالق المربى سبحانه .

والقصد والخير أن نأخذ تلاميذنا بـ (بتربية دينية) على غرار ما شرعه الخالق جل شأنه فى تربيتنا . والرسل الذين جاءوا إلى البشر لم يجلسوا إليهم ليسمعوهم درساً فى الصلاة ، أو فى الصوم ، أو فى الحج ، بل جاءوا قائمين على تربيتهم وتمرينهم ولو كان الدين للدراسة والبحث لنزل القرآن جملة واحدة ، ولاجتمع بأبعاده وأصفاره أمام الناس ليستخرجوا منه أمورهم ، ولكن الله سبحانه أراد أن يأخذ الناس على أناة ، وخبرة بعد خبرة : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » ، وكذلك حديث الرسول الكريم عليه السلام (صلوا كما رأيتمونى أصلى) يعنى التمرين ، والتدريب ، والأخذ بالقدوة الحسنة ، والطريقة .

ثم نعود إلى مدارسنا فنسأل : هل دراستنا الدينية فيها تقوم على التربية والتنمية والتدريب ؟ الواقع نلخصه فيما يأتى :

حظ التلاميذ فى حصة الدين أن يحفظ المجدون منهم آيات من القرآن غير سليمة النطق ،

ولا مفهومة القصد إلى حد كبير ، أو يحفظوا حديثاً نبوياً على غرار ما حفظوا من القرآن الكريم ، أو يقف المدرس أمامهم يسرد حقائق فى الصلاة أو الصوم أو الحج ، أو الزكاة . وسرده فيها يشبه إلى حد كبير ما يقوم به مدرس التاريخ أو الجغرافية ، أو العلوم ، فكلها حقائق مسلم بها فعلا ، جاءت بعد تجارب ودراسات ، وعلى التلميذ أن يعيها ويصبر على حفظها ، فإذا حضر زائر كالمفتش مثلا انفلت من بين التلاميذ فذ يرفع صوته بالقرآن ، أو بالحديث ، وقد يسأل الزائر بعض الأسئلة فى المسائل الدينية المقررة فيجيب بعض التلاميذ ، ويخفق الآخرون والمدرس من هو مسرور بمن صاح وقرأ أو بمن لقن فحفظ .

فهل هذه المحفوظات القرآنية ، أو المفهومات الدينية أخذت بين التلاميذ حظا من تربية دينية ؟ وهل غرست فيهم من الملكات أو الاتجاهات ما تفعله (التربيـــة الفنية) فى مدارسنا مثلا ؟ وهل حققت من وظيفتها كما تحقق (التربية الرياضية) التى يمارسها التلاميذ ، ويؤخذون بها أخذاً ، ويكبون على حبها ، والاندفاع إليها ، والولع بها ؟

ثم ما لبرامجنا قد أعطت اللغة تسع حصص أو سبع فى الأغلب ، وجعلت للتربية الدينية حصتين اثنتين ؟ ما السر ؟ ألأن اللغة ، والرياضة ، وغيرهما يحتاج إليها فى الحياة أكثر مما يحتاج إلى التربية الدينية ؟ ؟

الحق أن التربية الدينية الحقة يحتاج إليها فى كل أمور الحياة أكثر مما يحتاج إلى أى معرفة من معارف العالمين ، ولو التزمها الناس فى صحتهم ، وفى معاشهم ، لعاشوا إخوة متحابين متعاونين ، ولما وجدنا تلك النزوات الشيطانية التى تدعو إلى التسلح الذى يستهلك جهود الإنسانية .

ونحن الآن فى تعليمنا ندعو إلى العلوم التى تبعث فى الأمة القوة والرخاء ، وتوفر لها الأمن والسعادة ، وترقى بها إلى مدارج الحضارة ، وصدقونى أنه لا يمكن لأى أمن ولا حضارة أن تقوم إلا فى ظلال الخلق الكريم ، والنفس الراضية ، والمثل الرفيعة التى لا يمكن أن يستمدها إنسان إلا من منابع الدين الصحيح .

ضنت البرامج واضية على التربية الدينية بوقت أكثر من ساعة ونصف ساعة كل أسبوع ينفقها مدرس الدين كما يحلو له ، وكما يريد .

ثم يأتى بعد البرامج ـ الامتحان ـ وهو نظام متعثر فاشل ، فهو يختبر التلاميذ إما فى محفوظ أو مسرود ، أو حقائق تشبه إلى حد كبير معلومات فى التاريخ ، والأدهى أنه قد ترك عن قصد ـ امتحان ـ التلاميذ فى الفرقة النهائية . فاستهان تلاميذها بالبقية الباقية من التعاويذ التى يجبرهم عليها مدرسوهم ، وجلس المدرس المسكين فى هذه الفرق يندب حظه ؛ لأنه أخذ فى هذه الفرق حصتين أو أربعاً ، ويشكو مر الشكوى من استهانة التلاميذ بدرسه وسوء انصرافهم عنه .

ويجرنا الحديث عن التدريس إلى حديث آخر عن النشاط الديني ، ونسأل الآن : ماحظ مدارسنا من النشاط الديني ؟ لأتحدث عنه في خبرة ومعرفة .

في ركن مهمل - على الأغلب - فرشت حصيرتان أكلتهما الشمس والتراب ، وسوء الاستعمال وقيل هـذه « مصلى المدرسة » وأما المدارس الكبيرة فقد أعدت حجرة وفرشتها فرشاً متواضعاً ، وعلقت على جدرانها بعض اللافتات البالية ، وتركتها - على الأغلب - للفراشين ينامون فيها ، ولا يغشاها من المصلين أكثر من عشرة في اليوم من الخدم وبعض المدرسين ، هذه صورة لمسجد المدرسة .

ونشاط آخر نراه في صورة على الدناء ، أو في حديث لمناسبة دينية يلقيه بعض المدرسين أو التلاميذ، ويسمعه الباقون، وهم في غفلة لاهون، حتى لتكاد تغيبه إلى حد كبير تلك الطقوس التي يقوم بها مشايخ الطرق في الأعياد والمواسم .

وفي رمضان تنشط بعض المدارس إلى إطعام الفقراء أو كسوتهم ، وفي ذلك ما فيه من مجافاة للدين لما يجره من الرياء والتكلف ، والخروج على آداب الصدقات .

والمدرس لايكاد يهتم بإعداد دروس التربية الدينية ، فهو ضـنين بجهوده وتفكيره في الإعداد والدرس إذا قيس بما يبذل في دروس آخر من دروس اللغة العربية .

وكثير من مدرسينا برزوا وتفوقوا في تدريس الأدب ، أو القواعد ، أو التمرين ولكننا لا نكاد نجد إلا قلة يسيرة ممن يجيدون درس التربية الدينية ، ومن أصابه حظه العاثر فرق إلى (مدرس أول في التربية الدينية) نكس رأسه ، واستخذى أمام (المدرس الأول للغة العربية) .

وبعد كل ذلك يجيء دور السيد المفتش : إنه يدخل المدرسة مفتشاً للمادتين ، ولكنه يخرج منها ، وقد عرف كثيراً عن المجهودات التي تبذل في اللغة العربية ، وتغاضى - سامحه الله - عن الإهمال الذي يصيب التربيـة الدينية - فكان تقديره متساوياً في الناحيتين (تقريباً) حتى لا يعوق من تاريته الترقية ! !

وننتقل بعد ذلك إلى حجر الزاوية ، أو إلى اللبنة الأولى التي بعدها يكبر البناء حتى يتشامخ ألا وهي (القدوة الحسنة) فنتساءل : ما حظنا نحن العاملين في المدارس من القدوة الحسنة ؟

أغلب ظني أننا في المجتمع المدرسي لا نهتم بما يهتم به المسلم العامل إلا أن نرضى الرسميات فالمفروض أن صلاة الظهر مثلا تؤدى في المدرسة ، فهل يغشى المسجد جميع المسلمين ؟

وصندوق البر الذي يدور على التلاميذ والموظفين في فترات متعددة إنه ، ويا للأسف ينفق من ماله على أشياء كثيرة لاتتصل بإعانة الفقراء والمساكين ، ألا قاتل الله الرياء والملق! وكل سوس يفت في عضد السليم .

ثم حدثوني كيف يحترم التلميذ مسجد المدرسة إذا رآه في أول العام مخزنا للأدوات والكتب

وإذا رأى حجرة السيد الناظر بجملة متأنقة ، وحجرة الله كاسفة خاشعة متواضعة ! .

والسيد المدرس (الإمام) إذا صلى بالتلاميذ يوما تركهم أياما ، والسادة المدرسون الآخرون يعتبرون الإمامة وظيفة لا يقر بها منهم إلا المكلف بها .

وللقدوة الحسنة نواح ممتازة يستطيع المجتمع المدرسي جاهداً أن يحققها أو يقاربها إن أراد ، وليس هنا مجال الحديث عنها حديثاً شاملا .

وبعض المدارس تخرج مجلات دينية فإذا قرأتها لم تجد فيها صورة صحيحة لما تحس به البيئة من مشكلات ، بل كل ما تستطيع المجلة أن تسهم به في خدمة الدين أن تخصص عدداً لكل ركن من أركان الدين ، فمجلة الجدران تعلق بجلة الصلاة ، وأخرى الصوم ، وثالثة للزكاة ، ورابعة للحج .

وكل ما يستطيع النشاط المدرسي أن يقدمه أيضاً بعض لافتات ومخطوطات لآيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، فهل تؤدى بذلك خدمة جليلة للتربية الدينية ؟

كل ما قدمت كان عرضا سريعا لما تسير عليه دراسة التربية الدينية في مدارسنا ، ولكن، هل يكفي أن نئن من الألم ؟ أو هل نعود من الغنيمة بالبكاء والعويل ؟

إننا نفتح الباب أمام المصلحين بالمقترحات الآتيـــة :

النشاط الديني :

(ا) القرآن : نتعلم القرآن كما أنزله الله مرتبطاً بالوقائع والأحداث ، فلا نحفظ من كتاب الله كلاما لا نفهمه ، وإنما نترك ما لا نفهمه إلى حين النضج العقلي واقتدار القوى على فهمه والاستفادة منه ومن هنا نستطيع أن نفقه كلام الله ، وأن ننتفع به ، فلا نحفظ سورة بعينها ، ولا آية إلا ربطناها بحياتنا حتى يكون تأثيرها أوقع ، وفائدتها أحق ونتبع مثل ذلك في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فالقومية العربية ومعاملة الكتابيين ومحاربة الاستعمار والاستغلال ، والانتفاع بمنابع الثروة ، كل ذلك وغيره له منابع في كتاب الله وفي حديث رسوله الكريم وأن ننتفع في تلاوة القرآن وترديد آياته بالإذاعة القرآنية الموفقة فتطبع ألسنة تلاميذنا على ترتيل القرآن في صحة وتدبر وتذوق لجماله ، وأن نحث تلاميذنا على تكوين جماعات القرآن فهذه جماعة لحفظه ، وأخرى لترتيله ، وثالثة لرسم مدلولاته . . وهكذا

(ب) مسجد المدرسة : لا بد أن يكون مجلا داعيا إلى الجلوس فيه ، والراحة إليه بل لا بد أن يكون أجمل مكان بالمدرسة وأن يزود بمكتبة حافلة بالمصاحف والقصص والمجلات الدينية وكتب السيرة والفقه والتاريخ وغير ذلك ، وأن يغشاه المسلمون جميعا من المدرسة ومن أبناء الأحياء المجاورة في أوقات الصلاة ، وأن يقوم واعظ من المدرسين في كل الفترات الممكنة ، ليغرس في نفوس التلاميذ آداب دينهم بالموعظة الحسنة ، وأن

يفتح صدره لأسئلتهم ومناقشاتهم ، ويحسن ألا تكلف مدرساً خاصا بالمسجد ، لأن الصلاة والموعظة شائعة بين جميع المسلمين ومن الخير أن يكون الإمام أو الواعظ مرة من مدرسي الجغرافية ، وأخرى من مدرسي العلوم ، ومرة ثالثة من مدرسي الرياضة البدنية ، ولا بأس إذا اشترك ناظر المدرسة في الإمامة أو في الوعظ بعد الصلاة .

(ح) الرحلات الدينية : على منظمي النشاط الديني أن يخططوا لرحلاتهم الدينية ، فهذه رحلة إلى الأسواق لدراسة العيوب ، وتلك لدراسة الأضرحة ، وثالثة لدراسة عادات القرية في المواسم والأعياد ، والأفراح ، والأتراح ، ورحلة كذلك لبيوت الله الكبرى ودراسة تاريخها ومقوماتها .

ومن الخير أن تنظم رحلة كبرى لكبار التلاميذ بالمدارس الإعدادية والثانوية يحجون فيها بيت الله الحرام لمن استطاع ، ولا تدرس الدروس التي قسميها (التهذيب) إلا بناء على تحقيق خارجي ودراسة للبيئة قبل إلقائها .

(د) ربط الدراسة الدينية بالدراسة المدنية :

وتلك خطوة موفقة ناجحة ، عمدت إليها جامعة الأزهر في العهد الجديد فكانت كليات الهندسة والطب ، والزراعة وغيرها ، وتلك خير وسيلة لجعل الدين سلم الحياة ، وعماداً لعلاج مشكلاتها ، ونوراً يهدى في مناحيها المختلفة .

ومن الخير أن يكون من بين علمائنا الدينيين طائفة من المهندسين ، وأخرى من الأطباء وهلم جرا ... وعلى يد هؤلاء ترقى الناحيتان : الدينية والمدنية وإني لأعرف رجلا ممتازاً من الأجانب تخرج في كلية الهندسة ، ونال أكبر إجازاتها في بلاده ، ثم دخل كلية (اللاهوت) فتخرج قسا نابها ثم عمل في ميدان التربية ، وانتقل من بعد ذلك إلى السلك السياسي ، فكان من ألمع العاملين في هذا المحيط .

والدين الإسلامي دين وسيع الآفاق ، سمح الجوانب لا يجعل لفئة معينة ، ولا طائفة محدودة حق فهمه أو تعاليمه ، بل المسلمون كلهم سواء أمام كتاب الله وسنة رسوله متى اكتملت لهم سبل دراسة هذين المنبعين الكريمين

ورجل الدين يستطيع - متى أفسحنا له المجال - أن يصول في كل ميدان ، وأن يكون الطبيب النطاسي ، أو المحارب الحاذق ، أو المهندس القدير ، أو القاضي العادل أو المربي الكبير ، أو السياسي الماهر .

ومن هنا أرى ألا تقتصر وظيفة تدريس التربية الدينية على طائفة معينة بل نفسح للتربية الدينية مجالا فسيحا في مدارسنا ليكون من قادتها كل من امتاز بالقدوة الحسنة ، والفهم الثاقب والدراية الواسعة من أبناء المسلمين .

هذه بعض مقترحات العلاج ، وفي النفس مقترحات كثيرة ، ولكني أقف عند هذا الحد ، لأثير بحث الموضوع ، على يد طائفة كبيرة من أبناء وطني المسلمين .

والله الموفق والمعين ؟

السيد شحاتة

كسوف الشمس

للأستاذ علي الجندي

— ١ —

في اللغة :

كسفت الشمس وكسف القمر كسوفا وانكسفا : احتجبا ، وكسفهما الله - تعالى حجبهما وخسفت الشمس وخسف القمر كذلك

أو كسف للشمس ، وخسف للقمر .

أو الخسوف: إذا ذهب بعضهما ، والكسوف إذا ذهب كلهما.

وقال أبو حنيفة الدينوري : خسف القمر خسوفا ، وخسف - بالبناء للمجهول - وخسفه الله .

ومثل ذلك في كسفت الشمس، وقد يستعمل الخسوف في الشمس والكسوف في القمر .

وفي القاموس : الأحسن في الشمس كسفت وفي القمر خسف ، واختاره ثعلب . وقال الجوهري : إنه أحسن ، وقيل : إنه يتعين .

وفي نيل الأوطار للشوكاني : الكسوف : التغير إلى سواد ، والخسوف: النقصان والذل والمشهور في استعمال الفقهاء ، والعرف العام أن الكسوف للشمس، والخسوف للقمر وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بجواز استعمال الصيغتين في الشمس والقمر .

وباب كسف وخسف : جلس ، وفعلهما لازم ومتعد ، تقول : كسفت الشمس وخسف القمر وكسفهما الله وخسفهما .

وقد جمع ابن زيدون بين الشمس والقمر في الكسوف فقال :

لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره
أني معنى الأماني ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة
أم الكسوف لغير الشمس والقمر ؟!

في العلم :

ويحدث كسوف الشمس عندما يكون القمر في المحاق ، ولا يشاهد الكسوف على كل الجزء المنير من الأرض ، لأن قطر القمر أصغر من قطر الأرض ، فخروط الظل لا يغطي كل الكرة ، ويبتدئ الكسوف عادة من طرف الشمس الغربي ، وينتهي بالشرق ، ويكون كليا وجزئيا وحلقيا على

قدر جرم الشمس المختفى عن الناظر ، ويحدث وقت الكسوف الكلى ظلام كظلام الليل ؛ فتبدو النجوم والكواكب ، ويفندى الهواء وتبتل الأعشاب والأشجار ، وتنكمش الأزهار ، وتلبس المرئيات لون النحاس ، وتخرج الأسماك إلى الشواطىء والكسوف الكلى والحلقى أقل من الكسوف الجزئى .

وعندما وقع كسوف جزئى بمصر فى بعض السنين الخالية ، ذعر أهل بلدنا وخيل لهم أن القيامة قد قامت ، ومن الغـــريب أن الحيوانات قطعت مرابطها وأخذت تجرى على غير هدى ؛ وجعلت الكلاب تهر هريرا مزعجا .

ويعد الفلكيون ظاهرة الكسوف من الظواهر المثيرة البديعة ، التى تجمع بين البهجة والخوف فى وقت معا ، وبخاصة الكسوف الكلى ! ! .

يقول أحد العلماء فى كسوف ١٩٠٠ م الذى رصد من الجزائر : إن الإكليل المحيط بقرص الشمس ، كان كبيرا جدا ومشرقا ، وقد بلغ عرض هالته قدر قطر الشمس واندلع منه لسانان كبيران أحدهما إلى أعلى والآخر إلى أسفل ! ! ولما تم الكسوف برد الهواء وأظلمت الأرض ، وأحس الناس كأن زوبعة دنت منهم ، وقد بقى الإكليل منظورا مقدار دقيقة ونصف بعد الكسوف وظهر عطارد والزهرة ونجمان آخران ! ! وتغير لون السماء من أزرق إلى رمادى ولون الأشجار من أخضر إلى قرمزى ! ! ويقول العلامة « جينز » فى كسوف ١٩١٩ م ظهر نتوء بدا للعالم على صورة آكل ضخم من أكلة النمل ، يبلغ البعد بين خرطومه وذيله ٣٥٠ ألفا من الأميال ! وهو حجم لو تيسر لحيوان لابتلع الأرض كلها كما يبتلع الحبة ثم رفع خرطومه وذيله على سطح الشمس ، وزاد فى عدد أرجله وأخذ يقفز إلى أعلى فوصل إلى علو ٤٧٥٠٠٠ ألفاً من الأميال ! وعندئذ حال غروب الشمس دون الاستمرار فى مراقبة ما كان بعد ذلك من غريب أحواله !

اعتقادات أسطورية ! !

ويعتقـد الهنود أن ثعبانا كبيرا ابتلع الشمس وقت الكسوف ، فيطرقون الأدوات النحاسية وغيرها لإزعاجه عن فريسته ! !

أما الصينيون فكانوا يتشاءمون به تشاؤما كبيرا ، ويعـــدونه إنذاراً بسوء الحكم فى البلاد ، وبسوء حال الناس فى الأرض ! !

وأصرح بأنى أفزع من مظاهر الكسوف والخسوف ويغمرنى شعور بالأسى والكآبة على اختناق هـذين « النيرين » الجليلين ، صـديقى الصحراء وأكبر مصادر وحيهم ! ! وصدق أبو تمام فى قوله :

وكل كسوف فى الدرارى شنعة
ولكنه فى الشمس والبدر أشنع

فى الأدب :

وفى التمثيل بالكسوف يقول المتنبى فى وحشة جرت بين كافور الأخشيدى وأنجور بن الأخشيد ثم زالت :

هذه دولة المكارم والرأ
فة والمجد والندى والأيادى
كسفت ساعة كما تكسف الشمس
وعادت ونورها فى ازدياد

ويقول : ابن هانى الأندلسى

هى الحوادث لا تبق ولا تذر
ما للبرية من محتومها وزر
لو كان ينجى علو من بوائقها
لم تكسف الشمس بل لم يخسف القمر

وقد عرف الشعراء المثقفون من القديم أن القمر سبب كسوف الشمس ؛ يقول التيفاشى :

ويقتدى البدر لها كاسفاً
وجرمها من جرمه أكبر

ويقول هبة الله بن التليذ فى ولده العاق :

أشكو إلى الله صاحباً شرساً
تسعفه الشمس وهو يصفها
كأننا الشمس والهلال معاً
تكسبه النور وهو يكسفها

ويقول أبو الفتح البستى :

لئن كسفونا بلا علة
وفازت قداحهم بالظفر
فقد يكسف المرء من دونه
كما يكسف الشمس جرم القمر

ويقول ابن عباد الأندلسى فى جارية من جواريه وقفت تحجب عنه ضوء الشمس ! !

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها
عن ناظرى . حجبت عن أعين الغير
علما — لعمرك منها — أنها قمر
هل تحجب الشمس إلا صفحة القمر

ويقول ابن صمادح ـ وقد سقط عن جواده ـ :

لا يشمتن حسود إن سقطت فقد
يكبو الجواد ، وينبو الصارم الذكر
إنى سقطت ولا جبن ولا خور
وليس يدفع ما قد شاءه القدر
هذا الكسوف يرى تأثيره أبداً
ولا يعاب به شمس ولا قمر

ويقول صردر :

يغشى الكسوف الشمس إذ عظمت
ويعاف ضوء الأنجم الزهر

ويقول البستى يعزى بعض المحبوسين :

حبست ومن بعد الكسوف تبلج
تضيء به الآفاق للبدر والشمس

فلا تعتقد لجنس غما ووحشة
فأول كون المرء فى أضيق الحبس

فى الدين :

الكسوف ظاهرة طبيعية - كما يقرر العلم الحديث - ولكن الدجاجلة من رجال الأديان فى أزمان الجهالة الغابرة ، كانوا يستغلونها فى ترويع الناس ، لبسط سلطانهم عليهم ، وابتزاز أموالهم !!

وفى زمن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كشفت الشمس [1] ، ووافق ذلك موت ابنه إبراهيم - عليه السلام - فقال الناس على جارى اعتقادهم : إنها كسفت لأجله !! فردهم الصادق المصدوق إلى الحق والصواب فى ذلك !! فقد جاء فى صحيح البخارى ... عن المغيرة بن شعبة ، قال : كسفت الشمس على عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموها فادعوا الله وصلوا حتى تنجلى » .

(١) حقق الفلكيون : أن الكسوف وقع بالمدينة المنورة فى نحو الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل يوم ٢٩ من شوال سنة عشرة هجرية الموافق يوم ٢٧ من يناير سنة ٦٣٢ ميلادية .

وفى كتب السنة روايات كثيرة بهذا المعنى

وهذا الحديث من أسطع دلائل النبوة ، وأبهر آيات الرسالة ، ولو كان الرسول غير رسول . وحاشاه من ذلك لاستغل هذا الحادث كما استغل أمثاله وأقل منه كذبة المتنبئين ، ومخرفو المشعوذين ! ولا سيما أن العالم إذ ذاك كان يسبح فى غمرات الأوهام ، ويهيم فى متاهات الضلالات .

وقد يقال : وما معنى الصلاة والدعاء إذن فى حادث من الحوادث الطبيعية ؟ .

والجواب : ليستحضر المخلوق العاجز عظمة الخالق وجلاله ، ويمتلىء إيمانا بقوته وجبروته ، وسلطانه على الكائنات علويها وسفليها ، فيفهنه من غرب كبريائه وغروره واعتداده بنفسه ، وليذكر بجانب ذلك مبلغ ما أنعم به ربه الكريم عليه من النعم ظاهرة وباطنة ؛ فى قدرة من سخر له هذين النيرين العظيمين ليستمتع بالضوء والنور والحرارة والدفء ، ويعيش من تحتهما عيشة راضية ، وحياة رافهة ، أن يمحق آيتهما ، فيخيم على الكون الظلام الدامس ، ويهرؤنا البرد القارس ، ويموت النبات والحيوان !!

فهل يشكر الإنسان هذه الآلاء ؟ قتل الإنسان ما أكفره !!؟

على الجندى

المؤلفات العربية لعلماء الهند المسلمين

للأستاذ محيي الدين الألوائي

— ١ —

إن للتاريخ الإسلامي في الهند صفحات مجيدة خالدة في خدمة العلوم الإسلامية واللغة العربية ونشر التراث الإسلامي وتخليده ، فلا يتم تاريخ الثقافة الإسلامية والآداب العربية في العالم — قديما وحديثاً — إلا بالتسجيل الدقيق والبحث الشامل عن التراث العلمي لعلماء الهند المسلمين وعنايتهم بالعلوم الدينية والعربية ومؤلفاتهم العديدة في مختلف العلوم والفنون .

وكان شعار المسلمين في الهند منذ العهد الأول العناية باللغة العربية والتمسك بها لكونها لغة القرآن الكريم وعلوم الدين الحنيف ، فضلا عن أنها تساعد على توثيق عرى التفاهم والتعاوف بين المجتمعين العظيمين (الهندي والعربي) اللذين تربطهما روابط الأخوة الروحية والعلاقات الثقافية والاقتصاديه والسياسية منذ عصور بالغة في القدم ، وقد صارت هذه الروابط موطدة الأركان ومدعمة الأساس بعد وصول صوت الإسلام إلى الهند بأيدي العرب وانتشار الدعوة الإسلامية في ربوعها بفضل طليعة الدعاة المسلمين — من العرب والهنود — الذين تشبعوا بهذه الدعوة العالمية ، فقد برز عدد كبير من العلماء والمؤلفين من أبناء الهند ، في اللغة العربية والعلوم الإسلامية والفنون الأخرى ، وساهموا مساهمة فعالة في نشر التراث الإسلامي والعربي في تلك البقاع ، وفي تكوين مراكز خالدة للثقافة الإسلامية واللغة العربية فيها .

ونرى علماء الهند في بعض فترات التاريخ في مقدمة المؤلفين في العلوم الدينية وانتهت إليهم رآسة التدريس والتأليف في فنون الحديث وشروحه ، وفي السيرة النبوية والشريعة الإسلامية كذلك ، ومنهم من عرفوا بمقدرة باهرة على التأليف باللغة العربية وسيلان القلم فيها ، وأضافوا شيئا كثيرا إلى المكتبة العربية الزاخرة ، ونبدأ بكتاب عالمي في علم اللغة العربية الإمام حسن بن محمد الصغاني اللاهوري من رجال القرن السابع الهجري ، وهو كتاب « العباب الزاخر » في اللغة والتراكيب ، ويحتوي على عشرين جزءاً ، ويعد من مراجع اللغة العربية وغرر كتبها ، وقد اعتنى به أئمة اللغة قديما وحديثاً ، ومن الذين اعترفوا لصاحبه بالفضل والإمامة في علم اللغة ، الإمام السيوطي ، حيث قال : « إنه كان حامل لواء اللغة ، وقال الإمام الذهبي : إن إليه المنتهى في اللغة ، كما وصفه الشيخ الدمياطي بقوله : إنه كان إماما في اللغة والفقه والحديث .

وقد ولد الشيخ الصغانى فى مدينة لاهور الشهيرة (الواقعة فى مقاطعة البنجاب الغربية) سنة ٥٧٧ هـ واسمه الكامل : « رضى الدين أبو الفضائل حسن بن محمد حيدر بن على العدوى العمرى الصغانى » . ونشأ وتعلم فى « غزنة » (بأفغانستان) فى أيام الملك « خسرو » ، ثم سافر من غزنة إلى بغداد وأقام فيها شهوراً ثم عاد إلى الهند ، ولما سافر إلى الحج تنقل فى البلدان العربية واتصل بعلمائها ، وتوفى فى بغداد سنة ٦٥٠ هـ .

ويقول صاحب كشف الظنون : إن الصغانى مات قبل أن يكمل كتابه « العباب الزاخر فى اللغة والتراكيب » بلغ فيه إلى « الميم » ووقف فى مادة « بكم » ، كما يبدو من بيتين من شعره :

إن الصغانى الذى
حاز العلوم والحكم
كان قصارى أمره
أن انتهى إلى « بكم »

وأن حسن بن محمد الصغانى أول من يدين له علم اللغة العربية فى الهند بالفضل ، ومن مؤلفاته الأخرى فى اللغة « مجمع البحرين » و « النوادر » و « أسماء الأسد » و « أسماء الذهب » و « أسماء الفار » . وكذلك كتابه الشهير « مشارق الأنوار » فى علم الحديث ، وقد ظل يدرس مدة طويلة فى كثير من البلدان الإسلامية .

ومن الكتب العالمية التى ألفها العلماء الهنود باللغة العربية « كنز العمال » الشيخ على بن حسام الدين المتقى البرهانبورى من رجال القرن العاشر ، وهو ترتيب « جمع الجوامع » للسيوطى ، وانتفع به علماء الحديث كثيراً واعترفوا لصاحبه بمجهود عظيم وأغناهم عن مراجعات كثيرة ، وكفى له فخراً فى هـذا المضمار ماقاله عنه الشيخ أبو الحسن البكرى الشافعى من أئمة العلم فى الحجاز فى القرن العاشر : إن للسيوطى منة على العالمين ، وللمتقى منة عليه ، ومنها كتاب « مجمع بحار الأنوار فى غرائب التنزيل ولطائف الأخبار » الشيخ محمد طاهر الفتنى الكجراتى الذى كان إماما بارعا فى علم الحديث . وجمع فى كتابه الذى يشتمل على أربعة أجزاء كل غريب الحديث وما ألف فيه فجاء كالشرح للصحاح الستة وأوضح فيه معانى القرآن الكريم والآثار المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم مع بيان لغاتها وشرحها ، ويقول العالم الهندى الكبير صديق حسن خان فى وصف هذا الكتاب : وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منـذ ظهر فى الوجود ، وله منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم ، وقد ولد الشيخ محمد طاهر بن على الفتنى فى مدينة (بتن) من مقاطعة كجرات فى غربى الهند سنة ٩١٣ هـ ، وبعد أن أكمل دراسته فى العلوم الدينية والآداب العربية اشتغل بالتأليف باللغة العربية فى مختلف الفنون سيما فن الحديث ، ومن كتبه الشهيرة أيضاً كتابه فى حل غرائب مشكاة

المصابيح ، وتوفى رحمه الله فى عام ٩٨٦ هـ ، بعد أن ترك ثروة علمية كبيرة .

ومن المراجع الفقهية الكبرى التى عليها العمدة فى كثير من الأقطار الإسلامية فى المسائل الفقهية كتاب « الفتاوى العالمكيرية » الذى اشتهر فى البلدان العربية « بالفتاوى الهندية » ، وهو فى ست مجلدات كبار ، ورتب على ترتيب كتاب « الهداية » فى الفقه الحنفى ، ويقال : إن السلطان « أورنك زيب » المشهور « بعالمكير » قد وكل الشيخ العالم نظام الدين البرهانبورى فى تدوين هذه الفتاوى باستخدام الفقهاء الأحناف الكبار ، وبذل على تدوينها أكثر من مائة ألف جنيه فى هذا العصر

وقد ذكر المؤلف أربعة وعشرين عالما ساهموا فى تدوين هذه الفتاوى ، وقد تولى أربعة من كبار علماء الهند فى ذلك العصر الإشراف على ترتيبها وتبويبها على أن يقوم كل واحد منهم بالإشراف على ربع الكتاب وهم القاضى محمد حسين الجونبورى المحتسب والشيخ على أكبر الحسينى أسعد الله خانى ، والشيخ حامد بن أبى الحامد الجونبورى ، والمفتى محمد أكرم الحنفى اللاهورى .

وقصارى القول عن « الفتاوى الهندية » أنها أجل الفتاوى والمجاميع فى كثرة المسائل وحل العقد ، واقتصروا فيها على ظاهر الرواية ، ولم يلتفتوا إلى النوادر إلا إذا لم يجدوا جواب المسألة فى ظاهر الرواية أو وجدوا جواب النوادر موسوما بعلامة الفتوى ، ونقلوا كل عبارة معزوة إلى كتابها ولم يغيروا إلا لداعى ضرورة وتوجد نسخ من كتاب « الفتاوى الهندية » فى دار الإفتاء بالقاهرة ، ودار الكتب المصرية ، ومكتبة الجامع الأزهر .

ومن المؤلفات العربية الهندية فى أصول الفقه كتاب « مسلم الثبوت » للعلامة محب الله ابن عبد الشكور الحنفى البهارى من رجال القرن الحادى عشر ، وقد لقى هذا الكتاب قبولا عظيما فى الأوساط العلمية والمدرسية فى الهند وبعض البلدان الإسلامية ، وتناوله عدد من كبار العلماء بالتدريس والشرح ، وكانت « لمسلم الثبوت » المذكور عشرة شروح لكبار علماء الهند فى أصول الفقه وفنونه .

ومن مؤلفات رجال القرن الثانى عشر ، كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » للشيخ « محمد على التهانوى » ، وهو بمثابة معجم عظيم للمصطلحات العلمية ، وقد رزق القبول الحسن لدى المشتغلين بعلم اللغة فى بلاد العرب وأثنوا عليه كمعجم علمى يغنى عن مراجعة آلاف من الصفحات ومئات من الكتب ، ولا يزال يعد المرجع الهام للمؤلفين والباحثين فى هذا الشأن ، وقد ألف الشيخ « عبد النبى بن عبد الرسول الأحمد نكرى » من رجال القرن الثانى عشر أيضا ، كتابا آخر فى هذا الموضوع باسم « جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون » وقد اشتهر هذا الكتاب باسم « دستور العلماء » وهو فى أربعة مجلدات ، ومجلده الرابع يعتبر

كلملحق للمجلدات الثلاث الأول . وقد ولد الشيخ عبد النبي في مدينة « أحمد نكر » بالهند ، ونشأ فيها وتعلم ثم تولى منصب القاضي في نفس المدينة ، وله مؤلفات عربية أخرى عديدة .

ومن مؤلفات القرن الثاني عشر أيضا كتاب « تاج العروس في شرح القاموس » للسيد المرتضى بن محمد البلكرامي المشهور « بالزبيدي » ، وهذا الكتاب مكتبة لغوية علمية عظيمة في عشرة أجزاء كبار ، طبع في مصر باسمه الكامل (تاج العروس في شرح جواهر القاموس المحيط) (للإمام مجد الدين الفيروز آبادي) وقد طبع المتن على حاشيته كما كتب المؤلف مقدمة مفصلة ألقى فيها ضوءا على حقيقة اللغة ومدارج علمائها وتراجم من سبقه منهم بالتأليف في علم اللغة وقد زار السيد المرتضى (الزبيدي) كثيرا من البلاد العربية ، وفي سنة ١١٢٧ هـ سافر إلى مصر واشتغل بالعلم واجتمع بالعلماء وذاع صيته بينهم وتم تأليف (تاج العروس) في سنة ١١٨١ هـ . واشتملت الصفحات الأولى من الكتاب على مصطلحات القاموس جمعها الشيخ (الهروبني) .

وقد طبع كتاب (تاج العروس) مع مقدمة باللغة الإنجليزية للأستاذ الأديب (المدن) في كلكتا قبل أن يطبع في مصر وكان في أربعة مجلدات ضخمة . وقد ألقى في مقدمته إيضاحا لسيرة المؤلف والكتاب واختتم المؤلف كتابه بهذه الكلمات : « قد يسر الله إتمامه على الصفا بمكة المكرمة المشرفة تجاه الكعبة المعظمة » وكان يقول عن عاداته اليومية : « ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر » ، وهذا يدل على قوته في الحفظ وحرصه على إتقان العلوم المختلفة وتوفى الشيخ الفاضل اللغوى الشهير السيد المرتضى البلكرامي الزبيدي في سنة ١٢٠٥ هـ حيث كان قاضيا في (زبيد) وجدير بالذكر أنه عندما اشتهر أمر هذا الكتاب في حياة صاحبه استكتب منه الخليفة العثماني نسخة والسلطان لدارفور نسخة ، وملك المغرب نسخة ، وكذلك طلب منه أمير اللواء محمد بك أبو الذهب نسخة ، وجعلها في مكتبة مسجده الذي أنشأه بالقرب من الأزهر . وقد بذل العلماء وولاة الحكومة في تلك العصور الجهود البالغة لشراء (تاج العروس) بأثمان باهظة كثمنه (القاموس المحيط) .

وننتقل الآن إلى أعظم كتاب وضع في أواخر القرن الثاني عشر وهو كتاب « حجة الله البالغة » للإمام شاه ولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ، في أسرار أحكام الشريعة وفلسفة التشريع الإسلامي ، يعد كتابا مبتكرا في موضوعه وأسلوبه العلمي ، وقد أعيد طبعه وتخريجه في مصر مرارا وأجله علماء هذا الموضوع . ويتسم كتاب « حجة الله البالغة » بنصاعة العربية وقوة العبارة وبعدها عن السجع البادر وتقليد أسلوب الحريري .

ويمتاز القرن الرابع عشر الهجري بسرعة

التأليف وكثرة المؤلفات وضخامة الإنتاج في اللغة العربية في الهند، وقد قام بعض المؤلفين بوضع مؤلفات قيمة وبجامع علمية في مستهل هذا القرن. فأما الأمير «صديق حسن خان القانوجي» أمير «بهوبال» بالهند، المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ فكان عالماً جليلا مولعاً بالتأليف والنشاط العلمي ويبلغ عدد مؤلفاته حوالى ٢٢٢ «مائتين واثنين وعشرين كتاباً» منها ستة وخمسون كتاباً في اللغة العربية، وفيها كتب ذات قيمة علمية كبرى مثل «فتح البيان في تفسير القرآن» في عشرة مجلدات كبار، و«أبجد العلوم» و«التاج المكلل» في أصول اللغة، و«العلم الخفاق في علم الاشتقاق». ومن أغرب كتبه في علم اللغة «لف القماط على تصحيح ما استعمله العامة من المعرب والدخيل والمولد والأغلاط» وقد أشار فيه المؤلف إلى أخطاء الناس في المحاورات العربية، وطبع هذا الكتاب في «بهوبال» سنة ١٢٩١ هـ ويليه في الأهمية كتابه المعروف «البلغة في أصول اللغة» حيث سرد فيه المؤلف تاريخ علم اللغة وتعريفه وتطوراته وطبع أيضاً في بهوبال سنه ١٢٩٤ هـ.

وقد ولد «صديق حسن» في مدينة «بريلي» في شمال الهند سنة ١٢٤٨ ثم ذهب إلى مدينة «قنوج» التي يعرف منسوبا إليها، ودرس علم الحديث على القاضي زين العابدين محمد الأنصاري اليماني، ثم سافر إلى الحجاز وبعد عودته منها إلى الهند انتقل إلى بهوبال وتزوج بأميرتها «شاهجهان بيجوم» التي كان يحكمها حينذاك. وله مؤلفاته القيمة في الأردية والفارسية.

وللشيخ «عبـــد الحي بن عبد الحليم اللكنوي» (١٣٠٤ هـ) ستة وثمانون كتاباً في اللغة العربية، ومن أشهرها كتاب «السعاية في شرح الوقاية» و«مصباح الدجى» و«ظفر الأماني» و«التعليق الممجد». وقد ألف «محمود حسن خان التونكي» المتوفى سنة (١٣٦٦ هـ) كتابا ضخما باللغة العربية سماه «معجم المصنفين» ويعد كدائرة معارف في هذا الموضوع، ويشتمل على ستين جزءاً في عشرين ألف صفحة مطبوعة، ويحتوي على تراجم أربعين ألفاً من المصنفين، وناهيك من قيمة الكتاب وسعته واستقصائه، أن فيه تراجم ألفين من المؤلفين كلهم يسمون أحمد، وقد لخص في كتابه نحو ألف وخمسمائة كتاب قيم، هذا، وقد ذكر فيه كل من ترك بالعربية كتابا منذ بدء العهد التأليفي إلى سنة ١٣٥٠ هـ وظهرت منه أربعة أجزاء طبعت في بيروت على نفقة حكومة حيدر آباد، والأجزاء الباقية محفوظة في «المكتبة الآصفية» بحيدر آباد، ونرجو أن ترى هذه الأجزاء أيضاً النور لكي يستفيد بها عشاق هذا الموضوع في الأقطار العربية والإسلامية؟

(يتبـــع)

محيي الدين الألوائي

مكانة الفقه الإسلامي

للأستاذ زكريا البري

— ١ —

ترك فقهاء المسلمين ـ رضوان الله عليهم ـ ثروة فقهية مثرية ، توجه المسلمين إلى الحق والخير، وتهديهم سواء السبيل ، وتضع لهم أساس الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة .

وقد اشتملت تلكم الثروة المباركة ، على قواعد كلية ، ونظريات عامة ، وأحكام فرعية بلغت منتهى الروعة ، وغاية التطبيق الحق لمعنى العدل الذي قامت به السموات والأرض ، في صياغة متقنة ، وتعليل وتحليل ، ودقة بالغة ، أدهشت العلماء في شرق الدنيا وغربها ، فارتفعت أصواتهم ـ وإن لم يؤمنوا بها كدين وشريعة إلهية ـ بالإعجاب والإكبار ، « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ... » [1]

يقول مستشرق مجري : « إن الفقه الإسلامي واسع جداً إلى درجة أنني أعجب كلما فكرت في أن المسلمين لم يستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادهم وزمانهم » [2] .

وفي المؤتمر الدولي للقانون المقارن الذي انعقد في مدينة لاهاي سنة ١٩٢٧ قرر المؤتمر بإجماع الآراء :

أولا : اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام .

ثانياً : اعتبار الشريعة الإسلامية شريعة حية صالحة للتطور .

ثالثاً : اعتبار الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها ، وليست مأخوذة من غيرها .

وفي يوليو تموز سنة ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي للحقوق المقارنة ، مؤتمراً في كلية الحقوق بجامعة باريس ، للبحث في الفقه الإسلامي ، تحت عنوان « أسبوع الفقه الإسلامي » ، برئاسة المسيو ميو الأستاذ بكلية الحقوق في جامعة باريس ، دعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الأزهر والحقوق في العالم العربي والبلاد الأوربية وكبار المحامين والمستشرقين واستمع فيه المؤتمرون لبحوث فقهية إسلامية من علماء المسلمين المعاصرين ، في موضوعات خمسة هي :

(١) إثبات الملكية . (٢) الاستملاك للمصلحة العامة . (٣) المسئولية الجنائية .

---

(١) الآية ١٤ من سورة النمل .

(٢) مجلة المحاماة الشرعية سنة ١٩٢٩ — العدد الأول ص ٥ .

(٤) تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها فى بعض
(٥) نظر الربا فى الإسلام [١] .

فلم يتمالك أحـــد نقباء المحامين السابقين فى فرنسا نفسه وهب قائلا :

كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى ، وعـدم صلاحيته أساساً تشريعياً ، يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور ، وبين ما نسمعه الآن مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادىء .

ثم انتهى المؤتمر إلى اتخاذ القرارات الآتية بالإجماع :

أولا : مبادىء الفقه الإسلامى لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها .

ثانياً : اختلاف المذاهب الفقهية ينطوى على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ، هى مناط الإعجاب ، وبها يتمكن الفقه الإسلامى من أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة ، والتوفيق بين حاجاتها .

ثالثاً : التوصية بإخراج موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات القانونية والإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة [٢] .

كما أن فقهاء القانون الدولى المعاصرين فى بلاد أوربا ، قد اتخذوا من محمد بن الحسن الشيبانى ، الفقيه الحنفى ، أبا ورائداً لهم ، وألفوا باسمه جمعية خاصة ، تبحث فيما كتبه وخلفه ذلك الفقيه من تراث فقهى جيد ، لأنه - كما قالوا بحق - « خليق بأن يأخذ مكانه الحق بين رواد القانون الدولى العالميين » .

وإنا لا نروى ذلك - وغيره كثير وكثير - لنتخذ منه حجة لمكانة الفقـــه الإسلامى ، أو شرفا إضافيا نضمه إلى شرفه الذاتى ، فإن الأمر لا يحتاج إلى ذلك مطلقاً ، وإنما نذكره لنفتح أبصارنا وبصائرنا على ما بين أيدينا من خير وبركة ، وثروة نرجو لها النماء والازدهار .

نقصه ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، وليزول التردد والحيرة من نفوس الذين لم تسعدهم ظروفهم الثقافية بالتعرف على المبادىء والأحكام الإسلامية تعرفا صحيحا كاملا ، حيث يقرءون كلمات الثناء والإعجاب من غير المسلمين ، وهم بوضعهم الدينى خصوم لها ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

وقد أدرك مكانة الفقه الإسلامى ، عن بينة وبصيرة ، كثير من فقهائنا المعاصرين ، يقول أستاذنا الدكتور السنهورى : الفقه الإسلامى إذا أحييت دراسته ، وانفتح فيه باب الاجتهاد ، قمين بأن يثبت قانوناً حديثاً ، لا يقل فى الجدة وفى مسايرة العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية ، هذه هى عقيدتى

---

(١) ألقى هذا البحث المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ، ونشرته مجلة الأزهر ومجلة رسالة الإسلام ونشر مستقلا باللغتين العربية والفرنسية .

(٢) الفقه الإسلامى فى ثوبه الجديد للأستاذ مصطفى الزرقا - ١ المدخل الفقهى العام من ص ٦ - ١٠ . وبه النص الفرنسى الأصلى للقرارات ص ٨ .

فى الفقه الإسلامى ، تكونت لا من العاطفة والشعور فحسب ، بل تضافر فى تكوينها الشعور والعقل ، ومكن لها شىء من الدرس ، وأكثر ما كان درسى للفقه الإسلامى عند وضع القانون المدنى العراقى ، فإن هذا القانون مزاج صالح من الفقه الإسلامى والقانون المصرى الجديد ، فأتاح لى اطلاعى على نصوص الفقه الإسلامى ، سواء أكانت مقننة فى مجلة الأحكام العدلية ، ومرشد الحيران ، أو كانت معروضة عرضاً فقهيا فى أمهات الكتب ، وفى مختلف المذاهب - أن ألحظ مكانة هذا الفقه وحظه من الأصالة والابتداع ، وما يكمن فيه من حيوية وقابلية للتطور [1] .

وقد استق قانوننا المدنى الجديد ، من الفقه الإسلامى ، بعض المبادىء والأحكام ، التى سدت ما أحس به رجال التشريع من نقص فى القانون المدنى القديم ، فقد استحدث التقنين الجديد أحكاما استمدها من الفقه الإسلامى ، وبعض هذه الأحكام الجديدة مبادىء عامة ، وبعضها مسائل تفصيلية ، فمن المبادىء العامة التى أخذ بها النزعة الموضوعية التى تتخلل كثيراً من نصوصه : وهذه هى نزعة الفقه الإسلامى ... آثرها التقنين الجديد على النزعة الذاتية التى هى طابع القوانين اللاتينية ، وجعل الفقه الإسلامى عمدته فى الترجيح .

(١) مجلة القضاء العراقية ١٩٦٢ - العددان الأول والثانى (القانون المدنى العربى) .

ومن هذه المبادىء أيضاً - نظرية التعسف فى استعمال الحق [1] ، لم يأخذها التقنين الجديد عن القوانين الغربية فحسب ، بل استمدها كذلك من أحكام الفقه الإسلامى ، ولم يقتصر فيها على المعيار الشخصى الذى اقتصرت عليه أكثر القوانين ، بل ضم إليها معياراً موضوعياً فى الفقه الإسلامى يقيد استعمال الحق بالمصالح المشروعة ، ويتوقى الضرر الجسيم الذى قد يصيب الغير من استعماله .

وكذلك الأمر فى حوالة الدين أغفلتها القوانين اللاتينية ، ونظمتها القوانين الجرمانية متفقة فى ذلك مع الفقه الإسلامى ، فأخذ بها التقنين الجديد ، ومبدأ الحوادث الطارئة أخذ به بعض التقنينات الحديثة ، فرجح التقنين الجديد الأخذ به استنادا إلى نظرية الضرورة ونظرية العذر فى الفقه الاسلامى [2] .

ومن الأحكام التى استحدثها التقنين الجديد مسائل تفصيلية ، اقتبسها من الفقه الإسلامى ، ومن هذه المسائل الأحكام الخاصة بمجلس العقد ، وإيجار الوقف ، والحكر ، وإيجار الأراضى الزراعية ، وهلاك الزرع فى العين

(١) أنظر البحوث الملقاة من هذه النظرية فى الشريعة الاسلامية فى أسبوع الفقه الإسلامى المنعقد بدمشق سنة ١٩٦١ ، فى كتاب طبعه المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

(٢) أنظر فى ذلك رسالة الأستاذ الدكتور محمد عبد الجواد .

المؤجرة ، وانقضاء الإيجار بموت المستأجر وفسخه للعذر ، ووقوع الإبراء من الدين بإرادة المدين وحده »[1] .

ثم جاوز القانون المدنى هذا وذاك ، وجعل الفقه الإسلامى مصدرا من مصادره الرسمية ، حين نصت مادته الأولى على « أنه إذا لم يوجد نص تشريعى يمكن تطبيقه حكم القاضى بمقتضى العرف ، فاذا لم يوجد فبمقتضى مبادىء الشريعة الإسلامية .... » .

وقد ذكر الدكتور السنهورى أن السبب الذى جعل المشرع المصرى - فى الماضى - لم يخط الخطوة الحاسمة فى جعل القانون المدنى مشتقاً فى جملته وتفصيله من الفقه الإسلامى هو « أن المجتمع المصرى قد حكم منذ قرابة قرن بقوانين مدنية غربية باعدت ما بينه وبين الفقه الإسلامى ، فأصبح الرجوع فجأة إلى الفقه الإسلامى عسيراً ، لما يحدث من قلقلة فى التعامل ، ومن بلبلة فى التفكير القانونى . وأنه لذلك يتربص حتى يكتمل تطور الفقه »[2] .

وقد آن الأوان ، بعد طول التربص والانتظار ، وكثرة الترقيع فى ثوب القانون ، أن تعبأ الجهود فى كل مكان ، لهذه الغاية المجيدة ، وقد نادى تقرير الميثاق الوطنى بوجوب العناية « بكشف حقيقة الدين ، وتجلية جوهر رسالته ، لكى تكون قيمته الروحية الخالدة أساساً لقيم المجتمع الجديد ، ولكى تكون الشريعة الغراء مصدراً أساسياً للتقنين ، الذى يجب أن يكون فى منطقه وأسلوبه فقها إسلامياً خالصاً ، لا مجرد محاكاة للقوانين الغربية ...

وقد تكون البلاد العربية عند ظهور هذا الباب قد توحدت ، فيأتى القانون ليدعم من وحدتها ، وقد تكون فى طريقها إلى التوحيد ، فيكون القانون عاملا من عوامل توحيدها ، ويبقى على كل حال رمزاً لهذه الوحدة »[1] .

وسنعرض فيما يلى للمنهج القرآنى الخالد الذى يضمن لهذا الفقه حيويته ومرونته والذى وضع الله أساسه وباركه ، ليحقق للمسلمين وللإنسانية جمعاء ، الخير والعدل واليسر والرحمة فى الدنيا ، بحيث يجدون سعة من كل ضيق ، وفرجا من كل شدة « صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون » ؟

(يتبع)

زكريا البرى

الأستاذ بكلية الحقوق - جامعة القاهرة

---

(١) الوسيط فى شرح القانون المدنى لأستاذنا الدكتور السنهورى ج ١ ص ٤٧ .

(٢) مجلة القضاء العراقية - العددان الأول والثانى لسنة ١٩٦٢ (القانون المدنى العربى لأستاذنا الدكتور السنهورى) .

(١) المصدر السابق .

الرجز في اللغة والأدب

للأستاذ يوسف حسن نوفل

لو تصفحنا مجموعات الشعر العربي على كثرتها كالمفضليات (٧٨٠ م) ، والمعلقات ، وجمهرة أشعار العرب (أواخر القرن التاسع) ومنتهى الطلب (أواخر القرن الثاني عشر الميلادي) وحماسة البحتري ، وحماسة أبي تمام ، والمنتخب من أدب العرب ... الخ . لرأينا الكثير من أبيات بحر الرجز . وسوف نلحظ في هذا البحر ظاهرتين ، إحداهما : قديمة وتتصل باللغة ، والثانية : حديثة وتتصل بالشعر .

أما القديمة فهي شيوع الأراجيز في مجال الاستشهاد النحوي واللغوي ، وأما الحديثة فهي ميل الشعر الحديث إلى تفعيلة الرجز واستخدامه لها وهي ما أستهل به البحث .

* * *

الرجز في الشعر الحديث :

مال الشعر الحديث إلى استخدام الرجز ، وأكثر من ذلك ، فإننا نرى الشعر الأوربي يحفل بهذا الوزن أيضا ، وبخاصة التفعيلة المخبونة (متفعلن = //ه //ه) ، وهذا البحر وهو (الإيامب) جرى على ألسنة فحول الشعراء الغربيين .

ولنرجع إلى تاريخ البحر نفسه ، وسوف نجده بحراً شعبيا - إن صح هذا التعبير - مما يرجح أنه أول ما جرى على لسان الشاعر الجاهلي ، لسهولة وزنه ، وعدم احتياجه إلى حركات الإعراب نظراً لسكون آخره ، وهنا نجد الخيط الذي يمد الظاهرة القديمة إلى الظاهرة الحديثة ، إذ تقرر الظواهر اللغوية سهولة المقاطع الساكنة في العربية وشيوعها في كلامنا العادي .

فالعربي الذي يحدو ناقته تجاوب مع إيقاع خطوها بهذا الوزن ، ولهذا فإن البكري يشبه الرجز بالناقة الرجزاء التي تتحرك وتسكن ، ثم تتحرك وتسكن[1] ، وكذلك جورج زيدان يشبه توقيع الرجز بمشي الجمل الهوينا[2] .

وإن خالفنا في ذلك أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس إذ يوافق على تقدم وزن الكامل لسائر البحور ، إلا أن سهولة هذا البحر ، وما يصلنا من سرعة ارتجال شعرائه فيه ، يجعلنا نؤكد ما نذهب إليه ، من ذلك : ما رآه رؤبة حين كبت عجوز فارتجل قائلا :

تنح للعجوز عن طريقها
إذ أقبلت رائحة من سوقها[3]

وإذا كانت الدواوين الحديثة لا تكاد تخلو من هذا البحر ، فإن هذا يدل على ذكاء

---

(١) أراجيز العرب ص ٣ .
(٢) آداب اللغة العربية ص ٦١ .
(٣) الأغاني م ٢١ ص ٦١

شاعر اليوم ، كما يدل على أقصى مدى ما بلغه الرجز ، فقد أهمل قديما ، ثم استماد مكانته مع التجديد الذي خلق الموشحات والأزجال ومع الازدهار العباسي ، ثم في العصر الحديث

على أن شعبية هذا البحر تحققت له حين اختارته الأشعار العامية نمطا مفضلا لإيقاعها واجتمع إلى ذلك تملق شعبي قديم ، وقد جرى على لسانه صلى الله عليه وسلم دون قصد إليه كما قرر ابن برى مثل قوله حين جرحت يده :

ما أنت إلا إصبع دميت

وفى سبيل الله ما لقيت

وقوله :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وافتخر فحول الشعراء فى القرن الثانى والثالث والرابع بل والخامس بحفظ الآلاف منه ، وكان من الوصايا الشهيرة قولهم : رووا أبناءكم الرجز فإنه يهرت أشداقهم .

وفى ظاهرة الاختلاف فى نسبة الأراجيز لقائليها ما يؤكد هذه الشعبية ، حيث عده الرواة من الأدب الشعبي الجاهلي كما قرر الباقلاني وعدوه (مطية الشعر وحمار الشعراء) وجعلوه مع ذلك (ديوان العرب) ، ورغم هذا فما بين أيدينا منه نسبة ضئيلة إلى جانب أنه لم يطل برأسه فى عصر التدوين .

وقد مثلت الأراجيز لهجات العرب من كشكشة ، وعنعنة ، وعجعجة وضمت خصائص لغوية عديدة فمثلت بذلك أدب القبيلة فكانت نتاجا محليا ، يخدم الموقف أكثر من أن يكون ممثلا لعاطفة إنسانية أو قضية عامة ، وضم لغات : طيء وهذيل وبنى العنبر وبنى الهجيم وبنى الحارث .

والتصاق الأرجوزة ببيئتها يتراسل مع تناول الشعر الحديث لقضايا العصر المعقدة ، وفى كلتا الحالين يتجاوز الشعر العالم الذاتي الداخلي إلى أرض الواقع الجماعي .

ويجتمع التاريخ القديم والحديث فى ظاهرة واحدة وهى قصر قصائد الرجز ، فلم تطل الأراجيز الجاهلية ، بينما طالت على أفواه المخضرمين والإسلاميين ، حيث استحدث المولدون ألوانا جديدة (اعتمادا على كثرة توسع العرب فيه)[1] .

وما أظن الحديث إلا مكرورا حين أشير إلى أن التفعيلة مستخدمة فى الشعر الحديث منذ أولى محاولاته (١٩٤٧) ، وكان الرجز أحد البحور ذات التفعيلات الموحدة والمكررة بنصها ، فكانت ممارسة الشعر الحديث له ، ممارسة للتفعيلة لا للكمية ، تماما كما حدث فى (البند العراقى)[2]

وتفعيلة الرجز (مستفعلن) قد تأخذ الصور التالية :

مستفعل ، متفعلن ، مستعلن ، متعلن (نادرا) ، فعولن (وهى غير مقبولة) .

---

(١) موسيقى الشعر . د . إبراهيم أنيس .

(٢) قضايا الشعر المعاصر : (نازك الملائكة) ، (الشعر الحر والجمهور) .

ويأتي تاما ، ومشطورا ، ومجزوءا ، ومنهوكا ومنه المزدوج ، وهو ما تختلف فيه قافية البيت عن سابقه وتاليه ، مع اتفاق عروضه مع ضربه .

* * *

الرجز في مجال اللغة :

تصر نتائج الدراسات الصوتية على أن اللغة بنت بيئتها وتلتقي بآراء يتفق حولها تقريبا كل من : فيرث ، وماليفوفسكي من أن اللغة ظاهرة اجتماعية كالعادات والتقاليد، وأنها من خلق الإنسان ، ونتاج جسمه ، وعقله لا عقله فقط ، والإنسان جزء من بيئته التي يعيش فيها ، ويمثل لها ، ولهذا فإن اللغة كسائر الأعمال ، ولهذا فلابد من تحديد بيئة الكلام المدروس [١] .

ولقد تابع النحاة الأراجيز على أنها ممثلة للغة بيئتها ، وإذا وافقنا (ابن خلدون) في قوله : (إن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفسه العمل) [٢] ، أمكننا أن نميز موقفين متقابلين : موقف من يسلك مسلكا لغويا مستخدما ألفاظا معينة ممثلة لحلقة من حلقات نشاطه الإنساني الضخم ، وممثلة أيضا لضرب من العمل يدور في بيئته ... وهذا هو الراجز.

وموقف من يلتقط هذه الإفرازات اللغوية ليضيفها إلى سلسلة بحوثه في سبيل تكوين نظرية ، أو بناء قاعدة ... وهذا هو النحوي.

ولعله هنا يلتزم تلك النصيحة التي أسداها الجاحظ بقوله : « ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام العرب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها) [١] .

وتبعا لذلك رأينا في كتب اللغة الاستشهاد بالأراجيز ، ووجدناها ممثلة للهجات قبائل معينة ـ كما أشرت ـ كما أنها تدور بين : الشذوذ ، ومخالفة القياس ، والضرورة ، والندرة ، والتزام لغة معينة كلغة بني الحارث ابن كعب ، أو بني الهجيم أو طيء أو هذيل [٢]

وليس معنى هذا أن الاستشهاد بالأراجيز كان أكثر من البحور الأخرى ، فإذا سلكنا طريق الإحصاء رأينا في أوضح المسالك مثلا نسبة الاستشهاد بالرجز أقل من ١٥ ٪ ، وشيوع الرجز في مرجع كالأغاني في حدود ٤ ٪ في الأجزاء الاثنى عشر الأول ، وفي الدواوين نجد النسبة في ديواني جرير ، والمتنبي لا تزيد عن ٠٫٢ ٪ ، وفي ديوان الفرزدق وعدده تسمائة وسبعة آلاف بيت نجد الرجز منها ستة وثلاثين بيتا فقط .

(١) دور الكلمة في اللغة س أولمان Olman ترجمة د كمال بشر

(٢) المقدمة ص ٦٥٥ ، اللغة والمجتمع د السعران ص ٧

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١١

(٢) أمثلتها كثيرة ارجع للأشموني ص ٣٢، ٢، ٧٠ جـ ١ وغيرها .

ولكن الملاحظ أن الاستشهاد فى الرجز غالبا - يؤكد خلاف الأصل ، ولتعليل ذلك لابد من استعراض كلا الموقفين : موقف الراجز ، وموقف اللغوى . أما الراجز فهو أمام تصرفين : تصرف تمليه البيئة ، يجعله يضمن أشعاره صورا لفظية تعيش حقا ببيئته . وتصرف آخر ، يجعله يخترع اللفظة اختراعا ويرتجلها ارتجالا .

وقبل أن نرجح تصرفا على آخر نلم بشىء سريع عن الرجاز لعله يضىء لنا الطريق ولنكتف برؤبة والعجاج ، وما يقال عنهما يدعو إلى التقدير والدهشة مما يرفعهما درجات فوق أبى النجم وذى الرمة وغيرهما من الرجاز .

فمن رؤبة يقول صاحب الأغانى : (وقد أخذ عنه وجوه أهل اللغة وكانوا يقتدون به ويحتجون بشعره ويجعلونه إماما) ، ولما عاد الخليل بن أحمد من جنازته قال :

(دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم) .

وهو والعجاج أشعر الناس فى نظر يونس وأرجوزة العجاج التى مطلعها :

« قد جبر الدين الإله فجبر » .

التى كانت موقوفة القوافى ولو أطلقت كلها لكانت منصوبة ، على مدى ما تبى بيته تستثير إعجاب يونس .

هذا هو جانب التقدير ، أما جانب الدهشة وله تعليل نفسى خطير ، فما يروى من إصرار رؤبة على أكل الفأر وقسمه أنه : « أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللواتى يأكلن القذر . . إلخ » .

وإصراره على تسمية دار الصيارفة بالبصرة دار الظالمين [1] ... فمن الناحية النفسية نجد الحدة ، وقوة الشخصية ، والجرأة أبرز مظاهر هذا الشاعر ، فإذا ربطنا ذلك بتفسير معنى السليقة كانت الصورة أكثر اتضاحا .

يقول الشاعر العربى :

ولست بنحوى يلوك لسانه
ولكن سليق أقول فأعرب

فهل معناها : الطبيعة ، والقدرة على الإعراب فحسب ؟ ... لا ، لأنها تمنح صاحبها قوة التصرف فى فنون القول اشتقاقا وتعريبا وقياسا على ما وضعته العرب ، فهنا ما يشير إلى إمكانية الابتكار والجهد الشخصى .

غير أن هناك تفسيرا آخر يعد السليقة لغة يتكلم بها البدوى ، وتكون حسنة فى الذوق متعثرة فى النحو [2] ، أى أنها ممثلة لبيئة صاحبها ، وقد كان بدويا خالصا ، بعيدا عن الدخيل الذى تسرب إلى العربية منذ عهود الجاهلية نتيجة اتصالات العرب بغيرهم لكنه ضل طريقه للبدوى .

وهنا نجدنا أمام التصرفين : تمثيل البيئة ،

---

(١) الأغانى ص ٨٥ - ٦٠ ج ٢١ مطبعة التقدم

(٢) مجلد المجمع اللغوى . مؤتمر الدورة الثلاثون د محمد كامل حسين .

والابتكار فإلى أيهما انعطف الراجز ؟ إذا أخذنا بنتائج علم النفس الموسيقى الذى يقرر أن هناك ميلا غريزيا فنيا لتجميع المقاطع المسموعة ، وجعلها كتلا صوتية تتألف كل كتلة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار أو العبارات الصغيرة (موسيقى الشعر ص ٥) لكان علينا أن نسلم بالابتكار للراجز ، ولكن ليس هناك ما يمنع من أنه ممثل لبيئة ، ومبتكر أيضا .

أما اللغوى فهو أمام عدة احتمالات ، إما أن الرواية وصلته محرفة بعهد من الراوى أو بغير عمد ، وهو هنا يأخذ عنه الأعرابى بثقة ويقين .

وإما أن اللغوى يصنع ما يقوى رأيه ، وربما كان ذلك أقرب إلى الصدق والبرهنة ، ففى ظاهرة اختلاف الرأى حول قائل الأرجوزة ـ مما يثبت الجهل بقائلها وربما يطبعها بطابع الشعبية ـ برهان أول .

وبرهان ثان فيما نراه من رواية الشاهد برواية فى كتب النحو تخالف الرواية التى وردت بكتب الأدب ، فالشاهد :

وقاتم الأعماق خاوى المخترقن :

نجده هكذا بالأشمونى (حـ١ ص ٣٢ قاله رؤبة) ، بينما نجده فى الأغانى : خاوى المخترق بلا نون (حـ ٢١ صـ ٥٨) ، وفى أراجيز العرب أيضا (ص ٢٢) وتظل القافية هكذا على مدى خمسة وثمانين بيتا .

وهكذا نرى الرجز يكمل دورة تاريخه الطويل ليحتل مكانا بارزا فى الشعر الحديث بتفعيلته المكرورة .

كما رأينا أن الراجز كان ممثلا لبيئته ولهجة القبائل ، وأنه جمع إلى الشذوذ ، الموافقة للأصل فبينما يقول الراجز :

اقلت : لبيه . لمن يدعونى .

بإضافة لبيه إلى ضمير الغائب ، بشذوذ ـ نراه يلتزم القاعدة فى قوله .

فصيروا مثل كعصف مأكول .

حيث نصبت صيروا مفعولين بلا شذوذ (الأشمونى حـ ٢) .

والراجز إلى ذلك مبتكر أيضا .

أما اللغويون فقد وضعوا فى الرجز وعدلوا فيه بما يوافق هواهم ، ولعل هذا هو سر ما أثير حول الرجز مما روى أن الخليل لم يعده شعرا (١) ، وربما حدا بأحد الباحثين المحدثين للتحمس لفكرة عدم نسبة الشواهد إلى أقوال العرب المأثورة وأشعارهم (٢) .

يوسف محمد نوفل
المدرس ببورسعيد

---

(١) لسان العرب جـ ٧ ص ٢١٦ الطبعة الأولى ١٣٠١ هـ) .

(٢) دراسات نقدية فى النحو العربى د عبد الرحمن أيوب .

كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا

للأستاذ محمد السباعي محمد عامر

القرآن هو الكتاب المعجز المنزل من عند الله تعالى بألفاظه، ووجوه قراءاته، وترتيله وأدائه على رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم؛ للهداية والتشريع، فهو الأساس والمصدر الجامع لأصول الدين وفروعه، والنص الكامل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وقد تكفل الله تعالى بحفظه وبقائه دون تغيير بزيادة أو نقص أو إخلال بتلاوته وقراءاته التى نزل بها قال تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون». ولهذا هيأ له من الجهود والعزائم الصادقة ما يجعله ساريا فى الأمة كلها على اختلاف أعصارها وأمصارها سريان العافية فى الأبدان والنور فى الظلام. فكان للنبى عليه الصلاة والسلام بضع وعشرون كاتباً يكتبون ما يزل منه فى حينه وبعضهم كان يلازمه ملازمة تامة لا لشىء سوى كتابة القرآن كزيد بن ثابت وكان يقرىء من يحضر مجلسه من أصحابه ما نزل فى حينه كذلك، ويخص كل واحد منهم بقراءة متميزة عن قراءة غيره ليعلمها غيره من الصحابة أو التابعين، وهؤلاء يعلمون غيرهم من الأئمة الذين عرفوا بالقراءات المختلفة واشتهروا بها وقصدوا فيها وأفنوا أعمارهم فى إتقانها وضبطها والإقراء بها فى أمانة لم تتفق لأى كتاب سماوى آخر والسر فى إنزال القرآن الكريم بوجوه يخالف بعضها بعضا أن قبائل العرب المنثورة على رمال الصحراء لم تجمعهم لغة واحدة فنهم من ينطق - بالإمالة لا يحسن غير ذلك، ومنهم من ينطق بالتقليل لا يحسن غير ذلك ومنهم من يهمز، ومنهم من لا يهمز؛ فلو نزل القرآن بوجه واحد لهم جميعاً لعجزوا عن قراءته والاستفادة منه والتدبر فيه. كيف وقد أمروا بقراءته فى الصلاة وفى غيرها لهذا اقتضت حكمة الله تعالى الرفق بهم والتخفيف عليهم ودفع الحرج عنهم قال تعالى. «ولقد يسرنا القرآن للذكر»، ولما زالت هذه الضرورة بعد فترة من الزمن وانطلقت به ألسنتهم وسهل عليهم جميعاً أن يقرءوه بوجوهه كلها فى زمن عثمان رضى الله تعالى عنهم جميعاً اقتصر عثمان ذو النورين على بعض هذه الوجوه وأبقاه فى المصحف كأساس جامع للقراءات المتواترة كلها التى ثبتت فى العرضة

الأخيرة وأحرق ما سواها من المصاحف المشتملة على الوجوه الأخرى .

والذى لا ريب فيه .

أن القرآن جمع ثلاث مرات :

أولاها : فى عصر النبوة فقد كتب كله بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام وبأمر منه فى أوقات متتابعة كما كتب كله بأيدى الصحابة رضى الله عنهم فى عصره عليه الصلاة والسلام كتابة متفرقة غير مرتب الآيات والسور ، على العظام والجريد وقطع الجلد والحجارة : والغرض من هذا الجمع عدم ذهاب شيء منه ، ثم عززوا هذا الجمع الخطى بجمع الصدور فكانوا يحفظونه كله ، والعرب أمة متميزة عن غيرها بقوة الحافظة وصفاء الذهن ورسوخ ما يسمعونه فى قلوبهم على معنى أن هذا يحفظ بعضا وذاك يحفظ بعضا آخر وهكذا ، فجميعه عند جميعهم عن يمه جمع القرآن ، وقد اتفق لعدد قليل منهم حفظ جميعه فى صدره . قال صاحب عمود النسب :

فاخرت الخزرج أوساً بنفر

مع النبى حفظوا كل السور

زيد بن ثابت معاذ بن جبل

كذا أبى وأبو زيد البطل

وأبو زيد هذا أحد أعمام أنس بن مالك ولم يثبت أن امرأة حفظت القرآن فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام إلا أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث وكان النبى عليه الصلاة والسلام يسميها الشهيدة وقد أذن لها أن تؤم قومها ، وكان لها مؤذن خاص ، كذلك أورده السيوطى فى الإتقان ومعلوم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يرتل القرآن كما أنزل إليه فى صلاته وخطبه وسائر شئونه فتعلموا منه القرآن والترتيل جميعاً ...

وكان جبريل يعارضه به فى رمضان من كل سنة فلما كان العام الذى توفى فيه عارضه بالقرآن مرتين ليعلمه أصول التجويد والتلاوة الصحيحة التى يجب أن يؤدى بها القرآن ، ولأمور لا نطيل بذكر بعضها .

الجمع الثانى :

وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بأشهر جمع القرآن مرة ثانية فى السنة الحادية عشر من الهجرة فى خلافة أبى بكر الصديق حين كثر موت القراء بموقعة اليمامة وهو زمن يسير لا يخشى معه من ذهاب شيء من القرآن لا فى أصله ولا فى أدائه ، ولا يزال صدى صوت الرسول ونغماته الشريفة المباركة فى أسماعهم وقلوبهم ، وهذا أعظم نعمة وفضل من الله تعالى على الأمة إذ وفقها وهداها إلى الجمع الثانى فى عهد الصديق على يد زيد ابن ثابت الذى رضيه الرسول عليه الصلاة والسلام واختاره لهذه المهمة من قبل لأمانته

ودينه وجودة خطه : وامتاز هذا الجمع بترتيب الآيات فى سورها وترتيب السور كذلك كما امتاز بالاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته وثبت فى العرضة الأخيرة .

الجمع الثالث :

ثم جمع القرآن مرة ثالثة فى عهد عثمان بحضور وإجماع اثنى عشر ألفاً من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ورضى عنهم على يد : زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وذلك حين اتسعت الفتوحات واختلط الصحابة بغيرهم من أهل تلك الأقطار وخطأ بعضهم بعضا فى القراءة ، فتدارك عثمان الأمر وعالج الفتنة وقضى عليها وجمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن تيسيراً وتسهيلا على الناس يوم أنزل ولما ألف الناس القراءة وتدربوا عليها لم يعد هناك داع إلى بقاء كل هذه اللهجات فاكتفى الخليفة بحرف واحد منها وفى هذا الحرف جميع القراءات المتواترة التى يقرأ بها القراء اليوم على كثرتها فعثمان فى الحقيقة لم يجمع القرآن وإنما جمع الناس على حرف واحد منه جمعهم ليحول بينهم وبين الفرقة والاختلاف فى الكتاب العزيز كما اختلف اليهود والنصارى فى كتبهم فجزاه الله تعالى وجزى أصحابه عن الأمة خيراً .

وقد نسخ من هذا المصحف الإمام مصحفا بعث به إلى مكة وآخر إلى البصرة وآخر إلى الكوفة وآخر إلى الشام ، وأبقى مصحفاً لأهل المدينة واستبقى مصحفاً لنفسه ، وقد استغرقت كتابة المصحف الإمام خمس سنين من سنة خمس وعشرين هجرية إلى سنة ثلاثين وقد أرسل الخليفة مع كل مصحف موجه إلى بلد معلماً يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، ومن هذه المصاحف العثمانية كتب أهل الأمصار مصاحفهم الخاصة ، واعتمد عليها القراء ، وعنها أخذ الأئمة وغيرهم من العرب الفاتحين مهما اختلفت لهجاتهم ؛ بل وغير العرب من أهل الأقطار المفتوحة فى فجاج الأرض حتى كان عدد المصاحف الموجودة فى البلاد الإسلامية فى عهد الصحابة أكثر من مائة ألف مصحف . ويوجد فى كل طبقة مئات القراء فى جميع الأمصار يرجع اليوم ويهتدى بمنارهم لعدالتهم وضبطهم وإتقانهم كما توجد مئات الكتب فى القراءات وما يتصل بها من أحكام التجويد وتاريخ الرواة والرسم والضبط وغير ذلك تجد كل هذا فى كل طبقة من طبقات الأمة . غير خاف على الباحث المنصف . فمثلا المصحف الذى أرسله سيدنا عثمان إلى الكوفة حفظ بطرطوس قرب طرابلس الشام ، ثم نقل إلى قلعة حمص ثم نقل إلى عاصمة الخلافة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى . وبقى مصحف المدينة بالروضة

الشريفة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى أثناء الحرب العالمية نقله أصحاب الشأن إلى العاصمة التركية والظاهر أنه أعيد إلى الروضة الشريفة بعد ، وأما مصحف الشام فقد كان محفوظا بطبرية ثم نقل منها إلى مسجد التوبة بدمشق على عهد ابن الجزرى ثم نقل إلى المسجد الأموى ثم نقل إلى عاصمة الخلافة العثمانية مع ما نقل من الذخائر والنفائس ، وفى كتاب الحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز للعلامة المرحوم الشيخ عبد الغنى النابلسى وصف ما رآه بمصر وحمص من المصاحف الأثرية والناظر فى مثل كتاب منادمة الأطلال له وكتاب الخطط للمقريزى وكتاب الدرر الحسان لفضيلة المرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعى يعلم مدى اهتمام الأمة سلفا وخلفا بالمصاحف الشريفة وقد اشتهر بتعليم القرآن عدد من الصحابة كابن مسعود بالكوفة وقد بلغ من خرج مع عبد الرحمـــن بن الأشعث من تلاميذه وتلاميذ من أقرأهم القرآن وفقههم فى الدين نحو أربعة آلاف شخص فضلا عن غيرهم ممن لم يخرجوا معه ، وكان أبو موسى الأشعرى يعلم الناس القرآن بمسجد البصرة من بعد صلاة الفجر إلى الظهر ، ويقسمهم إلى حلقات على كل حلقة نقيب منهم يشرف عليهم ثم يشرف هو على الجميع ، ومثله فى ذلك : أبو الدرداء فى مسجد دمشق سواء بسواء ، وقد خصص عمر بن الخطاب جائزة مالية كبرى لكل من يحفظ القرآن حتى إذا خشى انصراف الناس عن الفقه اكتفى بمن حفظ منهم القرآن فقد تحقق غرضه بهذا التشجيع الموفق وما ذكرناه نقطة من بحر زاخر من عناية الصحابة والتابعين ومن بعدهم بالقرآن رضى الله تعالى عنهم جميعا ، فهل كانت الأمة بعد هذا كله مقصرة فى شأن القرآن والقراءات أم تلقت هذا الأمر بعزيمة وإخلاص فوق ما يتصوره المتصورون ، وإنى أتساءل : أين المستند العلمى الصحيح والبرهان القاطع الذى لا يكتفى إلا به فى القرآن وما يتعلق بالقرآن ؟ أين الدليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن له أن يضع كلمة من عنده فى القرآن مكان كلمة قرآنية أصلية؟ أو أن يقدم بعض الكلمات على بعض فى جملة قرآنية؟ أين الدليل على ذلك والله تعالى يقول « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » أى إن حالى مقصور على اتباع ما يوحى إلى لا يتعداه إلى غيره مما تسألوننى عنه وتطلبونه منى وقال تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » وقال تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » وقال

تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »
لا يقال : لكل كاتب أو متحدث أن يقول ما يشاء فإن حرية الرأى مكفولة لكل أحد والإسلام لا يحجر على الناس ولا يمنعهم من إبداء آرائهم ، لا يقال ذلك على إطلاقه وإلا سادت الفوضى وانسد طريق الإصلاح وليس كل ما يخطر بالذهن يقال على علاته من غير دليل وإذا كان هذا لا يستقيم فى دنيا الناس ونظمها وسياستها فبالأولى لا يستقيم فى أمر الدين والعقائد الراسخة رسوخ الجبال نعم لكل إنسان أن يبدى رأيه ولكن فى حدود محدودة وبقيود تحول بينه وبين الهدم والتشكيك فى المسلمات الثابتة ، ثانيا: ولا يقال : إن تلاوة القرآن الكريم وتجويده قد تأثرا باللهجات العربية أو بعامل فنى ونغمات موسيقية ، لأنا أسلفنا : أن الأداء القرآنى من عند الله تعالى ، وقد روعى فيه التيسير على العرب أصحاب اللهجات المختلفة وليس لأحد أن يدخل فى ترتيل القرآن وتلاوته شيئا من الفن أو النغمات الموسيقية المفسدة لجلاله وسموه وقدسيته ، قال تعالى : وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ، وقال تعالى : « لا تبديل لكلمات الله » وقال تعالى : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » وقال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » وقال تعالى : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » فمن جلب إليه النغمات الموسيقية وأدخلها فيه مع ما تشتمل عليه من التخنث ولحون أهل العشق فقد جعله هزلا واتخذه هزوا وسار به سير الأغانى الفاسدة وأكثر من هذا أن الموسيقى التى يقرأ القرآن بها اليوم تدخل فيه أحرفا ليست منه وتنقص أحرفا هى منه وتذهب بصفات كثير من الحروف كالجهر والشدة والقلقلة كما تزيد أو تنقص فى المدود والغنات وتقضى على الإدغام والإظهار وغيرهما مما لا بد من مراعاته ، وقد قال الله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به » على أنه لا يبقى مع الموسيقى أثر للخشية والتدبر والاتعاظ بالقرآن وقد قال تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » وقال تعالى : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » . على أنا نقول : القرآن غنى كل الغنى بالموسيقى التى نزل بها غير محتاج إلى شىء من موسيقى الناس : فاختيار كلماته وأحرفه وترتيبها وهيئتها على الوجه الذى أنزل جمال ما بعده جمال . وصنيع يهز القلوب هزا ويستولى على القلوب ويجلى لها المعنى المراد ـ تأمل فى مثل قوله تعالى : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض » حيث أوضح المراد فى منتهى الستر والتحفظ وقوله تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » لم يقل تركن بل أتى بفعل المقاربة ولم يقل إنه ركون تام

بل قال شيئا ولم يدع وصف هـذا الشيء بل قال شيئا قليلا وهذا أدق تصوير لكمال نفسه عليه الصلاة والسلام وصفاء سريرته وفطرته أى لولا تثبيتنا لك لقربت من الركون إليهم ركونا قليلا وقوله تعالى: «إلا قيلا سلاما سلاما». فما أحسن هذه الموسيقى فى تكرار الكلمة واختيارها ومن هذا القبيل الألفات الأخيرة فى مثل قوله تعالى: «وتظنون بالله الظنونا». «وأطعنا الرسولا». «فأضلونا السبيلا». ثم انظر إلى تقديم الجار والمجرور فى المواضع الثلاثة فى قوله تعالى: «ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا». أليست هذه أفضل موسيقى، ومن هذا: موافقة النظائر فى رءوس الآيات مثل قوله تعالى: «رب موسى وهرون» حيث تبنى الآيات على حرف مد قبل الآخر وقوله تعالى: «رب هرون وموسى» حيث تبنى الآيات على الألف ومثله قوله تعالى «كأنهم أعجاز نخل منقعر» حيث تبنى الآيات على الراء وقوله تعالى «كأنهم أعجاز نخل خاوية» حيث تبنى الآيات على التاء المربوطة ومثله «وطور سينين» والأصل سيناء ومثله «ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون». لم يقل فتلتم ومن اختيار الكلمات والأحرف قوله تعالى «فدمدم عليهم ربهم» لم يقل فأهلكهم لأن الأولى أشد هولا وأزعج للطبع ومنه «حتى زرتم المقابر» فإن إحلال كلمة محل زرتم لا يؤدى ما تؤديه من المعنى المقصود وهو الإشارة إلى البعث من القبور فإن الزائر إقامته منتهية قصيرة واستقصاء هذا فى القرآن بعيد المنال لتجدد المعانى المستفادة من الذكر الحكيم. فليحجب بعض القراء عنا هذه الظلمات التى يدخلونها فى قراءتهم.

ثالثا: لا يقال إن ورشاً اخترع من عند نفسه أصولا وقواعد فى قراءة القرآن راعى فيها الموسيقى لحاسة فنية عنده لأنا نقول: ورش هو الراوى الثقة العدل الضابط المتقن وهو من تابع التابعين عاش فى خير القرون ولد سنة مائة وعشر هجرية وتوفى سنة مائة وسبع وتسعين هجرية فهو معاصر لأئمة المذاهب الأربعة. رحل إلى المدينة وأخذ القراءة عن نافع وكان إمام القراء بالمدينة. قال مالك قراءة نافع (سنة) أقرأ الناس بها أكثر من سبعين سنة وقد أخذ القراءة عن سبعين من التابعين وهو حليف حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنهما منهم: عبد الرحمن ابن هرمز عن أبى هريرة وابن عباس رضى الله تعالى عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وكان إمام دار الهجرة قرأ عليه أربعة وثلاثون راويا منهم: قالون وورش. ورجع ورش إلى مصر وقد أجمع الناس على فضله ودينه وانتهت إليه رئاسة الإقراء بمصر ـ روى عنه محمد بن عبد الرحيم الأصفهانى طريق أبى الحسن محمد بن أحمد المروزى وطريق أبى القاسم هبة الله بن جعفر بن محمد

ابن الهيثم وأبو عبد الله محمد بن إسحق البخارى طريق أبى الأسد أحمد بن ابراهيم الفقيه وطريق أبى بكر محمد بن مرشد التيمى وقراءة ورش من جملة القراءات السبعة المتواترة وليست إحداها أولى بالتفضيل من غيرها لا فرق بين حفص وغيره فكما أننا نؤمن بجميع الرسل لا نفرق بين أحد منهم وكما أننا نؤمن بما أنزل الله من كتاب ولا نفرق بين كتاب وآخر فكذلك نؤمن بالقراءات العشر المتواترة لا نفرق بين قراءة وقراءة أخرى. كلها من عند الله . ولا شك أن ورشا لم يختص بإشباع المد بمقدار ست حركات بل مثله فى ذلك حمزة والنقاش بل روى عن جميع الأئمة العشرة مد المتصل بمقدار ست حركات كذلك وهو وجه عنهم من جملة الأوجه ، ولم يقتصر ورش على المد المشبع البالغ ست حركات الذى هو من طريق الأزرق ، بل روى عنه قصر المنفصل من طريق الأصبهانى فالأداء القرآنى والترتيل ومراعاة أصول التجويد ومسائله ليست كالريشة المعلقة فى الهواء ، ولكن لها سند صحيح وأساس وأصل يرجع إليه وقد تولاه من كل خلف عدوله ولم تفرط الأمة فى أقل قليل منه .

وبين يدى المنصف ما لا يحصى من الكتب فى مختلف الأعصار والأمصار وهى ميراث ضخم لم يسعد به كتاب سماوى آخر . فنها الكامل للهذلى ، وروضة المعدل ، والمبهج لسبط الخياط ، والروض النضير ، والتذكرة والتبصرة . وتاريخ دمشق . وهو اسم لكتابين كل منهما لمؤلف خاص والمقنع . والمحكم . والمفردات . ثلاثتها للإمام أبى عمرو الدانى . ومورد الظمآن للإمام الخراز . فى الرسم والضبط والنشر للإمام ابن الجزرى وكتب الأئمة : كالذهبى ، والسخاوى والشاطبى والجعبرى . والجميدى والسفاقسى والنويرى يطول بيانها واستقصاؤها .

وإن الدنيا كلها لتقوم وتقعد من أجل زيادة أو نقص فى غنة أو فى مد كذلك أو إدغام فى غير موضعه أو إظهار فى غير محله أو ترقيق ما يجب تفخيمه أو تفخيم ما يجب ترقيقه ونحو ذلك مما استقر فى قراءة جبريل عليه السلام ونزل من عند الله تعالى على أن تجويد القرآن ومراعاة حدوده وأحكامه تمكنان المعنى فى ذهن القارئ والمستمع مثل ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون ، وعلى كل مسلم يلتزم الحق والصواب . أن يقول آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ، ؟

محمد الصباغى محمد عامر

المدرس بمعهد القراءات بالأزهر الشريف

من أثر العرب الأدبي على كتاب

الحركة "الرومانتيكية" في إنجلترا

للدكتور محمد سمير عبد الحميد

لعل من الخير أن نبدأ بتحديد المعنى المقصود بهذا العنوان ، فكلمة « تراث العرب » يقصد بها هنا كل نوع من المأثورات والحكايات المكتوبة ، أو المتداولة شفهيا التى تصور حياة العرب وثقافتهم لشعوب أوروبا منذ أوائل القرن الثامن عشر ، أما قبل ذلك فلم يكن هذا التراث متميزا إلا فى النادر ؛ لأن كل ما هو عربى أو هندى . أو فارسى أو تركى كان يعرف إجمالا باسم (شرقى) (Oriental) . ومن أهم مصادر هذا التراث مجموعة القصص التى يحويها ذلك الكنز العظيم المعروف بكتاب « ألف ليلة وليلة » الذى كان له شأن كبير منذ أول ظهوره مترجماً إلى الإنجليزية عام ١٧٠٨ - ويضاف ، إلى هذه القصص ، مجموعة الحكايات الشرقية المماثلة مثل : الحكايات الفارسية ، والحكايات التركية وحكايات المغول .

ولقد جاء التأثر بهذا التراث بطريقة غير مباشرة فى أغلب الأحيان ، ومن ثم ؛ فإننا نجد مظاهره عديدة ومتشعبة ، وسوف نقتصر فى هذا البحث على ما يختص من هذه المظاهر بـ (الأبلسة) والتعاقد مع الشيطان أى بالقصص الذى يدور حول عالم الأرواح[1] Supernatural ، ويظهر فيه الشيطان ، أو أعوانه السحرة ، كشخصيات تلعب دوراً هاماً لإغراء البشر وتضليلهم - ذلك لأن هذا الجانب من التراث الشرقى اجتذب اهتمام الكتاب الإنجليز فى عهد الحركة الرومانتيكية بشكل واضح . وكان اهتمامهم به أكثر من اهتمامهم بقصص الحب والمغامرات التى اشتهرت من العصور الوسطى بين المؤلفين الرومانتيكيين .

وأهم الكتاب الإنجليز الذين تأثروا بهذا التراث هم : بكفورد ، صاذى ، بايرون، مور Beckford - Southey - Byron - and Moore - ولقد اخترنا هذا الجانب بالذات لأنه موضوع لم يطرق كثيراً من قبـــل لغرابته وغموضه ولندرة المراجع فيــه —

---

(١) هذا التعبير تعريب للفظ Supernatural بدلا من « ما وراء الطبيعة » وهو اللفظ الشائع خطأ .

والباحث يجد لزاما عليه إذا ما تصدى لموضوع أن يوفيه حقه ولا يتم ذلك إلا بذكر ما كتبه المؤلفون الإنجليز من قصص فيها بعض الحقيقة ولكن الجـــزء الأكبر منها خيال Fiction . وسوف نحاول فى هذا البحث أن نبين كيف استخدم كل بمجموعة من هؤلاء الكتاب هذا التراث العربى وكيف أن بعضهم قد عدله بشكل يتفق وأغراضهم الخاصة حتى يتلاءم مع ظروف البيئة والجو الثقافى هناك وسوف نشير كذلك إلى الاختلاف فى طرق معالجة موضوع «إغراء الشيطان» وكيف اختلف الأدباء الإنجليز فى تصوير شخصية إبليس.

ولا يفوتنى أن أشير أيضاً إلى العلاقة المثلثة الأطراف، التى تربط بين الأبلسة والاستشراق والنزعة الرومانتيكية فى مؤلفات بكفورد W. Beckford ومن تبعه من كتب القصص الشرقية الإنجليزية Anglo-Oriental Tales - فى القرن الثامن عشر، وسيتبين فى النهاية ما أسهمت به القصص الشرقية الخيالية التى تمزج بين عالم الأنس وعالم الجن فى الحركة الرومانتيكية، مع إشارة خاصة إلى تأثير كتاب «ألف ليلة وليلة» - Arabian Nights وكتاب الواثق - Vathek على عدد من الشعراء الرومانتيكيين وفى مقدمتهم لاندور، ساذى، مـــور، واللورد بايرون. S. Landor - R. Southey - T. Moore - Lord Byron

منذ فجر التاريخ ارتبط مصير الإنسان بالدور الهام الذى يلعبه الشيطان عدو الله والبشر على مسرح هذه الحياة وقد كتبت فى هذا الصدد مؤلفات لا حصر لها فظهرت مئات المقالات والكتب والقصائد بأقلام الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والمختصين فى اللاهوت والطب والأدب وكلها تعالج مشكلة الصراع بين الخير والشر وقدرة إبليس العجيبة فى التأثير على عقول ضحاياه.

وبالنسبة للمسيحيين فإن الشيطان لم يكن مجرد عقيدة دينية بل أنه مازال يمثل فى نظر عامتهم أهم حقيقة واقعة فى هذا الكون — هذا الاعتقاد الراسخ فى وجود الشر مجسما فيما يسمونه - The Evil One وهو اسم آخر من أسماء الشيطان، يشهد إلى الإيمان بوجود شخصية الشيطان، أى أن الشيطان شخص، وليس معنى مجرد فقط كما تدل على الاعتقاد الراسخ فيما للشيطان وأعوانه من العفاريت والأرواح الشريرة من سلطان على البشر. وقد تبلورت هذه العقائد فى القرن السادس الميلادى، وأخذت تنمو فى العصور الوسطى عصور السحر ومحاكم التفتيش حتى وصلت أوجها فى نهاية القرن السادس عشر، الذى يعتبر بحق العصر الذهبى لسيطرة الشيطان على عقول الناس وإراداتهم، ثم ظهرت حركة الإصلاح الدينى Reformation فى أوروبا ولم تغير كثيراً من الاعتقاد الأساسى فى قدرة

الشيطان، بل على العكس قد أضافت هذه الحركة شيئاً عندما أنكرت فكرة إمكان توسط العذراء والقديسين للحيلولة بين إبليس وضحاياه. بذلك انتشرت القصص عن تعاقد الخطئين مع الشيطان ليحقق لهم بعض الشهوات والمآرب المادية في هذه الحياة الدنيا.

وأشهر هذه القصص التي تعالج قدرة إبليس العجيبة في التأثير على العقول قصة الساحر المشهور الدكتور « فاوست » الذي باع نفسه للشيطان، وخلد شخصيته في الأدبين الإنجليزي والألماني الكاتب المسرحي الفذ « كرستوفر مارلو » والشاعر الألماني المعروف « جيته ». والغريب أن مثل هذه الأساطير عن قوى الشيطان الخارقة استمرت كمادة هامة للأدب الرفيع والأدب الشعبي حتى نهاية القرن الثامن عشر وفي أوائل القرن التاسع عشر - نتيجة لحركة التنوير التي شملت القرن السابق - أخذت هذه الأساطير والخرافات تتلاشى بالتدرج. ولكنها لم تختف إلا بعد أن تركت آثاراً واضحة في أعمال كثيرين من أهم الكتاب والشعراء الإنجليز كما سيتضح لنا بعد قليل.

ومن أطرف الأشياء التي لاحظناها عند دراسة موضوع الشيطان - أن كثيراً من الكتاب والمؤرخين الإنجليز أمثـــال: ادوارد لنجتون، دوروثي سكاربره، ديفيد كنوي، جيكوب جريم، موريس ردون Edward Langton, Dorothy Scarborough, David Conway, Jacob Grimm, Maurice Rudwin يؤيدون النظرية القائلة: بأن فكرة الشيطان كشخص يلعب دوراً هاماً في هذه الحياة، ويثبت وجوده دائماً كعدو لدود للخالق سبحانه وتعالى وللبشر أيضاً - قد عرفت زمناً طويلا قبل مولد السيد المسيح عليه السلام، لأن لها نظائر في جميع الديانات القديمة التي ظهرت قبل اليهودية والنصرانية بألوف السنين. وأهم هذه الأديان التي تثبت عداوة الشيطان للبشر هي الديانة الإيرانية، وإليها يرجع الفضل الأول في إدخال مثل تلك العقائد في الديانة المسيحية عن طريق سابقتها وهي الديانة الإسرائيلية، وفي هذا الصدد يقول مستر ردون Rudwin في كتابه:

The Devil in Legend and Literature

« لقد عرف اليهود الشيطان أول ما عرفوه خلال فترة السبي التي قضوها في بابل، رعايا الملوك زرادشتيين حيث ألفوا شيطاناً خاصاً، اختلط بشيطانهم، الذي لم تكن له أي من الخصائص. الشيطانية المألوفة في العصور الوسطى.

ونجد أن شيطان اليهود قبل تأثرهم بمعتقدات إيران - وأهمها التطاحن بين قوى الخير ممثلة في Armuzd وقوى الشر ممثلة في Ahriman لم يكن له أي شيء من خصائص وصفات الشيطان عند المسيحيين في القرون الوسطى وما بعدها إذ أن إله

اليهود يهوا كان مصدر كل من الخير والشر معا ودائماً وفي كل الأحوال - ولكن منذ عام ٦٠٠ قبل الميلاد أيام الأسر في بابل وتحت تأثير تعاليم زرواستر - اقتبس اليهود بعد العودة لبلاد إسرائيل كل الأفكار المتعلقة بالشيطان، وقصة الصراع بين قوى النور وقوى الظلام وعلى ذلك أعادوا النظر في مدلول كلمة الشيطان، وأضفوا على شخصيته جميع صفات أهرمان الإيراني فأصبح ذلك الشيطان الذي لم يكن يعني قديماً أكثر من مخاصم عادي Adversary يلعب دوراً خطيراً هو دور العدو القوي المناوئ لسلطان الله تعالى. وأكثر من ذلك ازدحم العالم الخفي بالملائكة الكرام أعوان الرحمن، وأخذوا يشنون حرباً شعواء على قوى الشر والظلام وهي قوى إبليس وأعوانه من الجن الأشرار الذين يعملون على غواية البشر وضلالته وهذا الصراع العنيف مستمر بين تلك المملكتين الروحانيتين سجالا ولكن في النهاية سوف تنتصر قوى الخير عندما ترسل العناية الإلهية منقذاً يهزم جيوش الشيطان ويحطم مملكة الشر - وفي يوم القيامة والحشر تجزى كل نفس ما قدمت ويلقى إبليس وأعوانه من الجن والبشر عذاباً أليما في نار جهنم وبئس القرار، ومن هنا نشأت عند اليهود ثم المسيحيين فكرة المسيح وحربه مع الشيطان وجيوش الظلام.

ولقد كان للدكتور لويس هيوز ميلز Dr. L. H. Mills فضل كبير في إماطة اللثام عما استمدته الديانة المسيحية فيما يختص بالأبلسة والصراع بين الخير والشر من الديانة الإيرانية القديمة - ففي كتابه (أصول) دياناتنا (المسيحية) في فارس القديمة Our Own Religion in Ancient Persia استطاع هذا الكاتب العظيم أن يبرهن بالدليل العلمي على الأثر الكبير الذي تركته تعاليم زرادشت في الإنجيل ففي الفصل الخامس تحت عنوان «زرواشت والكتاب المقدس» «Zarathustra and the Bible» لم ينجح في إثبات هذا التشابه فحسب بل أبرز الاتفاق التام في كثير من الأحيان بين النصوص التي جاءت في كتاب دانيال والكتابات الزرادشية فيما يختص بالدقة والعقائد الدينية الأساسية.

كل هذا يوضح لنا أثر التراث الشرقي منذ القدم في العقائد الدينية عند المسيحيين في أوروبا فقد لعبت هذه العقائد الدينية دوراً هاما في جميع مراحل الأدب الأوروبي إذ أنها كانت تنعكس دائما بدرجات مختلفة وبشكل مباشر أو غير مباشر على آثار الكتاب والشعراء في شتى العصور.

والآن فلنلق نظرة على مظاهر تأثير هذه العقائد بشكل غير مباشر على الحركة الرومانتيكية في انجلترا نتيجة للاستشراق

أو الاهتمام بالاتجاه نحو الشرق فى كتب الأدب الإنجليزى وسنبدأ بمحاولة إظهار العلاقة بين الاستشراق والرومانتيكية فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر — ويحسن أن نبدأ الكلام هنا عن العلاقة بين الثورة الرومانتيكية فى الأدب الإنجليزى وكتاب « ألف ليلة وليلة » .

١ — كتاب « ألف ليلة وليلة » وعلاقته بالحركة الرومانتيكية :

يكفى للاستدلال على أهمية مجموعة القصص الشرقية الخيالية التى يحويها هذا الكتاب بالنسبة لظهور الحركة الرومانتيكية فى انجلترا أن نستشهد برأى الأستاذ ادوارد بيرنباوم ، Professor Edward Bernbaum - الذى أورده فى كتابه « دليل المسترشد إلى مسالك الحركة الرومانتيكية » .

Guide Through The Romantic Movement

الذى طبع المرة الثانية فى ١٩٤٩ فقد قرر الأستاذ بيرنباوم أننا :

« ينبغى أن نعتبر كتاب « ألف ليلة وليلة » واحدا من المصادر الرئيسية التى قدر لها أن تؤثر على تيار الأدب الإنجليزى قبيل الحركة الرومانتيكية » .

وكان أول ظهور هذه المجموعة من القصص فى شكل مؤلف أدبى فى فرنسا سنة ١٧٠٤ وبعد أربع سنوات أى عام ١٧٠٨ ظهرت ترجمة إنجليزية عن النسخة الفرنسية ، وكانت ركيكة مشوهة ومختصرة إلى حد كبير ، الأمر الذى يأسف له الأستاذ بيرنباوم إذ يقول : إن ذلك ربما كان سبباً فى بطء تقدم الحركة الرومانتيكية فى انجلترا .

ويجدر بنا أن نقتبس عبارته بنصها :

If the English translation had been worthy of the Arabic original, the Pre-Romantic Movement might have been accelerated by contact with a world so different from the neo-classic, so unrationalistic, so colourful in its imaginative freedom, sensuousness and fatalism.

وأرجو هنا أن ألفت النظر إلى التعبيرات التى وصف بها الكاتب هذه المجموعة من القصص الشرقية وأهم خصائصها هى كما يقول :

Unrationalistic, colourful in its imaginative freedom, sensuousness, fatalism.

أو بالاختصار كانت السمات الغالبة على هذه المجموعة من القصص الشرقية هى ما نقول عنها : - strange, exotic and fantastic - هذه الخصائص بالضبط هى ما كانت الحركة الرومانتيكية تبحث عنه بعد التخلص من الصفات الثلاثة المضادة لها وهى :

Order, Reason, Good sense

تلك الصفات التى اعتبرت قيودا عقيمة للمدرسة الكلاسيكية وعلى ذلك نجد أن أول رواد الحركة الرومانتيكية فى أواخر القرن

الثامن عشر وأوائل التاسع عشر أمثال : وردزورث ، سكوت ، كولردج ، بايرون ، شيلى ، مور .

Wordsworth, Scott, Goleridge Byron, Shelley and Moore,

يعتبرونها الغذاء الروحى لعالم الخيال ، ومصدر الوحى والإلهام ، ومنفذ الفكر المتحرر الجرىء . ونتيجة الحركة الرومانتيكية هذه حدث تطور «جوهرى» فى نظرة الكتاب ، وعامة الناس إلى الحياة على الوجه الآتى :

The old narrow intellectual attitude gave place to a wider outlook which recognized the claims of passion and emotion and the sense of mystery in life, and in which the critical was replaced by the creative spirit, and wit by humour and pathos.

(Oxford Comp. to Eng. Lit. p. 677)

هذه العناصر الثلاثة passion, emotion, and the sense of mystery هى التى اجتذبت قلوب الشعراء والكتاب إلى الحكايات والقصص الشرقية أمثال: ألف ليلة وليلة ، لأنها تزخر بعناصر الحب والمغامرة الناتجة من الخيال الفياض الذى يبعد كثيراً عن مشاهد الحياة وحوادثها اليومية العادية.

وكما يقول قاموس اكسفورد - Oxford الشىء الذى نصفه بكلمة Romantic لابد أن يتميز بعنصر الـ Romance أو الـ imaginative appeal وهذا العنصر يعتمد على حب المغامرة ومظاهر البطولة Adventurous and chivalrous

ونعود فنقول : إنه على الرغم من ضعف تلك الترجمة ، فان النص الإنجليزى ما لبث أن استرعى انتباه جمهور القراء الذين استساغوا هذا النوع الجديد من الأدب الخيالى. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح كتاب ألف ليلة وليلة من أوسع الكتب انتشاراً فى النصف الأول من القرن الثامن عشر — ولا غرو فى ذلك فإن القصص ذاتها تعد أنموذجاً رائعاً من حيث الابتكار والإمتاع والتسلية وتحتل تلك القصص مكانة عالية بين القصص القصيرة فى العالم .

ولقد ظهرت فى انجلترا وحدها عشرات الطبعات ومعظمها كان يستند على النص الفرنسى الذى قام بعمله مسيو «جالاند» لأول مرة فى فرنسا عام ١٩٠٤ ، هذا بالإضافة إلى العدد الكبير من الكتب والمقالات والمختصرات ومجموعات القصص التى كانت تحوى الكثير من المقتطفات والمقتبسات من هذا الكنز الذى لا يفنى .

وثم دين غير مباشر تدين به الحركة الرومانتيكية فى مبدئها أى بين عام ١٧١٥ — ١٧٧٥ إلى الأدب الشرقى ويظهر بوضوح فى العدد الكبير من القصص الإنجليزية التى ترجمت عن الفرنسية أو التى كتبت تقليداً

لتلك القصص وكانت فى ذاتها متأثرة إلى حد كبير بخيال القصص الشرقية وروحها ويسودها جو من الغرابة والغموض والسحر.

ولما كان عنصر البعد من مجرى الحوادث اليومية العادية والمناظر المألوفة من أهم مقومات الحركة الرومانتيكية، وجد الرواد الأوائل لتلك الحركة ضالتهم فى كل ماله صلة بحياة الناس فى الشرق وبحياة الأوروبيين فى زمن العصور الوسطى، وكان هذا العنصر ـ عنصر البعد ـ ذا شقين ونعنى بهما ناحية البعد من حيث الزمن والبعد من حيث المكان؛ فالأول: مادته متوفرة فى خضم القرون الوسطى، والثانى: مادته متوفرة فى ربوع الشرق البعيد، ومن هنا نتبين أهمية الحكايات الآتية من هذا الشرق البعيد وكما تقول الدكتورة كونانت Dr. Conant فى كتابها القيم «القصة الشرقية فى انجلترا فى القرن الثامن عشر»:

The Oriental Tale in England in the Eighteenth Century "These fantastically 'wild' and 'marvellous' stories of love and adventure, restless in plot, brilliant in setting and of exuberant colours, afforded the reader a congenial way of escape from the strict artistic rules of 'reason', order, and 'good sense'."

وليس أدل على عمق الأثر الذى تركته حكايات «ألف ليلة وليلة» فى عقول قارئيها من أن بعضا من أشد المتمسكين بالتقاليد الكلاسيكية فى الأدب أمثال: أديسون ودكتور جونسون Addison, and Dr. Johnson قد أباحوا لأنفسهم النسج على منوال تلك القصص بعد تنقيتها كما يزعمون مما يخالف الذوق الكلاسيكى السليم واستعملوا مادة الكثير منها لأغراض تهذيبية فنشأ ما يعرف بالأدب التهذيبى أو التعليمى Didactic Literature ومعروف فى كتب تاريخ الأدب الإنجليزى Pseudo-Oriental Fiction وهذا الأدب على أنواع منه: الخيالى والفلسفى والتهذيبى والخرافى وأدب السخرية اللاذع.

وبهـذه الطريقة استفادت المدرسة الكلاسيكية من هذا النوع الجديد من الأدب ولكن أصحاب المدرسة الرومانتيكية لم يأبهوا طبعا لعناصر الفلسفة أو الحكمة التى تحويها القصص الشرقية وعلى النقيض من ذلك وجهوا كل اهتمامهم لا للواقع وعالم البشر بل إلى عالم الخيال والأرواح لأنه غريب وغامض وفيه سحر عجيب لمشاعر أصحاب المزاج الرومانتيكى. وقصص «ألف ليلة» ومثيلاتها مليئة بكل مايعرفه الناس عن الجن والشياطين والسحر والسحرة والغيلان والمردة ومصاصى الدماء، وغير ذلك من الأرواح الشريرة التى تعمل تحت إمرة ابليس وكل هذه الشخصيات تكثر فى عدة قصص ترجمت أو استغلت أجزاؤها أو اقتبس منها

أو قلدت فى الأدب الإنجليزى فى الفترة المذكورة فى عنوان هذا البحث أى بين عام ١٧٧٥ — ١٨٢٥ وهذه هى الفترة التى تمت فيها الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى الحديث .

وها هى أسماء بعض تلك القصص التى استغلها الكتاب الإنجليز بطرق شتى :

قصة قمر الزمان وبدور
قصة الحصان المسحور
قصة عزيز وعزيزة
قصة ملكة الحيات (الثعابين)
قصة أنس الوجود وبنت الوزير
قصة حسن البصرى وبنت ملك الجان
قصة سيف الملك وبديع الجمال
قصة معروف الإسكافى
قصة حاتم طىء
قصة إبراهيم الموصلى والشيطان
قصة العفريت وبنت الملك ، وهى جزء من قصة الجمال وسيدات بغداد الثلاث .

وأخيراً قصة إسحق الموصلى وخليلته والشيطان .

أما بخصوص أثر سحر الشرق كما تصوره قصص ألف ليلة وغيرها على ما كتبه الكتاب الإنجليز فيتبين لنا بوضوح إذا ما أشرنا إلى شهادة المؤرخ الانجليزى المعروف Gibbon إذ يقول أثناء حديثه عن أسطورة الملك «آرثر ورد» فى كتاب :

Cambridge History of English Literature.

المجلد الأول ص : ٢١٤ .

"Pilgrimage and the Holy Wars (Crusades) introduced into Europe the specious miracles of Arabian magic. Fairies and giants, flying dragons and enchanted palaces, were blended with the more simple fictions of the west."

والشهـــادة الأخرى ذكرتها الأستاذة E. M. Butler فى كتابها : The Myth of the Magus فى ص : ٢٨١ توضح أثر كتاب ألف ليلة وليلة على من كانوا يكتبون عن السحر في انجلترا خلال القرن الثامن عشر ، فهى تقول : "Indeed some of the description are clearly influenced by the Arabian Nights."

ولو تصفحنا العدد الكبير من مجموعة هذه القصص - ويبلغ الستمائة تقريباً - لوجدنا جميع السمات الأدبية Literary motifs المتصلة بموضوعات عالم الأرواح متوفرة وأهم هذه السمات التى استعارها واستغلها الكتاب الأوروبيون هى الشيطان ، وتحويل الأحيـــاء إلى كائنات أخرى والرحلات الليلية والغول ومصاص الدماء Vampire والسحر بجميع أنواعه magic, sorcery and witchcraft.

دكتور محمد سمير عبد الحميد

بحث نقدى :
إن و إذا ...

للأستاذ كامل السيد شاهين

٣ — رأينا فى استعمالهما

يقوم هذا الرأى على ملاحظة أن (إن وإذا) تستعملان على ضربين :

فهما تارة يراد بهما التقرير من غير قصد إلى مقابلة أو إرادة تفصيل ؛ كقول محمد بن بشير يهجو بخيلا :

إذا جئته فى حاجة سد بابه
فلم تلقه إلا وأنت كمين

لا يريد الشاعر الترديد بين مجيئك لهذا البخيل وعدم مجيئك . . وإنما يريد أن يقرر حكما يترتب على مجيئك إياه وكذلك قوله سبحانه :

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . . لا يراد به سوى تعليق حكم هو الأمر بالميل إلى السلم على شرط هو جنوحهم إليها .

وهما تارة يجيئان فى موطن التفصيل والمقابلة ، كما نرى فى قول الشاعر :

فإذا حاربوا أذلوا عزيزا
وإذا سالموا أعزوا ذليلا

فهو يفصل فيسوق حكمين يترتبان على أمرين متقابلين هما الحرب والسلم ، وكما نرى فى قول الآخر يصف قوما بالذعر :

فإن حـلوا فليس لهم مقر
وإن رحلوا فليس لهم مفر

فهو يفصل أمرهم فى حلولهم ، وفى ارتحالهم .

ومثلهما قول العباس بن الأحنف :

إذا ما عصرنا الماء فى فيه مجه
وإن نحن ناديناه فغير مجيب

وإن كان فى التقابل ههنا نوع خفاء ، فهو فى حال لا تسمح بتقبل الماء ، ولا تسمح بإجابة النداء .

وأوضح منه قول البارودى :

إذا اشتد أورى زندة الحرب لفظه
وإن رق أزرى بالعقود فريده

ولكل من الحالين ، حال القصد إلى التقرير ، وحال القصد إلى التفصيل والمقابلة حكم يخصه .

حكمهما فى التقرير :

فإذا أريد بهما التقرير من غير تفصيل ، فإن إذا تستعمل فى الأمر المحقق ، كقوله سبحانه : إذا جاء نصر الله والفتح . . . فسبح بحمد ربك . . « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » « إذا السماء انشقت » « إذا زلزلت الأرض زلزالها » .

وكقول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبى
تخر له الجبابر ساجدينا

فمجىء نصر الله أمر محقق موعود به ونهى اليهود عن الفساد أمر قد وقع ، وإعراض المؤمنين عن لغو اللاغين من المشركين ، وانشقاق السماء ، وزلزال الأرض ، أمر لا ريبة فيه .

فأما قول عمرو بن كلثوم ، فنرى فيه بلوغ الفطام واقعا بعد إذا ، وهو كذلك أمر محقق فإن الصبية لا يستديمون على حال الرضاع .

وهذا النوع هو المقصود بما قرره سيبويه فى الكتاب ، وما قرره المبرد فى المقتضب ، وقد نقلنا قوليهما فى مقالنا الأول .

وفى أمالى ابن الشجرى :

وإنما لم يجزموا بإذا فى حالة السعة كما جزموا بمتى ، لأنه خالف إن ، من حيث شرطوا أنه فيما لا بد من كونه ؛ كقولك : إذا جاء الصيف سافرت ، وإذا انصرم الشتاء قفلت . ولا تقول : إن جاء الصيف ، ولا إن انصرم الشتاء ... لأن الصيف لا بد من مجيئه والشتاء لا بد من انصرامه .

وكذا لا تقول : إن جاء شعبان ، كما تقول إذا جاء شعبان .

وتقول : إن جاء زيد لقيته ، فلا تقطع بمجيئه .

فإن قلت : إذا جاء ، قطعت بمجيئه .

فلما خالفت (إذا) إن فيما تقتضيه من الإبهام ، لم يجزموا بها فى السعة . انتهى .

ومن هذا ترى أن سيبويه ومن تبعه وقفوا عند التزام إذا فى الأمر المحقق ، ولم يزيدوا ، فالقضية عندهم أنه إذا كان الشرط أمراً محققا فالموقع لإذا ولا سبيل إلى استعمال إن .

وسيبويه ومن تبعه لم يمنعوا استعمال إذا فى الأمر الذى لا يقصد به تحقق ولا شك ، ولم يمنعوا استعمالها فى الحالات .

ولذلك لم يتحرج الشعراء من استعمالها حيث يراد مطلق التعليق بلا قصد إلى تحقيق كما فى قول بشار :

إذا الملك الجبار صعر خده
مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فكل بصير يستبين له أن بشاراً إنما قصد إلى مجرد التعليق ، ولم يخطر بباله تحقق ما بعد إذا من الشروط ، وإنما همه إلى مجرد تعليق الجواب بالشرط .

ولم يتحرجوا من استعمال إن حيث يراد مطلق التعليق من غير قصد إلى تحقيق ، كما في قول أبي الطيب :

فإن تك في قبر فإنك في الحشى
وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل

شرط (إن) أمر لا شك فيه ، ولكن الشاعر لا تعنيه هنا قضية الشك والتحقيق ، وإنما همه مطلق الربط بين جواب وشرط .

وجملة الأمر :

أن الأمر المحقق الواقع لا محالة تلتزم معه إذا .

وأن الأمر الذي لا يقصد معه إلى تحقيق أوشك تستعمل معه إذا . وقد تستعمل معه إن .

حكمها في التفصيل :

وإذا قد عرفت حكم إن وإذا مع الأمر الذي لا يراد به تفصيل ومقابلة ، فإننا ندلك على حكمهما مع الأمر الذي يراد تفصيله ، ومقابلة حال منه بحال أخرى . لقد جرى استعمال العرب لهاتين الأداتين على أوجه ثلاثة :

الوجه الأول ، وهو أشيعها وأفشاها أن تبدأ بإذا ، وتقابل بإن ، كقوله تعالى : (إذا جاءتهم الحسنة . . . وإن تصبهم سيئة) .

(إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . . . وإن يقولوا تسمع لقولهم) .

وقول جميل :

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب ، قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردى بعض عقلي أعش به
مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد

على أن المقابلة في هذا خفية ، وهي على الجملة محاولة للاسترضاء والتعطف ، تقابل محاولة أخرى للإسترضاء والتعطف .

ومثله قول العباس السابق :

إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه
وإن نحن نادينا فغير مجيب

فقد قابل بين محاولة الإسماع ، ومحاولة الإطعام .

وأظهر منه في المقابلة قول الجارم :

إذا صال فالدنيا بجر رماحه
وإن قال فالأيام عين ومسمع

لا معنى لكلمة (عين) هنا . وقد قابل بين الصيال الذي يكون في الحرب ، والقول الذي يكون في الأندية والمجالس العامة ، فهو امتداح بالشجاعة والفصاحة ونفاذ الكلمة وعلى معناه :

إذا ركبوا زينة الموكبين
وإن جلسوا زينة المجلس

إذا تقرر هذا .. وهو أن العرب جرت ، فى أكثر مقالها ، على أنها تبدأ بإذا ، وتقابل بإن ، وأن ليس الأمر أمر شك ولا تحقيق ، ولا تنزيل لواحد منهما منزلة الآخر ، فإن قوله سبحانه (وإذا جاءتهم الحسنة . . . وإن تصبهم سيئة) من هـذا الوادى ، ولا حاجة للجهد المرهق الذى ركبه العلامة الزمخشرى ثم لم يصل بعده إلى غاية . ولا حاجة بنا إلى زعم الخطأ فى قول عبد الرحمن ابن حسان :

إذا هى حثته على الخير مرة
عصاها ، وإن همت بشر أطاعها

فهو ليس فى شىء من أمر الشك والتحقيق ، وإنما يريد مجرد التعليق هنا وهنا ، فلما بدأ بإذا ، قابل بإن ، على الطريقة الفاشية عند العرب .

على أنه ليس من المقبول أن نحكم قاعدة يصطنعها العلماء فى آثار الأدباء ، فإن أذواق الأدباء هى الحكمة فى القبول والرفض ، وفى الصحة والصواب ، وليست قواعد العلماء . والزمخشرى عالم جرىء ، وتلك من عجائب جراءته .

الوجه الثانى : أن تبدأ بإذا ، وتقابل بإذا كذلك ، وهـذه الطريقة دون السابقة فشوا ، وعليها جاء قوله سبحانه : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض)

فلم يقصد إلى تحقق أو شك بل الفرض وقوع الجواب عند وقوع الشرط ، ودليلنا على ذلك أنه استعمل إن مع الشر فى الآية الأخرى (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإن مسه الشر فيئوس قنوط) فلو كان القصد إلى الشك والتحقق ما جازت المبادلة بين إن وإذا فى الآيتين .

ومن المقابلة بإذا قول عنترة :

وإذا شربت فإننى مستهلك
مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى
وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقول النابغة فى المتجردة :

وإذا طعنت طعنت فى مستهدف
رابى المجسة بالعبير مقرمد
وإذا نزعت نزعت عن مستحصف
نزع الحزور بالرشاء المحصد

وقول المرقش :

فإذا شربت فإننى
رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإننى
رب الشويهة والبعير

وقول الآخر :

وإذا تكون كريهة أدعى لها
وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

ومن الشعر الحديث قول شوقى :

فإذا تنكر فالفناء سبيله
وإذا عفا فعطاؤه الأعمار

وقول أبي الفضل الوليد من شعراء المهجر:

أهوى الحديث عن الحرائر مثلما
أهوى عبير الزهر من وادينا
فإذا تلاقينا أذوب تعففا
وإذا تناءينا أذوب حنينا

وظاهر أن الشاهد فى البيت الثانى.

الوجه الثالث: أن تبدأ بإن وتقابل بإن، وهذا قليل. وعليه قول الحماسى:

فلئن عفوت لأعفون جللا
ولئن سطوت لأوهنن عظمى

وقول كثير بن عبد الرحمن:

وددت، وما تغنى الودادة، أننى
بما فى ضمير الحاجبية عالم
فإن كان خيرا سرنى ما علمته
وإن كان شرا لم تلمنى اللوائم

وقول خليد مولى العباس بن محمد:

أطعت الآمريك بصرم حبلى
مريهم فى أحبتهم بذاك
فإن هم طاوعوك فطاوعيهم
وإن عاصوك فاعصى من عصاك

وما ينسب لخالد بن يزيد وهو يذكر حبه لزوجه رملة بنت الزبير:

فإن تسلمى أسلم، وإن تتنصرى
يعلق رجال بين أعينهم صلبا

وإنما أراد نفسه، كأنه قال: أعلق صليبا فى أبرز مكان (بين العينين) ولا أبالى أحدا، ولا استتر بتنصرى.

* * *

فأما أن تبدأ بإن وتقابل بإذا فهذا ما لم أعثر عليه فيما قرأت من الشعر القديم، وإن كنت قد رأيت هذه المقابلة لشاعرين محدثين مهجريين، فأبو ماضى يقول:

إن ناح فالأرواح فى عبراته
وإذا شدا فالحب فى نغماته

وصيدح يقول:

هو إن ذكرت الشعر من أمرائه
وإذا ذكرت المجد فهو عصامى

والمهجريون لا يستنكفون من الانحراف عن النهج اللغوى، وربما اتخذوا الخطأ قاعدة، ومذهبهم هو الإبانة عن الشعور ليس غير، ثم يرمون بالكلام لا يبالون كيف وقع.

على أن هذا الوجه من ناحية القياس مشروع، فهو تعليق يقابل تعليقا ولا فرق فى العقل بين أن نبدأ بإذا ونقابل بإن، وبين أن نبدأ بإن ونقابل بإذا.

أما من ناحية الرواية فلا، حتى يأتى من يرشدنا إلى شىء جاء عن العرب على هذا النهج.

والله ولى التوفيق؟

كامل السيد شاهين

الحرية الفردية في الإسلام

للأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم مهنا

— ٣ —

حرية الرأى

أما حرية الفرد فى إبداء رأيه والاعتراض على مالا تستريح إليه نفسه ، فإن مكانتها فى الإسلام لا تقل عن مكانة الحرية فى العقيدة ولا الحرية فى التصرف والعمل ، ويكفى الإسلام فخراً أن جعل من أظهر صفات المؤمن أن يجهر برأيه ولا تأخذه فى الحق لومة لائم ، وتاريخ الإسلام فى هذا الباب ملىء بالأحداث التى ستظل حية خالدة تنادى بتقديسه لحرية الرأى فى مداها .

ففى القرآن الكريم نقرأ قول الله تبارك وتعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » (١) وهو تسجيل لأروع ما عرف فى تثبيت حرية الرأى وتقديسها ؛ إنها امرأة وجدت نفسها فى حيرة مظلمة ، واضطراب شامل ، بسبب كلمة قالها زوجها وتعارف العرب قبل الإسلام على أنها تحرم المرأة على زوجها إلى الأبد ، فذهبت إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تلتمس عنده حلا لمعضلتها ، ولكن الرسول — وهو الأمين على وحى ربه — رد عليها بما لم يشف غلتها ، وبالرغم من منزلته عليه الصلاة والسلام فإنها لم تستسلم ، وإنما أخذت تجادله وتحاوره ، وتحاول أن تبرهن على صحة رأيها ، وتضرع إلى الله عله يرحمها ويوجد لها مخرجاً من ضيقها ، فيسمع الله لها ، ويقبل منها شكاتها ، وينزل فى قرآنه ما يحل مشكلتها ويفرج كربتها ، ويسجل قصتها فى كتابه الخالد لتظل دليلا حياً على احترام دينه الحنيف لحرية الرأى .

ونقرأ فى أسباب نزول القرآن أن آيات اللعان كانت ثمرة أخرى من ثمرات الحرية الشاملة فى إبداء الرأى ؛ فقد رمى بعض المسلمين زوجته بالزنا ، ولم يكن له شاهد إلا نفسه ، فطالبه رسول الله بإقامة البينة أو يقيم عليه حد القذف تنفيذاً لقول الله تبارك وتعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون » (٢) فراجع الرجل رسول الله وقال : أيرى الواحد منا زوجته تزنى ثم يتركها وينطلق يلتمس البينة ؟

وما زال الجدل بينه وبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه حتى نزل قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم

(١) المجادلة ١

(٢) النور ٤

شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين » . (١)

ويخطب أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول مرة بعد أن بايعه المسلمون خليفة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيطالب مستمعيه بأن يكونوا أحرارا فى إبداء آرائهم فيه ويقول : « أيها الناس قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة » .

ويحذو عمر بن الخطاب حذو سلفه رضوان الله عليهما فيخطب الناس ويقول : « ألا إن رأيتم فى اعوجاجا فقوموه » .

وتحدثنا كتب التاريخ الإسلامى أن عمر ابن الخطاب رأى تغالى الناس فى مهور النساء فخطب فيهم وأراد أن يضع حدا لها لا يباح تجاوزه ، ولكن امرأة ردت على أمير المؤمنين ، وهو لا يزال فى موقفه ، وقالت : كيف تحدد المهور والله سبحانه يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » (٢) فيرجع عمر عن رأيه ويقول فى اطمئنان وفخر : « أصابت امرأة ، وأخطأ عمر » ، ويقف التاريخ حينئذ ليسجل عظمة الحاكم المسلم وشجاعة المرأة صاحبة الرأى الحر .

ومما يذكر للإسلام بالفخر أنه لم يكفل حرية الرأى فى الشئون المدنية فقط ، وإنما كفلها كذلك وطالب بها فى الأمور الدينية ، وكلنا نعرف إباحة الاجتهاد لكل من تكاملت عنده شروطه . وليس هناك أبلغ فى تقديس حرية الرأى من أن يؤجر المجتهد حتى ولو أخطأ ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : للمجتهد أجر إن أخطأ ، فان أصاب فله أجران » .

حدود الحرية الشخصية فى الإسلام :

بقى أن نقول : إن الحرية الشخصية التى يقدسها الإسلام ويدعو اليها فى العقيدة والفكر والتصرف ليست الحرية المطلقة المحطمة التى لاحدود لها ولا ضابط ، وإنما هى الحرية المقيدة المنظمة التى يمكن لكل فرد أن يستمتع بها دون انتقاص من حقوق الآخرين ، إذ الإسلام ، وإن قيم الفرد على أنه حقيقة مستقلة ، الا أنه لم يغفل وجود حقائق أخرى تتصل به وتتمثل فى أفراد الجماعة الذين يشاركونه فى مجال الحياة المشترك .

فإذا كان الإسلام قد أقر الحرية فى العقيدة ، ومنح كل فرد حق اختيار دينه وحق الدعوة إليه ، فإنه فى الوقت نفسه حرم استعمال القوة لإكراه الغير على اعتناق الدين بل أوجب قتال من يريد أن يفتن الناس عن دينهم بهذه الوسيلة ، يقول الله تبارك وتعالى :

(١) النور ٦ — ٩
(٢) النساء ٢

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله»[١] وكذلك حرم الإسلام التطاول على آلهة الغير وإن كانت كاذبة لأنه سيؤدى إلى التطاول على الله سبحانه، والشر بالشر، والبادى أظلم؛ يقول الله سبحانه: «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم»[٢].

ونجد فى تشريعات الإسلام كلها تحديدا لحرية الفرد فى تصرفاته بحيث لا يكون أداة للأضرار بنفسه أو بغيره؛ فللإنسان أن يسعى فى أرض الله ويبتغى الربح، ولكن بالوسائل المشروعة التى لا تؤذى المجتمع، ومن هنا كان تحريم الربا والقمار واحتكار أقوات الناس، بل ذهب الإسلام أبعد من هذا فى محاولة منع الضرر؛ فإن البيع الذى أحله الله وقال فيه: «وأحل الله البيع»[٣] أوجب معه فى الوقت نفسه ألا يستخدم فى الإضرار بالغير وإلا كان باطلا ووجب فسخه كما فى حال الشفعة أو حال الغرر.

وأعطى الإسلام للفرد حرية التصرف فيما رزقه الله من مال وثروة، ولكن بشرط ألا يتعدى الحدود الفاصلة بين الإنسان العاقل والإنسان السفيه، فإن فعل وجب تعطيل نعمة الله عليه وسحب الحرية التى منحها فلم يحسن استخدامها، يقول الله تعالى: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما . .»[١]

وبالرغم من أن الإسلام قد دعا إلى البر، وأثاب على الصدقة، فقد حدد حرية المتصدق فحرمها فيما يزيد على ثلث ماله لما فى ذلك من إضرار بالوارث.

وإذا كان الطلاق قد أبيح للرجل عندما يستعصى العلاج ويصير الجمع بين الزوجين مصدر قلق واضطراب، فقد أوجب الإسلام على الزوج أن يوقت الطلاق بحيث لا يصيب الزوجة منه ضرر بطول عدتها، وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى: «يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم . .»[٢]. فإذا وقع الطلاق وكان رجعيا، فليس للزوج أن يستخدم حقه فى إرجاع زوجته للإضرار بها، فإن فعل فهو ظالم لنفسه، وذلك مصداق قوله عز وجل «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف، أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه»[٣].

وهكذا نجد الإسلام يبيح للفرد أن يتصرف فى دائرة ملكه بشرط أن يحقق قول رسول الله الجامع «لا ضرر ولا ضرار»؟

أحمد إبراهيم مهنا

(١) البقرة ١٩٣.
(٢) الأنعام ١٠٨. (٣) البقرة ٢٧٥.

(١) النساء ٥. (٢) الطلاق ١.
(٣) البقرة ٢٣١.

البطل المسلم

للأستاذ حسن جاد

« أقامت جامعة الأزهر يوم الثلاثاء ٣١ مايو ١٩٦٦ حفلا كبيرا لتكريم البطل العالمي المسلم (محمد على كلاى) ، ألقيت فيه هذه القصيدة التي كان يهتز لموسيقاها الشعرية ، حتى طلب أن تترجم له معانيها ؛ وقال في خطبته : لقد تأثرت بهذه القصيدة تأثرا بالغا ، وشعرت بأنني مسئول عن البطولة التي أشرف بحملها أمام هذه العواطف » .

بنت الكبناني العتيق توسمي ... وتفرسي وجه الكمي المعلم

يا كعبة الإسلام شاقك مسلم ... بطل على طول المدى لم يهزم

أعرفته ؟ هذا (كلاى) فعانقي ... فيه اعتزاز المسلمين ، وسلمي

أهلا (محمد) بين شعب هاتف ... لك بالقلوب محبة قبل الفم

قدر البطولة في الرياضة بعدما ... عرف البطولة في الرئيس الملهم

يلتف حولك في النزال مغامراً ... تطوى الأثير على القلوب الحوم

راعت بطولتك الشعوب وتوجت ... بالفخر هامة كل شعب مسلم

في الشرق والغرب استطار دويها ... وطوى الجوزاء فهز سمع الأنجم

قل لي بربك : أي بأس تحتوى ؟ ... ولأي جنس في الضراغم تنتمي ؟

وبأي ظفر في الفريسة ناشب ... تصمى فلا يرتد إلا بالدم ؟

ماسر قوتك التي تعيي القوى ... في الساعد المفتول أم في المعصم ؟

قدت من الفولاذ قبضتك التي ... ترى بها الخصم العنيد فيرتمي

تنقض صاعقة ، وآنا عاصفا ... يلوى ، وتلبد تارة كالضيغم .

• ° •

خيبت آمال الملوك وظنهم — فيمن يلوذ بعرشهم أو يحتمى
وصرعت أبطال الصدام فغودروا — بين الحقود عليك والمستسلم
لاذوا بمخلوق ، ولذت بخالق — شتان بين محقق ومرجم
من غره جاه الملوك وزيفه — فالله جاه المسلم المستعصم (١)
يا قاهر الأبطال حسبك عصمة — ثقة بربك والنبي الأكرم
من كان يجمع بين قوة روحه — والجسم أقدم واثقا لم يحجم
أطلقت بالإسلام صيحة مؤمن — فى معشر صم المسامع نوم
وحملت مشعله فشع ضياؤه — فى عالم خرب العقائد مظلم
دين المساواة الذى لم يعترف — بالعنصرية فى لظاها المضرم
السود مثل البيض : كل إخوة — فى الحق ، والعربى مثل الأعجمى
متكافئون فلا تباين بينهم — باللون فيه ، ولا تفاضل بالدم
دين السلام الحق غير ملثم — كم من سلام يدعون ملثم
قتلوه أطماعا وأجسر قاتل — باك على مقتوله فى المأتم
أصدع بدينك يا محمد بينهم — وأبن حقيقته لمن لم يفهم
أقنع بمنطقه القويم ، فمن أبى — صلفا فاقنعه بكفك (والمكم)
من ليس تقنعه الحقيقة منطقا — فالبأس أفصح فى المقال من الفم

• • •

مرحى فتى الإسلام حقق باسمه — نصرا حليفك دائما ، وتقدم
حيتك جامعة نماها منجب — هرم الزمان وعزمه لم يهرم
دم ظافر السكمات جبار الخطا — واسحق بها شوك المكايد ، واسلم

حسن جاد
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

---

(١) هذه الأبيات إشارة إلى تشجيع ملوك الغرب لخصوم كلاى الذين صرعهم معتزا بالله وحده

عائد من الفلبين

للأستاذ محمد زيتون

الاحتفالات الدينية عند المسلمين

— ٢ —

رغم أن المسلمين أقلية فى الفلبين ، وأنهم فى المحيط الهادى بعيدون عن موطن الإسلام الأصل فى الجزيرة العربية إلا أنهم يعتزون بدينهم الإسلامى ويفخرون به ويحاولون المحافظة على مظاهره بقدر استطاعتهم وفهمهم ويظهر ذلك جليا فى مظاهر احتفالاتهم الدينية وتتبعهم للتاريخ الهجرى والتقويم العربى الذى تتبعه هذه الاحتفالات ، وإن كان فى احتفالاتهم بعض المظاهر الخارجة عن الإسلام أو الفهم الخاطىء لبعض تعاليمه السمحة وقد بذلنا جهدا لإزالتها ، من ذلك :

١ — مولد النبى صلى الله عليه وسلم :

إن المدارس العربية الأهلية بين المسلمين فى الفلبين تتبع التقويم العربى فتبتدىء الدراسة فيها بعد عيد الأضحى ولذلك تكون إجازة نصف السنة عندهم بعد الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون يبذلون أقصى جهدهم فى الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ويكون الاحتفال على مستوى المحافظة ، ويشترك فى الاحتفال جميع المدارس العربية حتى من القرى والجبال وكل الجمعيات الإسلامية والهيئات والمدارس الحكومية فإذا حل يوم المولد زينت المدينة بالأعلام والثريات الكهربائية واجتمع الناس من كل الهيئات وحضر التلاميذ ومدرسوهم حتى من القرى فى ثيابهم البيضاء ومعهم لافتات تحمل أسماء مدارسهم ونماذج وزخاوف ترمز إلى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويكون هناك لجنة تحكيم لكى تبين أى النماذج أحسن فى هذا المهرجان كما يرتدى الناس ملابسهم الوطنية البراقة ، ويقوم الجميع باستعراض كبير حول المدينة ومعهم الموسيقى ليظهروا فرحهم وسرورهم بمولد النبى صلى الله عليه وسلم فإذا ما انتهوا من السير فى الشوارع الرئيسية فى المدينة اجتمع المحتفلون فى الميدان الكبير الذى يتصدره مسرح كبير ووقفوا فى الميدان حيث تلقى بعد ذلك الخطب والمواعظ الدينية التى تكون عادة مذاعة على الهواء من الإذاعات المحلية المنتشرة فى محافظات الفلبين . كما يتحدث الحكام المسلمون والعلماء إلى الناس ذاكرين مآثر النبى صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة والغرض من الاحتفال به ، ويبينون ما قام به فى سبيل

الإسلام والمسلمين كما أنهم ينشدون الأناشيد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ويقرءون القرآن في هذه الاحتفالات . وفي بعض المدن شاهدت استعراضا ليليا بالشمل المضيئة تطوف كل المدينة قام بهذا الاستعراض تلاميذ المدارس ابتهاجا بهذه الليلة المباركة التي ولد فيهـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يستمر الاحتفال أحيانا ثلاث ليال وغالبا ما يكون هناك مسابقة في قراءة القرآن وترتيله لمعرفة أحسن القارئين للقرآن الكريم وهم يهتمون بهذه المسابقة ويمتلىء الميدان الفسيح بالقادمين لأجل مشاهدة المسابقة وسماع المتسابقين ويظهر مدى اهتمامهم بتسجيلهم لأصوات القارئين على أجهزة التسجيل كما أنهم يقدمون الطعام والشراب الذي يصنعونه خاصة في أيام المولد النبوي لإظهار البهجة والسرور كما يكثرون من الصدقة ، ويشارك أهل القرى أهل المدينة في الاحتفال . وبعد احتفال أهل المدينة يبدأ أهل القرى في الاحتفال بالمولد في قراهم وهم بدورهم يدعون أهل المدن والقرى الأخرى لمشاركتهم في الاحتفال بالمولد النبوي ويتكرر الاحتفال في قرية بعد أخرى وهكذا حتى إنه قد يستمر الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم طوال شهر ربيع الأول في أماكن مختلفة من بلاد المسلمين وقراهم وهم فرحون بذلك لأنهم بهذه الاحتفالات يظهرون حبهم للرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ – ذكرى الإسراء والمعراج :

إن من الأشياء العجيبة التي تبهر الإنسان وتستولي على لبه من بين الاحتفالات الدينية في الفلبين الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج حيث يبدأ الاستعداد لهذه الذكرى العطرة قبل ميعادها بحوالي شهرين فيختار ما يقرب من ثمانين تلميذا وتلميذة ثم تقسم قصة الإسراء والمعراج في كتابها البالغ أربعين صفحة من الحجم المتوسط على نصف العدد المختار حيث يحفظ كل تلميذ ، عن ظهر قلب ، الجزء الخاص به ، باللغة العربية ، وعلى النصف الآخر من التلاميذ أن يحفظ الترجمة باللغة المحلية ويتمرن التلاميذ على ذلك حتى يستطيع كل تلميذ أن يلقي الجزء الخاص به بدون خطأ فإذا حل ميعاد الإسراء والمعراج زينت المدينة بالأعلام والورود وأغصان الشجر وبخاصة في الميدان الكبير حيث يقام الاحتفال كما يتدفق الناس من القرى والجبال والغابات ويحضر تلاميذ المدارس من شتى القرى لكي يشتركوا جميعا في الاستعراض الذي يقام في المدينة لإحياء ذكرى الإسراء والمعراج وكثيرا ما تقدم كل مدرسة نموذجا رمزيا عن ذكرى الإسراء والمعراج ثم يمر الاستعراض حول المدينة وفيه علية الناس من الرجال والنساء ورجال الدين وتلاميذ وتلميذات المدارس ، وهم في زيهم الرسمي وأمامهم وخلفهم الموسيقى تصدح ابتهاجا بهذه الذكرى

الكريمة ، وبعد الاستعراض يجتمع المحتفلون في الميدان الكبير حيث تلقى النصائح الدينية والخطب الحماسية وبعد صلاة العشاء يبدأ التلاميذ في إلقاء قصة الاسراء والمعراج يلقى تلميذ جزءا باللغة العربية ثم يأتى بعده آخر ويلقى المعنى باللغة المحلية والناس في غاية الفرح والسرور وهم دائما يذيعون هذا الاحتفال الذى يستمر إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل والتلاميذ وذووهم وحتى الناس في بيوتهم ينصتون إلى المذياع مشاركة في الاحتفال بهذه الذكرى الدينية الكريمة ، ويتكرر الاحتفال ليالى عدة في أماكن مختلفة من الجزيرة الواحدة

٣ — رمضان وليلة القدر :

مما يهتم به الناس كثيرا في الفلبين شهر رمضان المبارك ففى آخر يوم من شهر شعبان يذهب الرجال والنساء والصغار والكبار إلى البحيرة أو البحر أو النهر لكى يغتسلوا فيه استعدادا لاستقبال هذا الشهر الكريم ، كما أنهم يحافظون على الصلاة في شهر رمضان وتغص المساجد بالمصلين رجالا ونساء من علية الشعب وعامتهم فيكون بينهم أعضاء مجلس النواب والمحافظ والعمدة وبخاصة في صلاة العشاء والتراويح حيث تزدان المساجد بالثريات الكهربائية كما تقام صلاة الجماعة للسيدات في كثير من البيوت ، وغالبا ما يحضر هذه الجماعات تلميذات المدارس اللاتى لا يذهبن إلى المساجد ويفضلن الصلاة في البيوت ، وبعد صلاة التراويح تقدم في البيوت القهوة والشاى والكعك ، وفى بعض المساجد يقدم الناس الطعام عند غروب الشمس للصائمين كما تلقى النصائح الدينية في المساجد بين المغرب والعشاء أو يقرأ القرآن ، وهم يهتمون كثيرا بليلة السابع والعشرين من شهر رمضان لأنهم يرجحون أنها ليلة القدر ولذلك يكثرون فيها من الصدقة وإطعام الطعام وتقديمه للجيران .

٤ — عيد الفطر وعيد الأضحى :

وفى أيام العيدين يتفنن الناس في التمتع بهما وفى إظهار السرور والابتهاج بهما ، ولذلك يزين كثير من الناس بيوتهم بالثريات الكهربائية وبالأعلام كما يقدم الناس من أماكن بعيدة لكى يشاركوا أهل المدينة في صلاة العيد حتى إن الشوارع تمتلىء بالمصلين خارج المسجد وبعد الصلاة يقبل الناس لكى يهنئوا الإمام بالعيد ، ومن العادات القديمة في احتفالهم بالعيد انتشار القمار بشكل واسع في أيام الأعياد بين الكبار والصغار حتى تكاد لاترى مكانا خاليا من شبان يلعبون القمار ، فإذا جن الليل انتقلت الإذاعة إلى الميدان الكبير حيث يجتمع الناس لسماع النصائح الدينية من العلماء والرؤساء ، وحيث يقضون ليالى بهيجة مملوءة بالأناشيد والأغانى

الوطنية والدينية كما يقوم البعض بتقديم رقصاتهم الوطنية المرحة ، التى تطربهم وتستولى على ألبابهم فينتصف الليل وهم مازالون ينصتون إلى أغانيهم وأهازيجهم ويتمتعون بالنظر إلى رقصاتهم الوطنية ، وبمناسبة الاحتفال بعيد الأضحى لا نستطيع أن ننسى الاحتفال باستقبالهم القادم من الحجاز بعد أداء فريضة الحج حيث يستقبل فى الميناء الجوى أو البحرى استقبالا باهرا .

٥ — يوم عاشوراء :

وحسب التقويم العربى نجد الاحتفال بيوم عاشوراء فى العاشر من المحرم حيث يصنعون فيه الطعام الشهى الكثير الذى يدعى إليه الناس كما يصوم بعضهم فى هذا اليوم ، إلا أنهم يزعمون أن أرواح الأموات تنزل فى هذا اليوم إلى الأرض وتزور أهلها فى الدنيا .

كما أنهم يطعمون كل من يزورهم فى هذا اليوم ويغضبون إذا لم يأكل الزائر من طعامهم، وقد سمعت أن كل أسرة تعطى الماء لمن يجاورها ، لأنهم يتذكرون مقتل الحسين ابن على رضى الله عنه ومنع أعدائه الماء عنه حين قتل ، ولذلك هم يهدون الماء للجيران تذكيرا بهذا اليوم الذى قتل فيه الحسين .

٦ — الأربعاء الأخير من شهر صفر ودفع البلاء :

عندما يأتى الأربعاء الأخير من شهر صفر يستعد الناس فيه الذهاب إلى البحر الصغار والكبار والرجال والنساء تذهب كل أسرة ومعها الطعام الكثير الذى أعدوه لذلك اليوم وتفننوا فيه حتى أن بعضهم يذبح الغنم أو يأخذ عددا وفيرا من الدجاج والسمك . ويصير البحر غاصا بالناس فى أماكن كثيرة حيث يأتى الناس من المدن والقرى والجبال للاغتسال فى البحر .

ولماذا ؟ يقولون : لدفع البلاء فى يوم الأربعاء الأخير من صفر لأنه ـ عندهم ـ يوم نحس . فيحضرون إلى البحر ويحضر معهم أئمتهم الذين يؤمونهم للصلاة فى مساجدهم المتناثرة فى كل قرية وهم يسمونهم (العلماء) وإن كان كل محصولهم من العلم أنهم يستطيعون قراءة بعض آيات من القرآن أو يأخذون الإمامة بالوراثة .

فإذا انقضى اليوم رجع الجميع إلى ديارهم وهم فرحون مسرورون لأن البلاء دفع عنهم إلى العام القادم ، وقد بينا لهم خطأ هذا الاعتقاد وبعده عن الإسلام وتعاليمه الواضحة البعيدة عن أمثال هذه الخرافات .

محمد زيتون

مجمع البحوث الإسلامية

التعليم الإسلامي في إفريقيا دور النشأة والازدهار

للأستاذ محمد جلال عباس

- ٣ -

العهد الاستعماري :

تناولنا في المقال السابق أوضاع التعليم في الفترة التي أعقبت التدهور الذي أصاب الممالك الإسلامية في إفريقية ، وعرفنا كيف أن الطرق الصوفية كانت بمثابة صحوة إسلامية ارتبط بها اهتمام بالتعليم ساعد على المحافظة على كيان الإسلام ، وأعاد إليه دفعته التي ضعفت بانهيار الممالك الإسلامية الكبرى وبخاصة في غرب إفريقية ، وقد أعقب عصر سيادة الطرق الصوفية في الحياة الإفريقية عصر الاستعمار الذي استمر من أواخر القرن الثامن عشر حتى بداية العقد السادس من هذا القرن حينما حصلت الدول الإفريقية على استقلالها تباعا ، ولقد مر التعليم الإسلامي في هذا العهد بتطورات جديدة ، هي موضوع دراستنا في هذا المقال .

الصدام مع الاستعمار :

بينما كان الاستعمار يتقدم إلى قلب القارة بعد أن نجح في توسيع قواعده الساحلية ، كانت الجماعات الإسلامية في الداخل تجمع قواها وتمكن بعض زعماء (الفولاني) من تكوين ممالك وحدت في نطاقها مساحات شاسعة من غرب إفريقية ، وقد استطاعت هذه الممالك تحت قيادة زعمائها وحلفائها من الوقوف زمنا في وجه التوغل الاستعماري فقد نجح الحاج عمر في أعالي النيجر والسنغال وغينيا في مقاومة الاستعمار الفرنسي زمناً حتى استطاع الفرنسيون بسط نفوذهم على تلك المناطق باستخدام كل وسائل القوة والخيانات ، كما وقف بعض خلفاء عثمان دن فديو في شمال نيجيريا في وجه توغل النفوذ البريطاني إلى الشمال حتى أواخر القرن التاسع عشر ، واستطاع كذلك ملوك ادماوا في الكمرون من مقاومة الاستعمار الألماني الطامع في بلادهم .

وبينما كان هذا يحدث في الغرب كان محمد بن عبد الله حسن الذي أطلق عليه الإنجليز اسم الملا المجنون يقاوم الاستعمار البريطاني والإيطالي في الصومال ، وكان سلاطين زنجبار يحاولون بالطرق السلمية الاحتفاظ بكيانهم السياسي في ساحل شرق إفريقية .

ولقد أدرك المستعمرون منذ اللحظة الأولى لاحتكاكهم مع المسلمين في إفريقية أن الإسلام

هو أكبر خطر على كيانهم الاستعمارى فى القارة ، ومن ثم اتبعوا مختلف الوسائل لمحاربته .

ولما كان الإسلام نظاماً يقوم على أساس ثقافة رفيعة مصدرها القرآن ولغتها العربية فقد رأى المستعمرون أن خير وسيلة لإضعاف كيان الإسلام هى حرب الثقافة والتعليم . وقد اتفق المستعمرون على هذا المفهوم وإن كانوا قد اختلفوا فى سياستهم إزاء الثقافة العربية والإسلامية وتطبيقهم لهذه السياسة .

التبشير والتعليم التبشيرى :

وكانت أول وسيلة اتبعها المستعمرون هى محاربة الإسلام بالمسيحية ، فأرسلوا البعثات التبشيرية مزودة بتعاليم الاستعمار والقساط الأجنبى متجردة من طبيعة التسامح التى تميز المسيحية . واستطاع المبشرون شراء عقائد بعض الذين استأجروهم من الإفريقيين وتعلموا منهم لغتهم واتخذوا من هذه اللغات وسيلة لجذب الإفريقيين حولهم ، وكان الإفريقيون الذين لم يدخلوا الإسلام يعيشون فى فراغ روحى يتطلعون إلى عقيدة واضحة تنظم لهم حياتهم الروحية فأقبل البعض ممن خدعهم المبشرون بالمال والتعليم ومظاهر الحضارة على المسيحية فتكونت لدى المستعمرين الأدوات الثقافية الأولى ممثلة فيمن انخدع فى المبشرين من أبناء القبائل .

ولما لم يجدوا فى مجرد الدين وسيلة ناجحة لكسب الولاء ، وحينما أدركوا أن الإفريقيين لا يقبلون ـ بطبعهم وبحكم معتقداتهم الأصلية ـ على المسيحية بالسهولة واليسر الذى كانوا يقبلون به على الإسلام ، وجهوا جهود المبشرين إلى التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية ليتجمع حولهم أكبر عدد منهم ، غير أن هذه الوسيلة لم تنجح فى أول الأمر مما ألجأهم إلى استخدام وسيلة القوة العسكرية لبسط نفوذهم .

ومنذ أن بسط المستعمرون نفوذهم على القارة وتقسموا أرضها نهائيا بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ بدأ الصراع الثقافى يدخل مرحلة جديدة يهدف فيها الاستعماريون إلى وقف تيار الثقافة العربية والإسلامية لإخلاء السبيل لثقافاتهم واتبعوا لذلك مختلف الوسائل .

وجهات السياسة الاستعمارية :

ولقد اختلفت السياسة التى اتبعها الفرنسيون إزاء التعليم الإسلامى والثقافة العربية عن سياسة الإنجليز فبينما اتبع الفرنسيون سياسة المحاربة المباشرة اتبع الإنجليز سياسة تدريجية .

وهناك عاملان هامان وجها السياسة الفرنسية إزاء التعليم الإسلامى فى إفريقية هما :

(١) المقاومة العنيفة التى لاقاها الفرنسيون من الجماعات الإسلامية فى أنحاء غرب إفريقية ، أدت إلى إصابتهم بنوع من الخوف الشديد دفع بهم إلى تشديد التنكيل على المسلمين فى مستعمراتهم .

(٢) الغرور الثقافى الذى يميز العقلية

الفرنسية والذى تنبثق منه سياستهم التى ترمى إلى بسط ثقافتهم على جميع الشعوب بشتى الوسائل لتحقيق (فرنستها) أو امتصاصها فى الثقافة الفرنسية .

وقد اختلف البريطانيون عن الفرنسيين فى سياستهم فبينما اتبع الفرنسيون تلك السياسة المباشرة للقضاء على التعليم الإسلامى ومحاربة الثقافة الإسلامية اتبع البريطانيون سياسة خاصة تعتمد على عدة عناصر رئيسية هى :

١ — التسلل التدريجى للقضاء على الثقافة الإسلامية واللغة العربية وإحلال الثقافة واللغة الإنجليزية عليها ومحل الثقافة العربية فبدأ البريطانيون بتشجيع دراسة اللغات المحلية على يد المبشرين واللغويين بقصد إحيائها إذ أن فى ذلك إحياء للثقافات المحلية وإثارة للنعرات القومية التى اعتقدوا أنها قد تضعف من كيان الثقافة الإسلامية .

٢ — الموقف السلبى من التعليم الإسلامى إذ أنهم تركوا للتعليم الإسلامى الحرية الكاملة لمتابعة نشاطه ووقفوا منه موقفاً ليس فيه محاربة علنية ولا تشجيع أو معونة ، بينما شجعوا الإرساليات التبشيرية ، وقدموا لها كل العون المادى والأدبى ، رعياً را للمتخرجين فى مدارسها وفى المدارس الحكومية كل سبل الحياة وشغل الوظائف وارتقاء المناصب التى حرم منها جميعاً كل خريجى المدارس العربية الإسلامية وذلك بقصد إبعاد الإفريقيين عن هذا التعليم الإسلامى .

٣ — استغلال الخلافات المذهبية فى الإسلام لخلق نوع من الفرقة بين المسلمين حتى فى ميدان التعليم وظهر هذا العنصر بوجه خاص فى شرق إفريقية حيث استغلوا هنود قرية وصلات الهند بهذه المنطقة من إفريقية عبر المحيط الهندى لتشجيع انتقال الأحمدية القاديانية والإسماعيلية إلى هذه البقعة ، وتشجيع هاتين الطائفتين على إقامة نشاط تعليمى وثقافى يؤدى إلى التصدد المذهبى واشتداد المنافسة لكى يتمكنوا فى وسط هذا الصراع من نشر ثقافتهم وبسط نفوذهم ، ثم شجعوا أيضاً على نقل الأحمدية إلى غرب إفريقية لتمارس نشاطها التبشيرى والتعليمى هناك .

استمرار التعليم الإسلامى :

وعلى الرغم من جميع الجهود التى بذلها المستعمرون والوسائل المختلفة التى اتبعوها فإن التعليم الإسلامى قد استمر دون أن يقضى عليه قضاء تاما ، استمر دون توقف نتيجة لعوامل متعددة أهمها :

١ - ارتباطه بالعقيدة الإسلامية المتغلغلة فى نفوس الشعوب الإفريقية المعتنقة للإسلام .

٢ - شعور الشعوب الإفريقية بأن التعليم الاستعمارى والتبشيرى دخيل على القارة وغير نابع من حياة شعوبها .

٣ - استمرار الصلة بين مراكز الثقافة فى الشمال الإفريقى فى مصر والمغرب وبين مسلمى إفريقية فيما يلى الصحراء بشتى الصور وبحكم الصلات التجارية أيضاً .

٤ - استمرار الصلة مع المشرق العربي وبخاصة الحجاز نتيجة لاستمرار الرحلات السنوية لأداء فريضة الحج في الأراضي المقدسة.

٥ - بقاء نشاط رجال الطرق الصوفية، ولجوء الاستعمار إلى مهاونتها بقصد الاستفادة من وجودها في خلق خلافات بين الشعوب.

غير أن هناك حقيقة هامة لا يمكن إنكارها وهي أن التعليم الإسلامي قد أصابه بعض الضعف بل لقد توقف تطوره وبقي على ما كان عليه في عهد ما قبل الاستعمار ولم تكن من ورائه القوة الدافعة التي تساعده على التطور إلى ما يتلاءم مع التقدم الحديث

ويعتبر الأزهر الشريف واستمراره كقبلة العلم للعالم الإسلامي كله بعامة وشعوب إفريقية المسلمة بصفة خاصة من أهم عوامل الحفاظ على استمرار التعليم الإسلامي في أنحاء القارة الإفريقية على الرغم من محاولات الاستعمار لقطع الصلة بين مسلمي إفريقية وبينه.

حركة الإصلاح الإسلامي والتعليم:

واحتك الطلاب الإفريقيون الوافدون من كل أنحاء القارة للدراسة بالأزهر الشريف بحركة الإصلاح الإسلامية التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وعاصرها عدد من أبناء القارة الإفريقية كما تأثر بها الجيل التالي لهم، وكان من أهم نتائج هذا الاحتكاك أن مؤلفات الشيخ محمد عبده وتلاميذه قد انتشرت في غرب إفريقية انتشاراً واسعاً وحل بعضها محل الكتب القديمة التي كانت تدرس في مجالس العلم والمدارس الإسلامية المنتشرة في جميع أنحاء القارة وذلك رغم الجهود الكثيرة التي بذلها الفرنسيون والإنجليز لقطع الصلة بين الأزهر ومسلمي غرب إفريقية.

ولم يقتصر أثر حركة الإصلاح الإسلامي على الإدراكات الجديدة التي انتشرت بين الإفريقيين فقط بل تعدى الأمر ذلك إلى نشأة تنظيمات إصلاحية عديدة ذلك أن المسلمين في القارة الإفريقية أخذوا يقيمون في الجمعيات الإسلامية التي تهدف إلى تنظيم الجهود أساساً في المجال التعليمي بقصد رفع مستواه وتقويته وتحسينه وتطويره بما يتلاءم مع التطورات الحديثة وكان لبعض هذه الجمعيات هدف سياسي إلى جانب الهدف التعليمي هو المشاركة في الحركات التحريرية.

نشأت هذه الجمعيات الإسلامية في نيجيريا ممثلة في جمعية أنصار الدين وجمعية أنصار الإسلام، ومركز التعليم العربي في أجيجي ومئات من الجمعيات الأخرى في كل أنحاء نيجيريا كل منها ينشىء المدارس ويقيم مراكز التعليم ويوفر إلى جانب ذلك تسهيلات الحج، ويبعث بالطلاب إلى مصر للدراسة بالأزهر

كما نشأت في غانا منظمة سياسية ثقافية هي

حزب المؤتمر الإسلامي ، وتكونت في سيراليون عدة جمعيات أهمها جمعية الأخوة الإسلامية ونشأت في شرق إفريقية جمعيات أخرى مماثلة . وقد لقيت هذه الجمعيات تأييد الزعماء والأمراء والسلاطين المسلمين وأصبحت تتلقى العون المادي والأدبي من هؤلاء الزعماء ومن التجار وأغنياء المسلمين في تلك البلاد .

موقف الإنجليز من حركات الإصلاح :

نتيجة لهذا التيار الذي سارت فيه الشعوب الافريقية المسلمة اضطر الاستعمار إلى تعديل سياسته ولكن هذا التعديل في السياسة لم يرتبط به تغيير في الهدف الذي كانت ترمى إليه دول الاستعمار منذ بداية استعمارها وهو محاربة التعليم الإسلامي والقضاء عليه لإفساح المجال في الحياة الافريقية للثقافة الاستعمارية وكما كانت السياسة الأصلية للاستعمار مختلفة بعضها عن بعض ، فقد اختلفت أيضاً سياستها بعد التعديل الذي أدخلته نتيجة لحركات الإصلاح الإسلامية .

وقد تابع البريطانيون سياستهم في بث الفرقة بين المسلمين عن طريق تشجيع الطوائف الإسلامية المتطرفة المنحرفة الموالية لهم مثل الإسماعيلية والأحمدية ، وهيأوا لها كل سبل العمل ويسروا لها فتح المدارس ونشر الكتب الخاصة ، وقدموا لها كل ما أمكن من العون المادي والأدبي لتقوية نشاطها التعليمي والثقافي لتقف في وجه الحركات الإصلاحية السنية على وجه الخصوص لما لهذه الحركات من صلة بالعالم العربي في الشمال الإفريقي ومصر والحجاز ، فأطلقوا يد الأحمدية والإسماعيلية في شرق إفريقية ، كما حاولوا نقلها إلى غرب إفريقية ونجحوا في تشجيع بعض الأحمدية للإقامة في كل من نيجيريا وغانا وسيراليون ولئن كان تأثيرهم في غرب إفريقية ضعيفاً إلا أنه حقق بعض الغرض الذي كان ينشده الاستعمار وهو إيجاد طائفة قليلة من الأحمدية تناهض المسلمين السنيين في نشاطهم التعليمي والثقافي .

الفرنسيون والوهابيــــة :

ولم يغير الفرنسيون طبيعة سياستهم التي تهدف إلى تشديد القبضة على المستعمرات وبخاصة في المجال الثقافي بقصد فرنستها ، فحينما قامت الحركات الإصلاحية المبكرة التي قام بها أفراد يدعون الناس إلى ترك البدع الصوفية أمثال براهيما سوتوجو في مدينة صيكاسو بمالي وسيسي بالادجي في باماكو والشيخ دوكرى في ماسينا والشيخ سعد عمر تورى في سيجو والشيخ محمد عبد العزيز في كاى والحاج محمود عمر السنغالي في داكار حينما ظهرت الدعوات الإصلاحية الفردية التي قادها هؤلاء وغيرهم ممن أنشأوا

المدارس ليعلموا فيها الإسلام والثقافة العربية بطرق حديثة غير مشوبة ببدع الصوفية ، كون الفرنسيون فى إفريقية الغربية الفرنسية ، التى كانت تشتمل على السنغال وغينيا والسودان الفرنسى (مالى حاليا) وأعالى الفلتا وساحل العاج وداهومى وتوجو) كونوا بها مكتباً أطلقوا عليه اسم المكتب السياسى للشئون الإسلامية ، وعينوا مديراً له ضابطا يدعى (كاردير) وكانت مهمته العمل على وضع التعليم الإسلامى الجديد فى قبضة الحكومة الاستعمارية بقصد تنظيم نشاطه ظاهريا ، ومحاربته فعليا .

وقد استطاع كاردير أن يثير فى البلاد فتنة كبيرة استخدم لها بعض العملاء من المسلمين المتعلمين ، وقد استطاع أن يقنع هؤلاء بأن جميع رجال الإصلاح الدينى وبخاصة رجال جمعية الثقافة الإسلامية والمدارس الفلاحية والاتحاد الثقافى الاسلامى إنما ينتمون إلى الوهابية التى اتجهت إلى هدم قبر النبى مستغلا الروح الدينية المتغلغلة والإيمان القوى بالرسول لإثارة العامة على هؤلاء المصلحين .

وترتب على هذه الدائعات التى أثارها المكتب السياسى للشئون الإسلامية واستخدم بعض العملاء لنشرها أن ثارت الفتنة بين أهل الصوفية والمصلحين الذين أطلق عليهم خطأ اسم الوهابية ، وبلغت الفتنة ذروتها سنة ١٩٥٧ حينما أعلن الحاكم العام الفرنسى دعوة الحاج كاراموكوكانى رئيس الاتحاد الثقافى الإسلامى ورجال التعليم الأربعة الذين تخرجوا فى الأزهر وساعدوا على إنشاء تلك الجمعية وهم محمد سنوسى وكابينيه كابا ومحمد الأمين من مالى ومحمد فوده من غينيا - إلى مناظرة الشيخ كانى شيخ المسجد ومعه رجال الطرق الصوفية مناظرة علنية فى ميدان الجامع الكبير فى فى باماكو عاصمة مالى (السودان الفرنسى فى ذلك الوقت) وكان من جراء هذه المناظرة أن خرج بعض مؤيدى الطرق الصوفية من العامة إلى شوارع المدينة يحرقون مساكن ومتاجر رجال الاتحاد الثقافى الإسلامى بإيعاز غير مباشر من السلطات الفرنسية الحاكمة .

وكانت هذه الحوادث هى الأمل الذى تحقق للفرنسيين فقد نجحوا فى إثارة فتنة شديدة تذرعوا بتهديدها للأمن ، فأغلقوا مدارس الاتحاد الثقافى الإسلامى فى باماكو ومدن مالى وداكار وكاتنكان وكوناكرى وغيرها ، واستراحوا زمنا من التعليم الإسلامى الصحيح الذى أقض مضجعهم وهدد ثقافتهم ، إلى أن بدا الاتحاد الثقافى الإسلامى وغيره من الجمعيات الإسلامية يستعيد نشاطه بعد أن أعلن الاستقلال الذاتى فى داخل نطاق الجماعة الفرنسية

الترتيب الذى استقرت عليه سور القـــرآن

للأستاذ محمد محمد الشرقاوى

أما ترتيب الآيات فى سور القرآن الكريم على النحو الذى استقر عليه الأمر فى مصحف عثمان الإمام ، ووضع البسملة ، فى أول كل سورة عدا براءة . فقد كان أيضا تنظيما منقولا عمن أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم . لا باجتهاد منه عليه الصلاة والسلام، ولكن بإرشاد وتوجيه من جبريل عليه الصلاة والسلام.

قال مكى فى تبصرته : (إن ترتيب آيات السور فى مصحف عثمان وتصديرها بالبسملة من عمل الرسول ، ولما لم يؤمر بالبسملة فى أول سورة براءة تركت بلا بسملة) وقد وافقه القرطبى على ما ذهب إليه وأيدهما ابن فارس حين قال : (جمع الآيات فى السور توقيف تولاه النبى صلى الله عليه وسلم كما أخبره جبريل

(البقية على الصفحة السابقة)

سنة ١٩٥٨ فبدأت الأحزاب التى تولت الحكم وعلى رأسها التجمع الديمقراطى الإفريقى تعترف بنشاط هذه الجمعيات وفضلها فى مشاركة الحركة الوطنية التحررية وتسمح لها بفتح المدارس من جديد .

* * *

وهكذا دخلت إفريقية فى عهد الاستقلال وقد ورثت حكوماتها تقاليد محاربة التعليم الإسلامى بشتى الوسائل ، ودخلت بذلك فى دورها الحاضر الذى أخذ التعليم الإسلامى يواجه فيه المشكلات ويتبع شتى الوسائل للتغلب عليها ، متطلعاً إلى المستقبل الزاهر للثقافة الإسلامية ، وسيكون حاضر التعليم الإسلامى ومستقبله فى إفريقية هو موضوع مقالنا الأخير فى هذه السلسلة . « يتبع »

محمد جمول عباس

عن أمر ربه ، ويشهد لذلك ما حدث به أبو السائب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (آخر ما نزل من القرآن : واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) فقال جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام (يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة) وروى عن عثمان بن العاص قال : (كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : « أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية . هذا الموضع . من هذه السورة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . الآية » .

وذكر الزمخشرى أن ترتيب الآيات فى السور على توقيفى لا مجال للقياس فيه ، ولذا عدوا (ألم) آية حيث وقعت ، و (ألمص) كذلك ولم يعدوا (ألمر) و (ألر) ، وعدوا (حم) آية فى سورها وطه ويس) ، ولم يعدوا (طس) ، وعلى ذلك أعد ابن عباس آيات القرآن فقال : إنها ستة آلاف وستمائة وست عشر آية .

أما أسماء سور القرآن فهى فى الكثير الغالب مفردة يدل الاسم الواحد على سورته من غير أن يكون له رديف . وأحيانا تتعدد الأسماء لسورة واحدة .

وسواء أكانت الأسماء مفردة أو متعددة فلا مدخل فيها هى الأخرى للرأى والاجتهاد وإنما شأنها شأن سابقيها من ترتيب السور وتنسيق الآيات داخل السور فهى منقولة سماعا ، ومأخوذة اتباعا للرسول صلى الله عليه وسلم . وفى الإتقـــان للسيوطى : (إنه قد يكون للسورة من القرآن اسم واحد وهو كثير ، وقد يكون لها اسمان أو أكثر . من ذلك الفاتحة . فإن لها نيفا وعشرين اسما واسمها المشهور : فاتحة الكتاب ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها أم القرآن وهى فاتحة الكتاب ، وهى السبع المثانى .

وكذلك البقرة . فقد كان خالد بن معدان يسميها (فسطاط القرآن) لما جمع فيها من الأحكام التى لم تذكر فى غيرها ، وقال ابن عطاف إن آل عمران تسمى (طيبة) وفى صحيح مسلم سميت البقرة وآل عمران الزهراوين والمائدة تسمى (العقود) و (المنقذة) قال السيوطى : (وقد ثبت جميع أسماء سور القرآن بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك ، ومما يدل لذلك . ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : (كان المشركون يقولون ، سورة البقرة ، وسورة العنكبوت يستهزئون بهما . فنزل قوله تعـــالى : « إنا كفيناك المستهزئين .

وهكذا رأينا من غضون الأدلة التى سقناها أن سور القرآن الكريم بترتيبها وتعاقب آياتها وتخطيط أوائل الآيات وخواتيمها . إنما هو أمر شرعى توقيـــفى نقل سماعا واتباعا ، لا اجتهادا واصطناعا .

والشيء الذى تدخلت فيه صناعة القارىء والحافظ إنما هو إحصاء الحروف القرآنية وتعدادها فى دقة وإحكام ، وتحديد نصف القرآن بالحرف الواحد ، ونصف نصفه ، وتجزئته على هذا الأساس إلى أرباع وأسباع وأعشار ونحو ذلك ... ولا أعلم أحدا سبق الحجاج بن يوسف الثقفى فى هـذا التقدير الحرفى للقرآن الكريم ... فهو الذى ابتدع هذه البدعة الحسنة التى لم تصادف معارضة أو إنكارا من سلف أو خلف إلا نادرا ، فقد روى أن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فى عهده وقال : أخبرونى عن القرآن كله ؟ . . كم من حـرف هو ؟ . . لحسبوا . . فأجمعوا على أن القرآن ثلاثمائة وأربعون ألفا وسبعمائة وأربعون حرفا . . فقال : فأخبرونى . . إلى أى حرف ينتهى نصف القرآن . . ؟

فقالوا له عند الفاء فى « وليتلطف » من سورة الكهف فقال . فأخبرونى بأثلاثه فإذا الثلث الأول على رأس مائة من براءة ، والثلث الثانى : على رأس مائة وإحدى من طسم الشعراء ، والثلث الثالث ما بقى من القرآن فقال فأخبرونى بأسباعه على الحروف فإذا أول سبع فى النساء « فنهم من آمن به ومنهم من صد » فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أولئك حبطت » فى التاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أكلها دائم » فى الألف من آخر أكلها ، والسبع الرابع فى الحج « ولكل جعلنا منسكا » فى الألف والسبع الخامس فى الأحزاب « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة » فى الهاء ، والسبع السادس فى الفتح (الظانين بالله ظن السوء) فى الواو والسبع السابع ما بقى من القرآن .

وقد استغرق هـذا الإحصاء وقتا ليس بالقصير وفيه يقول سلام أبو محمد : عملنا ذلك فى أربعة أشهر ، وقال : كان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا . فأول ربعه خاتمة الأنعام والربع الثانى فى الكهف ، فى الفاء من (وليتلطف) والربع الثالث خاتمة الزمر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن .

ولقد ضاق بعض العلماء ذرعا بهذا اللون الجديد من مباحث القرآن الكريم وعدوا هذا التعداد من لغو العمل . . ومن هؤلاء السيوطى والسخاوى . فقد قال الأول (والاشتغال باستيعاب ذلك مما لا طائل تحته) ثم قال : (وكتابنا ـ يقصد الإتقان ـ موضوع للمهمات لا لمثل هذه البطالات) وقال السخاوى (لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد فى كتاب يمكن فيه الزيادة والنقص ، والقرآن لا يمكن فيه ذلك . .

ولكنا نجد بعض العلماء قد عنى العناية كلها بهذا اللون من البحث القرآنى ، وبذل فيه جهودا جبارة ومن هؤلاء ابن الجوزى فى كتابه (فنون الأفنان) فإنه عد الأنصاف والأثلاث والأرباع وغيرها إلى الأعشار وأوسع القول فى ذلك إلى حد الإفاضة .

ولعل روح الدليل إذا ناقشنا هذه المسألة فى ضوء البرهان تتمشى مع ابن الجوزى . . ذلك أن هذه المهمة قد اضطلع بها جمع غفير من ذوى الدراية والفن فى قراءة القرآن أيام الحجاج وفى غير أيامه وإذا كان خصوم الحجاج وهم كثير قد عدوا الكثير من مساوئه كحاكم.. لكنهم تحاشوا عد هذه المسألة التى كان هو أول بادىء فيها فيما نعلم .

على أننا نجد فى الحديث الشريف إشارة إلى الالتفات إلى حرف القرآن كحرف ، من حيث إن له قيمة فى حساب معايير الحسنات لكل من استذكر القرآن الكريم ، فنى الحديث « من قرأ حرفا من القرآن كان له عشر حسنات . . لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وفى هذا المنطوق الشريف دلالة على أهمية الحرف فى نظر المهتمين بالقرآن ، ومن هذه الأهمية عدها وإحصاؤها وتقسيم القرآن على أساسها تقسيما عادلا . . حتى تتساوى مقادير الثواب أمام الراغبين فى تحصيلها ، على صورة رتيبة منظمة .

وإذا كنا نرى فى عصرنا هذا أن عناية الصحفيين ومراسلى وسائل الإعلام الحديثة قد بلغت من الدقة إلى حد أنهم يحصون خطب الرؤساء والزعماء والقادة بالحرف ، وأنهم لا ينقلونها بنصوصها فحسب . . بل وبتعداد الكلمات التى صيغت منها هذه النصوص — فلا أقل من أن نشجع أمثال هذه العناية بأقدس نص دينى فى حياة المسلمين .

ولقد حدث هذا التقسيم فعلا فى المصاحف المتداولة . . وعلى هامش كل مصحف علامات إرشاد تدل على الجزء والربع والحزب ، ولم يصادف هذا الصنيع نكيراً من أحد .

وبعد :

فمن هذا البحث تبين لنا .

أن ترتيب سور القرآن الكريم وتنسيق آياتها ووضع أسمائها ، وتحديد إطار آياتها بدءا ونهاية أعمال توقيفية منقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم الذى نقلها بدوره عن جبريل عن رب العزة جل وعلا .

وأن عد حروف القرآن وتجزئته بحساب هذا العد . . عمل مستحدث لا بأس به . . بل هو حسن « وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » .

وأن القرآن لم يجمع فى حياة الرسول ، وبعد وفاته جمع جمعات كثيرة أشهرها جمع زيد بن ثابت وهو الذى استقر أخيرا فى بيت حفصة رضى الله عنها وعنه نسخ المصحف العثمانى الإمام بأمر من عثمان رضى الله عنه بالإضافة إلى ما صح ثبوته ، وأن أول من نبه إلى ضرورة توحيد لغة المصحف هو حذيفة بن اليمان ، وأن كل المصاحف فيما عدا مصحف عثمان قد أعدمت حرقا قطعا لمادة الخلاف والاختلاف فى أساس الإسلام الأول وتحقق بذلك وعد الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

محمد محمد الشرقاوى

ما يقال عن الإسلام

العرب

للدكتور أحمد فؤاد الإهوانى

يحتل العرب فى الوقت الحاضر منزلة كبيرة على الصعيد الدولى ، بعد أن رفع الرئيس جمال عبد الناصر رأسهم ، ووحد كلمتهم ، وقاد رايتهم ، ورد عنهم عدوان المستعمرين الذين وقف لهم بالمرصاد يكشف خططهم ، ويحبط أعمالهم .

والعرب الذين يتكلمون اللغة العربية ويدين معظمهم بالإسلام هم الدول العربية الثلاث عشرة التى تمتد من المغرب إلى الكويت أى من المحيط إلى الخليج . وهؤلاء تضمهم منظمة واحدة هى جامعة الدول العربية . ويضاف إليهم محميات الجنوب العربى التى تكافح الآن فى سبيل الحصول على حريتها وهى البحرين ومسقط وعمان وقطر وأبوظبى واتحاد الجنوب العربى وعدن .

وصدوراً عن هذه الأهمية السياسية والاقتصادية والدولية للعرب ، أشرفت مطبعة جامعة أكسفورد بانجلترا فى سلسلتها عن العالم الحديث ، على إخراج كتاب خاص عن العرب ، بقلم مؤلف يسمى (هودكين) لم نسمع عنه من قبل . يقع الكتاب فى ١٢٦ صفحة ، وبه خريطتان للعالم العربى ، إحداهما توضح الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية ، والأخرى عن توزيع البترول والكتاب إلى ذلك محلى بالصور ، أسلوبه جميل سهل واضح .

والكتاب موجه أساساً لقراء اللغة الإنجليزية ، للإنجليز أولا ، ثم لمن يمشى فى ركب الحضارة الغربية التى تتخذ من الإنجليزية لسانا . وعلى الرغم من أن مؤلف الكتاب حاول صياغته بشكل موضوعى ، إلا أنه لم يستطع فى مواطن كثيرة إخفاء ميوله وعواطفه الإنجليزية . ومع أن عنايته الأولى بالعرب حديثا ، إلا أنه كان لا بد له من الرجوع إلى الماضى .

يحدثنا أولا عن الأرض وشعوبها التى تسكنها ، وثانيا عن تاريخها الماضى ويشغل هذان الفصلان نصف الكتاب ، على حين يشغل فصلان آخران هما الأصول والحدود ، ثم من السويس إلى مؤتمرات القمة فى النصف الثانى والأخير . ولا غرابة أن يتناول المؤلف مؤتمرات القمة بالحديث ، فهو يتابع الحوادث فى العالم العربى حتى صدور الكتاب سنة ١٩٦٦ .

يتضح من ذلك أن الكتاب يؤرخ للعرب قبل الجاهلية ، وعند ظهور الإسلام ، ثم قيام

الدول الإسلامية الكبرى فى صدر الإسلام مع استعراض الحوادث حتى القرن العشرين وفى الكتاب إلى ذلك ثقافة وحضارة ، ودين وفلسفة ، واقتصاد وسياسة ، ولذلك كان شاملا أموراً كثيرة تحتاج من مؤلفها اطلاعاً واسعاً عميقا . ولكن يبدو أن المؤلف يفتقر إلى هذه الثقافة العربية وبخاصة اللغة ، ولهذا وقع فى بعض أخطاء كان يمكن تجنبها لو كان بصيراً باللغة وآدابها . ومن أمثال هذه الأخطاء قوله (ص ٢٢) « إن عمر ابن الخطاب طعنه عبد مسيحى » ، والمعروف أن الذى طعنه أبو لؤلؤة المجوسى . وقوله : (ص ٣٨) « إن جبل طارق سمى كذلك نسبة إلى الطارق » ، وطارق بن زياد معروف بغير ألف ولام .

قلنا : إن صاحب الكتاب أراد أن يكون موضوعيا ، آية ذلك أنه أشاد بالعرب وبخاصة ماضيهم المجيد ، وحضارتهم الزاهرة ومناصرتهم للعلوم والفنون وافتخارهم بلغتهم العربية . وهو يذكر فى (ص ٦) أن الغرض من هذا الكتاب بيان ما بلغه العرب فى الأصل وما فقدوه بعد ذلك ، وإلى أى حد استطاعوا أن ينهضوا فى الوقت الحاضر ، فالكتاب استعراض سريع لماضى العرب المجيد ، ثم عصورهم المظلمة ، ثم نهضتهم الحديثة ولما كان ماضى العرب الحقيق ومساهمتهم فى الحضارة العالمية إنما يبدأ مع ظهور الإسلام ، فلا جرم أن يعتبر المؤلف الإسلام جزءا لا يتجزأ من العرب ، على الرغم من أنه ليس كل مسلم عربيا ، وليس كل عربى مسلما (ص ١٥) » ، « ولكن من المستحيل أن نتكلم عن أحدهما بعيدا عن الآخر ، فالإسلام هو الذى جعل من العرب أمة عظمى » .

ولكن الموضوعية التى نجدها شائعة فى صفحات الكتاب من بدايته إلى نهايته ، عصفت بها يد الهوى والتعصب لبلاده الإنجليزية التى كانت صاحبة النفوذ والسلطان طوال القرن التاسع عشر فى معظم هذه المنطقة من الأرض العربية ، إلى أن أخذ هذا النفوذ يتقلص شيئا فشيئا مع حروب التحرير والاستقلال ، والنزعة القومية ، والنهضة العربية ، هذه الحروب التى بلغت الأوج فى حرب السويس .

ولما كانت قوة العرب الحقيقية فى وحدتهم وضم صفوفهم ، وتوحيد هدفهم وكان المؤلف يعرف هذه الحقيقية ويشير إليها ويبين أهميتها ، غير أنه مع ذلك يريد أن يبين أن العرب ، من خلال تاريخهم البعيد والقريب ، ما أن يتحدوا حتى يتفرقوا وأن طبيعة الفرقة فيما بينهم أكثر من التوحد . وهو فى ذلك إنما يعبر عن رغباته وآماله ، لا عن الحقيقة الواقعة ، لا ننكر أن فى نضال العرب الحاضر افتراقا فى الصف ورجوعا إلى المطامع الشخصية ، ولكن رؤية

الخطر الدائم على بلادهم سرعان ما يجمع شملهم مرة أخرى ، وبخاصة تحت ضغط الشعوب ، ولا ينبغى أن ننسى فى هذا الصدد أن العرب كتب عليهم أن يظلوا تحت حكم الأتراك العثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى وأن تجربة الحرية العربية تجربة حديثة جدا

لا ننكر أن الإنجليز هم الذين دفعوا العرب إلى التمرد على حكم العثمانيين حتى يتسنى للاستعمار البريطانى أن يحل محلهم بطريقة أخرى ، ولكن العرب ما كانوا ليرضوا أن يخلعوا نير الاستعمار التركى ليستبدلوا به استعمارا آخر ، وأى استعمار هو ؟ إنه استعمار مسيحى واليوم صهيونى فالمعركة مستمرة الآن بين العرب وبين الغرب المسيحى والصهيونية العالمية ، بوجهيها الاقتصادى والدينى .

إن القضاء على العرب قضاء على الإسلام ، وقضاء كذلك على الإنسان العربى فى هذه المنطقة . انظر إلى ماحاولته فرنسا من تحويل الشعب الجزائرى إلى فرنسى لغة ودينا ووطنا وإلى كفاح شعب الجزائر سنين عددا حتى ظفرت باستعادة الوطن واللغة والإسلام ، وهل كانت تستطيع ذلك لولا مؤازرة مصر لها سبع سنوات متتالية ، وانظر إلى ماحاولته إيطاليا فى ليبيا من طرد أهلها المسلمين إلى الصحراء ، وإحلال الإيطاليين محلهم ، حتى فنى من هذا الشعب ما يقرب من ثلاثة ملايين ، وانظر إلى نكبة فلسطين التى لاتزال تعيشها ، وإلى كارثة اللاجئين . فهى مشكلة ماثلة أمام أبصار العرب والمسلمين .

إن تماسك الشعوب العربية على الرغم من وحشية الهجوم الاستعمارى إنما يرجع إلى أمرين هما : اللغة العربية والدين الإسلامى ، وهما صنوان لا يفترقان ، ويعترف المؤلف بذلك حين يقول (ص ١٥) : « يمجد العرب اللغة العربية لأنها لغة كتابهم المقدس، القرآن. ومن أجل ذلك كانت لغة ربانية ، ما دام القرآن هو كلام الله الذى أنزله على محمد أعظم الرسل وخاتم النبيين » .

يعرف المستعمرون إذن هذه الحقيقة ، وهم لذلك يحاولون العمل على إضعاف الشعوب العربية وتفككها بهدم دينها وهدم لغتها ، لأن هدم اللغة يفضى مع الزمن إلى الابتعاد عن الدين الصحيح ، وكان هذا دأبهم طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع العشرين ولكنهم الآن مع تطور الأحداث وتحرر الدول العربية ، والمناداة بالقومية العربية ، أخذوا يعملون بأسلوب آخر ، هو ضرب العرب بعضهم ببعضهم الآخر ، والنفخ فى بوق الفرق الدينية الإسلامية والأقليات غير الإسلامية ، بعبارة أخرى يتبع المؤلف سياسة الإنجليز التقليدية وهى : فرق تسد .

لا نزاع أن العرب وهم متفرقون ضعفاء ، ولكنهم حين يجتمع شملهم فى دولة عربية

موحدة ، أو فى وحدة كبرى ، أو جامعة واحدة يصبح لعدد سكانهم وزن كبير ، ولثرواتهم الطبيعية وزن آخر ، ولتقدمهم العلمى والصناعى والحضارى وزن ثالث ، لذلك اجتهد المؤلف فى إحصائياته عن عدد السكان أن يقلل من عدد العرب ، مع أنه إحصاء يرجع إلى سنة ١٩٦٥ ، وإليك الدول التى حاول تقليل عدد سكانها .

(١) الجزائر ١٠ مليون وحقيقتها ١٢ مليونا
(٢) مصر ٢٨ مليونا وحقيقتها ٣٠ مليونا
(٣) العراق ٦٫٨٠٠٫٠٠٠ وحقيقتها : ٨٫٢٦٠٫٠٠٠ مليون
(٤) الكويت ٤٠٠٫٠٠٠ ألف وحقيقتها ٥٦٠٫٠٠٠ ألفاً
(٥) لبنان ١٫٧٥٠٫٠٠٠ مليون وحقيقتها ٢ مليون
(٦) ليبيا ١٫٢٠٠٫٠٠٠ مليون وحقيقتها ١٫٥٠٠٫٠٠٠ مليونا
(٧) البحرين ١٥٠٫٠٠٠ ألفا وحقيقتها ١٨٠٫٠٠٠ ألفا

نرجع إلى المبدأ الأول فى الأسلوب الحديث وهو ضرب العرب بعضهم ببعضهم الآخر فنجد فى صفحة ١١٢ حديثا عن مؤتمر القمة الذى انعقد بالقاهرة سنة ١٩٦٣ لضم كلمة العرب والوقوف صفا واحدا أمام إسرائيل والاستعمار ، ويرجع الفضل بلا نزاع إلى الرئيس جمال عبد الناصر الذى يعمل دائما مؤثرا مصلحة العرب ، مضحيا بمصلحته الشخصية ، ولكن المؤلف يصور اجتماع القمة من زاوية أخرى ، زاوية الخصومة المتأصلة بين رؤساء الدول والتى لا يمكن العمل على استئصال شأفتها ، وفى ذلك يقول المؤلف : وجاءوا جميعا إلى القاهرة وفيهم الملك سعود الذى كان قد دفع مليونين لاغتيال جمال عبد الناصر ، والرئيس بورقيبة من تونس الذى اتهم عبد الناصر بمحاولة اغتياله . والحسن وابن بيلا وكانت جيوشهما تتحارب على الحدود ... ، لا شك أن مؤتمر القمة الأول أرق الاستعمار وإسرائيل ، فعمل الاستعمار على اجتذاب بعض الدول العربية إلى جانبه ، وأعلن بورقيبة خروجا على وحدة كلمة العرب ، أنه من الممكن التعايش مع اسرائيل والصلح معها ، لا عجب إذن أن نجد إشادة بالحبيب بورقيبة فى صلب الكتاب ، وبمذهبه الملتوى الذى ينتهى إلى التسليم بالأمر الواقع ، هذا المذهب الذى يسمى « البورقيبية » أو سياسة المراحل ، وفى مقابل هذا المديح الذى يكال لبورقيبة ، نجد غمزاً واضحاً فى الرئيس جمال عبد الناصر ولا غرابة فى ذلك فالمؤلف بريطانى موتور بما فعله عبد الناصر حين أطاح بالنفوذ البريطانى بعد حرب السويس . ومثال هذا الغمز ما يقوله (ص ٧٥) : إن ثورة يوليو ١٩٥٢ إن هى إلا انقلاب قام به جماعة من

الضباط المتآمرين » . ومن التجنى على التاريخ أن يسمى المؤلف ثورة يوليو مؤامرة وكذلك قوله : إن كتاب (فلسفة الثورة) ليس فيه فلسفة ولا يدل على عمق فى التفكير فى أى موضوع مع أنه لو قرأ فلسفة الثورة بعمق لرأى أن كل التغييرات التى حدثت حتى الآن فى إفريقية وآسيا إنما جاءت من تلك الفلسفة .

المبدأ الثانى : هو تشجيع الفرق الإسلامية المستحدثة ، ظهر ذلك صراحة عند الكلام عن القومية العربية ، وعوامل توحيدها وتفرقها ، فمن عوامل توحيدها اللغة والدين والمقصود هو الإسلام - والتراث المشترك بما يشتمل عليه من تاريخ وأدب وبطولات وقصص شعبى .

ومن عوامل التفرقة الأقليات ، دينية كانت أم جنسية ، وقد عدد المؤلف الأقليات الدينية غير الإسلامية وغير العربية فى سوريا ولبنان ومصر والأردن والعراق ، وإنصافا للمؤلف نقول : إنه لم يقرر أن هذه الأقليات مضطهدة (ص ١٨) ، وهو لا يستطيع أن يقرر خلاف ذلك ، وإلا كان متجنيا على الواقع والتاريخ ، إذ المعروف عن الإسلام التسامح والعدل ، وبذلك شاد فى الماضى ، وقد أطنب المؤلف فى الحديث عن أكراد العراق وذكر أن عددهم يبلغ مليونا ومائتى ألف والواقع أنهم لا يبلغون المليون ، ومن المعروف أن الإنجليز هم الذين ينفخون فى نار الأكراد اتباعا للخطط الذى يسيرون عليه وهو تشجيع الأقليات لتمزيق الدول العربية من الداخل ، والإنجليز هم الذين عملوا على خلق الأقلية المسيحية فى جنوب السودان ويشير المؤلف كذلك إلى اختلاف الشيعة والسنة فى العراق ، والشيعة والسنة والدروز والعلويين فى لبنان والشام .

الحق لقد كانت البلاد العربية تنعم دائما خلال تاريخها الطويل بحرية دينية سواء بين الفرق الإسلامية أم بين المسلمين والمسيحيين ولم يذكر التاريخ أى مذابح دينية تشبه تلك التى كانت تجرى فيها الدماء فى أوربا المسيحية حتى جاء المستعمرون يحملون معهم هذا الوباء الموروث فيهم ، يشجعون الفرق الإسلامية وبخاصة الشاذة منها كالبهائية على الخروج على الإسلام ، أو الادعاء أنهم أصحاب الدين الصحيح ، وكل ذلك لكى يضرب المسلمون بعضهم بعضا ، بما يشغلهم عن المستعمر .

ولولا هذه الانحرافات السياسية لكان الكتاب من وجهة نظر الإسلام مقبولا . فقد كانت النغمة السائدة قديما فى أوربا ومنذ العصر الوسيط هى الطعن فى الإسلام ورسوله وكتابه المنزل عليه ، ولكن الاتجاه الحاضر عند الغربيين هو الابتعاد عن هذا التعصب الأعمى ، واعتبار (ص ٢٧) « أن محمداً كان نبياً حقاً وأنه أمر بالدعوة إلى الإسلام » .

أحمد فؤاد الأهوانى

الكتب

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

شوقى

شعره الإسلامى

الدكتور ماهر حسن فهمى - المدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس - نشر دار المعارف - ٢٣٧ صفحة مقاس ٧٠ × ١٠٠

يتناول هذا الكتاب بالبحث أهم ناحية من نواحي شعر شوقى ، وهى الناحية الإسلامية بجوانبها المتعددة .

وقد كان شوقى بحق شاعر العصر الحديث الذى لم يخلفه فى مكانته الوجدانية والقومية شاعر آخر حتى الآن .

ومن هنا كانت أهمية هذا البحث الذى استهدف جلاء اللون الإسلامى عند شوقى وبيان مصادره فى نفس الشاعر ودوافعه فى بيئته وحياته وألوانه المتنوعة من سياسية واجتماعية ودينية .

ويبدأ الكتاب بتمهيد عن الشعر الدينى فى الحضارات المتعاقبة ، فيبين صلة الشعر بالدين منذ القدم ، ويستعرض المؤلف نماذج من الأشعار الدينية لدى قدماء المصريين واليونان والعصور الوسطى والعصر الحديث حتى يصل إلى الشعر الدينى عند العرب ، فيقرر أنه لم يصلنا عن العرب شعر دينى بالمعنى المفهوم ، ويذكر لذلك أسبابا غير مقنعة ، ولا يجد أمامه إلا الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام ، فيورد نماذج لحسان بن ثابت شاعر الدعوة الإسلامية ، ثم ينتقل إلى الكميت الشاعر الأموى الذى كان ينافح عن آل البيت ، وبعده إلى أبى العتاهية شاعر الزهد، ولا يفوته أن ينوه بشعراء فى العصور الإسلامية المتعاقبة ظهرت فى أشعارهم الحماسة للإسلام أو عبروا عن عواطفهم من خلاله كالمتنبى وابن هانى. وابن الفارض والبوصيرى وإقبال شاعر اليقظة الإسلامية .

ومن الواضح أن المؤلف فى هذا العرض الموجز لا يتناول قضية الأدب الإسلامى ولا يحاول توضيح علاقة الإسلام بالأدب فى عصوره المختلفة ، فتلك قضية تحتاج إلى نظر أفسح وتأمل أعمق .

وبعد هذا التمهيد الموجز تتوالى فصول الكتاب الأربعة :

١ – الإسلام فى عصر شوقى .

٢ – شوقى بين اللذة والدين .

٣ – جوانب شعر شوقى الإسلامى .

٤ – تطور الشعر الإسلامى عند شوقى .

وفى الفصل الأول يعرض للأمم الإسلامية وحالتها السياسية والاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكيف كانت تعانى من الضعف وتكالب الأعداء ، ومن الجهل والظلم الذى ينخر فى بنيانها حتى ظهرت حركة الجامعة الإسلامية بزعامة جمال الدين الأفغانى الذى كان هدفه جمع الدول الإسلامية فى وحدة قوية بقيادة دولة إسلامية تستطيع أن تساير الأمم الغربية فتقطع على المستعمر كل أمل له فى الشرق .

أما الإسلام فى بيئة شوقى فإن المؤلف يصوره من خلال سلوك السلطان عبد الحميد الذى كان شوقى على صلة به ، ومن خلال سلوك الخديو عباس ، وكلاهما - كما يذكر المؤلف - كان يظهر أمام الناس فى مظهر دينى ورع ، ولكنه يحيا فى خاصته حياة اللذة والخلاعة وليس لذلك من أثر فى نفس شوقى إلا تردده هو أيضا بين التدين واللهو .

وفى الحق أن هذا التصوير للإسلام فى بيئة شوقى ، تصوير غامض وقاصر ، فهل المقصود بالبيئة هنا الخليفة والخديوى فقط ؟ وأى جديد فى موقفهما من الزهد واللذة؟ إنه موقف تقليدى لطبقة الحكام منذ أصبحت الخلافة ملكا ، إلا فى القليل النادر .

كنا نود من المؤلف فى بيانه للإسلام فى بيئة شوقى أن يذكر لنا شيئا عن نشأته ومصادر ثقافته وسلوك أسرته واتجاهها الدينى والاجتماعى ثم عن أصدقائه وجلسائه لا أن يقصر الحديث عن الخليفة العثمانى والخديوى ، ولكن المؤلف استطرف أن تؤدى به النتيجة التى استخلصها من الفصل الأول ، وهى تردد شوقى بين التدين واللهو ، إلى الفصل الثانى من كتابه وهو : شوقى بين اللذة والدين .

ويبدأ هذا الفصل بعجب المؤلف من شاعرنا شوقى الذى يصوره لنا شعره اللاهى فى صورة من لا تخطر له الآخرة ببال، ثم نقرأ شعره فى التدين فيخيل إلينا أن العاطفة الدينية تسيطر على نفسه . .

ولا نرى فى ذلك عجبا ، فمن قبله عاش كثير من الشعراء الإسلاميين حياتهم بشطريها ، الزاهدة واللاهية وعبروا عن كلا الجانبين فى تجارب صادقة ، بل كانوا يرون أن ذلك من كمال الشاعرية والقدرة على التصرف فى فنون القول .

وبعد أن يورد المؤلف شواهد لكلا الجانبين فى شعر شوقى يحاول تحليل هذا الازدواج ، ومع اعترافه بأن الازدواج

والتناقض موجود فى النفوس إلا أنه يرى أن مهمة الباحث رد هذا التناقض إلى أصوله الدقيقة ولا يرى لذلك علة عند شوقى إلا أنه عاش فى نقلة اجتماعية وعرضت عليه اللذات عرضا مغريا وهو الشاعر الرقيق، فكان مالا بد أن يكون وهو أن يفقد الزمام أمام لذته .

ونحن نرى أن ذلك الموقف المتردد بين الزهد واللذة ليس موقف شوقى وحده فهو موقف قديم وحديث أيضا ، وأى فرق فى ذلك بين أبى نواس وشوقى ؟ ورغم أن المؤلف أوضح أن أبا نواس أشد ما يكون شبها بشوقى فى ذلك الموقف إلا أنه رجع فأفرد شوقى بالحكم ، وجعله متأثرا بالنقلة الاجتماعية .

إن شوقى قد عبر عن أطوار حياته فى شعره وهو تعبير طبيعى لا يحتاج إلى إغراب فى التعليل .

وفى الفصل الثالث يتناول المؤلف جوانب أربعة شعر شوقى الإسلامى ، فيقسمه إلى ألوان : زعماء الإسلام ـ الناحية الدينية للإسلام ـ الناحية الاجتماعية ـ الناحية السياسية .

ويجعل المؤلف حديث شوقى عن زعماء الإسلام مصاحبا لفكرة الجامعة الإسلامية ليقتدى بهم المسلمون فى العصر الحديث ، وقد خص شوقى رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه بمزيد من عنايته والتفاته، والمؤلف يرى أن البوصيرى كان أول شاعر يدفعه صدق حبه للرسول إلى مدائحه النبوية [1] ، وهذا حكم خطير ليس له من دليل ، ولا يمكن إصدار مثل هذا الحكم إلا بعد الإحاطة بالتراث الشعرى من عصر النبوة إلى عصر البوصيرى ، وهو أمر لا يدعيه أحد الآن .

أما شوقى فله فى المدائح النبوية معارضته لبردة البوصيرى المعروفة بنهج البردة ، ثم الهمزية : ولد الهدى ـ التى تأثر فيها بهمزية البوصيرى ، وله بعد ذلك قطعة من قصيدته «همت الفلك» التى قالها سنة ١٨٩٤ والسيرة النبوية من أرجوزته «دول العرب وعظماء الإسلام» التى قالها بالأندلس .

ويرى المؤلف أن البوصيرى وشوقى من أبرز الشعراء الذين مدحوا الرسول عن عاطفة مشبوبة صادقة وإذا كان البوصيرى فى مدائحه النبوية يعبر عن حبه نحو الرسول فقد كان لشوقى هدف أبعد مدى من ذلك فهو يصور لنا صفات الرسول تلك التى كانت أكبر عون على تحقيق دعوته ، حتى تكون مثلا أعلى يقتدى به المسلمون فى حاضرهم .

وقد تخير شوقى من زعماء الإسلام طائفة يعتز بها التاريخ الإسلامى منذ عهد الخلفاء

(١) ص ١٠٢ .

الراشدين حتى العصر الحديث ، فقد ذكر الخلفاء الراشدين فى إجمال فى قصيدته : « نهج البردة » ثم تحدث فى إسهاب عن كل منهم فى أرجوزته : (دول العرب وعظماء الإسلام) كما نجد فى تلك الأرجوزة خالد بن الوليد ، وأشاد بعبقرية عمرو بن العاص وهمته وتقواه ، ودهاء معاوية وسياسته ، وطموح صقر قريش وكفاحه ، كما ذكر فيها المعز لدين الله الفاطمى ، وصلاح الدين الأيوبى .

وقد رثى شوقى رجال الإسلام ودعاته منوها بفضائلهم مشيداً بكفاحهم فى سبيل الإسلام لم يفرق بين جنس وجنس ، ولذلك يرثى الزعيم الهندى ، مولانا محمد على ، كما يرثى الشيخ عبد العزيز جاويش الذى رأى فيه شوقى مجاهداً حمل على كاهله قضية الأمة الإسلامية .

وبذلك تنوعت شخصيات زعماء الإسلام الذين تناولهم شوقى فى شعره ، ليمثلوا آماله فى نهضة أمته ، وتطلعه إلى تحقيق العزة والمجد لها .

وفى الناحية العقيدية للإسلام يتناول شوقى فى شعره حقائق وقضايا تمس الحياة فى المجتمع الإسلامى ، فهو يلتفت إلى مشكلة القضاء والقدر ويلفت المسلمين إلى حقيقتها ، ويؤيد بقاء الخلافة ويوضح أثرها فى حياة الأمة الإسلامية ، ويدعو إلى التسامح الذى يؤمن الجبهة الداخلية فى الأوطان الإسلامية ، ويتذكر الموت ، فيحث المسلمين على نبذ التكالب على حطام الدنيا ، ويدعوهم أن يعملوا ليموتوا كراما .

أما الناحية الاجتماعية للإسلام فقد تعرض شوقى فيها إلى عدة مسائل كانت تشغل الأذهان وتثير الجدل فى عصره ، مثل الحجاب والسفور وقد كان لشوقى رأى عجيب فى هذه القضية إذ كان يرضى عن السفور المرأة العثمانية التى لا يرى منها الإنسان إلا جلالا يبعث على التهيب والاحترام ولا يرتضيه للمرأة المصرية التى يخشى عليها من (الوحوش الضوارى) و(النسور الجهل)

إن الحجاب سماحة ويسارة
لولا وحوش فى الرجال ضوارى

ويقول :

إن طرت عن كننى
وقعت على النسور الجهل

وإلى جانب ذلك تناول شوقى المشكلة الأخلاقية فى المجتمع المصرى من زوايا متعددة ، تناول قضية العدالة الاجتماعية تناولا وسطا ، فدعا إلى المساواة فى حق الحياة وإلى تطبيق فرائض الإسلام فى الزكاة والتكافل الاجتماعى .

وفى الناحية السياسية كان لشوقى شعر قوى صادق ، يصور المأساة التى فتح عليها الشاعر

وجدانه، من أمة يتربص بها الأعداء، وينتقص من أطرافها فى كل يوم ، وكان يؤمن بفكرة الجامعة الإسلامية ويحسن الظن بدولة الخلافة ، على شرط أن تلتزم بالشورى ؛ ويقـول :

شر الحكومة أن يساس بواحد
فى الملك أقوام عداد رماله

وكان شوقى عميق الحزن شديد التفجع حين يصاب بلد إسلامى ، كأنما هو يرثى بضعة من نفسه ، ويربط فى ذلك الماضى بالحاضر فإذا سمع بغلبة البلغار على مدينة أدرنة سنة ١٩١٢ ذكره ذلك بالأندلس الضائعة :

يا أخت أندلس عليك سلام
هوت الخلافة عنك والإسلام
جرحان تمضى الأمتان عليهما
هذا يسيل وذاك لا يلتام

وكذلك تدمير الفرنسيين لدمشق سنة ١٩٢٦

ألست دمشق للإسلام ظئرا
ومرضعـة الأبوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يجمل
ولم يوسم بأزين منك فرق

وكان يدعو المسلمين إلى القوة والاستعداد ويحثهم على النهوض والرقى ويتوجع لما هم فيه من نوم عميق .

وكان الفصل الأخيـر من الكتاب استعراضا للأطوار التى سار فيها شعر شوقى الإسلامى، شعره قبل المنفى ، وشعره فى المنفى وشعره بعد عودته ، وليس ذلك التقسيم مرتبطا بالمنفى لذاته. ولكنها أطوار اجتماعية وسياسية جرت فى هذه الفترات :

ولكل طور من هذه الأطوار خصائصه فى شعر شوقى ، وإن كان المؤلف قد كرر استعراض بعض القصائد التى ذكـرها فى مواضع أخر من قبل ، بصدد استعراضه لخصائص الطور الذى تمثله من شعر شوقى ، ولم يكتف بذلك ، بل وازن بينها وبين غيرها فى موضع لا يستحق الموازنة ، مثل موازنته بين بردة البوصيرى ومعارضة شوقى لها[1] ولم يكن إليها من حاجة .

وفى خاتمة المطاف يتجه شوقى بشعره إلى الأمة الإسلامية يحثها على مواصلة الكفاح ويتغنى بما تحرزه من نصر ، وتختفى منه نغمة الضراعة والتمنى، التى كانت طابع شعره فى الطورين الأولين .

وبعد ، فهذا عرض الأفكار البارزة فى الكتاب لا يحتاج القارىء بعده إلا لقراءة الشواهد المتعددة وتتبع الأفكار فى صورها لدى الشاعر العظيم، وللمؤلف بعد ذلك فضل الدراسة المنهجية لجانب هام من شعر شوقى الذى لا نفتأ نردده ونجد فيه تعبيرا عن المشاعر والآمال .؟

مصطفى عبد الواحد

(١) ص ١٨٠ ، ١٩٠

أنباء وآراء

● عاد الدكتور « محمود حب الله » الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية من لندن فى ١٩٦٦/٩/٦ . وكان قد سافر إليها فى ١٩٦٦/٧/١٦ ليقوم بوضع التخطيط اللازم لتدعيم المركز الثقافى الإسلامى الذى يضم مسجداً جامعاً وقاعة للاجتماعات والمحاضرات ويقوم فضيلة الأستاذ عبد الجليل شلبي بإمامة الجالية الإسلامية هناك .

● يعقد المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، وتستغرق اجتماعاته أربعة أسابيع ابتداء من ٣٠ سبتمبر ، ويرأس المؤتمر الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر ، ويقوم بأمانة المؤتمر الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وقد أعدت قاعة مجلس محافظة القاهرة بميدان الجمهورية لتكون مقرا لاجتماعات المؤتمر .

● يناقش علماء المسلمين فى مؤتمرهم الذى يعقد يوم ١٩٦٦/٩/٣٠ فى القاهرة برياسة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر عدة بحوث علمية منها : القرآن فى التربية الإسلامية ، وتحديد أوائل الشهور القمرية والعفو فى القرآن ، ومكانة السنة فى بيان الأحكام الإسلامية ، والحديث وقيمته العلمية والدينية و « روح الإسلام أقوى دعامة لإصلاح المجتمع » كما يبحث وثيقتان فى (الأدب العربى فى سياسة الرعية) . كما يناقش المؤتمر تقارير عن التأمين ، والمعاملات المصرفية ، والاقتصاد الإسلامى والاقتصاد المعاصر ، والمجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام والتنوع والتكامل بين البيئات فى المجتمع الإسلامى .

● تم تأسيس « المركز الثقافى الاجتماعى الإسلامى » بعدن . وتلقت إدارة المجلة كتيباً يحوى النظام الأساسى للمركز ويوضح الباب الثانى منه أهداف المركز وهى تعنى بغرس العقيدة الإسلامية ، وتقوية روابط الإخاء والمحبة والدعوة إلى تعاليم الإسلام الحنيف ، والتمسك بمناهجه عمليا ، وتقديم خدمات إنسانية : اجتماعية وصحية وتربوية للمواطنين ورفع مستوى اللغة العربية بينهم .

● انتهت لجنة إعداد القاموس العلمى العربى من وضع الخطوط الأساسية للمشروع يضم القاموس ألف مصطلح علمى ويستغرق وضعه ثلاث سنوات ، تقرر تكوين لجنة لتوحيد المصطلحات العلمية العربية برياسة الدكتور أحمد رياض تركى رئيس المجلس الأعلى للبحث العلمى .

● منعت وزارة الثقافة والإرشاد العراقية جميع المطبوعات والمنشورات التي تصدرها المنظمة الصهيونية (بناى برتومن) أو فروعها من دخول العراق، كما منعت الوزارة دخول ثلاث عشرة مجلة لبنانية إلى العراق لنشرها صورا أو موضوعات تتنافى مع الآداب العامة.

● قام قسم رعاية الطفولة والأمومة بالمعهد العالي للصحة العامة بالإسكندرية تحت إشراف الدكتور فؤاد الشربيني رئيس القسم بعمل أول بحث عن المخدرات وانتشارها في المدينة والريف وآثارها على الصحة النفسية والعقلية، وقد أثبت البحث أن الإدمان على المخدرات هو السبب الوحيد في الأمراض العقلية في الريف.

● أعلن الدكتور «جيمس سوليفان» كبير الأطباء في مستشفى المحاربين القدماء بنبراسكا أنه وزملاءه قد اكتشفوا مرضاً جديداً غامضاً في القلب يشترك ضحاياه جميعاً في أنهم مفرطون في شرب «البيرة»، ومصابون بضعف في عضلات القلب، ويقول الأطباء الذين اكتشفوه، إن له صلة بشرب «البيرة» وقال سوليفان: إنه بالكشف على نحو أربعين حالة أصيبت بهذا المرض حدثت بينها عشر وفيات.

● اقترح الدكتور «خليفة جوينادى» أستاذ اللغة العربية بجامعة الجزائر ما أسماه: إدخال «إصلاحات» جذرية على الخط العربي لتسهيل التعليم في الجزائر. فطالب بأن تكتب العربية بحروف منفصلة، وأن تكتب الحروف المتحركة باللاتينية.

«هذا ما نشرته أخبار اليوم في عددها الصادر في ٤ / ٦ / ١٩٦٦ م وقد لا يكون اقتراح الدكتور جوينادى آخر اقتراح في هذا الموضوع فقد سبق أن نودى بإحلال الحروف اللاتينية محل العربية والاستغناء عن هذه الحروف جملة وتفصيلا.

«وقد نظر مجمع اللغة العربية في مئات الاقتراحات من هذا النوع وخصص جائزة مقدارها ألف جنيه لمن يقترح طريقة لتيسير الكتابة العربية ولكنه بعد البحث الطويل لم يجد فيما اقترح طريقة تحفظه للخط العربي جماله فألغى جميع المقترحات وترك الباب مفتوحا».

● جاءتنا من بعض الهيئات والوزارات «شيكات» بمبالغ مختلفة تسديداً لاشتراكات المجلة عن ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦ م، ولم يذكر في إخطاراتهم عدد النسخ المطلوبة، وسترسل إدارة المجلة من كل عدد يصدر ما يغطي قيمة الاشتراك المرسل إلى المجلة على اعتبار أن قيمة الاشتراك في النسخة الواحدة عن سنة أربعون قرشاً هي ثمن عشرة أعداد تصدر كل عام. وستوالي إدارة المجلة إرسال الأعداد إلى المشتركين بعد أن انتهت فترة إجازتها.

made so many travels into Greece, Asia Minor and Egypt with the purpose of studying materia medica and drugs. His book on materia medica is considered to be the most comprehensive one on the subject, as it contains a description of some thousand and four hundred drugs, three hunadred of which were utterly new in his time. The book was translated into Latin and German.

Not only did the arabs take in medicine as a science but they also took interest in it as a practice. They built hospitals since early times. El Waleed ibn Abdul Malek establised a hospital in 88 (Hejria) where Arab physicians practised medicine for pay. In the reign of Harun el-Racheed and his successors so many hospitals were established that any Islamic town hardly had been empty of them. The first hospital in Egypt was established by Ahmad ibn Touloun, and soon many hospitals were opeoned later on.

In conclusion, it may be said that all European books before the Renaissance were based on the arab medical sciences. Eurapean authors did not guarantee neither the wide distribution to their books nor the confidence of their readers unless they referred to the arab sources. When the translators found themselves unable to get Latin equivalents to the arabic terms they quoted them as they were. The dominance of the arab sciences was so great that European universities enjoined teaching the Canon of Ibn Sina within their medical curricula till the close of the sixteenth century. The books of Ibn Rushd continued to be studied in the universities of paris and Poland until the year 1546 A. D. Also, the arab book, on surgery, translated into Latin, continued to be studied in these till the year 1590.

Abdul Khaleq Amer

for centuries a standard authority on what would now be called meteria medica was printed in twenty six editions in the fifteenth century and later, and was used in the formation of the first London pharmacopoeia, by the College of Physicians in the reign of James I. Abu Quassim of al-Zahra near Cordova, in Spain, has attained the position of a classic. His great work Altaarit, a medical encyclopeadia, is chiefly valued for its surgical portion which was translated into Latin in the sixteenth century, and was for some centuries a standard if not the standard authority on surgery in Europe.

'Ibn Sina' has always been regarded as the chief representative of Arab medicine. He acquired the highest reputation through the whole of Muslim East. In Europe his works even eclipsed and superseded those of Hippocrates and Galen. His celebrated "Canon", an encyclopaedia of medical and surgical knowledge, is singularly complete and systematic.

But the real advance made by the Arabs was in pharmacy and the therapeutical use of drugs. By their relation whit the farther East, the Arabs became acquainted whit valuable new remedies which have held their ground till modern times, and their skill in chemistry enabled them to prepare new chemical remedies and form many combinations of those already in use. They produced the first pharmacopoeia and established the first apothecaries. Many of the names and many froms of medicine now used, in fact the general outline of modern pharmacy, except so far as modified by modern chemistry, started with the Arabs.

They have known so many chemical processes as distillation, calcification and filtering, and introduced a great number of Arab Chemical preparations such as alcohol, camphor, pink, quicksilver (mercury), ambergris, musk, senna,...etc. Thanks to Jabîr ibn Hayyan, who is considered to be the father of modern chemistry, he discovered nitric acid (aqua fortis) and the royal water (aqua regia, nitrohydrocloric acid).

The Arab Muslims discovered also the possibility of anaesthetization through breathing and used it in their surgery. In the thirteenth century A. D. the arab way of aneasthetization was conveyed to Europe.

One of the most prominent Arab medical scientists in the twelfth century A. D. is Ibn el-Bitar who

They also tried to analyse the properties of air, water, fire and earth and the deficiencies or excesses of these elements in other chemical substances. They developed a formidable body of real chemical knowledge and practical techniques which came to the west by way of Byzantine, Italy and Spain.

A very important contribution to astronomy by Arab scholars was the development of its essential ancillary science, plane spherical trigonometry. Arab mathematicians had taken over the sine as a measure of an arc from the Indians and substituted it for the Greek chord. Through the efforts of various Arab mathematicians and astronomers, especially al-Battani, Abu al-Wafa, and Nasir al-din-al-Tusi, Trigonometry became an independent science which reached such a high level of development that it could later on simply be taken over in the west. Nasir al-din-al Tusi was the head of an astronomical observatory founded at Maragha by the Mongolian ruler Hulagu il khan (Il khan of Persia).

The rise of the Muslim Empire made its mark also on the history of medicine. After the Muslim conquests became consolidated learning began to flowrish and schools of medicine, often connected with hospitals, arose in all the chief seats of Muslim power. At Demascus, Greek medicine was zealously cultivated, In Baghdad, under the rule of Harun al-Racheed and his successors, a still more flourfshing school arose, where numerous translations of Greek medical works were made. The names of Yehia ibn Massawaih, celebrated for his knowledge of drugs, and Hunain ibn Ishaq al-Ibadi, the translator and common tutor of Hiptecrates and Galen, belong to this period.

The classical period of Arab medicine begins wth al-Razi who practised medicine with distinction at Baghdad. He was the first of the Arabs to treat medicine in a comprehensive and encyclopaedic manner. He is deservedly remembered as having first described smallpox and measles in an accurate manner.

Another arab scholar, Ali ibn al-Abdas wrote a medical textbook, known as the "Royal Book" which was the standard authority among the Arabs up to the time of 'ibn Sina' and was more than once translated into Latin and printed. The eleventh century is given as the probable date of a writer who had a great influence on European medicine, Mesua the younger of Damascus. The work "De simplicibus", which bears his name, was

It may safely be said that, when the ninth century was drawing to its close, an appreciable portion of the principal remains of Greek philosophical and technical literature was accessible in Arabic.

If Muslims have done no more than assimilating and preserving Greek and Indian lore, their historical significance for the development of natural science would be greater than that of Rome and Byzantine together. they surpasse them even more because many Islamitic scholars also enriched science by independent discoveries. Suffice it to mention the names of only two scholars out of a large group who contributed to the growth of science.

The astronomer al-Battani is the author of an important textbook on astronomy which had great authority up to the sixteenth century. By accurate observations he improved various astronomical constants (e.g. the constant of precession) and discovered the progressive motion of the line of apsides of the sun's orbit. He also brought goniometry to a higher degree of development.

The other scholar is the mathematician, physicist and astronomer ibn-al-Haitham, whose significance is mainly based on his great work on optics, Kitab al-Manazir. This book under the title of Opticae Thesaurus occupied an important place in European physics down to the seventeenth century. Ibn-al-Haitham gave a letter descriptition of the structure and operation of the eye. His name remained attached to the problem of how to determine a point on a convex spheric mirror on which a light ray from a source of light will be reflected in such a way that the ray will reach the eye of a given observer. He also discussed the phenomenon of twilight which he wanted to use to determine the height of the atmosphere.

In the field of Arab alchemy too we find practical alchemists like Jabir Ibn Hayyan (ninth century) who held that the specific properties of chemicals are measurable as they are built up according to mensurable relations, thus sowing the seeds of quantitative chemistry.

Arab alchemists also introduced Chinese and Indian concepts into Greek alchemy. They modified the Transmutation theory as they believed that the metals and minerals in the earth had been formed by 'moist' and 'dry' vapours. The transmutation of a metal could be effected by a powder so sprinkled on it or by a medicine to be added to it. This they expressed in the Arabic term al-iksir (elixir), the preparation of which started with cinnabar, the red compound of sulphur and mercury.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Jumâdal-ûla 1386

ENGLISH SECTION
EDITED BY :
A. M. MOHIADDIN ALWAYE

August 1966

THE ROLE OF ISLAM IN THE DEVELOPMENT OF SCIENCE

Considering the paths along which Greek thought on nature penetrated into Western Europe we can distinguish three areas of culture which contributed to the preservation of Greek science and helped to spread it. They are Muslims, Rome and Byzantine.

Neither of the two latter means of transmission can compare in importance with the first, that of Islamic culture. The tremendous energy which propelled the political expansion of the Arabs from the seventh century onward was attended with a remarkable capacity to assimilate what the older civilizations of the subjected countries had to offer.

Contact with Greek science was chiefly established in the Near East, where extending Christianity had brought Hellenistic culture. There had been schools where theology and philosophy were studied. Greek texts of a philosophical nature on various branches of science had been into Syrian. Finally the University of Jundi-Shapur had become a nursery of Greek culture, and, mainly in the eighth and ninth centuries became a centre of assimilation of this culture by Islam. This assimilation was greatly furthered because al-Mansur, Harun-al-Raschid and al-Ma'mum, the great caliphs of the House of the Abbassides, vigorously stimulated the translation of Greek works into Arabic. Interest was at first mainly focused on medical and astrological works, but soon it was also directed to astronomical, mathematical and philosophical writings.



رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الرابع - السنة الثامنة والثلاثون - جمادى الآخرة سنة ١٣٨٦ هـ - اكتوبر ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

يا لله لدينه المظلوم ... !

بقلم
أحمد حسن الزيات



أرأيت إلى قطر المزن ينزل من السماء على الأرض الطيبة صافيا كالإيمان ، نقيا كالحق، عذبا كالصدق ، فيخرج الحي من الميت ، وينبت الحب من الصخر ، ويملأ الأرض حضارة ونضارة وبركة . فإذا وقع في خبيثها انقلب أسناً لا حياة فيه ، وعطنا لا نفع منه وجوا وبيئا يطن فوقه البعوض ، وتسبح تحته الجراثيم ؛ فيهلك الحي ، ويدرس العامر ، ويجدب الخصيب .

ذلك مثل دين الله أنزله على رسوله بالهدى والنور ، والحق والخير ، والعدل والرحمة . فتقبلته البصائر المجلوة بالقبول الحسن فأحياها وهداها ورقاها ، وجعل منها هذه الأمة الوسط التي أمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وأصلحت ما فسد من أمور الناس، وقومت ما اعوج من نظام الدنيا . وبلغت بفتوح الجيش ، وفتوح الدين ، وفتوح العلم وفتوح الخلق من السلطان والعمران ما لم تبلغه أمة من قبل ، فنزل على حكمها الدهر ودخل في ملكها العالم .

أما النفوس المظلمة والبصائر الكدرة فقد حل فيها الدين حلول الشراب الخالص في الإناء القذر، فتكدر لونه، وتغير طعمه، وأراحت ريحه، فانقلب الإسلام جهلا، والسلام حربا، والوئام فرقة وذلك مصداق قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا كان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ»، وهذه الطائفة الأخرى هي التي حملت اسم الإسلام وغيرت مسماه، وحفظت نص القرآن وزيفت معناه، وجعلت من سطور المصحف حبائل للصيد، ووسائل للحكم؛ فكفرت المسلمين، وروعت الآمنين، وقتلت الأبرياء، واستحيت النساء وذبحت الأبناء باسم (الخوارج). وطمست في قلوب المؤمنين اليمنيين مبادىء الدين فسكنوا اثنى عشر قرنا سكون الجماد لا يشعرون بالفلك وهو دائر، ولا بالعالم وهو سائر؛ لأن الجهل والفقر والمرض والترهات والشعوذة تعاونت على عزلهم عن الوجود باسم (الأئمة). وغيرت مفاهيم القرآن وتعاليم السنة فسمت الإسلام جاهلية، والتوحيد وثنية، والبغي عدلا، والغى رشدا، والمشورة فوضى، والعداوة أخوة، وتوسلت بالتدسس والتفجير والاغتيال والخيانة إلى قتل الأمة وهدم الوطن، وهم مع ذلك يقرأون القرآن، ويتلون الأوراد ويقيمون الشعائر، ويتسمون باسم (الإخوان).

ومن هذه الطائفة التي استنقعت في قلوبها رواسب المادية، وشوائب البهيمية ملوك وزعماء نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فهم لا يشعرون بأنهم عرب لأنهم بجفتهم فقدوا أخلاق العروبة، ولا أنهم مسلمون لأنهم بجهالتهم أنكروا خلال الإسلام؛ إنما هم عبيد المال وأسرى الشهوة وأكلة الحرام وقملة المنكر ومستعبدو الشعب وعابدو المستعمر، وموقظو الفتنة، وباعثو الفرقة وناشرو الرجعية، وناصرو الجريمة، ودعاة الهزيمة، يشاقون الله ورسوله من بعدما تبين لهم الهدى، ويتبعون غير سبيل المؤمنين في جهاد الصهيونية، ودفاع الأمريكية، ويدعون الدول المحمدية باسم الله إلى حلف يؤيد هذه المبادىء، ويعتقد هذه المخازى؛ ليحول بين العرب والوحدة، وبين الظلم والثورة، ويؤجل اليوم الذى يرى فيه عرب الجزيرة أن بواديهم لم تعد رملا ولا صخرا، ولا آبارا

تبض بالماء ولا مراعى تضن بالعشب ، وإنما أصبحت بفضل الأبحر السود التى تموج من تحتها بالنفط مناجم تقذف بالتبر وقصورا تضج بالجوارى ، وجنانا تفيض بالنعيم ، فيملدون أن أولئك كله قد استأثرت به فئة باغية تبذله فى البغى ، وتنفقه فى اللهو ، وتترك أصحابه للعرى والجوع والعبودية والمشقة ، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولقد حق الوعى الذى أيقظته ثورة تاريخ ، وأنضجته عبقرية جنس ، وأكملته عقيدة دين ، فسرى فى الوطن الإسلامى رَوح من قلق الروح لا يصبر على الهون ، ولا يرضى بالدون ، ولا يعنو وجهه لغير ربه . ولقد ملك هذا القلق الروحى الجزيرة كلها رأسها وقلبها وأطرافها فتلاقت القحطانية فى الجنوب والعدنانية فى الشمال على موعد من مواعيد الحق ليضعوا الأغلال التى عليهم فى أعناق من استعبدوهم باسم الدين ، واستذلوهم بقوة الجهل ، ولينطلقوا خفافا إلى حياة أفضل ومقام أكرم .

* * *

ليس هذا الذى فعله الخوارج بالأمس ويفعله الإخوان والأئمة والملوك اليوم من الإسلام فى شىء ؛ إنما هو التعصب الجامد والدنيا الغرور ، والهوى المضل ، والحقد الأسود ، والطغيان العاتى ، والكفران المقنع ، والموالاة للعدو ، والمداجاة للصديق ، والمهاواة للمال ، لبست كلها لباس الدين ، واتسمت بسمة الخلافة ، وطارت من جو إلى جو ، وانطلقت من بلد إلى بلد ، تبشر بدين الدولار ، وتهتف بحياة الاستعمار ، وتقول لهؤلاء الذين تتحلب أشداقهم للثروة ، وترجف قلوبهم من الثورة : إن ديننا فى بلبلة ، لأن عروشنا فى زلزلة ، وما زلزل الأرض من تحتنا إلا هذه الأمم الاشتراكية الثائرة التى تريد أن تسوى بين العقال المذهب والعقال الصوف ، وتجعل الخباء المطنب بإزاء القصر المشيد .

فتعالوا نرفع المصاحف على الرماح ، ونقل لهم : لا حكم إلا لله ، ولا حلف إلا الإسلام ، ولا نعدم بفضل قناطيرنا المقنطرة من الذهب والفضة من يقول : إن المساواة فى المجتمع ضد الطبيعة ، وإن الاشتراكية فى الرزق ضد الدين ، وإن الذين يقولون بها ويسعون لها إنما جزاؤهم النسف بالقنابل ، والطعن بالخناجر ، وإن المجتمع الذى شادوه بالكفاية والعدل ، وقادوه بالإخلاص والحب ، إنما هو مجتمع كافر يجب أن يدمر من أساسه ، فلا يبقى عمران ولا سكان . وإنما يبقى البدو ، وتقوم الخيمة ، ويهدر

الجهل ، ويحكم العقال ، وتعود الأمة التى أوجدها الله ، ووحدها محمد ومدنها الرشيد أمة من الرعاة تكدح بلا أجر ، وتعيش بلا أمل ، وتموت بلا دين .

• • •

باسم الإسلام دين السلام كاد يكون هذا ، وباسم الإسلام دين الوئام يدأب الضالون أن يكون هذا . والضالون فى وطن العرب كله لا يزيدون على ثلاثة نفر ضعفاء فى الدين والسلطان والقومية ، ولكنهم أقوياء بالمال والاستعمار والصهيونية ، فإذا جردوا من الألقاب المزيفة ، وأزيلوا عن العروش المستعارة ، عادوا ناسا أقل من الناس ، وشيئا أحقر من لا شىء .

والسبيل إلى ذلك أن يعرف العرب فى كل مكان أنهم مسلمون والمسلم لا يدين إلا لله ، وأنهم عرب والعربى لا يستكين للذل ، وأنهم أصحاب الأرض وما فوقها من زرع وضرع ، وما تحتها من بترول وركاز ، فليس من كرامة المسلمين ولا من شهامة العرب أن يدعوا هؤلاء الطفيليين يستأثرون بخيرها دونهم ، وما قوتهم إلا منهم ، ولا سطوتهم إلا بهم .

فلو أن المسلمين اعتقدوا ربهم اعتقاد المؤمن ، وفقهوا دينهم فقه الموقن ، واتبعوا رسولهم اتباع المصدق ، لميزوا المصلح من المفسد ، وعرفوا الهادى من المضل ، واجتنبوا الطريق الذى يُسَنِّبه الشيطان إلى الطريق الذى يسنه الله ، والأزهر فينا ومجمع البحوث الإسلامية فيه ، هما الكفيلان بتقوية الوعى الإسلامى ، وتسوية الصف العربى ، بتوحيد الكلمة ، وتوكيد الميثاق ، وتأييد حزب الله الذى جعل له القرآن نورا والسنة دستورا والجماعة قوة ، وتفنيد حزب الشيطان الذى جعل له البغى شريعة والغدر طبيعة والاستعمار غاية ، وذلك إنما يكون عن طريق التعليم بالمدارس والوعظ فى المساجد ، والنشر فى الصحف ، والحديث فى الإذاعة ، والبحث فى المؤتمر ، والنظر قبل ذلك كله فيما يقرأ المسلمون من كتب وفيما يقمش الموهون من بدع ؛ فإن تنقية الدين مما علق به ودس فيه تكشف للناس عن جوهره ، وتصلهم بروحه .

إن الغمام يحجب الشمس ، وإن القذى يفسد الشراب ، وإن الماء إذا راق ساغ ، وإذا ساغ روى ؟

أحمد حسن الزيات

المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية

كان الخامس عشر من جمادى الآخرة ١٣٨٦ موعد اللقاء بين علماء المسلمين ومفكريهم على أرض الكنانة وفى رحبة الأزهر الشريف حرم العلم وكعبة العلماء منذ أكثر من عشرة قرون .

وهو لقاء مسبوق بلقاءات ، واجتماع تقدمته اجتماعات فلا يكاد ينقضى مؤتمر لمجمع البحوث حتى تستأنف الأمانة العامة عملها فى الإعداد لمؤتمر آخر ، ولا يقر العلماء رأيا جديدا أو يضعون حلا لمشكلة حتى يجد المجمع حصيلة جديدة من المباحث وعددا جديدا من المشكلات ، شأن الحياة فى تجددها وتعقدها وكثرة متطلباتها .

ولقد عقد مجمع البحوث مؤتمرين من قبل ، أحدهما عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م والثانى عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م ، وفى كل مؤتمر تعرض بحوث ومشكلات ، وتدور دراسات ومناقشات ، وتقرر قرارات وتقترح توصيات وكل الذى يبحث ويدرس ، ويوصى به أو يتقرر يأخذ أحد وضعين :

الوضع الأول : أن يضاف إلى رصيد الأمة الإسلامية الفكرى وتتأكد به صلاحية الشريعة لمتطلبات الحياة ، باعتبار القواعد الكلية والقضايا العامة لهذه الشريعة فتستوعب كل جديد فى غير تفريط ، وتخدم الحياة من غير إفراط لأنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه ، ومن صبغة الله (ومن أحسن من الله صبغة) ولأن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها وأخذهم بها ، وهداهم إليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

ومن هنا كان الإسلام بشريعته جديداً لا يبلى ، ومن حوله الحياة تتجدد وتقبدد ، والوجود يتغير ويتحول ، والإسلام اليوم وغدا هو الإسلام الذى بعث به محمد بن عبد الله والدين الذى ارتضاه الله .

والناحية الأخرى من الدراسة والبحث ، والتقرير والتوصية هى نمو الإحساس الروحى فى المسلمين ، وتوثق الروابط بحبل العقيدة ، وتقرير المصالح بدافع الإيمان بالجماعة ، والتكافل بين المسلمين .

هذا النمو الوجدانى وذلك الرباط العقدى هو المصفاة التى تنق جو التعاون الإسلامى بين شعوب المسلمين من أدران المصالح الدنيوية ، وزهو السلطان .

ولا يكدر صفو الأمل فى هذه الوحدة الإسلامية بطء النمو ، أو قلة الكم ما دامت البذرة منتقاة والأرض صالحة والجو مناسبا وما دامت الرعاية دائمة والصيانة قائمة ، والمحاولة متجددة .

وهى بحمد الله متجددة وموصولة ، لأن هذه المؤتمرات فتحت عيون المسلمين على

هيئة ترعاه ، وترعى الأمة كلها هذه الهيئة ، وأشرق فى قلوبهم نور الأمل ، لأن دوافع الرعاية قلبية دينية ، ولأن ميثاق العمل إلهى ربانى .

لذلك فإن رسالة مجمع البحوث الإسلامية وأهداف مؤتمره تتبلور يوما بعد يوم ، وتتعلق قلوب المسلمين بها عاما بعد عام حتى لكأن مجمع البحوث فى مؤتمر دائم بهذه المراسلات التى يتلقاها والرغبات التى ترد إليه ، والمشكلات التى يطلب رأيه فيها ... من أجل ذلك فإن المؤتمر المعقود فى القاهرة اليوم ليس العشرات الذين دعوا للمشاركة فى أعماله فحسب ، وإنما هو مؤتمر ستمائة مليون مسلم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن الإسلام هو الدين المرضى ، وأن المسلمين أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، لا يزيغ عن ذلك العهد إلا ضال ، ولا ينقضه إلا مضل .

المسلمون فى ضيافة الأزهر :

فإذا شاء قائل أن يقول : إن ستمائة مليون كانوا ضيوفا على الأزهر فهو صادق ، وأن ستمائة مليون التمروا فى مجمع البحوث فهو صادق لأن هذه هى حقيقة الدافع من عقد ذلك المؤتمر .

ولقد جند الأزهر شيوخه وشبابه وجند مجمع البحوث أجهزته وإداراته ليسهر على خدمة أعمال هذا المؤتمر ، وكانت تجربة خاض الشيوخ غمارها ، وامتحانا اجتازته أجهزة الأزهر بنجاح .

فشهد مطار القاهرة الدولى شيوخ الأزهر يتناوبون العمل فيه ، يستقبلون القادم ، ويستضيفون المدعو ، ويخدمون الأعضاء .

وطائفة أخرى لم يشهدها المطار لازمت الفنادق تهيء المبيت وتشرف على الطعام ، وتوفر المركب .

ومن خلف هؤلاء وأولئك جماعات وجماعات تنهض بشئون الإدارة ، وتجهز لأعمال المؤتمر .

مشاعر وأحاسيس :

ولقد أحست وفود المؤتمر أن الأزهر وحده لم يكن فى خدمتها وإنما كان من خلفه كل مسلم فى كل جهاز من أجهزة الدولة ، وفى كل مرفق من مرافقها ، كأنما الوفود ضيوف عليه ، ومن خلف هؤلاء وهؤلاء أجهزة الإعلام جميعا من صحافة وإذاعة وتليفزيون يتابعون أعمالهم ويكتبون عنهم ويذيعون لهم ، ويقدمونهم لشعب الجمهورية العربية فى حرص كريم على أن ينتفعوا بكل لحظة يقضونها وأن يتعرف عليهم الناس فى كل مكان ينزلون فيه .

من قارات ثلاث :

ومن القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوربا وفدت الوفود يمثلون تسعا وعشرين دولة :

فمن آسيا :

الأردن ، أندونسيا ، العراق ، عمان ، اليمن ، الكويت ، لبنان ، سوريا ، غزة ، باكستان ، الفليبين ، مالزيا ، الهند ، اليابان

ومن إفريقيا

السودان ، تنزانيا ، ليبيا ، المغرب ، موريتانيا ، كينيا ، النيجر ، سيراليون ، الجمهورية العربية المتحدة .

ومن أوربا وغيرها :

يوغوسلافيا ، وروسيا

كما ضمت هذه الوفود ثلاثة وسبعين عضوا هم السادة : / عبد الكريم سايتو من اليابان ، وجمال الدين أميى ووان عبد الهادى إسماعيل من ماليزيا ، والشيخ عبد الله غوشه والشيخ عبد الحميد السايح من الأردن والشيخ محمد ناجى أبو شعبان والشيخ محمد عواد من غزة ، وسعيد أحمد أكبر آبادى وعبد الوهاب بخارى وعبد المعيد خان ومحمد إقبال أنصارى ومحمد إسلام الدين ومصطفى فقيه من الهند ، والشيخ على عبد الرحمن ، والشيخ إبراهيم سوار الذهب ، من السودان ، والشيخ نديم الجسر من لبنان والسناتور أحمد النتو ومونتال تاغو من الفلبين ، وضياء الدين بابا خانوف وأحمد شين من روسيا ، وحسن سليمان جوزو من يوغوسلافيا ، وراشد عبد الله الفرحان وعلى عبد القادر الجسار من الكويت ، ومحمد عبد الرحمن عبد الله من تنزانيا ، والشيخ عبد الرحمن القلهود من ليبيا ، والأستاذ عبد الله كنون من المغرب ، وسليمان بن حمير من عمان والحاج محمد سالم عبد الودود من موريتانيا ، والشيخ محمد يوسف البنورى ، ومولانا مفتى محمود من باكستان ، والأستاذ أحمد شيخو ومحمد طه يحيى عمر والدكتور محمود يونس من أندونسيا ، وجمعه أحمد عبد الله ، وشريف عبد الله من كينيا ، والشيخ نجم الدين الواعظ وعبد الله الشخلى وكاظم الكفائى ، وكمال الدين الطائى ومحمد نعمة من العراق ، والحاج عمر أحمد من النيجر ، وعبد الستار الصعيد وفخر الدين الحسيني من سوريا ، وقاسم غالب أحمد من اليمن ، وسورى إبراهيم كانو من سيراليون .

صلاة الجمعة

فى الجامع الأزهر

ولقد كانت صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر أول لقاء بين أعضاء الوفود فى الخامس عشر من جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ الموافق ٣٠ سبتمبر ١٩٦٦ كما كان فى استقبالهم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، والدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وجمع كبير من شيوخ الأزهر وعلمائه ، وطوائف الشعب المصرى الذين ضاق بهم الجامع الأزهر على سعته . فاستمعوا إلى خطبة الجمعة من

الشيخ إبراهيم الدسوقي مدير المساجد ، وأدوا فريضة الجمعة ، ثم خرجوا بين تحية الجماهير وعواطفهم الأخوية وترحيبهم الحار .

السيد حسين الشافعي

ينوب عن السيد الرئيس في افتتاح المؤتمر

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ١٦ من جادى الآخرة الموافق ١ من أكتوبر سنة ١٩٦٦ في قاعة محافظة القاهرة بميدان الجمهورية حضر السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية ليفتتح الحفل نيابة عن السيد الرئيس جمال عبد الناصر وكان في استقباله فضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر والدكتور محمد عبد الله ماضي وكيل الأزهر والدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وحضر الحفل من الوزراء السادة أمين هويدى وزير الدولة لشئون الأزهر والدكتور أحمد خليفة وزير الأوقاف والشئون الاجتماعية ، ومحمد فائق وزير الإرشاد ، وسعد الدين زايد محافظ القاهرة وجمع كبير من سفراء السلك السياسي العربي والإسلامي ، ومديرى وعمداء وأساتذة جامعة الأزهر والجامعات المصرية والعلماء وكبار رجال الأزهر . وممثلي الصحافة والإذاعة والتليفزيون ووكالات الأنباء العربية والأجنبية .

حفل الافتتاح

وقد بدئ حفل الافتتاح بتلاوة آيات من كتاب الله تلاها فضيلة الشيخ محمود خليل الحصرى ثم ألقى فضيلة الإمام الأكبر كلمة الافتتاح وأعقبه فضيلة الشيخ إبراهيم سوار الذهب نيابة عن وفود المؤتمر ، ثم الدكتور محمود حب الله الأمين العام للمجمع ، ثم ختمت الكلمات بكلمة السيد حسين الشافعي نائبا عن السيد الرئيس جمال عبد الناصر مؤكدا عناية الدولة بالأزهر ، واهتمامها برسالة مجمع البحوث الإسلامية ودوره الكبير في تهيئة الفرص أمام علماء المسلمين للاجتماع من أجل العلم المتحرر من أى مفهوم سياسي يباعد بين الأزهر وبين خاصيته العلمية الجديرة به مقدرا المجمع جهوده رافعا إليه تحيته وتقديره .

ثم ختم الشيخ محمود خليل الحصرى الحفل بمثل ما افتتحه به بتلاوة آيات من كتاب الله الكريم .

إذاعة الاحتفال

ولقد ضمت إذاعة الجمهورية العربية المتحدة موجات برامجها وأذاعت الاحتفال على كل موجاتها بخمس وستين لغة ، كما سجل (التليفزيون) الحفل تسجيلا (سينمائيا) ليظل ذكرى باقية للدعوة إلى جمع كلمة المسلمين ، والعمل على توحيد جهودهم ولم شملهم .

وفيما يلى الكلمات التى ألقيت فى حفل الافتتاح :



جانب من القاعة فى حفلة افتتاح المؤتمر الإسلامى الثالث لمجمع البحوث الإسلامية

كلمة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

فى افتتاح المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية

في يوم السبت ١٦ من جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ الموافق ١ من أكتوبر ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم :

أفتتح الدورة الثالثة لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية ، وفى رحاب الأزهر أحييكم ، يا حضرات المدعوين ، بتحية الإسلام التى أولها سلام وآخرها رحمة وبركات من الله سبحانه وتعالى (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وأحييكم مرة ثانية عن المسلمين جميعا تحية الأمل فيكم والرجاء منكم ، متوجها بحمد الله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وبعد : فإن الجمهورية العربية المتحدة التى شرفت بالإسلام دينا ، وبالعربية لسانا ، وبالأزهر معهدا ـ يسعدها أن تستقبل علماء المسلمين من جميع بقاع الأرض . استقبالا يليق بكريم ما دعتهم إليه من جليل الأعمال ونبيل الآمال ، ويشرفها أن تهيىء الفرصة للإسلام ، ليسمع الدنيا الحائرة كلمة الحق بألسنة صدق .

وإن الجمهورية العربية المتحدة إيمانا منها بأن الدين عند الله الإسلام . قد عرفت صلاحيته لكل زمان ومكان ، وأدركت ملاءمة مبادئه لكل ما يوجد من أقضية الحياة وحتمية التطور ، لأنه من صنع الله الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .



فضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون

ونتيجة لهذا الإيمان العميق بدين الإسلام وتفوق مبادئه وتميز تشريعاته واستيعاب قضاياه لكل جوانب الحياة ـ تدعو الجمهورية العربية المتحدة عن طريق الأزهر كل عام لهذا المؤتمر ، لتسمع الدنيا كلها ما انتهى إليه علماء المسلمين من بحوث تجلى الدين فى جوهره الأصيل صلبا بلا جمود ، متطورا دون تحلل ، مستوعبا من غير تمحل .

ولقد كان هذا المؤتمر عند حسن ظن الداعين إليه ، وجميل رأى المسلمين فيه ، فقدم فى دورتيه السابقتين حصيلة علمية ضخمة دسمة اعتمدت على صفاء الملكات فى عمق البحث واستقصاء الدرس ، وتنوع الموضوعات ، وملاءمة البحوث لروح العصر ، ومقتضيات الحياة .

وقد استوعب مجمع البحوث بتوصيات مؤتمره ، ومقررات مجلسه ما يشغل بال المسلمين فى أوطانهم من تحرير البلاد من الاستعمار ، وتطهيرها من زيغ العقائد وتبصيرها بزيف الثقافات البعيدة عن المنطق والحق .

وإنا لنؤمل فى هذه الدورة مزيدا من فضل الله علينا فى الفهم عنه والاستمداد منه فهما لقرآنه الكريم ، واستهداء بسنة رسوله العظيم سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه ، وبروح اجتهاد علماء المسلمين الذين فهموا الإسلام فهما بعيدا عن التعصب متصفين بسماحة الحجة ، وأدب الجدل حتى نؤكد للعالم المعاصر غنى الإسلام بكل مقومات الحياة الفاضلة ، والمجتمع السعيد المتعاون على البر والخير .

وحين نوفق إن شاء الله فى تحقيق هذا الهدف نكون قد قطعنا على أعداء الإسلام تشكيك المسلمين فى صلاحية دينهم للارتقاء بالحياة فى جميع فروعها رقيا جادا ، وفى إعطاء الإنسانية حضارة مستقيمة كاملة ماديا وروحيا .

وإذا قطعنا على أعداء الإسلام هذه السبل ، فلن نجد بعون الله سماعين لهم ولا مخدوعين بتضليلاتهم ، ولا مستجيبين لترهاتهم .

وبهذا يصفو الجو الإسلامى من الكيد لوحدة المسلمين بالدس الذى يفرق جمعهم والفتنة التى تمزق شملهم ، وإذ ذاك يعرف المسلمون أعداءهم الحقيقيين سافرين أو مقنعين .

وإذا كانت خدمة الإسلام هى الهدف الأصيل لهذا المؤتمر - فإن واجب المسلمين الأول أن يمسحوا الأرض الإسلامية مسحاً دقيقا نزيها يطهرها من كل دخيل غاصب أو عميل مسلط ، وعلى علماء المسلمين توعية إخوانهم فى الدين حتى يكون الجميع على بصيرة من رأى الإسلام فى تكتل ظاهره إسلام وباطنه استئصال .

وإن قديم التاريخ وحديثه - ليدلنا على أن أعداء الإسلام فى ماضيه هم بعينهم أعداء الإسلام فى حاضره ، وصهيونية اليوم هى امتداد لصليبية الأمس .

وإذا عرف المسلمون هذه الحقيقة ، فإنهم يعرفون من الذين نهاهم الله تعالى بقوله : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

ووفاء بهذا الواجب نظر مجلس المجمع فى اجتماعه الحادى والعشرين فى غرة ذى الحجة سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٥ فى موقف المجمع من مشروع الحلف الإسلامى

وتناولت الدراسة فكرة مشروع هذا الحلف وتطور الدعوة إليه، واستعرض مجلس المجمع موقف بعض الداعين الذين يروجون لمشروع الحلف في منطقتي المشرق والمغرب العربيين وقضايا الحرية في المنطقة، ومن تعاليم الإسلام نفسه، وكذلك موقف الدول الإسلامية المساندة له من القضايا الإسلامية والعربية، ثم تهليل الصهيونية في العالم لمشروع هذا الحلف، وتجنيد كل أجهزة الإعلام في إسرائيل للدعوة له، كما ناقش المجلس البيان الذي كنت قد أصدرته قبل اجتماع المجلس بشأن استنكار الدعوة لمشروع هذا الحلف وأصدر المجلس القرار الآتي:

أولا: يستنكر مجمع البحوث الإسلامية ما تنطوي عليه الدعوة لهذا الحلف من فكرة سياسية واستعمارية ويدعو الدول الإسلامية إلى أن تأخذ حذرها من خداع أساليب السياسة الاستعمارية.

ثانيا: يؤيد المجلس البيان الذي أصدره شيخ الأزهر بشأن هذا الحلف ويعتبره معبرا عن موقف المجمع من الدعوة له.

وقد أودع هذا البيان بأمانة المجمع ليطلع عليه من يشاء من حضراتكم.

وإذا كنا نختلف مع الداعين لهذا الحلف لما نلمسه من الضرر الذي يمس مصالح الإسلام والمسلمين ويفيد منه الاستعمار والصهيونية - فإننا نهيب بالداعين إلى هذا الحلف أن راجعوا النظر في الدعوة إليه، ويقارنوا بين ما يقصدونه من آمال وبين ما يترتب عليه من سوء استغلال، فنحن جميعا مسلمون يجب أن ندع ما يريب إلى ما لا يريب وأن نترك ما شبه وأن نستبرىء لدينا وعلينا أن نجعل هدفنا وحدة المسلمين وجمع كلمتهم على الحق، وهو ما يهدف إليه مؤتمركم ويدعو إليه الإسلام.

أيها السادة:

إننا معاشر العلماء بما حملنا الله من أمانة العلم، مسئولون أمام الله سبحانه وتعالى عن تجلية عقائد الإسلام والدعوة له بالحكمة والموعظة الحسنة مهتدين في دعوتنا بقول الله تعالى «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» وبقوله تعالى «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله».

وإننا لنعلن للعالم كله أن الإسلام يدعو الناس جميعا إلى كلمة سواء وهى ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا، لأنه الخالق لكل شيء العليم بكل شيء والمتصف بكل صفات الكمال — ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ولقد علم الله سبحانه حاجة الناس إلى الإسلام، فأنزل على رسوله محمد صلى الله

عليه وسلم القرآن الكريم ، كلام رب العالمين ووعد بحفظه من كل تغيير أو تبديل قال تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ومن يعتنق الإسلام من أهل الأديان السماوية الأخرى عن طواعية واختيار لا يطلب منه أن ينكر رسالة رسوله ويكفيه أن يصحح عقيدته في ألوهية الله وحده وترك الشرك به ، والإخلاص في عبادته وحده والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالة جميع الرسل السابقين عليه بما فيهم الرسول الذي ينتمي إليه .

ودعوة الإسلام قائمة على أن الناس جميعا مخلوقون لله تعالى وعلى أنهم سواء أمامه لا يتمايزون بجنس أو لون . وإنما يتمايزون بأعمالهم ، وقد أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرنا . قال الله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

ويهمنا أيها السادة العلماء على أداء مهمتنا أن يرى المسلمون فينا الأسوة الحسنة ، نعمل بما نعلم ونتخلق بما نعلم ، حتى لا نكون من الذين قال الله فيهم « لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وعلينا أيها السادة بعد حسن الأسوة فينا أن نعين ولاة أمور المسلمين بأن توجد لهم من شرع الله بديلا عن قوانين البشر التي قد تخالف شريعته حتى يطبقوا أحكام الله على الناس عامة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وحين يوفق حكام المسلمين إلى ذلك ييأس أعداء الإسلام من التسلل إلى نفوسنا بالكيد والإغراء والخداع لأننا جميعا سنرد أمورنا إلى كلمة سواء من شرع الله وقانون السماء .

أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا في كل ما نأتي وفي كل ما ندع ، وأن يهيء لنا من أمرنا رشدا ، ونسأله جميعا أن يجمع كلمة المسلمين على الحق ، وأن يجعلهم دائما أشداء على الكفار رحماء بينهم - وأدعوه جل شأنه أن يوفق ولاة أمور المسلمين وأن يعز بهم دينه حتى تكون كلمة الله هي العليا .

وأحيي عن المؤتمر وعن المسلمين سيادة الرئيس جمال عبد الناصر على ما وفقه الله إليه من إنشاء مجمع البحوث الإسلامية ومن التمكين لمجلسه والرعاية لمؤتمره - وأحييه مرة أخرى شاكرا له تفضله بإنابة السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية عنه لحضور حفل الافتتاح ، وجزى الله بالخير كل من أسهم في إنجاح هذا المؤتمر وتمكينه من أداء رسالته خير الجزاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

كلمة الوفود

ألقاها فضيلة الشيخ ابراهيم سوار الذهب
رئيس المحكمة العليا الشرعية بالسودان سابقاً

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سيادة نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة

السيد صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس المؤتمر

السادة أعضاء مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية

السادة الوفود الأجلاء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد: فقد أسعدنى الحظ ولاحظتنى العناية لكى أنال شرف إلقاء كلمة وفود الأقطار الإسلامية فى هذا المؤتمر المجيد نيابة عنها.



فضيلة الشيخ إبراهيم سوار الذهب

فأتقدم إليكم جميعا أيها السادة بشكر يقصر عن نعته لسانى، ويعجز عن تحريره بنانى لما قمتم به وتقومون من بحوث إسلامية قيمة وفى استنباط نصوصها من أدلتها التفصيلية من كتب فقه الشريعة الإسلامية لكى يتفهمها المسلمون على حقيقتها والعمل بما اشتملت عليه من أحكام صارت دستوراً صالحاً لكل زمان ومكان، وتخدم مصالح المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

ولا شك أن من أهم دعائم الإسلام التلاقى فى عزة على الخير والبر والتواصى على الحق وصدق الله فى قوله: «والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

وليس البر فى الإسلام تولية الوجوه نحو المشرق والمغرب .

وليس البر تظاهرات ولا مظاهرة ولا شعارات ، ولا دعوات .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين » .

والإسلام لا يعرف التحزب ولا التشيع ولا الأحلاف فإن المسلمين جميعا أخوة ، وهم حزب واحد هو حزب الله .

« ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

وقد نبه الله المؤمنين إلى أن كل من يتولى الكافرين فهو منهم :

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا »

بل لقد حذر الله المؤمنين من التفرق حتى لا يكونوا من المشركين :

« ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » .

والإسلام يأمر دائما بالرجوع فى كل أمر إلى الله ورسوله وإلى العلماء المتخصصين الذين يستطيعون الاستنباط فى كل أمر - أما أولئك الذين يذيعون بكل أمر يجد عليهم ويندرون ، أو يمدون أيديهم لغير المؤمنين فهؤلاء ليسوا من المسلمين فى شىء .

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » .

وإن مجمع البحوث الإسلامية الممثل فى كبار علماء المسلمين من جميع بقاع الدنيا هو الأمل الوحيد المرجو وحبل الله المتين .

وعلينا جميعا تبعات أمام الله وأمام كتاب الله ورسوله وأمام المسلمين أجمعين .

وقد أخذ الله علينا الميثاق فى كلمتين :

وجوب البيان - ووجوب عدم الكتمان

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

كما بين لنا الله سبحانه وتعالى بل وأخذ علينا ميثاق الكتاب نفسه فى كلمة هى الحق فلا يصح أن نقول على الله غير الحق .

« ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق »

لهذا اجتمعنا ، وعلى هذا سنصير ، وبهذا سينتهى مؤتمرنا فى هذه الدورة وغيرها بتوفيق الله .

أما الجمهورية العربية المتحدة فلها من الفضل والتكريم ما نعجز عن تبيانه فهى بلد الأزهر الشريف معقل الإسلام ومشعل النور وحصن العروبة ، وهى بلد التآخى ، ولها فى نفوسنا أعظم الأثر ولرجالها الكرام والعلماء الأجلاء الممثلين فى شخص الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر منا جزيل الشكر ، ومن الله المثوبة والأجر .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إبراهيم سوار الذهب



المنصة الرئيسية فى حفلة الإفتتاح يتصدرها فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، وعن يمينه السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية ، وعن يساره السيد الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

كلمة الدكتور محمود حب الله
الأمين العام للمجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ، نحمده سبحانه ونستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونصلى ونسلم على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ، والداعين إلى دينه ، والمهتدين بهديه .

أيها السادة الأفاضل :

نلتقى اليوم فى أرض الكنانة ، وفى رحاب الأزهر الشريف - أزهركم المعمور - بيت الله ، وكعبة العلم ، ومعقل الدعوة إلى الله ، ومقصد علماء الإسلام من قديم .

نلتقى اليوم فى المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية ، استجابة لأمر الله ، وتوسعا فى المعرفة بدين الله وشريعة الله ، وتأكيدا للتعاون الذى دعا الإسلام إليه ، وجعله صمام الأمن ، ومرتقى نهوض الأمم والجماعات .

ولقد كانت لنا لقاءات سابقة فى مؤتمرين انعقدا من قبل ، شارك فيهما البعض ببحوثه ودراساته ، كما شارك البعض بآرائه وأفكاره ، وعرض فيهما البعض مشاكل مجتمعه وآمال أمته . فأسهم كل بنصيب مشكور وجهد مذكور ، يحدوهم جميعا أمل كبير وهدف عظيم : هو أن يأخذ المسلمون من دينهم لدنياهم ما تستقيم به شئون الدنيا دون تحريف أو تزييف ، وأن يطوعوا سلوكهم ونظم حياتهم لعقيدة الإسلام بقدر ما يقوم



الدكتور محمود حب الله

السلوك وينهض بالنظم ، من غير انحراف بالعقيدة أو تبديل ، وأن يجمعوا على الحق كلمة تتنازعها عوامل الوهن وتتهددها مخاطر الفرقة ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

وللشعوب الإسلامية خاصية ، استودعها الله الفرد وخلق بها الجماعة . فربى الإسلام الفرد على أن يعيش لدينه ونفسه بقدر ما يسعد ، وأن يعيش لدينه وللناس من حوله بقدر ما تنهض الأمة وترقى ، على أنه فرد فى مجتمع لا تحده حدود ، ولا تسوره أبعاد ، ويربى الجماعة على أن تتكاتف وتتعاون

ليسعد ذلك الفرد على صعيدها ، ويتنفس ملء رئتيه فى حمايتها ورعايتها . وصدق الله العظيم . والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، ومن هنا كان زمام السلوك السوى للفرد وللجماعة جميعا هو العقيدة السليمة والعمل الرشيد ، ولذلك ، أيها السادة ، فإن شعوب المسلمين لن يصلح أمرها وآخرها إلا بما صلح به أولها ، فلن تجمعها مصالح الدنيا ما لم يجمعها عقيدة الدين وتحيا فى نفوسها دوافع الميثاق الذى واثقها الله به . وان تجمعها عقيدة الدين ما لم تكن لتلك العقيدة أصول ثابتة فى قلوب صافية ، ونفوس زاكية ، فتتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويصبحوا يدا على من سواهم .

ولقد أنشىء مجمع البحوث الإسلامية استجابة لهذه الغايات العليا ، ليكون ملتقى لعلماء المسلمين جميعا مهما تختلف مذاهبهم ، أو تتعدد مشاربهم ، أو تتشعب اتجاهاتهم فى الحياة .

على المحجة البيضاء يلتقون فى رحابه : يسترشدون الكتاب المبين ، ويسترشدون السنة المطهرة ، وينشدون الحق فينتصرون به وينتصرون له ، ثم يخرجون على المسلمين برأى الإسلام فيما عرضوا له أو عرض لهم من مشكلات ، فى ائتلاف لا يشوبه اختلاف واتفاق لا يعيبه افتراق .

ولو أن مجمع البحوث الإسلامية قصر جهده على مسائل العلم والفقه ، ودراسة المشكلات وتقرير الحلول فحسب ، لحكم على نفسه بالقصور والبعد عن واقع الحياة ، ولكن مجمع البحوث منذ نشأ ، وعلى حداثة منشئه ، جعل ميدان عمله هو المجتمع الإسلامى ، ووسيلة عمله هى العلم والفقه والدراسة ، وثمرة عمله أن تصبح نتائج بحوثه ودراساته سلوك الفرد والجماعة .

فغاية البحث العلمى فى هذا السبيل هى الملاءمة بين ما يواجه المسلمين فى حياتهم من مشكلات وبين ما يعتقدون ، بحيث لا يصبح الدين شيئا والحياة شيئا آخر ، فيقع المسلمون فيما وقع فيه غيرهم بأن يجرفهم التيار فى طرائق وعرة معتمة من المادية الخالصة يضيئها لون باهت خافت من قيم زائفة ومثل مصطنعة ، لا تشرق بها نفس ، ولا تتميز بها معالم الحياة ولا تثبت أمام الاختبار ، أو ترتفع بهم المغالاة إلى رهبانية مبتدعة لا تحقق حياة العزة والكرامة ، ولا تنهض بتبعات العمران الذى يدعو إليه الإسلام .

والغاية من دراسة مشاكل المجتمعات الإسلامية هى المعاونة على إيجاد الحلول العملية لهذه المشاكل لتتوثق الروابط بين هذه المجتمعات ، وتزكو فى النفوس دوافع المشاركة الوجدانية باعتبارها الطريق إلى المشاركة فى العمل .

وإنما تصبح هذه الغايات واقعا حين تستشعر المجتمعات الإسلامية هذه الحقيقة من ذوات نفوسها أثرا للإيمان بأن الأمة الإسلامية رصيدا من تراثها الإسلامى تستطيع أن تواجه به مشاكل الحياة ، وتتغلب على هذه المشاكل ، وبأنها أمة واحدة تجمعها

عقيدة واحدة، جوهرها الشهادة، ووسيلتها العبادة، وأثرها المحبة، وثمرتها الحياة الطيبة والعزة المنشودة، والسلوك القويم، وذلك أرق جوانب الرسالة التي تحملون أنتم أيها السادة العلماء – أمانتها، وتؤسسون على قواعدها مباحث الإصلاح.

أيها السادة:

ليس عسيرا على المجمع وعلمائه أن يجمعوا كل جديد دخل حياة المسلمين، وأن يطوعوا ذلك الجديد للقواعد الكلية والقضايا العامة التي جاء بها الإسلام شريعة تنتظم حياة المسلمين، فشريعة الإسلام بأصولها وكثرة التفريعات بها وكمال الحكمة فيها كل أولئك يكفل لهم التيسير، غير أن الأمر اليوم أكبر من الإفتاء والتخريج والتطويع، فإننا نعيش عصرا يموج بالصراع من أجل النفوذ والسيطرة وبسط السلطان، صراع لم تشهد الإنسانية له نظيرا من قبل، ولا يقف أثره عند الحياة العملية للإنسان، ولكنه يتخذ هذه الحياة وسيلته وستاره، أما هدفه الأول فهو العقيدة في السلب والإيجاب، وإلى هذا الهدف الخفي ينبغي أن تتوجه الأنظار وأن تتضافر الجهود.

وإنه لمن الواضح أن العالم الإسلامي لا يزال بعيدا عن التصدي لهذا الصراع الذي يتهدد عقيدته، فلم يتجه بعد اتجاها كاليا إلى تحليل هذه التحديات، وتعرف مدى مخاطرها على المسلمين، وما تحمل في طياتها من غزو فكري وعقدي، ولم يفكر بعد في وسائل التغلب على هذه التحديات.

ولمجمع البحوث الإسلامية – ولكم أيها العلماء – في هذا المجال دور كبير وللشعوب والمجتمعات الإسلامية فيه دور كبير كذلك.

فدور المجمع هو إبراز القيم الإسلامية التي تحقق التوازن بين قوى الفرد والمجتمع وتجلية الحقائق الإسلامية الكبرى في إطار فكري علمي متقن، يرى المسلم في ضوئها عقيدته صافية الجوهر أصلية المأخذ، يميزها القيم البراقة والمثل الخادعة، التي لا تكفل مستقبلا مأمونا، أو ترضى عقلا رشيدا.

فدور المجمع هو التحليل والتبيين ورسم وسائل التنفيذ.

ودور الشعوب الإسلامية هو غرس هذه القيم الأصيلة في النفوس، تنشىء الأجيال عليها، وتعمق الإيمان بها، وتشرعها منهاجا للسلوك الفردي والجماعي.

وإنما يلتقى التخطيط بالعمل يوم يقوى أثر المجمع في النفوس على المستوى العالمي، وتلتف حول رسالته الهيئات التي تعنى بالإسلام وتدعو له، وتتجاوب معه كل القوى التي ترعى شئون المسلمين وتحرص عليهم، ودون هذا التخطيط وهذا التجاوب تكون الحركة سهرا على غير هدى، وجهدا مبددا يمكن لخصوم الإسلام منه، ويطمعهم فيه، ويغريهم به.

ومن هنا كان الحرص على أن يتجدد اللقاء في ذلك المنطلق الإسلامي نحـــو ما يحفظ

على المسلمين عقيدتهم ودينهم ، ويضمن لهم عزهم ومجدهم عندما يتحقق هذا السلوك من العمل المشترك فيتحقق به إن شاء الله من التوازن بين الدين والدنيا والعقيدة والسلوك ما يظهر أثره في العالم الخارجي قوة روحية واعية تتصدى لكل تحد، وتتحطم على صخرتها كل فكرة منحرفة ودعوة ضالة، وقوة اجتماعية متماسكة يتحقق بها الخير للمسلمين ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ولذلك ينبغي - أيها السادة - التفكير الجدي في شئون عشرات الملايين من المسلمين الذين يمثلون أقليات في كثير من البلاد - التفكير الجدي في شئونهم الدينية والثقافية حتى يتمكنوا من فهم دينهم الحق في صفاء جوهره وأصالة معدنه ، ومدى صلة هذا الدين بالحياة . . وحتى يتمكنوا من أن يعيشوا على مستوى العقيدة التي بها يؤمنون .

من أجل ذلك كله وجب أن يكونوا معنا بمشاكلهم ، حتى نضع علاج هذه المشكلات على ضوء الواقع الذي يعيشونه .

ومن أجل ذلك أيضا لزم - أيها السادة - أن يتسع نطاق المجمع ونفوذه وأن تزيد فعاليته حتى يصبح قوة تستطيع مواجهة كل هذه الأعباء .

أيها السادة :

سبقت هذه الدورة للمؤتمر بدورتين كانت أولاهما باكورة أعمال هذا المجمع ، وفاتحة التفكير المشترك بين المسلمين في العصر الحديث، شهد فيها كثيرا من البحوث والمشكلات ، ووصل فيها إلى قرارات وتوصيات تعتبر ، بحق، أحكاما جديدة تواجه مقتضيات العصر. وسارت الدورة الثانية في الطريق نفسه بقوة وحكمة وشهدت نخبة من البحوث العلمية الهامة ، فكان منها العقيدة كما رسمها القرآن في وضوح معالمها والحفاظ عليها ، والبعد بها عن ضلال التفكير وزيغ الإلحاد .

وكانت شئون المال والاقتصاد والاستثمار، لبيان حكم الله فيما جد من المعاملات المصرفية ونظام التأمين والاستثمار .

وكانت بحوث في شئون الأسرة والشباب تناولت تنظيم الأسرة والنسل ومكانة المرأة في الإسلام ، تصحيحاً لكثير من الأفكار الخاطئة التي يروج لها المغرضون وأرباب الفكر السقيم .

وكانت بحوث أخرى في موضوعات اجتماعية وحضارية صححت كثيراً من المفاهيم المنحرفة والأفكار الدخيلة على الثقافة الإسلامية

كل هذه البحوث كانت مدار دراسة مستفيضة وتمحيص أمين ، انتهى المؤتمر في كثير منها إلى توصيات وقرارات تخدم المجتمع الإسلامي في دينه ودنياه وتؤكد التعاون بين شعوبه وتنتصر لقضايا المسلمين العادلة .

وتصحح فهم بعض الأحكام وبقي منها موضوعات لا تزال قيد البحث إمعاناً في الدقة ، واستيفاء لكل جوانب البحث ، لتكون المقدمات وافية وكافية لإصدار الأحكام .

وإننا نستقبل بهذا الافتتاح اليوم دورة

جديدة من دورات مجمع البحوث الإسلامية وستعرض عليكم فيها البحوث التي تقدم بها السادة الأعضاء تواصلون فيها الدراسة والبحث لبيان طرائق السلوك القويم للفرد والمجتمع ، التي يرسمها الإسلام للمجتمع الفاضل الذي يبغى عيش العزة والأمن والكرامة .

سيعرض عليكم بحث عن « مكانة السنة في التشريع الإسلامي ، وقيمتها العلمية والدينية » توضيحا لمصدر هام من مصادر التشريع وبياناً واضحاً للناس ، تصحيحا لما تردد حولها في هذه الآونة هنا وهناك .

كما تعرض عليكم للدراسة لأول مرة موضوعات تشغل أذهان المسلمين في العصر الحاضر ، تتعلق بالشهور القمرية ، وإمكان تحديد أوائلها قبل حلولها ، بحثاً وراء تحديد المواسم والأعياد للمسلمين .

كذلك ستبحثون في وسائل الانتفاع بالذبائح في موسم الحج ليفيد منها المسلمون .

والنظر والدراسة لشئون الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد المعاصر ، حماية لسلامة المعاملات المالية بين المسلمين من شوائب الجمود وإثم المعصية والانحراف

بحوث تنتظر التحقيق والتحرير ، ومشاكل تتطلب الحل والرأى .

أيها السادة :

يعز على أن أقوم الآن بواجب مرير ، هو أن أنعى إليكم علما من أعلام الإسلام وعضواً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية المرحوم الشيخ البشير الإبراهيمي ، الذي أقعده المرض عن أن يشهد اجتماعاتنا هذه في دورات المؤتمر ... تغمده الله برحمته وأنزله منازل الأبرار .

أيها السادة :

يسير العمل في هذه الدورة على غرار ما كان في الدورتين السابقتين ... يسير على فترتين ، تبدأ الأولى منهما اليوم ، وتنتهى بنهاية الحادى عشر من شهر أكتوبر ، ويشترك فيها السادة المدعوون مع السادة الأعضاء ، وتستمر الفترة الثانية بعد ذلك حتى نهاية الأسبوع الرابع من يوم الافتتاح ، وينفرد بالعمل فيها السادة أعضاء المجمع .

وموضوعات البحث في الفترتين مدونة في كتيب بين أيديكم .

أيها السادة :

إنها بحوث ومشكلات — ليس يكفى — كما قلنا ونقول دائماً — أن يقال رأى الدين فيها ، وإنما الذي يعنى في المقام الأول كذلك هو تحديد الوسائل إلى الأخذ بها والتزام حدودها ، لتكون مقررات المؤتمر وتوصياته منهج العمل في المجتمع الإسلامي ، وموضع النظر الجاد بين المسلمين .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

والله ولى التوفيق

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

كلمة السيد حسين الشافعي
نائب رئيس الجمهورية

بسم الله الرحمن الرحيم ... والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

السادة أعضاء مجمع البحوث الإسلامية ، وضيوف الجمهورية العربية المتحدة .

أرحب بكم باسم الرئيس جمال عبد الناصر وأحمل إليكم تحياته وأطيب تمنياته لكم بالتوفيق والسداد فى عملكم الذى يتطلع إليه كل مسلم ، ويسرنى أن أؤكد لكم أن السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، يتابع باهتمام بالغ كل ما يدور فى هذا المؤتمر ، يقينا منه بأن اجتماع العلماء ، هو المجال الحيوى للوصول إلى الآراء الموضوعية على أساس من البحث والعلم والمعرفة ، وإلى توصيات تستهدف وجه الله عز وجل ، ومصلحة المسلمين على المستوى المحلى ، وعلى نطاق العالم الإسلامى أجمع ، وهو يمتد عبر القارات الخمس .

ويطيب لى أيضا ، أن أنقل لكم تقدير شعب الجمهورية العربية المتحدة لجهادكم فى سبيل الله ، ذلك أننا فى بلدنا هذا ، شعبا وحكومة ، نقدر ما تلقونه فى تحمل



السيد حسين الشافعى

المسافات الشاقة الطويلة ، فى طريقكم إلينا ، من مختلف الدول ، القريبة منا والنائية ، فى هذه الرحلة من أجل كلمة الدين ، وتوسيع نطاق الدعوة إلى تعاليمه ، وتجلية الحقائق السماوية التى يزخربها ، والتى يعتمد عليها صلاح أمر المسلمين .

وبعد ، أيها السادة .. فإننا نحمد الله جل وعلا، أن هيأ لنا فرصة اللقاء معا ، فى هذا المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية منذ تطوير الأزهر إلى وضع أتاح له أن يؤدى رسالة الإسلام فكراً وبحثا وعلما وعملا فى مختلف نواحى الحياة .

ولقد أصبح مؤتمركم السنوى ، فرصة يجتمع فيها العلماء معا من أجل العلم الخالص المتحرر من أى مفهوم سياسى يباعد بينه وبين صفته العلمية الجديرة بالأزهر ، الذى ظل أمينا على التراث الإسلامى ورسالة العلم طوال ألف عام .

وأصبح مؤتمركم السنوى بالمثل ، موعدا ينتظره المسلمون بوعى وبإحساس مرهف ، يتابعون القضايا المعروضة فيه ، ويتطلعون إلى قرارات تصدر منكم بشأنها تشفى غلة المسلمين فى مقابلة التحديات ومقاومتها بالمواجهة والرأى العلمى الدقيق السليم ، وذلك فى تلك القضايا التى تعنى بجوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وذلك لكى يصبح للفكر الإسلامى المتحرر ، الكلمة العليا التى كانت له فى يوم من الأيام عند بدء الرسالة .

فلقد كانت روح الإسلام هى التى توحى بالتضحية وبالإيثار ، بالحركة وبالإيجابية ، بالدعوة الجادة التى لا تعرف الكلل ولا التعب ولا الهوان .. وكانت روح الإسلام تؤمن بالمجتمع الأفضل حقيقة تسعى إلى إقامته ، وتؤمن بالناس جميعا وبخاصة أولئك الذين لم تتح لهم فرص الحياة . وذلك لكيلا تكون هناك بين المسلمين طبقة ولا فوارق ولكى يشعر كل فرد بحقه فى نصيب عادل فى ثروة وطنه ، فيعتز بإنسانيته وآدميته .

السادة العلماء :

لقد رأيت لزاما على ، قبل أن ألقاكم اليوم أن أستعرض قرارات المؤتمرين السابقين .. فوجدتها تتناول لأول مرة فى صراحة ووضوح موضوعات طالما دار حولها الجدل وموضوعات أخرى شغل رجال الدين عنها فاحتواها النسيان أو اختلفت من حولها الآراء اختلافا استوجب الإعراض عنها وعدم وضوح الرؤيا بشأنها .

ولقد أثبت كل من المؤتمرين السابقين أنه جدير بالتحية والتقدير والشكر ، حيث كان كل واحـــد منهما على مستوى مسئولياته وخبرات المساهمين فيه ، عندما واجه مشكلات تهم المسلمين ... وهى مشكلات ظلت تبحث عن الرأى والفتوى والحلول السليمة لها ، فى حين شغل عنها الباحثون والعلماء .

فى مؤتمركم الأول ، ناقشتم موضوع الملكية ، وأصدرتم قراركم فى أنه من حق

أولياء الأمر فى كل بلد أن يحدوا من حرية التملك بالقدر الذى يكفل درء المفاسد البينة وتحقيق المصالح الراجحة ، وأن أموال المظالم وسائر الأموال الخبيثة والأموال التى تمكنت فيها الشبهة على من هى فى أيديهم أن يردوها الى أهلها أو يدفعوها إلى الدولة ، فإن لم يفعلوا صادرها أولياء الأمر ليجعلوها فى مواضعها ..

وارتأيتم أيضاً أن الاستعمار وأعوانه هو الخطر الأول الذى يجب على المسلمين أفرادا وجماعات ودولا أن يجاهدوه بالمقاومة الجادة المستمرة حتى يتم تحرير المسلم قلبا وضميرا ووطنا ومعرفة . كما قررتم أن الصهيونية شعار جديد للداء الاستعمارى الخبيث ، وأن مجاهدة الاستعمار والصهيونية فرض على كل مسلم ، وكل تخلف من ذلك عصيان لله تعالى وإثم كبير .

وفى المؤتمر الثانى ، تناولتم تنظيم الأسرة وقضية فلسطين ، وموقف الإسلام من الرق واستنكرتم باسم الإسلام كل محاولات الضغط والعدوان على الحقوق الطبيعية الأفراد والجماعات ، ودعوتم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى مقاومة كل ضغط أو عدوان على حقوق الأفراد والشعوب ، وقررتم أن هذه المقاومة جهاد مقدس ، يفرضه الدين الحنيف ، وتحتمه الدعوة الإسلامية .

ومما يؤكد أصالة البحوث فى المؤتمرين السابقين . أن منطق الدراسات المعروضة فى المؤتمر الثالث هذا تؤكد ضرورة المتابعة فى بحث الموضوعات ذات الأثر البالغ على حياة الشعوب الإسلامية

وعندما يدرس المؤتمر الثالث دور القرآن فى التربية الحديثة ، والاقتصاد الإسلامى ، والاقتصاد المعاصر ، والمجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام ، وروح الإسلام أقوى دعامة لإصلاح المجتمع الحديث . . . فإنما يؤكد المؤتمر يقظة المسلمين فى دراسات تؤكد حضارتهم ومسايرتهم لتطور علوم والفنون متمسكين بآداب وأمور دينهم .

وعندما يدرس المؤتمر الثالث موضوع التكامل بين البيئات فى المجتمع الإسلامى وتحديد أوائل الشهور القمرية فإنما يؤكد أيضا المعنى الكبير ، وهو أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يحكمهم فى أمور دينهم نظام وروابط وأنه لا تعارض بينهم ، يستغله المستغلون .

السادة العلماء :

ما من شك ، وأنتم تعالجون بالدراسة والبحث وإصدار القرارات ، وقائع الحياة الاقتصادية والاجتماعية إصلاميا . إنما تضعون جوانبا من المعرفة التى ينتظر المسلمون بشأنها رأيا حاسما . . بل إن أصحاب الفكر الاقتصادى والاجتماعى فى أنحاء العالم

يتطلعون إلى سماع الرأى الإسلامى فى القضايا الحيوية الجوهرية التى تمس مصالح الناس .

وبهذا الأسلوب يحسم المسلمون أمر دينهم غير تابعين لآراء مستوردة أدخلت عليهم .

السادة العلماء :

لقد استهدفت الجمهورية العربية المتحدة فى أعمالها أن تلبي الاحتياجات الأولى الإنسانية التى تضمن لكل فرد أن يعيش حرا كريما آمنا وهى المقومات الأساسية فى الدين .

ولقد عنيت الدولة بإقامة نظام يمتنع فيه أى نوع من أنواع الاستغلال . وصقلت المعاملات الزراعية والتجارية والإنتاج الصناعى فى قالب صفيت منه عوامل التحكم والتسلط والطرد والفصل التعسفى والغش . وحل محلها الإنتاج الوفير وشرف التعامل ، وحرية العلم وحق العمل ، وحرية النقد ، وحماية الكلمة المكتوبة .

وعنيت الدولة بأمور الدين موضوعا وخلقا عاما . . . وأعانت على البحث فيه ، والنشر فى مختلف فنونه ، وشجعت بعونه . . .

وتؤكد معنى الدين فى الوقوف إلى جانب الشعوب فى شدتها ومحنتها .

وتؤكد الدولة بذلك أن الأعمال هى التى توضح حسن القصد وتؤكدها لمنفعة المواطنين .

وأخيرا فإن خير ما يتمسك به المسلمون لصالح أمر دينهم ودنياهم . . هو العمل لا القول وحده . . وأن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، وأن يوقنوا بأنه لا حرية سياسية ما لم تتوفر للمواطنين الحرية الاجتماعية الكاملة .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة القدوة والمثل الناجح فلم يكن الرسول يعمل لجاه وسلطان شخصى ، وإنما كان يعطى المثل والقدوة ، ويعطى النموذج الذى يؤكد أن الدعوة الصادقة إلى الإسلام هى دعوة من أجل الإسلام وحده ... صادرة من قلب يؤمن بالله ، وعن عقيدة لا تهادن أعداء الدين ولا تناصرهم .

دعوة يحملها صاحبها متحررا من أطماع الدنيا وثرواتها فلن تستقيم الدعوة إلى الإسلام من قيادة مترفة غارقة فى الجاه والمال إلى جانب فقر شعب يتطلع إلى ضروريات الحياة .

أدعو الله سبحانه أن يوفقنا وإياكم إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

من كلمات الوفود

كلمة سماحة الشيخ نديم الجسر

مندوب لبنان وعضو المجمع

إن فتنة التشكيك فى الأحاديث النبوية قديمة ، ذر قرنها منذ أخذت أقوال المستشرقين تتسرب إلينا . ولكنها ظلت ضعيفة التأثير على المسلمين ، لما هو ثابت عندهم من جهل المستشرقين بأسرار علم الحديث ، أو سوء نواياهم فى الكيد لدين الإسلام ، أما هذه الفتنة الأخيرة التى ظهرت من المسلمين أنفسهم على أثر ما كتب فى إحدى المجلات العربية من إنكار لبعض الأحاديث المروية فى صحيح البخارى ، فإنها على براءتها من نية الكيد ، كانت خطيرة الأثر .

ولو وقف الأمر عند حد القبضة الميسرة من الأحاديث التى توجه إليها النقد والإنكار لما وجدنا حاجة ماسة للكتابة فى هـــذا الموضوع بعد أن كفانا العلماء الذين تولوا الرد أمر الكلام ، وإن كانت ردود بعضهم أعنف عما تقتضى الحكمة ، وردود البعض الآخر أبسط وأضعف من أن تقتلع الفتنة من جذورها .

ولكننا ، فى محيطنا الهادر بأسئلة الشباب المثقفين وشكوكهم ، قد عانينا من ضروب الجدل والمراء الذكى أحيانا ، والبليد أحيانا ، والمحرج فى بعض الأحايين ، ما جعلنا على يقين من أن هذه الفتنة أخطر من أن تعالج بالردود السطحية ، فرأينا من واجب الإخلاص لله ورسوله أن نقول كلمة فى هذا الموضوع .

نحن والشباب المثقف :

أمام هذا الجيل الصاعد من الشباب المسلم ، المزهو بسلاح العلم والعقل ، المفتون بأقوال المستشرقين ، لا يجوز لنا أن نحصر الرد فى الأحاديث التى كانت موضع الإنكار ، ولا أن نكتفى بتأكيد إجماع المسلمين على إجلال الصحيحين ، ولا أن نشهر فى المعركة أسلحة التفسيق والتكفير لنخنق أصوات الشباب . لأن خنق الأصوات يرد الشك إلى صدور الشباب ويجعلهم أكثر حيرة ، وزيغا وتصديقا لتهم المشككين من أعداء الإسلام ولأن هؤلاء المثقفين من الشباب لا يكتفون بالردود السطحية ، ولا يبالون بالتهديد والوعيد ولا يقلعون عن التساؤل والاستفهام إلا إذا يئسوا من قدرة العلماء على الرد القاطع المقنع ، ودخلوا ، بيأسهم هذا ، إلى منطقة الزيغ والكفر لا سمح الله . ولست أدرى والله ، سببا يجعلنـــا ننكر على الشباب مطالبته لنا بالإقناع العقلى الحر ، ونحن أهل

دين يجعل العقل السلطان الأعلى فى فهم نصوص القرآن فضلا عن الحديث .

توطئة الكلام مع الشباب :

وقبل أن أقدم للشباب المثقف ما عندى من وسائل الإقناع العقلى ، وقبل أن أنصب لهم الميزان الذى توزن به صحة الأحاديث ، يهمنى أن أكرر لهم الشيء الذى طالما كررته فى كل ما أكتب ، فى الدين ، لخير الشباب وهو : التنبيه إلى عدم الخلط بين المستحيل عقلا ، والمستحيل عادة ، والمستحسن والمستهجن رأيا أو ذوقا . فالشباب المثقف ، الذى يحسن التفريق والتمييز بين هذه المعانى عند التفكير فى قضية رياضية أو فلسفية ، لا يتورع عن الخلط بينها عند التفكير فى قضايا الإيمان والدين ، ومن هنا يأتيهم الإنكار لكثير من الأحاديث الواردة فى الصحيحين ، بل الزيغ أمام المتشابهات من آيات القرآن ، بل ضعف الإيمان بوجود الله .

وإذا كان بعضهم يتعمد هذا الخلط لمجرد المراء والتفاخر بتقليد الملحدين ، فإن أكثر الناضجين منهم يقعون فى هذا الخلط عن عدم انتباه ، بل عن حسن نية وغيرة على الدين ، حين يخيل إليهم أن بعض الأحاديث يتناقض مع العقل والعلم ، أو يتنافى مع الحق والخير والمصلحة .

فلهؤلاء أقول ، من باب التنبيه لا من باب التعليم لشيء قد عرفوه فى دراساتهم الرياضة الفلسفية : إن المستحيل العقلى هو الذى يحدث تصوره تناقضا عقليا فى الذهن . كقولنا : إن الجبل يدخل فى الكأس أو إن الجمل يدخل فى سم الخياط ، كما مثل القرآن ، أو إنكارنا أن الواحد نصف الاثنين ، أو إنكارنا أن الكل أكبر من جزئه . أما المستحيل العادى فإنه لا يحدث تناقضا عقليا فى الذهن ولكن جرت (العادة) أن نستبعد وقوعه ، مثل استبعادنا ، قبل اليوم ، طيران الإنسان إلى السماء ، وسماع صوت المتكلم من أقصى الأرض ، والوصول إلى القمر ، وغير ذلك من الأمور التى كنا نحسبها ، فى العادة ، مستحيلة ، ثم تبين أنها (ممكنة) ولذلك سموها المستحيلات العادية .

أما الاستحسان والاستهجان فإنهما لا يصلحان حجة للقطع بحسن الشيء وقبحه إلا إذا كان هنالك إجماع من كل العقول السليمة ، كاستحسان الصدق واستهجان الكذب ، أو كان هنالك نص دينى قاطع يقضى بهما ، ولو خفيت علينا الحكمة أول الأمر ، كالاستهجان لأكل لحم الخنزير

أما الاستحسان والاستهجان الصادران عن رأى الفرد لا عن إجماع ، وكذلك الاستبعاد الصادر عن رأى علمى لم يبلغ درجة اليقين فإنها كلها لا تصلح أن تكون أساسا للقطع والجزم بعدم صحة الأحاديث الصحيحة . لأنه قد يكون وراء الرأى الفردى ، أو وراء الرأى العلمى ، حقيقة من النفع أو الضرر أو حقيقة من العلم سوف تظهر لنا كما ظهرت طبيا حكمة الحديث الآمر بغسل الإناء الذى

تلوث بلعاب الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب لإزالة جراثيم داء الكلب .

وكما ظهر ضرر القليل من الخمرة وأثره فى الأجنة بالتجربة التى أجراها العلماء فى أمريكا على عشرة أزواج من الأرانب سقيت تسعة أزواج منها جرعات متفاوتة القدر من الخمر ، فظهر تأثيرها وضررها فى أجنتها جميعا ، حتى عند الزوجين اللذين لم يسقيا إلا جرعة واحدة فقط ، أما الزوجان اللذان لم يسقيا شيئا من الخمر فلم يظهر فى أجنتهما أى أثر لأى ضرر ، وعلى غرار هذين المثلين نذكر ما اكتشفه العلم مؤخرا من وجود مادة هرمونية فى البول تسمى (يوروجاستروون) Urogastrone وأخرى تسمى (أنثلون Anthelone) تنفعان فى مرض (قرحة المعدة) كما ذكر الدكتور (ميشال صليب) أستاذ طب الأمراض الباطنية بطب عين شمس فى مبحث (قرح المعدة من كتابه) (أمراض الجهاز الهضمى) المؤلف بالإنكليزية المطبوع سنة ١٩٦٣ فى صفحته السادسة والأربعين وقد تقدمت شركة (بارى ديفز) الإنكليزية المشهورة فى صنع علاج يسمى (كورتون Kurtone) يحتوى على هذه الهرمونات البولية . وهذا ما يحل الإشكال الذى كنا نعانيه فى تفسير حديث البخارى عن شرب أبوال الإبل الذى أمر النبى صلى الله عليه وسلم به بعض الأعراب المرضى . فكل هذه الأحاديث عن غسل إناء وتحريم الخمر والتداوى بالأبوال ، قد قيلت منذ أربعة عشر قرنا ، فى وقت لم يكن فيه الناس يدركون بعقولهم وجود جراثيم الكلب ، أو ضرر قليل من الخمر ، أو نفع شرب البول فى بعض الأمراض ؛ بل كنا نحار فى تفسير هذا الحديث للسائلين من الشباب .

وبعد فهذه توطئة نرجو ألا تغيب حقائقها الواضحة عن تفكير الشباب المثقف عند كل بحث وتساؤل عن بعض الأحاديث النبوية الواردة فى البخارى أو صحيح مسلم . ولسنا نريد بها أن نحمل الشبان المثقفين على أن يتهيبوا البحث ويدفنوا شكواهم فى صدورهم لتنقلب إلى زيغ مرير ، بل نريد بها أن نضع لهم الميزان الذى يوزن به كل حديث يقع فى تفكير الشباب وظنهم أن ظاهره يخالف العقل أو الحق أو الخير أو العلم .

ما هو الميزان :

الميزان هو العقل والقرآن ، وللإيضاح لا بد من ذكر ست حقائق .

الحقيقة الأولى : أن القرآن قد جعل للعقل السليم السلطان الأعلى فى إدراك الحق والخير من أتفه شىء كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم شىء وهو الإيمان بوجود الله وهو أولى مزايا الإسلام ، فنحن بالعقل نؤمن بوجود الله ، وبالعقل نؤمن بوحدانيته وكل صفات كماله وبالعقل نؤمن بالقرآن الذى أمرنا بتحكيم العقل فى كل أمر من أمور الإيمان .

الحقيقة الثانية : كل نص يوجب ظاهره تناقضا عقليا قاطعا فى الذهن يجب تأويله حتى يرتفع التناقض ، وهذا متفق عليه عند العلماء لأن تعطيل العقل يرجع بالتعطيل على جميع الآيات الكثيرة التى أمرنا الله فيها بتحكيم العقل فى أمور الإيمان ، ويرجع بالتعطيل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم الذى عرفنا صدق رسالته بالبراهين العقلية .

مثال ذلك : قول القرآن فى سورة الكهف عن ذى القرنين « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » فإن ظاهر هذه الآية يتناقض مع الحكم العقلى البديهى القاطع الذى يقضى بامتناع دخول الجسم الكبير فى الوعاء الصغير ، لأن الأرض أصغر من الشمس بكثير ، فوجب هنا تأويل ظاهر الآية ، كما فعل العلماء الأعلام حين قالوا :

إن المراد بها أن ذا القرنين رأى الشمس فى غروبها كأنها تغرب فى العين الحمئة كما يقول أحدنا رأيت الشمس تغرب فى النيل أو فى البحر وهو يعلم قطعا أنها لا تغرب فى النيل ولا فى البحر بل تغرب وراء الأرض .

الحقيقة الثالثة : وهى نابعة من الحقيقة الثانية ، وتابعة لها ، ولكننا أفردناها عنها وأبرزناها مستقلة لأهميتها وخطرها وهى أن التناقض لا يكون إلا بين قضيتين قاطعتين تتناقضان ، أما إذا كانت إحدى القضيتين قاطعة والثانية غير قاطعة ، وإنما ظنية ، فلا يكون هنا ذلك التناقض الذى يوجب تأويل النص

ففى قضية غروب الشمس فى العين نجد أننا بين قضيتين قطعيتين الأولى قول القرآن : « وجدها تغرب فى عين حمئة » ، والثانية القضية البديهية القائلة بامتناع دخول الجسم الكبير وهو الشمس فى الجسم الصغير وهو العين ، فاحتجنا إلى التأويل الذى يرفع التناقض ، ولكننا فى آية أخرى مشابهة فى نفس سورة الكهف نجد أن التناقض غير متحقق وإن كانوا فى الماضى يظنون خطأ أنه موجود ، ذلك فى قوله تعالى عن ذى القرنين « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » ، فهاهنا حقيقة قاطعة وهى قوله تعالى : « لم نجعل لهم من دونها سترا » ، وفى مقابل هذه الحقيقة (أمر ظنى) ناشئ من العلم الجغرافى القديم الناقص ، الذى كان معتمدا قبل اكتشاف مناطق القطبين ، وقبل معرفة دورة الأرض حول الشمس وهى مائلة ميلا يحدث عنه طول النهار فى أحد القطبين حتى لا تغيب عنه الشمس عدة أشهر ، وطول الليل فى القطب الثانى حتى لا تطلع عليه الشمس عدة أشهر ، فقد كان الناس لا يجدون فى بقاع الأرض ، التى عرفوها بقعة تطلع عليها الشمس بلا ليل فكان يبدو ، فى الظاهر وجود تناقض بين القرآن والعلم ، والحال أنه لا يوجد ذلك التناقض الحقيقى الذى شرطه قيام قضيتين قاطعتين ، تتناقضان ، لأن نفى الناس وجود

بقعة أرض لا تغيب عنها الشمس ، كان نفيا ظنيا خاطئا بحسب ما عندهم من العلم الناقص عن جميع بقاع الأرض ، فلما تم اكتشاف القطبين وظهرت البقاع التى تبقى الشمس فيها طالعة عدة أشهر تحقق صدق الآية .

فنرجو ألا تغرب هذه الحقيقة الثالثة عن أذهان الشبان المثقفين ، لأنهم سيقعون فى الأحاديث النبوية الصحيحة ، على كلام يتوهمون فيه التناقض لاعتقادهم بأن الأمور التى يعرفونها قطعية ، وهى لا تكون قطعية حقا ، فى باب العلم ، كما ظهر من المثال الآنف الذكر .

الحقيقة الرابعة : ليس فى القرآن أبدا أى معنى أو خبر يحدث تناقضا مع أحكام العقل أو مع أحكام العلم اليقينية ، لأن إرادة الله لا تتعلق بالمستحيلات العقلية ، حتى المعجزات هى من الممكنات العقلية ، وخلق عيسى من غير أب من الممكنات وفلق البحر لموسى من الممكنات وانقلاب عصا موسى إلى حية تسعى من الممكنات ، وتكلم عيسى فى المهد من الممكنات وإحياء الموتى من الممكنات والإسراء بالنبى من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة واحدة من الممكنات ؛ وقس عليه ما ورد فى الأحاديث الصحيحة . ولكن لا تخرج فى قياسك هذا عن القاعدة وهى التمييز الصحيح بين المستحيل عقلا والمستحيل عادة ، وبين أحكام العلم اليقينية والظنية ، فالمستحيل العادى من نوع الممكن وأحكام العلم الظنية لا تصلح أساسا للقول بوجود التناقض .

الحقيقة الخامسة : أن القرآن فيه آيات (محكمات) وأخر (متشابهات) كما قال الله تعالى فى سورة آل عمران (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الالباب) .

فالمحكمات : التى وصفها الله بأنها (أم الكتاب) هى التى لا يحدث تصور معانيها تناقضا عقليا فى الذهن ، بل القول باستحالتها هو الذى يحدث التناقض العقلى لأنها إما أن تكون من نوع (الواجب العقلى) وإما أن تكون من نوع (الممكن العقلى) والقول باستحالتها للواجب أو الممكن هو الذى يحدث التناقض العقلى (كما لا يخفى) أما المستحيل العقلى فلا تتعلق به إرادة الله كما سبق القول .

أما المتشابهات . فهى ما يشتبه ويلتبس على الناظر أمرها فيظن أنها تناقض مع العقل أو مع المحكمات وهى ليست كذلك . وقد أمرنا الله عند حصول هذا الالتباس أن نرد المتشابهات إلى المحكمات ، قبل أن نتورط فى إنكارها مادامت بذاتها لا تشكل فى الحقيقة تناقضا قطعيا مع العقل أو مع المحكمات

أو مع العلم اليقيني القاطع ـ كما في الأمثلة التي ذكرناها عن المعجزات التي يشتبه ، على غير الراسخين في العلم ، أمرها ويعدها من المستحيلات ، وهي من الممكنات .

وكما في المثال الذي أوردناه عن طول ظهور الشمس في منطقة القطبين ، فقد اشتبه على الناس أمر تلك الآية ، فظنوا أنها تناقض العلم ، ثم تبين لنا أن القضية العلمية ليست يقينية بل ظنية كذبها العلم ، فظهر بهذا حكمة أمر الله لنا بأن نرد المتشابهات إلى المحكمات ، قبل أن نتورط في الجدل والمراء بشأنها ، وبأن نقول عنها قول الراسخين في العلم ، الذين يعرفون هذه الفروق بين التناقض الحقيقي المؤكد وشبهة التناقض فيعتمدون على صدق القرآن ، ويوجمون في تصديق المتشابهات ـ ولو لم يعلموا تأويلها إلى المحكمات ، ويقولون عن القرآن كله : (آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) .

الحقيقة السادسة : أن كل ما في السنة الصحيحة معتمد على أصل القرآن ، ومردود إليه ، ومقيد به فلا يناقضه أبدا ، فالقرآن هو (الميزان) الذي نزن به الأحاديث فما كان منها متفقا مع أصول القرآن فلا مجال للبحث فيه ، وما كان منها متناقضا مع القرآن ، وكان التناقض قطعيا لا سبيل فيه إلى التوفيق ، فهذا هو الذي يصح أن نقف عنده ، ونبحث فيه عن صحة الحديث وقوته .

وخلاصة القول : أن الميزان الذي نزن به الحديث هو القرآن نفسه ، فإن كان الحديث يتفق مع أصول القرآن ، ولا يتناقض معها ولم يبق مجال عند المؤمن العاقل لنقد الحديث أو إنكاره اعتمادا على ما في تفكيره من الاستحسان أو الاستهجان أو الاستبعاد الظني فهو الصحيح ، وكل ما نرجوه من الشبان المثقفين المخلصين ألا يستعجلوا في نشر النقد للحديث الصحيح الذي لا يسيغه تفكيرهم ، وأن يعرضوه بأنفسهم ، أو بمعونة أهل العلم ، على الميزان الذي ذكرناه من القرآن والعقل فإن وجدوا له أصلا في القرآن فقد انحل الإشكال . وإن لم يجدوا له أصلا في القرآن لجأوا إلى ميزان العقل الذي قررناه وأوضحناه فإن رأوا في الحديث ما يوجب تناقضا عقليا قطعيا ، لا ظنيا ، مع أصل أو أكثر أصول القرآن جاز لهم عندئذ البحث في مبلغ الحديث من الصحة .

هذا ما ألهمنا الله أن نكتبه في هذا الموضوع ليكون جوابا لكل شبهة . ولعل مجمع البحوث الإسلامية الموقر يصحح ما فيه من خطأ ويقوي ما قد يكون فيه من صواب ويمده بيانا وتفصيلا ، وكلمة المجمع هي التي يجب أن تكون فصل الخطاب في أمر هذه الفتنة ، والله المستعان ؟

كلمة فضيلة الشيخ نجم الدين الواعظ
مندوب العراق

الحمد لله وحده نصر عبده، وأعز جنده وأنجز وعده وهزم المشركين يوم الأحزاب وحده، أما بعد فقد قال عز من قائل، «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعلمون خبير».

لقد أجمع العلماء على أن الأدلة الشرعية أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس وعند بعض طوائف المسلمين هو العقل لا القياس أجل: إن المجتهد إذا لم يجد مستندا من هذه الأدلة الأربعة يكون مصدره ومستنده هو العقل أو الاستحسان، أو الاستصحاب أو العرف أو العادة أو المصالح المرسلة. وقوة الحديث وصحته إنما هى بقوة سنده وفى السند رواة الحديث فما كان سنده قويا كان الحديث الشريف أقوى منه، وإن كان السند فيه ضعيفا كان كذلك، وكان غير مقبول فى استنباط الأحكام، وأقوى درجات الحديث هو الحديث المتواتر، وهو ما يرويه جمع عن جمع بحيث يحيل العقل تواطؤهم على الكذب وتعيين العدد ليس بشرط بل الضابط مبلغ يفيد اليقين نعم يجب الانتهاء إلى الحس ومساواة الطرف الوسط وما لم تبلغ رواته حد التواتر يسمى خبر الآحاد وله شروط أربعة: إسلام الراوى وعدالته وعقله وضبطه ومنه المشهور، وهو ما تخلل فى إسناده ثلاثة، ومنه العزيز، وهو ما تخلل فى إسناده اثنان ومنه الغريب وهو ما تخلل فى إسناده واحد.

فإن كان مسندا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهو المرفوع أو إلى الصحابى فهو الموقوف أو إلى التابعى فهو المرسل.

فهذا ما يتعلق بأصول السنة وأما الكتاب وهو مصدر التشريع الإسلامى فحدث عنه ولا حرج قال تعالى: «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم»، وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا». الإيمان بالكتب

المنزلة من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان واجب وهى لسعادة البشر وتأمين راحتهم وحفظ نظامهم وصيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم وسلامة صحتهم فهى تهذيب للأرواح وشفاء لما فى الصدور وهدى وموعظة للمتقين وآخرها نزولا هو القرآن العظيم وهو المقروء بألسنتنا المحفوظ فى صدورنا المكتوب فى مصاحفنا وهو المراد بقولهم : النظم المنزل على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم المنقول عن تواتر المشتمل على الأحكام السماوية بأسرها من الأمر والنهى والوعد والوعيد ، فما أمر به القرآن كان حسنا لذاته وما نهى عنه كان قبيحا ومضرا نزل به الروح الأمين على قلب الرسول الأعظم منجما أى مفرقا بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على لغة قريش وأنه النظام الإلهى السماوى والقانون الأساسى المتضمن لسعادة البشر وتأمين حقوقهم وراحتهم دنيا ودينا وآخرة مشتملا على الإعجاز ومنتهى الفصاحة والبلاغة وقد شهد بذلك عدو الإسلام الوليد بن المغيرة بقوله : إن فيه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

والله ما هو بقول البشر ولقد نادى فى نوادى قريش قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فلم يعارضه أحد مع جد المخالفين له ثم صرخ ثانيا وثالثا فلم يجد أحد إلى أن قال : « لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » فكان القرآن أعظم معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرى خالدة إلى الأبد .

ذلك الفرقان الشامل وقد جاء بالأحكام العامة للاعتقادات والعبادات والمعاملات الجامعة للأحكام التأديبية من القصاص والحدود والسياسات وجميع ما يتعلق بأمور الدنيا والدين فقالت به الأمة الإسلامية فى مدى سنين قليلة من بسطة العلم والملك ما لم يتهيأ لغيرها من الأمم فى مثل ذلك الزمن القصير الأمد فقد بشر القرآن وأنذر ورغب ونفر ووعد وأوعد وبنى وهدم وقوى وأوهن ووصل وقطع وأخذ بذويه إلى المكانة العليا ونهج فى تربية الإنسان منهجا قويا فخاطب العقل وناجى العواطف وأدب الحواس وهذب الملكات وحاسب السرائر وآخذ الضمائر وقرر العقائد وقاد الكتائب ودوخ الممالك ومصر الأمصار وشيد المدنية الفاضلة وسن الشرائع الكاملة وقاد الأمم إلى خيرها وسعادتها ونجاحها ونجاتها ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « القرآن شافع مشفع وما حل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه قاده إلى النار » قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

كلمة الشيخ راشد الفرحان

مندوب الكويت

السيد الرئيس :

أيها السادة :

باسمي واسم علماء الدين بالكويت أقدم لكم تحية الإسلام مقرونة بخالص الود والتقدير ، وأشكر الجمهورية العربية المتحدة رئيسا وحكومة وشعبا، وأخص بالذكر رجال الأزهر الأكارم على كرم الضيافة وحسن الوفادة والاستقبال . فى القاهرة ملتقى العرب والمسلمين وقبلة الدعاة الثوريين . وإنه لشرف عظيم أن يلتقى علماء المسلمين تحت لواء الأزهر الشريف ليتدارسوا شئون المسلمين وقضاياهم .

أيها السادة :

يسعدنى أن أحمل إليكم تحية شعب الكويت المسلم الذى أبى إلا أن ينص فى دستوره (أن الكويت جزء لا يتجزأ من الأمة العربية ، وأن دين الدولة الرسمى هو الإسلام) والذى كافح وناضل فى سبيل قضايا الأمة وفى مقدمتها قضية فلسطين ، والذى ما فتىء رافعا صوته مدافعا عن القضايا الإسلامية والإنسانية وناصرا للشعوب المناضلة فى سبيل تحررها من ربقة الاستعمار والاستعباد وهو لا يزال على العهد، مستعد للتضحية بالغالى والنفيس فى سبيل رفعة الشعوب الإسلامية ووحدة صفها لأنه يؤمن بقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

أيها السادة :

وفد الكويت يرى أن اجتماع علماء المسلمين وتكرار هذا الاجتماع أمر لازم وضرورى خصوصا فى الوقت الذى تكالبت فيه على العالم الإسلامى قوى المعسكرات المادية من الرأسمالية والشيوعية والاستعمار والصهيونية ، ووجهت إليه غزوا فكريا، وضغطا اقتصاديا وسياسيا وحاكت حوله الدسائس والمؤامرات ، فكثرت المشاكل وتعددت الأمور من غير حلول .

ولا يمكن مجابهة مثل هذه الأحداث الجارية المتزايدة يوما بعد يوم ، وقد توقفت مصالح الأمة عليها بالصمت والسكوت أو إعطاء الحلول السلبية ، فالإسلام الذى جاء دينا عاما للبشرية جمعاء ، قد تركزت قواعده وكلياته لحل مشاكل بنى الإنسان فى كل زمان ومكان ، وإن أعظم قاعدة فيه هى (أن الدين يسر فيسروا ولا تعسروا) .

إيمانا منا بأن قضية المسلمين وحدة لا تتجزأ فإننا نناشد مؤتمر البحوث الإسلامية وعلماء المسلمين بأن يوجهوا دعوة صريحة لحكام المسلمين لتطبيق الإسلام فى بلاد الإسلام . وأن يخرجوا من اجتماعهم بعد المناقشة الصريحة الواضحة بإجماع مفيد وعلم نافع .

وأن يتخذوا من التوصيات والقرارات البناءة القوية التى ترفع رأس المسلمين وتعمل على ضم شملهم ؟

كلمة السيد الأستاذ
عبد الكريم سايتو مندوب اليابان

سيدى الرئيس :

السادة الضيوف العظام الممثلين لمختلف بقاع العالم :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أود أولا : أن أعبر عن امتنانى وشكرى الجزيل لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وللدكتور ماضى ، والدكتور محمود حب الله ، وجميع المسئولين بالأزهر لتفضلهم بتوجيه الدعـــوة لى لحضور مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد فى القاهرة ، ويسعدنى أن أحمل إليكم جميعاً أطيب تمنيات إخواننا المسلمين باليابان .

إننى لجد مسرور لإتاحة هذه الفرصة للتحدث فى هذا المكان عن الخطوط العريضة لأوجه النشاط فى المجال الإسلامى ببلدنا .

تعلمون جميعا أن اليابان تضم قلة ضئيلة من المسلمين بعيدة عن مركز الإسلام فى البلدان الإسلامية ولسوء الحظ فلقد ظلت اليابان فى منأى عن جوهر الإسلام الحقيقى منذ أمد بعيد . ولقد كان مقدم الإسلام إلى اليابان على يد أفراد لا يدينون بالإسلام مثل الأوربيين والصينيين . ومن ثم فقد كانت الفكرة العامة عن هذا الدين الحنيف قائمة على أسس بعيدة ، إلى حد ما عن معناها الحقيقى .

والديانات السائدة الآن فى اليابان هى كما يلى :

السنتوسية ، Shintoism (وهى الديانة الوطنية والطبيعية ، وهى دين العبادة للأجداد) والبوذية Buddism وتشمل إلى Sokagak-kai وهى فرع من الديانة البوذية) .

ثم تجىء الديانة المسيحية ، التى تشكل نسبة لا تتجاوز واحدا فى كل مائة ، وعلى وجه العموم فإن الغالبية العظمى للمواطنين لا دين لها بالمعنى الصحيح للكلمة . واليابانيون بصفة عامة يتميزون بالنشاط ، والجد والمثابرة على أداء العمل ، ولهم ثقافاتهم الخاصة بهم ، ولكن ليس لديهم العقيدة القوية بوجود الله سبحانه وتعالى وهم يميلون إلى الاعتقاد بتأليه الطبيعة وهم الآن يعتبرون العلم الحقيقة والمعيار الوحيد فى هذا الكون ويتلخص موقفهم تجاه المسلمين فى النقاط التالية :

١ — لم ترتبط اليابان ، فيما مضى ، بالبلدان الإسلامية بأية روابط استعمارية .

٢ — إلا أن الشعب اليابانى يكن مشاعر

المودة للمسلمين فى جميع العالم الإسلامى فى الوقت الذى يشعرون فيه بمشاعر الكراهية والاستياء إزاء الاستعمار الأوربى ويعطفون على تلك الشعوب التى ظلت ترزح تحت نيره .

٣ — وهم لا يعرفون الإسلام فى جوهره الأصيل ولكنهم يصغون إلى كل من يحاول تجليته وإلقاء الضوء على تعاليمه الحقة .

٤ — واليابانيون يحرصون على تنمية العلاقات الطيبة مع المسلمين ، ولا سيما العلاقات التجارية .

ولكن الموقف بدأ الآن يتخذ شكلا مغايرا فلقد بدأوا يكتشفون أن الدين الإسلامى على شىء يختلف فى جوهره عما كان سائدا بينهم من قبل ، وبدأ الإسلام يتسلل إلى الأرض اليابانية إبان الحرب العالمية الثانية ، عندما اتصل الجنود ورجال الأعمال اليابانيين بالمسلمين فى البلدان الإسلامية المختلفة ، واعتنق بعضهم الإسلام ثم عاد إلى اليابان ، ومن يومها بدأت فكرة الإسلام تأخذ طريقها إلى القلوب فى اليابان .

وتكونت منظمة المسلمين باليابان فى عام ١٩٥٢ ونشطت فى التعريف بالإسلام عن طريق المطبوعات والاجتماعات والخطب ، وأوفدت الطلاب إلى عواصم إسلامية كالقاهرة والمدينة المنورة ، وبعض البلدان الإسلامية مثل : الباكستان ، والهند ، وأندونيسيا وماليزيا .. الخ . للدراسة وتحصيل العلوم الإسلامية ، كما قام بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية ، الحاج عمر ميتا ، كما قامت المنظمة بتوجيه الدعوة إلى المدرسين والوعاظ من البلدان الإسلامية للدعوة لهذا الدين الحنيف داخل اليابان كذلك قامت بتخصيص مناطق من الأرض لبناء مقابر للمسلمين بها .

وليس ثمة عراقيل تضعها أمامنا الحكومة أو الشعب فى سبيل إقامة شعائرنا وممارسة النشاط الدينى ، لأن الجميع يؤمن بحرية العقيدة .

ولا تواجهنا أية مصاعب فى سبيل إقناع الجمهور باعتناق الدين الإسلامى ، ولكن المشكلة تقع فى كيفية رعاية هذه العقيدة ، وتقديم كافة التسهيلات لنشر المعرفة الإسلامية .

ويبلغ عدد المسلمين فى اليابان نحو الألفين ولكنهم يشبهون الطفل اليتيم فى هذه البقعة من العالم الواقعة فى الشرق الأقصى .

وإننا لننتهز فرصة هذه المؤتمرات التى تعقدونها هنا لكى نتوجه بالرجاء إلى المسئولين أن يمدوا يد المساعدة إلينا فى هذا المجال .

وطالما تقدمنا بمقترحات عديدة لإنشاء مركز إسلامى فى طوكيو ، ولكننا أخفقنا لأسباب مالية ، وتوجد الآن فى اليابان أربع جمعيات إسلامية وهى .

ومن كلمة الدكتور
محمد عبد المعيد خان مندوب الهند

إن الشريعة الإسلامية - سواء كانت قوانين الشهادة أو قانون الجناية والقانون المدنى أو قانون التجارة والصناعة تحتاج إلى تدوين قوانينها مرة أخرى فى ضوء الضرورات الحاضرة فأحسن الطرق لتدوين الشريعة فى قالب معاصر أنه يجب أن ينشىء هذا المؤتمر معهدا يشتمل على علماء جميع الدول الإسلامية على طريقة المعهد العلمى العربى ، ويجب أن ينقسم المعهد إلى عدة لجان وتعقد جلساته وقتا فوقتا لينظر فى المسائل المعقدة ويدون الأحكام المستنبطة كما كان السلف الصالح يجتهدون ويوافون الفتاوى فى عصر بعد عصر .

فهذه الآراء الإصلاحية فى علوم التفسير والحديث والفقه توافق الاتجاهات الجديدة وميول الأمة كما يظهر من الخطابات التى ألقيت

(البقية على الصفحة السابقة)

١ - جمعية مسلمى اليابان التى تتكون أساسا من مسلمى اليابان وتلك التى أتشرف برئاستها .

٢ - لجان الطلبة المسلمين الأندونسيين ويبلغ تعداد أعضائها أكثر من السبعمائة .

٣ - جمعية الطلبة المسلمين وتشمل الطلبة الوافدين من بلدان إسلامية للدراسة باليابان .

٤ - الجمعية التركستانية . وتضم المسلمين القادمين من تركستان بعد الثورة الروسية وتعمل كل هذه المنظمات فى إطار من المحبة والتعاون الصادق ضاربة المثل فى تضامن المسلمين واتحادهم ، ومثل هذه الوحدة وهذا التضامن يعتبر تفسير اله أهميته لمثالية الإسلام أمام غير المسلمين .

والآن ألتمس من سيادتكم التكرم بأن تولوا هذه الفئة القليلة - من المسلمين الموزولة فى الشرق الأقصى - المزيد من الاهتمام والرعاية وهذا هو ما ينتظره إخوان لكم فى الإسلام مثل ما ينتظرونه من البلدان الإسلامية الكبيرة ، ولحسن الحظ لا يوجد لدينا أية عوائق سياسية تحول دون تحقيق هذه الأمنية العزيزة علينا نحن المسلمين .

وشكرا جزيلا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

فى إفتتاح هـذا المؤتمر ، فإن أول خطوة فى إصلاح الأحكام المستنبطة من القرآن والحديث أن نعود إلى مرجع أصلى ومأخذ أساسى أخـذ منه جميع الفرق الإسلاميـة والمذاهب الفقهية - أعنى به القرآن الكريم - لأن آيات القرآن هى التى رجع إليها الفقهاء وأئمة المـذاهب واستدلوا بها فى تأويلاتهم ولذلك فكرنا فى تأليف قاموس (تفاسير القرآن) فلو سمحتم لى أن أشرح هذا المشروع فإنى أقول : لكل عصر روح مخصوصة به ويتسم العصر الحديث بطابع إنجاز المتطلبات بالسرعة ولذلك دعت روح العصر إلى تأليف الموسوعات للعلوم والآداب والفنون والثقافات الخاصة والحضارات العامة لكى يرجع الطالب فى كل ما يحتاجه إلى موسوعة خاصة ويجد ضالته المنشودة فى أسرع فرصة ممكنة بدون تضييع الوقت الطويل فى البحث والمراجعات الكثيرة فنجد - مثلا - دائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف للأخلاق والأديان ودائرة المعارف الإسلامية فى القرن العشرين وقاموس الإنجيل ودائرة المعارف اليهودية وغيرها من الموسوعات المخصوصة لأمة من الأمم غير أنه من الأمور العجيبة أن دولة من الدول العربية والإسلاميـــة لم تفكر فى تأليف قاموس تفاسير القرآن مع أن القرآن الكريم مرجع أساسى لجميع نواحى الحياة الإسلامية فكل واحد من المسلمين وكل فرقة من فرقهم يرجع إلى القرآن إذا احتاج إلى أن يعرف مسألة من حياته الشخصية والاجتماعيـة سواء كانت المسألة دينية أو شرعية مدنية كانت أو أخلاقية ، وذلك لأن سائر مسائل الشريعة مستنبطة من القرآن والحديث الذى ليس إلا شرحا للقرآن وإيضاحه ، وبينما هذه الشروح والتفاسير التى دونت فى العصور المختلفة ومن أصحاب الطبائع والميول المضادة والمتناقضة يختلف بعضها عن بعض فى شرح الآيات ومعانيها وليس لدى الرجل وقت متسع فى عصر الذرة هذا أن يرجع إلى أصل المسألة إذا أراد أن يعرف الآية التى استنبطت فيها كل فرقـة مسألتها وكيف تطورت الفـكرة الموضوعية فى تلك الآية من عصر إلى عصر حتى يعرف حقيقة الأمر وإذا اتفقنا بعد هذا البحث الطويل أنه من لوازم إصلاح أحكام المجتمع الإسلامى ومن واجبات روح العصر أن نؤلف قاموس القرآن يجب علينا أن نقدم تخطيطا لهذا المشروع :

نجد هنالك فكرتين وطريقتين ذهب بعضها إلى أن نحذو حذو دوائر المعارف الموجودة بين أيدينا وأسلوبها كما هو معلوم لدى العلماء الكرام فنرتب جميع موضوعات القـرآن على حروف المعجم ونوزعها بين العلماء المتخصصين لكى يكتبوا المقالات فى موضوع تخصصهم وتجمع هذه المقالات أخيرا فى جزء

من أجزاء دائرة المعارف لكى تطبع على طريقة حروف المعجم .

والطريقة الأخرى نعرضها فيما يلى ونعتقد أنها أحسن ، نعمد لجمع مواد القرآن الموجودة فى جميع التفاسير ثم نوزعها على الموضوعات المختلفة .

ثم تجمع مواد التفاسير فى بطاقات مختلفة تحت إشراف قسم من أقسام الموضوعات المتعددة فكل قسم منها يجمع مواد موضوعه الخاص من التفاسير المدونة فى عصور مختلفة فيلخصها فى بطاقة ويرسلها إلى رئيس قسمه لكى ينظر فى المواد ويراجعها ويكتب بطاقة مبينة على أساس هذه المواد بإيجاز حتى لا تزيد المقالة على ثلاث صفحات كبيرة ثم يرسل رئيس القسم مقالته مع البطاقات إلى رئيس الإدارة لكى ينقح المراجع ويحقق المواد ويعلق عليها ويصححها ويرفع عبارة المقالة إلى مستوى اللغة الأدبية ويجهزها أخيرا للطبع فيقسم شعب الموضوعات إلى أقسام مختلفة كما يلى :

القسم الأول : يحتوى على تفاسير أتى بها المحدثون من القرن الحاضر .

القسم الثانى : يحتوى على التفاسير التى أتى بها الفقهاء من المسائل الشرعية والثقافية والسياسية حسب مذاهب الفقهاء .

القسم الثالث : يحتوى على التفاسير التى أتى بها فلاسفة المسلمين وما أخذوا من الآيات من المسائل الفلسفية .

القسم الرابع : يحتوى على التفاسير التى أتى بها أهل التصوف وما استخرجوا من الآيات من مسائل التصوف .

القسم الخامس : يحتوى على تاريخ القرآن وتاريخ نزول الآيات وحياة الرجال البارزين الذين جاء ذكرهم فى آيات القرآن .

القسم السادس : يرتب فيه فهارس الآيات وموضوعاتها وأسماء الإشخاص والأماكن وغير ذلك .

فبناء على هذا الأساس نستطيع أن نرتب كل سنة ألف آية فى قاموس تفاسير القرآن وعلى هذا الحساب نستطيع أن نكمل فى ستة أعوام قاموس تفاسير القرآن الذى يشتمل على ستة آلاف وستمائة وست وستين آية .

لإجراء هذا العمل قد قامت أوقاف النظام (بحيدر أباد) بدفع مالية ضرورية فى ابتداء العمل وأخذت دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد مسئولية طبعها على عاتقها ولكن أهم الموانع فى سبيل تحقيق هذا الهدف جمع العلماء الأفاضل وتعاونهم العلمى فلو ساعدنا علماء الدول العربية والإسلامية بتعاونهم العلمى فى تحقيق هذه الغاية ولو كان ذلك بإيثار لخدمنا خدمة إسلامية عظيمة ونستطيع بذلك أن نترك لأجيالنا تراثا يفتخر به .

من البحوث الإسلامية

القرآن فى التربية الإسلامية

للدكتور ابراهيم عبد المجيد اللبان
"عضو المجمع"

تمهيد :

التربية الإسلامية فى حالتها الحاضرة :

إذا تتبعنا ما هو جار فى المعاهد والمدارس وجدنا العمل فيها يأخذ صورة واحدة على وجه التقريب ، فالطريقة المتبعة هى طريقة الشرح : شرح العقائد والعبادات والأحكام والأخلاق ثم يقف الأمر فى العادة عند هذا الحد .

وأول ما يواجهنا عند تقدير هذا النوع من التربية هو نتائجها ، فهل تكوّن هذه التربية المسلم الصحيح ؟ قد تعطيه فكرة عن العقائد ، ولكن هل تنشىء خلق العبادة ؟ هل تضع أساس عادة الصلاة والصدقة والصوم والزكاة ؟ هل تنشىء فى نفس من يتلقاها عواطف خلقية تتملك النفس وتسيطر على السلوك كحب الصدق وفعل الخير ونحو ذلك ؟ والجواب واضح ، ولن يكون إلا سلبيا ، والسبب بين ، فإن هذه التربية لم تتجه إلى تكوين عادات أو عواطف خلقية ،



الدكتور ابراهيم عبد المجيد اللبان

وإنما اتجهت إلى فكر المتعلم وحاولت أن تحشد فيه المعلومات الخاصة بالعقيدة وبأحكام العبادات وتعريفات الأخلاق ، وتركت الجانب العملى والعاطفى من السلوك الإنسانى فلم تحاول أن تدربه على العبادات ولم تحاول تكوين الأخلاق ، بل لم يكن يعنيها أن ينعقد

القلب على حب الصدق والخير بصورة قوية عاملة ، تدفع النفس إلى عمل الخير والتزام الصدق فى جميع مواقف الحياة .

وأساس ذلك كله أن هذه التربية تقوم بصورة ضمنية على أساس أن التربية الدينية تربية عقلية مماثلة للتربية العلمية ، وهو خطأ فاحش ، وقد أدى هذا الخطأ إلى إهمال التربية العملية والخلقية فى تربية الناشئين تربية دينية .

ومما لا شك فيه أن الناحية العقلية ناحية المعرفة ضرورية فى التربية الدينية ولا غنى عنها فيها ، ولكن التربية الدينية تتكون من أنواع مختلفة من الأعمال يختلف كل منها عن الآخر فى طبيعته ووسائله ، فهناك أولا غرس العقيدة ، ثم تربية الناشئ على العبادة والأخلاق .

وواضح أن تربية العقيدة ضرب من التربية الفكرية ، وأن العنصر الأساسى فيها هو المعرفة فالمطلوب فى ميدان العقيدة هو الاهتمام بأن يصل الناشئ إلى قضايا خاصة ، قضايا تقرر وجود الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن يكون موقفه إزاءها موقف من يتصورها بوضوح ، ويؤمن بها إيمانا مستنيراً مستنداً إلى الحجة والبرهان لا إلى محض التقليد ، فإذا تم له هذا فقد بلغت هذه التربية تمامها ، فإنها ليست تربية على عاطفة أو عمل ، إنما هى تربية على إيمان ويقين وقد تم المطلوب .

أما التربية على العبادات فالأمر فيها مختلف فهى لا محالة تحتاج إلى معرفة تفصيل العبادات المفروضة ، وما تشتمل عليه من حركات وسكنات وقيام وقعود وأقوال وتلاوة ، ولكن المعرفة هنا لا تكفى كما هو الحال بالنسبة للعقيدة فالمطلوب هنا هو العمل لا مجرد المعرفة فالمطلوب القيام بالعبادة بصورة دقيقة منظمة طبقا لأحكام الشريعة ، المطلوب فى الواقع تكوين عادة عملية ، فإذا اقتصر الأمر على الإلمام بالناحية العلمية للعبادة من شروط وأركان وواجبات وسنن دون أداء للعبادة نفسها ، فإن التربية فى هذه الدائرة تكون قد تغافلت عن هدفها الصحيح وقصرت فى تحقيقها وإجمال القول أن وظيفة المعرفة هنا هى قيادة العمل وتوجيهه ، وإعطاؤه طابعه الصحيح ، ولكنها هنا ليست هدفا أو غاية ، فإذا انتقلنا إلى التربية الخلقية ألفينا أنفسنا فى موقف مماثل ، فمعرفة حقيقة الخلق المطلوب أمر لا غنى عنه فى التربية الخلقية ولكن التربية الخلقية لا تتم بمجرد معرفة طبيعة الخلق ، فمن الممكن هنا كما هو ممكن فى دائرة العبادات أن تتحقق المعرفة ويهمل جانب العمل ، من الممكن مثلا أن تعرف طبيعة الصدق معرفة تامة ثم

لا تلتزم فى حياتنا اليومية ، فالتربية الخلقية الحقيقية هى التى لا تكتفى بالمعرفة بل تتجه إلى ناحية العاطفة ، وتعلم حق العلم أن مهمتها الحقيقية هى تكوين عاطفة عاملة ، وإيجاد إحساس قوى متأصل فى نفس الناشئ بحب الصدق ، وعادة قوية تصدر عن هذا الحب فتحمل الناشئ على احترامه ، وجعله دستورا له فى حياته اليومية والنتيجة الأخيرة هى أن من أخش الأغلاط أن يظن ظان أن التربية الدينية مسألة دراسة فقط ، فالدراسة لا تعطى فى دائرتى العبادات والأخلاق أكثر من عنصر واحد وهو عنصر المعلومات وهى ضرورية للقيام بالعبادة ، والعواطف الخلقية ولكنها وحدها لا تعـــد تربية تامة على العبادة أو الأخلاق .

أما فى دائرة العقائد فدراسة وجود الله وصفاته وأفعاله ، ثم دراســـة ما يتصل بالملائكة والرسل والكتب المنزلة والبعث ، مع الاتجاه فى هذه الدراسة إلى وضع دعائم الإيمان الوطيد الأركان بكل هذه المبادىء دراسة مستوعبة للمطلوب فى هذه الدائرة وإن كانت دراسة عقلية .

القرآن فى التربية الدينية

نظرة تاريخية :

لن نستطيع أن ندرس المسألة التى تصدينا لدراستها دراسة مستنيرة إلا إذا قدمنا بين يديها نظرة تاريخية تمهد لها وتعين على فهمها وتحديد الحل الصحيح لها ، ويحسن بنا قبل الإقدام على هذه الدراسة التاريخية التمهيدية أن نحدد تحديدا دقيقا الدائرة التى سنعمل فيها والمقاصد التى سنتحراها .

وأول ما ينبغى أن نسجله هنا هو أننا لن ندرس تاريخ التربية الإسلامية ، ولكننا سنقصر اهتمامنا على تاريخ الكتاب والسنة وحدهما فى منهج التربية الإسلامية فى عصور التاريخ الإسلامى المتعاقبة ، وسنخص من هذا الموضوع بالعناية معالم خاصة لا نعدوها إلى ما سواها ، فسيكون موضوع البحث فى هذه العجالة - الأدوار المختلفة التى مر بها ظهور الكتاب والسنة فى منهج التربية الإسلامية ، والأدوار التى اختفيا فيها أو كادا يختفيان منه ، ويمكن أن نحدد هنا أدوارا ثلاثة :

أما الدور الأول : فهو الدور الذى كان منهج التربية الإسلامية مقصورا أو كالمقصور على الكتاب والسنة ، ولا يعنينا هنا التحديد الزمنى لهذه الظاهرة التربوية الهامة بقدر ما يعنينا أن نتبين أنها حقيقة واقعة ، وأن لها مغزى إسلاميا جليلا وأثرا تربويا عميقا ولعله من الواضح أن تربية المسلم صغيرا أو كبيرا فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين وصدر من دولة بنى أمية كانت تعتمد على الكتاب والسنة وحدهما ، ومعنى هذا أن

المسلم كان إذ ذاك يتلقى دينه من كتاب ربه وسنة رسوله مباشرة ، وهذا أمر طبيعى ، فإن العلوم الإسلامية لم تكن إذ ذاك قد نشأت فقد وضع علم الكلام ونضج علم الفقه بعد ذلك العهد .

والمهم بالنسبة لبحثنا أن نقدر عمق الأثر التربوى الذى ترتب على الاعتماد على الكتاب والسنة فى التربية الدينية ، ويكفى أن نعيد إلى الذاكرة أسماء كبار الصحابة والتابعين الذين حفظ التاريخ أسماءهم ، لنرى فى حياتهم الخاصة والعامة أثر كتاب الله وسنة رسوله فى تكوين عقائدهم وأخلاقهم ، وفى روح التقوى وفضيلة العبادة التى غلبت على نفوسهم وجعلتهم مثلا عليا فى تاريخ البشرية كلها ، ويتقدم هذه الأسماء جميعا أسماء : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الله بن عمـــر وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن سواهم ممن تغلغل الدين فى أعماق نفوسهم فظهروا على مسرح التاريخ شموسا ساطعة ومصابيح منيرة ، ونماذج تحتذى ومنابع فياضة بالإيمان والتقوى والخير العميم ، ولا أريد أن أتوسع فى بيان قوة الطابع الدينى الذى الذى أحدثه الكتاب والسنة فى نفوس هؤلاء الأبرار وسلوكهم ، ولكنى أكتفى بتسجيل هذه الحقيقة التربوية الكبرى وهى أن هذه الأجيال تمثل المظهر الرائع الذى تجلت فيه قدرة الكتاب والسنة على تكوين المسلم الحق المسلم الذى وصل الإيمان إلى قرارة نفسه ، وأخذت أخلاقه وأعماله الطابع الإسلامى القوى الذى لا يمسه ضعف أو فتور بل هو راسخ كالجبال يقوم بجلائل الأعمال .

أما الدور الثانى : فهو دور يختلف عن هذا الدور اختلافا بينا ، ويجب أن يتقرر فى الأذهان بوضوح تام الفرق الأساسى بين الدورين ، ولن نحاول أن نتتبع التطور الذى حدث من بدايته إلى نهايته فبحثنا التربوى لا يحتاج إلى أكثر من تقرير بعض الحقائق الكبرى ، وفى مقدمتها نشأة العلوم الإسلامية ، وما ترتب على ذلك من أثر فى منهج التربية ومادتها ، ويكفينا من هذا أن نشير إلى ظهور علم الكلام وعلم الفقه وتكاملهما واتجاه الأنظار إليهما ، وما كان لذلك من أثر فى الاعتماد على الكتاب والسنة فى التربية الإسلامية .

اتجه علم الكلام إلى تحديد العقائد الإسلامية وبيان أدلتها ، واتجهت الشريعة إلى دراسة الأحكام الشرعية ، فقررت أحكام العبادات والمعاملات ، فوجد الناس أمامهم كتبا تحتوى على أصول الإسلام وفروعه ، مستنبطة من الكتاب والسنة وغيرهما ، وموضوعة فى صورة تختلف عن صورتهما فى مصادر الإسلام العليا ، وهنا حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد اتجه الناس تدريجا

إلى علم الكلام وعلم الفقه بعد تجريدهما من نصوص الكتاب والسنة ، من أجل الانتفاع بهما فى الحياة ، وبخاصة فى القضاء والإفتاء ، ثم اعتمدوا عليهما فى التربية الإسلامية .

أما الدور الثالث : فيمتاز بظهور النزعة إلى ضم القرآن إلى منهج التربية الدينية ، وقد كان الميل الغالب هو ضم السور القصار ، فضم الجزء الأخير من القرآن إلى منهج الابتدائى فى المدارس الابتدائية وأقبل التلاميذ على استظهاره ومحاولة فهمه وواضح أن مبدأ ضم القرآن إلى منهج التربية الدينية قد تضمن العدول عن الاكتفاء بالمجردات فى التربية الدينية كما تضمن أيضا شعورا جديدا بأنه لا غنى لنا فى التربية الدينية عن الرجوع إلى مصادر الدين الأساسية ، وتمكين الناشئة من ورود مناهل القرآن ، والاغتراف من فيضه العذب ، وهو فى الوقت نفسه إحياء لسنة الرعيل الأول من الأمة الإسلامية

ولكن لا ينبغى أن تفوتنا أمور جديرة بالملاحظة ، وبخاصة من الناحية تربوية فقد لا يكون من أفضل وسائل التربية الدينية التعويل على سور الجزء الأخير من القرآن وحدها ويتضح ما نرمى إليه إذا تذكرنا أن هذه السور وإن كانت سهلة الاستظهار لقصرها فقد لا تكون لغتها فى مستوى عقول التلاميذ فى المدارس الابتدائية ، ومن جهة أخرى يجب أن نتذكر أن هذه السور قد نزلت فى ظرف خاص لغايات معينة ، فكثرتها الغالبة مكية ، وهى فترة كانت تمتاز بالمعارضة العنيفة للدعوة الإسلامية ، ومن ثم كان موضوع الكثير منها محاجة الكفار ومجادلتهم لا شرح العقائد والأخلاق ومبادىء الشريعة ، وحسبك أن تتذكر سورة المسد وسورة الهمزة .

أساس الاختيار :

لا بد أن يكون أساس اختيار الآيات لمنهج التربية الإسلامية أساسا واضحا مفهوما ، وإذا كان الغرض من التربية الإسلامية تمكين العقيدة فى النفوس وتثبيتها فى العقول ، ثم تأسيس العادات الدينية وتكوين الأخلاق الإسلامية ، وتعليم الأحكام الشرعية ، فقد أصبح من الضرورى للقيام بالتربية الدينية الصحيحة أن يتضمن منهجها من آيات الذكر الحكيم ما يدخل فى نطاق هذه الموضوعات الرئيسية العامة ، وبتعبير أدق ، يجب أن يكون أساس الاختيار أهمية الآيات للحياة الدينية فى صورتها العامة التى تتضمن العقائد والعادات والأخلاق ، فما هى أهم الآيات التى تحتاج إليها التربية الإسلامية احتياجا مباشرا لتكوين المسلم وتضعه على الصراط الإسلامى المستقيم؟ ولن يطول بنا البحث فى هذا الميدان فقد

كان من حسن الحظ أن قام بالمحاولة الأولى أمام من أئمة المسلمين وعلم من أعلام الفكر الإسلامى المستنير ، وهو أبو حامد الغزالى ، ومن الخير أن نبدأ ببيان الخطوط العريضة لهذه المحاولة الدقيقة ، لنسير على هداها فيما نقوم به من عمل فى هذا الصدد .

اختيار الغزالى :

قام الغزالى رضى الله عنه بهذه المحاولة فى كتابه الذى سماه (جواهر القرآن) ويمكن أن نقدم صورتها العامة فيما يلى :

بدأ الغزالى بتحديد الغاية العليا للقرآن الكريم ، وفى ضوء هذه الغاية استطاع أن يقسم آى الذكر الحكيم إلى ستة أنواع ، وأساس التقسيم هو النظرة الموضوعية إلى الآيات القرآنية ، تلك النظرة التى أسفرت عن تباين موضوعات الآيات وتعددها .

ويتلو ذلك فى أهميته لبحثنا هذا مبدأ التقدير ، فإن الغزالى لم يجعل الآيات من ناحية صلتها بالمقصد الأعلى للقرآن متساوية أو متعادلة . وختم دراسته هذه بنتيجة عملية فقد جمع الآيات الضرورية لتحقيق الغاية الدينية فى فصلين ، أوصى بالعناية التامة بدراسة ما يضمانه من آيات ، ويحتوى أحدهما على الآيات الخاصة بالعقائد ، أما الثانى فيشتمل على آيات العبادة والأخلاق . ولنشرع فى عرض منهجه هذا كما عرضه هو نفسه فى كتاب جواهر القرآن ، ففى مقصد القرآن الكريم يقول الغزالى :

« سر القرآن ولبابه الأصفى ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات والأرضين السفلى وما بينهما وما تحت الثرى .

ثم ينظر إلى الآيات من هذه الزاوية نظرة موضوعية فيلمح اختلاف موضوعاتها ، وتتضح له الأقسام العامة لتلك الموضوعات ، كما يرى رؤية واضحة أن هذه الأقسام يسبق بعضها بعضا من ناحية صلتها بالمقصد القرآنى الأعلى ، ومن ثم يعقب على الفقرة السابقة بقوله : « فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته فى ستة أنواع : (ثلاثة) منها هى السوابق والأصول المهمة (وثلاثة) الروادف والتوابع المغنية والمتممة ، أما الثلاثة المهمة : فهى تعريف المدعو إليه ، تعريف الصراط المستقيم الذى تجب ملازمته فى السلوك إليه ، وتعريف الحال عند الوصول إليه . وأما (الثلاثة المغنية المتممة) ؟

فأحدها ـ تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم ، وسره ومقصوده التشويق والترغيب ، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم ، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب .

وثانيها ـ حكاية أحوال الجاحدين وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق ، وسره ومقصوده فى جنب الباطل الافضاح والتنفير ، وفى جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقرير .

وثالثها ـ تعريف عمارة منازل الطريق ، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد .

وكأنما أحس الغزالى بأن العرض السابق ينقصه بعض الإيضاح والتفصيل ، فعطف عليه بما يحتاج إليه من بيان وتحديد . فهو يحدد القسم الأول بأن المقصود منه تعريف المدعو إليه ، وهو شرح معرفة الله . . . ، وتشتمل هذه المعرفة على معرفة ذات الحق ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال ثم يشير إلى مقدار ما يحتوى عليه القرآن من ذلك فيقول :

« معرفة الذات أضيقها مجالا وأعسرها منالا وأعصاها على الفكر وأبعدها عن قبول الذكر ، ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات . . .

وأما (الصفات) فالمجال فيها أفسح ونطاق النطق فيها أوسع ، ولذلك كثرت الآيات المشتملة على ذكر العلم والقدرة والحياة والكلام والحكمة والسمع والبصر وغيرها . وأما (الأفعال) فبحر متسع أكنافه ، ولا تنال بالاستقصاء أطرافه ، بل ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله وكل ما سواه فعله ، لكن القرآن يشتمل على الجلى منها الواقع فى عالم الشهادة ، كذكر السموات والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء الفرات ، وسائر أسباب النبات والحياة وهى التى ظهرت للحس .

وأشرف أفعاله وأعجبها وأدلها على جلالة صانعها ما لم يظهر للحس بل هو من عالم الملكوت وهى الملائكة والروحانيات والروح . . . فهذا جملة القسم الأول . . . وسنتلو عليك الآيات الواردة فيها على الخصوص جملة واحدة ، فإنها زبدة القرآن وقلبه ولبابه وسره . ثم يتجه الغزالى إلى بيان المقصود من القسم الثانى فيقول :

القسم الثانى : فى تعريف طريق السلوك إلى الله تعالى ، وذلك بالتبتل إليه ، كما قال تعالى « وتبتل إليه تبتيلا » أى انقطع إليه ، والانقطاع يكون بالإقبال عليه والانقطاع عن غيره . . . ، والإقبال عليه يكون بمخالفة الهوى ، والتنقى عن كدورات الدنيا وتزكية القلب عنها ، والفلاح نتيجتها كما قال الله تعالى « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » .

فعمدة الطريق أمران : الملازمة والمخالفة : الملازمة لذكر الله تعالى ، والمخالفة لما يشغل عن الله ، وهذا هو السفر إلى الله . . .

ومعرفة السلوك والوصول أيضاً بحر عميق من بحار القرآن ، وسنجمع لك الآيات المرشدة إلى طريق السلوك لتتفكر فيها جملة ويأتى بعد هذا كلامه عن القسم الثالث فيقول :

القسم الثالث : تعريف الحال عند ميعاد الوصال ، وهو يشتمل على ذكر الروح والنعيم الذى يلقاه الواصلون ، والعبارة الجامعة لأنواع روحها هى الجنة ، وأعلاها لذة النظر إلى الله تعالى .

ويشتمل على ذكر الخزى والعذاب الذى يلقاه المحجوبون عنه بإهمال السلوك والعبارة الجامعة لأصناف آلامها الجحيم ، وأشدها ألماً ألم الحجاب والإبعاد . ويشمل أيضا على ذكر مقدمات أحوال الفريقين وعنها يعبر بالحشر والنشر والحساب والميزان والصراط .

وثلث آيات القرآن وسوره يرجع إلى تفصيل ذلك .

تبق بعد ذلك الأقسام المتممة وقد عرض لها الغزالى أيضاً بشىء من الإيضاح ، فجاء بها مرتبة قسما بعد قسم وبدأ بالرابع فقال :

القسم الرابع : فى أحوال السالكين والناكبين : (أما أحوال السالكين فهى قصص الأنبياء والأولياء ، كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وهرون ...) وأما أحوال الجاحدين والناكبين : فهى كقصص نمروذ وفرعون وعاد وقوم لوط ... وفائدة هذا القسم الترهيب والتنبيه والاعتبار ، والآيات الواردة فيه كثيرة وبعد الرابع يعرض الغزالى للخامس فيقول :

القسم الخامس : محاجة الكفار ومجادلتهم ، وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح وكشف أباطيلهم وتخابيلهم وأباطيلهم ثلاثة أنواع :

أحدها : ذكر الله تعالى بما لا يليق به ، من أن الملائكة بناته ، وأن له ولدا وشريكا وأنه ثالث ثلاثة .

الثانى : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر وكاهن وكذاب ، وإنكار نبوته ، وأنه بشر كسائر الخلائق فلا يستحق أن يتبع .

ثالثها : إنكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار ، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية ... وآيات كثيرة ظاهرة . ويختم ذلك كله كلامه بذكر القسم السادس فيقول :

القسم السادس : (تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية التأهب للزاد ، والاستعداد بإعداد السلاح الذى يدفع سراق المنازل وقطاعها .

وبيانه أن الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى والبدن مركب ، فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره وما لم ينتظم أمر المعاش فى الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله تعالى الذى هو السلوك ،

ولا يتم ذلك حتى يبقى بدنه سالما ونسله دائماً، ويتم كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما، وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما)
ثم يبين الغزالى أن الحياة الدنيوية لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الاختصاص فى دائرة الأموال والنساء، ولو ترك الأمر مهملا ولم تبين أسس الاختصاص لشغل الناس عن الحياة الدينية بالنزاع والقتال من أجل هذه القيم الدنيوية، بل ربما جر الأمر إلى الهلاك ولكن الأمر لم يترك مهملا.

يقول الغزالى :

(فشرح القرآن قانون الاختصاص بالأموال فى آيات المبايعات والربويات والمدنيات . .

وأما الاختصاص بالإناث فقد بينتها آيات النكاح والطلاق والرجعة والعدة ...

وأما أسباب الدفع لمفسداتها : فهى العقوبات الزاجرة عنها، كقتال الكفار وأهل البغى والحث عليه، والغرامات والتعزيرات والكفارات والديات والقصاص ولا يخفى عليك الآيات الواردة فى هذا الجنس).

ويجب أن نتنبه إلى أن الغزالى قد ذكر بوضوح تام أنه سيجمع الآيات الخاصة بمعرفة الطريق إليه، آيات العبادات والأخلاق، أما الآيات الخاصة ببقية الأقسام فلم يعدنا بجمعها، والواقع أنه جمع الآيات الخاصة بالقسم الأول فى فصل، والآيات الخاصة بالثانى فى فصل آخر، ثم وقف عند هذا الحد.

وهذا التصرف يستند بطبيعة الحال إلى اعتبارات تربوية سنبينها فيما بعد، فأساس الأمر كله هو أن المهم هو معرفة الله تعالى والوصول إليه، وقد اتخذ من هذا المبدأ أساسا للاختيار، فمن البين أن بعض الأقسام الستة أشد ارتباطا وأقوى أثراً فى تحقيق هذه الغاية الروحية من غيره، ومن ثم كان من الطبيعى أن يتقدم سواه، وأساس الاختيار بالإجمال هو النظرة التربوية. أعنى تقدير الأثر التربوى لكل قسم من الأقسام الستة السابقة الذكر فى تحقيق الغاية الروحية العليا.

وقد حملت هذه النظرة التربوية على اختيار الآيات التى يعدها ضرورية وأساسية لتكوين المسلم الصحيح، فاختار الآيات التى تتعلق بالعقائد، ووضعها فى فصول، وسماها جواهر القرآن، ثم جمع الآيات الخاصة بالسلوك، وهى آيات العبادات والأخلاق الإسلامية فى فصل خاص وسماها درر القرآن.

وبين السبب الذى حمله على هذا الاختيار فى خاتمة الكتاب فقال : (اعلم أننا اقتصرنا من ذكر الآيات على نمط الجواهر والدرر لمعنيين):

أحدهما : أن الأصناف الباقية أكثر من أن تحصى.

والثانى : أن هذا هو المهم الذى لا مندوحة عنه أصلا ، فان الأصل هو معرفة الله ثم سلوك الطريق إليه .

الاقتداء بالغزالى :

ويحسن بنا أن نتخذ الغزالى إماما لنا فى هذه المهمة الدقيقة وذلك لأنه فى دراسته المشار إليها آنفا كان يرمى إلى غرض عملى لا نظرى كان فى الواقع يقوم بعمل تربوى حقيق عماثل العمل الذى نحاوله وهو وضع كتاب التربية الروحية الإسلامية يعتمد فيه على القرآن الكريم .

ويمكننا أن نبين منهاج الغزالى ونتائجه فيما يلى :ـــ

كان هدفه أن يوجه المسلم إلى ربه وقد جعل القرآن عونه فى ذلك ومادته ولما نظر فى القرآن من هذه الناحية رأى أن مهمته هى دعوة الإنسان إلى ربه وأنه من هذه الناحية ينقسم إلى الأقسام السابقة الذكر .

وكانت النتيجة الثانية التى انتهى إليها أن هذه الأقسام الستة تتفاوت من ناحية صلتها بالمهمة الأساسية للقرآن والدعوة الإسلامية بصورة عامة فالقسمان الأول والثانى يتصلان بهذه المهمة اتصالا مباشراً ، ذلك لأن القسم الأول هو الآيات الخاصة بمعرفة الله معرفة الذات والصفات والأفعال والقسم الثانى . يختص بمعرفة الطريق إليه فهو يتضمن الآيات الخاصة بالأعمال والأخلاق ويتضمن الآيات المتصلة بالعبادات والواجبات الخلقية الفردية والاجتماعية .

وقد كانت نتيجة هذه النظرة أن وضع كتاب جواهر القرآن وضمنه آيات القسمين المذكورين فقط وصرح بأنه إنما فعل ذلك ليعين المسلم على التفكير فيها والاستمداد منها والسير على هداها .

ولكن الغزالى كرجل اتخذ من التربية الروحية الإسلامية مهمة له رأى أن يضم إلى هذه الخطوة خطوة أخرى ضرورية فليس من السهل لكل فرد أن يرى الطريق فى صورته العامة المفصلة دون معونة أخرى تضم إلى المعونة السابقة الذكر وبتعبير أوضح رأى أن يضع كتابا فى التربية الروحية الإسلامية وكانت الخطة التى ارتضاها أن يضع منهجا شاملا للمبادىء الإسلامية الروحية الاعتقادية والخلقية وهى المبادىء الخاصة بمعرفة الله ذاتا وصفات وأعمالا وبمعرفة الطريق إليه أو الأخلاق الضرورية للوصول إلى رضوانه، وهى كما سبق بيانه. المبادىء التى يشتمل عليها القسم الأول والثانى من أقسام الآيات القرآنية ولكنه حرص فى الوقت نفسه على أن يتضمن شرحه لهذه المبادىء ما يتصل بها من آيات القرآن التى جمعها فى كتاب الجواهر وقد قام بهذه المهمة فى كتاب

الأربعين فى أصول الدين وقد كانت خطة الغزالى بالإجمال فى هذا الكتاب التربوى أن يتخذ من المنهج الإسلامى أساسا لاختيار الآيات القرآنية وأن يتكون الكتاب من المبادىء الإسلامية الروحية والآيات المتصلة بها .

وهذا هو الأساس الذى نرتضيه فى مهمتنا الحاضرة فيحسن أن نختار للتربية الدينية فى الوقت الحاضر من آيات الذكر الحكيم ما يتصل بموضوع المنهج اتصالا وثيقا وقدوتنا فى هذا هو الإمام الغزالى نفسه .

ويمكن أن يدخل فى نطاق اختيارنا سور قصيرة ولكنا نختار أيضا من السور الطويلة ما يرتبط بموضوعات المنهج ارتباطا وثيقا .

النتيجـــة :

والذى ندعو إليه هو :

أولا — أن يتسع منهج الدين فيشمل العقائد والعبادات والأخلاق وما كان من الشريعة متصلا بالحيـــاة اليومية كأحكام المعاملات المالية وأحكام الأسرة ونحو ذلك .

ثانيا — يجب أن نتخذ من هذا المنهج أساسا لاختيار الآيات والسور فنختار منها ما يتصل بالعقائد والعبادات والأخلاق وهو جواهر القرآن ودرره التى اختارها الغزالى ويضم إلى ذلك ما يتصل بالأحكام الشرعية التى يقع عليها الاختيار .

ثالثا — يختار لكل مرحلة من مراحل التعليم الآيات المناسبة لها وهى الآيات التى تكون فى متناول فهم التلاميذ ومستواهم اللغوى والعقلى .

رابعا — يجب تحديد طريقة العرض وطريقة العرض المثلى هى :

(ا) أن يبدأ بذكر سبب النزول وتحدد المشكلة التى نزلت الآية أو الآيات لمعالجتها ثم يشار إلى طبيعة الحل الحاسم الذى جاءت به الآية أو الآيات المذكورة .

(ب) تعرض الآية أو الآيات التى تتضمن الحل ويستنبط منها الصورة العامة للحل الإسلامى وتبين حكمته .

(ج) أما المباحث اللغوية والبلاغية فتأتى بعد ذلك .

خامساً — ينبغى أن نتذكر دائما أنه يجب أن يضم إلى آيات القرآن الأحاديث النبوية التى تلتقى وإياها فى موضوعها وتكون مفسرة لها أو متممة لأحكامها أو متصلة بها على نحو ما ، فالكتاب والسنة ضروريان لمعرفة الدين عقيدة وعبادة وأخلاقا ويجب أن تقوم السنة إلى جانب القرآن فى تعليم الدين وتربية المسلمين .

سادسا — ويجب أن تتخذ الوسائل الكفيلة بسد النقص فى الناحية العملية من التربية الدينية وهذه مشكلة تربوية كبرى تحتاج لدراسة خاصة .

د . ابراهيم اللبان

المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام

للأستاذ محمد أبى زهرة
عضو المجمع

كان موضوع البحث الذى قدمه فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو زهرة فى هذه الدورة هو المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام.

وقد مهد له بمقدمة بين فيها صلاحية الإسلام للتطبيق فى كل زمان ومكان ثم ذكر ما يؤيد ذلك فى الموضوعات التى دار حولها بحثه، فبين العقيدة الإسلامية وتأثيرها فى تطهير العقول والنفوس من الأوهام الفاسدة، وأفاض فى الحديث عن دعائمها الثلاث. الإيمان، بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، والإيمان بالغيب، والإيمان بالرسل أجمعين، وبين أن هذه الدعائم كلها يسلم بها العقل، ويقوم الدليل المستمد من البديهة على صحتها وليس فيها مجال لوهم أو خرافة، ثم قال: إن الإسلام يطوى فى عقيدته الخالصة كل عقيدة صحيحة فى الأديان كلها، وانتهى من ذلك إلى الحديث عن الوحدة الإنسانية، فذكر أن الناس جميعا سواء بالنسبة للأحكام الإسلامية، وأن اتحادهم فى أصل التكوين من حيث اتحاد الغرائز والاتجاهات الإنسانية كان سبب الاختلاف، إذ نشأ عن ذلك أن استجاب كل لغرائزه فاصطدمت إرادته مع إرادة الآخر. فكان التناحر، وكان لابد من فاصل يرسم الحدود ويقيد الغايات لتتلاقى فى



فضيلة الأستاذ محمد أبى زهرة

خط مستقيم من غير انحراف ولا تقاطع، بل يكون كل خط مواز لخط أخيه، وكل هذه الخطوط تنتهى إلى خدمة الجماعة الإنسانية، وبعد أن أفاض فى بيان ذلك وانتهى إلى ضرورة التعاون والتعارف بين بنى الإنسان تحدث عن الشريعة الإسلامية وعمومها والمساواة بين الناس أمامها وذكر أنها تقوم على أسس ثلاثة: العدل، والفضيلة الإنسانية، والمصلحة. وأفاض فى ذلك، وقد تناول البحث كذلك الأسرة والأصل العام

للحكم فى الإسلام ، والحريات ، وسيرى القراء كل ذلك مبسوطا فى الكتاب السنوى الذى يصدره الجمع عن المؤتمر وإليهم ماجاء من ذلك عن العدالة .

العدالة

إن سمة الإسلام : العدالة ، وهى ميزان الاجتماع فى الإسلام . وهى التى يقوم بها بناء الجماعة ، وكل تنسيق اجتماعى لايقوم على العدالة منهار مهما تكن قوة التنظيم فيه ، لأن العدالة هى الدعامة ، وهى النظام ، وهى التنسيق السليم لكل بناء ، ولذلك كانت أجمع آية لمعانى القرآن الكريم هى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون [1] » ، والله تعالى ، يعتبر العدالة بين الناس أقرب القربات إلى الله تعالى ، وأن المؤمن مطالب بأن يقيمها لله تعالى فهى طريق الزلفى إليه ، ولذلك قال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » [2] .

والعدالة ذات شعبتين ابتداء ، الشعبة الأولى العدالة النفسية بأن يقدر كل إنسان لنفسه من الحقوق بمقدار مايقدره لغيره على ألا يزيد على الناس فى حق ، وقد يفرض على نفسه الزيادة فى الواجب ، وهذه العدالة النفسية هى التى توجد الاتصال المستمر ، وهى التى تقوى بناء الجماعة ، وهى تنفذ دينا من غير قسر ولا حكم مسيطر ، بل يكون الحكم من ذات الضمير ، وهذه قد نصت عليها أقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد قال : (أحب لأخيك ما تحب لنفسك) وقال عليه الصلاة والسلام : (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) فهذا الأدب الدينى الذى يحبب فى العدالة هو أقوى مؤثر فى تقوية الروابط الإنسانية ، وقد كان بعض فلاسفة الألمان يجعل الفارق بين العمل الذى يكون خيرا ، والآخر الذى يكون شرا ، هو أن يعتبر الفعل قد صدر من الجميع ، فإن انتهى إلى صلاح الجماعة كان خيرا ، وإلا فهو الشر .

ومحمد صلى الله عليه وسلم قرب ولم يباعد ، فجعل المقياس من قلب الفاعل ، أيحب أن يفعل به ، ما يفعله مع غيره ؟ فإن ارتضى ذلك كان خيرا ، وإلا كان شرا .

والشعبة الثانية من العدالة هى التى تنظمها الدولة ، وإن مقام هذه العدالة فى التنظيم الظاهر ، ولكنه لا ينفذ كاملا إلا إذا كان قائما على أساس من العدالة النفسية عند الحاكم والمحكوم على سواء ، فعلى الحاكم ألا يفرض من النظم إلا مايطبقه أولا على نفسه وأسرته ، ولقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان إذا سن نظاما ودعا الناس دعا آل الخطاب وقال لهم : « لقد عزمت

(١) سورة النحل الآية (٩٠)
(٢) سورة المائدة الآية (٨)

على الناس أمرا ، والله لا أرى له مخالفا من آل الخطاب ، إلا ضاعفت له العقاب » .

والشعبة الثانية أقسام ثلاثة: عدالة قانونية، وعدالة اجتماعية ، وعدالة دولية .

١ — العدالة القانونية :

يقصد بالعدالة القانونية أن يكون القانون واحدا لا يكون قانون للأشراف وآخر لغيرهم ، أو يكون قانون للبيض ، وآخر للملونين ، بل يكون الجميع خاضعين لقانون واحد وأن يكون تطبيقه ملاحظا فيه المساواة فى الحكم لا فرق فى التطبيق بين غنى وفقير ، ولا أبيض وأسود ، ولا جنس وجنس ، ولا دين ودين ، ولا جاهل ومتعلم بل الجميع أمام القانون سواء ، فلا تفاضل بين الناس فى التطبيق للقانون ، لأن التفاضل لا يكون فى مخالفة القانون ، إنما التفاضل بالفضائل ، ولعل أصدق تصوير للمبدأ الإسلامى فى التطبيق القانونى قول سعد زغلول، وهو عالم أزهرى ، قبل أن يكون سياسيا : (إننا نتفاضل فيما بيننا ، ولكننا أمام القانون سواء) فإن هذا تلخيص جيد المبدأ الإسلامى فى تطبيق العدالة . وقد كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن ينفذ حكم الإسلام فيه قبل أن ينفذه فى غيره ، وقد كان مرة يقسم الغنائم ، فجاءه رجل وألب عليه فضربه بعود فى يده فأظهر الرجل الألم فطلب إليه الرسول أن يقتص منه فعفا الرجل ، وكان عليه السلام حريصا على أن ينفذه على الناس كافة .

ويروى فى ذلك أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت ، وهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقطع يدها لتكرار السرقة منها ولأن حد الله تعالى يجب أن يقام ، فوسطوا أسامة بن زيد حب رسول الله تعالى ليشفع فى ذلك فغضب رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام ، وقال له لائما : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟!) ثم وقف خطيبا وقال : (ما بال أقوام يتشفعون فى حد من حدود الله ، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف قطعوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) .

ولقد كان الصحابة من بعده ينفذون العدالة بين الناس على سواء ، وكما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : (الناس سواسية كأسنان المشط) ولقد قال فى ذلك أبو بكر خليفة رسول الله تعالى رضى الله عنه : « القوى منكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى آخذ الحق له » .

وعمر بن الخطاب العبقرى الذى لم يفر أحد فى الإسلام فريه كان شديداً على نفسه وعلى أهله وعلى ولاته ، فى تنفيذ الأحكام الشرعية ، حتى إنه ليضرب أحد الناس بدرته لأنه طاف مع النساء ، وقد اعتزم عمر عزمة جعل فيها للنساء زمنا لا يطوف فيه الرجال ، فيقول الرجل ، والله ما علمت لك فيه عزمة فإن كنت قد أسأت فإنك لم تحسن تأديبى ، وإن كنت لم أسئ ظلمتنى ، فأعطاه الدرة

ليضربه ، ولكنه امتنع فقال : «فاعف عن قتال الأعرابي ولا أعفو . حتى يأتي عمر ليلته معتكراً ، فلما رآه الأعرابي في اليوم التالي وجد أثر الآلام على وجهه ، فقال لعلى هذا مما كان بالأمس ، فقال الإمام العادل : نعم ، فقال الرجل الآن عفوت عنك .

وروى التاريخ عنه خبراً هو مثل عال من العدالة الإسلامية الذي يعد مصباحا للعدالة الإنسانية في ذاتها . وذلك أن أميراً من أمراء الغساسنة الذين كانوا قبل الإسلام كان يطوف بالبيت . فوطىء إزاره شاب من فزارة فلطمه الغساني لطمة جدعت أنفه فذهب الشاب إلى الإمام عمر وشكا إليه فقال عمر للغساني : له القصاص أو يعفو عنك . فقال : كيف وأنا أمير ، وهو سوقة ؟ فقال عمر لقد سوى بينكما الإسلام ، فلا تفضل إلا بالتقوى ، فأخذ الأمير يسترضى الشاب الأعرابي ، فلم يرض إلا بأن يلطمه كما لطمه وعلم أن عمر لا محالة سيمكن الأعرابي من القصاص ، ففر إلى الروم مرتداً عن الإسلام وما أهم ذلك عمر فإنه خير للإسلام أن يخرج منه من لم يعمر الإيمان بالعدل قلوبهم من أن يقر ظلما أو يأخذ بالموادة ظالما ، فالظلم ينفر القلوب ويبعد أهل الحق والعدل ، ويقرب ذوى القلوب الطاهرة التي تتجه إلى الحق تبتغيه وهؤلاء مهما يكن عددهم أوفر خيرا ، وأعظم أثراً .

ولقد كان عمر رضى الله عنه يأمر قضاته بالتسوية بين الخصوم في المجلس والنظر والإشارة والإقبال ، ولقد قال في كتابه لأبي موسى الأشعري سو بين الخصمين في مجلسك وإشارتك وإقبالك ، حتى لا ييئس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع قوى في صنيعك .

وإن الإسلام لم يسو فقط في العقوبة بين الشريف والضعيف ، بل نظر نظرة أخرى لم يسبق إليها النظام ولم يلحق به إلى الآن فيها غيره وذلك أنه بالنسبة للعقوبة قرر أن الجريمة تكبر بكبر المجرم . وتصغر بصغره ، والعقوبة تتبع الجريمة صغرا وكبرا وتكبر هي الأخرى بكبر المجرم ، وتصغر بصغره .

ولا نأخذ ذلك من أقوال فقهاء تأثروا ببعض الأغراض في عصورهم ، ولكنا نأخذه من مبدأ عام قرره القرآن الكريم ، وطبقه الفقهاء في موضع النص ، ولكن لم يصلوا فيه إلى أقصى مدى يرمى إليه النص .

وذلك المبدأ هو ما قرره القرآن الكريم في عقوبة العبيد بالنسبة لعقوبة الأحرار فإنه جعل عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر ، فإذا زنى العبد جلد خمسين جلدة ، وإذا زنى الحر جلد مائة جلدة ، وإذا شرب العبد خمرا جلد أربعين ، ويجلد الحر ثمانين ، وإذا رمى العبد امرأة بالزنى ، ولم يأت بأربعة شهود يثبتون دعواه ، فإنه يجلد أربعين جلدة ، بينما يجلد الحر في هذه الحال ثمانين جلدة .

وهذا النص معقول المعنى ، وليس نصا لا يبحث عن علته أو حكمته ، ولكن له علة

تلتمس ، ويقاس عليها غيرها ، وتلك العلة حال الضعف عند الرقيق ، وحال الامتهان لحال ضعفه وامتهانه تسهل ارتكاب الجريمة ، عليه ، والجريمة مهانة ، وحيث كانت المهانة كانت معها سهولة الجريمة ، وهى تسهل على المهين وتصعب على الكريم ، فكانت الجريمة تسير مع الصغر والكبر سيرا طرديا ، ولا تسير سيرا عكسيا ، وكان حقا أن يسير ذلك المبدأ المعقول المعنى فى كل الضعفاء بالنسبة للأقوياء ، ومن يشغلون مراكز اجتماعية فى الجماعات ، ولكن الفقهاء لم يسيروا فى الخط إلى أقصى مداه ، أو بالتحقيق لم يسر أكثرهم فيه إلى أقصى المدى ، ومهما يكن من أقوال بعض الفقهاء والمفسرين للشريعة فإن منطق القرآن ومناط الحكم يوجب الرأفة بالضعيف والتشديد على الكبير لأنه فوق ما سبق ، فى ارتكابه ما يحرض من دونه من الناس على ارتكاب ما يرتكب فإذا علم أن الكبير يرتكب الفحشاء سهلت على من دونه ، واقتدوا به ؛ وشاعت الفاحشة فى الذين آمنوا ؛ أما الضعيف فإنه لا يقلده ، أحد ، وينال ازدراء الناس بما يرتكب .

وإن ذلك المبدأ سمو فى التنظيم القانونى لم يسم إليه إلى الآن قانون فى الأرض ، وأن أكثر القوانين وإن كان يسير على أساس المساواة القانونية عند التطبيق تراه يتجه إلى تصغير جرائم الكبراء ، وتكبير جرائم الضعفاء .

وقد يقول قائل : إن ذلك التطبيق المخالف عرف فى الإسلام بدليل أن أكثر الفقهاء لم يسيروا فى المبدأ الذى قرره القرآن إلى أقصى مداه ، ونقول فى ذلك : إنه فى عهد الراشدين الذين كانوا يطبقون المبدأ القرآنى تطبيقا سليما ، كان المبدأ يسير إلى أقصى المدى فلم ينظر عمر ، ولا من قبله أو بعده من الراشدين إلى تكبير جريمة الصغير ، وتصغير جريمة الكبير ، ولم يقبلوا أن يعفوا ذوى المروءات والهيئات من العقاب ، أو يصغروا العقاب عليهم ، ولكن وجد ذلك عندما تغلغلت فى العقلية الإسلامية أفكار رومانية وفارسية والأمر فى القضية أمر دين فكلما قوى الدين فى النفوس علت مبادئه .

وإذا قيل : إنه قد ورد فى بعض الآثار منسوبا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أقيلوا ذوى المروءات من عثراتهم) نقول : إن ذلك فيما لا يكون فيه اعتداء على الناس ، وفيما لا يكون جريمة فى ذاته فإنه لا مروءة لمرتكب الجريمة ، ولا مروءة لمن يعتدى على الناس ، ولأن حقوق الناس لا تقبل التسامح .

وعمر بن الخطاب ، وهو الذى نفذ المبادىء الإسلامية تنفيذا كاملا حتى على الأمراء إذا اعتدوا على الرعية وأخباره فى ذلك كثيرة ومشهورة لا يساغ لأحد انكارها .

ويروى فى ذلك أن أبا موسى الأشعرى ضرب بعض رعيته أسواطا ، وشكى ذلك إلى عمر رضى الله عنه ، فأرسل عمر إلى أبى موسى

الأشعرى ، ومكانته من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانته ، يقول له : عزمت عليك إن كنت ضربته فى ملأ من الناس ، فليضربك بينهم ، فلما حضر الرجل إليه سلم نفسه ، فعفا الرجل .

ويروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال لبعض العرب : يامنافق ، وكان ذلك فى المسجد ، فذهب الرجل إلى عمر رضى الله عنه ، وقال له : « لقد نفقنى الأمير ، وما نافقت منذ أسلمت ، فأرسل إلى عمرو وقال له : إن كنت نفقته فى ملأ ، فليضربك كذا سوطاً ، فذهب الرجل إلى المسجد ، وقال من منكم سمع الأمير ينفقنى ، قالوا : كلنا سمعه ، فقرأ عليهم الكتاب ، فقال المدهنون المنافقون : « أو تضرب الأمير ؟! وصاحوا فيه مستنكرين الحق ، فقال الرجل ليس لأمير المؤمنين منا طاعة ، فقدم عمرو نفسه ليضربه الرجل ، فقال العربى الأبى ، الآن عفوت » .

والنبى وأبو بكر وعمر كانوا يقدمون أنفسهم للقصاص ، فكيف تكون هناك مروءات تمنع القصاص أو تخفيفه .

وقد بينا بالإشارة الموجزة أن الإسلام أتى فى تطبيق العدالة القانونية بمبدأ لم يسبق به ، وهو أن تطبق العقوبات على رئيس الدولة كما تطبق على آحاد الرعية ، ومن الحق علينا أن نوضح ما أشرنا إليه من قبل موجزاً أيضاً من غير تفصيل .

فنقول : إن أكثر القوانين لا تفرض أن رئيس الدولة يرتكب جريمة ، ولذلك لا تنص على عقوبة خاصة بجرائمه ، وهذه القوانين كانت إلى عهد قريب تذكر من الملوك أن ذاتهم مصونة لا تمس ، ومن المطبقين للقانون من كان يعبر عنهم بعبارات تفيد التقديس صراحة ، فكان بعضهم إذا تحدث عن الملك يقول الذات الإلهية المقدسة .

أن ذلك كله يناقض المبادىء الإسلامية ، بل أن تلك العبارات التى كانت تجرى على ألسنة المنافقين والمدهنين تمس العقيدة الإسلامية ، وتدل على وهن الاعتقاد ، ونقص الإيمان .

وإنه من الأمور الثابتة أن القوانين التى خلت من هذه العبارات ، خصوصاً فى البلاد التى زالت منها الملكية الغاشمة التى كانت تفرض لنفسها نوعا من التقديس الآثم المنحرف ، لا تزال التطبيقات متأثرة بها بالنسبة لرؤساء الدول الذين ارتقوا إلى الرياسة من الشعب فإن ذات رئيس الدولة ما زالت محوطة بذلك الجو ، إن لم يكن من نص القانون ، فمن الواقع ذاته ، فقد يكون منشأ ذلك ضعف المطبقين ، ورئيس الدولة يريدهم أقوياء ، وربما يرغب فى أن يحسوا بالمساواة المطلقة بين الحاكم والمحكوم .

وإن الفقهاء أجمعوا على أن الجرائم التى توجب القصاص لا فرق فيها بين الراعى والرعية ، ولا بين الحاكم والمحكوم ، وإن ذلك ينطبق على الإمام الأعظم الذى هو

رئيس الدولة الأعلى كما ينطبق على الولاة الذين يعينون من قبله لا فرق بينهم وبين أحد من الناس بالنسبة للتطبيق القانونى ، فإذا قتلوا إنساناً بغير حق . حق عليهم القصاص وعلى القاضى أن يحكم به ، وإذا أخذوا مالا بالباطل حق على القاضى أن يأمر برده . وإن قيام الحاكم بشئون الدنيا لا يعفيه مما قرره الله تعالى من أحكام ثابتة .

وإذا ارتكب الخليفة الأعظم ما يوجب حداً كأن يزنى أو يشرب الخمر ، وجب عليه الحد ، عند الجمهور الأعظم من الفقهاء ، ولكن قال أبو حنيفة : لا يقام عليه الحد فى الدنيا ، لكيلا يضطرب النظام ، ولعدم وجود من يقيمه عليه .

وأما غير الخليفة الأعظم من الولاة ، فإن الحدود تقام عليه ، والخليفة الأعظم الذى ولاهم هو الذى يقيمها عليهم .

وقد يقول قائل : كيف يحكم القاضى على ولى الأمر الأعظم ، وهو الذى ولاه ، وله أن ينزع من يده الحكم عليه ، ثم ما القوة التى ينفذ بها الحكم ، وتنفيذ الأحكام فى ذاته يحتاج إلى قوة منفذة .

والجواب بالنسبة للسؤال الأول : أن القاضى إذا تولى لا يكون وكيلا عن ولى الأمر بدليل أنه إذا مات أو عزل لا يعزل هو فالولاية ليست توكيلا ، ولكنه تمكين ذى الأهلية للقضاء من أن يحكم ، ومن جهة أخرى هو يعمل للمسلمين ولا يعمل له هو ، ينفذ شرع الله تعالى ولا ينفذ إرادته .

وجواب السؤال الثانى . أن القانون الذى يطبقه القضاء فى الإسلام لا يستمد سلطانه من ولى الأمر ، إنما يستمد ذلك من كتاب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فما وافقهما مما يصدره ولى الأمر ، فهو واجب الطاعة ، لقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول »[1] .

وإن خالف أحكامهما فلا طاعة له ، لقوله عليه الصلاة والسلام (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) ولأن طاعته فى حدود الكتاب والسنة ، فمن يخرج عنهما معاندا لهما فقد أخل بأصل الطاعة ، فلا يطاع إلا دفعا للفتن والفساد ، ولا يطاع فى المعصية قط .

وإن العدالة القانونية ثابتة على كل من يستظل بالراية الإسلامية ، سواء أكان مسلما أم غير مسلم ، فالقانون سواء بالنسبة لكل من ينال الرعوية الإسلامية من غير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، بلا فرق بين مسلم وغير مسلم ، مع ملاحظة أنه تترك الحرية الدينية كاملة لغير المسلمين لكى يزاولوا فيها شعائر دينهم ، غير مقهورين ولا مستضعفين .

العدالة الاجتماعية :

العدالة الاجتماعية معناها تمكين كل ذى قوة من أن يعمل بمقدار طاقته ،

(١) ٥ سورة النساء .

بحيث تهيأ الفرص المناسبة لكي تظهر كل القوى ، وتوضع كل قوة في مرتبتها ، وأن توجد الكفالة للعاجزين عن العمل لكي يعيشوا ، وينالوا حظهم من الحياة ؛ ليكونوا قوة في الجماعة إن كانوا صغارا ؛ وليأمنوا من الجوع والعرى إن كانوا كبارا لا يرجى أن يزول سبب عجزهم ، وذلك بأن يهيأ لكل من لا يجد أسباب العيش - المسكن المناسب ، والكساء المناسب والغذاء الذي يدفع المخمصة والجوع .

فوجب العدالة الاجتماعية ليس التسوية المطلقة بين الناس في تهيئة الفرص ، فيتوافر التعليم المثمر لكل الناس حتى تظهر القوى ، ويوسد كل إنسان لما يصلح من عمل ، ووضع كل امرئ في العمل المناسب هو التنظيم الجماعي السليم الذي يتوافر فيه إنتاج كل القوى من غير أن تهمل قوة ، أو تعمل فيما دون طاقتها ، أو فيما فوق طاقتها فيفسد الأمر .

وليست العدالة الاجتماعية مقتضية لإلغاء الفقر في هذا الوجود ، بل توجد بعض ما يمكن أن تتلافى به أسباب القصور في الإنتاج ، وإلا تعطلت القوى وهي توجب تخفيف الويلات النفسية والمادية ، فلا يحقد الفقير على الغني فيكون الخراب ، ولا يحرم الفقير من حاجات الحياة الأصلية من القوت والكساء والمأوى ، ولا تضيع قوى عاملة كان يمكن أن تعمل ، وتدر على الجماعة بعملها خيرا وتدفع عن نفسها وعن الجماعة ضرا .

وإن الفقر في ذاته لا يمكن أن يمحى ويكون كل الناس أغنياء ، أو لا يكون تفاوت بين الناس ، ولا يزال الناس مختلفين غنى وفقرا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن الأسباب في زوال التفاوت غير ممكنة ، إذ لا يزول التفاوت بين الناس إلا إذا اتحدت القوى ، واتحدت أسباب الرزق ، واتحدت الأجواء المادية والفكرية التي تظل المنتجين .

وإن الناس متفاوتون في قواهم تفاوتا كبيرا ، ولقد روى منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة . فالممتازون امتيازا مطلقا في تفكيرهم وقواهم نادرون ، وهم أعلى القمة ، ومن دونهم أوسع قليلا ، ثم يتسع المقدار كلما قاربنا سفح البناء الهرمي ، لأن القوى الإنسانية تأخذ شكل بناء هرمي متدرج في الارتفاع والاتساع أعلاه أضيقه مساحة وأدناه أوسعه .

وأنه لو فرض غير الأمر الطبيعي واتحدت كل القوى الإنتاجية عند كل إنسان في الجماعة فإنه لا يمكن أن تتحد أسباب الثروة فقد يوجد عند شخص من الأسباب ما لا يوجد عند غيره ، ولا يمكن توحيد الأسباب .

وعلى فرض اتحاد القوى واتحاد الأسباب فإن اتحاد الإنتاج ليس مؤكدا ، كنتيجة

لذلك ، فقد يحدث أن توجد كارثة لهذا فلا ينجو ماله ويسلم له إنتاجه ، ومثل رجال الأعمال فى نتائج أعمالهم كمثل الزراع يتحدون فى الزرع والسماد واتقاء الآفات ، ولكن يحدث ما ليس فى الحسبان بالنسبة لأحدهم ، فيحدث لمن هو قريب من النهر الجارى فيضان على أرضه يتلف زرعه وينجو منه زرع البعيد، أو يتمكن من النجاة بزرعه قبل أن يطغى عليه الماء ،فيكون من نجا زرعه له زيادة من المال ، ومن غرق يصيبه القل .

الفقر والغنى لهذا حقيقتان ثابتان وهما من طبيعة هذا الوجود الإنسانى وقد قرر الإسلام ذلك على أنه حقيقة قد قسم الله تعالى الأرزاق بين الناس ، فقال تعالى : «نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات» .

ولكن الإسلام مع ذلك لم يجعل الناس طبقات بسبب الغنى والفقر ، كما رأينا من تطبيق الأحكام الإسلامية فى العدالة القانونية فقد قرر أن الفضل عند الله بالتقوى ، وأن الرفعة بالعمل الصالح ، ولذلك جعل العربى والأعجمى على سواء فى كل شىء لا يتفاضلون إلا بالتقوى .

وقد سما الإسلام فى أحكامه الطبقية بالأنساب وبالأجناس وبالألوان ، ولذلك نهى عن التفاخر بالعصبية، والتعيير بالعصبية ويروى فى ذلك أن بعض الصحابة عير آخر بأمه، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام: (أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية) وقال عليه الصلاة والسلام (ليس منا من دعا إلى عصبية) وكل ذلك لتكوين جماعة عادلة فيما بينها ، وعادلة مع غيرها ، ومندمجة فى بنى الإنسان .

ولقد كان الحكام العادلون يؤثرون الضعفاء الفضلاء السابقين إلى المكرمات بتقريبهم ، ولذلك روى أنه استأذن على عمر رضى الله تعالى عنه بلال الحبشى الذى كان عبداً أصلا وأبو سفيان الذى كان رأس مكة مع نفر من كبار قريش ، فدخل الواقف على باب عمر يقول له : بالباب أبو سفيان وبلال فغضب الإمام العادل المصلح التقى ، لأنه قدم أبا سفيان فى الذكر على بلال وقال له قل: بالباب بلال وأبو سفيان، وأذن لبلال ولم يأذن لغيره . .

وفى سبيل منع الطبقات فى الإسلام منع عمر كبار قريش من أن يذهبوا إلى الأقاليم لكيلا يكونوا فيها طبقة أشراف يتحكمون فى الناس باسم السلطان .

والعبادات الإسلامية فيها محاربة للطبقات، إن أديت على وجهها ، وقد بينا ذلك ، فى موضعه من هذا البحث .

محمد أبو زهره
عضو المجمع

مكانة السنة فى بيان الأحكام الإسلامية

لفضيلة الشيخ على الخفيف
"عضو المجمع"

تناول الباحث هذا الموضوع بمقدمة عن معنى السنة فى اللغة ثم فى اصطلاح علماء الشريعة وعلماء الحديث وفى اصطلاح الأصوليين .

ثم قال : « ونريد بالسنة فى موضوعنا ما عناه علماء الأصول ؛ لأنها بهذا المعنى من وسائل بيان الأحكام » . ثم أجرى بحثا فى استعمال كلمات الحديث والأثر والخبر حيث يستعمل اسم السنة ، وهو استعمال يقتضى بيان معانيها وما قد يكون بينها من اختلاف .

ثم قال : « ولسنا نريد بالسنة فى موضوعنا هذا ، حين نتكلم عن مكانتها فى بيان الأحكام وحين نرد ما أثير حولها وحول أسانيدها من شكوك وشبهات ، إلا ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى محيط التشريع من قول أو فعل

ثم قال : « وهى على هذا المعنى إنما تكون فيما تناولته سيرته وطريقته فى حياته - صلى الله عليه وسلم ، مما كان له فيه اختيار بين أمرين أو أكثر فاختار ما رآه أنه الأفضل ولا تكون ، فيما كان يأتيه - صلى الله عليه وسلم - بطبيعته وإنسانيته مما لا اختيار له فيه ولا



فضيلة الشيخ على الخفيف

يختص به دون سائر الناس بل يشاركه فيه جميع الناس لأنه من مقومات الحياة وضروريات الوجود ولا اختيار فيه للبشر كالأكل والشرب والنوم واللبس ونحو ذلك ، أما ما يتعلق بتلك الأعمال ويتصل بها من كيفيات وأوضاع ووسائل ونحو ذلك فإنه يعد من سنته - صلى الله عليه وسلم - ويتناوله اسم السنة بالمعنى الذى نريد لأن له فيه اختيارا » .

ثم بعد أن أفاض فى بيان هذا الأمر انتقل إلى مكانة السنة فى بيان الأحكام الشرعية وأنها جاءت مفسرة للقرآن تبين مجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عمومه، وتفصل أحكامه وتوضح مشكله، مفصلا القول، جامعاً بين الروايات مرجحا بعضها على بعض.

ثم انتقل إلى وجوب العمل بالسنة مبيناً أنها أصل من أصول الدين، وأنها المصدر الثانى للأحكام الشرعية، وأن العمل بها واجب لأنه طاعة لله ولرسوله، وأن تركها ومخالفتها ترك لكتاب الله، ورفض لما أمر به.

ثم انتقل إلى ما وجه إلى روايتها فقال:

ذكرنا أن وجوب العمل بالحديث منوط بصحة نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيناً أو ظنا فما صحت نسبته إليه صلى الله عليه وسلم على سبيل القطع كالحديث المتواتر أو ظناً كالحديث الصحيح من الآحاد وجب العمل بمقتضاه وحرمت مخالفته، وما لم يتحقق فيه ذلك لم يجب العمل به.

وقد كانت عناية رجال الحديث بالسند ورجاله فى سبيل توثيقهما والحكم على الحديث بصحة نسبته أو بعدم صحتها عناية فائقة لم يجد معها المغرضون ولا الناقدون أية ثغرة ينفذون منها إلى توجيه أى نقد ينال من الأسس والقواعد التى وضعت لوزن الأسانيد ورجالها وما بنى على ذلك من أحكام كان لها آثارها فى الحكم على الحديث قوة وضعفا، وقبولا وردا، كما كان لها الأثر البالغ فى التعرف على كثير من الأحاديث الموضوعة وتمييزها من الأحاديث الصحيحة.

وقد كانت هذه القواعد والأسس نتيجة بحث دائب فى بيان حال الرواة وسيرتهم وعمن أخذوا عنه وعن أخذ عنهم ومن عاصرهم ومن لم يعاصرهم وفى بيان من عرف منهم بالضبط والحفظ والإتقان والصدق ومن كان منهم على خلاف ذلك من الكذب والوضع أو السهو أو سوء الحفظ أو التدليس أو عدم الضبط، وفى بيان طرائق سماعهم وتحملهم وذلك بحسب ما وصل إليه جهدهم وانتهى إليه تحريهم وبحثهم. ولم تصل أمة من الأمم إلى ما وصلت إليه الأمة الإسلامية فى ذلك من الدقة والتحقيق، وفى وضع الأسس والقواعد التى يبنى عليها الحكم على الأخبار ورواتها، ولهذا كان ما وجه من النقد إلى رواية السنة من بعض المستشرقين أو الناقدين المغرضين أو غير المغرضين ومن لف لفهم وخدع بأفكارهم موجها أكثره إلى ناحية المتن، فقد زعموا أن رجال الحديث لم يعنوا بالمتن عنايتهم بالسند وأن ما وضعوه فى سبيل الحكم على المتن من القواعد لم يكن كافيا لتمييز الصحيح من غيره مما كان سببا فى عدم التعرف على كثير من

الأحاديث الموضوعة واختلاطها بالأحاديث الصحيحة بناء على ما وصل إليهم تحريهم وبحثهم من سلامة أسانيدها وتوافر الثقة فى رجالها وهى ثقة كما تعلم قامت على التحرى والسماع والتقدير .

وذلك أمر يتعرض للخطأ وتختلف فيه الأنظار باختلاف الناس وتفاوتهم فى أفكارهم وأنظارهم وبحوثهم ويؤيد أصحاب هذا الرأى رأيهم هذا بذكر بعض أحاديث وردت فى الصحاح يرونها من ناحية ما دلت عليه غير مقبولة فى عقولهم أو معارضة لما هو معروف مسلم لديهم من الواقع والقضايا وذلك مثل ما أخرجه البخارى عن عامر بن سعد عن أبيه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : من اصطبح كل يوم تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل - وفى رواية سبع تمرات عجوة ومثله لمسلم عن سعيد بن أبى العاص وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك : أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم قال : متى تقوم الساعة ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة فقال : إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة ، قال أنس : ذاك الغلام من أقرانى يومئذ — وقد مات أنس سنة ٩٣ هـ وهو ترب الغلام ، والواقع أن هذا النقد لا يخلو من حيف وجور فى الحكم على الجهود التى بذلها علماء السنة للحكم على الحديث من ناحية متنه ، وإذا كانت جهودهم فى هذا المجال من حيث التفصيل والمادة دون جهودهم فى سبيل الحكم على السند ورجاله فإن ذلك التفاوت لا يرجع إلى نقص أو تقصير بالنسبة لما يتطلبه النظر فى المتن وحاله والحكم على الحديث بناء على ذلك وإنما يرجع إلى أن أحوال المتن ليس لها ما لأحوال السند من تنوع وتعدد واختلاف مما أدى إلى كثرة البحوث والعلوم المتعلقة بالسند ولم يغفل علماء الحديث النظر فى المتن وما يجب أن يتوافر فيه من الصفات الدالة على صحته وما يجب أن يبرأ منه المتن من العلامات والشواهد التى إذا وجدت فيه دلت على وضعه مما هى كفيلة بالتعرف على أى حديث موضوع وتمييزه عند مراعاتها — وهذا بيان أهمها فى إجمال .

١ — ركاكة معناه وضعفه - قال الحافظ ابن حجر ما خلاصته : ركاكة معنى الحديث يدل على وضعه وإن لم ينضم إلى ذلك ركاكة فى لفظه ؛ لأن الدين كله محاسن والرداءة والضعف مما ينأى عنه الدين .

٢ — فساد معناه وذلك بأن يخالف ما تقضى به العقول السليمة دون إمكان تأويله كأن يخالف البدهيات أو ما هو معروف مسلم به من القواعد العامة فى الحكم والأخلاق

أو داعيا إلى الاستجابة إلى الشهوة والمفسدة أو مخالفا للحس والمشاهدة أو لقطعيات التاريخ وللسنن الكونية أو لبدهيات الطب أو المعقول فى أصول العقيدة من صفات الله ورسله . أو مشتملا على خرافات لا تصدر عن عاقل ، وفى ذلك يقول ابن الجوزى: إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع .

وقال فى المحصول : كل خبر أوهم باطلا ولم يقبل التأويل فمكذوب أو قد نقص منه وما يزيل الوهم .

٣ — مخالفته للكتاب أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى - قال ابن قيم الجوزية : ومن الأمور التى يعرف بها أن الحديث موضوع مخالفته صريح الكتاب كحديث مقدار مدة الدنيا وأنها سبعة آلاف سنة لمخالفته قوله تعالى : « قل إنما علمها عند ربى » ، وقوله : « إن الله عنده علم الساعة » ، ومن ذلك أيضا مخالفته صريح السنة المسلم بها لشهرتها أو لتواترها .

٤ — مخالفته الوقائع التاريخية المقطوع بصحتها وذلك مثل ما رواه مسلم بسنده عن أبى وائل قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين فقال أبو نعيم : أتراه بعث بعد الموت ؟ إذ قد توفى قبل ذلك ومثل ما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم وضع الجزية عن أهل خيبر ورفع عنهم الكلفة والسخرة بشهادة سعد بن معاذ وكتابة معاوية بن أبى سفيان مع أن الثابت أن الجزية لم تكن مشروعة عام فتح خيبر وإنما نزلت آية الجزية بعد تبوك وأن سعدا توفى قبل ذلك فى غزوة الخندق وأن معاوية إنما أسلم عام الفتح .

٥ — صدور الحديث من راو تأييدا لمذهبه وهو متعصب مغال فيه وذلك كالأحاديث التى صدرت من أتباع المذاهب الفقهية والكلامية تأييدا لمذاهبهم أو مذهب إمامهم مثل : من رفع يديه فى الصلاة فلا صلاة له ، ومثل المضمضة والاستنشاق للجنب ثلاثا فريضة ، ومثل من قال : القرآن مخلوق فقد كفر .

٦ — اشتمال الحديث على إفراط فى الثواب العظيم جزاء عمل صغير أو اشتماله على مبالغة فى الوعيد الشديد على الأمر الحقير وذلك كالأحاديث التى وضعها القصاص فى ثواب بعض الأعمال وفى جزاء بعض الجرائم والمخالفات .

٧ — أن يتضمن الحديث أمرا من شأنه أن تتوفر الدواعى إلى نقله لأنه وقع بمشهد عظيم ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد وبهذا حكم أهل السنة على الحديث المتضمن النص على خلافة على ووصياته [1] .

(١) منهاج السنة جـ ٤ ص ١١٨ .

ولا شك أن هذه أسس سليمة رصينة محكمة كفيلة بتمييز الأحاديث الموضوعة من الأحاديث الصحيحة لا يسع المنصف أن ينازع فى قوتها وكفايتها ومع هذا لم يكتف رجال الحديث بها فى سبيل نقد المتن بل نقدوه مع ذلك من ناحية اضطرابه أو شذوذه أو إعلاله كما بحثوا فيما وقع فيه من قلب أو غلط أو إدراج إلى غير ذلك من العلل التى عنى العلماء ببيانها وشرحها فيما وضع فى ذلك من الكتب .

وقد رأيت فيما سبق أن ما وضع من موازين وضوابط للتعرف على ما فى الأحاديث من قوة وضعف لم يكن الهدف منه الوصول إلى القطع بصحة نسبة الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان الغرض منه الوصول إلى غلبة الظن بصحة تلك النسبة ، ولذا قالوا : إن ما حكم بصحته من أحاديث الآحاد قد يكون فى واقع الأمر غير صحيح ، ولكن هذا احتمال ضعيف لا يحول دون وجوب العمل كما قدمنا ، ولقد ذكر أصحاب هذا النقد أنه كان من الواجب أن يؤسس نقد المتن أيضا على أسس أخرى لم تنل من علماء الحديث عناية وهى :

١ ــ اتفاق ما ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول مع الظروف التى قيل فيها وعدم معارضته للحوادث ـ التاريخية الثابتة .

٢ ــ خلو الحديث من التفسير الفلسفى الذى يخالف المألوف من بيانه صلى الله عليه وسلم وخلوه من الأساليب الفقهية التى تتعرض لذكر الشروط والأركان وما إلى ذلك مما لم يكن معروفا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم .

٣ ــ انطباق الحديث على الواقع وعدم وجود باعث سياسى أو نفسى دعا إلى وضعه .

ذلك ما ضمنه الناقد نقده ولو تهيأ له أن يكون واسع الاطلاع دقيق النظر لتبين له أن كل ما ذكره من ذلك تتضمنه تلك القواعد السابقة ولم يفت رجال الحديث مراعاته فى نقد المتن ، فقد ردوا حديث دخول النبى صلى الله عليه وسلم الحمام بناء على أن النبى صلوات الله عليه لم يدخل حماما قط ، وأن الحمامات لم تكن معروفة فى الحجاز على عهده صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك ردوا حديث وضع الجزية عن أهل خيبر بناء على أنه يخالف لما علم تاريخيا من أن شريعة الجزية لم تشرع إلا بعد فتح خيبر وردوا بعض الأحاديث لمخالفتها للواقع ـ وذلك كحديث : (لا يولد بعد المائة مولود لله فيه حاجة) وحديث (الباذنجان شفاء من كل داء) وردوا ما رواه غلاة الشيعة من أحاديث فى فضل على ـ وما رواه غلاة البكرية من أحاديث فى فضل أبى بكر ، لوجود الباعث السياسى على وضعها ، وردوا كذلك حديث (رمدت فشكوت إلى

جبريل، فقال : أدم النظر فى المصحف) لأنه لا يتفق مع البيئة التى قيل فيها، إذ لم يكن على عهد صلى الله عليه وسلم مصاحف . وكذلك ردوا أحاديث لوجود الباعث النفسى على وضعها كحديث : (الهريسة تشد الظهر) ذلك لأن راويه كان ممن يصنع الهريسة .

وردوا كذلك كثيرا من الأحاديث لما فيها من عبارات واصطلاحات فقهية لم تكن معروفة على عهده صلى الله عليه وسلم والأمثلة من ذلك كثيرة أشير إليها فى نصب الراية وهكذا يرى أن كل ما زعم الناقدون استدراكه على علماء الحــــديث لم يغفلوه بل راعوه وذهبوا إلى أبعد منه غير أنه قد يلاحظ فى هذه الضوابط وفى تطبيقها أمور :

أولها : أن كثيرا يقوم على تقدير الباحث وفهمه ونظره ، وأنظار الناس متفاوتة ومواهبهم مختلفة وأحكامهم متباينة وما لا يعقله فلان يعقله فلان آخر ، ولهذا كانت أحكامهم على الأمور مختلفة ، وعلى ذلك تكون تطبيق هذه الضوابط على الأحاديث مختلف النتائج باختلاف أنظار من يقوم بتطبيقها ، فركاكة المعنى فى كثير من أحوالها مما يختلف فيه أنظار الباحثين ، يراها هذا فى معنى من المعانى بينما لا يراها الآخر فيه ـ وكذلك الحال فى مخالفة الحديث لما تقضى به قواعد العلم أو تجارب الطب بينما يراها شخص فى حديث لا يراها الآخر فيه ، أو مخالفته لما يقضى به العقل ؛ فإن عقول الناس تختلف اختلافا بينا يستسيغ بعضها ما لا يستسيغه بعضها الآخر ، ويجوز بعضها ما لا يجوزه بعضها الآخر ، ويستبعد بعضها مالا يستبعده بعضها الآخر . فبأى عقل يوزن به الحديث ؟ وأنى لعقل أن تكون له قوة وحكم عند صحة السند ، والظن بصحة نسبته ، وكذلك صدور الحديث من راو تأييدا لرأيه المتعصب له المغالى فيه مما تختلف فيه الأنظار ، وهذا ما يكشف عما فى تطبيق هذه القواعد والضوابط من عيب ونقص ، يؤديان فى كثير من الأحوال إلى خلاف واضطراب .

ثانيها : أن استعمال هذه المقاييس والضوابط مشروط بألا يكون فى تأويل الحديث تأويل يحتمله ، أو فى حمله على المجاز مخرج من تطبيقها وبناء على ذلك إذا احتمل الحديث تأويلا يخرجه عن محيط ما تتناوله هذه القواعد لم يجز أن تطبق عليه ، وكذلك إذ كان حمله على الاستعمال المجازى يبتعد به عن هذه الضوابط لم يجز أن تتناوله ـ وتأويل الحديث وقبوله للتأويل وجواز إرادة معنى مجازى منه مما يختلف فيه الناس فيكون مقبولا سائغا عند آخر ، وعلى ذلك يختلف الحــــكم على الحديث باختلاف النـاس واختلاف أنظارهم .

ثالثها : أن تطبيق هذه القواعد يقوم على فهم الحديث فهما معينا يجعله من متناولها وهذا مما يختلف فيه الناس أيضا وتتفاوت فيه أنظارهم فقد يفهمه شخص فهما سليما غير مناقض للعقول ولا للأصول المسلم بها ويفهمه آخــــر على غير هـذا الوضع فيراه مخالفا للعقول أو لما تقضى به الأصول .

رابعها : أن الحديث إذا كان سليم السند يرويه الثقة عن الثقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن صدوره عن النبي صلى الله عليه وسلم يكون أمراً راجحا — ورسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كسائر الناس فى علمه وحكمته وصلته بربه ومعارفه ، وذلك مما يستوجب ألا تكون مقاييس النقد فيما يصدر عنه مماثلة لمقاييس النقد فى أحاديث غيره من الناس فرسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحى عن ربه وقد أطلعه الله سبحانه وتعالى على كثير من أسرار الغيب مما لم يطلع عليه سواه وأحاط بما لم يحط به إنسان من المعارف والأسرار ، وذلك ما يقضى بأن يكون تفكيره فوق تفكير غيره من الناس ، وبأن يعلو حكمه أحكام غيره من الناس فيصدر عنه من الأقوال والأحكام ماقد يعلو على أفهام الناس وما لا تصل إلى معرفة كنهه وحقيقته عقولهم فى عصر من الأعصر ، وما قد ينكشف سره بعد ذلك ، وعلى ذلك فلا ينبغى أن يكون لهم مع قصور عقولهم سلطة الحكم على أقواله من ناحية سلامتها وصحتها ، مما قد تعجز عقولهم عن فهمه ، ولا يصح أن يكون عدم فهمهم لقصر عقولهم أو لضعف معارفهم دليلا على وضع الحديث — وبناء على ذلك إذا جاء الحديث متضمنا خواص بعض النبات مما لم يكشفه العلم أو خبرا عن غيب سيقع فى مستقبل الزمن وما إلى ذلك مما لم يصل إليه علم الناس فلا يجوز أن يتخذ ذلك دليلا على وضع الحديث .

لهـذه الأسباب كان تطبيق علماء الحديث لهذه القواعـد فى نطاق ضيق حيث تكون الضرورة قاضية بتطبيقها وذلك عنـد تعذر التأويل الذى يمكن اتخاذه مخرجا وعـدم الوصول فيه إلى مخرج آخر يستساغ معه عدم التطبيق — وقد كان صنيعهم فى هـذا خاضعا كذلك لتقديرهم وأحكامهم ، ومراعى فيه كذلك الاعتماد على صحة السند وسلامته ، وما لذلك من أثر فى اطمئنانهم إلى نسبة الحـديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . ومع هذا الاطمئنان يجب التسليم وانتفاء كل شك لشعورهم حينئذ بقصور عقولهم وقلة معرفتهم وعلومهم — لهـذا كله كان تطبيقهم لهذه القواعد فى حـدود ضيقة ، كما قلنا ، وكان مع

ذلك على خلاف بينهم تبعا لاختلاف أنظارهم فاختلفت أحكامهم على بعض الأحاديث فكان ما يراه بعض العلماء صحيحا يراه آخرون غير صحيح، وأن من نتيجة ذلك وجود بعض أحاديث كان وجودها فى الصحاح مبعث النقد الذى أشرنا إليه.

ومما يجب ملاحظته أن هذا النقد لا يعدو أن يكون طعنا فى أحاديث معينة معدودة أثبت الاستقراء أنها ليست فى أصول الدين ولا فى قواعده وأحكامه الأساسية، ولا يعد عدم الاعتماد عليها مما يتنافى مع وجوب العمل بالسنة الآحادية لأن وجوب العمل بها كما بينا إنما يكون عند غلبة الظن بصحة نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عند الشك فى نسبتها وما وضعه علماء الحديث من قواعد وضوابط لنقد السند والمتن كفيل عند تطبيقه تطبيقا سليما بتمييز صحيح السنة من غيره وتمحيص السنة من جميع الأحاديث الموضوعة بالقدر الممكن، وعند ذلك يتميز ما ترجح الظن بصحة نسبته عما شك فى صحة نسبته، وإذا ما تبين ذلك وجب العمل للقطع بوجوب العمل عند الظن وعلى ذلك فلا يعد هذا النقد طعنا فى السنة ولا فى وجوب العمل بها، عند سلامة السند والمتن إذ عند ذلك يكون الظن بصحة نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ظنا راجحا يوجب العمل بها.

ما وجه إلى حجيتها من شبهات :

أشرنا فيما سبق إلى ما جاء فى الكتاب العزيز من الآيات الدالة على أن طاعة الرسول واجبة فى كل ما أمر به وفى كل ما نهى عنه وإلى أن دلالة هذه الآيات باجتماعها وأساليبها دلالة قاطعة لا تقوم معها أية شبهة فى وجوب هذه الطاعة، ولا حجية هذه السنة فيما جاءت به من أحكام، وأن إنكار ذلك إنكار وتكذيب لما جاء به القرآن الكريم وأكده ووثقه، ولكن بعض الناس ممن خدعهم زيف المستشرقين والمبشرين قامت فى أنفسهم بسبب ما تلقوه من هؤلاء من شبهات صدتهم عن الحق وأعمتهم عن النور، فنهم من ذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يتعبد الناس إلا بما شرعه القرآن فهو وحده واجب الطاعة وليست السنة إلا بيانا له، وتطبيقا مؤقتا روعى فيه ما كان لزمن صدورها من عادات وأعراف ومعاملات، وما كان لأهله من علم ومعرفة وإمكانيات وتقاليد، ولذلك لم يكن للطاعة الواجبة صفة الدوام والاستمرار، وإنما كانت موقوتة بعصرها حتى إذا تغير العصر بعاداته وأعرافه تغير التطبيق لما جاء فى الكتاب خاصا بالمعاملات ولم يكن ما ورد من السنة فى ذلك واجب الطاعة، وعلى هذا الأساس وجدت جماعة فى الهند تسمت بجماعة القرآن أو بأهل القرآن لا تعمل

إلا به على النحو الذى يهديها فهمها إياه ، وكذلك وجد فى الناس من طعن فى حجية السنة ، ومثلهم وجد قديما فانت مزاعمهم بانقضاء زمنهم ، ولكن من يوجد الآن يتمسك فى عدم الاحتجاج بالسنة بمزاعم ليس لها أساس ولا حقيقة ولا قيام لها على واقع إلا ما زوروه من خيال فطعنوا فى روايتها وطريقة نقلها ، وقالوا : كيف تكون السنة حجة على الناس تلزمهم أن يعملوا بها مع ما نراه فيها من خلاف واضطراب وتناقض فى مروياتها ، وما تشاهده فيها من زيادات فى بعضها ، ونقص فى بعضها الآخر وما هو معلوم مما أضيف إليها وأدخل عليها من موضوعات كثيرة تفوقها عدداً اختلطت بها ولم يتيسر تخليصها من كثير منها ، وهذا مع ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من النهى عن كتابتها ، ومحو ما كتب منها فى عهده ، ثم عدم الميل إلى كتابتها بعد وفاته ، وتأخير كتابتها وتدوينها إلى نهاية القرن الأول الهجرى ، وميل الكثرة من جلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدم روايتها ونشرها ، وذلك كله مع ما كان الرواة معرضين له من السهو والنسيان وسوء الحفظ ، وقلة الضبط ، وسوء الفهم مما يعرض عادة للناس على اختلاف بينهم فى ذلك وكل ذلك مما لا تطمئن معه نفس إلى صحة نقلها ووصولها إلينا كما صدرت منه صلى الله عليه وسلم ، ومع اجتماع هـذه الشكوك والريب تنتفى الطمأنينة إلى سلامتها كما ينتفى الظن بصحة نسبتها وبذلك تزول حجيتها .

هذه مقالتهم وهى تستند كما يرى على أوهام وشكوك منها ما يتعلق بروايتها ، ومنها ما يتعلق بحجيتها ، وهى كما نرى دعاوى تتسم بالإجمال والعموم ، وعدم التفصيل ، والتركيز ، يلقى القول فيها على عواهنه ، دون استناد إلى واقع معين مفصل أو مثل محدودة مبينة ، فادعاء التناقض والخلاف والاضطراب والزيادة ، والنقص بهذا الإجمال وعلى هذا الوضع من العموم ادعاء باطل ، فليس يوجد شىء من ذلك إلا فى القليل النادر الضئيل العدد ثم هو لا يوجد إلا فى الأحاديث الضعيفة المنكرة التى فقدت حجيتها . وإذا وجد فى الصحيح منها لم يكن وجوده فيها إلا بالنسبة إلى النظرة الأولى الخاطفة ، أما عند استيعاب النظر وعمق الفهم فلا يرى لذلك من أثر ، وقد ألفت فى ذلك كتب عديدة مستقلة تكفلت ببيان ذلك فارتفع ببيانها الخلاف والإشكال على أن وجود ذلك فى فئة قليلة العدد من الأحاديث قل أن يكون منها حديث صحيح لا يطعن فى السنة جملة ، ولا يضعف من قوتها وحجيتها التى قامت عليها الأدلة القاطعة ؟

على الخفيف

الحديث: وقيمته العلمية والدينية

للأستاذ عبد الله كنون
"عضو المجمع"

لعل علم الحديث رواية ودراية هو مما تتمثل فيه العبقرية الإسلامية أكثر من غيره من العلوم حتى الفلسفة وعلم الطبيعة والرياضيات . وقد يبدو هذا الرأى غريبا فى بادىء النظر ، ولكن لا غرابة وهذه العلوم قد قيل إن المسلمين لم يبتكروا فيها شيئا ، وإنما نقلوها نقلا مجردا عن الأمم السالفة بخلاف علم الحديث ، فإنه من وضع المسلمين وابتكارهم ، ولا يستطيع أحد أن يقول غير ذلك ولا أن يشكك فيه .

وليس هذا فقط ، فإن الدارس لهذا العلم المتعمق فيه قد يطلع منه على آفاق رحيبة من الأبحاث المنهجية والدراسات الموضوعية فى علم الأخلاق والاجتماع والقانون والسياسة والاقتصاد ، فلا يكون عنده أدنى ريب فى أن الحضارة الإسلامية مبناها على هذا العلم ، وأنها ، إن استفادت من معارف يونان وفارس والهند شيئا ، فإنها فى عناصرها النفسية إنما ترجع إلى كتاب الله والسنة المبينة له .

وقد جرى الناس على أن ينظروا لعلم الحديث نظرة دينية بحتة ، فهم لذلك يسقطونه



الأستاذ عبد الله كنون

من الحساب إذا ذكروا العوامل التى أدت إلى نهضة العالم الإسلامى، تلك النهضة التى آتت أكلها الشهى منذ الجيل الأول الذى تلا ظهور الإسلام ، وما زالت تنمو وتعظم حتى بلغت فى القرن الخامس الهجرى إلى ما لم تبلغه فى أمة أخرى قبل ذلك ، ولكنهم يخطئون فى هذا النظر : ولو شاءوا أن يعرفوا الحقيقة من غير أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث فى هذا الموضوع ، لاقتصروا على

التفكير فى أن الرسـول صلوات الله عليه وسلامه ، لبث فى قومه بعد الرسالة ثلاثا وعشرين سنة يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وقومه هم العرب الذين يعرف الناس أنهم ليسوا بشعب غبى ولا بدائى، وهم فى الوقت نفسه، كانوا مكتنفين بشعوب حية وبقوم من يهود ونصارى لا يفتأون يعارضون دعوته ويوردون عليها مختلف الإيرادات ، فهو لم يقصر دعوته على على مسائل الدين فقط ، ولم يكن يعلم المسلمين أمور العبادات فحسب ، بل كان يعلمهم آداب السلوك ، وأحكام المعاملة : من البيع والشراء والصرف والحوالة والسلف والرهن وما إلى ذلك ، ويلقنهم أساليب الحرب وطرق الحكم ، ويرشدهم إلى السياسيات المختلفة فى علاقاتهم مع الدول الموالية والمعادية . ويتولى قسم الأموال بينهم ، وتوزيع الأراضى المغلة عليهم ويعقد المجالس الاستشارية كلما حز به أمرا ليقبح لهم الاستبداد ، ويفقهم على أسباب حياة الأمم وهلاكها ليعرفوا كيف يحافظون على كيانهم إذا صار الأمر إليهم من بعده ، وهكذا لم يدع شاذة ولا فاذة مما به قوام الحياة ونظام الدنيا إلا علمهم إياه . ألم يقل الكفار لسلمان رضى الله عنه : (لقد علمكم نبيكم كل شىء) ؛ بل إنه فى تنزلاته معهم كان يخاطبهم بدقائق المعارف ويجيب على أسئلتهم العلمية والطبيعية بما لم يناقضه العلم حتى الآن ويصحح لهم أغلاط الأخباريين من أهل الكتاب ، وأغلاط عرفائهم فى تفسير الظواهر الجوية ونحوها حتى لقد دعا ذلك اليهود أن يسألوه عن حقيقة الروح، ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، .

أن مجرد استعراض سريع على هذا النمط ، لسيرته عليه السلام كاف ليعرف من لم يكن يعرف أن علم الحديث هو جماع المعارف الإسلامية سواء الدينية منها والدنيوية ، وإذا كان هذا فى عهده صلى الله عليه وسلم فاظنك بهذا العلم ؟! وقد تناولته القرائح الخصبة والأفكار الناضجة ، وكتب العلماء فيه من الأبحاث القيمة والدراسات الرائعة ما لا يعرف قدره الا من وقف عليه .

وإذا كان الحديث عن ذلك يطول ، فلنكتف بالكلام على أصل هذا العلم والطريقة التى دون بها والجهود التى بذلها العلماء لتمييز صحيحه من سقيمه ، وهذا ما يراد بعلم الحديث رواية ودراية ، وهو وحده دليل ناهض على عبقرية الفكر الإسلامى الذى يغفل الباحثون عن تتبع آثاره فى هذه الميادين .

أما أصل علم الحديث فهو أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله ونومه ويقظته وحركاته وسكونه وقيامه وجوده واجتهاده

وعبادته وسيرته وسراياه ومغازيه ومزاحه وجده وخطبه وأكله وشربه ومشيه وسكوته وملاطفته أهله وتأديبه فرسه وكتبه إلى المسلمين والمشركين وعهوده ومواثيقه وألحاظه وأنفاسه وصفاته ، بما رواه عنه من الصحابة أربعة آلاف رجل وامرأة ، كما يقول الحاكم النيسابورى فى كتابه المدخل إلى علم الحديث ، صحبوه نيفا وعشرين سنة بمكة قبل الهجرة ثم بالمدينة بعد الهجرة ، سوى ما حفظوا عنه من أحكام الشريعة وما سألوه عن العبادات ، والحلال والحرام وتحاكموا إليه فيه ، وقد تأدى ذلك من الصحابة إلى التابعين فمن بعدهم إلى عصر التدوين .

وكان عمر بن عبد العزيز أول من أمر بتدوين الحديث خوف ضياعه ، وأكد هذا الأمر أبو جعفر المنصور فانتدب لذلك ابن شهاب الزهرى ، وكان سابق الحلبة ، إلا أن عمله إنما كان تدوينا مجردا من غير تبويب ولا ترتيب ، وأما الجمع مرتبا على الأبواب فوقع فى نصف القرن الثانى ، وكان ممن قام بذلك ابن جريج بمكة ، ومالك ، وابن إسحاق بالمدينة ، وهشيم بواسط ، ومعمر باليمن ، وابن المبارك بخراسان ، والربيع بن صبيح ، وسعيد بن أبى عروبة ، وحماد بن سلمة بالبصرة ، وسفيان الثورى بالكوفة ، والأوزاعى بالشام ، وجرير بن عبد الحميد بالرى .

وكان الذى ألف مالك هو كتابه الموطأ ولعله الكتاب الوحيد الذى وصلنا بالرواية الصحيحة من تأليف هذا العصر ولذلك نتخذه نموذجا للطريقــة التى دون بها علم الحديث فى أول الأمر .

والموطأ ، وإن لم يكن فى الواقع كتاب حديث مجرد لأنه يحتوى على كثير من الفقه والاستنباط وأقوال السلف ومذاهب الصحابه ، إلا أنه فيما اشتمل عليه من الحديث يعطينا فكرة صادقة عن الجهد الذى بذله الإمام مالك فى تحرى الأحاديث الصحيحة ، وعدم الرواية إلا عن الأعلام الأثبات الثقات فقد قيل : إنه لما ألفه أولا كان يشتمل على نحو عشرة آلاف حديث ، ولم يزل ينتقى منه ويختار حتى لم يبق منه إلا نحو ألف حديث وهذه النسبة ، وهى واحد من عشرة أو قل عشرة من مائة ، هى التى عمل عليها تقريبا جل المؤلفين فى الحديث بعد ذلك لا سيما أئمة الصحيح ؛ بل إنها لتنزل عند بعضهم إلى أقل من ذلك بكثير ، مع العلم بأنها نسبة إلى ماثبت عندهم من الأحاديث ووقع لهم فيه اشتباه ما ، لا أنها نسبة إلى محفوظهم ؛ فإن هذا كثير يكاد لا يسلم به أهل هذا العصر الذين ضعفت أو انعدمت فيهم بالمرة ملكة الحفظ ، ناهيك عما قيل عن الإمام أحمد بن حنبل من أنه كان يحفظ مليون حديث .

ورتب الإمام مالك كتابه الموطأ على الأبواب والمسائل ، فهو يخرج الحديث

الشاهد فى أول الباب أو فى أثنائه ، ثم يخلل الباب بالآثار والأقوال الثابتة عن الصحابة وأئمة السلف فى الموضوع ، ويأتى بباب اسمه (الجامع) يروى فيه متفرقات من الباب لا تصلح أن تفرد بترجمة ، وقد ختم الكتاب كذلك بباب واسع سماه الجامع وضمنه أحاديث فى السنن والأخلاق وآداب السلوك ونحو ذلك ، قيل : وهو أول من ابتكر هذا الصنيع فى التأليف أى جمع المسائل المتفرقة فى باب اسمه الجامع . وعلى ما ترى فإن طريقة الإمام مالك فى تأليفه للموطأ برغم قدم الزمن هى من أحسن الطرق التى ألفت عليها كتب السنة فيما بعد ، واتبعها معظم المحدثين إلى المائة الثالثة .

وفى المائة الثالثة نشطت حركة جمع الحديث نشاطا كبيرا وتناوله مختلف وجوه العمل لتأليفه وتبويبه وتخليصه من الزيف والعلة فألف البخارى جامعه الذى هو أول كتاب ألف فى الصحيح ، وكذا مسلم صاحب ثانى الصحيحين ، وألف بقية أصحاب الكتب الستة كتبهم ، وهى التى تلقاها المسلمون بالقبول ويقول السيوطى : إن الحديث إذا أخرجه أحد هؤلاء المؤلفين الستة فليروه الإنسان مطمئنا إليه .

وكان التأليف فى هذا العصر على أوضاع مختلفة منها ما بقى محافظا على وضعه الأول الذى كان أكثر العمل عليه عند بدء التأليف وهو جمع أحاديث كل راو على حدة ، وإن اختلفت موضوعاتها ، وهذا ما يسمى بالمسند وهو النهج الذى اتبعه الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه العظيم المسمى بمسند أحمد ، ومنها ما ألف على الأبواب والمسائل ، وهى طريقة مالك فى الموطأ ، ومنه ما يكون عاما شاملا لأحاديث العبادات والعادات والأحكام والحكم والتواريخ والرقائق وغير ذلك وهو المسمى بالجامع ، ومنه الجامع الصحيح للإمام البخارى وغيره . ومنه ما يقتصر على السنن والأحكام كسنن أبى داود ، ومنه ما يخص موضوعا بعينه أو مسألة واحدة فقط كشعب الإيمان للبيهقى والقراءة فى الصلاة للبخارى إلى غير ذلك .

واستمر هذا النشاط وخلص إلى القرون التالية فاتخذ أشكالا وأنواعا من العناية بالحديث سواء من حيث الرواية والجمع أو من حيث الشرح والفهم والتفريع والاستنباط وفى هذا الأمر يقال : حدث عن البحر ولا حرج .

وعلى كل حال فقد صحب عملية الجمع والتدوين عملية الانتقاء والاختيار ، والجهود التى بذلها العلماء فى هذا الصدد لا يوجد لها نظير عند غير المسلمين ، ومن ثم قيل : إن الإسناد من خصائص هذه الأمة ، أى تتبع رواة الحديث واحدا فواحدا والبحث عن حالهم من الحفظ والضبط والعدالة إلى النبى

صلى الله عليه وسلم ، قال ابن حزم : نقل الثقة حتى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع الاتصال شيء خصص به المسلمون دون جميع الملل ، إما مع الإرسال أو الإعضال[1] فيوجد في اليهود لكن لا يقربون به من موسى عليه السلام قربنا من نبينا بل يقفون حيث يكون بينهم وبينه أكثر من ثلاثين نفسا ، وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق .

ولا تغفل عما في هذه الخصيصى من ميزة للدين الإسلامي لا يشاركه فيها غيره من الأديان ، وهي ثبوته بالنص القاطع والرواية الصحيحة، فلا جرم أن يقول عبد الله بن المبارك: « الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء » وقوله هذا دليل على أن القوم كانوا في تمييزهم للحديث الصحيح من السقيم يستبرئون لدينهم كما كانوا يتحرون المنهج العلمي الصحيح

ويروى عن عبد الله بن المبارك أيضا أنه كان يقول : « بيننا وبين القوم القوائم أى الإسناد » وهذا يبين طريقتهم العملية في نقد الرجال ، فإنهم جعلوا قوائم بأسماء الرواة ورتبوها بحسب القوة والضعف ترتيبا يكون هو الحكم في قبول الحديث أو رده . فإذا لم يعرف حال الراوي ترك الحديث ، وكذا إن سقط من سنده أحد الرواة وإن كان في السند ثقات

فقد جاء في مقدمة الصحيح لمسلم بن الحجاج : « وقال محمد (يعني ابن عبد الله بن قهزاد) سمعت أبا إسحق بن إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال : قلت لعبد الله بن المبارك : يا أبا عبد الرحمن الحديث الذي جاء : إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك ، فقال عبد الله يا أبا إسحق عمن هذا؟ قال: قلت له : هذا من حديث شهاب بن خراش فقال : ثقة ، عمن ؟ قال : قلت : عن الحجاج ابن دينار قال : ثقة ، عمن ؟ قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : يا أبا إسحق إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي صلى الله عليه وسلم مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي ، ولكن ليس في الصدقة اختلاف » .

ويحسن بنا أن نورد نبذة في هذا الشأن من مقدمة الإمام مسلم صاحب ثاني كتاب في الصحيح ، وهي على اقتضابها تقفنا على أدق مسالك القوم في هذه السبل الوعرة ، قال رحمه الله :

ثم إنا مبتدئون في تخريج ما سألت وتأليفه على شريطة سوف أذكرها لك ، وهو أنا نعمد إلى جملة ما أسند في الأخبار

---

(١) أي عدم الاتصال وسقوط عدد من الرواة في السند ، والمرسل في الاصطلاح : الحديث الذي يرويه التابعي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير ذكر الصحابي ، والمعضل : الذي سقط من سنده اثنين فصاعدا من الرواة

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقسمها على ثلاثة أقسام، وثلاث طبقات من الناس على غير تكرار . . .

فأما القسم الأول: فإنا نتوخى أن نقدم الأخبار التي هي أسلم من العيوب من غيرها وأنقى من أن يكون ناقلها أهل استقامة في الحديث وإتقان لما نقلوا، لم يوجد في روايتهم اختلاف شديد ولا تخليط فاحش، كما قد عثر فيه على كثير من المحدثين وبان ذلك في حديثهم، فإذا نحن تقصينا أخبار هذا الصنف من الناس اتبعناها أخباراً يقع في أسانيدها بعض من ليس بالموصوف بالحفظ والإتقان كالصنف المقدم قبلهم، على أنهم، وإن كانوا فيما وصفنا دونهم، فإن اسم الستر والصدق وتعاطي العلم يشملهم كعطاء بن السائب، ويزيد ابن أبي زياد، وليث بن أبي سليم وأضرابهم من حمال الآثار ونقال الأخبار، فهم وإن كانوا بما وصفنا من العلم والستر عند أهل العلم معروفين، فغيرهم من أقرانهم ممن عندهم ما ذكرنا من الإتقان والاستقامة في الرواية يفضلونهم في الحال والمرتبة لأن هذا عند أهل العلم درجة رفيعة وخصلة سنية.

ألا ترى أنك إذا وازنت هؤلاء الثلاثة الذين سميناهم عطاء ويزيد وليثا بمنصور بن المعتمر وسليمان الأعمش وإسماعيل بن أبي خالد في إتقان الحديث والاستقامة فيه، وجدتهم مباينين لهم لا يدانونهم - لا شك - عند أهل العلم بالحديث في ذلك للذي استفاض عندهم من صحة حفظ منصور والأعمش وإسماعيل وإتقانهم لحديثهم وأنهم لم يعرفوا مثل ذلك من عطاء ويزيد وليث. وفي مثل مجرى هؤلاء إذا وازنت بين الأقران كابن عون وأيوب السختياني مع عوف بن أبي جميلة وأشعث الحمراني وهما صاحبا الحسن وابن سيرين كما أن ابن عون وأيوب صاحباهما إلا أن البون بينهما وبين هذين بعيد في كمال الفضل وصحة النقل، وإن كان عوف وأشعث غير مدفوعين عن صدق وأمانة عند أهل العلم ولكن الحال ما وصفنا من المنزلة عند أهل العلم، وإنما مثلنا هؤلاء في التسمية ليكون تمثيلهم سمة يصدر عن فهمها من غبي عليه طريق أهل العلم في ترتيب أهله فيه فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته ولا يرفع متضع القدر في العلم فوق مرتبته، وقد ذكر عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم، مع ما نطق به القرآن من قول الله تعالى: «وفوق كل ذي علم عليم».

فعلى ما ذكرنا من الوجوه نؤلف ما سألت من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما ما كان منها عن قوم، هم عند أهل الحديث متهمون أو عند الأكثر منهم فلسنا

تشاغل بتخريج حديثهم كعبد الله بن منصور وأبي جعفر المدائني وعمر بن خالد وعبد القدوس الشامي ومحمد بن سعيد المصلوب وغياث بن إبراهيم وسليمان بن عمرو وأبي داود النخعي وأشباههم ممن اتهم بوضع الأحاديث وتوليد الأخبار، وكذلك من الغالب على حديث المنكر أو الغلط أمسكنا أيضا عن حديثهم.

وعلامة المنكر في حديث المحدث إذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرضا، خالفت روايته روايتهم ولم تكد توافقها، فإذا كان الأغلب من حديثه كذلك، كان مهجور الحديث غير مقبوله ولا مستعمله.

والذي نعرف من مذهبهم في قبول ما ينفرد به المحدث من الحديث أن يكون قد شارك الثقات من أهل العلم والحفظ في بعض ما رووا وأمعن في ذلك على الموافقة لهم، فإذا وجد كذلك ثم زاد بعد ذلك شيئاً ليس عند أصحابه قبلت زيادته.

فأما من تراه يعمد لمثل الزهري في جلالته وكثرة أصحابه الحفاظ المتقنين لحديثه وحديث غيره. أو لمثل هشام بن عروة وحديثهما عند أهل العلم مبسوط مشترك قد نقل أصحابهما عنهما حديثهما على الاتفاق منهم في أكثره. فيروى عنهما أو عن أحدهما العدد من الحديث مما لا يعرفه أحد من أصحابهما وليس ممن قد شاركهم في الصحيح مما عندهم، فغير جائز قبول هذا الضرب من الناس والله أعلم.

فهذا منهج علمي مضبوط لا يقل في دقته وتحقيقه عن مناهج علماء النقد المحدثين إن لم يفقها، وليس هو مما استوحى من مصدر أجنبي، ولا مما استورد من بلاد الخارج وإنما هو حصيلة الفكر العربي السليم ونتيجة الاجتهاد الإسلامي الخالص. ولم يملك المستشرق جوينبول GUYNBALL كاتب مادة الحديث في دائرة المعارف الإسلامية نفسه من أن يظهر الإعجاب بالجهد الذي بذله المسلمون في التحري لصحة أحاديث نبيهم، على ما له من أغلاط كثيرة في هذه المادة، إذ يقول: « لا يعد الحديث صحيحاً في نظر المسلمين إلا إذا تتابعت سلسلة الإسناد من غير انقطاع، وكانت تتألف من أفراد يوثق برواياتهم. وتحقيق الإسناد جعل علماء المسلمين يقتلون الأمر بحثاً، ولم يكتفوا بتحقيق أسماء الرجال وأحوالهم لمعرفة الوقت الذي عاشوا فيه وأحوال معاشهم، ومكان وجودهم، ومن منهم كان على معرفة شخصية بالآخر، بل فحصوا أيضاً عن قيمة المحدث صدقا وكذباً وعن مقدار تحريه للدقة والأمانة في نقل المتون ليحكموا أي الرواة كان ثقة

فى روايته » ، ونوه الأستاذ آدم متز فى كتابه: (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) بالدور المظم الذى قام به علماء الحديث فى تدوين السنة النبوية وخدمتها فقال : « وقد اعتنى نقاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رجال الحديث وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء ، ثم نظروا فى الأساس الذى ينبنى عليه هذا الحكم أعنى الصفات التى يجب توفرها فى المحدث الثقة وهو مايعرف بالجرح والتعديل ... وقد أدت بهم حاجتهم إلى السند المتصل أن يتجاوزوا البحث فى حياة الرواة والحكم عليهم إلى عمل تاريخ كامل لهم ، وهكذا وجدت تواريخ القرن الثالث الهجرى مثل تاريخ البخارى وطبقات ابن سعد ... » الخ .

وقد أثر هـــذا المنهج بدقته وضبطه على العقلية العربية فظهر مفعوله فى علوم أخرى كاللغة والأدب والتاريخ ، وابن قتيبة الذى يعد من أوائل نقاد الأدب والشعر خاصة بما كتبه فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء لم يكن إلا متأثراً بمعارفه الحديثية والإخبارية ومنهج النقد عند المحدثين الذين هو منهم وإليهم ، بل إنى لا أشك فى استفادة ابن خلدون من منهج أهل الحديث ، واستمداده من طرق تقدم فيا وضعه من قواعد لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، إن الأمثلة التى أعطاها مسلم بن الحجاج لمعرفة المنكر من الحديث هى بعينها المقاييس التى طبقها ابن خلدون لتمييز الزائف من الصحيح من أخبار المؤرخين ، وهكذا نرى أن علم الحديث يبسط جناحه على الثقافة الإسلامية ، لا بمتنه وروايته فقط بل وباصطلاحه وما يسمى عند علمائه بعلم الحديث دراية أيضا .

ومن المعلوم أن هذا لم يكن هو القصد الأول من الحديث وتدوينه ونقده ؛ فإنه إنما جاء عرضا وكان فتحا من فتوحات هذا العلم المبارك الذى استوعب ضروب النشاط الفكرى عند المسلمين ، وحفزهم من أول يوم إلى اقتحام سبل المعرفة وطلب العلم ولو بالصين . فوجدت تلك النهضة العلمية الكبرى التى عمت البلاد الإسلامية من مشرقها إلى مغربها والتى لم تنفصل فى أساسها قط عن مدارك القرآن الكريم والحديث الشريف وهو ما يفسر لنا حرص أعلام الفكر الإسلامى على الأخذ بحظهم من هذا العلم وتمسكهم عبر التاريخ بالمشاركة فيه حتى ولو كانوا من الفلاسفة والأطباء والفلكيين أمثال ابن سينا وابن رشد ونصير الدين الطوسى وعبد اللطيف البغدادى وغيرهم ، بل لقد قيل بتلازم علم الحديث وعلم النبات لأنهما مما يدرك بالرحلة ، ولا يبلغ أحد فيهما شأوا إلا بالتنقل فى البلاد .

نعم لم يكن هذا هو القصد الأول من حركة تدوين الحديث ، وإنما كان هـذا القصد هو جمع الحديث خوف ضياعه ، فقـد جاء فيما كتب به عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم في الموضوع أنه قال له : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء » .

والواقع أنها كانت حركة إنقاذ للعـلـم الإسلامي الذي لم يكن عند القوم غيره ، وكانوا إنما يعتمدون فيه على الحفظ والاستظهار ، فلما أسرع الموت إلى رجاله ونقلتـه ، خاف الخليفة العادل من جـراء ذلك على هذا العلم ما خافه الخليفة الأول على القرآن من الضياع لـما استحر القتل في الصحابة وأمر بجمع المصحف ، فـكذلك أمر عمر بن عبد العزيز بكتابة الحديث ، وهو - بعد القرآن - منتهى علم المسلمين إذ ذاك ، فجدوا في الأمر واجتهدوا وقاموا بما لم تقم به أمة في العمل على حفظ كلام نبيها وأخباره وأحواله ، ودونوا ذلك واقتبسوا منه الحـكم والأحـكام والمعارف والأسرار ، ولم ينظروا إليه قط تلك النظرة الضيقة التي تحصره في حيز الفـكر الديني ؛ بل اعتبروه تراثا علميا طائلا درسوه وتعمقوا فيه مـدة قرن من الزمن ؛ حتى إذا اتسعت أمامهم آفاق المعرفة ونقلت إليهم عـلوم الأوائل من فلسفة وطبيعـة ورياضيات لم يزدهم ذلك إلا توسعا وتفريعا لأصوله وتأسيسا لقواعده ، فإنهم لم يقولوا في يوم من الأيام بالفصل بين العلم والدين ولا رجحوا كفة المادة على الروح لأن الدين هو الإسلام ، والإسلام والعلم لا يختلفان ، ولأن المادة كانت دائما وسيلتهم إلى السمو بالروح ، والوسائل عنده تعطى حكم المقاصد ، فلذلك كانوا في المزاوجة بين المعارف الإلهية والعلوم الـكونية كالطائر بين جناحين لا يميل مع أحدهما إلا كان مهدداً بالوقوع .

وهـكذا كان عملهم في تدوين الحـديث مبادرة علمية بالمعنى العام الذي يشمل علوم الحياة بأجمعها مما وصل إليه اجتهادهم ووعته عقولهم ولا يختص دينا ولا علما كما قلنا ، حتى بدأ عهد الترجـمة ونشأت تلك النهضة العلمية الـكبرى التي كان علم الحـديث من روادها الداعين إليها والمشجعين عليها فتميزت العلوم حينئذ ، وسار كل في طريقه من غير تقاطع ولا تدابر ، ولا تبجح جهة بأن ما معها هو العلم دون سواه ، بل إن الاعتراف المتبادل وروح التعاون بين الفـكر الفلسفي والديني ، كانا هما التقليد المتبع الذي أدى إلى وجود فلسفة إسلامية متميزة عن الفلسفة العامة ، هي الرشدية التي أثبتت لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني عدم تعارض العـلـم والدين على ما نجده عند صاحبها أبي الوليد بن رشـد

فى كتابه . فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال وغيره من كتبه الفلسفية والرشدية هى التى تولدت عنها الميمونية نسبة إلى موسى بن ميمون الحكيم الإسرائيلى الذى احتبلها الاحتجاج لليهودية ثم تأدت من بعد إلى توماس الأكوينى ، وهو من أكبر فلاسفة القرون الوسطى ورجال الدين فى الغرب فوجد فيها أعظم سند لدعم الإيمان المسيحى من طريق العلم ، ولا يفهم من هذا أن الحياة الدينية المحضة وما يتعلق بها من الحديث لم تحظ بعناية خاصة من سلف الأمة فى حركة التدوين ، ولم تكن حافزا لهم على ما قاموا به فى هذا الشأن من عمل جبار ، كلا فإننا إنما عنينا بإبراز الناحية العلمية وما كان لها من السيطرة على المسلمين فى تلك الحركة ، لأنها كثيرا ما تخفى على الباحثين أولا يعيرونها الاهتمام اللازم ، وإلا فإن الحديث المتعلق بالواجبات والسنن والشعائر الدينية على العموم كان من أول ما اعتنى المسلمون بحفظه وروايته سواء فى ذلك الصحابة والتابعون فمن بعدهم ، بل إن من الصحابة من تعاطى كتابته كعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وذلك بإذن من النبى صلى الله عليه وسلم فسبق عهد التدوين بزهاء قرن كامل . وفى هذا العهد أيضا كان الباعث الدينى من أعظم ما حمل أئمة الحديث وحفاظه على جمعه وكتابته ، ألا ترى أن منهم من خص بعض كتبه بالمسائل والقضايا الدينية ، وقد ألممنا إلى ذلك فيما سبق ، ككتاب القراءة فى الصلاة للبخارى ، وكتاب شعب الإيمان للبيهقى ، وكتاب السنن لأبى داود وإن كان هذا جامعا بين أحكام العبادات والمعاملات .

ولم يكن ليسع المسلمين غير ذلك ، وهم يقرأون فى الكتاب العزيز « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ويسمعونه صلى الله عليه وسلم يقول : « إلا أنى أوتيت القرآن ومثله معه » فالقرآن وإن كان كتاب عقيدة وشريعة معا ، وذلك مما امتاز به على الكتب السماوية الأخرى ، إلا أن كثيرا من الأحكام لم تفصل فيه تفصيلا ، حيث إن مهمته الأولى كانت ولا تزال هى أن يحبب الإيمان إلى الناس ويزينه فى قلوبهم ، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وما زاد على ذلك فإنما هو مما يثبت به الذين آمنوا ويشق لهم الطريق إلى المعرفة بالله وعبادته على نحو ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل كما ترشد إليه الآية الكريمة : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » لهذا شعر الصحابة منذ فجر الإسلام ومن أتى بعدهم من المؤمنين بالحاجة إلى السنة التى تبين لهم ما أجمل فى القرآن ، وما لم يذكر فيه تفصيلا من أحكام العبادات والمعاملات ، أنظر إلى الإيمان جاء فى القرآن ، الأمر به وإلزام كل واحد أن يملأ منه قلبه ثم

بينته السنة بقوله صلى الله عليه وسلم: « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره ». كذلك الإسلام والإحسان وانظر إلى الصلاة عماد الدين، أوجبها القرآن من غير بيان، وبينت السنة عدد الصلوات والركعات وكيفيتها وشروطها وإصلاح ما يقع فيه الخلل منها، ووضحت أوقاتها وكيف العمل في فوائدها، وما ذكر في القرآن إلا ما هو إجمال من ذلك كقوله تعالى: « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » الآية ففي القرآن بيان شرط وهو الطهارة المائية ثم الترابية. وأشار على شرط ستر العورة بقوله: « خذوا زينتكم عند كل مسجد » وإلى شرط استقبال القبلة بقوله « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره »، ولكن هناك تفاصيل بينتها السنة. ثم أشار القرآن إلى أوقاتها بقوله « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » ولكن السنة بينت الأوقات بالبيان الشافي بحديث بريدة وحديث ابن عمرو في الصحيح وغيرهما.

وأشار القرآن إلى كيفيتها بقوله: « اركعوا واسجدوا » وقوله « وقوموا لله قانتين » ولكن السنة هي التي استوفت فقال صلى الله عليه وسلم: « صلوا كما رأيتموني أصلي » وروى لنا أبو هريرة ووائل بن حجر ومالك بن الحويرث وأبو حميد الساعدي وغيرهم كيفية صلاته عليه الصلاة والسلام وعلمنا منها ما هو واجب وما ليس بواجب.

وهكذا الزكاة أشار القرآن إلى وجوبها بقوله: « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ولكن من أين علم القدر الواجب؟ علم من السنة.

قال عليه الصلاة والسلام فيما سقت العيون أو كان عثريا العشر، وما سقي بالنضح نصف العشر وقال: « وفي الركاز الخمس » وبينت السنة قدر النصاب قال عليه الصلاة والسلام: « ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة: وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود في الإبل صدقة ».

وهكذا الصوم أوجب الله علينا في القرآن صوم شهر رمضان، وبينت السنة أن المراد الشهر القمري الذي يكون ثلاثين ويكون تسعا وعشرين، وأمرنا أن نصوم لرؤية الهلال ونفطر لرؤيته، وأن من أفطر عامدا لغير عذر تجب عليه الكفارة إلى غير ذلك.

وهكذا الحج أوجبه الله في القرآن على من استطاع، وبين أركانه فأشار إلى الإحرام بقوله تعالى: « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله » إلى آخر الآية، وإلى وقوف عرفة « فإذا أفضتم من عرفات » وبين

السعي والطواف بقوله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » ، وبقوله « وطهر بيتي للطائفين والقائمين » ، وبينت السنة كيفية الإحرام وممنوعاته وحدود عرفة ووقت الوقوف فيه وكيفية السعي والطواف وعدد الأشواط إلى غير ذلك، وقد أجمله عليه الصلاة والسلام بقوله: «خذوا عني مناسككم» وبينت الأحاديث النبوية التي رواها الصحابة الذين عاينوا حجه تفاصيل ذلك كابن عباس وابن عمر وغيرهما.

فهذه بعض الأحكام مما يتعلق بالقواعد الخمس فقط ، إنما استفيدت من السنة وإن ذكرت أصولها في القرآن ، ولكن ذلك يغني عن التفاصيل التي أشرنا إليها ومثلها ما يتعلق بأبواب المعاملات وهو كثير جدا . فلا جرم أن السنة قولية كانت أو فعلية عليها مناط التشريع بعد القرآن ، وهي إما مبينة له كما رأينا وذلك هو الغالب ، وإما مستقلة بالتشريع كما في زكاة الفطر وصلاة الوتر من أحكام العبادات وكما في الحكم بالشاهد واليمين وميراث الجد من أحكام المعاملات وقد قال الله عز وجل فيما هو من هذا القبيل : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وبهذا نعرف قيمة الحديث بالنسبة إلى الدين كما عرفناها بالنسبة إلى العلم فالعجب ممن يثير الشبهات حول حجيته أو رجاله وسنده وقد رأينا فيما يرجع إلى السند كيف أن عمل المحدثين في التحري له والتثبت منه وإخضاعه للنقد العلمي التحليلي كان مثار الإعجاب حتى من الأجانب عن الإسلام ، واتخذه علماء آخرون من غير المحدثين كالمؤرخين والأدباء ميزانا لنقد الأخبار وحياة المجتمع فما بعد هذه الدقة في وزن الحديث وتمييزه غاية تدرك والذي لا يرضيه ذلك في هذا الأمر لا يرضيه شيء .

وأما حجية الحديث فلسنا بقائلين فيها شيئا مما كان يقوله بعض المتنطعين من أنها ظنية الثبوت وخبر آحاد ، فإن المنكرين اليوم ليسوا من ذلك بسبيل وإنما هم من تحكمت فيهم الأهواء وقالوا بالتقليد من غير علم ولا هــــدى ، فنسألهم عما ذكرنا من الأحكام التي لم تستفد إلا من السنة وهي مما لا نزاع فيه بين المسلمين كعدد ركعات الصلاة والصلوات الواجبة والمندوبة والنصاب في الزكاة والقدر المخرج منه وما إلى ذلك أهي من الدين أم لا ؟ فإذا قالوا : هي من الدين قطعا فقد أثبتوا حجية الحديث فيها لأنها لم تشرع إلا عن طريقه ويلزمهم أن يقولوا بحجته في غيرها ، وأن قالوا : إنها ليست من الدين فلا شك أنهم يتكلمون عن دين آخر غير دين الإسلام ، وليس الحديث حجة إلا عند المسلمين الذين يصلون ويصومون على ما ثبت عندهم من قول الرسول وفعله ذلك ، وهو السبيل المروي بطريق التواتر أو خبر الآحاد صحيحا أو حسنا .

ولعلنا وقد بينا قيمة الحديث العلمية والدينية ورفعنا من شأن رجاله بما هو معقول ومقبول وليس من قبيل المناقب ولا الكرامات يصح لنا أن ننبه على الأحاديث الموضوعة و"ضعيفة جدا ونحذر منها، فإن أكثرها بما يجنى على سمعة الإسلام ويزيف حقيقته، وهى فى الواقع التى تحمل بعض من لا علم له من ضعفاء الإيمان يتشككون فى الأحاديث كلها ويردونها ولا يقبلون الاحتجاج بها، وهو خطأ واضح لأن وجود الزيف فى بعض النقود كلها، لا يبطل النقود كلها وقد وقع الانتحال فى النصوص الأدبية من شعر ونثر ولم يحمل ذلك أحدا يرفض الأدب كله ويقول: إنه منتحل لا يصح نسبته إلى أهله.

وقد ألف العلماء فى الحديث الموضوع كتبا قيمة تبينه بأعيانه فضلا عما وضعوه من القواعد لمعرفة الوضع فى الحديث، ومن تلك الكتب موضوعات ابن الجزرى واللآلىء المصنوعة للسيوطى والدرر المنتثرة له وتمييز الطيب من الخبيث لابن الربيع وموضوعات على القارى المعروف بابن سلطان والغماز على اللماز للسيد السمهودى وما ذكره المجد الفيروز بادى فى آخر كتابه سفر السعادة ونظمه الشمس المقدسى فى أرجوزة طويلة مفيدة، والفوائد المجموعة للشوكانى، وأسنى المطالب لمحمد الحوت وهذه الكتب كلها مطبوعة بمتناول الجميع. على أن ثم أحاديث لم تنزل لدرجة الوضع وإنما دخل سندها أو متنها علة قد لا تقدح فى صحتها، ولكن معرفة ذلك مما يخفى إلا على جهابذة النقاد.

وقد ألف العلماء فى هذه العلل أيضاً تآليف مفيدة جداً، ومما هو مطبوع منها: كتاب علل الحديث لابن أبى حاتم أورد فيه زهاء ثلاثة آلاف حديث معلول مبيناً وجه علته بما لا مزيد عليه فى الإتقان.

وهناك نوع من الحديث الذى يبدو لأول وهلة كأنه متناقض مع ما هو معروف من النصوص القرآنية أو الحديثية الأخرى، فيسارع المرء إلى إنكاره وهو المسمى بمختلف الحديث وهذا النوع قد يقع منه فى مزالق شنيعة ولذلك لا ينبغى الاستعجال بالحكم عليه إلا بعد الدراسة المستأنية والإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه. ومن أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة وهو مطبوع يحسن الرجوع إليه للتفقه فى الحديث وحصول الطمأنينة له.

وبعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وأفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم.

« وما شرب الإيمان إلا فؤاد من
بأخبار خير الخلق قد ملأ الأذن »؟

عبد الله كنون

روح الإسلام أقوى دعامة لإصلاح المجتمع الحديث

للأستاذ عبد الحميد حسن
" عضو المجمع "

يتطلع الإنسان الواعى المثقف إلى حياة أفضل ، وتطمح الشعوب النامية إلى التمتع بحياة مزدهرة ترد لها اعتبارها ويعوضها عما قاست من تخلف تحت وطأة الاستعمار وفى غمرات الضعف والقصور ، وتتجه الدول الناهضة إلى استكمال نهوضها حتى تسهم فى ركب الحضارة ، والدول التى يعتبرها الوضع الحديث دولا راقية قد أخذت بقسط من المدنية ، لا تزال حائرة فيما تسير فيه من نهج وما تستقل عليه من نظام يكفل لها حياة هادئة راضية ، فهى تقلب وجوه التفكير طامعة أو واهمة أن تهتدى إلى خير نظام وأقوم سبيل .

ويحتدم الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية بأنواعها ، والشعوب جميعاً ترقب أن يزول الظلام وينبثق فجر السلام ، والعالم من خلال كل ذلك يلتمس الهداية لحل هذه المشكلات التى تنغص على الناس حياتهم وتهدد كيانهم .

والشعوب العربية تنظر إلى ما كانت فيه من عز ومجد ومنعة وإلى ما صارت إليه من حال لا تحسد عليها ، والشعوب الإسلامية التى كانت لها دولة وصولة ولسان عربى مبين يربط بينها برباط وثيق ومشاعر جياشة تترنم بها عواطفها .

قد لوى الاستعمار ألسنتها أو ألسنة الكثير منها ، وأصبح بعضها بمعزل عن الحياة العزيزة الحافلة بالخير والنماء ، على أن أملها فى طلوع الفجر الصادق لم ينقطع ، وذلك بما لا يزال تنبض به قلوبها وتمتلىء صدورها من نور الإيمان بالله والثقة به ومن التمسك بشعائر الإسلام .

الأستاذ عبد الحميد حسن

• • •

نرى كل هذا فى محيطنا ومن حولنا ، ونشعر بالحاجة الملحة إلى الحلول الحاسمة التى تنقذ الإنسانية وتجنبها سوء المصير .

فلنتجه إلى الله نرجو منه العون ، وإلى دينه الحنيف نستمد منه الهداية والتوفيق إلى أقوم سبيل .

لتتجه إلى الإسلام مسترشدين بما فيه من أساس وطيد، ونصح سديد وتوجيه رشيد.

وإن الأساس الذي يرتكز عليه الإسلام هو الفطرة السليمة، فهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، تلك الفطرة التي تتجه إلى الخير، وتعتمد على الفكر السليم، وعلى المبادىء السمحة الواضحة، وهذا هو سر قوة الإسلام وسر خلوده وسر قوة المستمسكين بعروته الوثقى. فإن الفطرة إذا صفت فقد صفت النفس وصلحت أعمالها واتجهت إلى أسمى المقاصد وبذلك يعم الوئام وتسمو الجماعات والشعوب إلى خير الغايات.

فلننظر إلى ما أوضحه الإسلام في تكوين الإنسان وفي رسالته في الحياة.

يوضح القرآن الكريم تكوين الإنسان في قوله تعالى: «وبدأ خلق الإنسان من طين»، وقوله سبحانه: «خلق الإنسان من صلصال كالفخار»، ثم يوضح سبحانه تتمة تكوين الإنسان فيقول جل شأنه: «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين».

فالإنسان فيه عنصران: أحدهما روحي والآخر مادي. وقد اهتم الإسلام بتربية هذين العنصرين وحمايتهما مما يفسدهما أو ينحدر بهما إلى طريق الشر والغواية، فإن اكتمالها وتجانسهما وانسجامهما ينهض بالإنسان إلى قمة الفضيلة، فيستطيع أن يؤدي رسالته التي حمله الله إياها على خير الوجوه.

فلنوضح هذين العنصرين لنرى أثرهما في رقي الفرد وإصلاح المجتمع ثم نتبع ذلك بالإشارة إلى رسالة الإنسان في الحياة وكيف يؤديها في صدق وإخلاص وإيمان بالله ويقين.

أولا ـ العنصر الروحي.

وهو أهم العنصرين، فهو الطريق إلى الصلة بالله، وهو الذي يوجه الإنسان إلى طاعة ربه وامتثال أوامره، وهو الذي يرشد إلى الخير وإلى سنى الأعمال وأشرفها، ويبصر الإنسان بما يقيه الشر والضلال، فإذا رعاه المربون بالعناية وتعهده الإنسان بالتزكية والتطهير كان خير مرشد إلى الصراط السوي صراط الله العزيز الحميد.

وهذا العنصر الروحي أو النفسي له مظاهر ثلاثة يهدف كل منها إلى غاية نبيلة في الحياة وهي:

الفكر: وغايته معرفة الحق.

والإرادة: وغايتها الوصول إلى الخير.

والوجدان: وغايته العواطف النبيلة وجمال النفس.

والحق والخير والعواطف النبيلة من الأهداف المثالية، وإذا حققها الإنسان سعد في حياته وسعد المجتمع وساد الأمم السلام والوئام.

ولهذه الأهداف الثلاثة في الإسلام شأن كبير، وله بها غاية واهتمام يقول سبحانه: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق»، ويقول: «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم

بين الناس بما أراك الله ، ويقول جل شأنه: « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا » ويقول سبحانه : « وما تنفقوا من خير يوف اليكم » « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » . إلى غير ذلك من الآيات .

والحق ينطوى على إشاعة العدل والمساواة والإنصاف .

والخير يستهدف المحبة والوئام والعلاقات الطيبة بين الناس .

وللعواطف دور هام فى نشر الأخوة والتعاون والتراحم والمودة .

كل ذلك من الأسس التى يرتكز عليها المجتمع المثالى الرشيد ، ولو أن الأفراد والجماعات والشعوب حققت هذه المبادىء فى صدق وإخلاص وعزم قوى لصفت الحياة ومحيت بين الناس أسباب الحقد والظلم والاعتداء ، واقتلعت من القلوب نوازع الشر والدمار ولظفرنا بالنظام المثالى الذى تنشده جميع الشعوب المحبة للسلام ، أو بالمدينة الفاضلة التى سعى المفكرون قديما للوصول إليها والتى تحاول الأمم المتمدينة الآن الوصول إليها فلم تنجح إلى الآن .

والإسلام يعنى عناية كبيرة بأن يسمو بهذه الأهداف الثلاثه ، فيهتم بتربية الفكر وتنمية الإرادة وغرس نبيل العواطف .

١ — أما الفكر فأوضح سبيل لتنميته هو ما حث عليه القرآن الكريم من النظر فى آيات الله فى الكون وفى النفس ، يقول سبحانه : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، ويقول جل شأنه : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » ، « فلينظر الإنسان مم خلق » ، « فلينظر الإنسان إلى طعامه » ، إلى غير ذلك .

والنظر إنما يتم بالمعرفة الحرة وأعمال الفكر والاقتناع .

وفى كل هذا - إلى جانب تربية الفكر - جوانب أخرى لها قيمتها وشأنها فى تشجيع البحث العلمى ووضع الخطة لمناهجه ، وذلك مما تعنى به النهضة الحديثة فى الأمم ، ومن ذلك أيضا فتح الميدان الفسيح للعقل وللعمل فى حرية وانطلاق للوصول إلى أقوم الغايات فى الحياة ، وفوق كل هذا فإن توجيه نظر الإنسان إلى مظاهر الكون وآثار رحمة الله ونعمته هو أقوى باعث على إيقاظ الإيمان بالله والاعتراف بقدرته وعظمته ، وله إلى جانب ذلك أثر آخر هو تنبيه الإنسان إلى ما فى الكون من مواد وخيرات يستطيع أن يستخدمها فى منفعته ومنفعة غيره فيعمل على الاستثمار والإنتاج بما يجب أن ينال اهتمام جميع الأمم والشعوب والجماعات .

٢ — وأما الإرادة فقد وجهها الإسلام إلى الخير فى جميع صوره وأوضاعه كالإحسان والبر والتعاون والصدقة ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تضمنت أصول الفضائل ونبيل الخلال التى تكفل للأفراد حياة كريمة .

استمع إلى قوله تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب .. الآية» (البقرة ١٧٧)، «أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله. الآيات (الرعد ١٩)»، «إن الله يأمر بالعدل والإحسان . الآية» (النحل ٩٠) «قد أفلح المؤمنون . الآيات» (المؤمنون)، «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا .. الآيات» (الفرقان ٦٣). إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمن أصول الفضائل كالعدل والوفاء بالعهد والاعتدال في الإنفاق والأمانة والصبر واجتناب شهادة الزور وإعطاء الحقوق لمستحقيها إلى غير ذلك

٢ — وأما الوجدان وما يتفرع منه من عواطف فقد قوى الإسلام روابطها وأحكم أواصرها بين الإنسان ووالديه وذوى قرباه وجاره البعيد والصاحب بالجنب، وجعل المودة أساسا للترابط في الأسرة، ثم بين جميع الناس، وكل هذا مما يجعل الحياة الإنسانية هادئة راضية مرضية.

• • •

هذه النواحي الثلاث هي الدعامة للكيان الروحي للإنسان، وهي فوق ذلك رباط وثيق بين أفراد المجتمع، توحد أهدافه وتحقق التجانس بين عناصر الأمة وتكون عاملا قويا في رقيها ونهوضها. وهي في مستواها الرفيع وسيلة الصلة بين الإنسان وربه، وخير وقاية من شرور المطامع المادية ومطالب النفس الأمارة بالسوء.

وعلى قدر رقى هذه الناحية الروحية يكون رقى الإنسان وتكون سيطرته على نفسه وعلى ما سخره الله له من موارد الكون. لهذا كان من الواجب تغذية هذا العنصر ببواعث الخير والرحمة والحق والعدل والإحسان والبر والتعاون والإحسان العام الشامل. وبذلك نضع الأساس القوى لبناء المجتمع الرشيد والوصول إلى الأهداف المنشودة للحياة المثالية.

ثانيا — العنصر الجسمى:

وهو العنصر المادى الذى خلقه الله من مواد الأرض ومنها ينمو الإنسان وركب فيه الميول التى يتطلبها نموه ونمو ذريته. وللجسم مطالبه الشهوانية المتعددة، وهى مطية الشر إذا أسرف فيها الإنسان وخرج عن حدود الاعتدال، وقد سخر الله له ما فى الأرض جميعا وأباح له التمتع بالطيبات من الرزق الذى بثه الله، على أن يسعى ويعمل عقله وأن ينفع نفسه ويبادل بنى جنسه النفع العام الشامل بلا أثرة ولا استئثار.

وقد وضع الإسلام للجسم نظاما يكفل صحته، وأسدى النصح إلى الإنسان فى طعامه وشرابه ليكون من الحلال الطيب، وليجتنب ما عسى أن يعود عليه بالضرر. يقول سبحانه «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا»، ويقول جل شأنه «وهو الذى سخر البحر لتأكلوا

منه لحما طريا ، ويقول عز اسمه : « لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » ويقول سبحانه « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » إلى غير ذلك .

هذا هو التكوين الإنسانى فى ناحيته الروحية والمادية . وفى هذا التكوين قد أودع الله القوى التى تتطلبها سعادة الإنسان وإنا لنرى فيه بجلاء عناصر التراحم والتعاطف والتضامن والتعاون على خير المقاصد، ونرى أيضا إرشاد الإنسان إلى جميع منابع الخير اللازمة لحياته . فإذا اتجهت هذه العناصر إلى الله بارئها سعد الإنسان ، وإذا انحرفت ضل وغوى .

* * *

يبقى بعد ذلك أن يؤدى الإنسان - بهذا التكوين المتكامل - رسالته التى خلقها الله من أجلها .

فماذا عسى أن تكون هذه الرسالة ؟

رسالة الإنسان فى الحياة :

قد حدد الله سبحانه غاية هذه الرسالة فى قوله جل شأنه : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » وقوله جل شأنه « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » .

ولكى يقوم الإنسان بمطالب هذه الخلافة زوده الله بالمواهب التى تمكنه من أداء هذه الرسالة ، فأمده بالطاقة والعقل ، وجعل له التصرف فى الأرض وما عليها وما فى جوفها لكى يعمر وينتج وينتفع بخيرات الله من زروع وضرع ومعادن « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ، « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .

وكذلك لكى يتمتع بجمال الحياة وبنعم الله التى لا تحصى ، وكل هذا إنما يكون بالعمل وبالجد . وقد وجه الله سبحانه نظر الناس إلى أن الظفر بخيرات الله إنما يكون بالسعى ، يقول سبحانه : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ويقول جل شأنه : « جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » ويقول عز اسمه : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » .

ووجوب الانتفاع بالمادة لا تكون لمن يحرزها فحسب ، بل تتجه إلى مساعدة المعوزين والعاجزين ، كما تتجه لمصلحة الأمة عامة ، وبذلك يتحقق التكافل الاجتماعى ويتم التعاون الذى ينشده الإسلام .

والإسلام يعد العمل فى التجارة والزراعة جهادا وأجرا .

قال عليه الصلاة والسلام : (من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له فى كل شىء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل) وقال صلى الله عليه وسلم : (سبع يجرى للعبد أجرهن وهو فى قبره بعد موته : (من علم علما ، أو كرى نهرا ، أو حفر بئرا ، أو غرس نخلا ، أو بنى مسجدا ، أو ورث مصحفا ، أو ترك ولدا يستغفر الله بعد موته) .

ومن أهم أهداف الإنسان فى رسالته فى الحياة المال ، فهو رمز الثروة والغنى ، ولكنه سلاح ذو حدين ، فهو ضرورى لمطالب الحياة ومعايش الناس غير أنه إذا أسىء استخدامه ، فقد يتحول إلى شر وبال.

ولهذا قاوم الإسلام طغيان المال ، ونبه إلى الآفات والمضار التى تنجم عن المغالاة فى حبه وجمعه واكتنازه دون تمكين المجتمع من الانتفاع به أو تركيزه فى أيدى فئة الإقطاعيين الذين يتداولونه فيما بينهم دون غيرهم ، يقول سبحانه : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ويقول جل شأنه « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

• • •

إن المال أو الثروة بصفة عامة هو السبب الأول لما نراه من صراع الفرد مع نفسه وصراعه مع غيره : فإنه فى صراع محتدم متأجج مع نفسه بسبب نزعاته وميوله المادية والشهوانية التى تقوده إلى حب الثروة والرغبة فى الغنى إلى درجة جارفة وهو أيضا فى صراع مع غيره حبا فى الاستحواذ والاستئثار ، وإن الجرى وراء المال لسد نهم النفس وإشباع تأجج الغرائز البهيمية ، وحبه حبا طاغيا ، يوجه قلب الإنسان إلى ملاذ الدنيا وشهواتها ومظاهر الترف ، ويضعف ما فيه من سمو نحو سامى المقاصد وسنى المطالب ، لأن انهماكه فى إحراز المال يعشى بصره وبصيرته عن الاتجاه إلى تهذيب قلبه ، ويصرفه إلى العدوان والصراع مع غيره فينسى مقومات النفس المطمئنة الراضية ، وبواعث الخلق القويم ويحيق به الدمار .

لهذا حث الإسلام على البذل والتصدق ، ورغب فيهما بوسائل كثيرة ، ونظم السياسة المالية لكى يعم الخير ويطمئن الفقير ، وذلك بأداء الزكاة بنسبة خاصة ، وقد أجاز أن تزيد هذه النسبة إذا اقتضت مصلحة الأمة ذلك ، وحث أيضاً على العمل وعلى السعى وعلى الإنتاج والتعمير ، وكل ذلك لخير الإنسان وخير المجتمع .

وكما جعل الله الإنسان خليفة فى الأرض جعله أيضاً مستخلفاً فيما منحه إياه من فضل أو خير أو مال ، يقول سبحانه : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، فالإسلام يعد الأغنياء حراسا على المال وهو مال الله رزقهم به وهم مستخلفون فيه .

والاستخلاف ليس معناه الاكتناز أو الاحتكار أو الاستئثار ، وإنما المقصود منه نفع المجتمع وإعطاء المحتاج وإطعام الجائع ومعونة المعوزين .

ولو سار الناس على هذا النهج فى النظام المالى وفى توزيع الثروة ومنع احتكارها والعمل على تثميرها والسعى فى استخراجها وتنميتها لظفروا وظفر المجتمع بخير كثير .

• • •

هذا هو الإطار الذى رسمه الإسلام للحياة

المثالية ، وهو إطار يكفل للشعوب وللجماعات وللأفراد الخير وإشاعة العدل والمساواة وبث التراحم والتعاطف والقضاء على الفقر والتخلف ، ويضع الأساس المتين للفرد وللكرامة التي تشهدها الإنسانية .

وقد أثبت هذا النظام الإسلامي نجاحا فعالا في النهوض بالمسلمين إبان عصور الازدهار العربي : فقد كان الرقي شاملا والعلم ساطع الضوء يقبس منه القاصي والداني ، وكانت العواصم العربية محط الرحال ومعقد الآمال ، وكل ذلك بفضل ما في الإسلام ومبادئه وتوجيهاته من روح كانت أقوى حافز على السمو بالحياة وبالمجتمعات في ظلال العدل والمساواة والإخاء والمودة والرحمة ، وكانت الحضارة الإسلامية منبع الإشعاع لجميع الشعوب وسائر الأمم على اختلاف أجناسها وكان الأمن وارف الظلال ، والحرية مكفولة للجميع على اختلاف العقائد والمستويات .

* * *

فهل يعود للمسلمين مجدهم ؟ ومتى ؟ وبماذا ؟

ولكي نمهد للإجابة عن هذه الأسئلة يجمل بنا أن نلقي نظرة عابرة على الشعوب على اختلاف درجاتها في التقدم أو التخلف ، ثم نعود إلى الأمة الإسلامية لنرى حاضرها ، ثم نتطلع إلى ما نأمل لها من مستقبل مشرق زاهر .

١ — أما الدول التي تسمى التقدمية وهي التي ترى أنها قطعت شوطا بعيدا في المدنية فإنها لا تزال يتغشى القلق في أنحائها ويهدد الطمع كيانها ويثير شبح الحروب الطاحنة الغاشمة مخاوفها ، ويزلزل أقدامها ، وكل هذا مرجعه : إما إلى الطمع الذي يدق الأعناق أو الاستغلال الذي يطغى على العقول ، أو حب المال الذي يعمى البصائر والأبصار ، وإما إلى القلوب التي قست على الإنسانية المعذبة وخلت من التعاطف وضلت عن طريق الحق والخير ، وإما إلى الاثنين معا .

ولقد حاولت هذه الدول ، بعد أن ذاقت وبال أمرها ، أن تصلح ما جنت يداها أو ما جناه حكامها وزعماؤها ، وأن تخرج للعالم بمبادئ ظنت أنها تنشر الحرية والإخاء والمساواة ، ولكنها لم تلبث أن تنكرت لهذه المبادئ ، وتنمرت لها ، ولم تحقق منها شيئا ، فاستعبدت الأحرار ، وأذلت الضعفاء العزل من السلاح ، أو الذين جردتهم من القوة في جميع مظاهرها ، وبذلك تحولت مبادئها إلى شر صارخ : فصارت الحرية التي تطبقها على الشعوب استعبادا ، والمساواة إذلالا ، والإخاء ظلما واعتداء ، ومرجع كل هذا إلى أن التربية الروحية الحقة في هذه الدول الاستعمارية لم تنل عناية أو اهتماما ، وأن حب الخير لا يخطر ببالها إلا إذا كانت المغانم لها وحدها ، واستولت منها على القسط الموفور .

فلنترك هذه الدول سادرة في غلوائها هائمة في ضلالها متهالكة في صراعها إلى أن توقظها الأحداث الصاخبة ، وتصدها تيارات الحرية

واليقظة التي عمت جميع الشعوب الناهضة، وحينئذ يعود إليها صوابها وتسير طائعة أو مرغمة في طريق الحق والخير.

٢ — وأما الدول المتخلفة فقد ظلت تحت نير الاستعمار زمنا طويلا امتص فيه ثروتها واستنزف خيراتها واحتكر منابع الخير والقوة فيها وأشاع فيها الجهل والفقر واستخدمها مطية لمآربه، فأصبحت محرومة من الكفاف الذي يقيم الأود، وكادت تفقد الشعور بإنسانيتها وبحقها في الحياة وفي الحرية وفي التكريم، وهذه الشعوب ترى الآن خيراتها قد أصبحت نهبا للمستعمرين والمستغلين ومن يسير في ركابهم.

ومنشأ هذا الذي صارت اليه هذه الشعوب إما الضعف والتهاون وإما التراخي تحت أقدام المستعمرين وأعوانهم وتسليمهم الزمام وتمكينهم من ثروة البلاد، ومن هذه الشعوب دول متخلفة، ومنها دول نامية متطلعة للرقي واستكمال وسائل الحياة بصد أن تحررت من ربقة الاستعباد، ومنها دول أخذت بحظ نسبي من النضج. والواجب على جميع هذه الشعوب أن تتضامن وتوحد وجهتها وتجمع أمرها وتقف صفا واحدا في وجه المستعمرين والطامعين، فإن المستعمرين إنما يعتمدون — إلى جانب القوة — على تكتلهم، ويحمون أنفسهم بتعاونهم على الإثم والعدوان، على الرغم من اختلاف نزعاتهم وتباين مقاصدهم فلتقابل هذه الشعوب المتخلفة ذلك التعاون الآثم بالتضامن والتعاون على الخير والبر والنهوض، فإنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولتعمل هذه الشعوب على أن تكون جبهة تستهدف الخير والعدالة الاجتماعية وتحقق الحرية والعزة والكرامة، هذا إذا أرادت لنفسها الانطلاق بالسير في ركب الحياة النامية المزدهرة، وإنهم — بعون الله — إلى هذا متجهون وعلى الطريق السوي سائرون وسيظفرون بكل خير إن شاء الله عما قريب.

٣ — وأما الشعوب الإسلامية والعربية فقد ظلت كذلك أحقابا طويلة يقود الاستعمار والحكم الأجنبي زمامها ويقطع أوصالها ويفرق كلمتها، ويخمد أنفاسها حتى انتابها الضعف وكادت تنسى مجدها الماضي وفقدت كثيرا من الصفات النبيلة التي نشأها عليها الإسلام ومبادئه من القوة والعزة والخلق الكريم، ولكنها الآن قد هبت من سباتها وجرت في عروقها الدماء الزكية ونهضت تحفزها ذكريات عظمتها الماضية ويحدوها شعورها بما كان لها من مكانة مرموقة.

وإن أقوى ما تستند اليه لتستعيد مجدها وتسترد مكانتها هو أن تتجه إلى المنابع الثلاثة التي أوضحناها فتنهل من موردها العذب الصافي ما تغذي به ما في النفس الإنسانية من عناصر الخير والحق والتعاطف من أصول الفطرة السليمة، ثم تتجه بعزم وقوة إلى تحقيق الرسالة التي حملها الله للإنسان وهي أن يكون خليفته في هذه الأرض، وذلك

بالاهتمام بالإنتاج والتعمير واستغلال ما في الوطن العربي من خصب ، ومن بذور الخير ومن منابع الثروة تدر النماء والبركة على جميع الشعوب العربية وعلى غيرها من أصدقاء العروبة وأنصار السلام ، وبأن يوثق العرب عرا التضامن والاتحاد بينهم حتى يحققوا قول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، وبذلك تتوحد كلمتهم ، وتتضح للعالم أهدافهم ، ويسيرون قدما نحو العزة والكرامة . والأمن والعدالة وإقامة دعائم الحياة على الأسس الحكيمة القوية السليمة .

ومما يبشر بالخير ويملأ القلوب ثقة وأملا أن الشعوب العربية - وفي طليعتها الجمهورية العربية المتحدة - قد عقدت العزم بعون الله على أن تسترد حقوقها وتستعيد أمجادها ، وقد أخذت في الأسباب الكفيلة بتحقيق أهدافها المنشودة ، وقطعت مراحل مباركة موفقة في هذا السبيل : فحققت العدالة والمساواة وقضت على الاحتكار والاستغلال بشتى الوسائل ، وهي سائرة على بركة الله وبمعونته في طريق الازدهار والتقدم بخطى سريعة وعاملة جهدها على النهوض بالأفراد والجماعات وعلى الإصلاح الشامل في جميع مرافق الحياة .

***

ويجدر بنا في هذا المقام أن ننوه بناحية لها خطرها وأثرها القوى في إصلاح الأفراد والشعوب ، وهي دعامة متينة في التكوين الروحي للإنسان ولكنها ناحية لا تقوى السلطات أو القوانين الوضعية على أن تستكمل بناءها وتعلى صرحها وتثبت أصولها في القلوب إلا بوازع نفسي من الأفراد والجماعات وبباعث من أعماق ضمائرهم ، وصفاء من قلوبهم ، ومؤازرة مخلصة هادفة من المشرفين على شئون التربية وإعداد الشباب وإرشاد الجماعات ، وتثبيت إيمانها ويقينها بالله ، وهذه الناحية هي (الخلق القويم والضمير السليم) .

فذلك هو الذي ينأى بالأفراد عن الانحراف عن الجادة ، ويجنبهم الرذائل المردية ، مثل الغش والرشوة وفساد الذمم والتهاون في أداء الواجب والاعتداء الغاشم والحركات الهدامة والخيانة ومختلف الجرائم ، ونحو ذلك من الرذائل التي تعوق الأمم عن بلوغ الكمال .

وإن الأمل عظيم في المشرفين على إعداد الناشئين وتربيتهم ، والقائمين على تقويم الشباب وإرشادهم أن يعملوا على تثبيت المبادىء السليمة القوية في نفوسهم ، وأن يعمروا قلوبهم بالإيمان ويملئوها بنبيل الخلال وكريم الخصال .

إنهم إن فعلوا فقد أسهموا بالحظ الأوفى في الإصلاح المرجو والنهوض المنشود .

والله نسأل أن يسدد خطانا ويهدينا إلى طريق الحق والخير والرشاد ؟

عبد الحميد حسن

عضو مجمع البحوث الإسلامية

العفو في الإسلام

للأستاذ الدكتور محمد مهدى علام
"عضو المجمع"

تمهيد :

الغرض من العفو :

إن البحث فى الغرض من العفو يدعونا للبحث فى الغرض من العقوبة ، وحسبنا أن نذكر هنا أن المشرعين قد ارتأوا فى العقوبة آراء مختلفة يمكننا أن نرجعها إلى مذاهب أربعة :

١ ـ العقوبة الانتقامية : ويرى دعاتها أن الجانى ينبغى أن ينال جزاء ما اقترفت يداه .

٢ ـ العقوبة الرادعة : وينادى أصحابها بأن الغرض من العقوبة هو كف المجرم عن العود للإجرام .

٣ ـ العقوبة الواعظة : ويرى أشياعها أن غاية العقوبة وعظ الناس « الذين لم يجرموا بعد » حتى لا يقعوا فى الإجرام .

٤ ـ العقوبة المصلحة : ويرى دعاتها أن العقوبة ليست إلا علاجا للمجرم نعالجه بها ليبرأ من حالة نفسية شاذة ، هى ما يسمى عادة بالإجرام .

وأحدث ما وصل إليه علم الأخلاق هو الأخذ بمذهب الإصلاح فى العقوبة ـ بل بهذا المذهب أخذ بعض المشرعين حديثا فى كثير من البلاد ومن بينها الجمهورية العربية المتحدة .

وإذا كان الغرض من العقوبة هو إصلاح



الدكتور محمد مهدى علام

المذنب إصلاحا نفسيا يعيده إلى المجتمع الذى يعيش فيه عضوا سليما ، بل وليا حميا ، فكل وسيلة شريفة تحقق ذلك الغرض تكون عقوبة أو تحل محل العقوبة ، والعفو ـ فى بعض الأحوال ـ يحقق هذا الغرض لذلك كان العفو صورة من صور العقوبة .

غير أنه لا يعزب عن بالنا أن العفو علاج غير مأمون إلا فى اليد الحازمة ، فله نفوس خاصة ، وذنوب خاصة ، وظروف خاصة ، وإذا أسئ استخدامه أو أسرف فيه كان

جناية محققة ، لهذا جاء الإسلام بالعقوبة والعفو جميعا ، ولكنه لم يأمر بالعفو أمرا وإنما ندب إليه ندبا : مكن المعتدى عليه من الدفاع عن حقـــه ، ولكنه أوصاه بالسماحة والعفو بديلا .

وقبل أن أدلى بما استنبطته فى هذه النظرية أسوق الآيات الكريمة التى ورد فيها ذكر العفو فى القرآن الكريم ، فهى مادتى فى الاستنتاج وعمادى فى البحث [1] .

١ — « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » البقرة : ٥٢ .

٢ — « فاعفوا ، واصفحوا ، حتى يأتى الله بأمره » البقرة : ١٠٩ .

٣ — « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم فى القصاص حيـــاة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » البقرة : ١٧٨ — ١٧٩ .

٤ — « ... علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم » البقرة : ١٨٧

٥ — « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتـــدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » البقرة : ١٩٠ — ١٩٤ .

٦ — « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » البقرة : ٢٣٥ .

٧ — « وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير » . البقرة : ٢٣٧ .

وبعد أن يسوق الباحث آيات العفو فى الكتاب الكريم يقول : وقد هدانا بحثها إلى النقط الآتية :

١ — أن العفو ليس أصلا فى المعاملة بين الناس ، لأنه قدر زائد على العدالة ، بل هو ظلم بالفعل : ظلم المرء لنفسه بالتجاوز عن حقه ، وإنما سمى هذا الظلم « عفواً » لأنه

---

(١) ولقد اقتصرت هنا على الآيات التى هى نص فى موضوعنا ، تاركا عشرات من الآيات التى ذكر فيها العفو ذكرا عرضيا ، ولكن ما تركت لا يختلف فى لفظه أو معناه عما اقتبست . وقد حرصت على أن اقتبس الثلاث الآيات التى يبدو للنظرة الأولى أنها لا تساير إحدى نواحى النظرية ، ثم حاولت الملاءمة بينها وبين سائر الآيات ، (راجع الفقرة السادسة من النظرية) .

اسم جميل ، لهذا الظلم النبيل ، من أجل ذلك لم يفرضه الله تعالى ، بل رغب فيه ، وندب إليه بوسائل شتى ، وآية ذلك أنه - عز شأنه - شرع العقوبة ، حتى يشعر المرء بأن حقوقه مصونة . وفضلا عن المواضع الخاصة بذكر العقوبة ، قد كرر القرآن مشروعيتها مع كثير من آيات العفو ، ليلقى الطمأنينة فى قلوب العباد على أن مصالحهم مرعية ، وليكون عفوهم إذ ذاك سماحة خالصة ، لا طاعة مزيفة . وحسبنا أن نذكر هنا بعض الآيات التى ورد فيها ذكر العقوبة مع العفو ، تارة قبله ، وتارة بعده ، وتارة قبله وبعده جميعاً : « كتب عليكم القصاص فى القتلى ... فمن عفى له من أخيه شىء ... » البقرة ١٨٧ « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » المائدة ٩٥ . « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » المائدة ٩٨ ، « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » الأنعام ١٤٧ ، « إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » الأنعام ١٦٥ ، « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب » الرعد ٦ ، « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » الحجر ٤٩ ، ٥٠ ، « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » النحل ١٣٦ ، « غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول » غافر ٣ ، « ... وإذا ما غضبوا هم يغفرون » الشورى ٣٧ ، « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » الشورى ٣٩ ، ٤١ ، « ولمن صبر ، وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور » الشورى ٤٣ .

(وانظر كذلك - البقرة ٢٨٤ ، آل عمران ١٢٩ ، المائدة ٣٩ ، ٤٠ ، الأعراف ١٥٦ ، ١٦٧ ، الأنفال ٢٥ ، ٢٩ . الحج ٦٠ ، الأحزاب ٢٤ ، سبأ ٤ ، ٥ ، محمد ٤ ، الفتح ١٤ ، الحديد ٢٠ ، ٢١ ، الحشر ٤ ، ١٠ ، التحريم ٧ ، ٨ ، البروج ١٢ ، ١٤) .

وبعد فهذه آيات صريحة فى أن للعقوبة موضعها ، وللعفو موضعه ، وهى كذلك صريحة فى أن كفة العفو أرجح ولا شك أن هذه الطريق الوسط بين العقوبة والعفو أشكل بالحزم ، وأدعى إلى السلم والأمان ، فلو شرعت العقوبة وحدها لملأت الإحن القلوب ، وتمكنت الحفائظ من الصدور ، ولو شرع العفو وحده لسادت الفوضى ، واستشرى المجرمون ، بل لو شرع العفو وحده لكانت النفس أميل إلى الزهد فيه ، والتبرم به ، فليس فى طبيعة الإنسان أن يتخلى عن جميع حقوقه ، فى جميع الأحوال .

٢ — ولننظر مرة أخرى فى تلك الآيات فسنرى أن العبارات التى استخدمها القرآن

الكريم فى العفو مغرية به، حريصة على تقريبه إلى القلوب، مما يؤيد ما قلناه من أن الشارع الحكيم يرغب فيه، أولا، وثانيا: أنه يشعر بأنه ليس اتجاها طبيعيا من المظلوم نحو ظالمه فقد وصف الله تعالى نفسه بالعفو، ووصف به رسوله الكريم وطالبه به، ووصف به كذلك المقربين من عباده فوضع بذلك مثلا عليا أمام عباده يهتدون بها من غير إلزام.

* * *

ولو علم الله أن النفس البشرية تميل بطبيعتها إلى العفو لأمر به أمرا ولكنه جل ثناؤه يعلم أن فى الطبيعة البشرية ألا تأتمر أولا، وألا تأمر بما تشعر بأن فيه تجاوزا عن حقها ثانيا، لذلك لم يأت العفو بصيغة الأمر إلا قليلا، تحاشيا لإثارة روح العناد الخبيثة فى نفوس البشر، وإنما جاء فى أروع ما تنطق به الأساليب المرغبة النادية:

« وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم » البقرة: ٢٣٧، « إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » آل عمران ١٢٠، « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون فى السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين » آل عمران: ١٣٣ — ١٣٤، « وإن تصبروا وتتقوا، فإن ذلك من عزم الأمور ».

آل عمران ١٨٦، « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية، ويدرأون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها ... سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » الرعد ٢٢ — ٢٤، « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. » النحل: ١٢٦ « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، ويدرأون بالحسنة السيئة ... وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » القصص ٥٤ — ٥٥، « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ». الزمر: ١٠، « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، ... وإذا ما غضبوا هم يغفرون » الشورى: ٣٦ — ٣٧، « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ». الحشر: ١٠ (وانظر كذلك الحج ٣٤ - ٣٥، الفرقان: ٦٣، العنكبوت: ٥٨ — ٥٩، الشورى: ٤٠، ٤٣ الممتحنة ٧، التغابن: ١٤، البلد: ١٧ - ١٨).

٣ — وإذا درسنا الآيات التى جاء فيها العفو بصيغة الأمر ألفيناها جميعا إلا ثلاث آيات (البقرة: ١٠٩، وآل عمران: ٢٠٠ والنحل: ٩٠) مشتركة فى هذه الصفة، وهى أنها ليست خطابا مباشراً لجمهور الناس الذين يغلب أن يثور فى نفوسهم روح المعارضة والعناد، إذا أمروا بالتجاوز عن حقهم فى القصاص، فيصيبهم ذلك عن إدراك حكمة

العفو البالغة ، بل كان الأمر فيها موجها لمن طهرت نفوسهم من خبث التعصب للنفس والعناد ، أعنى للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، أو لصديقه الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، أو لفئة معينة وإن كانت غير محدودة من المقربين من عباد الله تعالى .

ولا بد أن نشير إلى أن هذه الطائفة تركت غير محدودة إطماعا لكل امرئ أن يكون من بينها .

٤ — بقى أن ننظر فى الآيات الثلاث التى ورد فيها الصفح بصيغة الأمر فى خطاب الأمة وهى قول الله تعالى : « فاعفوا ، واصفحوا ، حتى يأتى الله بأمره » البقرة ١٠٩ ، « يأيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا واتقوا الله ، لعلكم تفلحون » آل عمران ٢٠٠ ، « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » النحل ٩٠ ونود أن نقرر هنا أولا أن آية واحدة منها (آية البقرة) هى التى ذكر فيها العفو بلفظه الصريح ، بل وبمرادفه الفصيح أما الآيتان الأخريان ، فنى إحداهما أمر بالصبر بصفة عامة بما يشمل العفو وغيره ، فقد يكون الصبر على مكاره لا مجال للعفو فيها (١) .

وفى الأخرى أمر عام كذلك بالإحسان إلى جانب الأمر بالعدل . ونحن نرى أن ورود الأمر فى هذه الصورة العامة — لا فى صورة خاصة بالأمر بالعفو عن مسىء ، كما ورد ذكر العفو فى الآيات الأخرى — أبعد من إثارة النفس للعناد ومقاومة الأمر . لأن النفس لا تذكر إذ ذاك إساءة وقعت عليها تشعر بشهوة الانتقام لها ، كما كان يحدث مثلا لو جاءت آية النحل ١٢٦ على الصورة الآتية : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ، « ولكن اصبروا فهو خير للصابرين » . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولقد تغرينا وجاهة هذا التعليل بحمل آية « البقرة » عليه ، ولكن صراحة ألفاظها — على الرغم من غياب ذكر الإساءة أو العقوبة فيها — تدعونا إلى تلمس تعليل آخر ، ويخيل إلى أنه قصد بهذه الآية أن ترد هكذا فريدة لتنبه الناس إلى شدة العناية بالعفو والأخذ به ، حتى لا تكون جميع آيات القرآن خالية من صيغة الأمر ، موجهة إلى جمهور الأمة . فإذا قرنت هذه الآية بغيرها من آيات العفو ، استخرج الناس من المجموع المرمى السامى الذى رمى إليه الشارع : من أن العفو مرغوب فيه ، وإن لم يكن مأمورا به . إن علينا نتدبر فى هذا المعنى ما رواه معاذ بن جبل ، قال : « لما بعثنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى اليمن قال : ما زال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو ، فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود » .

---

(١) يلاحظ أن استعمال « الصبر » فى هذه الآية ليس صريحا فى معنى « العفو » صراحة استعماله فى عشرات الآيات الأخرى التى يذكر فيها الصبر بمناسبة العقوبة واحتمال أذى المعتدين الخ .

على أن لنا في هذه الآيات الثلاث تأويلا نتلمسه في التعبير البلاغي ، لا في التعليل الفلسفي . فالأمر كثيراً ما يأتي لغير الإلزام . وفي القرآن من أساليب العرب. فلا مانع من أن يكون الأمر قد ورد للنصح والإرشاد أو الندب ، أو للإباحة أو للتخيير ، على مثال الأمر في قوله تعالى : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » وقوله : « فإذا حللتم فاصطادوا » وقوله : « فإذا قضيت الصـلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » وقوله : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

٥ — وهذه ظاهرة أخرى تمتاز بها آيات العفو امتيازاً يزيد نظريتنا تأييداً ، من أن الشارع الحكيم كان عليما بأن العفو قدر زائد على العدالة ، أو كما سميناه هو « ظلم نبيل » لا تميل إليه النفس ميلا طبيعيا . فنحن نرى أن القرآن إذا عرض للعفو ذكره في عبارات مطنبة مؤكدة (١) : بالترادف ، أو المفعول المطلق ، أو لام التوكيـد ، أو النعت أو التذييل ، ونحو ذلك . وسبيل التأكيد في الكلام لا تسلك إلا لحكمة بلاغية وهي هنا علم المشرع بأن السامع يغلب ألا يلتقي هواه مع موضوع الكلام ، ورغبته - رغبة المشرع - في زيادة التنبيه على الصفح وتحسينه ، والندب إليه ، ليثمر ذلك التأكيد في نفوس الناس الذين قد يسمو على بعضهم ويعز هذا (الظلم النبيل) .

« فتاب عليكم ، وعفا عنكم » البقرة ١٨٧ « وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم » البقرة : ٢٣٧ ، « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس » آل عمران ١٣٤ ، « فاعف عنهم ، واصفح » المائدة : ١٣ ، « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » الأعراف : ١٩٩ ، « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم .. ويدرأون بالحسنة السيئة ... سلام عليكم بما صبرتم » الرعد ٢٢ ، ٢٤ « فاصفح الصفح الجميل » الحجر : ٨٥ ، وليعفوا وليصفحوا » النور : ٢٢ ، « وإذا ما غضبوا هم يغفرون ... فمن عفا وأصلح » . « ولمن صبر وغفر » الشورى ٣٧ ، ٤٣ « فاصبر كما صبر أولو العزم » الأحقاف ٣٥ « وإن تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا » التغابن : ١٤ ، « فاصبر صبرا جميلا » المعارج : ٥ ، « واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجرا جميلا » : ١٠ المزمل .

وانظر كذلك : أربعة وأربعين آية أخرى لا يحتاج البحث عن التأكيد فيها إلى كبير مجهود ؟

محمد مهدي علام

(١) جدير بنا أن نلاحظ أن التوكيد المصاحب لآيات العفو في القرآن الكريم ليس مقصورا على التوكيد النحوي . بل هو يشمل كذلك الأساليب البلاغيـة التوكيد ، إلى جانب ما أسميه (بالتوكيد الصرفي) وهو التوكيد بالصيغة الصرفية كاستعمال صيغ المبالغة بدلا من صيغة اسم الفاعل لما في الصيغ الأولى من دلالات التأكيد التي تخلو منها صيغة اسم الفاعل .

القرآن فى التربية الإسلامية

لصاحب الفضيلة الأستاذ نديم الجسر
" عضو المجمع "

يعتمد هذا البحث على كثير من الحقائق العلمية التى يقررها « علم النفس، وعلم وظائف الأعضاء » ليعطى صورة واضحة عن « الإنسان » فى تركيبه العضوى وبيانا شافيا عن كثير من غرائزه وميوله وعاداته موضحا خطر الجهاز العصبى من بين الأجهزة التى يتكون منها الإنسان .

وتعتبر تلك الحقائق كمقدمة يقرر بعدها الباحث عناية القرآن بالإنسان وتفصيلا وافيا لميوله وغرائزه وعاداته التى سبق بها القرآن الكريم علم النفس بقرون أربعة عشر ، وأدلى بها أكثر تفصيلا وشمولا ، وأوعى ترتيبة ، وأحزم أسلوبا فهى من العليم الحكيم الذى أحسن كل شىء خلقه .

وقد عنى الباحث بعرض نماذج من مكارم الأخلاق التى دعا إليها القرآن . كما أشار إلى غيرها مما نفر منه ، معقبا ذلك بتفصيل واف للمبادىء العامة والخاصة التى ترتكز عليها أساليب التربية فى القرآن والتى صار بها المسلم على بينة من هدى الله وسعة من خلق القرآن ، وتمتع بحرية لا ضرر فيها ولا ضرار .



الأستاذ نديم الجسر

وقد أعد الباحث رسالته فى ثمانية فصول لتكون منهجاً كافياً لاستيعاب بحثه حتى يمكن أن « نفهم الأخلاق والأوامر والنواهى والخطط والمناهج وطرق الإلزام التى وصفها القرآن فى التربية الإسلامية » ، وعلى ذلك كانت فصول البحث :

١ — « الإنسان » المراد تربيته .

٢ — بعض الحقائق العلمية فى علم النفس والتربية .

٣ — الغرائز والطبائع والميول فى القرآن.
٤ — الأخلاق فى القرآن .
٥ — مبادىء عامة من القرآن ترتكز عليها التربية وطرق الإلزام .
٦ — الأخلاق بين الغرائز والعقل وحرية الإرادة فى القرآن .
٧ — مناهج وأساليب التربية والتوجيه فى القرآن .
٨ — طرق الإلزام فى القرآن .

ونقدم من هذه الفصول الفصل الأخير وسينشر البحث كاملا فى الكتاب السنوى للمجمع .

طرق الإلزام فى القرآن :

من أعظم مزايا القرآن على غيره من الشرائع استكماله (طرق الإلزام) أى إلزام المكلف بتصديق ما قرره من الحق ، وتنفيذ ما شرعه من الأحكام ، والأخذ بما وصى به من مكارم الأخلاق ، والعزوف عما نهى عنه من مساوئها .

ولسنا ننكر أن الشرائع القائمة على الأرض اليوم تنطوى على الإلزام ، ولكنه إلزام سطحى ناقص ، يقف فى بعضها عند حدود الجرائم ولا يتناول الأخلاق ، ويقف فى بعضها عند نوع من الوعيد بعذاب الدنيا دون الآخرة ، ويسد فى بعضها باب الاقتناع العقلى ، فينتهى الأمر بالمكلف إلى أن يتسمم له طريق الغرور ، أو ينغلق عليه باب الأمل والرجاء ، أو ينفتح له باب الشك فى عدل الخالق وحكمته أو يترك كالأعمى لا يكاد يفرق بين الحق والباطل والنور والظلام .

أما القرآن فقد استكمل طرق الإلزام حين عددها ، ونوعها ، وشمها وفصلها وسلطها ، أول ما سلطها على عقل المؤمن ، ثم على قلبه وضميره ، ونفسه ، وغرائزه ، وطباعه ، وجسده ، فانتزع الدواء من مكمن الداء ، واستثار القوة من مركز الضعف ، وشمل بهذا الإلزام الكبائر والصغائر والأخلاق والآداب وفصل أبواب الترهيب والترغيب فى الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى ، وجعل الفرد رقيبا على نفسه وعلى المجتمع ، وجعل المجتمع رقيبا على الفرد ، وأعد المسلم لمعركة الحق والخير ، فى عقله ونفسه ، وصراع الحياة فى جسده فتمت بهذا الاستكمال لطرق الإلزام كلمة ربك صدقا وعدلا وعلما ورحمة وإحسانا فى قوله للمسلمين « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . ولا كمال لدين لا تكتمل فيه طرق الإلزام ، وطرق الإلزام التى وضعها القرآن تكاد ، عند المحصى لها ، تنحصر فى ستة أنواع :

١ — الإلزام بوازع العقل .
٢ — الإلزام بوازع الضمير .
٣ — الإلزام بوازع الترهيب والترغيب.
٤ — الإلزام بوازع الكفارات .
٥ — الإلزام بوازع الرأى العام فى المجتمع .
٦ — الإلزام بوازع السلطان .

الإلزام بوازع العقل :

من البدهى أن يكون الإلزام بوازع العقل أول طرق الإلزام وعمادها فى شريعة منزلة من الحكيم الرحمن ، وهذه البداهة مؤيدة بحقائق بدهية أخرى يأخذ بعضها برقاب بعض فى سلسلة مترابطة الحلقات ذكرها القرآن :

فالقرآن الذى بين أن الله إنما خلق الناس ليعبدوه ، وأنه يريد أن يبتليهم أيهم أحسن عملا ، هو القرآن الذى بين أن الله خلقهم أحرارا ، وبين أن لا إكراه فى الدين ، وهو الذى أكثر من ذكر البراهين العقلية ، كما سبق البيان وأكثر من ذكر الحكمة فى كثير من العبادات والمعاملات ، والأوامر والنواهى وهو الذى بشر من يؤتى الحكمة بالخير الكثير ، لذلك كان الاقتناع العقلى بصحة القضايا العقلية ، وبفائدة المبادىء والأحكام والتكاليف والأوامر والنواهى ، أول ضرب من ضروب الإلزام .

ولكن هذا الإقناع العقلى الحر الذى أمرنا به القرآن لا يجوز أن يطغى إلى حد الغرور الذى يجعلنا نخلط بين المستحيل عقــلا والمستحيل عادة ، فالمستحيل عقلا لا وجود له أبدا فى شىء من حقائق القرآن وأحكامه وأخباره ، أما المستحيل عادة فلا يجوز أن يبنى عليه الإنكار لأنه داخل تحت قدرة الله بل تحت قدرة العبد أحيانا ، كما رأينا فى أمور كثيرة كنا نعدها مستحيلة فى العادة ، ثم تمكنا منها بطريق العلم ، والأمثلة كثيرة ، وآخرها هذا الوصول إلى القمر .

وكذلك تقول عن شك البعض فى حكمة التكاليف . فإن حكمة كثير من التكاليف ظاهرة بالنص ، أو بما تحت النص من طرق الاستنباط العقلى ، فلا يجوز لنا فى بعض الأمور القليلة ، التى لا ندرك حكمتها ، أن ننكر نفعها ، بل علينا ، كما أمرنا أن نحمل المتشابه على المحكم ، ونحمل القليل الذى خفيت حكمته على الكثير الذى ظهرت حكمته وينفعنا فى هذا الباب أن نضع نصب أعيننا الآية السابعة من سورة (آل عمران) والآيات التى وردت فى (سورة الكهف من ٦٦ إلى ٨٣) عن قصة موسى مع العبد الصالح الذى علمه الله من لدنه علما ، لكى نتعلم ، بدورنا ، الصبر على ما لم نحط به خبرا ، وعلى ما لم نستطع عليه صبرا .

الإلزام بوازع الضمير :

إن الذين يكفيهم الإلزام بوازع العقل هم القلة من العقلاء الحكماء المفكرين الذين يعبدون الله لأنه يستحق العبادة ، ويطيعون أوامره لأنها ، بذاتها ، تستحق الطاعة ، أما الكثرة من الناس فلا يكفيهم وازع العقل ولكن ينفع معهم وازع الضمير . وهو من أعظم الزواجر ، ولا سيما فى الذنوب التى لا تنالها يد العدالة الأرضية ، والعيوب التى لا تراها أعين الناس ، وقد ركزه القرآن ، كما علمت ، على العقل ، وعلى الرقابة الإلهية ، والخوف على النفس والأولاد والأموال فى الدنيا ، وعلى الخوف من عذاب الآخرة

وعلى ركائز أخرى سبق بيانها وتفصيلها آنفا في تربية الضمير .

الإلزام بالترهيب والترغيب :

لقد سلك القرآن في الإلزام بالترهيب والترغيب طرقا كثيرة ومتنوعة: منها الترهيب بانتقام الله في الدنيا من العاصي للظالم الباغي في نفسه وأولاده ، وشدد على ذكر الأولاد لأن المصيبة فيهم أعظم عند المرء من مصيبته بنفسه ، وضرب الأمثال للمصيبة في الأموال والثمرات من التذكير بساعة الموت .

ومنها الترهيب بعذاب الله في الآخرة ، فأكثر من ذكر البعث وأكده، وأكثر من ذكر أهوال القيامة، وأكثر من ذكر عذاب النار، ووصفها بأوصاف تنخلع لها قلوب المؤمنين.

وفي الترغيب أكثر من الوعد بخير الدنيا وزيادته للشاكرين ، ومن الوعد بحفظ النعمة على الذين لا يغيرون ما بأنفسهم ، وأكثر من وصف نعيم الجنة ، وفصله تفصيلا يرغب المعتادين على الترف ، ويؤمل الصابرين على الشظف ، والمحرومين من خير الدنيا ونعيمها في المآكل والمشارب والمساكن والنساء والخدم . وهو وصف يعترض عليه بعض الجهال والمشككين الذين علا الزيغ قلوبهم . أما الذين يدركون خفايا النفس البشرية في شدة حبها للخير والنعيم ، ونقمتها من الحرمان ، فإنهم ليعلمون أنه وصف لازم وضروري وفي منتهى الحكمة .

الإلزام بوازع الكفارات :

ومن الأساليب التي امتاز بها القرآن على غيره أسلوب الكفارات الذي يفوض به الله إلى العبد نفسه أن يعاقب نفسه تكفيرا عن بعض الذنوب بعقوبة جسدية كالصوم أو عقوبة مالية كريمة كإطعام المساكين وعتق الرقاب . وفي هذا الأسلوب الفذ تربية للضمير ، وامتحان للإيمان ، وتعويد للعبد على محاسبة نفسه ، والاعتراف بذنبه والرضا بحكم ربه ، كما سبق البيان في تربية الضمير .

الإلزام بوازع الرأي العام .

وهذا أيضا أسلوب عظيم جدا من الأساليب التي امتاز بها القرآن في التربية الإسلامية . فقد حض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذم التاركين لها في آيات كثيرة تجعل هذا الواجب من الفروض العينية على كل مسلم ومسلمة بقدر الوسع والقدرة كما يفسرها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه) ولو اتبع المسلمون هذه الطريقة الفذة من طرق الإلزام، ولاسيما في النهي عن المنكرات الأخلاقية التي لا تنالها يد القوانين لما كانوا فيما هم عليه اليوم من سوء الحال الذي يجعلنا فتنة للذين كفروا . .

ويرتكز هذا النوع من الإلزام على ما قررناه في الفصل الأول من غريزة حب الظهور والرغبة في ثناء الناس ، والخوف من ذمهم واحتقارهم . . . فتأمل حكمة القرآن في

استخراج الدواء من مكمن الداء وتحويل طاقة الغرائز وإعلائها إلى الخير بنفس الأسلوب الذى اكتشفه علماء النفس والتربية بعد عصور طويلة . . .

(سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) .

الإلزام بوازع السلطان :

ولكن بعض الناس ، وهم القلة والحدقة ، لا ينفع معهم وازع العقل ولا وازع الضمير ، ولا وازع الترهيب والترغيب ، ولا وازع الضغط بنقمة الرأى العام فى المجتمع ، فكان لابد من وازع أعظم ، وهو وازع السلطان الذى قيل إن الله يزع به أحيانا ما لا يزع بالقرآن . وهو العقوبات المختلفة التى فرضها القرآن على بعض الجرائم وفوض أمرها إلى الحكام .

اجتماع الوازعات :

وهكذا نرى أن القرآن لم يكتف بنوع واحد من الوازعات أو بنوعين كما اكتفت الشرائع والقوانين الأخرى ، ولكن جمع الوازعات كلها حول الإنسان :

فوازع العقل وحده لا يكفى عند جميع الناس لما علمت من أن الذين يكتفون به هم القلائل ، بل النوادر ، من الحكماء الذين كادت خشية الله الكاملة تكون منحصرة بهم «إنما يخشى الله من عباده العلماء» ...

ووازع الضمير وحده لا يكفى لأن الضمائر قد تصل عند بعض المجرمين إلى حدود الموت والعدم .

ووازع الترهيب وحده لا يكفى عند كثير من المشككين ، أو الذين يحبون العاجلة أو الذين يستبعدون يوم القيامة ، أو الذين يغترون ويعتمدون على رحمة من الله من غير تفكير فى أن رحمة الله الواسعة لا تناقض عدله وحكمته البالغة .

ووازع الرأى العام وحده لا يكفى عند كثير من الغرقى فى بحار من الذنوب إلى آذانهم ، فلا يخافون البلل ، بعد أن جف فى وجوههم ماء الحياء من الله والناس ، بل قد يعترى هذا الوازع القوى كثير من الضعف إذا عمت البلوى حتى لم يعد أحد يستحيى من أحد ، ولا أحد يستطيع أن يعير أحداً . وهو ما كدنا نكون فيه اليوم ، ونعوذ بالله من أن تنزل بنا لعنته : «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» .

ووازع العقوبات التى ينزلها السلطان أيضا لا يكفى وحده ، لأن كثيراً من مساوىء الأخلاق لم يرد فى القرآن نص على عقوبتها ، ولأن بعض الجرائم قد يخفى عن عين السلطان أو يفلت من يد العدالة من ضعف الحكومة أو فقدان الأدلة ، أو فساد القضاء .

ولكن اجتماع الوازعات كلها حول الإنسان قد يكفى عند أكثر الناس وهذا ما فعله القرآن؟

نديم الجسر
عضو مجمع البحوث الإسلامية

تحديد الشهور القمرية

للأستاذ محمد على السايس
"عضو المجمع"

صور فضيلته ما يصيب المسلمين من قلق واضطراب من جراء اختلاف دولهم فى إثبات الأهلة ، ولا سيما هلال رمضان وشوال وذى الحجة ، وقد دفع هذا أحد أعضاء المجمع إلى أن يتقدم باقتراح بحث هذا الموضوع ، وأن المجمع قد أحال عليه دراسة هذا الموضوع ، وقد انتهى من بحثه إلى أن هذا الأمر ليس بعزيز المنال لأن علم الفلك - الآن - مبنى على حساب دقيق ، ولما اخترع من آلات دقيقة يسهل معها رؤية الهلال ، ولتقدم وسائل الإعلام .

وقد بنى بحثه على أربعة فصول وخاتمه ، وهى :

١ — آراء علماء المذاهب الإسلامية فيما يثبت به هلال رمضان وغيره من الشهور .

٢ — آراء العلماء فى اختلاف المطالع ، أيؤثر على ثبوت الهلال أم لا ؟ .

٣ — أنواع الحساب الفلكى قديما وحديثا ثم بيان ما يمكن التعويل عليه وما لا يمكن .

٤ — آراء العلماء فى جواز العمل بالحساب الفلكى .

وأما الخاتمة فلبيان الرأى المختار ، وما يجب أن تتبعه الحكومات الإسلامية حتى يرتفع الحرج والقلق من النفوس .

فضيلة الأستاذ محمد على السايس

الفصل الأول

بين فيه آراء الأئمة الأربعة فيما يثبت به هلال رمضان وغيره من الشهور .

وقد استعرض آراء علماء هذه المذاهب وأكثر من النقول عنهم وانتهى - أخيرا - إلى النتائج الآتية :

مذهب الحنفية : خلاصة الرأى فى هذا الموضوع ما يأتى :

١ — أن الخبر الخاص برؤية الهلال من قبيل الأخبار الدينية ، فيجب وجوبا كفائيا على من رآه أو بلغه الخبر بطريق شرعى أن يعلنه قياما بالواجب الدينى .

٢ — ثبوت الأهلة كلها لا تدخل تحت الحكم قصدا ، وأن حكم القاضى بالنسبة للهلال من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو من قبيل الفتوى .

٣ — أن أى شهر عربى يثبت - شرعا - برؤية هلاله ، أو بعد الشهر السابق ثلاثين يوما .

٤ — أنه يكفى فى ثبوت أى شهر خبر واحد عدل عدالة رواية فى حالتى الغيم والصحو ما لم يكن تفرده مظنة الغلط أو الكذب فلابد من عدد يحقق به غلبة الظن .

٥ — لا يشترط لفظ « أشهد » ولا نصاب الشهادة ، ولا ما يشترط فى الدعاوى إلا أن يكون المقصود بالشهر حق العباد .

مذهب الشافعية : حاصل مذهبهم أن الشهور التى فيها عبادة كرمضان وشوال وذى الحجة يكتفى فيه بشهادة واحد عدل ولا تقبل شهادة المرأة والعبد ، ولا بد من لفظ « أشهد » وأن تكون أمام قاض ينفذ حكمه ، ولا تشترط الدعوى ، لأنها شهادة حسبة .

وأما غيرها من الشهور فلا بد من نصاب الشهادة ، وإذا كان ثبوت الشهر لإثبات حق من حقوق العباد فيشترط فيه كل شروط الدعوى .

مذهب المالكية : أن ثبوت هلال رمضان وشوال من قبيل الأخبار الدينية ، فلا تشترط فيها سوى العدالة واشترط أكثرهم الذكورة ، كما اشترطوا شهادة عدلين ، ولا يشترط لفظ « أشهد » وأجاز بعضهم الاكتفاء بعدل واحد ، كما أجاز بعضهم قبول شهادة النساء مع رجل .

مذهب الحنابلة : حاصله : أنه يقبل فى هلال رمضان قول عدل واحد ، لافرق بين أن يكون بالسماء علة من غيم أو غيره أو كانت صحوا ، وسواء كان فى المصر أو خارجه وسواء انفرد به واحد من جماعة أو شاركته الجماعة ، وهو خبر لا شهادة ، ولا يشترط فيه لفظ الشهادة ويقبل فيه قول المرأة والعبد كسائر الأخبار .

ولا يقبل فى هلال رمضان خبر مستور ولا مميز .

وأما غير رمضان من الشهور ، فلا بد من رجلين عدلين بلفظ الشهادة .

الفصل الثانى فى اختلاف المطالع

اختلف العلماء فى أثر ذلك فى إثبات الشهور القمرية ، وحاصل هذه المذاهب ما يأتى :

مذهب الحنفية : ظاهر الرواية أنه لا عبرة باختلاف المطالع فإن ثبت عند أهل المغرب وجب الصوم على أهل المشرق .

وفى المذهب رأى آخر أن لاختلاف المطالع أثراً فى ثبوت الهلال ، وهذا الرأى هو ما اختاره الزيلعى شارح الكنز .

مذهب المالكية : فى هذا المذهب ثلاثة أقوال :

١ — وهو أشهرها أنه لا عبرة باختلاف المطالع قربت البلاد أو بعدت .

٢ — يعتبر اختلاف المطالع إذا ثبتت عند حاكم خاص فلا يعم الحكم إلا من كان فى ولايته دون غيرها .

(٣) يعتبر اختلاف المطالع بالنسبة للبلاد البعيدة جداً كالأندلس بالنسبة إلى خراسان .

مذهب الشافعية :

إذا تقاربت البلاد فحكمها حكم بلد واحد بلاخلاف ، وإن تباعدت فوجهان مشهوران أصحهما لا يجب الصوم على أهل البلاد الأخرى .

مذهب الحنابلة : أساق عنهم قولا واحداً وهو أنه لا عبرة باختلاف المطالع فى ثبوت هلال رمضان وسكت عن غيره من الشهور

مذهب الشيعة الإمامية والزيدية :

وقد اختلفوا فنهم من اعتبر اختلاف المطالع سبباً لاختلاف الأحكام ومنهم من عمم ، واعتبر ثبوت الهلال فى بلد حكماً عاماً فى جميع البلدان وهذا ما استظهره الشوكانى .

وانتهى فضيلة الأستاذ إلى استظهار أنه لا عبرة باختلاف المطالع وأخذ يناقش أدلة المخالفين ويفندها ، وأهم ما نعرض له بيان أنه لا صعوبة على الأمم الإسلامية أن تأخذ بهذا المبدأ ، وأن وسائل الإعلام الحديثة يسرت الأمر على الناس .

ولو فرض أن الهلال رؤى بمراكش — وهى آخر الحكومات الإسلامية غرباً — وأبلغت هذا النبأ بعد المغرب عندها إلى أقصى البلاد الإسلامية شرقا — وهى الفلبين وأندونيسا ، فإنهم يستطيعون أن يأخذوا أهبتهم للصيام من سحور وعقد نية ؟ لأن هذا النبأ يصلهم — كما يقول فضيلته — قبل شروق الشمس بثلاث ساعات أعنى قبل بزوغ الفجر بحوالى ساعة ونصف الساعة ، وهذا وقت كاف للسحور وعقد النية .

الفصل الثالث

فى طرق إثبات الشهر بالحساب الفلكى

استعرض — فضيلته — طرق الفلكيين — قديما وحديثاً — فى إثبات الشهور القمرية وهى ترجع إلى طريقتين :

الأولى : تعتمد على الوضع الاجتماعى للشمس والقمر ، فإن القمر والشمس يجتمعان كل شهر مرة ، وهؤلاء يعتبرون مبدأ الشهر من حين الاجتماع سواء كان الاجتماع ليلا أو نهاراً ، وهذه الطريقة ألغاها الإسلام .

الثانية : أن يجبر الكسر كلما زاد عن نصف

يوم فيصير المحرم ثلاثين وصفر تسعة وعشرين ، وربيع الأول ثلاثين ، والثانى تسعة وعشرين وهكذا . وفى السنة الكبيسة يجعل ذو الحجة ثلاثين يوما .

ونقل فضيلته عن السبكى : أن علم الهيئة يقتضى لجبر الكسر أن تكون الأشهر الناقصة ستة والكاملة مثلها وتارة مثلها وتارة تكون الناقصة خمسة والكاملة سبعة ، وليس فى الشرع ما يرد ذلك .

وانتهى فضيلته إلى أن الوضع الهلالى لا يسبق الموضع الاجتماعى .

الفصل الرابع

فى بيان آراء العلماء فى الاعتماد على الحساب

استعرض آراء الفقهاء فى هذه المسألة ، وبين أن المسألة محل أخذ ورد وفيها مجال للاجتهاد ، فليست من المسائل المجمع عليها .

ثم بعد ذلك ختم هذا الفصل من البحث بما حاصله أنه لا غضاضة من صحة الاعتماد على الحساب الموثوق بصحته ثم رد على ما تعلق به البعض من قوله صلى الله عليه وسلم : « من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد » وبين أن هذا فى علم النجوم الاستدلالى المبنى على التخرصات والتكهنات ، وهو ما يستدل بمطالع النجوم على الحوادث المعينة كموت إنسان أو رخاء أو غلاء أو غير ذلك .

* * *

وانتهى فضيلته إلى القول : بأنه لا مناص لنا من الاعتماد على الحساب الفلكى ، إن لم يمكن لإثبات الشهر بادىء ذى بدء فللإثبات إن رؤية الهلال ممكنة أو غير ممكنة لتقبل الشهادة أو ترد .

* * *

الخاتمة فى خلاصة البحث

وبيان أيسر السبل لإثبات الأهلة

تبين من كل ما تقدم فى هذا البحث أن الراجح ما يأتى :

أولا : أن إثبات الشهور فى حد ذاته من غير نظر إلى ما يتعلق به من حقوق العباد من باب الإخبار لا من باب الشهادة وأنه لا يدخل تحت الحكم والقضاء فلا تلزم فيه شروط الشهادة ويستوى فى المخبر أن يكون ذكرا أو أنثى حرا أو عبدا ولا يشترط مجلس الحكم ولا تقدم الدعوى ولا قضاء قاض ولا أمر حاكم ولا لفظ (أشهد) ويكفى أن يكون المخبر مستورا غير ظاهر الفسق .

ثانيا : أن الشهور جميعا سواء فى حالة الصحو أو الغيم يكتفى فى إثباتها خبر الواحد متى غلب على الظن صدقه ولم يكذبه الحساب الموثوق به القاضى باستحالة الرؤية وأنه لا تشترط الاستفاضة ولا العدد الجم

إلا عند مظنة الغلط أو الخطأ أو رجحان تهمة الكذب .

ثالثا : أنه لا عبرة لاختلاف المطالع فإذا ثبت الشهر فى أية حكومة إسلامية ونقل هذا الثبوت إلى سائر البلاد الإسلامية بطريق موثوق به فإنه يعم حكمه الجميع ما داموا مشتركين مع بلد الرؤية فى جزء ولو يسير من ليلة الرؤيا .

رابعا : أنه لا يصح التعويل فى إثبات الشهور على قواعد الفلكيين القدماء فيما قبل عصر النهضة الإسلامية فى العصر العباسى لأنها قواعد تقريبية ظنية غـــير متيقنة ولا منضبطة كما لا يصح التعويل على الجداول الفلكية التى تجعل بعض الشهور ثلاثين يوما أبدا وبعضها ٢٩ يوما أبدا فقد تبين خطؤها وأنه قد تتوالى أشهر كلها ثلاثين وأشهر كلها تسع وعشرون .

كما ثبت أن الحساب الفلكى المعمول به الآن فى التقاويم الرسمية وغيرها لا يتفق مع الحساب الشرعى الذى يعتمد على القطـــع بالرؤية أو إمكانها على الأقل لأن التقاويم الحالية تعتمد فى تعيين أوائل الشهور على اجتماع الشمس والقمر فيجعلون أول ليلة يغرب فيها القمر بعد غروب الشمس هى أول الشهر ولو استحالت الرؤية . ومن المقرر أنه قد يتفق الحسابان وذلك فيما إذا غرب القمر بعد الاجتماع قبل الشمس أو معها فيكون أول الشهر الليلة التالية لليلة الواقعة بعد الاجتماع وقد يتقدم أول الشهر بالحساب الفلكى الاجتماعى على أدلة بالحساب الفلكى الشرعى المبنى على إمكان رؤية الهلال بيوم فى الأكثر أو بيومين فى الأقل .

ويلزم على الأخذ بهذه التقاويم أن تتغير أوقات العبادات عما حدده لها الشارع وبالتالى يلزم إحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله فقد حرم الله صوم أيام العيدين وأيام التشريق وأحل الفطر فى شعبان كما يلزم عليه أن يكون الوقوف بعرفه فى غير التاسع وأن تذبح الأضاحى قبل وقتها .

خامسا : أن الحساب الفلكى الشرعى المبنى على الوضع الهلالى وإمكان رؤيته بعد غروب يوم ٢٩ من الشهر السابق بحساب الرؤية يصلح مناطا مستقلا لإثبات الشهر كما اختاره طائفة من العلماء الأثبات ممن ذكـــرنا كالسبكى وابن سريج وابن مقاتل وغيرهم ورجحه الشيخ بخيت المطيعى ، وأن ذلك لا يتنافى مع أحاديث إثبات الشهور بالرؤية أو الإكمال بناء على أن المراد العلم بالرؤية لا حقيقتها ، بدليل وجوب الصوم على الأعمى والمحبوس فى المطمورة وسكان القطبين والبلاد التى فى حكمها وهم محرومون من الرؤية حتما ويدل على ذلك أيضا ما جاء فى بعض روايات

الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم فإن غم عليكم فاقدروا له ، فقد فسر من يرى من العلماء الأخذ بالحساب القطعى قوله صلى الله عليه وسلم: فاقدروا له بمعنى فانظروه وتتبعوه فيه من قولهم : قدرت الأمر نظرت فيه وتدبرته وذلك بالحساب عند من خصهم الله بهذا العلم قال السبكى : والبحث فى الحديث فى موضعين: أحدهما قوله : فاقدروا له ، قال بعض من يقول باعتماد الحساب : معناه أحسبوا له ا هـ ، ويكون معناه قدروه بالحساب والمنازل كما قال تعالى : « وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب» ، قاله مطرف بن عبدالله من التابعين وابن قتيبة من المحدثين وابن سريج من الشافعية وابن مقاتل من أصحاب محمد ابن الحسن وطائفة من المتأخرين قالوا : ولا يلزمنا مقال (المازرى) من أن الناس لو كلفوا بالحساب ضاق عليهم لأنه لا يعرفه إلا أفراد قلائل لأنه إنما يلزم ذلك لو كلف عامة الناس بالحساب ولم يقل بذلك أحد بل الذى قلناه أن قوله صلى الله عليه وسلم « فاقدروا له » بالمعنى الذى اخترناه خطاب لمن خصه الله بهذا العلم . وقوله « فأكملوا العدة ثلاثين يوما » كما فى الرواية الأخرى خطاب للعامة.

فالذين خصهم الله بهذا العلم يكون نظرهم بالطريق المقدور لهم وهو طريق الحساب ويكون نظر العامة الذين لايعرفون الحساب أولا يقلدون من يعرفه بالطريق المتيسر لهم وهو الرؤية أو إكمال العدة فلا تنافى بين الروايتين بل نحن نزلهما على حالين مختلفين فنكون عاملين بهما .

سادسا : يجب وجوباً كفائياً كما قلنا أن يكون فى كل حكومة إسلامية هيئة شرعية لإثبات الشهور العربية بوجوه الإثبات المعتبرة شرعا مع مراعاة الاتصال بالمراصد والفلكيين العدول الموثوق بهم فى دينهم وعلمهم ليتحققوا من جواز الرؤية أو استحالتها حتى لا يقعوا فى الخطأ ويثبتوا الشهر قبل موعده كما حصل فى بعض السنين من قاضى الرؤية المنفرد بهذا الإثبات وترتب عليه صيام المسلمين يوما من شعبان وفطرهم يومين من رمضان .

سابعاً : ليتحقق الأمل المنشود وهو توحيد أوائل الشهور العربية فى جميع البلاد الإسلامية يجب أن ينبه ناشروا التقاويم الرسمية وغيرها إلى أنه يلزمهم أن يبنوا تحديد أوائل الشهور القمرية على الوضع الهلالى الحقيقى فيكون أول الشهر هو أول ليلة يمكن أن يرى فيها الهلال بعد الاجتماع وأن يراعى خط عرض مراكش وهو ١٥ درجة (غرب جرينتش) لتكون تقاويمهم هلالية شرعية عالمية مساندة ومنظمة لعملية الرؤية فى جميع الحكومات الإسلامية .

والله الموفق للصواب ؟

محمد على السايس
عضو مجمع البحوث الإسلامية

توصيات الفترة الأولى[١]

لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الثالث

بتوفيق من الله تعالى اختتم مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية المرحلة الأولى من دورته الثالثة التي بدأت ظهر يوم الجمعة الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٦ هـ الموافق ٣٠ من سبتمبر ١٩٦٦ بتلك التوصيات :

١ — تنبيه المسلمين في جميع أقطار الأرض إلى أن العمل الجدي الدائب على إنقاذ فلسطين من أيدي الصهيونيين الباغين الغاصبين هو فرض في عنق كل مسلم ومسلمة وتحذيرهم من فتنة المروق من الإسلام بالتعاون مع الصهيونيين الغاصبين الذين أخرجوا العرب والمسلمين من ديارهم ، أو التعاون مع الذين ظاهروا على إخراجهم ، وتوكيد ما تقرر في المؤتمر الثاني من دعوة الدول الإسلامية التي اعترفت بإسرائيل إلى سحب اعترافها .

٢ — أن تتضافر جهود المسلمين ، حكومات وأفراداً ، على توجيه حياتهم العامة والخاصة وجهة إسلامية سليمة على أساس متين من تعاليم الدين الحنيف في نظم الحكم والإدارة والقضاء ، حتى يصلح المواطن المسلم ، وحتى يتحقق بصلاح الأفراد ذلك المجتمع الإسلامي الكريم المؤمن بربه ، والمعتز بدينه والقادر على الوقوف في وجه تيارات الإلحاد والغزو الفكري والأخلاقي .

٣ — تهيئة أسباب هذا التقويم الفردي ، والاجتماعي ، والسياسي ، وفي مقدمة تلك الأسباب إحياء التراث الإسلامي والتعريف الصحيح بالإسلام عقيدة وشريعة ، وعلى مختلف مستويات التلقين والتعليم والتثقيف .

٤ — يطلب المؤتمر إلى مجمع البحوث الإسلامية العمل على تكوين هيئة دائمة تحمل مسئولية التعريف بالإسلام وتوجيه البرامج الدراسية والثقافية الوجهة الإسلامية الصحيحة .

٥ — كما يطلب إليه العمل على إنشاء صندوق يسهم المسلمون كافة في تمويله للإنفاق منه على التعريف بالإسلام ونشر الثقافة الإسلامية وإحياء التراث الإسلامي وإنشاء المراكز الإسلامية وما إليها .

٦ — ويطلب إليه أيضاً العمل على وضع موسوعة مفهرسة للأحاديث النبوية تتولى تحقيقها لجنة خاصة حتى يكون رجوع الناس إلى المصدر الثاني في الإسلام أمراً مأمونا وميسراً .

٧ — العمل على تطهير المجتمعات الإسلامية من الغزو الفكري والأخلاقي وإرشادها إلى كمال التعاليم الإسلامية وصلاحها لحل مشكلات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتوجيها نحو جمال الأخلاق الإسلامية

الأصلية - ووضع سلسلة كتب مبسطة فى هذا السبيل وترجمتها إلى اللغات الحية الكبرى .

٨ - توكيد توصية الدول الإسلامية بتعليم اللغة العربية لغة القرآن فى مدارسها لتيسير مشاركة غير العرب من المسلمين فى دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية .

٩ - يناشد المؤتمر السلطات ذات الاختصاص فى مختلف الدول الإسلامية أن تعمل على تنقية تشريعاتها ونظمها من كل ما يخالف حكم الإسلام ، وأن ترد هذه التشريعات والنظم إلى كتاب الله وسنة رسوله مستعينة بكل مستحدث صالح من فكر أو حكم لا يعارض أصلا من أصول الدين .

والله ولى التوفيق ، وعلى الله قصد السبيل ؟

قرارات وتوصيات الفترة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم يصدر المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية - فى فترته الثانية ، بعد دراسة الموضوعات التى عرضت عليه - القرارات والتوصيات الآتية :

فى السنة النبوية :

١ - يعلن المؤتمر للعالم الإسلامى حجية السنة وأنها المصدر الثانى للتشريع فى الإسلام بعد كتاب الله عز وجل :

ويوصى المسلمين بالتمسك بها والعمل بمقتضاها فى التربية والمعاملة والسلوك، منوها بما كان لها إلى جانب القرآن الكريم من الأثر البالغ فى تكوين الفكر الإسلامى ، وبناء الحضارة الإنسانية ، وصيانة المجتمع من عوامل القلق والانحلال .

٢ - والمؤتمر إذ يكبر الجهود العظيمة التى بذلها العلماء فى تدوين الحديث والتحرى فى روايته يلفت نظر الشباب والنخبة المثقفة إلى المنهج القويم لعلماء الحديث ، وتثبتهم فى جمعه ونقده ، بما لا مثيل له عند أمة من الأمم الأخرى ، الأمر الذى ظهرت نتائجه فى أساليب النقد التاريخى والأدبى والاجتماعى ومن ثم فإن هذا التراث العظيم ، تراث السنة حرى بأن يكون مصدر نور وهداية ، ومبعث فخار واعتزاز لأمتنا الإسلامية .

٣ - يطلب المؤتمر إلى مجمع البحوث الإسلامية أن يعمل على جمع الأحاديث التى قد يظن أن ظاهرها غير مراد ، وعلى تحقيقها وذلك عن طريق البحث فى أسانيدها والنظر فى متونها ، وفق ما وضعه علماء الحديث لذلك من أسس وموازين كفيلة بتوضيح درجتها ثم يعمل على شرحها .

فى التأمين والمعاملات المصرفية :

١ - يقرر المؤتمر فيما يتعلق بمختلف أنواع التأمين لدى الشركات أن يستمر المجمع

فى استكمال دراسته للعناصر المالية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة، وأن يستمر فى الوقوف على آراء علماء المسلمين فى الأقطار الإسلامية بالقدر المستطاع، حتى يتهيأ استنباط أحكام كل نوع من أنواع هذا التأمين.

أما التأمين التعاونى والاجتماعى - وما يندرج تحتهما من التأمين الصحى ضد العجز والبطالة والشيخوخة وإصابات العمل وما إليها - فقد قرر المؤتمر الثانى جوازه.

٢ — يقرر المؤتمر أن (الكمبيالات) الخارجية، قد تبين بعد الدراسة، أنها فى واقعها لا تخرج فى حكمها عن الحكم فى (الكمبيالات) الداخلية من جوازها شرعا، عدا ما قد يكون فيها من الربا فإنه محرم شرعا، وعدا ما يتصل بها من التأمين الذى لم يستنبط حكمه بعد.

٣ — يطلب المؤتمر إلى المجمع مواصلة دراسة البديل المصرفى الإسلامى، وطريقة تنفيذه مستعينا فى ذلك بآراء رجال الاقتصاد.

فى تحديد أوائل الشهور القمرية :

١ — يقرر المؤتمر ما يلى :

(ا) أن الرؤية هى الأصل فى معرفة دخول أى شهر قمرى كما يدل عليه الحديث الشريف.

فالرؤية هى الأساس، لكن لا يعتمد عليها إذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا.

(ب) يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة، كما يكون بخبر الواحد ذكرا كان أو أنثى، إذا لم تتمكن التهمة فى إخباره لسبب من الأسباب ومن هذه الأسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق به.

(ح) خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به، أما إلزام الكافة فلا يكون إلا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الإسلامية للنظر فى ذلك.

(د) يعتمد على الحساب فى إثبات دخول الشهر إذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما.

٢ — يرى المؤتمر أنه لا عبرة باختلاف المطالع وإن تباعدت الأقاليم متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية وإن قل، ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الأقاليم التى لا تشترك فى جزء من هذه الليلة.

٣ — يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الإسلامية أن يكون فى كل إقليم إسلامى هيئة إسلامية يناط بها إثبات الشهور القمرية مع مراعاة اتصال بعضها ببعض، والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهم.

فى الذبائح والهدى :

١ — يعلن المؤتمر أن الذبائح من هدى وغيره فى موسم الحج شعيرة من الشعائر الإسلامية وعبادة دينية لها أهدافها الاجتماعية ولا يجوز لمن يكون قادرا عليها أن يستبدل بها غيرها من القربات، أما غير الواجد فإنها

غير واجبة عليه ، والواجب عليه هو ما أحله الله عليها من الصوم .

٢ — يهيب المؤتمر بجماعة المسلمين فى كل الأقطار شعوبا وحكومات أن يتعاونوا على دفع المضار التى قد تكون فى موسم الحج بسبب هذه الذبائح ، وعلى أن تأتى بثمراتها ومنافعها التى أرادها الشارع ، وأن يتخذوا السبل المؤدية إلى ذلك .

فى الاجتماع والاقتصاد :

١ — يقرر المؤتمر :

(ا) بما أن الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ، تحدد الحقوق والواجبات فإنه من الخير للإنسانية أن تنفذ كل نظمه التى جاء بها القرآن والسنة فى المعاملات بكل شعبها وفى الزواجر الاجتماعية ، فإنها تحمى الفضيلة وتدفع الفساد والشر .

(ب) أن الإسلام لا يفرق بين الناس بالألوان أو الأجناس أو الأقاليم ، وأنهم جميعا سواء فى أصل الحقوق والواجبات .

(ج) ويقرر: أن العلاقات الدولية يجب أن تقوم على أساس العدالة واحترام الكرامة الإنسانية ، والوفاء بالمعاهدات العادلة ، وبطلان كل اتفاق يقوم على ظلم الضعفاء .

(د) ويقرر وجوب التعاون العادل بين الناس فى الانتفاع بخيرات الأرض ، بحيث يسهل على أهل كل إقليم الانتفاع بفائض ما ينتج غيره من غلات الأرض ومعادنها ، وما تنتجه مصانعها من غير غبن لأحد .

(هـ) يقرر الإسلام العدالة الاجتماعية التى تقوم على العمل المنتج وتهيئة الفرص المتكافئة ، ليتمكن كل من أن يعمل بما تتسع له طاقته ، وأن كل عامل ينال ثمرة عمله ، وأن العمل عبادة ، وأن الناس إذا تفاوتوا بالغنى والفقر ، فإنه لاطبقية فى الإسلام بالنسبة لأصل الحقوق والواجبات ، والمساواة فيها مساواة كاملة .

(و) إن تعاليم الإسلام قد اشتملت على أحكام فى تنظيم الجانب الاقتصادى يتألف من مجموعها نظام اقتصادى متكامل ، يمتاز عن النظم الاقتصادية الأخرى ، ويحمى الإنسانية من مساوئها .

ويرى المؤتمر أن الأخذ ببلوغ الكفاية الإنتاجية . وتحقيق العدالة الاجتماعية ، مع التمسك الكامل بالمنهج الدينى ، والقيم الروحية هو تطبيق سليم فى هذا العصر لتوجيهات الاقتصاد الإسلامى وأحكامه الاجتماعية .

٢ — يطلب المؤتمر إلى المجمع أن يعنى عناية تامة بالتراث الإسلامى وبالوثائق والعهود التى اشتملت على التوجيهات الرشيدة ، فيجمع ما تفرق من نصوصها لينتفع بها الدارسون والطلاب ، كما يوصى بأن تترجم هذه النصوص وما يتصل بها إلى مختلف لغات الأمم الإسلامية وبعض اللغات الحية .

والله ولى التوفيق ؟

مع العلماء الوافدين

للأستاذ سعد عبد المقصود ظلام

كان اللقاء مثمرا ومؤثرا ومثيرا فى الوقت نفسه ، مثمرا بما أحرز من نتائج وما تغيا من أهداف وغايات ، ومؤثرا بكل معانى الود والتسامح والإخاء والوفاء، ومثيرا كل مفاهيم الحق والخير والجمال كان لقاء فى قلب كل مسلم وروحه ، وعناقا ماثلا فى صميمه وبين حناياه ، لقد أدرك العلماء حقيقة دورهم ومعنى وجودهم ، وما يتطلبه منهم مستقبل دينهم فكانوا على مستوى العمل لبنات صالحة وجنودا مخلصين أرقوا ـ فى الله ـ أعينهم، وذوبوا مساهم وصباحهم من أجل أن تنبت الكلمة الفاهمة وتستوى فكرة فيها حيوية الدفع ، ووعى المرحلة ، وهمة القادة الرواد .

ولذلك لا نعجب إذا وجدنا العالم بأسره يشده جو المؤتمر وتهزه روعة اللقاء الكبير فتطلع إليه فى دهشة وأهمية بالغتين ، ووجدنا سمائة مليون من المسلمين فى بقاع الأرض كلهم عين تنظر وتتطلع بشوق إلى مؤتمر علمائهم وما يسفر عنه من توصيات وقرارات ويرون فيها شحنة من الأمل موجبة وزادا من الخير زاخرا وعظيما .

العراق :

ولقد كان أول لقاء لنا مع فضيلة الشيخ عبد الله الشخيلى من علماء السنة فى العراق الشقيق واستطلعنا رأى فضيلته فى انطباعاته عن الأزهر والمؤتمر والبحوث :

وأجاب فضيلته فى شىء من الثقة قال : لقد أوضحت فى الكلمة التى ألقيتها فى المؤتمر أن المسلمين فى جميع البقاع يعلقون أكبر الآمال على الأزهر وعلى مؤتمره لا سيما وأنه يضم النخبة الممتازة من أئمة الفقه من مختلف المذاهب وذوى الرأى والعلماء المتخصصين فى مجالات الفكر ولقد اتسمت مناقشاته بالتسامح من أجل الوصول إلى الحقيقة أما البحوث فقيمة مفيدة وكلها مما يتصل بحياة المسلمين والنهوض بهم وأخص بالذكر البحوث الآتية :

١ ـ مكانة السنة من الاستدلال :
لفضيلة الشيخ على الخفيف

٢ ـ المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام
لفضيلة الشيخ محمد أبى زهرة

٣ ـ وثيقتان من الأدب الإسلامى
للأستاذ محمد خلف الله أحمد

وأتمنى أن تبحث، فى العام القادم، المعاملات المصرفية والتأمين والبنوك لأن المسلمين فى أمس الحاجة إليها .

وسألت فضيلته أيضا عن رأيه فى التقارب بين المذاهب الإسلامية جمعا للكلمة وتوحيداً للرأى .

وأجاب فضيلته : إذا كان المقصود من التقارب بين المذاهب أن يتغلب أحدها على الآخر أو على بقية المذاهب فذلك أمر لا يمكن تحقيقه لأن المذاهب قامت على النظر والاجتهاد وليس بالمستطاع جمع المسلمين على رأى واحد فى جميع الأمور أما إذا أريد التعايش السلمى على أساس من الاحترام المتبادل وأن لا يؤثر اختلافهم فى الفهم والنظر والاجتهاد على علاقات الود والإخاء فذلك ممكن التحقيق إذا حسنت النيات وخلصت الأعمال بل هو واجب ينبغى أن تتضافر الجهود للوصول إليه ، وفى اعتقادى أن المسلمين إذا تركوا التعصب الأعمى للمذاهب وتمسكوا بأصول الإسلام الأساسية فإنهم سوف يصلون إلى هذا الهدف النبيل .

الصومال :

كان لقاؤنا مع الصومال البلد الإسلامى العظيم ممثلا فى السيد الأستاذ إبراهيم حاشى محمود ... والأستاذ إبراهيم أزهرى تخرج فى كلية اللغة العربية عام ١٩٥٦ وهو رئيس حزب نصر الله ومدير القسم العربى بوزارة الاستعلامات الصومالية وقد مثل الصومال فى المؤتمرات الثلاثة لمجمع البحوث الإسلامية .

قابلنا سيادته بالترحيب الأخوى واجهن له إقامة حافلة بالبهجة والأمل وسألناه عن رأيه فى الأزهر والمؤتمر والبحوث وعن الآمال التى يعلقها الشعب الصومالى المسلم على هذا المؤتمر .

وابتسم فى تفاؤل وأجاب : الأزهر أمل المسلمين والحصن الأمين للتعاليم الإسلامية واللغة العربية ، ولى شرف التخرج فيه سنة ١٩٥٦ من كلية اللغة العربية ، أما البحوث فقد أخرتنى الظروف عن الاستماع إليها ... ولكن الذى أود أن أؤكده هو أن الشعب الصومالى يعلق آمالا كبيرة على الأزهر وعلى المؤتمر ثم طلب أن يخصص المسئولون فى الأزهر المنح الدراسية السنوية لأبناء الأوجادين ، من المنطقة المحتلة فى الصومال من الحبشه ـ باسم حزب نصر الله الصومالى وأن يزيدوا عدد المعاهد الأزهرية فى الصومال إلى جانب معهدى « مقديشو » وبرعو ليواجهوا بذلك الحركات المعادية للإسلام .

وسألته سيادته : بمناسبة الحركات المعادية للإسلام ـ ما رأيكم فى الحركات التبشيرية

الرامية إلى نشر المسيحية فى إفريقيا .. وهل حققت هذه الحركات أغراضها .. وما هى وسائلها فى ذلك ؟

فأجاب بأن الحركات التبشيرية فى إفريقيا جرثومة خبيثة تستهدف عرقلة انطلاق الإسلام وزحفه فى القارة السمراء وهى رائدة الاستعمار العالمى فى كل بلد حل فيه تحت ستار دينى .

ولقد ركز التبشير جهوده فى إفريقيا لأن معظم سكانها من السود لم يكن لهم دين سماوى أو حضارة موروثة فأرادوا تحويلهم إلى المسيحية بإمكانياتهم الهائلة ووسائل الإغراء .

أما الوسائل التى يستخدمها التبشير فهى إنشاء المستشفيات والمدارس التى يكون لها فى الغالب أقسام داخلية وإرسال خريجى هذه المدارس إلى البلاد الاستعمارية ليكملوا تعليمهم هناك . ثم بعد ذلك يتولى هؤلاء الخريجون أمر البلاد أنصاراً للاستعمار .

ولكن المبشرين لم يحققوا أغراضهم لافى الصومال ولا فى إفريقيا إلا فى النذر اليسير ولم تتأثر الدعوة الإسلامية به بل سارت وما تزال تسير فى طريقها المقدس ، واقترح لمقاومة هذه الحركات التبشيرية ونشر الإسلام افتتاح مدارس ومعاهد تابعة للأزهر فى مختلف البلدان وتوسيع نشاط مجمع البحوث الإسلامية بحيث يرسل دعاة متخصصين إلى جميع البلاد الإفريقية .

موريتانيا :

وقد مثلها فى المؤتمرات الثلاث للمجمع فضيلة الشيخ محمد سالم عبد الودود الأستاذ بالمعهد الإسلامى العالى « بتلميد » سابقا ورئيس المحاكم الابتدائية للأحوال الشخصية ،

وسألنا فضيلته : متى استقلت الجمهورية الاسلامية الموريتانية ومتى سميت بهذا الاسم ؟ وما اسمها الأول ؟ وما اللغة الرسمية لها ؟

وبهدوء أجاب : استقلت استقلالا داخلياً فى نطاق مجموعة الدول الناطقة باللغة الفرنسية ، وتسمت بهذا الاسم سنة ١٩٥٨ ونالت سيادتها التامة سنة ١٩٦٠ وكان اسمها الأول « شنقيط » باسم أقدم مدن البلاد وفى عهد الاحتلال سميت باسم مستعمرة موريتانيا ، وفى يوم الاستقلال سميت باسم الجمهورية الإسلامية الموريتانية ، وجميع المواطنين مسلمون وفى كل حى من أحياء المدن والقرى مسجد ، والمساجد كثيرة وتعتبر فى الوقت نفسه دور العلم الإسلامى . أما اللغة الفرنسية فلا تزال اللغة الرسمية وقد بدأت الدولة فى تعليم اللغة العربية بالتدريج .

وعدت أسأل فضيلته عن دراساته والمعهد الذى تخرج فيه ، وما انطباعاته عن الأزهر والمؤتمر والبحوث وانطباعات الشعب الموريتانى .

وقال : دراساتي إسلامية عربية بحتة ، أما المعهد الذي تخرجت فيه فهو ـ والده ـ أبي.

واستأنف قائلا : أما الشعب الموريتاني فيرى في الأزهر الحافظ الأمين على التراث الإسلامي والعربي، ويرى في مؤتمرات المجمع أنجح وسيلة لحل مشكلات المسلمين وإحياء الصلات بينهم وتوحيد صفوفهم ، وأطالب الأزهر بمزيد من توجيه البعثات والمؤلفات وقبول الطلاب الوافدين من « موريتانيا » وتخفيف شروط قبولهم حتى يمكن بناء دولتنا على أساس عربي.

أما في رأيي فقد نجح المؤتمر أبعد حدود النجاح ، وأرجو أن يبحث في الدورة القادمة الاستغناء بالتشريع الإسلامي عن التشريع المستورد . هذا إلى جانب البحوث كلها المفيدة والهامة مثل ذبائح غير المسلمين بها في البلاد غير الإسلاميـــة ـ والاستغناء بالوسائل العصرية في الذبح عن الزكاة . إلى جانب المعاملات المصرفية والتأمين .

وشكرنا لسيادته هذا اللقاء الطيب المثمر وتمنينا له وفادة كريمة وإقامة هنيئة .

غزة :

قابلنا من الذين مثلوها في المؤتمر فضيلة الشيخ محمد حسن عواد عضو المحكمة الشرعية ورئيس تحرير مجلة (نور اليقين) .

قلت لفضيلته : فلسطين قبلة المسلمين الأولى فهل ترون أن العصابات اليهودية امتداد للحرب الصليبية ؟ ثم إننا نقرأ في التاريخ أن الأندلس لم تضع من أيدينا إلا عندما تخاذلت الكلمة المسلمة وذهب ريح المسلمين بالتفرق والتباغض فهل يمكن أن نطبق هذه الظاهرة علينا اليوم ؟ بمعنى أنه لو اتفقت كلمة العرب والمسلمين ستعود فلسطين إلى شعبها وسيعود إليها شعبها .

وابتدأ فضيلته في الحديث ليجيب : لاشك أن العصابات اليهودية امتداد للحركات الصليبية فلم يكن الهدف الحقيقي وراء هذه المؤامرات الاستعمارية الصهيونيـة هو فقط إقامة جسر للاستعمار في قلب الوطن العربي بل كان الهدف هو مواصلة الحروب الصليبية الحاقدة إلى غايتها من توهين للعقيدة الإسلامية وملاحقـــة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . وقد جاء في مقال نشره المستشرق الفرنسي « هانوتو » مستشار الخارجية الفرنسية بعـــد احتلال فرنسا للجزائر وتونس قوله : « إن أهداف الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر تركزت في استرداد بيت المقدس من المسلمين » .

وعندما دخل الجنرال « غورت » مدينة دمشق في الحرب العالمية الأولى توجه توا إلى قبر البطل الناصر « صلاح الدين » ووقف

أمام جثمانه وأخذ ينفث من حقده الأسود قائلا : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » .

أما الجنرال الإنجليزى اللورد « اللنبى » فقد كان مزهواً ومتفائلا حينما وقف على مشارف القدس وهو فى الطريق إليها وأدلى بتصريح يقول فيه : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

وإذا كانت الأندلس قد ضاعت لتفرق الصفوف وتخاذل الكلمة كما ضاعت فلسطين فبفضل توحد الكلمة والتحام الصفوف ستعود بإذن الله فلسطين إلى أصحابها ولينصرن الله من ينصره .

● وعدت أسأل فضيلته : هل ترون فضيلتكم أن المؤتمرات الثلاثة للمجمع قد اهتمت بقضية فلسطين ، وما هى مقترحاتكم كفلسطينى لتخليصها من أيدى العصابات الصهيونية الآثمة ؟ .

● فأجاب : لقد حققت المؤتمرات الثلاثة نجاحا طيبا وأعطت فلسطين قدراً كبيراً من اهتمامها وأوصت بتخليص فلسطين من العصابات اليهودية .

● أما تحرير فلسطين فله سبيل واحد هو وحدة العرب والسلاح وتصفية القواعد والجيوب الاستعمارية والرجعية وواجب المسلمين أن يعبئوا جهودهم لدفع الخطر الصهيونى الزاحف فهو زحف ضد الإسلام وتقدمه ، وواجب العلماء تشكيل لجان فى بلادهم وتوضع لهذه اللجان خطة موحدة مستوحاة من مقررات مجمع البحوث لقصد مجابهة الدعاية الصهيونية ، وعليهم إصدار النشرات وأن يغرسوا فى قلوب الشباب المسلم كله أن فلسطين قبل أن تكون عربية فهى مسلمة ، قبلة الإسلام الأولى ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكونوا من هذه القلوب طلائع غازية تجابه معارك الدعاية وترى بالصهيونية فى مياه البحر المتوسط .

وودعت فضيلته شاكرا له هذه الحماسة وتلك الغيرة الوطنية والإسلامية المتقدة ، وتمنيت تجميع الصفوف والتقاء الكلمة ووحدة الهدف والصف ، لتعود فلسطين السليبة .

روسيا :

وقابلنا بعد ذلك الشيخ ضياء الدين باباخان مفتى المسلمين فى الاتحاد السوفيتى .

فسألت سماحته : ما هى النظم الاجتماعية التى تحكم المسلمين فى روسيا ؟ .

وأجاب سيادته : لا يوجد هناك نظام اجتماعى خاص بالمسلمين وحدهم بل الجميع أمام القانون سواء . ولكن المسلمين وأهل الديانات الأخرى لهم أن يتبعوا عاداتهم وتقاليدهم الخاصة فى الزواج والطلاق وغيرها من المراسيم الدينية .

● ثم سألت فضيلته ثانيا : متى دخل الإسلام القسم الآسيوى من الاتحاد السوفيتى على وجه التحديد ؟ وهل التراث الإسلامى هناك لا يزال موجوداً ؟ وهل تحتفلون بالأعياد الإسلامية ؟

قال سيادته : دخل الإسلام هذا القسم منذ سنة ٥٦ هجرية وأخذ ينتشر فى مدنها الرئيسية (بخارى) و« سمرقند » و« طشقند » وغيرها فلم يمض إلا وقت يسير حتى أصبحت هذه المدن مراكز الحضارة الإسلامية تصدت لهجمات « جنكيزخان » وغيرها وتعرضت للتخريب والإحراق، وفى الوقت الحاضر لاتزال جميع ألوان التراث الإسلامى القديم وكذلك الآثار ومؤلفات العلماء القدامى البارزين تقدس من الشعب .

واستطرد فضيلته قائلا : أما الاحتفال بالأعياد والمواسم فنحن نحتفل بها وسوف نحتفل هذه الأيام بذكرى مرور ١٢٠٠ عام على ميلاد الإمام البخارى .

وانتقلنا إلى جو المؤتمر فسألت سماحته عن رأيه فى الأزهر والمؤتمر والبحوث وما انطباعات المسلمين الروس عنها ؟

وأجاب فضيلته : الأزهر أمل المسلمين فى العالم أجمع والمؤتمرات التى عقدها بداية لتجميع الخيوط التى تفرقت وإزاحة الغبار الذى تراكم على التراث . والمسلمون فى روسيا يعلقون أملا كبيرا على الأزهر ويطلبون الإكثار من تبادل البعثات العلمية والروحية وإرسال الكتب الدينية والمدرسية ، وإذا كان من الممكن ترجمة الكتب الدينية إلى اللغة الروسية أو التركية التى هى لغة أكثر مواطنى آسيا يكون ذلك حسنا والانتفاع بها أعم .
أما البحوث فمفيدة كلها وهامة لاسيا البحوث التى تتابع القضايا الجديدة وإيضاح رأى الإسلام فيها مثل توحيد أوائل الشهور القمرية ومكانة السنة من الاستدلال ، وتربية الشباب فى الإسلام ونرجو أن يبحث عمل المصارف فى الإسلام والبنوك والتأمين .

عمان :

● وكان لقاؤنا بفضيلة الشيخ سليمان بن حمير النبهانى رئيس وفد عمان فى المؤتمر .

● وبعد أن رحبنا بفضيلته فى القاهرة سألته عن آخر تطورات قضية عمان فقال :

إن شعب عمان مصمم على نيل حريته واستقلاله مهما كلفه ذلك حتى يتحقق النصر ويخرج آخر جندى بريطانى عن أرض الوطن خصوصا بعد أن أعلنت الأمم المتحدة قرارها الأخير فى العام الماضى بمطالبة بريطانيا بالانسحاب فوراً من عمان وإعطاء أهلها كافة حقوقهم الشرعية .

● وسألت فضيلته عن رأيه فى البحوث فأجاب : كلها مفيدة ومثمرة نرجو العمل على تحقيقها تحقيقا عمليا بالفعل لا بالقول .

● وسألته أيضا عن انطباعات شعب عمان عن المؤتمر فأجاب فضيلته : إن الشعب العماني يعلق على هذا المؤتمر أكبر الآمال وأهمها إذ هو خطوة إيجابية فعالة لها ما بعدها وإن لكافة قراراته وتوصياته أثراً خطيراً في تضامن المسلمين وازدياد قوتهم وفاعليتهم .

● وسألت فضيلته كذلك عن أنجح الوسائل لاسترداد فلسطين فأجاب :

ليس هناك إلا حل واحد هو السيف ، ووحدة الصف فلو اتحدت كلمة العالم الإسلامي ما بقي اليهود ساعة من نهار .

جنوب إفريقيا :

والتقيت بالسيد الأستاذ إسماعيل عبد الرزاق من جنوب إفريقيا ورئيس حركة الصدق العالمية ، وسيادته يجيد ثماني لغات ويحاضر في اللغة الإنجليزية بالدراسات العليا بجامعة الأزهر ويعد رسالة الدكتوراه من كلية أصول الدين عن « التفرقة العنصرية » .

● سألت سيادته قبل أن نبدأ الحديث ما معنى حركة الصدق العالمية ؟

فقال سيادته : معناها ترجمة معاني القرآن الكريم .

● ثم سألته عن التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا ، والظواهر والأشكال التي اتخذتها ، وعلى أي شيء اعتمد المستعمر في التفرقة ؟ وما رأي سيادته فيها على ضوء الإســـلام ؟

فأجاب سيادته : توجد في جنوب إفريقيا أمة حديثة خليطة من الأجناس الأوربية المختلفة تدعى الآن « أفريكانز » لغتها جديدة وهي لغة « الأفريكانز » خليط من الهولاندية والألمانية والإنجليزية والعربية والملايوية مع بعض تحويرات في بعض الأحيان .

وهم يستعملون بعض إشارات الإنجيل التي توحي بأن السود هم عبيد منذ ولادتهم ذلك لأنهم يعتقدون أن أحد أبناء « نوح » عليه السلام وهو « حام » الذي تنتسب إليه في زعمهم شعوب القارة الأفريقية ، قد حلت عليه لعنة والده وبالتالي تنتقل اللعنة إلى كل إنسان من بعده إلى يوم القيامة ، وانطلاقا من هذه المعتقدات أقاموا سياستهم على التفرقة العنصرية .

ويبلغ السكان البيض في جنوب إفريقيا من ٤ - ٥ ملايين نسمة بينما يبلغ السود ١٤ مليونا ، ومن هذا يتبين أن البيض لجأوا إلى ترسيخ هذه المعتقدات دفاعا عن وجودهم .

ويمكن توضيح سياسة التفرقة العنصرية عمليا في جنوب إفريقيا في أربعة مجالات .

أولا : التوزيع الهرمي العنصري للسكان يقوم على أساس أن الأوربيين في القمة يليهم المولدون فالآسيويون فالسود ، وبالتالي فإن كل مدينة أو قرية يجب أن تقسم إلى أربع

مناطق متميزة يختص كل عنصر منها بمنطقة بحيث تقتصر كافة نواحي حياته ونشاطه في نطاق منطقته فحسب .. وحرية التنقل من منطقة إلى أخرى مباحة على أن يعود كل إلى منطقته بالليل .

ثانيا : لا يستطيع أي إنسان أن يشترى قطعة أرض إلا في حدود منطقة عنصره .

ثالثا : لا يجوز الزواج بل ولا حتى المباريات الرياضية بين أفراد الأجناس الثلاثة الآسيويين والمولدين والسود من ناحية وبين الأوربيين من ناحية أخرى وإن كان يجوز ذلك بالنسبة للأجناس الثلاثة فيما بينها ومن يتجاوز ذلك فإنه يتعرض للمحاكمة .

رابعا : الجيش والتسليح العسكرى مقصور على البيض الأوربيين فقط . أما الشرطة فإن أفرادها في مناطق كل منطقة يكونون من بين أبنائها . ولكن القيادة العليا للبوليس تنحصر فقط في البيض وحدهم .

وعدد المسلمين في جنوب إفريقيا ضئيل جدا وهم ثلاثمائة ألف نسمة بين ثماني عشر مليونا ولذلك لا يستطيعون مقاومة هذه السياسة الخبيثة مقاومة فعالة وهم يجتهدون كثيرا في نشر الإسلام بين الملونين ويتزايدون بسرعة عجيبة لأنهم يعتقدون أن الإسلام قرر المساواة بين البشر في أكمل صوره وأمثل أوضاعه وأنه الحل الوحيد لجميع مشاكل جنوب إفريقيا بصفة خاصة .

ولهذا يرى سيادته أن تمثل الأقليات الإسلامية في أمريكا وإفريقيا في المؤتمر القادم لأنهم أحوج الناس إلى ذلك .

وبعد أن شكرنا سيادته وتمنينا لأخواننا في جنوب إفريقيا الخير والتوفيق تلاقينا مع مندوب يوغوسلافيا .

يوغوسلافيا :

مندوبها في هذا المؤتمر السيد / الأستاذ حسين سليمان جوزو رئيس قسم الشئون الإسلامية بالبوسنه والهرسك بيوغوسلافيا قابلت فضيلته وسألته عن دراساته والمعهد الذي تخرج فيه ؟

فقال سيادته : أتممت دراستى الابتدائية والثانوية ومعهد القضاء الشرعي في يوغوسلافيا ثم حضرت إلى القاهرة والتحقت بكلية الشريعة الإسلامية بالأزهر وتخرجت فيها عام ١٩٣٩ .

وسألته عن أحوال المسلمين في يوغوسلافيا . وعن عدد المساجد تقريباً ؟ والمؤسسات الإسلامية ؟

فأجاب سيادته : أما عدد المساجد في يوغوسلافيا فيبلغ ٢١٢٤ مسجداً وهذا العدد يزداد من يوم لآخر وقد دمر وخرب أثناء الحرب العالمية الثانية أكثر من خمسمائة مسجد .

ويقوم مسلمو يوغوسلافيا بأداء شعائرهم الدينية بحرية، فحرية العقيدة مكفولة بالدستور وبقوانين أخرى .

والطائفة الإسلامية فى يوغوسلافيا أعظم جماعة إسلامية منظمة فى أوربا ولها منظماتها وهيئاتها ومؤسساتها ولها فى العالم أهمية عظمى ولقد استطاع هؤلاء المسلمون أن يحملوا رسالة الإسلام خمسمائة عام ويدافعوا عنها بكل إخلاص، وأن يصمدوا أمام كل التيارات وقد حافظوا على إسلامهم وكيانهم وتقاليدهم وتراثهم فى تلك البقعة من أوربا وهم مستعدون لأن يبذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل دينهم الحنيف، وهناك معهدان لتخريج الأئمة والخطباء والوعاظ، وتقوم المشيخة الإسلامية بإصدار المجلة الإسلامية وبنشر الكتب وقد قمنا بترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اليوغوسلافية.

وسألت سيادته: ما هى انطباعات المسلمين فى يوغوسلافيا وانطباعاتكم عن الأزهر والمؤتمر والبحوث؟

وأجاب سيادته: إن العالم الإسلامى كله يعلق على الأزهر أهمية عظمى وأن رسالته فى عصرنا المادى الذى اشتد فيه الصراع بين الرأسمالية والشيوعية رسالة عظيمة، وأننا على يقين بأنه سيؤدى رسالته كما أداها من قبل بإعداد جيل مدرك للتعاليم الإسلامية ومدرك لمشاكل العصر.

ومجمع البحوث بمؤتمراته التى تعقد كل عام ويجتمع فيها كبار علماء الإسلام خير وسيلة لتعزيز الصداقة ودعم الصلات بين المسلمين وتوحيد صفوفهم، ولإزالة ما اعترى المجتمع الإسلامى فى عصر الانحطاط من جمود واسترجاع عزه الغابر ومجده التليد.

وأهم البحوث فى نظرى الاقتصاد الإسلامى وبحث الاقتصاد المعاصر وبحث المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام وبحث روح الإسلام أقوى دعامة لإصلاح المجتمع، وبحث توحيد أوائل الشهور لأنها تتعرض للمشاكل التى تواجهنا وأتمنى أن يصدر المؤتمر قراره بتحديد الأعياد الإسلامية وكيفية إثبات أوائل الشهور القمرية للحد من الفوضى التى تحدث تخلخلا بين المسلمين.

ونظرا إلى أن سيادته أوربى كان لا بد من أن أسأل سيادته عن أثر التقدم العلمى والحضارى فى أوربا على نفوس المسلمين بصفة خاصة والأوربيين بصفة عامة.. وعن أيسر الوسائل التى يراها سيادته لنشر الإسلام بينهم ولإبقائه فى نفوسهم.

وأجاب سيادته: الفكرة الغربية خالية عن الفضيلة إذ أنها تقوم على إنكار القيم الروحية؛ لجميع المذاهب الفكرية والفلسفية فى أوربا تنظر إلى الإنسان من ناحيته المادية فحسب؛ وتهمل ناحيته الروحية والمعنوية واعتقادى أن أوربا تتطلع إلى ما يحقق حاجاتها الروحية، فالفرصة سانحة لنشر الإسلام الذى ينظر إلى الإنسان من ناحيتيه المادية والروحية، وخير وسيلة لنشره فى نظرى

هو الكتب والنشرات التى تبحث عن تعاليم الإسلام بأسلوب علمى يناسب روح العصر وحاجاته .

والمسيحية لا يمكن أن تملأ فراغ القلوب الذى تشعر به الشعوب الأوروبية لأن ظهور العلمانية التى انقلبت فى النهاية إلى المادية كان كرد فعل على ما كانت تقوم به الكنيسة فى العصور الوسطى تحت سيطرة وطغيان الكنيسة ومحكمة التفتيش تجاه الإسلام بعبادته السمحة وأنقذها من وحدتها .

وفى عصرنا صارت أوربا تحت سيطرة الماديات بحيث أصبحت البشرية مهددة . . فعلى الإسلام إنقاذ أوربا مرة ثانية .

وشكرت لسيادته جميل فهمه للأمور وتفاؤله الحسن لمستقبل الإسلام ودعونا بالتوفيق للإسلام وأهله وتمنيت لسيادته إقامة هانئة آمنة .

الكويت :

وكان لقاؤنا مع الأستاذ راشد الفرحان عضو وفد الكويت فى المؤتمر سألناه عن انطباعاته عن الأزهر والمجمع والمؤتمر والبحوث :

فأجاب سيادته : بأن الأزهر كان ولا يزال جامعة الإسلام الخالدة التى فتحت أبوابها منذ مئات السنين لتهدى خطى المسلمين الزاحفة إلى منطلق حق . فهو المحور الذى التفت حوله القلوب وحفظ على اللغة شبابها ، وعلماؤه بمثابة حامل العلم فى زحف مقدس كريم .

والمجمع ومؤتمراته عظيم وعظيمة . لقد جمعت العلماء الأعلام من كل بقاع العالم الإسلامى ليتعرفوا على المشاكل ويوجدوا لها الحلول من الدين ويوحدوا من الصفوف والآراء والأفكار تجاه المشاكل والأحداث العصرية والبحوث كلها مهمة ومنتجة وكنت أتمنى أن يبحث المؤتمر البحوث الآتية :

١ ــ تحديد أوائل الشهور القمرية .

٢ ــ المصارف فى الإسلام .

٣ ــ موقف الإسلام من النظم الاجتماعية والمادية وإصدار مشروع قرار للأحوال الشخصية والمدنية .

سألت سيادته : هل ترى أن المؤتمر حقق نجاحا فى جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم ؟

فأجاب : نعم سوف يحقق الله به اجتماع المسلمين على الغاية المرجوة والهدف المنشود لأن الاستعمار والرجعية تخطط فى الوقت الحاضر لعزل الدول العربية التقدمية عن العالم الإسلامى وإضعاف مركزها من القيادة وتوعية الشعوب ، ومثل هذه الاجتماعات التى توحدت فيها الكلمة . كلمة العلماء وتوحدت من ورائهم صفوف الشعوب التى يمثلونها لدليل واضح على فضح هذه الخطط وكشف العملاء من ورائهم .

فمن الأزهر تنطلق الصيحة ، ومن مجمع البحوث ممثلا فى علمائه ترتفع الراية ، ومن اجتماع الصفوف واتحاد الكلمة يكمن العزم

والتصميم ، وإن أعظم فائدة تحققت هى وقوف وفود العلماء من أرجاء العالم على صدق نية الجمهورية العربية المتحدة فى جمع كلمة المسلمين وإعلاء كلمة الله ، وقد وافق القول العمل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

باكستان :

وكان لنا لقاء مع الباكستان البلد المسلم الكبير، وهو لقاء مع تسعين مليونا من المسلمين ممثل فى :

مولانا مفتى محمود عضو اللجنة الوطنية فى باكستان .

سألنا فضيلة مولانا مفتى محمود متى وكيف دخل الإسلام باكستان ؟ وما عدد المسلمين على وجه التقريب ؟ .

وأجاب فضيلته : دخل الإسلام باكستان فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموى وكان ملك السند وهى حصة من الباكستان قد أخذ سفينة من الأسطول التجارى للمسلمين ، وحبس من كان فيها فلما وصل الخبر إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بعث الخليفة الأموى محمد بن قاسم الثقفى على رأس خمسة آلاف من المسلمين المجاهدين إلى السند لإنقاذ هذه السفينة ففتح الله على يد (محمد بن قاسم) هذه البلاد حتى وصل إلى بلدة « ملتان » عاصمة « البنجاب » « قلب باكستان » ثم انتشر لواء الإسلام فى تلك الديار انتشارا سريعا .

وعدد المسلمين فى « باكستان » أكثر من تسعين مليونا ، وهم يمثلون ٩٠٪ من السكان

وسألت سيادته عن أهمية المؤتمر وقراراته بالنسبة إلى هؤلاء الأخوة الباكستانيين .

فأجاب : المسلمون فى باكستان يعدون قرارات هذا المؤتمر وتوصياته من أهم الأمور ويعملون على وفقها ، ولكن القوانين الرسمية هناك لم توافق على هذه القرارات إلى الآن ، ولنا جهود كبيرة فى تخليص القوانين من المواد غير الإسلامية ، وقرارات المؤتمر تكون وثيقة فى أيدينا تشجعنا تشجيعا .

وسألته أيضا ، قدم أحد أعضاء الوفود فى المؤتمر اقتراحا بضرورة تقديم منهج تعليمى موحد للمسلمين فى الدين الإسلامى واللغة العربية فما رأيكم فى هذا الاقتراح ؟

وابتسم فضيلته وقال : لو تحقق هذا المنهج فسيفيد فوائد كثيرة منها تربية أذهان المسلمين فى كل البلاد على نهج واحد ويكون ذلك وسيلة إلى توحيد المسلمين ، ومنها ذيوع اللغة العربية لغة القرآن .

وودعنا فضيلة مولانا مفتى محمود شاكرين له هذه الإجابة متمنين له تحقيق هذا الاقتراح من جانب السادة المسئولين فى الأزهر .

وتوجهنا بعد ذلك إلى فضيلة الشيخ محمد يوسف مدير المدرسة الإسلامية بكراتشى ، وكنت حريصا على أن أستطلع رأى فضيلته فى التفرقة العنصرية وتحرير فلسطين .

سألت فضيلته : الإسلام دين السلام والمساواة والحرية ؟ فما رأيكم فى التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا وغيرها ، وتحرير فلسطين من العصابات اليهودية ؟

وقد أجابنا فضيلته فقال فى الأثر النبوى : (لزوال الدنيا جميعا أهون عند الله من دم يهراق بغير حق) .

لقد خلقنا الله أحرارا من أب واحد وأم واحدة قال تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » فالإسلام مساواة وحرية ، والتفرقة العنصرية لون من الإجرام الأحمق الذى تنتهجه الأقليات البيض لتحكم وتتحكم فى السود ، والإسلام قد قضى على هذه النزعة فى القرآن والحديث النبوى فكان مع رسول الله (بلال) و(صهيب) و (سلمان) و (عمار) جنبا إلى جنب مع أشراف قريش : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى سفيان وغيرهم .

أما تحرير فلسطين فواجب فى أعناقنا جميعا نحن المسلمين لإنقاذ قبلة الإسلام الأولى من الخطر اليهودى اللعين .

ثم سألت فضيلته عن رأيه فى الأزهر والمؤتمر والبحوث ؟

فأجاب بأن الأزهر حصن الإسلام وأمل المسلمين منذ فجر التاريخ ، ومجمع البحوث الإسلامية له مكانة فى غاية الأهمية بما يرجى منه من خدمات نبيلة فى سبيل حل المشاكل الدينية التى طالما اعتاص على العلماء حلها .

والبحوث كلها مفيدة وهامة وأخص منها بالذكر :

١ — بحث الشيخ نديم الجسر « القرآن فى التربية الإسلامية » .

٢ — الدكتور مهدى علام « العفو فى الإسلام » .

٣ — الشيخ على الخفيف « مكانة السنة من الاستدلال » .

٤ — الأستاذ عبد الله كنون « الحديث وقيمته العلمية والدينية » .

٥ — فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة « المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام » .

وبعد تمنياتنا لباكستان وشعبها وعلمائها الخير والنجاح والتقدم وللإسلام بالرفاهية والنمو ودعنا فضيلته شاكرين له هذا اللقاء الطيب الجميل .

كانت هذه لقاءاتنا مع السادة وفود المؤتمر فى دورته الثالثة ومع صادق دعواتنا بالجهد ورجائنا أن يحقق الله الآمال التى يصبو إليها المسلمون تتمنى لهم كل تقدم وسعادة ورفاهية فى ظل الإسلام الحنيف .

سعد ظلام

مع الأمين العام في مؤتمريه الصحفيين

للأستاذ علي الخطيب

عقد السيد الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية مؤتمرين صحفيين الأول في ٦٦/٦/١٩ والثاني في ٦٦/٦/٢١، حضرهما مندوبون عن صحافة القاهرة ومراسل وكالة (رويتر) ومندوب عن مجلة (تايم)، وقد ركز سيادة الأمين العام في هذا المؤتمر الأول على بيان غايات وأهداف مجمع البحوث الإسلامية وسعيه الحثيث في تطبيقها عمليا، وإسهامه الفعال في توضيح واجب المسلمين حيال فلسطين، وعنايته بإنشاء صندوق تمول له حكومات المسلمين وأفرادهم لتقديم أي عون يهدف إلى خدمة الإسلام والتعريف به.

قال سيادته:

بسم الله الرحمن الرحيم

أود أولا أن أشكركم، وأشكر كل وسائل الإعلام على ما قمتم وقامت به من جهد في سبيل خدمة المؤتمر هذا العام، وأرجو أن يظل هذا التعاون قائما بيننا وبين الإعلام وبخاصة وأنه ليس لدينا ما نخفيه بحال من الأحوال وإذا حدث فليس ذلك إخفاء. ولكن، لأن موعد نشره لم يحن بعد:

ثم تحدث سيادته عن الفترة الأولى من الدورة الثالثة للمؤتمر فقال: إن تقييم ما تم في هذه الدورة حكم، والحكم في هذه المسائل غاية وهدف ثم جهد وعمل، وإذا كان الجهد والعمل يلتقي مع الغاية قيل: إن العمل نجح وإلا .... فشل.

لا بد، إذن من تحديد الغاية والهدف من هذه المرحلة، ثم نبين الجهد الذي قامت به أجهزة المؤتمر، ونرى بعد ذلك إذا كان هذا الجهد قد حقق غاياته أولا.

والواقع أن غايات هذا المؤتمر إنما هي: غايات وتنفيذ.

من هذه الغايات:

محاولة ربط المسلمين برباط وثيق حول العقيدة والمسجد وجعل المفاهيم الإسلامية واضحة يفهمها العصر الحديث والعصور المتطورة، ثم دراسة ألوان حيوات المسلمين الاجتماعية وتطور حياتهم على أساس من الدين والعقيدة ودراسة المجتمع الحديث وما جد فيه من قضايا وأحداث حتى يتمكن المسلمون - عن وعي - من فهم عقيدتهم والامتثال بها وحتى لا يكون هناك تناقض بين ما يقومون به من أعمال، وما يؤمنون به من شرائع ومعتقدات.

كذلك من غايات هذا المؤتمر مساعدة الأقليات الإسلامية ، أينما وجدت ، علميا وعمليا وربطهم بالمسلمين رباطا ينشأ عنه تعاونهم وخيرهم .

هذه هى بعض غايات مجمع البحوث الإسلامية وتلك مهمة من مهمات مؤتمراته .

فهل قمنا هذا العام بعمل يساعد على تحقيق هذه الغايات ، كلها أو بعضها ؟

إذا نظرتم إلى الموضوعات التى طرحت للبحث فى الدورة الأولى وجدتموها كلها من هذا القبيل .

فدراسة السنة والحديث النبوى ومكانتها من الاستدلال ، ومن ناحية صحتها وسندها من الموضوعات التى لم تطرح للبحث فقط ، ولكن ليرجع إليها المسلمون كذلك فى تنظيم حياتهم ، ولنبين للناس وبخاصة ، من غير المسلمين ، الذين تحدثوا كثيراً عن السنة وقيمتها نبين لهم أنها فى صحتها وثبوتها لا ينبغى أن يشك فيها باحث علمى .

تحدثنا كذلك عن التربية الإسلامية فى القرآن .

وعن المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام .

وبحثنا روح الإسلام وأثرها فى تربية المجتمع ، والمأثور عن المسلمين فى سياسة الرعية أو المجتمع .

ترون من هذا أن الموضوعات مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة المسلمين وتهدف إلى تربية المسلمين تربية إسلامية حتى لا يشذوا فى سلوكهم عن أثره .

هذه الموضوعات قد أثارت عند المدعوين روحا قوية إيجابية فعالة ، وقد ظهرت هذه الفعالية فى الاقتراحات التى تقدموا بها أثناء انعقاد المؤتمر وبعد انعقاده تعبر بصدق عن أنهم يعيشون بعقولهم ووجدانهم معنا فى هذا المؤتمر فلم يفتهم قليل ولا كثير . كذلك لم تكن استنتاجاتهم محدودة ، فكانت هناك اقتراحات متعلقة بالسلوك الفردى والمجتمع والتشريع الإسلامى ، ولزوم أن يكون مداه واسعا ، وكانت اقتراحاتهم موجهة إلى الحكومات والأفراد وبذلك أمكن أن يقال :

إن السادة الذين دعوا إلى هذا المؤتمر لم يكونوا محايدين بعقولهم ووجدانهم بل كانوا مسهمين لا بكلمات بل باقتراحات يمكن أن تكون دستوراً للحياة .

لقد قام المؤتمر بإيجاد جو إسلامى عام وإثارة حرارة إيمانية ليس فى البيئة التى انعقد فيها فحسب ولكن فى كل أجواء البلاد فى العالم الإسلامى فانفعلوا بها جميعا انفعالا روحيا وعقليا ، وكان من أثر هذا الانفعال أن وفد إلينا سيل من البرقيات والخطابات التى تبين أنهم كانوا يعيشون معنا بعقولهم ووجداناتهم كانت هذه البرقيات من كثير من رجال الجمهورية العربية المتحدة وغيرها من بلاد العالم الإسلامى

وهنا يطيب لى أن أكرر ثانية أن وسائل الإعلام على ما قامت به من جهد كبير فى هذه الفترة ولعلكم قد شاهدتم كيف أن مشاعر المسلمين فى غزة كانت متأثرة نتيجة هذه الزيارة القصيرة التى قمنا بها فى القطاع ، وقد رأيتم مدى تحمسهم الشديد وإيمانهم بأن قضيتهم سائرة - لا محالة - إلى الغاية الكريمة التى يتبعونها .

ولقد كانت التوصيات والقرارات التى وصل إليها المؤتمر فى مرحلته الأولى تدل بوضوح على مدى تقديره البالغ للمسئوليات الكبرى الملقاة على عاتقه لذلك كانت توصياته تهدف دائما إلى تحليل هذه الغايات إلى واقع عملى.

فالقرار المتعلق بفلسطين - مثلا - لم يقل : إن إنقاذ فلسطين من أيدى المغتصبين فرض وأن المسلمين ينبغى أن يتضامنوا فى تحريرها فحسب ؛ بل هدف إلى أبعد من ذلك إذ جاء فيه : إن تمييع قضية فلسطين بأى لون من التميع عمل يؤدى إلى دعم كيان إسرائيل ، وهو فتنة قد تؤدى إلى المروق من الإسلام وذلك جديد لم يكن فى القرارات السابقة فى المؤتمر .

وثمة ناحية هامة بحثها المؤتمر أعنى بها إنشاء صندوق يسهم المسلمون كافة - حكومات وأفرادا - فى تمويله للإنفاق على التعريف بالإسلام ، وإنشاء مراكز إسلامية ، وذلك عمل جليل بالغ الأهمية لأنه من الخطوات الأولى التى يتوقف عليها تنفيذ عدد كبير من القرارات والتوصيات .

فالهيئة التى تحمل مسئولية التعريف بالإسلام وإحياء التراث الإسلامى ، ومساعدة الأقليات الإسلامية على النهوض كل ذلك يجعلها تحتاج إلى مال وفير والصندوق كفيل ، إن شاء الله بالمساعدة على تذليل هذا الصنيع .

وقرارات هذا العام فيها كثير من التجديد ، لا من حيث التعبير والصياغة كما قد يظن بعض الناس ولكن من حيث المدلول والمعنى المقصود منها .

لذلك يمكن القول بأن المؤتمر فى هذه الفترة سجل نجاحا باهرا كما كان له نجاح عظيم فى الماضى سجلته أعماله السابقة ونتائجه ولعلكم تذكرن أن السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية سجل لنا ذلك ، والحمد لله ، فى حفل الافتتاح ، ولذا كان على أن أشكر كل من أسهم فى إنجاح المؤتمر ولا يغيب عنى أن أشكر كل رجال الأزهر الذين شاركوا فى الأعمال الإدارية والفنية فى هذا السبيل » .

* * *

وفى ختام جلسات الدورة الثانية يوم الخميس ١٣ من رجب ٢٧ / ١٠ عقد سيادته مؤتمره الصحفى الثانى أشاد فيه بجهود المؤتمر فى تلك الفترة وتلا فيه قرارات وتوصيات الفترة الثانية المنشورة بالصفحة ٤٨٧ ؟

على الخطيب
أمين التحرير

مرحباً بورثة الأنبياء

للأستاذ سعد عبد المقصود ظلام

نغم سنيّ ، ساطع ، شفاف خفق له الملاح والمجداف
تتراقص الأحلام من صبواته وتكاد تلثمه هوى أعطاف
لا تسألونى ما أتى بى ها هنا ؟ الحب ، والأحباب والآلاف
أحبابنا إنى أتيت وبى هوى وفؤادى الحانى أتى يستاف
تتعانق الآمال بين جوانحى وتغرد الأطيار والأطياف
ويرف فى نفس وميض مؤمن والمهرجان وضوؤه الرفاف

• • •

يا مرحبا بالمسلمين يضمهم فى قبلتيه الأزهر المضياف
نادى قلبي الصادقون . وأحرموا وسعوا إليه وحوله قد طافوا
هرعوا إلى الساحات يحدو ركبهم إخلاصهم لله والإنصاف
ركبوا إلى الإيمان كل أبية واستعذبوا الآلام وهى زعاف
وتذكروا القربى وعهداً خالداً فتعاطفوا وتعانقوا وتصافوا
ومضوا إلى التاريخ فى محرابه فتعطروا بعبيره واستافوا
وتقدموا نحو البناء وكلهم متحفزون إلى البناء خفاف
الله فى خطواتهم إذ أقدموا والمجد وافى حيثما قد وافوا

• • •

يا أزهر الأمجاد يا مهد السنا يا خير ما أبقى لنا الأسلاف
محرابك الأسنى ترانيم المدى وسناك من أضوائه شفاف
طوبى لمهدك فى الوجود مخلداً يا كم تقاسى بعمرك الآلاف
جاهدت كالمصباح أقبية الدجى وزرعت فيها النور وهى عجاف

ورعيت دين الله حق رعاية ... ما هزك الطغيان والإجحاف
مرت عليك الحادثات ولم تهن ... حتى طواها السير والتطواف
وصمدت أنت بعزمة لا تنثنى ... أغضى لها العدوان والإيجاف
ما خفت ظلاما يغير ولا العدا ... الماجد المسماح ليس يخاف
والمضمرون النيل منك تجمعوا ... ورأوا صمودك يا أبى فخافوا

* * *

لكن خطى الأيام ألقت ظلها ... وتغافل العلماء والعراف
فإذا هناك مشاكل لا تنتهى ... ضاقت بها الأحداث والأوصاف
لم تلق حلا ناجحا فتعقدت ... وأتى عليها الغيم وهى كثاف
حتى دعوت إلى النهوض فشمرت ... تلك السواعد والتقى الآلاف
من كل ذى فهم عميق مدرك ... وبلا حدود علمه الكشاف
يتدارسون ليهتدوا لحلولها ... والدين هدى واضح هداف
ويناقشون بكل وعى مثمر ... ومع التناقش تظهر الأهداف

* * *

يا أيها العلماء إن لقاءكم ... عيد تقبل ثغره الأعطاف
عيد لكل المسلمين وفرحة ... والعيد محمد يومه الهفاف
عيد لأمتنا عساها تلتقى ... فتجمع الأجزاء والأطراف
الله أعطاها ضمانات الهدى ... ما بالها تمتصها الأحلاف
الأمة الخيرى تلاشى ظلها ... وعدا عليها الحاقد المتلاف
كانت لها فى الخافقين حضارة ... غنت بها فى الخافقين ضفاف
كانت وما زالت على هام الورى ... حبا يطوف به الهدى ويطاف
فى كل ناحية كتاب مصفر ... وبكل أفق مزهر هفهاف
وقصيدة فيها الخلود مغرد ... والأغنيات البيض والإيلاف
لكن غفونا واستخف رعاتنا ... كم ضيع الأقوام الاستخفاف

حفنا نصبح دعاتنا وهداتنا فتعلم التاريخ كيف يعاف
فإذا الدجى كالأخطبوط يلفنا لمني .. وكانت دوحنا الألفاف
وإذا الحضارة قصة أزلية وإذا الغناء تدوسه الأخفاف
وإذا التراث بقية من مسرف ولكم أضاع تراثنا الإسراف
وإذا عوادى الدهر تقصف بابنا والدهر مثل رياحه قصاف
وإذا الأباة الفاتحون تراجعوا وإذا همو بين الحياة ضعاف
وإذا البناة على متاهات الثرى وإذا قويم بنائهم أحقاف
وإذا سراة القوم هاموا فى السرى وسلافهم بيد النديم رعاف
وإذا أماسينا يكبلها الأسى وربيعنا بين الفصول جفاف
وإذا بنا : لا شئ .. لا معنى لنا وإذا صحيح وجودنا أنصاف
أرأيتموا الإسفاف قد أودى بنا يا شد ما أودى بنا الإسفاف

* * *

أين الطريق إلى الخلاص من الردى كيف السبيل يكون والإسعاف
أنتم سبيل الخير .. خير سبيله وطريقه المتبسم المعطاف
يا أيها العلماء بورك سعيكم يوم اللقاء وبورك الإشراف
المسلمون تطلع وتشوق ومنى ترف . ومهجة وشغاف
يحيون ساحات الرجاء وكلهم ثقة .. وناى مزهر .. وقطاف
نسجوا من الآمال ضوء وجودهم وكأنه للغابر استئناف
وكأن وعد الله باستخلافهم يحدوهم . ولهم به استخلاف
فتطلعوا شوقا إلى علمائهم وكأنما بين الرؤى استعطاف
زفوا الرجاء إلى النفوس محبة أنغامها بين القلوب لطاف
زفوا إليها كل خير علها تحيا فقد نثر الصفوف خلاف
أنتم لديها الآن كل رجائها ورجاؤها أن يوجد الإيلاف

سعد عبد المقصود ظلام

تخطيط بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

بيان أعضاء المؤتمر في غزة

من أرض المأساة بقطاع غزة ، وبين لاجئ فلسطين المغتصبة بفعل الصهيونية العالمية ومؤامرات دول الاستعمار .

يعلن أعضاء المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية أن قضية فلسطين أمانة في عنق كل مسلم : الانتصار لها واجب ، والدفاع عنها فريضة ، والتفريط فيها جريمة في حق الدين ، ووصمة في جبين الإنسانية ، وأن الانتصار لخصومها ومغتصبيها والمعينين لها خروج عن الوحدة التي أمر الله بها : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » :

ويعلن أعضاء المؤتمر أن التودد للصهيونيين ومن والاهم ، والتعامل معهم حرب لله ولدين الله وللمسلمين .

ويطالبون بأن تسحب الدول الإسلامية التي اعترفت بإسرائيل هذا الاعتراف ، وأن تقطع الدول والشعوب الإسلامية التي تتعامل معها هذا التعامل .

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ؟

economic system which excels other economic systems and safeguards mankind from the evils inherent in them.

Meanwhile the Conference considers that the attainment of the utmost productivity and the realisation of social justice within the framework of the religious teachings and spiritual values imply a sound application of the directives of Islamic economic and social system.

2—The Conference recommends that the Academy should give its utmost care to the Islamic heritage as well as to the documents and charters including wise directives. The Academy should collect these texts for the benefit of scholars and students. The Conferece also recommends that these texts should be translated into the various languages of Islamic countries, and into some living languages.

And Allah's is the guidance.

13th Rajab 1386 A. H.
27th October 1966.

Contents

3— The Conference urges all Islamic governments and peoples to set up Islamic authorities in their respective countries to be assigned the task of determining the first of lunar months with the help of observatories and reliable astronomists.

Fourth : Sacrifices and Offerings

1— The Conference declares that the sacrifices and offerings made on the occasion of pilgrimage are Islamic rites and acts of worship which have their social objectives. A Muslim who can afford them is not allowed to omit them in favour of other piousis gifts. Their omission, however, can be made good by fasting as is prescribed by the Holy Qur'an, if the pilgrim cannot afford them.

2— The Conference appeals to all Muslim peoples and governments, to check the dangers which might arise during pilgrimage from sacrificial offerings, to put them to a good use as is prescribed by the Law-giver, and to adopt the ways wherewith to accomplish this object.

Fifth : On Social and Economic Affairs

1— The Conference recommends:

a) Since Islam is a creed, worship, and a law defining rights and duties, it is best for mankind to practise all the teachings ordained by the Quran and the Sunnah on dealings and social sanctions, in as much as they safeguard virtue and check evil and corruption.

b) Islam makes no distinction between people as to colour, race, or region. All men are equal in terms of fundamental rights and obligations.

c) International relations must be established on a basis of justice, respect for human dignity, the fulfilment of just treaties and the annulment of all agreements prejudicial to the interests of weak parties.

d) All peoples of the world should co-operate in exploiting the natural resources of the earth on a just basis so that the one could possibly benefit by the surplus crops, minerals and manufactured goods produced by the other.

e) Islam stands for social justice based on productive labour and equal opportunities so that each can work according to his work. Work is an act of worship. Though some people are rich and others are poor, yet Islam recognizes no classes as all people enjoy equal rights and have similar obligations.

f) The teachings of Islam include certain provisions with regard to the organisation of the economic aspect. These provisions constitute in their entirety an integrated

companies, the Conference recommends the Academy to carry on the study of the financial, economic and social aspects of the question, and get acquainted as far as possible, with the views of Muslim scholars in Islamic countries so that the Conference could deduce the legal ruling on every kind of insurance.

Regarding the social and co-operative insurance including health insurance againt disablility, unemployment, old age, labour accidents and the like, the Second Conference had already decided that it is admissible.

2 — Having studied the Question of foreign bills of exchange the Conference has come to the conclusion that they are in fact as admissible as inland bills of exchange, except for those bills which bear usurious interest forbidden by the law, and those involved in insurance on which no ruling has been deduced.

3 — The Conference calls upon the Academy to continue the study of the Islamic substitute for the modern banking system, and the method of its application, with the help of economists and business men.

Third : Fixing the Beginning of Lunar Months

1 — The Conference declares that :

a) The observation of the new moon is the original method of fixing the beginning of lunar months as is indicated by the prophetic tradition. But this method is not to be relied on if strong suspicions are raised aginst it.

b) The observation of the new moon is established by a report handed down, or widely spread, by persons who cannot be supposed to have plotted a lie, as well as by the report of a single informant, whether male or female, unless his statement is impugned for one reason or another, such as contradicting the reliable calculation of a reliable astronomist.

c) The report of a single informant is only binding on himself as well as on those who have trust in him. The public, however, should abide only by the definite observation carried out by the person detailed by the Islamic State for this purpose.

d) The beginning of the month is to be settled according to astronomical calculation if it is difficult to see the new moon or to reckon the preceding month as thirty days.

2 — The Conference decides that no allowance should be made for the different times of the moonrise in various countries, however distant, if they all co-incide even in a short period of the night when the new moon has been seen; if not, then the differences of moonrise should be taken into account.

Resolutions and Recommendations

ISSUED BY

The Third Conference of the Islamic Research Academy

(The Second Stage)

In the name of Allah, Most Gracious, Most Merciful, the third Conference of Islamic Research Academy passes the following resolutions and recommendations on the subjects presented for consideration in the second stage.

First: The Prophetic Sunnah

1 — The Conference declares to the Islamic World the authenticity of the Sunnah as the second source of legislation in Islam next to the Holy Qur'an. It recommends all Muslims to adhere to it, and act upon it in the field of education, dealings, and behaviour, emphasizing the important role it played in forming the Islamic thought, building up human civilisation and safeguarding the community from factors of unrest and deterioration.

2 — In appreciating the strenuous efforts exerted by Muslim scholars in the recording in writing of traditions, and their meticulious care in transmitting them, the Conference draws the attentions of the Muslim youth and the cultured élita to the sound method adopted by traditionists who endeavoured to ascertain the truth in the collection and criticism of traditions in a manner unprecedented in the history of any other nation. This method had produced its deep effect on methods of historical, literary and social criticism. Therefore, this great heritage, the heritage of the Sunnah, is worthy of being a source of enlightenment and guidance, as well as of pride and glory, for our noble Islamic community.

3 — The Conference entrusts the Islamic Research Academy with the task of collecting and verifying those traditions whose outward sense seems to be wide of the mark. This can best be achieved through the examination of their texts and chains of authorities (Isnad) in accordance with the criteria and rules laid down by traditionists for the criticism of traditions. Further, the Academy should prepare commentaries thereon.

Second : Insurance and Bank Transactions

1 — Regarding the different kinds of insurance practised by

individuals, to direct their public and private lives along sound Islamic lines on a firm basis of Islamic teachings on systems of government, administration, and jurisprudence. Such direction would help to reform the Muslim citizen and as a corollary to reform the Muslim community with firm belief in God, and deepseated pride in the Faith, and power to resist atheistic trends as well as intellectual and moral invasion.

3 – The Conference recommends the measures conducive to such individual, social and political reform. Foremost among these measures are the revival of Islamic heritage and the proper acquaintance with Islam as both a creed and law, at all cultural and educational levels.

4 – The Conference urges the Islamic Research Academy to appoint a permanent body to assume the responsibility of propagating Islam and directing the scholastic as well as cultural programmes along proper Islamic lines.

5 — The Conference further, urges the Academy to create a fund to which world Muslims would contribute for the purpose of the propagation of Islam, the diffusion of Islamic culture, the revival of Islamic heritage and the establishment of Islamic centres and other organisations.

6 — The Conference also calls upon the Academy to compile an indexed encyclopaedia of Prophet's traditions to be verified by an ad-hoc committee for Muslims to use as a second fundemental reference on Islam.

7 — The Conference calls for purging Muslim societies of intellectual and moral incursions and for guiding such societies to the perfect character of Islamic teachings and their fitness as means of solving the society's economic, social and political problems. Attention of Muslim societies should be called to the Islamic code of ethics in its pristine beauty. A series of simplified text-books in this respect is recommended to be produced and translated into the major living languages.

8 — The Conference re-affirms its recommendation urging Muslim countries to teach Arabic, the language of the Quran, in their schools to make it possible for non-Arab Muslims to study the Holy Quran and the Sunna.

9 — The Conference appeals to the authorities concerned in the various Muslim countries to clear their laws and systems of government of all that runs counter to the tenets of Islam and to bring such laws and systems into line with God's Book and the traditions of His Prophet while adopting all new and good concepts and principles which would not clash with the fundamemtals of the Faith.

"And Allah's is guidance. Allah alone can show the right path".

RECOMMENDATIONS

Issued by

The Third Conference of the Islamic Research Academy

(The First Stage)

In the name of Allah, Most Gracious, Most Merciful.

By the grace of Allah, the Conference of Islamic Research Academy to-day concludes the first stage of the third session which started on Friday, Jumada Al-Akhira 15, 1386 A. H. (September 30, 1966). The Conference expresses its thankfulness to Allah, the Almighty, for providing the occasion for this blessed meeting of Muslim Ulema from different countries within the precincts of Al-Azhar to join together in furthering the interests of Muslims in their spiritual and temporal affairs, thereby preserving Islamic unity and fraternity, co-operating in righteousness and piety, avoiding sin and aggression, guarding against dispute and dissension, and effectively contributing to peace of all mankind on a basis of right, justice, and equity.

The Conference records its deep appreciation of President Gamal Abdel Nasser's kindness in placing the Conference under his auspices, in paying great attention to religion and in delegating Vice-President Mr. Hussein Al Shafei to open the Conference session.

The Conference also extends grateful thanks to the U.A.R., both government and people, for their generous hospitality. It appreciates the Grand Sheikh of Al Azhar's concern for the conference which helps to fulfil the mission of that Islamic institution in preserving the Faith and serving Muslims all the world over.

The Conference recommends as follows :

1— It impresses on Muslims everywhere that serious and persistent struggle to deliver Palestine from the hands of Zionist aggressors and usurpers is an obligation on every Muslim, man and woman, and warns against deviation from Islam through co-operation with Zionist usurpers who have driven the Arabs and Muslims out of their homes or with those who helped to render them homeless. The Conference re-affirms the decision taken at its second session calling on those Muslim states which had recognised Israel to withdraw their recognition.

2 — The Conference urges Muslims, both governments and

What can this message be ?

Man's Message in Lifes :

God Gracious has defined the aim of this message in His words; "I will create A vicegerent on earth" And the Almighty's words : "It is he who hath made You (His) agents, inheritors of the earth. He hath raised You in ranks, some above others, that He may try you in the gifts He hath given you."

To be able to bear the responsibelities of this agency, God endowed man with talents that help him carry out such a message. He supplied him with energy and intellect to do such acts as he deems proper on earth and under it; to build, produce and to utilize God's gifts : plants animals and metals:— "And we sent down Iron, in which is (material for) Mighty war, As well as many benefits for mankind."

"And Sendeth down rain from the skies, and with it bringeth out fruits where with to feed you.

God has directed people's attention to the fact that God's gifts can be obtained only by persistent effort. The almighty Says, "For you, so traverse Ye through its tracts And enjoy of the substance which He furnishes."

And Says : "And God has made The earth for you as a carpet (spread out), That ye may go about therein, in spacious roads."

And Says : "It is we who have placed you with authority on earth, and provided Ye therein with means for the fulfilment of your life."

The use of such wealth should not be restricted to its owners but must be devoted to the help of the needy and the disabled. It should also be devoted to the general welfare of the nation, thus achieving the social solidarity and the cooperation cherished by Islam. Islam considers work in trade and agriculture a sort of a holy struggle, deserving reward.

The Prophet, Allah bless him and give him peace, said, "Anyone who plants a tree, attends to it with patience till it beans fruit shall be rewarded by Allah for every fruit it bears." He also said : "Seven things a man may be rewarded for in his grave after his death. Teaching knowledge, digging a river or drilling a well, planting a palm tree, building a mosque, bequeathing a holy book, or leaving a pious son who would pray God for him after his death."

and his God, as well as protection against the evils of material greed and the dictates of a soul that is prone to evil.

The more lofty this spiritual side is, the greater will be man's progress, the stronger his self-control and domination over the worldly resources which God has created for him. Hence, the necessity to foster this element with motives of good; mercy, truth, justice, charity, benevolence and co-operation, thereby laying the solid foundation of a mature socity and achieving the cherished aims of an ideal life.

Secondly :

The Physical Element :

This is the material element which God created from the matter of earth from which man grows, and acquires the inclinations so necessary for his growth and that of his offspring.

The body has diverse sensuous desires which are conductive to evil if man goes beyond the bounds of moderation :

God has subjected to man everything on earth and allowed him the enjoyment of lawful earnings which God has made accessible to him, provided that he should labur, use his brains, serve himself and exchange benefits with all mankind without selfishness or egoism.

Islam has set proper rules to keep human body fit and sound and advised man to partake of lowful food and drink avoiding all that may cause him harm.

God Gracious Says : "... eat and drink : But waste not by excess".

And God most dignified says :

"It is He who has made the sea subject, that ye may eat there of flesh that is fresh and tender".

And Says : "ye shall have there in Abundance of fruit from which ye shall have satisfaction".

And the Gracious God Says : "O Ye people ! Eat of what is on earth, lawful and good"; and others.

These are the both sides of human formation, spiritual and material within which God has deposited all the forces necessary for human happiness. In this formation we can clearly see the elements of mercy, Sympathy and co-operation for the best of aims which guide man towards all the springs of good necessary for his life. If these elements are directed towards God, their Creator, man will become happy but if they go astray he will miss the right path.

There remains for man with such complete formation to carry out his message for which God has created him.

"God Commands justice, the doing of good, and liberality to kith And kin, and he forbids All shameful deeds and injustice: And rebellion, He instructs you. That ye may receive admonition. (Verse 19 Chapter of "The Bee").

"The Believers must (Eventually) win through, Those who humble themselves, in their prayers; who avoid vain talk; who are active in deeds of charity, who abstain from sex, except with those joined to them in the marriage bond, or (the captives) whom their right hands possess. For (in their case) they are free from blame, But those whose desires exeed those limits are transgressors. Those who faithfully abserve their trusts and their covenants. And who strictly guard Their prayers :- These will be the heirs, who will inheit paradise. They will dwell there in (For ever). (The verses from 1 to 11 Sura Muminun or The Believers).

"And the servants of (God Most Gracious are those who walk on the earth In humility. And when the ingorant Address them, they say, "Peace!". Those who spend the night In adoration of their Lord Prostrate and standing; Those who say: "Our Lord: Avert from us the wrath of Hell, for its Wrath Is indeed an affliction grivous, Evil indeed is it as an abode and as a place to rest in"; Those who when they spend, are not extravagent and niggardly, but hold a just (balance) between those (extremes) Those who invoke not, with God and other god, Nor slay such life as God Has made sacred, except for just cause, nor commit Fornication..." (verses from 63 to 68. chapter of The Criterion).

And many other verses dealing with the roots of virtue such as justice, keeping one's promise, moderation in spending, honesty patience, avoiding perjury, giving rights to the rightful owners and other virtues.

(3) As for conscience and the sentiments associated with it, Islam has linked them closely together in man's relations with his parents, relatives distant neighbours and near friends. Affection is made by Islam the basis of relations in the family first, and then between all people. All this helps to make human life quiet agrable and pleasant.

These three aspects are the prop of the spiritual being of man; moreover they form a close connection between the members of a society, unifying their aims, achieving harmony between the elements of the nation and constituting an important factor in its progress and development. At their lofty standard, they provide a link between man

by free knowledge, profound thinking and conviction.

Besides the elevation of intellect there are other sides that have their great value and importance in encouraging scientific research and drawing plans for the implementation of its programmes of which modern civilization takes good care. These include the opening of wide scopes before the human mind and for free action towards the noblest of aims in life.

Moreover, the drawing of man's attention to the aspects of the glorious nature and the signs of God's mercy and His bounty is the most powerful stimulant of faith in God and recognition of His power and greatness. It has another value in that it reminds of the riches abounding in this universe which be can use for his good and the good of others.

(2) As for will, Islam has directed it towards good in all its forms such as charity, benevolence, cooperation, and alms giving. In the Noble Quran, there are many verses dealing with the roots of virtues and noble character calculated to secure a noble life for the individuals. Listen to the Almighty's words: "It is not righteousness that ye turn your faces towards East and West, But it is righteousness to believe in God And the Last Day; And the Angels; And the Book; And the Messengers; To spend of your substance; Out of love for Him, For your kin, for orphans, for the needly, for the wayfarer, for those who ask, and for the ransom of slaves; to be steadfast in prayer, And practice regular charity, to fulfil the contracts which ye have made. and to be firm and patient in pain (for suffering) and adversity, and throughout all period of panic. Such are people of truth, the God fearing (Sura 2 — 177).

(19) "Is then one who doth know that which has been Revealed unto thee from thy Lord is the Truth, Like one who is blind ? It is those who are endued with understanding That receive admonition :-

(20)Those who fulfil the covenant of God and fail not in their plighted word; (21) Those who join together those things which God Bath commanded to be joined. Hold their Lord in awe And fear the terrible reckoning;

(22)Those who patiently persevere, seeking the countenance of their Lord; Establish regular prayers; spend; out of (the gifts) we have bestowed for their sustenance, secretly and openly; and turn off Evil With good : far such there is the final attainment of the (Eternal) Home, — (Verses from 19 to 22 chapter of 'Thunder').

us to God and directs man to obey and carry out His orders. It guides us to the good as well as the noblest and most glorious deeds; helping us to guard our - selves against error and evil.

If educationists take care of that element and if man tends it with purification it will be the best guide to the right path, the path of the Mighty Commendable God.

This spiritual or psycological element has three phases, each aiming at a noble end in life, namely :—

Intellect, that aims at the knowledge of truth;

Will whose aim is to reach good;

Consience, having for its objects noble sentiments and beauty of soul.

Truth, good and noble sentiments are ideal aims which, if achieved achieved by man, will give him a happy life, Peace and harmony will also prevail amongst nationgs. These three aims have a very important place in Islam which takes great care of them. The Almighty Says: "It is He who has sent His Apostle with Guidance And the Religion of Truth."

Truth includes the spread of justice, fairness and equality. Good aims at love, harmony and good relations amongst people. Sentiments play an important part in promoting fraternity, co-operation, mutual sympathy and love.

These are a few principles on which the ideal mature society rests. If individuals, communities and peoples appreciate these principles truly, sincerely and with a strong will, people's life will be pure, the causes of envy, injustice and aggression will be obliterated and tendancies to evil and destruction will be pulled out of all minds, we would thereby get an ideal society which all peace-loving peoples aspire to or perhaps we might attain the virtuous city which old thinkers or civilized nations have tried to achieve without success.

Islam takes the greatest care to promote these aims; it elevates intellect, will and nutrise noble sentiments,

(1) The clearest way to nutrise intellect is that mentioned in the Holy Quran urging people to contemplate God's signs in the universe and the human soul alike. The Almighty Says: "On the earth Are signs for those of assured faith, As also in your own selves : Will ye not then see ?" and Says : "Do they not look At the sky above them?"— "Now let man but think from what he is created !" "Then let man look at his food. (And how We provide it)" ... etc.

Contemplation can be achieved

rtain the hope of seeing the true dawn, as they have faith in God. trust in His power, and adhere to the precepts of Islam.

We see all this within our sphere, and feel a pressing need for decisive solutions that may save humanity and spare it an evil destiny.

May we therefore look ub to God imploring Him for help and to His great religion for guidance to the most righteous path.

Let us turn to Islam guided by its noble principles, good advice and wise guidance.

The basis on which Islam lies is the innate quality of man.

Islam is the religion of sound nature in which God has created His peoples.

This nature is directed towards the good in fhe world and depends on sensible thinking as well as on clear and tolerant principles. This is the secret of the strength and immortality of Islam. It is also the secret of the power of those adhering to its principles, for nature if pure renders the soul also pure and capable of virtuous acts and sublime intentions. Peace between peoples would thus prevail and communities and nations will stride towards the best of goals.

Let us see what Islam has stated concerning the creation of man and his message in life. The Holy Qur'an explains the creation of man in the Almighty's words, "He began the creation of man of man with (nothing more than) clay," and His words : "He created man from sounding clay like unto pottery," The rest of his creation is explained in the verse, "When I have fashioned him (in due proportion) and breathed into him of My spirit, Fall ye down in obeisance unto him.".

The humanbeing is thus formed of two elements, one is spiritual and the other material. Islam has taken great care to foster and guard those two elements from anything that may spoil them or drag them towards the path of evil and sin: as their perfection and homogeniety would lift man to the highest point of virtue and thus renders him cabable of carrying out his message which God has assigned to him in the best way.

Let us now deal with these two elements to follow their effect on the development of the individual and the reform of society. Reference will then be made to man's message in life and how he can fulfil it truly, faithfully and with strong belief in God.

First : The Spiritual elemen :

This is the more important element as it is the path that leads

The Spirit of Islam is the Chief Factor in Reforming Contemporary Society

Among the most useful papers came before the third conference of the Islamic Research Academy was prof. Abdul Hameed Hassan's (Member of the Islamic Research Academy) above mentioned one. The author explaines the contributions of Islam to reform the individuals and societies. He speaks about the effects of them in reforming the Contemporary Society. Following are the excerpts of this paper :

"Conscious and highly cultured men aspire to a better life. Developing nations also long for a prosperous life that may restore their prestige and make up for the backwardness they suffered under the heavy yoke of colonisation and during the periods of weakness and failures. Progressive countries likewise endeavour to step up their progress and thus keep pace whith world civilisation. The so-called advanced countries at prsent day are still doubtful as to which path they have to follow, or to which system they should adhere, in order to ensure a quiet and contented life. These countries keep on thinking in a bid to reach a better way of leading their lives.

The struggle between capitalism and socialism in all its forms is raging fiercely. All peoples of the world long for a preaceful life after the darkness they had plunged in. They seek a solution to those problems which embitter their lives and threaten their existence.

The Arab nations could not help comparing their former condition of power and glory to their present unenviable plight. The Islamic nations who were known for their considerable strength and close bonds through the Arabic language that provided a strong link and a ground for mutually warm sentiments among them have now been deprived of a dignified and decent life, in as much as imperialism estranged them through destorting their language. However, they still ente-

'the human society under the aegis of Islam', and 'the spirit of Islam is the chief factor of reforming contemporary community, the third conference emphasises the interest Muslims take in studies which prove that they keep pace with the latest developments of arts and sciences, and adhere to the principles of their religion.

By discussing the subject of integration of Islamic environments and the determination of the beginning of lunar months, the conforence also emphasises the fact that Muslims throughout the world are governed in their religious affairs by common ties and systems.

Gentlemen,

Not only Muslims but also those concerned with social and economic studies throughout the world are eager to see the light of Islamic view shining upon the social and economic questions of the day assessed within the context of Islamic principles.

Gentlemen,

The United Arab Republic responds to basic human requirements to ensure a free and decent life for all in conformity with the basic principles of religion. Care has, therefore, been taken to establish a system where exploitation has no longer any place, and where mass production, honourable transactions, free education, the right to employment, the freedom of expression and the written word have the upper hand.

Attention has equally been paid to religious affairs. Religious research and publications in all branches of knowledge are encouraged by the State which lives up to the principles of religion in supporting oppressed peoples.

Thus the State emphasises the fact that it is good deeds that indicate good intentions. Muslims might just as well, for their well-being in this world and the next, count on deeds not words. They should strive in the cause of Allah with the devotion due to Him, and believe that in the absence of social freedom there is no political freedom

We have indeed in the Apostle of God-Allah bless him and grant him peace - and his companions, a good pattern of conduct. The Apostle did not seek influence or personal aggrandizement. He taught us by good example that the true call for Islam should be confined to preaching Islam, free from the ambitions of this world. It is not plausible that the call for Islam be made by a leadership deeply sunk into a leisurely indulgence of treasures alongside the abject poverty of a people yearning for the bare necessities of life.

May Allah guide you. He is the best to protect, and the best to help.

At that time the spirit of Islam stood for sacrifice and self-denial, for progress and positiveness, for serious and tireless preaching. It believed in the ideal society and tried to establish it. It believed in all classes of people especially those who lacked the opportunities of life. It called for the abolition of class and differences between Muslims, so that each individual should feel he was entitled to a just share in the wealth of his native land.

Gentlemen,

Before coming I recalled the Conference's previous resolutions. I found they had for the first time tackled debatable issues with complete frankness and other issues of which theologians took no notice.

The two previous conferences proved to be worthy of appreciation and praise because they rose to the level of their responsibilities and coped with problems about which previous scholars took no trouble.

The first conference discussed the subject of private property and adopted a resolution which stressed the right of authorities to place such limits on private property as would check flagrant evils and further the public good. It was decided that usurped property and unlawful acquisitions should be handed over to their lawful owners or to the state Treasury. Again it was decided that imperialism and its agents constituted the cheif danger to which Muslim individuals, communities and states should offer persistent resistance until the Muslim conscience, science and countries were liberated. Furthermore, the conference denounced Zionism as a new slogan of the insidious disease of colonialism, and emphasised the struggle against both imperialism and Zionism as an obligation upon every Muslim.

The second conference considered family planning, the Palestin question and the attitude of Islam towards slavery. In the name of Islam it condemned the attempted repression of the natural rights of both individuals and communities, and called upon Muslims all the world over to resist such attempts, affirming that such resistance was incumpent upon every Muslim and that the shirking of this responsibility was a major sin.

The originality of the treatises discussed by the two previous conferences is amply proved by the fact that the logic of the research papers presented for consideration in this third conference emphasises the necessity of pursuing the study of subjects of far-reaching effect on the life of Islamic peoples.

By discussing the role of the Quran in modern education, 'the Islamic and contemporary economy',

SPEECH

By : Mr. HUSSEIN EL-SHAFE'I, VICE-PRESIDENT OF U.A.R.
(ON BEHALF OF PRESIDENT GAMAL ABDEL NASSER)

In the name of Allah, Most Gracious, Most Merciful. Praise be to Allah, Lord of the Worlds. Peace and blessings be on the leader of Apostles.

Members of the Islamic Research Academy, and guests of the United Arab Republic,

I welcome you in the name of President Gamal Abdel-Nasser and convey to you his greetings and best wishes for the success of your conference upon which the attention of every Muslim is focused. I have the pleasure to assure you that President Gamal Abdel Nasser follows with keen interest the conference's deliberations. The President believes that the meeting of Muslim scholars provides a vital medium to the attainment of objective opinions on a basis of research, knowledge, and recommendations seeking the pleasure of Allah and the benefit of all Muslims on the local level as well as on the level of the whole Muslim world which extends across five continents.

I have also the pleasure to express the deep appreciation by the people of the United Arab Republic of your sacred struggle for the cause of Allah. Our government and people appreciate the hardships you suffered on your long journey to attend this conference for the sake of Islam, and the propagation of its teachings and heavenly verities upon which rests the wellbeing of Muslims.

Gentlemen,

Thanks to God (exalted He be) for affording us the opportunity of meeting in this third conference of the Islamic Research Academy.

Your annual conference has come to provide an opportunity for Muslim scholars to gather for the sake of pure knowledge free from every sort of political considerations that would alienate its scientific character. This character is worthy of Al-Azhar which has never failed in its mission as custodian of the Islamic heritage for almost one thousand years.

Your conference has, likewise, become an occasion impatiently awaited by all Muslims, who follow with keen interest the social, economic and political issues submitted to the conference, and look forward to such resolutions as would satisfy the Islamic peoples and meet the challenges facing Islam with sound religious decisions.

The free Islamic thought should have the upper hand it had at the beginning of the divine ministry.

On most of them the conference adopted resolutions and recommnedations aimed to serve the Islamic community in both temporal and spiritual affairs, to reinforce the sense of co-operation between Muslim peoples, to support their just causes, and to correct the understanding of some legal rulings. Some papers are still under discussion because they require more time to be thoroughly studied so that the premises may be adequate to pass verdicts and draw conclusions.

To-day opens a new session of the Islamic Research Academy. The research papers prepared by the members will be presented for consideration to the confercnce on many matters of vital concern to Muslims at large. Foremost among the papers is the role of the Sunna in Islamic legislation and the refutation of doubts and suspicions cast on its authenticity and transmission. Several topics engaging the attention of Muslims at the present time will be presented for the first time such as the means of fixing the beginning of lunar months, thus determining Muslim feasts and other religious occasions with precision.

The conference will also discuss the means of benefiting by the sacrifices offered on the occasion pilgrimage as well as the questions relating to Islamic and contemporary economy.

Gentlemen,

I regret to announce the death of an eminent scholar of Islam and a member of the Academy, the late Sheikh Al Bashir Al Ibrahimi. May Allah shower His choicest blessings on him and rank him with the righteous.

Gentlemen,

In this session the plan of work will be the same at that of the two preceding sessions. It will be carried out in two stages, the first starts to-day and ends on the eleventh inst. In this stage the guests will participate with the members of the Academy. The second stage will continue to the end of the fourth week following inaugural meeting. The work of this stage will be confined to the Academy members.

As I have said and always say, to state the religious point of view on these topics and porblems would not suffice. Our chief duty is to determine the means of implementing the resolutions and recommendations of the conference so that they would become the working plan for the Islamic community and the object of serious consideration. " Say : Work, Allah sees your work, and His Apostle and the Believers."

And Allah's is the guidance.

Peace be on you, the mercy of Allah and his blessings.

The plans of the Academy will be put into practice only when the influence of the Academy makes itself felt on the international level, when its message is supported by the organizations interested in the cause of Islam as well as by the forces in charge of Muslim affairs. Without such plans and support any step towards reform would serve no other purpose but to embolden the foes of Islam to disparage the Faith and strike at its roots.

Hence the need for frequent meetings in this Islamic forum in order to discuss the methods of preserving the Islamic religion and creed and ensuring a life of honour and glory for the Muslims. The will be achieved when conformity is established between life and religion, behaviour and creed. Not only will such conformity be a spiritual and consicious force capable of facing all challenges and smashing all orroneous nations and misleading calls but allso a coherent and social force calculated to bring welfare to Muslim peoples. "On that day the believers will rejoice in Allah's help."

It is for this reason that we should think seriously of the religious and cultural affairs of tens of millions of Muslims who represnt minorities in many countries in order to help them understand their true religion in its pristine purity.

They should, therefore, be present here with their problems for the Academy to solve them in the light of the real life they live.

In order to enable the Academy to shoulder all these responsibilities, its scope has to be broadened and its powers increased.

Gentlemen,

The current session of the conference was preceded by two ones, the first of which was the first fruit of the Academy and the beginning of joint thinking among Muslims in modern age. In that session the Academy discussed several research papers and adopted resolutions and recommendations which might justly be considered as new rulings meeting the exigencies of the age. The second session, likewise, withessed a set of scicentific researches of vital importance, covering a wide range of topics such as 'The Islamic creed as expounded in the Quran', 'Contemporary bank transactions from an Islamic perspective', 'Family planning and birth control, and 'The status of woman in Islam. Other research papers dealt with social and cultural topics refuting many perverted concepts and ideas alien to Islamic culture.

All these papers were the subject of intensive study and discussion.

feelings through sympathy which paves the way for co-operation.

This aim will be achieved when Islamic communities believe that they possess a common heritage which can help them to face the problems of life and overcome these problems, when they believe that they form one nation combined by one religion having the avowal of one Creator as its essence, the worship of God as its meanr, love as its effect, good life, dignity and righteous behaviour as its fruit, all of which are the aspects of the message for which you, eminent scholars, are responsible and upon which you establish the methods of reform.

Gentlemen,

It will not be difficult for the Academy and its scholars to reduce all the new elements that entered the life of Muslims to the General principles and rules laid down by the canon law for the regulation of Islamic life. The canon law with its broad principles and rich details and the wisdom involved therein will make the task easy. To-day, however the matter is far more serious than the task of casuistry, elucidation and interpretation. We live in an age seething with internecine strife for domination and influence, a strife unprecedented in the history of humanity, whose aim is not concerned with the practical life of mankind. Its real aim is to do away with religion both negatively and positively. To this hidden aim attention must be turned, and to its defeat all energies should be directed.

It is obvious that as yet the Islamic world is far from thinking of this challenge which threatens its religion. So far it has not analysed this challenge nor assessed its disastrous effects upon Muslims withe intellectual and dogmatic invasion involved therein. The Islamic world has not thought over the means of facing this challenge.

In this respeet a heavy task devolves on the Academy as well as on Muslim peoples and communities.

The task of the academy is to reveal the Islamic values which establish the balance between the force of the individual and the society. It has also to reveal the major Islamic truths in a codified, scientific framework in whose light a Muslim could see his religion its pristine form and original purity, thereby distinguishing false and deceptine values which neither insure a safe future nor convince a sound mind.

The task of Islamic peoples is to instil these values into the minds of the rising generations, deepen their belief in them, and conform individual and corporate behaviour to them.

Allah saith truly in this connection, "Believers, men and women, are protectors one of another". Hence, sound belief and righteous work are the basis of good bohaviour for both the individual and the community. The present conditions of Muslim peoples will be mended in the same way as those of first generations, Mundane interests will not unite Muslim peoples unless they are united by their religious doctrines, unless they are prompted by the motives of the covenant which Allah ratified whith them. But they will not be united by religious doctrines u less these doctrines are firmly rooted in hearts free from hatred and minds pure from sin. "The blood of Muslims is equally retaliated. A promise made by an individual Muslim shall be taken as a Mromise held out by the whole community. Muslims form one front against their enemies".

To achieve this lofty ideal the Islamic Research Academy has been established so that it may be a meeting-place for Muslim scholars at large irrespective of their different opinions and tendencies.

Within the precincts of the Academy they meet, drawing inspiration from the Holy Book, seeking guidance in the pure Sunna. 'In their discussions and deliberations they seek the truth and upholdit. Then they proclaim their verdicts regarding the problems discussed in a friendly atmosphere free from discord.

Had the Islamic Research Academy confined its attention to questions of jurisprudence and their solutions, it would have been doomed to failure, but since its birth and during its short span of life, its field of work has been the Muslim community; its means of work jurisprudence and study ; its aim of research work, to rectify individual and social behaviour.

The purpose of scientific research in this respect is to solve the problems that confront Muslims in their daily life in a way that conforms to the tenets of their religion so that religion and life should not become poles apart with the result that Muslims are either driven by the current into dark depths of materialism brightened by dim, faint light of falso values and artificial ideals which could neither enliven a human soul nor stand the test of time or rather driven by puritanism and extremism to the verge of monasticism and ascetism devoid of all dignity and glory and freed from the duties of social life urged by Islam.

The aim of studying the problems of Islamic communities is to find scientific solutions to them is a bid to promote friendly relations and

SPEECH

By : Dr. Mahmoud Hubb Allah
Secretary General to the Islamic Research Academy

In the name of Allah, Most Gracious, Most Merciful.

Praise be to Allah. Him we praise, His aid we invoke, His guidance we seek. In Him we believe and in Him we trust. Allah bless His Apostle Muhammad and grant him peace together with his family and companions and the adherents of his religion.

Gentlemen :

To-day we meet in the U. A. R. under the aegis of Al-Azhar the house of Allah, the centre of learning, the stronghold of Islamic call, and the Mecca of Muslim scholars since ancient times.

To-day we meet in the third conference of the Islamic Research Academy, in response to God's call, and in order to deepen our knowledge of God's religion and law, and to promote the spirit of co-operation enjoined by Islam as a pre-requisite for the development of nations and communities.

We have already met in two conferences held before in which some members presented their studies and researches while others expressed their opinions and presented the problems of their people and the aspirations of their countries. All the participants were inspired with an earnest hope and a major objective, namely, that Muslims should regulate their temporal affairs according to the tenets of Islam, free from distortion or falsification, conform their behaviour and institutions to the doctrines of their religion without alteration or deviation, and adhere to the Truth at a time when the Muslim community is impaired by the factors of weakness and threatened by the cancer of division and disunity.

Muslim peoples are characterized by a salient feature with which Allah endowed both the individual and the cmmunity. Islam teaches the individual to live far himself and his religion as well as for his community, seeing that he is a single entity living in a society which knows no bounds. At the same time it teaches the community to cooperate in order to make the individual live happily and breathe freely under its protection and care.

held by God is summed up in two main injunctions :

1 — Our bounden duty to expound in plain language the teachings of Islam.

2 — Our bounden duty to abstain from disguising these teachings.

"And (remember) when Allah laid a charge on those who had received the Scripture (He said) : Ye are to expound it to mankind and not to hide it" (III, 187).

God, Glory be to Him, has equally explained what we have to perform; nay, He had taken from us a strong pledge to utter the truth as evidently revealed in His Holy Book. Thus, we should not say against God aught but the truth.

"Hath not the convenant of the Scripture been taken on their behalf that they should not speak aught concerning Allah save the truth ?" (VII, 169.).

For this reason, we have met together, and this would be the course we have to follow in our Congress, throughout this session and subsequent ones, by the Grace of God.

To the United Arab Republic is due the honour and credit that are greater than I can say : because it is the country to which belongs the exalted Azhar, the stronghold of Islam, the shining torch of learning and the castle of Arabism. The United Arab Republic is the principal centre of fraternisation (where people associate with each other in a spirit of friendly equality), by which we are most favourably impressed.

To her eminent people and honourable scholars, who represent the greatly beloved President Gamal Abdul-Nasser, we present our heartiest thanks and fervent prayers to God to favour them with ample reward.

Peace be upon you, God's mercy and His blessings.

in Allah and the Last Day and the angels and the Scripture and the Prophets; and giveth his wealth, for love of Him, to kinsfolk and to orphans and the needy." (II, 177).

Islam admits no partisanship, disunion, sectarianism, or the formation of contending blocs, because he whole body of Muslims are considered as closely related together through a firm bond of brotherhood. They are one unique monolithic party; the party of God.

"Lo! is it not Allah's party who are the successful ?" (LVIII, 22)

God has admonished the faithful that whosoever takes infidels as friends, is deemed as one of them. "Your friend can be only Allah; and His messenger and those who believe". (V. 55).

Nay, God has warned believers of disunion: otherwise they would be idolaters. "And be not of those who ascribe partners (unto Him); of those who split up-their religion and became schismatics, each sect exulting in its tenets".

(XXX, 21, 32).

In every issue that arises, Islam ordains, unceasingly, to have recourse to God, His messenger, and qualified scholars who are quite competent to apply the method of deductive reasoning. As to those who impart any novel issue or extend their hands to unbelievers are not considered as real Muslims.

"When there comes to them some matter touching safety or fear, they divulge it, whereas if they had only referred it ot the Apestle and such of them as are in authority, those among them who are able to think out the matter would have known it. If it has not been for the Grace of Allah and His mercy ye would have followed Satan, save a few (of you)", (IV, 83).

The Islamic Research Academy, composed of the foremost Muslim scholars, representing all the countries of the world, is our unique and cherished hope; it is the strong and unbreakable rope of God (to which all Muslims should hold fast).[1]

All of us are held responsible for obligations, to comply whith which we are answerable to God, His Book, His messenger, and to the whole body of Muslims.

The pledge in which we are

(1) The phrase between two Brackets is added to explain what is intended by thy author as regards 'the rope of God'. The expression is quoted from the (Quranic verse : "And hold fast all together, by the Rope which God (stretches out for you), and be not divided among yourselves". (III, 103). (Tr.)

SPEECH

By : Shaikh Ibrahim Siwar Al-Dhahab

On Behalf of the Delegates to the Conference

Praise be to God, Lord of the Worlds; peace and blessings be on Muhammad, the noblest of Apostles, his family and all his Companions.

Your Excellency vice-President of the United Arab Republic,

Your Eminence, the Great Imam, Rector of Al-Azhar and Chairman of the Congress,

Honourable Members of the Islamic Research Academy,

Honourable Delegates,

God's peace be upon you, His mercy, and blessings.

I have been most fortunate and immensely favoured by Providence to be accorded the honour of giving a speech on behalf of the delegations to this solemn Congress.

I extend to all of you, honourable Members, thanks that are beyond my humble powers to express. You have obliged us by the noble work you have accomplished and which is still in the course of fulfilment. I refer to these valuable Islamic studies, the statements of which you have deduced from the fully detailed indications in the standard works of Muslim jurisprudence. They are intended to be entirely grasped by Muslims, so that the latter can act conformably to the verdicts which these statements comprise, and which have come to be a corpus of rulings, highly adaptable to every age and country, and considerably promoting the interests of the whole body of Muslims in both East and West.

No doubt that one of the basic fundamentals of Islam is to effect a perfect accord amongst Muslims whose strength is gathered, in dignity and power, for realising righteousness and charity and making mutual recommendations to truth. God has veraciously said : "By the declining day, Lo ! man is in a state of loss, save those who believe and do good works, and exhort one another to truth and exhort one another to endurance." (CIII, 1,2,3.)

Righteousness, in Islam, can never be earned by the mere directing of one's face towards the east or the west. "It is not righteousness that ye turn your faces to the East and the West; but righteous is he who believeth

We should act in conformity to what we have learned as the appropriate teachings of Islam, so that we would not be included with those whom God described in the Quranic verse : "O ye who believe.. Why say ye that which ye do not ? It is most hateful in the sight of God that ye say that which ye do not." (LXI, 2, 3.).

Gentlemen, After having set a good example, we have to help those in authority in Muslim countries to put into force God's 'Sharia' instead of applying man-made legislation which is widely divergent from the divine. Thus, God's rulings can be applied as much as possible by Muslim rulers.

Once, Muslim rulers are accorded this guidance, the enemies of Islam would give up any hope of trying to deceive us through temptation and insinuation, because we would have recourse to God's 'Sharia' and the heavenly revelation.

I pray God, the Exalted, to help us in every deed (of piety) and in all that we renounce. "Our Lord.. Give us mercy from Thy presence and shape for us right conduct in our plight." (XVIII, 10.).

We, unanimously, implore Him to unite all Muslims in truth and to make them "hard against disbelievers and merciful among themselves" (XLVIII, 29).

I pray God, the Exalted to bestow upon Muslim rulers success and to strengthen through them the prestige of Islam, so that Allah's word becomes the uppermost.

On behalf of the Conference and of all Muslims, I greet President Gamal Abdul Naser, because he had been helped by God to establish the Islamic Research Academy, to found its Council, and to put this Conference under his gracious patronage.

I, equally express my heartiest thanks to him for deputising the vice-president Al-Sayyed Hussein El-Shafe'i at the formal inauguration of the Conference. I implore God to reward adequately all those who have rendered good services to this Conference and have striven to make it a success, so as to enable it to perform its message. "Allah is sufficient for us .. Most Excellent is He in Whom we trust" (III, 173).

May God's blessings be upon you.

exhortation". "Say: O people of the Scripture.. Come to an agreement between us and you, that we shall worship none but Allah, and that we shall ascribe no partner unto Him, and that none of us shall take others for lords beside Allah. And if they turn away, then say: Bear witness that we are they who have surrendered (unto Him)" (III, 64). And His saying: "The messenger believeth in that which hath been revealed unto him from his Lord and (so do) the believers. Each one believeth in Allah and His scriptures and His messengers - we make no distinction between any of His messengers". (II, 285).

We declare to the world, at large, that Islam calls upon mankind to come to a word laid down plainly that we will not worship other than God, nor associate aught with Him, because God is He who created everything. He is the Omniscient, Who is marked out with all the perfect attributes. "Naught is as His likeness. He is the Hearer, the Seer". (XLII, 11).

God, the Almighty, knew mankind's need to Islam, so He revealed the Holy Quran to His messenger Muhammad The Quran comprises the word of God who promised to guard it against any alteration or modification. God says: "Verily, we have sent down the Reminder and verily we will guard it."

(XV, 9.).

He, who believes in any revealed religion, and intends, through his own free will, to embrace Islam, is not required to renounce the message of the former prophet in whom he had believed. It would only suffice to rectify his faith in the unity of God, to disown associates with Him, to worship God sincerely, and to believe in the message of Muhammad together with the messages of the former prophets, including the one in whom he had previously believed.

The call to Islam is mainly based on the fact that God had created mankind and that nobody is distinguished by either race or colour. Merit is only accorded to those who perform pious deeds. The Holy Quran had declared these principles fourteen centuries ago. God, the Almighty says: "O mankind Lo.. We have created you male and female, and have made you nations and tribes that ye may know one another. Lo.. the noblest of you, in the sight of Allah, is the best in conduct. Lo.. Allah is knower, Aware." (XLIX, 13.).

To perform adequately our duty, we would greatly be helped, if we set a good example to all Muslims,

with the rejoicing of Zionism all the world over, hailing the project of the Islamic Pact, how all the Information media in Israel have been made use of to propagate for the idea of the Pact. The council discussed, as well, the statement I had already made, before its meeting, in which condemnation of the prospective Pact is clearly expressed. The council, then issued the following decision :

1. The Islamic Research Academy condemns the political and colonialist motives underlying the idea of the Pact and calls the attention of the Muslim states to caution themselves against the deceptive methods adopted by the colonialistic policies.

2. The counil supports the statement that had already been issued by His Eminence the Rector of Al-Azhar as regards the proposed Pact, and considers this statement as thoroughly expressing the view of the Academy touching on the projected Pact.

The statement had been submitted to the Secretariat of the Academey and it is accessible to anyone willing to be informed of it.

Since we disagree with those who support the idea of the Pact, because we consider it as unquestionably prejudicial to the basic interests of Islam and Muslims, and regard it as a means that is considerably advantageous to colonialism and Zionism, we urge those who strive to propagate the idea of the Pact, to reconsider the project and to draw a comparison between the aims they intend to realise through the Pact and the grave misuse it would surely entail; This is due to the fact that we are a compact community of Muslims. We should renounce what causes doubt and suspicion and should adhere to what is sound and reasonable. We have to abandon what we deem as ambiguous and equivocal and abstain from anything that might contaminate our faith. We should determine as our ultimate aim the unity of Muslims and to let Muslims resolve unanimously upon truth. This is identical to what is aimed at by your conference. Equally is it maintained by the teachings of Islam.

Gentlemen :

We, as Muslim scholars, entrusted by God, the Almighty, for the preservation of Islamic teachings, are held responsible before God the Exalted for expounding the Islamic beliefs to call unto the way of thy Lord with wisdom and fair

When the attacks launched by the enemies of Islam prove to be of no avail, we shall never find anyone misled by their erroneous arguments or bent on insinuating their preposterous assumptions.

In such a way, the Islamic atmosphere might be cleared from any intriguing or plots intended to break asunder the unity of Muslims. Henceforward, Muslims would easily recognise their true enemies : avowed or disguised.

Since the ultimate aim of this conference is to promote the interests of Islam, the first duty of Muslims should be to clean off the Islamic territories from every usurping intruder or despetic accomplice. It is up to Muslim seholars to guide their brothers in faith so as to make them fully informed about the verdict of Islam, bearing on any sort of bloc or combination that is apparently showing compliance with the teachings of Islam but is really intended to lead to surrender and submission.

Both old and modern historical events indicate that the enemies of Islam in the past are quite similar to their corresponding representatives who are challenging the modern world of Islam; the Zionism of to-day is merely an extension to the medieval crusading spirit of yesterday.

If Muslims were to realise this fact, they would recognise those who had been hinted at by God in the Quranic verse "Allah forbiddeth only those who warred against you on account of religion and have drived you out from your homes and helped to drive you out that ye make friends of them. Whomsoever makes friends of them (all) such are wrong-doers" (LX, 9).

Taking in charge this duty, the Academy's council investigated in its twenty first meeting, held on the 1st of Dhul-Hijja 1385 A. H., (23rd March, 1965) the attitude to be adopted towards the project of forming a Islamic Pact. It had equally dealt fully with the idea of the Pact and how it had developed.

The Academy's council surveyed the attitude of those who uphold the project of the Pact and who strive to call attention to it in both the Arab countries of the Middle East and the northern parts of Africa known as the Maghreb.

The study, equally, comprised the cause of freedom in the Arab zone, its relevance to the teachings of Islam and the attitude of Muslim countries which fervently support the issues of liberation, both Muslim and Arab. The council dealt also

United Arab Republic holds, through Al-Azhar, this annual conference which is meant to let the world, at large, hearken to the final conclusions drawn from the Muslim scholars' investigations which reveal the substantial principles of Islam, as closely and clearly integrated without obscurantism, as thoroughly evolving and unfolding, without any relapse into unbridled license and as encompassing all the possible issues without adducing any pretexts.

The holding of such conference has realised the excellent presuppositions perceived by its advocates and the favourable assurance anticipated by Muslims. In its two previous sessions, the Conference had offered a voluminous corpus of academic studies, revealing the acumen of their authors and their lucid intellectual faculties. The prominent features of their scholarly work are the penetrating and exhaustive research, the variety of topics, and the adaptability of their inquiries to the mental outlook of our age and the exigencies of the modern ways of living.

The Islamic Research Academy has dealt fully, in the recommendations and decisions it has issued, with what engrosses the attention and energies of Muslims, i. c. liberating their respective countries from colonialism, purifying their faith from schismatic aberrations, and exposing the misleading trends in cultures, known to be utterly lacking in consistency and reasonableness.

Whe implore God the Almighty to bestow upon us further aid, so that we might be more competent to grasp and fathom the teachings of His Holy Quran, to be appropriately guioed by the Sunna of His Prophet Muhammad and the 'Ijtihad' of former Muslim scholars who had perceived Islam in a way totally devoid of fanaticism and who had adopted a tolerant attitude in argumentation and fairness in controversy. Thus, we emphasise to the contemporary world that Islam is fully equipped with the fundamentals, essential for realising a virtuous life and constituting a prosperous community whose individuals co-in operate charity and righteousness.

Once we are favoured by God in realising this aim, we shall have refuted the doubts raised by the enemies of Islam as to the adaptability of the Muslim Faith to real progress in all the aspects of life and to its competence to offer mankind a perfect and upright form of civilisation in which both the material and spiritual standpoints are fully integrated.

SPEECH

By

H. E. HASSAN AL-MAMOUN
THE GRAND SHEIKH OF AL-AZHAR

In the Name of Allah, the Beneficent, the Merciful, I open the third session of the congress of the Islamic Research Academy. On behalf of Al Azhar, I greet you with the greetings of Islam that start with peace and culminate in mercy, and blessings from God. Glory be to Him and may He be Exalted.

May God's blessings be upon you.

I extend to you further greetings on behalf of all Muslims; these are meant to be an expression of confident anticipation and trust in you. Praise be to Allah, Who hath guided us to this. We could not truly have been led aright, if Allah had not guided us. I pray for and greet the Holy Prophet Muhammad whom God hath sent with the guidance and the religion of truth that He may cause it to prevail over all religion.

The United Arab Republic, honoured by the adopting of Islam as its faith, and Arabic as its language and Al-Azhar as its foremost site of Islamic learning, feels great pleasure in welcoming Muslim scholars from all parts of the world and in according them a warm reception that corresponds with the noble task and expected achievements for which they have been invited.

It is a great honour to the United Arab Republic to afford Islam a favourable opportunity to let a world adrift and confused hear the word of truth uttered by honest and outspoken hearts.

Firmly believing that religion with Allah is Islam, the United Arab Republic has recognised the appropriateness of Islam to all ages and countries, has perceived the adaptability of its teachings to any novel issues that might arise in human life and its compliance with the inevitable stages in human development. This is due to the fact that Islam had been constituted by God Who knows what He had created and He is the Subtile, the Aware.

As a corollary to this firm belief in the matchless traits of Islam and in the distinction of its principles and legislation which treat fully with the whole issues of life, the

explore ways and means of unifying Muslims of all countries so that they may form a united front co-operating individually and collectively in virtue and piety and working together for their own benefit and that of humanity. It also resolves that the Academy should equip itself as early as possible with all the means necessary for the spread of Islam, and its defence and the necessary for carrying out these duties and also the pooling of resources. This is a matter of utmost inportance demanded by contemporary Muslim life".

The first conference of the Academy created great hopes and kindled much courage, thus a second International conference of the Muslim scholars was held in May 1965. It studied topics concerning the family and society and announced its recommendations on the subjects of Financial and Economic Affairs, Family and youth Affairs and problems of civilization and social Affairs.

Now we have before us the fruits and blossoms of the third conference. The general picture of these experiments sheds light on the path of the Islamic Research Academy. This great Academy connected the bonds that were broken and awakened the Muslim scholars to a new life of unity and solidarity and provided them opportunity to exchange views on various problems facing the Muslim world. There can be no two opinions about the importance of these conferences of the scholars of Islam, who shoulder the responsibility of spreading Islam and solving dogmatic and social problems. This indeed is no mean acheivement for the Academy.

The Inaugural Session and the Speeches

The Inaugural Session of the third Conference of the Islamic Research Academy was held in the conference hall of the Cairo Governorate on Saturday, 1st October 1966 (16th Jumad al-Akhira 1386 A. H.). The Grand Sheikh of Al-Azhar, H.E. Hassan Al-Mamoun delivered the inaugural address. Sheikh Siwar Al-Dhahab of Sudan spoke on behalf of the delegates participatin in the conference. Dr. Mahmoud Hubb Allah, Secratary General to the Islamic Research Academy, then reviewed the important role of the Academy in solving the problems that confront Muslims in their daily life. And he explained the tasks and issues which were before the conference. Mr. Hussain Al-Shaf'ei, Vice—President of U. A. R. delivered a speech. He wolcomed the delegates on behalf of President Gamal Abdul Nasser. Following are the texts of the speeches delivered in the session :—

SPECIAL ISSUE

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Jumâdal-Akhira 1386	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	October 1966

THE THIRD INTERNATIONAL CONFERENCE OF "The Islamic Research Academy"

By : A. M. Mohiaddin Alwaye

The third Conference of the Islamic Research Academy was held in Cairo in October 1966, under the auspices of the glorious Al-Azhar and the guidance of the great Muslim Scholars of the world.

This was a continuation of the previous two conferences held in 1964 and 1965. The Islamic Research Academy was established in 1961 under the patronage of Al-Azhar, to serve as the highest body for Islamic Research. It also aims at undertaking the study of all that pertains to the Islamic heritage, working on an international level, aiming for the rejuvenation of Muslim culture releasing it from the many past false accretions. So presnting the true elements of Islam.

This Academy also aims following up all that is published by Muslims and non-Muslims alike about Islam and its legacy, to benefit from what is right and to refute and rectify what is wrong. The first conference of the Academy, which comprises a select number of scholars with profound knowledge of Islam and its heritage, was held in March 1964 in Cairo. It was a dream come true. That conference had given the Muslim Scholars, from all over the world, a forum to meet and an cpportunity to share each other's views. The first conference announced in a statement:

"The conference resolves that the present condition of the Muslims imposes a duty on the Academy to

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزءان الخامس والسادس - السنة الثامنة والثلاثون - رجب وشعبان سنة ١٣٨٦هـ - أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

لغتنا بين العلم والتعليم

بقلم
أحمد حسن الزيات

أكتب اليوم عن اللغة وصلتها بالفكر وخطرها في النهضة وأثرها في الوحدة، فإن الكلام من حولها يكثر، والرأي في أمرها يختلف. وما كان لكثرة الكلام عنها داع ولا لاختلاف الرأي فيها موضع، لولا أن فوضى الأدب في مصر قد جعلت من اللغة العربية وأدبها مسألة تريد الجواب ومشكلة تطلب الحل. ولهذه المسألة أو المشكلة أصلان: الاستعمار والجهل، أما الاستعمار فلأنه رأى أن الرابطة بين المسلمين على اختلاف الأقطار وتباعد الديار هي الدين واللغة. وما دامت أمة محمد روحاً واحداً بالإسلام، ولساناً واحداً بالعربية، فإن استقلالها موقوت وإن طال، وإن استقلالها آت وإن تأخر.

لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب في مراكش والجزائر لفتنة البربر عن دينهم بإصدار الظهير المعروف، وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين؛ ولكن دين الله كان أقوى من ظهير فرنسا، ولغة المصحف كانت أبقى من لغة السيف.

واكتشفت انجلترا على عادتها من الدهاء والكياسة بمحاربة الفصحى فدعت إلى العامية بلسان موظفيها ومبشريها ومستشرقيها ، لأن اللغات العامية تختلف فى البلاد العربية اختلافا شديداً يكاد يجعل كل لهجة منها لغة مستقلة . وإذا انهزمت أمامها اللغة المشتركة وهى الفصحى استحال التفاهم وضعفت العقيدة وانقطعت الصلة وتفرقت الوحدة وتبددت القوة واستطاع المستعمر أن يبتلعها قطعة قطعة ، ولكن هذه الدعوة فشلت بضعف الاستعمار فى الشرق وقوة الوعى فى العرب .

وأما الجهل وهو الأصل الآخر لمشكلة اللغة العربية فقد خلف الاستعمار فى هذه الدعوة المجرمة . والمراد بالجهل جهل أبناء العربية بها ، وعزوفهم عن علومها وأدبها ، وهو جناية المدرسة . فقد فشلت فى تخريج القارئ الذى يقرأ عن فهم ، والكاتب الذى يكتب عن علم ، والمفكر الذى يفكر عن أصالة . وليس أدل على هذا الفشل من أن الطالب يتعلم النحو عشر سنين دأبا ، ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعبر عن فكره تعبيراً صحيحا لا بلسانه ولا بقلمه . فإذا دفعه استعداده الأدبى إلى الكتابة آثر العامية على الفصحى ، ودعا إلى التحلل من القواعد والقيود ليجعل الفوضى نظاما والخطأ مذهبا والعجز شركة .

وعلة هذا الفشل هى النحو نفسه ، فإن فيه من التناقض والشذوذ وتعدد الأوجه وتباين المذاهب ماينفر الطلاب منه . والذين صبغوه بهذه الصبغة هم الرواة الذين رادوا البوادى وشافهوا الأعراب ودونوا كل ما سمعوه ، فاجتمع لهم بذلك المترادفات والأضداد وتعدد الجموع والصيغ للفظ واختلاف النطق للكلمة . وكان النحاة مضطرين إلى أن يطوعوا قواعدهم لتشمل هذه الحزون وتستوعب تلك اللهجات ، فأغرقوا القواعد فى الشاذ ، وأفسدوا الأحكام بالاستثناء ، حتى ندر أن تستقيم لهم قاعدة أو يطرد عندهم قياس . وزاد فى هذه البلبلة أن أعاجم النحاة أسرفوا فى التعليلات والتقديرات حتى جعلوا النحو والصرف ضربا من الرياضة الذهنية والقضايا الجدلية التى لا يصلها باللغة سبب ، ولا يقوم عليها فن ولا أدب

فإذا كان القائمون على اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم ينظرون فى النحو والصرف على أنهما قواعد للغة واحدة ولهجة واحدة فيقتصر منها على القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة وتقوم تلك اللهجة ، على شرط ألا تجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة ، وألا تجعل بالاختصار أشبه بالهيكل العظمى ، فيه الخفة والبساطة والشكل ، وليس فيه العضل والعصب والروح ؛ وإذا كانوا يعيدون النظر فى علوم البلاغة بعد أن اختلفت مذاهب القول ، وتعددت أغراض

الكتابة ، واستحدثت المقالة والأقصوصة والقصة والرواية ، فيصلح منها الفاسد ويكمل الناقص ويفصل المجمل ، لتتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر ؛ رجونا أن تسفر جهود الثورة عن إصلاح لغوى كامل شامل يحبب اللغة إلى الطلاب ، ويسهل الكتابة على الكتاب ، وينفى عن الشباب معرة الجهل بلغتهم وأدبهم فلا يدعون إلى اللغة العامية ، ولا يتمردون على الآداب العربية . وليس من شك فى أن رجال الثورة الذين يتزعمون اليوم نهضة العروبة ووحدة العرب سيولون هـــذا الإصلاح اللغوى ما يستحقه من الجد والجهد والعناية ، لأنهم يعلمون علم اليقين أن اللغة الفصحى هى عماد الثقافة الإسلامية ، ورباط الجامعة العربية ، وأن أدبها هو التراث الروحى المشترك الذى يثور فى دمائنا لننهض ، ويصرخ فى آذاننا لنتحد ويشتد فى حدائنا لنلحق .

وفى اعتقادى أن أصل الأصول فى الإصلاح اللغوى أن نصلح الطريقة التى تعلم بها اللغة ، فإنها لا تزال تعلم باعتبارها ألفاظا مفردة ، وقواعد مجردة لا تتصل بالعقل ولا بالنفس ولا بالحياة .

وكان الطريق الأمثل أن تعلم على أنها الوسيط الذى تتمثل فيه الأفكار والآراء فنحن لا نفكر إلا بلفظ ، ولا نلفظ إلا بفكر ، والتلميذ منذ الحداثة يسمع الفكر باللغة ويقرأه باللغة ويبرزه باللغة ، فالتلازم بينهما شديد والتفاعل بينهما ظاهر ، وهذا هو الفرق بين لغة تتكلمها منذ الصغر ، ولغـــة تتعلمها فى الكبر ، فالعربى إذا تعلم الفرنسية مثلا وأراد أن يعبر بها فكر أولا بلغته الأصيلة ، ثم ترجم فكره إلى اللغة الدخيلة .

وهذا يوجب على المعلمين أن يصلوا فكر الناشئ بالفصحى فى جميع أطوار عمره المدرسى ، فيسمع بها دروسه فى كل ما يتعلم ، ويؤدى بهـا أفكاره فى كل ما يكتب ، ثم ينشأ للطفـل أدب قائم بذاته يتألف من الحكايات والأساطير المنتزعة من أدب الشعب تيسر عليه اللغة وتحبب إليه القراءة وتضيق فى ذهنه الفرق بين لغة الكتابة ولغة الحديث ، ثم يستعان على تقويم لسانه وتقوية ملكته بالأناشيد القصيرة الموقعة والمسرحيات البسيطة المنوعة .

فإذا بلغ طور المراهقة وكان قد نشأ فى هذا الجو الجميل من القصص والشعر والغناء والتمثيل ، طلب المزيد من ذلك فى دروس الأدب ، فتحلل له أبلغ الروائع ليتذوق ، وتشرح له أجمل النماذج ليحفظ ، وتختار له أمتع الكتب ليقرأ ؛ حتى إذا تخرج وجد القراءة قد أصبحت من عادته فلا يكف عن الاطلاع ، والكتابة قد صارت من طبائعه فلا يضيق بالإنتاج ، وبذلك يكون تعلم اللغة

على هذا الوجه قد أحدث آثاره الثلاثة : أثره العقلى بربط الفكر باللغة ، وأثره النفسى ببعث اللذة من تذوق الأدب ، وأثره العملى فى خلق القدرة على القراءة والكتابة ، وإذا استطاع الشاب بعد المدرسة أن يقرأ فيفهم ، ويكتب فيحسن ، ويفكر فيصيب ، استطاع أن يجد السبيل إلى كل علم ، والطريق إلى كل غاية .

أما تعليم الفصحى بالعامية ، وتحفيظ القواعد ليقرأ بها الطالب كتاب المطالعة دون أى كتاب ، ويكتب بها موضوع الإنشاء دون أى موضوع ، وتدريس تاريخ الأدب على أنه سجل ولادات ووفيات ، وديوان حوادث وروايات ، فذلك هو الذى كره الدارسين فى اللغة ، وزهد الناشئين فى الأدب ، وصرف أدباء الشباب إلى الآداب الأوربية ، فالمتفرنسون مثلا يحفظون (هوجو) ولا يحفظون المتنبى ، ويدرسون (فلتير) ولا يدرسون الجاحظ ، ويقرأون (لامرتين) ولا يقرأون البديع ومن هنا نشأت هذه التبعية المعيبة التى فرضت على أدبنا لآداب الغرب ، فأساليب الكتابة اليوم هى أساليب الكتابة فى الغرب ، ومذاهب الأدب عندنا هى مذاهب الأدب فى الغرب ، حتى الرمزية ، وهى كما قلت فى كلمة أخرى بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم ، يريدون أن تتبناها العربية وهى بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح ، وحتى الوجودية ، وهى وليدة الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة ، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التى كرمت الإنسان وفضلته على سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها وهو عاقل ، ولا يتحداها وهو مؤمن !.

• • •

والثورة التى هزمت الفساد وقهرت الاستبداد وحررت الوطن جديرة بأن تكفل الإصلاح للتعليم ، والاستقلال للأدب ، والحرية للفكر ، والحماية للفصحى ، لتسير الأمة صحيحة الجسد والروح ، قوية الذات والمعنى ، متحدة الرأى والهوى ، إلى ما نرجوه لها من سلطان وعمران وعزة ؟

أحمد حسن الزيات

ألوان من الرياء

للأستاذ محمد محمد المدنى

من أصول التربية والتهذيب للنفوس فى الإسلام : الاعتماد على ما فى القلوب من الإخلاص وصفاء النية ، لأن الأعمال أو الأقوال الظاهرة لا تحقق الغاية المقصودة منها إلا إذا صدرت عن قلوب منيبة إلى الله ، متجهة إليه بالقصد ابتغاء مرضاته ، وطلبا لما عنده .

فالله تعالى يريد من عباده أن يكونوا جادين فيما يصدر منهم ، لا أن يكونوا متظاهرين به ، ولذلك اعتبر الإسلام الرياء نوعا من الشرك ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : (الرياء - يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟!) .

وحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا عن ربه ، فقال : (يقول الله عز وجل : من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك) ومعنى قوله « فهو له كله » أى لذلك الشريك ، لا أقبل منه شيئا .

واعتبار الإسلام الرياء نوعا من الشرك هو تعبير جيد عن واقعه ، فإن المرائى يقصد فى أكثر الأحيان إلى ما هو من العبادات فيأتى به فى ظروف خاصة مريدا به إظهار تعبده لله ، وتعريف من يراه بأنه رجل صالح ، وبذلك يكون قد فعل الفعل الذى حقه أن يكون لله صرفا ، مريدا به وجه الناس وإن زعم أنه يعبد الله ، وفى القرآن الكريم « فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

وهذا يدل على شدة مقت الله للرياء ، وأنه يريد لعباده التطهر منه ، والترفع عنه كما يتطهرون عن الشرك الأكبر الذى هو عبادة الأوثان والطواغيت فعلا .

* * *

والرياء أنواع :

منها : الرياء بالمظهر والسمت واصطناع الخشوع :

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطىء رأسه ، ويثنى رقبته إلى صدره ، متظاهرا بالخشوع ، فقال له : ارفع رقبتك - يا صاحب الرقبة - إنما الخشوع فى القلوب ، وليس الخشوع فى الرقاب !

ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده ، فقال له : أنت أنت لو كان

هذا فى بيتك ، أى فى خفاء عن الناس لئلا يكون تظاهرا ورياء .

وقد رأيت وأنا فى القطار ذات يوم رجلا ذا سمت ووقار ، ولحيته سوداء شابة ، وهو يجلس بعيدا عنى ، وكان كلما شعر بأنى أنظر إليه يحرك شفتيه كأنه يقرأ أو يدعو ، حتى إذا تظاهرت بأنى لا أراه ، استقرت شفتاه فلم تتحركا ، فبدا لى أن أختبره ، فكررت النظر إليه مرة بعد مرة ، وفى كل مرة أراه يسارع إلى تحريك شفتيه فى ارتباك واضح من المفاجأة ، حتى أدركتنى شفقة عليه ، فصرفت النظر عنه !

وقال على كرم الله وجهه :

« للمرائى علامات : منها أنه يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان فى الناس » .

والمرائى يكون عادة ضعيف الشخصية ، فيريد أن يسترضعف شخصيته بالنفاق والخداع والتظاهر والادعاء ، ومعسول القول ، وهو الذى يقول الله تعالى فيه :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

وهذه الآيات الكريمة تصف أخطر أنواع المرائين ، وهم أولئك الذين يتخذون الدين والعبادات وسيلة لاكتساب ثقة الناس ، والتوصل بذلك إلى المغانم ، فترى الواحد منهم يظهر التقوى والورع والتحسر على ما وصل إليه حال الناس من العصيان والخروج على الدين ، وغرضه أن يعرف بالأمانة والتدين ، وقد كانوا قديماً يرغبون فى الوصاية على اليتامى أو النظارة على الأوقاف ، أو تولى القضاء بهذا اللون من التظاهر بالتدين ، والآن نجد من يفعل ذلك ابتغاء للظهور أمام العامة وجماهير الشعب ، بالغيرة على الدين ، والغضب لانتهاك الحرمات ، لأن لهم مآرب من وراء الظهور بهذا المظهر فى اقتناص الحكم والسلطان والمناصب .

ومن أنواع الرياء ما نراه أيضا من أولئك الذين يظهرون فى العامة بمظهر ، وفى الخاصة بمظهر آخر يخالفه ويناقضه ، فهم أمام العامة يتزمتون ويتشددون ويتكلمون فى الحلال والحرام والشبهات ، كلاما يبدو فيه الورع الشديد ، والغيرة على الدين والأحكام ، حتى إذا التقوا بقوم من الخاصة فى ناد من الأندية ، أو مجلس من المجالس ، انطلقوا على سجيتهم يحلون الحرام ، أو يحرمون الحلال ، ليظهروا بمظهر الحرية الفكرية ، والتقدمية العلمية ، وعدم الجمود على آراء الأولين ، وهؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن

مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

ويقول الإمام الغزالى فى هذا الصنف من المرائين :

لقد كان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض - أى لأنهم كانوا يرون قوة المسلمين، ويطمعون فيما لديهم فيراءونهم وينافقونهم باعتناق الإسلام - قال الغزالى : وهـــذا مما يقل فى زماننا ، ولكن يكثر الآن من ينسل عن الدين باطنا ، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملاحدة ، أو يعتقد طى بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلاف ما يعتقد ، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين فى النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، بل حال هؤلاء أشد من الكفار المجاهرين بالكفر ، فهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

ومن ألوان الرياء التى يمقتها الإسلام ويرشد إلى التحرز من أصحابها : ما درج عليه بعض الناس من إزجاء المدح والثناء لمن فى يدهم الجاه أو المال أو الحكم ، فترى هذا الصنف من المرائين يقسم بالله جاهدا أنه لم ير مثل عبقرية فلان ، وأنه عاش دهرا طويلا ، واتصل بكثير من الناس ، فلم ير أحدا مخلصا مثل فلان ، وهو يقول ذلك ليعلم الممدوح فيكافئه عليه ، وقد يقوله فى وجهه ليخدعه عن نفسه .

والرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من هؤلاء ويقول : (إذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب) - أى فلا تقبلوا منهم مديحهم وردوهم عن ريائهم ردا قبيحا ، كما لو أثرتم التراب فى وجه عدو لكم، قادم عليكم.

والواقع أن المادح عدو حقيقى للممدوح ، يريد أن يخدعه عن نفسه ، ويخيل له أنه أعظم الناس ، ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « من مدح فى وجهه فكأنما ذبح بغير سكين » ، ويقول النبى صلى الله عليه وسلم لمن مدح رجلا : (ويحك ! لقد قصمت ظهر الرجل) وفى هذا إرشاد وتحصين ضد الرياء ورؤية النفس ، يدور فى نطاق المعنى الذى جاء به ، القرآن الكريم ، حيث يقول الله عز وجل :

« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

ومن الناس من يرائى بالأصحاب والزائرين، فربما بذل جهده فى التعرف إلى شخص له جاه ومنزلة ليقال إن معارفه كثير، وربما رأيت المرائى من هؤلاء يجلس بجوار أحد المسئولين مثلا ، ويسر إليه حديثا لمجرد أن يقول الناس إنه صاحبه ، وكل ذلك إنما يفعله أصحابه طلبا للجاه والمنزلة فى قلوب العباد . « والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » . ؟

محمد محمد المدنى

الإسلام ونتائج المدنية الحديثة

للأستاذ الدكتور محمد غلاب

مما لا سبيل إلى الشك فيه أن المفكر الواعي لا يكاد يتأمل فيما نشأ عن الحرب العالمية الثانية من كوارث، وما تركته وراءها من دمار مادي ومعنوي، وتدهور خلق، حتى يدفعه ذلك التأمل إلى أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال في حيرة وارتباك، وهو: لماذا نشاهد أن هذا القرن الذي كشف للإنسانية كثيرا من التقدمات العلمية الباهرة قد حمل إليها كل هذا الدمار وصير مشيداتها الفاتنة خرائب وأطلالا، وجعل معالمها الجميلة دميمة شوهاء؟ ولا يوشك هذا السؤال أن يتجه إلى النفس حتى يدوى صوت العقل في منطقه المتزن الرهيب قائلا: إن السبب واضح، وهو أن الميكانيكا التي (اخترعت لتتحكم في المادة) قد سمحت لبعض الأناسي القساة المحرومين من كل حاسة خلقية أن يتحكموا في البشرية، وأن يحاولوا إخضاع العالم لإراداتهم. ومن ثم فإن واجب الإنسان الذي لا يزال يستمتع بإنسانيته، قد صار ثقيلا إلى حد الإرهاق، وإن صرخات الضمير البشري وجهوده المتواصلة، وقواه المتضافرة تكاد كلها تلتقي في حرارة وحدة التصميم على الخروج من هذه المأساة المحزنة والابتعاد من ذلك الخطر المحقق وانتقليل الجشع البشري الذي أصبح مفرطا في القوة على صورة فنية تكاد - ولا قدر الله - تصير مشروعة، أو لوقفه عند حده وإخضاعه لعقل جماعي رفيع يسمح بخلق وسائل جديدة لمقاومة هذا الخطر الكامن في هذه المادية كون الجرائم الفتاكة، والذي لو ترك إلى حيز الوجود لهوى بالإنسانية جمعاء في عبودية ذليلة تنتهي بها بعد قليل من الزمن إلى البهيمية الخالصة.

وليس هذا تشاؤما من جانبنا، بل إن عددا لا يستهان به من العلماء التجريبيين، ولكنهم أيضا من المفكرين المتعمقين، قد فزعوا منذ عشرات السنين، وسجلوا في مؤلفاتهم هذا الفزع من تلك النتيجة المرعبة الموجهة من العلم نحو الإنسانية، وطالما ذكرنا في مقالاتنا وكتبنا شيئا من نصوصهم القلقة في هذا الشأن، واليوم نستأنس برأى العالم الكبير (أليكسى كاريل) في كتابه الشهير: (الإنسان ذلك الكائن المجهول) إذ يقول:

« حقا إن العلم النقي لا يأتينا ألبته بالشر مباشرة، ولكنه يصير خطرا حين يحبس - بسبب فتنة جماله - عقولنا تماما في داخل المادة التي لا روح فيها ولا حياة، ومن

ثم فإن الانسانية اليوم يجب عليها أن تركز انتباهها على نفسها ، وعلى أسباب عدم كفايتها الأخلاقية والعقلية ... فليست العلوم الميكانيكية والطبيعية والكيمائية هى التى تأتى لنا بالخلقية والذكاء والصحة والاتزان العصبي والسلم الباطنى ، وإذن فينبغى أن يتخذ ظمؤنا إلى المعرفة طريقا آخر غير الطريق الذى يسلكه اليوم أى أن معرفتنا يجب أن تتجه من الجوانب الفيزيقية والفسيولوجية التى هى محصورة فيها الآن نحو الجوانب العقلية والروحية » (ص ٤٨) .

وليس هذا العالم وحده هو الذى ينادى بسرعة الإغاثة بل إن كثيرين غيره يطالبون بوجود اختصاصيين يشتغلون بدراسة الحياة الباطنية للإنسان وبحاجاته الدينية والأخلاقية التى تتطلب الترضية بصورة لا تقل قوة وسلطانا عن حاجاته الفسيولوجية عندما يتعلق الأمر بسعادته ، وأكثر من ذلك أن الدكتور كاريل يذهب ـ فى فكرة وجوب دراسة الانسان ـ إلى أبعد مما ذهب إليه أولئك العلماء فيقول : « فى الحق أنه منذ أن قضت المدنية الحديثة على الشرائط الطبيعية للوجود ، قد صار علم دراسة الإنسان أكثر العلوم ضرورة » (ص ٣٢) .

وإذن فالعلماء التجريبيون الحقيقيون هم الذين يدعوننا ، بل يستحثوننا على العناية بعلم الدراسة الداخلية للإنسان ، لأنها هى التى تكشف لنا النقاب عن الحاجات الحقيقية للأفراد ونحن نعلم أتم العلم أن هذه هى إحدى الغايات العظمى التى رمت إليها الأديان السماوية وعلى الأخص الإسلام بسبب ما تحقق فيه من ميزات قبول جميع المعارف واتساع صدره لكل العلوم . ومقدرة مبادئه على هضمها ، وعلى التوفيق بينها بهيئة تسمح للمدنية الحديثة بتجنب أن تصدر كارثة عامة كتلك التى يتوقعها الدكتور كاريل حين يقول :

« إن البيئة التى شيدناها بعقولنا واختراعاتنا ليست مقيسة على قامتنا ولا على صورتنا ، وهى لا تلتئم ، ونحن فيها تعساء ، بل نحن نتدهور عقليا وخلقيا ويقيننا إن الجماعات والأوطان التى بلغت فيها المدنية الميكانيكية قمتها ، هى التى تضعف أكثر من غيرها ، وهى التى تكون عودتها إلى البربرية أسرع لأنها تبقى بلا دفاع معنوى فى البيئة المادية العادية التى أتى بها العلم ... ففى الحقيقة أن القلق والشقاء اللذين يلازمان أعضاء المدنية الجديدة (أى أهل المدن المفرطة فى الميكانيكية) لا يأتيان من أنظمتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحسب ، بل هما يأتيان من تدهورهم الخاص إذ أنهم ضحايا تأخرهم فى علوم الحياة عن علوم المادة ... » (ص ٣٢) .

ولكى يكون تعبير هذا العالم دقيقا كان ينبغى أن يقول : إن علوم الحياة كانت موجودة بل متفتحة ومزدهرة ثم طغت عليها علوم

المادة فأنست المحدثين إياها نسيانا يوشك أن يكون تاما ؛ لأن الإسلام قد أتى بها إلى الإنسانية ، وأمر أتباعه أن يتزودوا منها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا دون أن يسمح لهم بإهمال أى شىء من العلوم المادية ، لأنه طالما حث الإنسان على اقتناص جميع المعارف والعلوم بلا استثناء . ولسنا هنا فى حاجة إلى إعادة الآيات الجمة ، والأحاديث الموفورة التى لا تبيح العلم فحسب، بل توجبه وتحض عليه فى حزم وجد لا نظير لهما فى أى دين آخر وتلك إحدى الميزات المتعددة التى جعلته دينا عالميا بل كونيا ، وضمنت صلاحيته لكل زمان ومكان ، وسر ذلك أن هذا الدين الخالد يهدف إلى رفعة البشرية والسير بها نحو الكمال ، وتحقيق السعادتين المعنوية والمادية لأن ذا الجلال والإكرام يعلم أن الإنسان مكون من نفس وجسم ، وأنه لا يكون رفيعا ولا سعيدا إلا إذا حكم النفس فى الجسم وجعل لها عليه السيادة والقيادة والأوامر والتنفيذ (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ولقد وضع الإسلام فهم الحياة الماضى ، وتطبيقها الحازم فى قواعد دقيقة احتوتها المبادىء الإسلامية الواردة فى القرآن والأحاديث، وفى الحياة العملية للنبي الجليل صلى الله عليه وسلم ومن ثم فإن إهمال أى جانب من جوانب معرفة الحياتين المعنوية والمادية أو الجهل بأى علم من العلوم المتعلقة بهما كلتيهما تنتهى إلى الفشل ثم إلى الدمار . وهو قبل ذلك كله، ينص على أن القائل بهذا الإهمال أو السائر فيه، جاهل بالحقيقة الإنسانية ولا عجب فى هذا إذ أن منشىء الإسلام الذى أمر بالتبحر فى العلوم معنويها وماديها هو الأعلم بما ينبغى للإنسان فى دنياه وآخرته ، وبوسائل سعادته وسيره نحو الكمال ، أما القائلون بإهمال العلوم المعنوية ، والاقتصار على الماديات فهم من القشوريين الذين قيل فى شأنهم ما يلى :

قل للذى يدعى فى العلم معرفة
عرفت شيئا وغابت عنك أشياء

الحق الذى لا مشاحة فيه إذن هو أن الاجتماع بين علوم الحياة والسلوك البشرى ، وهى العلوم المتجهة نحو الجوانب الدينية والأخلاقية من جهة ، والعلوم الطبيعية من جهة أخرى ، أى جميع المعارف الإنسانية التى يدعو الإسلام إلى الإحاطة بها ، ذلك الاجتماع هو الذى جعل منه دينا كونيا . ولا جرم أن هذا التوجيه يعنى - فى هيئة جد بسيطة وجد عميقة - بالأسس الجوهرية ، ويترك لكل أمة التصرف فى مسائلها الخاصة العارضة التى تقضى طبيعتها بتغيرها وتطورها حسب الأزمنة والأمكنة والظروف . ولقد لاحظ الكاتب الفرنسى الكبير (بلزاك) ذلك فى كتابه (الآمال المفقودة) فقال : (إن الشعوب الدينية لديها قوانين قليلة) وهذه

العبارة تشرح القوة التوجيهية للعقيدة في سلوك الشعوب دون أن تتركها في حاجة إلى رقابة القوانين الوضعية التي تقوى وتشتد بقدر ما يضعف الإيمان. ولكي لا نسهب في تعقب هذه البساطة، وفي تتبع تلك المبادىء الإسلامية التي وضعت القواعد الرئيسية للحياة البشرية بأنواعها الخلقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون أن تحاول فرض أي فرع من الفروع العرضية في حياة الأمم كما أسلفنا آنفاً، لكي لا نسهب في ذلك، نود أن نقف بك هنيهة عند بيان علماء الجزائر المصلحين الذي نشروه في سنة ١٩٣٦ والذي يلخص هذه المبادىء الإسلامية فيقول ما موجزه:

إن الإسلام هو دين الله الذي أنزله لتوجيه عباده في أفضل الطرق. ومن المبادىء الأساسية لهذا الدين أنه.

(١) على نفس النحو الذي يدعو فيه إلى الأخوة الإسلامية بين المسلمين، هو كذلك وبنفس الجدية يذكر التماسك الإنساني بين جميع البشر.

(٢) يتبع المساواة التامة - من وجهة نظر الكرامة الإنسانية وحقوق الأفراد - بين الأناسي من جميع الأجناس والألوان.

(٣) يفرض كقاعدة مطلقة العدالة بين الأناسي دون أدنى امتياز من أي نوع كان.

(٤) يحض في شدة على الخيرية بأوسع امتداداتها.

(٥) يدين إدانة صريحة الظلم في جميع مظاهره، ويحظر أدنى صوره على كل شخص أياً كان، وبإزاء أي كان.

(٦) يشرف العقل ويمجده ويأمر بتأسيس كل تصرفات الحياة على التفكير.

(٧) ينشر مبادئه وتعاليمه بوساطة الحجج العقلية والإقناع، لا عن طريق الحيلة أو الإكراه.

(٨) يترك لأشياع كل دين الحرية والعناية بفهم وتثبيت تعاليم عقائدهم كما يبدو لهم.

(٩) يشرك الفقراء مع الأغنياء في ثروتهم ويقر الوسائل العملية كعقود البيع والإيجار على جميع أنواعها[١]، لأنها تحقق المعونة العادلة المتبادلة بين العاملين وملاك الأرض ورءوس الأموال.

(١٠) يدعو إلى الرأفة بالضعفاء وهي التي ينبثق منها بالضرورة تأييد البؤساء والتدخل لصالح المضطهدين، وتطبيق الجزاء على الظالمين.

(١١) يدين عبودية الإنسان للإنسان كما يدين الاستبداد على جميع صوره، ونظامه ديمقراطي في جوهره، وهو لا يقر الحكم المطلق ولو بالنسبة إلى أعدل الأناسي.

بان من هذا كله أن النتيجة اليقينية للطريق الإلهي هي السعادة والرفعة والنجاح

(١) أي التي لا ربا فيها. مجلة الأزهر.

الخلق والاجتماعى والسياسى ، أما الطريق البشرى المادى ، فإن نتيجته المحتومة هى الفوضى والتدهور والخراب والانتهاء إلى الهيمية الشائنة .

وإذ كان أولئك العلماء الجزائريون المصلحون قد استطاعوا أن يتعمقوا فى هذه المبادىء الإصلاحية الجليلة ، وأن يستخلصوا منها تلك القواعد التنظيمية الخالدة ، فنحن بفطرتنا أولى بذلك ، لأننا ننتسب إلى شعب أعدته السماء أكثر من أى شعب آخر لفهم تلك المبادىء وتطبيقها ، والظفر نتائجها الرائعة وهى الصلابة والتماسك والدوام والثقافة والخيرية ، وبالإجمال معالم الإنسانية الرفيعة السائرة إلى التقدم سيرا متواصلا ، ولم لا ؟ ألسنا سلالة هذا الشعب الذى تثبتت فى أعماقه منذ القدم حاسة إرادة البقاء بصورة تجعلها تكاد تكون من جوهر وجوده ذاته أو لسنا أبناء أولئك الذين كانوا يؤمنون بأنهم تلقوا معارفهم عن السماء مباشرة ؟ بل ألسنا منحدرين من أولئك الذين كان يقال عنهم منذ العصور الأثرية : « إن شعب مصر هو الشعب الدينى بأدق معانى هذه الكلمة ؟ وإلى جانب هذا كله ألم يكن أكبر حكماء الأرض فى العالم القديم - كفيثاغورس ، وأفلاطون وفلوتاخوس وغيرهم - يأتون إلى وادى النيل لعلهم يظفرون بجانب من أسرار معابده أو يتتلمذون على كهنته الذين لا يستطيع علماء العصر الحديث سبر أغوار معارفهم ؟ الحق أنهم كانوا يأتون إلى هذا الوادى لينقبوا عن الحقيقة المضنون بها على غير أهلها ، وهى التى تشرح ألوهية التوحيد أو دين الفطرة الذى تفضلت به العناية السماوية على جميع أهل الأرض والذى حدثنا القرآن أن الله قد أنبأ به البشرية كلها فى الميثاق الأول وفى هذا المعنى يقول مؤرخ الآثار القديمة (ماكسيموس) التيرى ما نصه: « أشهر الفلاسفة قد استعاروا أفضل النظريات فيما لديهم من الحقائق والأمور الخالدة والفكر الخصبة من التقاليد الدينية للإنسانية » .

ومما لا ريب فيه أن تلك التقاليد قد فقدت فى كل مكان تقريبا ولكنها بقيت فى مصر مصونة أتم الصيانة وأنفسها . ولهذا كان وادى النيل مقصد جميع الحكماء والعلماء . ولعل هذا هو أحد المرجحات التى قال النبى الجليل عن مصر من أجلها : « إنها كنانة الله فى أرضه » وهذا كله يثقل واجبنا فى الشعور بالمسئولية ، ويدفعنا إلى الاحتفاظ فى الحاضر والمستقبل بمكانتنا كأساتذة الدنيا ومعلمى الوجود .

وإذا كانت مصر هى كنانة الله التى اختارها لصيانة المبادىء الإسلامية والعمل على

ازدهارها وتفتحها بفضل الأزهر قلعة الدين وحصن اللغة العربية من جهة وبما جد فيها على يد النظام الحاضر من تشجيع شتى المعارف ومختلف الثقافات ، وترجمة منتجات الأمم الأخرى من جهة ثانية ، فإن من الطبيعى أن تكون مصر على رأس الشعوب العربية بل الإسلامية ومأوى آدابها وملجأ فنونها ومأتى تعريفها بعزتها وكرامتها وحريتها وقيادتها إلى الاستقرار الاجتماعى . وبالإجمال هى مرفأ السلام الذى كان محط أنظار الشرق منذ أقدم العصور ، وكان الاستعمار يعوقه عن توجيه سفنه إليه حتى شعت أنوار النظام الراهن فتحطمت العوائق وتكسرت العقبات واقترب الجميع من الغاية العظمى وهى انتهاء البأساء الإنسانية .

غير أننا نطالب بإلحاح وجد شديدين بأن يكون هذا الإنتاج الثقافى والعلمى الراهن على نفس النحو الذى أشرنا إليه فى مبدأ هذه الكلمة ، والذى سجله الدكتور (كاريل) فى كتابه المذكور آنفاً أى أن المؤلفين والمترجمين المعاصرين ينبغى أن يضعوا نصب أعينهم أن الهدف الأسمى للتقدم هو أقصى مراتب العرفان بنوعيه المعنوى والمادى ، وأن القيادة أو التوجيه يجب أن يكون للأول لا للثانى لأن الحاجات الأخلاقية والدينية ليست أقل ضرورة لتحقق السعادة من النشاط المادى الذى يحسن الحياة الاقتصادية فحسب وأن أول الجهود التى ينبغى أن يقوم بها أولئك المنتجون المعاصرون هو مقاومة هذه الفكرة الآسفة التى تعلن : أنه لا فائدة إلا فيما ينتج المال . وهى فكرة خطرة انزلق إليها قسم كبير من الإنسانية ، وهو الذى هوى فى أحابيل المدنية المادية المعاصرة المؤلفة من الرأسماليين والصناعيين الذين يعانون الآن أشد أزمات الضمير الخلقى التى يخشى العقلاء أن تجرف البشرية كلها . وسر ذلك أن الإنسانية قد استطاعت أن تعيش آلاف السنين بغير هذه المخترعات الحديثة ، ولكنها لم تستطع ، ولن تستطيع ، أن تعيش يوماً واحداً بلا أخلاق ولا دين ، لأن الدين حصن منيع لأخلاق الأمم ، وضمان متين لتماسك الشعوب ومن ثم فإن الحكماء من الأقدمين والعقلاء من المحدثين قد اتفقوا على أن المؤلفين والكتاب الذين يتقيدون فى كتاباتهم بالقواعد العقلية والقوانين الخلقية والمبادىء الدينية تتكون لديهم ملكات خاصة تمتاز بدوام التوجه إلى العقول والأرواح فى قوة ونزاهة وخلو تام من الأغراض والأهواء فتنفذ كتاباتهم ونصائحهم إلى صميم القلوب .

الدكتور محمد غلاب

نقض ما كُتِبَ في رسالة

" دراسة في أصوات المد في التجويد القرآني "

للأستاذ محمد الصادق عرجون

وقعت إلينا نسخة كاملة من هذه الرسالة ، بعد سماعنا بعض ما أثير حولها ، فقرأناها ورأينا - خروجا من عهدة ما أخذ الله على أهل العلم من مواثيق ألا يكتموا حقا علموه ، وألا يسكتوا عن باطل عرفوه ، بل عليهم أن يبينوا بالحكمة ما وصل إلى علمهم في صراحة الحق المهذب ، وجهارة الرأي في دائرة البحث العلمي ، بعيداً عن عصبية الجدل ، وجدل التعصب لفكرة أو مذهب ، خصوصاً إذا كان البحث متصلا بالإسلام وأصله ، وعلومه ومعارفه فإن هذا الدين - بحمد الله - رحب المدى قوى البناء متين لا يغالب ، عظيم لا يسامى .

وهذا البحث موضوع الرسالة التي بين أيدينا يدخل في صميم الأصول الإسلامية ، أو هو على التحقيق يدور حول أصل الأصول الإسلامية ، إنه دراسة في التجويد القرآني ، أي أنه بحث في القرآن الكريم ، في أهم جانب من جوانبه ، والقرآن الكريم هو أصل الأصول الإسلامية أو هو أصل الإسلام وقاعدته التي يرجع إليها كل أصل بعده ، ومن هنا بدت لنا أهمية قراءة هذا البحث وكتابة بحث على بما وصل إليه جهدنا في غير استقصاء لما لا أهمية له من وجهة نظرنا .

١ - قالت صاحبة الرسالة في مقدمة بحثها (ومن أجل هذه الأسباب جميعاً اخترت ميداناً لغوياً أصيلا في العربية لتتم في رحابه محاولتي ، وأعني به ميدان القراءات والتجويد القرآني) بينت مؤلفة الرسالة في أسطر سبقت هذه العبارة الأسباب التي لأجلها اختارت القراءات والتجويد القرآني لتكون موضوع بحثها . فالبحث إذا يقصد إلى الحديث عن قراءات القرآن وتجويده فحوره وميدانه قراءات القرآن وأداؤه ترتيلا .

٢ - قالت صاحبة الرسالة ص ٢ : (ولقد اخترت هذا الموضوع بالذات لأنه أرض خصبة يتضح فيها بجلاء أن الأداء القرآني كأي فن أدائي آخر يتأثر بالنظام العام للغة ، وبالظروف المختلفة التي تحيط به عند نشأته ، ثم يحتفظ ببعض آثار هذه الظروف بسبب تدخل العامل التقديسي ،

ولكن ذلك العامل مهما كان قويا لا يمنع من أن يعمل الزمن عمله) .

واضح من هذا النص أن صاحبة الرسالة جعلت الأداء القرآنى مثل أى فن أدائى آخر كالشعر بأنواعه والتغنى به وبأى كلام آخر - يتأثر بالظروف المختلفة ... وعامل التقديس فى القرآن مهما كان قويا لا يمنع من أن يعمل الزمن عمله فى الأداء القرآنى فيغير فيه ويبدل ويزيد وينقص .

وقد نص علماء الإسلام على أن قراءة القرآن لها حـــدود وضوابط فى الأداء والترتيل إذا خرج القارئ عنها بزيادة أو نقص فإنه يكون آثما بهذا الأداء ، وقد يخرج أداؤه ما يقرؤه عن تسميته قرآنا .

وقد عقد الإمام القرطبى فى مقدمة تفسيره بابا بعنوان : (كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم واختلاف الناس فى ذلك) وهذا معناه فى وضوح - كما يؤكده ما ذكره القرطبى مفصلا تحت العنوان - الحديث عن الأداء القرآنى وتلاوته وترتيله وقد روى فى هذا الباب أحاديث تصف أداء النبى صلى الله عليه وسلم ترتيله القرآن ، وفى حديث أنس بن مالك أن زياد النميرى قرأ أمام أنس فرفع صوته وطرب ، فقال له أنس رضى الله عنه : يا هـــذا ما هكذا كانوا يفعلون .

وهذا نص صريح فى أن لأداء القرآن الكريم وترتيله طريقة خاصة معروفة عند السلف إذا خرج عنها القارئ أنكر عليه ، ولا يسكت عن عوامل زمنية أو شخصية أو بيئية تتدخل فتغير من طريقة الأداء القرآنى التى يوجبها عامل التقديس ، وتقتضيها صحة الأداء التجويدى للقرآن الكريم .

وقد كرهوا النبر فى قراءة القرآن ، والنبر رفع الصوت بعض خفضه بما يشبه التلاعب وكرهوا فى القراءة هذا كهذ الشعر ، وأجازوا الحدر والتدوير ، وكل هذه طرائق فى أداء التلاوة القرآنية عرفها علماء القراءات قال القرطبى : علم على القطع والبتات أن قراءة القرآن تلقيا متواترة عن كافة المشايخ جيلا فجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها تحجيج ولا تطريب مع كثرة المتمعقين فى مخارج الحروف ، وفى المد والإدغام والإظهار وغير ذلك من بقية القراءات ، ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ، ومد ما ليس بممدود فترجع الألف الواحدة ألفات ، والواو الواحدة واوات ، والشبهة - أى الحرف - الواحدة شبهات - أى حروفا فيؤدى ذلك إلى زيادة فى القرآن ، وذلك ممنوع ثم قال القرطبى : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق .

وهذا نص صريح أيضا فى أن أداء قراءات القرآن مقطوع بتواترها تلقيا عن القراء بأسانيد متصلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان كذلك فلا يمكن أن تدخله عوامل الزمن والبيئة فتغير ما تواتر منه ، ولو جاز لهذه العوامل أن تتدخل لوقع المحظور الذى يخرج بمعانى القرآن وألفاظه عن حقائقها المنزلة لها ، ولأدى ذلك إلى الزيادة فى القرآن ، وهذا ما لا يقول به مؤمن .

٣ — قالت صاحبة الرسالة ص٣ : (وكان الهدف الثانى - للباحثة وراء هذا البحث - هو إثبات وجهة نظر الدراسات الحديثة فى أن أى بناء لغوى منطوق يكون صورة أدائية تتأثر بنظام اللغة العام وبلهجات الأفراد ، وبعامل الزمن مهما تدخلت عوامل أخرى لتعوق هذا التأثر) .

هذا نص صريح فى أن الرسالة وضعت قصداً لإثبات وجهة نظر الدراسات الحديثة - وهى عندنا دراسات المستشرقين - وأن إثبات وجهة نظر هذه الدراسات الحديثة هى الهدف الثانى من أهداف الرسالة .

وواضح من هذا النص أن الباحثة تقصد إلى تعميم قاعدتها بأن أى بناء لغوى منطوق يكون صورة أدائية تتأثر بنظام اللغة ولهجات الأفراد وعامل الزمن ، ولن تستطيع عوامل أخرى تعويق هذا التأثر .

وهذا التعميم لهذه القاعدة ، لابد - فى نظر الباحثة - من تطبيقه على القرآن الكريم باعتبار نصوصه وآياته وكلماته بناء لغويا منطوقا يكون صورة أدائية تخضع لنظام اللغة العام ولهجات الأفراد وعوامل الزمن ولن يستطيع عامل التقديس وضبط الأداء القرآنى المنقول بالتواتر جيلا لجيلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعوق هذا التأثر ، فالقرآن فى نظر الباحثة كغيره من الأبنية اللغوية المنطوقة خاضع للتأثر بلهجات الأفراد وعوامل الزمن والبيئة وهذا بلا شك يخرج النصوص القرآنية عن قداستها فى الأداء المتلقى بالتواتر عن الأشياخ جيلا لجيلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الوحى جبريل عليه السلام ما عله رب العزة تبارك وتعالى ، وهذا الخضوع للتأثر بذلك يجعل النصوص القرآنية كأى بناء لغوى منطوق كالشعر بألوانه الغنائية وغيرها والسجع وترنيماته والخطب وطبقاتها فى الحماس والهدوء والنثر ، وسائر كلام الناس الذى يخضع فى أدائه لهذا التأثر .

وحينئذ تخرج النصوص القرآنية عن ضوابطها الخاصة ، وسماتها الترتيلية المأمور بها فى الأداء ، ولا ريب أن ذلك يفتح باب التحريف والتبديل والتغيير فى ألفاظ القرآن وكلماته ، وهذا ما لا يقبله مسلم .

٤ — قالت الباحثة ص ٣ : (ومن أجل إثبات وجهات النظر هذه أقسم البحث إلى

أربعة أقسام رئيسية تناولنا فى أولها الحديث عن القراءات ونشأتها منذ نزول القرآن الكريم على الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ظهور القراءات السبع المعروفة) .

وهذا القسم الأول من هذه الأقسام الأربعة هو الذى يهمنا ، ونسجل هنا فى صورة واضحة أن البحث فى القراءات مقصود للباحثة ذاتها ، وليس من باب التكملة التى لا يحتاج إليها ، والتى يصح حذفها من الرسالة . وتبقى للرسالة قيمتها بدونها ، وليس من شك أن البحث فى قراءات القرآن بحث فى نصوص القرآن. الذى هو أصل الأصول فى دين الإسلام فليس من الحق فى شئ أن بحث الرسالة الذى قامت عليه ليس بحثا دينيا - كما يقول الأستاذ الدكتور المشرف على الرسالة فى كتابه الأبيض.

وليس من الحق فى شئ أن بحثا يتناول آيات القرآن وكلماته وألفاظه لا يتناول الدين فى جوهره، ولا فى أصوله ولا فى تشريعاته ، وإذا كانت آيات القرآن ليست جوهر الدين ولا أصوله فاهى إذاً أصول الإسلام وماهو جوهره ؟ .

والأستاذ الدكتور المشرف على الرسالة عالم مسلم أزهرى قبل أن يكون شيئا فى عالم العلم والمعرفة ، وهو بعنوانه الأصيل من أخبر الناس أو كان يجب أن يكون من أخبر الناس بأن جوهر الدين الإسلامى وأصوله ليس هو مجهود الفقهاء الذين تصدروا لاستنباط الأحكام الفرعية من القضايا الكلية لأن هذا المجهود الذى بذله الفقهاء إنما هو حصيلة تفكير إنسانى مصدرها الأول والأخير النظر فى القرآن الكريم بنصوصه النازلة من السماء المتلقاة بالتواتر القطعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يضرا لإسلام أن ينظر ناظر فى هذا المجهود الفقهى ، فيخطئ أو يصيب فى أنظارهم ، ولكن يضير الإسلام أن يأتى باحث أيا كانت مكانته ، فيهجم على آيات القرآن ونصوصه ويعرضها للتحريف والتغيير والتبديل .

٥ — قالت صاحبة الرسالة ص ٨ (الفصل الثانى - دراسة من مواقع التاريخ) ثم ذكرت تحت هذا العنوان قولها : (ولما كان الرسول يفعل ذلك - تقصد كما قالت : إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحاول استخدام لهجة القوم الذين يحدثهم - فى أحاديثه العامة معهم فن الأولى أن يفعله فى الأمر الأهم الذى أتوه من أجله ، من الطبيعى أن يستبدل فى النص القرآنى لفظة بأخرى يعلم أنها أكثر شيوعا فى تلك البيئة ، أو يرى أنها تحمل شحنات من المعانى تفهم الفكرة أكثر ، أو أن يغير فى نظام جملة يجعلها أكثر وضوحا أو ليكسبها بلاغة أكثر فى نظر القوم الذين يقرأ أمامهم).

ثم ذكرت صاحبة الرسالة بعد ذلك قولها : (ومن الطبيعى أن يلحق التغيير - أى زيادة على تغيير اللفظ - الأداء نفسه فيميل إذا أقرأ من يميلون) .

وهنا نقف - أولا - مع الأستاذ الدكتور حسن عون المشرف على الرسالة ، وهو العالم

المسلم الأزهري فنسأله سؤالا جانبيا ، هل فضيلته لا يزال عند رأيه في أن البحث الذي قامت عليه الرسالة ليس بحثا دينيا ولا يتناول الدين - الإسلامي طبعا - في جوهره ، ولا في أصوله ؟ بعد هذه الفقرة التي سقناها من نصوص الرسالة ، وهي كما يرى الراءون مشتملة صراحة على أربع طامات كل طامة منها هي شر من أختها ، وكل طامة منها معول الحادي يهدم الدين من قواعده .

الطامة الأولى :

قول صاحبة الرسالة : (من الطبيعي - أي وجلال القرآن هكذا النص - ومن الطبيعي أن يستبدل الرسول صلى الله عليه وسلم في النص القرآني لفظة بأخرى يعلم أنها أكثر شيوعا في تلك البيئة) .

وهذا التعبير لا يستعمل - كما يعرفه كل من شدا شيئا من علم اللغة واستعمالاتها - إلا في المعاني المسلمة التي تكون من قبيل البداهات أو الضروريات العقلية التي لا يعتريها شيء من الشك .

والمسلمون عامتهم وعلماؤهم يتساءلون : أية طبيعة هذه التي انتسبت إليها هذه الطامة البركانية التي تتلاعب بوحي الله إلى الأمين سيد الوجود ، خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فتجعله يستبدل من تلقاء نفسه في النص القرآني لفظة بأخرى لمجرد أنه يعلم أن هذه اللفظة أكثر - تأمل أفعل التفضيل - شيوعا في بيئة من يخاطبهم من الوافدين إليه للإيمان به وتعلم القرآن المنزل عليه بألفاظه التي تحمل معانيه المقصودة بأسلوبه الخاص ونظام جمله ، والله تعالى قد نزهه عن ارتكاب هذه الطامة ، وأمره أن يقول ردا على الذين لا يرجون لقاء الله من كل كافر عنيد ، حينما أرادوه على تبديل آيات القرآن وألفاظه ونظام جمله ليمتحنوا صدقه في دعواه : أن هذا القرآن نزل إليه من عند الله ، فقالوا له : « ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي » ، وواضح من نص الآية أن هؤلاء الملاحدة من أبالسة الكفر طلبوا متعنتين من النبي صلى الله عليه وسلم أحد أمرين على سبيل البدل والتخيير .

الأمر الأول : يأتيهم بكتاب كامل غير هذا الكتاب الذي يتحداهم به ليتوصلوا بذلك إلى إثبات عدم صدقه في دعواه : أن هذا القرآن منزل عليه من عند الله ، وأن ما يتحداهم به قوله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » غير صحيح .

الأمر الثاني : أن يبدل هذا القرآن فيغير نظام جمله بتغيير ألفاظها أو يغير أسلوبها بالتقديم والتأخير أو بالزيادة والنقص أو نحو ذلك من ألوان التبديل .

وقد رد الله عليهم بأمره نبيه صلى الله عليه

وسلم بالتبرى من القدرة على إجابتهم إلى أى أمر من أمريهم، ولكن صاحبة الرسالة تقول: ومن الطبيعى فى صناعة الإشراف على وسائل العلم والبحث أن يكون فضيلة الأستاذ الدكتور العالم المسلم الأزهرى المشرف على الرسالة قد اطلع على قولها هذا - (من الطبيعى أن يستبدل الرسول عليه السلام - طبعا من تلقاء نفسه دون توقيف من الله تعالى، لأن صاحبة الرسالة ترفض التوقيف صراحة فى قراءة القرآن كنتيجة أولى من النتائج التى توصل إليها بحثها فهى تقول بالحرف الواحد فى ص ٢٨٨ - (١ - أول نتيجة توصل إليها هذا البحث هى رفض فكرة التوقيف فى قراءة القرآن) وتقول فى نفس النص (وكان اختلاف الناس أيضا فى قراءة الصورة الموحدة التى ألزمهم بها عثمان دليلا جديدا برفض فكرة التوقيف، ثم أكد هذا الرفض عمل ابن مجاهد فى اختيار سبع من قراءات كثيرة) ونعود إلى نص الرسالة فى الطامة الأولى حيث تقول: (من الطبيعى أن يستبدل الرسول صلى الله عليه وسلم فى النص القرآنى لفظة بأخرى يتغير بها نظام الجملة القرآنية لمجرد علمه أن اللفظة الجديدة أكثر شيوعا فى تلك البيئة.

ونص عبارة الرسالة كما نقلناه حرفيا يفيد بمقتضى صيغة (أكثر) أن الألفاظ المبدلة وهى المنزلة من عند الله كثيرة الشيوع معروفة لدى أهل تلك البيئة، لكن الرسول عليه السلام رغم هذا الشيوع وهذه المعرفة لا يبالى - فى نظر صاحبة الرسالة - أن يهمل لفظة من القرآن أوحى إليه بها لقصد معناها، ويتركها مضيعة ليضع مكانها - من تلقاء نفسه طبعا فى نظر صاحبة الرسالة - لفظة أخرى لمجرد علمه بأنها (أكثر شيوعا عند القوم)، وهنا يثب سؤال (علمى): وأين يقع علم محمد صلى الله عليه وسلم من علم (رب محمد) صلى الله عليه وسلم؟ أو ليس فقط هو فى البداهة - إن كان للبداهة فوق - أن (رب محمد) صلى الله عليه وسلم كان (أعلم) من محمد صلى الله عليه وسلم بأكثرية شيوع اللفظة الجديدة فى بيئة القوم، فكان من سواء الدعوة أن تستعمل هى فى الجملة القرآنية المنزلة حتى لا يضطر النبى صلى الله عليه وسلم إلى التبديل والتغيير فى نظام الجملة القرآنية وألفاظها؟ فيقول على الله ما لم ينزل عليه، والله تعالى يقول له (ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين).

وصاحبة الرسالة تذكر لهذا التغيير والتبديل فى نظام الجملة القرآنية بتغيير لفظة بلفظة سببا عاما يؤكد أنه يفعله من تلقاء نفسه دون توقيف، وهذا هو التقول على الله فتقول (ولعل السبب فى استخدام الرسول عليه السلام للهجات العرب المختلفة هو رغبته فى استغلال (أى والله هكذا استغلال ما فى الطبيعة الإنسانية من الارتباط والشعور) وإذا كان النص مسوقا فى صدد محادثة النبى صلى الله عليه وسلم من محادثهم ممن يفدون إليه

من قبائل العرب فإنه مرتبط ارتباط الأصل بالفرع بقولها (ومن الطبيعى أن يستبدل فى النص القرآنى لفظة بأخرى الخ .) وهو صريح فى أن الحامل له على استخدام لهجات العرب فى أحاديثه هو نفس الحامل له على أن يستبدل فى النص القرآنى لفظة بأخرى، بل إن صاحبة الرسالة كانت أصرح فى أن هذا (الاستغلال) أولى أن يفعله النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن ، وهو الأمر الأهم الذى أتاه القوم من أجله فتقول : (ولما كان الرسول عليه السلام يفعل ذلك فى أحاديثه العامة معهم فن (الأولى) أن يفعله فى الأمر الأهم الذى أتوه من أجله . الخ) .

الطامة الثانية : قــول صاحبة الرسالة (من الطبيعى - إعادة لأصل النص لتحقيق الربط - أن يستبدل الرسول عليه الصلاة والسلام فى النص القرآنى لفظة بأخرى يرى أنها تحمل شحنات من المعانى تفهم الفكرة أكثر) .

فى هـذه الطامة وقع لفظ (أكثر موقعا غير موقعه فى الطامة الأولى ، لأن الأكثرية هناك فى الطامة الأولى لا تبيح الاستغلال ما دامت الفكرة موجودة ، أما هنا فى هذه الطامة الثانيـة فاللفظة التى تحمل شحنات من المعانى تفهم الفكرة أكثر يجب أن تكون هى اللفظة القرآنية التى يجب أن تبلغ إلى الناس وهى التى تحقق فى أسلوب القـرآن الإعجاز وهو مناط حجية القرآن .

لـكن واقع الأمر عنـد صاحبة الرسالة أن النص القـرآنى نزل من عند الله تعالى بلفظة تحمل (شحنات) من المعانى تفهم الفـكرة (أقل) مما تفهمه لفظة أخرى لم ينزل بها النص القرآنى ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسـلم أن اللفظة الأخرى التى فاتت القرآن أن ينزل بها هى التى يجب أن تبلغ للقوم لما فيها من شحنات تفهم الفـكرة أكثر . هذا منطق الرسالة .

أما منطق العلم والإسلام فيأبى أن يتقبل هذا المنطق الذى يعطى النبى صلى الله عليه وسلم حقا لا يرتضيه لمقامه الشريف ، يعطيه أنه أدرك - أكثر مما أدرك القـرآن العظيم - ولا أريد أن أقول كلمـة أخرى - أن لفظة فاتته ولم يـنزل بها كانت أليق بموقعها من أختها التى نزل بها ، لأن هـذه اللفظة الفائتة تحمل (شحنات من المعانى تفهم الفكرة أكثر) مما تحمل اللفظة القرآنية التى نزل بهـا النص من عند الله ، وحينئذ يـكون من حق النبى صلى الله عليه وسلم أن يستبدل باللفظة القرآنية اللفظة التى فاتت القرآن أن ينزل بها ، والتى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم مناسبتها فى مكان اللفظة القـرآنية لتؤدى ما تحمل من شحنات من المعانى تفهم الفكرة أكثر . وجميع لوازم الطامة الأولى لازمة هنا .

محمد الصادق عرجون
(عميد كلية أصول الدين)

من بحوث مجمع البحوث الإسلامية :

وظيفة الراعي ومسئولياته
وثيقتان من الأدب الإسلامي السياسي

للأستاذ محمد خلف الله أحمد

أوضح الإسلام طبيعة العلاقة بين الراعى والرعية ، ووضـــع الأسس الثابتة لدولة ديمقراطية روحية ، تمتزج فيها الفكرة الديمقراطية الكاملة بالروح الدينى ، وتقوم فلسفتها على أساس الاعتقاد بوحدانية الخالق وبـــكرامة بنى الإنسان والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات .

ويشهد لعناية الإسلام بهـذا الجانب من حياة المجتمع وفرة الأدب الإسلامى التوجيهى فى السياسة والحكم والإدارة والقضاء وجباية الخراج والصدقات وقيادة الجيوش وشئون الحرب والسلم وما إليها .

وفى سنة ١٩٤١ نشر الباحث الهندى محمد حميد الله الحيدر آبادى فى القاهرة كتابا بعنوان : « مجموعة الوثائق السياسية » يضم العهود التى عقدها الرسول ، صلوات الله عليه وتوجيهاته لرسله إلى مختلف الجماعات الإسلامية ورسائله إلى رؤساء القبائل العربية وعظماء الممالك الأجنبية المجاورة من فرس وروم وغيرهما ، كما يضم طائفة من وثائق عصر الخلفاء الراشدين .

وهناك طائفة كبيرة من أمثال هـذه الوثائق فى الأدب الإسلامى فى مختلف عصوره وهى جديرة بالدراسة والتأمل ، لما فيها من العرض البليغ لروح الإسلام وتعاليمه ولما تمثله من مناهج التطبيق العلمى للأصول العامة التى وضعها القرآن ـ وأكدتها السنة لسياسة المجتمع والقيام على شئونه .

ومن الوثائق الهامة فى هذا الأدب الإسلامى السياسى عهدان مشهوران فى تاريخ الإدارة الإسلامية .

أولهما : ما كتب به الإمام على رضى الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشتر النخعى ، حين أرسله واليا على مصر ، وهـو وارد بنصه فى كتاب « نهج البلاغـة » الذى جمعه السيد المرتضى من كلام سيدنا الإمام على كرم الله وجهه ، وقد تنبه الشيخ « محمد عبده » شارح الكتاب إلى أهمية الجانب السياسى فى أدب الإمام على فأشار إليه إشارة خاصة فى خطبته ونبه مديرى المدارس إلى ما فيه من الكلام فى أصول المدنية وقواعد العدالة وبيان حقوق الرعية على الراعى .

والوثيقة الثانية يوردها «ابن خلدون» في مقدمته في الفصل الذي عقده للكلام على أن «العمران البشرى لابد له من سياسة ينتظم بها أمره» ويقول في تقديمه لها :

«ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب «طاهر بن الحسين» لابنه «عبد الله» لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما . فكتب إليه أبوه «طاهر» كتابه المشهور ، عهد إليه فيه ، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة» .

وبعد أن يورد «ابن خلدون» النص بتمامه يقول :

«وحدث الإخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالمأمون فلما قرىء عليه قال : «ما أبق أبو الطيب ـ يعني طاهرا ـ شيئا من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه ، ثم يقول ابن خلدون :

«هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة والله أعلم» .

تتشابه هاتان الوثيقتان في موضوعهما : فكلتاهما عهد موجه إلى وال على عمالة كبيرة من عمالات الدولة الإسلامية، وكلتاهما تحاول أن ترسم ـ في شيء من التفصيل ـ منهجا للوالي في سلوكه الشخصي ، ونظامه في الإدارة والحكم ، واختياره لأعوانه ، وصلاته بطوائف الرعية ، وكلتاهما تؤلف نموذجا واضح الطول في أدب التوجيه السياسي (إذ تتألف كل منهما من أكثر من ألفين ومائتي كلمة) ؛ وكلتاهما تمثل صورة من صور البلاغة في كتابة الرسائل في العصر الذهبي للأدب العربي .

١ ـ ومنشىء الرسالة الأولى سيدنا الإمام على أحد الخلفاء الراشدين ، وابن عم الرسول صلوات الله عليه ، وزوج ابنته ، وأحد كتاب وحيه. ورفيقه في الكفاح والنضال، شب في حجر الدعوة ، فثقف أسرارها وأهدافها ، وروى من معينها الصافى منذ صباه ، وشهد مع الرسول مواقع الإسلام الأولى ، وأبلى فيها البلاء الخالد. وكان نموذجها في بلاغته ، كما كان علما في بطولته .

حدد الخليفة في مستهل هذه الرسالة معالم المهمة التى عهد بها إلى واليه الجديد على مصر فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر : جباية خراجها وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها وعمارة بلادها ، أمره بتقوى الله وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه ، التى لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها . . . . وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ، ويزعها عند الجمحات ، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله . . . »

ثم يأخذ الخليفة فى تفصيل ما أجمل ، بادئا من ذلك برسم الخطوط الرئيسية لشخصية الوالى المسلم وسلوكه وصلاته بالناس يقول الإمام لواليه ما خلاصته : املك هواك ، وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا يغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدى لك بنقمته ... وإياك ومساماة الله فى عظمته والتشبه به فى جبروته فإنه يذل كل جبار . وأنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ... وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضى الرعية . . . وإنما عماد الدين ـ وجماع المسلمين والعدة للأعداء ـ العامة من الأمة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم ، وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس ... وأطلق من الناس عقدة كل حقد ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعى غاش ، وإن تشبه بالناصحين ... ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا ولا جبانا حريصا ... وإن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام ، فلا يكونن لك بطانة ، وليكن آثر أعوانك عندك أقولهم بمر الحق لك ... والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء واعلم أنه ليس شىء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤونات عنهم ، ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدر هذه الأمة ، ولا تحدثن سنة تضر بشىء من ماضى تلك السنة . . . وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك .

بهذا يحدد الإمام صفات الوالى النموذجى فى شخصه ، وما يجب أن يكون عليه موقفه من الرعية عامة ، والصفات التى ينبغى أن يتطلبها

فى أعوانه ومستشاريه ، والإمام يصوغ هذا التحديد فى أسلوبه البلاغى المؤثر ، ذوى الفقر المحكمة والفواصل المتوازنة ، مؤيدا كل توجيه ، بإيراد سره وحكمته من طبائع النفوس وظواهر الاجتماع .

٢ — ثم ينتقل الإمام إلى المقطع الرئيسى الثانى من رسالته . وهو الخاص ببيان الفئات التى يتألف منها المجتمع ، وحق كل منها من عناية الوالى ورعايته فيقول :

وأعلم أن الراعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، منها : جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة . وكلا قد سمى الله سهمه ، ووضع على حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهدا عندنا محفوظا » .

ويستمر الإمام فيفصل ما أجمل فى هذا التقسيم ، مبرزا مكان كل فئة من هذه الفئات فى حياة المجتمع وما به صلاحها ، موضحا ما أشار إليه من تكاملها وتكافلها ، مبينا المزالق التى يمكن أن تنحرف إليها أى واحدة منها إذا أسيئت معالجة شئونها ، أو هضمت حقوقها ، أو اختير لقيادتها من لا يصلح لها ، أو أحست باختلال ميزان العدالة فيها .

والخليفة فى تصويره لأحوال هذه الفئات يصدر عن بصيرة نافذة فى أحوال النفوس ، وفى علاقات الجماعات ، وتعرضها للصلاح والفساد . فهو فى توجيهه للوالى فى أمر القضاة يقول :

« ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه . أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج » إلى أن يقول : « ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس » .

فإذا ما جاء إلى شئون التجار وذوى الصناعات أوصاه بهم خيراً ، وعرفه نفعهم وخدمتهم للمجتمع ، ثم حذره من انحراف بعضهم فقال :

« واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقا فاحشا ، وشحا قبيحا ، واحتكارا للمنافع ،

وتحكما فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع سمحا ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به ، وعاقب فى غير إسراف » .

ويوجه الإمام عناية خاصة إلى الفئة المحدودة الموارد أو العاجزة عن الكسب فيقول فى توجيهاته للوالى :

« ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البوسى والزمنى ، فإن فى هذه الطبقة قانعا ومعترا ، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلات موافى الإسلام فى كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى ، وكل قد استرعيت حقه ...

فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ... ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليدفع إليك أمورهم ، ثم أعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه ، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم . وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن ، واجعل لذوى الحاجات منك قسما . تفرغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسا عاما ، فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك مكلمهم غير متتعتع ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن : (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع) .

٣ — والقسم الثالث الرئيسى من رسالة الإمام إلى عامله يتناول أمورا عامة تعين العامل على النجاح : منها أن يحرص على إصدار حاجات الناس يوم ورودها ، وأن يمضى لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه ، وأن يجعل لنفسه فيما بينه وبين الله أفضل تلك المواقيت ــ وإن كانت كلها لله إذا صلحت النية وسلمت الرعية ، وألا يطيل احتجابه عن الرعية فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور ، وأن يحول بين بطانته وخاصته وبين ما ينحرفون إليه من استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملة ، وأن يصحر للرعية بعذره أن ظنوا به حيفا ، وألا يدفعن صلحا دعاه إليه عدوه ولله فيه رضا ، وأن يحذر ــ مع ذلك ــ كل الحذر من عدوه بعد صلحه ، وأن يحوط عهده بالوفاء ويرعى ذمته بالأمانة ، وأن

يرى، نفسه من الإعجاب بها ومن حب الإطـــراء ، وأن يتحاشى المن على الرعية بالإحسان ، والعجلة بالأمور قبل أوانها ، والتسقط فيها عند إمكانها ، واللجاجة فيها إذا تنكرت ، والوهن عنها إذا استوضحت .

ثم يختم الإمام رسالته إلى عامله بالدعاء فيقول :

(وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه ، مع حسن الثناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد ، وتمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة ، إنا إليه راغبون) .

٤ ـ هذه الرسالة البليغة الجامعة التى تترجم روح التعاليم الإسلامية فى الحكم والإدارة إلى خطة توجيهية عملية ليست الوحيدة من نوعها فى أدب الإمام على ، ولا فى توجيهات أصحابه وسابقيه من الخلفاء الراشدين وهى كلها تنبع من المعين الأول الذى فجرته آيات القرآن الكريم وسنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ من مثل قول الله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ـ ٤ ـ ٥٨) وقوله : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) ـ ٥ / ٨ ـ وقوله : (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) ـ ٣٨ / ٢٦ ـ وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وقوله : (من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله) .

وتمتاز رسالة الإمام بين رسائل الخلفاء فى تلك المرحلة بطولها وتفصيلها . وقد نبه السيد المرتضى جامع « نهج البلاغة » إلى أنها من بين كتب الإمام وعهوده أطولها وأجمعها للمحاسن . ويبدو أن هذه الكتب تمثل ـ من ناحية ـ جانبا هاما من أدب الإمام ، وتمثل من ناحية أخرى وعيا أصيلا وفهما عميقا متكاملا لمسئولية الراعى فى رعيته ، فكلها تفيض بوجوب الحدب على الرعية والاحترام لمشاعرهم ، واجتلاب مودتهم ، والرفق بهم فى أموالهم وتحذير الولاة من التقصير فى المسئولية فإنهم « خزان الرعية ،

ووكلاء الأمة وسفراء الأئمة . . . . وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأفظع الغش غش الأئمة » .

والإمام حريص على أن يفتح عيون ولاته على الصغيرة والكبيرة من شئون الحكم وصلات الحاكم بالناس . بلغه مرة أن عامله على البصرة « عثمان بن حنيف الأنصارى » دعى إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ، فكتب إليه يقول :

« أما بعد يا ابن حنيف : فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها ، استطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو . فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه . . . »

وقد نهج الإمام نهج أصحابه الخلفاء الراشدين من قبله فبين فى خطبه وعهده بمسئوليته نحو الله والناس فى حكم المسلمين ، وإدراكه لما يجب أن تكون عليه الصلة بين الراعى والرعية يقول فى خطبة خطبها بـ (صفين) :

« ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض لجعلها تتكافأ فى وجوهها ويوجب بعضها بعضا . . . وأعظم ما افترضه سبحانه من تلك الحقوق حق الوالى على الرعية وحق الرعية على الراعى ، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل ، فجعلها نظاما لألفتهم ، وعزا لدينهم . فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية . . . »

وقد أجابه رجل من أصحابه بكلام طويل ، يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له فقال الإمام رضى الله عنه :

« ... فلا تكلمونى بما تكلم به الجبابرة ، ولا تتحفظوا منى بما يتحفظ به عند أهل البادرة ، ولا تخالطونى بالمصانعة ، ولا تظنوا بى استثقالا فى حق قيل لى ، ولا التماس إعظام لنفسى ، فإنه من استثقل الحق أن يقال له ، أو العدل أن يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه . فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل ، فإنى لست فى نفسى بفوق أن أخطىء ، ولا آمن ذلك من فعلى ، إلا أن يكفى الله من نفسى ما هو أملك به منى ، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره ، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا . . . »

محمد خلف الله أحمد

نفحات القرآن

التوبة بعد الأوان صفقة الخاسرين

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

« حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله ، إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين !! » آية ٩٠ يونس .

١ — اشتهر صاحب السلطان والحكم فى مصر قديما بلقب فرعون ، وصار هذا اللقب عنوانا على الجبروت الشخصى ، والطغيان فى الحكم ، والتطاول على الله ، والاستهانة بالرسل والرسالات ؛ بل صارت كلمة فرعون فى أسماع الناس محفوفة بالكثير من معانى الجفوة التى تطغى ما يكون لبعض الفراعنة من أمجاد ، ومايشهد به التاريخ من بطولات .

ولكن واحداً من هؤلاء الفراعنة هو الذى تركزت عنده مشأمة الحياة ... وهو فرعون موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام أمعن هذا الفرعون فى ضلاله أكثر من أسلافه ، وزعم نفسه إلها ، بل نادى فى الناس « أنا ربكم الأعلى » ... « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ ؟ » .

وكان من شأن هذا الفرعون مع بنى إسرائيل أن تشاءم منهم فى مصر ، وتوقع ذهاب ملكه على يد مولود يولد فيهم ، كما أنبأه بذلك بعض علمائه ، وكهانه ، فاستعبد بنى إسرائيل جميعا ، يهتك الأعراض ، ويقتل الأبناء فى غير تريث ولا رحمة .

والقرآن الكريم يذكر عن هذا الفرعون فصولا عجيبة من القصص الحق ، وإن لم يحفل القرآن بذكر اسمه الخاص ، فإن تعين الاسم لايتعلق به كبير شأن ، مادمنا نعرف الوقائع ونعرف أنه فرعون موسى وهو الذى دالت على يده دولة الفراعنة - كما نذكر بعد - .

وقد لقى موسى وهارون من فرعون هذا ما تضيق به الإنسانية ، وذاق بنو إسرائيل من هوانهم على يده ما تخجل الدنيا لذكره .

٢ — فلما أذن الله بتفريج الضائقة أوحى إلى موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا ، من مصر ليلتمس النجاة ناحية البحر الأحمر ...

وقد بادر موسى بالخروج فى بنى إسرائيل ، وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا من الأنفس كما يذكر الرواة

فلما أصبح فرعون وعلم بذلك . خرج وراءهم فى زيادة على عدد قوم موسى بألفى ألف نفس ، يريد اللحاق بهم ، للقضاء عليهم قبل أن يفلتوا من تحت يده .

وحينما أبصر قوم موسى أن فرعون وراءهم خافوا وقالوا لموسى : إنهم سيدركوننا فطمأنهم بقوله ـ عليه الصلاة والسلام : « إن معى ربى سيهدين » ، ثم أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، ففعل ، فانفلق ماء البحر إلى فرقتين عظيمتين ، كل واحدة منهما كالجبل الأشم .

ويقال إن مسالك الطريق بين الماء كانت اثنى عشر مسلكا بعدد الأسباط من بنى إسرائيل ، وهم ذرية يعقوب عليه السلام .

ولما وصل بنو إسرائيل إلى شاطىء البحر ناحية سيناء ، اندفع وراءهم فرعون وقومه حاسبين أن الطريق مفتوح لهم كما رأوه .

وحينما كانوا بين الشاطئين : بدهتهم المعجزة ، وانطبق البحر عليهم جميعا ، وشارف فرعون الموت الذى كان لا يحسب له حسابا ... وحينئذ تعلق بالأمل الضائع ، وقال : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين » .

يعنى : هو الله الذى كنت أكذب فيه بنى إسرائيل ... وأنا من المسلمين الذين أخلصوا أنفسهم لله .

وإلى هنا يكون فرعون هذا عاش على الكفر ، والإسراف فيه ... ثم لجأ ساعة الموت إلى إعلان الإيمان ، وأنه من المسلمين .

ولكن أمله الكاذب لم يلبث فى وهمه حتى يسمع نداء علويا من جانب الله على لسان ملائكته بتكذيبه فى زعمه الإيمان ، والتشنيع عليه فيما فرط منه « الآن وقد عصيت قبل . وكنت من المفسدين » .

يعنى : ليس لك إيمان يعتد به ، وهل يكون إيمانك يا فرعون بعد أن عاينت حالة الموت ، وتخلفت عنه أيام حياتك الطويلة ، وضاعت منك فرصة القبول للتوبة .

٣ ـ إن الإيمان ، أو التوبة بعد الأوان وفى ساعة الاضطرار ، لا يكون استجابة صحيحة لدعوة الله ، وإنما يكون تحايلا على كسب الفضيلة ، دون إرادة سابقة ، ولا عزيمة صادقة ، وذلك بناء على غير أساس ، فهو بناء منهار من أوله ، والله تعالى ـ غنى عن هذا الإيمان ولا يرضى منا الزيف فى الركون إليه وقت الشدة ، بعد مجافاته أيام الرخاء .

٤ ـ فليكن جزاء فرعون هذا التوبيخ ليتحسر أكثر وأكثر ، كما أفسد كثيراً وأكثر .

وإذا كان فرعون بغيضا إلى الله وملائكته وإلى بنى إسرائيل ، وكان مكتوبا عند الله شقيا بسوء مسلكه : كان جبريل عليه الصلاة

والسلام حين الغرق يدس فى حلق فرعون من طين البحر، حتى لا يستنشق نفسه، ولا يتمكن من كلمة طيبة فى موقفه هذا، لأن الكلمة الطيبة لن تنفعه الآن، وهو لا يستحق مجرد ذكرها باللسان، كما يذكره الطيبون أو الصالحون.

وقد أراد الله أن يجعل فرعون عظة لقومه وللناس من بعده، فأخرج بدنه من البحر إلى الشاطئ جثة، ليراها الناس بأعينهم، ويؤمنوا بعدله ربهم، ويعتبروا بما جرى على هذا الجبار الآثم، « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية »، ولا شك أنها آية واقعية، تكفى، وتكفى كثيراً للموعظة.. ولكن الكثير منا عن آيات الله غافلون.

٦ — وقد ذهب فرعون كالمعدوم الذى لم يكن له وجود، وتلاشى ملكه كما تتلاشى الهباءة فى فضاء ليس له حدود.

وصار بعد تألهه كلمة سراب، أو نفخة فى تراب، وهكذا يكون الباطل، مهما تكن له صولة. وتبارك الله الذى هو الحق وحده، وقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله، وما كانوا مهتدين.

٧ — كانت هذه العبرة على ما يقول المؤرخون عند مكان على البحر الأحمر، يسمى إلى الآن — عيون موسى — وهى قريبة من السويس.

وقد صورها لنا القرآن بلسان الحقيقة..

وكم فى القرآن من قصص رائع، نرجو أن يبصرنا الله بمراميه، ويهدينا إلى توجيهاته.

وبعد:

فقد نقل الشيخ الألوسى فى تفسيره كلاما ذكره الشيخ محيى الدين بن عربى فى كتابه الفتوحات الربانية — وهو شطحة خرافية، شطحها ابن عربى، ناوقض فيها نفسه وخرج بها على ظاهر النصوص المتضافرة، إذ قرر أن فرعون مات مؤمنا، وتكلف فى فهم الآية تكلفا غريبا وغريبا أكثر من شيخ كابن عربى، وأخذ يستشهد لزعمه بقول الله لموسى وهارون « فقولا له قولا لينا » وبقوله تعالى « لعله يذكر أو يخشى »، فالقول اللين أمارة عنده على حسن استعداد فرعون، وكلمة لعله يذكر أو يخشى، تعبير بالرجاء من جانب الله، وقد تحقق الرجاء بقول فرعون آمنت أنه لا إله الخ.

ولكن الشيخ الألوسى ناقش ابن عربى فى هذا التكلف، وأبطل هذه الشطحة، وما كان أغنانا فى تفسير القرآن عن هذه المجازفات (المستيرية) وأغلب الظن أن هذه فرية مكذوبة على ابن عربى، والله يهدينا إلى صراط مستقيم؟

عبد اللطيف السبكى

هل أتمّ الفخر الرّازى كتابه فى التفسير...؟

للأستاذ على العمارى

— ٢ —

ثم نأخذ فى الإجابة عن السؤال الذى جعلناه عنوانا لهذا البحث . وقبل أن نأخذ فى الإجابة عنه نحاول الإجابة عن سؤال آخر : هل فسر الرازى القرآن مرتبة سوره بحسب الترتيب المصحفى ، أو فسره غير مرتب السور ؟

يبدو للناظر - بادئ ذى بدء - أن السور فسرت غير مرتبة اعتمادا على الشواهد الآتية :

١ — أنه يحيل فى تفسير بعض السور المتقدمة فى الترتيب المصحفى على تفسير بعض السور المتأخرة فى هذا الترتيب .

من ذلك :

فى تفسير سورة (البقرة) عند قوله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك » أورد سؤالا ، صورته : ما السبب فى قوله : نزله على قلبك ؟ ثم قال فى الجواب : هذه المسألة ذكرناها فى سورة الشعراء .

وعند تفسير قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة » من سورة البقرة أيضا ، قال : اعلم أن فى الآية مسائل :

المسألة الأولى : الكلام المستقصى فى لفظ (النظر) مذكور فى تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .

وقد استوفى الكلام حقا فى تفسير هذه الآية من سورة (القيامة) . وجاء عند تفسير قوله تعالى : « هماز مشاء بنميم » من سورة (القلم) قوله : وقد استقصينا القول فيه فى قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة) .

فى تفسير سورة (الفاتحة) عند الكلام على القراءة خلف الإمام قال : (واحتج أبو حنيفة بالقرآن والخبر أما القرآن فقوله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » . واعلم أنا بينا فى تفسير هذه الآية أنها لا تدل على قولهم ، وبالغنا . فليطالع ذلك الموضع من هذا التفسير . والآية فى سورة (الأعراف) .

ومعنى كل ذلك أنه فسر سورة (البقرة) بعد أن فسر سورتى (الشعراء) و (القيامة) وفسر سورة (القلم) بعد أن فسر سورة (الهمزة) . وفسر سورة (الفاتحة) بعد أن فسر سورة (الأعراف) .

٢ — فى التواريخ التى أثبتناها ، والتى

حدد بها الرازى فراغه من تفسير بعض السور لاحظنا أن بعض السور المتأخرة فى الترتيب المصحفى فسرت قبل سور أخرى تسبقها فى هذا الترتيب .

من ذلك مثلا أنه فرغ من تفسير سورة (الإسراء) فى العشرين من المحرم سنة إحدى وستمائة من الهجرة ، فى حين فرغ من تفسير سور : الأنفال والتوبة ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم فى الأشهر التالية للمحرم من تلك السنة ، كما أنه فسر سورة (الأنفال و التوبة) فى رمضان من سنة إحدى وستمائة ، وفسر سورة (يونس) و (هود) فى شهر رجب من تلك السنة ، وسور : يوسف والرعد وإبراهيم فى شهر شعبان .

ومعنى ذلك أنه فسر هـــذه السور بهذا الترتيب : الإسراء ـ يونس ـ هود يوسف الرعد ـ ابراهيم ـ الأنفال ـ التوبة .

وقد سبق أن ذكرنا أنه حدد تاريخ فراغه من تفسير سورة التوبة باليوم الرابع عشر من رمضان، وقال: إنه فرغ من تفسير سورة (الأنفال) فى : (رمضان) هكذا من غير تحديد .

وأن فراغه من تفسير سورة : (التوبة) كان يوم جمعه ، وفراغه من تفسير سورة : (الأنفال) كان يوم أحد ، فإذا كان الجمعه فى ذلك الشهر يوافق الرابع عشر كان معنى ذلك أن هذا الشهر يبتدىء بيوم (السبت) وعلى ذلك يحتمل أن يكون فرغ من تفسير سورة الأنفال فى اليوم الثانى ، أو التاسع ، أو السادس عشر ، أو الثالث والعشرين ، أو الثلاثين من شهر رمضان ، فيحتمل أن يكون فسر الأنفال قبل التوبة ، وأن يكون فسرها بعدها .

هذه أدلة واضحة على أنه لم يكن يلتزم فى تفسيره الترتيب المصحفى المعروف غير أن الذى ينعم النظر لا تقنعه هذه الأدلة، بل يجد أدلة أخرى تشهد بأنه فسر القرآن مرتبة سورة .

(١) هـذا أمر طبيعى يكاد يتفق فيه جميع المفسرين .

(٢) يحيل كثيرا فى تفسير سور متقدمة فى الترتيب المصحفى على تفسير سور متأخرة وسترد أمثلة كثيرة لهذا فى هذا البحث .

(٣) تواريخ تفسير كثير من السور التى حدد تواريخها متتابعة : يونس ـ هود يوسف الرعـــد ـ ابراهيم ، والسور من : (الصافات) إلى . (الفتح) .

(٤) العبارة التى وجدت بخط السيد مرتضى ، والتى تقول : إنه وصل فى تفسيره إلى سورة (الأنبياء) تدل على أن الجزء الذى رآه كان مرتبا، وهذا على افتراض أن النسخ التى وجدت من الكتاب ظلت على الترتيب الذى كان يملى عليه الفخر .

والذى أرجحه أن الفخر فسر سور القرآن مرتبة، وكان يملى التفاسير على تلامذته وفى أخريات حياته كتب لنفسه نسخة من هذا التفسير ، وأدخل عليها معلومات جديدة كما هى عادة المؤلفين حين يراجعون ما كتبوا وإذا كان الموضوع قد استوفى الكلام فيه فى سورة متأخرة أشار إلى ذاك الموضع .

يدلنا على أنه نسخ تفسيره بخطه ما نقلناه آنفا مما جاء فى تفسير سورة هود : (وقد وجد بخط المصنف) كما يدلنا على ذلك عبارة جاءت فى كتاب : (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) فقد قال ابن أبى أصيبعة فى ترجمته للفخر : (رأيته تفسيره ، وهو اثنتا عشرة مجلدة بخطه الدقيق) .

وهذا المؤلف قريب عهد بالرازى ، فقد توفى سنة ٦٦٨ هـ .

ولعل أقوى ما يعيننا على هذا الترجيح أن الرازى كان يفسر سوراً عدة فى شهر واحد ، أو يفسر فى الشهر الواحد - أيضا - سورتين كبيرتين ، كما هو الحال فى سورتى : (يونس وهود) اللتين فسرهما فى شهر رجب، و (الأنفال والتوبة) اللتين فسرهما فى شهر رمضان .

وقد أشرت فيما سبق إلى أنه ربما فسر سورتين فى ليلتين متواليتين أو سوراً فى ليالى متقاربة .

وهذا يرجح أن نحمل كلمة الفراغ من تفسير السورة على الفراغ من مراجعة تفسيرها ، أو من إتمام تفسيرها .

* * *

ثم نأخذ فى الإجابة عن السؤال الأول :

وأول ما نؤكده أن الفخر فسر سورة : (الأنبياء) التى جاء فى هامش كشف الظنون نقلا عن شرح الشفاء ، عن خط السيد مرتضى أن الفخر وصل إليها فى تفسيره .

ذلك أن الفخر قال فى أول تفسير هذه السورة : (اقترب للناس حسابهم ، لقائل أن يقول : كيف وصف بالاقتراب ، وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام ؟

فإنه يفهم من هذه العبارة أنه شرع فى تفسير هذه السورة فى نحو هذا التاريخ ، ومعلوم أن الفخر توفى سنة ٦٠٦ هـ . أجمعت على ذلك كل المصادر التى تعرضت لتاريخ وفاته - على أنى أرجح أنه فسرها قبل سنة ستمائة ، لأنه يعتبر القرب من التاريخ ما كان قبله ؛ فيقول فى نفس الموضع : (إن المعاملة إذا كانت مؤجلة إلى سنة ثم انقضى منها شهر فإنه لا يقال : اقترب الأجل ، أما إذا كان الماضى أكثر من الباقى فإنه يقال : اقترب الأجل ، فعلى هذا الوجه قال العلماء : إن فيه دلالة على قرب القيامة .

وعلى هذا فعبارته : (قريب من ستمائة) معناها أقل من ستمائة ، لسنة أو لا كثر من سنة ، ولا يمكن - بحسب تفسيره القرب

من التاريخ - أن يكون التاريخ الذى فسر فيه هذه السورة بعد الستمائة .

فإذا كان فسر سورة الأنبياء فى هذا التاريخ وكان يفسر القرآن بالترتيب المصحفى فإن ست سنوات كانت باقية من حياة المؤلف كفيلة بأن يفسر ما بقى من القرآن .

يضاف إلى ذلك أن من المؤكد تفسيره لسور بعد سورة الأنبياء ، هذه السور التى نص على تاريخ الفراغ من تفسيرها ، أو أحال فى السور التى فسرها عليها .

ومما يؤكد أن الفخر فسر سورة الأنبياء أنتاسنشبت فيما يلى أنه فسر سورة (الإخلاص) المثبت فى تفسيره الكبير ، وقد قال فى تفسيره هذه السورة : (وقد استقصينا فى تقرير دلائل الوحدانية فى تفسير قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ») .

وقد استقصى فعلا فى تفسير سورة الأنبياء فى تقرير دلائل الوحدانية ، فقد ذكر أربعة عشر دليلا على وحدانية الله ، واعتبرها : (أدلة أخرى) .

* * *

أما الفقرتان اللتان وردتا فى تفسير سورة (الواقعة) فتؤكدان أن تفسير هذه السورة ليس من تصنيف الفخر ، وإنما هو لعالم آخر استفاد - على حد قوله - من الرازى فوائد لا يحصيها .

ثم يقع فى الظن أن هذا المفسر كتب تفسير كل السور التى تلى سورة الواقعة فى الترتيب المصحفى أى إنه فسر الثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن ، وسورة (الحديد) ، وأنه - أيضا فسر كل سورة أحال على تفسيرها ، فى تفسير سورة الواقعة ، أو فى تفسير السور التى يظن أنه فسرها .

ولكن تبين لى أن هذا الظن غير صحيح بالنسبة للأمرين جميعا .

أما الأول : فلأنى وجدت فى تفسير السور التالية لسورة الواقعة شواهد كثيرة ترفض هذا الافتراض . من هذه الشواهد :

١ - فى تفسير قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » من سورة الحديد يقول المفسر : (وسمعت والدى رحمه الله يقول : إنه كان يروى أنه لما نزلت هذه الآية أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا) . ونحن نعرف أن الرازى أخذ عن والده (ضياء الدين) فيما أخذ (تفسير القرآن) ، وأنه أشار إليه فى بعض السور التى ثبت أنه فسرها .

٢ - وجاء فى تفسير هذه السورة عند قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » قوله : « واعلم أنا بينا فى سورة النور أن النور الحقيقى هو الله تعالى ، وأن نور العلم الذى هو نور البصيرة أولى بكونه نورا من نور البصر » .

ومما يؤيد تفسيره لسورة : (النور)

- وهذا إلزام للقدماء الذين يرون أنه وصل فى تفسيره إلى سورة الأنبياء ، وأنه كما يفهم من كلامهم فسر القرآن مرتبا - قربها من سورة الأنبياء ، فإنا - وقد أكدنا أنه فسر سورة الأنبياء فى حدود الستمائة - نرى أن الزمن الذى كان باقيا من عمره يسمح له بتفسير هذه السورة القريبة منها .

٣ - جاء فى أول تفسير سورة : (الملك) « أما قوله : (تبارك) فقد فسرناه فى أول سورة : (الفرقان) . وما قلناه فى تفسير سورة النور نقوله فى شأن تفسير سورة الفرقان .

٤ - فى تفسير سورة (ن) قال : الأقوال المذكورة فى هذا الجنس قد شرحناها فى أول سورة البقرة

ثم قال بعد قليل : بل الحق ، إما أن يكون يريد هذا الحرف (ن) - اسما للسورة ، أو يكون الغرض منه التحدى ، أو سائر الوجوه المذكورة فى أول سورة البقرة .

هذا الدليل الأخير وإن لم يكن حاسما لجواز أن المفسر شخص آخر غير الرازى ، وقد أحال على ما ذكره الرازى ، ولكن الشاهد يضم إلى الشاهد فيأخذ قوة منه ، وفى الشاهد السابق يقول الرازى : (شرحناها) فيضيف الشرح إلى نفسه ، ومثل هذا الكلام يقال فى مواضع أخرى .

٥ - فى تفسير قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا » من سورة : (النبأ) قال : « واعلم أنا ذكرنا فى تفسير سورة البقرة عند قوله : (جعل لكم الأرض فراشا) كل ما يتعلق من الحقائق بهذه الآية » .

٦ - فى تفسير سورة : (القدر) قال : (قال ابن عباس : أنزل إلى سماء الدنيا جملة ليلة القدر ، ثم إلى الأرض نجوما ، كما قال : فلا أقسم بمواقع النجوم . وقد ذكرنا هذه المسألة فى قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ») .

٧ - فى تفسير قوله تعالى :(خلق فسوى) من سورة (الأعلى) جاء قول المفسر : (وقد استقصينا القول فى هذا الباب فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب) .

وهى عبارة تدل على أن مؤلف الكتاب كله واحد وإلا لقال - والمعروف أنه يجب أن ينسب إليه عمله - : وقد استقصينا القول فى هذا الباب فى مواضع كثيرة ، مما صنفناه من هذا الكتاب ، أو : وقد استقصى مؤلفه فخر الدين القول فى مواضع كثيرة . أو عبارة تشبه إحدى هاتين العبارتين .

٨ - فى تفسير سورة (الانفطار) عرض لوعيد أصحاب الكبائر ، ثم قال : (والكلام فى هذه المسألة قد استقصيناه فى سورة البقرة .

٩ — فى تفسير سورة : (عبس) عند قوله تعالى : (فأنت له تصدى) شرح معنى التصدى ، ثم قال : (وقد ذكرنا مثل هذا فى قوله : (إلا مكاء وتصدية) فأحال على تفسير سورة الأنفال .

١٠ — فى تفسير سورة : (المرسلات) عند قوله تعالى : (وإذا النجوم طمست) قال : وذكرنا تفسير الطمس عند قوله تعالى: (ربنا اطمس على أموالهم) فأحال على تفسير سورة : (الأعراف) .

١١ — فى تفسير سورة (الجن) ذكر (سنجر من ملكشاه) ونقله للكاهنة البغدادية إلى خراسان ، وسؤالها عن الأحوال الآتية فى المستقبل ، وأنها ذكرت أشياء فوقعت على وفق ما قالت ، ثم قال : (قال مصنف الكتاب ختم الله له بالحسنى. وأنا قد رأيت أناسا محققين فى علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة إخبارا على سبيل التفصيل ، وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها .

وفى هذه العبارات أنواع من الدلالات

أولا : كلمة (مصنف الكتاب) تدل على أنه الفخر ، لأن الذى يكتب تكملة لا يدعى أنه مصنف الكتاب ، ولأنه سبق أن جاءت هذه الكلمة فى تفسير بعض السور التى لا نشك أنه فسرها .

ثانيا : كلمة : (ختم الله له بالحسنى توافق حال الفخر ، فنحن نقدر أنه كتب تفسير سورة الجن ، وقد جاوز الستين، وفى مثل هذه السن تخطر على الأذهان كثيراً مثل هذه الدعوات .

ثالثا : أنه رأى أناسا حكوا عن الكاهنة العراقية ، وهؤلاء الناس - فيما أرجح - عاصروا الفخر ، فإن السلطان ، سنجر السلجوقى انتهى ملكه فى سنة (٥٤٨ هـ) فالذين عاصروا هذا السلطان ، وحكوا عن الكاهنة عن لقيهم الفخر .

أما نجم الدين القمولى الذى توفى سنة ٧٢٧هـ فمن البعيد جدا أن يكون رأى أحدا منهم ، وأما شمس الدين الخويبى فإنه إذا كان رأى أحدا منهم فقد رآه فى سن الطفولة ، إذا كان ميلاده - على رأى - فى سنة ٥٨٢هـ ويبعد أن يعتمد مفسر متورع على مارآه فى مثل هذه السن .

رابعا : أن الإيمان بما يقوله الكهان والكاهنات ومن إلى هؤلاء هو مذهب الفخر فكلامه هنا يتفق مع مذهبه فى مثل هذه الأمور .

(١٢) وفى تفسير هذه السورة نفسها ، سورة الجن عند تفسير قوله تعالى : (خالدين فيها أبدا) قال : استدل جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة مخلدون فى النار

وأن هذا العموم يشملهم كشموله الكفار قالوا : وهذا الوعيد مشروط بشرط ألا يكون هناك توبة ، ولا طاعة أعظم منها . قالوا : وهذا العموم أقوى فى الدلالة على هذا المطلوب من سائر العمومات ، لأن سائر العمومات ما جاء فيها قوله : (أبدا) فالمخالف يحمل الخلود على المكث الطويل . أما ههنا فقد جاء لفظ الأبد ، فيكون ذلك صريحا فى إسقاط الاحتمال الذى ذكره المخالف .

(والجواب) أنا بينا فى سورة البقرة وجوه الأجوبة على التمسك بهذه العمومات ، ونزيد هنا وجوها .

وربما قال قائل : إن مصنف التكملة أدمج شخصيته فى شخصية الفخر ، وجعل يتحدث بلسانه .

(والجواب) من وجوه :

أولا : أن صنيعه فى تفسير سورة الواقعة يدل على أنه لا يحب أن يغفل التنويه بنفسه .

ثانيا : أن المسألة التى ذكرها فى سورة الواقعة ، وقال : إنه رأى الفخر ذكر شيئا منها وأنه وقع على ذلك بعد كتابة ما كتب ، يدلنا صنيعه فيها على أن تفسير الرازى لم يكن بين يديه ، ولا فى حفظه عندما فسر هذه السورة .

ذلك أن الكلام الذى قال : إنه رآه للرازى ، مذكور فى تفسير سورة (الشورى) فى تفسير قوله تعالى : (ليس كمثله شىء) ، وهذا المكان هو موضعها ، لكن مفسر الواقعه وضع المسألة فى هذه السورة لأدنى ملابسة ، فلو كان تفسير الرازى على ذكر منه لرجع إلى هذه الآية فى موضعها ليرى ما قال الرازى فيها ..

ولا ننسى أن الرازى هو الذى فسر سورة الشورى كما ذكر ذلك فى آخر تفسيرها ، وأنه - فعلا - ذكر شيئا مما ذكره مفسر سورة الواقعة فى السر من مجىء كاف التشبيه فى قوله تعالى : (ليس كمثله شىء) .

فالمتأمل فى كل هذا يرى لزاما عليه أن يرجح أن الذى كتب تفسير سورة الواقعة لم يكن يريد أن يجعله جزءا من تفسير الفخر ؛ ولهذه الملاحظة مزيد بيان فيما يأتى من الحديث ، لكن تعجلناها فى هذا الموضع لتتم الفكرة فى ذهن القارىء بديئا .

* * *

وأما أن مفسر سورة الواقعه لم يفسر بعض السور التى أحال عليها فى تفسيره ، فأدلتنا على ذلك ما يلى :

١ - فى تفسير قوله تعالى : (لا ينزفون) قال : بمعنى لا ينفد شرابهم ، كما بيناه هناك أى فى سورة : (الصافات) . والصافات فسرها الرازى .

٢ - وكذلك أحال فى تفسير قوله تعالى:

(وكأس من معين) فقال : ما معنى المعين ؟ قلنا : ذكرنا فى سورة الصافات أنه فعيل أو مفعول ، ومضى فيه خلاف .

٣ — فى تفسير قوله تعالى : (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) أحال على تفسير سورة الملك . فقال : ما الفرق بين هذا الموضع ، وبين أول سورة تبارك ، حيث قال : (خلق الموت والحياة) بتقديم ذكر الموت .. ثم قال : وأما فى سورة الملك فسنذكر إن شاء الله تعالى فائدتها .

وقد قلت : إن سورة الملك من تفسير الرازى بدليل إحالته فى تفسيرها على تفسير سورة البقرة .

٤ — أحال فى تفسير سورة الواقعة على تفسير سورة الإخلاص ؛ إذ قال فى تفسير قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) . وإذا قلت هو قادر ثبت له العلم والإرادة والحياة ، وغيرها من الصفات ، وسنذكر ذلك فى تفسير سورة الإخلاص إن شاء الله تعالى.

ومعنى هذا أن تفسير هذه السورة الموجودة فى كتاب : (مفاتيح الغيب) من تصنيف مفسر سورة الواقعة ، ويرده أمور :

الأول : أن هذا الكلام الذى وعد به ليس هناك فى تفسير سورة الإخلاص .

الثانى : أن صاحب كشف الظنون ذكر أن لفخر الدين الرازى تفسيرا مستقلا لسورة الإخلاص ، فكيف يكون له هذا التفسير، ثم يفسرها عالم آخر ؟ .

كان الطبيعى أن يلحق تفسير سورة الإخلاص المستقل ـ كما ألحق تفسير سورة الفاتحة، وقد كان مستقلا ـ بالتفسير الكبير، وهذا الذى حدث .

الثالث : سبق أن تكلمت عن إحالته فى تفسير سورة الإخلاص على تفسير سورة الأنبياء ، وهذا يثبت تفسيره لسورة الإخلاص ، ما دام قد ثبت تفسيره لسورة الأنبياء من أدلة أخرى غير ارتباط تفسيرها بتفسير سورة الإخلاص .

الرابع : فى تخريجه للقراءات فى قوله تعالى : (أحد ، الله الصمد) قال : وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله تعالى : (عزير بن الله) وهذا فى سورة (التوبة) وقد ثبت أنه فسر هذه السورة الأخيرة ، فهو ـ قطعا ـ قد فسر سورة الإخلاص ، على الرغم من وعده بتفسيرها فى تفسير سورة الواقعة .

وبعبارة أخرى : تفسير سورة الإخلاص الموجود فى كتاب مفاتيح الغيب ليس من تصنيف مفسر سورة الواقعة ، وقد يكون له تفسير لها ، لكنه ليس الذى بين أيدينا فى تفسير الفخر .

على العمارى

الجبال في القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي

— ٥ —

« والجبال أرساها »

هذه آية كريمة أخرى من كلمتين في الجبال نزل الوحي بها بعد أخت لها من كلمتين أيضا تأملناها في المقال السابق . هذه من سورة (النازعات) وأختها من سورة (النبأ) والسورتان ترتيبهما واحد في المصحف وفي نزول الوحي بهما ، فآية النازعات هي آخرة الآيات المكية التي ذكرت فيها الجبال مطلقا ، وإن كانت آخرة الآيات حسب ترتيب المصحف هي آية سورة الغاشية « وإلى الجبال كيف نصبت » ، وقد سبق أن تأملناها في المقال الثالث .

وقد رأينا كيف جمع الله لعباده عن الجبال في آية سورة النبأ ما لا يكاد المتأمل يقضي حقه عجبا من الحقائق الطبيعية التي كانت مجهولة للعالم أجمع في عصر نزول القرآن ، وظلت كذلك حتى كشف عنها العلم الحديث . وفي آية النازعات هذه مزيد من أسرار خلق الجبال أودعها الله الفعل (أرسى) .

إن أول معنى للفعل هو ثبت بتشديد الباء . وعلى هذا المعنى اقتصر أهل التفسير . لكن الكلمة تستعمل مادتها أيضا مع السفن ، ففي القاموس من استعمالاتها (رست السفينة : وقفت على الأنجر) . وفيه تحت مادة نجر : (والأنجر مرساة السفينة : خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة إذا رست رست السفينة) .

وإرساء الجبال أمر مجهول لقارئ الآية الكريمة ، وإرساء السفينة أمر معلوم له . فهل يستطيع أن يتوصل بهذا الذي يعرف إلى شيء عن ذلك الذي يجهل ، ويكون ما يتوصل إليه عن هذا الطريق موافقا للمعروف في العلم عن الجبال ؟

إن أول ما يتجه إليه الذهن هو القوى المؤثرة في السفينة في مرساها . هناك ثقل المرساة ، وثقل السفينة إلى أسفل يقابله ثقل الجبال . وهناك رفع الماء السفينة إلى أعلى يقابله ضغط حرارة جوف الأرض بغازاته وأبخرته ، على الجبال .

وهناك القوى الجانبية المؤثرة في السفينة من نحو فعل الموج وقوى الشد المتغير بين السفينة والمرساة الواحدة أو المتعددة عن طريق ما يصل بين السفينة وبينها من حبل أو سلسلة ، ويقابلها في حال الجبال تلك القوى الجانبية الهائلة التي أنشأ الله الجبال بفعلها في قشرة الأرض حتى تموجت على العموم جبالا ووديانا ، وأقام الله الميزان بينها

وبين غيرها من القوى ، فاستقرت الجبال ورست فى الأرض كما رست السفينة واستقرت فى مرساها بتوازن القوى المؤثرة فيها .

وإلى هنا نجد كلمة (أرساها) فى آية النازعات قد أدت إجمالا إلى نفس النتائج التى أدى إليها تأمل جعل الله الجبال أوتادا فيما يتعلق بالنشأة بما لفت سبحانه العباد إليه بآية النبأ .

لكن هناك العلاقة بين السفينة والبحر التى من أجلها احتاجت السفن إلى المرساة . فهل لهذه الناحية شىء يقابلها فى إرساء الجبال ؟ وبعبارة أخرى هل هناك سائل رست فيه الجبال كما رست السفينة فى ماء البحر ؟

المقارنة تقضى أن يكون جوف الأرض سائلا ، وأن الجبال تستقر عليه كما تستقر السفينة على ماء البحر وسيولة جوف الأرض المستنبطة هكذا من كلمة (أرساها) فى الآية الكريمة حقيقة واقعة ينم عنها ما نشاهده فى بعض البراكين عند ثوراتها من قذفها بالحمم والصخر المنصهر ، لكن الرسو على هذا الجوف السائل لا ينطبق فى العلم إلا على نوع من الجبال هو ما يسمى بالجبال النارية فى مقابل ما يسمى بالجبال الرسوبية ، وهما النوعان الأساسيان من أنواع الجبال . فى هذا الصدد يقول العالم الجيولوجى القس : أ . فيشر : إن البحث من ناحيتيه الرياضية والجيولوجية يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقة سائلة تحوى غازات مذابة ، وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة فى منصهر سائل مادته أثقل من مادتها .

وقد دل البحث على يد غير (فيشر) على أن متوسط كثافة مادة الجبال هو نحو ٢٫٦ ومتوسط كثافة الأرض هو نحو ٥٫٥ فبطن الأرض السائل أكثف حتى من جبالها وهذه حقيقة علمية أخرى تقابل المعروف من أن متوسط كثافة السفينة ، أى وزنها مقسوما على حجمها ، هو أقل من كثافة ماء البحر أو النهر وإلا لما طفت عليه ولغرقت فيه فإلى هذا الحد من الدقة يتحقق الشبه بين إرساء الجبال فى أحد نوعيها الأساسين وبين إرساء السفينة وتبارك الله الذى أودع هذه الحقائق عن الأرض وجبالها كلمة واحدة من كلمتين فى كتابه : (والجبال أرساها).

لكن الآية الكريمة فيها بعد ذلك مزيد أن سيولة جوف الأرض ورسو الجبال النارية فيها هدت إليها سيولة ماء البحر لكن ماذا عن البحر نفسه ومائه ورسو السفن فيه ؟ أليس لذلك مقابل فى الجبال ؟ .

إن العلم يحدثنا أن الجبال الرسوبية تنشأ طبقاتها أول ما تنشأ فى البحر قريبا من شواطئه بما تحمله الأنهار إلى البحار من طمى ورمل وما إليهما ترسب فيه طبقات بعضها فوق بعض ، حتى إذا تركت وعظم سمكها فى الحقب الطوال رفعها الله بقوى من تحتها وجانبها حتى تصير جبالا شاطئية ظاهرة الطبقات الرسوبية وأذن فالآية الكريمة تدل بالفعل (أرسى)

المسند إلى ضمير الجلالة ، على أهم نوعين من الجبال ، النارى منها والرسوبى ، كل راس راسخ ، هذا على شاطىء البحر وذاك بجذور له فى طبقة سائلة من منصهر الصخر فى جوف الأرض ، فسبحان الذى جمع لعباده ، كل هذا فى كلمتين تكونان آية من آيات كتابه العزيز .

وإذا تتبعنا مادة (رسا) متعلقة بالجبال فى الكتاب العزيز وجدناها وردت فى صيغة اسم الفاعل مجموعا فى تسع آيات ذكرت فيها الجبال لا بلفظها ولكن بوصف أنها رواسى وذلك فى تسع سور: واحدة مدنية هى سورة الرعد ، وثمان مكية هى حسب نزول الوحى بها . المرسلات وق والنمل والحجر ولقمان وفصلت والنحل والأنبياء .

وآية (المرسلات) هى قوله تعالى: « وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا» «فيها» أى فى الأرض المذكورة فى الآيتين قبلها : « ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا » .

وآية (ق) هى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

وبالفعلين (جعل) و (ألقى) جاء التعبير عن خلق الجبال فى بقية الآيات الكريمة التسع . بالفعل (جعل) فى آيات النمل وفصلت والأنبياء والرعد . وبالفعل (ألقى) فى آيات الحجر ولقمان والنحل .

والدلالة فى (جعل) عامة تشمل أنواع الجبال كلها ما ذكرنا منها وما لم نذكر . لكن الدلالة فى (ألقى) أخص منها فى (جعل) .

وقد لاحظ ذلك (ابن عطية) لما ذكر (أبو حيان) عند تفسير آية النحل إذ نقل عنه قوله : « قال المتأولون (ألقى) بمعنى خلق وجعل ، وهى عندى أخص من خلق وجعل ، وذلك أن ألقى يقتضى أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض ولكن من قدرته واختراعه . ويؤيد هذا فى النظر ما روى فى القصص » إلى آخر ما قال عن (الحسن) و (وهب بن منبه) . وقد أحسن فى التنبيه إلى أن (ألقى) أخص من (جعل) لكنه لم يكن يعرف أن الجبال أنواع مختلفة النشأة ، وأن الفعل ألقى ينطبق تماما على نشأة الرسوبى منها ؛ فهى بالفعل يلقيها الحق سبحانه فى الأرض فادتها تنقلها الأنهار قرب شواطىء البحار بأمره ، حتى إذا تراكمت إلى الحد الذى قدره سبحانه ، وتماسكت بالتضاغط وبغيره ، رفعتها تلك القوى جبالا شاطئية بأمره . فقد خلق الله الجبال من الأرض وخلق ثانى نوعيها الأساسيين من قدرته واختراعه ، لا فجأة مرة واحدة كما فهم (ابن عطية) من الفعل (ألقى) ومما روى فى القصص ، ولكن قدر سبحانه خلقها حين ألقاها خطوات ، كما قدر خلق الجنين فى بطن أمه فى أطوار ، لتكون كل خطوة ككل طور آية : فى الحق يمكن إذا آن الأوان أن يكشف عنها عباده ، وليكون انطباق ما يكشفون عنه من حقائق الفطرة على حرفية ما أنزل فى كتابه العزيز ، كما رأيت فى (أرسى)

(وألقى) ، شاهد صدق على أن من أنزل القرآن هو فاطر الفطرة سبحانه .

« والأرض مددناها » :

وخلق الجبال الرسوبية بهذه الصورة التى كشف عنها علم طبقات الأرض هو مثل يفسر معنى مد الأرض فى الآية الكريمة : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى » .
هو مثل من أمثلة وصورة من صور ، إذ لابد أن تكون هناك صور أخرى لمد الأرض كما كما يشير إليه تقديم مد الأرض على إلقاء الرواسى فى آية سورة (ق) ، وفى أختها آية سورة (الحجر) : «والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » وفى آية الرعد : « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً » الآية ٤ .

صحيح أن الواو فى اللغة لا تفيد الترتيب حتما كما تفيده الفاء وثم . لكن ترتيب الذكر عند العطف بالواو فى كتاب الله خصوصا إذا تكرر بذاته كما فى الآيات الكريمة الثلاث ، لابد أن تكون له حكمة ، كما هو واضح مثلا فى مجىء المحارم حسب درجات القرابة فى قوله تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت » الآية ٢٣ من سورة النساء .

ولو لم يأت التعبير إلا بالفعل (ألقى) فى الآيات الثلاث التى ورد فيها ذكر الرواسى مقرونا بمد الأرض لكان هذا كافيا فى قصر صور هذا المد على ما تلقيه الأنهار من رواسب فى المياه الضحلة ، كمياه شواطىء البحار فى العادة ، سواء أرفعت طبقات الرواسب المتراكمة جبالا بعد ذلك أم لم ترفع بل بقيت أرضا تزرع وتسكن كما فى دلتا الأنهار ، لكن التعبير جاء أيضا بالفعل (جعل) حين ورد ذكر الرواسى مقرونا بمد الأرض فى آية الرعد ، ودلالة هذا الفعل عامة شاملة لأنواع الجبال ، وإذن فالجبال النارية على الأقل لابد أن يكون فيها أيضا مثال لما ذكر الله فى الآيات الكريمة الثلاث من مده الأرض ، أى اليابسة ، إذ على هذا ينبغى هنا أن يفهم معنى الأرض ما دام يابس الأرض هو الذى يزداد ويكثر بالجبال الرسوبية ودلتا الأنهار ، وهذا طبعا لا يمنع أن يكون لمد الأرض معنى آخر قد يكون الفلكيون عرفوه فى تاريخ نشأة الأرض الكوكب السيار ، لكن المد بمعنى الزيادة فى يابس الأرض هو الذى يوحى به الإنباء عنه مقترنا بالإنباء عن الرواسى إلقاء فى آيتين وجعلا فى آية ، أى على وجه الخصوص بالرواسى الرسوبية فى آيتين وعلى وجه العموم بها وبغيرها فى آية . وقد تحقق المد بالمعنى الخاص المتضمن فى الفعل ألقى ، فهل هو متحقق على وجه أوسع كما يشير إليه الفعل ذو المعنى الأعم ؟

العجيب أن المد بالمعنى الأوسع المستفاد من هذه الإشارة القرآنية متحقق بالفعل ، متحقق أيضا فى الجبال النارية بل وفى جزر

مادتها من الصخر المعروف فى العلم بالصخر النارى، أو هى معروفة فيه بالجزر البركانية مثل جزائر (هاواى) وأكثر جزر المحيط الهادى ، وفى دائرة معارف (هتشنسون) المصورة: أن الجزائر إما قارية تتصل بالقارات من تحت الماء كأنها كانت جزءا منها ، وإما محيطية أى فى المحيطات منقطعة عن القارات وهذه بركانية تكونت بارتفاع قاع المحيط بالقوى البركانية بالتدريج ، أو بها فى غير تدرج كأنما ثار قاع المحيط بركانا وارتفع لجأة ، فهى جميعا أشبه بقمم بادية من جبال مغمورة فى المحيط . وفى بعضها مثل (جاوة) سلاسل جبال صخرها نارى وفيها براكين أكثرها خامد وأقلها يثور من حين إلى حين فهذه الجزر وجبالها كانت يوما ما قاعا للمحيطات ثم رفعها الله للعيان زيادة فى اليابسة كما زادها بالرسوبى من الجبال وبدلتا الأنهار .

وفى الآيات الكريمة الثلاث لطيفة أخرى تستنتج من أن مد الأرض ورد فى آيتين مع الفعل ألقى ، وفى آية مع الفعل جعل ، إشارة فيما يبدو إلى أن المد فى اليابسة عن طريق رواسب الأنهار أكثر وأغلب إن لم تكن ضعف مدها عن طريق رفع القيعان الصخرية النارية جزرا وجبالا فى البحار ، وهذا يحتاج فى تحقيقه إلى بحث جغرافى ، لكنه أجدر أن يكون واقعا بالفعل ، إن لم يكن بالنسبة إلى الرسوبى والنارى من الجبال ، فبالنسبة إلى النارى من الجزر والرسوبى من دلتا الأنهار .

فتأمل الآن وانظر إلى تلك الحقائق العلمية التى دل عليها القرآن الكريم بتشبيه بليغ يأتى فى آية (والجبال أوتادا) ، أو بلفظ فعل يأتى التعبير به كما فى الفعل (أرسى) والفعل (ألقى)، أو بتقديم (ظاهرة) فى الفطرة على ظاهرة فى الذكر كلما ذكرت الظاهرتان معا كما فى مد الأرض وخلق الرواسى ، أو حتى بنسبة التكرار فى الذكر بين فعل كما فى ألقى وجعل . ثم تأمل مع هذا كيف جاء ضمير الجلالة فى كل آية حاملا على قبول ما يظهر من أسرارها ، باعثا على استنباطها فى دقة وحذر ، واحكم ماذا كان يكون أثرها ووقعها لو كان من المسلمين أثرها ووقعها لو كان من المسلمين ، كالفخر الرازى مثلا ، من سبق إلى استنباطها هكذا من اللفظ والتعبير القرآنى فسبق بذلك عن طريق القرآن إلى الكشف عن تلك الحقائق المتعلقة بالجبال قبل أن يكشف عنها العلم الحديث .

فهذا جانب آخر من جوانب إعجاز القرآن الكريم من الناحية العلمية لا يمكن أن ينسب بحق إلى عبقرية بشر ، لأن العبقرى إنما تظهر عبقريته فى ميدان هو مشتغل به متفرغ له ، ثم هو لا يكتفى فى ذكر نتاج عبقريته بالإشارة يودعها كلمة أو كلمتين أو كلمات معدودة كالألفاظ فى أى آية كونية من آيات القرآن الحكيم . على أن ضمير الجلالة فى الآية القرآنية يحول قطعا دون مثل هذا الاحتمال ؟

محمد أحمد الغمراوى

جوانب البر فى حياة الرسول ﷺ

للأستاذ ابراهيم شعوط

اشتدت حلوكة الليالى ، واختفى بريق الأمل بين طيات الظلام الدامس ، وبات أهل مكة يتخبطون فى ضلال وحيرة .

لقد تلاشت المثل الطيبة ، وحل مكانها انحلال فى الخلق ، وفوضى فى المعاملات ، ولم يقتصر ظلم العرب على ما بينهم من عداوات وثارات ؛ بل تعدى ذلك إلى استغلال الضعيف واضطهاد للغريب حتى كاد يعرف بينهم أن الظلم هو أساس معاملتهم، ودستور حياتهم .

ولم يبق للفضيلة مكان إلا فى قلوب قوم إن ثاروا من أجلها كان لهم الويل والثبور من عامة القوم وصناديد العرب ، وفحول قريش . فأصبح بنو مخزوم ، وبنو جمح ، وبنو عدى بن كعب ـ على بطشهم ـ جبارين لا يبالون بما يقترفون من آثام وما يرتكبون من أوزار .

وكان هناك فى جوانب مكة عدد قليل من الأخيار الأحرار تأخذهم النخوة وتشدهم المروءة ، وتثور فى داخل أنفسهم مبادىء الفضيلة فينضح الألم على وجوههم أسى وحسرة لأنهم لا يستطيعون أن يرسلوا صرخاتهم فى وجوه الظالمين . فكانوا يتلمسون أسبابا يفجرون بها العواطف المكبوتة ، ويوقظون الضمائر التى نامت فى ظل ظلم مألوف ، وعادات تربى الجيل على هداها .

وكان أن سمع أهل مكة ـ ذات يوم ـ نداء حزينا يسكبه صاحبه فى آذان الجماهير السادرة فى غيها من سكان مكة . يسكب الوجيعة والحزن من قمة جبل (أبى قبيس) فى بحة المظلوم ، وحنجرة الخائف المذعور هاتفا :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال ! وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فتجاوبت أصداء هذا النداء فى جوانب مكة ، ورددتها جبالها وبيوتها حتى جمعت الأحرار الأبرار فهبوا سراعا لمبعث الصوت ، ومصدر الاستغاثة فوجدوا رجلا يضرب كفا بكف ـ وقد انحدرت دموعه من شدة

إحساسه بالظلم - بندب حظه فى ماله المسلوب، وبضاعته المغصوبة . والذى زاد من حيرة الرجل وضاعف عليه حزنه أن غاصب بضاعته شريف من أشراف مكة لا يرفع فى وجهه صوت ، ولا يلام على تصرف هو (العاص بن وائل السهمى) - من سادات العرب وعيونهم - .

فماذا يصنع الأحرار والأخيار ؟ !

اجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان يقلبون الأمر على وجوهه ليصنعوا شيئا يرفع من شأن بلدهم ، ويرتفع بأهلها إلى مستوى المروءة والإنسانية . فاتخذوا قرارا حاسما وتعاقدوا على تنفيذه مهما بلغت تضحيتهم فى سبيله .

تعاهدوا ، وتحالفوا - بالروح والبدن - على ألا يقر ببطن مكة ظالم، ولا تنطوى جوانحها على مظلوم - مهما كان شأن الظالم ، ومهما كان شأن المظلوم - فهم مع المظلوم حتى يرد إليه حقه ، ما بقى فيهم للحياة رمق ، وما بل بحر صوفه .

عرف هذا الحلف (بحلف الفضول) فياترى من هم هؤلاء الفضلاء الذين صرخوا فى وجه الظلم حتى ذعر ، وحاربوا الطغيان حتى انهار ؟

هم فتى لم يجاوز خمسة عشر عاما من عمره ، ورجال آخرون . فأما الفتى الصغير فهو محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

وأما الرجال فهم الزبير بن عبد المطلب ، وعبدالله بن جدعان ، والعباس بن عبدالمطلب ، وجماعة من بنى أسد بن عبد العزى وكثير من تيم بن مرة .

وظل محمد عليه الصلاة والسلام يأخذ نفسه من صغره بنصرة المظلوم وحماية الضعيف والوقوف إلى جانب الحق والبر بالمحتاجين من الفقراء والمساكين وهو فى سن لم تكن تلزمه بمثل هذه الصفات بعد . وبدت جوانب البر واضحة فى حياته كلها ، بارزة فى تشريعاته ومعاملاته وحرص الحرص كله على أن يكون هذا الجانب هو لب تعاليم الإسلام وروحه الذى يجب أن يتغلغل فى عقول المسلمين ويختلط بدمائهم ، واعتبره علامة واضحة على سلامة الإيمان وقوة العقيدة . فأخذ يحرض المسلمين على العناية بأمر الفقراء واليتامى والمساكين فقال : (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله . قال أبو هريرة : أحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر) .

ثم هو الذى ضرب للناس المثل بالقول والعمل على أن رصيد العبد عند ربه هو ما قدمه من الصدقات وما استودعه عند ربه فى أيدى الفقراء والمحتاجين ، وأبدى هذه الصورة فى ذبحه شاة ثم أخذ يتصدق منها حتى لم يبق منها إلا كتفها . فسأل عائشة رضى الله عنها عن الباقى لأهل البيت من الشاة فقالت :

قلت : (يا رسول الله ما بقى منها إلا كتفها) فقال : (كلها قد بقى إلا كتفها) .

رسول الله ونبي البر قد عكس على أمته فهمهم للربح الدائم فى الحياة فبعد أن كانت الطبيعة توحى إلى غريزة الإنسان حب التملك والأثرة فيقيس الربح بما فى يده .

فلما ضرب رسول الله هـــذا المثل صار المستقيم فى أذهان أمته أن من أراد أن يدخر لنفسه رصيداً عند ربه فليجعل هذا الرصيد صدقات يقدمها إلى أصحاب الحاجات وفى منافع العباد فى منشئات للتعليم والعلاج وإيواء العجزة .

(كلها قد بقى إلا كتفها) قضية لايتسرب الشك إليها وهى موضوعة دائما أمام أمة محمد لتدفعهم إلى البذل والتضحية وإخراج ما فى بيوتهم ليكون فى بيوت أقعدها العجز ، وحرمتها الفاقة من تملك شىء مما وصل إليهم من بيوت الأغنياء .

هى مصداق قوله تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

صورة بارعة فى تمثيل الباقى للإنسان والمفقود منه ، فالشاة التى تصدق رسول الله بها باقية له فى ميزانه عند ربه ، والكتف الذى لم يتصدق به مفقود عديم النفع لايكاد يمر من المدخل إلى المخرج فى ساعات حتى يتحول فيها إلى بقايا مبتذلة لاصلة لها بالأصل الذى كانت عليه .

ولقد وسع رسول الله على أمته أبواب الصدقات لتكون فى متناول كل إنسان ضعفت مريرته وخلصت نيته وتركز فى إحساسه ووجدانه حب الخير فقال عليه الصلاة والسلام : (كل معروف صدقة ، ومن المعروف أن أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من إنائك فى إنائه) .

ثم أظهر من ضروب الترغيب فى البر ما خرج عن طاقة العقول العادية حيث روى لأصحابه - كما نقل أبو هريرة - فقال : (بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا فى سحابة يقول : إسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة - أرض ذات حجارة سوداء - فإذا شرجة . والشرجة مسيل الماء من الحرة إلى السهل - من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله ، فتتبع الماء فإذا رجل قائم فى حديقة يحول الماء بمسحاته - بفأسه - فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان للاسم الذى سمعه فى السحابة فقال له : ياعبدالله لم تسألنى عن اسمى ؟ فقال : إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال: أما إذ قلت هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق

بثلثه ، وآكل أنا وعيالى ثلثا ، وأرد فيها الثلث الباقى .

هكذا كان يلقى رسول الله هذه المعانى فى قلوب المسلمين لينشدوا الخير لأنفسهم بما يبذلونه من مبرات للفقراء حتى يكونوا كما أراد .

وإن الناظر فيما شرعته الرسالة المحمدية يجد أن روح العبادات كلها تهدف إلى هذا المعنى ، وتكون هى من وسائل هذه الغاية .

فالصوم درس فى الجوع والصبر على المكروه لتعلم البر ، والحمل على البذل والإنفاق . والحج مجاهدة ومكابدة أساسها توصيل البر إلى أهل هذا الوادى والقادمين عليهم من الإخوان فى الدين ـ والصلاة تردد على أبواب المولى فى اليوم خمس مرات ليقف المخلوق بين يدى الخالق فيؤدبه بالدين حتى يرق إحساسه ، وترهف عاطفته فيحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وكان عليه الصلاة والسلام دائما زعيما للمبرات داعيا إليها بالقول والعمل فلم يكن شىء يغضبه أشد من رؤية المحتاجين فى أسمالهم البالية ، وقد أعياهم الجوع ، وأضناهم الصبر على قسوته ترفعا عن سؤال الناس وتعففا عما فى أيدى غيرهم فيروى جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ ويقول :

كنا فى صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قوم عراة عليهم ثياب من الصوف قد خرقوها فى رءوسهم ـ عامتهم من مضر . بل كلهم من مضر . فتغير وجه رسول الله عليه الصلاة والسلام لما رآه بهم من الفاقة ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » ـ « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره . حتى قال ولو بشق تمره . فجاء رجل من الانصار بصرة كادت كفه تعجز عنها . بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام ولباس فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل حتى كأنه مذهبه ـ إناء من فضه قد طلى بالذهب ـ فقال :

من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوازرهم شىء .

دكتور إبراهيم شعوط
أستاذ التاريخ المساعد بجامعة الأزهر

من روائع التاريخ :

الإمام الأوزاعي يجبه الطغيان

للأستاذ محمد رجب البيومي

كنت قد واليت الحديث على صفحات (مجلة الأزهر) عن أعلام من فقهاء الإسلام وحماته قد جابهوا الطغيان فى جراءة نادرة ، ورفعوا راية الحق حين لمعت الأسنة وبرقت الحتوف . ولم تأخذهم فى الله لومة لائم أو مهابة عاقبة ، ثم جمعت ما كتبت فى كتاب صور تحت عنوان (علماء فى وجه الطغيان) ولكن من كتبوا إلى من أفاضل القراء أخذوا يلحون فى متابعة الحديث عن هؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من حفظة دين الله ، فرأيت أن أستجيب إليهم بمتابعة الحديث مبتدئا بالأوزاعى رحمه الله .

حين سقطت الدولة الأموية وابتدأ عهد بنى العباس تطلع المسلمون إلى زمان مشرق بالعدالة يقوده آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مراقئ العدل والإنصاف والأمن ، وقد قام الدعاة فى كل مكان يعيدون مثالب الأمويين ومظالمهم على الأسماع لاعنين منكرين ، ومبشرين بزمان صالح يتزعمه رجال يهدون إلى الحق وهم به يعدلون .

وقد بدأ أمير المؤمنين الخليفة الأول أبو العباس عبد الله بن محمد بن على عهده بالصلاة الجامعة بالكوفة ورقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وافتخر بقرابته لرسول الله ، وندد بما قام به الفجرة من بنى حرب ومروان ثم قال : (وإنى أرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله) ثم أدركته وعكة مرضية فجلس على المنبر وصعد عمه داوود بن على ليقول من خطبته المشهورة : (إنا والله ما خرجنا فى هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا لنحفر نهرا ولا نبنى قصرا ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا من أموركم ، وبهظنا من شئونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم ، لكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله أن نحكم

فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما صعد منبركم هذا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين أبو العباس) ! !

ولكن الذين أعطوا الناس ذمة الله وذمة رسوله أن يحكموا بما أنزل الله ويعملوا بسنة رسول الله.ويسيروا فى العامة والخاصة بكتاب الله ، صاروا يمعنون فى الغدر وسفك الدماء وإزهاق النفوس وخيانة العهد إلى مدى بعث الفزع وزلزل الاطمئنان ، وعطف النفوس إلى الأمويين حين وجدوا آلافا من الأرواح تزهق ، وزلازل من من الحروب تشب ، وأخذا بالظنة دون تحقيق ، ومبادرة بالشر دون تريث ، حتى صار المصبح مشفقا أن يمسى دمه ريا للأرض ولحمه طعاما للطير ، ومصرعه حسرة فى قلوب الأقربين ...

وكان أشد بنى العباس عصفا بالأرواح وهيجانا للشر ، وزلزلة للسكينة عبد الله ابن على عم أمير المؤمنين حتى وصفته بعض الروايات التاريخية بالسفاح إذ أنه أحق بهذا اللقب من ابن أخيه ، وقد كتب أستاذنا المغفور له عبد الحميد العبادى فى توضيح ذلك فصولا قوية كانت مدعاة نقاش على مفيد بين كبار الكتاب منذ ربع قرن ! هذا العم الغاشم قد اعتقد أنه ظل الله فى أرضه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقد انهزم مروان بن محمد على يده فى معركة الزاب فعد ذلك مبعث فخر متطاول ، ورأى نفسه صاحب الأمر الحقيقى إذ استطاع أن يهزم آخر خليفة مروانى ثم أخذ يتبعه بجنوده حتى تم مصرعه ، وأورثه ذلك جماحا ونزقا ، فأخذ يتتبع العزل من بنى حرب ، ليستأصل شأفة الأيتام والأرامل والعجزة من النساء ! وكأنه جرى فى سباق دموى مع أبى مسلم الخراسانى ، فإذا أباد أحدهما معشرا نافسه الآخر بأضعاف ما أباد ، لا يرقبان فى الله إلا ولا ذمة ! وحقت كلمة الله فوقع اليأس بين الطغاة ، وأكل بعضهم بعضا فى النهاية .

والذين يخلطون روايات كتب الأدب بروايات كتب التاريخ دون تحقيق ، يزعمون أن العفو الشامل قد عم بنى أمية أولا ، فصفح عنهم أمير المؤمنين وتقاسموا مجالس السمر مع بنى العباس فى أبهاء الخلافة ، وباحات الإمارات ، وكادت تندمل الجراح ، لولا أن عبداً شاعراً يقال له (سديف) كان مولى للخليفة ركب إليه من الحجاز فاستأذن متلثما دون أن يخبر باسمه ، وحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه إلا فى حضرة أبى العباس ، فأذن له فدخل ليرى الخليفة على سريره ، وبنى هاشم دونه على الكراسى ، وبنى أمية دونهم على الوسائد مثناة على الأرض ، فلما شاهد التئام الشمل حسر اللثام عن وجهه وأخذ ينشد .

أصبح الملك ثابت الأساس
بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديماً
والرءوس القماقم الرواس
يا أمير المطهرين من الذم
ويا رأس منتهى كل راس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً
واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله
بدار الهوان والإتعاس
ذلها أظهر التودد منها
وبها منكمو كحد المواس
اقصهم أيها الخليفة واحسم
عنك بالسيف شأفة الأرجاس

فتغير لون أبي العباس وأصابه زمع ورعدة ثم التفت إلى جنوده من الخرسانية فأخذوهم بالسيوف حتى همدت جسومهم ورحل سديف إلى عبد الله بن علي فأنشده :

لا يغرنك ما ترى من إناس
إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويا

فهاج هائج الأمير ، وأعدم الأرواح بالمئات ! ! هذا الذي ترويه كتب الأدب وبعض كتب التاريخ لا يجوز أن يلقى بالتبعة على رأس هذا العبد الشاعر وحده ! فما كان له أن يصدر أمراً في شعره يغير به سياسة خليفة وأمير لو صفت سرائر العباسيين ، ومالوا إلى التسامح ، ولكن الشاعر آنس رغبات سادته في الانتقام والحفيظة ، فوضع الثقاب على النفط ، وأخذ يشعل اللهيب ليرضى سادته غير عابىء بملامة ضمير ، أو ثورة هاجس ، بل إن عبد الله بن علي لم يكن في حاجة إلى من يهيجه ، فمنذ فر مروان ابن محمد وهو لا يذر أموياً يعثر عليه ، وقد رجح الأستاذ العبادي أن استئصال بني أمية لم يكن بحضرة أمير المؤمنين بالكوفة أو الحيرة أو الأنبار ، ولم يتم على يده كما تزعم روايات الأدب والتاريخ ، لأن العراق لم يكن في وقت من الأوقات موطن بني أمية وبخاصة في أخريات عهدهم عندما انبثقت عليهم فيه البثوق وكادت أن تأتي على سلطانهم قبل زحف العباسيين إنما كانت الشام موطن بني أمية ، وعلى يد عبد الله بن علي قد قامت جرائم الإبادة والاستئصال ! فهو صاحب الإثم الكبير فيما كان !

كان في أهل الشام غيرة وحفيظة لقد عز عليهم أن يفتك بالناس لمجرد الشبهة ، فكل من كانت له صلة ما ببني أمية لقى حتفه من عبد الله ! والشام حاضرة الأمويين وعرين سلطانهم فلا ريب أن يكثر بها الأشياع والمريدون ، ولا ريب أن يستحر القتل والاغتيال ، وأن تعطى عهود الأمان ، حتى إذا استسلم الخائف لقى مصرعه دون اكتراث بوفاء ! فتهامس المتهامسون مستائين ، وغمر القوم شعور لهيف بالمأساة ! فإخوانهم

يتساقطون من حولهم مضرجين بالدماء ! وإذا كان آل رسول الله من بنى العباس قد نهضوا ليحققوا الحق ! فما لهم يفعلون ما لا يقولون ، وما لعبـــد الله يشعل الحرائق أنى سار !! وجاءت الأنباء لعبد الله بن على ، فرأى أن يسكت الناقدين باسم الدين ، وأن يكون ذلك على رءوس الأشهاد إذ يستجوب فقيه الشام وعالمها الكبير (أبا عمرو عبد الله الأوزاعى) فى دماء بنى أمية وأموالهم ، ولن يجرؤ الفقيه - فى ظن الطاغية - أن يفتى بما يخالف هواه وهو يرى السيوف تبرق . والدماء تسيل !

كان الإمام الأوزاعى صاحب مهابة وجلال، وله فى الفقه إمامة ذات صدارة ، فقد تخرج فى مدرسة الصحابة من أمثال أبى عبيدة الجراح وبلال وشرحبيل ممن كان لهم بديار الشام مقام، وأخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول والثورى وروى عنه جماعة من مشيخة الفقهاء ممن كانوا فى طبقة أساتذته كقتادة والزهرى وقد قال ابن خلكان فى ترجمته: «هو إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه ثم حكى عنه ، أن سفيان الثورى بلغه مقدم الأوزاعى فخرج حتى لقيه بذى طوى فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه فى رقبته فكان إذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ . ومع أنه صاحب مذهب فقهى تبعه الناس أحقابا ثم اندرس فقد كان أديبا فصيح اللسان ، قوى الأسلوب ، جزل العبارة ، وفى كتاب « أحسن المساعى فى مناقب الإمام الأوزاعى » نماذج من آثاره البليغة ، وأذكر أنى قرأت قديما وعظا للأوزاعى ساقه إلى أبى جعفر المنصور يصور به اليوم الآخر والنفخ فى الصور وقيام الناس لرب العالمين ، وإلزام كل إنسان طائره فى عنقه ، فما رأيت فى موضوعه أعذب وأبدع مما صدر عن الأوزاعى الصدور من الوعاظ والمرشدين ، ولدينا فى مجال الوعظ الدينى أدب حى يتطلب البعث والإشادة، وهو تراث حافل يسوؤنا أن يضيع .

أحضر عبد الله بن على كبير علماء الشام وإمام الفقه فى الإقليم، فهش للقائه حين أقبل، وأجلسه فى صـــدر المجلس وكأنه يحاول بالترحيب به أن يميله إلى حاشيته ، ثم بدأ فتكلم عن مآثم بنى أمية وما صنعوه بالحسين وآل البيت ثم ما قام به ولاتهم من أمثال الحجاج وعمر بن يوسف وعبد الله بن زياد من إرهاب وطغيان ، واتجه بالسؤال إلى الأوزاعى فقال :

يا أوزاعى ماتقول فى ثورتنا على الأمويين!

فرد الشيخ فى صرامة: قال صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى).

فتمعر وجه عبد الله ، وظهر الغضب فى وجهه ، ولكنه كظم غيظه وسأل متجهما ؟ وما قولك فى دماء بنى أمية ؟ .

فلم يلبث أن هتف الشيخ بالرأى الصريح:

قد كانت بينك وبينهم عهود وكان من الواجب شرعا أن تفي بها .

فلم يتمالك الطاغية أن صاح وقد اشرأبت أعناق القوم – اجعلني وإياهم لا عهد بيننا ؟ فنظر الأوزاعي في حدة ثم صاح : دماؤهم عليك حرام !

ثارت ثائرة عبدالله وهم أن يبطش بالشيخ، ولكن ماذا سيكون بعد مصرعه؟إن الجريمة قد سجلت عليه دون إفلات ! ولابد من ملاينته ليتراجع قليلا ، فاصطنع الهدوء وقال للأوزاعي: وما دليلك ياشيخ الشام ؟ .

فلم يمهله الأوزاعي أن هتف في اعتداد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث ، النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) !

تعقد المأزق واسود ، وضاقت الدنيا في وجه عبد الله ، ثم رأى أن يتراجع عن الدماء ويسأل عن الأموال فقال في استخذاء وما رأيك في أموالهم ؟ .

وهنا أجاب الأوزاعي في هدوء مستقر واطمئنان لا يتزعزع .

إن كانت أموالهم في أيديهم حراما فهي حرام عليك أيضا ، وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي هنا بلغ الغيظ حدته بالطاغية فصاح محنقا : ما هذا : أليس الأمر لنا – آل البيت – ديانة ، فابتسم الأوزاعي قائلا : كيف هذا ؟ .

فرد عبد الله يقول متحديا : ألم يوص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي ؟

فهز الأوزاعي رأسه وقال في ابتسام : لو أوصى إليه ما حكم الحكمين ! ! فاستشاط ابن علي من الغيظ وصاح بأتباعه أخرجوه! أخرجوه ! وأخذ يبيت في نفسه الرجل الشر ليعصف به عن قريب ، انتشر في الناس حوار الأوزاعي ، ولكن الطاغية يشغل عنه بالعبء الفادح إذ يجيئه النبأ بموت أمير المؤمنين ومبايعة أبي جعفر المنصور ، وكان يرى لنفسه الأمر فيهيج هائجه ويهيء الجنود لمقاتلة المنصور زاحفا بكتائبه المتراصة ، ويرميه أبو جعفر بأبي مسلم ! فيتعارك الطاغيتان ،وتدور الدائرة على طاغية الشام ثم لا تمهل طاغية خراسان فيلقى مصرعه على يد طاغية ثالث ، وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا .

مضت الأيام وعاش الأوزاعي مبجلا مهيبا في دمشق ثم ارتحل إلى بيروت فأقام بها حيث جاءه اليقين ، فنفر الناس إلى تشييع جنازته متزاحمين وتطلع عامل المدينة ليرى الحشد المتزاحم خلف نعشه فيقول في تعجب .

رحمك الله أبا عمر ! فقد كنت أخافك أكثر من أمير المؤمنين ؟

محمد رجب البيومي
مدرس أول بدار المعلمات بالفيوم

السّنّة وما أُثيرَ حَول مُصنّفاتها

للأستاذ محمد الأحمدى أبى النور

سارت البشرية - عبر تاريخها المديد - وهى تشدو الحق ، وتنشد الخير ، وتهفو إلى الكمال ... وكلما مضت رويدا وافاها المولى سبحانه بما يوائمها من كتبه ورسالاته « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

وما أن بلغت مرحلة النضوج الفكرى حتى أرسل الله خاتم أنبيائه ورسله بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يساوق التطور الإنسانى ، ويختتم الكتب السماوية ، ويجئ - بحق - أوفاها بالقصد ، وأولاها بالبقاء ، وأحراها بخلود الأثر ؛ لما يضم بين دفتيه من أعدل الشرائع ، وأقوم المبادئ ، وأبلغ العبر ! .

وقد عهد سبحانه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما أنزل ، كما عهد إليه بتفصيل ما أجمل ، قال عز وجل : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

وقد روى الأوزاعى عن حسان بن عطية : (كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك)[١]

كذلك عهد سبحانه إلى نبيه بإبلاغ بعض الأوامر والنواهى والإرشادات التى أوحى إليه بها من غير القرآن الكريم ، وحث على وجوب أتباعه فيها ؛ لما اكتسبته من حرمة الوحى وقداسته ، فقال عز شأنه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وحذر من مخالفته ، وذكر سوء عقباها فقال :

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى وجوب الأخذ بما صح عنه من ذلك فقال :

(إنى أوتيت الكتاب وما يعدله ، يوشك شبعان على أريكته أن يقول : بينى وبينكم هذا الكتاب، فما كان فيه من حلال أحللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه ، ألا وإنه ليس كذلك[١] » .

لذلك لم يكن غريبا أن يجعل الله طاعة رسوله من طاعته فيقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

---

(١) جامع بيان العلم ٢ / ١٩١ .

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ١/١٤٧ - ١٤٨ والحاكم فى المستدرك وصححه وأقره الذهبى وفيه زيادة (وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله) ١ /١٠٩ والترمذى وقال : حسن غريب من هذا الوجه ٩١/١ وابن ماجه ١ / ٥ - ٦ .

وأن يثبت له الهداية إلى السنن اللاحب، والنهج القويم، كما أثبتها القرآن الكريم، فيقول: «وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض».

وأن يسجل له فى محكم كتابه أنه ما يصدر فى هذه الأمور عن نفسه، وإنما يبلغ ما يوحى إليه بأمانة بالغة:

«وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى».

ومنذ بزغ فجر الإسلام فقد كان للسنة فى نفوس المسلمين مكانتها الأثيرة، وحرمتها الكبيرة بما كان له أبعد الآثار فى مسارعة المسلم إلى الامتثال عند علمه بثبوت الأمر أو النهى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فى عظمة ما قدم علماء الحديث فى القديم والحديث من صادق الجهود فى حفظ السنة وصونها، ونقل المرويات ونقدها، وتمييز صحيحها عن سقيمها، وكشف النقاب عن الثقات، والضعفاء، والمجاهيل، ومن يصح الأخذ عنه ومن لا يصح، وما أكثر ما أظمأوا نهارهم، وأسهروا دجاهم، وأفنوا أعمارهم فى سبيل إحياء السنة وتنقيتها من الدخيل والمنتحل.

يشهد بذلك تراثهم الذى خلفوه لنا فى مصنفات الحديث المختلفة، وفى تاريخ الرجال وفى فن الجرح والتعديل، وفى سائر ما يتعلق بعلم الحديث دراية أو رواية.

ولقد كان فى القمة من أولاء أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى الذى كان جامعه الصحيح ثمرة جهد دائب طوال ستة عشر عاما من عمره الخصيب، فجاء مثلا رائعا، وعملا شامخا فى جمع الحديث سواء من ناحية الأصالة فى المنهج، أو الشدة فى الاشتراط، أو الدقة فى التحرى، أو العبقرية فى الاستنباط، أو الفقه فى السنة ؟ ؟

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجرى تلقته الأمة بالقبول: تعب معينه الثر، وتأخذ من علمه الزاخر، وتحتج بأحاديثه وهى فى القمة من الصحة.

إلى أن تطاول كاتب متعالم لم يقرأ فى الحديث ولا فى التفسير قراءة متخصص ولم يدرس دراسة باحث، ولم يكتب كتابة منصف، وفى مقال ذكر أنه ليس فى البخارى أحاديث مفتراة فحسب بل منكرة أيضا.

وساق لذلك ثلاثة عشر نصا أوهم أن تبعتها ملقاة على البخارى وليس كذلك فبعضها موضوع والبعض الآخر فى صحته (مقـ ل) ولم يرو البخارى منها إلا حديثين: حديث التيمم، وحديث المباشرة، والباقى لا يلزم به؛ لأنه ليس من شرطه، ولا يعنينا فى هذا المقال إلا ما يتعلق بالبخارى.

على أن ثمت أمورا لا غناء عن ذكرها فى هذا المقام وأمورا أخرى ذكرت فى ردود تحتاج إلى إسهاب أو تعقيب سميا ور .

الحقيقة وإسهاما فى تكاملها والله ولى التوفيق.

فأبرز ملامح المقال أن كل ما يصوره يخالف القرآن الكريم ، أو يعارض العقل ، وذلك لايعقل أن يصدر عن النبى صلى الله عليه وسلم.

ولقد ساق الكاتب أمثلة عديدة من البخارى وغيره يبرهن بها على مدعاه ! ؟

ثم دعا إلى تنقية كتب التفسير والحديث من أمثال تلك الخزعبلات والمفتريات ! ؟

كذا قال ! ؟

وذلك عند السير فى ضوء النقد معترض، شكلا بما يلى :

١ — ما المراد بمخالفة القرآن ، وموافقة العقل ؟ !

هل يريد بذلك أية مخالفة ، وأية موافقة ؟

إن إطلاق القول فى ذلك ، وفتح الباب فيه أمام كل طارق ، والسير فى دروبه دون إطار منهجى محدد ، يؤدى إلى الحكم ببطلان كثير من الأحاديث الصحاح ، ويفضى بذلك إلى الاصطراع الحاد بين المسلمين من الناحيتين : الفكرية والعقدية ، فما تراه طائفة منافيا للعقل ، أو مخالفا للقرآن قد لا تراه طائفة أخرى كذلك ؟ !

٢ — قد يكون الحديث المعارض للقرآن منسوخا ، والنسخ لا يرفع الحكم بصحة الحديث فى ذاته ، بل قد تكون الآية القرآنية نفسها منسوخة بحديث - ما - فلا يؤدى ذلك إلى القول ببطلان الآية ، أو انتفاء صفة القرآنية عنها .

ومن الثابت عند المفسرين والمحدثين أن القرآن قد ينسخ السنة ، وأن السنة قد تنسخ القرآن ، دون أن يكون لذلك تأثير فى صحة المنسوخ ذاته ؟ !

وفيما أورده الحازمى بكتابه (الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار) وأبو جعفر النحاس فى كتابه (الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم) أمثلة تغنى عن الإيراد ، فليرجع إليها من أراد ! .

٣ — قد يظهر الحديث - بادى الرأى - معارضاً للقرآن ، وقد يسارع سطحى النظرة إلى القول ببطلانه دون إعمال الفكرة ، أو تذوق روح الشريعة ، أو تعرف إلى اصطلاح المحدثين ، أو استقراء لمعنى الكلمة فى الجزئيات والوقائع المختلفة .

ولنضرب لذلك مثلا . كلمة « المباشرة » التى أقام صاحب المقال منها بعض أسس الهجوم على البخارى ، فالمعنى بها كما ذكر شراح الحديث ومنهم القسطلانى ، والعينى ، والنووى ، وابن حجر ، والكرمانى وغيرهم : التقاء البشرتين ، لا المجامعة ، ولا الالتقاء الجنسى.

يؤيد ذلك اللغة من جهة ، واستعمال الكلمة فى سياقاتها المختلفة فى الأحاديث من جهة أخرى.

٤ — قد يكون الحديث تعبيراً عن حادثة وقع فيها اجتهاد الصحابة ، واختلفت فيها وجهات النظر بينهم فيسجلها الحديث كما هى .

وقد يكون من حكاية لمذهب ذهبه بعض الصحابة - زمانا - ثم رجع عنه، أو تأولا ارتآه فى فهم آية تلاها أو تليت عليه .

وذلك كحديث التيمم للجنب ، وما حدث بين عمر وعمار بن ياسر من خلاف فى الرأى بشأنه .

وكحديث المناظرة بين أبى موسى الأشعرى، وعبد الله بن مسعود التى جرت بينهما على أساس ما حدث بين عمر وعمار ، رضى الله عنهم جميعاً .

فغير واقع ولا سائغ أن يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم أو أحد الصحابة إلى مخالفة الكتاب العزيز ، بله أن يخالفه بالفعل !؟

٥ - قول ابن حزم أو غيره فى حديث إفطار الصائم بالبرد : إن هذا على شرط البخارى ، أو على شرط مسلم لا يلزم البخارى أو مسلماً فى شىء ، وعلى ابن حزم أن يتحمل مسئوليته وحده !؟

فكم قال الحاكم : أبو عبد الله النيسابورى إن هذا على شرط البخارى ، أو على شرط مسلم ، أو على شرطهما وقد انتهض فألف لذلك كتابه : (المستدرك على الصحيحين) جمع فيه ما رواه على ما رآه من ذلك! ثم لم يصف له منه الكثير . ؟!

لقد تعقبه الذهبى فأقره فى بعضها ، وعارضه فى بعضها الآخر ، وعلل هذه المعارضة وذلك كتابه : « تلخيص المستدرك » !

ومن هنا قال العلماء : إن المستدرك للنيسابورى لا يقرأ بدون التلخيص للذهبى كما أن الإحياء للغزالى لا يقرأ من الناحية الحديثية دون تخريج العراقى ، أو الرجوع إلى المصادر المختلفة لتمييز الحديث . !

أجل ! فقد حشد الغزالى كل ما يخدم النقاط التى أودعها كتابه الحافل ، دون سبر الأحاديث من الوجهة الفنية . ؟!

ولو قد تم إلزام الحاكم للبخارى ومسلم فى كل ما ألزمهما به ، لكان من الجائز فى هذه الجزئية أن يتم إلزام ابن حزم أو غيره لهما !؟

بل لو تم إلزام ابن حزم البخارى ومسلم فى هذا الحديث لما فات الحاكم أن يخرجه فى كتابه ، بناء على أنه على شرط الصحيحين الذى ألف كتابه من أجله . !؟

بيد أنه لم يخرجه . ؟!

فما ذنب البخارى أو مسلم إذاً ؟ وما هى مسئولية أحدهما فى إلزام لا يخلو من طابع النظرة الشخصية . ؟!

على أن هذا الذى ذكرناه أولا وأخيراً من الناحية الشكلية فحسب .

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

محمد الأحمدى أبو النور

حول طبيعة الشعر الجاهلي

للأستاذ كامل السيد شاهين

---

١ — يكاد النقاد يتفقون على أن الشعر الجاهلي يمتاز بقوة المتن، وشدة الأسر وجساوة اللفظ . وقد غلوا فى ذلك غلواً كبيراً حتى جعلوا هذا الأصل معياراً يقيسون به ما هو داخل فيه ، وما هو خارج عليه ... وحتى صار كل شعر مسته السهولة أو جرى فيه اللين متهما مطعونا فيه ، سواء فى ذلك ما تناول أحداثاً جرت فى عصر الجاهلية ، وما كان من قبيل النغمات الخاصة التى يتغناها الشعر ، وتعبر عن الحياة والنفس الإنسانية .

وبهذا المعيار نفيت قصائد عن امرىء القيس ، وعن مهلهل بن ربيعة ، وعن جليلة بنت مرة ، وعن المنخل اليشكرى ... وعن كثير سواهم فى دروب العصر الجاهلى .

وما ترخص النقاد فى قبول اللين السهل القليل الغريب إلا مع شعراء السواد كعدى ابن زيد العبادى .

• • •

وقد ذكر الدكتور طه حسين أن هذا المذهب الذى ذهبه القدماء والمحدثون فى تحقيق الشعر الجاهلى مذهب خادع ، فربما كان فى الشعر الجاهلى ما هو يسير لين ، وربما كان فى الشعر الإسلامى ما هو غريب حوشى .. وشعر الفرزدق ، ورجز العجاج ورؤبة وذى الرمة بينة على ذلك .

والمعيار الذى ارتضاه الدكتور طه حسين لقياس الشعر الجاهلى ، وما ينبغى أن يكون عليه صلابة واعتدالا هو أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الحديث الشريف ، فهو يقول : « وإذاً ، فلا ينبغى أن تتخذ غرابة اللفظ دليلا على الصحة والقدم ، ولا ينبغى أن تتخذ سهولة اللفظ دليلا على الانتحال والجدة .

وإذاً ، فليس غريباً أن تقرأ الشعر يضاف إلى الجاهليين فتفهمه دون مشقة ، وترجح مع ذلك صحته ، وأن تقرأ الشعر يضاف إلى الجاهليين فلا تفهم منه شيئاً ، وترفض مع ذلك أن يكون صحيحاً .

وإذا لم يكن بد من وضع قاعدة فى هذا الموضوع ، فنحن ميالون إلى أن نقف موقف الشك من الشعر الذى يسرف صاحبه فى الغريب ، كما أننا ميالون إلى أن نقف موقف الشك أيضا من الشعر الذى يسرف صاحبه فى السهولة واللين ... وإنما الشعر الذى نستمد النظر فى صحته هو هذا الذى يناسب لغة القرآن وما صح من الحديث متانة لفظ

ورصانة أسلوب فى غير تكلف للغريب ، ولا إسراف فى الحوشية ، ويناسب القرآن وما صح من الحديث سهولة مأخذ وقربا من الفهم من غير إسفاف ولا دنو من السخف [1] .

* * *

والدكتور طه حسين عندما يقرر هذا المبدأ يضيق به عند التطبيق ، فيقبل من الشعر ماكان متين اللفظ رصين الأسلوب فى غير تكلف للغريب ، ولا إسراف فى الحوشية ، ولكنه يرفض ما كان سهل المأخذ قريبا إلى الفهم ، مع أنه لم يبلغ درجة الإسفاف ، ولا هو دان من السخف .

وإلا فبأى ذنب يرفض شعر المهلهل رفضا حاسما مدعيا أن فيه سهولة ولينا وإسفافا ويرفض قصيدة جليلة بنت مرة :

يا إبنة الأقوام إن شئت فلا
تعجلى باللوم حتى تسألى

لأنه - فيما قال - لا يستطيع شاعر فى هذا العصر الحديث أن يأتى بأشد منه سهولة ولينا وابتذالا ، مع أننا نقرأ للخنساء وليلى الأخيلية شعراً فيه من قوة المتن وشدة الأسر ما يعطينا صورة صادقة للمرأة العربية البدوية . اهـ

وحديث الدكتور الناقد عن ليلى والخنساء حديث لامقنع فيه من نواح كثيرة . فالخنساء وليلى الأخيلية مضريتان الأولى من بنى سليم والأخرى من بنى عقيل، أما جليلة فهى شاعرة ربعية وبكرية . والفرق بين شعر المضريين والربعيين واسع ... وربما كان بنو بكر من ربيعة ألين ألفاظا من سواهم لسكناهم السواد .

والخنساء وليلى كانتا قد عالجتا الشعر واشتهرتا به ، وتمرستا بإنشاده . والشعراء الذين يحترفون الشعر يكونون فى الجملة أكثر تنطسا وانتقاء للألفاظ وقربا من القوة والمتانة من الشعراء الذين لم يحترفوا الشعر وإنما يقولونه فى الفينة بعد الفينة ، وعلى أمد طويل ولم يرو لنا التاريخ أن جليلة قالت شعرا إلا هذه القصيدة اليتيمة . على أن الخنساء بالذات إذا تناولت الرثاء لانت ورقت أحيانا على ما قيل فيها من الفحولة والقوة .

هذا حديث اللين والسهولة ، فأما حديث الابتذال ، فلسنا نرى فى اللفظ ابتذالا على الجملة ، أما فى المعنى ، فإن الشعر العربى كله لا نكاد نظفر فيه بقصيدة غير هذه القصيدة فى تصوير الألم المضاعف، وتوزع نفس المرأة بين الحزن على زوجها ، والشفق على أخيها وإظلام حاضرها ، وانتظار مستقبل أكثر إبهاما وأشد إظلاما ، ووقوعها بين نار الحزن ونار التهمة ... فالابتذال إذا بعيد كل البعد من معانى هذه القصيدة .

عسى أن يكون لنا بعد ذلك حق الادعاء بأن أبيات جليلة يمكن أن تكون صحيحة ، وأن تكون من الأنفاس الشعرية التى ترددت

---

(١) فى الأدب الجاهلى ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

فى العصر الجاهلى ، بالرغم مما يجده الناقد الكبير بها من سهولة ولين .

٢ — ولكن الذى أغرى النقاد باتخاذ الغرابة والصلابة سمة يستدلون بها على جاهلية الشعر وأصلا يعتمدون عليه فى نقده وتمييزه ؟

أكبر الظن أن الذى حملهم على ذلك هو ما انتهى إليهم من مختارات هذا الشعر . فقد وجد النقاد بين أيديهم شعر (المعلقات) ، وهى مجموعة لشعراء تمرسوا بالشعر ومرنوا عليه ، ومنهم من اعتاد الاحتفال به والاحتشاد له ، والأناة فيه ، أناة لم يعرف لها مثيل فى تاريخ الشعر ... لجاء هذا الشعر إلا أقله حافلا بالغريب مائجا بالصور الشعرية طويل النفس إلى حد لا نجده إلا قليلا بين أشعار الجاهليين . ووجدوا بين أيديهم (المفضليات) وهى مجموعة من القصائد التى تميد فيها نفس الشاعر حتى يجاوز مائة من الأبيات ، ويقصر حتى لا يجاوز ثلاثة الأبيات ولكن الغرابة والصلابة تنتظمها جميعا .

وكان المفضل الضبى معلما للغة . . كان يعلم المهدى بن المنصور ، وكانت للمنصور ضلاعة فى اللغة . . فإذا اختار المفضل للمهدى شعرا يتسم بشدة الأسر ، وجسارة اللفظ ، فهذا أمر طبيعى إذ هو يبتغى تعليم اللغة والأسلوب العربى فى وقت معا .

ووجدوا بين أيديهم ، الأصمعيات ، وهى مجموعة مختارة من القصائد التى رواها الأصمعى خلال جولاته فى البرارى ومشافهة الأعراب أو تلقاها عن أستاذه الفذ الخليل بن أحمد .

وكان الأصمعى معلما للغة مؤدبا مسامرا فى دار الخلافة على عهد الرشيد ، وقد غبر زمانا يجوب البادية يجمع الأشعار والآثار والشوارد ، فإذا اختار من الشعر اختار ما هو غريب بدوى ليبهر به الرواة ويبزهم .

ووجدوا بين أيديهم ، جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن الخطاب . . وقد كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، ولذلك جاءت جمهرته شاقة من روحه ذات طابع خاص فى الشعر .

إذن فهذه المختارات لا تعطينا الطابع العام للشعر الجاهلى ، إذ كان أصحابها يتباصرون بالغريب ، ويرغبون فى اتخاذ المنزلة عند الحكام وعند الناس بظهورهم به .

وقد كان أولاد الخلفاء على عهد الأمويين يدفعون إلى البوادى لتستقيم ألسنتهم ، وتنطبع على الصحيح الفصيح ، فلما جاء العباسيون رحل العلماء أنفسهم إلى البوادى وقصد الأمراء فى منازلهم يستقدمون هؤلاء العلماء ليعلموهم ما عرفوا ويحملوا إليهم ما حصلوا .

وتلقى الأعراب فى الأمصار كان أمرا مألوفا لدى هؤلاء العلماء ، فهناك حرف لم يعرفه الأصمعى ، وحرف لم يوجد عند أبى عبيدة ، وحرف يختصم فيه أبو زيد مع غيره من العلماء .

والأمر فى ذلك إلى هؤلاء الوافدين الذين يتجرون بما لديهم من ذوات الأوبار، وذوات الأشعار، وبما لديهم من شوارد الغريب ونوادر الآثار.

إذاً فليست المعلقات ممثلة لطبيعة الشعر الجاهلى، وليست المفضليات ممثلة لهذه الطبيعة وليست الجمهرة والأصمعيات صورة صحيحة لها.. وليست هذه جملة صالحة لأن تكون عنوانا للشعر الجاهلى بعامة.

وإنما هى لون من ألوان الشعر الجاهلى وذلك اللون البدوى الصلب القوى المتين الشديد الأسر.

والذى يشهد لنا أن كتب الأخبار كالأغانى وكتب التراجم كالشعر والشعراء تقدم لنا شعرا مخالفا فى جملته للشعر الذى يقدمه لنا اللغويون.

وبحسبك أن تقرأ ترجمة فى الشعر والشعراء أو صوتا فى الأغانى وترجمة لصاحبه حتى تطمئن إلى أن فى الشعر الجاهلى لونا وألوانا تخالف اللون الذى تطلع عليه فى الجمهرة والأصمعيات وفى المعلقات والمفضليات.

والذى يشهد لنا كذلك أن الأدباء غير اللغويين عندما اختاروا مختاراتهم بعد أن ذهبت (موضة) الغريب والتباصر به اختاروا مجموعة من رائع الشعر تتميز بالحلاوة وتدفق العاطفة وبحسبك أن تقرأ حماسة أبى تمام أو حماسة البحترى وتتبع ما جاء منهما من الشعر الجاهلى لترى شيئا غير الذى تراه فى المختارات التى جمعها اللغويون.

على أنه ليس معقولا أن يخرج الشعر من الصلابة والغرابة التى نراها فى هذه المختارات إلى السجاحة والتدفق الذى نراه فى أشعار المهاجاة التى قيلت على النبى عليه الصلاة والسلام ونقلتها كتب السيرة وبعض كتب الأخبار والتاريخ لأن اللغة لا تتطور بهذه السرعة فى مدى لا يزيد على خمسين عاما.

٣ — وبالإمعان وطول القراءة والتقصى بدا لنا أن هناك شعراً جاهلياً غير شعر المعلقات وأضرابها، له فنون وألوان.

فهناك شعر جاهلى يمتاز بالجزالة ولكن مع روح تشبه روح الخطابة وهو شعر الفرسان.

وهناك شعر جاهلى يمتاز بالسهولة واللين ممتزجا بروح الخطابة أيضاً وهو شعر الرثاء.

وهناك شعر جاهلى يمسه الغريب مساً ولكنه لا يعمه ولا يغلب عليه، وهو شعر الشعراء الذين لم يتخذوا الشعر صناعة.

هناك شعر جاهلى ألين عريكة وأيسر لوكا من سواه هو شعر النساء.

وإذاً فطبيعة الشعر الجاهلى قد تؤثر فيها طبيعة الشعر، وقد يؤثر فيها الغرض، وقد تؤثر فيها الممارسة وطول العلاج، وقد يؤثر فيها الجنس.

ونرجو أن نتناول ذلك بالدراسة والتمثيل فى المقال المقبل إن شاء الله؟

كامل السيد شاهين

علماؤنا إبان العدوان الصليبى

للدكتور عباس حلمى إسماعيل

لم يعرف العلماء العرب المسلمون حدودا أو فواصل فى تنقلهم طلبا للعلم والمعرفة ، فأنتجوا الآداب ، وأبدعوا فى الفنون ، وأضافوا إلى العلوم . ولم تسم هذه الآداب أو الفنون والعلوم بأسماء مصرية أو عراقية أو سورية أو غيرها ، أى أنها لم تحمل اسم الإقليم الذى ظهر فيه علماؤها وأدباؤها وفنانوها ، وإنما سميت جميعا بالآداب العربية والفنون العربية والعلوم العربية . ذلك أن العرب لم يعرفوا الإقليمية فى الإنتاج العلمى والأدبى والفنى ، وسميت الحضارة التى بنوها بالحضارة العربية الإسلامية ، لأنها حضارة تعبر عن أمة واحدة ، هى الأمة العربية الإسلامية .

وبلغ من حرص السلطان صلاح الدين على وحدة العلماء المسلمين أن أمر أخاه الملك العادل سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) بمنع الحنابلة ، والأشاعرة أتباع أبى الحسن الأشعرى ، من المجادلة فى علم الكلام ، لأن كل فريق اعتضد بجماعة من الجند ، فخشى صلاح الدين أن يحتدم الخلاف ، فى وقت كان هو فيه فى أشد الحاجة إلى الوحدة ، من أجل استئصال الخطر الصليبى من ربوع الوطن العربى . واهتم صلاح الدين كذلك بحسم الخلاف بين الشيخ جمال الدين محمود المحمودى المعروف بابن الصابونى ، والشيخ نجم الدين الخبوشانى شيخ المدرسة الصلاحية بالقاهرة ، وهما من أتباع المذهب الشافعى ، مذهب الدولة الأيوبية ، فأمر صلاح الدين أخاه الملك العادل بنقل وقف ابن الصابونى إلى مكان آخر بعيد عن مسكن الخبوشانى ، نسبة إلى خبوشان إحدى قرى نيسابور من بلاد ما وراء النهر [١] .

وكان الملك العادل يستشير الشيخ عبد الرحيم البيسانى ، المعروف باسم القاضى الفاضل ، فى تفاصيل الإدارة المصرية ، والقاضى الفاضل بدوره يساعده فى تجهيز الجند وتعمير الأسطول وجمع المال ونقل المؤن إلى ميادين القتال من مصر ، باعتبارها محور ارتكاز القوى الدفاعية عن الشرق الأوسط كله ضد العدوان الأوربى الصليبى فى العصور الوسطى ، كذلك كان القاضى الفاضل يكتب للعادل أجوبة خطابات صلاح الدين بأفصح عباراته

---

(١) أبوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٨ .

مشيرا وناصحا ومسليا ومتقصيا مصالح الإسلام والمسلمين ، ولذلك كان العادل ينيبه بمصر عندما يطلبه صلاح الدين ليستشيره في أمر من الأمور . وكانت مصر في ذلك الوقت تقاسي ضائقة مالية شديدة ، فبعث صلاح الدين إلى الأثرياء من أهله وأمراء دولته يطلب منهم قرضا ، لكنهم اعتذروا إليه ، فأرسل إلى المعممين من الفقهاء والقضاة يطلب منهم أن يقتصدوا في النفقات لمدة عشرة أيام ، ويرسلوا إليه ما اقتصدوه قرضا حتى يصل إليه الخراج والغنائم ، وهنا امتثل مرسومه العلماء ، ومن بينهم القاضي المرتضى بن قريش أحد كتاب ديوان الإنشاء بالقاهرة (١) . ولذا حظى العلماء بتقدير الدولة ، فتولى شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمويه شيخا للمدرسة الصلاحية خلفا لنجم الدين الخبوشاني ، وكان الناصح أبو الفرج بن نجم الحنبلي عظيم الحرمة عند الملوك الأيوبيين ، قدم مصر مرتين ووعظ بها ، وتمكن من تأليف كتبه ومنها كتاب أسباب الحديث في عدة مجلدات ، وكتاب الأنجاد في الجهاد . غير أن الملك العادل عزل الشيخ شهاب الدين الطوسي من ولاية الأحباس ، لأنه كان قد أمر (ركابداره) بأن يرفع الغاشية على أطراف أصابعه تشبها بالملوك ، ولما اعترض العادل عليه في ذلك قال : « أنا ملك العلماء . كما أن الملوك ملوك الرعايا » (١) والغاشية سرج من جلد مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحفلة كالأعياد ، يرفعها (الركابدار) على يديه ويلفتها يمينا وشمالا .

ومهما يكن من أمر ، فقد لقي العلماء صدراً رحباً وتشجيعاً من البلاط الأيوبي على عهد السلطان العادل ، إذ كان العادل نفسه كلفاً بسماع الحديث النبوي ، محبا للعلماء ومجالسهم ، وكثيراً ما شجعهم على التأليف ببذل المال اللازم ، ولو كان المؤلف من أهل البلاد البعيدة ، والدليل على ذلك الإمام فخر الدين الرازي نفسه ، فقد صنف للعادل كتاب (تأسيس التقديس) وذكر اسمه في خطبته ، وبعثه إليه من بلاد خراسان (٢) . وسعى العادل إلى اجتذاب العلماء إلى القاهرة ، فعندما وصل عالم النبات أبو العباس بن الرومية من المغرب إلى الإسكندرية سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) استدعاه وأمر بأن يقرر له جراية . وكان ممن حظى لدى العادل أيضاً الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار ، وكان

---

(١) النابلسي : لمع القوانين ص ٧ — ٨

(١) النابلسي : نفس المرجع ص ٣٠

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٤ .

العادل قد طلبه من وزيره صفي الدين ابن شكر لمعالجته من مرض حار فيه الأطباء فشفاه منه ، ثم عينه على الشئون الطبية في الجيش ، فقام بذلك خير قيام ، وكان الدخوار أديباً ، اختصر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وألف مقالة في الأغذية واشتغل بعلم الفلك ، واقتنى من الآلات الفلكية ما لم يكن عند غيره ، كما كان عنده ست عشرة رسالة في الأسطرلاب ، وهو عبارة عن دائرة من الرصاص يمكن بها تقدير ارتفاع النجوم وزواياها من على ظهر السفينة ، وتحديد مواقع الأمكنة بمعرفة خطوط الطول والعرض .

وامتاز أيضا الكحال سديد الدين القاسم الذي تولى رئاسة الكحالين بالبيمارستان الناصري ، وكان أخوه رشيد الدين أبو حليقة من علماء الرياضيات والموسيقى والطب والأدب ، إذ تعلم الرياضيات من علم الدين قيصر الحنفي المعروف بـ(تعاسيف)، والموسيقى من ابن الدهخور المصري وصفي الدين بن علي ابن البيان ، والبهاء المصلح الكبير ، وشهاب الدين النقجواني ، وشجاع الدين بن الحصن البغدادي ، والطب على جمال الدين بن الحوافر وعبد اللطيف البغدادي ، والأدب عن زين الدين بن معطى المغربي ، فأصبح ينظم الشعر الجيد ، وذاع صيت أبي حليقة ، فتنافس الملوك الأيوبيون في استخدامه لمهارته العلمية والطبية وحسن صوته وإتقانه العزف على العود ، وألبسه شيخ الشيوخ صدر الدين حسن بن حمويه خرقة التصوف إقرارا بفضله [1] .

وتعلم السلطان الكامل منذ صغره الأحاديث النبوية ، وأجاز له العلامة أبو محمد بن بري وأبو القاسم البوصيري وابن صدقة الحراني فنشأ على حبها حريصا على حفظها ونقلها . ولذا شيد سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة ، وأول من تولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ، وتولى الشيخ المطيلس بهاء الدين الجيزي التدريس بالزاوية الشافعية بجامع عمرو ، بعد أن ألبسه شيخه ابن أبي عصرون الطيلسان اعترافا بعلمه ودينه وعدالته [2] .

واجتذب الكامل إلى بلاطه العالم الرياضي علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف الذي ولد في الصعيد وتعلم بمصر والشام ، ثم بالموصل على كمال الدين موسى بن يونس علامة عصره وبلغ من تبحر تعاسيف في الرياضيات أنه حل عدة مسائل بعث بها إلى الكامل (فردريك الثاني) ملك الألمان وأمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكان من تلك المسائل ما يعتبر من أعوص الأحاجي والألغاز ، ومع ذلك

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٥٩ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٢٧ .

حل تعاسيف عقد إشكالها فردا فردا ، وفتح أغلاق طلاسمها ورموزها واحدا واحدا ، واشتغل تعاسيف مهندسا بارعا أيضا ، فعمل للملك المظفر محمود صاحب حماة كرة من الخشب ، ورسم عليها جميع الكواكب المعروفة وكذلك ، وساعده فى رصدها المؤرخ جمال الدين بن واصل [1] .

وقام النباتى البارع ضياء الدين عبد الله ابن البيطار بكثير من السياحات والمنازلات ، فسافر إلى بلاد اليونان وآسـيا الصغرى والمغرب ، ليرى بنفسه على الطبيعة خواص بعض النباتات وأنواع التربة التى تلائمها . ووجه ابن البيطار جل اهتمامه إلى النباتات الطبية ، حتى استطاع أن يؤلف كتابا فى الأدوية اسمه ، المغنى فى الطب ، الذى أعجب الكامل ، فجعله رئيساً على العشابين بمصر . ولم يضارعه فى ذلك العلم سوى رشيد الدين بن الصورى الذى اجرى تجاربه على نباتات جبل لبنان .

وكافأ الكامل أبا حليقة بخلع سنية عندما شخص نبضه ، ونجح فى معالجة أسنانه بالترياق الفاروق ، واخرج حصاة من مؤذنه الخاص أمين الدين جعفر ، كانت قد سدت مسالكه البولية ، فضلا عن أنه ألف كتبا كثيرة منها (المختار فى الألف عقار) ومن مركباته الترياق المختصر الذى عالج به المفلوجين ، وقوم الأيدى المنقوسة ، وأذاب البلغم ، وسكن آلام القولون . ومن تلاميذه أبو سعيد الذى علق على كتاب (الحاوى) لفخر الدين الرازى :

وشجع الكامل التأليف فى التاريخ والسياسة لولعه بحل مشكلاته بالأساليب (الدبلوماسية) مثلما فعل الامبراطور (فردريك الثانى) ، وتجلت تلك (الدبلوماسية) فى المفاوضات الكاملية الفردريكية التى جرت سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) على يد فخر الدين بن شيخ الشيوخ . ومن شجعهم الكامل تاج الدين ابن حمويه الذى ألف كتاب السياسة الملوكية ، وألف المؤرخ على بن يوسف القفطى كثيراً من كتب التاريخ مستعينا بمكتبته الحافلة التى اهتم بها اهتماما يفوق ولعه بالخيول المسومة على قول ياقوت الحموى [1] .

وأنكر الكامل على أخيه الملك الأشرف موسى محاباته للحنابلة المبتدعين ومعاداته للشيخ عز الدين بن عبد السلام نقيب الشافعية بدمشق ، وذهب الكامل إلى دمشق سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) وعين ابن عبد السلام شيخا بزاوية الغزالى بجامع دمشق ، وولاه قضاءها ، وأنفذه رسولا إلى الخليفة العباسى المستنصر ليصل معه إلى اتفاق لمقاتلة التتر . ونفذ الكامل فتاوى ابن عبد السلام بمصر والشام ، فأمر بمنع كتابة عقد الصداق على الحرير ، وأبطل دق السيف على المنبر فى صلاة الجمعة ، وحرم صلاتى الرغائب ونصف شعبان [2] . وفعل الكامل هذا كله تشجيعا لابن عبد السلام

(١) أبو الفدا : المختصر ج٣ ص١٧٣ .

(١) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ١٥ ص ١٨٧ — ١٩١ .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج٥ ص٨٠ — ٧١٢

وأمثاله من المجتهدين فى وقت فترت فيه همم العلماء عن الاجتهاد .

وعين السلطان الصالح أيوب الشيخ ابن عبد السلام قاضيا بمصر ، رغم تجربته على الملوك ، فإنه سبق أن تحدى الملك الصالح إسماعيل لما باع للصليبيين أسلحة دمشق ، كما رفض بإباء وشمم الاشتغال بالكرك عند الملك الناصر داود مخاطبا إياه : « بلدك صغير على علمى » والواقع أن ابن عبد السلام حاز إعجاب محبيه وأعدائه ، فتمته محبوه بسلطان العلماء ، وتحدث الصليبيون عنه قائلين : « لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها » . وأنكر ابن عبد السلام على الصالح إباحة بيع الخمور ، والإسراف فى الاحتفال بالأعياد ، من إقامة الزينات الفاخرة ، واصطفاف الأجناد ، وتقبيلهم الأرض بين يديه . وظل يقوم الحكام ، ويمثل سلطة الأمة بإزاء سلطة الحكومة ، ويتقرب إلى الله بكلمة حق فى مجلس ظالم إلى أن أمر الصالح كاتبه بهاء الدين زهير بالرد على رسالة لويس التاسع ملك فرنسا ، لجاءت الحملة الصليبية السابعة ، وعندئذ رابط ابن عبد السلام مع المسلمين فى المنصورة يعظهم ويحضهم على مقاتلة الصليبيين ، ووقف إلى جانبه أبو الحسن الشاذلى ، إذ غادر الإسكندرية مستخلفا بها أبا العباس المرسى فى رياسة الأتباع ، إلى معسكر المنصورة ، رغم انكفاف بصره ، ليشارك بما يستطيع أن يقدمه من التشجيع والوعظ ، لاعتقاده أن الإسلام دين كفاح وجهاد .

وأغدق الصالح على العلماء المرتبات والهبات من ديوان الأحباس ، ومن هؤلاء جمال الدين ابن الحاجب الذى اشتغل بعلم النحو والصرف ، وأقام قرب المدرسة النحوية بالإسكندرية ، وزكى الدين عبد العظيم المنذرى عالم الحديث ، والطبيب أبو سعيد بن أبى سليمان الذى ألف له كتاب (عيون الطب) ، والعشاب ابن البيطار الذى ألف له كتاب (الجامع فى الأدوية المفردة) .

ولما جاء السلطان تورانشاه سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ليطرد الصليبيين ، رحب به جماعة من العلماء كان من بينهم سراج الدين الأرموى الذى كان قد عاد من بعثته بصقلية بعدما ألف للإمبراطور (فردريك الثانى) كتابا فى علم المنطق . ولم ينس تورانشاه رغم انشغاله بمحاربة الصليبيين أن يطلب من المؤرخ ابن واصل موضوعا للمناقشة ، فاختار قول أحد الفقهاء : « الحمد لله الذى إن وعد وفا ، وإن أوعد تجاوز وعفا » .

هكذا جاهد العلماء بعلمهم وأموالهم وأنفسهم لطرد الصليبيين من الوطن العربى ، وتعاونوا على جعل علومهم فى خدمة مجتمعهم ، على اعتبار أن العلم قدرة وقيمة بل قوة وثروة .

عباس حلمى إسماعيل

[٥]

من أثر العراب الأدبي على كتاب
الحركة الرومانتيكية في إنجلترا
للدكتور محمد سمير عبد الحميد

---

٢ — أثر كتاب (ألف) ليلة على بعض الأعمال الفنية من حيث الأسلوب والخيال :

يقول سير ريتشارد.ف. بيرتون Sir Richard Francis Burton وهو من أعظم المستشرقين في القرن التاسع عشر في التعقيب على ترجمته الخاصة للنص الكامل لكتاب ألف ليلة وليلة في ثلاثة عشر مجلدا (١) « إن كثيرا من الحكايات التي يحتويها هذا الكتاب كانت معروفة في أوربا منذ القرن الثالث عشر إذ كان يرويها جاك د . فترى Jaques de Vitry أسقف عكا الذي مات في روما عام ١٢٤٠م» ، وبعد ذلك ظهر كثير منها في صورة مهذبة منقحة في مجموعة القصص المسماة Gesta Romanorum في القرن الرابع عشر. ومع ذلك فإن الأثر الادبي الذي تركته تلك المجموعة المتكاملة من القصص الخيالية الرومانسية على أسلوب الكتاب الأوربيين وخيالهم لم يلاحظ فعلا إلا بعد أن ظهرت ترجمة مسيو جالاند Galland الفرنسية عام ١٧٠٤ والمظاهر المختلفة لتأثير هذا الكتاب في الأدب الأوربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يمكن تلخيصها على النحو الآتي :

أولا : التقليد المباشر كما حدث في قصة (الواثق) لمؤلفها (وليم بكفورد) والمسماه : Vathek.

ثانيا : تقليد الشكل والأهداف في قصص غير شرقية بل أوربية الأصل Pseudo-Oriental.

مثل قصتي :

Almor An and Hamet.
py : J. Hawkesworth.
Nourjahad by Mrs. Sheridan

ثالثا : كانت حافزا على كتابة مجموعات مماثلة من القصص المتعددة الأنواع التي يربطها إطار خارجي واحد مثل :

Persian Tales Turkis Tales.

رابعا : استغلال القصص بشكل لا صلة له بطبيعتها وأهدافها الأصلية مما نتج عنه النوع المعروف بالقصص الشرقية التعليمية وقصص السخرية :

Satiric and didacitc Oriental Tales.

---

(١) أنظر :
The Thousand Nights and a Night : Terminal Essay, IX, 146.

مثل عشرات القصص القصيرة التى كتبها رجال المدرسة الكلاسيكية الجديدة فى أوائل القرن الثامن عشر أمثال أديسون ، ستيل ، دكتور جونسون :

Addison, Steele and Dr. Johnson.

خامسا : صياغة بعض قصص الكتاب فى قالب أوربى يلائم البيئة المحلية .

سادسا : الاستفادة خياليا من بعض المواقف والحوادث المذكورة فى هذه القصص ونقلها بتصرف إلى القصص الأوربية .

سابعا : أوحت بكتابة مؤلفات فى الشعر والنثر مستغلة مادة تلك القصص وموضوعاتها فيما ظهر تحت اسم :

Anglo-Oriental Fiction.

أمثال :

The Talisman, The Surgeon's Daughter. by Sir Walter Scott.

وفى الشعر أمثال الروايات الشعرية :

Thalaba, The curse of Kehama (1825, 27)

لمؤلفها : R. Southey

وكذلك Lalla Rookh (1817)

لمؤلفها : T. Moore

وتشمل :

The Veiled Prophet of Khorasan; The Fire Workshippers; Paradise The Light of the Haram.

ثامنا : اقتبس بعضها وكتب على شكل قصص الأطفال مثل قصتى :

Aladdin or the Wonderful Lamp; Kamaralzaman.

المأخوذتين من مجموعة ألف ليلة وليلة .

تاسعا : استخدمت مادة هذه القصص فى كتابة بعض المسرحيات الصامتة Pantomimes والمسرحيات الاستعراضية الموسيقية Musical Plays, Reviews .

عاشرا : اعتبرت مرجعا هاما عن حياة الشرقيين الاجتماعية والدينية ولذا كثر الاستشهاد بها والإشارة إليها فى كثير من مؤلفات الكتاب الإنجليز شعرا ونثرا فى الموضوعات التى لها علاقة بالشرق .

وبالإضافة إلى كل هذا لا يفوتنا أن نذكر حقيقة هامة وهى أن جمهور القراء فى القرن الثامن عشر كان يطالع هذه القصص بشغف قبل أن تظهر بشائر الرواية أى القصة الإنجليزية الطويلة The Novel فقصة Robinson Crusoe لمؤلفها Daniel Defoe لم تظهر إلا فى سنة ١٧١٩ أى بعد ظهور الترجمة الإنجليزية لكتاب ألف ليلة بنحو إحدى عشرة سنة وقصة Joseph Andrews لمؤلفها Fielding لم تظهر سوى عام ١٧٤٢ .

أما كولردج Coleridge وهو من أعظم رواد الحركة الرومانتيكية فى انجلترا فقد أيقن منذ البداية ما لهذه القصص الشرقية من أهمية كبرى كمصدر من مصادر الاتجاه إلى عالم الأرواح فى الشعر الإنجليزى حتى أنه عندما تهيأ لإلقاء سلسلة من المحاضرات العامة عام ١٨١٨ موضوعها :

Romantic Use of the Supernatural in Poetry.

خصص المحاضرة الحادية عشرة من هذه السلسلة ليبين أثر هذا الكتاب على خيال الشعراء والكتاب فى عصره . أما فى شعره هو : فمن السهل ملاحظة أثر هذه القصص فى اثنين من أشهر مؤلفاته الشعرية ألا وهما :

The Ancient Mariner (1796) : Kublakhan (1816)

ولم يكن Coleridge وحده الذى تأثر منذ الطفولة بالخيال القصصى فى ألف ليلة وليلة التى كان يقرأها مرارا وتكرارا ، فكلا من Sir Walter Scott, W. Wordsworth فعلا نفس الشىء ، وقصيدة تنيسون وعنوانها :

"Recollections of the Arabian Nights"

تثبت لنا أيضا ما كان لكتاب « ألف ليلة وليلة » من أثر عميق على أولئك الشعراء الرومانتيكيين .

ومن أشهر القصص وأهمها فى الأدب الإنجليزى قصة Vathek التى تخيل فيها المؤلف أن بطلها أحد خلفاء الدولة العباسية History of the Caliph Vathek (1786) ألفها الكاتب الإنجليزى شاذ الشخصية والسلوك وليم بكفورد William Beckford وهذه القصة تعتبر بحق من العوامل القوية فى التحول والاتجاه نحو الأدب الرومانتيكى فى عالم القصة الطويلة أى الرواية The Novel وفى هذه القصة يظهر أثر كتاب « ألف ليلة وليلة » بوضوح متناه ، فهى تقليد ناجح لقصص ألف ليلة وليلة لدرجة أنه يصعب تصديق أن مؤلفها كاتب إنجليزى لم ير الشرق فى حياته ولكن خياله وعقله تأثر بما كتب عن تقاليد الشرق وروحه وخرافاته ، ونلمس هذا الأثر جليا فى حياته الشخصية وفى مؤلفاته وكلها تقليد لأسلوب وموضوعات القصص فى كتاب « ألف ليلة وليلة » .

إن طبيعة بكفورد ومزاجه الشاذ جعلاه لا يستطيع مقاومة الشذوذ والمغالاة فى أى شىء يصادفه ، ومن هنا كان لكتاب « ألف ليلة وليلة » تأثير خاص فى نفس هذا الكاتب منذ طفولته الأولى كما يشهد Lewis Melville فى كتابه :

The Life and Letters of William Beckford (1910)

إن هذا الكتاب أثر على حياة وشخصية بكفورد أكثر من أى كتاب آخر ، ولقد ظهر هذا الأثر فى قصته المشهورة Vathek وقصص أخرى لم تنشر إلا فى عام ١٩١٢ بعنوان The Episodes of Vathek [1]

وبعد طفولته لم يمح أثر هذه القصص من مخيلة بكفورد بل بقيت ثابتة طوال

---

(١) مجموعة هذه القصص :

The Episodes of Vathek :

تتكون من :

1. The Story of Prince Alasi and the Princess Firouzkah.
2. The story of Barkierokh.
3. The Story of the Princess Zulkais and the Prince Kalilah.

حياته بعد ذلك حتى أصبح يحلم وهو كبير السن بما قرأه عن الجن والسحر والتعاقد مع الشيطان ، لأنه كان يأمل أن يكون له ما كان للخلفاء العباسيين من ثروة وجاه وسلطان . وقد عاش حتى آخر حياته في عالم يحاكي العالم الشرقي وكان أحب الأسماء إليه التي كان ينعتونه بها هي :

'The Caliph', 'The Arab', 'Vathek'

وكان أعز أصدقائه اثنين من المستشرقين أحدهما إنجليزي والآخر فنان روسي A. Cozens والأخير منهما لعب دورا هاما في حياة بكفورد البوهيمية موهما إياه أنها المثل الحق للحياة الشرقية الصاخبة، وبمساعدة المستشرق الإنجليزي S. Henley تمكن بيكفورد من ترجمة سبع قصص من حكايات « ألف ليلة » ، وكتب حوالي ثلاث عشرة قصة على غرار تلك القصة الشرقية التي يجول فيها الخيال ويصول بدون أي قيود أو اعتبار للزمان والمكان .

وقبل الكلام عن قصة Vathek أحب أن أشير إلى قصة رومانتيكية أخرى لم تنشر إلا في عام ١٩٣٠ مع أنها كتبت منذ عام ١٧٧٠ وهذه القصة إسمها (الرؤيا The Vision) وأهميتها عندنا أنها كانت بمثابة تمرين أدبي لقلم الكاتب قبل البدء في المغامرة الأدبية الكبرى وهي قصة الواثق التي كانت موضع الاهتمام والتقدير عند كثير من النقاد والأدباء المحدثين .

٣ — مناقشة قصة الواثق :

والآن فلنحاول مناقشة قصة الواثق التي ظهرت لأول مرة عام ١٧٨٦ . لقد اختلف النقاد منذ البداية في تقدير القيمة الأدبية لهذه القصة الغربية التي شرد فيها خيال المؤلف إلى حد أنها أوشكت أن توصف بأنها خرافية أي Fairy Tale خصوصاً وأنها جمعت الكثير من أساطير الشرق وسارت على نمط الكثير من قصص « ألف ليلة وليلة » من حيث الشكل والموضوع حتى ليخيل إلى القارئ أنها فعلا إحدى قصص هذا الكتاب ولقد شعرت أنا شخصياً بهذا الشعور في كل مرة عاودت فيها قراءة هذه القصة التي تعد أعجب قصة إنجليزية كتبها شاب انجليزي عاش في سحر الشرق وليالي اللهو والملذات سنين عديدة ، وقام بكتابة هذه القصة نتيجة لأفكاره وتجاربه الشخصية ، وما يتوقع لنفسه من عقاب الضمير ونهاية سيئة محزنة جزاء ما قدمت يداه من استهتار ، وتحد لشرائع الأديان السماوية . ولهذا يعتبر كثير من الكتاب أنها تنفيس حي للكاتب (إسقاط Self-projection) الذي هوى وضل سواء السبيل . ونستدل على حقيقة هذه الملاحظات لا من قصة الواثق Vathek وحدها ؛ بل من القصص الشرقية الأخرى التي كتبها هذا الكاتب الشاذ كلحق لقصة الواثق أسماها : ملاحق الواثق Episodes of Vathek

والرؤيا The Vision وغيرها ، وبالإضافة إلى هذه القصص يمكن التحقيق من هذا الحكم إذا ما قرأنا مجموعة خطاباته الغرامية إلى صديقته وزوجة ابن عمه وتدعى (لويزا Louisa) فنى هذه الخطابات نجـد أبشع ما يتصور العقل من أمثلة فاضحة للرذيلة والفساد بكل معانيهما - ولا غرو فلقد كان بكفورد أحسن مثل لتلامذة الشيطان .

ومن الطريف أن هناك الكثير من الشبه بين الكاتب نفسه وبطل القصة سواء من حيث المظهر والشخصية أو الظروف المحيطة التي لعبت دوراً هاما في حياة المؤلف والبطل ونهايتهما - فبجانب القوة الجسميه والعقلية الفائقة نجـد أن كلا منهما كان ينعم بجميع مظاهر الفخفخة والثراء والسلطان الذي لاحد له وكلاهما كان شديد الطموح والطمع في الزيادة من زخرف الحياة وملذاتها .

ومن ناحية أخرى فإن بكفورد اعتمد في تصويره لشخصية هذا البطل على ما وقع تحت يديه من كتب أوروبية فيها تاريخ حياة الخلفاء العباسيين ولا داعي للحديث هنا عن حقيقة أخرى يعرفها كل من اطلع على مثل تلك الكتب التاريخية لقد كتبها مؤرخون أوروبيون اعتمدوا على مصادر غير موثوق بها فكان طبيعياً أن يشوهوا بعض الحقائق .

وعلى الرغم من أن بكفورد قد عنى بصفة عامة بالنصوص التاريخية ، فينبغي أن نذكر أن كثيراً من المؤلفين في القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يعرفوا معنى الدقة والأمانة العلمية . وقد صور بكفورد السحر والشعوذة والبذخ والمجون والملذات الجنسية بجميع أنواعها تصويراً حياً في هذا الكتاب . ولكن أغرب شيء أنه على الرغم من أن كتب التاريخ في زمنه قالت : إن الخليفة الواثق كان من المعتزلة ، فإن بكفورد تراءى له ظلما وعدوانا وعلى حساب التاريخ أن يغير الحقائق ويجعل الواثق من عبدة النار . وهذا خطأ فاحش . والتفسير الوحيد لتشويه حقيقة مذهب الواثق هو أن بكفورد ربط كل حياة بطل القصة من أول الأمر بإبليس عدو الله وهو في عقيدة المسيحيين ملك النار Prince of Fire والنار أو الجحيم هي نهاية مطاف الأمير الشرقي الذي تبع خطوات الشيطان فهلك وخلد في النار . وهذا طبعاً أمر ليس له أي أساس تاريخي وإنما جاء من نسج خيال هذا المؤلف المنحرف وعلى ذلك فشخصية الواثق في هذا الكتاب ما هي إلا شخصية خيالية Fictitious ليس لها سند تاريخي صحيح .

• • •

٤ — فكرة القصة وموضوعها ومصادرها :

لقد أجمع النقاد على أن الفضول والرغبة الجامحة في التمتع بتجارب جديدة والأنانية لدرجة تعذيب النفس هي الأمور التي تدور

عليها قصة الواثق . وهذه الأفكار الرومانسية التي انتشرت كثيراً في الأدب الأوروبي بلغت أوجها في مسرحية « فاوست » التي كتبها الشاعر الألماني الكبير « جيته » في أوائل القرن التاسع عشر ـ ووجه الشبه بين هذه المسرحية وقصة الواثق متوفر إلى حد بعيد غير أنه بدلا من جو العصور الوسطى التقليدي اختار بكفورد لقصته الخيالية أميراً شرقياً تقع تحت قدميه كل سلطات هذا العالم وملذاته . ولكن الواثق لم يقتنع بالعظمة الدنيوية ومعرفة العقل البشرى المحدود فى فضوله الذى لاحد له ، بل اندفع إلى البحث عن تجارب جديدة وعن معرفة أوسع بالكون والأجرام السماوية لكى يروى ظمأه العظيم لتـــذوق المعرفة ورغبته الشديدة فى التمتع بالملذات . وتحت تأثير أمه (قراطيس Carathis) وكانت مولعة بالسحر ، هيمنت على الخليفة فكرة أن تكون له قوة خارقة تفوق قوى البشر مهما كلفه ذلك الأمر ـ وكانت النتيجة أنه تعاقد مع قوى الشر ، وباع نفسه للشيطان وأصبح عبدا لإبليس عدو الله والبشر .

وقدم خمسين طفلا جميلا لرسول الشيطان الذى تقمص شكل قزم هندى بشع المنظر وسار الخليفة فى موكب فاخر من عاصمة ملكه سامرا (سر من رأى) إلى خرائب اصطخر المسكونة بالأرواح الشريرة ، حيث وعد بالحصول على قوى خارقة ، وعلى كنوز الملك سليمان ، ومن قبله . وفى الطريق يقع فى حب الفتاه الجذابة نور النهار ابنة الأمير فخر الدين الذى استضافه ، وكانت هذه الفتاة على صغر سنها من شاكلة هذا الفاسق الذى لم يرع حرمة الضيافة فاتخذ منها فريسة شهواته وفر معها ليواصل الرحلة وبعد عدة مصاعب ومواقف حرجة وصل هذان العاشقان الطموحان إلى قصر الشيطان فى جوف الأرض المعروف فى القصة باسم قصر النار السفلية :

The Palace of Subterranean Fire.

ولشد ماكانت خيبة أملهما إذ وجدا أن محتويات هذا القصر المنيف التى من أجلها ضحيا بكل عزيز وغال لا تساوى شيئا إطلاقا ، فالفائدة من كنوز الذهب والجواهر والماس فى سجن أحكمت أبوابه إلى الأبد ؟ وبعد فترة يتحول القصر بمن فيه إلى جحيم يستعر بلظى نيران المغرورين الضالين أمثالها .

وعندما تأتى الساعة المحددة ينالان عقابهما جزاء هـــدم كبح جماح عواطفهما الجامحة وجرائمهما البشعة ـــ وتتأجج قلوبهما نار وتستمر كذلك حتى يوم القيامة وبهذه النهاية المؤثرة يختتم الكاتب قصته حين يقول :

"Such was, and such should be, the punishment of unrestrained passions and atrocious actions; Such is, and such should be the chastisement of blind ambition, that would transgress those bounds

which the creator hath prescribed to human knowledge; and, by aiming at discoveries reserved for pure Inteligence, acquire that infatuated pride which berceives not the condition appointed to man is to be ignorant and humble".

وكان مصير الواثق ، وما نزل به من عقوبة أليمة ، هو أهم فكرة فى الكتاب والمشهد الأخير الذى تبدو فيه العاطفة المتأججة ، وروعة الإحساس العميق . ولم يكن الكتاب نتيجة لخيال سقيم ، ولكنه مأخوذ من واقع حياة كاتبه بكفورد الذى كان شعوره بالإثم وخوفه من العقاب يسيطران على نفسه طوال المدة التى كتب فيها هذا الكتاب العجيب الذى يعتبر بحق صورة لحياة كاتبه أوكما يقول علماء النفس : Psychological allegory

وهكذا أصبحت هذه القصة تعبيرا صادقا عن حياة بكفورد الخاصة وعن علاقته بمن شاركوه فى ارتكاب الجرائم الخلقية أو من دفعوه إليها بشكل مباشر أو غير مباشر .

ولقد كان سر نجاح هذه القصة تماسك أجزائها وتسلسل الحوادث تسلسلا طبيعيا منطقيا لأن الكاتب لم يرفع نظره طوال سردها عن القدر المحتوم لبطل القصة وبطلتها : الخليفة الواثق وعشيقته نورالنهار ، وهما يمثلان فى الواقع بكفورد وخليلته (لويزا) الماجنة .

هذه هى القصة الوحيدة التى خلدت اسم بكفورد Beckford حتى يومنا هذا ، وأهم خصائصها ـ كما قلت آنفا ـ احتواؤها على كثير من الخصائص المميزة للقصة الرومانتيكية ولذلك اعتبرت نقطة التحول فى تاريخ القصة الرومانتيكية فى إنجلترا .

ويكفى الإشارة هنا إلى ماقاله (بول إدوارمور) Paul Edward Moore فى كتابه القيم (تيار الرومانتيكية The Drift of Romanticism) عند ما كان يتحدث عن علاقة بكفورد وقصة الخليفة الواثق بالحركة الرومانتيكية .

" If we look below the surface of things and penetrate through many illusions, we shall perceives in Beckford's vision of the restless throng, moving over with hand pressed upon flaming hearts, the essential type and image of the romantic life and literature".

أما مصدر المادة التى استخدمها المؤلف فهى مصادر فرنسية تحتوى ترجمة لأشياء مختلفة متصلة بحياة الشرق من حيث الأدب والتاريخ والاجتماع وغير ذلك ، وأشهر هذه المصادر ترجمة لكتاب « ألف ليلة وليلة » وموسوعة عن الشرق تدعى Bibliotheque Orientale لمؤلفها D'Herbelot .

واستفاد أيضاً من قصة مغامرات خيالية شهيرة فى وقته كانت تدعى :
The Adventures of Abdalla Son of Hanif.

وكذلك اعتمد المؤلف على كثير من كتب المستشرقين الأوروبيون وعلى كتب الرحالة الفرنسيين والإنجليز ؟

دكتور محمد سمير عبد الحميد

القرآن الكريم مُنجّماً ومجموعاً

للأستاذ احمد حنفي نصّار

القرآن الكريم ، كتاب الله المحفوظ ، هو الأصل الأول لهذا الدين الإسلامي الحنيف .

أنزله الله جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، فى الليلة المباركة ، من شهر رمضان ، ليلة القدر : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر » .

ثم نزل به الروح الأمين ، جبريل عليه الصلاة والسلام ، بعد ذلك مفصلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . « وقال الذين كفروا ، لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » وكانت مدة التنزيل ثلاثا وعشرين سنة ، لأنه عليه الصلاة والسلام أوحى إليه ، وهو ابن أربعين سنة ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح .

وكان الوحى يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، على صفتين ، عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، كيف يأتى الوحى ؟

قال : (يأتى الملك أحيانا فى مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وهو أشده على ، ويتمثل لى الملك أحيانا رجلا فيكلمنى ، فأعى ما يقول) وفى كل الحالات ، كان جبريل عليه الصلاة والسلام يؤدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، القرآن بلفظه ومن ذلك كان التعبد بلفظه ، والإعجاز ، فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقامه .

وأول ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه الصلاة والسلام ، كان بغار حراء حيث بدأ الوحى ، وقد رآه الرسول صلى الله عليه وسلم ، على صورته الملكية مرتين : الأولى ، وهو متهبط من السماء ، سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض ، فذهب إلى خديجة رضى الله عنها فقال : (دثرونى . دثرونى) فأنزل الله تعالى « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر » . والثانية ليلة الإسراء والمعراج « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلما جاءه الوحى ، يملى على كتاب الوحى ما نزل عليه من القرآن ، ويعلمهم أن هذه الآية

تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا ، وذلك بتوقيف جبريل عليه السلام إياه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، يراجعهم ليضمن صحة ما يكتبون عنه ، فعن زيد بن ثابت ، رضى الله عنه ، أنه قال : كنت أكتب الوحى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يملى على ، فإذا فرغت قال : (اقرأه) فأقرؤه فإن كان فيه سقط أقامه .

وقد صح أن جبريل عليه الصلاة والسلام ، كان يعارض الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن مرة فى شهر رمضان من كل سنة ، فلما كان العام الذى توفى فيه ، عارضه بالقرآن مرتين .

فوضع الآيات فى مواضعها ، وأسماء السور ، وترتيبها ، ووضع البسملة فى أوائلها ، إنما كان بالوحى . وقد حصل اليقين بهذا الترتيب ، الذى بين دفتى المصحف الذى بين أيدينا ، من النقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أجمع الصحابة - رضى الله عنهم ، على ذلك . وأما البسملة ، فلم تكتب فى أول « براءة » لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يأمر بكتابتها ، أى أن جبريل عليه السلام ، ما نزل بها ، قال الإمام القرطبى ، رضى الله عنه ، فى كتابه - التذكار فى أفضل الأذكار : (والمعنى فى ذلك ، والله أعلم ، ما ذكره بعض العلماء ، أنه كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد ، فأرادوا نقضه ، كتبوا إليهم كتابا ، ولم يكتبوا فى أوله البسملة ، فلما نزلت سورة براءة ، بنقض العهد ، الذى كان بين النبى صلى الله عليه وسلم ، والمشركين نزلت بغير بسملة ، وبعث بها النبى صلى الله عليه وسلم ، مع على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فقرأها عليهم فى الموسم ، ولم يبسمل فى ذلك ، على ما جرت به عادتهم فى نقض العهد ، من ترك البسملة ، والله أعلم) . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أنه قال : (البسملة أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، فلذلك لم تبدأ بالأمان) .

ثم إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : (أقرأنى جبريل عليه السلام على حرف ، فراجعته ، فلم أزل استزيده ويزيدنى ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف) . (قال الزهرى : بلغنى أن تلك الأحرف السبعة ، إنما هى فى الأمر الذى يكون واحدا ، لا يختلف فى حلال ولا حرام . وهذا مبسوط فى الحديث الذى رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام ، حيث قال : حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل عن أنس بن مالك عن أبى ابن كعب ، قال : ما حك فى صدرى شىء منذ أسلمت ، إلا أنى قرأت آية ، وقرأها آخر غير قراءتى ، فقلت : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أقرأتنى آية كذا وكذا ، قال « نعم » وقال الآخر : أليس تقرئنى آية كذا وكذا ؟ قال : « نعم »

ثم قال «: إن جبريل وميكائيل أتيانى ، فقعد جبريل عن يمينى ، وميكائيل عن يسارى ، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ سبعة أحرف ، وكل حرف كاف شاف » .

والأحرف السبعة : سبع لغات متفرقة ، فى جميع القرآن ، من لغات العرب ؛ فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة ؛ والثانى بلغة أخرى سوى الأولى ؛ وهكذا إلى السبعة ؛ وليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات.

قال الإمام القرطبى: «وقد أجمع المسلمون؛ فى هذه الأمصار ، على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة (القراء السبعة) فيما رووه ورأوه من القراءات ، وكتبوا فى ذلك مصنفات ، واستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله من حفظ الكتاب » وقال مكى بن أبى طالب على ما ذكر فى فتح البارى على صحيح البخارى : « وهذه القراءات السبع (نافع وعاصم ... الخ) جزء من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن » .

ومعنى هذا أن الأحرف السبعة أعم من القراءات السبع ، قال الإمام المحقق ابن الجزرى : « ولازلت استشكل هذا الحديث (أى حديث : أن هذا القرآن أنزل على سبعة احرف الخ) وأفكر فيه ، وأمعن النظر من نحو نيف وثلاثين سنة ، حتى فتح الله على بما يمكن أن يكون صوابا ، إن شاء الله تعالى ، وذلك أنى تتبعت القراءات صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها ، فإذا هى يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف ، لا يخرج عنها وذلك - إما باختلاف فى الحركات بلا تغيير فى المعنى والصورة ، نحو (قرح) بضم القاف وفتحها (٤٠ آل عمران) أو فى الحركات بتغيير فى المعنى فقط نحو « وادكر بعد أمة » (٤٥ يوسف) بضم الهمزة وتشديد الميم أى بعد مدة طويلة أو بفتح الهمزة وتخفيف الميم مفتوحة وهاء بمعنى النسيان - أو فى الحروف بتغيير فى المعنى لا الصورة نحو تبلو وتتلو فى آية « هنالك تبلو كل نفس ما اسلفت » (٣٠ يونس) وعكس ذلك أى بتغيير فى الصورة لا المعنى نحو : « وزادكم فى الخلق بسطه » (٦٩ الأعراف) بالسين والصاد - وإما بتغيرهما أى الصورة والمعنى نحو : «فاسعوا إلى ذكر الله» (٩ الجمعه) قرئ فامضوا - ومثل ذلك «كالعهن المنفوش» قرئ كالصوف و: «فوكزه موسى» : قرئ فلكزه - وأما بالاختلاف بالتقديم والتأخير نحو . «وجاءت سكرة الموت بالحق» (١٩ ق) قرئ (وجاءت سكرة الحق بالموت) ومثل ذلك: «فأذاقها الله لباس الجوع والخوف» (١١٢ النحل قرئ . لباس الخوف والجوع - وأما الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب» (١٣٢ البقرة) قرئ : وأوصى بها (بزيادة الهمزة) وقوله تعالى «وما عملته أيديهم» (٣٥ يونس) قرئ « وما عملت أيديهم فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها ، ولابن قتيبه رأى سبق به ابن الجزرى قريب من هذا.

ومعلوم أن هذا الحصر ليس تسليما بجواز

القراءة به ، بل منه ما هو منسوخ لعدم موافقته لرسم مصحف عثمان الذى أجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنه وترك ما خالفه .

ثم قال ابن الجزرى بعد ما تقدم : وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام والروم والإشمام ، والتفخيم والترقيق والنقل ، مما يعبر عنه فى اصطلاح علماء هذا الفن بالأصول ، فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فيه اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة فى أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحدا ، ولئن فرض ، فيكون من الوجـــه الأول ، وهو الذى لا تتغير فيه الصورة والمعنى .

وسبب اختلاف القراءات نشأ عن الكتبة الأولى ، لأنها كانت لا نقط فيها ولا شكل وهذا - كما قال ابن قتيبه - من رحمة الله ولطفه بعباده ، أن يجعل لهم متسعا فى اللغات ، ومتصرفا فى الحركات كتيسيره عليهم فى الدين .

وقد أجمع الأئمة على أن القراءة لا تكون مقبولة إلا إذا اتفق لها أن تكون موافقة لرسم المصحف العثمانى الإمام ، وإن تكون موافقة لوجه من وجوه العربية ، وان تكون متواترة ، وكل قراءة لا تتوفر فيها هذه الشروط فقد أجمع العلماء على رفضها .

هذا ، وقد قام أبو بكر رضى الله عنه ، فى خلافته بجمع صحف القرآن ، لأول مرة وذلك ، لما اشتد القتل بالقراء ، يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه بنى حنيفة ، بأرض اليمامه ، وكان أصحاب مسيلمة قريبا من مائة ألف وجيش المسلمين نحو ثلاثة عشر ألفا فصدق المسلمون الحملة ، مستهينين بالموت ، حتى ولى جيش الكفر فارا ، واستشهد فيمن استشهدوا من المجاهدين، كثير من الحفاظ من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

ثم كانت تلك الصحف عند الصديق رضى الله عنه ، أيام حياته ، ثم أخذها عمر رضى الله عنه بعده ، فكانت عنده محروسة معظمة مكرمة ، فلما قتل كانت عند حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها وبقيت عندها حتى أخذها عثمان ابن عفان رضى الله عنه .

ولما قدم حذيفة بن اليمان ، على عثمان ابن عفان ، رضى الله عنهما ، من العراق ، وقد أفزعه اختلاف أهلها فى قراءة القرآن ، قال لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة ، قبل أن يختلفوا فى الكتاب ، اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة ، رضى الله عنها ، أن أرسلى إلينا بالصحف ، فننسخها ثم نردها إليك ، فأرسلت بها إليه ، فأمر زيد بن ثابت الأنصارى الخزرجى ، وجعل معه من القرشيين عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وهم جميعا من أجلاء الصحابة وفيهم زيد كاتب الوحى وهو وعبد الله بن الزبير من الحفاظ ، فنسخوها فى مصاحف ، وأرسل عثمان

ابن عفان رضي الله عنه إلى كل أفق بمصحف، مما نسخوا، وحبس بالمدينة واحدا، وأمر بما سواه من القرآن، في كل صحيفة أو مصحف، أن يحرق، وذلك خشية أن يكون في بعضها غلط أو أن تكون سببا للكذب والاختلاف.

ورسم المصحف العثماني الإمام، ليس توقيفيا، وقد أجمع الأئمة على اتباعه، ولا شك أن في هؤلاء الصحابة الكاتبين المذكورين رضي الله عنهم، لم يكونوا على درجة من الإتقان في الكتابة والتنميق، لمكانة العرب من البداوة، وعدم تفشي الكتابة فيهم، ولذا خلت كتاباتهم من النقط والشكل وما إلى ذلك.

وقد سئل مالك، رحمة الله عليه، هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى. وقال عمرو ولا مخالف له من علماء الأمة.

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان، وإلى ذلك ذهب شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، وأضاف: وذلك لئلا يوقع في تغيير من الجهال.

وأما نقطه وشكله، فقد حدث من أواخر القرن الأول، إذ بدأ به، على القول الراجح أبو الأسود الدؤلي ثم تتابع بعد ذلك التحسين في هيأة النقط، وزيادة علامات الشكل، والفواصل والترقيم. وكل هذا لم يكن به بأس، لأنه من دواعي سرعة الفهم، ومن محسنات الكتابة، لادخل له في جوهر الحروف والكلمات، ولا تغيير اللفظ ولا المعنى.

وهكذا، حفظ الله القرآن الكريم، في جميع مراحله، حتى وصل إلينا سليما، على ما أنزله الله على رسوله، ولا يزال كذلك إلى ما شاء الله، وصدق الله العظيم إذ يقول لنبيه، صلى الله عليه وسلم، وهو يتلقى الوحي حريصا على سرعة الأخذ عن جبريل عليه الصلاة والسلام: «لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه»، وإذ يقول «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

وكما أن الله جلت قدرته ـ وعد بحفظه، وقد صدق وعده، فقد يسره كذلك للذكر. «ولقد يسرنا القرآن للذكر» بالإعانة عليه وتسهيل حفظه، بجزالة نظمه، وعذوبة ألفاظه وعباراته، وترتيب آياته، وسوره، وليس ذلك لكتاب غيره من الكتب المقدسة السابقة عليه، ومن باب أولى فليس ذلك لغيرها من كتب الخلق على الإطلاق.

ويدخل في التيسير لذكره، ما نرى من انتشاره في العالم كله على تنوع طبعاته، وكثرة حفاظه واستمرار تلاوته، آناء الليل وأطراف النهار، وما جد من سماعه من الإذاعات العامة، والخاصة به، وكذلك في تعدد تفاسيره في جميع العصور مطولة وموجزة، لبيان معانيه، وتقريبه إلى الأفهام منذ القرن الأول إلى يومنا هذا، ولا يزال أمره كذلك، ما تعاقبت الأجيال إلى ما شاء الله العلي القدير؟

أحمد حنفي نصار القوصي

فلسطين في شعر المهاجرين

للأستاذ حسن جاد

في ضمير كل عربي مخلص لوطنه ، وفي لعروبته ، تعيش محنة فلسطين الحبيبة ؛ تحز جنبه ، وتدمى قلبه ، وتحرق مشاعره ؛ وتثور في صدره حقداً مستعراً ، وسعاراً مشبوباً للثأر المقدس .

وطالما استفاضت هذه المشاعر على ألسنة الشعراء في كل بلد عربي ، فتجاوبت بها آفاق العروبة ، ورجعت صداها المرن الحزين ، فنكأ الجراح ، وأثار الخواطر ، وحرك الشجون .

وتجاوزت المأساة حدود الوطن العربي إلى ما وراء البحار ، حيث عاش في أمريكا نفر من أبناء الشام ، هاجروا إليها فراراً بحريتهم وأقلامهم من أسر الحكم العثماني الغاشم ، وسجن الاستعمار المظلم الظالم ، فلم تبهر عيونهم مفاتن العالم الجديد ، ولم تشغلهم حياتهم فيه عن قضايا وطنهم الحبيب ؛ بل ظلوا مشدودين إليه برباط العروبة الوثيق ؛ يعيشون في أحداثه ، ويندون بمظالمه ، ويبكون آلامه ، ويرددون آماله ، ويحنون إليه .

ومنذ غام الأفق في سماء فلسطين بوعد (بلفور) المشئوم ، لم تكف هذه البلابل النازحة عن ترديد صداها الثائر الحزين ، وقد هزها النذير ، وروعتها النكبة ، فراحت تطارح البلابل المقيمة في الوطن العربي ، شجواً بشجو ، وتفجعاً بتفجع ، وأنيناً بأنين .

لقد بدأت سحب المأساة تتجمع بوعد بلفور للصهيونية في أن يمنحها من جيب غيره ، وأن يملكها مالا يملك ، فصدق ما قاله الشاعر القروي المهاجر رشيد سليم :

الحق منك ومن وعودك أكبر
فاحسب حساب الحق ، يا متجبر

تعد الوعود وتقتضي إنجازها
مهج العباد ، خسئت ، يا مستعمر

لو كنت من أهل المكارم لم تكن
من جيب غيرك محسنا يا (بلفر)

ولما وقعت الواقعة ، اهتز لها قلب الشاعر إيليا أبو ماضي :

ديار السلام وأرض الهنا
يشق على الكل أن يحزنا

فخطب فلسطين خطب العلا
وما كان خطب العلا هينا

مهرنا له ، فكأن السيوف
تحـــر بأكبادنا موهنا
فقل لليهـــود وأشياعهم :
لقـــد خدعتكم بروق المنى
ألا ليت (بلفور) أعطاكوا
بلاداً له لا بلاداً لنا
فليست فلسطين أرضاً مشاعا
لتعطى لمن شاء أن يسكنا
فلا تحسبوها لكم موطنا
فلم تك يوماً لكم موطنا
فإنا سنجعل من أرضها
لنا وطنا ، ولكم مدفنا

ومع احتدام المعركة فى هـــذه الأرض المقدسة كان الشاعر (جورج صيدح) يطوف بديوانه (النوافل) على الجوالى العربية فى الأرجنتين ، ويرصد ريعه لمنكوبى المعركة ، وهو يهتف :

وطنى ماذا على النازح إن
ذكر القدس فصلى وسجد
رب أرض دنسوها ظمئت
لدم يصلح فيها ما فسد
قسما بالمسجدين ارتفعا
حيثما أسرى النبى المعتمد
ودم ، لا ثبتت أقـــدامهم
قبل أن يقضى قضاء لا يرد

وعلى أثر مذبحـة (دير ياسين) يرسل الشاعر (إلياس قنصل) هذه الشملة النارية :

طال إشفاقنا وأصبح عابا
من ترى جرأ اليهود الذئابا
فاترك اللين فالسياسة بطل
والذى فى القراب مل القرابا
إن سفك الدماء جرم ، ولكن
إن ذبحت اليهود تلق الثوابا
ومن الإثم زجهم فى قبور
إن أشلاءهم تشين الترابا

ويشم ريح الخيانة فى الصفوف العربية ، فيحمل العرب إثم المحنة ، ومسئولية فلسطين ، ويثور على التخاذل والخيانة :

جنوا علينا فما ثارت حماستنا
غيظا ولا خف تحت السوط تهليل
ذنب الطغاة كذنب الخانعين لهم
سيان فى الجرم ظلام ومذلول
سيذكر العار أن العرب دهورهم
يوم الكريهة مجهول ومرذول
وليس يبرأ من ذنب الونى أحد
فكلنا عن ضياع القدس مسئول

أجل ، فالعرب كلهم مسئولون عن فلسطين ولن يبرأوا من إثمها حتى تتحد كلمتهم فى صف واحد لرد الوطن السليب . فالذين يدعون إلى مهادنة إسرائيل ومفاوضتها ، فيضعفون العزائم ، ويفرقون الكلمة ، مجرمون فى حق أوطانهم ، خائنون لبلادهم . يقول إلياس قنصل :

نكبة القدس لن تطول إذا ثرنا
على الخوف واستعدنا السدادا
فالذى يضعف العزائم يأسا
مجرم كالذى يخون البلادا

وأى عربى مخلص لعروبته يرضى أن يدنس ثرى أرضه المقدسة، شعب ضائع عريق الدنس، كما يقول (نصر سمعان) :

يا فلسطين قدسك الضحايا
وكساك الخلود أسنى بروده
يدعى الحق فى ترابك شعب
تأنف الأرض من تراب جدوده

ويهيب الشاعر الآخر (إلياس فرحات) بشباب العرب، ويهدد الصهيونيين فى ثقة وأمل وإصرار :

أشباب يعرب قم فنحن هنا
نلقى بملء صدورنا المحنا
قل للمغير على منازلنا
كالسيل ينفذ من هنا وهنا
حملت نفسك فوق طاقتها
وركبت - ويحك - مركبا خشنا
إن لم يكن زمن يوافقنا
للثأر منك سنخلق الزمنا
فاجعل ضريحك جاهزا أبدا
وأعد نفسك واحمل الكفنا

وما يزال يدعو (المتمولين) من أبناء العروبة إلى التضحية فى سبيل إنقاذ الوطن السليب، بالمال والاتحاد والقوة :

لو كان لى نفط الكويت جعلته
يمشى على جثث اليهود جنودا
ماذا تفيد العرب ثورة بعضهم
مادام حائط مجدهم مهدودا
ما أفقر المتمولين إذا هم
كسبوا بخسران البلاد نقودا

وإذا كان (الشاعر القروى) يستسلم أحيانا للبكاء، ويكتفى بالدمع المنزوف يستجديه من عيون اللاجئين :

أبعد فلسطين يناح على فتى
وهل بقيت فى مقلة دمعة بعد ؟
ألا دمعة من لاجىء استمدها
فأبكيه بالبحر الذى جزره مد ؟

فإنه يثور أحيانا أخرى معتزا بحقه واثقا من النصر :

يا مغربا فى عنكبوت دهائه
هلا غزلت بغير هذا المغزل ؟
إن كنت يوما بالوعود مكرت بى
أنا غير عهدك بالزمان الأول
أغنانى الحق الذى أنا ربه
عن وقفه المتسول المتوسل
الأرض لى والدار لى، والقول لى
والفعل لى والسيف لى والنصر لى

أما (زكى قنصل) فإنه يثور لمأساة اللاجئين فى قصيدته (خرافة السلام) حيث يقول :

لهفى على القدس انطوت أعلامه
وكبت بأشبال النضال خيول

مليون عان فى العراء تشردوا
لم يختلج لهوانهم مسئول

نصبوا على درب الرياح خيامهم
يذكى جراحهمو غد مجهول

يا شائدين على الرذيلة دولة
للبطل يوم ضاحك ويزول

لا ترقصوا للنصر فهو بداية
إن الختام ندامة وعويل

صحت العروبة من عميق سباتها
وتحفزت تحت البنود شبول

أرثتموا بالكيد ثورة حقدنا
ناب الكريم إذ استفز أكول

متى يتحرك الضمير الإنسانى لهؤلاء المشردين ؟ إنهم ضحية الوعود الكاذبة ، والخيانة الآثمة . ولكن قضيتهم أمانة فى أعناق العرب والمسلمين ، إن تخلوا عنها عاشوا أذلاء . هكذا يقول (إلياس فرحات) :

أضحية الكذب المقنع والخيانة والرياء .
أوت الذئاب إلى مضاجعكم وأنتم فى العراء .
أفتلبثون مشردين ، مصيركم بيد القضاء ؟
وعيونكم حيرى تفتش عن مفاتيح الرجاء .
وقلوبكم ولهى مسعرة تفور بها الدماء ؟
ومن البلاء تصديقكم بعض الوعود
وما الوعود سوى هراء .
إن لم تعودوا للحمى الباكى وأنتم تهزجون .
والحقد يزأر فى مقدمة الكتائب والمنون .
فالعرب والإسلام فى الدنيا كزهر الزيزفون .
والمسلمون أذلة ، تحت المقارع يرقصون .
ويهمهمون إنا بحمد الله رب العالمين لمسلمون.

صبرا يا فلسطين، لقد دنت الساعة الفاصلة واستعد جيش التحرير لخلاصك ، فالحرب آتية ، وصليل السيف أفصح من مقال اللسان وصوت المدفع أقوى منطقا فى رد الحق السليب من منطق الكلام ، صبرا يا فلسطين مع شاعر المهجر الجنوبى (حسنى غراب) :

صبرا فلسطين صبرا وراقبى فرجا
لا بد من عجب يأتى به رجب

فلينفقوا فى سبيل النصر ما كنزوا
من السبائك حتى ينفذ الذهب

الحرب آتية ، والسيف منتدب
لحل ما عجزت عن حله الكتب

حسنى جاد
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

سعد بن عبادة بين الحقيقة والأسطورة

للأستاذ محمد محمد زيتون

حسبه أن يكون من الأنصار ليصدق عليه قول حسان وهو من الخزرج مثله :

سماهمو الله أنصاراً بنصرهمو
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا
للنائبات وما خافوا وما ضجروا

فما بالك وهو رئيس الخزرج وزعيم الأنصار غير منازع ، وأحد النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا النبى فى (العقبة الثانية) ، وله الكرامة فى الجاهلية والصحبة فى الإسلام والجهاد فى سبيل الله ، ومع ذلك تناثرت أخباره فى صفحات النسيان ، ومن العجب أن تكون حياته الحافلة بجلائل الأعمال محصورة بين قوسين من أساطير الأولين .

زعموا أن قريشا سمعت هاتفاً على جبل أبى قبيس يقول :

فإن يصبح (السعدان) يصبح محمد
بمكة لا يخشى خلاف المخالف

وكان أبو سفيان بن حرب فيمن حيرهم لغز هذين السعدين ، فلم يسترح له جنب إلا عندما عاد الهاتف بالليل يقول :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا
ويا سعد سعد الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا
على الله فى الفردوس منية عارف

وهنا عرف أبو سفيان أنهما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة المقصودان بهذا الهتاف .

نعم إنه أبو ثابت سعد بن عبادة بن دليم ابن أبى خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج ، سيد الأنصار وعمدة بنى ساعدة ، وممن كان يشار إليهم بالبنان من أهل المدينة ، وكان المرشح الأول للخلافة من بين الأنصار بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، لو كان مقدرا أن يكون أول خليفة منهم دون قريش ، وله عن النبى عشرون حديثاً ، وروى عنه بنوه قيس وسعيد وإسحاق ، وحفيده شرحبيل ابن سعيد ، كما روى عنه سعيد بن المسيب والحسن البصرى . وكذلك من الصحابة ابن عباس وأبو أمامة بن سهل .

وأمه (عمرة) الثالثة من بنات مسعود ابن قيس الخزرجية ، بايعت النبى . وتوفيت بالمدينة فى ربيع الأول من العام الهجرى الخامس ، حيث كان النبى فى غزاة (دومة الجندل) ، وابنها فى المجاهدين معه ، فلما عاد النبى إلى المدينة أتى قبرها فصلى عليها وترحم ، وكان عليها نذر قبل أن تموت ، فاستشار سعد نبى الله فى أن يقضيه عنها بعد موتها ، فأشار عليه . فتصدق بحائطه (المخراف) وفاء وصلة منه لأمه ، وقضاء لحق الأمومة عن أختيه مندوس وليلى .

تزوج سعد من فكيهة بنت عمه ، فولدت له أمامة وسدوس وقيس الذى هو أحد دهاة العرب ، وكانت قد أسلمت وبايعت النبي ، وتزوج أيضا غزية بنت سعد بن خليفة بن الأشرف ، وقد أسلمت هى الأخرى وبايعت .

أما جده لأبيه دليم بن حارثة ، فكان له ولآبائه فى الجاهلية أطم ينادى عليه : من أحب الشحم واللحم فليأت أطم دليم بن حارثة وعلى هذا المنوال نسجت الأيام حياة سعد ، فكان الملك الشريف المطاع الذى سار على نهج آبائه وأجداده ، ومما يؤثر عن جده هذا أنه كان يهدى (مناة) عشر بدنات فى كل عام ، وكذلك كان يفعل عبادة ثم سعد حتى أسلم ، ثم صار ابنه قيس يهديها إلى الكعبة وتلك هى إحدى الخصال التى تألفت منها زعامة سعد ، وهى خصلة موروثة محمودة فى جاهلية العرب وفى الإسلام ، حرص عليها صاحبنا أشد الحرص ، ليستكمل مجده ، ويستوفى زعامته ، فكان يدعو : اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجدا ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم لا يصلحنى القليل ولا أصلح عليه .

اشتهر سعد فى الجاهلية بأمور هى عناصر القوة والتميز فى شخصية كل من تؤهله الظروف للزعامة ، فقد كان الكريم الجواد هو وأبوه وجده كما رأينا ثم ولده من بعده ، وكان إذا أمسى النهار انصرف الرجل من المسلمين بواحد أو اثنين من (أهل الصفة) إلى بيته حيث الكرم والجود ، أما سعد فكان يعشى ثمانين رجلا ، راضية بذلك نفسه ، وفى (سرية الخبط) اشتد الجوع بالمسلمين حتى كانوا يقتسمون التمرة الواحدة ، فيشترى ابنه قيس ابن سعد خمس جزائر ، على كل جزور وسقان من التمر وينحر لهم كل يوم جزورا .

وكان سعد يكتب بالعربية ، وقلما كان العرب يكتبون ، وكان يحسن العوم والرمى ، والعرب تسمى كل من يتقن ذلك (الكامل) وما من غزوة أو سرية إلا كان لسعد فيها موقف كريم فى الجود بالمال أو السداد فى الرأى أو الإخلاص فى الفداء .

وكان سعد على رأس تسعة من الخزرج بايعوا النبى فيمن بايعه من الأنصار يوم (العقبة الأخيرة) . حيث نفر الناس من (منى) . فأخذ القوم يستطلعون الأخبار فأدركوا المنذر بن عمر وسعد بن عبادة ، أما المنذر فقد أفلت ولم يدركوه ، وأما سعد فقد سقط فى يده عند مدخل مكة ، فأخذوه وأرتقوه ، وظلوا يضربونه حتى دخلوا به مكة وما زالوا به يجذبونه من شعره الكثيف وهو يحتمل الأذى فى سبيل الحق ـ وكأنه « نصب أحمر » كما يقول الذهبى ـ حتى وقف على أمره نفر من قريش ، فيهم رجل جميل الطلعة ظاهر الوضاءة هو سهيل بن عمرو ، ظن سعد فيه خيرا . فإذا بسهيل هذا يخيب رجاءه ، وينقلب عليه كالوحش الكاسر . فيفاجىء سعدا بلكمة تفقده صوابه وأخذ

السفهاء يسحبونه ، ويمعنون في تعذيبه والتنكيل به ، حتى دنا منه أحدهم . وقد رق له قلبه . وقال له هامسا : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار أو عهد ؟

تذكر سعد - حينئذ - أنه كان يكرم العاصي بن وائل كلما قدم المدنية، ويجير تجار جبير بن مطعم ، ويمنع عنهم أذى البغاة . وكذلك الحارث بن حرب . . فقال الرجل: ويحك فاهتف باسم أحدهم ، وذكره بمالك من مكرمات ، ففعل وخرج فوجد بعضهم عند الكعبة فقال لهم : إن رجلا من الخزرج يتعذب بالأبطح ، ويهتف بكم ويذكر ما كان بينه وبينكم من صلة وجوار ، فسأل أحدهم : من هو ؟ وقال آخر : لعله سعد بن عبادة وقال ثالث : صدق والله ، فقد كان يفعل كذا وكذا .. وما أسرع ماخلصوه من أيدى القوم فانطلق ، والقوم في خجل من أنفسهم ، حتى لقد قال ضرار بن الخطاب وهو حانق .

تداركت (سعدا) عنوة فأخذته

وكان شفاء لو تداركت (منذرا)

ولو نلته طلت هناك جراحه

وكان حريا أن يهان ويهدرا

فرد عليه حسان بن ثابت قائلا :

فلست إلى (سعد) ولا المرء (منذر)

إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا

ولما قدم النبي المدينة مهاجرا كان سعد أحرص رجل على نزوله بينهم في العدد والعدة والمنعة ، ولكنه نزل عند أبي أيوب الأنصاري ، وكانت جفنة سعد مع ذلك لا تخطىء النبي ليلة واحدة ، بل كانت تدور مع النبي حيث دار بكل دار من دور أزواجه، ولما خرج النبي في (غزوة الأبواء) استخلف على المدينة سعدا لما له من المكانة عنده .

وفي (غزوة بدر) حيث كان المسلمون قلة أمام كثرة قريش ، لم يجد النبي ما يحمل الأنصار عليه ، فسرعان ما قدم سعد عشرين جملا ، فدعا له النبي بالخير ،وكان (العضب) - وهو السيف الذي غزا به النبي في غزاته تلك - قدوهبه إياه سعد. وإن كان سعد لم يشهد بدرا ؛ مع شدة حرصه عليها ؛ فقد نهش ، وهذا هو سبب تخلفه، ولم تفته غزاة بعدها أبدا .

ولما عقد النبي مجلس الشورى في أمر أبي سفيان . قام سعد يقول : لو أمرتنا يا رسول الله أن نخيضها البحر لأخضناها ؛ ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى (برك الغماد) - باليمن - لفعلنا .

وكان سعد يحمل راية الأنصار ويتكلم بلسانهم ؛ وبلغ من النبي مكانا ساميا ؛ ففي (أحد) دفع إليه لواء الخزرج ؛ وثبت معه فيمن ثبت .ولما وضعت الحرب أوزارها خرج النبي - وهو جريح - متوكئا بين السعدين حتى رجع إلى بيته ،وأذن بلال لصلاة المغرب، فخرج يتوكأ عليهما كذلك فصلى ثم عاد . .

وظل سعد الكريم الجواد على الدوام

فى كل موقف. يبذل المال فى سبيل الله ، فلما جاءت (غزوة حمراء الأسد) حتى ساق ثلاثين بعيرا بأحمالها ، والجزائر خلفها ، وصارت النيران توقد ليلا ، والمسلمون ينحرون ويطعمون ، والعدو فى فزع وهلع، وكذلك كان سعد فى (غزوة بنى النضير) . فقد أرسل التمر على الجمال لإطعام المجاهدين من المهاجرين والأنصار . ولما غنموا من اليهود ما غنموا ،قسم النبى عليهم الفىء وخص المهاجرين والمؤلفة قلوبهم فتغيرت قلوب بعض الأنصار ، وأوشك الفشل أن يدب فى نفوسهم لولا أن وقفوا من النبى على الغرض النبيل الذى يرمى إليه صاحب الدعوة ، فاطمأنوا عندئذ ورضوا ، ودعا للأنصار : اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

كان لسعد فى هذه المشكلة وقفة الرجل المتزن المتدبر الذى يقول للنبى فى جرأة وصراحة مع الأدب الجم : « يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى ، وفى الوقت نفسه ، ما كانت الريبة لتخامر صدره قط فى أى أمر يبرمه رسول الله .

وركب النبى ذات يوم إلى سعد يزوره وهو مريض ، فبصر به رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، فألقى على مسامع النبى من لخش القول ما جعل سعدا يلمح فى وجهه الشريف أثر ذلك ، وأدرك أن ابن سلول قد أمعن فى التحدى حتى قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وتشاور النبى فى أمره مع الصحابة . فيدخل سعد من الزاوية التى يؤمن بها ، ويحكى للنبى مواسيا أنه قد بعث وقوم ابن سلول ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم ، ولم يبق إلا خرزة واحدة كانت عند يوشع اليهودى فلما أعز الله العرب بمحمد ، أذل ابن سلول فما يرى إلا أن محمدا قد سلبه ملكه المزعوم وارتفع سعد على مستوى الانتقام ، وأشار على النبى أن يرفق بابن سلول .

وفى حادث الإفك ،تحتدم الفتنة من الأوس والخزرج فيما اندفعت إليه ويحاول سعد ابن معاذ أن يؤذى شعور الخزرج فيمن تولى كبره فيهب سعد بن عبادة ليدافع فى حرارة وإيمان عن قومه ، ويوشك السعدان أن يتقاتلا ، لولا أن رسول الله قد أخمدها قبل أن تستشرى ، وعاد الصفو إلى القلوب كما كان وهدأت العاصفة الهوجاء ، ومضت القافلة .

وتظهر مزايا سعد فى المحن أيضا عندما يتصدى صفوان بن المعطل لهجو حسان ابن ثابت وسبه ، وهو شاعر النبى والمنافح دونه بلسانه .

أمسى (الجلابيب) قد عزوا وقد كثروا

(وابن الفريعة) أمسى بيضة البلد

ويقضى النبى بحبس صفوان ، ويقف سعد خطيبا فى قومه يتحدث فى أمر صفوان وقد أسلم - ويشكر عليهم ما فعلوا ، فيقولون : إن النبى بذلك أمر ، فيرد عليهم سعد : ولكن

رسول الله قد قضى لكم بالحق ، وإنه ليجب أن يترك صفوان ، والله لا أبرح حتى يطلق ونظر حسان فى هذه الشهامة التى أبداها سعد فترك حقه وعز ذلك على قومه ، فأخذتهم العزة بالإثم ولكن قيس بن سعد وقف يقول : عجبا لكم . ما رأيت ، ياقوم إن حسان قد ترك حقه . وتأبون أنتم ، وعندئذ خجل الخزرج لما فى طباعهم من رقة وسماحة فأطلقوا سراح صفوان إكراما لسعد الذى مضى به إلى البيت فكساه ، وخرج إلى المسجد فصلى معه فنظر النبى إليهما ، وعلم بما فعله سعد فدعا له دعاء اهتزت له أريحية سعد فأعطى صفوان بستانا به نخلات كانت تغل عليه الكثير .

دنا العام السادس من الهجرة فى (غزوة ذى قرد) أو غزوة ابن عيينة) كما كانت تسمى - تجلت خصال سعد فى الكرم والفداء معززة بشهادة الخزرج له فى حضرة النبى فإنه لما أسلم إليه الراية أقام خمس ليال يحرس المدينة فى ثلثمائة من قومه ، وبعث أحمال التمر وعشر جزائر مع ابنه قيس ، فأعجب النبى بهذا كله فقال : ياقيس بعثك أبوك فارسا ، وقرى المجاهدين وحرس المدينة من العدو !! اللهم ارحم سعد وآل سعد ، ثم قال : نعم المرء سعد بن عبادة ، فقال الأنصار إعجابا بزعيمهم : يا رسول الله هو بيتنا وسيدنا وابن سيدنا ، كانوا يطعمون فى المحل ويحملون الكل ويقرون الضيف ويعطون فى النائبة ويحملون على العشيرة ، فيقول النبى - وقوله الحق - خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقهوا فى الدين ، من هنا برزت خصال الأمانة فى سعد ابن عبادة السيد الجواد والبطل المغوار والمفكر الحر والمقدم فى القوم ، لهذا بعث النبى معه ببعض السبايا والذرارى من بنى قريظة إلى الشام ليبيعهم ويشترى بهم خيلا وسلاحا ، وتلك مهمة وكلها النبى إلى من يرتفع إلى مستوى خطرها بمزاياه ، كسعد الأمين على سمة الدين ، فإذا كانت الأمانة مؤهلا لسعد فى هذا الأمر ، فهى أيضا مؤهلة لأن يكون من أهل الشورى الذين يعتد بهم فى المهمات .

فى (عمرة الحديبية) استشار النبى سعد بن عبادة وعمر بن الخطاب ، فأشارا عليه أن يؤخذ المسلمون أهبتهم ، وكان سعد أحد الثلاثة الأمناء الذين تحدثوا إلى يهود بنى النضير يدعونهم إلى الإسلام ، ويذكرونهم بما هو عنه عندهم فى الكتاب ، وتتجلى حكمة سعد أيضا عندما بعث النبى بعض رجال من الأوس والخزرج يستطلعون خبر القوم فى (غزوة الخندق) فإذا به يدرك أنهم على أسوأ حال وينبرى لهم زعيم الأوس يشاتمهم لحدة فى طبعه لا تبرحه ، ولكن ابن عبادة . يؤوب إلى العقل فيقول لابن معاذ : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة .

ومما يحكى عن سعد وابنه قيس أنهما جاءا بزاملة إلى رسول الله - وقد ضلت زاملته فى (حجة الوداع) ثم وجدها - فرد إلى سعد زاملته شاكراً له هذه الأريحية وقال :

أما يكفيك يا أبا ثابت ما تصنع بنا فى ضيافتك منذ نزلنا المدينة ، ؟ فيرد سعد قائلا : يا رسول الله ، المنة لله ولرسوله ، والله يا رسول الله ، إن الذى تأخذ من أموالنا أحب إلينا من الذى ندع ، فيقول النبى : « صدقتم يا أبا ثابت ، أبشر فقد أفلحت ، إن الأخلاف بيد الله ، فمن شاء أن يمنحه منها خلفا صالحا منحه ، ولقد منحك الله خلفا صالحا » . فيحمد سعد ربه على ما أنعم به عليه ، ويلتفت ثابت بن قيس بن شماس إلى النبى ، فيذكر ما كان لأهل بيت سعد فى الجاهلية من أفضال وأمجاد ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « الناس معادن . خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا . لهم ما أسلموا عليه » .

ويشاء الله أن تحل بركته فى ذرية سعد ابن عبادة ، فيتكاثرون بمصر والأندلس فقد ذكر رجال التراجم عددا كبيرا منهم حتى القرن الثامن الهجرى . كان منهم بالأندلس الشعراء والفقهاء والقضاة والأطباء والنحاة ، وكان أول نزولهم (سرقسطة) ومنها انتشروا فى سائر المدن الأندلسية ولا سيما قرطبة وغرناطة ، وكان منهم الأمراء المكرمون ، والعلماء الأجلة كأبى العباس المرسى نزيل الإسكندرية والوافد عليها من (مرسية) الأندلس ، فسمى المرسى .

وكان سعد ـ إلى جانب ما رأينا من خصال ـ يطلق لتفكيره عنان الحرية ، وطالما كان يتوخاها فى حضرة الرسول ، إذا نزلت آية ، أو جاء ما يناسبها من أحداث ، فقد تليت هذه الآية الكريمة « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » . فتساءل سعد : هكذا أنزلت يا رسول الله ؟ وينظر النبى إلى من حوله ويقول : « يا معشر الأنصار ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم ؟ . قالوا : لا تلمه يارسول الله فإنه غيور : والله ما تزوج قط إلا بكرا . ولا طلق امرأة قط فاجترأ أحد أن يتزوجها بعده . ولكن سعدا ـ وهو الواثق من نفسه المعتز برأيه ـ يقول : يا رسول الله والله إنى لأعلم أنها حق . وأنها من الله ، ولكنى قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فلا آتى بهم حتى يقضى حاجته . .

ومن ذلك أيضاً أن النبى أراد أن يعطى غطفان ثلث ثمار المدينة لترجع عن الحرب وعقد النبى مجلس الشورى ، وحضر السعدان ، فقال النبى : يارسول الله ، أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ فقال النبى : بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى

رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

وفى (يوم الفتح) - وقد جاء نصر الله - أمر النبى سعداً بأن يدخل مكة من (كداء) . فلما دخلها استبدت به نشوة النصر - إذ مر بأبى سفيان ، وقد أسلم - فصاح سعد : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً » ، فسمعها عمر ابن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان ، فما كان أسرعهم إلى النبى : يا رسول الله ، اسمع ما قال سعد بن عبادة ، والله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة . وتأثر أبو سفيان أشد التأثر وظن أن النبى أمر بقتل قومه . وغضب النبى وأمر عليا ابن أبى طالب أن يدرك سعداً وأن يأخذ الراية منه . ويدخل بها مكة ، وقيل إن النبى أمر بدفعها إلى قيس بن سعد ، ولا عجب فقد كان سعد غيوراً شديد الغيرة ، جاء عن ذلك فى حديث النبى : « إن سعداً لغيور ، وإنى لأغير من سعد ، والله أغير منا ، وغيرة الله أن تؤتى محارمه » ، وقال لأبى سفيان مواسياً ليمسح من صدره ما عسى أن يكون قد علق به من قول سعد : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشاً » .

وقبض رسول الله ، واجتمع الأنصار حول سعد فى سقيفة بنى ساعدة ، وكان يومئذ متوعكا ، فكان يقول وابنه قيس يحفظ مايقول ويعيده على الناس من كثرة جموعهم ، وعلم أبو بكر وعمر فحضرا من فورهما خشية أن يبايع الناس ابن عبادة فتنتقل الخلافة من قريش إلى الأوس والخزرج فيتنازعون فتذهب ريحهم ، وحسم الأمر . وقضى على دعوى الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . وأدرك الجميع عاقبة الخلاف ، فارتضوا أبا بكر خليفة لرسول الله .

أما التاريخ الذى أفاض فى مناقب سعد وقومه فى الجاهلية والنبوة ، فقد سكت عن أخباره بعد ذلك ، حتى لقد لقى عمر سعداً ذات يوم فى طريق المدينة ، ولم يشأ سعد أن يخفى عن أمير المؤمنين كراهيته لجواره ، وما لبث غير قليل حتى انتقل إلى الشام فمات بحوران فى العام الخامس عشر من الهجرة ، وقبره بالمنيحة من غوطة دمشق مشهور يزار إلى يومنا هذا ، ويردد المؤرخون جميعاً أنه مات صريع الجن فى بئر أو نفق ، إذ عثر على جلده وقد اخضر ، وكما عرفوه أسطورة فى البداية ، عرفوه أسطورة فى النهاية ، فزعموا أنهم سمعوا بالمدينة هاتفا يقول :

قد قتلنا سيد الخز ... رج سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين ... فلم نخطئ فؤاده ؟

محمد محمود دنيتوره

المؤلفات العربية لعلماء الهند المسلمين

للأستاذ محيي الدين الألوائي

— ٢ —

تحدثنا في المقال السابق عن مساهمة علماء الهند المسلمين في نشر التراث الإسلامي والثقافة العربية ، وتناولنا بعض مؤلفاتهم العربية في مختلف العلوم والفنون ، ونقدم الآن المؤلف العربي القيم « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » للعلامة السيد عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، المتوفى سنة ١٣٤١ هـ ، وهو كتاب كبير ، أو موسوعة علمية في ثمانية أجزاء ، لخص فيها واقتبس من ثلاثمائة كتاب في العربية والفارسية والأردية ، ما بين مخطوط ومطبوع ، عن تراجم علماء الهند ومؤلفاتهم وطبقاتهم مع تهذيب وتنقيح وتلخيص وتحقيق حتى أصبح الكتاب يحتوي على تراجم أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة ونيف من رجال الهند ذوي الشأن في العلوم والفنون والآداب وتاريخ بلادهم .

وقبل أن نستعرض محتويات هذا الكتاب القيم ، نقدم نبذة عن مؤلفه وصفاته التي أهلته للقيام بهذا العمل الجليل : فقد ولد العلامة عبد الحي بن فخر الدين في الثامن عشر من رمضان سنة ١٢٨٦ هـ في بلدة « راي بريلي » على مقربة من مدينة « لكهنو » في شمالي الهند وقد نشأ على الاطلاع والجمع ، وكان ذلك ذوقا توارثه من أبيه السيد فخر الدين بن عبد العلي الحسني صاحب المؤلفات العديدة في التاريخ والأنساب . وكان له في هذا الموضوع هوى من الصبا . كما وصف نفسه في مقدمة كتابه نزهة الخواطر . حيث قال : أما بعد : فإني منذ عرفت اليمين من الشمال ، وميزت بين الرشد والضلال ، لم أزل ولوعا بمطالعة كتب الأخبار ، مغرى بالبحث عن أحوال الأدباء الأخيار ، حريصا على خبر أسمعه أو شعر رتفق شمله فأجمعه حتى اجتمع عندي ما طاب وراق ، وزين بمحاسن لطائفة الأقلام والأوراق . فاقتصرت منه على أخبار أدباء الهند التي أنا فيها . وضربت صفحا عن أدباء الأقاليم الأخرى التي تنافيها ؛ حرصا على جمع ما لم يجمع ؛ وتقييد شيء لم يقل إلا ليقيد ويسمع » .

وهكذا نشأ الشيخ عبد الحى على معرفة طبقات الرجال وخصائصهم ودقائق أخبارهم فكان له كما يقال: فن تاريخ الهند سليقة وذوقا إذا كان لغيره صناعة وكدا، وبعد أن درس الكتب الدراسية فى الصرف والنحو والفقه والأصول والتفسير والمعقولات، وكتب الحديث على أشهر علماء الهند فى عصره حرص على التبحر فى آداب اللغة العربية والفارسية والأردية، وكان يدرس الأدب والطب والحديث والقرآن. ويقضى معظم أوقاته فى مطالعة الكتب والتصنيف، وقبل بضع سنين لوفاته كان يحب تدريس التفسير والحديث فرغب عن سائر العلوم، ولم يكن يشتغل إلا بهذين العلمين، وتوفى رحمه الله فى الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ ودفن فى مسقط رأسه.

ومن الصفات التى ساعدته على القيام بهذا العمل الجليل والتأليف فى هذا الفن الخطير

١ — مواهبه فى التاريخ، وقد رزقه الله صفاء الحس وقوة النظر ودقة الملاحظة، فيضع الرجل فى طبقته، ويصفه بدقة، فهو فى ذلك يشبه ابن خلكان فى وفيات الأعيان

٢ — إتقانه وإحكامه فى التدوين، فلم يستعجل فى كتابه ولم يبادر بنشره بل كان ينقح ما كتب ويهذبه ويراجع المصادر ويستأنف النظر حتى يقنع بما ذهب إليه فى نقد الرجال ووصفهم بطول الدراسة والممارسة

٣ — عدم تحيزه إلى فئة فى التاريخ وعدم تعصبه لجماعة، بل يؤدى الأمانات إلى أهلها.

٤ — مشاركته فى جميع العلوم السائدة فى عصر المترجمين والسلف من علماء الهند وكانت له بصيرة نافذة فى تراجم رجال الهند وأعيانها ومدارسها الفكرية المختلفة.

٥ — قلمه السيال وبيانه السلسال فى تقييد الحوادث وتراجم الرجال فجعل كتابه الذى نحن بصدده علما وأدبا ومتعة لا يمل القارىء مطالعته، بل يتقلب منه فى حديقة غناء يتجول فى أطرافها حتى أصبح كاسمه «نزهة الخواطر»

وقد بقيت هذه المكتبة العلمية العامرة بعد وفاته تراثا عزيزا عند أولاده، وهى فى ثمانية أجزاء، يتضمن الجزء الأول تراجم علماء الهند وأعيانها فيمن قدم إليها من عظماء المسلمين من القرن الأول إلى القرن السابع الهجرى، والجزء الثانى فى أعيان القرن الثامن، وهكذا كل جزء فى قرن كامل إلى الجزء الثامن الذى هو فى تراجم علماء القرن الرابع عشر. ولما طبعت دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد كتاب «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة» للعلامة ابن حجر العسقلانى عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) طبع الجزء الثانى من نزهة الخواطر أيضا إكمالا لتاريخ القرن الثامن، وذيلا للدرر الكامنة، وبقى سائر الأجزاء مودعا فى مكتبة المؤلف.

وكانت الطبعة الأولى للجزء الأول من

هذا الأثر العلمي العظيم سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) تحت إشراف دائرة المعارف العثمانية ولما تولى إمام الهند مولانا أبو الكلام آزاد وزارة المعارف للجمهورية الهندية حث على متابعة طبع الأجزاء الأخرى فاستمر الطبع حتى ظهر الجزء السابع عام ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) وكانت الطلبات تنهال من مكتبات الشرق والغرب ، ولا سيما الجزء الأول منه فأعادت دائرة المعارف العثمانية طبعه عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) . وأما الجزء الثامن من نزهة الخواطر فلم يطبع إلى الآن ، ومن المنتظر أن يظهر إلى حيز الوجود عما قريب وفق مشروع دائرة المعارف العثمانية وحركتها القوية لنشر الكتب القيمة فى مختلف العلوم والفنون .

ومن ميزات « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » أنه يشتمل على فوائد غالية فى تاريخ الهند العلمى والسياسى والدينى وعلى نكت لطيفة لا يظفر بها القارىء فى مكتبة حافلة ، فضلا عن كتاب مفرد ، وقد عثر عليها المؤلف فى رحلته العلمية الطويلة بين الصحف والدفاتر والمذكرات أو تلقاها من أفواه المعلمين الكبار والشيوخ الثقات فنشرها على صفحات الكتاب مع أمانة النقل وتحرى الصدق والعدل فى الرواية وانتقاده فى موضع الانتقاد وتقريظه فى موضع التقريظ ، وذلك هو المثل الكامل لتاريخ البشر للبشر حتى صار كتابه تاريخا حيا لحى يحمل فى جوانحه قلبا مليئا بخفة الروح ، ورواء الطبع ، وعذوبة الخلق ، واستهل المؤلف كتابه بقوله :

« الحمد لله الذى خلق الإنسان ، وعلمه البيان ، وأنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وأعجز مصاقع البلغاء عن المعارضة باللسان ، إلى المقارعة بالسيف والسنان ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد فاتحة كتاب الوجود ، وخاتمة أبواب الوحى والكشف والشهود ، والشفيع المشفع فى المقام المحمود ، من سطع نوره على كل موجود ؛ وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأخيار ، الذين أيدوا الشريعة السمحة الغراء ، وأسسوا أبنية قواعدها البيضاء ؛ حتى استقام الحق واعتدل ، وزهق الباطل وبطل ... » .

ثم استطرد المؤلف كلامه عن الحاجة الماسة إلى وضع كتاب بالعربية عن تاريخ الإسلام فى الهند المتناثر فى مؤلفات عديدة ، مع تهذيب وتنقيح وتحقيق ، فقال :

« ولولا من الله عز وجل ـ وله المنة على هذا العبد بالقوة على ذلك بعد المنة ـ لما تيسر له جمع الكتاب ، الذى هو أغلى من الذهب المذاب ، وأحلى من لذيذ الخطاب ، ومداعبة الأحباب ؛ لأن أهل الهند مع كثرة فضلائهم ووجود الأعيان فى كل مكرمة على تعاقب

الأمصار ليس لهم عناية كاملة ، ولا رغبة وافرة ؛ إلا فى دفن محاسن أكابرهم ، وطمس آثار مفاخرهم ؛ فلا يرفعون إلى علمائهم رأسا ، ولا يمدون إليهم يدا ؛ مع توفر رغباتهم إلى الاطلاع على ما لغيرهم من الشعراء والاشتغال الكامل بمعرفة أحوال مشايخ الصوفية والإكباب على جمع كشوفهم وكراماتهم ، وعلى كتبهم التاريخية وغيرها ، وإنى لأكثر العجب من اختصاص المذكورين بهذه الخصلة التى هى سبب لدفن محاسن سابقهم ولاحقهم، وطمس رفيع قدر علمائهم وفاضلهم؛ ولهذا أهمل المصنفون فى التاريخ على العموم ذكرهم ، لم يترجموا لأهل قرن من تلك القرون ، ولا من مضى فى عصر من هاتيك العصور ، وإن ذكرهم المؤرخون منهم ترجموه ترجمة مغسولة عن الفائدة ، عاطلة عن بعض ما يستحقه ، ليس فيها ذكر مولده ولا وفاته ، ولا شىء من مسموعاته ولا مقروءاته ، لأن الذى ينقل أحوال شخص إلى غيره ينبغى له أن يكون من معارفه وأهل بلدته ، فإذا أهمله عارفوه أهمله غيرهم وجهلوا أمره .

ومن هذه الجهة أجدنى إذا ترجمت فى هذا الكتاب أحداً منهم لم أدر ما أقول ! لأن أهل عصره أهملوه فلم يبق لدى من بصددهم إلا مجرد أنه فلان لا يدرى متى ولد ، ولا فى أى وقت توفى ، وبماذا انفرد فى حياته من المزايا ! فن عرف ما ذكرناه علم أنى بفضل الله سبحانه وتوفيقه أجدت فى كتابى هذا، وأبدعت وصنعت مالم يستطعه كبار العلماء مع توفر رغباتهم فى الجمع والتصنيف ، لا سيما فى هذا الباب ... » .

واختتم المؤلف الجليل مقدمة كتابه مبيناً صدق نيته ، وصفاء هدفه من القيام بهذا الجهد الجبار فقال :

« وإنى لم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيــه أحداً بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى ، وأنا أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم من وضع قدمى فى طريق لم أسلكه ، وتجارتى فى رأس مال لم أملكه ، هذا مع اعترافى بقصور باعى ، وفتور همتى ، وتصــوب طباعى فى القوانين العربية ، ودواوين المثانى الأدبية .

مالى وللأمر الذى قلدته
ما للذباب وطعمة العنقاء
أبكى بعجزى وهو يبكى ذلة
شتان بين بكائه وبكائى .

وهكذا تعتبر « نزهة الخواطر » مؤلفاً كبير الشأن من طراز « الدرر الكامنة » للعسقلانى « والضوء اللامع » للسخاوى ، « والبدر الطالع » للشوكانى ، « وخلاصة الأثر » للمحبي

تناول المؤلف فى الجزء الأول منه الطبقة الأولى من العرب الذين قصدوا الهند فى القرن الأول الهجرى، وفى مقدمتهم فاتح الهند الأول «محمد بن القاسم الثقفى». ويتبين منه مدى صلة الهند بالعروبة ومكانتها فى تاريخ الإسلام، فكانت الهند من البلاد التى هبت عليها نفحة من نفحات الإسلام فى فجر تاريخه، ولم تزل محط رجال المسلمين العرب من العلماء والدعاة والفاتحين فى القرن الأول، وأودع فيها الإسلام ذخرا لا يضيع من عظماء المسلمين الذين ضحوا بنفسهم ونفيسهم فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية الحقة، وفيما يلى نص ماورد فى كتاب نزهة الخواطر عن تاريخ محمد ابن القاسم الثقفى، وقصة فتحه الهند :

«محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى كان من بنى أعمام الحجاج وختنه، ولاه الحجاج على ثغر الهند فى أيام الوليد ابن عبد الملك، وكان بفارس، وقد أمره أن يسير إلى الرى، وعلى مقدمته أبو الأسود جهم بن زحر الجعفى، فرده إليه وعقد له على ثغر السند، وضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام، وخلقا من غيرهم وجهزه بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والمال، وأمره أن يقيم بشيراز، حتى يتتام إليه أصحابه ويوافيه ما أعد له، وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنقع فى خل الخمر الحاذق ثم جفف فى الظل فقال : إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن فى الماء ثم اطبخوا به واصطبغوا! فسار محمد ابن القاسم إلى «مكران»، فأقام بها أياما ثم أتى «قنزبور»، ففتحها ثم أتى «أرمائيل» ففتحها ثم سار إلى «الديبل» يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة فخندق حين نزل «ديبل»، وركزت الرماح على الخندق ونشرت الأعلام وأنزل الناس على راياتهم ونصب منجنيقا، وكان بالديبل كنيسة[1] عظيمة، عليها دقل طويل، وعلى الدقل راية حمراء فرمى الدقل فكسر فاشتد طيرة الكفر من ذلك، ثم إن محمدا ناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم وأمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وهرب عامل داهر وقتل سادن بيت آلهتم فى الديبل واختط للمسلمين بها وبنى مسجدا وأنزلها أربعة آلاف، ثم أتى محمد (البيرون) فصالحه أهلها وجعل محمد لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهرا دون «مهران» فصالحه أهلها ووظف عليهم الخراج وسار إلى «سهبان»، ففتحها ثم سار إلى «مهران» فنزل فى وسطه وعبره مما يلى بلاد «راسل» ملك «قصة» (كچه) من الهند ولقيه داهر على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع بمثله وترجل «داهر» وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون

(١) لعل المراد بالكنيسة هنا معبد الوثنيين.

فقتلهم المسلمون كما شاءوا ، وكان الذى قتله في رواية المدائنى رجلا من بنى كلاب وقال:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا
ومحمد بن القاسم بن محمد
أنى فرجت الجمع غير معرد
حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج بجدلا
متعفر الخدين غير موسد

ثم سار إلى « راور » ففتحها وكانت بها امرأة لداهر فخافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها ، ثم أتى محمد « برهمناباد » العتيقة وكان (قل داهر) ببرهمناباد هذه فقاتلوه ففتحها محمد عنوة وقتل بها ثمانية آلاف ، وقيل : ستة وعشرون ألفاً ، وخلف فيها عامله وسار محمد يريد « الرور » و « بغرور » فتلقاه أهل « ساوندرى » فسألوه الأمان فأعطاهم إياه ثم تقدم إلى « بسمد » فصالح أهلها وانتهى إلى الرور وهى على جبل فحصرهم أشهراً ففتحها صلحا وبنى مسجداً وسار إلى « السكة » ففتحها ثم قطع نهر « بياس » إلى « الملتان » فقاتله أهلها وانهزموا ودخلوا المدينة فحصرهم محمد وضيق على أهلها فنزلوا على الحكم فقتل محمد المقاتلة وسبى الذرية وأصاب ذهبا كثيراً فسميت « الملتان » « فرج بيت الذهب » .

قالوا : ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد ستين ألف ألف درهم ، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف درهم فقال : شفينا غيظنا وازددنا ستين ألف ألف درهم . ومات الحجاج فأتت محمداً وفاته فرجع عن الملتان إلى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى « البيلمان » جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل « سرست » ثم أتى محمد « الكيرج » فخرج إليه « دوهر » فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر ، ويقال قتل ، ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى ، قال الشاعر :

نحن قتلنا داهراً ودوهرا
والخيل تردى منسراً فنسرا

ومات « الوليد بن عبد الملك » وولى « سليمان بن عبد الملك » فاستعمل « صالح ابن عبد الرحمن » على خراج « العراق » وولى « يزيد بن أبى كبشة السكسكى » « السند » فحمل محمد بن القاسم مقيداً مع « معاوية بن المهلب » فقال محمد متمثلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج ، فحبسه صالح « بواسط » فقال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها
رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرب فتية فارس قد رعتها
ولرب قرن قد تركت قتيلا

وقال :

لو كنت أجمعت الفرار لوطئت
إناث أعدت للوغى وذكور
ومادخلت خيل السكاسك أرضنا
ولا كان من عك على أمير
ولا كنت للعبد المزونى تابعا
فيالك دهر بالكرام عثور

فعذبه صالح فى رجال من آل أبى عقيل حتى قتلهم ، وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح وكان يرى رأى الخوارج .

وقال « حمزة بن بيض الحنفى » يرثى محمداً :

إن المروءة والسماحة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقال آخر :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة
ولداته عن ذاك فى أشغال

كانت وفاة الحجاج فى شوال سنة ٩٥ هـ ، ووفاة الوليد وتولية سليمان فى جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ ، وفى تلك السنة عذب محمد وقتل بواسط . كما فى « الكامل » ، « وفتوح البلدان » وغيرهما من كتب الأخبار .

وذكر المؤلف ثلاثة من كبار المجاهدين الذين قاتلوا تحت لواء «محمد بن القاسم الثقفى» وهم : محمد بن مصعب الثقفى ، والقاسم بن ثعلبة الطائى ، ومحمد بن هارون النمرى . فقال عن الأول : محمد بن مصعب بن عبد الرحمن الثقفى قدم السند وقاتل الهنود مع محمد بن القاسم الثقفى وأمره محمد بن القاسم على سرية وبعثه إلى « سدوسان » فى خيل وجمازات فطلب أهلها الأمان والصلح وسفر بينه وبينهم « السمينة » فأمنهم ووظف عليهم خرجا وأخذ منهم رهنا وانصرف إلى محمد بن القاسم ومعه من « الزط »[1] أربعة آلاف ثم لما سار محمد بن القاسم إلى مهران أمر محمد ابن مصعب على طليعته فعبر مهران مما يلى بلاد « راسل » ملك « قصة » (كچه) وعن الثانى قاسم بن ثعلبه بن عبد الله بن حصن الطائى الرجل المجاهد كان بالسند وقاتل الهنود تحت لواء الأمير محمد بن القاسم الثقفى وقتل كثيرا منهم وهو الذى قتل « داهر بن صصة » ملك السند ، رواه البلاذرى عن ابن الكلبى » .

وعن الثالث : « محمد بن هارون بن ذراع النمرى استعمله الحجاج بن يوسف الثقفى على ثغر الهند بعد مجاعة بن سعر التميمى ، الذى توفى « بمكران » فغزا محمد بن هارون فغنم على الثغر وقام بالأمر خمس سنين ، ثم لما ولى الحجاج ابن عمه محمد بن القاسم الثقفى كتب إلى محمد بن هارون يأمره أن يجهز جنده ويستعد للخروج إلى بلاد السند ، فلما أتى محمد بن القاسم « مكران » ، وسار إلى

---

(١) طائفة من الهنادكة المعروفة باسم « جات » ولعل الزط معرب جات .

« قنزيور » لحقه بها وأتى (أرمائيل) وفتحها وأقام زمانا يستريح بها فمات ودفن « بقنبل » .

* * *

وهكذا نرى « كتاب نزهة الخواطر » يستقصى تاريخ الإسلام فى الهند وتراجم رجال الفتوحات الإسلامية ورجال العلم والأدب فيها من القرن الأول للهجرة النبوية .

* * *

ومن أجل الكتب العربية الأخرى لصاحب « نزهة الخواطر » كتاب « جنة المشرق ومطلع النور المشرق » فى جغرافية الهند والتاريخ الإسلامى فيها ، ويحتوى هذا الكتاب على ثلاثة فنون ، الفن الأول فيه مقدمة وأربعة أبواب : فالباب الأول فى جغرافية الهند وموقعها من الأرض وجبالها وأنهارها وأشجارها ونوادرها وأديانها ولغاتها واستقصى فى هذا الباب عقاقير بلاد الهند والفواكه التى لا توجد فى غير هذه البلاد ، والباب الثانى فى ذكر مقاطعات الهند المشهورة ، والباب الثالث فى ذكر أشهر مدنها وقراها فى الدولة الإسلامية فيها ، والباب الرابع فى وصف أهل الهند وولاياتها فى العصر الأخير .

والفن الثانى : فى أخبار ملوك الهند مع بيان ظهور الإسلام فى أرض الهند وذكر ولاتها فى مختلف العصور ، وتاريخ الملوك والأمراء فى عهد الحكم البريطانى فيها وثورة الهند للتخلص من استعمار الإنجليز . والفن الثالث يتناول خطط الملوك فى الأحكام السياسة وتنظيم العساكر وترتيبها ونظامها وعوائدهم فى تحصيل المالية والعدل والقضاء مع ذكر تقاليدهم فى خروجهم إلى الناس وآداب التحية الشائعة فى عهودهم وما حدث فيها من التغيير فى كل عهد من العهود فى أرجاء الهند .

ويتضمن كتاب « جنة المشرق ومطلع النور المشرق » فصولا هامة ونافعة عند البحث فى أخبار الهند من ذكر السنين والشهور والساعات والنقود والموازين الهندية فى كل عصر ، وكذلك الشوارع العامة والحدائق والجوامع والحياض والمقابر مع مآثرها ونوادرها وهذا المؤلف القيم يساعد على معرفة خط المسلمين فى حضارة الهند وعمارتها وسلوك ملوكهم فيها ونظام حكمهم وخطط سياستهم مع تقصى التغيرات التى حدثت فى عهود الحكام الذين حكموا الهند من ولاة العباسيين والملوك الفزنويين والغوريين والمغول وغيرهم ، وما ظهر على أيديهم من رقى المدنية والصناعة والعلم فى أرض الهند حتى صار هذا الكتاب سجلا عربيا حافلا بتاريخ هذه البلاد السياسى والحضارى والعلمى والجغرافى ؟

يتبع — محيي الدين الألوائى

حول تنفيذ حكم الطاعة

للدكتور عبد الناصر توفيق العطار

١ – إذا كنا نطلب – مخلصين – الوسيلة المناسبة لتنفيذ حكم الطاعة بما يكفل للزوجين تمام الرضا والمودة والتعاطف، وبما يحفظ أطفالها، ويبقى للأسرة – وهي نواة المجتمع – كيانها، فلابد من الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم نستلهم منهما الحل الصحيح ونستضيء منهما طريق العلاج الناجع السليم، وفي كتاب الله الكريم نزل قوله تعالى: «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان عليا كبيرا، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما، إن الله كان عليما خبيرا»، بهذا رسم الله سبحانه طريقا لعلاج نشوز المرأة يتنقل بين الإرشاد والإنذار والقوة والصلح والتوفيق بين الزوجين.

ومن تمام حكمة الله عز وجل أن شرع (الخلع) للمرأة إن رغبت في فراق زوجها حيث قال سبحانه: «فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به»، وفي السنة النبوية تطبيق واضح لهذا المبدأ، فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: ثابت بن قيس لا أعتب عليه في خلق ولا دين، إلا أنني أخاف الكفر: (أي بخروجها عن حدود الله) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقبل الحديقة وطلقها تطليقة»، فهنا نرى رغبة امرأة ثابت بن قيس في فراق زوجها وعزمها على ذلك حتى إنها تخشى الخروج عن حدود الله إن ظلت على زواجها معه، وقد خيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البقاء معه أو فراقه خلعا بتعويض الزوج عما دفعه في زواجه منها من صداق وغيره، فاختارت الخلع، وهكذا «فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به».

٢ – هذه حلول القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة. من دقتها وشمولها. وعمومها تدرك – بحق – أن أي حل لا يستلهم أسسها بجتمعة قاصر عن بلوغ حد الكمال، مهما بدا صالحا في بعض الحالات.

لقد قيل مثلا: إن إسقاط النفقة الزوجية كاف لإنذار المرأة عند النشوز بالعدول عن

نشـــوزها ، وهو حل يفتقر إلى الوسائل القرآنية الأخرى : من إرشاد وتوفيق ، أو قوة وخلع عنـــد اللزوم . ولقد بدا لبعض المفكرين الاكتفاء بهذا الجزاء إذا مارفضت الزوجة تنفيذ حكم الطاعة ، ولو استمرت على ذلك أمداً بعيداً ! وبالتالى افتقر هذا الحل إلى علاج يداوى الحياة الزوجية طوال فترة سقوط النفقة إذا لم تعدل الزوجة عن نشوزها ، حتى بدا الطلاق أو الخلع خيراً من بقاء كل من الزوجين معلقاً بين الزواج والفراق ، فى حالة أشبه بالانفصال الجسمانى المعروف عند (الكاثوليك) ولكن بلاحدود ولا ضوابط ولا نهاية ، فضلا عن أن هذا الحل لا يضمن تنفيذ حكم الطاعة إلا نادراً ، فأغلب النساء الناشزات لهن مورد مال يأتى إليهن : إما من عمل يكسبن منه أجراً أو راتباً ، وإما من قريب كأب أو أخ ينفق عليهن ، وإما من مال الزوج نفسه الذى يدفعه نفقة لزوجته الناشز بمقتضى حق حضانتها لأطفاله ! والتجاء الزوج هنا إلى الطلاق أو إلى تعـدد الزوجات لإنهاء ذلك المركز القانونى الغريب يخلق له مشكلات أخرى ، وقد يزيد الطين بلة ، فضلا عن أن ذلك أمر غير ميسور لكثير من الأزواج .

ولقد قيل كذلك : إنه لابد من تنفيذ حكم الطاعة جبراً على الزوجة الناشز ، ولو عن طريق الشرطة مآلا ، وهو الحل المعمول به حتى الآن ، وهو التجاء إلى القـوة دون إرشاد أو إنذار أو صلح بين الزوجين ، ومن ثم بدا فى كثير من الظـروف جافا وغريبا يثير الشعور ويؤذيه ، فضلا عن تجاهله فريقا من الناشزات اللائى لا يرغبن فى العودة إلى أزواجهن ، ويعقدن العزم على ذلك بما لايدع فرصة إلى وفاق أو صلح مع أزواجهن .

٣ — من هنا كان لابد من البحث عن طريق لتنفيذ حـــكم الطاعة يتـدرج بين الإرشاد والإنذار والتوفيق بين الزوجـين واستخدام القوة أو إعمال الخلع عند اللزوم استلهاما لمبادىء القرآن الكريم .

ويبدو لنا — أن تحقيق ذلك ميسور فى حدود سلطة القاضى الوضعى إذا أسعفه التشريع بنص يتضمن القواعد الآتية :

(ا) إذا حدث شقاق بين الزوجين ورفع الأمر إلى القضاء ، بعث القاضى حكما من أهل الزوج وآخر من أهل الزوجة للصلح بينهما » .

وهذا الحكم معمول به بمقتضى المواد ٦ - ١١ » من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ولكن فى نطاق محـدود ، وهو حالة ما إذا ادعت الزوجـــة إضرار الزوج بها بما لا يستطاع معه دوام العشرة بين أمثالها ، ورفض طلبها وتكررت شكواها . فلماذا لا يؤخذ بهذا الحكم سواء كانت الشكوى من الزوجـة أو من الزوج ؟ أليس ذلك

مفهوم حكم القرآن « وإن خفتم شقاق بينهما، أيا كان مصدر هذا الشقاق أو الشاكى منه ؟!

(ب) فإذا ثبت نشوز الزوجة حكم القاضى بإسقاط النفقة الزوجية وأمر بتشكيل لجنة من : باحث اجتماعى أو باحثة، وواعظ دينى أو واعظة، وأحد أقرباء الزوج للذهاب إلى الزوجة وتكليفها بالعودة إلى منزل الزوجية فورا مع قريب الزوج » .

وهذا الحل الذى نقترحه يجمع بين فكرة الإرشاد والإنذار، ويرجىء استخدام القوة لحل النزاع بين الزوجين ما دامت هناك فرصة للإصلاح بينهما ، والأمل معقود على خريجات كلية البنات الإسلامية فى القيام بدور الباحثة الاجتماعية والواعظة الدينية .

(ج) « وعلى القاضى بعد الاطلاع على تقرير الباحث الاجتماعى ، وتنفيذا للقرار السابق أن يحكم : إما بالطلاق (خلعا) إذا توافرت شروطه الشرعية ، وإما بتنفيذ حكم الطاعة بالقوة الجبرية إذا استمرت الزوجة على نشوزها ، وإما بحفظ الدعوى إن عدلت الزوجة عن هذا النشوز .

وهو حل يحسم حال الحياة الزوجية بين الزوجين المتنازعين ، ولا يدع أحدهما معلقا بين الزواج والفراق . ألا ترى أن الزوج إذا أضر بزوجته ضررا لا يستطاع معه دوام العشرة بين أمثالها طلق القاضى عليه زوجته ـ بطلبها ـ طلقة بائنة إذا ثبت الضرر وعجز القاضى عن الإصلاح بينهما ، وهو حكم معمول به بمقتضى المادة السادسة من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ حسما للشقاق بين الزوجين ورفعا للضرر عن الزوجة . ومن العدل أن يكون الحكم كذلك بالنسبة للزوجة إن ثبت إضرارها بزوجها عند نشوزها ، ويتم الفراق هنا خلعا غير أنه إذا كانت الزوجة لا ترغب فى فراق زوجها خلعا وكانت كذلك لا ترغب فى العودة إليه فأين تذهب إذا لم نحملها جبرا على رعاية أطفالها بين أحضان أبيهم وتحت إشرافه إن رغب فى عودتها إليه ؟ وحيث لم يفلح أى من الزوجين المتنازعين فى حمل الآخر على التسليم بحقه ، وحيث ثبت للقضاء نشوز الزوجة فلا مناص من تنفيذ حكم الطاعة بالقوة الجبرية إذا كانت الزوجة غير راغبة فى فراق زوجها خلعا . وتستطيع الزوجة عند الحكم بالطاعة أن تبادر بنفسها إلى تنفيذه اختيارا وتقديرا منها لسلطة القضاء الذى أظهر أن زوجها لم يخطىء فى حقها وتبعه لديه أنه برىء من الأسباب التى بنى عليها نشوزها ، ولا يقال : إن المشكلة هنا لها جانبها النفسى والخلقى فحسب ، وتتوقف على مدى الاحترام والتقدير المتبادل بين الزوجين ورضا كل منهما بالحياة مع الآخر، لأن المشكلة كذلك جانبها الاجتماعى والقانونى، فنشوز الزوجة وخروجها عن طاعته ينبىء عن بداية تفكك الأسرة ، نواة المجتمع ،

الأمر الذى تضطرب معه العلاقات الاجتماعية ؛ وليس من الحكمة أن يغض التشريع الطرف عن ذلك ؛ بل عليه أن يتدخل بحل حاسم يضع حدا لبوادر هذه الفوضى وهو ما يهدف الاقتراح هنا إلى تحقيقه .

(د) « وإذا نفذت الزوجة حكم الطاعة اختيارا أو جبرا عنها استدعى القاضى الزوجين بعد شهر ، أو كلف الباحث الاجتماعى والواعظ الدينى بزيارتهما بعد شهر للاطمئنان على عدالة الزوج » .

فقد يحلو لبعض الأزواج أن يسىء معاملة الزوجة عند عودتها إليه ؛ ولا يعد ذلك عيب فى حكم الطاعة ، ولو تم جبرا عن الزوجة بل هو مسئولية أجهزة الإعلام بشتى صورها التى يقع عليها عبء توعية الزوجين بالسلوك الفاضل . ومع ذلك لا بأس - فيما يبدو لى - أن يراقب القاضى - بأمر من المشرع - معاملة الزوج لزوجته فى فترة رد الفعل ، وهى عادة لا تزيد على شهر ، إذا صلحت فيه الأمور بين الزوجين استقامت حياتهما الزوجية غالبا . ومراقبة القضاء لسلوك الزوجين ليست بدعا فى الدين أو القانون ، بل فى ذلك اتباع صادق لصريح أمر الله سبحانه وتعالى « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا » ، وصدق الله العظيم ؟

الدكتور عبد الناصر توفيق العطار
وكيل نيابة بندر سوهاج

المغيرات خلق الله

عن عبد الله بن مسعود : قال لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله : فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها : أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت : ما حديث بلغنى عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ؟ ! فقال عبد الله : وما لى لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى كتاب الله ؟ ! فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته فقال : لئن كنت قرأته لقد وجدته قال الله عز وجل : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فقالت المرأة : فإنى أرى شيئا من هذا على امرأتك الآن . قال : اذهبى فانظرى قال : فدخلت على امرأة عبد الله فلم ترشيئا ، فجاءت إليه . فقالت : ما رأيت شيئا فقال : أما لو كان ذلك لم نجامعها . ١ هـ صحيح مسلم ٣ .

---

(١) أى ما أبقيتها زوجة

عائد من الفلبين

للأستاذ محمد زيتون

— ٣ —

(أ) علاقات العرب القديمة مع الفلبين :

أتناول فى هذا المقال علاقات العرب الأقدمين بالفلبين قبل ظهور الإسلام ثم اتحدث عن وصول الدين الإسلامى إليها وكيف استطاع العرب الأوائل أن يحملوا رسالة الإسلام إلى أقصى المشرق .

يقول مؤلف كتاب التاريخ السياسى والثقافى للفلبين (١) : إن العرب أقاموا علاقات مع الشرق الأقصى فى الزمن القديم منذ حكم الملك سليمان ، وذلك فى خلال مملكة سبأ المعروفة "Shaba in the Bible" فقد أقام عرب جنوب الجزيرة العربية الماهرون فى التجارة علاقات تجارية مع الهند وآسيا خلال القرن الأول الميلادى ولقد كانت سفنهم التجارية تمخر عباب بحور الملايا ذاهبة إلى الصين ، وفى القرن الثالث كان العرب جالية تقوم بالتجارة فى كانتون Conton وفى القرن التاسع زارت سفنهم "Kedah" فى شبه الجزيرة الملايوية، وجاءوا إلى سومطرة وملوكاس Moluccas

ثم يستمر المؤرخ فى كتابته فيقول : وكما يقول Raymundo Geler: إن العرب السبئيين استطاعوا أن يصلوا بتجارتهم إلى الصين وزاروا أماكن مختلفة فى الفلبين مثل Porague. polawen ومنداناو، كالايتين ، بسايا ، مندورو ، ولوزن ويعلق على ذلك بأن هؤلاء العرب لم يكونوا مسلمين وإنما كانوا تجارا وليسوا هداة دينيين .

ومن هنا ندرك أن العرب القدماء ـ قبل مجىء الإسلام ـ قد انتشر نشاطهم وركبوا فى سبيل تجارتهم البحر حتى وصلوا إلى أقصى المشرق فى جزر الفلبين مثل منداناو ولوزون واثبتوا مهارة تجارية وبحرية فى الزمن القديم.

(ب) دخول الإسلام إلى الفليبين .

يذكر المؤرخ السابق أن المسلمين الذين وصلوا إلى جنوب شرق آسيا وحملوا الدين الإسلامى معهم كانوا من سلالة السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم يبين أنه بمصاهرة الأسر الحاكمة الوطنية

---

(1) Pag 41 philippine. Political and Culturel History Volum 2 - by Gregorio F. Zaide.

وبالحيل السياسية استطاعوا أن يستولوا على حكم الملايا ويوحدوا حكوماتها فى حكومة واحدة وأخذوا ينشرون العقيدة الإسلامية بهمة ونشاط ملحوظين حتى إذا كانت سنة ١٢٧٦م: وجدنا الإسلام قد أصل جذوره فى ملقا Malacca هذه المدينة التى صارت قلعة للمسلمين وعاصمة فيما بعد لامبراطورية «ما جاياهت الهندية».

ثم يستمر فى حديثه فيقول ولكن كتب المؤرخين المسلمين فى الفليبين Morr chonicles تذكر: أن المبشر العربى مخدوم أمين الله المنتصر فى ملقا وصل إلى ساحل (سولو) إحدى جزر الفليبين الجنوبية فى سنة ١٣٨٠م وابتدأ يبشر بالدين الإسلامى فى الفليبين وبعد عدة أعوام سنة ١٣٩٠م قاد «راجا بجندا» الجسور المقدام أمير منانكابن سومطرة Monankaban Sumatra جيشا من المسلمين فتح به سولو واستطاع بسهولة أن يستولى عليها لأن جنوده كانوا يستعملون البنادق التى كانت تستعمل لأول مرة فى الفليبين.

وفى سنة ١٤٥٠م وصل إلى سولو أبو بكر المسلم قائد Palanbong Sumatra وتزوج Poramisuli بنت «راجا بجندا» وبعد موت راجا بجندا تولى أبو بكر الحكم وأقام سلطنة سولو وأعلن نفسه سلطانا عليها، وقد شكل السلطنة على نظام السلطنة العربية معطيا لنفسه كل اختصاصات الخليفة، وكان نظام حكمه مستمدا من القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية وبذلك استطاع أن ينشر بين المواطنين عادات وتقاليد جديدة مستمدة من آداب الإسلام وتعاليمه، وقد مات أبو بكر سنة ١٤٨٠م بعد أن حكم ثلاثين عاما حكما ناجحا سعد فى ظله المحكومون بتعاليم الإسلام السمحة.

أما جزيرة (منداناو) ثانى جزيرة كبيرة فى الفليبين - وبها الآن أربع محافظات يقطنها المسلمون. فقد وصل الإسلام إليها عن طريق الشريف كابنسون Kabungswan قائد Johor المسلم ففى سنة ١٤٧٥م استطاع مع الجنود (السمل) الذين يسكنون فى جزر قريبة من منداناو أن ينزل إلى شاطىء محافظة (كوتاباتو) وأن ينتصر على القبائل المستوطنة هناك تلك التى استعدت لمحاربته. وقد بدأت القبائل الأصلية تعتنق الدين الإسلامى بعد انتصاره عليهم كما تزوج الشريف كابنسون أميرة من أهل البلاد تسمى Dutri Tunina وصار الأمير كابنسون أول سلطان مسلم فى منداناو.

هذا ما يذكره مؤرخ التاريخ السياسى والثقافى للفليبين.

بينما ذكر (الأستاذ نجيب صليبي) فى كتابه تاريخ سولو . ما ينفى استخدام القوة فى دخول الإسلام إلى الفلبين وأن انتشار التعاليم الإسلامية بها واعتناق السكان الأصليين لها قد سبق قيام الحكم الإسلامى فيقول[١] وقد أثر فى الفترة من سنة ١٣٨٠م إلى سنة ١٤٥٠ اثنان مشهوران هما مخدوم ، وراجا بجندا . ومخدوم كان قاضيا عربيا وأستاذا وصل إلى « ملقا » فى نصف القرن الرابع عشر حيث استطاع أن يجعل سلطان « ملقا » محمد شاه يعتنق الإسلام ويقيم تعاليمه فى أنحاء مملكة ملقا . واستمر تأثير مخدوم مشرقا إلى أن وصل إلى سولو ومندانا وفى سنة ١٣٨٠ زار معظم جزر الأرخبيل وجعل كثيرا من الناس يعتنقون الإسلام فى كثير من الأماكن ؛ وتدعى جزيرة سيبوتو أن بها قبره ولكن الأماكن التى كان نجاحه فيها « هرا هى » بونسا ، حيث تمكن بمساعدة رؤساء القرى الذين اتبعوه أن يقيم بها مسجدا .

وقد نجح مخدوم فى الوعظ والتبشير بالدين الجديد بين الناس الذين اشتهروا بالاستقلال فى آرائهم والعناد فى ممارسة دينهم وعقائدهم وعاداتهم كما هو معروف ومشهور عن أهل سولو ، وقد ألقى نجاحه فى التبشير بالإسلام فى تلك البقاع ضوءاً جديداً على تاريخ الإسلام فى الفلبين حيث عدل الرأى السائد بأن الإسلام دخل الفلبين بالسيف ، كما كان لتعاليمه تأثير كبير على أهل سولو الذين يصعب التأثير عليهم لتمسكهم بحريتهم وشجاعتهم المنقطعة النظير ولقد لقيت تعاليم الإسلام فى أهل سولو تربة صالحة لها .

ويستمر مؤلف تاريخ سولو فيقول : وفترة بعد مخدوم « سلسلة النسب فى سولو تقول عشر سنوات » قدم إلى سولو أمير من منتمكابن[١] يسمى راجا بجنداً[٢] - ويقال إنه وصل إلى سمونجا و باسيلان قبل وصوله إلى سولو ، وأنه تابع الأصول الشمالية التى تقود من (برينو) إلى (كاجيان سولو) ، (وبانوتارن) ، (وسمونجا) وعندما وصل إلى بونسا خرج أهل سولو ليقاتلوه كما هو متوقع عادة ولكن « Tarsila »[٣] تستمر لتوضح أنه كان مسلماً لذلك كفوا عن القتال ودعوه ليقيم معهم كما أكرموا استقباله - وقد كان راجا بجندا مصحوبا بوزرائه ولا شك أنه قدم إلى بونسا ليقيم ويحكم وكان بجيشه

---

(١) pag 14 History of sulu by Nageeb Saleeby Manila 1963

(١) منتكابن : منطقة غنية ومتقدمة فى وسط سومطرة وقدم منها كثير من الأسر الملايوية .

(٢) وراجا : اللقب العادى لكل ملوك الملايا .

(٣) سلسلة نسب سولو .

نوعا من الغارات الطبيعية التي وضح نجاحها . كما ذكرت Tarsila مندانار : أن الشريف (كابنسوان) قد وصل إلى مندناو بسلام كما وصل راجا بجندا ، وبذلك اتفق المؤرخون الوطنيون في سولو ومندناو على أن إقامة الحكم الإسلامي في سولو على يد « راجا بجندا » وفي مندناو على يد « الشريف كابنسوان » كان بطريق سلمي ولم يستعمل فيه السيف أو القهر والقوة .

والحق أن عمل التجار المسلمين والمبشرين والدعاة - كما هو ثابت على القبر الموجود في جبل داتو القريب من هولو والذي توفى صاحبه سنة ٧١٠ هـ - قد سبق إقامة الحكم الإسلامي ومهد له الطريق منذ مطلع القرن الثالث عشر أو قبل ذلك إلى حين وصول راجا بجندا سنة ١٣٨٠ م حيث وجد شعباً مسلماً في حاجة إلى قائد فكان هو القائد المنتظر الذي أقام حكما إسلامياً دون أن تراق فيه دماء إنما هو إقامة لحكم إسلامي بين قوم مسلمين .

ومن سولو ومندناو انتشر نور الإسلام وعمت تعاليمه بين البسايا وغيرها من جزر الفلبين كما تأصل في جزر مندور وبانتجس وأقيمت إمارات وممالك في وسط وشمال الفلبين ففي سنة ١٥٧١ كانت مانيلا - عاصمة الفلبين الآن - ما زالت مملكة مسلمة تحت قيادة راجا سليمان - ملك فلبيني مسلم - كما كانت في لوزن عند نهر Pasig River Tondo مملكة إسلامية أخرى تحت حكم الملك المسلم Laken Dula .

« ملاحظة » :

زرت في فبراير سنة ١٩٦٥ مع الحاج عبد العزيز عمر مؤسس كلية مسلمي الفلبين في هولو قبر المبشر الإسلامي مخدوم أمين الله في قمة جبل أغد (ومعناه الجبل التابع) ويرتفع حوالي ٢٠٠٠ قدم وما زال هناك إلى الآن خادم يعتني بقبره ويوقد عليه البخور كما يضع الناس عليه دائما قماشا أبيض ، وحول القبر كثير من القبور الأخرى التي يقولون عنها : إنها لأتباعه ولا توجد كتابة على هذه القبور .

أما في جبل (داتو) الذي يجاور الجبل السابق ويرتفع حوالي ١٨٠٠ قدم فيوجد فيه قبر كتب عليه باللغة العربية « من مات غريباً مات شهيداً هذا قبر الشهيد تمهار وأنه مات في شهر رجب المعظم سنة ٧١٠ هـ أي منذ سبعة قرون » .

الأسبان والمسلمون في الفلبين :

علمنا من حديثنا السابق أن الإسلام بدأ ينتشر من جزيرة مندناو وسولو جنوبا إلى أن وصل إلى جزيرة لوزون في الشمال

حيث كان يحكمها الملك المسلم « راجا سليمان » ولكن وصول الأسبان بقيادة ماجلان إلى الفلبين كان عاملا على وقوف المد الإسلامى ووقوع الصدام بين الإسلام والمسيحية فى جنوب شرق آسيا فقد قامت معارك دموية بين الملك راجا سليمان والأسبان فى سنة ١٥٧٠ ، وسنة ١٥٧١ م . ولم تكن الحرب من أجل كفاح سياسى بين الأسبان الفرسان وبين المحاربين الفلبينيين للاستيلاء على حكم الوطن فحسب ؛ بل كانت أيضاً حربا صليبية بين الصليب والهلال - الذى ما زال يتمسك به بعض الحكام الوطنيين من المسلمين فى أعلامهم إلى الآن - لتحقيق السيادة الدينية .

وقد كان انتصار الأسبان على المحاربين من المسلمين بقيادة راجا سليمان قرب مانيلا انتصارا للمسيحية على الإسلام فى شمال الفلبين . فتوقف المد الإسلامى إلى جميع الأجزاء الشمالية من الفلبين ، كما ترتب على انهزام المسلمين فى (لوزون) انكماش الرقعة الإسلامية إلى جزر سولو ومنداناو فى الجنوب حيث استقر الإسلام فيها إلى الوقت الحاضر حيث استطاع أن يحمى نفسه فيها إبان الاحتلال الأسبانى والأمريكى أكثر من ثلاثة قرون وأربعة عقود سعى خلالها الأسبان والأمريكان بجد ونشاط لكى يزحزحوه من قلوب وعقول معتنقيه ولكن دون جدوى .

ذلك لأن الهداية العظمى التى أثرت بها الحضارة العربية فى الفلبين هى الإسلام الذى لا يزال دينا للأهالى فى منداناو وسولو . فمع مجىء هذا الدين أتى نوع جديد من نظام الحكم وهو نظام السلطنة وكذلك جاءت الحروف العربية التى لا تزال تستعمل فى كتابة الفن والعلم وتنقش على الأسلحة هناك .

وقد أثرت الحضارة العربية الإسلامية فى القانون والتاريخ والأدب . فالمسلمون فى جنوب الفلبين لا يزالون يستعملون التاريخ العربى ويتحاكمون حتى اليوم إلى القانون المأخوذ من القرآن ، كما قد تأثر أدبهم بالأدب العربى وبخاصة القصة مثل : (ألف ليلة) وكذلك كثير من الكلمات فى لغة سولو ومنداناو عربية مثل دنيا - كتاب - مدرسة - قاض - عقل شريعة حتى (التجالج) لغة الشمال يوجد فيها كلمات عربية مثل خطاب Sulat .

وصول الأسبان إلى الفلبين :

وقد ابتدأ وصول الأسبان إلى الفلبين فى ١٧ مارس ١٥٢١م حين وضع (ماجلان) قدمه على أول أرض فى الفلبين وكان ذلك فى جزيرة غير مسكونة جنوب جزيرة سمر تسمى Homonhon وقد حضر إلى الجزيرة بعض الفلبينيين فأعطاهم ماجلان بعض الهدايا وأعطاه الفلبينيون بعض الأطعمة وفى ٢٥ مارس أبحر ماجلان نحو الجنوب

الغربى فوصل إلى جزيرة ليماساوا فى ٢٨ مارس حيث وجد مملكة تحت حكم راجا Kolombo واستطاع ماجلان أن يتحادث مع الملك بواسطة عبد له مترجم اسمه Enrigue من الملايا وقد أعلن كلاهما صداقته للآخر وفى ٢٨ مارس أعلنا اتفاقا دمويا بينهما وهـــذا هو أول اتفاق فلبينى أسبانى فى التاريخ .

وبهذه المناسبة أقام الأب Pedrode valderroma حفلة على شاطىء جزيرة Limoswa حضرها الملك Kolombo وماجلان ورجاله لكى يعلنوا هذه الحادثة التاريخية ، وهى وصول الأوربيين إلى الفلبين ، وقد زرع ماجلان شجراً على الجبل وأقام صليباً وانحنى له وكذلك فعل الملك ، وقد ساعد جنود الأسبان رجال الملك فى حصاد أرزه وبعد ذلك صاحب الملك الحملة إلى جزيرة سيبو . وفى ٧ إبريل ســـنة ١٥٢١ وصل ماجلان إلى شاطىء جزيرة سيبو ، واستعد لخوض معركة حربية ، فأطلق مدافعه التى سببت ذعراً وخوفا شديدا للناس ، وأرسل ابنه مع المترجم Enriguo يقول لملك سيبو راجا Homaban الذى كان رئيسا لثمانية قبائل و ٢٠٠٠ فارس بالرماح : إن سيده قائد لأكبر ملك فى الدنيا وأنه حضر لكى يكتشف Molucha ويريد أن يزوره لما سمعه عنه من سيرة طيبة وليشترى طعاما من التجار فأظهر الملك رغبته فى استقباله ولكن بشرط أن يدفع ماجلان الضريبة التى تدفعها سفن التجار الذين يدخلون الميناء ، وبعض هـذه السفن لدول أجنبية مثل سيام .

ولكن ماجلان رفض أن يدفع الضريبة ، وتدخل ماجا كولامبو ونصح ملك سيبو ، وبين له الرغبة الطيبة الأسبان فتنازل الملك عن طلب الضريبة ، وترك ماجلان ينزل إلى شاطىء سيبو . وفى ٧ إبريل سنة ١٥٢١ : احتفل أهل سيبو وماجلان ببداية الصداقة بينهما ، وكانت سيبو فى ذلك الوقت مدينة اقتصادية لها صلاة تجارية مع الجزر الأخرى وشرق الهند وسيام والصين ، كما كان أهلها يرتدون الملابس والحلى ولهم منازل ويحكمهم قانون ولهم صناعة وتجارة وميزان وقياس ويستخدمون كثيرا من آلات الموسيقى والطرب ، كما كان لهم رقصهم وذهبهم الشرقى مما يدل على تقدمهم الحضارى .

وقد بذل ماجلان جهداً كبيرا لكى ينشر المسيحية بينهم وبين لهم مزاياها ، وبسرعة اعتنق ملك سيبو وأتباعه المسيحية وتنصر فى ١٤ إبريل سنة ١٥٢١ حوالى خمسمائة من أهل سيبو وكان من بينهم الملك وأسرته وكذلك راجا Kalmbo وقد أقيم صليب كبير على الشاطىء حتى بلغ عدد المتنصرين ثمانمائة من رجال

ونساء وأطفال وبعد عدة أيام طلب ماجلان من أهل سيبو أن يحرقوا أصنامهم pgon idols كما وعدوا عندما تنصروا ولكنهم رفضوا ذلك لأنهم ما زالوا يقدمون الضحايا لأجل أن يشفى الصنم أخا الملك أشجع وأحكم رجل فى الجزيرة والذى كان قد شعر بمرض خطير منذ أربعة أيام ، ولكى يحمى ماجلان عقيدة المسيحيين الجدد ذهب إلى الرجل المريض ونصره وأسرته وعالجه وبعد خمسة أيام من العلاج شفى الرجل المريض ففقد الناس ثقتهم فى الصنم وأشعلوا فيه النار

لابولابو يقاوم الأسبان ويتحداهم :

وبوحى من النجاح الأولى الذى لاقاه ماجلان فى سيبو أمر كل القبائل فى سيبو والجزر المجاورة أن يعترفوا بملك سيبو Homobon كملك لهم ويقبلوا يده علامة على الطاعة ولكن حاكما فلبينيا مسلما شجاعا وهو لابولابو ملك - Makton - جزيرة صغيرة بجوار سيبو - رفض بإباء أن يفعل ذلك وقاوم الأسبان فأرسل ماجلان رجاله وأحرقوا القرى هناك ؛ ولكن ذلك لم يخف لابولابو أو يحمله على التسليم والخضوع وفى ٢٦ إبريل سنة ١٥٢١ جاء ابن الملك Zula وهو ملك آخر فى جزيرة Makton إلى سيبو بهدايا ورسالة يطلب فيها المساعدة ضد لابولابو فوعده ماجلان بالمساعدة . وفى فجر ٢٧ أبريل هاجم ماجلان جزيرة (مكتن) بقوة مكونة من ستين فارسا أسبانيا فى ثلاث سفن وألف مقاتل من حلفائه أهل سيبو يركبون ثلاثين سفينة محلية ، وأحب ماجلان أن يظهر شجاعة جنوده لملك وأهل سيبو فقال لهم امكثوا فى سفنكم وانظروا كيف يحارب الأوروبيون . وقبل أن يبدأ الحرب أرسل رسالة إلى لابولابو ليعطيه فرصة أخيرة للسلام ، وطلب منه الاعتراف بسيادة الأسبان ودفع الجزية ، وأجاب لابولابو بجرأة أنه لا يخضع لأى ملك ولا يدفع الجزية لأية قوة وإذا كان العدو يملك رماحا فنحن نملك رماحا أيضا وشعلا نارية . وقد أخذ ماجلان من رجاله تسعة وأربعين رجلا وترك أحد عشر رجلا يحرسون السفن وعندما وصل الغزاة إلى الشاطىء رأوا لابولابو مع جنوده ينتظرون عددهم وقد اصطفوا ثلاثة صفوف ، فأطلق جنود ماجلان نيرانهم أولا ولكن بنادقهم لم تظهر تأثيرا فى أهل مكتن الذين هبوا مسرعين ليحموا حريتهم ووطنهم وصاحوا صيحة الحرب وشرعوا رماحهم وسهامهم وعصيهم النارية والحجارة .

موت ماجلان :

وقد أمر ماجلان بعض رجاله بحرق بيوت أهل مكتن ليخيفهم فيذعنوا له ولكن ذلك

أتى بنتيجة عكسية لأنهم عندما رأوا منازلهم تحرق ضاعفوا شجاعتهم وهاجموا المغيرين بجرأة وبسالة أدت إلى رجحان كفتهم فلما رأى ماجلان أن النجاح ليس فى صفه أمر رجاله بالانسحاب وأحس بالهزيمة، إذ اشتد الهجوم من كل جانب فوقف ماجلان على الشاطىء وحارب بشجاعة ليحمى رجاله فى عملية الانسحاب إلى السفن ولكن سهما مسموما جرحه فى فخذه اليمنى وطارت قبعته من رأسه، وجاءت حربة فأصابته فى وجهه فحاول أن يأخذ سيفه فعجز عن ذلك لأن حربة أخرى جرحته فى زراعه اليمنى وجاء رجل من مكتن وقطع رجله اليسرى فسقط على الأرض وانقض عليه آخر وقتله بحربته وسيفه، وبذلك مات (ما جلان) كما مات معه ثمانية من الأسبان وأربعة من أهل سيبو وكانت خسائر أهل مكتن خمسة عشر رجلا.

لابولابو هازم ماجلان :

وظهر يوم المعركة أرسل ملك سيبو إلى أهل مكتن رسالة عارضا عليهم أى ثمن لكى يسلموا إليه جسد ما جلان، فأجاب أهل مكتن أنهم سوف لا يسلمون إليه ما جلان ولو دفع كل ثمين فى العالم ولكنهم سوف يبقون جسده للذكرى، وحتى الآن لا أحد يعرف أين جسد ما جلان وإن كان يوجد الآن متحف لذكرى مقتل ما جلان قريبا من المكان الذى مات فيه، وقريبا من هذا المتحف يوجد متحف آخر فى قرية Opon Macton يحمل ذكرى لابولابو البطل الشجاع المسلم هازم ما جلان.

إن انتصار لابولابو فى مكتن كان صدمة وكارثة للأوروبيين، فهذا أول نجاح للدفاع عن استقلال الفلبين ضد الاستعمار الغربى وأول نصر سجله الجيش الفليبينى على قوى الغرب بفضل لابولابو أول بطل يسطع فى التاريخ الملايوى ويهزم ما جلان هازم البحار.

وبعد موت ما جلان اختار رجاله اثنين خليفة له، أما ملك سيبو وسكانها فقد فقدوا ثقتهم فى الشجاعة النادرة التى كانوا يرونها للرجل الأبيض، وحتى الأسبان أنفسهم الذين يفاخرون بشجاعتهم قد تخلوا عن هذا الفخر الكاذب.

محمد محمد شنا نديتوره
مجمع البحوث الإسلامية

ما يقال عن الإسلام

تاريخ الإسلام فى العصر الوسيط "للأستاذ ساندرز"

تعليق للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

A History of Medieval Islam

By : Saunders — London, 1965

المفروض أن هذا الكتاب علمى (أكاديمى) أو هكذا يوحى مظهره ، من جهة طباعته، والدار التى صدر عنها ، وعنوانه : (تاريخ الإسلام فى العصر الوسيط) ومؤلفه الأستاذ ساندرز ، صدر بلندن سنة ١٩٦٥ .

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو وجه الحاجة إلى مثل هذا التأليف فى الوقت الحاضر على الرغم من وجود عدد من الكتب تبحث موضوع الإسلام فى العصر الوسيط ، وقد نشرت: إما بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية فهل جاء صاحب هذا الكتاب ، الأستاذ ساندرز بجديد ، وهل له تفسير جديد لهذا التاريخ ؟ ولأمر ما تحتضن دور النشر الكبيرة المحترمة هذه الكتب وأمثالها . وهذا الكتاب من منشورات (روتلدج وكيجان بول) فى لندن وهو من أهم دور النشر الرصينة .

الجواب عن هذه الأسئلة يوضح حقائق كثيرة ينبغى أن يتنبه لها القارئ المسلم ، فلا ينخدع بما جاء فى الكتاب من بحث يكتسى رداء العلم .

ولكتابة التاريخ طرق كثيرة مختلفة ، أقدمها طريقة الحوليات التى سادت فى الزمن القديم ، وهى تجرى على سرد الحوادث متتابعة زمنياً عاما بعد آخر .

وبرز فى الوقت الحاضر المنهج الحضارى الذى يرسم مسيرة الحضارة فى أمة أو عدد من الأمم ، من ارتفاع وانخفاض ، وازدهار وزوال ، بحيث تكون الحوادث الحربية والسياسية جزءاً من الحضارة ، مع توضيح عوامل التقدم أو التأخر الحضارى .

وقد ظهرت فيما يختص بالتاريخ الإسلامى طريقة جديدة يسلكها بعض المؤلفين الغربيين وهى إبراز الصراع بين الإسلام من جهة وبين المسيحية من جهة أخرى ، وأن هذا الصراع بدأ منذ ظهور الإسلام حتى اليوم حاداً بين الديانتين الإسلامية والنصرانية ،

انتهى بمد وجزر فى فترات مختلفة من القرون الأربعة عشر التى عاشها الإسلام .

ولو كانت الروح التى أملت على المؤرخين هذا المنهج هى الروح العلمية المتجردة من الهوى دون تحيز إلى إسلام أو نصرانية ، لكانت النتائج المترتبة على اتباع هذا المنهج مقبولة ، ولكن الواقع يختلف عن ذلك لسببين ، الأول أن المؤرخ لا يمكن أن يتجرد من هواه الدينى ، والثانى أنه يتعمد عامداً متعمداً أن يكون صاحب هوى .

إن مؤرخى أوربا وأمريكا يتعمدون اتباع هذا المنهج لينفخوا فى نفوس أبناء وطنهم نار العصبية الدينية ، ويؤلبوهم على الشعوب الإسلامية ، ولذلك ما تزال هذه الكتب تكتب بروح صليبية ، والحق أنك حين تقرأ كتاب الأستاذ ساندرز فإنك تشهد مؤرخا كأنه فى ملعب كرة قدم يسجل لعبة بين فريق المسلمين وفريق المسيحيين الذى يتحيز له دون أن يخفى تحيزه ، فكلما أحرز المسيحيون نصرا صفق وهلل ، وكلما ظفر المسلمون بنصر أبدى أسفه على ذلك .

الغرض إذن من هذا الكتاب هو إذكاء نار الحماسة بين أبناء أوربا وأمريكا ضد العرب والمسلمين ، فى حربهم الصليبية العدوانية على الشرق ، وبخاصة الشرق الأوسط ، واتخاذ الدين ستاراً يخفى وراءه هذه الأهداف الاستعمارية .

يشبه مؤلف الكتاب المسلمين عند ظهور الإسلام بالبرابرة الذين غزوا أوربا الرومانية وأسقطوا حضارتها . فى بداية الفصل الثالث (ص ٢٩) يقول : « وبنظرة عامة يمكن أن نتمثل الغزوات العربية وكأنها تشبه الغزو الجرمانى الذى أسقط قوة روما فى ممالك أوربا الغربية . فى كلتا الحالتين تشتتت الجيوش الامبراطورية مع هجمات « العدو البربرى » وانتزعت من الامبراطورية أراضيها الواسعة التى ظهر فيها نظام جديد على أنقاض نظام اجتماعى بال . ولقد كان هناك فارق أساسى بين هاتين الغزوتين على الحضارة اليونانية الرومانية . ذلك أن الجرمان دخلوا العالم الرومانى إما وثنيين كالفرنجة والأنجلوسكسون ، وإما مسيحيين كالغوط والوندال وتجمع هؤلاء جميعا آخر الأمر فى يد الكنيسة الكاثوليكية . وتعاون الرومان والتيوتون ، وهم المغلوبون والغالبون على تكوين المجتمع المسيحى فى العصر الوسيط . أما العرب فإنهم لم ينقضوا على الامبراطورية وثنيين أو مسيحيين ، بل أتباعاً لدين جديد وضع سداً بينهم وبين خصومهم لا يمكن اجتيازه ، وهو اللغة العربية التى رفعها النبى إلى أعلى مرتبة لأنها لغة الوحى ، فانتصرت على كل لسان آخر فى كل أرض ساد فيها الإسلام . وظهرت حضارة إسلامية جديدة ، وبرز نموذج جديد

من المجتمع ، حضارة ومجتمع يتحديان عقائد العالم المسيحي وقيمه » .

ولقد كان الفرس على حضارة كذلك ، ومع ذلك فلا تجد من المؤلف مثل هذه المواجهة ، ومثل هذا الأسى . وقد نسى المؤلف أن العرب لم يكونوا « برابرة » بل كانوا مؤمنين أتقياء عدولا حرروا الامبراطورية من الاستعباد الاقتصادي والديني

يقع الكتاب في اثنى عشر فصلا ، الأول : وصف الجزيرة العربية وجيرانها ، والثاني : الرسول، والثالث: الغزوات الأولى، والرابع: الحروب الأهلية ، والخامس: الامبراطورية العربية، والسادس: الثورة العباسية، والسابع: ضعف الخلافة، والثامن: الفرقة الإسماعيلية ، والتاسع: نفوذ الأتراك، والعاشر: رد فعل العالم المسيحي ، والحادي عشر : نكبة المغول ، والثاني عشر: حضارة الإسلام في العصر الوسيط

هذه الفصول ليست مفصلة ، لأن الكتاب كله عبارة عن مائتي صفحة أو تزيد قليلا ، فهي إذن أشبه بنظرات عامة ، أو استعراض سريع للقوى المختلفة التي ظهرت على المسرح السياسي في التاريخ الوسيط . الفصول الأولى حتى الفصل الرابع تمثل ظهور الإسلام وانتشاره في عهد الرسول والشيخين أبي بكر وعمر ، ثم النزاع على الحكم وما ترتب عليه من فتن وحروب أهلية وبخاصة في خلافة (علي) . وإلى هنا يسدل الستار عن الفصل الأول من مسرحية تاريخ الإسلام . ويرفع الستار مرة أخرى عن فصل آخر هو تكوين الامبراطورية العربية على يد الدولة الأموية ، ثم ثورة العباسيين وتكوين الخلافة العباسية التي بدأت قوية الشوكة ثم أخذت تتفكك إلى دويلات ، ويضعف الخليفة في بغداد ولا يصبح له سوى نفوذ اسمي .

إلى هنا يمضي تسلسل الحوادث بشكل طبيعي ، غير أن المؤلف يعترض هذا التسلسل ، فيعقد فصلا خاصا عن الفرقة الإسماعيلية تعد في واقع الأمر نغمة شاذة في هذا اللحن التاريخي . حقاً كان الفاطميون إسماعيلية ، ظهروا في شمال إفريقية ومنها فتحوا مصر ، وأنشأوا القاهرة والجامع الأزهر، واستمر حكمهم زمنا ، بدأ مزدهرا قويا على يد المعز لدين الله ، ثم تدهور في آخر دولتهم إلى أن انقرضت . ولكن المؤلف يحاول أن يربط بين هذه الدعوة الفاطمية وبين دعوات أخرى ظهرت في المشرق الإسلامي ، مثل القرامطة والحشاشين وغيرهم . إنه يسمى هذه الدعوات « ثورة » على الإسلام ، استقلت بكثير من الولايات الإسلامية عن الحكم السني ، « وهزت العالم الإسلامي من أساسه ، ويسرت للعالم المسيحي فرصته الأولى الجدية في استعادة بعض أرضه

المسلوبة ، وإعادة بعض النفوذ فى البحر الأبيض » (ص ١٢٥) .

لم تكن إذن الثورة الإسماعيلية فى صالح العالم الإسلامى ، ولكنها ، كما أفصح المؤلف ، تخدم أغراض المسيحيين ، وقد نص على ذلك حين أوضح أن المسيحية استطاعت أن تستعيد بعض الأرض والنفوذ . الحق أن الدعوة الشيعية من أساسها يحوطها الغموض ، وقد سجل التاريخ قصة عبد الله ابن سبأ اليهودى الذى كان يدعو إلى (على) فى حياته ويزعم أنه إله ، وغلا فى شأنه ، حتى اضطر على إلى القبض عليه ونفيه . والإسماعيلية وما شابهها من فرق ، تعد بما تتخذه من دعوة باطنية سرية ، وتعاليم مستورة ، خارجة على الإسلام وسببا فى هدمه. من أجل ذلك نجد المستشرقين يحفلون بهذه الدعوة ، ويتتبعون تاريخها ، ويؤيدون تعاليمها ، ويضعونها مع أهل السنة وهم الغالبية العظمى من المسلمين فى مستوى واحد .

وأخطر من هذا كله أن المؤلف يعلنها صراحة أن الإسلام ليس دينا سماويا . هذا مع العلم أن بعض المستشرقين فى الوقت الحاضر قد عدلوا من موقفهم وأخذوا يعدون الإسلام دينا والقرآن كتابا . يقول المؤلف (ص ١٩) : « أما دعوى (رينان) أن الإسلام كان الدين الوحيد الذى ولد فى ضوء ساطع من التاريخ ، فقضية لا يمكن تأييدها لأننا لا نملك اليوم شاهدا معاصرا على ذلك . إن معرفتنا بمحمد مستمدة من القرآن ، ومن الحديث ، ومن السيرة . وفيما يختص بالقرآن فلا يوجد أى باحث غير مسلم يشك فى أن القرآن من تأليفه الشخصى his personal composition ، وأنه الوحى الذى زعم أنه تلقاه من عند الله خلال العشرين سنة الأخيرة من حياته » . فالقرآن فى نظره ليس مصدراً يرضى عنه لحياة الرسول . أما السنة فهى كما يقول : « إن إقامة حياة الرسول على الحديث كمن يبنى هذه الحياة على الرمال » (ص ٢٢) . وبهذا هدم صحة الحديث بجرة قلم .

الأعجب من ذلك أنه يعتمد على السيرة كمصدر تاريخى له قيمة أعظم ويمكن الاعتماد عليها أكثر ، بحجة أنها تقدم لنا سيرة كاملة عن محمد فى صورة خبرية .

وليس لنا أن نناقش مثل هذا المؤرخ الذى يعجز عن التمييز بين المصادر التاريخية الثابتة الصحيحة ، وبين المصادر غير الثابتة أو التى تقل درجة صحتها . وكيف يجرؤ عالم باحث فى القرن العشرين على الشك فى صحة القرآن مصدراً لحياة الرسول ، وقد انتهى معظم المستشرقين إلى هذه النتيجة ، بل إن بعضهم رفض كل مصدر آخر ولم يعتمد سوى

القرآن كافعل الأستاذ (بلاشير) مثلا، وغيره.

هذا الكاتب - إذن - إما جاهل، وإما مضلل، وإما أنه يجمع بين الجهل والتضليل.

فن أمثلة جهله قوله: إن محمدا ولد بين سنتى ٥٧٠، ٥٨٠، ولو كان عالما متثبتا لقال: بين ٥٧٠، ٥٧١. وإن محمداً لم يكن ينتمى إلى الطبقة (الأرستقراطية)، أو «الملأ» فى قريش، بل إلى قبيلة أقل فى مستواها الاجتماعى، وهى قبيلة بنى هاشم. والذين لهم أدنى إلمام بتاريخ العرب يعلمون منزلة بنى هاشم فى القبائل العربية ومبلغ شرفها.

ومن أمثلة الجهل الفاضح مع الافتراء والتضليل قوله (ص ٢٥): «ومن آلهة العرب ثلاث: اللات والعزى ومناة. وقد أعلن النبى فجأة أنه تلقى وحيا يجيز عبادتها. وبعد فترة قصيرة اعترف أن الشيطان خدعه، وجعله ينطق بهذه الآيات التى نسخها بوحى صحيح يؤيد وحدانية الله». ولو كان عند هذا المؤلف أدنى علم بالتاريخ الإسلامى والديانة الإسلامية، لعرف أن النبى عليه الصلاة والسلام «ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى». وأنه عليه الصلاة والسلام عصم من عبادة الأصنام التى عليها العرب فى مكة طيلة حياته، وأنه قبل نزول الوحى والرسالة كان يتحنث ويتعبد على طريقة الحنفاء.

ونحن لا ندرى (هوية) المؤلف الدينية أهو مسيحى أم يهودى، ولكن عبارات المديح والثناء التى نظمها لليهود، والعبرات التى سالت على قلمه حين كتب عن طردهم من الجزيرة العربية بعد سقوط خيبر فى حياة الرسول، كل ذلك يفضح ولا شك هويته الصهيونية. وإليك نص هذا الرثاء:

«وهكذا طويت صفحة تراجيدية فى تاريخ اليهود بالجزيرة العربية، صفحة شعب التمس ملاذا فى أرض جدباء من اضطهاد البابليين أو الرومان. وهو شعب على الرغم من إبعاده عن التيار الرئيسى لليهودية، ظل محتفظا بطهارة الإيمان، وأسهم بنفوذه الصامت مؤيدا بالنصرانية فى القضاء على آلهة العرب القديمة، ولقد تأثر محمد إلى الأعماق بتاريخهم القديم، ودينهم، وأسفارهم المقدسة، وشعائر عبادتهم... الخ» (ص ٣١).

ومن هـــذه العبارات ينكشف تحالف الصهيونية مع الاستعمار فى تشويه حقائق الإسلام.؟

أحمد فؤاد الأهوانى

الكتب

الإسلام والعقل

للدكتور عبد الحليم محمود

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

هذا الكتاب على إيجازه ، يعرض لقضايا ذات أهمية بالغة فى الفكر الإسلامى ويناقش مسائل من الفلسفة والعلم يحتاج استيفاء القول فيها لمطولات واسعة .

ولكن الهدف الأصيل الذى جعله المؤلف فى كتابه هذا أمام عينيه : أن يقنع القارىء بحقيقة كبيرة هى أن الدين بطبيعته يعتمد على التقديس ويخاطب فى الإنسان حاسة روحية ، والتعويل على العقل فى هذا المجال أو إلقاء الزمام إليه يؤدى بالإنسان إلى متاهات تجنبه طريق الصواب .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى قسمين: القسم الأول فى الفلسفة ويحوى أربعة مباحث : القرآن هاد العقل ، موقف المسلم من الدين وقد جعل له عنوان « السجود » ، الإمام الشافعى والفكر اليونانى ، ثم إخفاق الفلسفة .

والقسم الثانى فى علم الكلام وفيه فصول ثلاثة : الفلسفة وعلم الكلام - علم الكلام الراهن - علم الكلام فيما ينبغى أن يكون .

ومباحث الكتاب كما ترى طريفة ، يمتزج فيها المألوف بالجديد ، أو أنها مسائل من العلم القديم تحمل الطابع الذاتى للمؤلف الذى درس الفلسفة فى باريس بعد أن استكمل ثقافته الإسلامية فى الأزهر الشريف .

وقد كنت أحب أن أكتفى فى هذا المجال بعرض فكرة الكتاب أو تلخيص آرائه ، ولكنى وجدت فى الكتاب بعض اللمحات الموجزة التى تحوى أحكاما صارمة أو آراء

قد يعسر فهمها على أصحاب الثقافة الإسلامية المحدودة ، أو يتمكن من تأويلها على غير وجهها ذوو الأغراض السيئة .

ومن هنا آثرت أن أشير إليها مبديا الرأى أو مستفقهاً الصواب .

١ — فى الفصل الأول أراد المؤلف أن يحدد مفهوما جديداً لصلة الإسلام بالعقل غير المفهوم الذى يردده كثير من الدعاة فى العصر الحديث وهو أن القرآن كتاب العقل ، وأنه دعوة لتحرير العقل من قيوده ، فذكر المؤلف حدود الصلة بين الإسلام والعقل وبعد أن بين أن الدين جاء هادياً للعقل فى مسائل معينة ، هى ما وراء الطبيعة ، والأخلاق والتشريع ، وأن القرآن لا يناقض العقل ولا يعسر عليه فهمه ، ذكر أن القرآن نزل فى حقيقة الأمر ليقود الإنسانية نحو الكمال الروحى ... « وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع ، أو بتعبير أدق : السجود ، وهو ليس سجوداً تعسفياً أو تحكمياً ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقين بأن هذا من عند الله [1] » .

فما دام الأمر أخيراً يعود إلى اقتناع العقل بأن هذا الدين من عند الله ، فما الذى يحذره المؤلف من إعلان أن الإسلام يخاطب العقل ويستثير فيه التفكير المستقيم ، كما قال الله سبحانه : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا : ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد »[1] . إن ما يخشاه المؤلف من ذلك أن يقال: إن الإسلام قد جعل العقل حكما على الدين : « وينتهى ذلك لا مناص بأن يكون العقل هو القائد وليس الدين ، وذلك قلب للأوضاع وانحراف عن الصراط المستقيم »[2] ، ويرى المؤلف أيضاً وما يراه حق : « أن القرآن لا يستشير الإنسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى »[3] وكل هذه المحذورات لا تتأتى من القول المذكور ، إذ أن اقتناع العقل مرحلة سابقة للإيمان وبعدها يتبع المسلم دينه ويسلم وجهه إلى ربه ، بعد أن أيقن بأن ذلك هو الحق ، وتلك خطوة يقوم بها العقل الإنسان فى كل اتجاه يتجه إليه فى حياته .

* * *

---

(١) ص ١٣ .

(١) سورة سبأ .

(٢) ص ٩ .

(٣) ص ١٤ .

ويبلغ من حذر المؤلف من التسليم بدور العقل أن يؤول الآيات التى تأمر بالتدبر والتفكير والنظر بأن المراد بذلك الاعتبار فيقول : «وكل ما ذكره من التفكير والنظر والتدبر إنما أراد به الاعتبار ، وأراد أن يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق »[1].

وهو نفس المعنى الذى يقصده من يقولون: إن الإسلام دين العقل ، دون تأويل .

ولذلك لم أر وجهاً لقول المؤلف يصف السلف الصالح : « لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ويجعلونه القائد الحكم المهيمن » [2] فإن الإخضاع يعنى تأبى النص على الفهم أو مناقضته العقل ، وليس فى الإسلام شئ من ذلك ، والآيات المتشابهة لا تمثل إلا مناطق لم يسمح فيها الوحى بالكثير من التفاصيل وليست مشاكل يقف أمامها العقل أو تعسر على الاقتناع .

والمثال الذى ذكره المؤلف تأييداً لقوله لا يمثل هذا المعنى الذى أراد ، إذ يذكر أن البراء بن عازب أخطأ فى دعاء علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به قبل نومه فقال : « ورسولك الذى أرسلت » بدلا من « ونبيك » فصححه له الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعلق الدكتور على ذلك بأن الكلمة التى أبدلها البراء بن عازب « بحسب منطقنا وعقلنا تكون صالحة ، ولكننا لا نرى بعقلنا ومنطقنا إلا الشكل الظاهر ، أما بواطن الأمور أما أسرار الكلمات ، أما حكمة الأوضاع المحددة ... فإننا لا نصل إليه بمنطق البشر » .

إن كل ما هناك أن الدعاء الذى علمه الرسول البراء بن عازب قطعة مختارة من أدب النبوة العالى ، ويمكن العقل أن يدرك بيسر لماذا آثر الرسول صلوات الله عليه كلمة نبيك بدل رسولك فى هذه الجملة ، وذلك لتجنب التكرار فى كلمة رسولك وأرسلت ، ليصبح لكلمة أرسلت معنى يزيد على مجرد التأكيد اللفظى .

٢ — ويعد المؤلف فى الفصل الذى جعل عنوانه (السجود) بمعنى ترك تحكيم العقل فى الدين طائفة المعتزلة من خلفاء إبليس ، فهم فى نظره لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، فلم يسجدوا له إلا شكلا .

ثم لا يجد مناصاً من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده إنما هى مدرسة اعتزالية فى مبادئها وأصولها ، وهى مدرسة اعتزالية فى غاياتها وأهدافها ، ذلك أنها تضع قضايا

(١) ص ١٤ .

(٢) ص ١٥ .

الدين فى ميزان عقلها فتنفى وتثبت حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات[1] .

ثم يرى أن المدرسة العقلية فى الدين لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل وعبدت العقل[2] .

والمعتزلة أيا كان الأثر الذى تركوه فى التفكير الإسلامى ، كانت لهم أخطاؤهم التى أنكرها عليهم جمهور الأمة ، فى حرية عقلية وحوار استمر طويلا ، وكل مسلم يستطيع أن يدرك حساب المعتزلة من الخطأ والصواب ، ورغم ذلك فإنهم لا يتهمون فى خضوعهم لربهم أو ولائهم لدينه ، فما فعلوا ذلك إلا اجتهاداً للدفاع عن الإسلام فى عصر استشرف فيه العقل العربى للجدل وشاعت فيه الثقافات المختلفة ، ولم يعد مجرد الإذعان كافياً للإقناع ، فكان لا بد من البحث فى حقائق كثيرة ، ذلك البحث الذى حمل طابع عصرهم وتميز بخصائصه . وبرغم أخطاء المعتزلة فى التفكير فقد كانت لهم حسناتهم العديدة فى قوة الاحتجاج للدين والصد عنه أمام تيار الإلحاد والزندقة .

كذلك فإن الشيخ محمد عبده لم ينهج النهج العقلى فى البحث فى الدين إلا استجابة لحاجة عصره ، وحفاظاً على الإسلام الذى تكالبت عليه قوى الشر فى هذا العصر ، وفى الحق أن هذا الرجل قد كسب للإسلام أنصاراً ما كان يفلح معهم منهج التسليم ونبذ التفكير ، بل كانوا يجعلون من هذه الدعوة إلى الإذعان وإخضاع العقل وسيلة أخرى للصد عن الإسلام والنعى عليه .

وفى رأيى أن الشيخ محمد عبده لم يكن مفتوناً بالعقل ، ولكنه اضطر إلى ذلك السبيل فى عصر كانت الحضارة الحديثة تخايل الناس فيه بشعارات براقة من البحث والاقتناع ، باستعمال لماذا وكيف ...

وقد فقه الرجل دينه وأدرك صلابته ، وعرف أنه لا يضيق بالبحث ولا يتحرج من النقاش والاقتناع ، فجلى للأمة الإسلامية هذه الحقيقة ، وأظهر لأعداء الإسلام خاصية الإسلام الفذة ، ووقف ينافح بالحجة والدليل ، ولا نريد أن نقول : إنه لم يخطىء فى بعض جزئيات تفكيره ، أو لم يبالغ بعض الشئ فى منهجه ، ولكننا نلفت الأنظار إلى تقدير دوره أو محاسبته بظروفه وموقفه من عصره وقومه .

* * *

٣ — ومن هذا القبيل يرى الدكتور أن علماء الكلام الإسلاميين : « يعبرون عن

(١) ص ٣٢ .

(٢) ص ٣٢ .

نزعة بشرية تقحم نفسها فى الوحى بصورة تحاول أن تكون مقنعة » [١] .

والدراسة التاريخية لعلم الكلام تبين أنه نشأ كمحاولة علمية للاحتجاج على عقائد الإسلام بالطريقة التى عرفها المسلمون من دراسة الفلسفة ، وقد كان على المؤلف بدلا من النعى عليهم أن يبين لنا على وجه الإجمال موقف المسلم من كل ثقافة أو علم ينتشر فى بيئته ، هل من حقه أن يحدد موقف دينه منه ؟ أم السبيل أن يقفل على نفسه دائرة لا يسمع فيها شيئاً ولا يحس بشىء ؟

٤ — ويبقى بعد ذلك أن المؤلف يرى أنه لابد من حذف مسائل ثلاث من علم الكلام ، هى القدر ، والصفات ، ووجود الله ، ومن العجيب أنه يرى أن الإسلام لم يجئ لإثبات وجود الله وإنما جاء لتوحيده ، وأن « الآيات الكثيرة التى يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود فليست من ذلك فى قليل ولا كثير » [٢] .

وأن نهج إثبات وجود الله عقلياً منهج وثنى ، وهو الذى أتاح الانحراف الكامل ، أى إنكار وجود الله ، وأن الأمة الإسلامية « قد وصل إيمانها إلى درجة يشبه أن يكون معدوما ، وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثنى فى بحث قضايا الدين ومبادئه ... » .

وهذه معركة جديدة يثيرها المؤلف ، حمله عليها يقينه الصادق وتصوفه العميق ، وهى لا شك دفعة عاطفية تحمد الباحث عليها ، ولكنها ليست رأيا تحمد عقباه ، إن الأمة الإسلامية قد أثبتت وجود الله سبحانه بالأدلة العقلية ، استجابة للحاجات العقلية المتفاوتة ، فمع معرفة المسلم لربه بفطرته إلا أن الأدلة العقلية تزيده إيمانا ويقينا : « أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » ، والقرآن نفسه قد استدل على وحدانية الله سبحانه بأدلة عقلية رغم بداهتها ، وصدق الشعور بها ، « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » ، كما أشار إلى إثبات الوجود بقوله : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .

وليس الإسلام بالذى يضعف الإيمان به حين يوضع موضع البحث ، بل هو كالجوهر الرقيق لا يزيده النظر فيه والتأمل فى حسنه إلا جمالا وبهاء .

وبعد : فإن كتاب الدكتور عبد الحليم محمود ، نفحة روحية ينتفع بها أهل الصفاء ، تشمله كله غيرة على الإسلام وحب له ، وحسب

---

(١) ص ٤٧ .

(١) ص ٩٦

القارئ المسلم ذلك فى كتاب يتحدث عن الإسلام

• • •

قادة فتح المغرب العربى

تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب
الناشر : دار الفتح للطباعة والنشر ببيروت
الجزء الأول ٥٠٣ صفحة .

يعرض هذا الكتاب لتاريخ الفتح الإسلامى لأقطار المغرب العربى من خلال عرضه لتاريخ قادته . .

والقصد منه - كما يقول المؤلف - أن يذكر أهل المغرب فى أقطاره كافة كيف دخلت العربية إلى بلادهم ، وكيف انتشر الإسلام فى ربوعها ، أو كيف ضحى آباؤهم وأجدادهم بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله . .

وقد بدأ الكتاب بمقدمة موجزة عن الناحية الجغرافية للمغرب العربى ، عن الموقع والسكان ، وعن الناحية التاريخية للمغرب قبل الإسلام ، وبعد ذلك اتجه إلى موضوعه ، وهو الحديث عن القادة العامين الذين تم على أيديهم الفتح الإسلامى لأقطار المغرب ، وهم : عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ومعاوية ابن حديج السكونى ، وعقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار ، وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان الأزدى ، وموسى بن نصير .

ومنهج الكتاب فى الترجمة لهؤلاء القادة : هو عرض حياة كل منهم بإيجاز ، وبيان دوره فى الجهاد ، ومنزلته فى القيادة ، وحديث التاريخ عنه ، وعرض لمحات للجوانب الإنسانية البارزة فى حياته .

والكتاب كما ترى يجمع بين جانب التاريخ والأحداث وبين جانب التراجم والتعريف ، فمن الممكن اعتباره تاريخا للفتح الإسلامى للمغرب العربى ، ومن الممكن كذلك النظر إليه على أنه تراجم لقادة هذا الفتح .

وقد سار المؤلف على المنهج العلمى فى تحليل الأحداث ونقد الروايات ، فعرضها على مقاييس الاجتماع وقوانين البيئة حتى ينتهى إلى الرأى الذى يستريح إليه ، وقد اعتنى - وهو من رجال الحرب - بتحليل أسباب النصر والهزيمة والكشف عن قوة الخطة وضعفها ، وتلك ميزة جديدة ينفرد بها بين كتب التراجم والتاريخ .

• • •

يوسف عليه السلام

لفضيلة الأستاذ عبد الحميد كحيل
وكيل الدعوة بأوقاف الجيزة
الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر

يتناول هذا الكتاب تفسير سورة يوسف

ويعرض قصته من خلال التفسير ، فهو نظرة إلى قصة يوسف بمنظار القرآن الكريم ، بعيداً عن الروايات المدسوسة والأخبار المستزيدة .

وقد اعتمد المؤلف فى هذا التفسير على أشهر التفاسير القديمة ، ولكنه يصرح فى المقدمة أنه مزج بين أقاويل المفسرين بحيث لا يمكن نسبة كل منها إلى قائله ، وتوخى فى ذلك فائدة القارئ ومتعته ... وأضاف إلى ذلك ما اهتدى إليه من فهم وفكر .

والطابع الذى يتميز به هذا التفسير لسورة يوسف هو العناية بجانب العظة والاهتمام بالمغزى الخلقى والنفسى الذى تشير إليه الآيات ، تمشيا مع مقاصد الهداية فى قصص القرآن ، والمؤلف بذلك يؤدى واجبه أيضا فهو من رجال الدعوة العاملين .

وقد ختم المؤلف تفسيره بالعبر والدروس التى ينتفع بها من عرض القرآن لقصة يوسف بهذه الصورة مبينا جوانب العظمة أيضا فى حياة هذا النبى الكريم .

والحق أن هذا الاتجاه القريب من نفوس جماهير المسلمين فى عرض معانى القرآن جدير بالاهتمام فالحاجه إليه ماسة ، حتى تصل أبناء الأمة الإسلامية جميعا بمنابع الهداية فى القرآن الكريم ، ولا يجشمهم عناء المصطلحات الغامضة ومكابدة المشقة فى فهم مقاصد الآيات ، وفى نفس الوقت لا توجز القول فى التفسير حتى يصبح حلا للمفردات ، لا يجلى عبرة ولا يكشف حقيقة .

إن كتابنا الكريم بحاجة إلى جمهور العلماء كل فى ميدانه ، ليربطوا النفوس بمعانيه وينيروا الآفاق بسناه .

* * *

المتشابه من القرآن

تفسير الآيات الغامضة

تأليف محمد على حسن الحلى

دار الفكر ببيروت ٣٠٠ صفحة

ورد هذا الكتاب من مؤلفه إلى مجلة الأزهر ، وقد استوقف عنوانه نظرى ، إذ أن المتشابه من القرآن يعنى « الآيات غير القاطعة الدلالة على معنى بذاته ، والتى يجتهد العلماء فى بيان المراد منها أو يفوضون علمها إلى الله سبحانه ، ولكن القرآن لا يحوى آيات غامضة كما يشير عنوان الكتاب ، إذ أن الغموض معناه الخفاء ، بمعنى ألا يتضح من الآيات معنى قاطع أو غير قاطع .

وعجبت بعد ذلك حين رأيت المؤلف يبدأ كتابه بتفسير الفاتحة ! مع أنها سورة محكمة لا متشابهة ولا غامضة ! ثم يعرض تفسير آيات من سور القرآن على الترتيب من البقرة حتى سورة هود .

ومع أن فهم القرآن والنظر فى معانيه حق لكل مسلم ، إلا أن ادعاء المسلم بتفسيره وإذاعته على الناس ينبغى أن يصحبها شىء من التهيب والإجلال لقداسة هذا الكتاب الكريم ، وقد كان كبار علماء السلف الصالح وأئمة الهداية يفزعون أن يقولوا فى القرآن بآرائهم فيهلكون . وأقل ما يقال فى هذا المجال أن العلم بلغة العرب وإجادة علوم الحديث وحسن التلقى عن أئمة التفسير أبسط شرط لمن يجلس من المسلمين مجلس تأويل القرآن وتفسير آياته .

ولكن المؤلف - كما يقدمه لنا كتابه نفسه - لا يعرف من البلاغة والبيان أكثر مما يعرفه طلاب المدارس المتوسطة ليس إلا - ومع ذلك جاء بمتشابه القرآن وجعلها فى متناول الجميع ! كما يقول . وهو أيضا - كما يقدم لنا نفسه - (سأل الله الثواب لأعطاه علم الكتاب ، والجنان فعلمه تفسير القرآن فهو علم لدنى لا نظير له فى كتب التفسير . . !) .

ويدلنا على أن المؤلف قد أخطأه التوفيق بتعرضه لتفسير القرآن دون استكمال العدة لذلك ما نشير إليه فى إيجاز عما نبا فيه عن الصواب :

١ - يقول فى تفسير الآية : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » أى مثل هؤلاء المنافقين كمثل أصحاب الذى استوقد نارا ، يعنى طلب إيقاد النار وهو موسى بن عمران . . (فلما أضاءت) يعنى فلما أضاءت الشجرة التى كلم الله تعالى منها موسى بالعلم والهداية (ما حوله) يعنى أضاءت على موسى ومن حوله وهم بنو إسرائيل بأن أنقذهم من يد فرعون ، (ذهب الله بنورهم) أى بنور الهداية ، وهذا تخبط لا يحتاج إلى رد .

٢ - وفى تفسير قوله سبحانه: « ثم أتموا الصيام إلى الليل » يرى المؤلف أن المسلمين أخطأوا فى إفطارهم فى الوقت الحاضر ، فهم يفطرون وقت غروب الشمس ، ولا يسمى هذا عنده ليلا ، بل لا يكون الليل إلا عند الظلام وظهور النجوم ، ولا يجوز الإفطار إلا بعد غروب الشمس بنصف ساعة ، وكذلك يفسر قوله تعالى : « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد» أى ولا تنكحوا نساءكم وقت الصلاة والدعاء ، فإن الله نهى عن النساء وجاعهن فى أول وقت من الليل

وذلك خاص فى شهر رمضان أى من وقت الإفطار إلى بعد صلاة العشاء بساعة .

وقد وقع المؤلف بذلك فى تحريم الحلال وفى التلبيس على جمهور المسلمين فى أمر دينهم .

٣ — ومن ذلك تفسيره قوله سبحانه : (إن الذين آمنوا ثم كفروا) بأنهم اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا وعبدوا العجل ثم آمنوا ثم كفروا ، مع أنها واضحة الدلالة فى أنها تعنى المنافقين ولا ذكر فيها لليهود ويدل على ذلك سياقها وما بعدها من الآيات.

وهكذا يسير المؤلف فى كثير من الحالات وأقل ما يقال فى هذا الاتجاه أنه اعتماد على الظن فى تفسير القرآن وفقد للاستعداد الأولى لمن يضع نفسه فى هذا الموضع الخطير .

مصطفى عبد الواحد

من وصايا الحكماء

اتى رجل حكيما فقال : كيف ترى الدهر ؟

قال : يخلق الأبدان ، ويجدد الآمال ، ويقرب المنية ، ويباعد الأمنية .

قال : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به منهم تعب ، ومن فاته نصب .

قال : فما الغنى عنه ؟ قال : قطع الرجاء منه .

قال : فأى الأصحاب أبر وأوفى ؟ قال : العمل الصالح والتقوى .

قال : أيهم أضر وأردى [1] ؟ قال : النفس والهوى .

قال : فأين المخرج ؟ قال : سلوك المنهج .

قال : وما هو ؟ قال : بذل المجهود وترك الراحة ، ومداومة الفكرة .

قال : أوصنى . قال : قد فعلت .

---

(١) أردى : أشد ردى ، والردى ـ بوزن الفتى ـ الهلاك .

أنباء وآراء

استقبل السيد الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية السيد: (على ردانسكى) عضو الوفد التجارى البولندى ورئيس مسلمى بولندا الذى يزور الجمهورية العربية المتحدة .

ودار الحديث بين الزائر الكبير والسيد الأمين حول ما يمكن أن يقدمه الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية لمسلمى بولندا ، وأبدى الأمين العام رغبة الأزهر فى التعرف على أحوال المسلمين فى بولندا ومدى التسهيلات التى يمكن أن يقدم المجمع فى ضوئها مساعداته لهم، وهى مساعدات شاملة تجمع بين البعثات التعليمية ، والمنح الدراسية بالأزهر والكتب الثقافية .

وقد وصف السيد الزائر أحوال المسلمين فى بلاده فقال : إن عددهم محدود ويعيش نحو أربعين فى المائة منهم بقريتى : كروششنان ونجتنسكى ، وفى هاتين القريتين مسجدان الأمر الذى ترتب عليه ألا يصلى أكثر المسلمين الجمعة ما عدا ساكنى هاتين القريتين وبعض المسلمين يرحل إليهما مسافراً نحو ثلاثين كيلو متر ، والمناسبتان الجامعتان للمسلمين ببولندا هما : عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، ففيهما يشد المسلمون الرحال إلى هاتين القريتين فليس فى العاصمة مساجد .

وقال سيادته عن التعليم بين أبناء المسلمين :

ليس للمسلمين لغة خاصة ، وإن كان فى هاتين القريتين مسنون يلقنون أبناء المسلمين القرآن بالعربية ، وإن كانوا لا يستعملونها فى غير ذلك ، لذلك كانت الصلاة تؤدى مترجمة فى معظم الأحوال .

ورجا سيادة الزائر أن يتفضل المجمع فيعمل على الاتصال بالجهات المسئولة فى بولندا ليستفيد أبناء المسلمين من منح المجمع . وبعثاته التعليمية .

ووعد السيد الأمين العام الزائر بالنظر فى رغباته وتقديم ما يمكن تقديمه من منح وكتب دراسية فى العام الدراسى ٦٧ / ٦٨ تترجم إلى اللغات المحلية لمسلمى بولندا .

وشكر السيد الزائر الأمين العام مبينا جدوى هذه المنح فى انتفاع المسلمين فى بلاده مستقبلا منها ؟

حول دائرة معارف قرآنية

كتب السيد على على الحنانى إلى المجلة يقول :

إن القرآن الكريم كان وما زال يكون الأساس الذى يقوم عليه البناء الإسلامى ؛ لهذا كانت عناية المسلمين ببحثه تفوق عنايتهم بأى أمر آخر سواء ، وكانت نتيجة ذلك ذخيرة علمية تضمها آلاف الكتب فى الشرق والغرب على سواء ، وما زلنا نلمح آثار القرآن الكريم واضحة فى بعض الدساتير العالمية مثل القانون الفرنسى، وبعض الهيئات الألمانية تطالب بان يتضمن القانون الألمانى نصاً يبيح تعدد الزوجات كذلك امتد أثره الكريم إلى الناحية الأدبية ، ويرى ذلك واضحا فى آثار الشاعر الألمانى «جوته» .

ولما كان العلماء الذين اشتغلوا ببحثه ذوى اهتمامات مختلفة بجوانب علمية مختلفة اختلفت تبعا لذلك - مناهجهم ، وإن لم يقصروا جميعا فى توضيح المعانى المقصودة .

ومما لا شك فيه أن العلوم قد ازدهرت فى هذا القرن ازدهارا عظيما ، ودفع تطور الحياة إلى تطور البحث العلمى فما بالنا لا نهتم بوضع (دائرة معارف قرآنية) تهتم بإبراز الجوانب العلمية التى تضمنتها الآيات القرآنية فتفسر الآية تفسيرا شاملا كاملا من النواحى الدينية ، والتاريخية والنفسية والقانونيه والاقتصادية والجغرافية وغير ذلك .

وهذا العمل سيكون أكرم عمل تقدمه هيئة إسلامية من الهيئات التى نيط بها بيان الثقافة الإسلامية ومدها بالطاقة التى تكسبها نفس فاعليتها الأولى :

وإن عملا ، كهذا يحتاج إلى لجنة تمثل فيها الخبرات العلمية فى كل جانب من فنون البشرية وعلومها وبذلك نقول : إننا قد أسدينا إلى الإسلام خدمة ، وإلى المسلمين معروفا .

على على الحنانى

مجلة الأزهر :

نسارع فنؤكد للسيد / على على الحنانى أن هذه الرغبة أثيرت باقتراح شامل قدمه إلى مؤتمر مجمع البحوث الثالث هذا العام السيد الدكتور عبد المعين خان عضو الوفد الهندى بالمؤتمر ومدير المعارف العثمانية بحيدر أباد ولا شك أنها رغبة ستجد فى قلوب المسئولين وذوى الكفاية استجابة مباشرة .

تفسير الفخر الرازى

وكتب الأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر مفتش اللغة العربية بيور سعيد كلمة يرد فيها على منكرى إتمام الفخر الرازى لتفسيره ، وهو الموضوع الذى يقوم بدراسته دراسة علمية موضوعية الأستاذ (على العمارى) يقول الأستاذ أحمد عبد اللطيف :

لعل الشبهة التى عرضت للمعترضين أو الشاكين فى نسبة التفسير للفخر تعود إلى تركه ما اعتاد قوله فى نهاية تفسير كل سورة ، لكن كل ذى بصر بالأساليب « والأسلوب هو الإنسان » تمكنه من التعرف على روح عرضه ، وطريقة بحثه ، وحسن تأتيه فى التأويل وبراعته الفائقة فى دفع المعترض .

إن منهج بحث « الفخر » يدل عليه ، ولا يمكن تقليده ، أما قولهم : إنه فسر إلى سورة « الأنبياء » فإن طريقته فى الاستدلال بالزمخشرى مطردة واضحة ، وهى طريقته المنهجية التى اتبعها فى كتابه « من مفاتيح الغيب » والتى لم تتخلف فى أى جزء من أجزائه الثمانية الضخام ، وقد أمكننى استخلاص طريقته بخصائصها التى أبرزها فيما يأتى :

أولا : اتجاهه إلى التأويل ، وإيراد المعنى على وجوه يؤكد بعضها وينفى البعض .

ثانيا : قوة حجته على نفى ما يريد نفيه .

ثالثا : استطراده عند تحقيق مسألة علمية لغوية أو منطقية أو نحوية .

رابعا : نزعته التجريدية الصوفية فى تفسيره آيات أسرار الكون .

خامسا : عنايته بالفحوى فى نهاية مطافه .

هذه الخصائص - وغيرها تدل على وحدة المنهج فى تفسيره إذا أعمل القارىء البصير بصيرته فيتعرف على حقيقته من بين سطوره

أحمد عبد اللطيف بدر

● خصصت إدارة الأزهر مع وزارة الأوقاف مائتى واعظ ومدرس أزهرى لنشر الوعى الدينى والقيم الروحية بين جنود وضباط القوات المسلحة .

● اعتمد الاتحاد العام لعلماء المساجد برنامجا لإحياء ليالى شهر رمضان المعظم جميع مساجد القاهرة والمحافظات وتبلغ المساجد التى يتم ذلك فيها اثنى عشر ألف مسجد موزعة فى جميع أنحاء البلاد .

● أعدت إدارة الأزهر برنامجا لإلقاء دروس فى تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بالجامع الأزهر، يتخللها ندوات شعرية طيلة شهر رمضان، وذلك فى فترتين من كل يوم تبدأ الأولى بعد صلاة العصر. والثانية بعد العشاء، ويقوم بإلقائها نخبة من أساتذة الأزهر على رأسهم الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر

● تجرى المراقبة العامة لرعاية الشباب بالأزهر مسابقتها الأدبية التى اعتادت إقامتها بين جميع طلاب المعاهد الأزهرية الثانوية. وتتناول المسابقة الموضوعات الآتية :

حفظ وتجويد القرآن الكريم، الشعر والخطابة، المقال والقصة، صحافة الحائط والزجل.. وهذه رابع مسابقة لها فقد بدأت بأولى مسابقاتها عام ١٩٦٣ وتقوم المعاهد حاليا بإجراء المسابقة فى مستوى المحافظات. ثم ترفع نتيجة اختباراتها إلى المراقبة فى أواخر شهر إبريل ليتم اختيار الفائزين فى مستوى الجمهورية.

● تعد المراقبة العامة لرعاية الشباب بالأزهر مشروعا لإقامة أربعة معسكرات على عقب عيد الفطر المبارك فى كل من الوجهين : القبلى والبحرى لأربعمائة طالب من المعاهد الأزهرية الثانوية للمساهمة فى مشروعات تعمير البيئة المحلية على أن يتمم الطلبة احتياجات المعاهد أولا من التعمير والإنشاء.

● اعتمد فى مشروع ميزانية الأزهر الجديدة ٢٠٠ ألف جنيه لإنشاء معهدين جديدين للأزهر فى كل من مدينتى دسوق بمحافظة كفر الشيخ، وشبين الكوم بمحافظة المنوفية ثم تجديد عدد من المعاهد الأزهرية الأخرى.

● صدر فى ١٥ / ١٢ / ١٩٦٦ قرار رقم ٤٠٨ بتحقيق رغبات ستة وسبعين ومائة مدرس من مدرسى المعاهد الأزهرية فى الانتقال إلى أماكن اختيارهم على أن يتم إخلاء طرفهم عقب انتهاء دروس يوم الخميس ٢٢/١٢/١٩٦٦ ليتسلموا عملهم فى المعاهد المنقولين إليها صباح السبت ٢٤ / ١٢ / ١٩٦٦ م.

في محيط العالم الإسلامي

● تلقى الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر دعوة من الشيخ (ضياء الدين خان) مفتى مسلمى الاتحاد السوفيتى ورئيس الإدارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازاقستان - لزيارة مسلمى الاتحاد السوفيتى ، وقد وعد فضيلته بالنظر فى طلبه .

● انتهت فى الشهر الماضى أعمال المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية الذى رأسه الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر ، وقام فيه بأعمال الأمانة العامة الأستاذ الدكتور محمود حب الله الأمين العام للمجمع ، واتخذ المؤتمر عدة قرارات وتوصيات هى الآن محل رعاية المسئولين .

● أعدت إدارة الثقافة الإسلامية التابعة لمجمع البحوث الإسلامية للطلبة الوافدين الذين لا يجيدون العربية ، ويرغبون فى استكمال دراستهم بالأزهر : معاهده وكلياته - دروسا خاصة فى اللغة العربية والشريعة الإسلامية لتمكنهم من تحقيق رغباتهم .

● بلغت منح إدارة البعوث الإسلامية التابعة للمجمع للطلاب الوافدين من مختلف بلاد العالم الإسلامى اثنتين وستمائة منحة دراسية للعام الحالى ١٩٦٧/٦٦ م

● بلغ مجموع الطلبة الوافدين إلى الأزهر هذا العام ١٩٦٧/٦٦ م اثنين وستمائة وأربعة آلاف طالب انتسب إلى جامعة الأزهر منهم سبعة وألفا طالب ، وإلى المعاهد الدينية خمسة وتسعون وخمسمائة وألفا طالب :

من الوطن العربى ١٩ دولة ٧٢٢ طالبا بالمعاهد الدينية ، ١٣٢٧ بجامعة الأزهر

من إفريقيا ٢٨ دولة ١٤٢٤ طالبا بالمعاهد الدينية ، ١٣٦ بجامعة الأزهر

من آسيا ١٨ دولة ٣٦٨ طالبا بالمعاهد الدينية ، ٥٢٨ بجامعة الأزهر

من أوربا والأمريكتين ١٣ دولة ٨١ طالبا بالمعاهد الدينية ، ١٦ بجامعة الأزهر .

ويقيم جمهور هؤلاء الطلبة بمدينة ناصر للبعوث الإسلامية حيث تتوفر لهم

الرعاية الطبية وتقدم لهم وجبات غذائية كاملة وتشرف عليهم لجنة تسهر على راحتهم .

● زادت بعثات مجمع البحوث الإسلامية للعالم الإسلامى هذا العام عن ذى قبل وزودت تلك البعثات بالمكتبات الثقافية وقد بلغ مجموع أعضاء البعثات من مدرسى المعاهد والوعاظ ستين وأربعمائة أستاذ ، ومن جامعة الأزهر تسعة وأربعين أستاذ ذهبوا إلى سبع وثلاثين دولة بين إفريقية وآسيوية وأوربية وأمريكية .

وتعنى هذه البعثات بأداء رسالتها المقدسة فى نشر تعاليم الإسلام واللغة العربية ، كما تؤدى جهدا مشكورا فى سبيل توثيق العلاقات الودية بين هذه البلاد والجمهورية العربية المتحدة وقد أثمرت هذه الجهود عن افتتاح عدة معاهد دينية فى العالم الإسلامى والعربى يشرف عليها الأزهر الشريف .

● طلبت حكومة (أفغانستان) من هيئة المطابع الأميرية بالقاهرة إمدادها بأنواع خاصة من الحروف المشكلة تمهيداً لإصدار طبعة جديدة من القرآن الكريم بأفغانستان .

● حققت الوفود العربية نصراً كبيراً فى اجتماعات اللجنة الإدارية لمنظمة « اليونسكو » الدولية بباريس ، فقد وافقت اللجنة على استخدام اللغة العربية داخل المنظمة اعتبارا من الدورة القادمة للمؤتمر العام لليونسكو التى ستعقد فى نوفمبر ١٩٦٨ تمت الموافقة بأغلبية خمسين صوتا ، ومعارضة إحدى عشرة دولة ، وامتناع عشر عن التصويت ستتكفل الكويت بتغطية نفقات المشروع وقدرها ٨٠ ألف دولار .

على الخطيب

youth, so that he passes this stage unpolluted is worthy of being under the shadow of Allah on the day when people are brought together before Allah.

The third type is represented by the man who loves places of worship so much that the call to prayer to God touches him to the heart, and rouses his exaltation of God, and his submissiveness to Him, even though with his own free will. He rejoices that he is going to commune with Allah in his prayer, his mind being conscious and prudent, his tongue reminiscent and thankful and his heart extremely faithful. To God he has ever devoted his prayer, his devotness, his life and his death. And he shall be under the shadow of Allah at the Hour of Doom which none may retard.

The fourth type is represented by two men who loved and obeyed God; which led them to loving one another faithfully; a love in which they met and in which they parted. This Hadith exhorts us to make the sake of God and His worship the motive behind our love and hate, so that one should establish strong relations with those who, like him, are faithful and love God and His Apostle, not those who do evil and cherish indecent feelings. Happy are those who seek good example, to follow and who do right; for this is to their own advantage on the Doomsday.

The fifth type is that of a man who resisted temptation into sin matched against him by a beauty that not only turned heads, but also had the power to avenge her pride if once it is wounded. Though he might have yielded to the seduction of the charms at his disposal, like Joseph, he said "Allah forbid". Such a man whose passion melted with fear of God is an example of the miraculous education of Islam, and on the Appointed Day, shall be under the shadow of Allah.

The sixth example is that of a man who guarded himself against sham goodness and hypocrisy. He gave charity, but behind a thick veil of concealment; thus he secured the poor man, to whom he gave this charity, dignity and respect rather than exposure.

Everyone should virtually contrive to free his acts from whatsoever may render them false or imperfect. God's reward should be dearer to him than any other consideration, that he may be under the shadow of God on the Day of Last Judgement.

The seventh and last example is that of a man who, once alone, recalled God to his mind and then, out of love, faith, contemplation submissiveness or fear, he wept. For the sake of these tears he shed, he shall be forgiven his sins and richly rewarded on the day when no excuse will help the evil-doers...

From the Tradition of the Prophet :

Under the Shadow of Allah

BY

SOLIMAN BARAKAT

The Prophet Muhammad, may the blessing and peace of Allah be upon him, said :

"Seven men shall be under the shadow of Alla on the day when there is no shadow but His : an equitable imam ; a youth who grew up in the worship of Allah ; a man whose heart clung to mosques ; two men who loved one anther in their love of Allah, so that in this love they met and in it they parted ; a man whom an influential and beautiful woman called on but he said, "I do fear Allah"; a man who gave charity in such secrecy that his left hand never knew what his right hand spent ; and a man who in loneliness recalled Allah to his mind, and then his eyes filled with tears."

In this Hadith, the Apostle of Allah demonstrates to us seven types of people whom Allah is well pleased with and will reward richly. Anyone possessed of their qualities shall be sheltered and protected on the day of Reckoning, when the Judgement of Allah, lies in wait.

The first type is that of the equitable imam. By an imam, or leader, is meant any person entrusted with the observance of any good or interest of Muslims. The Prophet demonstrates this type of men first on account of the responsibilities confided to them and the prevalence of their help if they are just and straight. And the term is applied not only to political or religious headmen, to generals or instructors, but in fact to anyone who undertakes a common welfare. These, then, should fear God and be fair and straight that they may be under the shadow of Allah on the Last Day.

The second type is represented by the youth who grows up in the worship of God. He loves God, recalls Him to his mind, submits himself to His commandments and rejects His interdicts. He prefers the tranquility and peacefulness of his heart, through worshipping God and seeking His consent, to indulgence in wordly wishes and bodily desires. Such a man who retains his chastity in the critical stage of

helplessly buried the same way as the poor, the quantity of pigmentation that colour the skin deep near the equator and light near the poles, nevertheless, distion of colour, race and creed are unknown to Islam and God rewards or punishes people according to their virtues or vices.

Equality in Islam is clearly marked on friday noon where people stand for prayers, the poor in close shoulder to the rich and the white beside the black in straight lines, where the guiding prayer must be the most religious man in the assembly regardless colour or wealth. Bilal, the Abisinian muslim, was elected mayor of El Medina by the prophet during a certain war, and all the Muslims welcomed the election because the faith and spirit of Islam was warm in their hearts.

Before Islam, slave markets were at large and the rich was free to purchase as many women as he could afford, but Islam teaches equality as men and women come from the same essence, possess the same soul and they are equipped with the equal capability for intellectual and spiritual attainments. Islam places man and woman under like obligations - the one to the other. The Quran says :

«فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ...»
(آل عمران ١٩٤)

(And their Lord hath heard them (and He said) : Lo ! I suffer not the work of any worker, male or female, to be lost. Ye proceed one from another).

Muslim women are in the same level with men as they are rewarded or punished the same as the good and the bad men. A married couple partly confide on one another, and partly on their parents, but at the loss of their parents, they fully confide on each other and in case one of them is lost, the other would feel the shock of separation by death very badly.

A muslim man may marry a girl of the scripture who should not be forced to Islam against her wish unless she fully believes in the faith. As the Quran declares :

«لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ...»
(البقرة ٢٥٥)

(There is no compulsion in religion. The right direction is distinct from error).

If the son is muslim, he has to keep up with his faith and fulfil all the obligations of Islam in full and then to obey his parents in other matters if they are not muslims. The Quran says :

«وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا» (لقمان ١٤)

(Continued on page 12)

Estimation of Mankind in Islam

BY : ALY OMAR FADEL

Arabs worshipped statues of certain mortar in gigantic forms, beautiful shapes and marvellous colours. The farce of worship is a big redicule as the elements of the statues are only water, mortar, colours and art which are far from being heavenly as they are obtainable from the earth, made by man.

Islam bade the Arabs to realise the one God with a complete submissian to the Divine control in the mode of conduct of life and obedience of laws revealed by the Qur'an.

The big miracles of the Qur'an that survive as it is delivered through revelations to Muhammed for the development of human faculties, illuminated the hearts of the companions of the prophet. They were the nucleus for spreading Islam all around the world to restore the true faith and eradicate clouds of ignorance, infidelity, dishonesty, unchastit and libertinism that were hanging over the whole world.

A needy muslim crossed the desert to meet the kaliph. He entered the mosque where the Kaliph was doing his prayers. After his prayers, the kaliph started to ask God compassionately for health, safety, preservation of his children and so many other requests that took a long time. After doing his own prayers, the man did not hesitate to return to his country as he preferred to work hard and ask God for help instead of asking the kaliph for help.

The Almighty God raised the position man to a large extent for obliging the Angels to kneel down for Adam who is posted vicegerent of God on earth.

• وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس ... • [البقرة ٣٣] .

(And when We said unto the Angels : Prostrate your-selves before Adam, they fell prostrate, all save Iblis).

Islam started from the Arabian Peninsula, and the Arab chieves resisted that faith which forbids the strong to enslave the weak, the rich to look down upon the poor and the white to disdain the black.

The rate of worthiness of man is not esteemed by the ample means of monetary situation, the variet top ranks and artificial superiority of their bygone predecessors who are

What is more promising and fills our hearts with confidence and hope is that the Arab peoples led by the U.A.R. have decided through God's help to restore their right and glory and have attained the means that will help them to accomplish their cherished aims. They have already covered a long way towards this end, accomplished justice; equality and eradicated monopoly and exploitation. Through God's blessing and help they continue to walk along the path of welfare and progress with a fast pace, exerting all possible effort to raise the standard of individuals and communities and accomplish reform in all spheres of life.

In this same context, it is noteworthy to underline an aspect which is of great influence in reforming individuals and soeieties alike. It is an essential part of man's spiritual formation which no authorities nor positve laws can develop without spontaneous impulses on the past of individuals and communities, impulses springing from the depths of their conscience, and purity of heart, coupled with sincere support from those in charge of education and the youth, and those interested in guiding communities and deepening their faith in God. This aspect is "straight forward character and pure conscience„.

This is the best safeguard against error and flagrant vices such as cheating, bribery, corruption and dereliction of duty, brutal aggression, subversive movements, treachery and other vices that prevent nations from attaining perfection.

We entertain high hopes that those responsible for the education of the rising generation will do their utmost to infuse these sound principles in their minds and to fill their hearts with faith and noble character.

If they do they will contribute much to the cherished progress and reform.

(Continued from page 14)

(But if they strive with thee to make thee ascribe unto Me as partner that of which thou hast no knowledge, then obey them not. Consort with them in the world kindly..).

Islam commands the freedom of thinking by applying what is right and denying what is wrong, nevertheless, there are certain people who lack any personality and are easily persuaded to adversities for lack of deep thinking and love of lust and exorbitance.

The call of the Qur'an is basically addressed to intelligent understanding ; it invites man to look at every thing in the universe and to reflect upon it. The true faith at heart enabls man to be a first class undefeated warrior, and he can live in a happy and stable life.

themselves of the yoke of slavery. Others again have attained a relative measure of maturity. It is incumbent on these countries, therefore, to get together, close their ranks and stand as one man against imperialists and the covetous, for imperialists, apart from strength, depend upon their unity and depend them selves through co-operation, to commit aggression despite their various aims and intentions. Developing peoples should, therefore, confront such vile co-operation by co-operating for good, charity and development as nothing "can cut iron but iron."

If such people wish to keep pace with development and progress, they must form a front of themselves aiming at their good and social justice in order to accomplish liberty, glory, honour and dignity. By God's help they will go along the right path and will prosper in the near future.

As for the Arab and Islamic peoples, they have long been dominated by the imperialists and foreign rulers who friterred their countries away, divided their ranks, and suppressed their breath till they became weak, almost oblivious of their former glory. They lost most of the noble qualities inculcated in their minds by Islam, as well as the principles of power, dignity and noble chara cter.

Now, they have risen from slumber, with pure blood running in their veins, urged by the memory of their past glory and the feeling of having had an influential position.

The most effective way of restoring their former glory and status is by resorting to the three sources already mentioned so that they may develop the element of good, truth, sympathy and benevolent nature and proceed with strong will towards the accomplishment of the message God has entrusted to man as His vicegerent on earth. This message can be fulfilled by giving due attention to production, construction, and the exploitation of the rich resources of the Arab world for the good and benefit of all Arab Nations, their friends and all peace lovers. It behoves the Arabs to close further the bonds of co-operation among them in pursuance of God's words. "And hold fast, by the Rope which God (Stretches out for you), and be not devided among yourselzes."

Their word would thus be one, and their aims become clearer to the whole world and they would go forward to attain dignity, security, justice and set up their life up·n firm and sound foundations.

and the spectre of a greedy oppressive war stirring their fright and shaking the earth under their feet.

This is largely due either to ruinous greed and exploitation which dominate their mind, craving for money which dims their sight and conscience, or to the cruel hearts which have no pity on suffering humanity, being void of sympathy and missing the path of right and good or is due to the two causes combined. After tasting the ill-effects of their conduct, these nations tried to make amends for what they committed.

They advocated principles of liberty, fraternity and equality but they soon denied these principles and fulfilled nothing of them, instead, they enslaved the free, subjugated the weak and the defenceless people whom they deprived of all means of power. Their principles thus turned into flagrant evil. Liberty developed into slavery, equality into humiliation, fratermity into injustice and aggression.

This is because the true spiritual education in these imperialist countries is neglected and public interest is thought of only when all the gains are for them, a d where they get the lion's share of them.

Let these countries be indulged in their excessive oppression and obsessed by their grass injustice untill such time as they are awakened by the currents of liberty and consciousness that have prevailed all the rising peoples, only their will they be brought back to reason; and follow the path of good and right either voluntarily or under compulsion.

2 — As regards underdeveloped nations, they have long suffered the yoke of imperialism. Their riches being plundered and the sources of their wealth and power exhausted, illiteracy and poverty were spread in them far and wide. They were explorted by imperialists and deprived of the mere sustencance that may keep them alive.

Thy almost lost the feeling of being human and of their right to live, to be free and respected. These peoples have already seen their riches being exploited by the imperialists, the exploitors and those revolving in their orbit.

The fate of those peoples may be attributed to their weakness, negligence or slavish subordination to imperialists, their agents and supporters who exploited their national resources. Some of these countries are backward, others are progressive, diligently following the path of development after they have rid

required. Islam also urged diligence and constant endeavour to produce and to construct for the welfare of man and society alike.

Just as God made man his vicegerent on earth, He also made him heir to dispose of that He has bestowed on him in the way of wealth and riches. God the Almighty says : "Believe in God and His Apostle. And spend (in charity) out of the (substance) where of He has made you heirs."

So Islam considers the rich as guardians of wealth which actually belongs to God.

Being heirs to wealth does not mean hoarding it up; monopolizing or exclusively appropriating it, but rather using it for the benefit of the sociaty, in order to aid the needy, feed the hungry and help the poor.

If people act according to those teachings in their financial dealings, in destributing wealth, preventing monopoly, and properly investing and promoting their riches, they will thrive and society will prosper with them.

That is the frame which Islam has drawn up for an ideal life. It is a formula which ensures good for peoples; communities and individuals. It also ensure the prevalence of justice, equality and love, eliminates poverty and backwardness and lays a firm foundation for the dignity cherished by humanity.

This Islamic ruling has proved a great success in reviving muslims during flourishing Arab eras. Progress was comprehensive then and science so advanced that peoples near and far benefited by it. Arab capitals were the cynesure of many people; due to the spirit of Islam, its principles and directives which gave an impetus to the establishment of justice, equality, fraternity, love and mercy. Islamic civilization was a source of radiation to all peoples and nations of the world. Security prevailed and liberty was assured for all people of different religions.

Will muslims now restore their former glory ? when ? and how ?

To prove the way for answers to these questions we should be well advised to cast a glance on peoples of different levels of progress or backwardness, then revert to the Islamic nation to consider its present and look forward to the glorious future we hope for it.

1 — As for the countries known as progressive, thinking they have a big share of civilization, we find unrest still prevailing all through them, greed threatening their being

The Spirit of Islam is the Chief Factor in Reforming Contemporary Society

BY

Prof. ABDUL HAMEED HASSAN

(Continued from the October 1966 issue)



One of the most important aims of man'e message in life is to amass riches, being a symbol of wealth. This, however, is a two-edged weapon. It is necessary for the needs of life and people but, if misused will turn into great evil.

That is why Islam objected the domination of capital and reminded of evils that might arise from the hoarding up of wealth, depriving the society of its benefits, and concentrating it in the hands of a few feudalists. Gracious God Says : "And these are those who bury gold and silver And spend it not in the way of God; announce unto them a most grievious penalty".

And Says: "In order that it may not (Merely) make a circuit Between the wealthy among you".

Money or wealty in general is the main cause of the struggle between man and himself, between himself and others. It is a severe hot struggle with himself because of his love for material things and his passion that prompt him to love wealth and crave for riches. He is in constant strife with others because of his love to appropriate wealth to himself. His quest for riches in order to satisfy the greed of his soul or unsatiated bestial instincts may incline his heart towards the pleasures and luxuries of life, thus weakening his search for noble aims and lofty ideals. His obsorption in money gathering blinds his sight and directs him towards aggression and strife with others, and so he overlooks the elements of a contented soul and the motives of seemly conduct, eventually suffering destruction.

That is why Islam urged charity and generosity and encouraged them in many ways. It regulated the financial policy of the state in the interests of the poor and needy. Alms giving (zakat) was thus ruled at prescribed rates which may be increased if public interest so

Another reason why Ramadan is important to Muslims is because the Quran says: "Ramadan is the month wherein the Quran was revealed." This is the holy book which is a guide for all mankind. The 27th of this month, Lailat al-Kadre, is described in the Quran as a night "better than 1,000 months" in which the angles descend free from every commission, and which means blessings until the appearance of the red of dawn. This night comes during the last ten days of the month which many Muslims spend in seclusion, usually in a mosque, not leaving it day or nights and perform the special prayers of Ramadan, the Salat al-Tarawih; these are eight or twenty Rakats performed every evening immediately after the Isha prayer.

After the last day of Ramadan, the "Id al-Fitr" (festival of the breaking off the fast) is celebrated on the 1st Shawwal and the following two days. On the first day the Salat el-Id, is celebrated in the open air between sunrise and the moment when the sun has reached its zenith. As this marks the end of the period of fasting, it is, although called the "Minor festival", celebrated with much more festivity and rejoicing than the "major festival"; with people putting on new clothes, visiting and congratulating and bestowing presents on one another.

It is at this time that the Zakat al-Fitr must be paid if it has not been paid during the period of fasting. This is the obligatory gift of provisions which, according to Tradition, was ordered by the Prophet in the year 2 A. H. and fixed as regards the amount. It has to be given by every free Muslim for himself and all persons whom he is legally bound to support, a man is exempted only if he does not possess more than the bare necessities of life for himself and his family. Throughout the Muslim world the regulations about the Zakat al-fitr are observed with particular scrupulousness, for it is considered to be part of the duties of Ramadan and to serve as atonement for any involuntary negligence during this month.

Indeed it is well known that for the faster there are many joys waiting for him in Paradise and that he will be honoured there, that he will enter by a special gate and meet Allah. Let us remember all these things during the month of Ramadan and emerge from it a better and finer Muslim.

fasting is one of the five pillars of Islam. . . Shahada, Salat, Zakat, Sawm, and Hajj.

The things which break the fast are :

1 — The entering into the body of any material substance in so far as it is done conscientiously and is preventable.

2 — Deliberate vomiting, which is only permitted by doctor's orders.

3 — Sexual intercourse.

4 — Deliberate seminal emission, which is a consequence of sexual contact; in other case a distinction is made as to whether it is caused by passion or not.

5 — Menstruation.

6 — The bleeding of a pregnant woman.

7 — Unsound mind.

8 — Intoxication.

Special dispensations are granted to invalids and travellers on condition that they make restitution for it; and "if one eats by an oversight", says the tradition, "he may continue the fast because Allah himself has caused him to eat".

It is to be commended if the 'Saim' or faster :

1 — Takes the 'Fatur' as soon as possible after he is certain the sun has set; he ought preferably to use ripe dates for this or water.

2 — Eats the 'Sahur' (what is eaten after midnight) as late as possible and uses for it the same as is recommended for the Fatur.

3 — Refrains from indecent talk, slander, calumnies, lies and insults.

4 — Avoids such actions as, although not actually forbidden, might arouse passion in oneself or in others.

5 — Refrains from being bled.

6 — Tastes no food.

7 — Chews nothing edible.

8 — Thanks Allah after the day of fasting.

9 — Recites the Quran.

10 — Forms a special intention (Niyya) before fasting each day.

One should also remember that fasting consists in not only refraining from eating a d drinking, but from all mean desires and wordly thoughts, in keeping one's organs of sense members free from sin and from all things that detract from Allah. Everything should be avoided which might affect the result of the fast; for example, at the 'Iftar' one should not eat more or far better than usual and one should not sleep during the day to avoid feeling hunger or thirst, for they fight the power of the passions. Subjection of the passions, where by the soul is brought nearer to Allah, is the real object of fasting, not mere abstinence. Tradition says : "How many fasters there are for whom only hunger and thirst are the results of their fast."

THE SIGNIFICANCE OF 'RAMADAN'

BY

RASCHIED AL-ANSARI

'Ramadan' is the holy month of all Muslims in which they fast by the divine command of Allah. For one lunar month, from dawn til dusk, nothing is eaten or drunk in this ninth month of the Muslim calendar. This month is like no other in the year, there is an atmosphere and feeling about this month that can not be mistaken. . . a mixture of piety and gayety for at this time a Muslim comes very close to Allah.

Piety because of the high esteem in which fasting stands with Allah, this is pointed out by Al-Ghazali and he gives a reason for this tradition that fasting is a passive act, no one seeing men fast except Allah; also it is a means of defeating the enemy of allah, because human passions, which are Satan's means of attaining his ends, are stimulated by eating and drinking. The passions "are the places where Satan lives in abundance and where he feeds; so long as they are fruitful he continues to visit them often, and so long as he visits them frequently, the Majesty of Allah is concealed from His servant and he is shut off from meeting with Him. The Prophet of Allah even says : "If Satan did not fly around the hearts of men they would readily think of heaven". Fasting is therefore "the gateway to divine service".

Gayety because fasting in Ramadan is the most fitting atonement for sins comitted in the course of the year. Tradition says : "Fasting on one day in Ramadan is better than thirty days in a holy month", and "the scent of the breath of a fasting man is more pleasant to Allah than the scent of musk". Allah compares one who denies his passions for His sake with His angels and sayes to him : "Thou art with Me like one of My angels", and He urges His angels to regard those who fast.

Fasting, Sawm, in Arabic originally meant "to be at rest". It also has the meaning "Silence", for in a Meccan Sura a voice commands Mary to say "I have made a vow of Sawm the Merciful, wherefore I speak to no one this day". Fasting in the legal sense is abstinence (imsak) from things which break the fast and there is an obligation to fast on every Muslim adult, for

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ... » (البقرة ١٨٧)

" It is made lawful for you to go unto your wives on the night of the fast. They are raiment for you and ye are raiment for them. Allah is awere that ye were deceiving yourselves in this respect and He heth turned in mercy toward you and relieved you. So hold intercourse with them and seek that which Allah hath ordained for you, and eat and drink until the white thread becometh distinct to you from the black thread of the dawn. Than strictly observe the fast till night fall...."

Surah II Verse 187.

In fact, fasting in Islam does not simply imply abstaining from food and drink and refraining from evil, but also teaches man the ways leading to suppression of the tendency to evil and improving the tendency to good.

Sayings of the Prophet

« اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » .

"Fear Allah wherever you may be and cause the good deed to follow the evil so that it may be expiated thereby, and treat people in a kindly way."

« لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » .

"Man will not attain to the exalted position of the pious until he refrain from the mere permissible lest he be tempted by it to lapse unto the forbidden."

« من طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » .

"Whoso seeketh the world within the bounds of the lawful and according to the dictates of virtue, will be reckoned in the same category as the martyrs."

power to renounce unlawful gratification. Thus he can guard himself, morally and spiritually against evils. As every faculty of man requires training to attain its full force, the faculty of submission to the Divine will should also require to be trained. In addition to that moral and spiritual achievements fasting has its physical advantages.

It accustomes man to a life of hardship and frugality, so that he may not be too much given over to ease. But also exercise a very good effect upon health in general. The prophet Muhammed (peace be upon him) teaches that hunger is the best cure to many ailments; this is a well-known fact proved and defended nowdays by medical authorities. The fasting creats power of will and patience in man and teaches him the lessons of self control and keaping system in all walks of life. It will help him to keep his duties and to face difficulties of life. In fact, the fasting creats discipline and unity of intention and action among the Muslims; and they acquire the power to suffer tribulations and adversities which they must face in defence of their Faith, culture, freedom and unity.

As regards those who are temporarily sick or on a journey during the month of Ramadan, included in this class are the women who are with child or who breast feed their child; they shall fast a like number of other days. Trose who cannot keep the fast on account of persistent or long-standing disease or who are too old or weak, they shall give away the measure of one man's food to a man in need every day during the whold month. Tnis practice is definitely stated in the following verses of the Quran :

« أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » . — البقرة ١٨٤ —

"(Fast) a certain number of days; and (for) him who is sick among you, or on a journey, (the same) number of other days; and for those who can afford it there is a ransom : the feeding of a man in need — But whoso doeth good of his own accord it is better for him : and that ye fast is better for you if ye did but know — ".

Surah II verse 184.

The duration of each day of the fast is from dawn to sunset. Nothing whatsoever is allowed to be eaten or drunk; sexual intercourse is also strictly for bidden, within that duration. As the Holy Quran says :

soul that inclines man to evil doings or tends to lead him into immoral paths and it is the primitive nature of man which is prone to transgression at certain age in his development. As long as he is devoid of high moral qualities, the evil nature is predominant in him and he will continue to be subject to this state.

When he frees himself from the control of animal passions and is guided by wisdom and knowledge he then passes the physical stage and becomes a moral being in the strict sense of the word. He then walks in the light of true natural upright. The source of the moral conditions of man is called in the Qur'an as « النفس اللوامة » (the self-accusing soul or conscience). The Qur'an says : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » (Nay, I swear by the accusing soul..) surah LXXV, verse 2. By this stage he changed from the disobedient to the self-accusing soul. It up braids a man for the doing of an evil deed and strongly hats unbridled passions and bestial appetites. At this stage the soul is anxious to attain to moral excellence and revolts against disobedience which is the characteristic of the first or the animal stage of man. The duty of this soul is to generate noble qualities and to transform life so as to bring the whole course and conduct of it to moderation and to restrain the carnal passions and sensual desires. The third stage is to reach the soul on attaining to the source of all spiritual qualities; then it is called «النفس المطمئنة» (the soul at peace). The Holy Qur'an describes this soul as follows :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

«But ah ! thou soul at peace ! Return unto thy Lord, content in His good pleasure ! Enter thou among my bondmen ! Enter thou my Garden!» surah LXXXIX, verses 27-30.

Fasting, as prescribed in Islam, has its physical, moral and spiritual advantages in the three fold conditions of man. Before, Islam, fasting meant the suffering of some privation in times of mourning and sorrow. In the Bible it is stated that fasting has in all age and among all nations been an exercise much in use in times of mourning affliction. All the institutions of Islam are actually practical steps leading to perfect purification of the soul. The fasting is aimed at that man may learn how he can shun evil. The Qur'an declares: « لعلكم تتقون »

«Ye may ward off (evil)» or you may guard against evil doings. Because he who is able to renounce the lawful satisfaction of his desires in obedience to Divine Commandments, certainly aquires the

MAJALLATU'L AZHAR

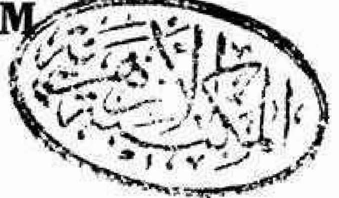
(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Sha'bân 1386	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	November 1966

FASTING IN ISLAM



BY

A. M. Mohiaddin Alwaye

Fasting is a universally recognized institution and an old worship prescribed in all religions. In Islam it is one of the fundamental practical ordinances. The Holy Qur'an says that fasting was enjoined on all nations who passed before the prophet Muhammad ; But Islam has introduced a new meaning into the fasting. It is enjoined in Islam for the moral elevation of man and for his spiritual development. This object is made clear in the following verse of the Qur'an :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ».

« O ye who believe ! Fasting is prescribed for you, even as it was prescribed for those before you, that ye may **ward** off (evil) » Surah II verse 183.

It is plainly stated in the conluding words of this verse that the object of fasting is that he may be able to guard himself against evils physically, morally and spiritually. For Islam has dealt fully with three conditions of man, namely the physical, the moral and the spiritual. This three fold condition of man is the three stages of his development. The Holy Qur'an mentions three springs out of which these three conditions are flowing. The first of them is, as termed in the Qur'an, « النفس الأمارة » which signifies the uncontrollable soul (the soul prone to lust and evil). The Qur'an says about this kind of soul: « إن النفس لأمارة بالسوء » (Lo! the (human) Soul enjoineth unto evil) Surah XII, verse 53.

This is the characteristic of the

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء السابع - السنة الثامنة والثلاثون - رمضان سنة ١٣٨٦ هـ - ديسمبر ١٩٦٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الثّورات بين الجسد والرّوح

بقلم
أحمد حسن الزيات

حاول بعض فلاسفة التاريخ والاجتماع أن يفسروا الحروب والثورات تفسيراً اقتصاديا فيرجعوها جميعا إلى الجوع أو إلى الخوف منه . ذلك لأن الجوع كافر بالأخلاق والقيم والعواطف والقوانين والأنظمة ، ولأن الخوف منه علته ما يصيب الأفراد من الأثرة والشح ، وسبب ما يحمل الدول على الاستعمار والتنافس .

ولقد جرؤ مستشرق روسي معاصر فزعم أن دعوة الإسلام كانت ثورة على رأسمالية قريش ! وهذا الرأي القائل وأمثاله إنما نشأ من الخلط بين الحيوانية والإنسانية في بني آدم ؛ فالإنسان باعتباره حيوانا تتحكم فيه غريزتان : غريزة حفظ الحياة ممثلة في القوت ، وغريزة حفظ النوع ممثلة في المرأة . وأسباب الخصومة بين الأفراد والجماعات إنما هي النزاع المستمر على هاتين الوسيلتين ، كانت المرأة في بدء الخليقة هي حواء ، وكان القوت في حياة الجنة هو الشجرة ، وكانت الأثرة والطمع والحسد هي إبليس ، وكانت الضحية لهؤلاء جميعا هي سعادة آدم !

مضى هؤلاء الثلاثة يعملون فى الدنيا ما يشاء القدر: يخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت، حتى قال ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة: «لم تسل السيوف إلا لوجه أصبح من وجه، ولقمة أسوغ من لقمة».

على أن اللقمة كانت أشد الثلاثة إيقادا لنار الخصومة؛ لأن الشعب أو الفرد يصاب فى حريته فيصبر، ويؤذى فى كرامته فيستكين ويفتن عن عقيدته فيرضى؛ ولكنه إذا حرم الرغيف انقلب ضاريا كالوحش، جارفا كالبركان.

وكان الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه يذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير فيقول: «والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر!» يريد بالثريد الأعفر الخبز المفتوت فى مرق اللحم الدسم.

وإذا تقصينا أسباب الصراع بين أمم الشرق وأمم الغرب، أو بين الرأسمالية والاشتراكية لا نجد إلا السبب الذى قاله كثير بن شهاب لغلامه، وقد طلب منه الطعام يوما فقال له: ما عندى إلا خبز وبقل: «ويحك! وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل؟!».

وكل ذلك حق لا نزاع فيه إذا اعتبرنا ابن آدم حيوانا ليس غير، له معدة وليس له قلب، وله شهوة وليس له عقل، أما إذا اعتبرناه إنسانا فإنه ينزل من خلق الله فى المنزل الوسط بين البهيم والملك، فيكون بماديته مرتبطا بالأرض، وبروحيته متصلا بالسماء وبهاتين الطبيعتين فيه يشارك الحيوان فى رغائب جسده فيثور أو يهدأ تبعا لما يجد فى حسه، ويشارك الملك فى رغائب روحه فيسخط أو يرضى تبعا لما يجد فى نفسه، وكلما بعد همه وارتفع هواه ربأ بنفسه عن مواطن الذل، وسما بعزمه إلى معالى الأمور، فيطمح إلى أبعد من المال، ويسعى لأكثر من القوت ويغضب لما هو أشد من الفقر، ويثور لما هو أعظم من الجوع: يطمح إلى العلا، ويسعى للمجد، ويغضب للكرامة، ويثور للحرية.

والإنسان يظل حيوانا ما دام يكفيه من العيش قضاء شهوته. والرقيق يظل عبدا ما دام يغنيه طعام سيده عن حريته.

ولا خير فى من كان غاية همه
من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما

وقد عبر الملك الشاعر الثائر امرؤ القيس عن المطمع الأسمى للنفس الرفيعة، والمثل الأعلى للحياة الكريمة، فقال:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى، ولم أطلب، قليل من المال
ولكننى أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

نعم ، لو كان امرؤ القيس قد قنع من حياته بالنصيب الأخس لكفاه سرح من الإبل أو قطيع من المعز ، ولكنه ركب ما ركب من غمرات الهول ، وكابد ما كابد من ويلات الحرب ، ليدرك مجداً غاب ، ويرجع ملكاً ذهب . فالثورة إما أن يبعثها الحس الحيواني في الناس وإذن تبدأ بها العامة ، وإما أن يبعثها المعنى الإنساني فيهم وإذن تبدأ بها الخاصة . وسواء أبدأت بها العامة أم بدأت بها الخاصة فإنها تنتهي في الغالب إلى أن تكون ثورة الفريقين جميعاً . وإن لنا في ثورتنا الثانية على الاحتلال والاستعباد ؛ وفي ثورتنا الثالثة على الطغيان والفساد ، أصدق الشواهد على ذلك .

ثارت عامة الشعب على الإنجليز في سنة ١٩١٩ لأنهم استغلوهم وقتلوهم : سخروا قوات شبابهم وأقوات دوابهم ليمونوا بها الجيوش في الحرب ، وغصبوا حميرهم وخيولهم وبغالهم ليحملوا عليها عتاد الحرب ، فهلك من هلك من الأنفس ، وضاع ما ضاع من الأموال ، فتنبه من كانوا غافلين من الفلاحين إلى أن هؤلاء الدخلاء الذين سلبوهم رزقهم وثروتهم ، هم الذين سلبوهم وطنهم وحريتهم ، فصرحوا لهم بالشر ، وتفجروا عليهم بالغضب ، فقطعوا المواصلات في الطرق والأنهر ، وقاتلوا الإنجليز في المدن والقرى . ثم تلاقت في هذه الثورة قوة الأدب من أعلى وقوة المادة من أسفل فظفرنا بإلغاء الحماية وإعلان الدستور .

ثم ثار قادة الجيش في سنة ١٩٥٢ على طغيان الملك وفساد الحكم وجور الإقطاع وتبعهم الشعب لا لأنه أصيب في شبابه وأقواته ومواشيه ، ولكن لأن وعيه كان قد نضج ، ورشده كان قد اكتمل ، ومثله كان قد علا ، فرأى أنه أمة من الناس يصدق عليه قول الله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ثم جرى في خواطر خاصته معنى الحديث المحمدي المأثور : (كيفما تكونوا يول عليكم) فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : أنحن من الفجر والفحش والضلال والانحلال والعفن بحيث يتولى أمورنا ملك داعر كهذا الملك ، وحاشية فاجرة كهذه الحاشية ، وحكومة فاسدة كهذه الحكومة ؟ ولكن الأجوبة التي انبعثت همساً من أفواه العامة إلى آذان الخاصة أقنعت الشباب الأحرار من قادة الجيش أن الوطن سليم ، وإنما المرض في زعمائه ، وأن الشعب صالح وإنما الفساد في كبرائه ، فخافوا على مصيره قول الله عز قوله : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فثاروا على هذه الحال فأخذوا ذلك الملك الخليع فألقوه في البحر ، وقبضوا على تلك

الحاشية الماجنة وطرحوهم فى السجن ، واتقوا الساسة المريبين فجزوهم فى المعتقل ، وفرزوا الموظفين الغادرين ورموهم فى الشارع ثم فتحوا باب الصلاح والإصلاح على عهد جديد فيه العزة للوطن والكرامة للمواطن والعدالة لكل مظلوم والرعاية لكل عامل والعناية بكل ضعيف ، حتى شعر كل مصرى بأنه ارتفع إلى مقام الإنسان الكريم الحر ، فأرضه له وحكامه منه وسعيه لنفسه وزمامه بيده .

* * *

فالثورتان كما يلاحظ المؤرخ الاجتماعى اختلفتا فى الأسباب المباشرة والوسائل المؤدية والأيدى البادئة على حسب اختلافهما فى البواعث المادية والأدبية ، وفى آثار تلك البواعث فى نفوس العامة والخاصة ، ولكنهما اتفقتا فى النتائج القريبة والغايات البعيدة والفكرة الجامعة ، على حسب اتفاقهما فى الخير العام والوطن المشترك والغرض الواحد .

فإذا قلنا : إن ثورتنا بعد الحرب العالمية الأولى كانت لعوامل اقتصادية ساعدتها عوامل روحية لا نجاوز الحق ، وإذا قلنا : إن ثورتنا بعد الحرب العالمية الثانية كانت لعوامل روحية ساعدتها عوامل اقتصادية لا نخالف الواقع . وما يصدق على ثورتينا يصدق على كل ثورة وما دام ابن آدم خاضعا فى بعض حالاته لمطالب الجسد وفى بعضها الآخر لمطالب الروح فلا بد أن تكون بواعث الثورة فيه إما جسدية كالجوع ، وإما روحية كالعبودية . ولم تجد ولن تجد شرا على الإنسانية من هذين الشرين ولا أبعث على العداوة والحروب من هاتين البليتين ؟

أحمد حسن الزيات

آفة الشرق هذا الغرب

يخيل إلى من هول ما أسمع وأرى أن هذا الغرب قد مسخ حوتا من حيتان الأساطير له رءوس أربعة قد فغر أفواهها جميعا على الساحلين الإفريقى والآسيوى يريد أن يطبق فكوكها على العالم العربى بأسره ، وإنما عوق هذه الحلاقيم عن الازدراد هذا الخلاف الصاخب بين تلك الرءوس على الاقتسام كيف يكون وعلى الالتقام متى يبدأ ! وإذا تصورت أفواج السمك حين يسوقها التيار إلى شبكة الحوت فتجزع وتضطرب ، تصورت أمم الشرق الصغيرة وقد روعها هذا الوحش الهائل وهى وادعة فى ظلال دينها ، قانعة بحلال الرزق من أرضها ، فتنظر إليه نظر المقضى عليه ، فتستنجد بالعهود فلا تنجد ، وتستغيث بالمواثيق فلا تغاث .

وحى الرسالة ٣ : ٧٤

الرسول ﷺ يصف القرآن

للأستاذ محمد محمد المدنى

فيما يرويه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، هو النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يعوج فيقوم . ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد » .

وفيما رواه الحارث الهمدانى عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .

« ستكون بعدى فتن » ، فقلت : وما المخرج منها ؟ قال :

« كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، هو الذى من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

° ° °

وهذان الحديثان الشريفان فيهما ألفاظ وعبارات يحتاج بعض القراء إلى الكشف عن معانيها والمراد منها .

ونحن شارحوها فى قصد وإيجاز :

° قوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله » .

شبه ما فى القرآن من غذاء للعقول والأرواح ، مباح ميسر لمن قدم إليهم ، بالمأدبة التى يدعى إليها الناس - وقد جرت العادة بأن تكون حافلة كثيرة الخيرات ، ثم بين بقوله : « فتعلموا من مأدبته » ، أنها مأدبة معنوية ، فهى مأدبة علم ونور ، لا مأدبة طعام وشراب .

° قوله : « إن هذا القرآن حبل الله » .

تمثيل بالحبل الذى يستمسك به حذراً من الوقوع . فالقرآن كأنه حبل مده الله للناس ليستمسكوا به إذا أرادوا النجاة والفلاح .

° « لا يعوج فيقوم » .

لا يمكن أن يصيبه عوج فى وقت ما ،

حتى لا يحتاج إلى أن يقوم ، أى يعدل : وأنه لكتاب عزيز «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد» .

فليفهم هذا أولئك الذين يحاولون الخروج على أحكامه زاعمين أنها لم تعد مناسبة لأهل العصور الحديثة ، أو للمدنيات والحضارات الجديدة ، فكأنه فى أنظارهم معوج ، وهم يريدون أن يقوموا هوجه ! « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » ، « أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

• « ولا يزيغ فيستعتب » .

معناه : لا يميل ولا يجور فى حكمه ، حتى يحتاج الناس إلى أن يستعتبوه ، أى يسترضوه ويطلبوا منه أن يكشف عنهم جوره وذلك من قول القائل « استعتبته فأعتبنى » ، أى استرضيته فرضى عنى .

وهو تمثيل بالحاكم الذى قد يجور فى حكمه بغيا على الناس ، كأنه عليهم غضبان ، فيستعتبونه ، أى يرضونه ، والقرآن حاكم عادل لا يكون منه ذلك ، لأنه جاء رحمة للعالمين ، وقد كان الناس من قبله ربما أذنبوا أو عتوا عن أمر ربهم فغضب عليهم وعاقبهم بتحريم شىء من الأشياء ، أو بتكليفهم ما فيه مشقة عظيمة ، كمظهر من مظاهر الغضب ، وقد سمى الله أمة القرآن رحمة وذكرى للعالمين ، وهدى وبشرى للمؤمنين .

• « ولا تنقضى عجائبه » .

هذه إحدى خصائص القرآن الكريم ، فهو كتاب مقروء يماثل فى عظمته كتاب الكون المشاهد ، لا يزال الناس يطلعون منهما على جديد عجيب ، ولذلك كلف الله الناس أن يتدبروا القرآن ، وأن يتدبروا آيات الله فى الكون ، فكلاهما موصل إلى الإيمان ، وهذا تكليف موجه إلى جميع العصور ، وجميع العقول ، وقد أظهرت الأيام والحوادث والعلوم والمخترعات ، كثيرا مما كان خافيا على الناس فى الكون ، وفى القرآن ، وسيظهر فى المستقبل أيضا ما شاء الله أن يظهر ، تحقيقا لقوله تعالى :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

• « لا يخلق على كثرة الرد » :

أى هو جديد دائما مع كثرة ترديده والتأمل فيه ومدارسة معانيه .

شبهه بثوب لا يخلق ـ أى لا يبلى ولا تدركه الملاسة ـ مهما استعمل .

• « فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » .

يريد أن القرآن الكريم متضمن لثلاثة جوانب تدور عليها أمور الناس :

أحدها : إنباء الغيب عن الأمم السابقة ، والرسالات المتقدمة ، وقد جاء القرآن فيها بفصل الخطاب ، وكان كثير منها قد حرف أو طمست معالمه ، أو أخفاه أهل الكتاب عن الناس ، فلم يعد يعلمه إلا القليل .

الثانى : أخبار الغيب المستقبلة عما يأتى من أحداث ووقائع ، أو عما سوف يستحدثه الناس أو يكتشفونه .

وقد جاء القرآن بأخبار كثيرة تحققت حوادثها بعد عصر نزوله ، وأشار إلى أمور ومكتشفات وسنن وآفاق ما يزال الناس يطلعون عليها عصرا بعد عصر .

الثالث : أحكام القرآن وتعاليمه ومبادئه التى هى دستور الأمة وقوانينها الكاملة التى لو ساروا عليها حقا ، لاستقرت أمورهم ، وسعدت حياتهم .

« « من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » :

وحوادث التاريخ شاهدة بذلك لمن تتبع سير الطغاة ، وأخبار الجبابرة ، وعواقب أهل الانحراف عن تعاليم القرآن ، فإن نهايتهم كانت دائما خذلانا أو هلاكا ، أو ضياعا ، ومنهم من أصابته القوارع ، وجعله الله مثلا للآخرين .

« « ولا تزيغ به الأهواء » :

أى : لا تميل به ، ولا تستطيع أن تحرفه بقياراتها مهما عنفت واشتدت ، بل تزول هى بعد حين ، ويبقى هو ثابتا شامخا لا يتزلزل « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

« « ولا تلتبس به الألسنة » :

من قولهم : التبست به الخيل ، أى لحقته .

والمراد أن عبارات القرآن وتراكيبه ، هى نسيج وحدها ، تراها متميزة عن سائر الكلام مهما بلغ من القوة والفصاحة ، فلا يمكن لأى لسان ، أى لأى كلام ، أن يلتبس بها أو يلحقها .

وإنك لتدرك جمال اللفظ القرآنى بين سواه من الألفاظ ، حتى لتحسبه الدر بين الحصى .

« « ولا يشبع منه العلماء » :

من خصائص القرآن أنك كلما زدته نظرا أزادك علما ، وازددت به شغفا . وكلما أصغيته حبك ، وقبلت عليه بقلبك ووجهت إليه ثاقب نظرك ، فتح الله به عليك فتوحا وكشف لك به من أسرار الفهم والعلم ماتقر به عينك ، وتهيم به روحك ، ولذلك كان دأب عليه العلماء فى إقبال وشغف ، فلا يشبعون منه ، ولا يملون دراسته ، لأنهم ذاقوه فعرفوه .

وفى ذلك يقول بعض العلماء :

إن القرآن الكريم قد جاء على نحو عجيب يجعله آية ومددا البليغ فى بلاغته ، وللحكيم فى حكمته ، وللفيلسوف فى فلسفته ، وللاجتماعى فى اجتماعه ، وللمقنن فى تقنينه ، وللسياسى فى سياسته ، وللحاكم فى حكومته ، وللزراعى فى زراعته ، وللفلكى ، وللمهندس ، وللعامل ، وللصانع ... كل واحد من هؤلاء يجد فيه ما يدله على تفوقه غير العادى ، وما يشبع به نهمه العلمى ؟ .

محمد محمد المدنى

الإســلام والسّيـاسـة

للأستاذ الدكتور محمد غلاب

منذ الحقبة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، جعلنا نشاهد لدى الشعوب عامة نوعا من التقزز والامتعاض من السياسة يتفاوت مظهرهما والتعبير عنهما كثرة وقلة بتفاوت الظروف والأحوال التى تدعو إلى تعمد الغموض ، غير أن الأضواء الناشئة عن الأحداث ، أو المنبثقة من نضوج الشعوب ، قد أخذت تنتشر شيئا فشيئا حتى أوضحت معالمها ، وجلت أسبابها ومصادرها ، فهبت أصوات واعية مسئولة ، وطفقت تعلن أكاذيب السياسة الداخلية الحزبية ونفاقها وأخطارها من جهة ، وكشفت عن وجه السياسة الدولية الكالح المرائى الذى يتحدث عن العدالة ، وهو أبعد ما يكون عن تطبيقها أو التفكير فيها . ولقد نبهت هذه الأصوات المدوية المنادية بالحذر من نفاق السياسة عددا من العقول الراجحة المثقفة إلى تلك الهوة الواسعة التى تفصل السياسة من الأخلاق فى العصر الراهن . ولو أن كلا منهما ينادى على التوالى بالعدالة المطلقة ، بل إن هذا النداء المتوالى ، وتلك الدعاية الرائقة للعدالة ، ومشاهدة نتائجهما المتناقضة مع الواقع أتم التناقض ، كل ذلك قد أسهم فى فتح عيون السواد الأعظم من الشعوب . ولا غرو فإن الأمم مفطورة على الاحتفاظ بكثير من الجوانب الخلقية الجبلية التى أنبأنا الإسلام بأصولها وفطريتها لدى الإنسانية على السواء ، وهذا هو سر انعطاف جميع الأمم من غير استثناء إلى تثبيت العدالة الحقيقية . وهو كذلك منشأ قوة الحاسة الخلقية فى نفوسها إلى حد أن تزيفها ، أو تلويثها بيد السياسة يثيرها ، ويدفع قلوب أبنائها إلى الامتعاض . وهذا ينتهى بها حتما إلى الارتيابية السياسية . ونحن نعلم أن الارتيابية فى السياسة تصل بها إلى العجز والإجداب التامين كما هو شأنها فى الفلسفة أثناء عهود الشك أو (اللا أدرية) وأن العالم الذى نحن فيه يتطلب الآن حياة قوية متسقة أكثر مما كان يتطلبها فى أى وقت آخر .

على أن هذا الاضطراب ، وتلك الفوضى اللذين أصابا كثيرا من الأمم قديمها وحديثها ، لا ينبغى أن يصيبا المسلمين المتمسكين بدينهم لأن الإسلام يمتاز بالاشتمال على الاتساق

فى العدالة بين السياسة والأخلاق ولا يتعلق الأمر إلا بنا ، وبممثلينا فى أن نقتبس هذه المبادئ الرفيعة من ديننا ، وأن نطبقها أحسن التطبيق ، والآن يجب علينا أن نبين كيف اتسعت الهوة بين السياسة والأخلاق وما هو موقف الإسلام من هذه المسألة .

لكى نفهم أن هذه الثنائية بين السياسة والأخلاق اللذين يتحدثان كلاهما باسم العدالة قد أنتجت نتائج عملية لا يمكن التوفيق بينها وينبغى الصعود على سلم التاريخ إلى عهد الإغريق الذين يصورهم (نيتشا) فى هذه الناحية فيقول : « عندما نتحدث عن الإغريق ، إنما نتحدث عن الأمس واليوم ... فالحرية التى نملكها للكتابة عنهم هى التى تسمح لنا بالصمت عن قوم آخرين ، لأن الإغريق هم الذين ييسرون فى أذن القارئ المتأمل ما يستفيد منه ، وهم الذين ييسرون لإنسان زماننا مهمة تسجيل الأشياء التى تدفع إلى التأمل » .

ولكى نتغلغل إلى أعماق السياسة الوضعية ، ينبغى أن نتجه إلى المؤرخ الإغريقى (توكوديديس) الذى امتاز بدرجة عالية من ذكاء بنى جلدته ، وصفاء قرائحهم ونزاهتهم ، والذى استطاع أن يقرأ ما فى نفوس الأناسى ، وأن يكشف أسرارا كبرى لولاه هو وأمثاله ، لظلت خافية بين ثنايا الزمن . ومما نستنير به من كتب ذلك المؤرخ فى هذا الشأن ما سجله فى الكتاب الخامس من (تاريخ الحرب البيلوبونية) من تلك المحاورة الشهيرة التى دارت بين مستشارى جزيرة (ميلوس) ، وسفراء (أثينا) وهى القصة التى تحتوى على تلك الأسرار التى يضعها الساسة المعاصرون تحت عنوان « السياسة الوضعية » .

ومجملها أن جزيرة ميلوس كانت تريد أن تظل محايدة بإزاء الحرب التى اشتعل أوارها بين (أسبارطا ، وأثينا) . غير أن أحد الجيوش الأثينية لم يلبث أن نزل إلى الجزيرة بغتة وطلب من أهلها فى حزم : إما الخضوع والانضمام إليه ، وإما الحرب ، ولما كانت ميلوس ضعيفة ، فإن اشتراكها فى الحرب معناه القضاء عليها نهائيا . ولهذا يسأل مستشاروها قائلين : « أهذا عدل ؟ » ، فيجيبهم سفراء أثينا بقولهم : « عندما يتعلق الأمر بالقضايا الإنسانية العامة ، لا يتحقق الخضوع للعدالة إلا إذا اقتضت ذلك ضرورة . والقاعدة الوحيدة فى هذا هى السلطان بالنسبة إلى القوى والخضوع بالنسبة إلى الضعيف ، وهنا يسأل مستشارو الجزيرة قائلين : وهل هذا الخضوع يكون مشرفا للضعفاء ؟ فيرد سفراء أثينا بقولهم : « احذروا فعندما يترك المرء نفسه ينزلق وراء كلمة الشرف ، فإنه يكون ممن تستهويهم الكلمات . أما القوى فلا يحتاج إلا إلى التبصر ، وفى كل مكان توجد فيه القوة

تقتضى الضرورة المحتومة أن توجد السيادة . ولسنا نحن الذين وضعنا هذا القانون ، وإنما هو أزلى ، حقا إن هـذا القانون فى اعتقادهم قاس ولكنهم يرون أنه هو الوحيد الذى يمكن أن يقر النظام فى العالم . وهو ليس منافيا للعدالة ، لأن العدالة فى رأيهم لا يمكن أن توجد إلا بين أطراف متساوية فى القوة تتناوب الخدمات أو الضمانات ، لأن مصالحها إذ ذاك تتحقق فى ألا تتبادل الهدم فيما بينها . وإذن فالعدل عندهم ليس مضادا لقانون القوة وإنما هو حالة خاصة من حالات هذا القانون وهى التعادل بين القوى المتساوية .

وفى هذه النصوص القديمة المأثورة عن الإغريق تتبين جليا عناصر السياسة المستعملة اليوم بين الكتلتين : الغربية والشرقية . ومنشأ مناوراتهما التى ترمى دائما إلى الاحتفاظ بهذا التعادل ، وتلك هى السياسة المنبثقة من النقص البشرى .

ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن الإغريق قد أجمعوا على وجوب سيادة هذه المبادىء التى ترى ضرورة تحكم القـــوى فى الضعيف كلا ، ة (إفلاطون) يلاحظ وجود هذا القانون ولكنه يصلحه إصلاحا أساسيا إذ يقرر أن على الحكماء أن يسودوا ويأمروا وعلى الجهلاء أن يخضعوا ويطيعوا ، وإلا لما وجـــدت فى العالم مثالية ولا عدالة ولأصبحت الصدارة للقوة الوحشية على الحكمة . ولا غرو فإن هذه الشخصية العظمى المنبعثة من فطرة أشـد عظمة والتى شاءت السماء أن توجد فى إغريقا أثناء عصر الانحلال والتدهور الذى أفسدته تعاليم السوفسطائية التى أطلقت غرائز القوة الوحشية من عقالها وقدمت الغلبة البهيمية على الحق والاستقامة ، فلم يكن يشاهد هذه الحالة الأسيفة حتى هب يقاومها بكل ما لديه من قوة ، وبدأ بنفسه فحكم قوته الناطقة فى قوتية الشهوية والغضبية وبهذا قدم لمعاصريه وللأجيال الآتية أصدق المثل الرائعة التى تصلح لأن تكون قدوة نموذجية للإنسانية جمعاء ، ولقد بدأ دراسته هـذه باستكشاف ذلك الظل السميك الذى كاد يخفى اللألاء الإغريقى والذى هو « الحاجة إلى سيادة القوة التى لا تهدف إلا إلى تربية مادية فظة » . وهكذا صمم إفلاطون على أن يمحو كل هذه الظلال الكثيفة ، وأن يحل محلها طموحات سامية نبيلة وهى الأهـداف الفلسفية التى استطاعت - لحسن حظ البشرية - أن تأسر عقول الشباب ، وتسحر قلوبهم . ومن هؤلاء وحدهم تألفت الأجيال المقبلة بسبب ما أقره فى رءوسهم من فكر : « العدالة فى ذاتها » و « الخيرية فى ذاتها » ، إلى غير ذلك بما صار ، بفضل تعاليمه ، مألوفا لدى الخاصة والكافة .

ومن أهم ما يلفت النظر عند إفلاطون هو أن العـدالة ليس معناها التعادل بين قوتين

متساويتين وهى أيضا لا تنحصر فى طاعة قوانين الدولة مهما كانت حسنة ، وإنما هى عنده وجوب وجود إصلاح سياسى كامل تكون فيه العدالة هى الفضيلة الأساسية أى عماد جميع الفضائل أو جماعها كلها .

وكذلك (أرسطو) يحتفظ للعدالة بنفس العنصر الأخلاق ، أى أنها هى التى يجب أن تسود كل علائقنا مع الآخرين . ومنذ عهد هذين الحكيمين لم تتعارض السياسة مع الأخلاق قط ولو نظريا على الأقل بل ظلتا مترابطتين فى نفوس البشر ولو بالقوة لا بالفعل كما يقول الفلاسفة .

بيد أن هذا الكفاح الجدى الذى قامت به الفلسفة لتنظيف السياسة من أدرانها ، وإخضاعها للأخلاق لم ينجح فى هذا التطهير كل النجاح ، بل إن هذا النبع الصغير الذى بدأ تمجيد القوة ينبجس منه فى عهد (توكوديديس) ضئيلا أول الأمر قد جعل يتسع ويمتد حتى صار نهرا للظلم والطغيان . ولكن ممثليه ، كانوا دائما يضعون الأقنعة على وجوههم الكالحة زمنا طويلا ليخفوا وحشيتهم متحككين بالعدالة دائما خوفا من حكم التاريخ الذى لا هوادة فيه ولا رحمة . وقد ظلت الحال على هذا المنوال حتى تم انتصار المذاهب الوضعية والمادية فى القرن التاسع عشر وكشف أشياعها النقاب عن نفاق السياسة ، وحطموا الزجاج الذى كان يحجبها نوعا ما ، فظهر المجون على أتم صوره معلنا أن السياسة شىء والأخلاق شىء آخر . وقد صور هؤلاء الوضعيون تلك القطيعة بين الأخلاق والسياسة بما أطلقوا عليه اسم السياسة الواقعية أو (الضرورة الحيوية) التى تسمح لبعض بقهر الآخرين على إلغاء ضرورة حياتهم ، وقد نجم عن ذلك أن السياسة خلت من جوهرها الأخلاقى ثم هوت بين أيدى أولئك الذين لا يرمون إلا إلى النجاح المادى الفورى أو إلى فوائد طائفة معينة ، أو إلى تحقيق مطامع لا تقف عند حد ، فصارت جهازا مفزعا ، أو آلة ميكانيكية فارغة تلتهم كل ما تصل إليه أو يصل إليها ، وتصنع شقاء الأناسى بمداومة لا تخمد ولا تكل .

هذا هو مجمل مظاهر السياسة الحديثة التى تعرف العدالة بأنها (حفظ التوازن الضرورى فى منطقة أو مناطق معينة من الكرة الأرضية) ولطالما تحدث الساسة عن حفظ التوازن فى أوربا . والآن هم يرددون فى كل يوم كلمة (حفظ التوازن فى منطقة الشرق الأوسط) دون أى التفات إلى شقاء بعض الشعوب الصغيرة أو إلى انسحاقها فى سبيل ذلك التوازن الذى لا يخرج عن كونه ضروريا للقوى الاستعمار

وأيا ما كان فإن هذه القطيعة التى انتهى إليها العالم الحديث بين السياسة والأخلاق ، قد نشأت فى مجموعها من ضعف العاطفة الدينية وانتصار الوضعية المادية التى أولى نتائجها

تقسية القلوب ، ولكن هذا الخطر الداهم يجب أن يكون بينه وبين الأمم الإسلامية بون شاسع بشرط أن تتحد فيما بينها، وتكون قيادتها فى أيدى زعماء مؤمنين ذوى كفايات ممتازة ، ووعى متيقظ وإيثار فدائى وذلك لأن الاتحاد مع حسن القيادة ، يمنح الشعوب قوة تقيها من أن تكون ضحايا الطغيان والجور ولكن هذه القوة الواقية لا تخلق ألبتة من الأمم الإسلامية جلادين ولا ظالمين لأن مبادىء الإسلام تربط ربطا محكما بين الأخلاق والسياسة لأنها تأمر معتنقيها باستعمال العدالة مع الأعداء والأصدقاء بدرجة واحدة ولا تسمح بالظلم الفردى أو الجماعى تحت عنوان أى مسوغ ولا فى ظل أى ظرف مهما كان، ومن أى كان، وضد أى كان .

«إنه لا يحب الظالمين» (سورة ٤٢ آية ٤٠) «وقد خاب من حمل ظلما» (سورة ٢٠ آية ١١١) «ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا» (سورة ٢٥ آية ١٩) «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» (سورة ٤ آية ١٣٥) من هذه العدالة التى بلغت فى الإسلام أقصى حدود الشدة والعناية ، يتبين جليا أن حقوق الغير لها فى هذا الدين الجليل الخالد قداسة خاصة إلى حد دفع فريقا من الأجانب إلى القول بأن هذه الحقوق توشك أن تكون هى المبدأ الثانى الذى نادى به الإسلام بعد التوحيد . ويذكر هذا الفريق للتدليل على عناية الإسلام الفائقة برعاية حقوق الغير تلك العبارة الإسلامية المأثورة وهى : إن الظلم الذى يقع على الناس من أفراد أو من جماعات حتى لو كان على غير معرفة من المظلومين، يبقى عبئا على فاعله أو فاعليه ، ويظل ذلك فى عنقه حتى يعترف أمام المظلوم ويرد إليه حقوقه كاملة ويظفر منه بإبراء ذمته فى وضوح لا يعرف المواربة ، ومعنى هذا فى صراحة أن الأسف والندم النظريين لا يجديان فتيلا.

وإلى جانب ذلك يدين الإسلام - فى جد لا يألف اللين ولا الانحناء - روح السيادة والاستعلاء والسيطرة والفساد بأوسع معانيه أى الفساد الأدبى والمادى والفوضى إذ يقول «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين» . (سورة ٢٨ آية ٨٣) .

ومما هو موضع إعجاب فى المبادىء الإسلامية ، أن سياسة العدوان والابتلاع التى تطلق عليها لغة العصر اسم «ضرورة الحياة» ، لم يفت القرآن أن يدينها ويندد بها ، وينهى أتباعه عن استعمالها فيقول : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» (سورة ٢ آية ١٩٠) «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما

جعل الله لكم عليهم سبيلا » (سورة ٤ آية ٩٠). وهنا ينبغي أن نعلن سرورنا واغتباطنا ومباهاتنا بالسير على نهج القرآن في هذا ولم لا ! ألم يقل رئيس جمهوريتنا : « نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا » .

ولم يكتف الإسلام بمطالبة أتباعه بعدم الاعتداء على الآمنين المسالمين ، بل أمرهم بالمسارعة إلى إغاثة المظلومين ، وأوجب عليهم المبادرة إلى مناصرة المضطهدين ولو أدى ذلك إلى الحرب في سبيلهم والقتال في صفوفهم بلا أي غرض من أغراض التوسع أو الاستعباد وإنما بغضا للباطل والجور وحبا للحق والعدل ، « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » (سورة ٤ آية ٧٥) . غير أن المروءة والرجولة والشهامة الحديثة قد شاءت للمحاربين المعاصرين - بدلا من حماية المستضعفين من الشيوخ والنساء والولدان - أن يلقوا عليهم القنابل وهم نائمون في بيوتهم فيفزعوهم من نومهم ولو أن لديهم من تعاليم الإسلام ما يرشدهم إلى المعالم الباقية من الإنسانية ، لحصروا الحروب في جبهاتها وميادينها .

ومما يسترعي الانتباه في هذا الصدد أن الفضائل التي يأمر بها الإسلام ، لا تتعلق بالجوانب المادية أو بالشؤون العملية من الحياة فحسب ، بل هي قبل كل شيء مسئولية معنوية مثالية رفيعة وهي مطلوبة من كل فرد وجماعة في الأمة ، وهي لدى الحاكمين والمهيمنين أشد منها لدى المحكومين والمسيرين ، إذ أن هؤلاء الآخرين مسئولون عن أنفسهم فحسب بينما أن الأولين مسئولون عن أنفسهم وعن غيرهم كما ينص الحديث الشريف بقوله: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) أي أن رئيس الدولة مسئول عن الدولة كلها والوزير مسئول عن وزارته ، والأستاذ مسئول عن تلاميذه ، ورب الأسرة مسئول عن أسرته ، والزوجة مسئولة عن منزل زوجها ، والخدم مسئولون عن مصالح مخدوميهم ، وبمناسبة الحديث عن مسئولية المهيمنين على الشؤون العامة وفي مقدمتهم رؤساء الدول يجب أن نعلن رأي الإسلام في احترام المعاهدات وفي الوفاء بالعهود ومصارحة الغادرين بغدرهم ، والخائنين بخيانتهم وذلك كله مناف لسياسة العصر الدولية المؤسسة على المخاتلة والمراوغة ، والتي تقر مناقضة المعاهدات قبل أن يجف مدادها ، وتعتبرها « قصاصات ورق » ، وهو كذلك متعارض مع السياسة الداخلية المكونة من الوعود المصنوعة « للاستهلاك المحلي » .

ومعنى هذا في وضوح أن رؤساء الدول يجب أن يكونوا شرفاء صرحاء شجعانا في

صراحتهم مع الصديق والعدو على قدم وساق مع الداخليين والخارجيين على غرار واحد وتلك السياسة هى التى يرسم القرآن خطوطها الرئيسية فيقول : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . » (سورة ٨ آية ٥٨) . « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . (سورة ٥ آية ١) . « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » (سورة ١٦ آية ٩٢) .

ونحن إذا تأملنا فى هذه السياسة الداخلية والخارجية التى رسم لنا الإسلام هياكلها الرئيسية ألفيناها ـ ولله الحمد أولا وأخيرا ـ تطبق الآن فى جمهوريتنا تطبيقا يسير نحو الكمال بخطوات ؛ واسعة إذ أن الرئيس (جمال عبد الناصر) عندما يخطب فى جماهير الشعب بشأن أى أمر من الأمـــور الداخلية « لا يمضغ الكلمات » كما يقول الفرنسيون أى هـو يصارحها بأسوأ الحالات وينبئها بتفاصيل العجز والنقص فى الإنتاج والزيادة فى الاستهلاك ، وكذلك بإزاء السياســـة الخارجية هو يعلن على رءوس الأشهاد ، وفى محطات الإذاعة (والتليفزيون) أن الدولة الفلانية من العرب قد خرجت على الإجماع ومرقت من الوطنية أو أن دولة كذا أو كذا تريد أن تملى علينا شروطها ، ونحن نصارحها بأننا لا نقبل شروط أحد ولا نريد أن نخضع لأية قوة كانت فلتحطم هذه الدول رءوسها على الصخور وأننا سننتصر حتما لأننا مؤمنون بمبادئنا عاملون بإيماننا ؟

الدكتور محمد غلاب

عزل وال

لما حج الرشيد سنة ست وثمانين ومائة دخل مكة ومعه يحيى بن خالد ؛ فانبرى إليه العمرى فقال : يا أمير المؤمنين ، قف حتى أكلمك ! فقال . أرسلوا زمام الناقة ، فأرسلوه ، فوقف فكأنما أوتدت ، فقال : أقول ؟ قال : قل ، فقال : اعزل عنا إسماعيل بن القاسم . قال : ولم ؟ قال : لأنه يقبل الرشوة ، ويطيل النشوة ، ويضرب بالعشوة ، قال : قد عزلناه عنك ، ثم التفت إلى يحيى فقال: أعندك مثل هذه البديهة ؟ فقال: إنه ليجب أن يحسن إليه ، قال : إذا عزلنا عنه من يريد عزله فقد كافأناه .

وظيفة الراعي ومسئولياته :

وثيقتان من الأدب الإسلامي السياسي

للأستاذ محمد خلف الله احمد

— ٢ —

أما الوثيقة الثانية التي اخترنا أن نعرضها هنا فتجيء متأخرة عن وثيقة الإمام بقرنين من الزمان ، ومنشؤها لم يكن خليفة ولا أميراً للمؤمنين ؛ ولكن قائداً وكاتباً ومؤسس أسرة من الوزراء والولاة فارسية النسب عربية الولاء ، لعبت دوراً كبيراً في الحكم والإدارة في العصر العباسي الأول ، وامتد نفوذها قرابة ثلثي قرن . في تلك المرحلة التي بلغت فيها الحضارة الإسلامية - أو كادت - ذروة اتساعها السياسي والثقافي والعمراني .

هذه الرسالة المطولة التي تشترك مع رسالة الإمام في الموضوع وفي كثير من الخصائص الأدبية والسياسية - حتى ليغلب على الظن أن منشئها حذا فيها حذو الإمام في رسالته - كتبها « طاهر بن الحسين » - رأس الأسرة الطاهرية . لابنه « عبد الله » لما ولاه المأمون الرقة ومصر . وهي - كرسالة الإمام - تبدأ بحض الوالي على تقوى الله وبيان مسئوليته في رعاية أهل ولايته والعدل فيهم فتقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ، ومزايلة سخطه . واحفظ رعيتك في الليل والنهار ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك من الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه ، فإن الله سبحانه قد أحسن إليك ، وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم ، والقيام بحقه وحدوده عليهم ، والذب عنهم ، والدفاع عن حريمهم وبيضتهم ، والحقن لدمائهم والأمن لسربهم ، وإدخال الراحة عليهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت » .

ثم تعدد الرسالة الصفات والفضائل التي يجب أن يكون عليها الوالي في شخصه وفي سلوكه : فعليه أن يلزم نفسه المواظبة على ما فرض الله عز وجل من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس ، والأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده ، والاقتصاد في الأمور كلها ، والاستكثار

من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ، وإيثار الفقه وأهله والدين وحملته ، وكتاب الله عز وجل والعاملين به ، والإكثار من مشاورة الفقهاء ، والأخذ من أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة.

وتجيء بعد هذه صفات أخرى أدخل في عمل الوالي وأكثر التصاقا بالناس . يقول طاهر بن الحسين لابنه : « ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ، فإن إيقاع التهم بالبرءاء والظنون السيئة بهم آثم إثم ... ولا يمنعنك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ... » .

ويقول له : « ... واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى ، وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ... وإذا عاهدت عهداً فأوف به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، واغمض عينك عن كل ذي عتب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وابغض أهل النميمة وأحبب أهل الصلاح والصدق ... واجتنب سوء الأهواء والجور ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وإياك أن تقول ، أنا مسلط أفعل ما أشاء ! فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله عز وجل ...

ولا تحقرن ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلا فقيراً ، ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة . » .

٦ — وينصح له في شأن الأموال وإنفاقها والخراج وجبايته وتوزيعه فيقول :

« واعلم أن الأموال إذا كنزت وأدخرت في الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذى عنهم ، نمت وزكت وصلحت بها العامة ... فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ... وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله توسعة ومنعة ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ، ولا تدفعن شيئا منه عن شريف لشرفه ، ولا عن غني لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا عن أحد من خاصتك ولا حاشيتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ... واحمل الناس كلهم على أمر الحق فإن ذلك أجمع لإلفتهم ، وألزم لرضاء العامة ... واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم . فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ، ونفذه في قوام أمرهم وصلاحهم ، وتقويم أودهم ، واستعمل عليهم أولي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ... » .

وتعالج الرسالة - كما عالجت رسالة الإمام - شئون بعض الفئات التى تقوم على مرافق عامة فى حياة المجتمع كالجند والقضاة والكتاب وغيرهم .

فأما الجند : فعلى الوالى أن يتفقدهم فى دواوينهم ، وأن يدير عليهم أرزاقهم ، ويوسع عليهم فى معايشهم كى يقوى أمرهم وتزيد قلوبهم فى طاعة الوالى وأمره خلاصا وانشراحا .

« وأما القضاء : فهو من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية ، وتؤمن السبل ، وينتصف المظلوم ، وتأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ويقيم الدين ، ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها ... » .

وتتناول الرسالة نواحى متفرقة من النصح والتوجيه فى صلة الوالى بعماله ، وفى رعاية المرضى والفئات غير القادرة من الشعب ، وفى صلة الوالى بالجمهور ؛ فتنصح للوالى أن يجعل فى كل (كورة) من عمله أمينا يخبره خبر عماله ، ويكتب إليه بسيرهم وأعمالهم ، وأن يعرف ما يجمع عماله من الأموال وما ينفقون منها ، وأن يوقت لكل رجل من عماله وكتابه بحضرته فى كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج العمال وأمور الدولة والرعية ، ثم تنصح له أن يفرغ من عمل يومه ولا يؤخره لغده ، وأن يكثر الأذن للناس عليه ويريهم وجهه ، ويسكن لهم حواسه ويخفض لهم جناحه ، ويظهر لهم بشره ويلين لهم فى المسألة والنطق ، وأن يفرد نفسه بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليه ، وأن يتعاهد ذوى البأساء واليتامى والأرامل ، وأن يجرى للأضراء من بيت المال ، وأن ينصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم وقواما يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم .

ثم يختم « طاهر بن الحسين » عهده إلى ولده بقوله .

« وتفهم كتابى إليك ، وأمعن النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله فى جميع أمورك واستخره ، فإن الله عز وجل مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضى ولدينه نظاما ولأهله عزا وتمكينا ، وللملة والذمة عدلا وصلاحا » .

(٧) خاتمة :

إن هذه الدراسة التحليلية لوثيقتين هامتين من الأدب الإسلامى فى سياسة الرعية قد كشفت عن اتجاه إسلامى عام فى سياسة الرعية يقوم على ربط رعاية العباد بتقوى الله وخشيته وعلى وجوب تحلى الوالى فى نفسه بالصفات

التي دعا إليها الإسلام: من الصلاح والتواضع لله، والصدق في المعاملة، ومراعاة العدالة التامة بين جميع الفئات التي يتألف منها المجتمع وتوجيه مزيد من الرعاية للفئات غير القادرة على الكسب وإنفاق الأموال العامة في عمارة البلاد واستصلاح العباد.

هذا الربط بين عمل الولاة في سياسة الرعية وبين توحيد الله وعبادته والمحافظة على حدوده جزء من ظاهرة عامة واضحة، هي ظاهرة التكامل المعجز الذي يتسم به النظام الإسلامي في عقيدته وعباداته ومعاملاته واجتماعه وسياسته وأخلاقه، وهو تكامل لم يتح مثله لأي نظام آخر في تاريخ البشرية وإلى هذا التكامل يرجع كثير من أسرار النجاح الذي حققته الحضارة الإسلامية في عصورها الذهبية، والذي يمكن أن تحققه في تاريخها الحديث إذا حافظت على مقوماتها وسماتها الأصلية.

وقد أكدت هذه الدراسة التحليلية ما كشفت عنه البحوث الحديثة من السبق الذي تفردت به الحضارة الإسلامية في تقرير حقوق الأفراد والجماعات، وإرساء قواعد العدالة الاجتماعية، والتنبيه إلى مسئولية الحكام والولاة والرعاة فيما يحملون من أمانة الولاية على الرعية والنيابة عنها في توجيه شئونها العامة، والسير فيها بالعدل والقسطاس (١).

كما أكدت نتائج الدراسات التي قام بها السابقون من العلماء المسلمين في سياسة الراعي والرعية، وقد اشتهر من بين هؤلاء مؤلفان عالجا الموضوع معالجة كاشفة: أحدهما القاضي أبو الحسن الماوردي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ صاحب: «الأحكام السلطانية والولايات الدينية»، و«أدب الدنيا والدين» وغيرهما ويقرر المؤلف في كتبه أن صلاح الحياة

---

(١) أنظر لكاتب هذا البحث:

ا - «موقف الحضارة الإسلامية من حقوق الإنسان».

(بحث نشر بالمجلة المصرية للقانون الدولي ١٩٥٦ مجلد ٢).

ب - «حرية العقيدة والفكر في الإسلام». (بحث ألقي في المؤتمر الدولي للثقافة الإسلامية في لاهور - باكستان ٥٧/٥٨ نشر بالعربية في مجلة كلية الآداب بالإسكندرية مجلد ١٢/١٩٥٨. وبالإنجليزية في كتاب المؤتمر.

ج - «الإسلام والحضارة» (من مختارات الإذاعة - وزارة الإرشاد القومي - القاهرة).

د - «أثر الحضارة الإسلامية في رقي البشرية وسعادتها».

(بحث ألقي في المؤتمر السنوي الثاني لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٥، ونشر في كتاب المؤتمر).

الإنسانية وانتظام شئونها يقوم على ستة أركان رئيسية تتفرع عنها بقية أبوابها وهى: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح: فأما الدين المتبع: فإنه يصرف النفوس عن شهواتها، إذ يصير زاجراً للضمائر، ورقيبا على النفوس، وأما السلطان: فوجوده ضرورى لنظام العمران، ووظيفته فى الأمة حماية الوطن من أعدائه، وعمارة البلدان، والتصرف فى الأموال العامة على مقتضى السنة المشروعة، والقضاء على المظالم، والأحكام بالتسوية بين أهلها واختيار الولاة والعمال من أهل الكفاية والأمانة، وأما العدل الشامل فإنه يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمى الأموال ويأمن السلطان. والعدل عدلان: عدل الإنسان فى نفسه، ثم عدله فى غيره. وأما الأمن: فبه تطمئن النفوس ويأنس الضعيف، ويقر الخائف. وأما الخصب: فإنه يقوى رابطة الود والتواصل، ويخفف من حدة الحسد بين الناس، وأما الأمل الفسيح: فهو نعمة من الله، تدفع على العمل والتعمير والإصلاح، إذ لولا الأمل ما تجاوز الواحد حاجة يومه، ولا تعدى ضرورة وقته.

والمؤلف الثانى هو العالم الجرىء تقى الدين ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) صاحب كتاب «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية»، وقد أوضح فيه الفكرة الإسلامية فى السياسة العادلة والولاية الصالحة، بانيا تلك الفكرة على قواعد أساسية تضمنتها الآيتان الكريمتان: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» سورة ٥-٥٨/٥٩ وقد طبق ابن تيمية هذه القواعد فى مجال السياسة العملية، وبين كيف يؤدى كل من الراعى والرعية الأمانة كما يجب. واقتبس من الآيات والأحاديث ما يكشف عن أسرار المبادىء الإسلامية فى نواحى الحكم: من اختيار الولاة والعمال، وجباية الأموال وصرفها، ورعاية الحقوق، وتنظيم الجهاد، والأخذ بمبدأ الشورى، وما إلى ذلك من ضروب التنظيم للحياة العامة الصالحة.

وإذا كان هذا البحث قد اقتصر على تحليل وثيقتين من الأدب الإسلامى فى سياسة الرعية فإن التراث الإسلامى حافل بأمثالها من العهود والرسائل. ومن الملحوظ أن هذه النصوص والوثائق لا تنص على شكل معين من أشكال الحكم والولاية، ولكنها

شأن التعاليم الإسلامية فى تقريرها للأصول الكبرى لشئون الاجتماع الإنسانى - تعطى فلسفة وروحا ودليلا مرشدا يبقى على توالى الأيام مصدرا مضيئا، ينير معالم الطريق، ويفيد منه كل من يتولى أمراً من أمور المجتمع الإسلامى، سواء أكان ذلك المتولى فرداً أم هيئة أم مجلسا، وسواء أكانت ولايته عامة على الرعية أم خاصة بإقليم منها، أم محددة بقطاع من قطاعاتها.

وفى ختام هذا البحث نوصى بما يلى:

١ - أن يعطى هذا الجانب من الأدب الإسلامى مكانا فى مناهج تربية القادة، ومن يعدون لتولى الشئون العامة والإشراف عليها فى حياة الأمة: ككليات القانون والشرطة ومعاهد الإدارة وتخريج القادة والكليات الحربية وما إليها من المؤسسات.

٢ - وأن يجمع ما تفرق من نصوص هذا الأدب فى كتب التراث الإسلامى فى مجموعة أو مجموعات تضم توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية وعهود الخلفاء للولاة والوزراء والعمال والقضاة والقواد ومن إليهم، ونماذج من سير الحكام الصالحين وأحاديثهم وخطبهم فى القديم والحديث، على أن تنشر تلك المجموعات فى طبعات ميسرة للشعب تشارك فى تكوين الذوق الأدبى والضمير الأخلاقى لشباب الأمة.

٣ - وأن يقوم بعض المعاصرين من الباحثين الإسلاميين بدراسة هذه النصوص فى ضوء التطور السياسى الحديث دراسة مقارنة تكشف عن الصلة الوثيقة بين ما تضمنته من تعاليم وما يحاول كفاحنا العربى والإسلامى فى العصر الحاضر انجازه من تحقيق الكرامة والمعيشة المطمئنة والفرص المتكافئة والعدالة الاجتماعية والحرية السياسية والاعتقادية والفكرية لجميع المواطنين وبذلك يتم الربط بين ماضينا وحاضرنا، وتكتسب فلسفاتنا الحديثة من هذا الربط تزكية وأصالة.

٤ - وأن تختار مجموعة من هذه الوثائق السياسية الإسلامية بترتيبها التاريخى إلى وقتنا الحاضر وتترجم إلى مختلف لغات الأمم الإسلامية كالأردية والأندونيسية والتركية والفارسية وإلى بعض اللغات الكبرى كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والأسبانية وغيرها لتقوم دليلا ماثلا على أصالة ثقافتنا وقيمنا وشاهدا مصدقا على السبق الذى تفردت به الحضارة الإسلامية فى مضمار التطور السياسى والأخلاق إذ وضعت أسس الديمقراطية الصالحة، ودعمتها بروح الإيمان والعقيدة ووضعتها موضع التطبيق الفعلى فى سياسة الرعية، وقررت من مبادىء العدل والشورى والمساواة ما تحاول البشرية الآن جاهدة أن تصل إلى تقريره عن طريق جهودها وكفاحها وثوراتها وهيئاتها الدولية. اهـ.

محمد خلف الله أحمد
عضو مجمع البحوث الإسلامية

نقض ما كتب فى رسالة

" دراسة فى أصوات المدّ فى التّجويد القرآنى "

للأستاذ محمد الصادق عرجون

— ٢ —

الطامة الثالثة : قالت صاحبة الرسالة (من الطبيعى - إعادة لأصل النص لتحقيق الربط - أن يغير - أى الرسول صلى الله عليه وسلم - فى نظام جملة يجعلها أكثر وضوحا) ، وهذه الطامة ليست ثالثة الأثافى ولكنها داهية الدواهى لأن التغيير فى نظام الجملة يحتمل تقديم كلمة فيها كانت متأخرة أو تأخير كلمة فيها كانت مقدمة ، وقد يحتمل التغيير الزيادة والنقص فى كلمات الجملة ، كما يحتمل تبديل كلمة بأخرى ، وأى ذلك أريد كان تحريفا لنص القرآن وتبديلا له ، وهذا التحريف والتبديل لنصوص القرآن ترى صاحبة الرسالة أنه من الطبيعى أن يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الجملة التى أنزلها الله تعالى عليه كانت غامضة مبهمة مشتبهة ، لا يتضح معناها ، وبهذا التحريف والتبديل تصير الجملة المغيرة المبدلة التى لم ينزل بها القرآن من عند الله أكثر وضوحا للمعنى المقصود والباحثة لم تشر - من قريب أو من بعيد - إلى أن هذا التغيير الذى يحدثه الرسول صلى الله عليه وسلم فى نظام الجملة القرآنية النازلة من عند الله بلفظها وأسلوبها ليجعلها أكثر وضوحا منها قبل هذا التغيير ، كان بتوقيف من الله تعالى ، بل إن أسلوب الباحثة صريح فى أن هذا التغيير كان من النبى صلى الله عليه وسلم لم ينزل عليه بما أنزل وإنه يلجأ إليه باعتباره أمراً طبيعيا وتقتضيه رغبته الشخصية فى استغلال ما فى طبيعة القوم المخاطبين من ارتياح إلى من يحدثهم بلغتهم . وهذا صريح فى أن نظام المرحلة القرآنية النازلة من عند الله كان أقل وضوحا فى إفادة المعنى المطلوب من نظام الجملة التى استحدث بها النبى صلى الله عليه وسلم التغيير والتبديل ، وحينئذ يكون القرآن قد نزل إلى المخاطبين بما لا يحقق إفهامهم المعنى من أقرب طريق كما هو موجب البلاغة فيكون غير بليغ ، ولا معجزاً .

وهذا يفتح الباب على مصاريعه لكل من تحدثه نفسه أن يغير فى نظام جمل القرآن على حسب تقديره بعلم أو جهل - ليجعل الجملة أكثر وضوحا - فى نظره - لإفهام المخاطبين ، وحينئذ لا تبقى جملة من جمل القرآن إلا ويمكن فيها القول بأن نظامها يحتاج إلى تغيير بالتقديم والتأخير والزيادة والنقص لتكون أكثر وضوحا عند بعض المخاطبين لأن الباحثة

لم تقصر هذا الحق على النبي صلى الله عليه وسلم ، بل جملته لأصحابه رضوان الله عليهم ، فهي تقول في ص (١٠) : (وحين نزل القرآن أول عهده كان الهدف الأول للمسلمين نشر الدعوة الإسلامية ، وطبيعي جداً أن يتركز الاهتمام على الفكرة ، وأن يشتغل بها الجميع ، فكان الرسول يقرأ النص ، ويغير فيه حسب الظروف ويسمح لمن يقرأ عليه بقدر من المخالفة) .

يا داهية الدواهي :

(١) الهدف الأول للمسلمين حين نزول القرآن عدم المبالاة بلفظ القرآن النازل من عند الله المتعبد بتلاوته .

(٢) الرسول يغير نص القرآن حسب الظروف وهذه الظروف ما هي ؟ وما حصرها ؟

(٣) التغيير حسب الظروف لا يقف عند النبي صلى الله عليه وسلم ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يسمح لمن يقرأ عليه بقدر من المخالفة في النص الذي سمعه منه ، وقد يكون هذا النص هو الذي جرى عليه التغيير من النبي صلى الله عليه وسلم حسب الظروف وقت الإقراء ، وقد تتغير هذه الظروف بظروف أخرى يحضرها من يقرأ عليه ليقرئ غيره أيضا فالتغيير لا يقف عند حد ولا حصر وإنما هو يخضع للظروف التي لا تحد ولا تحصر .

وليتصور أي مسلم هذا الوضع ليرى هل يبقى القرآن المنزل من عند الله وجوه كما أنزله الله ؟ وهل تبقى ثقة أي ثقة فيما بين يدي المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مما هو بين دفتي المصحف أنه هو القرآن النازل من عند الله المتعبد بتلاوة لفظه ؟

إن أعداء الإسلام وخصوم القرآن من الملاحدة القدامى والمحدثين ، ومن اليهود القدامى والمحدثين ، ومن المستشرقين المتربصين بهذا الدين - الإسلام - وكتابه المبين لا يستطيعون أن يهدموا صرحهما - ولن يفعلوا - بأقوى من هذا المعول المسموم الخبيث ، وفي هذا الصدد يقول أبو بكر الأنبارى في كتابه الرد على من خالف مصحف عثمان وهو مخطوط ، تحت يد بعض أصحابنا بعض أوراق منه اطلعنا عليها - راداً على أبي الحسن بن شنبوذ بدعته في القراءات الشاذة (وقد نبغ في زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة ، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التي لا يزال الله يؤيدها ويثبت أسسها وينمي فرعها ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور مكايد أهل العداوة والكفر . . . ثم ساق أمثلة من قراءاته التي تغير نظام الجملة القرآنية بالزيادة والنقص وتبديل لفظ بلفظ . . . إلى أن قال (والقرآن الذي جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر حرفا منه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد ، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه) ... وقال أبو عبيد : (لم يزل صنيع عثمان رضى الله في جمع القرآن يعتد له لأنه من مناقبه العظام).

وقد طعن عليه بعض أهل الزيغ فانكشف عواره ووضحت فضائحه وقال أبو عبيد: وقد حدثت عن يزيد بن زريع ، عن عمران بن حدير ، عن أبى مجلز قال: طعن قوم على عثمان رضى الله عنه بحمقهم - جمع القرآن ، ثم قرؤا بما نسخ .

قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان الذى أسقط بعلم ، كما أثبت الذى أثبت بعلم .

قال أبو بكر وفى قول الله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) دلالة على كفر هذا الإنسان ، لأن الله عز وجل حفظ القرآن من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان فاذا قرأ قارىء (تبت يدا أبى لهب وقد تب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب ، وأمرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من ليف) فقد كذب على الله عز وجل وقوله مالم يقل ، وبدل كتابه وحرفه ، وحول ماقد حفظه منه ومنع من اختلاطه به .

وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد ليدخلوا فى القرآن ما يحلون به عرى الإسلام وينسبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذه الأباطيل عليهم .

وفيه : إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام ، وبثباته تثبت الصلوات وتؤدى الزكوات ، وتتحرى المتعبدات .

وفى قوله تعالى : (الركتاب أحكمت آياته) دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر لأن معنى : (أحكمت آياته). منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها .

وفى قول أبى بكر الأنبارى (فإذا قرأ قارىء ، تبت يدا أبى لهب وقد تب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب، وأمرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من ليف) فقد كذب على الله عز وجل وقوله مالم يقل وبدل كتابه وحرفه) وضع لفكرة صاحبة الرسالة فى موضعها من العلم والدين فهى ليست من العلم فى شىء لأن العلم يعتمد على الحجة والدليل، ولم تسق صاحبة الرسالة حجة ولا دليلا على فكرتها المستشرقة فى السماح بتغيير نظام الجملة القرآنية دون توقيف من الله سوى الأسباب والطامات التى اختلقتها اختلاقا .

فأما وضعها فى مكانها من الدين فهو كما صرح به أبو بكر الأنبارى: أنه كذب على الله وافتراء عليه وتبديل لكتابه وتحريف له وليس وراء ذلك إلحاد فى دين الله ، يجره الجهل أو الإصرار . واستشهاده الذى ذكره نص فى موضوع لأنه وقع فيه تغيير لنظام الجملة القرآنية بزيادة كلمة (وقد) قبل الفعل الماضى (تب) وينطبق عليها أحد الأسباب المختلقة فى الرسالة، كما وقع فيه تغيير أيضا لنظام الجملة القرآنية بتبديل لفظة بأخرى قد يزعم زاعم أنها أوضح منها ، وهى لفظه (ليف) التى وقعت بديلا عن لفظة (مسد) التى نزل بها القرآن فى قوله (فى جيدها حبل من مسد) .

وقد عرض الإمام أبو بكر الباقلانى فى كتابه (نكت الانتصار) وهو أحد المخطوطات الهامة التى تحت يد بعض أصحابنا ومن نسخته نقلنا هذه النصوص - إلى قضية المساعة فى تغيير نظام الجملة القرآنية بتبديل لفظة بأخرى وهى بجمع الطامات التى دارت حولها فكرة الرسالة ، فأرانا (الباقلانى) أنها قضية قديمة اختلقها أعداء الإسلام من الملاحدة ليزلزلوا الثقة بأصل أصول هذا الدين وهو القرآن الكريم فقال : فإن قيل : فقد سلمنا أن نقل القرآن شائع ذائع وأن أبا بكر رحمه الله لم يأمر بطلب البينة لإثباته جملة أو إثبات ما هو معجز لكنه علم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفسح لمن قرأ عليه أن يقرأ الكلمة على وجه غير الوجه المعروف إذا كان المعنى واحدا ، لأن قدر الكلمة والكلمتين غير معجز فأمر أبو بكر بطلب البينة لثلايثبت كلمة إلا بشهادة ؟ وهذا باطل لأن أبا بكر رحمه الله إذا علم أن النبي صلى الله عليه وسلم وسع فى ذلك فلا يجوز له تضييقه ومنع القارئ من تبديل الكلمة بما هو فى معناها .

ولو جاز ذلك أيضا لأدى إلى الزيادة العظيمة فى القرآن وبدل أكثره ، ولا يحصر ذلك عدد بل قدر ما تحتمله الكلمة وذلك أن يأتى بالشاهدين يشهدان أن القراءة (طعام الأثيم) وآخران يشهدان (طعام الفاجر) وآخران يشهدان (طعام العاصى والكافر والفاسق والظالم) وهذا بين البطلان لاخفاء فيه ولا شبهة فى رده .

ولو كان القرآن فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المعنى ويبدلا اللفظة بما يقوم مقامها لم يخرج عمر ، وهشام بن حكيم ، وأبى مع الذين سمعوهم يقرءون خلاف قراءتهم إلى ما خرجوا إليه ، ولم يكن فى ذلك النزاع والخصام ولم يجز أن يتداخل أبيا من الشك مثل الذى كان يعتريه فى الجاهلية حتى يحتاج النبي صلى الله عليه وسلم أن يثبته ، والرغبة إلى الله تعالى فى إزالة الشك عنه .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه (كذلك أنزل على) فدل ذلك على تضييق الأمر عندهم وحصره على لغات بعينها ، ويدل على ذلك إجماع الأمة على ما ثبت من دين النبي صلى الله عليه وسلم بإكفار ابن أبى سرح لأنه صلى الله عليه وسلم استكتبه فكان يملى عليه شيئا ويكتب هو ما يقوم مقامه ولا يفسد نظما ، ولا يخل معنى قرره عليه الصلاة والسلام على ذلك توهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يؤدى القرآن على غير ما أوحى إليه به فاعتقد تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم ابن أبى سرح أن ذلك جائز وأن له أن يبدل كل لفظة بما يقوم مقامها لم يتخالجه شك .

وقال الإمام ابن عطية فى تفسيره (أباح الله

لنبيه صلى الله عليه وسلم هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : فاقرأوا ما تيسر منه بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يستبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن وكان معرضاً أن يبدل هذا وهـــذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله ، وإنما وقعت الإباحة للنبي صلى الله عليه وسلم فى الحروف السبعة ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة أبيا بما عارضه به جبريل ، ومرة ابن مسعود بما عارضه به أيضا ، وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان وقراءة هشام بن حكيم لها ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم فى كل قراءة منها وقد اختلفتا ، هكذا أقرأنى جبريل ، هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه ... وإلا فلو كان هـذا لأحد من الناس أن يضعه ـ كما هو فكرة الرسالة الرافضة للتوقيف ـ لبطل معنى قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ويقول أبو بكر الأنبارى فى كتابه : (الرد على من خالف مصحف عثمان) .

« ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ورد على محمد صلى الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه » .

ولا شك أن تغير نظام الجملة القرآنية بتبديل لفظ آخر أو تقديم لفظ على آخر أو زيادة لفظ فى الجملة أو نقص لفظ منها دون توقيف من الله تعالى كما ذهبت إليه صاحبة الرسالة إفسادا لنظم القرآن فيكون كفر أبه » .

الطامة الرابعة : قالت صاحبة الرسالة :

(من الطيبى ـ إعادة لأصل النص لتحقيق الربط ـ أن يغير ـ أى الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فى نظام الجملة ـ القرآنية ليكسبها بلاغة أكثر فى نظر القوم الذين يقرأ أمامهم وهذا واضح فى أن صاحبة الرسالة تعتقد أن الجملة القرآنية النازلة من عند الله تعالى على لسان ملك الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم قد تكون أقل بلاغة مما يجب لها فى نظر القوم الذين يقرأ النبي صلى الله عليه وسلم أمامهم ، فيغير النبى صلى الله عليه وسلم دون توقيف من الله منزل القرآن نظام الجملة ليكسبها بلاغة أكثر فى نظرهم .

وهنا يجب ـ فى نظر صاحبة الرسالة ـ أن توضع بلاغة القرآن موضع التغيير والتبديل فى نظام الجملة القرآنية ، لأن الجملة القرآنية النازل من عند الله قد تكون أقل بلاغة فى نظر السامعين فيغيرها من يقرأ عليهم ـــ سواء أكان هو النبى صلى الله عليه وسلم أومن قرأ عليه ـ إلى جملة أكثر بلاغة فى نظرهم .

وبهـذا تذهب صياغة الأسلوب القرآنى النازل من السماء وتغير إلى صياغة بشرية يضعها من يرى أنه يستطيع أن يأتى بجملة

أبلغ من جملة القرآن ، وتبقى هـذه الصياغة البشرية هي القرآن الذي يتعبد به المسلمون ويقيمون على قواعده وأصوله أنظمة حياتهم في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم.

وقد تتعدد النصوص المغيرة حسب تعدد تقـــدير المخاطبين لبلاغة الجملة القرآنية ، وحسب ما يطرأ عليها من التغيير والتبديل تبعا لظروف السامعين الذين قد تكون الجملة القرآنية بالنسبة لهم أقل بلاغة فى نظرهم .

ولا شك أن هذا يؤدى إلى أن يكون لدى المسلمين عديد من النصوص المختلفة للفكرة الواحدة كلها تسمى (قرآن) ، وهذا يبطل آيات التحدى بسورة من مثله ، لأنه بمقتضى نظرية إباحة التغيير فى نظام الجملة القرآنية لتكون أكثر وضوحا و (أكثر بلاغة) و (أكثر شيوعا) و (تحمل شحنات من المعانى تفهم الفكرة أكثر) يمكن وجود أكثر من سورة ، بل أكثر من قرآن ـ على مرور الزمن ـ لأن احتمال التغيير لأى سبب من هذه الأسباب يمكن أن يكون فى أكثر آيات القرآن الحق النازل من عند الله .

وما نظن أن يجد الملحدون وأعـــداء الإسلام من اليهود والزنادقة والمستشرقين المتربصين بابا يدخلون منه إلى هدم الإسلام وإبطال أصوله وتحريف القرآن وتبديله أوسع من هذا الباب الذى تفتحه نظرية إباحة التغيير فى نظام الجملة القرآنية ، والاختلاف مع التوقيف أفزع حذيفة فقال لعثمان رضى الله عنه : وأدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى» كما رواه البخارى ، فما بالنا بتغيير (سيهلل) فى نظام الجملة القرآنية وحسب البحث ذلك فى تقرير الرسالة علميا .

أما من الوجهة الدينية ، فالحكم على (الفكرة) ـ فكرة الرسالة ـ واضح لأنها تقوم على جهالة تسوق إلى التحريف فى نصوص القرآن ، أو على قصد يدفع إلى الإلحاد فى دين الله والله هو العليم بضمائر خلقه وفى الطامة الرابعة (نكتة) خفيفة تدفع إلى كفر جهول ، وهى أن الله منزل القرآن أدى معنى من المعانى القرآنية بلفظ أقل بلاغة من لفظ أداه به مخلوق أى مخلوق : النبى عليه الصلاة والسلام أو غيره ، وأن لفظ المخلوق أبلغ من لفظ الخالق .

ثم قالت صاحبة الرسالة فى ص (١١) بعد أن أشارت إلى بعض الروايات فى اختلاف القراءات ، والأمر ما لم تشأ أن تذكر النصوص كاملة (وهكذا الروايات على اختلافها تتفق على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يبيح الاختلاف ، ولا يعمد إلى التخطىء ، كان يتسامح عليه السلام بعض الشىء فى النص ، كان كل ما يهم الرسول عليه السلام المحافظة على الفكرة ـ أى أنه عليه السلام ما كان يهمه لفظ القرآن وأسلوبه وصياغته ونصه النازل من عند الله ـ هذا

بالإضافة إلى أن الرسول لم يضع فى اعتباره التخطى. لمجـــرد اختلاف لفظين يؤديان معنى واحدا) .

كان يجب فى أمانة العلم أن تذكر صاحبة الرسالة اختلاف الروايات فى اختـلاف القـراءات بنصوصها ليتبين للقارىء أولا مدى ما فيها من اختلاف ، وليتبين - ثانيا من نصوصها أن هذا الاختلاف فى القراءات هل كان توقيفيا منزلا من عند الله مأمورا النبى بتبليغه كما هو صريح الروايات الصحيحة الثابته أو كان لمجرد رغبة النبى صلى الله عليه وسلم فى استغلال ما فى الطبيعة الإنسانية مع الارتباط والشعور ؟ أو لمجرد أنه كان كل ما يهمه الفكرة دون اللفظ والأسلوب ؟ وقد وردفى أصح الروايات وأعلاها سندا وأقربها للتواتر (أن هذا القران أنزل على سبعة أحرف فكلها شاف كاف فاقرءوا ما تيسر منه) وهو حديث عمر ، وهشام فى سورة الفرقان من رواية البخارى وفيه (كذلك أنزلت) بقولها تصويبا لقراءة كل منهما .

ثم قالت صاحبة الرسالة (ص ١١) ولـكن الرسول عليه السلام كان حـريصا على الاعتدال ، وإباحة الاختلاف ما دامت الفكرة لم تتغير والعبارة لا تخرج عن حدود العربية السليمة) .

هذا إمعان فى تأكيد فكرة صاحبة الرسالة فى إباحة تغيير نظـام الجملة القرآنية بـكل ما يحتمله التغيير من استبدال لفظ بلفظ ، أو تقديم لفظ على لفظ أو زيادة لفظ أو ألفاظ فى الجملة ، أو حذف لفظ أو ألفاظ من الجملة وبديهى أن هذا التغيير هو الذى تعنيه صاحبة الرسالة بالاعتدال الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا عليه ويلزمه بداهة ما قلنا سابقا : إن نظام الجملة القرآنية النازل من عند الله كان جاريا على غير الاعتـدال ونعوذ بالله من أن يعتقد مسلم ذلك ، بيـد أننا لا نستطيع أن نفهم كيف كان الرسول عليه السلام إذ يفعل ذلك - أى الحرص على على الاعتدال وإباحة الاختلاف فى القراءة بتغيير نظـام الجملة القرآنية - معاملنا على النص القرآنى) ؟ ؟ فإن لفظ (نص) لها مدلولها اللغوى ولها مدلولها (العرفى) وهى دائما تعنى الألفاظ نفسها المعبر بها عن الفـكرة فى نظامها الخاص التى وردت به عن صاحب الفـكرة . أما إذا لحق الألفاظ تبديل بمرادف - ولا ترادف فى اللغة أو لحقها تغيير فى نظامها ووضعها من الجملة ، أو زيد عليها أو انقص منها فلا يمكن أن يقال حينئذ : إن النص الذى أورده المتكلم هو الذى جاء فى الجملة التى غير نظامها ، فـكيف إذن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام - معلمنا إلى النص القرآنى ، بعد إباحـة الاختلاف ، والاختلاف قد وقع بالفعل وتغير نظـام الجملة بأى نوع من أنواع التغيير ؟

٨ — وصاحبة الرسالة تخلط بين (الأداء) وبين (نظام الجملة) لأنها تقول (ص ١٢) (ومهما حاول أفراد الجزيرة العربية من المسلمين أن يقلدوا الرسول عليه السلام بدفعهم إلى ذلك شعورهم الديني فإن أداءهم لن يسلم من العوامل اللهجية والشخصية ، ولذلك وفر عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا العناء ، وسمح لهم بالاختلاف ولم يخطئ فردا منهم) وهنا نسأل : أي اختلاف هذا الذي تعنيه صاحبة الرسالة؟ هو الذي سمح لهم به الرسول عليه الصلاة والسلام، إن أرادت الاختلاف في الأداء أي التلاوة لنص ما نزل من القرآن ، وهو ما يجب أن يراد لقولها (لن يسلم من العوامل اللهجية والشخصية) والأداء أي - التلاوة - هو الذي يتأثر بالعوامل اللهجية والشخصية فالأمر في ذلك مرجعه إلى ضوابط الأداء القرآني التي اتفق عليها القراء جيلا لجيلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والاختلاف فيه يسير الأمر ما لم يخرج باللفظ القرآني عن حده .

وإن أرادت الاختلاف في نظام الجملة القرآنية - أي في جوهر ألفاظها وأسلوبها - وهو ما تدور حوله الرسالة فالأمر فيه خطير كما شرحناه فيما سبق .

٩ — وقد عادت صاحبة الرسالة في ص ١٣ تؤكد فكرتها فتقول : (وعلى العموم فإن قراءة القرآن في تلك الفترة الزمنية تشبه الظاهرة اللغوية الأولى التي أشرت إليها في الفصل السابق بإفادة نص عام يحرص فيه الجميع أولا على حرفية الفكرة ، وثانيا بحكم هالة من القداسة على الاتفاق على ما يشبه النص الموحد - تأمل - وقبل منهم الرسول عليه السلام ذلك لأنه كان مطمئنا إلى أن التحريف لن يدخل القرآن) .

فهي في هذا النص تؤكد أن جميع المسلمين يحرصون . أولا : على حرفية الفكرة فقط . وثانيا : بحكم هالة القداسة لا بحكم نظر عقلي ولا إيمان ديني ؟؟ . وهالات القداسة مجردة عن الحقائق العلمية والمنطق العقلي ليست من معارف المسلمين الأولين الذين تلقوا حقائق إسلامهم من فم الوحي في ظل العقل والعلم .

وليتأمل الناظر في هذا البحث قول صاحبة الرسالة (على حرفية الفكرة) أما اللفظ المنزل ، وأما الأسلوب الموحى به ، فلهما نظام الجملة القرآنية كما جاءت من عند الله ، فإن ذلك لا يحرص عليه المسلمون ويجرى فيه التغيير والتبديل بغير حرج على أحد ما دامت الدواعي للتغيير التي ذكرتها في إباحة تغيير نظام الجملة القرآنية قائمة ، ثم ليتأمل الناظر في هذا البحث قول صاحبة الرسالة : (الاتفاق على ما يشبه النص الموحد) فنص القرآن عندها ليس موحدا ، ولكنه متعدد تعددا لا يبعده من شبه النص الموحد، والتعدد مهما صور فهو بهذا الشبه مشعر

بالاختلاف ، ثم تقول صاحبة الرسالة : (إن الرسول قبل منهم ذلك) ـ أى اختلاف النص وتعدده فى دائرة ما يشبه النص الموحد لأنه كان مطمئنا إلى أن (التحريف لن يدخل القرآن) فإن صاحبة الرسالة تجيب عن هذا فتقول : (لأن لغة القرآن هى العربية بين قوم يتكلمون العربية) ومعنى ذلك أن تغيير نظام الجملة القرآنية ما دام فى إطار اللغة العربية فلن يؤدى إلى تحريف القرآن وتبديل أسلوبه وكأن القرآن نزل بلغة العرب ليضع له العرب الصياغة والأسلوب والألفاظ اللائقة بأداء الفكرة ، ولم ينزل من عند الله بأسلوب وألفاظ متعبد بها تلاوة وتحدياً ، وعندئذ ما الذى يمنع خصوم القرآن من ادعاء أن القرآن الذى بين أيدى المسلمين ليس هو النص الحقيقى الموحد النازل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم وإنما هو شىء شبيه به وما الذى يمنع هؤلاء الخصوم من ادعاء أن القرآن الذى بين أيدى المسلمين هو مجموعة من النصوص التى غير فيها نظام الجملة على سبيل المعارضة للنص الأصيل الذى نزل به جبريل ؟ .

أما هذا النص الأصيل (الموحد) فلا وجود له . وليتأمل الناظر فى هذا البحث إلى قول صاحبة الرسالة : (وفى الغالب لم يكن الفرد من الصحابة ليغير النص فى كل مرة يقرأ بها) ، ومن البداهة أن يكون من غير الغالب ـ بمقتضى نص الرسالة ـ أن الفرد من الصحابة يغير النص فى كل مرة يقرأ بها ، يجعل النص الواحد نصوصا كثيرة بعدد ما يتاح له من التغيير غير ملتزم الصورة الأولى التى قرأ بها على الرسول عليه الصلاة والسلام وأقرأه عليها ، فالقرآن ـ إذا ـ فيه نصوص التزم فيها الفرد من الصحابة الصورة الأولى التى قرأ بها على الرسول عليه الصلاة والسلام وأقرأه عليها وفيه نصوص لا يلتزم فيها الفرد من الصحابة الصورة الأولى التى قرأ فيها على الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل غير فيها وبدل وهذا التغيير والتبديل فى القرآن الذى بين أيدى المسلمين .

ولا ندرى ماذا بقى للقرآن بعد ذلك من حقيقته الأصلية المنزلة من عند الله ؟ هذه نتائج خطيرة أشد الخطورة تؤدى إليها نصوص الرسالة ، وخطورتها ليست من الناحية الدينية فحسب ، بل خطورتها من الناحية العلمية إلى جانب الناحية الدينية ، لأنها نصوص تلقى هكذا دون أية دراسة وبحث ولأنها نصوص تؤدى على الأقل إلى التشكيك فى القرآن ونصوصه ، ولا ندرى أية مصلحة علمية فى هذا التشكيك ؟

يتبع

محمد الصادق عرجون

عميد كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر

ابن الياسمين وقصة الأرقام العربية

للأستاذ عبد الله كنون
عضو مجمع البحوث الإسلامية

هويته :

العالم الرياضى الأديب أبو محمد عبد الله ابن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين ، من أهل مدينة (فاس) ، بربرى الأصل من بنى حجاج أهل قلعة (مندلاوة) . كذا عرف به فى (الذخيرة السنية) وحلاه بالفقيه الحاسب.

وبه تعلم أن وصف ابن سعيد المغربى له فى كتاب (الغصون اليانعة) بالأشبيلى إنما هو جرى على عادتهم من اعتبار الشخص الذى أقام بقطر ما ، من أهل ذلك القطر ، ولو جرينا نحن على هذا الاعتبار لتبينا أكثر نبغاء الأندلس فى القرنين الخامس والسادس وما بعدهما .

والياسمين اسم أمه نسب إليها وكانت سوداء ، وكان هو أيضاً أسود ومنه يعلم أن هذا الاسم فى الإماء قديم .

قال فى الذخيرة : أخذ عن عبد أبى عبد الله ابن عبد الله بن قاسم علم الحساب والعدد وشارك فى غير ذلك . وكان أحد خدام المنصور (الموحدى) ثم ولد الناصر . وله أرجوزة فى الجبر قرئت عليه وسمعت منه بـ (إشبيلية) سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وقال فى الغصون اليانعة : تخرج بإشبيلية فى فنون العلم . وكان أول تعلقه بالفقه والتوثيق . حتى صار من أعلام العارفين بالوثيقة . ثم اشتغل بالنظم والنثر وفنون الآداب فصار من أعلام الأدباء والكتاب .

ويظهر من النصين أنه كان مشاركا فى الفقه والأدب زيادة على رسوخه فى علم الحساب ، وأن براعته فى هذا العلم كانت بالأخذ عن ابن قاسم الذى خلفه بعد فى نشره بإشبيلية .

شخصية أدبية ممتازة :

ويفيض ابن سعيد فى الناحية الأدبية من ترجمة صاحبنا على حين أن الناحية العلمية لا تحظى منه بأدنى اهتمام ونحن نقتبع ماعنده فى ذلك ثم نعقبه بالكلام على الناحية الأخرى إذ كانت الشخصية الكاملة للمترجم لا تبرز إلا بشخصيتهما معا .

ولقد حكى مما يدل على أوليته النابهة بأنه جاء بإشبيلية إلى شيخ طبيب فشكا إليه بتلهب معدته وأنه لايشبعه شىء ، فقال له : وقد لمح عليه بوارق السعادة لا بد لك من أن تشتكى بأسوء هضم معدتك . نعم وبثانية . نعم وبثالثة . فقضت الأيام وطلع [1] إلى

(١) يقال طلع المكان بلغه والتعدية بإلى تقوية وهو كذلك من المستعمل فى العامية المغربية .

(مراكش)، وبلغ المبلغ العظيم من مجالسة المنصور ومسايرته له إذا ركب فى أسفاره، لافتتانه بحديثه وما يجد عنده مما لا يجده عند غيره. فاتفق أن طلع ذلك الطبيب إلى مراكش واجتمع به. فقال له: يا حكيم صدقت فيما أنذرتنى به من سوء الهضم فما تراه؟ فدله على ما يصنع، ثم مضت الأيام فشكا له بالنقرس[٢]، وقال أظن هذه الثانية. قال: نعم، ثم أقام مدة ووقع اجتماعه به، فقال له يا حكيم: صدقت فى اثنتين فأين الثالثة؟ فقال: يافقيه بلغتنى على ألسن الناس ولو كانت علة شكوت بها. فضحك أبو محمد وكان كثير الاحتمال والمطايبة. وأحسن للطبيب. وكان قبل ذلك لم يقصر عليه من دنياه بشىء، قال ابن سعيد: وإنما أشار الطبيب إلى الخلة التى اشتهرت عن ابن الياسمين والله أعلم بالسرائر.

وظهر أن هذا الطبيب كان إلى جانب معرفته بطب الأبدان طبيبا نفسانيا ولذلك تعرف على ما سيؤول إليه حال مترجمنا من انحراف وشذوذ، أن صحت هذه الحكاية. وهى على كل حال تدل على نشأته المدللة وسماحة أخلاقه، وتدل على أنه كان باشبيلية فى عنفوان شبابه.

ثم أشار بن سعيد إلى وفاته ذبيحا بداره بمراكش والكيفية البشعة التى وجد عليها بمثل الحال التى وجد فيها الفتح بن خاقان صاحب (قلائد العقيان) و (المطمح)، وتطرق لذكر بعض أشمارة المكشوفة فى هذا الصدد وحكى الحكاية الآتية عن أبى عمران الطريانى:

«قال كنت فى اليوم الذى أصبح فيه ابن الياسمين مذبوحا عند الكاتب أبى الحسن ابن عياش، فبينما أنا ألاعبه بالشطرنج إذ دخلت إليه أمة له وألقت لديه براءة عرفته أن امرأة دفعتها اليها، ورغبت منها أن توصلها إلى سيدها. فقال هذا وقتك؟ ولم يلتفت إليها قال: فقلت: له ولعل فيها مالا يجب تأخيره، قال: ولعل. ثم أخذها وقرأها، فاذا بوجهه تغير ثم ضحك ورمى بها إلى. وقال انظر هذا الذى لا يجب تأخيره. فقرأتها فاذا فيها:

هذا ابن حجاج تفاقم أمره
وجرى وجر لحد غايته الرسن
حتى غدا ملقى ذبيحا حاكيا
للناس رقدته إذا هجر الوسن
فليحذر الكتاب ما قدغاله
وأخص بينهم الفقيه أبا الحسن

فقلت ومن ترى قائل هذه الأبيات لعنه الله؟ قال ياسبحان الله. وهل صاحبها غير الكوراني[١] (الجراوى) الذى طبعه الله على

---

(٢) النقرس مرض يسمى بداء الملوك وهو ألم يأخذ فى الرجل والقدم على الخصوص.

(١) يعرفه ابن سعيد بالكورانى ويختلف نسبه كذلك عند غيره من المؤرخين، وهو الجراوى. أنظر الحلقة الخامسة من سلسلة ذكريات مشاهير المغرب.

ألا يضيع فرصة من فرص الأذية ؟ قال أبو عمران ثم اشتهر بعد ذلك قول الكوراني (الجراوى) فى تلك القضية معرضا بابن عياش:

فليحذر الكتاب ما قد غاله
وأخص من بين الجميع فلانا
لحصل التحقيق بأنه قائل ما تقدم .

ومما وقع بينه وبين الشاعر أبى العباس الجراوى أن هذا هجاه بقوله :

است الجباوى ورأس القسر بينهما
لون الغراب وأنفاس من الجمل
خذها إليك بحكم الوزن أربعة
كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

فاشتهر قوله بين الناس حتى استفز حلم ابن الياسمين فقال يجيبه :

يا أعرق الناس فى نسل اليهود[1] ومن
تأبى شمائله التفصيل الجمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدة
تغنى عن العطف والتوكيد والبدل

ثم قال ابن سعيد : وله موشحات يغنى بها . وأمداح فى المنصور والناصر . وأمثل ما وقع من ذلك قوله من قصيدة منصورية ذكر فيها قطع المنصور الاشتغال بكتب الفروع والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية :

اسيدنا قد وردتم بنا
موارد كنا عليها نحوم
نبذتم مقالة هـــذا وذا
فزال المراء وقل الخصوم
وأثبتم قول من لفظه
هو الحق والشرع منه يقوم
فلا زلتم لكمال الهدى
وإحياء دارس درس العلوم

وقوله من قصيدة ناصرية :

عجبت لمن يراك وبعد هذا
يحاول أن يرى ملكا سواكا
وقد جمع الإله لديك ما قد
تفرق فى البرية من حلاكا
وما أحد يؤم ذراك يوما
فيختار الترحل عن ذراكا
فسبحان الذى أعطاك ملكا
على مقدار ما أعلى علاكا

قال : وخرج ابن الياسمين إلى بعض بحائر مراكش فنظر إلى زهر نارنج فاستحث على وصفه من كان معه من أهل الشعر والأدب ، فقال كل واحد منهم على ما أعطاه فسكره فلم يحفظ من ذلك إلا قول ابن الياسمين :

جاء الربيع وهذا
أولى البشائر منه
كأنما هو ثغر
قد جاء يضحك عنه

وختم ابن سعيد ترجمة صاحبنا بهذه المحاورة الشعرية التى جرت بينه وبين ابن الحجاج ابن نموى أحد كبار علماء فاس ، وكان حضر

(١) نسبه إلى اليهود لأن القبيلة التى هو منها كانت على اليهودية قبل الإسلام .

إلى مراكش فاستحسنت مذاكرته بها وأحسن إليه وخلع عليه على حسب ماذكره (أبو الوليد الشقندى) فى معجمه ومنه نقل ابن سعيد. قال: وحضر مع ابن الياسمين فاستقبح صورته واستحسن كلامه فقال فيه:

أيها اللابس لون الليـ
ل ثوبا حين أظلم
والذى يضمر داء
منه يوما ما تألم
أنت من أقبح خلق
الله ما لم تتكلم
بشذور باهرات
ساحرات لو تجسم
أصبحت فى كل جيد
حسن عقدا منظم

فلما بلغ ذلك ابن الياسمين قال:

أيها الفامى أتى ريحك
قبل النجو يقضم
فى قريض حسن الصو
رة بالهجو مجذم
فقبلناه وقد جاء
لنا بالمدح يعلم
ثم قلنا بمزاح
منك يوما ليس يعدم
إنما الشأن فمنه
عالم ليس يعلم
لا تراه الدهر إلا
بغريم الكأس مغرم
يرفض النقل مع الله
رض! أو ان الزير والبم (١)
وإذا صلى رياء
كان فيها مثل أبكم
فى ثياب كربيع
قد سرى فيها المحرم
ذا جوابى وهو ظلم
لك والبادىء أظلم

قال الشقندى: هذان الشعران بمنزلة الشعريين، وكلاهما عين فى مقابلة عين ... وناهيك بها شهادة من الشقندى صاحب الرسالة المعروفة فى الإزراء على أدباء المغرب وشعرائه.

وإلى هنا نكون، قد انتهينا من ترجمة ابن الياسمين الأدبية، وقد عرفنا عنه أنه أديب ممتع حسن الحديث فكه المحضر مع سماحة نفس وطيب خلق، وبذلك تأهل لمجالسة المنصور والناصر فى معيتهما. وأما حظه من الشعر فكان، كما رأينا فى هذه النماذج من نظمه، ليس بالقليل فهو يزاحم الشعراء والفقهاء بمنكبيه ولا يقصر فى الغالب عن إجادة وإن كانت ميزته هى المحاضرة بعلمه وأدبه والحديث الطلى الذى يرغب فيه ولذلك حلاه ابن سعيد بقوله الجليس المتفنن الكاتب.

عالم رياضى كبير:

بقيت الناحية العلمية من ترجمته، وهى التى

(١) الزير وتر رقيق والبم بخلافه وتر غليظ.

قامت على شهرته بالبراعة فى علم الحساب والجبر. وهو لذلك يعد من ألمع علماء العرب شهرة فى الرياضيات، وقد تقدمت الإشارة إلى أرجوزته فى علم الجبر التى أخذت عنه بأشبيلية، وهى تبدأ فى العدد الصحيح وأبواب فى الجمع والطرح والضرب والقسمة وحل العدد إلى أصوله، ثم مقدمة فى الكسور وأبواب فى الجبر أى جبر الكسور والحط وهو عكس جبر الكسور والصرف وطرق استخدام المجهولات، وأخيرا ينتقل إلى علم الجبر والمقابلة وهو أهم أبواب الأرجوزة وأنفسها (١) وقد شرحها كثير من علماء الفن كالماردينى والقلصادى وابن الهائم وغيرهم، ومنهم من اقتصر على شرح القسم الأخير منها وهو المتعلق بالجبر والمقابلة لعظم نفعه وكثرة فائدته، وفى هذه الأرجوزة توجد خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التى تتضمنها كتب الجبر الحديثة، وهى تدل على تضلع الناظم فى الجبر وبعد غوره فيه كما تدل على أن ثروته الأدبية لا يستهان بها فلولا أحاطته بالجبر والشعر أحاطة كلية لما استطاع أن يضعهما فى قالب جذاب (٢).

ومثال منها قوله فى معنى الجبر والمقابلة:

وكل ما استثنيت فى المسائل
صيره إيجابا مع المعادل
وبعد ما يجبر فليقابل
بطرح ما نظيره يماثل

وقوله فى أحكام الجبر:

على ثلاثة يدور الجبر
المال والأعداد ثم الجذر
فالمال أ كل عدد مربع
وجذره واحد تلك الأضلع
والعدد المطلق ما لم ينسب
للمال أو للجذر فافهم تصب
فبعضها يعدل بعضا عددا
مركبا مع غيره أو مفردا
فتلك ست نصفها مركبه
ونصفها بسيطة مرتبه ...
والجذر والشىء بمعنى واحد
كالقول فى لفظ أب ووالد الخ

• • •

كتابه تلقيح الأفكار

ولابن الياسمين أيضا كتاب تلقيح الأفكار فى العمل برسوم الغبار ويوجد مخطوطا فى الخزانة العامة بالرباط ضمن كتب المكتبة الكتانية. وهو كتاب له أهمية علمية وتاريخية كبيرة. أما العلمية: فتظهر من محتوياته وقد جعله على خمسة أبواب تتضمن أربعين فصلا.

فالباب الأول فى العدد الصحيح وما يتعلق به، وينقسم إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: فى ضرب الأعداد بعضها فى بعض.

---

(١) قدرى طوقان فى كتابة تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ص ٤١١

(٢) الكاتب نفسه فى مجلة الرسالة العدد ٦٣

الفصل الثانى : فى قسمة الأعداد بعضها على بعض .
الفصل الثالث : فى تسمية الأعداد بعضها من بعض .
الفصل الرابع : فى جمع الأعداد بعضها إلى بعض .
الفصل الخامس : فى طرح الأعداد بعضها من بعض .
والباب الثانى فى الكسور وما يتعلق بها ، وينقسم إلى أحد عشر فصلا :
الفصل الأول : فى ضرب الكسور المتصلة وأخذ بسطها .
الفصل الثانى : فى ضرب الكسور المنفصلة .
الفصل الثالث : فى ضرب الكسور المبعضة على اختلافها .
الفصل الرابع : فى ضرب الكسور المستثنى منها على اختلافها .
الفصل الخامس : فى جمع الكسور بعضها إلى بعض .
الفصل السادس : فى طرح الكسور بعضها من بعض .
الفصل السابع : فى صرف الكسور من اسم إلى اسم .
الفصل الثامن : فى قسمة الكسور بعضها على بعض .
الفصل التاسع : فى معرفة تسمية الكسور بعضها من بعض .
الفصل العاشر : فى معرفة تركيب الكسور .
الفصل الحادى عشر : فى جبر الكسور .
والباب الثالث : فى فوائد لا يستغنى عنها فيما تقدم من المسائل ، وينقسم إلى أربعة فصول :
الفصل الأول : فى معرفة الطروحات التى يستدل بها على الصواب من الخطأ .
الفصل الثانى : فى معرفة ما للعدد من المقامات فى القسمة وغيرها .
الفصل الثالث : فى الأجزاء التى لا تنقسم .
الفصل الرابع : فى حكم التكرار من الآلاف
والباب الرابع : فى استخراج الأحوال المجهولة وينقسم إلى أحد عشر فصلا :
الفصل الأول : فى جمع الأموال لمجرد الكسور .
الفصل الثانى : فى جمع الأموال بزيادة الدراهم .
الفصل الثالث : فى جمع الأموال باستثناء دراهم من كسورها .
الفصل الرابع : فى جمع الأموال باستثناء دراهم من كسرها وزيادة دراهم فى كسر آخر .
الفصل الخامس : فى جمع الأموال بلا مثيل .
الفصل السادس : فى الأموال المختلفة .
الفصل السابع : فى طرح الأموال .
الفصل الثامن : فى ضرب الأموال .
الفصل التاسع : فى جمع الأموال .
الفصل العاشر : فى أنواع شتى من الأموال .
الفصل الحادى عشر : فى امتحان الأموال .
والباب الخامس : فى أشياء يحتاج إليها فى الجبر والمقابلة وينقسم إلى تسعة فصول :

الفصل الأول: فى المسائل الستة التى يحتاج إليها فى الجبر .

الفصل الثانى : فى أخذ الجذور .

الفصل الثالث : فى ضرب الأجذار بعضها فى بعض .

الفصل الرابع : فى قسمة الأجذار بعضها على بعض وتسميتها .

الفصل الخامس : فى جمع الأجذار بعضها إلى بعض .

الفصل السادس: فى طرح الأجذار بعضها من بعض .

الفصل السابع:فى ضرب كسور الأجذار .

الفصل التاسع: فى مسائل من المساحة مقربة إن شاء الله .

والدارس لفصول الكتاب لابد أن يقف على دلائل كثيرة تعرفه بعبقرية صاحبنا فى هذا الفن وتظهره منه على ذهنية رياضية قلما توفرت إلا للأفذاذ من العلماء . وعلى حسب ما يظهر فإن هذا الكتاب جمعه من مذكراته التى كان يلقيها دروسا على الطلبة ، فإنه يقول فى مقدمته : « كنت فى مدة تعلمى الحساب أثبت مسألة من كل نوع من أنواعه مخافة اختلافه فى حين إعماله ... فأكثر جماعة من الإخوان البحث عنها ورغبوا فى انتساخ ما تحصل منها ، فدفعت إليهم ما كان عندى ، فلم يعد منها شئ إلى ... وكان من جملة من رغب فيها أخوا صدق ، وصديقا حق ، فقدر الله عز وجل أعمالها قبل أخذهما لها . فلم أزل أمطلهما وأسوف ، وأعدهما وأخلف وكل ذلك لا ينقض عهدهما ، ولا يحيل ودهما إلى أن فتح الله العليم فى وجود بعض مسائل منها عند بعض إخوانى ، فحمدت الله عز وجل على ذلك كثيراً ، وصرفت الهمة إلى جمعها وأضفت ما لا غنى عن معرفته منها مثل جمع الأموال وطرحها وضربها وامتحانها ، واختلاف أعمالها لاختلاف معانيها وما يستحيل منها وبعض ما يتصرف فيها من وجوه الأعمال مثل الجبر والقياس ومثل المكعبات الخ .

حل مشكلة الأرقام العربية :

* * *

وأما أهميته التاريخية فإنها فى إشارته إلى أصل الأرقام الحسابية المعروفة بالغبار ووجه تسميتها بذلك وأنها — وهذا من الأهمية بمكان — لها شكلان ، شكل هو هذا المستعمل بالمغرب وشكل هو المعروف بالأرقام الهندية وهذه هى عبارته فى ذلك أثناء المقدمة : واعلم أن الرسوم التى وضعت للعدد تسعة أشكال يتركب عليها جميع العدد ، وهى التى تسمى أشكال الغبار وهى هذه (وهنا رسم أرقام الحساب كما نرسمها فى المغرب من واحد إلى تسعة) وقد تكون أيضا هكذا (وهنا رسمها بالشكل المعروف بالهندى) ثم قال : ولكن الناس عندنا على الوضع الأول . ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز . ووجه العمل على حاله

لا يتبدل . وقد صنعها قوم من جواهر الأرض مثل الحديد والنحاس من كل شيء منها أعداد كثيرة ويضرب بها ما شاء من غير نقش ولا محو . وأما أهل الهند فإنهم يتخذون لوحا أسود يمدون عليه الغبار وينقشون فيه ما شاءوا . لذلك يسمى حساب الغبار . وعلى الحقيقة ليس إلا المداد والمحو .

إن لهذه النبذة من القيمة التاريخية ما لا يخفى فإنها كشفت أن للشكلين المستعملين فى البلاد العربية من هذه الأرقام الحسابية أصلا واحدا وأنهما قديما كانا مستعملين هنا وهناك . فإن صاحبنا يقول (ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز) وهذا واقع فإننا نجدهما فى بعض المخطوطات مما يقرب من عصر المؤلف (القرن السادس) يتقارضان كما أنها تثبت اشتراكهما معا فى التسمية بحروف الغبار أو برسومه جريا على اصطلاح المؤلف. وقد كان هذا بحسب الأصل ، وإن كان هذا الاسم فيما بعد كاد يختص بالأرقام المستعملة فى المغرب فى حين أن الأرقام المستعملة فى الشرق اشتهرت بالأرقام الهندية والهنود هم الذين كانوا يتخذون طريقة الرقم على الغبار فى الأعمال الحسابية فأطلق على هذه الأرقام بملاحظة تلك الطريقة اسم الغبار والغبارى والغبارية ، يبقى أن أرقامنا المغربية التى اشتهرت أيضا بالأرقام العربية عند الغربيين إنما جاءها هذا الاسم من اقتباس الغربيين لها عن طريق المغرب العربى بواسطة (البابا سلفستري الثانى) أو غيره الذى تعلمهما فى الأندلس أو هنا فى المغرب ولا زائد ، وإلا فالشكلان معا غباريان بمعنى أنهما كانا يستعملان فى الأعمال الحسابية على الطريقة الهندية ، وكانا مستعملين أيضا عند أجدادنا العرب فى المشرق والمغرب .

والسبب الذى اخترناهما له هو بعينه السبب الذى كان الحامل للغربيين على اختيار هذا الشكل المسمى عندهما بالعربى ، وهو السهولة والوضوح واليسر ، وقد نوه صاحبنا ابن الياسمين فى خطبة كتابه الذى نحن بصدده ، بهذه المزية التى لهما فى هذه العبارة : (هذا العمل المعروف بالغبار أقصر أنواع الحساب وأفيدها وأوضحها بجودة بيانه وبلوج برهانه) .

هذا هو ابن الياسمين العالم الرياضى الفذ والأديب المحاضر الممتع ، لا نزعم أننا كتبنا ترجمة له ، وإنما رسمنا الخطوط الأولى فى ترجمته ، وهو حرى بأن يخص ببحث واسع مستقل يحلل شخصيته الأدبية ، ويبرز مظاهر نبوغه العلمى ، وفى انتظار هذا البحث نؤمل أن يكون فى هذا التعريف الموجز ما يعطى فكرة ولو مجملة عن حياته وإنتاجه .

وقد كانت وفاته رحمه الله سنة ٦٠١ وقيل آخر سنة ٦٠٠ وعلى الأول اقتصر صاحب الذخيرة السنية وابن سعيد فى الغصون اليانعة .

عبد الله كنون

نفحات القرآن

رسول الله هود عليه الصلاة والسلام

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

---

١ — هو هود بن عبد الله بن رباح ... ويلتقي مع إبراهيم في جده - سام بن نوح - سلام الله عليهم جميعا ... فسام هو الجد السادس لهود ... والثامن لإبراهيم .

وكانت رسالة هود - من بعد نوح - إلى قبيلة (عاد إرم) ، وهذه القبيلة تنتسب إلى جدها الأعلى - إرم - بكسر الهمزة . وكانت تقيم في منطقة الأحقاف ... بجوار أرض حضرموت .

٢ — وقد تعرض القرآن كثيراً لذكر هود وقبيلته عاد .

ففي القرآن سورة باسم هود ، وهي السورة التي نحن بصددها الآن ...

ثم ذكر القرآن قصة عاد في سورة الأعراف . . والمؤمنون . . والشعراء . . وفصلت . . والأحقاف . . والذاريات . . والقمر . . والحاقة . . والفجر .

ومجموع الآيات التي تناولت قصة هود وقومه : تسع وسبعون آية ؛ ولكن سورة هود كان لها كبير شأن فيما ورد بها من العظات ، والذكريات حتى ليروى : أن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (يارسول الله : قد شبت - بفتح التاء - فقال صلوات الله عليه : شيبتني هود ... وفي بعض الروايات : (شيبتني هود وأخواتها) .

ويذكر العلماء : أن أخواتها هي .... : سورة الواقعة . والمرسلات . وعم . وإذا الشمس كورت ... فإن في هذه السور من القصص الرهيب ، والزجر القوي ما يثير الخوف ، ويضاعف الخشية من الله ، وبسبب ذلك يسارع الشيب عادة إلى شعر الإنسان كما يكون الشيب ، وتجاعيد الحلقة وليد الهموم كثيراً .

٣ — هذا وكانت قبيلة عاد ذات بأس ،

ويسار لم تظفر بمثلها أمة سابقة ، حتى كان من وصف القرآن لها بعد ، « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ؟؟

نعم !! بسط الله لعاد فى الأرزاق ، وأفسح لها مجال العيش والحضارة ، وأتاح لها قسطا كبيراً من جسامة الأبدان ، والقدرة على بناء القصور الشامخة ، وتنسيق الحدائق ، وتعبيد الطرق ، ووفرة الحظ فى كل ناحية .

٤ — ثم لم يكن لهذه النعم تقدير عندهم . . ولا أثر طيب فى صنيعهم ، ولا قليل من الشكر لله الذى أسبغها عليهم .

بل كانوا غواة مسرفين، وكفاراً ممعنين . يعكفون على أصنام يعبدونها .. ولا يفقهون إلى ما يصلح شأنهم ...

فبعث الله إليهم أخاهم هوداً ـ عليه السلام ـ وهو كريم النسب فيهم ، ويمتاز عليهم عقلا وشكلا ، وخلقا ، كما هو المفروض فيمن يختاره الله لهداية قومه ، وتبليغ رسالة ربه .

دعاهم هود « يا قوم : اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

والنداء بلفظ ـ يا قوم ـ يشعر بالتلطف فى الخطاب ، ويثير عاطفة الإخاء فى الجنسية والإقليمية ، ويبعد عن الذهن مظنة التحكم ، والأنانية ، ويبرز معانى الرحمة ، والمودة جارية على اللسان ، كما هى شاخصة فى روح الدعوة ومقاصدها .

ولذلك كان هذا النداء بلفظ ـ ياقوم ـ شعار الأنبياء السابقين فى الأمم ، كما يحكى لنا القرآن عنهم ،... ولم يكن تقليداً للرسول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنه مبعوث إلى الناس عامة ، فكان نداؤه : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ... » ، ولم يخص قومه بالدعوة إلا تمهيداً فى أول الأمر ، حسب تكليف الله فى قوله : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، يعنى : ابدأ بهم .

ثم صار هود عليه السلام يواصل دعوته إلى التوحيد ، ويذكرهم بنعم الله عليهم ، وأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادهم عليهم بسطة فى النعم .

ويؤكد لهم ما يعرفونه : أنه واحد منهم ، وأنه لا يطلب منهم أجراً ، ولا يبتغى سلطانا ولكن عاداً لم تكن واعية لدعوة هود ، ولا خائفة من سلطان الله ، فسلط الله عليها ريحا شديدة البرد ، مزعجة الصوت ، أحدثت بهم سبع ليال ، وثمانية أيام، حتى تقلصت جلودهم ، وجفت دماؤهم ، ونخرت عظامهم ، وصاروا كخشب النخل الذى تجوف ولم يعد فيه أثر من الحياة ... وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين .

٥ — وقد بدئت سورة هود بثلاث آيات: في الأولى وصف للقرآن: بأنه كتاب أحكمت آياته، فلم يكن في شيء منها خلل في لفظه، أو معناه، ولا يتسرب إلى شيء منها باطل فيما جاءت به — لأنها من إله حكيم في صنعه، خبير بما يفعله، ويقضى به، ويفصله في بيانه لعباده بالآيات أو بالسنة وفي الثانية دعوة إلى التوحيد لله والإيمان بأن محمدا رسول ينذر، ويبشر فيما أمر الله أن يبلغ إلى أمته (ألا تعبدوا إلا الله، إني لكم منه نذير وبشير) وتلك هي الدعوة التي كان مثلها منهج الرسالات الأولى ... وهي الموثق بين الله وعباده منـــذ استحضر الأرواح في الأزل، وطرح عليها سؤال (ألست بربكم) فكان الجواب — بلى — يعني نعم، أنت ربنا وحدك، لا شريك لك وفي الآية الثالثة — توجيه إلى الاستغفار والتوبة دائما (وأن استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه) وبذلك التوجيه يشعرنا أن المرء في حاجة قصوى إلى التنزه — أولا — عن دنس الشرك. ثم هو في حاجة مستمرة إلى التطهر بالاستغفار، والتوبة من كل خطيئة يتعرض لها أو هفوة تبدر على لسانه، أو تشوب عمله للدين، أو الدنيا ... وبذلك يكون المرء على وفاء حق بعهد الله سابقا ويكون بنجوة عما يلوث صفحته.

٦ — ثم اتجهت الآية في سياقها إلى ناحية الجزاء لمن يكون على هذا السخط فيقول تعالى «يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى».

فالمتاع الحسن إلى نهاية الدنيا: هو السلامة من الهلاك الذي كان ينزل بالكافرين وهو ثانيا راحة الضمير من القلق الذي يساور النفس العاصية، حينما تتذكر انحرافها وتخلفها في ظلمة الضلال.

والمتاع — ثالثا في الدنيا — يكون بالاطمئنان إلى ما يختار الله لعبده من حظ، ورزق، وكل ما يجري به القدر. فتلك هي حلاوة الإيمان في الدنيا، وهي المتاع الحق فيها.

وبعد ذلك جزاء آخر: هو أن الله يرث كل عبد صاحب فضل في تدينه ما يستحق من فضل الله في جناته، وليس لهذا الفضل حدود مرسومة لنا، وإنما ذلك موكول إلى علم الله وكرمه، والله ذو الفضل العظيم.

عبد اللطيف السبكي

مواكب النصر فى رمضان

للأستاذ ابراهيم على شعوط

---

١ — نزول القرآن فى هذا الشهر :

شهر رحلة روحية يقطعها المؤمن ذهابا إلى ربه محاولا بكل إمكانياته التخلص من سيطرة المادة ، ويجد المؤمنون فيه لذة كبرى للركون الروحى والإحساس النفسى بأن تلك العبادة تنزيه للبدن وسمو به فى آفاق الروح الخالدة مع بارئها فى شوط طويل من العبادة والتبتل والتخلص من الثقل المادى فتنطلق الروح محلقة فى آفاق تتلاشى عندها كل الشهوات واللذات .

ولعل هذا الشهر قد اختصه الله من حيث وضعه الزمنى بخصائص لا تكاد توجد ، بل لا تكاد تدرك إلا فى هذا الشهر . ثم جعلها المولى سرا من أسراره ، وخاصة من خواصه فاختار زمان شهر رمضان ليكون فيه مطلع النور ، ومنه مصدر وميض البرق الذى بدد الضلال والظلام الملتصق بالأرض والسماء وجعل وجوه العالم كلها تشرق فيه حين أشرقت فى سماء رمضان آيات القرآن الكريم الذى نزل على رسول رب العالمين « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

فى الغار المظلم فى جبل حراء انقدحت أول شرارة أضاءت فى آفاق مكة وأرسلت شعاعها الخالد إلى كل أنحاء العالم . فكانت الكلمة الأولى هى الخطوة الأولى فى سبيل العلم والمعرفة دفعت البشرية كلها إلى طرق أبواب العلم بكل إمكانياته .

دعوة دوى رجعها فى جنبات العالم حين قال الله لرسوله اللاجئ إليه فى غار بعيد مظلم يلتمس منه الهدى والمعرفة « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق . الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

للشهر العظيم سر وللصوم فيه معنى يدركه الذين تجردوا من شهواتهم وكبتوا كل رغباتهم فى سبيل الله حتى صارت رائحة أفواههم أطيب عند الله من ريح المسك . وهناك من قصار النظر من يعتقد أن شهر رمضان فترة زمنية يخلد فيها المسلمون إلى الكسل ويعترى عزائمهم الفتور والضعف .

ومما يؤسف له حقا أن هذا الخاطر يسرى فى عقول الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية فيجعلون من رمضان شهر النوم والبطالة والكسل ويلتمسون مبررات لإهمالهم وتقصيرهم فى أداء واجبهم .

ونحن فى هذا المقال نعرض للمسلمين شهر رمضان ونطوف معهم فيه بمواكب النصر التى حققها الصائمون فى رمضان ، ونكشف سر الطاقة الروحية التى قهرت الأحداث والأعداء وخلقت فى أمة الإسلام روحا وثابة تصل إلى غاياتها فى عزة الصائمين كرامة المؤمنين .

باستعراض الحوادث الكبرى والمواقف الحاسمة فى التاريخ نجد أن المولى جل جلاله عندما يريد النصر لأوليائه يختار لهم الزمان والمكان اختيار الذى وضع سره فى اقتران الزمان بالمكان ليحقق الوعد الذى وعد والنصر الذى يرفع به هامات أوليائه ويلشر به دينه ويؤيد به الحق الذى جاء على لسان رسوله .

٢ — موقعة بدر :

كان الزمان الذى دبرته العناية الإلهية لمعركة بدر شهر رمضان حيث كان كل مسلم فى عبادة روحية لايشوبه فيها رياء ولا يفارقه فيها الإخلاص ، فى صيام وحرمان يسد منافذ الجسد المطلة على الشهوات ويهتك الحجب الكثيفة التى تحجب الأنوار ، ويفسح المجال أمام الروح لتنطلق من قيود المادة وتسبح فى آفاق عليا لا يصل إليها إلا من أضناه الجوع والعطش لله وفى الله .

موقعة لم يحدد المسلمون زمانها ولا مكانها ولكن الله هو الذى حدد الميعاد فقال لنبيه « ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

من أجل الزمان الذى حدثت فيه هذه الموقعة الكبرى لم تكن منزلة بدر بين حوادث التاريخ أنها معركة حربية انتصر فيها فريق على فريق ، أو لأنها انجلت عن عدد من القتلى وجملة من الأسلاب فكم من معارك حربية كان حصادها من القتلى آلافا ومن الأسلاب والغنائم ما لم يخطر على بال .

وإنما أخذت موقعة بدر مكانها فى التاريخ بزمانها الذى أقت لها ومكانها الذى التقى فيه طرفاها ـ لأنها قلبت الميزان السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى جزيرة العرب ، وانتزعت السيطرة من اليد التى كانت فيها ووضعتها فى يد الصفوة المنتصرة من المؤمنين .

وأصبح الزمن كله ـ من يومها ـ مدينا لهذه الغزوة لأنها وضعت أساس دولة جديدة

على أنقاض نظام منهار وسادت بركب الإنسانية فى طريق الهدى والنور ، ولقنت العالم كله مبادىء لم تكن لتخطر لأحد من البشر على بال .

وكان المكان (بدرا) بين العدوة الدنيا والعدوة القصوى ، وكان موقف المؤمنين بالعدوة الدنيا حيث كانت الأرض ثابتة تحت أقدام الصائمين وكان الماء تحت سيطرتهم وحدهم ، وكان مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على شرف عال يدير منه المعركة ويتلقى توجيهات ربه الذى يدير له المعركة ، ويتولى عنه نحر أعدائه الذين اعتزوا بكثرتهم ويسجل عليهم الخزى أمام العالم كله .

زمان مختار فى شهر مبارك ومكان منتقى لتدور المعركة فيه كما أراد خالق الزمان والمكان ، من عليهم بالنوم قبل الموقعة ، وأنزل عليهم مطراً طهرهم به ، وأذهب عنهم رجز الشيطان ووطأ الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماءاً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

ضراعات إلى الله من أفواه الصائمين المعطرة بخلوف الصيام واستغاثات من المسلمين الذين هم فى طاعة مولاهم منطلقين إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدمون أرواحهم فداء للنداء الموجه إليهم من ربهم « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم » .

لما كانت الضراعات الموصولة بالسماء من القلوب الصائمة والبطون الجائعة تصل إلى الملأ الأعلى فى تجاوب وإخلاص أجاب المولى هذه القلوب الخاشعة الضارعة بقوله : « أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » ، كما أوصى إلى المدد الملائكى بقوله لهم : « إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » . ثم يبالغ المولى فى نصرة الصائمين وإمدادهم بإمكانيات النصر كلها بعد ما تبين من طهارة قلوبهم بالحرمان من شهوات نفوسهم وجهارة أصواتهم بالدعاء ، فيقول لرسوله وحبيبه فى حومة الوغى واشتداد المعركة : « إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » .

من سياق هذه الآيات تتبين عناية الله بالصائمين المقاتلين فى بدر وفى قلة من العدد وإن كانوا قد سموا بأرواحهم وجردوا أنفسهم عن المادة بصيامهم فلم تعد المادة شيئاً فى أعينهم وحلقوا بأرواحهم فى عالم التسليم والرضا بعد أن رأوا بأعينهم منازلهم

فى الجنة ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مصارع الكفار فى المعركة ومواضعهم فى النار .

وفى منازل القرب من الخالق منزلة الشعور بالذل والإحساس بالضعف فتى ذل العبد بين يدى ربه وهبه العزة على خصومه وذلك وصف القرآن للمؤمنين : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » .

ومن أجل هذا الذل الذى هو مقدمة العز وعلامة النصر قال الله لأهل بدر الصائمين فى المعركة الخاشعين فى العبادة الأذلاء فى الضراعة قال : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

وأى إكرام أعلى من ترتيب المولى لمواكب النصر فى شهر رمضان ، وفى الموقعة الأولى بين أوليائه وأعدائه ؟ أى إكرام بعد أن كانت عناية الله بالمعركة واضحة فى إمداده أحبائه بألف من الملائكة مردفين، ثم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ثم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين .

إن اختلاط الملائكة بالمؤمنين فى موقعة بدر لم يتم إلا بعد أن تجرد المؤمنون من سيطرة المادة وإغراء الشهوات وارتفعوا بأرواحهم إلى صفوف الملائكة الذى وجدوا فى طهارة روحهم ، وفى مهارة رميهم ما جعل الضربات يلتقى بعضها ببعض حتى كان يكفى المؤمن أن يحرك سيفه فتجهز الملائكة على خصمه فإذا بالرءوس تتطاير، وإذا بالصفوف تنهار ولم يدرك السر إلا بعد أن أعلن الله للمؤمنين مشاركة الملائكة لهم فى المعركة :

٣ — فتح مكة فى رمضان :

من يمن هذا الشهر ، ومن طهر الصائمين فيه ، ومن سمو الروح وتحليقها فى مجالات ربانية تطلب منه العون وتبذل من أجله الروح تمت فى هذا الشهر أحداث كبرى وأعمال جليلة اكتسب فيها المسلمون النصر والظفر بطهارة الروح وبذل المهج عبادة لله وطلباً للشهادة وإحساساً بحلاوة الجهاد والبطون خاوية والقلوب ظمآى فى سبيل الله .

لم تكن مجرد الصدفة هى التى جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج بكتائب الإسلام وجنود الرحمن فى العام الثامن للهجرة وبعد مضى عشرة أيام من رمضان ويقرر فى نفسه عزما أكيداً على فتح مكة هذا الفتح الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله الله مهوى أفئدة الناس أجمعين .

هذا الفتح الذى استبشر به أهل السماء ودخل الناس به فى دين الله أفواجا وأشرق وجه الأرض وزحفت جحافل الجيش الصائم

لتدهو بسحرها وسرها أقواما ضالين إلى هداية الإسلام .

تحركت الجموع مع رسول الله إلى مكة فى الحادى عشر من رمضان وفى قلوبهم التيمن بشهر رمضان وفى نفوسهم الأنس بعبادة الصوم فكانوا كلما أغذوا السير وتقدموا انضم إليهم من سائر القبائل من يزيد فى عددهم ومنعتهم وسار على رأسهم رسول الله يفكر فى دخول البيت الحرام فى شهر الصيام من غير أن تراق قطرة دم واحدة .

وبلغ الجيش (مر الظهران) قرب مكة وقريش لا تعلم شيئاً عن هذا الجيش الجرار وأمر الرسول بالفطر من شدة الحر .

وهناك فى مر الظهران أخذت طلائع الراغبين فى الإسلام تستقبل رسول الله فى جيشه معلنة إسلامها . وكان للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله دور خطير فى التمهيد لفتح مكة وتحقيق رغبة رسول الله فى أن يتم الفتح بسلام من غير اصطدام أو إراقة دماء .

ومع ما استقبل به رسول الله من الرضا والتسليم فإنه فرق الجيش إلى مجموعات تدخل مكة من كل مداخلها دفعة واحدة ثم نزل عليه الصلاة والسلام بـ (الحجون) على مقربة من قبر خديجة وعمه أبى طالب وضربت له قبة هناك فلما سئل : أيريد أن يستريح فى بيته ؟ قال : (كلا فما تركوا لى فى مكة بيتا) ، ثم أجال بصره فى جبال مكة وشعابها ومنازلها المبعثرة هنا وهناك وفى البيت الحـــرام الذى يقع فى مكة فى وسطها قلبا وضحت فى ذهنه هذه الصورة ترقرقت فى عينه دمعة الشكر العميق للمولى سبحانه وتعالى ممزوجة بلذة النصر الذى حققه له ربه ، وأدرك أن مهمة القائد قد انتهت فركب من فوره ناقته القصواء وسار بها فى مدارج صباه ، وذكرى طفولته حتى بلغ الكعبة فطاف بها سبعاً على راحلته يستلم الركن بعصا فى يده ، فلما قضى طوافه دعا (عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ووقف الرسول على بابها ثم قال : (لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) ، ثم تكاثر الناس حوله حتى امتلأ بهم المطاف فتلا عليهم قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ثم قال : (ألا كل دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج : يا معشر قريش : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

نفحات رمضان عطرت فم رسول الله فما يخرج منه إلا عطر ، وما يفوح إلا بالمسك فتجاوز عن جرائم قريش الماضية كلها ،

وصفح عن كل ما تقدم من أعمالهم الرهيبة ، ومسح قلبه الصائم من آثارها كلها فلم يشترط عليهم شرطاً للمستقبل ، ولم يسترد منهم حتى ممتلكات المهاجرين التى استولت عليها قريش عقب هجرتهم إلى المدينة ، بل طلب من المهاجرين أن ينزلوا عن كل حقوقهم القديمة .

فتحت مكة أبوابها للمسلمين الصائمين ، ولكنها حين رأت من رسول الله سماحته ونبله وكرم أخلاقه فتحت له قلوبها فكان هذا الفتح أجل وأعظم من أن تصل إليه سيوف المسلمين إذا كان اعتمادهم على السيوف وحدها فلانت قلوب ما كانت لتلين ، وتأثر قساة القلوب وغلاظ الأكباد بمبادىء الإسلام القوية السامية .

غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة :

ويدور الفلك بالشهور والأيام ليجعل من شهر رمضان شهر يمن وبركة على المسلمين فى مواقعهم الحربية التى يخوضونها فى هذا الشهر .

كانت آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم هى غزوة تبوك وأدركها يمن رمضان حيث حمل أعباءها جيش العسرة الذى تبارى فى تجهيزه صحابة رسول الله فكشفوا عن إيمان عميق وتضحيات رفعت من قدرهم وصارت نماذج رائعة لبذل الأموال والمهج فى سبيل نصرة الإسلام ومؤازرة الرسول ، كما أن هذه الغزوة سجلت للمسلمين قوة كامنة يستطيعون بها أن يتحدوا دولة الروم ويطرقوا أبواب القياصرة فى قوة وإصرار .

بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام أن قيصر الروم قد سلح القبائل العربية المقيمة على حدود الشام فأمد قبائل لخم وجذام وغسان بكل ما عنده من أسلحة لينقض بهؤلاء مع الجيش البيزنطى على أتباع محمد ومعتنقى الدين الجديد ، ثم ذهب (هرقل) قيصر الروم بنفسه إلى مدينة حمص فى أرض الشام ليدير بنفسه العمليات الحربية ضد محمد وأتباعه .

وأعد رسول الله جيشا جرارا ليقضى على كل أساليب التهديد التى يقبعها هرقل ومن معه ورغم أن هذه الغزوة لم يحدث فيها قتال فإنها سجلت نصرا مؤزرا للمسلمين حيث انسحبت الجيوش الرومانية من مواقعها لما عرفوا قوة الجيش الإسلامى والروح التى تسوده من الرغبة العارمة فى خوض المعركة الفاصلة بينهم وبين الروم .

ولما انفرد رسول الله بالسيطرة على مواقع الروم ، وعلمت القبائل المجاورة فرار الروم من وجه المسلمين أقبلت كل جماعات العرب المقيمين قريبا من الحدود الرومانية أو الواقعة ديارهم فى طريق عودة المسلمين

أسرعوا إلى عقد الصلح مع رسول الله ، والارتباط معه بمعاهدات الصداقة التى أمنت حدود الديار الإسلامية وألقت الرعب فى قلب أكبر دولة عرفها العرب منذ قديم .

موقعة الفراض فى عام ١٢ هـ :

وهذه معركة رمضان أيضا لها طابع جديد فى مجرى الفتوحات الإسلامية وهى تعتبر نقطة تحول فى سير الحروب ضد الفرس وهذه المعركة قائدها خالد بن الوليد ، وقد اقتضى هذا الموقع توجيه الحرب وجهة جديدة لم يكن خالد ولا أبو بكر ليفكرا فيها إلى ذلك الحين .

وترجع أهمية موقعة الفراض إلى أنها أول موقعة يتحالف فيها الفرس والروم ضد المسلمين ، وأنهما بتحالفهما هذا حملا المسلمين حملا على أن يدخلوا حتما فى حرب مع الروم الذين شعروا أن قضية الفرس إنما هى قضيتهم . وبدا للمسلمين أنه ليس من الحكمة أن يقتصر الأمر على فتح فارس بل لا بد أن يخوضوا معارك دامية مع حلفائهم الذين اعتبروا المسلمين عدواً مشتركا بين الدولتين .

ومن أجل ذلك لم يعد فى إمكان المسلمين أن يتركوا الروم بعد ما ظهرت نواياهم بالانضمام للفرس فى معركة الفراض . وذلك أن فلول الفرس وعرب العراق الذين فروا أمام جنود خالد فى معركة (الحصيد) و (الخنافس) استمر بهم الإمعان فى السير شمالا ، وجنود خالد من ورائهم حتى وصلوا (الفراض) وهى تطل على حدود الروم ولا يفصل بين الدولتين فى هذه المنطقة سوى نهر الفرات .

وهناك اجتمع الحلفاء من الفرس والروم وعرب البادية والتقى الجمعان فى رمضان والأكباد صادية والبطون خاوية والصائمون مع الله فى صلح ومحبة فكلما ظنوا بأنفسهم الضعف زادهم الله قوة . وكان خالد بن الوليد يدرك قوة الروح فى جنده فأمرهم أن يلحوا على أعدائهم ولا يرفعوا أيديهم لحظة عن الطعن والإجهاز على عمالقة الدولتين ، وهدم الكيان الفارسى والرومى على مرأى ومسمع من شعبيهما على ضفتى الفرات .

وقد أبدى خالد من فنون القتال مالم يعهده الجند فى المعارك السابقة حتى انكشف الروم وحلفاؤهم وتبعهم المسلمون يمعنون فيهم قتلا حتى بلغت ضحايا موقعة الفراض مائة ألف قتيل بإجماع المؤرخين ، على الرغم من أن الشهر كان رمضان ، والفصل كان صيفاً ، والمكان على مئات الأميال من المدينة .

فتح الأندلس فى رمضان عام ٩٢ :

وإذا سرنا فى ركب الزمن وصاحبنا قافلة رمضان المنتصرة فى كل زمان ، وجدنا أن المجد الذى حققه شهر الصوم لم يتيسر أبداً

لشهر سواه . فحين سبحت الأرواح الصائمة مع الآمال الهائمة إلى دفع العقيدة الإسلامية إلى أوربا عبرت بوغاز جبل طارق بحلقة فى شهر رمضان .

ومن الغريب أن كل معركة مهمة أو فتح بلد عظيم أو مدينة كبرى فى الأندلس ارتبطت بشائر النصر فيه بشهر رمضان . أمر عجيب يلفت الأنظار حقا .

فحين أراد (موسى بن نصير) أن يخوض الأرض الجديدة فى أوربا بالسرايا وبعث فى طليعة هذه السرايا مولاه (طريف بن مالك) ليرتاد ويكشف مقدرات أهلها كان ذلك فى رمضان حيث حقق طريف نصراً رجع بعده محملا بالغنائم إلى قائده موسى يبشره بتحقيق الآمال إذا وصل المسلمون إلى تلك البلاد .

وحين أعد موسى بن نصير جيش الفتح للأندلس بقيادة (طارق بن زياد) كأنه كان يعلم أن المعركة الفاصلة ستكون فى رمضان ، فما كاد يدخل طارق بلاد الأندلس حتى وافاه رمضان بأمجاده الإسلامية ، ويمنه فى المعارك الحربية ، ووجد جموع القوط هناك عند مدينة (شريش) وعند مائة ألف من جنود القوط بقيادة ملكهم (لذريق) دارت المعركة فى سهول شريش مع فجر يوم ٢٨ من رمضان عام ٩٢ هـ وجال طارق برجاله جولات بددت تلك الجموع الهائلة بعد أن فقدوا ملكهم لذريق فى سنابك خيل المسلمين الذين لم يزد عددهم عن اثنى عشر ألفاً .

ومن أسرار رمضان العجيبة أيضاً أن موسى بن نصير حينما ذهب إلى الأندلس ليساعد طارقا فى فتحها اختار أن يكون دخوله هذه البلاد فى رمضان عام ٩٣ هـ ، ولما اشترك فى المعارك الحربية ورأى بنفسه تلك المدن المحصنة أراد أن يضرب المدن الكبرى ليفتحها على مصراعيها للمسلمين فحاصر مدينة (ماردة) حصار الواثق من قوته ، وأحست المدينة بمصيرها على يد موسى بن نصير فسلمت صلحاً فى آخر يوم فى رمضان عا ٩٤ هـ .

وليس فى وسعنا سرد الانتصارات الرمضانية كلها فى الإسلام كما أنه ليس فى صفحات مجلة شهرية مكان يتسع لكل نصر تم فى رمضان . ولعل هذا البحث يكون فاتحة لكتاب يتناول مواكب النصر كلها فى رمضان إن شاء الله ، ولكننا نختم هذا المقال بهذا التساؤل : ما الذى جمع فى هذا الشهر كل هذا المجد ؟ وما السر الذى جعل رمضان مقروناً بالنصر والفوز فى ميادين الحياة كلها ؟ أهو سر طواه خالقه فى زمانه ، وستره عن خلقه ؟ أم هو سر الصائمين المنقادين لله فى الثلاثين يوما التى احتواها رمضان ؟ لعله كل ذلك ؟

دكتور إبرهيم شعوط

شهر رمضان موسم النعمة الروحية

للأستاذ حسن جاد

يجيء شهر رمضان من كل عام ، فيكون واحة ظليلة تستروح فيها النفوس المثقلة طول عامها بآصار المادة ، وتتجرد الأرواح مما ران عليها من أوضار الدنيا ، وتنفض القلوب عن جوهرها النقي ماشابها من غبار النوازع والشهوات ، فالصوم تدريب نفسي ، وتنمية روحية ، بهما تتحقق الغاية منه ، وهي (التقوى) ، كما قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، وكما يقول الرسول الكريم : (الصوم جنة) أي وقاية ، والتقوى هي الوقاية : وقاية النفس مما يسوءها من غضب الله وعذابه ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وصونها عما يرديها من الشهوات والذنوب . وحفظها مما يراودها من النوازع والميول ، وتزكيتها بصالح الأعمال وكريم الأخلاق .

ومتى بلغ العبد هذه الغاية ، وحقق هذا المقام ، فخاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى .

ولا شك في أن الصوم - بما يقوم عليه من إمساك عن الشهوة ، وضبط للسلوك ، وكبح لجماح النفس ، وكبت لسعار الغرائز - إنما هو العبادة الوحيدة التي تحقق الإخلاص في التقوى ، والصدق في العبودية .

فهو يمتاز عن العبادات الأخرى بأنه عمل سلبي ، ليس له مظهر خارجي يحس ، فهو سر بين العبد وربه ، لأنه ليس إلا (نية) في القلب ، و (كف) عن الطعام والشراب ، و (إمساك) عن كل منكر من القول أو الفعل ، ولهذا لا تتأتى فيه المواربة ولا الرياء ولا الخداع ، كما يمكن أن تكون في العبادات الأخرى ، ومن هنا جاء في الحديث القدسي: « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه من أجلي » .

وهذه السلبية هي جوهر الإخلاص ، وهي حقيقة اليقين ، لأنها تعتمد على مراقبة الله وحده ، وعلى ضمير العبد ويقظته . يقول الرسول الكريم : (ليس في الصوم رياء ، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) .

ويقول بعض السلف : (طوبى لمن ترك شهوة حاضرة ، لموعد غيب لم يره ، لما علم المؤمن الصائم أن رضا مولاه في ترك شهواته قدم رضا مولاه على هواه ، فصارت لذته

فى ترك شهوته لله ، إيثارا لرضا ربه على هوى نفسه) .

وسئل ذو النون المصرى : متى أحب ربى؟ فقال : (إذا كان ما يكرهه أمر عندك من الصبر) .

إن الصوم انتصار لإرادة الروح ، وحصار لبواعث الشهوة، وسد لمنافذ الفتنة ، وتضييق لمجارى الشيطان ، يقول صلوات الله وسلامه عليه : (إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع) ، كما يقول لعائشة رضى الله عنها : (داومى قرع باب الجنة ... بالجوع) .

إنه فرصة الروح تنطلق فيه من إسار الجسم وقيود المادة ، لتسبح فى عالم الصفاء والنقاء تظللها السكينة المؤمنة ، وتغمرها أشراق الملأ الأعلى ، وتزود من زاد التقوى بما يعينها على رحلتها فى هذه الحياة .

بحسب الصيام أن يحقق الإخلاص فى العبد كما قلنا — باعتبار أنه العبادة التى تتجرد عن الرياء، ولا يمكن أن يتمثل فيها الخداع ، إذا أن العبد لو أراد الرياء لاستطاع أن يتناول ما يشتهى فى الخفاء ، دون أن يعرف أحد أنه مفطر ؛ فالصوم الحق لا يمكن إلا أن يكون ابتغاء وجه الله ، لا يشوبه غرض ، ولا يداخله رياء .

وبحسب الصيام أنه يقوى إرادة العبد ، وينمى عزمه ، بما يفرض عليه من السلوك ، وما يوجب من إضعاف الجسم، وكسر الشهوة، وقمع الغريزة، ومخالفة العادة ؛ وبذلك يتعود ترك ما ألف من قبيح العادات المادية والخلقية .

وبحسب الصيام أنه يعود العبد على الصبر، فهو نفسه صبر ، وبذلك يجابه ما يعترضه من مشاق ، وما ينتابه من نوازل ، بالصبر الذى تعوده على الحرمان فى الصيام ، كما أنه يتعود الصبر على الطاعات ، ويألف الصبر عن المعاصى . وبذلك تشتد عزيمته ، وتقوى روحه .

وهكذا نرى فى الصيام تنظيما للسلوك ، وتقويما للنفوس ، وتعديلا للغرائز، وتعبئة الأرواح ، وتقوية للإرادة ، وتحقيقا لمعنى الإنسانية فى الإنسان .

وإذا كان الصوم رياضة جسمية ، تقوى البدن وتخلصه من رواسب الأغذية وسمومها، إلى جانب كونه تعبئة روحية ، ورياضة نفسية ، يتحقق بها الإخلاص فى العمل ، والمراقبة لله ، والصبر على الشدائد ، وضبط النفس ، وقوة الإرادة . فما أحرى المجتمع الذى يربى الصيام أفراده هذه التربية ، أن يحقق المعجزات ، ويواجه العقبات ويجتاز المشاق ، ويحقق ما يصبو إليه من أمل .

ما أحوج مجتمعنا الراهن إلى أن يدرك أفراده هذه الحقائق التى يجلوها لنا شهر رمضان ، وأن يستشعروا أسرار الصوم ،

ويتذوقوا طعومه، ويتمرسوا بما يغرسه فى النفوس من ضبط الإرادة، ويقظة الضمير، ومراقبة الله؛ وأن يجعلوا من هذه التعبئة الروحية زاداً لهم طول العام، يدفعهم إلى الإخلاص فى العمل، ومراقبة الله فى الإنتاج، والصبر على الضغوط والتحديات ومواجهة الصعاب والمشقات، والاعتدال فى الإنفاق، والاقتصاد فى المطعم، وكبح جماح الشهوات فى كثير مما ترومه من مظاهر البذخ والإسراف والترف.

إن هذه التعبئة الروحية فى شهر رمضان لخليقة أن تنسحب على غيره من شهور العام، فتصود ما ألفناه فيه، لننتفع بهذه التعبئة فيما نواجهه من ضغوط اقتصادية، تقتضينا إخلاصا وإنتاجا، وتتطلب منا صبرا وعزما، وتحتاج إلى كسر الشهوة، واعتدال النفقة.

وإذا لم توجد المراقبة والإخلاص لدى العامل فلن يتحقق ما نريد من زيادة الإنتاج لمواجهة زيادة الاستهلاك.

وإذا لم نقتصد فى ما كلنا ومشربنا، فلن نجد ما يفى بحاجاتنا عسى أن نجد فى هذا الشهر فرصة، تقوم سلوكنا، وتصفى نفوسنا، وتروضنا على مجاهـــدة النفس، ومغالبة الشهوة، ومراقبة الله.

وبعد فإن الصوم الصحيح خليق أن يحقق التكافل الاجتماعى، بما يثيره من العواطف الإنسانية فى نفس الصائم، وبما يربى فيه من الإحساس بآلام الغير، حين يحس لذع الجوع وسورة الظمأ، وبذلك تستيقظ فى نفسه دوافع الخير، وتقوى دواعيه، فيسارع إلى كفكفة دموع البائسين، ورد لهفة المحرومين.

وما أجمل ما يقوله شوقى فى هذا المقام.

«الصوم حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع؛ لكل فريضة حكمة، والصوم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، ... يستثير الشفقة، ويحض على الصدقة، ويكسر الكبر، ويعلم الصبر، ويسن خلال البر؛ حتى إذا جاع من ألف الشبع، وحرم المترف أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، وألم الجوع إذا لذع».

ترى هذه التعبئة الروحية، بما فيها من هجرة إلى الله بالروح من قيود الجسد وأهوائه ونوازعه، وفرار إليه بالإخلاص والمراقبة من شوائب الأرض والمادة.. إعداد واستعداد لهجرة الروح والجسد معا إلى بيت الله فى موسم الحج؟! بعد أن تنكسر حدة الجسم، ويتم للروح سلطانها عليه، وقهرها له، حتى يكون مهيأ لتلك الرحلة المقدسة التى يواجه فيها مشقة السفر، وعناء الاغتراب، فيصطحب ما عبأه به هذا الشهر من قوى روحية، تعينه على أمره، وتؤدبه فى حضرة ربه، وتنسيه ما سواه، وتصرفه عن شواغل

(البقية على الصفحة التالية)

قاعة رمضان بقلعة الجبل

للدكتور عباس حلمي إسماعيل

حرص الأيوبيون كما حرص الفاطميون من قبلهم على إحياء ليالي رمضان ، وبلغ من حرص السلطان الكامل الايوبي على إحيائها أن شيد قاعة بقلعة الجبل بالقاهرة سماها قاعة رمضان ، منذ أن انتقل مقر الحكم إلى إلى القلعة سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٨ م) وجلس الكامل مع الفقهاء والقراء في تلك القاعة في هذا الشهر الكريم ، ليحيوا ليالي رمضان على المذهب السني [١] ومن أئمة القراء الذين أجادوا فن تجويد القرآن في تلك القاعة على عهد الكامل المقرىء الشهير الشيخ : زيادة بن عمران ، والشيخ : عبد الظاهر بن نشوان الذي انتهت إليه مشيخة القراء ورياسة فن القراءة في ذلك الزمان ، وهو فضلا عن ذلك أبو الكاتب النحرير : محي الدين ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء بدولة المماليك الأولى المعروفة بدولة المماليك البحرية [١] .

واهتم الكامل بقاعة رمضان ، لأنها كانت مجمعا لأصدقائه العلماء . وبلغ من اطمئنانه إلى أحدهم وهو زين الدين بن البياع أن ولاه الخطابة بقلعة الجبل ، فضلا عن نيابة الحكم ببعض البلاد وكثيراً من الوظائف الديوانية . كذلك وصل حب الكامل (الصلاح الإربلي) أن اتخذه أحد ندمائه ، وتولى الإنفاق على أقاربه ومماليكه ، وأقطع ولده بساتين قليوب . والواقع أن بيت الكامل بالقلعة

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٥٥ .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٣ – ٢١٤ .

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الدنيا والحياة ، وتصقل نفسه ، وترهف حسه وتسمو به عما لا يليق .

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه - إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل : إني صائم » .

وهكذا نرى الأدب في الحج ، كما يقول الله سبحانه : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » .

جعلنا الله ممن يصومون رمضان حق الصوم ، ونصرنا به على نفوسنا وشهواتنا ، وغفر لنا به ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر ، إنه غفور رحيم ؟

حسين جاد

كان بمثابة مدرسة ، إذ كان يبيت عنده كل ليلة جمعة ، على سرر متقابلة ، صفوة من العلماء أمثال : الجمال اليمنى ، وعمر بن دحية ، فيعرض الكامل عليهم الموضوعات الدينية والمسائل العلمية ويشاركهم فى مباحثاتهم . وأثار الكامل مرة مناقشة حول الطريقة الصحية لأكل الخيار ، ولعله أراد بهذه المناقشة أن يتسلى قبل الإفطار ليلا وقت الفراغ . واشترك فى المناقشة الفيلسوف : أفضل الدين الخونجى والطبيب رشيد الدين أبو حليقة ، وأشار الخونجى بأكله بقشره لما عسى أن يكون به من عناصر غذائية وألياف مفيدة ، ونصح أبو حليقة بأكله دون قشر لأنه غليظ عسر الهضم ، وعندئذ استحسن الكامل إجابة أبى حليقة ، فقرر له جامكية كبيرة .

والواقع أن الكامل حرص على أن يكون عالما من الطراز الأول بالبحث والمناقشة والمجادلة ، ليثبت للفقهاء والعلماء والأدباء أنه جدير بالسلطنة لقدرة عليه فضلا عن براعته السياسية والحربية ، فكان له آراء شخصية فى النحو ومسائل فى الفقه ، بسطها على علمائه ، وكافأ من حلها منهم بأكبر (المعالم) . وساعده على ذلك نشأته الأولى ، فقد تعلم منذ نعومة أظافره الأحاديث النبوية ، وأجازه العلامة أبو محمد بن برى وأبو القاسم البوصيرى وابن صدقة الحرانى ، فنشأ على حبها ، وحرص على حفظها ونقلها ، وتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح ، ولذا شيد سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٧م) دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة . وقيل إنه عند ما حفر العمال أساسها وجدوا تمثالا كبيرا من الذهب ، فأمر الكامل بأن يسبك وينفق على بنائها الذى وقفه على المشتغلين بالحديث من الفقهاء الشافعية [1] .

وأول من تولى مشيخة هذه الدار الشيخ أبو الخطاب عمر بن دحية ، وبقيت هذه المشيخة فى بيته زمنا طويلا ، ثم تولاها الحافظ عبد العظيم المنذرى الذى قيل عنه : « ما على وجه الأرض من مجلس فى الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم » . ولم ينس الكامل أن يدعم مكانة المدرسة الصلاحية بقبة الإمام الشافعى بالقاهرة ، فعين لها الفقهاء والمدرسين بعد أن كان يعلم بها المعيدون فقط ، وأسند مشيختها لشيخ الشيوخ كمال الدين أحمد بن حموية ثم لنقيب الأشراف شمس الدين الأرموى ، حتى جاء وقت سميت فيه بالمدرسة الشريفية ، وفتحت هذه المدرسة أبوابها للطلبة الغرباء ، فوجدوا مساكن مريحة ، وحمامات مزودة بالماء الساخن ، وأطباء يتفقدون أحوالهم الصحية ، ومعالم ينفقون منها ، هذا عدا ما لشيخ المدرسة كل يوم من راتب الخبز وراويتين من ماء النيل ، وشجع الكامل بناء المدارس بالصعيد ، ليتيسر على أبنائه التعلم ببلادهم ،

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨١ .

وليقضى على المذهب الشيعى الذى ظل متفشيا فى قوص وطود وقفط وإسنا وأسوان ، بفضل معاضدة عرب بنى عبد القوى وبنى الكنز لبقايا الفاطميين المشردين الذين هاجروا إلى أقاصى الصعيد ، ليكونوا فى مأمن من ضربات السلطان ، وليدبروا خطط قلب الحكم السنى وقتل دعاته ، ومنهم ابن سيد الكل الذى نشر المذهب السنى بإسنا ، وصنف كتاب (النصائح المفترضة فى فضائح الرفضة) [١] .

وبلغ من حب الكامل للآداب والعلوم أن استولى على مكتبة القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ، وكان بها آلاف كثيرة من الكتب ، منها كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى فى ستين مجلدا .

ومن دور العلم والعبادة التى أسهمت فى إحياء ليالى رمضان ، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، فكان يتسع لأربعين حلقة علمية صباحا ومساء يوما بعد يوم ، ويضاء كل ليلة بالقناديل ، وينفق عليه من أوقاف بيلاد المنوفية الخصبة ، وولى الكامل خطابة الجامع للشيخ أبى الطاهر المحلى ، وكان أول أمره (شرابيا) يبيع الشراب الحلو فى الأسواق ، ثم جنح إلى التصوف وصار عالما عفيفا يتبرك اليهود والنصارى بخطه وأحجبته ، وهو الذى اقترح على الكامل ضرب عملات صغيرة ، فعمل الكامل باقتراحه تبركا ، وسك الفلوس ليسهل شراء الحاجيات الصغيرة التى يكثر الإقبال عليها فى شهر رمضان . والواقع أن الكامل أحب الصوفية ، وتدلل عليه منهم الشيخ عمر بن الفارض ، وسمى بابن الفارض لأنه كان يكتب الفروض للنساء على الرجال ، وعرف بين معاصريه باسم حجة أهل الوحدة ، لأنه كان يسيح فى أودية المقطم طلبا للوحدة والعزلة ، وكان الكامل يزوره فى قاعة الخطابة بالجامع الأزهر ليتبرك به [١] .

هكذا أسهمت قاعة رمضان بالقلعة فى إحياء ليالى رمضان مع غيرها من دور العلم والعبادة بمدارسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، من أجل إقامة مجتمع تسوده المودة والمحبة ، مصفى من التبعية والعبودية ، وهو فى نفس الوقت يعمل على تحرير كل شبر من أراضيه من أدناس الصليبيين وأطماع التتر ؟

عباس حلمى إسماعيل

---

(١) الإدفوى : الطالع السعيد ص ٣٩٢ .

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .

الصّيام عن اللحم ونتاج الحيَوان

للأستاذ علي الخطيب

تعيش فوق الأرض - إلى يومنا هذا - أمم منها من أخذ بنصيب وافر في المدنية ومنها من أقعدته ظروف شتى عن اللحاق بها فاقتصر منها - على نصيب ، ومنها أمم ما زالت تعيش على بدائية فطرية لم تتخل عنها حتى اليوم .

وعلى الأرض أديان سماوية اعتنقتها كثرة من الناس ، وأديان بشرية ليس لأحكام السماء فيها نصيب ، ودانت كثرة غالبة من الناس لهذه الأديان ، ونزلت على أحكامها عن رغبة أو خوف إذ بين هذه الأديان ما يتخذ السحر وغيره من ضروب الأذى سبيلا للسيطرة والإرهاب .

وبين فرق من معتنقي الديانات البشرية وغيرها عمن ينتسب لأديان سماوية نجد أناسا تتعبد بصوم يقضي عليهم أن يبتعدوا عن تناول اللحم ونتاج الحيوان فترة الصوم ، أو تمتنع عنه إلى الأبد .

إننا قبل أن ندرس (شرائع) هذه الأديان ينبغي أن ننظر إلى (الفطرة) فطرة الإنسان التي جبل عليها ، وعاش لها ، واستقام بها ، وتتمثل هذه الفطرة بغير تجميل من أقنعة الحضارة في نفوس البدائيين، وحب هؤلاء للحم غرزي ؛ والبدائي به نهم لا يعرف - مع طبيعته تلك - مرتبة القصد والاعتدال ، وهيأت له ممارسته الصيد إشباع تلك الغريزة في أغلب الأحوال حتى أصبح لا يلتفت لظروف المستقبل ، ولا يفكر في الادخار لوجبة أخرى ، وختم بعضهم ذلك بلحم أخيه بل وصل به الأمر أن يعد فريقا من بني جنسه لوجبات شهية بتسمينهم إعدادا للذبح كالأنعام (ص ١٩ ج ١م ١ قصة الحضارة) .

ففي البدائي إذن عاشت الفطرة تحدوها الشهوة فتطورت إلى تلك القسوة على أن الذي يعنينا من ذلك كله بيان طبيعة الإنسان ومدى حبه الفطري للحم ؛ فأما شهوته الآثمة التي تنكبت به الطريق فقد تولت حسابها أديان السماء .

إن أقدم نص يهدينا السبيل إلى تقرير أمر السماء في هذا الموضوع كتب عنه العلامة (ابن كثير) فقال: «إن الله قد نص في كتابهم[1] التوراة أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها»[2] يشير رضي الله عنه إلى ما ورد في العهد القديم : «كل دابة حية تكون لكم طعاما

---

(١) أي اليهود .

(٢) ص ٣٨٢ تفسير ابن كثير المجلد الأول .

كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع » . تك ٩ - ٤ ، ٥ .

ويصدق ذلك قول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم : «كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » واستعانة بالنصين ، بل بالأخير يتبين في وضوح أن الله سبحانه لم يحرم تناول اللحم مطلقا حتى عهد يعقوب عليه الصلاة والسلام . . وكان يعقوب هو الذي حرم على نفسه - دون أن تحرم أوامر السماء - جزءا من لحم الإبل ، ويذهب بعض المفسرين إلى أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه إنما هو ألبان الإبل ، ونتيجة لذلك كله نقول : إن شريعة الله ليعقوب في المأكول والمشروب كانت استمرارا مطلقا لشريعة (نوح) فلم تحرم من ألوان الطعام شيئا ، واستمر الحل قائما ، ولم توجد فترة صيام عن اللحم ونتاج الحيوان قاصرة عليهما .

ويمكن أن نستمر في البحث بعد يعقوب بنحو خمسة عشر قرنا أو أكثر حين نزلت التوراة فنى (العهد) المتداول نص صريح لايحرم الامتناع عن اللحم لفترة تعتبر صياما يقول : « إذا وسع الرب تخومك كما كلمك وقلت : آكل لحما ، لأن نفسي تشتهي أن تأكل لحما فمن كل ما تشتهي نفسك تأكل لحما ، تث ١٢ - ٢٠ ، ٢١

وقد يحاول بعض الناس أن يعمل في النص عقله ويقول : في النص ما يشير ، أو يمكن أن يستنتج منه امتناع بنى إسرائيل عن اللحم فترة إلى أن يوسع الله عليهم تخومهم نقول : إن الله رزق بنى إسرائيل المن والسلوى في فترة التيه قبل توسيع التخوم وكان أحد هذين النوعين لحما خالصا .

غير أن شريعة التوراة حرمت أنواعا من اللحم كالخنزير والإبل تحريما دائما ولكنها لم تحرم ما أحلت من اللحم لفترة تعتبر صياما عن اللحم ، كذلك لم تحرم نتاج ما أحلت منه فترة حتى يمكن أن يعتبر ذلك صياما عنه ، تقرأ هذه المحرمات في سفر (اللاويين) كله كما تقرأ عنها في سورة (الأنعام) من القرآن الكريم .

ولكى نوفى هذا البحث حقه ينبغى أن نشير إلى ما ورد بالعهد المتداول من حادثة اتخذها البعض ذريعة إلى تقرير هذا الصيام .

أورد العهد - في غير نصوص أسفار موسى - قول دانيال - زمن السبي - أى بعد وفاة موسى بنحو ثمانية قرون يتحدث عن نفسه وهو أسير بمملكة بختنصر (بابل) :

(في تلك الأيام ، أنا دانيال ، كنت نائحا ثلاثة أسابيع . أيام . لم آكل طعاما شهيا ، ولم يدخل في فمي لحم ، ولا خمر ، ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع) دانيال ١٠ - ٢ ، ٣ .

وكان ذلك عقب رؤيا فهم منها (دانيال) وجوب الجهاد ليتخلص بنو إسرائيل من آسريهم ؛ فهل يعتبر هذا النص دليلا على شعيرة صيام بالكف عن اللحم ونتاج الحيوان ؟

وهل نشر دانيال هذا الصيام في بني إسرائيل ؟

إذا التزمنا حق الإجابة العلمية نقرر أن دانيال عليه السلام ليس مشرعا ، وإنما الشريعة للتوراة وحدها . ودانيال وغيره من الأنبياء في بني إسرائيل من بعد موسى كانت وظيفتهم - بالنسبة للتوراة محددة - وهي الحفاظ عليها ومباشرة تطبيقها وأخذ الناشزين من بني إسرائيل بالعقاب . وهل ترى في الخبر شيئا غير حالة طارئة لم تتكرر ؟ ! .

ونضيف إلى ذلك أن دانيال لم ينشر هذا الصيام في بني إسرائيل ، ولو أنه نشره - كرغيبة مثلما فعلت (أستير الجميلة) لحفظ اليهود ذلك . وليس بحث ذلك بين اليهود عسير .

ولعدم مشاركة بني إسرائيل له في هذا الفعل لا يمكن أن نعتبره نفلا للجميع بوجه من الوجوه ، والنص بعد ذلك يفسر نفسه ، فما كان دانيال بعد رؤياه إلا رجلا حزينا ينوح ليل نهار في حزن دائم لمصير بني إسرائيل ، حزن يقبض الشهية ويطفئ في الإنسان رغبة الرواء الحسن ، ولو حملناه على الصيام لكان صيام (وصال) كالذي أداه موسى أربعين يوما متتالية ، وكما في فصل عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وليس امتناعا خاصا عن اللحم ، ثم النص بعد ذلك حجة على من يدعي تشريع هذا الصيام بأمر من السماء ، فهؤلاء حرموا على أنفسهم اللحم ونتاج الحيوان فترة صومهم ، ولم يمتنعوا عن الخمر ولا استعمال الطيب .

ولقد حدث أن امتنع دانيال وبعض رفاقه عن تناول اللحم فعلا حينما وقعوا في الأسر واختيروا ليكونوا بحاشية الملك - وكان يجب على دانيال أن يفعل - فهو يحافظ على الشريعة ، وهو - أيضا - لا يعلم ما هي جنس اللحوم التي تقدم للملك وكبار حاشيته ، ولا عذر له بالجهل ، فالجهل ليس بعذر ، والتقية لا تعفيه فهو (قدوة) وليس هو من عامة اليهود حتى يكون «الإكراه» مثلا حجة له .. ومثله في ذلك مثل غيره حتى من أقطاب المسلمين . وكانت كذلك فتوى أئمة الإسلام في «التقية» ثم بعد ذلك نجد نص العهد المتداول صريحاً . يقول: «أما دانيال فجعل في قلبه أنه لا يتنجس بأطايب الملك ، ولا بخمر مشروبه [1] » . ولذلك اقتصر على القطاني .

ذاك عن اليهود .

وأما الأناجيل المتداولة فهي بريئة كل البراءة من هذا التشريع . وفي الأسفار الملحقة بها جاء عن (طائفة) تشرع ما لم يشرعه الله .

« مرائين ينطقون بالكذب وضمائرهم مكوية ، ويمنعون عن الزواج ، وعن أكل أطعمة خلقها الله ليتناولها بشكر كل من آمن وعرف الحق » [2] .

---

(١) دانيال ١ ـ ٨ .

(٢) الفصل الرابع ٢ ، ٣ من رسالة القديس بولس إلى تيموثاوس .

« فلا يحكم عليكم أحد فى المأكول أو المشروب ، أو من قبيل عيد، أو رأس شهر أو سبوت » [1] .

ومعروف أن الكنيسة فى أى الطوائف المسيحية اتخذت لها حق تشريع غير إنجيلى يسمى بـ (التشريع الكنسى). ومن التشريع الكنسى هذا . الانقطاع عن الحيوان ونتاجه فى أيام معلومة جعلت صوما [2] .

ومن العجيب أن بعض القسس يستشهد بحادثة دانيال كتأكيد لهذا الصوم ، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا خالفت النصوص بعضها إلى مستوى التناقض . فنى إنجيل (متى) حث على التطيب .

« أما أنت فإذا صمت فادهن رأسك واغسل وجهك ٦ - ١٧ » .

« وإذا صمتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين فإنهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين ٦ - ١٦ » .

انظر لما فعل دانيال - إذا افترضنا أنه كما يرون - هل تطيب ؟ !

فى الحق أن أديان السماء جميعا بريئة من هذا التشريع ولا تعرفه يستوى فيها دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

فمن أين هبت تلك الريح . ؟ !

الريح التى أرسلت بلواقح مست ديانة ذات أصل سماوى . ؟

إننا ينبغى هنا أن نقرر حقيقة نقررها مطمئنين فعلى من يرغب فى نقضها أن يتقدم بالبرهان :

« إن موقف شرائع السماء من قضية اللحم ونتاج الحيوان هو موقفها من (التناسخ) .

إن أديان السماء تنكره لذلك تنكر نصوصها الصيام عن اللحم ونتاج الحيوان » .

أنكرت أديان السماء التناسخ بدرويه الأدنى والأعلى :

فلا تقول شريعة منها : إن الإنسان يموت ظاهرا ولكن روحه تظل تنتقل معذبة من جسد لآخر . من آدمى إلى خنزير ولكنها - أبداً - لا تموت .

كذلك ليس فى نصوص شريعة منها : أن الإنسان يموت فى الظاهر لكنه يولد ولادة ثانية يسمو فيها فيكون ملكا فى الملائكة . أو يسمو أكثر فيصير إلها كما ترى الجانتية . [1]

والإيمان بالتناسخ هو المصدر المباشر لتحريم اللحم ونتاج الحيوان .

والمؤمن بالتناسخ يؤمن بأن (جسد أى حيوان يمكن أن يكون (ظرفا) لروح

---

(١) الفصل الثانى من نص الرسالة إلى أهالى كولسى .

(٢) انظر فى ذلك الوصية الثانية للكنيسة الكاثوليكية فى كتاب : سلاحك أيها المسيحى للمندارى . و« الصوم فى كنيستنا القبطية » للقس شنودة حنا فى الأرثوذكسية .

(١) أنظر الجانتية فى الهند قصة الحضارة . الهند والشرق الأقصى : ول ديورانت .

إنسان . أو يكون هو الإنسان نفسه فى ولادة ثانية .

ومسايرة لهذا المنطق يحرم البرهمى والجانتى والفيثاغورى بداهة طعام الحيوان ؛ لأن فى أكله أكلا لحم أخيه. ومن هنا شرع فى تلك العقائد ألوان من هذا الصيام: أبدياً أو لفترة.

وأى رسالة سماوية لم تنحرف إلى اعتقاد (الحلول) على أى وجه مثل الحلول بأكل الخبز المقدس ، أو الحلول فى الله - والعياذ بالله - لا يمكن أن تقرر تلك الشريعة . .

فأما إذا قالت : عاش فى الله . أو مات فى الله ؛ فهى من التناسخ والحلول على عقيدة .

وهى من هذا الصيام على تشريع ... ولكن . . . ليس من عند الله !!! .

وجولة مع الحلوليين تبين لنا ذلك :

فهذا (مانى) الذى بدأ مسيحيا زرادشتيا وانتهى برهمياجانتيا طلب إلى أتباعه تحريم اللحم إلى الأبد بجانب محظورات أخرى[1].

واعتقد المصريون القدماء فى الحلول وكان « التجسيد » ظاهرة عندهم تلازم الإله فروح (إزوريس) منذ مات فى الظاهر « حلت » فى عجل (أبيس) كما حلت روح (إيزيس) فى البقرة (نوت) . [2]

فإذا مات عجل إبيس قضت « الشعائر أن يعم الحزن مصر كلها » وترتدى النساء ثياب

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٧٤

(٢) ص ٤٢٨ ديانة مصر القديمة أدولف إرمان .

الحداد ، ولا يدخل فى أفواههن شىء غير الماء والخضر مدة سبعين يوما يصمن خلالها تماما عن غير هذين اللونين من الطعام والشراب حتى يتم دفن إبيس[1]

ويقضى تكريس الكهنة بذلك فى مراحله المختلفة فقد قضى (لوكيوس) عشرة أيام صائما عن أكل اللحم .

ومضى فيثاغورس فى اليونان على النحو نفسه ورأى « أن جميع الحيوانات التى تدب على الأرض أهل لحلول النفس البشرية فيها وإذا ثبت ذلك فمن المحتمل أن يكون كل حيوان ظرفا لنفس بشرية ، وإذا فذبح الحيوانات أو قتلها جريمة كبرى لا تقل عن قتل الإنسان ... ومنذ ذلك العهد أصبح أكل اللحوم محظوراً على كل فيثاغورى مخلص[2] » .

وكان على الكاهنة فى الصيام - استعداداً للتنبؤ - أن تصوم ثلاثة أيام لا تتناول خلالها إلا ورق الغار تمضغه وتأخذ من رحيقه [3]

هذا واقع يفهمه اليهود ويشيح عنه المسيحيون - إلا البروتستنت فكل النصوص التى يستشهد بها المسيحيون من : كاثوليك وأرثوذكس ، فى هذا الباب تؤخذ من العهد المتداول ... بينما أصحاب العهد ، وهم اليهود

(١) نفس المرجع ص ٤٨٢ .

(٢) ص ٥٧ الفلسفة الأغريقية ج ١ د خلاب

(٣) انظر ج ٢ م ٢ قصة الحضارة ول ديورانت

لا يقرون هذا الصيام ولو كان الأمر كذلك لكان اليهوديه أولى .

غير أن المسيحيين يعرفون الخبز المقدس. ويؤمنون بطرف من الحلول المتقدم فسرت فيهم عدواه ... ولما كان هذا اللون من الصيام لا يجد سندا فى الأناجيل المتداولة ، استكرهوا له بعض نصوص العهد القديم التى سبقت لجعلوها استئناسا لحكم الكنيسة .

كذلك لما كان (البروتستنت) ثائرين بطبعهم ووضعهم على الكنيسة الكاثوليكية فقد أنكروه ؛ بل أنكروا فرضية الصيام جملة وتفصيلا وناطوه بالرغبة [1] .

وأنكر الإسلام كل شىء من هذا اللون وحاربه . أخبر ابن عباس رضى الله عنهما : « أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإنى حرمت على اللحم » ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » [2] .

بل تعدى الأمر إلى محاربة (تشريع أى لون عبادى يبتدعه المسلم لنفسه) .

ولقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يصد ريح هذه الفتنة - حتى ما يظهر منها عن حسن نية وقال : من رغب عن سنتى فليس منى ، واشتد عليه الصلاة والسلام فى ذلك حين رأى جماعة من أصحابه ، وكانوا نحو عشرة منهم : سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهما ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، والمقداد بن الأسود . يجتمعون ليقول بعضهم لبعض: ماحقنا إن لم نحدث عملا ؟ ! فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم، وقالوا: نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان ، ثم تبتلوا لجلسوا فى البيوت واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح وهموا أن يختصوا ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم أمرهم فأرسل إليهم ، فذكر لهم ما بلغه عنهم فقالوا : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : لكنى أصوم ، وأفطر ، وأصلى ، وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتى فهو منى ، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى ونزلت الآية . أى السابقة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « سيد طعام

(البقية على الصفحة التالية)

---

(١) انظر مقالنا فى هذا الموضوع فى رمضان الماضى ١٣٨٠ هـ مجلة الازهر .

(٢) أنظر (ابن كثير) تفسير الآية من المائدة .

الجبال فى القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى

— ٦ —

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم »

من تسع آيات فى القرآن الكريم ذكرت الجبال فيها بالرواسى ، نظرنا فى ثلاث ، ذكرت الرواسى فيها متصلة بمن الله على عباده بمد الأرض ، وهى آيات سورة : ق والحجر والرعد . ولهذه فى الآيات الست الباقية نظائر ثلاث ذكرت الرواسى فيها سببا لنعمة أخرى كبرى هى أن الله منع منها الأرض أن تميد وتضطرب بالناس . تلك الآيات الثلاث هى حسب ترتيب نزول الوحى بها :

آية سورة لقمان : « الله الذى خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » الآية (١٠)

وآية سورة النحل : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً » الآية (١٥)

وآية سورة الأنبياء : « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » الآية (٣١)

(بقيه المنشور على الصفحة السابقة)

أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم . وكان كبار الصحابة لا يمتنعون عنه ومنهم فقيه الأمة عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فإنه كان إذا جاء رمضان لم يفته اللحم [١] .

إنما يفسد الجسد إسراف وهو الذى يودى به . فهو العلة ، لذلك استهدفه الإسلام بالتحريم قال تعالى : « ... كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

فالقصد والاعتدال شرعة الله ومذهب المؤمن ـ وهذا ما دعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى التحذير من الإسراف فيه فقال : إياكم واللحم ، فإن له ضراوة كضراوة الخمر ، ورأى جابر بن عبد الله ومعه منه أحمال فقال له : أما يريد أحدكم أن يطوى بطنه من جاره أو ابن عمه ؟ أين تذهب عنك هذه الآية : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها [١] .

على الخطيب

(١) انظر ص ٢٨٩ الطب النبوى لابن قيم الجوزية والأول من سنن أبى داود .

(١) ص ١٣٠ ج ٢ الموطأ للإمام مالك . مطبعة دار إحياء الكتب العربية

والخطاب فى آيتى : لقمان والنحل للناس كافة ، أما ضمير الجمع الغائب فى آية الأنبياء فراجع إلى (الذين كفروا) وفى الآية قبلها إذ يذكرهم الله بعجائب من آيات قدرته وحكمته عسى أن يؤمنوا به وحده : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ؟! وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » الآيات .

وأسرار الفطرة المنبه إليها فى الآيات الثلاث متعددة لكنا سنقصر القول هنا على ما تعلق منها بالجبال ، ما كشف العلم الحديث عنه وما ينتظر الكشف . وأول ذلك ما فى قوله تعالى : (أن تميد [1] بكم) من إشارة واضحة إلى حركة الأرض ؛ فإن الذى يخشى منه أن يميد ويضطرب هو الجسم المتحرك لا الساكن .

وحركة الأرض لم تكن معروفة للمفسرين القدامى وإنما الأرض كانت عندهم ساكنة كما كانت عند الناس أجمعين حتى الفلاسفة . ولذا ردوا احتمال اضطراب الأرض إلى ما يحيط باليابسة من البحار كأنما الأرض سفينة فوق ماء يخشى أن يضطرب بها لولا أن ثقلها الله بالجبال ، وكذلك فسروا (وتدية) الجبال فى قوله تعالى : (والجبال أوتادا) بأنها تثبت الأرض كما تثبت الأوتاد الخيمة . وليست الأرض بخيمة كما بينا عند النظر فى الآية الكريمة فى المقال الرابع[1] فلننظر الآن فيما يمكن أن يقال من الناحية العلمية فى الجبال : كيف يمكن أن تكون سببا فى عدم اضطراب الأرض فى حركتها ليستقيم بعدم اضطرابها عيش الناس عليها . فلو أنها اضطربت بهم فى حركتها اليومية لساء عيشهم فيها سوءا لا يقدره ولا يدرك أى نعمة لله على الناس فى امتناعه إلا من اضطربت به السفينة فى البحر ، أو الطيارة فى الهواء ، وطال ذلك عليه ثم ذهب ما كان به حين هدأ البحر أو سكن الهواء بدخول المرفأ أو نزول المطار . وليتصور الإنسان بعد ذلك ماذا كان يكون حاله لو أن ذلك الاضطراب استمر به طول الحياة . ؟!

إن الأرض كرة ـ أو كالكرة ـ تدور أمام الشمس من المغرب إلى المشرق دورة كاملة فى اليوم حول محورها يصنع مع مستوى فلك دورانها حول الشمس زاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ونصف ، هذا الدوران

---

(١) فى القاموس : (ماد) : يميد ميدا وميدانا : تحرك وراغ .

والسراب اضطرب .

والرجل أصابه غثيان ودوار من سكر أو ركوب البحر .

(١) عدد جمادى الأولى ١٣٨٦ .

المستمر حول محور ثابت يسمى فى اللغة دوروراً [1] ، وهو الأرض ثابت المقدار والاتجاه طبقاً لسنة الله كشف عنها (نيوتن) فهى قانون من قوانين الحركة المنسوبة إليه يقول : إن الجسم المتحرك لاتتغير حركته فى المقدار أو الاتجاه إلا بقوة تؤثر فيه من حيث المقدار أو الاتجاه أو كليهما .

وقد صان الله الأرض ، منذ فطرها على تلك الحركة اليومية ، عن كل قوة عارضة كى تدوم حركتها تلك إلى ما شاء الله ، أى إلى إن يشاء الله طلوع الشمس من مغربها كما جاء فى الحديث الصحيح ، إذ من الممكن فى العلم أن يحدث هذا ـ والشمس تجرى بمجموعتها فى الفضاء بسرعة ١٢ ميلا فى الثانية ـ بأن تقترب من نجم أكبر منها يغلبها على الأرض بالقدر الذى يتغير به اتجاه حركتها اليومية ، فيصبح من المشرق إلى المغرب بدلا من المغرب إلى المشرق فيصير المشرق مغربا والمغرب مشرقا ، وعندئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل كما جاء فى الحديث الصحيح .

وصفة ثانية لله سبحانه يعرفها علماء حركة الأجسام : إن الجسم المتماثل فى الكتلة حول محور لايضطرب ولايميد إذا دار أو (در) حول ذلك المحور .

والأرض فى الواقع لا تميد ولا تضطرب فى درورها أو دورانها المستمر حول محور لها لا يتغير ولا يتبدل ، فلابد طبقاً لسنة الله هذه أن تكون متماثلة فى الكتلة بالنسبة لهذا المحور ! هذه نتيجة رياضية يقينية أظن العلماء اكتفوا بها فلم يحققوها عمليا لما يكتنف تحقيقها من الصعوبات ، خصوصاً فيما يتعلق بتوزيع كتل الجبال إذ معنى التماثل فى الكتلة أن أى مستوى يقطع الجسم ماراً بمحور التماثل فإنه يقسم الجسم إلى قسمين متماثلين فى الكتلة: لكل جزء فى أحـــد القسمين نظير فى القسم الآخر يساويه فى الكتلة والوزن ، لا فى الهيئة والحجم .

لكن الله فاطر الأرض ومرسى جبالها ينبىء عباده فى كتابه العزيز أنه أرسى الجبال فيها بحيث يمتنع ميدان الأرض واضطرابها . فأول تفسير لهذا ، طبق سنته سبحانه فى الجسم الدرار غير المضطرب ، أن الجبال موزعة فى الأرض بحيث تتماثل فى الكتلة بالنسبة لحركة الأرض اليومية . وهى نتيجة عجيبة حقا . فمن أعجب عجائب القدرة والإحكام ، أن تتماثل كتل الجبال الواقعة فى شقى الأرض إذا انشقت فى أى اتجاه بمستوى يمر بمحور دورانها اليومى أمام الشمس .

---

(١) فى القاموس : در السهم درورا دار دورانا على الظفر وأدرت ـ الغازلة ـ للغزل فتله شديداً حتى كأنه واقف من دورانه .

فهذا مجال واسع أمام علماء الفطرة وخاصة من أهل القرآن ، ليثبتوا عمليا ولو فى اتجاه واحد أن الجبال ذات كتل متماثلة بالنسبة لمحور دوور الأرض ، وهو عمل عظيم لابد من اشـــتراك الحكومات فيه لتكفل مايقتضيه من نفقات، ومن يقل: إن هذا ناتج نظريا من قانون عدم اضطراب الجسم الدوار وإذن فلا داعى لتحقيقه عمليا إذا قامت دونه الصعوبات ، قلنا : كفى إعجازا علميا للقرآن ودليلا كونيا على أنه من فاطر الفطرة وخالق الأرض بحيث تدر ولا تميد ، أن القرآن نبه مرة بعد مرة بعد مرة إلى هـذه الحقيقة النظرية الرياضية قبل أن يعرف العلم القانون الذى ينتجها .

وقد يكون الأمر أعظم سرا حتى من هذا قد تكون هناك عوامل ثانوية تعمل على اتزان الأرض فى حـركتها اليومية حتى لا يشعر بها النـاس ، مثل فعل حركة الجزء السائل فى جـوف الأرض أثناء الدوران أو فعل حـــركة مياه البحار على الشواطىء ، وما أكثرها ، إن كان لهـا أثر فى مثل هذا ، فإن كان هذا له دخـل فقد أشارت إليه الآيات الكريمـة بكلمة واحدة هى كلمة (رواسى) التى سميت بهـا الجبال إذا تذكرنا الحقائق العلميـة التى ذكرت فى المقال الخامس عند النظر فى قوله تعالى (والجبال أرساها) .

وعلى أى حال فقد نبهت تلك الآيات الكريمـــة إلى عجيبة من عجائب آيات الله فى الفطرة تتصـل بعيش الناس فى الأرض وعليها يتوقف هناؤهم فيه، وعلى علماء الفطرة أن يبحثوها ، وأولاهم بذلك علماء الفطرة من أهل القرآن ، فإن لم يفعلوا فسيقيض الله غيرهم لبحثه والكشف عنه وفاء بوعـده سبحانه فى قوله : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) . كما قد حدث فعلا على أيدى علماء الفلك الحـديث بالكشف عن جريان الشمس فى الفضاء وعن الحركات الذاتية للنجوم ،فكان فى ذلك تفسير لقوله تعالى: (والشمس تجرى)من آية سورة (يس) ولقوله تعالى: (كل فى فلك يسبحون) من الآية (٣٣) فى سورة الأنبياء ؟ .

محمد أحمد الغمراوى

خسوف القمر

للأستاذ علي الجندي

خسوف القمر يحدث من مروره في ظل الأرض ، ولا يقع هذا إلا عند «الاستقبال» أي عند ما يكون القمر بدرا !!

والخسوف الكلي أندر من الخسوف الجزئي ، وأكثر الخسوفات يبدو لأكثر سكان الكرة الأرضية .

ويمكن أن يشاهد الخسوف كل المدة . وقد تشاهد بدايته ، وقد تشاهد نهايته . غير أن القمر لا يختفي تماما عن النظر ، حتى في الخسوف الكلي ؛ وذلك بسبب انكسار أشعة الشمس بمرورها في طبقات الهواء السفلية حيث ينحل النور ، ودرجة الانكسار واللون تتوقفان على كثافة الهواء في ذلك الوقت .

ويقول ابن منظور : وتقابل الشمس نصف القمر الذي يلي الأرض ، إلا ليلة الخسوف فتحول الأرض بينهما فيحجب القمر عن الشمس ، فينخسف بظل الأرض .

وأنت لا ترى فرقا بين قول ابن منظور العالم اللغوي الأديب ، وبين أحدث مايقوله علماء الفلك في عهدنا هذا عن خسوف القمر !

فهم يقولون : إن ظل الأرض يمتد وراءها إلى مسافة تقرب من تسعمائة ألف من الأميال فإذا اتفق ووقع القمر - وهو الجرم الوحيد - ضمن هذه المسافة في هذا الظل أثناء سيره حول الأرض ، حدث خسوف أيا كان ؛ فإذا صادف ووقع كله في الظل ، شمله خسوف كلي !!

ومن الغريب أن الشعراء عرفوا كثيراً من هذه الحقائق الفلكية الدقيقة العميقة !!

عرفوا : أن القمر جرم معتم يستمد نوره من الشمس !!

وفي ذلك يقول ابن المعتز :

يا مفرداً بالحسن والشكل ... من دل عينيك على قتلي

البدر من شمس الضحا نوره ... والشمس من نورك تستملي

ويقول المتنبي : وقد أخذه من ابن المعتز، وكان كثير الأخذ منه على إنكاره النظر في شعر المحدثين ، كما يقول الثعالبي :

تكسب الشمس منك النور طالعة ... كما تكسب منها نورها القمر

وعرفوا : أن الأرض تسبب الخسوف للقمر ، باعتراضها بينه وبين الشمس !!

وفى ذلك يقول الشيخ تاج الدين المالكى : مذ واصل الحل شمس الراح قلت له:

الشمس لا ينبغى أن تدرك القمرا
فقال - معتذرا - : لو حيل بينهما
وافى الخسوف لبدر التم مبتدرا

يشير بقوله - لو حيل بينهما - : إلى أن سبب خسوف القمر حيلولة الأرض بينه وبين الشمس !!

وعرفوا : أن الخسوف لا يقع للقمر إلا فى ليلة الاستقبال : أى عند كماله وتمامه!!

وفى ذلك يقول أبو الفتح البستى - يرثى الصاحب بن عباد - :

فقدناه لما تم واعتم بالعلا
كذاك كسوف البدر عند تمامه

بل أعجب من ذلك أن شاعرا قديما هو على بن معاذ تلهمه الفطرة النقية السليمة : إلى أن القمر جزء من الشمس فيقول :

البدر طفل فى حضان الهوى
متزلق من رحم الشمس

وهو يوافق بعض العلماء المحدثين الذين يذهبون إلى أن القمر جزء من الأرض - كان يشغل المحيط الهادى - وأن الأرض جزء من الشمس ؛ فهو حفيد للشمس !!

وقد أشار إلى ذلك الشاعر القروى المعاصر بقوله :

والبدر كالناشئ العصرى عاد ضحاً
من مرقص النجم يشكو الضعف والخورا
يمشى إلى الساحل الغربى متئدا
كالشيخ فى سفح تل الأفق منحدرا
والأرض حاوت أتاق الفجر ضاحكة
لأمها الشمس أم تبكى ابنها القمرا ؟!

ولكن ذلك ليس بعجيب من الشاعر القروى فهو يعيش بين كشوف العلم الحديث .

* * *

وصف القمر فى الخسوف :

قال ابن الرومى :

يا من بغرته الهلال أما ترى
قمر السماء وقد بدا فى المشرق
كخريدة نظرت إلى إلف لها
فتلثمت خجلا بكم أزرق

وقال نصر الدين بن يعقوب ، وقيل : أبو سعيد بن نصير :

كأنما البدر به الكسوف
جام لطيف رائق نظيف
فى نصفه بنفسج قطيف

ومن التعليل البديع للخسوف قول (صردر) فى مليحة سوداء من جواريه :

علقتها سوداء مصقولة
سواد عينى صفة فيها

ما انكسف البدر — على تمه ،
ونوره — إلا ليحكيها
لأجلها الأزمان أوقاتها
مؤرخات بلياليها

وقول شاعر :

انظر إلى البدر في الخسوف بدا
مستسلما لقضاء الله والقدر
كأنه وجه معشوق أدل على
على عشاقه فابتلاه الله بالشعر

وقول آخر :

من لم ير البدر لم ير العجبا
في ليلة التم إذ رأى طربا
سار إلى الشمس كي يقبلها
فلم يجدها فعاد منتقبا

وفي التعزي عن القعود دون الغاية يقول شوقي في سقوط الطيارة بأحمد حسنين :

لله سرجك في السماء فإنه
سرج الأهلة ما عليه غبار
عرض الخسوف له بما أزرى به
ما في الخسوف على الأهلة عار
أو لم تطأ أرض السماء ولم تدر
حيث الشموس تدور والأقمار

ويقول على شوقي أحد موظفي وزارة الأوقاف سابقا :

وما أنا إلا البدر عاق سفوره
خسوف ولكن لم يعقه عن السير

• • •

طرائف الخسوف ! !

يقول القاضي كمال الدين الزملكاني يداعب إنسانا يسمى « بدر الدين » :

يا بدر دين الله ، صل مدنفا
صيره حبك عود الخلال
لا تخش من عار إذا زرته
فما يخاف البدر عند الكمال

فلما سمع بذلك الشيخ صدر الدين بن الوكيل كتب إلى بدر الدين معارضا :

يابدر لا تسمع مقال الكمال
فكل ما نمق زور محال
البدر يخشى النقص في تمه
وإنما يخسف عند الكمال ! !

وكان عبد الله بن زمرك الأندلسي ماتت له جارية يهواها فبات عند ضريحها ، وكان قد عرف أن القمر سيخسف فنظم بيتين ولحنهما حتى إذا كان قبيل الخسوف ، تغنى فيهما بصوته المشجي ، واللحن يسوق الشوق ويزجى ! ! وهما :

شقيقك غيب في لحده
وتطلع يابدر من بعده
فهلا خسفت فكان الخسوف
حدادا لبست على فقده

فما استتم الغناء حتى دخل القمر في الخسوف ! ! فعد ذلك من النوادر الغريبة ! !

علي الجندي

زواج المتعة بين الشيعة والسنة

للدكتور عبد القادر محمود

كان أول ما فوجئت به فى الجانب الشيعى ثلاثة مصادر هامة قديمة وحديثة تبيح زواج المتعة، وتوثق حجتها بسند عن إمام الشيعة الأكبر جعفر الصادق (ت١٤٨م) وصغرى أن الإمام الصادق قد أنكر هذا الزواج المؤقت وربطه بالانحراف، والتحلل من التشريع السليم. هذه المصادر الشيعية هى: الكافى للكلينى، والبحر الزخار لأحمد بن يحيى المرتضى، وأصل الشيعة لكاشف الغطاء وهو أحدثها.

أما الكافى فيقول: (إن علياً والباقر والصادق قد أحلوا زواج المتعة. وأن الباقر سئل عنها فقال: أحلها الله فى كتابه وسنة نبيه. نزلت فى القرآن، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة، فهى حلال إلى يوم القيامة. فقيل له يا أبا جعفر مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر؟ فقال: وإن كان فعل. فقيل: إنا نعيذك بالله أن تحل شيئاً حرمه عمر فقال: أنت على قول صاحبك، وأنا على قول رسول الله). كما روى الكافى عن جعفر الصادق أنه قال: (ليس منا من لم يستحل متعتنا)[1].

(١) الكلينى: الكافى: / ٩٥ المخطوط.

هذا هو نص المصدر الأول. أما المصدر الثانى، وهو البحر الزخار وصاحبه شيعى زيدى يتصل فكره بالإمام زيد عم الإمام جعفر الصادق فيقول: (الأكثر يحرم نكاح المتعة، وهو المؤقت لنهيه صلى الله عليه وسلم وعلى عليه السلام عنه)[1].

ويعود ابن المرتضى فيقول (وأما ع - با صا - ابن جريج - الإمامية ؛ فيجوزون نكاح المتعة) وقد عدت إلى تفسير الرموز فوجدت أنه يقصد ابن عباس الذى رمز إليه بحرف العين، والباقر الذى رمز له (با)، والصادق الذى رمز له (صا) وابن جريج معروف كالإمامية من الشيعة، والعلة عندهم كما يروى البحر الزخار (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة).

أما المصدر الثالث، وهو أحدث المصادر الشيعية فيقول: (ومن طرقنا الوثيقة عن جعفر الصادق عليه السلام أنه كان يقول (ثلاث لا أتقى فيهن أحد: متعة الحج، ومتعة النساء والمسح على الخفين)[2].

(١) أحمد بن يحيى المرتضى: البحر الزخار ح٢ /٣٦٧ وانظر الدكتور أحمد أمين ضحى الإسلام ح٣ /٢٥٨ /٢٥٩

(٢) كاشف الغطاء أصل الشيعة ١٦٧ .

إن موقفنا فى مناقشة هذه الآراء القديمة والحديثة، يضطرنا بل يوجب علينا، منهجيا الرجوع إلى المشكلة من جذورها وأصولها من القرآن ومفسريه من الشيعة والسنة ثم من النبي صلى الله عليه وسلم، وتحريمه لهذا النوع من الزواج بعد إباحته بثلاثة أيام عند فتح مكة. ثم نذكر المؤيدين والمعارضين والمتوقفين معتمدين على رأى ابن عباس الذى وافق ثم عارض، وكان فى موافقته ومعارضته أدق المؤرخين المفسرين الرواة عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه وعن ابن عباس نفسه ثم نذكر موقف الإمام جعفر الصادق الذى تجاهله الأقدمون والمحدثون من الشيعة، ونسيه أهل السنة فى حججهم إزاء رأى الشيعة.

أصل الآية الكريمة[1] (والمحصنات من النساء، إلا ما ملكت أيمانكم، كتاب الله عليكم. وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ؛ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما).

يقول الإمام الطبرسى[2] المفسر الشيعى فى تفسير هذه الآية : (فما استمتعتم) قيل : المراد بالاستمتاع هنا درك البغية، والمباشرة، وقضاء الوطر من اللذة. والمعنى فما استمتعتم أو تلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن أجورهن أى مهورهن. وقيل : المراد : نكاح المتعة، وهو المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم وهو مذهب أصحابنا الإمامية. والواضح أن لفظ الاستمتاع - وإن كان فى الأصل واقعاً على الإمتاع والالتذاذ - فقد صار بعرف الشرع مخصوصا بهذا العقد المعين، لا سيما إذا أضيف إلى النساء، فعلى هذا يكون معناه : فمتى عقدتم عليهن هذا العقد المسمى متعة فآتوهن أجورهن. (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) قيل المراد به : لا حرج ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر يزيد الرجل فيه الأجل، وتزيده المرأة فى المدة ...

هذا هو تفسير الطبرسى الشيعى، وقد أضاف الكافى وهو من أهم المراجع الشيعية أيضاً إلى الآية الكريمة : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة »، جملة زعم أنها محذوفة من القرآن الكريم نطق بها هكذا : « فما استمتعتم به منهن - (إلى أجل مسمى) - فآتوهن أجورهن فريضة ».

خلاصة الرأى الشيعى : أن نكاح المتعة عقد لأجل طال أو قصر، ولا توارث فيه،

---

(١) الآية ٢٤ من النساء.

(٢) الطبرسى : مجمع البيان المجلد الثانى ٣٢ وانظر فقه الإمامية لأبى القاسم الحلى ٢٠٥ / ٢٠٦.

ولا يشترط أى شاهد ، ولا ضرورة فيه لطلاق ؛ فانتهاء أجل العقد مع انتهاء المدة ، والعدة حيضتان لمن تحيض ، وخمسة وأربعون يوما لمن لا تحيض ، ويمكن عندهم تجديد العقد . ودليل الرأى الشيعى هو التعبير القرآنى بالاستمتاع أو المتعة دون النكاح ، ثم التعبير بالأجر ، والمتعة عندهم إيجار على منفعة ، والأجر بعد الاستمتاع ، ولو كان زواجا دائما فإن المهر بنفس العقد ، ويطالب الزوج بالمهر أولا ، ثم يمكن من الاستمتاع . وهذا عندهم دليل على جواز عقد المتعة . ولكن ماذا يقول التفسير غير الشيعى ؟ يقول البيضاوى [١] :

وأحل لكم : قرأها حمزة والكسائى وحفص على البناء للمعلوم (ما وراء ذلكم) ما سوى المحرمات الثمانى المذكورة ، وخص عنه ما فى معنى المذكورات كسائر محرمات الرضاع ، والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها . (أن تبتغوا بأموالكم محصنين) مفعول له . والمعنى أحل لكم ما وراء ذلك إرادة أن تبتغوا بأموالكم بالصرف فى مهورهن ، والإحصان العفة فإنها تحصين للنفس عن اللوم والعقاب ، والسفاح الزنا (فما استمتعتم) فمن تمتعتم به منهن من عقد أو جماع فآتوهن أجورهن أى مهورهن (فريضة) حال من الأجور بمعنى مفروضة ، أو صفة مصدر محذوف أى إيتاء مفروضا . (ولا جناح عليكم) فيما يزاد على المسمى أو يحط عنه بتراض ، أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فراق .

وقيل : نزلت الآية فى المتعة التى كانت ثلاثة أيام عند فتح مكة ثم نسخت ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم أباحها . ثم أصبح يقول يأيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، إلا أن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة . وجوزها ابن عباس ثم رجع عن ذلك . (إن الله كان عليما حكيما) : عليما بالمصالح ، حكيما فيما شرع .

وملخص رأى جمهور المعارضين يؤكد أن المقصود من الآية ليس زواج المتعة ولا وصفها بصفة الزواج ؛ لأن المفروض فى الزواج بمعناه الحقيقى أنه الدوام لا ذلك النكاح المنقطع ، ولأن سياق الآية كلها فى الزواج . فالآية الكريمة ذكرت ما يحرم من الزواج وما يباح ، وذكرت أن معنى الاستمتاع يكون بعقد النكاح ، أما دليل الشيعة الذى يتمسك بلفظ الأجر ، فلا محل له لأن الأجر قد ذكر فى آيات كثيرة ترتبط بالزواج لا بالمتعة مثل : (فانكحوهن بإذن أهلهن ،

---

(١) البيضاوى : تفسير الآية المذكورة والبحر الزخار ٣٦٧ / ٣٦٨ .

وآتوهن أجورهن)[١] . أمر آخر خطير هو أن الآية الكريمة التى تقول (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم)[٢] . هذه الآية تحدد فى دقة أن الشريعة حرمت الجماع إلا بأحد شيئين : عقد نكاح ، أو ملك يمين ، والمتعة ليست هذا ولا ذاك ، ثم إن المتعة أيضا ترتفع بغير طلاق ، ولا يجرى فيها توارث . أما كيف نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنها ، فإن ذلك نجده فى رواية عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نصها[٣] (عن ابن عباس قال سمعت عمر يقول : والله لا أنهاكم عن المتعة ولقد فعلها رسول الله) يعنى العمرة فى الحج لا متعة النساء ، وقد روى[٤] سلمة بن الأكوع أن النبى صلى الله عليه وسلم قد (رخص لنا عام « أوطاس » فى المتعة ثلاثا ثم نهى عنها رواه مسلم) .

وعن سبرة بن معبد ـ قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ، ثم لم يخرج حتى نهانا عنه ، وأخرج مسلم وأبو داود والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يأيها الناس إنى قد أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء ، وأن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيلها ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) .

وقد أكد صحيح[١] مسلم أيضا أن محمد ابن الحنفية روى أن أباه الإمام عليا ابن أبى طالب قال لابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء . . كما روى مسلم كيف نادى ابن عباس بالمتعة ، ثم نهى عنها فى روايته التى تقول[٢] (قال ابن شهاب : أخبرنى عروة بن الزبير أن عبد الله ابن الزبير قام بمكة يعرض بابن عباس قائلا إن أناسا أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم يفتون بالمتعة ، فناداه (ابن عباس) فقال : إنك لجلف جاف ، فلعمرى قد كانت المتعة تفعل على عهد إمام المتقين . فقال له ابن الزبير : فجرب بنفسك . فوالله لئن فعلتها لأرجمنك بأحجارى) وتعود الرواية فتحكى كيف عاد ابن عباس إلى إنكارها بعد تأييدها فتقول : (إنما كانت المتعة فى أول الإسلام ، وكان الرجل يقدم البلد ، ليس له بها معرفة ، فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أن يقيم فتحفظ متاعه ، وتصلح له شأنه ، حتى إذا نزلت الآية

---

(١) آية ٢٥ من النساء .
(٢) آية ٥، ٦ من (المؤمنون) .
(٣) ابن المرتضى البحر الزخار ٦٣٧ / ٦٣٨ .
(٤) صحيح البخارى حديث رقم ١١٨٩ .

(١) وانظر أيضا صحيح مسلم حديث رقم ١٤٠٤ ـ ١٤٠٧
(٢) صحيح مسلم حديث رقم ٢٧ باب ١٦ (باب النكاح) .

الكريمة (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم : قال ابن عباس : فكل فرج سواهما حرام ، وقد أخرجه الترمذى أيضا . فإذا عدنا إلى الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة الأكبر فإننا لا نجده كما تزعم أمهات المصادر الشيعية يبيح هذا النظام من الزواج ؛ فقد روى البيهقى عنه أنه سئل عن المتعة ؟ فقال هى زنا بعينه . أى بعد تحريمها تحريما قاطعا ؛ فلم يفعلها الرسول ولا الخلفاء الراشدون ، ولا الحسن ، ولا الحسين) . (والمتعة صورة من البغاء وهذه كانت مباحة فى عصر الجاهلية إلى صدر الإسلام كالخمر وقد حرمها) [1] .

(وقد اعتمد (زفر) [2] صاحب الإمام أبى حنيفة على مبدأ ابن عباس القائل بأن المتعة كانت كالميتة لا تحل إلا لمضطر أقول : إن صاحب أبى حنيفة اعتمد على هذا المبدأ الخطير فأكد أن الشرط المنقطع يوجب التحريم لموضوعه ، بمعنى أن كل شرط شرط مدة لا يعيش ولابد من قصد الدوام ولهذا نهى الرسول عن ذلك كما نهى على وابن عباس وجعفر الصادق .

(١) محمد عبدالغفار الهاشمى الشيعى : (أئمة الهدى من آل بيت المصطفى ٣٠ ـ ٣٥ وانظر أيضا محمد عزت دروزة : الدستور القرآنى ٤٤٧

(٢) البحر الزخارى ج ٢ / ٣٦٧ .

وقد لاحظت أن الإمام الصادق يتفق مع عمر بن الخطاب[1] فى قوله : إن المتعة زنا ، فقد روى عروة ابن الزبير أن خولة بنت حكيم دخلت على عمر بن الخطاب فقالت : إن ربيعة ابن أمية استمتع بامرأة فحملت منه . فخرج عمر يجر رداءه ، وهو يقول هذه هى المتعة ، ولو كنت تقدمت فيها لرجمت ، ولو أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته) .

فإذا عدنا إلى كاشف الغطاء العالم الشيعى نجده يقول فى جبرية عجيبة به : إنه متمسك بما قاله المعصوم أولا ، وهو لا يخطئ ، ولا يجوز له أن يخطئ أو يغير من رأيه ، ثم يعود فيقول : (ومن طرقنا الوثيقة عن جعفر الصادق أنه قال : ثلاث لا أتقى فيهن أحد : متعة الحج ، ومتعة النساء ، والمسح على الخفين) .

ولا ندرى ولا يدرى المنهج العلمى ما الطرق الوثيقة التى يلغزها كاشف الغطاء فلا يكشف لنا عنها ؟ وهل فى العقل أن نلزم النبى صلى الله عليه وسلم بأمر أبيح اضطرارا لضرورة كالميتة لا تحل إلا لمضطر كما يقول ابن عباس ؟ ثم حرمه الله بعد ذلك لما زالت أسباب الضرورة ؟ وهل ما هو مؤقت يوجب الأبدية على أساس دعوة العصمة ؟

(١) موطأ مالك حديث ٤٢ وأنظر أحمد أمين ضحى الإسلام ج ٣ / ٢٠٨ .

إن سيد المرسلين اجتهد فى أمر أسرى بدر ونزل القرآن بغير ما اجتهد ، فهل هذا يغض من قدر الاجتهاد ؟ وهل العصمة بمفهومها الشيعى تمنع الاجتهاد ؟ أعجب ما فى الأمر أن كاشف الغطاء [١] يقول : (وكل منفعة لا ضرر فيها فى عاجل ، ولا فى آجل مباحة بضرورة العقل وهذا نكاح المتعة) ، ومن قال : إن ضرورة العقل تبيح كل منفعة لا ضرر فيها .

ولو سرنا وراء هذا المبدأ لخرجنا عن الحدود والواجبات الدينية والإنسانية خروجنا على منهج الإسلام سواء بسواء . .

والعجيب أيضا أنى أجد عالما جليلا معاصرا هو الأستاذ محمد جواد مغنية وهو شيعى واع بصير يقول [٢] : (إن الشيعة لا زالوا يقولون: بإباحة المتعة ، ومع ذلك لا يفعلونها ، وما هى بشائعة فى بلادهم . فلم تستعمل المتعة شيعة سوريا ولبنان ولا العراق ، والمنقول أن بعض المسنات فى إيران يستعلنها) ،

(١) كاشف الغطاء : أصل الشيعة ١٧٠ / ١٧١ الطبعة العاشرة .

(٢) محمد جواد مغنية (رئيس المحكمة الشرعية فى بيروت) الشيعة الإمامية ١١٤ .

العجيب هنا قول الأستاذ مغنية أنهم يبيحونها ولكنهم لا يفعلونها . ولا شك أن هذا التوقف أخطر من الموافقة على إباحتها ، ولكن مادامت الإباحة قائمة فالفعل بالتبعية مباح قائم ،وإن توهم أو توقف فضيلة الأستاذ جواد مغنية فى رأيه المعلق ، فإذا ذكرنا له ما رواه الجاحظ عن غلاة الشيعة فى هذا الصدد أوضحنا له خطورة توقفه فى رأيه يقول الجاحظ [١]

(إن جماعة من الرافضة الشيعة يقولون بالوقاية وطريقتها: أنه إذا اعتلت امرأة أحدهم استعار امرأة غيره) ولا شك أن نظرية الوقاية تخريج شيعى دقيق لنكاح المتعة وهو ما دعا إليه كاشف الغطاء فى قوله : إن المتعة أمر ضرورى للمسافر للتجارة، أو طلب العلم عصمة له وقد نسى كاشف الغطاء أن تقعيد نظام المتعة يشبه تقعيد نظام البغاء وإذا كان البغاء نظاما مدنيا فالمتعة عنده وعند تابعيه نظام دينى كما نسى هؤلاء جميعا أن مبدأ التسامى مبدأ إسلامى أقوى أساليبه الصوم والعمل لا النكاح المؤقت أو ضرورة الوقاية أو اتباع أخف الضررين اللذين أكبرهما الزنا وأخفهما المتعة وكلاهما سواء فى الواقع رغم تقعيد نظام المتعة.

(١) الأصفهانى : محاضرات الأدباء ج ٢ ، ١٤٠

وقد لاحظت بالرجوع إلى نظم الزواج قديما وحديثا أن هذا الزواج المؤقت عند الشيعة يماثله ذلك الزواج المؤقت للفلاسفة ورجال الجيش فى جمهورية أفلاطون رغم اختلاف الاتجاه والهدف . فقد أباحه أفلاطون لاعتبارات خاصة ترتبط بتحقيق مبادىء جمهوريته المثالية بينما أباحه الشيعة للوقاية فقط عند الاغتراب فى الحرب أو التجارة أو طلب العلم وباسم الدين ! وبينما كانت نظرة أفلاطون خاصة قاصرة على الحكام والحراس ، فإن نظرة الشيعة مطلقة دون أى قيد مكانى أو زمانى أو دينى فى الواقع . وربما كانت وجهة نظرة أفلاطون غير المسلم مقبولة حسب مبادىء جمهوريته ، وإن كانت فى الواقع عسيرة التحقيق لتشبثها بغير الواقع الغريزى ، بينما وجهة النظرة الشيعية غير مقبوله لا شكلا ولا موضوعا لبعدها عن المنطق الإسلامى للتشريع الواضح الكامل ولا شك أن هذا المبدأ رغم اختلاف اتجاهاته قد أعان على ظهور ما يسمى فى القرن العشرين باسم زواج التجربة Trial Marriage حرصا على سلامة المجتمع من العقد النفسية كما يزعم بعض علماء النفس المقعدون لنظم زواج التجربة ، أو البغاء الرسمى أو زواج المتعة ، أو الزواج الخاص ، أو المؤقت أو ما يتوالد من كل هذه المصطلحات البعيدة كل البعد عن الروح الإسلامى أو المنهج الإسلامى الذى يملك بوسائله ومناهجه الذاتية والموضوعية كل مبادىء رقى الفرد والمجتمع

عبد القادر محمود

بنو وهب

أعرق بنو وهب فى الكتابة وأنجبوا ، وفيهم يقول الطائى :

كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبى ، وشعب كل أديب

وكان الحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة . قال :

ابك ؛ فن أحسن مافى البكا أن البكا للوجد تحليل
وهو إذا أنت تأملته حزن على الخدين محلول

زهر الآداب جـ ٢ ص ٦٤٤

فتوى "الإمام محمد عبده" في التأمين على الحياة

للأستاذ محمد الدسوقي

---

١ — نسبت إلى الإمام محمد عبده فتوى في التأمين على الحياة ، جوز فيها هذا النوع من التأمين : لأنه كما يرى : من قبيل شركة المضاربة ، وهي جائزة شرعا ، وهذه الفتوى صادرة بتاريخ ٩ صفر سنة ١٣١٩ هـ ، وهي منشورة في مجلة المحاماة السنة الخامسة رقم ٤٦٠ ص ٥٦٣ هكذا :

فتوى شرعية

تأمين على حياة . جوازه . شركة مضاربة .

القاعدة الشرعية : عمل شركات التأمين على الحياة عمل مباح ؛ لأن اتفاق الشخص مع أصحاب شركة التأمين هو من قبيل شركة المضاربة وهي جائزة .

السؤال : سأل جناب مدير شركة (قومبانية متوال ليف) الأمريكية في رجل اتفق مع جماعة (قومبانية) على أن يعطيهم مبلغاً معلوما في مدة معلومة على أقساط معينة للاتجار فيما يبدو لهم فيه الحظ والمصلحة ، وأنه إذا مضت المدة المذكورة ، وكان حياً يأخذ هذا المبلغ مع ما ربحه من التجارة في تلك المدة ، وإذا مات خلالها تأخذ ورثته ، أو من يطلق له حال حياته أخذ المبلغ المذكور مع الربح الذي ينتج مما دفعه فهل ذلك يوافق شرعا ؟

الجواب : اتفاق هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ على وجه ما ذكر يكون من قبيل شركة المضاربة ، وهي جائزة ، ولا مانع للرجل من أخذ ماله مع ما أنتجه من الربح بعد العمل فيه بالتجارة ، وإذا مات الرجل في إبان المدة ، وكان الجماعة قد عملوا فيما دفعه ، وقاموا بما التزموه من دفع المبلغ لورثته ، أو لمن يكون له حق التصرف في المال ، أن يأخذ المبلغ جميعه ، مع مادبحه المدفوع منه بالتجارة على الوجه المذكور .

٢ — غير أن هناك فتوى أخرى نشرها فضيلة الشيخ إبراهيم الجبالي — رحمه الله — في مجلة الأزهر ، المجلد الأول ص ٦٧٩ ، ونسبها إلى الأستاذ الإمام ، وقد جاءت كما يلي :

السؤال : رجل يريد أن يتعاقد مع جماعة ، على أن يدفع لهم مالا من ماله الخاص على أقساط متساوية ، ليعملوا فيه بالتجارة ، واشترط معهم أنه إذا قام بما ذكر وانتهى آن الاتفاق بانتهاء الأقساط المعينة ، وكانوا

قد عملوا فى ذلك المال وكان حيا ، فيأخذ ما يكون له من المال مع ما يخصه من الأرباح ، وإذا مات فى تلك المدة فيكون لورثته ، أو لمن يكون له حق الولاية فى ماله أن يأخذوا المبلغ تعلق مورثهم مع الأرباح فهل مثل هذا التعاقد الذى يكون مفيداً لأربابه ، بما ينتجة لهم من الربح جائز شرعا ؟

الجواب : أنه لو صدر مثل هذا التعاقد بين ذلك الرجل ، وهؤلاء الجماعة على الصفة المذكورة ، كان جائزا شرعا ، ويجوز لذلك الرجل بعد انتهاء الأقساط والعمل فى المال وحصول الربح أن يأخذ لو كان حيا ما يكون له من المال مع ما خصه فى الربح وكذا يجوز لمن يوجد بعد موته من ورثته ، أو من له ولاية التصرف فى ماله بعد موته أن يأخذ ما يكون له من المال مع ما أنتجه من الربح .

٣ — ويلاحظ أن ما نشر فى « مجلة الأزهر » يختلف عما نشر فى المحاماة من وجوه :

أولها : ما نشر فى « مجلة المحاماه » نص فيه على أن شركات التأمين على الحياة من قبيل شركة المضاربة وهى جائزة شرعا ، فيكون التأمين على الحياة جائزا ، على حين أن ما نشر فى « مجلة الأزهر » لم ينص فيه على ذلك .

وثانيها : « وردت فى « المحاماة » العبارة جاز للورثة أو لمن يطلق له حق التصرف فى المال أن يأخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه بالتجارة على الوجه المذكور » ، ومعنى هذا أن المستأمن إذا مات قبل أن يدفع الأقساط كلها جاز لورثته أخذ المبلغ المتفق عليه جميعه مع ربح ما دفع من أقساط ، على حين لا يؤدى ما جاء فى مجلة الأزهر هذا المعنى ، فالنص يقول : « وكذا يجوز لمن يوجد بعد موته من ورثته أو من له ولاية التصرف فى ماله بعد موته أن يأخذ ما يكون له من المال مع ما أنتجه من الربح » ، ويفهم من هذا النص أن المستأمن إذا مات قبل أن يؤدى الأقساط جميعها لا يأخذ إلا ما دفع من أقساط مع ربحها .

وثالثها : ما نشر فى مجلة الأزهر لا ينطبق على نظام التأمين بأوضاعه القانونية الحديثة فهو صورة مضاربة وإن لم ينص على طريقة تقسيم الربح أو تحمل الخسارة أما ما نشر فى المحاماة فإنه يأخذ شكلا من أشكال التأمين فى أخذ المبلغ المتفق عليه ، وإن لم تؤد الأقساط جميعها .

٤ — ومع هذا فليس فيما نشر فى المحاماة أو الأزهر دليل على مشروعية التأمين على الحياة كما هو اليوم ، لأن ما نشر فى الأزهر لا علاقة له بهذا التأمين وهو كما أشرت صورة مضاربة ، وليس بين التأمين على الحياة والمضاربة المشروعة شبه كما يأتى بيان ذلك قريبا ، ولكن ما نشر فى المحاماة ، هو الذى يمكن

أن يتخذ دليلا لحل هذا النوع من التأمين ، لأنه حكم عليه بأنه من قبيل المضاربة ، وهى جائزة شرعا .

غير أن القول بأن التأمين على الحياة من قبيل المضاربة الشرعية غير صحيح ، لأن المضاربة كما عرفها الفقهاء عبارة عن عقد على الاشتراك فى الربح على أن يكون رأس المال من طرف ، والعمل فيه من الطرف الآخر ، وقد صاحب رأس المال ، كما يتعدد العامل ، وأهم شروطها أن يكون نصيب كل من الطرفين فى الربح محددا غير مجهول النسبة وأن يتحمل صاحب رأس المال الخسارة وحده إذا لم تكن بلا تعد من المضارب [1]

فهل نظام التأمين على [2] الحياة يمكن أن يكون من قبيل المضاربة الشرعية ، وما أوجه الشبه بين هذه وذاك ؟ وهل يقوم المستأمن بدفع الأقساط للشركة على أن تعمل فيها ثم يتقاسمان الربح ويتحمل الخسارة وحده فى حالة حدوثها ؟ إنه كما هو معلوم يؤدى الأقساط وتصبح بعد أدائها ملكا للشركة تتصرف فيها كيف تشاء ، وتستغلها بالطرق التى تراها مجدية لها ، وذلك فى مقابل قيامها بدفع مبلغ التأمين المتفق عليه ، وقد يكون ذلك بعد أداء المستأمن قسطا أو قسطين مثلا فأين هذا من المضاربة التى تقوم على تبادل المنافع والتعاون ، وتهيئة مجالات الحياة الكريمة للعاملين ؟ !

إن طبيعة المضاربة تقتضى الإشراك فى الربح والخسارة ، وفى التأمين على الحياة لا مجال للخسارة بالنسبة لشركات التأمين ، فقد وضعت الشروط التى تجنبها الخسارة أو الضرر على حين يتعرض المستأمنون لأضرار بالغة بسبب تلك القوانين التى هى فى صالح الشركات دائما .

٥ — وقد جاء فى الفتوى المنسوبة للإمام محمد عبده أن أخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه جائز ، فما الدليل على هذا ؟ هل يمكن أن يكون ضربا من التعاون والتكافل ؟ أو أنه وفاء بالتزام قد فرضه المؤمن على نفسه ولا مانع شرعا من الوفاء به ؟

إن شركات التأمين التجارية تعمل على تحقيق أرباح للمساهمين ، ولا تكون ملزمة قبل المستأمنين بشىء إلا طوعا لشروط وقواعد

---

(١) أنظر مختصر المعاملات الشرعية للأستاذ على الخفيف ص ٢٥٢ .

(٢) التأمين على الحياة : عقد تتعهد الشركة بمقتضاه — مقابل أقساط تسدد — بأن تدفع عند وفاة المؤمن على حياته مبلغ التأمين ، ويسمى التأمين فى هذه الصورة « التأمين فى حالة الحياة » أو تدفع مبلغ التأمين إذا بقى المستأمن حيا إلى تاريخ معين ويسمى « التأمين فى حالة الحياة » (راجع التأمين على الحياة الدكتور عبد الودود يحى)

(٣) أنظر المصدر السابق .

معينة ، وهى لا تقوم على التعاون لأن المستأمن ليس عضوا فى شركة التأمين ؛ لأنه لا يمكن أن يكون عضوا فى شركة هو فيها طرف وهى طرف ، ومن ناحية أخرى لا تعد هيئات تساعد المحتاجين والمكروبين ، ولأن عقد التأمين من ناحية ثالثة عقد معاوضة يحصل كل عاقد فيه على مقابل لما أعطاه اتفق - إذن - أن يكون ما تدفعه شركات التأمين تبرعا أو تعاونا وإذا لم يكن ما تدفعه هذه الشركات تبرعا، فإن الالتزام بدفع المبلغ جميعه دون أن يكون المستأمن قد أدى الأقساط كلها ليس له سند شرعى ، وهو صورة من صور المقامرة لأن أخذ المبلغ - مع عدم دفعه كله - معلق على حصول أمر مجهول للطرفين وقت حصوله ، فعنصر المقامرة متوفر فى هذه الحالة .

٦ — وأخيرا لماذا كان السائل رجلا أمريكيا يدير شركة تجارية للتأمين ، وليس رجلا مسلما يسعى لمعرفة حكم دينه فى هذا اللون من التعامل ؟ .

إن الذى لا ريب فيه أن هذا السائل لا يهمه أن يحرص المسلمون على أحكام دينهم وأن يأخذوا بها فى أقوالهم وأفعالهم ، ولكنه يرى من وراء ذلك إلى تحقيق مصلحته فقط ، إن الغاية من سؤاله ، الحصول على تصريح من المفتى - مرجع المسلمين فى معرفة شئون دينهم - بشرعية تلك العملية ، إن هذا المدير الأجنبى قد وجد من المسلمين عزوفا عنه ، لارتيابهم ، وعدم اطمئنانهم دينيا إلى ما يدعوهم إليه ، فلم يجد وسيلة أجدى من أن يعرض الأمر على المفتى ، وقدم سؤاله إليه بصيغة لبقة ، فلم ترد فيه كلمة التأمين ، ولذا لم ترد فى الإجابة أيضا (١) ، وقد جاءت الفتوى محققة لما يتطلع إليه المدير الأجنبى ، فطار بها فرحا ، واتخذها ، كما اتخذها سواه من أصحاب شركات التأمين ، سلاحا يجذبون به العملاء ويرغبونهم فى التأمين .

ولكن مع هذا لا تعد هذه الفتوى - مع التسليم بصحتها - دليلا على حل التأمين على الحياة ؛ لأنها اعتبرته من المضاربة الشرعية ، وهذا غير صحيح ؛ لأن التأمين التجارى نظام حديث بقوانينه ونظمه وأهدافه ، ولا يشبه المضاربة فى شىء ، فليست هذه الفتوى إذن سندا لحل هذا النوع من التأمين ، وإن زعم بعض فقهاء التأمين (٢) أن الإمام محمد عبده قد دعا إلى التأمين ؛ لأنه لمس مميزاته ، وأثره فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

محمد الدسوقى
(ماجستير فى الشريعة الإسلامية
محرر بمجمع اللغة العربية

---

(١) أنظر مجلة إدارة قضايا الحكومة السنة السادسة العدد الثالث ص ٩١.

(٢) أنظر مجلة القانون والاقتصاد مارس سنة ١٩٤٦ .

الدَّمِيرى وحياة الحيوان

للأستاذ محمّد جاد البنّا

الشيخ كمال الدين علم من أعلام القرن الثامن الهجرى ، وإن كانت وفاته فى مطلع القرن التاسع ٨٠٨ هـ ، مما جعل طائفة من المؤرخين والمترجمين يدسونه مع أعيان هذا القرن إلا أن الصواب غير ذلك ، فالرجل عاش زهرة عمره بين مسارب القرن الثامن فقرب منتصفه ولد ٧٤٢ هـ ، وفيه تلقى العلم ومع أيامه ارتحل، وفيه اقترن وأنجب وفيه أعطى خير ثماره فلا ضير علينا إذن أن نلق عاتقنا من الضوء على النواحى الاجتماعية والسياسية والتيارات الثقافية والعلمية التى ماج بها هذا القرن حتى إذا التقينا بالمترجم له كان اللقاء أليفا والمعرفة آكدة .

القرن الثامن الهجرى يسجل نهضة علمية شاملة نكاد نطلق عليها « النهضة الموسوعية » لكثرة المؤلفات الجامعة التى ولدت وتم نضجها إبان هذا القرن ، ولعل السبب الذى يفسر ازدهار هذه الحركة الموسوعية هو انتقال الزعامة العلمية والسياسية من العراق إلى مصر التى نجت من حركة التخريب التترى بعد ما نكبت الحضارة الإسلامية فى بغداد بحرق مكتباتها ، وإطفاء منارات الفكر والعلم بها — وكان لزاما — كما رأى السلطان بيبرس أن تنتقل الخلافة من بغداد إلى القاهرة التى عاشت عيشة هادئة نسبية ،والعلم لا يترعرع إلا فى ظل الهدوء والأمان . كذلك فإن من طبيعة الموسوعات — كما يقول أحمد أمين فى ظهر الإسلام — أنها جمع لمتفرق وهى تحتاج إلى جد وصبر أكثر مما تحتاج إلى كبير عقل وهذا مظهر من مظاهر التقليد وعدم الاجتهاد .

ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الموسوعات وإن اتسمت بسمة النقول وجمع المعلومات دون ابتكار بالغ — استطاعت أن تحفظ الكثير من التراث الحضارى الذى كان لابد من حفظه ودفع يد البلى عن ذخائره الحافلة ودوره النادرة ومصارعة الزمان فى سبيل بقاء هذا الميراث الضخم .

ومع أن الأزهر كان متألقا يرسل الضوء بعيداً فى ذلك الحين فإن علماء — رحمهم الله — قصروا جهدهم وقتها على مجرد الفتيا المذهبية والاجتهاد المقيد . ولكننا لا نستطيع أن

نبخس الأزهر حقه أو نغمطه فضله فلولاه لضاعت علوم الشريعة ولماتت لغة القرآن ولولاه لساد ظلام الجهل آفاق الشرق العربى والإسلامى الذى ظل لمدة طويلة من الزمن ينهل من ينبوعه ويسير فى ضوئه .

ونحن، وإن كنا لا نجحد للماليك - حكام مصر والشام فى ذلك العصر - فضلهم على العلم وآياديهم على العلماء. إلا إننا لا نستطيع أن نغض النظر عن تشجيعهم للتكايا والخوانق والربط والزوايا التى أفســـدت روح العلم وساعدت على انتشار الأمراض الاجتماعية بما أشاعته من صوفية عمياء انتشرت خلال هذا العصر فأضلت أكثر مما هدت ، ولعل السبب فى ذلك الاتكال المريض والتمكين لهذه الصوفيـة المشوهة أن المماليك كانوا يبغون من وراء ذلك إلهاء الشعب عن وضعه وتركه تحت رحمة الأقدار تعبث به السلطات الحاكمة تحت ستار من الدين، والدين من ذلك براء .

ذلكم كان مجمل الحال فى القاهرة العاصمة فاذا عن الحال فى القرى والأقاليم المصرية وقتذاك؟

الحق أن علوم الشريعة الإسـلامية كانت تغزو العقول وتسيطر على الأفئدة لأنها كانت تمثل اللون الشائع فى ثقافة ذلك العصر فقلما نجد أسرة فى القرية المصرية وقتها تملك شيئا من اليسار لم تبعث بسفير لها ليتفقه فى الدين وليتثقف بالعلم كى يعود إلى أهله بزاد من علوم الشريعة ، ومداد من التقوى ووجاهة فى الرأى والمنصب .

حلقات العلم إذن كانت تعقد فى المساجد والمدارس المنتشرة كالمنارات فى المدن الكبيرة بينما (كتاتيب) حفظ القرآن الكريم تنتشر كالأعصاب الدقيقة فى القرى والكفور والنجوع ، من بين هذه القرى كانت قرية دميرة - بفتح الدال وكسر الميم - على شاطىء فرع من فرعى النهر الخالد المسافر لعناق البحر الأبيض عند دمياط ، وكانت هذه القرية بما لها من حضارة قديمة تعج بجمع حافل من العلماء والفقهاء والأشراف والسادة فهى ترفع رأسها فى فخر وتيه على القرى المجاورة لها فى ذلك الحين لأنها استطاعت أن تهدى إلى القاهرة نخبة من رجال الفكر والعلم والحكم ، فهى التى أهدت إليها بل إلى مصر كلها والعالم الإسلامى أجمع « الصاحب صفى الدين الدميرى » المعروف « بابن شكر » الوزير العالم الذى اشتهر بعزمه وحزمه وحسن سياسته وجليل عمله (١)

---

(١) ولد الصاحب صفى الدين الدميرى سنة ٥٤٨ هـ ، وظل وزيراً للملك العادل ثم لابنه الملك الكامل حتى مات فى سنة ٦٢٢ هـ قال المقريزى : وهو الذى أنشأ المدرسة الصاحبية فى القاهرة . الخطط لعلى مبارك ١١ / ٥٧ / ٦٠ .

ولم لاترفع الدميرة[1] رأسها فى علو وكبرياء ؟! أليست هى منجبة الرجل الصالح التقى الورع الشيخ ، أبو تراب ، عبد الوهاب بن خلف الشهير ، بالحف ، الذى مات فى نهاية ٢٧٠هـ[2] ثم هى تستعد مع منتصف القرن الثامن الهجرى كى تقدم إلى القاهرة العاصمة بل إلى الإنسانية قاطبة هديتها الثمينة ممثلة فى ولدها النجيب محمد بن موسى بن عيسى بن على الكمال أبو البقاء الدميرى الأصل والنسب ، حقا إن دميرة لا تنكر أنه ولد فى القاهرة ، وللقاهرة أن تفخر بذلك وتعتز ولكن دون فخر القرية التى يعزى إليها أصله وفرعه والتى ما فتىء يذكرها بالخير طوال حياته حتى أنه تمنى يوم أن كرم فى القاهرة أن يكون فى موكبه المهيب بين الدمرتين[3] .

كان مولد كمال الدين الدميرى فى القاهرة أوائل عام ٧٤٢هـ كما كتب ذلك بخط يده ، وكما هى العادة لم يعلم يوم مولده تحديدا شأنه فى ذلك شأن كل العظماء الذين وقفوا فوق قمم العظمة والخلود يحفر يوم موتهم فى القلوب والتاريخ والصخر البارد وينسى يوم مولدهم لأنهم يومها لم يكونوا عظماء بعد .

ويبدو أن أسرة الدميرى كلها كانت قد هاجرت إلى القاهرة للتكسب وطلب الرزق بعد أن أوشكت مصانع (النشادر) ، التى اشتهرت بها القرية والتى كانت مصدر رزق وفير لأهلها[1] ، أن تغلق أبوابها ويتراكم ظل الإهمال حولها بسبب فساد الأداة الحاكمة ، أو لعل السبب الذى يفسر هجرة الأسره الدميرية من موطنها هو سوء حالة الفلاح

---

(١) دميرة : اسم فرعونى قديم لتلك القرية ، وليس عربيا ، وبسبب ذلك وقع النسب لها على لفظها فقيل : دميرى بدون حذف الياء كما يجرى فى مدينة ... الخ ، ومعناها فى لغتها : الأرض الخصيبة .

(٢) قال صاحب معجم البلدان : وإليها ينتسب : أبو غسان مالك بن يحى بن مالك الدميرى ٤ / ٨٥ ، وفى الخطط التوفيقية -الحادى عشر- ذكر طويل لمشاهيرها فليرجع إليه من أراد .

(٣) « الدميرتان ، هما قريتا : دميرة ، = وكفر دميرة القديم (من قرى مركز طلخا محافظة الدقهلية الآن) وقد كانتا بلدة واحدة مكونة من دميرة القبلية ودميرة البحرية حتى تم انفصالها أخيرا كما جاء فى تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ .

(١) يقول على مبارك : إن دميرة كانت مشهورة بصناعة النشادر وذكر فى الخطط كيفية استخراجه وقتها وكيف كان يصدر إلى أوربا وقال: إن هذه القرية كانت من القرى المعتبرة فى ديار مصر .

الخطط ١١ / ٧٥ أميرية

المصرى آنذاك ، لأن الغلال التى كان يسقيها بعرق جبينه يذهب معظمها لمخازن الدولة وأولى الجاه وأصحاب السلطان، وقد أدى هذا الأمر، كما ذكر صاحب الخطط ، إلى خراب القرى، وتشرد الفلاحين، وهجرتهم إلى المدن يتسكعون فى شوارع القاهرة وأزقتها لا يعرفون لهم مأوى .

ويبدو كذلك أنه حينما استقرت الأسرة المهاجرة فى القاهرة عملت بالتجارة، أو اتخذت بعض الصناعات والحرف ، ولم أجد مؤرخا واحداً يدلنا فى وضوح على نوع هذه التجارة أو نوع هذه الحرفة لأن المؤرخين والمترجمين للشيخ الدميرى اقتصروا على تتبع حياته بينما تركوا الأضواء بعيدا عن حياة أبيه وأهله والتى لو سلطت عليهم لاستفدنا ـ نحن الدارسين ـ من ذلك فائدة جليلة .

قال الرواة : حينما شب الفتى الدميرى عن الطوق، وقارب سن النضوج كان لابد له وهو ابن الأسرة الكادحة المهاجرة من عمل أو صناعة ليتكسب ويعيش ، ورأى أهله أن « الخياطة »، وهى مهنة رابحة فى ذلك الزمان ، تكفيه مؤنة العيش وحاجة الحياة، فذهبوا به إلى « خياط » ليعلمه ويجيزه إذا هو أحسن صناعته وقد كان ما أرادوا فأجاد الغلام خياطة الملابس وتكسب منها زمنا ، ولكن الأيام ما فتئت أن تساءلت هل خلق الفتى « لشد الخيط» و« نظم الإبر » ؟ أم انه هيء بطبعه وطموحه لشىء غير هذا ؟ إن داعى العلم يدعوه وبوادر المعرفة تتيقظ فى فؤاده وبوادر النور الإلهى تكاد تنبثق من صدره ، واستجاب الفتى لداعى العلم وكان لابد له أن يستجيب والا فمن للفقه والأصول ؟ ! ! من للأدب والشعر وتاريخ الحيوان ؟ من للمعرفة الموسوعية والتحقيق الدقيق والنظر الثاقب ؟ ! !

وسرعان ما حفظ القرآن الكريم وجوده، وسرعان ما انتسب إلى الأزهر ـ جامعة الدين والدنيا فى ذلك العهد ـ ولزم الشيخ السبكى (بهاء الدين أحمد) ليأخذ عنه الفقه الشافعى ولم يقتصر عليه وحده وإنما كان يتردد إلى حلقة الكمال أبى الفضل (النويرى) وكان لزاما عليه أن يتصل بحلقة برهان الدين (القيراطى) ليأخذ عنه الأدب ويتردد على درس البهاء بن عقيل ليأخذ عنه العربية . وهكذا صار يتنقل من حلقة إلى حلقة ومن أستاذ إلى أستاذ كالنحلة الدءوب يلقف من هنا فائدة ومن هناك شاردة حتى امتلأ علما وفقها وفضلا وأدبا وظهرت عليه معالم النجابة وبوادر التفوق ، ولكنه لم يغتر بذلك ولم يتخذ مجلس الأستاذية الذى كان ينتظره فى الأزهر جامعته التى تخرج منها وإنما أدرك

بحاسة ابن القرية المهاجر أن لا بد من الرحلة لأن المعرفة : ما قامت على الكتاب والمشاهدة ، والنظر والعمل « قل سيروا فى الأرض فانظروا » ، كان عليه إذن أن يطلب الشق الثانى المتمم لمعرفته والمكمل لثقافته .

وكانت أولى رحلاته سنة ٧٦٢ هـ إلى مكة المكرمة ، لا للحج وحده ، وإنما للعلم كذلك فهو لا يضيع وقتا يستطيع أن يطلب فيه مجلس علم فهو دائم التردد على حلقة الجمال بن عبد المعطى ليقرأ عليه الترمذى كذا فهو يطلب مجلس الكمال محمد بن عمر بن حبيب وعليه قرأ مسند أحمد . ثم عاد إلى عاصمة الأزهر بعد أن أدى فريضة الحج الأولى وحاجة النفس العظمى فانصكب عليه الغزير وانهل نبعه الثر وأينع حقله الخصب فأعطى الحصاد الوافر والثمر الحلو فى كل فن ومن كل لون ففى الحديث ـ أعطى (الديباجة فى شرح سنن ابن ماجة) قال عنه حاجى خليفة فى كشف الظنون : إنه فى مجلدات خمسة وإنه مات قبل تحريره وتبييضه . وفى التوحيد والعقائد ـ الجوهر الفريد فى علم التوحيد ـ وفى الفقه الشافعى ـ (النجم الوهاج فى شرح المنهاج) للنووى ـ وفى الأدب والشعر ـ أعطى (شرح غاية الأرب فى معرفة كلام العرب) وشرح المعلقات السبع ، هذا عدا مختصر لشرح لامية العجم للصفدى . وفى الفروع ـ تذكرة الدميرى قياسا على تذكرة داود وفى الموسوعات الخاصة كتاب (حياة الحيوان) فى جزءين وعليه سنقصر الحديث لأنه الكتاب الأوحد الذى عثرنا عليه مطبوعا من بين هذه الثروة العلمية الضخمة والتى تحتاج إلى العناية من لجنة إحياء التراث فى وزارة الثقافة .

وقبل أن ننتقل إلى صحبة حياة الحيوان يحسن أن نلم بشىء من مجالس علمه وفضله وتقواه التى كانت تعقد بالقاهرة ومكة والمدينة وجوف الكعبة فلقد تسلم كرسى الأستاذية فى الأزهر لمدة طويلة بعد أن عاد من رحلته المكية الأولى ـ وكان كاذكر الرواة يشغل الطلاب فى حلقته الأزهرية هذه يوم السبت غالبا ، وكان يدرس الحديث بالقبة البيبرصية ، وكان يذكر الناس ويعظهم بمدرسة ابن البقرى داخل باب النصر يوم الجمعة . قال صاحب الضوء اللامع « وكان يقيد فى مجلسه هذا أشياء حسنة من فنون العلم » وكان يذهب إلى جامع الظاهر بالحسينية بعد عصر الجمعة غالبا .

قال المقريزى فى عقوده : ... صاحبته سنتين ، وحضرت مجلس وعظه مرارا لإعجابى به ، وأنشدنى وأفادنى وكنت أحبه فى الله لسمته وحسن هديه وجميل طريقته ومداومته على العبادة لقيته مرة فقال : ما زال المقريزى

يروى - رأيت فى المنام أنى أقول لشخص : لقد بعد عهدى بالبيت العتيق ، وكثر شوقى إليه فقال : قل لا إله إلا الله الفتاح العليم الرقيب المنان . فصار يكثر ذكر ذلك حتى حج فى تلك السنة رحمه الله ، وعظ فأفاد وخطب فأجاد » .

وقالوا عن تقواه الشىء الكثير فما يروى عنه أنه كان أكولا نهما فى مطلع حياته فلما أخذته سبحات العبادة وأسبغ برداء التقوى صار بحيث يطيق متابعة الصيام . وكان له أذكار يواظب عليها ، وعنده خشوع وخشية وبكاء عند ذكر الله سبحانه . ويقول صاحب شذرات الذهب : « وكان ذا حظ فى العبادة تلاوة وصياما ومجاورة فى الحرمين ويذكر عنه كرامات كان يخفيها وربما أحالها على غيره » .

والرجل لا يقتصر على مدارس القاهرة ومساجدها ودور علمها فهى وحدها لا تكفى فيضه الغزير وإنما يطلب الرحلة العلمية من جديد ليفيد بعدما استفاد وليعطى مثلما أخذ ، ثم هو كذلك فى رحلاته هذه يلهم بصيرته الغذاء والنماء والاكتمال ويشد الرحال إلى أم القرى مكة مرة بعد مرة حتى توثق بينه وبينها نسبا وصهرا ، فلقد تأهل فيها بأم فاطمة ابنة (يحيى بن عباد الصنهاجى : المكية والتى ولدت له) أم حبيبة وأم سلمه وعبد الرحمن وكانت أولى قدماته على ما أخبرت عنه زوجــه ، فى موسم سنة اثنتين وستين وسبعمائة وجاور بها حتى حج فى السنة التى بعدها ثم تعددت زياراته وكثرت أوباته حتى صار له طلابا ينتظرونه فى مكة مثلما يتشوق إليه المريدون فى القاهرة ولو ذهبنا ، مثلما ذهب صاحب الضوء اللامع ، فى تعداد مرات سفره إلى مكة لطال بنا الوقوف وامتد بنا الأمد .

والذى يعنينا الآن أنه انفصل عن مكة سنة تسع وتسعين وسبعمائة فظل بالقاهرة يحاضر الطلاب فى حلقات العلم ويذكر الناس فى مجالس الوعظ ثم هو لا ينثنى حين يعود إلى داره أن يلم بالقراطيس فيحبر بياضها بنتاج فكره وفائض عبقريته وغزير علمه حتى طواه الموت فيمن طوى لثلاث ليال خلون من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانمائة من الهجرة وذكرت كتب تراجمه المعتمدة أنه دفن بمقابر الصوفية المعروفة يومها بمقابر « سعيد السعداء » ويبدو أن زاوية صغيرة أقيمت على قبره وما زالت باقية حتى الآن بعد أن جددتها وزارة الأوقاف عام ١٣٢٤هـ أى منذ ستين عاما . وبالزاوية . فى حى الحسينية بالقاهرة - ضريحه المعروف بضريح سيدى محـــمد كمال الدين الدميرى الشهير « بالصوابى » إلا أن المسجد صغير مهدم لا يليق بقدر الرجل الذى اهتم به علماء الغرب ومستشرقوه فترجموا مؤلفه عن حياة الحيوان

(البقية على الصفحة التالية)

المؤلفات العربية لعلماء الهند المسلمين

للأستاذ محيي الدين الألوائي

— ٣ —

قدمنا فى العدد السابق بعض المؤلفات العربية القيمة للعالم الهندى الشيخ عبد الحى ابن فخر الدين الحسنى ، واستعرضنا نماذج من كتابه « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » ، فى تاريخ رجال الهند وأعيانها المسلمين فى مختلف العصور ، وكذلك كتابه « جنة المشرق ومطلع النور المشرق » ، فى جغرافية الهند والتاريخ الإسلامى فيها . ونقدم الآن بعض المؤلفات العربية فى مختلف العلوم ، للشيخ الإمام ولى الله بن عبدالرحيم الدهلوى ، صاحب كتاب « حجة الله البالغة » المعروف الذى يعد من أمهات المؤلفات العربية فى القرن الثانى عشر .

وقد ولد الشيخ الإمام قطب الدين أحمد ولى الله بن عبد الرحيم ، الملقب بشاه ولى الله الدهلوى ، فى الرابع عشر من شوال سنة ١١١٤ هـ ، وكان جده الشيخ وجيه الدين العمرى ، من كبار مشايخ (دلهى) ، وقيل: إن نسبه يتصل بالإمام موسى الكاظم رضى الله عنه ، وبعد أن أخذ العلوم عن والده الشيخ

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

إلى لغات عدة واختصروه وهذبوه واستفادوا منه(١) . ولا شك أن الشيخ الدميرى جدير بنظرة من الأزهر أو وزارة الثقافة أو وزارة الأوقاف فهو حقيق بإحياء ذكراه وتجديد ضريحه ومسجده وإلقاء بعض الضوء على سيرته التى ما زالت نهب الضياع تائهة فى بطون المؤلفات والتراجم الدارسة .

هذا عن الرجل أما الكتاب فموعدنا معه لقاء قادم إن شاء الله ؟

محمد جاد البنا

معهد البحوث والدراسات العربية العالية

(١) فى مجلة المشرق ١٠ / ٧٦٥ — أن الكولونيل « جايكار » أحد أساتذة كلية (بمباى) بالهند ترجم كتاب « حياة الحيوان » إلى الإنجليزية ووضع القسم الأول منه فى لندن سنة ١٩٠٦ م والقسم الثانى سنة ١٩٠٨ م = وانتهى منه إلى حرف الفاء ـ نقلا عن كشف الظنون لحاجى خليفه الذى ذكر أيضا أن الحكيم شاه محمد القزوينى ترجم حياة الحيوان إلى الفارسية وزاد عليه أشياء .

عبد الرحيم ، وحصل له التبحر فى علوم الحديث والفقه والتوحيد ، اشتاق إلى زيارة الحرمين الشريفين، فرحل إليهما سنة ١١٤٣ هـ ، ومعه خاله الشيخ عبيد الله البارهوى وابن خاله محمد عاشق ، وغيرهما من أصحابه ، فأقام بالحرمين عامين كاملين ، وصحب علماء الحرمين صحبة علم وتحقيق ، وتتلمذ على الشيخ أبى طاهر محمد بن إبراهيم الكردى المدنى فى المدينة المنورة ، فتلقى منه ، ما بين قراءة وسماع ، صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وجامع الترمذى ، وسنن أبى داود ، وسنن ابن ماجه ، وموطأ الإمام مالك ، ومسند الإمام أحمد ، والرسالة للشافعى ، والجامع الكبير ، ومسند الحافظ الدارمى ، وسمعه من أوله إلى آخره فى عشرة مجالس كلها بالمسجد النبوى عند المحراب العثمانى تجاه القبر الشريف [1] .

وأجازه الشيخ أبو طاهر الكردى والمدنى إجازة عامة بما تجوز له وعنه روايته من مقروء ومسموع وأصول وفروع وحديث وقديم ومحفوظ ورقيم ، ثم ورد الشيخ ولى الله الدهلوى بمكة المكرمة، وأخذ موطأ مالك عن الشيخ ، وفد الله ، المالكى المكى وحضر دروس الشيخ تاج الدين القلعى المكى ، وسمع عليه أطراف الكتب الستة ، وأخذ الإجازة عنه لسائر الكتب ، وأخذ منه الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ إبراهيم بن الحسن المدنى ، وعاد إلى الهند ، سنة ١١٤٥ هـ .

وكتابه (حجة الله البالغة) هو عمدة تصانيفه فى علم أسرار الشريعة وأصول الدين ولم يتكلم فى هذا العلم أحد قبله على هذا الوجه من تأصيل الأصول وتفريع الفروع وتمهيد المقدمات والمبادىء واستنتاج المقاصد . ويعد كتابا مبتكرا فى موضوعه وأسلوبه العلمى [1] . ومن نعم الله تعالى عليه أن أولاه الجمع بين العلوم والفنون الكثيرة والفصاحة فى اللغة العربية والربط الخاص بالفنون الأدبية فى النظم والنثر ، فإنه حاز علم تفسير القرآن وعلم الحديث والأثر مع حفظ المتون وضبط الأسانيد والنظر فى دواوين الجاميع والمسانيد وعلوم الفقه على المذاهب الأربعة وأصحابها ، والاطلاع على مآخذ المسائل ومنازع الحجج والدلائل ، وعلم العقائد وأصول الدين وعلم الحقائق وآداب السلوك .

وقد أثنى كثير من أجلة العلماء على الشيخ ولى الله الدهلوى وأولاده ومريديه الأمجاد ، لما نفع الله بهم وبعلومهم فى سبيل توطيد ركن علم الحديث فى الهند ورد كيد الشرك والبدع ومحدثات الأمور فى الدين ، كما شهدت بذلك كتبهم وفتاواهم ، ومنهم شيخه أبو طاهر

---

(١) نزهة الخواطر جـ ٦ :

(١) أعيد طبعه وتخريجه فى مصر مرارا .

محمد بن ابراهيم المدنى، حيث قال : إنه يستدعى اللفظ وكنت أصحح منه المعنى ، أو كلمة تشبه ذلك ، وكتبها فيما كتب له ، وهذا يقرب من قول البخارى فى أبى عيسى حين قال له : ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بى، وليس وراء ذلك مفخرة ترام، ولا فوقها منقبة تتمنى ، ومنهم الشيخ شرف الدين محمد الحسينى الدهلوى فى كتابه (الوسيلة إلى الله) . ثم لما دونت علوم الولاية وقواعدها وقوانينها وتحققت النفوس الكاملة بأصولها وفروعها وغلبت على الاستعدادات المختلفة نتائجها وثمراتها ومرت الدهور والأعصار وتطاولت إليها أيدى الأفكار اختلطت علوم الولاية بعلوم النبوة لشدة غموضها اختلاطا صعب معه التميز بينهما ، بل اختلطت العلوم كلها من النافعة والضارة لاختلاط الناس عربهم وعجمهم ، ولاختلاف استعداداتهم وأمزجتهم وتمارس العلوم وتداول الكتب بينهم فتيسر لكل واحد من الناس أن يحمل أى عبارة من أى علم شاء على وفق ذوقه بطريق فن الاعتبار ويستدل بها على مدعاه وهو لا يدرى أن حملها بطريق الاعتبار لا يتأتى به الاستدلال فاشتبه الأمر على نفوس المستعدين وتعسر التحقق لها بالعلوم على حيالها فأصيبت المصيبة واستطارت البلية إلى كل الجهات حتى أن الزنادقة والملاحدة تستروا فى زى الصوفية وتطاولت أيديهم بعبارات القرآن العظيم والأحاديث النبوية وكلمات المشايخ الكبار ، وحملوها على غير المراد فضلوا وأضلوا فكاد الزمان أن يكون شبيها بزمان الجاهلية فاقتضى التدبير الكلى والحكمة الأزلية أن تظهر حقيقة الحقائق بالقدر المشترك الجامع بين علوم النبوة والولاية بل الجامع بين العلوم كلها مرة أخرى فى مظهرها الثالث ليكون منصة لظهور حقائقها الجامعة المميزة بين العلوم ومراتبها فهو يقنن قوانين ويدون قواعد يحصل بها الامتياز التام بين علوم النبوة والولاية بل بين العلوم المعتدة كلها من التفسير والحديث والفقه والكلام والتصوف والسلوك فينزل كل علم منزلته ويبلغ كل عبارة وإشارة مبلغه وهو الكامل المكمل ، زبدة المتقدمين ، قدوة المتأخرين ، قطب المدققين ، الشيخ ولى الله المحدث الدهلوى » .

وتطاولنا فى النقل مما كتب عن هذا المؤلف العظيم بغية أن يكون بمثابة تعريف عاجل بطريقته الجديدة وأسلوبه الخاص فى تحقيق أسرار الشريعة وغوامض العلوم النقلية والعقلية وتمييز العلم المنقول من المحرف المدخول وفرق السنة السنية من البدعة غير المرضية ، وتطهيرها من قذى أهل المعقول والهوى .

ومن مؤلفاته فى التفسير: «الفوز الكبير فى أصول التفسير» ذكر فيه العلوم الخمسة وتأويل الحروف المقطعات وحقائق أخرى، و«الفتح الخبير» واقتصر فيه على غريب القرآن وتفسيره بما روى عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما، و«تأويل الأحاديث فى توجيه قصص الأنبياء الواردة فى القرآن وبيان مبادئها التى نشأت من استعداد النبى وقابلية قومه ومن التدبير الذى دبرته الحكمة الإلهية فى زمانه». وفى الحديث: «المصفى شرح الموطأ» برواية يحيى بن يحيى الليثى مع حذف أقوال الإمام وبعض بلاغياته، وتكلم فيه كلام المجتهدين. و«المسوى شرح الموطأ» واكتفى فيه على ذكر اختلاف المذاهب وعلى قدر من شرح الغريب. و«شرح تراجم الأبواب للبخارى» وأتى فيه بتحقيقات دقيقة وغريبة. و«النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر» و«الدر الثمين فى مبشرات النبى الأمين». و«الإرشاد فى مهمات الإسناد» و«إنسان العين فى مشايخ الحرمين» و«كتاب الأربعين» وجمع فيه أربعين حديثا من أمهات الأحاديث النبوية، رواها عن شيخه أبى طاهر بسنده المتصل إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

وفى أصول الدين وأسرار الشريعة: كتاب «حجة الله البالغة» المذكور، فى علم أسرار الشريعة وغيرها. و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» وهو كتاب عديم النظير فى بابه، ولم تعهده المكتبة العربية من قبل: و«حسن العقيدة» فى العقائد. و«الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمجتهدين». و«المقدمة السنية فى انتصار الفرقة السنية». وفى الحقائق والمعارف: «القول الجميل فى بيان سواء السبيل» فى سلوك الطرق الصوفية الثلاث المشهورة القادرية والنقشبندية والجشتية. و«الانتباه فى سلاسل أولياء الله» وهو كتاب مبسط فى شرح السلاسل المشهورة فى الطرق الصوفية، و«الهوامع» فى شرح «حزب البحر» المعروف. و«شفاء القلوب» فى الحقائق والمعارف.

ومن أهم كتبه فى التصوف ولطائف النفس كتابه «التفهيمات الإلهية» ومن أطرف ما ورد فيه قوله: «ومن نعم الله على ولا فخر أن جعلنى ناطق هذه الدورة وحكيمها وقائد هذه الطبقة وزعيمها فنطق على لسانى ونفث فى نفسى فإن نطقت بأذكار القوم وأشغالهم نطقت بجوامعها وأتيت على مذاهبهم جميعا، وإن تكلمت على نسب القوم فيما بينهم وبين ربهم زويت لى مناكبها وبسطت فى جوانبها ووافيت ذروة سنامها وقبضت على مجامع خطامها، وإن خطبت بأسرار اللطائف الإنسانية تعوضت قاموسها وتلبست بأغوصها

وقبضت على جلابيبها وأخذت بتلابيبها ، وإن تمطيت ظهر علوم النفس ومبالغها ، فأنا أبو عذرتها آتيهم بعجائب لا تحصى وغرائب لا تسكنته ، ولا اكتناهها يرجى ، وإن بحثت عن علم الشرائع والنبوات فأنا ليث عرينها وحافظ جرينها ، ووارث خزائنها وباحث مغانيها » (١) .

وورد فى كتاب « المقامات » للشيخ غلام على العلوى الدهلوى : « أن الشيخ ولى الله ابن عبد الرحيم قد بين طريقة جديدة وله أسلوب خاص فى تحقيق أسرار المعارف وغوامض العلوم وأنه ربانى من العلماء ، ولعله لم يوجد مثله فى الصوفية المحققين الذين جمعوا بين علمى الظاهر والباطن ، وتكلموا بعلوم جديدة ، إلا رجال معدودون » .

ومن مؤلفاته بالشعر العربى « أطيب النغم فى مدح سيد العرب والعجم » ويتم منه نبوغه فى الشعر أيضا فى رقة الأسلوب وصفاء المعنى وخصب الخيال ، وفيما يلى إحدى قصائده العربية ، فى مدح الرسول العربى :

كأن نجوما أو مضت فى الغياهب
عيون الأفاعى أو رءوس العقارب

إذا كان قلب المرء فى الأمر حائرا
فأضيق من تسعين رحب السباسب

وتشغلنى عنى وعن كل راحتى
مصائب تقفو مثلها فى المصائب

إذا ما أتقى أزمة مدلهمة
تحيط بنفسى من جميع جوانب

تطلبت هل من تاجر أو مساعد
ألوذ به من خوف سوء العواقب

فلست أرى إلا الحبيب محمدا
رسول إله الخلق جم المناقب

ومعتصم المكروب فى كل غمرة
ومنتجع الغفران من كل هائب

ملاذ عباد الله ملجأ خوفهم
إذا جاء يوم فيه شيب الذوائب

إذا ما أتوا نوحا وموسى وآدما
وقد هالهم أبصار تلك المصائب

فما كان يغنى عنهم عند هذه
نبى ولم يظفرهم بالمآرب

هناك رسول الله ينجو لربه
شفيعا وفتاحا لباب المواهب

فيرجع مسرورا بنيل طلابه
أصاب من الرحمن أغلى المراتب

سلالة إسماعيل والعرق نازع
وأشرف بيت من لؤى بن غالب

بشارة عيسى والذى عنه عبروا
بشدة بأس بالضحوك المحارب

ومن أخبروا عنه بأن ليس خلقه
بفظ ، وفى الأسواق ليس بصاحب

ودعوة إبراهيم عند بنائه
بمكة بيتا فيه نيل الرغائب

(١) نزهة الخواطر ج (٦) .

جميل المحيا أبيض الوجه ربعة ... جليل كراديس أزج الحواجب

صبيح مليح أدعج العين أشكل ... فصيح له الإعجام ليس بشائب

وأحسن خلق الله خلقا وخلقة ... وأنفعهم للناس عند النوائب

وأجود خلق الله صدرا ونائلا ... وأبسطهم كفا على كل طالب

وأعظم حـر للمعالى نهوضة ... إلى المجد سام للعظائم خاطب

ترى أشجع الفرسان لاذ بظهره ... إذا احمر بأس فى بئيس المواجب

وآذاه قـوم من سفاهة عقلهم ... ولم يذهبوا من دينه بمذاهب

وما زال يدعو ربه لمدامهم ... وإن كان قد قاسى أشد المتاعب

وما زال يعفو قادرا من مسيئهم ... كما كان منه عند جبذة جاذب

وما زال طول العمر لله معرضا ... عن البسط فى الدنيا وعيش المرازب

بديع كمال فى المعانى فلا امرؤ ... يكون له مثلا ولا بمقارب

أتانا مقيم الدين من بعد فترة ... وتحريف أديان وطول مشاغب

فيا ويل قوم يشركون بربهم ... وفيهم صنوف من وخيم المثالب

ودينهم ما يفترون برأيهم ... كتحريم حام واختراع السوائب

ويا ويل قوم حرفوا دين ربهم ... وأفتوا بمصنوع لحفظ المناصب

ويا ويل من أطرى بوصف نبيه ... فسماه رب الخلق اطراء عائب

ويا ويل قوم قد أبار نفوسهم ... تكلف تزويق وحب الملاعب

ويا ويل قوم قد أخف عقولهم ... تجبر كسرى واصطلام الضرائب

فأدركهم فى ذاك رحمة ربنا ... وقد أوجبوا منه أشد المعائب

فأرسل من عليا قريش نبيه ... ولم يك فيما قد بلوه بكاذب

ومن قبل هذا لم يخالط مدارس ال ... يهود ، ولم يقرأ لهم خط كاتب

فأوضح منهاج الهدى لمن اهتدى ... ومن بتعليم على كل راغب

وأخبر عن بدء السماء لهم وعن ... مقام مخوف بين أيدى المحاسب

وعن حكم رب العرش فيما يعنيهم ... وعن حكم تروى بحكم التجارب

* * *

وقد توفى المؤلف الشيخ الإمام ولى الله الدهلوى فى شهر المحرم عام ١١٧٦ هـ بمدينة دلهى فدفن بها إلى جوار ضريح والده العظيم طيب الله ثراهما ، وجزاهما خيرا على ما قدماه من خدمات فى سبيل العلم والدين . ؟

(يتبع) محيى الدين الألوائى

الإمام ابن حزم

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

٣٨٤ — ٤٥٦ هـ

فى تاريخ الإسلام رجال كثيرون ، صنعهم الإسلام بثقافه، وساهموا فى الثقافة الإسلامية الأصيلة أيما إسهام ، وشاركوا فى الحياة العقلية ، والتراث الإنسانى مشاركة تستحق الإكبار والإعظام ، وتركوا ثروة من المؤلفات والموسوعات التى لا تزال ذات تأثير فى الثقافة المعاصرة ، بل منهم من سبق إلى أفكار ومذاهب تشريعية واجتماعية وأخلاقية لم يعرفها الغرب إلا فى العصور الأخيرة، مما يشهد للعقلية الإسلامية والعربية بالخصوبة ، والإنتاج ، والابتكار .

وضربوا فى باب الحرص على العلم والمعرفة ، وتحمل المشاق فى سبيلهما مثلا عليا تعتبر مفخرة من مفاخر المسلمين والعرب ، بل منهم من آثر العلم والبحث عن الحقيقة على الوزارة والرياسة . من هؤلاء العلماء الأفذاذ الإمام : أبو محمد ابن حزم، وسنترجم له ترجمة موجزة ولكنها مركزة لنتعرف شيئا من ملامح هذه الشخصية الفذة ، ثم نعرض بعد ذلك لمؤلفاته التى تعتبر من ذخائر الإسلام وكنوزه القيمة ، والتى كونت لبنات فى بناء التراث الإنسانى ، ولآرائه فى باب التكافل الاجتماعى التى اعتمد فيها على القرآن والسنة ، والتى تسجل له السبق فى هذا المضمار .

« من هو ابن حزم » ؟

هو الإمام الحافظ المجتهد الناقد أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم (١) بن غالب ابن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان ابن يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب ابن أمية بن عبد شمس الأموى ، وهو من أئمة الظاهرية ، وصاحب التآليف الممتعة المفيدة ، وذو النفس الطويل فى كل مايعرض له من بحوث ومسائل ، وأحد علماء الأندلس الإسلامية .

وأصل أجداده من بلاد فارس فهو فارسى الأصل ، وجده يزيد أول من أسلم من أجداده ، وجده خلف أول من دخل الأندلس منهم ، ولعله كان من جنود الفتح الإسلامى لهذه البلاد ، وكان أبوه وزيراً جليلا كبير الشأن ببلاد الأندلس وزر فى عهد

---

(١) لحزم ليس بأبيه ولكنه جد أبيه ولكن اشتهر بالنسبة إليه .

المنصور محمد بن أبى عامر (١) الذى استأثر بالسلطان فى عهد الخليفة هشام الثانى (٣٦٦-٤١٣ هـ).

نشأته وحياته

لئن كانت بغداد بلد العلم والخلافة فى الشرق الإسلامى العربى، فقد كانت قرطبة بلد العلم والخلافة فى الغرب الإسلامى العربى، وقد بقى البلدان بهذه المثابة بضعة قرون فكم تخرج فيهما من فقهاء ومفسرين، ومحدثين ومتكلمين وأدباء، ونحويين، ولغويين، وحكماء. وفلاسفة ... وفى قرطبة، وعلى التحديد، فى الجانب الشرقى منها ولد ابن حزم، وكانت ولادته فى رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة، وقد نشأ فى مطارف النعيم والجاه والأبهة حتى قيل فيه: «كان أولا يلبس الحرير، ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير، ولا عجب فقد كان بيته بيت علم ووزارة وقد كان أبوه وزيرا للمنصور محمد بن أبى عامر، ووزر هو للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام مـــدة، ثم نبذ الوزارة، وأقبل على علوم الإسلام فنال ما لم ينله أحد (٢)، وهكذا نرى أن ابن حزم صرف عن حياة الدعة والخول، وزهد فى الدنيا ومناصبها وآثر البحث والكد والتعب على الراحة والكسل، والعلم على الوزارة، والمجد الباقى على العرض الزائل، وهو مثل من الأمثلة الفريدة، فى تاريخ الدنيا.

أحداث أثرت فى حياته:

ويذكر الإمام الذهبى فى تذكرته أحداثا وقعت له أثرت فى حياته واستحثته على البحث والعلم ذلك أنه قدم (بلنسية) فوجد فيها مجلس علم، فصار يسمع ويتعجب ثم سأل الحاضرين عن شىء من الفقه، فأجيب عنه، فاعترض عليه، فقال له بعض الحاضرين: هذا العلم ليس من منتحلاتك، فعز عليه هذا وأقبل على العلم ولقاء الأشياخ، ولم تمض إلا مدة وجيزة حتى قصد إلى ذلك الموضع الذى نيل منه فيه، فناظر أحسن مناظرة قال فيها: أنا تبع الحق، واجتهد ولا أتقيد بمذهب[1].

ويذكر أبو محمد عبد الله بن محمد المغربى عن ابن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المجلس فجلس ولم يركع ركعتين فقال له رجل: قم فصل تحية المسجد، وكان ابن ست وعشرين سنة قال: فقمت وركعت فلما رجعنا من الجنازة جئت المسجد فبادرت بالتحية، فقال لى: اجلس، اجلس، ليس ذا وقت صلاة يعنى بعد العصر فانصرفت حزينا وقلت للأستاذ الذى ربانى: دلنى على

(١) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق

(١) التذكرة ج ٣ ص ٣٢٤.

دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون ، فقصدته وأعلمته بما جرى علي ، فدلني على (الموطأ) فبدأت عليه قراءة ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره ثلاثة أعوام ، وبدأت بالمناظرة[1] .

ولعل في هذه القصة عبرة لكثيرين من أهل العلوم الدنيوية وأرباب الجاه والسلطان الذين لا يعلمون من أمور دينهم ، وعلوم الشريعة ما يصححون به عباداتهم ، ويعرفون الحلال من الحرام فيتزودوا من علوم الإسلام بما ينأى بهم عن المآثم والأخطاء ، إن لم يبلغوا ما بلغ ابن حـــزم من مرتبة الفقه والاجتهاد .

« شيوخه وتلاميذه »

من خصائص علماء الإسلام ولا سيما علماء الرواية والحديث أنهم لا يأخذون العلم إلا من الشيوخ ، والتلقي من الأفواه ، لأن ذلك أدعى إلى الضبط والتوثق ، وأبعد من الخطأ والتصحيف ومن المعروف عند المحدثين قولهم : « لا يؤخذ العلم من الصحفيين ، أي الذين يأخذون الحديث من الصحف ، ولا يعتمدون في الرواية على التلقي الشفاهي ، وقد أخذ بهذا الأصل الذي يعتبر من قواعد علم « أصول الرواية » غير المحدثين من علماء التاريخ ، واللغة ، والأدب في العصور الأولى كما تجد ذلك واضحا في الكتب التي ألفت في هذه العلوم في القرون الأولى ، وإن كان المحدثون أشد تطبيقا لأصول الرواية في الإسلام من غيرهم ، وأكثر تدقيقا فيها من غيرهم ، لأنهم يعلمون أنهم يروون السنة ، وهي الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام .

فلا تعجب إذا كان ابن حزم أخذ العلم عن كثير من الشيوخ والأساتذة منهم أبو عمر أحمد بن الحسين ، ويحيى بن مسعود بن وجه الجنة ، ويوسف بن عبد الله القاضي ، وحمام ابن أحمد القاضي ، وعبد الله بن ربيع التميمي ، وعبد الله بن محمد بن عثمان ، وأبي عمر الطلمنكي[1] ، وأخذ المنطق عن الشيخ محمد ابن الحسين المذحجي القرطبي المعروف بابن الكتاني ، وكان أديبا شاعرا طبيبا ، له في الطب رسائل ، وكتب في الأدب[2] .

وأخذ عنه العلم تلاميذ كثيرون من مشاهيرهم : الحافظ أبو عبد الله الحميدي ، وقد أكثر من الأخذ عنه ، وابنه أبو رافع ، وكان ابنه هذا سريا فاضلا ، وكان في صحبة المعتمد بن عباد صاحب « أشبيلية » وغيرها من بلاد الأندلس ، وكان له مع المعتمد هذا موقف كريم مما زاده كرامة وحبا عنده[3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٦ .

(١) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٢٢ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٤ .

وآخر من روى عنه بالإجازة أبو الحسن شريح بن محمد .

« حفظه للحديث وفقهه »

وكان أبو محمد بن حزم حافظا للحديث ، عالما بعلومه وفقهه ، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة صاحب اجتهاد ، واستقلال ، ورأى ، وقد كان في مبدأ أمره شافعي المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر ، ونفى القول بالقياس ، وتمسك بظواهر القرآن والسنة وعمومها ، والبراءة الأصلية حتى صار من أشهر أئمة الظاهرية بعد داود الظاهرى .

« سعة علمه وتفننه »

وكان إليه المنتهى فى الذكاء والحفظ ، وسعة الدائرة فى العلوم ، ولم يقتصر علمه على الحديث وحفظه ، والفقه واستنباط الأحكام كما هو الشأن فى كثير من علوم الحديث والفقه ، ولكنه تفنن فى علوم أخرى كالمنطق ، والفلسفة ، وعلوم اللغة والبلاغة والأدب ، والمعرفة بالسير والأخبار حتى قال تلميذه أبو عبد الله الحميدى : ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ ، وكرم النفس والتدين ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، ثم قال أنشدنى لنفسه :

لئن أصبحت مرتحلا بجسمى
فروحى عندكم أبدا مقيم

ولكن للعيان لطيف معنى
له سأل المعاينة الكليم

وله أيضا فى المعنى :

يقول أخى : شجاك رحيل جسم
وروحك ماله عنا رحيل

فقلت له : المعاين مطمئن
لذا طلب المعاينة الخليل

وقال ابن بشكوال فى حقه : كان أبو محمد - يعنى ابن حزم - أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار .

فلا تعجب إذا كان ولده أبو رافع الفضل ابن أبى محمد قال : إنه اجتمع عنده بخط أبيه من تآليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة (١) وهذا يدل على التفانى فى سبيل العلم ، وعدم إضاعته دقيقة من العمر فى غير النافع ، وهذه القصة تذكرنى بما ذكر عن الإمام العلامة محمد بن جرير أبى جعفر الطبرى من أنه مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة (٢) ، وكذلك نقل عن كثير من أئمة العلم فى الإسلام نحو هذا ، وهى مثل مشرقة ، وقيم عليا ينبغى أن

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢ ، بداية ونهاية ج ١٢ ص ٩١ .

(٢) أعلام المحدثين للكاتب ص ٢٩٣ .

يحتذيها فى حاضرنا رجال العلم ، وشباب الطلاب فى الجامعات والمعاهد ، ليصلوا حاضرنا بماضينا الزاهر ، ويحيوا ما درس من هذه المثل العلمية الرفيعة .

وقد أثنى عليه بالتوسع فى العلوم والفنون صاعد بن أحمد ، وبالحفظ وسيلان الذهن تلميذه الحميدى ، والإمام أبو حامد الغزالى قال: وجدت فى أسماء الله الحسنى كتابا ألفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه (١) .

« أخلاقه وزهده » :

كان ابن حزم يجمع إلى العلم الخلق، والتدين الصادق ، والزهد فى الدنيا ومناصبها ، والعمل بعلمه قال ابن خلكان : « كان متفننا فى علوم جمة ، عاملا بعلمه ، زاهداً فى الدنيا بعد الرياسة التى كانت له ولأبيه من قبله فى الوزارة وتدبير الملك ، متواضعا ذا فضائل جمة، وقال الحافظ الناقد أبو عبد الله الذهبى : « كان صاحب فنون فيه دين وتورع ، وتحر للصدق ، وتزهد » .

وقد تعرض ابن حزم فى حياته لمحن وفتن كثيرة بسبب صلابته فيما يعلم أنه حق ، واعتداده بنفسه ، ونيله من بعض العلماء الكبار، واختلفت آراء العلماء فيه ما بين مثن ومؤيد ، وشانئ ومعارض ، وهو ما سنعرض له فى المقال الآتى إن شاء الله تعالى ؟

محمد محمد أبو شهبة

(١) التذكرة ج ٣ ص ٣٢٣ .

عظة حكيم

قال الأصمعى : بلغنى أن بعض الحكماء يقول : إنى لأعظكم ، وإنى لكثير الذنوب مسرف على نفسى ، غير حامد لها ، ولا حاملها على المكروه فى طاعة الله .

وقد بلوتها فلم أجد لها شكرا فى الرضاء ، ولا صبرا على البلوى ، ولو أن أحدا لا يعظ أخاه حتى يحكم أمره ليترك الأمر . . ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس وتذكير من النسيان ، واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان وإقبالها إدبار ، وآخر حياتها الموت ، فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ومنتظر غدا لا يبلغه؟ ولو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره .

أهل الرأى من الفقهاء

للأستاذ محمد محمد الشرقاوى

إذا ذكر هذا الاسم فإنما ينصرف أول ما ينصرف إلى المدرسة الفقهية التى ظهرت فى القرن الثانى الهجرى متمثلة أصدق التمثيل وأعمقه فى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه.

وليس أبو حنيفة فى واقع أمره إلا رمزاً لتلك المدرسة، وملتقى لأصول اتخذت من الرأى فى الفقه مذهبا وديدنا، وفروع انحدرت فيها تلك السليقة الفقهية، وآثرتها رأياً واتجاها، ونستطيع أن نضرب لأبى حنيفة ومن أثر فيه وتأثر به من فقهاء الرأى، مثلا بالشجرة الطيبة الأصل، الزاكية الفرع، فشخصية الإمام تمثل الساق التى تركزت فيها عصارات الجذور على تشعبها وتعددها، ومن هذا الساق الطويل العريض العميق امتصت الفروع مادة حياتها وعصارة كيانها ومجموع تلك الوحدة الفقهية التى اتسمت بسمة الرأى، يمثل فى التاريخ التشريعى الإسلام «مدرسة الكوفة» أو «مدرسة الرأى»، أو «مدرسة العراق». وإذا تعمقنا أصول تلك المدرسة التى قامت عليها، وعاشت بها، وجدنا أن أبعدها غورا، وأصلبها عوداً، عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. فقد كان أبرز من استعمل الرأى من الصحابة، ولا نقول أولهم، فقد قضى أبو بكر بالرأى فى مسألة الخلافة - على الرغم من تحرجه الشديد من استعماله له، ولجوئه إليه - وذلك حين أعوزه فيها الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله فلم يجد إلى ذلك سبيلا، فكان لا مفر من استعمال الرأى فى أمر لا نص فيه، ولا سابقة له. يظهر ذلك حين اجتمع الأنصار ورسول الله صلى الله عليه وسلم على سرير الموت، وراجت بينهم فكرة إسناد الخلافة بعد الرسول إلى زعيمهم سعد بن عبادة.. فدخل أبو بكر وعمر وعبيدة بن الجراح، وخطبهم أبو بكر مرجحاً جانب المهاجرين فى الخلافة، فصاح صائح الأنصار «منا أمير ومنكم أمير» فرد سعد: «هذا والله أول الوهن» وأيده أبو بكر قائلا: «لا يصلح والله سيفان فى قراب واحد، بل منا الأمراء ومنكم الوزراء». وبهذا الرأى انحسم الموقف الذى هدد وحدة الأمة الفتية بالانقسام والفشل. وبهذا نرى أن الصحابة فى جلتهم لم يردوا الرأى لأنه رأى، ولا تنكروا لحكم العقل حين يعز عليهم مدلول النص، بل كلهم، أو جلهم يعتد بالرأى، ويعول عليه كمصدر من مصادر التشريع..

بيد أن منهم من يميل إلى التوسع فيه والاطمئنان إليه أمثال عمر ، وابن مسعود وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وعلي ، وأبي موسى الأشعري .

ولذا قال الشعبي : « ثلاثة يستفتي بعضهم من بعض : عمر ، وابن مسعود ، وزيد ، وكان علي ، وأبي بن كعب وأبو موسى يستفتي بعضهم من بعض » . وكان عمر بن الخطاب أمهر الصحابة في استعمال الرأي ، وأكثرهم توسعا فيه ، وكان له في ذلك بصيرة نافذة ، ورأي لماح ، وفكر نضيج . وقد بدأ ذلك مبكرا في حياة الرسول وأقره عليه ، وأعجب به ، وقال فيه ما يفيد أنه أوشك أن يكون من الملهمين المحدثين بما وراء الغيوب ، وله في ذلك سوابق تشريعية جريئة . منها : حرمان المؤلفة قلوبهم ما كانوا يستحقونه بنص الكتاب . لأنه رأى أن هذا الحكم قد صار غير ذي موضوع لأنه استنفد أغراضه . وقال في ذلك : « إن الله أعز الإسلام ، وأغناه عنهم ، ومن ذلك .. عدم قطع يد السارق عام المجاعة . حين وجد الشبهة تكتنف الحد . وهي شبهة الحاجة والاضطرار فأسقط الحد ، وكذلك تحريمه المعتدة تحريما مؤبدا على من تزوجها في العدة لأنه تعجل في شيء كان يمكنه التأني فيه فعاقبه بحرمانه منه ، وإيقاعه الطلاق ثلاثا بكلمة واحدة . وجعله موجبا للبينونة الكبرى . على عكس ما كان عليه العمل زمن الرسول وأبي بكر . حيث كان الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع واحدا . وقال في ذلك : « إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة . وأمضاه عليهم ثلاثا . إلى غير ذلك من الشواهد العديدة على مدى استخدامه للرأي في الفقه ، واستنباط الأحكام منه .

وكان أشد الصحابة تأسيا بعمر ، واقتداء به في هذا المذهب المعقول واستنباط الأحكام منه . عبدالله بن مسعود الذي قال : « لو سلك الناس واديا وشعبا ، وسلك عمر واديا وشعبا لسلكت وادي عمر وشعبه » . وقد كان رضي الله عنه عظيم الثقة في فقه عمر . دائب التشبه به . متشبعا . بل متضلعا بأفكاره وأسلوبه الاجتهادي ولذا قال الشعبي : كان عبد الله لا يقنت ، ولو قنت عمر . لقنت عبد الله ، يقصد عبد الله بن مسعود ، ويعني بالقنوت : القنوت في صلاة الصبح .

ولما دار الفلك دورته . وانتقل مركز الإشعاع إلى العراق . وخاصة إبان عصر بني العباس . برزت مدرسة العراق إلى حيز الوجود الفقهي . مكافحة في سبيل آرائها التي لم تكن جديدة في أصلها . وإن اتخذت صفة الجدة فيما تفرع بعد ذلك من أحكام وفتاوى ومؤلفات كانت في عالم الفقه الإسلامي فتحا مبينا . أضفى على التشريع ثوبا قشيبا من المرونة الفكرية . والحيوية

العقلية . التي أتاحت للفقه بسط سلطانه على آفاق ما كان ليستطيع بلوغها . لو لم يتخذ من الرأى مركبا ذلولا ومن العقل وطاء ممهدا .

وكان إمام هذه المدرسة العراقية بعد انتقال النشاط الفقهى إلى تلك الأرض الجديدة : عبد الله بن مسعود . الذى كان مرآة صافية انعكست عليها كل آراء عمر وفلسفته الاستنباطية لدرجة أن ابن مسعود لم يخالف عمر فقهياً إلا فى مسائل معدودة عند الفقهاء ومن العجيب أن آراء ابن مسعود المخالفة لعمر كانت أحب إلى الفقهاء من آراء عمر . فقد جاء فى إعلام الموقعين عن الأعمش عن إبراهيم النخعى : « أنه كان لا يعدل بقول عمر وعبد الله بن مسعود إذا اجتمعا . فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب إليه لأنه ألطف » .

ومع ما كان لعبد الله بن مسعود من الأثر البارز ، والبصمات الواضحة فى منهج المدرسة الكوفية . كان لعلى بن أبى طالب القدح المعلى فى ثقافة هذا الإقليم ، وطريقة تفكيره . . إذ أنه ارتحل إلى الكوفة ، واتخذ منها دارا لإقامته ، ومنبرا لرسالته ، وعاصمة لخلافته ، ويتبعه جمع من الصحابة الذين استراحوا إلى خلافته ، واستروحوا أرج الحق من حكمه ، والتف حوله . بعض أهل الكوفة أثناء مقامه بينهم تلك المدة القصيرة الزاخرة بالأحداث الجسيمة .

ولكن الذى لا شك فيه هو أن عبد الله ابن مسعود كان نقطة البدء فى حياة مدرسة الكوفة ، وكان واسطة العقد بين زعمائها والمؤسسين لمذهب الرأى فيها . حتى إن أقوال على لم يوثق بها إلا إذا جاءت عن طريق ابن مسعود ، وكان طبيعيا أن يكون أستاذ مدرسة الكوفة الأول هو عبد الله بن مسعود ، وأن يتتلمذ على يديه نخبة من أهل العراق . . لمعوا فى أفق الحياة التشريعية ، وكان لهم فى ميدان الفقه صولات وجولات بقيت ، وسوف تبقى منارا للسالكين ، وملاذا للباحثين ، منهم الفقهاء الستة : علقمة بن قيس النخعى ، الأسود بن يزيد النخعى ، مسروق ابن الأجدع الهمدانى ، عبيدة بن عمرو السلمانى ، شريح بن الحارث القاضى ، الحارث الأعور . .

فهؤلاء الستة هم أصحاب ابن مسعود وحواريوه الذين قامت على أكتافهم أصول مدرسة الرأى فى الكوفة ، والذين دارت بهم عجلة الفقه المعقول بصورة متميزة ، وقد قال فيهم الشاعر :

وابن مسعود الذى سرج الله
مقرية أصحابه ذوو الأحلام

وكان هناك أتباع وأشياع لابن مسعود بلغوا الستين كما حكى إبراهيم التيمى ، وإن لم يبلغوا مبلغ الستة السابقين علما وفقاهة وشهرة ، وأعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله

ابن مسعود وأجمعهم لمذهبه ، وأشدهم تأثرا به ، ودعوة له : إبراهيم النخعى ، ونافسه فى هذا الميدان : عامر بن شراحيل الشعبى إلا أن هذا الأخير أخذ عن على وأهل المدينة اتباعا لمسروق .

ويبدو طابع هذه المدرسة الفقهية بوضوح فى كراهيتهم للخوض فى تفسير القرآن الكريم ، وتحاشى تأويله . إذا كانوا يرون أن خصوبة الرأى لا تعمل عملها إلا فى تربة الفقه .. حيث يتعرض الفقيه لبيان الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ، معتمدا أولا بالذات على ما يهديه إليه غالب ظنه فى إطار الكتاب والسنة ، والقياس ، وتوابع الرأى من استحسان ، ومصالح مرسلة ، وتحكيم للمصلحة ، ونحو ذلك .

وهــذا اللون من التفكير يغتفر فيه من الخطأ ما لا يغتفر فى جانب القرآن الكريم وتفسيره ، وبيان المعانى التى تنطوى عليها ألفاظه ، ويهدف إليها سياقه ولحاقه .. والقاعدة المشجعة لعمل الفقيه هى الحديث الذى رواه أحمد برجال الصحيح ، أنه جاء خصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يختصمان ، فطلب النبى إلى عقبة بن عامر الجهنى أن يقضى بينهما وقال له : اجتهد ، فإن أحسنت فلك عشر حسنات ، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد » . .

وتتلخص الفكرة العامة لدى فقهاء الكوفة فى أن عبد الله بن مسعود وأصحابه هم أثبت الناس فقها ، وأحسنهم اجتهادا حتى قال : أبوحنيفة للأوزاعى : « إبراهيم النخعى أفقه من سالم ، ولولا فضل الصحبة لقلت : إن علقمه النخعى أفقه من عبد الله بن عمر » وقد أكب أهل العراق على جمع ما يتيسر لهم جمعه من فتاوى ابن مسعود وقضايا على بن أبى طالب وفتاواه ... وكان أحفظهم لهذا ، وأرسخهم فيه إبراهيم النخعى الذى صار فيما بعد قطب الرحى ، ومحور النشاط الفقهى فى العراق ... حتى إن مذهب الإمام أبى حنيفة يستند فى أغلب آثاره إلى هذا الإمام وآرائه كما يتبين هذا جليا من كتاب الآثار لأبى يوسف ، وكتاب الآثار لمحمد بن الحسن الشيبانى ، ومصنف ابن أبى شيبة وجامع عبد الرازق حيث أسندت معظم آراء أبى حنيفة ومآخذه الفقهية إلى قريحة إبراهيم النخعى الخصيبة . ونستطيع أخيرا وليس آخرا أن نقول : إن تلك الذخيرة الفقهية التى تسلسلت من لدن عمــر وحملها عنه ابن مسعود إلى الكوفة ، ثم أفرغها فى صدور الفقهاء الستة وأضرابهم ، واستقاها النخعيون وخاصة إبراهيم ، وطعمت بفقه على وقضاياه . أودعت عقلية الإمام أبى حنيفة وتفاعلت بأنفسه العميقة ، وفطرته الألمعية ، وقريحته الوقادة . حتى ظهرت بعد ذلك صرحا شامخا من الفقه المدعم بالرأى .. المدلل عليه بالعقل المترجم عن معانى الحرية الفكرية فى ميدان الفقه والاجتهاد .. وبظهور فقه أبى حنيفة

على مسرح الكوفة . تبعه لأول مرة فى مجال الاجتهاد الإسلامى الاصطلاح المعروف حاليا « بأهل الرأى » وهو تعبير جديد فى بابه ، لم يسبق إليه أحد فى عهد الصحابة وإن كان كثير منهم قد غلب عليه هذا الطابع القياسى بمعناه الأعم كما برزت فى أفق البحث الفقهى ظاهرة جديدة تعتمد على الشرح والبيان مرتين : مرة بطـــريق المتون والمختصرات . ومرة بطريق الشرح على المتون ، وهذا يشبه إلى حد كبير ... المرحلة الثانية من مراحل مدرسة الشراح على المتون فى « أوربا » التى ظهرت فيما بين سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٨٠ م بفرنسا ، وأهم خصائص هذه المرحلة . . البحث عن إرادة المشرع تحت ضغط الحاجة العملية إلى ذلك . وقد جرهم ذلك الأسلوب الفلسفى لاستجلاء بواعث المشرع ودوافعه إلى الخروج عن نطاق الأعمال الواقعة . . والاشتغال بافتراض الفروض . . واستغلال المنهاج المنطقى المجرد والتحليق فى آفاق التقديرات والافتراضات مما أبعد القانون الفرنسى فى تلك الفترة من القرن التاسع عشر عن النطاق العملى وصبغه بالصبغة النظرية البحتة :

وقد دأب فقهاء القانون الفرنسى فى هذه المرحلة على محاولة التعرف على الفكرة التشريعية الكامنة فى إرادة المشرع ... فإن لم يجدوها افترضوها افتراضا بالوصف الذى يمكن أن يتصوره المشرع أيام وضع القانون ... لا فى ضوء الواقع حين التطبيق كما هو اتجاه المدرسة الحديثة فى القانون ...

وقد اعترض الأستاذ « اهرنج » على هذا النمط من التفكير التقديرى الافتراضى فى الفقه الفرنسى ووصفه بأنه بعيد عن روح القانون نفسه وجهل به ... وقال : « من الخطأ أن نحاول باسم المنطق أن نجعل القضاء يجرى على النظريات الرياضية ، ولا ينبغى أن تخضع الحياة لمبادئ موضوعة ، وإنما يجب أن نضع مبادئنا بحيث تتفق وما يجرى فى الحياة العملية ... إن المسألة ليست مسألة منطق ، وإنما هى الحياة ... هى المعاملات ... هى الذوق القانونى الذى يتحكم فيما يجب أن يكون ... » . ولكننا فى ضوء المركزية الأخلاقية التى ندين بها والمثل العليا الثابتة لا يسعنا أن نتفق مع الأستاذ « اهرنج » فى التنكر للمقاييس القانونية - التى يجب أن تستند أساسا إلى مبادئ الدين أو إلى مبادئ القانون الطبيعى المستمدة من العدل والحق والأخلاق المركوزة فى طباع كل الشعوب ونرى أن توسيع دائرة البحث عن طريق الافتراضات الفقهية ... أو بعبارة أخرى عن طريق « الفقه التقديرى » الذى تميز به فقه أبى حنيفة ... إنما هو تعبير عن بلورة معينة لروح القانون تستهدف الاستعداد للمستقبل ، والتأهب للبلاء قبل وقوعه ... ولا سيما فى العهود التى تضمحل فيها القوة الاجتهادية ... كما حدث فى نهاية القرن الرابع

الهجرى ... حيث أقفرت العقليات الفقهية من وسائل الاجتهاد ، وعم التقليد . . وعاش المتأخرون عالة على التقديرات والافتراضات الفقهيـــة التى افتن فى تفريعها وتخريجها المتقدمون من أهل الرأى ... وقد كانت نزعة مدرسة الكوفة بصفة عامة الإقلال من الاعتماد على الأحاديث ، ووضع القيود المشددة على ما يصلهم من تلك الأحاديث وتغليب جانب الاحتياط على حسن الظن فى قبول الروايات ، والتعويل فى مقابل ذلك على القياس ووجوه الرأى المختلفة كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا مما خلع على الفقه ثوبا نظريا الأمر الذى دعا أهل الظاهر إلى أن يوجهوا نقدهم للفقه الحنفى بقولهم : « إنه صير الفقه الإسلامى فلسفة فارسية ، كما يدل لذلك قول ابن حزم الظاهرى فى كتابه « الإحكام فى أصول الأحكام » حيث ذكر : « إن كثرة التقديرات فى فقه الحنفية ... وقولهم فى أغلب تفريعاتهم : أرأيت لو حدث هذا ... أرأيت لو كان كذا ... سمى فقههم « الفقه التقديرى » أو فقه الأرأيتيين » .

والأشبه بالحق أن فقه أهل الرأى فى مدرسة الكوفة لم يخرج عن نطاق الحدود الدينية . المنبثقة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وهو ، وإن سلك مسلكا فلسفيا فى التفكير والتعليل . والقياس والتخريج ، فرجع هذا إلى جو العراق الذى اختلف عن جو المدينة فقد كان جو العراق بعيداً عن أسلوب التقليد قريبا من الحرية الفكرية الواسعة ولذا ظهر فيه القياس تارة والاستحسان أخرى ، والعرف حينا ، وتحكيم المصلحة حينا آخر إلى غير ذلك من وسائل الاستنباط الحرة . ولقد حدد أبو حنيفة إطار عمله الفقهى بقوله : (إنى آخذ بكتاب الله إذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآثار الصحاح عنه ، التى فشت فى أيدى الثقات ، فإن لم أجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله أخذت بقول أصحابه من شئت ، وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم ، والشعبى ، والحسن ، وابن سيرين وسعيد بن المسيب (وعد رجالا قد اجتهدوا) فلى أن أجتهد كما اجتهدوا (فنحن رجال وهم رجال) وبناء على هذا التخطيط الفقهى لأبى حنيفة دخل هذا الإمام باب الاجتهاد من أوسع أبوابه ، وصال فيه وجال ، وكان اشتراطه المشدد للحديث المقبول مدعاة لضيق الاستدلال به وذلك لأسباب دعاه إليها حرصه على أن يصل باجتهاده إلى ما يغلب على ظنه أنه حكم الله . فلا يلائم بعد هذا أن أن نسمى هذا اللون من الاجتهاد فلسفة فارسية ، أو نزعم أنه قدم الرأى على النص الثابت عنده بعد أن اتفق مع سائر الأئمة على القولة المأثورة : (إذا صح الحديث فهو مذهبى ، واضربوا بقولى عرض الحائط) .

وترجع أهم العوامل فى استعمال الرأى

بتوسع وكثرة عند أهل العراق إلى ما يأتي :

أولا : ع/كانهم لأسلوب ابن مسعود رضي الله عنه الذي اقتبسه من عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي عاش بينهم معلما ومفتيا فأثر فيهم وتأثروا به .

ثانيا : الاكتفاء الذاتي بأحاديث صحابة الكوفة الذين وفدوا إليها في خلافة علي وهم كثير حتى لتعتبر الكوفة أوفر الأمصار بعد المدينة باجتماع الصحابة فيها . مع مراعاة بعد الشقة عن المدينة وصعوبة المواصلات، وندرة التبادل الثقافي ، والاتصال العلمي بين العلماء .

ثالثا : ولعله أهم الأسباب . أن العراق كانت أرض الثورات والفتن التي جرتها بعنف وخطورة عوامل السياسة لأول مرة فهي منبع الشيعة ، ومقر الخوارج ، فيها قتل علي، والحسين من بعده . وتعددت النعرات المذهبية ، والعصبيات السياسية . مما أدى إلى تزييف الحديث ، والتهجم على قدسية نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فظهر الوضع فيه والكذب في روايته وإسناده . كل هذا . بالإضافة لي تنوع مظاهر الحضارة في العراق عنها في الحجاز ، وتعدد الثقافات الأجنبية التي اتصل بها المسلمون بحكم الجوار والاختلاط وما نتج عن هذا من كثرة المسائل الفقهية وجدتها . وظهور صور عملية لم يكن للمسلمين بها من قبل عهد - مما جعل فقهاء العراق يتشددون في قبول الأحاديث ، ولا يقبلون منه إلا الذائع المشهور ، وبالتالي يوسعون من دائرة الرأي إلى الحد الذي جعلهم ينظرون إلى الأحكام من خلال العقل والمنطق ولكن في دائرة الدين والأخلاق الإسلامية . قال سهل بن مزاحم : (كلام أبي حنيفة أخذ بالأوثق ، ونظر في معاملات الناس على ضوء ما استقاموا عليه وصلح عليه أمرهم . يسلك سبيل القياس ، فإذا لم يستقم له مضى على الاستحسان . فإن لم يمض له رجع إلى ما يتعامل المسلمون به ، وكان يتقبل الحديث المعروف . ثم يقيس عليه ما ساغ له القياس .

ثم حمل لواء الرأي في الفقه بعد أبي حنيفة تلاميذ نوابغ رجع إليهم الفضل الكبير في حفظ مذهبه وانتشاره وخلوده منهم أبو يوسف قاضي الرشيد والهادي والمهدي، ومحمد بن الحسن الشيباني الذي بلغت تصانيفه في العلوم الدينية تسعمائة وتسعين كتابا ، وعلى كتبه يعتمد الحنفية في المذهب ، ومنهم الحسن بن زياد ، وزفر بن الهزيل .. فهؤلاء الأربعة أشهر من نشر مذهب أهل الرأي ، وهم الذين دونوه ، وانتصروا له ، وأكثروا من التفريع فيه ، والإجابة عنه .

ولم يكونوا يقفون عند حد فتاوى أبي حنيفة . . بل كان لهم من حرية الرأي وأصالة الفكر ، ما يحملهم على مخالفة إمامهم طالما ظهر لهم ما يوجب الخلاف ، وقد ثبت أن أبا يوسف ومحمدا رجعا عن آراء كثيرة رآها الإمام نتيجة لاتساع ثقافتهما ، واطلاعهما على ما عند الحجازيين .

فهما فى حقيقة أمرهما مجتهدان ولكنهما ينتسبان إلى الإمام .

وقد حفلت قائمة أهل الرأى من الفقهاء بالكثير من رجال الطبقات ، منهم هلال ابن يحيى البصرى الذى اشتهر باسم : (هلال الرأى) ، ومحمد بن سماعة الذى قال فيه يحيى ابن معين حين مات : « مات ريحانة العلم من أهل الرأى » ، وعد منهم الخصاف ، والطحاوى المصرى ، وعبد الله الكرخى ، وأحمد القدورى صاحب مختصر القدورى ، والسرخسى صاحب المبسوط ، والنسفى صاحب الكنز ، وتاج الشريعة صاحب الوقاية ، والمرغينانى صاحب الهداية ، والصدر السعيد صاحب المحيط البرهانى ، وابن الساعاتى صاحب مجمع البحرين وملتقى النهرين ، وابن نجيم المصرى صاحب الأشباه والنظائر .

فهؤلاء الفقهاء هم الذين حملوا لواء مذهب أهل الرأى ، ونشروه فى الخافقين ، بما صنفوا فيه ، وشرحوا له . . وكانوا بحق مفخرة علمية فقهية يعتز بها التراث الإسلامى كلما ذكر الفقه وأهله . ولكنهم على أى حال ، لم يبلغوا فى ذلك مبلغ الإمام أبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد ابن الحسن . .

ولقد صارت كلمة « الصاحبان » أشهر اصطلاح فقهى إسلامى لا فى مذهب الحنفية وحده ، بل فى سائر المذاهب سواء منها ما بقى . . وما درس . . ولا يقصد بها إلا صاحبا أبى حنيفة وهما أبو يوسف ومحمد . . وذلك لما بذلاه من جهود مضنية للحفاظ على المذاهب عن طريق التدوين والتصنيف ، والتفريع والتخريج ، والنشر والترويج ، حتى انتقل مذهب الرأى من حيث نشأ بالكوفة إلى سائر أنحاء العراق ومصر وبلاد الروم من بلاد همذان واستراباذ وغيرها وفى فارس وبخارى وفرغانة وأصبهان وشيراز وطوس والهند والسند ولا يزال إلى يومنا هذا يحتل فى الهند مكان الصدارة ، وبعد هولاكو انتشر فى دمشق وحلب . . وكان الفضل الأكبر فى ذلك الزحف الفقهى الشامل لمؤلفات الصاحبين (أبى يوسف ومحمد) التى فتحت لمذهب أهل الرأى الأبصار والأمصار ، وغزت كل شبر فى الأراضى التى امتد إليها سلطان الإسلام ، ولقد كان لأبى يوسف يعقوب المتوفى سنة ١٨٢ هـ مصنفات عدة منها كتاب الأمالى وهو نيف على ٣٦ كتابا ، وأشهر كتبه كتاب الخراج وهو فى السياسة المالية للدولة الإسلامية ، وكتاب الجوامع والآثار واختلاف ابن أبى ليلى وأبى حنيفة والرد على سير الأوزاعى وكتاب أدب القاضى والمناسك والصلاة والزكاة والفرائض والحدود والصيد ، وتعتبر كتب الإمام محمد بن الحسن الشيبانى أشهر وأكبر كتب الرأى فى مذهب الحنفية وعليها الاعتماد فى الفتوى وهى أصح

وأقوى ما فى المذهب وأشهرها كتب ظاهر الرواية وهى المبسوط ويسمى الأصل، والجامع الصغير، والجامع الكبير، والسير الصغير والسير الكبير، والزيادات، وزيادة الزيادات ومسائل النوادر والآثار، وكتاب الكسب، وموطأ الإمام مالك من روايته.

وبعد: فقد كان ظهور مدرسة الكوفة على مسرح الفقه الإسلامى عاملا مشجعاً على الحرية الفكرية فى قطاع التشريع .. وآية عملية على مرونة مبادىء الإسلام، وحيوية قوانينه، وملاءمتها لظروف البيئة والزمان مهما تنوعت وتجددت. وقد زاوجت جهود تلك المدرسة بين أصول الإسلام وقواعد الفلسفة والمنطق. وأبرزتهما فى صورة متكاملة متجانسة. فيها بريق العقل، وومض الفكر، وانطلاقة الحرية. الأمر الذى دعا الشعوب الحديثة العهد بالإسلام إلى الالتفاف حول مذهب أهل الرأى، والتمرس به، والأخذ عنه، وكان للفقه التقديرى الذى تميز به هذا المذهب والتفريعات الكثيرة فيه أثر كبير فى تلبية الأحكام الشرعية لصور الحياة المتجددة. فوجد الناس فيه لكل سؤال جوابا، ولكل حادثة حكما، ولكل جديد بيانا وافيا، وتأويلا شافيا.

ولهذا لا نعجب إذا رأينا الفقه الإسلامى فى تلك الحقبة الزاخرة بالفتح والنصر. قد بسط أجنحته على مشارق الدولة الإسلامية ومغاربها، وخرج من دائرة النظرية المجردة، إلى دنيا الواقعية العملية بما فيه من وسائل اجتهاد عدة، وبما ينطوى عليه من حيل شرعية للتوفيق بين النظريات والعمليات عند تناقضها. حتى لا تمس مبادىء الإسلام الأصلية بأدنى إهمال، وحتى لا يصاب الفقه بالانعزالية أو السلبية.

فالحيل الشرعية التى هى من خصائص مذهب أهل الرأى إنما تسمى للتوفيق بين المثالية والواقعية وهى أكثر ما تكون فى نطاق الأعمال وأقل ما تكون فى العبادات كما فى حيل الشيبانى والخصاف والقزوينى ومحمد بن الحسن، وهى محاولة للخروج من مأزق الأحكام مع الحفاظ على النصوص.

وقد كثر ذلك عند الحنفية وقل عند غيرهم وقد كانت فى مطلع أمرها تستهدف التيسير ورفع الحرج .. ثم استغلت فيما بعد استغلالا يتنافى مع أهداف الدين وأخلاقه. ومهما يكن من أمر ... فإن مذهب أهل الرأى بمرونته ولباقة أنصاره استطاع أن يتحكم فى المسائل الخاصة والعامة للمسلمين، ويحكم فيها عن رغبة وطواعية نظراً لانسجامه مع العقل، مع عدم الإخلال بما يمليه النقل؟

محمد محمد الشرقاوى

من آثار العراق الأدبي على كتاب
الحركة الرومانتيكية في إنجلترا
للدكتور محمد سمير عبد الحميد

— ٣ —

● — أثر هذا الكتاب الفذ في المؤلفات الرومانتيكية :

لا يتسع المقام هنا لغير الإشارة المختصرة إلى تلك المؤلفات التي نجد فيها أثراً من قصة الخليفة الواثق بالله التي اشتهرت إبان المرحلة الأولى من تاريخ الحركة الرومانتيكية وقد زاد اهتمام النقاد بها بعد ذلك إلى حد أن بعضهم مثل مور P. E. Moore ودكتور جارنت Dr. Garnett يعتبرها أحد مصادر الحركة الرومانتيكية وقد صرح الدكتور Oliver Elton في موسوعته الخاصة بتاريخ الأدب الإنجليزي بأن [1] .

"Beckford's honours require asserting"

وبالإضافة إلى هؤلاء فهناك الكثيرون غيرهم يشهدون بأن روح الشرق تتجلى واضحة في قصة الخليفة الواثق ومن أهم هؤلاء Lord Byron الذي كان من أشد المعجبين بهذه القصة حتى وصفها بقوله :

"The most Eastern and sublime tall"

ونحن نتفق تماما مع اللورد بيرون حين يقول في مقدمته لإحدى قصصه الشعرية المسماه The Giaour عام ١٨١٣ :

"For correctness of costume, beauty of description and power of imagination, it far surpasses all European imitations, and bears such marks of originality, that those who have visited the east will find some difficulty in believing it to be no more than translation."

وفي نفس تلك المقدمة يعترف Lord Byron بصراحة بأنه يدين لتلك القصة « العربية » بشيء كثير في قصته الشعرية الأخرى Manfred (1817) سواء فيما يختص ببعض المناظر أو بعض الشخصيات الهامة مثل شخصية الشيطان Abriman وهي صورة مكررة لصورة إبليس في قصة بكفورد .

ومن بين الأدباء الرومانتيكيين الآخرين الذين تأثروا بشكل ما في مؤلفاتهم بقصة الخليفة الواثق هم R. Southey وآثار Vathek تبدو في قصة ثعلبة Thalaba (1810) التي سنشير إليها فيما بعد و Sir Walter Scott,

1 — O. Elton, A Survey of English Literature (1920), Part III, vol. 1., p. 209.

في قصته (الشرقية) المشهورة The Talisman (1825) التي يظهر فيها صلاح الدين الأيوبي مع ريتشارد قلب الأسد وأعوانه الصليبيين Coleridge, في قصيدتيه الشهيرتين : Kubla Khan (1797), The Ancient Mariner (1798).

يصف بعض المناظر بشكل يرجح تأثره بأسلوب قصة الخليفة الواثق، ويشهد على ذلك John Livingston Lowes في كتابه عن S. T. Coleridge المسمى The Road to Xanadu الذي ظهر عام ١٩٣٠ .

أما عن أثر Vathek في قصص Keats الشعرية من حيث المادة والأسلوب فيقول Dr. Varma في كتابه الحديث The Gothic Flame (1957)

"Vathek was known to Keats and the book seems to have contributed a few detailed devices to two of his famous poems : Hyperion (1818) and Lamia (1819)."

وفي عالم القصص النثرية نجد أثر الواثق Vathek واضحا في قصة B.Disraeli المسماة The Wonderous Tale of Alroy 1833) وقد اعترف المؤلف نفسه بذلك في مقدمة القصة . ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن هذه القصة تصور أول محاولة لكاتب إنجليزي يهودي يدعو فيها لإعادة مجد إسرائيل وجمع شملهم في وطن واحد .

• • •

٦ — قصة « خروبة ملكة مصر » وعلاقتها بالحركة الرومانتيكية :

ولعل من الخير أن نشير إشارة عابرة إلى قصة « خروبة ملكة مصر » ، وهي قصة عربية الأصل كتبها أحد المؤرخين المصريين عام ١٥٨٤ ونقلها إلى الفرنسية عام ١٦٦٦ مستشرق فرنسي يدعى Pierre Vattier كان يعمل في مكتبة قصر لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ثم ترجمت بعد ذلك إلى الإنجليزية عام ١٧٨٥ وظهرت ضمن مجموعة قصص رومانسية جمعتها أديبة إنجليزية تدعى كلاراريف Clara Reeve ونشرت تلك المجموعة بعنوان The Progress of Romance وملخص هذه القصة العاطفية البسيطة هو ما يلي :

« وليت خروبة عرش مصر بعد وفاة والدها الذي كان حاكما قويا خضع لنفوذه كثير من ملوك الدول المجاورة وكان من بين هؤلاء « جابر » الملك الشرس العملاق الذي أغراه وجود فتاة جميلة وصغيرة السن على عرش مصر على غزو بلادها وإكراهها على الزواج منه ، وبعد أن نجح في غزو مصر تمكنت « داليسا » وصيفة الملكة - وكانت ساحرة ماهرة - أن تقنع الملك جابر بشتى الطرق حتى وعد أن يشيد مدينة حديثة بالأحجار الثقيلة التي كان قد جلبها ليسد بها مجرى النيل انتقاما لثأر قديم، وذلك كي تقبل

خروبة الزواج منه ، ووافق الملك على ذلك وابتـــدأ مشروعه العظيم ولـكن مضت الأسابيع والشهور ولم تظهر أى نتيجة لمجهوده الجبار ، والسر فى ذلك أن داليسا استخدمت الألوف من الجن ، فكانوا يهدمون بالليل ما نجح العمال فى تشييده بالنهار ـ كشفت ذلك السر حورية من حوريات النيل وكانت تظهر على الشاطىء كل ليلة لتصارع أحد الرعاة فتهزمه ، وتأخذ خروفا من قطيعه، ثم يختفى الملك جابر نفسه فى زى الرعاة وعند ما تظهر حورية البحر هـــذه يهزمها ويأسرها ، فتكشف له السر ويطلق سراحها ، وتعطه التعويذة اللازمة ليقضى بها على سحر داليسا وفى ليلة العرس بعد أن يئست خروبة تنصاع لنصح وصيفتها مرة أخرى وتنفذ ما دبرته من مؤامرة كبرى ، ففى أثناء حفلة الرقص والشراب تغطيه برداء مسمم فيموت لساعته تحت أقدام المليكة الفاتنة الغادرة ، ولكنها لم تفلت من الجزاء السماوى فلم تلبث أن ماتت بلدغة ثعبان ، ودفنت فى المدينة الجميلة التى بناها لها جابر .

ما أشبه هـــذه القصة بالقصص الرمزية فى الشعر اليونانى والرومانى ولقد قال المترجم الفرنسى لهـذه القصة أنه أثناء ترجمته لها كانت وقائعها وأسلوبها تذكره بالجزء الرابع فى قصة هوميروس المعروفة بالأوديســة Oddyssey وكذلك ببعض أجزاء من قصة أوفيـــد Metamorphoses .

ولهذا كله فليس غريبا أن تصبح هـذه القصة العربية الساذجة المصدر المباشر لملحمة شعرية هامـــة فى الأدب الإنجليزى تدعى Gebir ظهرت لأول مرة عام ١٧٩٨ ومؤلفها هو Walter Savage Landor أحـــد فطاحل شعراء القرن التاسع عشر ، وقد أكد هـــذه الحقيقة فى صراحة الباحث M. Elwin فى صفحة ٤٧ من كتابه : Savage Landor الذى ظهر سنة ١٩٤١ ، والحق أن شهرة هذا الشاعر الكبير قامت على هذه الملحمة التى يدين فيها إلى حد كبير جداً لقصة (خروبة) العربيـة ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بكل عناصرها الرومانتيكية وصفاتها التى جذبت انتباهه فإنه ـ كما يتوقع ـ حور بعض حوادثها وغير أسلوبها بما يلائم هدفه الخاص الذى حتم عليه أن يجعل (جابر) هو بطـل القصة بدلا من خروبة ، وبعد ظهور هذه القصة بعامين (أى عام ١٨٠٠) نشر مؤلفها ديوانا صغيرا من الشعر تحت عنوان :

Peoms From the Arabic and Persian

والطريف جداً فى هذا الموضوع أن لاندور لا يعرف اللغة الفارسية ولا العربية إطلاقا وعندما سئل اعترف بذلك وقال: كتبتها فقط

مقلداً « بعد ما قرأت ما ترجمه سير وليام جونز Sir William Jones من قصائد عربية وفارسية ، القصائد العربية هي المعلقات السبع التي ترجمها ذلك المستشرق العظيم الذي أسس الجمعية الملكية للدراسات الآسيوية The Royal Asiatic society ، في عام ١٧٨٤ ، وكان له فضل كبير في نشر الثقافة والأدب الشرقي بوجه عام في جميع أنحاء أوروبا .

٧ — قصة ثعلبة والشاعر الرومانتيكي روبرت صاذي :

وبعد لاندور Landor كان أول من استجاب لتيار الاهتمام المتزايد بالشرق وأهله خلال السنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر هو أمير الشعراء Robert Southey . ولقد بدأ مشروعه الأدبي الضخم الذي كان ينوي أن يتناول فيه العقائد الدينية الميثولوجية التي عرفها الجنس البشري في أنحاء العالم المختلفة في أربع قصص شعرية طويلة كان أولاها القصة العربية « ثعلبة » :

Thalaba the Destroyer

التي ظهرت عام ١٨٠١ وقارنها بعض النقاد بملحمة Milton الخالدة « الفردوس المفقود » Paradise Lost من حيث الهدف والمغزى الديني وثالثها القصة الهندية :

The Curse of Kehama

التي ظهرت عام ١٨١٠ ، وفي هاتين القصتين الشرقيتين نجد أن Southey حاول أن يخرج الشعر القصصي الرومانتيكي عن مجاله التقليدي أي جو العصور الوسطى . وهما في الوقت ذاته مثل على ما يتصوره خيال الشاعر الرومانتيكي عندما يفكر في حياة الشرق الزاخرة بالغرائب والأساطير العجيبة ويكون له من هذا التصوير هدف فني معين .

ونقلا عن Jhon Simmons في كتابه Southey الذي ظهر عام ١٩٤٥ يقول الشاعر : لقد بدأت بالديانة الإسلامية لأنها الديانة التي أحصن معرفتها شخصيا ولأنه يسهل على كل من قرأ كتاب « ألف ليلة وليلة » وألم عن طريقه بأصول هذه الديانة [1] أن يفهم القصد ويندمج في روح قصة « ثعلبة » .

وتبدأ القصة بوصف الظروف العائلية التعيسة التي عاش فيها الطفل العربي الصغير ثعلبة وكيف أنه بعد أن قتل زعماء السحرة

---

(١) ليست قصص ألف ليلة وليلة مرجعا دينيا حتى يصور الإسلام على حقيقته ، ولكن الشاعر أراد أن يسبغ على نفسه رداء المعرفة فأخطأ اختيار المرجع للقراء وما في كتاب « ألف ليلة وليلة » من خرافات لا يتفق مع روح الإسلام في شيء ...
مجلة الأزهر

أباه وإخوته السبعة اختارته العناية الإلهية ليكون المنفذ لإرادة الله التي تقضي بالفتك بجيل السحرة الذين عاثوا في الأرض فسادا واتخذوا قصر الملك دانيال في جوف البحر مقرا وحصنا لهم - ويحاول عبد الدار الساحر الماكر أن يقتل الفتى المختار، ولكنه يقع جثة هامدة عندما تهب السموم فجأة وبعنف أثناء محاولته - وبواسطة الخاتم السحري الذي يأخذه ثعلبة من أصبع عبد الدار يعلم ثعلبة أن أباه «حديرة» قد قتله عقبة أحد قادة السحرة، ويقسم أن يأخذ بثأر أبيه ويثأر لجميع من قتلهم السحرة من قبل - فيشد رحاله ليحقق رسالته ويعلم أن التعويذة الكبرى التي سيقضي بها على السحرة وأعوان الشيطان هي قوة الإيمان فيتوكل على الله ويشق طريقه بنجاح إلى قصر النبي دانيال في جوف البحر وبعد عراك عنيف تظله العناية الإلهية وتحميه قوة الخاتم السحرية، يدك ثعلبة جدران ذلك الحصن المنيع ويفتك بالسحرة جميعا مجتمعين عندما يخرج سيفه ويطعن قلب تمثال إبليس طعنة نجلاء - ويستشهد بعد أن أدى رسالته أحسن أداء وتصعد روحه الطاهرة إلى باريها وهو مطمئن أنه سينعم في جنة الخلد بجوار زوجته الحبيبة (عزيزة) التي اختطفها الموت منه ليلة العرس .

وهذه مقتطفات قصيرة من هذه القصة الشاعرية البديعة التي اجتذبت الآلاف من قلوب قارئيها واشتهرت لفترة طويلة في أوائل القرن التاسع عشر .

بعد أن قتل السحرة الأشرار ثمانية من أفراد عائلة (حديرة) لم يبق سوى الطفل الصغير ثعلبة وكان في بقائه حيا خطر دائم على كيان سلالة السحرة في جميع أنحاء العالم - ودم هذا الطفل وحده هو الكفيل بإطفاء شعلة النار الزرقاء التي هي بمثابة رمز الخطر في قصر النبي دانيال ويحاول هؤلاء السحرة بشتى الطرق إغراءه بالانحدار في طريق الرذيلة فيقودونه إلى جنة ساحر أفاق اسمه (علاء الدين) حتى يصل إلى فردوس الرذيلة المليء بكل أنواع الملذات الحسية والجنسية لإشباع شهوات الرجال الذين ضلوا سواء السبيل، واتبعوا خطوات الشيطان - وعندما يدخل ثعلبة فيها لأول مرة يرى عجبا من نساء جميلات فاتنات يحاولن جاهدات إيقاعه في شباكهن .

ومن أهم ما جاء في هذا الجزء من القصة وصف المنظر لاجتماع أتباع (علاء الدين) وكيف انتهز ثعلبة فرصة اقترابه من هذا الساحر الأفاق وقضى عليه بمساعدة زوجته الشابة الصغيرة (عنيزة) - وفي لمح البصر انهارت أركان فردوس الرذيلة واختفى عن فيه إلى الأبد .

Thus fled the arrow from Oneiza's hand;

It pierced the Monster Bird,
It broke the Talisman . . .
Then darkness covered all . . .
Earth shook, heaven thundered, and amid the yells, of evil spirits, perished
The Paradise of sin.

يذهب ثعلبة بعد ذلك إلى غار هاروت وماروت ليعلم سر التعويذة التي يستطيع بها القضاء على السحرة وبعد كفاح مرير ضد الأرواح الشريرة التي تحرس هذا الكهف، يسمع ثعلبة هاروت معلنا .

Son of Hodirah. Thou hast proved it here;
The Talisman is Faith

ومن المناظر المؤثرة والتي تبعث على الشعور بالرهبة والخوف منظر جموع السحرة وهي في قصر النبي دانيال أثناء الليل لتقوم بمحاولة أخيرة يائسة للقضاء على وصول العناية الإلهية ثعلبة .

Suddenly the Magic Fire went out and Darkness spread all over the place
At that portentious sight
The Children of Evil trembled,
And terror smote their suols..."

وفي المشهد الأخير حينما تمكن ثعلبة من الدخول إلى مقر السحرة بعد مغامرات خطيرة وجهود جبار، ويقف أمام تمثال إبليس معبودهم يهز الشاعر عواطفنا ببلاغته وقوة تصويره للموقف الذي ينتهي باستشهاد البطل بعد أن يضرب ضربته الحاسمة بأمر الله ويهلك السحرة جميعا ويخلص الإنسانية من شرورهم .

Thalaba knew that his death hour was come;
And he lept, and springing up,
Into the Idol's heart
Hilt deep he plunged the sword.
The Ocean vault fell in, and all were crushed,
In the same moment, at the gate
Of paradise, Oneiza's Houri form
Welcomed her husband to eternal bliss.

ولقد كان Shelley من بين الشعراء البارزين في الحركة الرومانتيكية الذين أعجبوا كثيراً بقصيدة Thalaba وترك ذلك الإعجاب أثره في بعض مؤلفاته مثل قصيدته بعنوان Alastor عام ١٨١٦ ، والأخرى بعنوان The Witch of Atlas عام ١٨٢٤ .

وقد استعرض أحد النقاد الحديثين وهو A. M. D. Hughes في مقال نشر في المجلد السابع من مجلة The Modern Language Review لعام ١٩١٢ تأثير Thalabe في قصيدة Shelley الأخيرة وهي :

The Witch of Atlas.

ولقد كان Shelley نفسه متحمسا ومهتما بقراءة الكثير مما ينشره ويترجمه المستشرقون الإنجليز عن الشرق الساحر الذى جذب اهتمام Shelley إلى حد كبير ، ففى عام ١٨٢١ كتب قصيدة حماسية محاولا بعدها تقليد أسلوب قصة « عنترة بن شداد » وسماها :

From the Arabic An Imitation

والآن نعود للسؤال الهام : من أين اشتق هــــذا الشاعر الإنجليزى روبرت صاذى معلوماته التى بنى عليها تلك القصة الشرقية التى لقيت فى وقت ما نجاحا كبيراً ؟ ـ الواقع أنه اعتمد كغيره من الشعراء الذين كتبوا عن الشرق بشكل أو بآخر على كتب الرحالة الإنجليز الذين نشطوا كثيراً منذ نهاية القرن الثامن عشر نظراً لازدياد العلاقات التجارية والسياسية بين انجلترا وبلدان الشرق الأوسط عامة . كما أنه استفاد كثيراً من مؤلفات وترجمات المستشرقين الإنجليز الذين كان لهم أيضا فضل كبير فى تغذية الحركة الرومانتيكية بالمادة المطلوبة عندما اتجه التيار نحو الشرق أو تيار الاستشراق فى الأدب الإنجليزى وأهم الكتب التى اعتمد عليها هى : القرآن الكريم مترجما ، وموسوعة تحتوى على كثير من عقائد المسلمين وطقوسهم الدينية تدعى :

Picart's Religious Ceremonies

والشاهنامة للفردوسى وكتاب « ألف ليلة وليلة » . كما أن زيارة صاذى لأسبانيا ومابها من آثار التراث الإسلامى ساعده على فهم الروح والعادات الشرقية. ولقدشهد كثير من الأدباء والنقاد بقدرته الفائقة فى حسن اختيار المادة ودقة استعمالها وحسن تصرفه فى كثير من المواقف الحرجة التى يصعب على متعصب فى الدين أن يخرج منها بسلام .

أما عن المصدر المباشر الذى أوحى له بموضوع تلك القصة الشعرية فهو باعتراف الشاعر نفسه قصـــة « المغربى الساحر » "Maugrabi the Magician" وهى إحدى القصص المكملة لمجموعة قصص « ألف ليلة » ظهرت عام ١٧٩٢ وكانت منقولة عن نسخة فرنسية . ففى مقدمة الطبعة الرابعة لقصة ثعلبة يقول المؤلف :

"In the Continuation of the Arabian Tales, the Domdaniel is mentioned; a sominary of evil magicians, under the roots of the sea. From this seed, the present romance has grown.

يتبع محمد سمير عبد الحميد

موطنُ الجمال "فلسطين"

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

(حوار بين شيخ لاجىء وابنه الصبي ...
أمام خيمة من خيام اللاجئين ... العائدين)

يا موطن الجمال والسحر والخيال
يا جنة تزينت بالنور والظلال
أعيش فى ربوعها بالروح . . . بالآمال
كطائر مغرد على ذرا الدوالى
كقطرة فى نهرها تنساب فى خيال
أو زهرة من زهرها ترف كاللآلى
أو لمحة من نورها على ثراها الغالى
أو لمسة من ظلها رحيبة المجال
أو همسة من قلبها تمضى إلى الأعالى
خاشعة لربها تدعوه فى ابتهال
أو أمل منور فى بسمة الأطفال
أو نبضة قوية فى عزمة الأبطال
أو قصة جديدة فى خاطر الليالى

• • •

أواه . . . هل أعود ويسمح الوجود
وبالمنى يجود ربيعك الجديد
يا أرض أجدادى يا سر أمجادى ؟

• • •

قل يا بنى : . . نبقى هل ثم من جديد ؟
هل حان وقت عودتى لموطنى المجيد ؟

للدار قد فقدتها من زمن مديد
أخرجت منها عنوة فعشت كالطريد
لغريق . . . وقريتي سحرية النشيد
النور فيها قبلة من شفة الخلود
والظل فيها همسة من نغم بعيد
والنهر فيها بسمة كبسمة الوليد
أو أرج تربة إشراقة الورود
والزهر فرحة الربا بالطائر السعيد
وكل شيء . . رائع كفجر يوم العيد

* * *

أواه . . هل أعود ويسمح الوجود
وبالمنى يجود ربيعك الجديد
يا أرض أجدادي يا مصر أمجادي ؟

* * *

أجل . . . أجل يا أبتي غداً نعود للوطن
غداً سنرفع الجباه فوق لجة المحن
غداً نعود للحياة من قرارة الزمن
بعزمنا . . . وإن نرد بغير عزمنا . . . فلن

* * *

غدا نعيش في ديارنا يظلنا السلام
حصادنا إذ نزرع الأفراح . . حب وابتسام
وأرضنا الرءوم تمخض الجنى . . على الدوام
وفي مروج التين والزيتون يمرح الحمام

* * *

إنا انتفضنا يا أبي مثل الأسود في الأجم
قد راعها عاد بدا وهاجها عات هجم

فتفجرت منقضة | كالموج ثار واحتدم
وجيشنا قد اعتمد | للنضال .. واعتزم
أن يطرد اللئام | بالسلاح .. من أرض الكرم
لكى تعود أرضنا | لأهلها منذ القدم
انظر أبى فإنه | دك السدود واقتحم
أنصت أبى لصوته | مرددا هذا القسم
قسما بمجدك يابنية الأمجاد | فى أرض العروبه
سنعيد كل اللاجئين | إلى ديارهم الحبيبه
فيعود نور الحق يسطع | فوق أرضهم الخصيبه
ومن القلوب الخضر ينشر | زنبق الإيمان طيبه
ويصوغ باسم الله | أزهارا وأغصانا رطيبه
يا أرضنا مدى يديك | فأنت من يدنا قريبه

* * *

وافرحتاه بالحياة | فى موطنى .. وافرحتاه
اليوم أبصرت السنا | وأبصرتنى مقلتاه
وكان من ظلم الطغاة | لايرانى .. أو أراه
اليوم ريق الشباب | صب فى دمى قواه
وأطلق الربيع فى | آفاقنا أبهى رؤاه
فكل شىء .. أمل | يحملنى إلى مداه
وكل صوت .. نغم | يأسرنى .. حتى صداه
اليوم أمضى فى الحقول | .. عند شاطىء القناة
مقبلا كل اخضرار .. | لا ثما كل حصاه
لن تعرف الدموع يا | قلبى .. ولن تقول : آه
وكل ما تقوله | حمدا وشكرا للإله

ابراهيم محمد نجا

مايقال عن الإسلام

محمّد النبيّ والحاكم ﷺ

للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

Mohammad, Prophet and Statesman

الكتب المؤلفة بأقلام المستشرقين عن محمد صلى الله عليه وسلم منذ أواخر هذا القرن حتى الآن كثيرة ومتعددة ، ولا تزال تصدر فى ثوب جديد تستفيد من الدراسات السابقة من جهة ، وتعتمد على مناهج جديدة للبحث من جهة أخرى .

ومنذ سنوات قليلة طلع علينا الأستاذ (منتوجومرى وات) بكتاب جديد عن (محمد النبي والحاكم) صدر فى طبعته الأولى سنة ١٩٦١ ، وفى طبعته الشعبية التى اطلعت عليها سنة ١٩٦٤ . وليس (منتوجومرى وات) مجهولا لدى المشتغلين بالإسلاميات ، له - منذ ربع قرن - كتاب عن القضاء والقدر فى الإسلام ، وشرع منذ سنة ١٩٥٢ يكتب عن محمد والإسلام ، فأصدر سنة ١٩٥٣ (محمد فى مكة) وسنة ١٩٥٦ (محمد فى المدينة) ، و ١٩٦١ (الإسلام وتوحيد المجتمع) . وهى مؤلفات ضخمة كتبت للمتخصصين . أما هذا الكتاب (محمد النبي والحاكم) فقد قصد إلى جمهور المثقفين ، ويعد اختصارا للكتابين (محمد فى مكة) ، و (محمد فى المدينة) . وهو كتاب صغير نسبياً ، يقع فى ٢٥٠ صفحة من الحجم الصغير . رتبه صاحبه على أحد عشر فصلا ، وصحب فيه الرسول عليه الصلاة والسلام منذ مولده حتى وفاته . فجاء الفصل الأول بعنوان (اليتيم الموهوب) والثانى (من الدعوة إلى الرسالة) ، والثالث (المعارضة والرفض) ، والرابع (الهجرة إلى المدينة) ، وهكذا إلى آخر الكتاب . وهذا النهج فى كتابة السيرة ليس جديدا سواء عند كتاب العرب قديما مثل سيرة ابن هشام ، أو عند المحدثين مثل حياة محمد لهيكل ، أو غيره من المستشرقين . وهو منهج معروف سليم .

وإذا كانت كتب سيرة الرسول من الوفرة كما ذكرنا ، فما هو الجديد الذى استحدثه المؤلف ؟ الجديد عنده أنه كتب

السيرة فى إطار من الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، وهذا أمر طبيعى بعد تقدم علم الاقتصاد والاجتماع . ولكن يقف عائقا فى سبيل تطبيق نتائج هذين العلمين ومناهجهما على السيرة النبوية ، إننا نجهل حقيقة الوقائع الاقتصادية والاجتماعية التى كانت موجودة فى ذلك الزمان ، أى فى الجاهلية قبل الإسلام ، اللهم إلا على سبيل الفرض والتخمين . فليست هناك وثائق تاريخية مدونة عن العصر الجاهلى ، ولا توجد إحصائيات وبيانات وهى عمدة المباحث الاقتصادية والاجتماعية . والمصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه والوثوق به ، والبعيد عن التزييف ، والذى يعد مرآة صادقة لحياة العرب فى الجاهلية وعند ظهور الإسلام هو (القرآن) ولذلك كتب كثير من المستشرقين حياة النبى معتمدين على ما جاء فى القرآن فقط ، أما الاعتماد على ما جاء فى السير التى إنما دونت بعد وفاة النبى بقرن ونصف من الزمان ، فليس مما يوثق به وبخاصة إذا تعارض مع ما جاء فى الكتاب العزيز .

من أجل ذلك وقع بحث مونتجومرى هذا على الرغم من طرافته فى انحراف جوهرى يهدم أساس الكتاب وهو نبوة محمد . والحق لقد تساءل المؤلف ، إن فى أول الكتاب وأن فى آخره ، هل كان محمد نبيا ؟ وكان جوابه فى ذلك مضطربا ملتويا ، لأنه يعتمد فى رأيه على مناهج العلم . ولكن الدين شىء ، والعلم شىء آخر ، وهما ميدانان مختلفان ، ومتى شرعنا فى تطبيق المنهج العلمى على الدين ، لا جرم ننتهى إما إلى شك وحيرة ، وإما إلى إلحاد صريح . وقد وقع المؤلف فى الشك والحيرة ، ولم يستطع أن يجزم بشىء ، لجاء تعبيره اللغوى مفصحا عن هذه الحيرة ، فيقول : « إن صح » أو « أكبر الظن » ، أو « فى الأغلب » ، أو « على الأرجح » ، وهكذا مما يباعد بينه وبين اليقين .

إن التفسير الذى يذهب إليه المسلمون ، وبدونه لا يعد المسلم كذلك ، هو أن القرآن كلام الله نزل على محمد وحيا بالطرق المذكورة المقررة فى القرآن والحديث ، ولو كان القرآن من كلام محمد ، ما كان الإسلام دينا سماويا ، ولا كان محمد رسولا نبيا ، بل مجرد رجل عظيم ، أو مصلح اجتماعى كبير .

ليس إذن عند المسلمين شك فى نبوة الرسول وفى قداسة القرآن وأنه كتاب الله ، لا ريب فيه . ولكن المستشرقين فى قلوبهم مرض ، يدسون للإسلام وينكرون صحته . وفى الكتاب الذى نعرضه أمور ثلاثة تطعن فى النبوة ، وهى :

١ — فى الفصل الخاص بنزول الوحى على محمد وقيامه بالدعوة إلى الرسالة ، يحاول

المؤلف القول بأن محمداً تأثر بالتراث المسيحي واليهودي ، وهو تراث كان معروفا في بلاد العرب آنذاك ، اطلع عليه من ورقة بن نوفل ، أو من أسفاره إلى الشام . وفي سبيل ذلك يزعم المستشرقون أن محمداً كان يعرف القراءة والكتابة ، وأن تأكيد المسلمين أنه « أمي » لا يعرف القراءة ولا الكتابة إنما سببه تدعيم القول بأن القرآن كان معجزة ، وإلى هذا يذهب المؤلف ص ٤١ ، حيث يقول : « على العكس ، من المعروف أن كثيراً من أهل مكة كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، ولذلك من المفروض أن تاجراً كفئاً كالحال في محمد كان يعرف تلك الصناعة » . ولكن المؤلف تردد بعد ذلك فلم يذهب إلى الزعم بأن محمداً اطلع على التراث المسيحي في مصادره المكتوبة ، بل قطع بأن معرفته بهذه المعلومات وصلت إليه سماعا وشفاها وبعد مناقشة طويلة ينتهي المؤلف ص ٤١ إلى ما يأتي : « الخلاصة أن محمداً تلقى معرفته بالآراء الواردة في الإنجيل من البيئة الفكرية المحيطة بمكة ، وليس من طريق القراءة أو الاتصال بأفراد أعيانهم . وهكذا يمكن القول بأن الإسلام ينتمي إلى التراث اليهودي المسيحي حيث إنه نشأ في وسط مشبع بأفكار الكتاب المقدس » .

وقبل أن نناقش هذا الرأي . نشير إلى تناقض المؤلف واضطرابه في الحكم على معرفة محمد الكتابة والقراءة ، فهو يذكر في صفحة ١٦ عند الكلام على نزول القرآن ، « أن الأغلب أن معظم الآيات التي أنزلت قد دونت في أثناء حياته ولكن المواد الصالحة للكتابة كانت نادرة في مكة والمدينة وأن إحدى الروايات القديمة تذهب إلى أنه بعد وفاة محمد وجد أحد كتابه سورا من القرآن مدونة على الحجارة والسعف والكتف ورقائق الجلد » . فانظر إلى شك المؤلف في الروايات المتواترة الثابتة ، إذ المقرر عندنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر كتاب الوحي أن يضعوا الآيات التي تنزل عليه في مكانها بعد آية كذا أو كذا ، ومن الثابت لدينا أن القرآن حفظ سماعا وكتب صحفا ، وفيما أوردناه عن المؤلف من ندرة مادة الكتابة . وأمر النبي كتابه بالتدوين ما يدل على أنه كان أميا ، لا على أنه كان يعرف القراءة ، وأبلغ من هذا في الدلالة ، أن المؤلف حين ترجم أول الآيات التي أنزلت على النبي وهي :

« اقرأ باسم ربك » قال recite ولم يقل read .

ونعود إلى القضية التي أثارها المؤلف وهي أن ما جاء في القرآن سمعه النبي من أفواه المسيحيين واليهود ، فنقول : إن التهمة ليست جديدة ، وقد رددها كثير من المستشرقين

من قبل ، ونهض من المسلمين من تولى الرد عليها ، وبخاصة الدكتور محمد حسنين هيكل فى كتابه (حياة محمد) ونضيف إلى ذلك أن النبى كان يجادل النصارى واليهود فى زمانه بالتى هى أحسن ، ويبين أن ما يذهبون إليه باطل يخالف الشريعـــة الصحيحة ، وذلك بالحجة الواضحة ، والأغلب أنه لم يكن يبدأ بمناقشة اليهود أو النصارى ، وإنما هم الذين كانوا يبعثون إليه بوفودهم يحاجونه ، فكان عليه السلام ينتظر نزول الوحى ثم يرد عليهم بما أنزل عليه ، وعندئذ يبهت أولئك الذين جاءوا يتحدونه ، ولا يحيرون جوابا ، وهم أولئك المفروض أنهم على دراية وثيقة بتراثهم العقائدى اليهودى أو النصرانى ، وهم هم المفروض فيهم أن محمدا استقى منهم معلوماته فكيف يزعم المستشرقون أن الإسلام صورة محرفة عن التوراة والإنجيل ، وفى الوقت نفسه يقدم الإسلام حقائق أكثر دقة وموافقة للعقل وعلما بأخبار الأمم الماضية والأنبياء والمرسلين السابقين ، وهى حقائق لا يمكن أن تكون متداولة بين الجمهور ، إلا إذا كانت متدارسة داخل الكنائس ، ولم يعرف أن النبى اتصل بهذه المعابد والكنائس وتلقى دروسا كهنوتية تيسر له المعرفـــة الوثيقة بذلك التراث .

٢ — إذا ثبت أن القرآن محرف ، وأنه من صياغة محمد ، وليس منزلا من عند الله ، انهار الإسلام ، لأن الإيمان به دينا يعتمد على الإيمان بصدق القرآن وأنه كلام الله . وقد حاول المستشرقون جهدهم أن يثبتوا ذلك ولم يستطيعوا ، وتولى الرد عليهم مؤلفون من المسلمين . مثال ذلك ما كتبه السير وليم موير عن مسألة « الغرانيق » وورودها فى سورة النجم ، ثم عدول النبى عن ذكرها أو نسخها . وقد فند هذا الافتراء الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن الماضى ، وهيكل فى « حياة محمد » .

ونحسب أن هذا كان كافيا لأن يحمل الأستاذ مونتجومرى وات يعدل عن الاعتماد على هذه الأكذوبة ، وهو الضليع فى الدراسات الإسلامية ، ومن الغريب أن يشغل عرض القصة أربع صفحات من كتابه الصغير ، (من صفحة ٦٠ إلى ٦٤) . ولعله فطن إلى اضطراب الروايات بشأن هذه القصة ، فقال ما نصه : « تختلف الروايات عن هذه الواقعة بعض الشيء فى التفصيلات ، بحيث يحمل البدء بالنقاط المؤكدة (هكذا)» ، ثم مضى بعد ذلك إلى تلك المشكوك فيها بدلا من اختيار رواية كاملة ونقد عناصرها . ولابد أن محمدا قد تلا آيات من القرآن تسمح بطلب الشفاعة من أصنام العرب . وهذه هى إحدى الروايات : « أفرأيتم اللات

والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهم لترتجى . وبعد فترة من الزمن نزل عليه الوحى بمحو هذه الآيات ووضع آيات أخرى بدلا منها ، وهى : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخــرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، ... » (سورة النجم من ١٩ إلى ٢٣) إلى قوله ولا يمكن أن يتطرق إلى الفكر أن أحدا قد اخترع مثل هذه الرواية وأقنع جمهرة المسلمين بقبولها (ص ٦٠ - ٦١) ويسمى المؤلف هذه الآيات ، (الآيات الشيطانية Satanic) أى التى ألقاها الشيطان فى روعه ، نسبة إلى الآية من سورة الحج التى تقول : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى . ألقى الشيطان فى أمنيته . فينسخ الله ما يلقى الشيطان ... إلى آخر الآية . وقد رد القدماء على هذا الحديث الموضوع ، فقال ابن إسحاق : إنه من وضع الزنادقة . وذهب محمد عبده إلى أن العرب لم يصفوا آلهتهم بأنها الغرانيق ، وأن الغرنوق فى لغة العرب اسم طائر مائى كما أن فى تعدد الروايات واختلافها ما يدل على اضطرابها ، هذا فضلا عن أن تسليم محمد بشفاعة أصنام العرب مما يتنافى أصلا مع دعوة التوحيد التى اضطلع بالدعوة إليها ، والتى لقى من أجلها تعذيبا رهيبا حتى قال قولته المشهورة : (والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته . .) .

إن ما نأخذه على المؤلف وهو يدعو إلى الموضوعية والبحث العلمى ، قوله : إنه سيذكر الرواية المؤكدة ، فما أساس هذا التأكيد ، ورائحة الوضع فى الرواية أو الروايات تفوح من كل جانب ، وقد كان الإنصاف يقتضيه أن يذكر جميع الروايات وتفنيدها ، ويرجح الجانب الصحيح الذى يرجح تزييفها ووضعها

(٣) تساءل المؤلف فى آخر الكتاب (من صفحة ٢٣٧ إلى ٢٤٠) هل كان محمد رسولا نبيا ؟ وفى هذه الصفحات القلائل ذهب مع بعض المؤلفين الأجانب إلى أن الوحى الدينى يصدر عن المتخيلة المخترعة ، وهذا التفسير ليس فى الواقع جديدا لأن بعض فلاسفة العرب الأقدمين ذهبوا إليه ابتداء من الفارابى إلى ابن سينا ، ولكن على أساس أن المتخيلة قوة نفسانية متوسطة بين قوة الحس وقوة العقل ، وهى المختصة بالاتصال بالعقل العاشر الفعال الفائض عن الله ، وبهذه السبيل يتيسر الاتصال بالله ، غير أن الجديد فى تفسير مونتوجومرى أنه يستخدم ما يذهب إليه علم النفس الحديث من انبثاق المشاعر والأفكار عن اللاشعور

بطريق المخيلة المخترعة ، كما يفعل الشعراء والفنانون وليس من الضرورى أن يكون كل ما يصدر عن المخيلة المخترعة معبرا عن الحقيقة ، فقد يكون بعضه صادقا وبعضه الآخر كاذبا .

ولكن المسلمين يعتقدون أن القرآن الذى أوحى لمحمد أنزل إليه من عند الله ، ولم يكن مستمدا من أغوار اللاشعور ، ومن المعروف أن جبريل عليه السلام كان أحيانا فى صورة رجل هو الذى ينزل بالوحى ، وهكذا أجمعت الأحاديث ، ويشهد به ما جاء من آيات تنص على أن الروح الأمين هو الذى كان ينزل بالوحى ، فالقول إذن بأن الوحى ينبع من اللاشعور عن طريق المتخيلة المخترعة ، قول يفسح المجال لأولئك الذين يذهبون إلى أن القرآن ليس كلام الله ، بل تخيلات شخصية من محمد أشبه بما يفعله الشاعر أو الفنان ، وبذلك ترتفع عن صفة النبوة وفيما يلى ترجمة دقيقة للفقرة الأخيرة من كتاب مونتوجمورى ، يتبين منها رأيه الصريح فى نبوة محمد ، قال : .

وأخيرا ماذا عن سؤالنا عن نبوة محمد ؟

نقول فى الجواب : إنه كان إنسانا مخيلته المخترعة تشتغل على مستويات عميقة فتنتج أفكارا تتصل بالمسائل الرئيسية عن الوجود الإنسانى مما جعل دينه يلقى انتشارا واسعا لا فى زمانه فقط بل فى القرون المتتالية ، وليست كل الأفكار التى أعلنها صادقة صحيحة ، ولكن بفضل الله ونعمته تمكن من أن يمد ملايين من البشر بدين أفضل مما كانوا يعتقدون فيه قبل أن يشهدوا بأنه لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

أحمد فؤاد الأهوانى

مرت امرأة بقوم من بنى نمير فأحدوا النظر إليها ، فقال منهم قائل : والله إنها لرشحاء (أى كثيرة العرق) ، فقالت . يا بنى نمير ، والله ما امتثلتم فى واحدة من اثنتين ، لا قول الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » ، ولا قول الشاعر :

● فغض الطرف إنك من نمير ●

«وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم»
(ابراهيم ٢٢)

(And when the matter hath been decided, Satan saith : Lo ! True was the promise which Allah made you. I too made you a promise, but I did not keep it. I had no power over you. Save that I called you and you answered me. So do not now blame me but blame yourselves.)

« وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد »
(غافر ٤٧–٤٨)

(And when they argue in Hell, the weak say to those who were proud : Lo ! We were your followers: will you therefor rid us of a portion of the Fire ? But those who were proud say : Lo ! We are All herein. Lo ! Allah has judged between His servants.)

A Muslim, then, should not let vanity carry him off to sin if he is called to good ; nor should he be deceived by the imposture of those who walk in Satan's footsteps, commit evil and indecency and assert about Allah what they do not know. He had better be a benevolent improver, aloof from evil-doers.

For the Prophet, may peace and blessing be on him, has said : "Let no one of you be an unprincipled time-server who says : I am like the people, whether they do good or evil so do I ; but you all should be determined to do good if men did good, and shun them if they wronged."

(Continued from page 14)

are leaving a house you were born in to a house you would live in ; keep things and you will have a happy life : You must always feel satisfied, be obedient and far-sighted.

Soufyan El - thawry advised his friends by saying : Seek knowledge and science to teach and guide others and not to attack or mock othar men of letters.

Shehab El-Din Sahrawardy told some of his friends : If God inflicted something on you, accept it and do not show dissatisfaction because He is aware of what you are thinking, and if you showed satisfaction He would reward you. If you think either way you would alter nothing of your fate. Be patient, for patience is the prerequisite of faith. But if you could not do this and found no outlet for your distress then ask His help, and be sure that He would help you.

From the Tradition of the Prophet:

The Ways of Good and Evil

BY
SOLIMAN BARAKAT

The Prophet has said :

« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » .

(Whoever calls others to guidance shall be rewarded a recompense equal to that conferred on all those who follow him, without decreasing a bit their recompense. Whoever calls others to error shall be burdened with as heavy sins as shall be all those who have responded to his call, without the least cutting short of their sins.)

By guidance here is meant what is good and pious, such as building an institution for public welfare, contending vice, giving in charity to the poor, fighting for Allah's cause, working for the unity and strength of Muslims, or, in general, obeying Allah. Such a call may be in word or in deed.

On the other hand, error is the contraposition of guidance, and by it is meant transgression against divine law or against principles of morality, such as debarring others from the path of Allah, or the neglect of duty. Again such a call may be in word, deed or in silence which gives the consent of the persuader at the occurrence of evil.

Then, one's call shall be either to one's credit or to one's disgrace, and one shall either be favoured with Allah's requiteful justice and pleasure, or incur His wrath; and in any case one's reward shall balance that of all the men one has induced.

In this Hadith, there is impressive persuasion into enjoining justice and the endurance with faith and fortitude of whatever befalls one, as well as alienation from calling other men to evil and making foul deeds seem fair. On the other hand, there is also urge to following those who call to a straight path and to having faith in Allah, as well as warning of responding to those who call to Hell-fire. After all, the principle of man's responsibility for his own acts is well established in this Hadith. The allegation of being tempted or misled is an invalid excuse.

willingness you will be mune and they can hurt you not, and deprive you of neught. To meet hardships with endurance and patience results in reward, for verily along with trouble cometh ease.

Abu Darda'a quoted that prophet Muhammad said : Do good and gain what is good; consider yourself among the dead for the day of Judgment is coming soon.

Once Muhammad said to a man: Beware of God whenever you are : "if you did evil then let good follow it for the latter eliminates the former, and treat people well."

Omar ben Al-Khattab told a man to keep what God had given him, to realize that.

God knows what he does and remember what he would meet when he dies-wherever he is.

Omar ben Abd El-Azziz told one of his men after appointing him to be in charge of a region : Consider the young Muslims as your sons, and the elder muslims your brothers and the eldest your parents, thus be merciful to your sons, sympathetic to your brothers and obedient to parents.

As a matter of fact, almost all Muslim thinkers and wisemen recommended to their sons or close friends practical advices so as to be wiser and to take care of themselves.

Let us hear what said, Saeed Ben Goheir advising his son : O my son, treat people with kindness, do not be persistent in your demands. Pray as a human who would die soon; if you can do tomorrow better than yesterday, then do. Be always hopeful.

Once a philosopher told his son : If you want to get what you like, you must endure what you do not like. You will get rid of what you dislike if you wait for what you like. Modesty will prevent humiliation.

A woman told her son : Beware of back-biting because it leads to hatred and disunity.

Do not pick out other's defects. Stick to your religion and be generous. Follow the good acts of others and avoid bad actions.

Another woman advised her son by saying : Be virtuous and modest. Treat your friend with easiness and patience; lend them a hand when in a crisis. By so-doin they will like you and trust you.

A beduin woman advised her daughter on her marriage : Adopt yourself to your life, because you

(Continued on page 16)

'Wassaya' in Islam

By

Dr. Gamal Eldin El Ramady



"Wassaya" do not mean what the men of law and jurisprudence consider "wills" which are concerned with legal subjects and rights. It is a well-known fact that rights resulted of voluntary actions - from those who have the rights - to achieve certain results which we call legal proceedings - such as buying, granting and the wills we are speaking about, or resulted from legal actions which have no thing to do with those rights.

Therefore, the will is considered as a contract whose effect cannot be implemented except after the death of its owner; for instance, ownership cannot became valid before the death of the man who signed the will.

Heirdom is a very complicated matter yet it is well-explained in Islam. It depends on the man's will, and he is free to decide his heirs according to the Islamic legislation.

The English law allows the British to give their properties to whoever they want and not according to their religious legislations. On the other hand, the French law allows the citizen to put all his properties in his will-except a portion to be divided among his heirs.

This, however, concerns the legal aspects of the "wills", but as for the " wills " in the sense that they are related to wisdom, education and enlightement, they are to be found in literature.

This sort of "wills" which have better call "Wassiyah" was-and still is-practised by prophets, philosophers, poets and others. They believe that philosophy - in the full meaning of the word - gives mass experience and wisdom. It also affects his social behaviour.

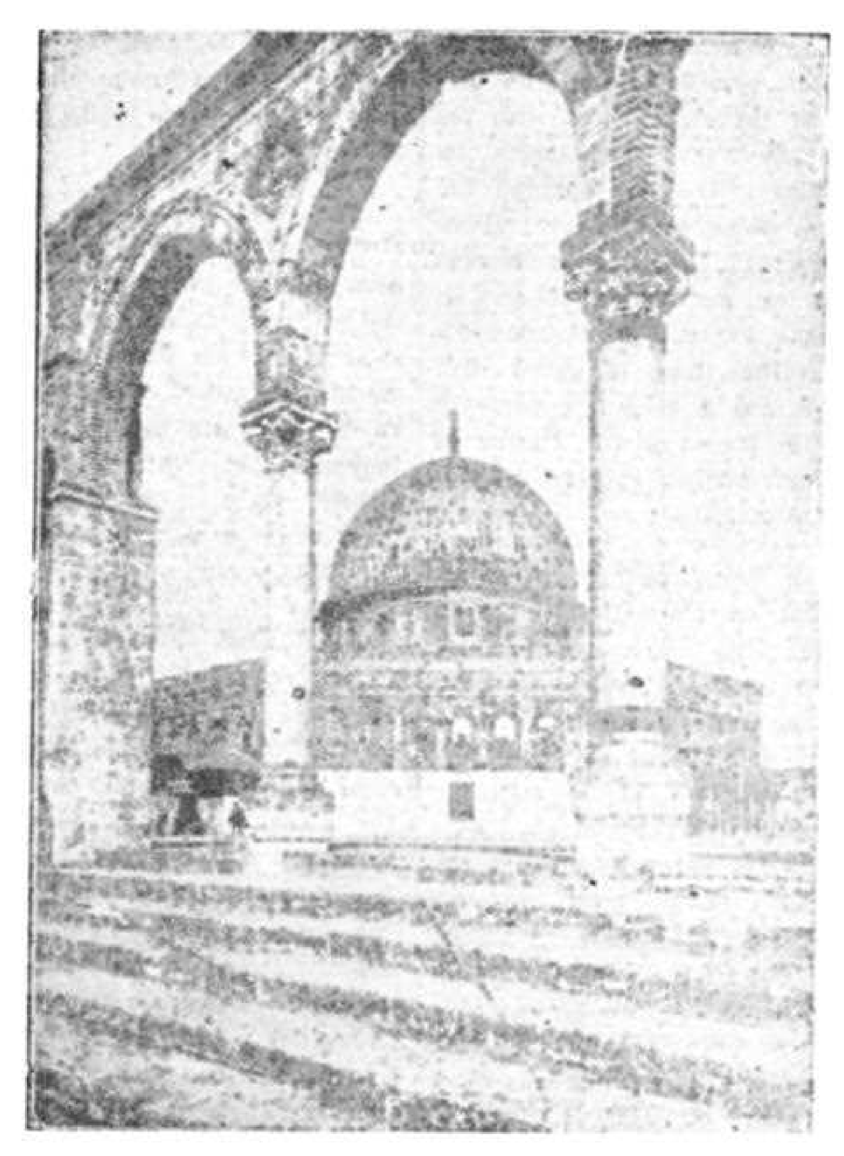
In this sense, Ibn Abbass quoted Prophet Muhammad saying : I shall teach you words that will benefit you; comply to God's orders and He will make you happy; do not forget your God when you are happy and prosperous, if you did He would forget you when you are in distress. Ask God only for help and assistance. If all humanity gathered to hurt you without God's

The entrance to the cavern beneath is by means of the Bab al-Maghara, the humble pilgrim descending the eleven steps with the following "Prayer of Solomon" on his lips : "O Allah, pardon the sinners who come here, and relieve the injured", The height of the cave is six feet, and on the roof may be seen the impress of Muhammad's head. The floor is paved with marble and a projecting piece of rock is known as the Tongue of the Rock because it greeted Umar on one occasion.

The dome itself is of wood, covered outside with lead, and inside with stucco, beautifully gilded and richly ornamented. Quranic passages wonderfully inscribed in interwoven characters from a frieze round the building. In the interior four massive piers and twelve columns surround the Al Skhra in the centre and the dome rests on these. Tradition states that all the prophets of Allah up to the time of Muhammad have come to pray here at the Rock which is daily surrounded by a body guard of 70,000 angels. Most important of all, it was from here the Prophet ascended to heaven on his horse al-Buraq. His footprint may be seen still, Qadam Muhammad.

The round hole in the middle of the Rock is where the Prophet's body pierced its way upwards, and nearby is shown the Saddle of al-Buraq in the shape of several marble fragments. There is also on the west side of the Rock the impression of the Handprint of Gabriel where he held down the Rock when it was about to rise with Muhammad.

The Kubbat al-Sakhra is one of the most beautiful sights in the world and one that is known to all Muslims. Millions of pilgrims come to see and wonder and pray. The eulogy pronounced on it by Mukaddasi still describes the wonderous beauty to this present day : "At dawn when the light of the sun first strikes on the cupola, and the drum catches the rays, then is this edifice a marvellous sight to behold, and one such that in all Islam I have never seen its equal".



'Kubbat Al-Sakhra' (The Dome of the Rock)
Jerusalem

The building thus became the model for all the "Temple" churches built in Europe. The dome being the symbol of the order appearing on the Grand Master's seal.

In 1187, Saladin, the famous warrior and scholar, captured the Holy City amongst great rejoicing throughout the Muslim world. He immediately removed all the Christian additions from the Dome and there may be seen the inscription set up by Saladin inside the cupola, that records the fact of his restoration.

* * *

Ibn Abd Rabbihi states : " Now when thou enteres' the Sakhra make thy prayer in the three corners thereof, and also pray on the slab which rivals the Rock itself in its glory for it lies over a gate of the gates of Paradise ". This slab is a portion of the marble pavement near by the Bab al-janna and marks the place where the prophet Elias knelt in prayer. Others believe it covers the Tomb of Solomon. All, however, assert that it was originally part of Paradise and so is called the Flagstone of Paradise. A tradition has it that Muhammad (may peace be with him) drove into this slab nineteen nails of gold which are destined to drop out periodically and when all have fallen through, the end of the world will come ; the Devil almost succeeded in removing them but the angel Gabriel intervened just in time. Nowadays three nails remain in place, but one has become a little sunken. It is with humble step and slow, therefore, that the pious pilgrim treads this holy place lest by dislodging one of the nails he should hasten the day of judgement.

According to legend, angels visited the Rock 2,000 years before Adam was created, and Noah's ark rested here after the Deluge. It is said to be actually one of the rocks of Paradise, and that here on the Resurrection Day the Angel of Death will blow the last trumpet ; but previous to this the Ka'ba will come from Mecca as a bride unto the Sakhra. It is also said that it rests on a palm-tree beneath whose shade Asiya, Pharaohs wife, and Maryam, Moses sister, will give the faithful a cooling draught from one of the rivers of the Garden ; for all the sweet waters on the earth are believed to originate somewhere beneath it.

Beneath the Rock is a cave the floor of which when stamped upon by the foot emits a hollow sound pointing to the presence of a cavern beneath, perhaps a well, the " Well of the Spirits " where the souls of departed are believed to assemble twice weekly.

The Sacred places of Muslims :

KUBBAT AL-SAKHRA

BY

RASCHIED AL-ANSARI

Situated in the second most holy city of Islam, al-Kuds (Jerusalem), lies the most beautiful edifice known as the Kubbat al-Sakhra or otherwise known as the Dome of the Rock. This is considered next in importance to the Ka'ba in Mecca and the following may help to explain why this is so.

The history and legends surrounding the Kubbat al-Sakhra are diverse and fascinating, it being quite well known in historical literature. When Umar managed to conquer Jerusalem he found the Rock scandalously covered with muck and filth, this he ordered to be removed by the Nabataeans and, after heavy rains had thrice cleansed the Rock, prayers were then given there.

The fifth Umaiyad Caliph, Abdul Malik, built the Dome above the sacred rock in the years 69—72 A.H. and there is a famous Kufic inscription in yellow and blue mosaics above the cornice round the base of the Dome which states: "Hath built this dome the servant of Allah, Abdul Malik, commander of the Faithful, in the year two and seventy - Allah accept him". For the expenses of building this magnificent domed edifice, he is reputed to have set apart the revenue from Egypt for seven years; causing a treasure-house to be built for this money to be kept in what is now known as the Kubbat al-Silsila, or Dome of the Chain.

In those days a latticed screen of ebony and lavish curtains of brocade surrounded the Sakhra. There were also to be seen a precious pearl, the horn of Abraham's ram, and the crown of Khursaw, suspended by a chain hung from the centre of the Dome; but with the coming of the Abbasids these were then transferred to the Ka'ba.

The year 1099 was a sad year for Muslims for then Jerusalem was taken by the Crusaders. The building was endowed by Baldwin II, and became the Temple Domini, the Church of the Knights Templars.

troubled waters as it did in the past if it is accepted once again as a guide to thought and action and its contents are actually implemented in life. History tells us that the age of in which the Prophet Muhammad (peace be on him) was born, lived and worked, his own people, the Arabs were the most degenerate people morally, culturally, socially, politically, in fact in respect of every aspect of human life. They were the worst specimen of the then civilised humanity. The Prophet lived only for Sixty-three years and he received reve lalion in his fortieth year. His ministry, therefore, lasted only for twenty three years and it is during these twenty three years that he delivered his mission and worked. History tells us again that the very same Arabs, the nomadic children of the desert who only a few years ago were the worst specimen of humanity at the time of the Prophet's death were in every respect-morally culturally, socially and politically were the best amongst men. The unlettered Arabs became the teachers of the then civilised world. The uncultured Arabs who would delight in drinking, debauchery, gambling and in every imaginable kind of moral and intellectual perversion gave the world all refinements and fineries of culture. The Arabs divided into countless tribes, cians, families and ever-engaged in neverending family and tribal feuds moulded themselves into a compact and homogeneous nations and gave the world the conception of a real world-wide brotherhood of man. The most easily ignitable Arabs incapable of reseting the slightest provocation and temptation presented a perfect example of temperance and tolerance. The brutes, the uncivilised peoples of Arabia created a magnificent and wonderful civilisation in twenty three years the like of which the world had never seen. This in itself is a miracle the miracle of the Kalima. Twenty three years, in the life of an average man is not very much significant, far less so it is in the life of a nation and the humanity taken as a whole twenty three years can only be linked to a bubble in the ocean. The question that appears here in bold relief to every inquisitive mind is how this mighty transformation was possible within such a small period of time and what were the ingredients in the teachings of Muhammad (peace be on him) which caused this unparalleled revolution in the thinking, feeling and action of man. This question when answered in concrete terms will reveal the revolutionary character of the Kalima.(1)

(1) The Creed of Islam.

Prophet was again mutilated to give divine rights to the sultans. This novel and un-Islamic conception of religion found a very congenial seed-bed for its growth and development in materialistic Europe and has very nearly destroyed religion.

The Prophethood of Mohammad (peace be on him) is an integral part of the text of the Kalima. This was necessary for ensuring the purity of faith in the Oneness of God and in the Divine origin of the Holy Quran. There is an innate tendency in man to exalt and even to worship their heroes and perhaps the influence of Polytheism created and developed this habit into an instinct. This instinct is mainly responsible for destroying the purity of faith and mutilating the text of the previous revelations. Jesus was raised to divinity by his over-zealous followers. The Christians called Jesus the son of God and forged Trinity out of strict monotheism of pure christianity. The Brahmins of India described their teachers as incarnations of God and ultimately created a cult of idol worship destroying the sublime monotheism of pure Vedic Dharma. That the followers of Muhammed (peace be on him) in their blind devotion to the master may not commit the same error consciously or unconsciously, the fact that Muhammad (peace be on him) is not God or is not in any way associated with Him but is merely a Prophet, is mentions in the body of the Kalima itself. The Holy Quran directs Muhammad (peace be on him) to say, "I am a man like you except that I receive revelation" (S.XLI : V,6) and again, "And before thee also the apostles are sent were but men, to whom We granted inspiration : if ye realise this not, ask of those who possess the message" (S.XVI : V.43). In fact, all the prophets were men and their distinction was that they received revelation. The Prophethood of Muhammad (peace be on him) implies faith in revelation and the divine origin of the Holy Quran, the Book of Islam. The mention of the Prophethood of Muhammad (peace be on him) in the text of the Kalima protects and actively guards against corruption of the faith in God, faith in the Prophet and faith in the Holy Quran, the three main sources of Islam. But for this, the purity of the sources of Islam, its precepts and examples would have had the same fate as previous revelations had.

The Kalima has the potentiality of carrying humanity from progress to progress and achievement to achievement towards its goal as the mariner's compass leads a ship to its destination safely and safe through the

if some advanced and progressive people had been selected and given the distinction of being the nursery of Islam; a diamond shines most when set in lead, a base metal. This is the law of nature. According to calculations of Karl Marx some industrially advanced country like England or America having highly organised labour should have been the incubator of his philosophy but contrary to his expectations Russia, an industrially backward country, had the credit of demonstrating to the world the cult of Marxism in a living form.

The Kalima when its contents were actually implemented in life moulded the human meterials of Arabia into a magnificent and lovely nation and that mighty nation was sent back to the sands again from which it sprang when the Arabs reduced their faith in the Kalima into a lip profession having no bearing upon their active life. The Muslim nations of the World are by no means the chosen people of God. The invariable and impartial Laws of God operate equally on them as they do on other peoples. The Muslim Arabs were great as long as they maintained the purity of faith and action.

To be free from the sovereignty of the contents of the Kalima the Abbaside Sultans of Baghdad and their feudal chiefs, the noblemen and the aristocracy of Baghdad induced the Ulemas or the Pundits of theology who for material advantages would always manufacture religious sanction for all un-Islamic actions of the Sultans to mutilate the Kalima. They invented a new Arabic version of the Kalima, "La Ma'buda Illallah Muhammad al Rasullullah" or "There is no object of worship but God and Muhammad is His Prophet". Thus Islam was reduced to a mere form of worship and divided life into two water-tight compartments-temporal and spiritual. No time was lost in creating temporal and spiritual lords. The Ulemas themselves became the spiritual lords and called themselves representatives of the Prophet. The Sultans became the temporal lords. The temporal and the spiritual lords in perfect harmony and concord with each other conspired to exploit the people. For securing the pleasures of Heaven, obedience to the spiritual lords and for securing pleasures of the earth, obedience to the Sultans became the order of the day. There is a saying of the Holy Prophet, "The rulers are shadows of God" which means that the rulers must sustain the people under their charge faithfully in the manner in which God sustains His creature. This Hadith or the saying of the

The Effects of the Belief in the Oneness of God

BY

ABUL HASHIM

The "Kalima" or the belief in the Oneness of God and the prophethood of Muhammad (peace be on him) is the Corner-stone of Islam. It cantains in itself in seed-form, all the magnificence of the mighty revolution, Islam, created in the thinking, feeling and action of man known in the history of human evolution as the Arab civilization.

"There is no deity but God and Muhammad is His Prophet", is the correct English rendering of the text of the Kalima. The Kalima negates Atheism and Polytheism and positively proclaims the Oneness of God and the Prophethood of Muhammad (peace be on him). By implication the Kalima teaches the composite Nature or the Unity of the Universe and the oneness of man and insists upon belief in revelation and intuition as sources of transcendental knowledge and wisdom. God of the kalima is not a blind cosmic force, the unconscious first cause or inert fountain-head of vitality but He is the Living and the Conscious Creator, Sustainer and Evolver of the Universe. The Holy Qur'an catigorically defines God and the purity of faith in God in a few short verses, "Say, He is God, the one and Only; God, the Eternal, Absolute; He begetteth not nor. He is begotten; and there is none like Him". (S. CXII : V.1—4), and again "All praise is due to God,the Creator, Sustainer and Evolver of the Universe, the Beneficent and the Merciful and the Lord of the Day of requital" (S. I. : V. 1—3).

Faith in the Kalima is not a passive faith in some uncertain deity but is an active faith in the Living and conscious God who is visible in Nature. This faith has concrete values in the everyday business of life. A faith without action or an action without faith has no place in Islam or in any view of life worth the name. Belief in the Kalima, there fore, demands a faithful implementation of the contents of the Kalima in every aspect of human existence. The truth grandeur and practical values of the Kalima would not have been made so clearly manifest

and the followers asked him to remain in it in case they were defeated, so that he might be safe and join the Muslims in Madinah. It was an extraordinary thing to ask of a man who was leading the battle, but these soldiers thought more of the safety of their leader than of themselves. No doubt that they believed in God and the leadership of their prophet, yet they could see no danger, but thought first of the safety of their beloved leader and hoped for victory against the agressors. But we find Muhammad (peace be with him) among the gallant little army encouraging and speaking to them about the help of God.

The battle was started between the army of Quriesh and the Muslims by the water of Badr. Three of the warriors of the Quriesh advanced into the open space which divided the two armies and challenged three warriors from the Muslims to single combat. Hamza, Ali and Ubaidah accepted the challenge. The combat was nearly over with the last remaining warrior of the Quriesh-trio about to be killed and seeing that their opposite numbers were uninjured, the Maccans advanced against the Muslims who engaged them in battle. The battle went at first against the Muslims, but ended in a signal victory for them. The leader of Quriesh and several of their greatest men were killed and many were taken prisoners. It was indeed a day to be remembered in the history of Islam.

Their sincere faith in God and His messenger and the leadership of their Prophet, enabled them to face an enemy of more than three times their number and better equiped, with courage and talent. It was a strong belief and good faith in their mission that enabled this little army to defeat such a huge and well equipped army within a few hours. A glorious 'victory' that paved the way to unity of the Arabs, the spread of Islam and the dawn of the greatest humane civilization in the world !

When the Prophet saw this huge army of the Quriesh, in comparison with the small number of his own, he prayed God that the handfull of the Faithful might be saved and he said : "O my God ! if this little band were to perish, there would be none to offer unto you pure worship". The Muslims advanced into the valley of Badr and the Prophet ordered them to prepare for defence on a line in front of the wells, which meant that the water would be between his followers and the Quriesh.

How did the Prophet organise his little army and the planning of the battle ? Muhammad, (peace be with him) being of a democratic nature, began by consulting his followers. Naturally the exiles were overkeen to fight for their faith and right. The Prophet gave the 'Ansâr' (The helpers) of Al-Madinah, whose oath of allegiance had not included fighting in the field, the chance of returning if they wished; but they were only hurt by the suggestion that they could possibly forsake him. They said in reply : "We have faith in you, we believe you and have witnessed the truth you have brought unto us. We promised you and gave our consent to hear and obey. Go ahead for whatever you want. We are with you. By God if you cross the sea afoot we will cross it with you. Not one of us will remain behind. We are not afraid to face our enemies to-morrow. We are patient in war and sincere in battle".

When the Muslims advanced into the vally of Badr and took position in front of the wells, a Muslim expert asked the Prophet : "Is this place ordered by God ? If so, we cannot change it, or is it your plan of war ? ". The Prophet replied : "It is my plan of war". The expert said : "Then it is not the right place, order your men to move beyond the well and build a defence around it, so that your army may drink from it and the same time deny it to your enemies". The Prophet ordered the army to move according this plan. When his little army of three hundred and thirteen men, ill-armed and roughly equipped halted near the water of Badr, the army of Quriesh outnumbered the Muslims by more than two to one and was much better mounted and equipped, so that their leaders counted on an easy victory. When the Prophet saw them streaming down sandhills he prayed : O Allah ! Here are Quriesh with all their chivalry and pomp, who oppose Thee and deny Thy messenger. O Allah ! Thy help which Thou hast promised me ! O Allah ! Make them bow this day"! A tent was arranged for the Prophet

against you, but begin not hostalities. Lo ! Allah loveth not agressors).

The Battle of Badr, which occured in the 17th Ramadân 2-A.H, was the first battle in the history of Islamic faith. It ended in a glorious victory for Muslims as it was the first step towards the immense prestige for the cause of Islam over all of Arabia. It had also a great effect upon the civilization and humanity. The Battle of Badr was a most outstanding event in the history of Islam on account of its important results. Here we must point out the motives behind the intrigues used against Islam and the impending catastrophe which was awaiting Muhammad and his followers at that very critical time.

A caravan consisting of Muslims was raided during a sacred month, in which it is forbidden to fight except in defence. During these sacred periods, however, some of the raiders were killed by the defenders. This soon gave the lie to propaganda against Muslims all over Arabia. This propaganda was being spread mainly by the Jews who had reached a point of despair against Muhammad's help and they broke off their promises and began openly their intrigues again. The Jews informed the 'Quriesh' of every detail about the Muslims' strength in 'Madinah' and they promised them their full support when the 'Quriesh' advanced upon Madinah. It was a very critical period for the Prophet, who was aware of the intrigues; he had no means of defence because the Muslims had not built or considered the fortification of the City of Madinah.

Here we must remember that Muhammad (peace be upon him) was not a mere preacher of a new religion, who could ignore the catastrophe which might destroy his plans or exterminate his followers. The army of the Quriesh was approaching Medinah, destroying trees, stealing sheep and camels in their path. Their army was a thousand strong and well equipped. They were approaching the City with the main intention of exterminating the Muslims and capturing the City. Owing to the grave situation Muhammad (peace be upon him) had to fight against his inclinations of human kindness and forgiveness.

With an army of only three hundred disciples, the Prophet (peace be upon him) left Madinah City and occupied positions in the Valley of 'Badr'. The Meccans advanced forward of the wells, since as water is a vital weapon in war, they decided to cut all supplies from Muhammad and his small army.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Ramadân 1386	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	December 1966

THE BATTLE OF 'BADR'

BY

A. M. Mohiaddin Alwaye

The Holy Qur'an stated that the message of the Prophet Muhammad is general to all nations till the end of this world. The early Muslims ardently believed that they were doing a great service to other people by guiding them to a faith that secures for its adherent the happiness of the two worlds. Although they were ready to give up their lives for propagating their faith, they were carrying on that duty by preaching and conveying the people, the message of God in peaceful way.

The use of force in spreading Islam is contrary to the very spirit of Qur'anic principles as it is stated : «لا إكراه في الدين» (There is no compulsion in religion). In the Islamic point of view fighting is not the thing to be liked and sought, that peace should be clung to as far as possible. This great human idea of a true Muslim is embodied in the following verses of the Qur'an: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم» (Fighting is enjoined upon you, although it is something disliked by you) and «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ..» (But if they lean toward peace, you also lean to it (peace)). Islam likes order, truth and liberty. Wars, under Islam, cannot be declared except in the case of defence and it tried to organise and confine to its narrowest limits. For this aim, rules were set in the most humaniterian form even in the defensive wars. The Holy Qur'an says : «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» (Fight in the way of Allah against those who fight

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثامن ـ السنة الثامنة والثلاثون ـ شوال سنة ١٣٨٦ هـ ـ يناير سنة ١٩٦٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لغتنا بين الجمود والميوعة

بقلم
أحمد حسن الزيات

لغتنا اليوم فى أزمة لم تتعرض لمثلها منذ ابتليت هى وأهلها بتسلط التتار على العراق ، والصليبيين على الشام ، والفرنج على الأندلس ، والترك على مصر . فلو أنها استكانت لهذا التسلط فانحلت إلى لهجاتها العامية ، ولحقت بأخواتها السامية لما كان ذلك بدعا من القول ولا حدثا فى التاريخ ؛ ولكنها بقيت فى خلال تلك الحقب السود جزءاً من حقيقة الإسلام تحيا فى كتابه ، وتنشر فى كتبه ، وتدرس فى معاهده .

أما الأزمة التى تأخذ بكظمها اليوم فهى تصيبها والملك فى أيدى أهلها يكاد يستقر ، والحكم فى جميع أقطارها يوشك أن يستقل . وكان منطق الأشياء يقضى بأن تنهض العربية بنهوض العروبة ، وتتجدد بتجدد الإسلام ، وتزدهر بازدهار الحضارة ؛ ولكنها وقفت وقفة الجسم القاصر بين قوتين متضادتين : قوة تجذبه إلى الوراء ، وقوة تجذبه إلى الأمام ، حتى انتهى به الجذب من هنا ومن هنا إلى أن تمزق ، فجمد بعضه فى أيدى فريق ، وماع

بعضه فى أيدى فريق . وهذان الفريقان اللذان أزماها هـذه الأزمة هما : شيوخها الذين يتعبدون بقديمها عن تعصب ، وشبابها الذين يتصرفون فى جديدها عن جهالة .

شيوخها علوها كل العلم ، وأحبوها كل الحب ، ثم اعتقدوا أنها حين استطاعت أن تعبر عن وحى الله وسنة رسوله وأحكام شرعه قد كملت كمال الدين وتمت تمام النبوة ، فحرصوا على أن يظل باب الوضع مغلقاً ووقفوا من موادها وقواعدها حيث وقف الأقدمون ، لا يتقدمون إلا بدليل منهم ، ولا يحكمون إلا بنص منقول عنهم ، ويحفظون قول (ابن فارس) : « ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه » ويتسون قول ابن جنى : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب » ، ولا يدخلون فى حسابهم أن اللغة لا يمكن أن تثبت ثبات الدين ، ولا أن تختم ختام النبوة ، لأنها ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، والأغراض لا تنتهى ، والمعانى لا تنفد .

ترى النحوى المعاصر وقد اكتملت له الآلة وقويت فيه الملكة فاستقصى أطراف النحو وأحاط بأصوله وفروعه ووقف على شاذه ومقيسه ، ثم تعرض له أو تعرض عليه مشكلة من مشكلات التعبير الحديث تطلب منه جواز المرور إلى حرم القواعد المقررة ، فينظر إليها نظر السنى إلى البدعـة ، فإذا استحسنها حاول أن يسوغها بقول مروى عن أحد البداة ، أو رأى منقول عن بعض النحاة ، فإن وجد قولا لنحوى ولو أعجميا ، أو لحنا لقبيلة ولو حوشيا ، أجاز وإلا منع !

وربما كان نحوى اليوم أدق فهما لأسرار اللغات من نحوى الأمس ، ولكنها التبعية العقلية التى سرت من الفقهاء إلى اللغويين بحكم الصلة الوثيقة بين اللغة والدين .

لو أن عبارة النص القديم كانت من تقوى القلوب التى تحرص على سلامة الأسلوب فى اللغة كما تحرص على سلامة المنهج فى الشريعة لقلنا : نعم ونعام عين ; ولكنها تعلقت بالضعيف كما تعلقت بالقوى ، وأخذت بالشاذ كما أخذت بالمطرد ; فكان من هذا التناقض أن فسدت كل قاعدة وصح كل خطأ !

ذلك على الإجمال نصيب المتزمتين من الشيوخ فى أزمة اللغة . أما نصيب الإباحيين من الشباب فيها فهو نتيجة محتومة لوقوف كهنتها على باب هيكلها يذودون عن حوضها كل شارب ، ويصدون عن علمها كل طالب ، إلا من نذر نفسه طول الدهر لدراستها على المنهج الموروث من تعدد الأوجه واختلاف الصيغ وتباين المذاهب وتناقض الأقوال .

وكيف يطلب علماؤها من النشء أن يخلوا ذرعهم لتحصيل اللغة على هذا النمط ، وليست قواعدها إلا مادة من مواد الدراسة

المتعددة المتنوعة، ولكل مادة على الطالب واجب مفروض من الجهد والوقت؟ أما كان الأولى أن تقتصر المدرسة العامة من النحو والصرف على قواعدهما الأساسية العملية، ثم تقدمها إلى الناشيء مبسطة في صور شتى من الأمثلة الشارحة والنماذج الموحية والتمارين المدربة فتلائم بين قدرته وطبيعته، وتوفق بين علمه وعمله؟ بلى كان ذلك هو الأولى، ولكن المدرسة عنيت بالحفظ لا بالفهم، وبالشهادة لا بالكفاية، وبالكم لا بالكيف، فعجزت عن تخريج القارىء والكاتب والمفكر.

وكان الجارى في عرف الناس ألا يتعاطى إنسان عملا إلا إذا تجهز بجهازه فلا يزاول الطبابة إلا من درس الطب، ولا الكتابة إلا من درس الأدب؛ ولكن طائفة من الشباب آتاهم الله الاستعداد ولم يؤتهم العدة أرادوا أن يكونوا كتابا فاقتحموا مكاتب الصحف واقتعدوا كراسى الإذاعة وأخذوا يقودون الرأى ويوجهون الأدب ويروضون الأذواق على تفاهة العامية، فإذا آلمهم النقد وأعياهم البيان ثاروا على الفصحى المنيعة الدرك ثورة الثعلب على عنقود العنب البعيد المنال، ودعوا إلى إطلاق الحرية للكاتب فيكتب كما يتكلم، لا يتقيد بقاعدة من نحو ولا قياس من صرف ولا نظام من بلاغة.

إنهم يدعون إلى العامية لأنها أسهل لا لأنها أفضل؛ فإن تحصيلها لا يحتاج إلى كتاب ومعلم ودرس؛ وإنما يحتاج إلى بواب وشارع واستماع.

وشر ما في الأمر أنهم يكثرون والكتاب الأصلاء يقلون، وعما قريب أو بعيد ينخفض مستوى الأدب حتى يبلغه الكسيح ويناله القزم ويتزعمه الجاهل، ويومئذ يستساغ التفه، ويؤلف السخف، وتصبح الفصحى هى الغريبة والأدب الرفيع هو المنكر.

أما تفريج هذه الأزمة فلعله يكون إذا توسط بين التزمت الجامد والإباحية المائعة قوام من اللدونة المعتدلة، تصوغ ألفاظ اللغة على الأوضاع التى تقتضيها حال الحضارة وتشكل أساليبها على الصور التى يرتضيها ذوق العصر، وتنظر إلى النحو والصرف على أنهما قواعد للغة واحدة ولهجة واحدة؛ فيقتصر منها على القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة وتقوم هذه اللهجة.

والمأمول المعقول أن يكون مجمع اللغة العربية هو الكتلة الثالثة التى تعدل المزاج بين الكتلتين اليمينية واليسارية، أو الرأسمالية اللغوية التى يقوم عليها حفاظ الشيوخ، والشيوعية الأدبية التى يدعو إليها سفه الشباب.

أحمد حسن الزيات

« لا » التى قيل إنها زائدة، وليست كذلك
درء مظاهر من الجرأة فى تفسير الكتاب العزيز

لصاحب الفضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله .

« أما بعد » فهذا بحث موضوعه : « لا » التى قيل : إنها زائدة وليست كذلك .

والكلام فى (لا) هذه التى قيل : إنها زائدة وهى ليست بزائدة ، مقصور على ماهو وارد منها فى القرآن الكريم : فى آيات معينة محدودة ، قرر بعض العلماء الذين عنوا بتفسير الكتاب العزيز ، أن (لا) فيها زائدة ، على حين أنها أصلية وأصيلة فى موقعها ، كما يتبين ذلك بمشيئة الله تعالى .

وليس معنى هذا أننا نمنع أن تقع فى القرآن كلمات زائدة يقصد بها معان خاصة كتوكيد حكم بنفى أو إثبات ، فإن ذلك واقع وكثير ، وهو من الحقائق التى لا شبهة فيها :

فمن ذلك كلمة أن بعد (لما) فى قوله تعالى : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » .

وكلمة (ما) فى قوله سبحانه : « فبما رحمة من الله لنت لهم » ، « وإذا ماغضبوا هم يغفرون » .

و (الباء) فى قوله عز وجل : « وما ربك بظلام للعبيد » ، « أليس الله بكاف عبده » .

نحن لا نمنع شيئا من ذلك ، ولكنا نمنع أن تكون (لا) زائدة فى تلك المواطن الخاصة التى أشرنا إليها ، وهى آيات معينة قال بعض العلماء بل كثير منهم : إن (لا) فيها زائدة .

وينبغى أن يعلم أن الكلمة تكون زائدة إذا كانت لا تعطى معنى أصليا زائدا على ما استفيد من غيرها فى جملتها . وبعبارة أخرى إذا كان ما تدل عليه من معنى بحسب أصل وضعها اللغوى مستفادا من كلمة أخرى وردت قبلها فى الكلام نفسه :

فكلمة (لا) تكون زائدة إذا كان النفى الذى هو معناها الوضعى مستفادا من غيرها ، فتكون زيادتها بعد ذلك مفيدة تأكيد هذا النفى وتقويته : فإذا قيل : هل فى الديانات السماوية ما يبيح شرب الخمر ، ثم قيل فى الجواب : (لا) ، كانت هذه الكلمة مفيدة قطعا بأصل وضعها عدم جواز شرب الخمر فى شىء من تلك الديانات ، فإذا زيد على (لا) هذه أخرى ، وقيل : (لا . لا) كان الجواب بالنفى مستفادا بالوضع الأصلى من الأولى ، وصارت الثانية تأكيدا وتقوية لهذا النفى .

إذاً لا ينبغي أن يفهم ـ من أن كلمة قد وقعت زائدة فى بعض الآيات القرآنية أنها خالية من المعنى، مجردة من الفائدة، فإن هذا يعنى أنها تكون لغوا باطلا وحشوا عابثا، وذلك محال أن يكون شىء منه فى الكتاب العزيز.

وفى هذ يقول ابن يعيش: «ليس المراد ـ بزيادة الحرف ـ أنه قد دخل بغير معنى ألبتة، بل يزيد لضرب من التأكيد، والتأكيد معنى صحيح».

ثم ينقل عن (سيبويه) قوله ـ فى تلك الحروف الزائدة ـ: «إنها زائدة من حيث إنها لم تحدث شيئا لم يكن قبل أن تجىء من المعنى، سوى تأكيد الكلام». (شرح المفصل جـ٨ ص١٢٩).

ثم إنه يلزم لصحة الحكم بزيادة (لا) ألا تكون زيادتها موجبة لشىء من اللبس والاشتباه، كما نص على ذلك أيضا ابن يعيش بقوله: «إنها لا تزاد إلا فى موضع لا لبس فيه» (شرح المفصل جـ٨ ص١٣٧).

* * *

هذا ـ وزيادة (لا) لإفادة التقوية والتأكيد على الوجه الذى بيناه آنفا، تقتضى أمرين:

الأول: أن تكون مسبوقة بذلك الذى تؤكده، فلا تقع إذاً فى أول الكلام؛ لأنها لو وقعت كذلك لكان المعنى الوضعى ـ وهو النفى ـ مستفاداً منها بطريق الأصالة، فلا تكون زائدة مأتياً بها لمجرد التقوية والتأكيد ثم يكون من غير المعقول ومن عكس الوضع الطبيعى أن تكون مؤكدة لما بعدها، فإنه إذا جاء بعدها لفظ بمعناها كان هو الجدير أن يعتبر زائداً مؤكدا.

وقد نقل «ابن يعيش» عن «ثعلب» أنه يمنع أن تجىء «لا» الزائدة للتأكيد فى ابتداء القول؛ كما أثبت عن بعض العلماء أنه ينكر ويستقبح أن يأتى الحرف المزيد للتأكيد أول الكلام، وأنه يقول: «إن حكم التأكيد ينبغى أن يكون بعد المؤكد». (شرح المفصل جـ٨ ص١٣٦).

الثانى: أن تكون مؤكدة نفيا استفيد مما قبلها، فلا يمكن أن تأتى لتأكيد ثبوت معنى سلطت هى عليه، فإن من غير المعقول أن يكون نفى المعنى مؤكداً لثبوته، فنفى العلم بشىء لا يؤكد ثبوت العلم بذلك الشىء.

هاتان قضيتان ضروريتان لا تقبلان أن تكونا محلا لخلاف أو اشتباه؛ وقد آثرنا إيرادهما هنا للتنبيه والتذكير، ولأنه سيبنى عليهما الحكم فى المسائل الآتية، التى سنعرض فيها لبعض الآيات القرآنية، تلك الآيات التى وردت فيها كلمة «لا» الزائدة للتوكيد أو غير الزائدة أصلا، كما سيتبين الأمر فى ذلك.

على أنه بالرغم من أن هاتين القضيتين كانتا

من الثبوت والوضوح بالمنزلة التي قد تجعل القول فيهما من الفضول . فقد وجدنا من المفسرين القدامى والمحدثين من يجادل فيهما جميعا أو في إحداهما ، وأن بعضهم يزعم جواز أن تقع «لا» الزائدة للتأكيد في ابتداء الكلام ، كما يذهب بعض آخر إلى جواز أن تقع «لا» الزائدة ، مؤكدة لثبوت نفس المعنى الذي سلطت عليه (١) . وقد ارتكب هؤلاء وهؤلاء ـ في سبيل تخريج بعض النصوص القرآنية على ما ذهبوا إليه ـ شيئا كثيراً من التكلف والتعسف .

قد يقال : إذا كان العلماء قد ثبت خلافهم في القضيتين ، على النحو المصرح به هنا ، فكيف ادعى آنفا أنهما من الضروريات ، التي لا تقبل أن تكون محلا للخلاف أو اشتباه ؟ ألا يكون ذلك من التناقض ؟

والجواب من وجهين :

الأول : أنا في أول الأمر ، لم نقل : إن القضيتين لم يقع فيهما خلاف ، حتى يكون ذلك مناقضا للاعتراف بعد ذلك ، بأنه قد وقع فيهما الخلاف ، وإنما الذي قلناه ، هو أنهما من الضروريات التي لا تقبل أن تكون محلا لخلاف أو اشتباه ، وإذاً يكون حاصل التقريرين ، أن القضيتين ـ على رغم أنهما من الثبوت والوضوح ، بحيث لا تتقبلان أن تكونا محلا لخلاف ـ قد خالف فيهما بعض العلماء .

أما الوجه الثاني : من الجواب ، فهو قائم على عدم التعويل على ذلك الخلاف ، وعدم اعتباره خلافا صحيحا ، فإنه ليس كل خلاف بمعتبر ، إلا إذا كان له حظ من النظر كما يقولون ؛ وهؤلاء الذين خالفوا في القضيتين أو في إحداهما ، ليس لهم مستند فيما صاروا إليه من الخلاف ، إلا ما لاح لهم ببادىء الرأى ، من تلك الآيات القرآنية ، أن «لا» فيها زائدة في أول الكلام ، أو أنها في بعض الآيات لتأكيد ما وجه إليه النفي بها من إثبات ، ولكن من أين لهم أن «لا» في تلك الآيات على ما ظنوا ؟

إن القول بأن «لا» جاءت مزيدة في القرآن في ابتداء الكلام ، أو أنها جاءت في بعض الآيات لتأكيد ثبوت ما هو منتف بها ، هو من قبيل المصادرة ، أو هو مجرد دعوى عارية من الدليل .

. . .

هذا ـ والآيات التي هي مثار هذا البحث ـ وهي التي كثر فيها كلام النحاة والمفسرين ، وتشعبت فيها طرق التخريج والتحليل ، واختلفت فيها وجوه الإعراب والتأويل ـ ،

---

(١) أو يقال : إن الحكم بزيادة «لا» فيما حكم فيه بذلك يلزمه القول بجواز أن تقع «لا» الزائدة مؤكدة ثبوت نفس المعنى الذي سلطت عليه .

يمكن حصرها فى خمسة أقسام سنفصل القول فيها تفصيلا ، ثم نتبعها ببعض متفرقات ، نوردها فى خاتمة البحث، إن شاء الله تعالى :

مجمل الأقسام الخمسة .

القسم الأول : ما كررت فيه « لا » أى ذكرت مرتين فى الجملة الواحدة ، مع الفصل بينهما بقسم .

وذلك مثل قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . (٦٥ سورة النساء) .

ومثال ذلك من الشعر العربى قول امرىء القيس :

فــلا وأبيك ابنــة العامرى
لا يدعى القوم أنى أفــر

القسم الثانى : ما وقعت فيه « لا » مع أن المصدرية بعد فعل منع .

ويدخل تحته قوله تعالى : « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » . (١٢ سورة الأعراف) .

وقوله عز وجل : « قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن » (٩٢ سورة طه) .

القسم الثالث : ما دخلت فيه « لا » على فعل أقسم » .

وهو آيات كثيرة ، مثل قوله تعالى :

« فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » . (٧٥ ، ٧٦ الواقعة)

« فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم » . (٣٨-٤٠ الحاقة)

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » . (١ ، ٢ القيامة)

« لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد » . (١ ، ٢ البلد)

القسم الرابع : ما وقعت فيه « لا » بعد أن المصدرية المسبوقة بلام التعليل ، ثم وقع نفى بعدها فى الجملة نفسها وذلك كما فى الآية الأخيرة من سورة الحديد : قوله تعالى :

« لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

وهذه هى الآية التى اتخذها كثير من العلماء أساسا للقول بالزيادة ، يحملون عليها غيرها من الآيات التى جعلوا « لا » فيها زائدة ؛ فهم كلما صادفتهم آية من هذه الآيات ، قالوا : إن « لا » فيها مزيدة للتأكيد ، كما فى قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب » ؛ كأن « لا » فى هذه الآية الأخيرة مفروغ منها ، ومقطوع فيها الحكم أنها زائدة ، وكأنه لا يستقيم الآية معنى إلا على أساس هذه الزيادة .

ونحن سنبين القول الفصل فى ذلك بمشيئة الله تعالى وحسن معونته .

« القسم الخامس » ما ذكرت فيه أداة النفى

مرتين ، وجاءت ثانيتهما مع ثانى الأمرين ، فى مقام نفى التسوية بينهما » .

وذلك كما فى قوله تعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن » . (٣٤ فصلت)

« وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات » . (١٩ - ٢٢ فاطر)

ومنه قوله سبحانه :

« وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء » .

(٥٨ - غافر)

هذه الآيات جميعها ، التى اشتملت عليها الأقسام الخمسة التى بيناها ، قد قال كثير من العلماء : إن « لا » فيها زائدة ، وخرجوا ذلك تخريجات ، ما نظن أنها كافية للاطمئنان إلى الحكم بزيادتها . (١)

وسنعرض ما قالوه فى آيات كل قسم من تلك الأقسام ، ثم نعقب بالوجه الذى نرى فيه السداد والاستقامة ، فى تفسير هذه الآيات ، وذلك على أساس أن كلمة « لا » فيها - وهى التى قالوا إنها زائدة - ليست بزائدة ؛ بل هى واقعة موقعها ، أصيلة فى موردها ، مؤدية معنى النفى الذى وضعت له فى اللغة .

* * *

القسم الأول :

« ما ذكرت فيه « لا » فى الجملة الواحدة مرتين مع الفصل بينهما بقسم » .

وذلك مثل آية النساء : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » .

هذه الآية قرر فيها « الزمخشرى » - وتابعه كثير من المفسرين - (١) أن « لا » الأولى فى قوله سبحانه :

« فلا وربك لا يؤمنون » زائدة لتأكيد معنى القسم الذى ورد بعدها . وهذا نص عبارته ، قال : « فلا وربك » معناه « فوربك »

---

(١) ممن سار على أن « لا » زائدة فى آيات « الأعراف » ، و « طه » ، و « الحديد » ، من علماء اللغة صاحب « القاموس » ؛ فإنه قال - فى « لا » من باب الألف اللينة - بعد أن ذكر لها عدة استعمالات - : وتكون زائدة : « ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن » « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » « لئلا يعلم أهل الكتاب » .

(١) قد تابع « الزمخشرى » فى القول بزيادة « لا » الأولى جماعة من المفسرين : كأبى السعود ، والفخر الرازى والنسفى ، والألوسى ، والسيوطى ، وغيرهم . غير أن منهم من اقتصر على ما جرى عليه الزمخشرى ، من أنها زائدة لتأكيد القسم ؛ ومنهم من جوز مع ذلك ، أنها زائدة لتأكيد النفى الوارد بعد هذا القسم ، فى قوله : « لا يؤمنون » ؛ كما سنفصل القول فى ذلك ، وهناك رأى ثالث أنها أصلية لنفى أمر دلت عليه الآيات السابقة ، وهو رأى الطبرى وتابعه فيه جماعة من العلماء .

كقوله تعالى : «فوربك لنسألنهم» ؛ و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم ، كما زيدت فى « لئلا يعلم » لتأكيد وجوب العلم ، و « لا يؤمنون » جواب القسم . ثم قال :

فإن قلت : هلا زعمت أنها زيدت لتظاهر « لا » فى « لا يؤمنون » .

قلت : يأبى ذلك استواء النفى والإثبات فيه ، وذلك قوله : « فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم » (١) .

غريب من الإمام « الزمخشرى » أن يسير هذا السير فى تفسير الآية الكريمة ؛ وغريب أن يتابعه فى ذلك جماعة كبيرة من جلة العلماء والمفسرين .

إن كلام « الزمخشرى » هذا ، يمكن أن يعترض عليه من عدة أوجه :

« الأول » من حيث إنه يجعل « لا » ، مزيدة لتأكيد معنى القسم الوارد بعدها ؛ وقد قلنا ؛ فيما قدمناه من قضايا وأحكام : إن هذا خلاف الأصول ، وعكس المعقول ؛ وهو قلب للأوضاع التى يعهدها الناس ، وتجرى عليها اللغات ؛ فإن ما تكون زيادته للتأكيد ، ينبغى أن يكون متأخراً عما هو مؤكد له .

ثم إن « لا » قد ذكرت فى الآية مرتين ، فإذا كان لابد من القول بالزيادة ، فإن الأحق بها « لا » الثانية ؛ أما الأولى فقد وقعت موقعها ، وأدت ما يراد من المعنى ، فلا تكون هى المزيدة .

« الوجه الثانى » مما يعترض به على كلام « الزمخشرى » أنه يجعل «لا» الزائدة تأكيدا لمعنى القسم ، ولا يرضى أن تكون تأكيدا للنفى الذى جاء بعده ، كما يصرح بذلك فى بقية كلامه ، الذى أوردناه له ؛ فكيف تكون «لا» ، التى هى أداة نفى فى أصل وضعها ، مؤكدة للقسم بعدها ، وهو معنى إيجابى ؟ ثم أى علاقة بين « لا » ومعناها ، وبين القسم ومضمونه ، حتى تكون مؤكدة له ؟

لو رضى « الزمخشرى » بأن تكون « لا » الأولى - وهى للنفى أصلا - قد زيدت لتأكيد النفى الذى وقع عليه القسم ، لهان الأمر بعض الشىء ، ولكان نقض كلامه من وجه واحد هو الوجه الأول ، الذى قلنا فيه : إنه جعل السابق تأكيداً للاحق ، وذلك خلاف الوضع الصحيح ، لكنه لم يرض بذلك محتجاً بأن « لا » هذه ، قد زيدت لتأكيد الإثبات ، فى قوله تعالى : «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم » ، وإذا لا تكون تأكيداً للنفى . وهنا يأتى الوجه الثالث ، من أوجه الاعتراض على كلامه .

« فى هذا الوجه الثالث» نقول : إنه جعل «لا» تأكيداً لمعنى القسم ، ولم يجعلها تأكيداً للنفى بعده ، لأن هناك مانعاً - فى رأيه - من

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٧١ ، ٣٧٢

جعلها تأكيداً لهذا النفى : ذلك أنها جاءت فى موطن آخر تأكيداً للإثبات ، فلا تكون تأكيداً للنفى ، لأن النفى والإثبات بمنزلة النقيضين ، فإذا وردت زائدة لتأكيد أحدهما فلا تزاد لتأكيد الآخر .

هذا ما قاله « الزمخشرى » فى توجيه كون « لا » فى آية النساء ، توكيداً للقسم ، وليست توكيداً للنفى الذى بعده ؛ وهو فى نظرنا توجيه غير وجيه ؛ لأنه لا مانع من جعلها فى مقام النفى ، توكيداً لمعنى النفى ، كما كانت فى مقام الإثبات ، توكيداً لمعنى الإثبات ، مادام معنى التأكيد الذى تحمله ، إنما تحمله بحكم أنها مزيدة ، ولمجرد كونها مزيدة ، وليس لسبب آخر ، فهو وصف ملازم للزيادة ، والكلمة مزيدة هنا وهناك ، فلا مانع إذاً من أن تؤدى معنى التأكيد فى الحالين ، وفى كلا الموطنين .

على أنه إذا لم يمكن أن يكون لها الأمران جميعاً : التأكيد فى الإثبات والتأكيد فى النفى ، فالأولى بها والأنسب لأصل وضعها ، أن تقصر على تأكيد النفى ، وتمحض له ، لأن النفى هو أصل معناها ، وطبيعى ألا تخرج من نطاقه ، حينما تزاد للتوكيد [1] .

وقد اقتصر « الزمخشرى » على ذلك الوجه فى إعراب « لا » فى قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، وهو جعلها صلة مؤكدة للقسم .

واقتصر على هذا الوجه أيضاً ـ تبعاً له ـ العلامة « أبو السعود » .

أما « الفخر الرازى » فقد صدر كلامه بهذا الوجه ، أتى به نصاً من غير تغيير كلمة ، ثم أتبعه بوجهين آخرين :

« أحدهما » : على أساس أن « لا » زائدة للتأكيد أيضاً ، ولكنه تأكيد النفى الذى جاء فيما بعد . قال : لأنه إذا ذكر فى أول الكلام وفى آخره ، كان أوكد وأحسن .

والرد على هذا الوجه يعلم مما قدمناه ، فإنه ليس مما يقبل ، أن تكون الكلمة التى ذكرت أولا ووقعت موقعها ، زائدة لتوكيد شىء يأتى بعدها .

« الوجه الثانى » من الوجهين اللذين أوردهما « الفخر » : هو أن « لا » أصلية لا زائدة ، فهى مفيدة معناها الذى وضعت له فى اللغة ، وهو النفى ، ولكن هذا النفى موجه إلى أمر سابق ، وتقدير الكلام : ليس

---

(١) قد جرينا فى مناقشة كلام « الزمخشرى » والرد على استدلاله ، على ما تقضى به قواعد النظر مما فيه الكفاية والوفاء بهذا الرد . أما حقيقة رأينا فى المسألة ، فهى أننا لا نوافق بحال ، على أن = يكون السابق مزيداً لتأكيد اللاحق ، ولا على أن يكون النفى تأكيداً للإثبات هذا ـ ـ وأما قوله : « كما زيدت فى « لئلا يعلم » لتأكيد وجوب العلم » فإنا نرجىء القول فيه إلى ما سيأتى عند الكلام على هذه الآية من سورة الحديد فى القسم الرابع

الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بك وهم يخالفون حكمك . ثم استأنف القسم بقوله : «فوربك لا يؤمنون حتى يحكموك» [1] .

وهذا الوجه قد سبق إليه (ابن جرير الطبرى) ، ولذلك سنؤخر الكلام عليه ، حتى نورد ما قاله هذا الإمام الجليل فى تفسير هذه الآية .

غير أننا هنا نلاحظ ملاحظة سريعة : أن الإمام (الفخر) يقول : ثم استأنف القسم بقوله : «فوربك» ، فإنه صنيع لا يستقيم ، إلا إذا كان نص الآية هكذا : «لا فوربك لا يؤمنون حتى يحكموك» ؛ لكن الأمر ليس كذلك ، وليست الفاء فى الآية متصلة بالقسم ، على النحو الذى جاء به كلام الإمام الرازى .

• • •

تفسير الإمام الطبرى آية النساء :

قول الله تعالى : «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم» .

قال رحمه الله : يعنى جل ثناؤه بقوله : (فلا) فليس الأمر كما يزعمون ، أنهم يؤمنون بما أنزل إليك ، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد . واستأنف القسم ، جل ذكره . فقال : (وربك) يا محمد (لا يؤمنون) أى لا يصدقون بى وبك وبما أنزل إليك «حتى يحكموك فيما شجر بينهم» ؛ يعنى حتى يجعلوك حكما بينهم ، فيما اختلط بينهم من أمورهم ، فالتبس عليهم حكمه . اهـ . [2]

ومعنى هذا أن النفى الأول (فلا) ، موجه إلى أشياء سبق القول فيها ، فى الآيات التى قبل هذه . فهو تكذيب لأولئك المنافقين ، فى زعمهم أنهم مؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبما أنزل عليه . على حين أنهم يضمرون الخلاف والكفر به ؛ ولذلك هم لا يقصدون إليه صلى الله عليه وسلم ليحكم لهم فى شؤونهم ، بل يتحاكمون فيها إلى الطاغوت ؛ ثم استؤنف الكلام بخطاب الرسول ، والإقسام له بربه ، بقوله سبحانه : «وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» .

فهو كلام مبتدأ مبدوء بالقسم من الله على أن أولئك المنافقين لا يؤمنون إيمانا صحيحا ، يعتقدون فيه اعتقادا يقينيا جازما ، حقية رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يحكموه فى شؤونهم ، ويرضوا بحكمه ويطمئنوا إليه ، فلا يكون عندهم شىء من الضيق أو التبرم بحكومته ، وإنما يذعنون لها إذعانا خالصا ، ويسلمون بها تسليما تاما .

هذا كلام له فى ظاهره شىء من الوجاهة ، ولكنه عند التحقيق لا يستقيم تمام الاستقامة ، على المعهود من أسلوب القرآن ، الذى هو فى أعلى درجات البلاغة ؛ إنه لا يستقيم على

---

(١) التفسير الكبير ج ٣ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ الحسينية .

(١) تفسير الطبرى ج ٨ ص ٥١٨ دار المعارف

أسلوب القرآن ، ذلك الاقتضاب الشديد ، بل ذلك البتر ، الذى تصير إليه الآية على ذلك الرأى .

إنه على ذلك الرأى ، تكون كلمة (فلا) وحدها، قد حلت محل جملة تامة من الكلام، مقصود بها الرد على ذلك الزعم ، الذى زعمه المنافقون . وحينئذ يكون الوقف على تلك الكلمة (فلا) جائزا ، لا بل إنه يكون وقفا تاما ، من حيث إنها حلت محل آية كاملة ، أو محل جملة تامة من آية، وهذا شىء نستطيع أن نقول : إنه يأباه الذوق القرآنى الكريم. ونكتفى بهذا عن أن نقول : إنه شىء يأباه ذوق كل أسلوب عربى سليم .

إننا - وأيم الحق - لا ندرى كيف كانت كلمة (فلا) هذه ، المقتضبة المبتورة ، مفيدة ذلك المعنى الذى أشار إليه (الطبرى) ومن رأى رأيه .

إن هذه الكلمة لا تشعر بشىء مما قالوه ، حين ننطق بها وحدها ، مقطوعة عما بعدها ، وبعد تلاوة الآيات التى سبقتها ، وهى الآيات التى قالوا: إن الكلمة تحمل الرد على مزاعم المنافقين ، التى حدثت عنها تلك الآيات .

ولا بأس أن نعرض هنا تلك الآيات ، التى سبقت الكلمة « فلا » ، ثم نتبعها بها موقوفا عليها ، كما يريد أصحاب ذلك الرأى ، ثم نرجع إلى أنفسنا ، لنرى هل شعرت حقيقة بذلك المعنى ، ينبع بقوة من قلب تلك الكلمة ، أو أنها قد مسته ولو مسا خفيفا ، بعد أن حلت به وأكرهت عليه .

إن الآيات التى نريد عرضها هنا ، هى الآيات من الستين إلى الرابعة والستين ، من سورة النساء ، وهى التى يقول الله سبحانه وتعالى فيها :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، (٦٠) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول. رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، (٦١) فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، . (٦٢) أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم، وعظهم، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا، (٦٣) وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، (٦٤) « فلا » .

هذه هى الآيات ، وهذه كلمة « فلا » عقيبها موقوفا عليها ، فما الذى أفهمته هذه الكلمة ؟ ومن الذى يستطيع أن يدعى ، أنه

قد عقل منها ذلك المعنى ، الذى حملت به أو شيئا منه ؟ .

إن ذلك المعنى الذى حملوا به تلك الكلمة ، قد تصيدوه لها تصيدا ؛ وهو ـ مع ذلك ـ لا يكاد يفهم إلا بمعونة الآية المبدوءة بتلك الكلمة ذاتها ، وهى قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

ومن هنا يقول « أبو حيان » ـ كما سيأتى فى آيات القسم الثالث : إن ذلك الوجه لا يجوز لأنه يلزم عليه حذف اسم «لا» وخبرها من غير دليل .

. . .

الوجه المختار فى تفسير آية النساء :

إن الحكم الذى تحمله آية النساء : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هو حكم بنفى الإيمان عن أولئك المنافقين ، الذين يزعمون أنهم مؤمنون بما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبما أنزل من قبله ، على حين أنهم لا يحبون أن يتحاكموا فى شؤونهم إليه .

فالآية نفى للإيمان عنهم ، وحكم فصل بأنه لا يثبت الإيمان لهم ، إلا إذا كانوا يحكمونه صلى الله عليه وسلم فى شؤونهم ، عن رضا وكمال اختيار ، ويطمئنون إلى حكمه ويذعنون له تمام الإذعان .

وإذا كان الحكم فى الآية هكذا ؛ قوامه نفى الإيمان عن أولئك المنافقين حتى يحققوا شرطه الذى بينته الآية ، كان من مقتضى البلاغة القرآنية ، إبراز ما يدل على الاهتمام بهذا النفى ، والعناية بما يكسبه قوة وتأكيدا .

وهذا هو السر فى مجىء أداة النفى فى صدر الكلام ، للدلالة على العناية بحكم النفى والاهتمام بشأنه ، ثم فى تأكيد هذا النفى بالقسم مع المبادرة بهذا القسم مبادرة تقضى بتوسيطه بين أداة النفى والمنفى بها .

إن الاهتمام بالنفى ، وإبراز ما يدل على هذا الاهتمام ، وتأكيده بالقسم والمبادرة به مبادرة تجعله فى شبه مقام الصدارة ، فلا يتقدم عليه إلا أداة النفى وحدها ، حتى يكون من أثر ذلك أن يفصل بالقسم بينها وبين المنفى بها ـ إن هذا كله قد جمعته الآية فى أسلوبها الرائع الذى جاءت عليه .

فقد كان من الممكن ـ لإفادة المقصود الأصلى من الآية ، مجردا عن الوفاء بتلك المعانى الخاصة ـ أن يقال : «فوربك لا يؤمنون حتى يحكموك» كما قيل فى الإثبات : «فوربك لنسألنهم أجمعين» ؛ لكن هذا الوضع تفوت به الدلالة على قوة الاهتمام بحكم النفى ، تلك

الدلالة التي إنما يوفى بها تقديم أداة النفى ، وجعلها فى صدر الكلام .

وكان من الممكن أيضا أن يقال : « فلا يؤمنون وربك حتى يحكموك » ؛ ولكنه وضع ضعيف ، هو أضعف من سابقه ، من حيث إنه قد زحزح فيه القسم ، عن حكم مكان الصدارة ، حتى فقد قوته البالغة ، فى تأكيد حكم النفى ، وهى القوة التى تتوافر له فى حالة تقديمه .

إن القسم إذا أخر عن الحكم ، فإنه لا يتخلف عن أن يفيد توكيد هذا الحكم ، ولكنه توكيد يأتى متأخرا ، بعد ما يقع الحكم بالنفى عاريا عن ذلك التوكيد .

هذا ـ وحاصل هذا الوجه المختار ، الذى يتقرر به الأمر فى كلمة « لا » فى آية النساء التى معنا :

١ ــ أن « لا » الأولى فيها ليست زائدة لتأكيد القسم ، ولا لتأكيد النفى الذى جاء بعده ، لما قدمناه من البيان .

٢ ــ وكذلك ليست زائدة توطئة وتمهيدا للنفى الوارد بعد القسم ، على ما يحكيه العلامة الطبرسى (١) وذلك أن « لا » الأولى هى بعينها « لا » الثانية من دون اختلاف أى اختلاف ، ومثل هذا لا يقال فيه : إن أول الأمرين موطىء وممهد للثانى ، بل الذى يقال ـ وهو المعهود فى مثل هذا المقام ، ولا معهود غيره ـ : هو أن أول الأمرين واقع موقعه ، والثانى مؤكد له .

٣ ــ وكما أنها ليست زائدة لشىء من ذلك هى ليست أصلية لنفى شىء علم مما سبق من الآيات ، كما يقول « الطبرى » لما قدمناه .

وإذا فهى أصلية واقعة موقعها ، مفيدة معناها الذى وضعت له ، وهو النفى ؛ فهى لنفى شىء يأتى بعد فى الآية نفسها . أما « لا » الثانية فهى المزيدة ، كما تقضى بذلك طبيعة الأشياء .

وهذا الوجه قد أشار إليه أبو حيان فى (البحر المحيط)[١] ، حكاه فيما حكى من أقوال ، وهو رأى قد خطا به صاحبه خطوات فى سبيل الوجه المختار فى تفسير الآية ، لكنه لم يبلغ فى ذلك الغاية المرجوة .

وذلك أن « لا » الثانية ليست زيادتها فى رأينا ـ لمجرد التأكيد ، كما يحكى « أبو حيان » فى بعض تلك الأقوال ؛ لأنه لو كانت زيادتها لذلك وحده لأمكن أن يستغنى عنها ، ويكون

---

(١) مجمع البيان للشيخ أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى ج ٣ ص ٦٨ ــ ٦٩ مطبعة العرفان صيدا ــ سوريا .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ج ٣ ص ٢٨٤ .

الكلام مستقيما بدونها ؛ فهل يمكن مع المحافظة على الخصائص التي أشرنا إليها فيما سبق ـ أن يقال « فلا وربك يؤمنون حتى يحكموك ».

لا نظن أنه يمكن ذلك في أسلوب البلاغة القرآنية ؛ فإن هذا وضع في ظاهره شناعة يبرأ من مثلها الكتاب العزيز .

إن هذا الوضع قد يحمل بظاهره على الظن الخطأ ، بتوجيه القسم غير وجهته الصحيحة ، فإنه قد يظن خطأ في بادىء الرأي ، أن المقسم عليه هو إيمان أولئك المنافقين ، وليس هو نفي الإيمان عنهم ؛ وهذا هو ما تقضي عليه « لا » الثانية وتمحو أثره .

« غير أنه قد يقال » : كيف تكون « لا » هذه زائدة ، وقد حصلت تلك الفائدة الكبرى وقضت بوجودها على ما قد يتوهم من ذلك المعنى الخاطىء ؟ أليس فيما قرره العلماء ، أن الكلمة الزائدة في التركيب لا يخل إسقاطها منه بما يؤديه من المعنى ؟

والجواب ، أن إسقاط الكلمة الزائدة لا يخل بما يؤديه التركيب من المعنى الأصلي ولكنه قد يخل بما يراد إفادته من المعاني البلاغية التي يتسابق في ميدانها البلغاء .

فالزيادة التي يمكن إسقاطها فلا يتأثر بسقوطها المعنى ، هي الزيادة التي تكون لمجرد التأكيد ، أما إذا كانت لشيء آخر كالذي أشرنا إليه آنفاً في الآية التي معنا ـ وهو أنها لدفع توهم غير المراد ـ فالذي نراه أنه لا يمكن من جهة البلاغة ، طرح هذه الزيادة .

وإذا كان أهل العربية يقررون أن أداة التعريف « أل » ، قد تكون زائدة لازمة ، ويقول في هذا المعنى ابن مالك :

وقد تزاد لازما كاللات
والآن والذين ثم اللات

فإننا نستطيع أن نقرر هنا ، أن « لا » الثانية في الآية ، هي في الاعتبارات البلاغية من قبيل الزائد اللازم ، فلا يمكن الاستغناء عنها ، نظراً إلى ما تؤديه من المعنى الضخم ؛ وما تدفعه من خطأ الوهم .

. . .

هذا ـ وعلى الوجه الذي اخترناه في آية النساء ، يستقيم بالضرورة بيت امرىء القيس :

فلا وأبيك ابنة العامري
لا يدعي القوم أني أفر

فإنه صدره بأداة النفي التي هي أصلية في موضعها ، إذ ينفي بها عن نفسه ما قد يدعيه القوم عليه من الجبن والضعف ، والفرار من من لقاء العدو ، وهو ما أشار إليه في هذا البيت نفسه لا في بيت آخر .

وهذا الحكم مهم عنده ، وهو حريص كل الحرص على تقريره وتوكيده ، ولذلك بادر فيه بأداة النفي ، ثم أراد أن يؤكد النفي وأن يبادر بهذا التأكيد ، حتى يكون له ما يشبه

مكان الصدارة الحقيقية ، فأتى بالقسم واليأ لأداة النفى ، وكان من نتيجة ذلك ، أن فصل به بين أداة النفى والمنفى بها ـ وهو فصل مغتفر من أجل أنه بالقسم كما يقرر العلماء ـ ثم زاد « لا » الثانية لأمرين :

« أولها » ـ وقد يكون هو أدناهما فى الاعتبار ـ هو قصد تأكيد النفى المستفاد من « لا » الأولى .

« والثانى » ـ وهو الأهم ـ هو إرادة الحيلولة دون ما يلزم على إسقاط « لا » الثانية من صورة الأمر المستكره لو قيل :

لا وأبيك وابنة العامرى
يدعى القوم أنى أفر

ومن هذا يتبين أن « لا » الأولى فى بيت امرىء القيس ليست زائدة لتأكيد القسم الذى بعدها ، ولا لتأكيد النفى الذى بعد هذا القسم ؛ وليست أصلية لنفى شىء دل عليه كلام سابق ؛ وإنما هى أصلية لنفى ما أراد نفيه فى البيت نفسه ، من ادعاء القوم أنه جبان فرار .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى كل ما هو من قبيل بيت امرىء القيس ، مما يكون على نهج تلك الآية القرآنية الكريمة .

هذا ـ وتعرض هنا ملاحظة بسيطة : على ماجاء فى التفسير الكبير للإمام «فخر الدين الرازى» فى تفسيره أول سورة « القيامة » ، من نقاش حول بيت امرىء القيس ، وأنه يصلح للرد على دعوى أن « لا » لا تزاد فى أول الكلام ، إذ أن الشاعر زادها فى مستهل قصيدته .

والذى نريد أن ننبه إليه ، هو أن المتبادر من عبارة « مستهل » القصيدة هو مطلعها ، وأن المراد أن الشاعر زاد كلمة « لا » فى أول البيت الذى هو مطلع القصيدة .

ولكن الحقيقة أن البيت ليس هو مطلع تلك القصيدة ، بل مطلعها بيت قبله يقول فيه :

أحار بن عمرو كأنى خمر
ويعدو على المرء ما يأتمر

تنبيه : قد تبين مما قدمناه ، أن رأينا فى هذا الموضوع ؛ هو أن « لا » الأولى ليست زائدة فى آية النساء ؛ وليست زائدة فى بيت امرىء القيس ؛ سواء أكان البيت هو مطلع القصيدة أم لم يكن كذلك ؟

(يتبع)

عبد الرحمن تاج
بحث مهدى للمجلة

لا وساطة بين الخالق والمخلوقين

للأستاذ محمد محمد المدني

من العقائد التى قررها القرآن الكريم ؛ وكان لها أثر بعيد فى إصلاح أحوال البشر : تلك التى تصف الله تعالى بأنه قريب من عبده . يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . دون وساطة أحد من الخلق .

ومن الآيات التى تقرر هذا قوله تعالى :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

وفى هذه الآية الكريمة يبدأ الله تعالى بمخاطبة رسوله فيقول له : « وإذا سألك عبادى » فهو يتحبب إليهم . ولا ينتظر سؤالهم عن ذلك فعلا . بل يعرضه . ويشير إليهم بأنه ينتظره ؛ وهو يصفهم بأنهم « عباده » فيضيفهم إلى ضمير التكلم تكريما لهم ؛ وإيذاناً بحبه ورحمته ثم يأتى بجواب (إذا) فيقول : « فإنى قريب » ولا يقول : - كما يقتضيه ظاهر الكلام - فقل لهم : إنى قريب ؛ وذلك لأنه يريد أن يعجل لهم الحقيقة ذاكراً إياها بأسلوب مباشر منه هو ؛ ليس فيه واسطة ، دالا على أن هذا هو شأنه المتقرر بذاته لا بقول يقال ؛ ثم هو « قريب » : إما على معنى قوله فى آية أخرى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » - أى قرب الحضور والعلم - وإما على معنى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » - أى هو قريب برحمته واستجابته بحيث لا يحتاج عباده إلى أن يتخذوا بينهم وبينه سفيراً أو وسيطاً ؛ ثم يقول : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » فيرشد إلى أن قرب الإجابة مرتبط بصدق الاتجاه فى الدعاء ، وذلك إذ يذكر « الدعوة » وهى لا تكون جديرة بهذا الاسم إلا إذا كانت خالصة لله ؛ ويذكر « الداعى » وهو ذلك الذى التجأ إلى ربه عالما بأنه لا يسوق الخير حقاً أحد سواه ، ولا يدفع الضر حقاً أحد سواه ؛ ويذكر « إذا دعان » ليؤكد معنى الإخلاص وصدق التوجه ؛ ثم يأمر عباده بأمر جامع لكل ما يرشح العباد لقبول الدعاء . فيرشدهم بذلك إلى أن مفتاح الإجابة هو الاستجابة : « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

وإذن فليس هناك شرط للقبول يرجع إلى

أحـــد بين الخالق والمخلوقين ؛ وإنما شرط القبول هو الاستجابة والإيمان . وهما فى إمكان العبد .

* * *

وقد انبنى على هذا الأصل أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده مباشرة . دون أن يلجئهم إلى أن « يعترفوا » لأحد . أو يدلوا بأية وساطة أو سفارة . وأن الكرامة الإنسانية حفظت على الناس ؛ فلم يعد أحد محتاجا إلى أن يبذل ماله أو ماء وجهه لإنسان مثله ؛ باسم أنه حبر من الأحبار ؛ أو كاهن من الكهان ؛ أو عالم من العلماء ؛ لكى يكشف له ما ستر الله عليه من ذنبه ؛ ثم يطلب منه أن يهبه أو يبيعه الغفران .

ولقد كان هذا الأمر قد وصل قبل الإسلام إلى حد الوهم والخرافة التى جعلت الناس تحت سيطرة رجال الدين ؛ لا ينقضون أمراً ؛ ولا يبرمون أمراً فى شئونهم الخاصة أو العامة إلا بإقرار رجال الدين ؛ فمن أراد أن يبيع فلا بد له من أن يستأذن الكاهن ؛ ومن أراد أن يهب شيئاً من ماله أو ملكه ؛ فلا بد له من أن يحصل على موافقة الكاهن ؛ ومن أراد أن يرهن أو يتعاقد ؛ أو ـ حتى ـ أن يموت ! فلا بد من أن يتدخل فى أمره الكاهن ؛ وما كفاهم ذلك حتى زعموا أنه لا توبة إلا بهم ؛ ولا غفران إلا عن طريقهم واستعبدوا الناس بهذا الأسلوب وخوفوهم ؛ وعطلوا مواهبهم ؛ وضيعوا كرامتهم .

ولذلك كان فضل القرآن على البشرية عظيما إذ هدم هذه الأوهام ؛ وخلى بين العباد ورب العباد على هذا النحو من القرب والتجاوب .

* * *

وكما حرص القرآن على انتزاع هذا الوهم من نفوس الناس ؛ وعلى إفهامهم أن الله وحده هو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون ؛ حرص كذلك على انتزاع هـــذا الوهم من نفوس القادة والمتصدرين فى شئون الدين ؛ حتى وصل الأمر به إلى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار للمشركين ؛ أو الصلاة عليهم إذا ماتوا ؛ وكذلك نهى أصحابه عن الاستغفار لهم قطعا لدابر هذا الوهم الذى جعل الناس من قبل فريقين : فريق الشعب الذى يتطلب الغفران ؛ وفريق رجال الدين الذين يمنحونه أو يتوسطون فيه .

فمن ذلك قوله تعالى :

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

فبين بذلك أن استغفار الرسول لهم لا ينفعهم ؛ وألمح إلى أن الاشتغال به ليس مما يستحبه الله لانه اشتغال بما لا فائدة فيه .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

وهذا بيان لما شرعه الله تعالى فى شأن من يموت من المنافقين . الذين هم فى الحقيقة كافرون ، وقد تقدمه بيان لما شرعه جل شأنه فى شأن الأحياء منهم ، إذ جاء قبل هذه الآية مباشرة من سورة التوبة :

« فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين » .

ومجموع الآيتين يفيد : أن الله يأمر نبيه بأن يقطع ما بينه وبينهم فى حال الحياة ، وفى حال الممات ، فلا يقبل خروجهم معه إلى الجهاد بعد تخلفهم الذى تخلفوه عنه ، ولا يقدم على الاستغفار لهم أو الصلاة عليهم بعد موتهم .

وبين له أنه لا ينفعهم استغفاره أو صلاته لأنهم ماتوا وهم فاسقون ، ورضوا بالقعود من قبل وهم قادرون .

ومما ورد فى ذلك أيضا قوله تعالى :

« سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وذلك حديث عن الأحياء منهم بدليل قوله « إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وفى ذلك النهى العام عن الاستغفار للمشركين مهما كان شأنهم يقول الله تعالى أيضا :

« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » .

والتعبير بقوله « ما كان للنبى والذين آمنوا » يفيد قوة فى النهى عن ذلك ، إذ هو نفى لأن يكون لأحد منهم هذا الحق ، على حد قوله تعالى فى النهى عن إيذاء النبى وعن نكاح أزواجه من بعده :

« وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما » .

ولما كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قد سلف منه الاستغفار لأبيه ، جاء بعد هذه الآية قوله تعالى :

« وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم » .

وهو تعليل لإقدام إبراهيم على الاستغفار لأبيه ، بأنه كان توفية بوعد وعده إياه ، كما حكى الله عنه أنه قال له « لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء » ، أى : وما أملك لك هداية ولا غفرانا ، وإنما الله هو المالك لذلك . وقد وفى إبراهيم بهذا الوعد ، كما حكى الله عنه أنه قال فى دعائه

« واغفر لأبى إنه كان من الضالين » فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه ، وهو قبل هذا التبين كان طامعا فى إيمانه وإقلاعه عن الشرك ، فاستغفاره له بمعنى الدعاء لله تعالى أن يهديه ، لأنه لا يمكن أن يغفر له وهو مصر على الضلال ، راسخ القدم فى الشرك .

فكأن القرآن يقول للنبى والمؤمنين : ليس لكم أن تستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، بعد أن يتبين لكم أنهم ثابتون على الشرك ، أو أنهم قد ماتوا وهم مشركون ؛ وإبراهيم إنما استغفر لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له ذلك تبرأ منه .

ولما كان قد يفهم من ذلك أن للمسلمين أن يأتسوا بفعل إبراهيم فى ذلك ، فيستغفروا للمشركين قبل أن يتبين لهم إصرارهم أو موتهم على الكفر ، أراد القرآن أن يبطل هذا المفهوم بصراحة ، ويبين أنه مفهوم غير مراد ، ولذلك جاء التصريح فى سورة الممتحنة باستثناء التأسى بفعل إبراهيم فى ذلك من وجوب التأسى به فى معاملة المشركين .

وذلك قوله تعالى : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ـ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء » .

أى : أنتم أيها المؤمنون مطالبون بالتأسى بفعل إبراهيم والذين معه فى شأن المشركين ؛ إلا فى قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ؛ لأن ذلك ، وإن أقدم عليه إبراهيم قبل أن يتبين له أن أباه من أصحاب الجحيم ؛ ليس مما يحب الله أن يؤتسى به فيه ؛ وذلك سدا لباب الشفاعات ، ودرءا لأن يفتح ولو على نحو من التأويل .

وهكذا يحسم القرآن هذا الأمر حسما كاملا ، فلم يبق لإنسان أن يعتمد إلا على نفسه ، وإصلاح ما بينه وبين الله بالتوبة المباشرة ، والاستغفار المباشر ؟

محمد محمد المدنى

الحلال والحرام

للأستاذ عبد الله كنون
عضو مجمع البحوث الإسلامية

ليس شيء من تعاليم الإسلام - بعد القواعد الخمس - أحق بالبحث من مسألة الحلال والحرام ؛ لأنها مناط الفعل والترك وعليها ينبني سلوك الفرد المسلم ، وبها تتميز طبيعة المجتمع الإسلامي ويختلف كثيرا عن غيره من المجتمعات ؛ وإذا كان هذا حقيقة ثابتة فيما مضى من العصور ؛ فإنه في عصرنا الحاضر ، الذي طغت فيه المذاهب والآراء الاجتماعية والتربوية المختلفة المبدأ والمتعددة الغاية ، أحرى أن يكون حقيقة الحقائق وأكثرها ثبوتا عند النظر والاختيار ؛ كي نحتفظ لمجتمعنا بسمته الإسلامية التي تجعله واضح المعالم بعيدا عن التأثر والانفعال بالأفكار الهدامة والدعوات الموبوءة .

وليس علينا من نقيصة ولا عار إذا نحن بحثنا مسألة الحلال و الحرام في هذا العصر الذي يسمونه عصر الحرية وعصر النور ؛ موهمين السذج والأغرار أن العصور الماضية كانت عصور عبودية وعصور ظلام ؛ فهل هي إلا مسألة قانونية تتعلق بحفظ النظام وحقوق الإنسان وبناء المجتمع الفاضل الذي توخاه الحكماء والفلاسفة من قديم الزمان ؟ ومتى كان بين الحرية والقانون تعارض ؛ وهي التي لا تنتعش ولا ترتاش إلا إذا حماها القانون ، فإذا تخلى عنها صارت فوضى وتعسفا لا يطاق ؟ .

ولعل أحدا منا لا يختلف في أن عصور النور الحقيقية هي التي تصان فيها الحرمات وتحفظ كرامة الإنسان ويكون للقيم الروحية والأخلاقية الدولة والسلطان على ما عداها من المذاهب والآراء . أما إذا ديست هذه المعاني السامية بالأرجل ؛ وأطلق العنان للغرائز الحيوانية تمارس حريتها ؛ فإن ذلك هو الزمن الذي يسود فيه الظلام ولو غلبت أضواء ليله على نهاره .

إن مسألة الحلال والحرام هي عين القانون الذي يضبط قضية الحرية ، ويحدد شروط مزاولتها للناس أي أنها تعيين الفعل والترك وما لا يجوز أن يتورط الإنسان فيه منهما تفاديا لطائلة العقاب . ومعلوم أنه بقدر احترام الإنسان للقانون تسمو مكانته في المجتمع ويبتعد عن مواطن الاتهام ؛ وأنه لا يتلطخ بالتهمة ويوصف بالإجرام إلا من استهان بحرمة القانون واجترأ على مخالفته . فهل علينا إذن من حرج إذا نحن بحثنا في هذا الجانب

من قانوننا الإسلامى وأحكام شريعتنا الغراء التى هى أكمل الشرائع وأعدل القوانين ؟

وباعث آخـــر يحملنا على تناول هذا الموضوع . وهو تجلية مايتضمنه حكم الشرع الشريف فى مسألة الحلال والحرام من السماحة والتيسير ورفع الحرج عن الناس وعدم التضيق عليهم فى مطالب الحياة . على خلاف مايعتقده الكثير منهم فى هذا الصدد إذا سمع كلمتى : الحلال والحـرام فيظنون أن الالتزام بذلك من العسر بمكان لما فيه من التشديد والمشقة والحـــرمان . وهو اعتقاد خاطىء لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ويقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الدين يسر فأوغل فيه برفق » ويقول : « بعثت بالحنيفية السمحة » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تؤكد أن روح الإسلام هى هذه السماحة والتيسير المتجليان فى جميع تعاليمه سواء كانت من قبيل العادات أم العبادات . ومسألة الحلال والحرام ذات شعب ثلاث .

إحداها : تتعلق بالبراءة الأصلية وحكمها حلية الأشياء مالم يتبين ضررها لقوله تعالى : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » قال القلشانى : اختلف فى تعريف الحلال فقيل : هو مالم يعرف أنه حرام . وقيل : هو ما عرف أصله . والأول أرفق بالناس لا سيما فى هذا الزمان.

ثانيتها : تتعلق بتحقق المضار وحكمة الحرمة سواء كانت المضرة للنفس أو للغير لحديث ابن ماجه وغيره : « لاضرر ولاضرار » يعنى فى شرعنا ، والمراد أن ذلك لا يجوز . فيحرم كل فعل أو قول يضر بنفس الإنسان كالانتحار والسكر والكذب وما إلى ذلك كما يحـــرم كل فعل أو قول يضر بالغير كالقتل والغصب والغيبة وما أشبه ذلك .

وهاتان الشعبتان لا خلاف فيهما بيننا وبين جميع أصحاب القوانين الوضعية إلا من حيث التعبير . فنحن نطلق على جزئياتهما لفظ حلال وحرام على ما أتى به الشرع . وينبغى أن نحتفظ بهذا الإطلاق لما له فى نفوسنا من دلالة موحية بالامتثال لأمره عز وجل . ورجال القانون وعلماء الأخلاق يعبرون بحرية التصرف وبالمخالفة مثلا ، ولا زائد على ذلك .

ثالثها : تتعلق بما تردد بين المنفعة والمضرة واشتبه أمره على كثير من الناس وهذا يجب أن نقف عنده وقفة طويلة لأنه المقصود من هذا البحث إذ مرجعه إلى أمور المعاملة بين الناس . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الدين المعاملة » .

فبعض الناس تهتك فيه حتى قال قائلهم تلك العبارة التى تجرى على ألسنة كثير من المتحللين من أوامر الشرع المطاع وهى « الحلال : ما حل باليد » ، وبعضهم تشدد فيه غاية التشدد حتى نفى أن يكون فى الوقت شىء حلال . قال

الجزولى : اختلف فى وجود الحلال فى زماننا هذا فذهب الغزالى إلى أنه معدوم وذهب ابن العربى إلى أنه موجود وهو المشهور ولكن طلابه قليل » .

فهل الأمر بهذا الغموض حتى يصح أن يذهب القوم هذين المذهبين المتطرفين فى التحلل والتشدد ؟

اللهم لا ! فقد جاء فى الصحيح عن النعمان ابن بشير رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الحلال بين وإن الحرام بين ؛ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ؛ ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام » الحديث .

فهذا صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقرر أن الحلال بين واضح لا خفاء به لمن أراده وطلبه ؛ وهو لا يكون كذلك إلا إذا كان موجودا غير معدوم ولا مفقود . وكذلك الحرام موجود لأنه بين ظاهر ؛ وإنما يبقى بينهما أمور قليلة تشبه أن تكون حلالا أو حراما فينبغى تجنبها ما دامت الشبهة قائمة ؛ خوفا من الوقوع فى الحرام فإذا انتفت شبهة الحرام وضعفت حلت (ولا ينبغى الاستقصاء فى السؤال عن ذلك فإنه بدعة) قاله النووى .

وأيضا فإن مما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » ، وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » الحديث ، فهل يعقل أن يتحدث النبى إلى الناس مبينا لهم ما نزل إليهم من الأمر بطلب الحلال الطيب وعدم الأكل إلا منه ؛ وأنهم ورسل الله فى ذلك سواء ، ثم يكون هذا الحلال الطيب مفقودا غير موجود ؟

إن ذلك يقتضى أحد أمرين إما بطلان التكليف ، وإما التكاليف بالمحال . وكلاهما باطل ينزه الشرع الشريف عنه .

وفى الحديث : « لو كانت الدنيا دما عبيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالا » وفى رواية « لو كانت الدنيا بركة دم لكان رزق المؤمن منها حلالا » وهو وإن كان لا يعرف له إسناد إلا إنه صحيح المعنى . بل هو من فحوى الخطاب الوارد فى الآيتين المذكورتين فى الحديث قبله .

وإذن فالحلال موجود باق ببقاء التكليف لا يصح إنكاره ولا دعوى فقده فيما مضى من الزمن ولا فى زماننا الحاضر ولا فى الزمن الآتى . والذين قالوا بعدم وجوده أوقعوا أنفسهم والأمة فى ورطة عظيمة من حيث لا يشعرون . فهم إذا كانوا يعتقدون عدم وجوده كان عليهم أن لا يتبلغوا إلا بما يسد الرمق ولا يتسعوا فى مأكل ولا مشرب ولا ملبس . وهو حرج فى الدين ما أنزل الله

به من سلطان . فإذا خالفوا ذلك وقعوا فى الحرام وهم يعلمون . وهذا لا يناسب العلم ولا الزهد الذى يدعون . وأما الأمة فقد جعلوها تتخبط فى الحرام وتغرق فى بحره من غير مبالاة بأمر الشرع حتى قامت طائفة منها تعتقد بحلية ماحرم الله وتقول تلك القولة المنكرة : « الحلال ما حل باليد » وهذا كلام يشبه أن يكون مروقا من الدين أدى إليه التزمت والتنطع والغلو المذموم .

والحق الذى يجب أن لا يعدل عنه هو أن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله وكلاهما ظاهر لا خفاء به ؛ وليس الحلال هو كل ما حل باليد ولا الحرام فقط هو الموجود ؛ فإذا تحرى المسلم فى بعض المعاملات الربوية الخفية وتجنب الغش والغرور ؛ فكل كسبه حلال طيب إن شاء الله لا شبهة فيه ولا حرام . فالعامل إذا قام بما عليه من عمل ولم يغش فيه فأجره حلال طيب ؛ والتاجر إذا نصح فى تجارته ولم يغر بها فكسبه حلال طيب ؛ والموظف إذا قام بواجبه وأدى ما عليه من حق فرتبه حلال طيب ؛ وهكذا كل من زاول عملا وقام بخدمة ، مخلصاً النية فى ذلك فما يستفيده لقاء أتعابه من مال ، كله مال حلال لا شبهة فيه ولا دخل .

ولقد جاء فى شرح الوغليسية للشيخ زروق رحمه الله أن أصول الحلال عشرة : تجارة بصدق ؛ وأجرة بنصح ؛ وأعشاب الأرض غير المملوكة ؛ وصيد البحر وصيد البرفى غير الحرم والإحرام ؛ وأقسام الغنائم وأخماسها إذا قسمت بالعدل وأصدقة النساء ؛ والمواريث ما لم تعلم حرمتها ؛ والسؤال عند الحاجة الشديدة : وينبغى أن تكون هذه أمثلة للحلال لا أصولا له بدليل أن بعضهم زاد عليها الهدية من أخ صالح وماء النهر . والمهم أن زروقا وهو محتسب العلماء والأولياء كما يقولون عنه ، لم يذهب مذهب الغلاة من الفقهاء والمتصوفة فى عدم وجود الحلال . وأهم من ذلك أنه لم يقل بوجوب النظر فى أصول هذه الأشياء وأصول أصولها كما يشترط بعض المتنطعين لأجل أن تكون حلالا . وهذه هى روح التشريع الإسلامى المبنى على المسامحة وعدم التعنيت ، لا ما يأخذ به أنفسهم أولئك المفتاتون على الشرع ؛ ويحاولون أن يأخذوا به غيرهم من عامة المسلمين فينفرون الناس ، وقد أمروا أن يبشروهم ويعسرون عليهم وهم مطالبون بالتيسير والتسديد والمقاربة (ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه) وفى القرآن العظيم : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » ؟

عبد الله كنون

نقض ما كُتب في رسالة

" دراسة في أصوات المدّ في التّجويد القرآني "

للأستاذ محمد الصادق عرجون

— ٣ —

١٠ — ومن العجيب استشهاد صاحبة الرسالة ص (١٧) على التغيير الذى تناول نظام الجملة القرآنية فى إطار اللغة العربية بروايات عن بعض أجلاف الأعراب - الله أعلم بصحة نسبتها إليهم - ثم لا تكلف نفسها البحث عن قيمة هذه الروايات ومتانتها من العلم والبحث ، فتذكر رواية عن أعرابى قدم وأخر فى آيتى آخر سورة الزلزلة ، فوضع الآية الأولى مكان الثانية، والثانية مكان الأولى فلما قيل له : قدمت وأخرت أنشد بيتاً من الشعر فى معنى تافه أراد به أن يبين أنه لا قيمة لهذا النظام بين جملتى الآيتين ، وإنما المقصود هو المحافظة على (الفكرة) كما تقول صاحبة الرسالة ، ومن البداهة أننا لا نستطيع أن نكلف أحداً أن يتحمل ما لا طاقة له به من فهم دقة النظام فى جمل القرآن وأن كل جملة فى مكانها لو تحولت عنه لذهب بهذا التحول معنى النص الذى يقصده القرآن ويفهمه العلماء وقد يبقى المعنى الذى يفهمه العامة من كلام أى كلام ، ومثل هذا النوع من الاستشهاد فى جانب تغيير الكلمة بما يزعم أنه مرادف - ولا ترادف فى لغة العرب - كالذى قرأ قوله تعالى حكاية عن إبليس (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) فقال: (لأجلسن) بديلا عن (لأقعدن) فلما روجع أجاب (قعد وجلس سواء) والعامة ، ممن يفقهون شيئا من استعمالات هذه اللغة الشريفة يعرفون الفروق التى بين (جلس وقعد) ويعرفون متى يصح أن يعبر (بجلس) ومتى يصح أن يعبر (بقعد) فكيف بأعرابى عاش فى بيئة عربية محضة فى قلب الصحراء ؟ أتغيب عنه هذه الفروق؟ أم أن هذه روايات ما كان يصح أن يذكرها بحث علمى يتعرض لأخطر قضية من قضايا العلم والدين ؟

١١ — ثم تحدثت صاحبة الرساله فى ص (١٦-١٧) عما أسمته ظواهر حدثت فى البيئة الإسلامية فيما يتعلق بقراءة القرآن بعد أن قبض الرسول عليه الصلاة والسلام . وذكرت من هذه الظواهر :

١ — البيئات التى تتركز فى بعضها السلطة المركزية التى نبتت فيها . بسبب تدخل العامل

الدينى، فكرة محاولة قراءة القرآن كما كان يقرؤه الرسول عليه الصلاة والسلام متبعا النظام اللغوى الحجازى إلى أن وثبت صاحبة الرسالة وثبا إلى أن عبدالله بن مسعود قرأ (عتى عين) مغيرا حرف (الحاء) من حتى بحرف (العين) فكتب إليه عمر بن الخطاب : (أن الله أنزل هذا القرآن فجعله قرآنا عربيا مبينا وأنزله بلغة هذا الحى من قريش فإذا جاءك كتابى هذا فأقرىء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل والسلام) .

والمفهوم من هذا النص أن محاولة قراءة القرآن كما كان يقرؤه الرسول صلى الله عليه وسلم نبتت فى البيئة التى تتركز فيها السلطة المركزية بعد أن قبض الرسول عليه السلام؛ وهنا يسأل: كيف كانت قراءة هذه البيئة فى حياة الرسول عليه الصلاة السلام؟ هل كانوا يخالفون قراءته بالنظام الحجازى ؟ وهل كان عبد الله ابن مسعود الذى قال عن نفسه : لقد أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة، يخالف قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى جاءت السلطة المركزية ممثلة فى عمر بن الخطاب فردته عن هذه المخالفة وحينئذ تكون القضية ليست قراءة القرآن كما أنزل من عند الله بلفظه وأسلوبه وإنما هى شىء تتدخل فيه العصبية القبلية والسلطة المركزية . لأن عبد الله بن مسعود لم يكن ليصعب عليه أن يقرأ (حتى حين) كما يقرؤها الحجازيون وسائر المسلمين . ولم تعرف عنه هذه القراءة المغيرة (عتى حين) إلا بهذه الرواية التى شكلت السند الصحيح ولو سلمنا صحة الرواية جدلا فنسأل ؛ ولماذا خالف عبد الله بن مسعود قراءة نفسه فى حياة الرسول عليه السلام إلى قراءة مغيرة لحرف ، قيل: إن هذيلا قبيلته تنطقه هكذا . لعله رغبة فى تملق عواطف قبيلته ؟ ؟ ؟ وعبد الله ابن مسعود عاش حياته فى الإسلام ملازما للرسول عليه السلام ثم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فارق الحجاز إلى العراق . فهو حجازى الحياة زمن نزول القرآن وليس لهذليته إلا هذا الحرف .

ومن هنا كانت هذه الرواية أشبه شىء بالاصطناع الذى يتكلفه الباحثون عن اختلاف اللهجات العربية قبل زمن نزول القرآن على ان صاحبة الرسالة ذكرت عبدالله ابن مسعود فى ضمن الأفراد الذين لهم نفوذ روحى، وتورعت السلطة المركزية عن إجبارهم بالعنف على ترك قراءتهم فهل بقى عبد الله بن مسعود متمسكا بقراءته الهذلية (عتى حين) كما تمسك أبى محتجا بقوله : أخذته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا اتركه لشىء . ولكن عبد الله بن مسعود لم يعرف عنه أنه قال أخذت (عتى حين) من رسول

الله صلى الله عليه وسلم فلا أتركها لقول أحد.

١٢ — وقد جعلت صاحبه الرسالة فى ص (١٩) من ذلك تفسيرا لهجرة أصحاب القراءات الخاصة - تأمل - إلى المدن المفتوحة ليجدوا أمامهم متسعا لنشر قراءاتهم الخاصة، ووزعتهم على امصار الإسلام وعواصمه ولم تنس أن ترسل ببعض القراء من الصحابة أو غيرهم إلى بعض الجهات النائية أو بعض القرى الداخلية، وأصبح الأمر فى قراءة القرآن فى هذه البيئات يشبه لقاء مستشرق يتقن العربية ويحفظ القرآن ولكن أداءه لا يسلم من بعض الرطانات - بباكستانى لا يعرف العربية إلا ما حفظه من القرآن .

١٣ — ثم تقول صاحبة الرسالة ص (٢٠) (كان من الطبيعى حين يلتقى هذا الخليط غير المتجانس من المسلمين أن لا يفهم بعضهم بعضا ، وأن تحدث بينهم مشاحنات حول قراءة القرآن) ثم ساقت قصة حذيفة وقدومه من فرج أرمينية فزعا لما رآه من اختلاف القراء فى القراءة مستنجدا بعثمان فى توحيد المصاحف دليلا على ما ذكرته عن الخليط غير المتجانس ثم ساقت رواية حذيفة عن الطبرى وفيها بيان الاختلاف ومنشؤه وأن هذا الاختلاف وقع بين قراء أهل الشام وأهل العراق ومقرىء أهل الشام أبى بن كعب ومقرىء أهل العراق عبد الله بن مسعود ولا دخل مطلقا فى هذه القصة للخليط غير المتجانس ورطانات بعضهم . ولكن هكذا أريد للبحث العلمى أن يقول فقال .

١٤ — ثم ذهبت صاحبة الرسالة تتحدث عن المصاحف العثمانية ثم تساءلت: ماذا كان موقف الأمة من هذا العمل ؟ . وأجابت من عند نفسها : بأنه بلا شك أثار كثيرا من النقاش والجدل ؛ وانقسم الناس إزاءه بين مشجع له راض عنه ، وبين غاضب حانق . ثم راحت تذكر الراضين عن عمل عثمان ولم تذكر من الغاضبين أحدا سوى عبد الله ابن مسعود فهل يعد هذا انقساما ؟ وهل يليق بالبحوث العلمية إلقاء النتائج هكذا بغير مقدمات ؟ وكان من حق البحث أن يذكر الروايات التى أفادت أن ابن مسعود رجع بآخرة عن رأيه فى عمل عثمان ورضى به .

ثم ذكرت صاحبة الرسالة فى ص ٢٦ : (أن مصحف عثمان لم ينجح فى إزالة الفروق النصية) لأن كتابة المصحف كانت غير منقوطة فأدى ذلك إلى اختلاف كثير من الكلمات وضربت لذلك أمثالا متصيدة من كتاب المصاحف لابن أبى داود الذى رماه أبوه بالكذب .

١٥ — ثم قالت فى ص ٢٧ : (أما الكلمات التى خالفت ما جاء بالمصحف فقد استبدلت بكلمات أخرى توافق كتابتها ما بالمصحف ...) إلى ان قالت : (إنه نتج من عمل عثمان أن تكونت - من وجهة نظر النص - ما يشبه النظام الجديدة التى تتكون من جزء كبير من

النظام النصى لقارئ النص ... ذلك الجزء الذى لا يخالف خط المصحف وكان الجزء الآخر من النظام النص القرشى كما دونه عثمان).

وليس هذا النص من صاحبة الرسالة فى حاجة إلى شىء من الاستنتاج لأنه صريح فى ان القرآن الذى بين يدى المسلمين مشتمل على نصين : نص قرشى دونه عثمان ؛ ونص يشبه النظم الجديدة تكونت من جزء كبير من النظام النصى لقارئ النص ؛ وقد اوضحت ذلك بما لايدع مجالا للشك فقالت فى ص ٢٨ : (وبناء على هذا العرض يمكن أن نقول : إن عمل عثمان كان من نتيجته بمجرد الأمر بالتزامه :

١ — نشر نظام جديد من حيث النص كما بينا من قبل .

٢ — استمرار القراءات القديمة الموجودة قبل عمل عثمان .

والنتيجة الحتمية لهذا أن القرآن دخله نظام جديد فى نصه، ومعنى الجدة أن هذا النظام فى النص بعد عمل عثمان ليس هو النظام النصى الذى نزل به القرآن من عندالله، ويؤيد ذلك اعتبار القراءات التى قرىء بها القرآن قبل عمل عثمان قراءات قديمة وهى مستمرة إلى جانب النظام النصى الجديد ؛ وليس لذلك معنى إلا تبديل وتغيير نظام النص فى آيات من القرآن لا يعرف عددها، والتغيير فى نظام النص يكون بقلب الجمل تقديما وتأخيرا وتبديل ألفاظ بأخرى وزيادة ألفاظ أو نقصها. وهذا هو التحريف الذى يرفع الثقة بنص القرآن ، وهو أخبث الكفر والإلحاد فى دين الله .

قالت صاحبة الرسالة. فى ص (٣٠) بعد ذكرها ازدياد الفتوحات الإسلامية ونبوغ الموالى فى دراسة اللغة العربية ودراسة القرآن باعتباره المظهر الأول للإسلام : (وإذن فمن المتوقع فى مثل هذه البيئات أن تحدث تحريفات فى النص القرآنى بعضها — أى التحريفات — يظل فى حدود الصحة — ولكنها تحريفات لم ينزل بها القرآن من عندالله — وبعضها — أى التحريفات فى النص القرآنى — يتعداها إلى الخطأ ؛ وكذلك الحال فى الأداء وبالتالى تتعدد القراءات — أى المحرفة الخاطئة أو التى تظل فى حدود الصحة — ويبدو بعضها غريبا) .

هذا النص اضطررنا لتفسيره بما وضعنا لنبين أن فكرة صاحبة الرسالة منه أن تقول: إن القرآن الذى بين يدى المسلمين محرف تحريفا خاطئا فى المعنى والمبنى، وتحريفا خاطئا فى المبنى وظل صحيحا فى المعنى ؛ وحينئذ فليفرح أعداء الإسلام بهذا الكشف العلمى الذى قدمته لهم صاحبة هذه الرسالة .

والقول بحدوث (تحريفات فى النص القرآنى) كفر بواح، وإلحاد فى آيات الله

واستهتار بالقيم العلمية ، واستهانة بالمجتمع الإسلامى منذ وجوده على عهد النبوة الخاتمة إلى أن يرتفع الحق من الأرض .

قالت صاحبة الرسالة فى ص (٣٢) وكان بعض هؤلاء العلماء حين يصل إلى هذا المستوى من العلم يحاول التوفيق بين أكثر من قراءة ثابتة صحيحة حتى ينتهى إلى قراءة جديدة يراها أكثر معقولية وملاءمة للحال .

وهذا نص صريح لا يحتاج إلى كشف عن شىء مستور فيه ، لأنه يقول : إن بعض العلماء اختلق قراءة جديدة ملفقة من جزئيات قراءات معترف بها ، ولكن القراءة الملفقة لا يمكن أن يدعى أنها كانت بصورتها الجديدة موجودة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويلزم من هذا بداهة وجود قرآن جديد بصورة لم تكن معروفة الرسول عليه الصلاة والسلام ولا قرأ بها هو ولا أصحابه ويبطل قول الله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله » لأنهم جاءوا بهذا القرآن الجديد الملفق من جزئيات قراءات كان معمولا بها .

وهذا ما تعترف به صاحبة الرسالة فى قولها فى ص (٣٣) (وهكذا ، فإن هذا التوفيق ـ أى التلفيق ـ مع قدم جزئياته إلا أنه كبناء ـ على هذه الصورة ـ يعتبر نظاماً جديداً فى كل شىء (النص والأداء) فهو إذن قرآن جديد .

وهكذا أطالت صاحبة الرسالة النفس فى صفحات لتكرر تعدد القراءات بغير ضابط ولا ميزان ثم خلصت إلى مقصودها بغير لف ولا دوران فقالت : (وعرض الأمر على هذا النحو يساعد على (هدم) هكذا نصها بحروفه ـ فكرة التوقف فى قراءة القرآن ؛ تلك الفكرة التى لا يقرها الدرس اللغوى والواقع التاريخى) ثم خلصت من هذه النتيجة إلى نتيجة أخرى فقالت فى ص (٣٧) :

(ا) فالرسول نفسه اختلف أداؤه باختلاف الظروف .

(ب) كذلك اختلف الصحابة فى قراءاتهم منذ عهده عليه السلام ولو كانت القراءة توقيفية لما أنكر بعضهم قراءة البعض؟ ولما اختلفوا ورجعوا إليه عليه السلام .

وهنا نقف قليلا لنقول: ان المنطق يقول : الملازمة فى الشرطية إذا لم تكن مسلمة كان يجب أن يقام على صحتها دليل؟ وإلا أصبحت باطلة وفى الكلام هنا ملازمتان : الأولى تصح لو كان كل توقيف فى كل آية يجب أن يعلمه ويحيط به كل صحابى ؛ لكن التالى باطل ؛ وبهذا تبطل الملازمة الثانية على أن التوقيف مذكور فى كل رواية من روايات حديث الأحرف السبعة؟ وهو مدار اختلاف القراءات وقد أوردت صاحبة الرسالة شيئاً من هذه الروايات فى معرض الاستدلال ؟ ولم تناقشها بل سلمتها .

(ج) كذلك فإن محاولة عثمان رضى الله عنه لكتابة المصحف بصرف النظر عما يحيط

بها من الروايات تدل على وجود فروق كثيرة واختلافات - هذا مسلم ومن أجله أدرك إمام الأمة كتاب الأمة - إلى أن قالت : (وهكذا تتضافر العوامل المختلفة على رفض فكرة التوقيف) وإذن فالأمر فى قراءة القرآن (سبهللى) لاسند له ولا ضابط ولا أصول يعتمد عليها ولا قواعد ينبنى على أساسها : (وكل ما يمكن أن يقال : إن قراءة القرآن اتفقت أصولها مع أصول الأداء العربى ثم بعد ذلك تلونت بلون الظروف المختلفة) .

قالت صاحبة الرسالة (ص ٣٧) : (هذه القراءات التى بين أيدينا يصعب جداً الادعاء بأنها كانت القراءات الملتزمة على عهد الرسول عليه السلام بسبب تدخل عوامل التطور واللهجات ثم عامل الاختيار الذى جعل القارىء ينتخب قراءة من عدة قراءات تعلمها) .

والنتيجة الحتمية لهذا أن : هذا القرآن الذى يتمسك به المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ليس هو الكتاب الذى قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالأحرف المنزلة من عند الله تعالى وإنما هو كتاب آخر ملفق من قراءات مختلفة استحدثت بسبب تدخل عوامل التطور واللهجات .

فليهنأ أعداء الإسلام من اليهود والزنادقة والملحدة وخبثاء المستشرقين بهذا الفتح الإلحادى يقدم إليهم هدية باسم البحث العلمى .

ولكن الله تعالى يقول : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقد حقق الله وعده بحفظ كتابه رغم كثرة أعدائه كثرة هائلة منذ نزل من السماء ونقل متواترا تواترا قاطعا يحفظه ملايين المسلمين فى صدورهم . ويقرءونه فى صلواتهم وخلواتهم . ولن تكون هجمات الأعداء الجدد أقوى من هجمات إخوانهم القدامى من أمثال ابن الراوندى الملحد الخبيث ، وليس تحت الشمس بالنسبة للقرآن الكريم جديد .

ثم أخذت صاحبة الرسالة فى فصول أكثرها تراجم ونقول من كتب اللغة والقراءات تضخم بها حجم الرسالة جدا فى أمور لا يعنى بحثنا الآن الوقوف عندها إلى أن وصلت إلى خاتمة الرسالة فقالت فيها - تعيد وتكرر رأيها بإصرار متعمد فى هدم التوقيف فى قراءة القرآن ورفضه رفضا قاطعا مؤكدة ذلك بجميع ما تملك من ألوان التأكيد فتقول فى ص (٢٨٨) :

بعد هذه الجولة الطويلة فى الكتب اللغوية والقرائية يمكن أن نجمل أهم نتائج البحث فيما يلى : —

١ — أول نتيجة توصل إليها هذا البحث هى رفض فكرة التوقيف فى قراءة القرآن.

ثم أعادت نفس أدلتها المتهاوية التى ذكرتها بنصها فى ص (٣٧) .

٢ — ثم قالت : (كان الأداء القرآنى فى أول عهده مسايرا لقواعد وميول وعادات

اللغة العربية فى ذلك الوقت وكان نظامه العام قريبا فى النظام الشعرى .

خصوصا وأن بناءه النصى كان قريبا جدا من هذا البناء . أى الشعرى) وقد كررت هذا فى ص (٢٧١) حيث قالت :

النص القرآنى نص فنى . والتفكير المنطقى والذى يؤيده الواقع يرجح أن القرآن جاء قريبا فى بنائه من الشعر) .

هذا الكلام ينادى على نفسه بأنه لم يعرف البحث الجاد ، لان بناء النص القرآنى الفنى أعيا الفحول من الباحثين من المؤمنين بالقرآن ومن الكافرين به ومن الملحدين العابثين فلم يجدوا منفذا إلى القول بهذا القرب الشعرى ، والقرآن الكريم تحدى تحديا صارخا مقرعا مؤنباً آخذا الطريق على خصومه أن يأتوا بسورة أية سورة فى قدرها الكمى (ثلاث آيات قصار) مثل سورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر) وسورة (الكوثر) وقال لهم مقدما: (لن تفعلوا) زيادة فى التحريض على المعارضة إن استطاعوا فلم ينبسوا إلا بهذيانات المبرسمين ومن البداهة التى تغيظ أعداء القرآن أنه لو كان بناؤه النصى قريبا من البناء الشعرى لقالوا شيئا مما هو مثلهم الأعلى وذروة فنهم الكلامى فى معارضة هذا التحدى الصارم ؟ ولكنهم عجزوا عن المعارضة وأبلسوا فلم ينطقوا .

ثم قالت صاحبة الرسالة (ولكن تدخل العامل الدينى حرم قراءات القرآن؛ بل حرم الدرس اللغوى نفسه من مسايرة التطور وظلت أسس الأداء القرآنى كما هى منذ القرن الأول للهجرة رغم تطور اللغة وتغيير العادات والميول والأذواق بحيث يمكن أن يقال : إن اللغة المنطوقة سارت فى واد وسار الأداء القرآنى فى واديه القديم من حيث الأسس) .

هذه شهادة - برغم أنها أشبه بالنقد العائب أو هى إياه سواء - يعتز بها القرآن الكريم لأنه استطاع ويستطيع دائما أن يقف شامخا قاهرا أمام تطور اللغة وتغيير العادات والميول والأذواق وسائر المؤثرات بطبيعته ونظامه وأدائه فلا يخضع لمؤثر خارج عن ذاته وأسلوبه ونظامه الذى نزل به من عند الله تعالى .

وصاحبة الرسالة إذ تقرر ذلك - وهى كما تظن آسفة - تقع من غير شعور أو قصد فى تناقض الفكرة لأنها سبق أن قررت عن القرآن باعتبار نصه هو بناء لغوى منطوق تأثر كأى بناء لغوى منطوق بالمؤثرات اللهجية والبيئة الشخصية والزمنية ولا ندرى بأى قوليها يأخذ البحث ؟؟ ولعل هذا الاضطراب فى البحث نشأ من عدم الصبر على الدراسة العميقة الموضوع لانعدام وسائله العلمية .

قالت صاحبة الرسالة فى آخر فقرات خاتمة الرسالة : (ولم تحظ اللغة كأداء فنى باهتمام كبير من جانب اللغويين . وكذلك القراء الذين أنكروا الاعتراف صراحة بالجانب الفنى فى الأداء القرآنى. وأيضا تأثره بالظروف المحيطة به والتى أمكننا إظهار بعضها فقد كان واضحا فى قراءة الكوفيين تأثر الأداء بالطابع الشخصى للمؤدى فهؤلاء الكوفيون يمثلون أكثر عرب المدن خشونة ولذلك مالوا جميعا إلى تحقيق الهمزة .

هذه قضية ينقصها العلم والصبر على البحث ؛ فإنه ثبت عند الأثبات من أئمة القراءات أن حمزة بن حبيب الزيات ، وهو إمام من أئمة القراء الكوفيين كان لا يحقق الهمزة فى بعض المواطن ، وكذلك الإمام عاصم ، وهو كوفى ، ثبت عنه من رواية شعبة عدم تحقيق الهمزة فى بعض الألفاظ .

ثم قالت صاحبة الرسالة : ووضح تأثر القراءة بالجانب الفنى فى أداء ورش الذى رسم لنفسه قواعد غير التى نصت عليها كتب اللغة ليحقق لإذنه موسيقية يحرص عليها ، أما التأثر بالجانب الثقافى فيبدو واضحا فى قراءة أبى عمرو) .

هذه الفقرة التى ختمت بها صاحبة الرسالة رسالتها جاءت تالية مباشرة للفقرة التى سبقتها فى هذا البحث ، وبالتأمل غير العميق يظهر جليا ما بين الكلامين من تناقض لأن الكلام السابق يقرر صراحة أن العامل الدينى حرم قراءات القرآن من التأثر ومسايرة التطور وظلت أسس الأداء القرآنى كما هى منذ القرن الأول .

وفى هذه الفقرة تقرر صاحبة الرسالة أن الجانب الفنى فى الأداء القرآنى تأثر بالظروف المحيطة به وكيفما يكن فحسب البحث أن يظفر بهذا الاعتراف الذى يقرر صراحة أن للأداء القرآنى أسسا لها ضوابطها وطرائقها الخاصة لم تتأثر بالظروف المحيطة بها وظلت كما هى منذ القرن الأول ، بل إن هذا الأداء القرآنى تعاصى على مسايرة اللغة المنطوقة التى سارت فى أدائها فى واد وسار الأداء القرآنى فى واديه القديم ، وهذا بلا شك نقض لما قررته صاحبة الرسالة فى أكثر من موضع من أن الأداء القرآنى تأثر بالظروف واللهجات والبيئة والعادات والميول والأذواق ولكن الله العليم الحكيم :

« يحول بين المرء وقلبه » فلا يدرى ماذا قال . ولا ماذا يقول :

« ولله الأمر من قبل ومن بعد » ؟

محمد الصادق عرجون

نفحات القرآن

المبالغة فى الإنكار للحق يكون فى قوة الاعتراف به

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

« فإن لم يستجيبوا لكم ، فاعلموا : أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ... فهل أنتم مسلمون » ١٤ - هود .

١ - بالغ الكفار قديما - ولا يزالون يبالغون - فى تكذيب القرآن .. حتى تحداهم الله غير مرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بأقل من ذلك ... بل أرخى لهم العنان أن يجمعوا كل ظهير لهم ، وأن يستعينوا بكل وسيلة مما يخطر ببالهم ، ليأتوا بشىء يفترونه كما يفترى محمد - فى زعمهم - كتاب الله ...

فلم يكن لهم قدرة على شىء من ذلك ... ومع هذا بلغوا فى الإنكار مبلغهم ، وبلغ العجز منهم مبلغه ، وظل إعجاز القرآن على توالى القرون ... وبقى طوقا فى رقاب الكافرين به إلى وقتنا ، وسيظل فيما بعد ، كما وعد الله الذى أنزله ، وتكفل بحفظه ... فلم يبق إلا شأن واحد مقطوع به لدى العقول الواعية وهو أنهم على باطل ، وأن كتاب الله حق وأن محمداً فيما جاء به على تمام الصدق .

ويكون هذا الإنكار المسرف ، والعجز المطبق مثار الإيمان الصحيح ، وطريق العلم الأكيد بأن القرآن لا يكون ، ولا يمكن أن يكون إلا من عند الله ، أنزله بعلمه ، وعلى مقتضى حكمته ، وحسن تدبيره .

ويكون موقف المكذبين بمثابة الاعتراف على أنفسهم بالإرجاف ، والإمعان فى الباطل .

ويكون هذا الباطل فى خدمة الحق ، من حيث لا يريد المبطلون ... وهكذا يكون مصداق المثل - كاد المريب يقول : خذونى -

إذا أتتك مذمتى من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى كامل

وتطبيق ذلك واضح فى الفروع الفقهية عند القضاء ... حيث يعتبرون المنكر ، الناكل عن اليمين ليبرر بها إنكاره - فى معنى

المعترف بالحق ، ولا فضل له ... وهذه نتيجة أولى لذلك الإنكار .

• • •

٢ ــ وهناك نتيجة علمية أخرى نستفيدها ... وهي الاهتداء إلى توحيد الله ، وأنه المتصرف وحده وأنه : لا إله إلا هو . ومقتضى هذا : لزوم الحجة ، ووجوب التسليم لله .

وذلك ما يصارحنا القرآن به ، في قوله تعالى : « فهل أنتم مسلمون » .

فإن ذلك الاستفهام لا يراد به الاستعلام . بل هو مطالبة بالإسلام في أسلوب يتضمن الاستنهاض ، وفيه تلميح بتكريم الإنسان عن المطالبة إلى تفويض الأمر لاختياره ، والاستفهام منه عما يراد القيام به ... كما تستفهم عن رغبتك ، بدلا من التكليف بها أو هو خطاب رفيق ، يدركه أولو الألباب .

٣ ــ فتلك نتائج تفرض على المكذبين أن يمتثلوا ، وتوجب عليهم وعلى كل إنسان أن يصحح إيمانه ، ويسلم وجهه إلى الله ...

إحداها : العجز الفاضح عن مقاومة القرآن ...

والثانية : العلم اليقيني بأن القرآن ما نزل إلا من عند الله ...

والثالثة : أن أحداً لا يستطيع ذلك ، ولا تكون له صفة الألوهية إلا الله ـ تعالى .

ومن هذا الطريق يكون الإنسان على بصيرة ، وعلى رشد في دينه ، وفي دنياه ، ويكون في وجهته متأسيا بهدى الله ، وداخلا للبيت من بابه المشروع .

٤ ــ ثم تتجه بنا الآيات إلى مقارنة بين من يتعلق بالدنيا وحدها : ومن عاش فيها حريصاً على النجاة من مفاتنها .

ففي الأول : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون » .

يعني : من جنح إلى دنياه ، وتعلق بزينتها ، وتوفير الرغبات فيها : فإنا نوفيه نصيبه من جزاء فيها ... دون أن يتجاوز هذا إلى متاع الآخرة ... وهذا شأن من لم يؤمن ، ولم يأخذ نفسه بالاتجاه نحو العاقبة الحسنى .

فمتاعه في حظه المقسوم له من أموال ، وأولاد ، وجاه ، وأعراض . تزيد ، وتنقص وتسر ، وتغرى ... ثم لا يكون هذا المتاع على قدر ما يفرض العبد لنفسه ... بل على نحو ماشاءت حكمة الله له ولغيره : من تقسيم الحظوظ في حياتهم الدنيا ... ثم لا يكون لهذا الكافر نصيب من رضوان الله عنه في الآخرة .

وهذا نمط العدل الكامل بين الله وعباده حيث قصر العبد أمله ، وجهده على دنياه ، فإنه لا يتجاوز الإطار الذى رسمه لنفسه ... وذلك قوله تعالى : « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب » .

ثم لا يكون حظه فى دنياه فسيحا كما يشتهى لأن الأمر فى هذا منوط بحكمة الله : لا برغبات الناس ، فإن الرغبات قد تكون مفسدة للدنيا ، والله لا يحب من الناس أن يفسدوا ... فلذلك كان عطاؤه لنا بقدر ما سبق فى تقديره ، وفى حدود مشيئته « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء : لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً » .

فقوله تعالى فى موضوعنا : « وهم فيها لا يبخسون » معناه : نعطيهم فى الدنيا جزاءهم فى حدود ما سبقت به الحكمة ، وبقدر ما قسمنا لهم من غير بخس لذلك المقدور .

وهؤلاء الذين توارثوا الكفر بالقرآن : هم الذين يقول الله فيهم جميعا : « ... أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » يعنى بطل عملهم الطيب الذى كان ينفعهم لو آمنوا فى دنياهم فلاحظ لهم فى أخراهم ، وذهب أملهم هباء منثوراً . ويحفظنا الله من الضلال ، ومن سوء العاقبة ؟

عبد اللطيف السبكى

القـــرآن

القرآن حبل الله الممدود ، وعهده المعهود ، وظله العميم ، وصراطه المستقيم ، وحجته الكبرى ، ومحجته الوسطى ، وهو الواضح سبيله ، الراشد دليله الذى من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا ، ومن أعرض عنه ضل وهدى .

حجة الله وعهده ، ووعيده ووعده ، به يعلم الجاهل ، ويعمل العامل ، بشير الثواب ، ونذير العقاب ، وشفاء الصدور ، وجلاء الأمور ، من فضائله أنه يقرأ دائما ، ويكتب ، ويملى ، ولا يمل ، ما أهون الدنيا على من جعل القرآن إمامه ، وتصور الموت أمامه ، طوبى لمن جعل القرآن مصباح قلبه ، ومفتاح لبه .

من حق القرآن حفظ ترتيبه ، وحسن ترتيله .

أبو إسحاق الحصرى القيروانى

الوحدة المعنوية فى الإسلام

للأستاذ الدكتور محمد غلاب

مما لا سبيل إلى الشك فيه أن جميع العلماء الأدقاء الذين تخصصوا فى دراسة التاريخ العام ، وتعمقوا فى وقائعه ، وحللوا أحداثه قد اتفقوا بالإجماع على ان جميع شعوب الأصقاع التى فتحها الإسلام كانت كأنها فى انتظاره ، أو على موعد منه تتلهف على تنجيزه بفارغ الصبر ، وأن سيوف المسلمين الفاتحين لم تزد على أنها كانت تزيل القشرة الخارجية التى كانت تحجب تلك الشعوب عن مشاهدة هذا النور المتلألئ ، فلما زالت هذه القشرة العارضة الحاجبة ، وسطع عليهم ذلك الضوء السماوى الذى ملك أفئدتهم قبل أن يبهر أعينهم ، وجد القلوب معدة ، والنفوس مستعدة ، والأجواء مهيأة ، والأرض ممهدة ، والطرق معبدة لاستقباله ، بل لاحتضانه واعتناقه بصورة لم يسبق لها فى هذه الحياة نظير ، فتثبتت أقدامه ورسخت قواعده وأركانه فى جميع البلاد التى شرفها بفتحه ، وأنقذها بمبادئه من الظلمات إلى النور ، وأغاثها من الباطل والضلال ، والظلم والشقاء ، وأرشدها إلى الحق والهدى والعدل والهناء ، وقد عرفت هذه الشعوب قيمته ، واعترفت بفضله عليها فعضت عليه بالنواجذ ، وكانت النتائج المنطقية ، بل الطبيعية لهذا أن الإسلام - رغم الظروف السيئة التى مرت به بعد عصوره الذهبية - قد ظل يمتد ويتسع من نفسه وبذاته ، أى دون تدخل العوامل الخارجية حتى كسا رقعة الأرض من شواطئ الأطلنطى إلى شواطئ المحيط الهادى جامعا تحت رايته شعوبا من أجناس مختلفة وأرومات متعاوضة وألوان متباينة ، وأجواء متضادة ، ضاربا بكل هذه الاختلافات الظاهرية عرض الأفق متمسكا بمبدأ واحد وهو : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (آية ١٣ من سورة الحجرات) .

وهكذا بقى ذلك التراث العملاق سليما من أية شائبة مدى أربعة عشر قرنا من الزمان لم تنل منه أى منال تلك الكوارث المتلاحقة التى جعل الاستعمار البغيض يصبها على مبادئه ، وعلى رءوس معتنقيه واحدة تلو الأخرى ، بل إن تلك القوة الذاتية الناشئة من قواعده التأسيسية ، ومقدرته على التغلغل والامتداد بلا عون خارجى قد طفقتا تزيدان وتتضاعفان فى وسط هذه

العواصف الهوج ، والأعاصير الجائحة كما يسجل ذلك الأستاذ المستشرق «بيير روندو» مدير مركز الدراسات العليا فى إفريقيا وآسيا الحديثتين فى كتابه «الإسلام وعسلمو اليوم» إذ يقول ما نصه :

« من الموثوق به أن تقدم الإسلام ليس ثابتا ولا مستمرا ، أو أن سرعة استمراره تزيد باطراد فحسب ، بل إنه فى مجموعه أسرع من تقدم المسيحية» (ص٢٤ من المجلد الثانى) . فإذا أضفنا إلى ذلك أن للمسيحية مبشرين ودعاة لا يحصيهم العد ، وأموالا طائلة تنفق سهلة رخيصة فى إنشاء المدارس التبشيرية ، والمستشفيات المجانية المثمرة فى العلاج ، إذا أضفنا هذا كله تبين لنا أن الإسلام يحتوى على قوة واضحة من الحقيقة العقيدية التى لا يتطاول إلى عليائها أى دين آخر . وهذه الحقيقة هى التى تدفع العقول إلى اعتناقه بلا قسر ، بل فى حرية كاملة ، لأن جميع الأنظمة الصناعية لا تحيا إلا حقبا محدودة ، بل قصيرة لا تلبث أن تزول عند ما تنهار القوى المادية التى فرضتها فرضا وأرغمت الأمم على الخضوع لها ، هذه هى سنة الناموس الكونى الذى يزيل المسببات عند ما تزول العوامل التى كانت تسند كياناتها أو تتضافر على منحها الوجود .

أما الإسلام فليس من هذا النوع ألبتة ، لأنه لم يفرض بالعنف رغم ما يتخرص به المغرضون من أنه غزا البلاد التى فتحها بالسيف ، «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» . نعم كذبوا فى هذه الدعوى الباطلة ، لأن سيوف المسلمين الفاتحين لم تزل ـ كما أسلفنا ـ إلا القشرة السطحية التى كانت تحجب نور الإسلام عن تلك الأمم ، وبالتالى كانت تحول بينها وبين الهداية والسعادة ، ومن آيات ذلك أن هذا النور السماوى عند ما زالت من أمامه تلك الحجب تغلغل إلى أبعد حدود أعماق القلوب والعقول فى أفراد تلك الشعوب ومجتمعاتها ولم يبق منحصرا فى الطبقات الحاكمة التى لا تلبث أن تلفظ العقائد التى فرضت عليها فرضا وتنبذها فى سرور عند ما تتغير الظروف ، ولو أن الإسلام كان قد دخل تلك البلاد بالعنف والإكراه ، لحاولت الأمم المفتوحة أن تتخلص منه كلما حانت لها الفرص ولما عضت عليه بالنواجذ على هذا النحو الذى يشاهده ويشهد به الأعداء قبل الأصدقاء.

وهنا قد ينشأ سؤال ، مؤداه : من أين أتت إلى الإسلام هذه القوة الذاتية ، وتلك الجاذبية التى لا يقوى على مقاومتها كبير ولا صغير؟ والإجابة على هذا السؤال هى : أن مبادئه التأسيسية تتجاوب مع حاجات الإنسان الفطرية إلى الإيمان والشعور والعمل ، وهذا التوثب الدائم المركز فى الإنسان هو منبثق من غريزة منطقية ،

أو من منطق غريزى كائن فى أعماق كيانه مهما يكن جاهلا أو معدوم الثقافة والاستنارة ومعنى هذا أن الإيمان منبثق من غريزة منطقية ، هو أن الإنسان بفطرته لا يستطيع أن يقبل حقيقة عقيدية معرضة للتباين مع حقيقة عقيدية أخرى ، أو تشيخ فتصير معرضة لحلول عقيدة أخرى محلها بينما أن سلسلة طويلة من مبادىء إنسانية متينة لا توجد فيها ثغرة ، ولا يصيبها صدع ، وطرفها متعمق إلى الأصول الأولى، هى تملأ قلبه بالثقة واليقين ، ولهذا وحده كانت المبادىء القرآنية المشتملة على الوحدة والعمومية ، بل الكونية والثبات تبدو - فطريا - للعقل كأنها هى ذات التعبير عن الحقيقة العقيدية .

ومما هو جدير بالإيضاح هنا أن هذه الوحدة القرآنية قد انبثقت قبل كل شىء من التوحيد الذى هو المبدأ الأول للإسلام والذى كان موضع الصدور والصدارة فى عقيدته ، إذ أن الإسلام كله يتكون من الاعتقاد بإله واحد لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ند ، ولا مثيل ولا شبيه ، ولا قسيم والخضوع والامتثال لأوامر هذا الإله الواحد الواردة فى كتابه الكريم ، أو على لسان نبيه الجليل الذى لا ينطق عن الهوى ، وإنما كل أقواله وأفعاله وحى يوحى، ولا ريب أن هذه العقيدة التوحيدية التى تبدو فى ظاهرها بسيطة تتخذ فى القرآن هيئة ذات قوة وجلال منقطعى النظير ، وقد أدرك أدقاء المستشرقين المتعمقين النزهاء هذه الحقيقة وما تنتجه فى نفوس المؤمنين من نتائج فردية واجتماعية ، إذ أنها لهم بمثابة مبدأ مرشد ذى قوة استثنائية يعبر لهم بديا عن وجود الإله الخالق المجازى الخير بخيره ، والشر بشره ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (آيتى ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة) .

وبعد ذلك يكون هذا التوحيد رمزا لجهود المسلمين المبذولة لتحديد غاية معينة لكل عمل من أعمالهم المتعددة ، ولتوجيه هذه الغايات الفردية كلها نحو الغاية النهائية العظمى التى هى المبدأ الأول والغاية الأخيرة المعبر عنها « بكلمة التوحيد » . . لا إله إلا الله وحده « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

وأخيرا ينبغى أن نتبين أن هذا التوحيد العقيدى يتكشف عن معنى عظيم يفيض على المجتمع النظام والخير والتماسك والسعادة ، إذ أنه يتضمن وحدة أخوية حرة واسعة النطاق تربط بين الأمم دون أن يستعبد إحداها للأخريات أى أن مبادىء الإسلام الحقيقية لا تفرض على دولة أن تقيس نفسها على أخرى ، أو أن تحاكيها فى أنظمتها الخاصة بل هى تترك لكل منهما تمام الحرية فى الاختيار والعمل مادام أنها جميعها تستظل

براية الكتاب الكريم والسنة الغـــراء دون أن تضيق عـلى نفسها مسالك الحياة «أنتم أعلم بأمور دنياكم». ولا جرم أن هـذا الاختلاف فى الأنظمة الداخلية ، لا يتعارض مع الاتحاد الروحى الذى يكون الأسرة الإسلامية الكبرى التى تعيش فى رحاب الإيمان وتحت راية الإسلام عيشة السلام والوئام.

على أن هذا التوحيد العقيدى المنتهى إلى الوحدة المتينة ، لم يبدأ بظهور الإسلام ، بل بدأ متجها إلى بنى الإنسان جميعا منذ الميثاق الأول : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» (آية ١٧٢ من سورة الأعراف). ومن هذا الميثاق الأول الذى يصوره لنا القرآن أسمى تصوير وأكمله ، يتبين لنا أن الله جل وعلا قد أفهم البشرية قبل حلول أرواح أفرادها فى أجسامهم ، أنه هو الأحد الخالق المنعم المتفضل الجدير بالمعرفة والعبادة، وأنه أخذ عليهم العهد والميثاق جميعا ألا يعبدوا إلا إياه.

ولا ريب أن هذه التسوية الكاملة أمام الميثاق والتى تتفق أتم الاتفاق مع قول القرآن: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ....» (آية واحد من سورة النساء) وقول النبى الجليل : «الناس كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» ، أقول : إن هذه التسوية ذاتها هى التى أبلغ عنها ذلك الرسول الصادق الأمين بقوله : (كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه هما اللذان يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه) وهذا المعنى العميق هو الذى رمى إليه القرآن حين قال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين» (آية ٦٧ من سورة آل عمران) أى أنه كان على دين الفطرة. ولقد سمعنا من أحد المتفيهقين من أنصاف المتعلمين اعتراضا على هذا التعبير القرآنى ، وتهكما متشدقا ، مؤداه أنه كيف يوصف إبراهيم بأنه مسلم وقد وجد قبل الإسلام بأكثر من عشرين قرنا ؟! فألقمناه حجرا بقولنا : (إن معنى الآية الشريفة هو أن إبراهيم كان على دين الفطرة الذى لا فرق بينه وبين الإسلام ألبتة).

كانت التسوية التى نص عليها القرآن بين بنى البشر جميعا إذن موجودة وتامة ولم تحدث التفرقة إلا فيما بعد ، وبأسباب خارجية ، وعلل أجنبية ، دعت إليها الأغراض والأهواء ، أو العوامل التى لم يكن بد من طروئها على الأناسى كنقض العهد ، ونسيان التعاليم الإلهية . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال

تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » . (آية ١٣ من سورة المائدة) .

أو كتحريف كلام الله وتشويه تعاليمه وجعلها دميمة فى ألفاظها ومعانيها «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » . (آية ٧٥ من سورة البقرة)

أو كالخضوع للأهواء واتباع الأغراض التى تصد عن التعاليم الإلهية ولو كان المغرضون يعرفونها كما يعرفون أبناءهم «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (١٤٦ من سورة البقرة) .

ومما يسترعى الانتباه فى هذه المناسبة أن معرفة هذا التوحيد المبدئى لدى المسلمين عن طريق القرآن الذى حدثهم عن الميثاق الأول قد سمحت لهم بأن يدركوا هذه الفطرية أكثر من غيرهم من أهل الأديان الأخر ، إذ أن الأستاذ (زانكير) المستشرق الألمانى يسجل ذلك فى مقدمة كتابه (تاريخ الفلسفة الصينية إذ يقول ما نصه :

« إن المبشرين المسيحيين الذين كانوا أول من عنوا بالفلسفة الصينية ، قد ذهلوا من عمق النظريات الأخلاقية ونقائها ، وأجمعوا على أنه لا يمكن شرح هذه الظاهرة إلا إذا آمنوا بأن الإله قد أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى اليهود ، وأن «شانج - تى» ليس سوى إله الكتاب المقدس ... وفوق ذلك فإن عظمة الأخلاق الصينية ونقاءها كانا يبدوان غير مفهومين لدى المسيحيين الأوروبيين لولا أن فرضوا نظرية الوحى الإلهى فى تلك الأصقاع » .

ولا ريب أن هذا يؤيد ما قلناه مراراً فى هذا الصدد : من أن الميثاق الأول قد شمل الجميع ، وأن الرسالات السماوية قد أرسلت إلى الكل بلا استثناء ، ومن ثم فإن هذا الذهول الذى أصاب الأوروبيين عندما ألموا بالألوهية والأخلاق الصينيتين لم يصب المسلمين أدنى إصابة ، لأن القرآن كان قد أنار لهم هذا الجانب الأساسى من جوانب الحياة فأدركوا أن الله جل شأنه قبل الوحى الإسلامى ، لم يهمل أية بقعة من بقاع الأرض دون رسالة هى واحدة فى كل مكان وكل زمان ولا تختلف إلا فى التفاصيل التى تلتئم مع العقليات المتباينة التى يتفق بعضها مع هذه الرسالة وبعضها مع تلك ، ولكن العدالة الإلهية لم تحرم أحدا هذا الفضل الماثل فى الرسالات جميعها «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» (آية ٢٤ من سورة فاطر) .

ومن الآيات الواضحات فى هذا الشأن أن (إفلاطون) حكيم أثينا الذى تتلمذ على كهنة مصر كنانة الله فى أرضه (كما قال النبى عليه صلوات الله وسلامه) فعرف من أساتذته

أسرار الدين الفطرى ومكنوناته ثم سجل فى مؤلفاته عن الألوهية تسجيلات جعلت أعلام المفكرين يطلقون عليه اسم «إفلاطون الإلهى» ، وأنه أول من جعل العدالة مركز الفضائل ، وأنه أول من ربط السياسة بالأخلاق ذلك الربط القوى المحكم الذى لم تستطع القرون الطويلة أن تفصم عراه ، بل إن الساسة المعاصرين الضالين المضلين لا يزالون حتى الآن يتحككون بالمبادىء التى وضعها هذا الحكيم منذ أربعة وعشرين قرنا .

وليس هذا فحسب ، بل إن من تلقى نظرة متفحصة على «الفيدا» كتاب الهنود المقدس ، يسترعى نظره ، بل يبهره فى كل خطواته ما يلقيه فيه من فكرة الإله الأحد ، ولو أنها غطيت - فى كثير من الأحايين - بقشور صدفية تلتئم مع عقليات العامة وخرافات الجماهير . ولكن قد بقيت أضواء دين الفطرة فيها ساطعة متلألئة تتجه مباشرة إلى قلوب الأنقياء وعقول المثقفين ، بل إن من يتصفح تاريخ مصر الفرعونية ولم يكن قد استضاء بضوء القرآن فإنه يصيبه نفس الذهول الذى أصاب المسيحيين الأوروبيين عندما ألموا بالألوهية والأخلاق الصينيتين فى العصور الأثرية ، إذ أن المرء لا يكاد يلم بالديانة المصرية القديمة حتى يبهره ما يجده فيها من تصويرات دقيقة للفضائل والرذائل ، والخيرات والشرور ، والمثوبات والعقوبات المرتبطة بكل واحدة منها . وأكثر من ذلك التفاصيل الشاملة للبعث والحشر والسؤال والميزان والصراط ، وما إلى ذلك مما هو بارز فى النصوص الإسلامية . ولقد انحرفت عقليات بعض المستشرقين فى هذا الصدد فسلكوا فى تعليل هذا كله مسالك ملتوية معوجة ، إذ زعموا أن الأديان التى تدعى السماوية قد أخذت هذه الصور كلها من أساطير الأديان الوثنية بدلا من أن يفهموا الحقيقة المستقيمة ، وهى أن تلك الصور المصرية القديمة ليست سوى بقايا ظلت محفوظة من دين الفطرة الذى أوحى إلى الجميع بغير استثناء ، والذى هو فى ذاته فكرة عقلية بلغت أقصى الدرجات وأسماها .

غير أن سؤالا لا بد منه يعرض هذا بطريقة طبيعية ، وهو : « ما الذى سوأ هذه الفكرة الفطرية لدى بعض الشعوب وغير من معالمها وشوه جمالها ، وبدل أهدافها لدى البعض الآخر ؟ » .

والإجابة على هذا السؤال هى أن هذه الفكرة التوحيدية قد تغلغلت فى الهداية والإرشاد فى عالم هو فريسة الأخطاء والأنانية والغيرة والحسد والأحقاد والمطامع والشهوات والأهواء والمنافع . وبالإجمال كل أسباب التباغض والتنافر والوثنية والإلحاد وما إلى ذلك مما أشار إليه القرآن حينا ، وأسهب فى تفصيله أحيانا فتضافرت كل هذه العوامل المدمرة على تشويه هذه

الوحدة الفطرية ، وكست نورها الأزلى الأبدى بستار خارجى كثيف يحجبها عن الناس وإن كان لا يستطيع أن ينال من ذاتها أدنى منال ، لأنها من عالم النور والخلود .

وهنا شاءت الإرادة الإلهية أن تتابع إيحاءات جزئية محلية خصصت لإرشاد الضالين وجمع النفوس المتفرقة المنتثرة فى أنحاء الحياة ، فجعلت تؤدى رسالاتها بقدر ما تسمح لها طبائع المرسلين الذين كلفوا بها ، وظروفهم إلى أن آن أوان الرسالة القرآنية التى شرحت أصل هذا التوحيد ، وأبانت عناصر هذه التفرقة ، ثم أوضحت عوامل العودة إلى الوحدة فنى الواقع أن أضواء القرآن لم تكد تشع حتى مزقت تلك الأستار ، وبددت ظلماتها ، وكشفت عن اللألاء الذى بهر العقول ، وأخذ بمجامع القلوب ، إذ طفق القرآن يدعونا إلى العودة التامة إلى الوحدة العقيدية التى رسمت خطوطها للأمة الإسلامية فى كتابها وسنة رسولها بهيئة بارزة ، إذ يوجه القرآن الدعوة إلى كل فرد أن يسهم فى تحقيق الوحدة المؤسسة على التوحيد : إما بواسطة الإقناع المكون من أسلوب السلام والدعة « وجادلهم بالتى هى أحسن » . (آية رقم ١٢٥ من سورة النحل) « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . (آية رقم ٦٤ من سورة آل عمران) .

وإما عن طريق الجهود الخلقية الشخصية التى تكون القدوة المقتربة من أخلاق النبى بقدر المستطاع .

وأخيرا ينبغى أن نعيد إلى الأذهان أن فكرة الوحدة المنبثقة عن توحيد المبدأ الأول هى على قمم الفكر الفلسفى ، وأن فلاسفة الإسلام الذين طال تبحرهم فى عظات القرآن ودعوته المؤمنين إلى التفكير والتأمل فى أسرار الكون ، قد استلهموا منه طرق النظر المتنوعة ثم انتهوا بفضله إلى إدراك مبدأ التوحيد وصدور الكون كله عن الأحد الذى لا شريك له ، وتبينوا من جهة أن المتعددات التى يكتظ بها الكون صادرة كلها عن هذا الأحد الخالق ، وأن العقل البشرى من جهة أخرى قد استطاع بفضل الفيض الإلهى أن يرجع هذه المتعددات الكثيرة إلى الوحدة الصادرة عن الأحد « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » (آية ٥٠ من سورة القمر) .

وقصارى القول أن كشف القرآن لهذه الوحدة العقيدية ، ودعوته إلى العودة إليها قد منحا الإسلام هذه المقدرة الفائقة على الإقناع ، وتلك القوة الدفاعية التى تتقدم به يوما عن يوم فى طريق التغلغل المعنوى فى محيطات السماوات ، والامتداد المادى فى محيطات الحياة ، والتى ضمنت له الصلاحية لجميع الأزمنة والأمكنة بلا استثناء .

الدكتور محمد غلاب

مكانة الفقه الإسلامي

للأستاذ زكريا البرى

– ٢ –

المنهج القرآنى لمعرفة الحكم الشرعى :

بينا فى مقالنا السابق مكانة الفقه الإسلامى وحيويته ، ووعدنا بعرض المنهج القرآنى الخالد ، فى معرفة الحكم الشرعى ، والذى يضمن لهذا الفقه الاحتفاظ بخصائصه وأهدافه فى تنظيم العلاقات الاجتماعية ، وتحقيق السعادة البشرية .

وفى هذا يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » (١) .

بهذه الآية الكريمة الجامعة ، رسم القرآن المنهج الإسلامى ، لتعرف الأحكام الإلهية ، فى كل ما عرض أو يعرض للمسلمين فى حياتهم وشئونهم ، بجوانبها المختلفة وآفاقها الفسيحة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها .

يقول الإمام الرازى : « اعلم أن هذه الآية آية شريفة ، مشتملة على أكثر علم أصول الفقه ، وذلك لأن الفقهاء قرروا : أن أصول الشريعة أربعة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وهذه الآية مشتملة على تقرير هذه الأصول الأربعة بهذا الترتيب ، أما الكتاب والسنة فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، وقوله تعالى : « وأولى الأمر منكم » يدل على أن إجماع الأمة حجة ، والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم ، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد أن يكون معصوما من الخطأ ...

وإلا كان فى ذلك أمر من الله بمتابعة الخطأ المحتمل ... والمعصومون هم أولو الحل والعقد من الأمة ، وهم أولو الأمر (١) وقوله تعالى : فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، يدل على أن القياس حجة ، والمراد فإن تنازعتم فى شىء حكمه غير مذكور فى الكتاب والسنة والإجماع فردوا حكمه إلى الأحكام المنصوصة

(١) الآية ٥٩ من سورة النساء

(١) لعل المحذوف من كلام الرازى كفيل بإلقاء أضواء على المقصود من : إجماع الأمة ، وأولى الأمر ، وأهل الحل والعقد ، وما بين ذلك من عموم وخصوص .

فى الوقائع المشابهة له »[1] وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة زادت هذا المنهج وضوحا وتفصيلا وسنشير إليها فيما بعد .

القرآن الكريم :

فأول المصادر الإسلامية كتاب الله، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ[2] : « كتاب الله ، فيه نبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ فيه الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن لما سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ، من قال به صدق، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن هدى به هدى إلى صراط مستقيم » .

ولابد للدستور الالهى الخالد ، حتى يصلح لسياسة الناس فى مختلف العصور والبيئات ، ويتسع لحاجاتهم المتعددة والمتغيرة والمتجددة، من أن يقف عند وضع القواعد الكلية ، والأسس العامة، دون دخول فى التفصيلات والجزئيات ، وذلك فيما يمكن أن تتطور فيه حالة المجتمع وتتغير ، ففى النظام الدستورى مثلا لا يحدد القرآن شكلا معينا للحكومة ، ولا لتوزيع السلطات فيها ، ولا لطريقة الشورى ، وإنما يقرر العدل : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وينادى بالشورى : « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » ويعلن الإخاء والمساواة : « إنما المؤمنون إخوة » .

وفى العلاقات الدولية يؤسسها على السلام والتعاون بين أفراد المجتمع الإنسانى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

وفى المعاملات المدنية يضع أسسها العامة، وهى التراضى، وعدم أكل الأموال بالباطل والوفاء بالعقود : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وهكذا .

---

(١) مفاتيح الغيب حـ ٣ صـ ٣٥٧ وما بعدها، بتصرف وحذف ، وانظر روح المعانى للالوسى حـ٥ صـ ٦٠ ط المنيرية .

(٢) أخرج الترمذى عن على رضى الله عنه ، قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنها ستكون فتنة ، قلت فما المخرج منها يارسول ؟ قال : كتاب الله . . .

السنة النبوية :

ولهذا ، ولأن القرآن الكريم « حمال ذو وجوه » ـ كما قال الإمام على ـ حين بعث عبد الله بن عباس إلى الخوارج وقال له : « لا تخاصمهم بالقرآن ، فإنه حمال ذو وجوه ، تقول ويقولون ، ولكن حاججهم بالسنة ، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً »[1] كانت السنة النبوية ـ وهى أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأفعاله وتقريراته ، فى مقام الهداية والتشريع ، هى المصدر الثانى بعد القرآن نفسه ، يقول الله سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، ويقول : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وقد جاء القرآن بفرائض مجملة فى الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها ، ولا يمكن معرفة هذه الفرائض إلا ببيان الرسول لها[2] وقد جعل الله له هذا البيان فى قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، يقول حسان بن عطية : كان الوحى ينزل على رسول الله ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسره[1] .

وقد حاول بعض الناس أن يشككوا فى حجية السنة قديماً وحديثاً ، بحسن نية وسذاجة حيناً ، وبسوء نية أحياناً ، وأخذوا يتمسكون بشبه باطلة ، فقالوا : إن القرآن قد حوى كل شىء ، فهو يغنينا عنها ، مستندين إلى قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، وقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء » .

ومن هنا تكفل الله بحفظه وحده فى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » ، فكتب وحده أول الأمر دون السنة ، التى نهى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن كتابتها فى مثل قوله : « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » ، ثم قالوا : إن العمل بالسنة ـ وهى مختلف فى صحة الكثير منها ـ يؤدى إلى اضطراب أمر التشريع والاختلاف فيه .

(١) نهج البلاغة جـ ٢ ص ١٣٦ شرح الامام محمد عبده . ط الحلبى .

(٢) وقد استفتى رجل عمران بن حصين ، فأجابه بحديث ، فقال له الرجل : حدثونا عن كتاب الله عز وجل ، فقال له : إنك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله صلاة الظهر أربعاً لا يجهر فيها ، وعدله أمثلة كثيرة ، ثم قال له : أتجد هذا مفسراً فى كتاب الله ؟ كتاب الله قد أحكم ، ذلك والسنة تفسره .

(١) وقد سئل الإمام أحمد عن قول بعض العلماء : إن السنة قاضية على الكتاب ، فتحرج من هذا التعبير ، وقال : ما أجسر على هذا أن أقوله ، إن السنة تفسر الكتاب وتبينه (الموافقات للشاطبى جـ ٤ ص ٢٦) .

وقد تغافل هؤلاء عن الآيات القرآنية التي أوردنا بعضها في الاعتماد على السنة مرجعا ودليلا ، وعن أن السنة لا يعمل بها إلا إذا ثبت صدقها بطريق اليقين أو الظن الراجح .

أما استدلالهم بقوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، فمع التسليم بأن المراد في هذه الآية هو القرآن ، وليس اللوح المحفوظ ، كما هو واضح من السياق قبله ، إذ تقول الآية : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، فإنه يدل على اشتمال القرآن على كل شيء من الأصول والقواعد الكلية فقط ، ومن تلك الأصول الرجوع إلى السنة التي قرر القرآن حجيتها ، وهذا هو المقصود أيضا من قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .

أما قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، فإنه لا يعني أن القرآن هو المحفوظ فقط ، بل إن حفظ الله قد شمل كلا من القرآن والسنة ، وكما حفظ القرآن بالتواتر في الصدور وفي السطور ، فقد حفظت السنة بالنقل الصحيح عن طريق الصحابة وتابعيهم بإحسان ، ثم بالتدوين في المصنفات والمسانيد ، ووضع الضوابط والمقاييس العلمية الدقيقة ، في السند والمتن ، لقبول الصحيح منها ، ورد الدخيل عنها .

فأما كتابة القرآن وحده أول الأمر ، ونهى الرسول عن كتابتها ، فإنه لا يدل على عدم حجيتها ، لأن النهي عن كتابتها ، إنما كان بالنسبة لكتاب الوحي خاصة ، أو الذين يكتبون السنة مع القرآن في صحيفة واحدة حتى لا يختلط القرآن بالسنة ، بدليل أن الرسول أباح الرواية عنه في نفس الحديث الذي ينهى عن كتابتها وقال : حدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، فإن الأمر بالتحديث بالسنة ، وتهديد من يكذب على الرسول فيها بالعقوبة دليل على حجيتها . وقد أجاز الرسول لبعض الصحابة كتابة السنة ، حين كان يأمن اختلاطها بالقرآن ، كما حدث مع ابن عمرو .

وأما القول بأن العمل بالسنة أدى ويؤدي إلى الاختلاف ، نظراً لتفاوت العلماء في الحكم بصحة الأحاديث وعدم صحتها ، فإنه مردود ، لأن الاختلاف القائم على أسباب منطقية وعلمية ، أمر لا يخلو منه أي تشريع في الدنيا سماويا أو وضعيا ، قديما أو حديثا ، ولن يزول هذا الخلاف بالاستناد إلى القرآن وحده ، وإهمال السنة ، بل يزيد ويشتد ، فإن القرآن حمال ذو وجوه ، والسنة معه تؤدي من الأغراض ما تؤديه المذكرات الإيضاحية للقوانين واللوائح المتممة لها .

يقول الشافعى : إذا بين الرسول آية فى الكتاب ، فمن الله بين وحكم الله هو ما فى الكتاب على ما بين الرسول ، وكما أنه ليس للمسلم أن يخرج عن الكتاب ، ليس له أن يخرج عن بيانه الذى بينه الرسول ، لأن النص وبيانه من الله ويقول الشاطبى : «لا ينبغى فى الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه ، دون النظر فى شرحه وبيانه وهو السنة ، لأنه إذا كان كليا وفيه أمور كلية ، كما فى شأن الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها ، فلا محيص عن النظر فى بيانه » ولقد صدق مطرف بن عبد الله فى قوله : « والله ما نريد بالقرآن بديلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن» ردا على من قال له : « لا تحدثونا إلا بالقرآن»

ولهذا كان « ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية لا يخالف فى ذلك إلا من لاحظ له فى دين الإسلام» كما يقول الشوكانى [1] .

ولا تكون السنة صحيحة إذا عارضت نصا قرآنيا قاطعا فى دلالته ، أو حكما عرف من الدين معرفة ضرورية يعلمها الخاص والعام ، أو خالفت بدهيات العقول وأحكامها القطعية التى لا يتردد فيها عاقل ، لأن ذلك يدل على عدم صحة نسبتها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم فإن أقوال النبى هى الحكمة ، التى جاء ذكرها فى مثل قوله تعالى : «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم» ويقول الغزالى : «إذا كان الحديث مخالفا العلوم القطعية عند أهل العلوم ، وجب رده إذا كان خبر آحاد ، ويكون ذلك دليلا على عدم صحة نسبته إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم » .

(1) إرشاد الفحول ص ٢٩ .

يتبع

زكريا البرى

الجدال بغير علم

ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة : ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير .

دراسات حول القرآن :

السّجعُ والقرآن وَالبَاقلاّنى

للدكتور عَبد الرءوف مخلوف

من القضايا الفنية التى حظيت بعناية البلغاء العرب قضية الأصوات والموسيقى فى الأداء اللغوى ، وقد اندرجت مباحث العلماء فى هذه القضية تحت عناوين كثيرة اصطلحوا عليها فى علوم البلاغة من بينها السجع .

وممن تعرض لهذه القضية أبو بكر محمد ابن الطيب الباقلانى المتوفى ٤٠٣ هـ ، وهو أحد رءوس السنة فى المائة الرابعة الهجرية ، وصاحب كتب كثيرة فى علوم الكلام والعقيدة . ومن بين كتبه كتابه المسمى (إعجاز القرآن) الذى نزع فيه منزع رجال البلاغة ، وعرض فيه لطائفة من قضاياها الوثيقة الصلة بمباحث اللغة ، لغة القرآن ، ومن بينها السجع .

وقبل أن ندلى برأينا فى رأيه ، نرى ، ويحتم المنهج الصحيح أن نعرض مذهبه فى القضية ، لا سيما وهو مذهب كشهرين كما يقول .

يرى البقلانى أن ليس فى القرآن سجع ، ويذكر أن قد (ذهب أصحابه كلهم إلى نفى السجع من القرآن) وأن شيخه أبا الحسن الأشعرى قد ذكر ذلك فى غير موضع من كتبه ، ويقرر أن من ذهبوا إلى إثبات السجع فى القرآن قد زعموا أن ذلك مما يبين فضل الكلام ، وأنه من الأجناس التى يقع فيها التفاضل فى البيان والفصاحة ، كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة .

ولا يقبل الباقلانى آراء القوم المثبتين السجع فى القرآن ورأيه فى النفى يقوم على أمور منها :

أولا : أنه لو كان القرآن سجعا ـ أو فيه من السجع ـ لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها أو واحدا منها لم يقع بذلك إعجاز .

ثانيا : لو كان فى القرآن سجع لجاز أن يقولوا : هو سجع معجز ، ويقبح ذلك ـ عنده ـ أن يقولوا : هو شعر معجز .

ثالثا : أن السجع مما يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر لأن الكهانة تنافى النبوات ، وليس كذلك الشعر . فإذا كان القرآن نفى

عن نفسه بنفسه أن يكون شعرا ، فكذلك لابد أن ينتفى عنه أن يكون سجعا .

رابعا : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذين كلموه فى شأن الجنين وقالوا : (كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس ذلك دمه قد يطل ؟ قال لهم عليه السلام : أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ وفى رواية : أسجعا كسجع الكهان ؟) .

خامسا : لو سلم لمثبتى السجع موضع أو مواضع معدودة منه فى القرآن لم تعد سجعا لقلتها ، ولأنها لم تأت فيها مقصودا إليها ، ومثلها - حينئذ - كمثل عبارات منه جاءت متزنة بأوزان الشعر فلم يدع من أجلها أن فيه شعرا ، فكذلك حال السجع الذى يزعمونه ويقدرونه .

سادسا : يقول : لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مرزولا ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام ، لأن السجع له - فيما يرى - منهج مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم وقع الخلل فى كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا . . ومن جوز وقوع السجع فى القرآن فإنه يكون قد سلم بوقوع الخبط فى طريقة النظم ، وأنه من فرق شتى ومن أنواع مختلفة ينقسم إليها خطابهم . . ويكون قد استهان ببديع نظمه ، وعجيب تأليفه الذى وقع التحدى إليه .

تلك جملة ما احتج به الباقلانى لنفى السجع من القرآن ، وحين نتمم النظر فيها نرى غلبة روح علم الكلام عليها ، فأولها : أن أصحابه ، وعلى رأسهم شيخه أبو الحسن الأشعرى ذهبوا إلى ما ذهب إليه ، ومعروف أن أصحابه وشيخه كانوا من علماء الكلام والجدل ، وليسوا من البلاغة وفنية الكلام فى كثير . والقضية قضية النقد والبلاغة ورجالها قبل أن تكون قضية علم الكلام ورجاله ، وعلى هذا يكون الاحتجاج برأيهم فيها احتجاجا برأى غير خبير .

وأما أنه لو كان فى القرآن سجع لكان جاريا على غرار كلام العرب ، فإنا لا نرى مانعاً يمنع أن يكون القرآن كذلك . بل هو فى واقع الأمر كذلك « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، وهو يتحدث عن نفسه وأنه جاء « بلسان عربى مبين » وإعجازه ، والأمر كذلك ، يرجع إلى فوته سائر كلامهم فى نظمه وتأليفه مراعيا مناسبة اللفظة - من جميع الاعتبارات الفنية - للمعنى . وليس إعجازه من جهة المخالفة فى الجنس ، لأن مخالفة الكلام فى الجنس لا تضفى عليه فنية ، ولا تكسبه صفة البلاغة لذاتها فضلا عن أن تبلغ به حد الإعجاز .

وأما أنه لو كان سجعا لصح أن يقال فيه :

هو سجع معجز ؛ فإنا لا نرى مانعا يمنع من ذلك ما دامت قد تحققت فيه صفة الإعجاز ، وفوق قدر البشر وطاقاتهم .

ويبدو أن نزعة الجدل عند الباقلانى وأضرابه ممن نزعوا منزعه هى التى حملتهم على أن ينكروا أن يسمى ما فى القرآن من سجع سجعا لأنهم رأوا الكلمة تطلق على أصوات الطير كما فى قول ابن دريد : « سجعت الحمامة معناه : رددت صوتها ، وأنشد :

طربت فأبكتك الحمام السواجع
تميل بها ضحوا غصون نوائع

على أن إقحام الدين فى البلاغة ، ودراسات القرآن لم يكن مذهب الباقلانى فحسب ، وإنما هو اتجاه غلب على كثيرين ؛ غلب على أبى يعقوب المغربى حين قال : « ولا يقال فى القرآن أسجاع ، بمعنى أنه ينهى عنه ، لا لعدم وجوده فى نفس الأمر ، بل لرعاية الأدب وتعظيم القرآن وتنزيهه عن التصريح بما أصله فى الحمام التى هى من الدواب العجم ولكونه من نغمات الكهنة فى كثرة أصل إطلاقه . وغلب على التفتازانى حين قال : ولا يقال فى القرآن أسجاع رعاية للأدب ، وتعظيما له ، إذ السجع فى الأصل هدير الحمام ونحوه . . وقيل لعدم الإذن الشرعى ، . . على أن الرجل اتبع ذلك بقوله : وفيه نظر .

وغلب على بهاء الدين السبكى حين قال : لا يقال فى القرآن الكريم أسجاع ، بل إنما يقال فواصل ، أما مناسبة فواصل فلقوله تعالى : « كتاب فصلت آياته » ، وأما اجتناب « أسجاع » فلأن أصله من سجع الطيور .

بل جاوز الأمر فى السجع حد الرأى فإذا هم يروون أحاديث تنهى عنه فقد جاء فى إحياء علوم الدين للغزالى رواية تذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والسجع فى الدعاء ، حسب أحدكم أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من عمل ولكن رجال مصطلح الحديث لا يمرون بمثل هذه الرواية دون أن يقولوا « حديث إياكم والسجع فى الدعاء ، غريب » .

وهكذا يقحم ناس على البلاغة وفنية الكلام ما يسىء إليها وإلى قضية الإعجاز التى تقوم على فن الكلمة فى نظم القرآن ، ومن ثم ما قال الأستاذ على الجندى « وهذا هو الخلط الذى لا نسلم به ، والمغالاة الظاهرة التى تحمل معانى الحجر ، والتضييق ، والتحكم ؛ فالفاصلة التى منعوا استعمالها فى الشعر لأنها من خصائص القرآن معروفة للعرب قبل نزول القرآن ، وهى فى الأصل الخرزة بين الخرزتين ، وكيف لا نقول « فاصلة » فى الشعر وهى جزء من أجزائه ! إن الأمر لا يخرج عن أن يكون استعمالا لغويا سائغا لا ضير فيه على التنزيل الحكيم ، وقد سمى الزمخشرى كتابه فى النحو « المفصل » ولم

يمنعه من ذلك أن المفصل اسم لسور خاصة من القرآن ..

أما أن الكهان كانوا يسجعون ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذى سجع : أسجاعة كسجاعة الكهان .. فإن له وجها آخر توضيحه أن السجع صورة من صور الأداء المعانى فى اللغة تتفاوت درجاتها من حيث الصنعة والفنية ، فتأتى غثة منحدرة لا تملك إلا أن تردها كسجع العصور المتأخرة ، وكأسجاع مسيلمة وأشباهه ممن كانوا يعمدون إليه للتأثير على السامعين ، ومنه كلمة الرجل النبى ، وكأنما أراد أن يؤثر عليه بموسيقى السجع حتى يحكم له كما يريد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم مقالته ليبين له أنه لن يؤخذ بسحر السجع ، وإنما سيقضى بالحق ، وتبقى للسجع بعد ذلك كله خصائصه التى يشترك فيها مع سائر صور الأداء اللغوى . يبقى له أن جيده جيد ، ورديئه ردىء ، ولهذا وذاك صفاته .

وكون الكهان تكلفوا السجع لما أرادوا التمويه والتأثير على من يقصدونهم ، فأخضعوا المعانى للألفاظ ، واقتسروا الألفاظ للمعانى لا ينال من السجع إذا جاء على النسق الأصح ، وجاءت فيه الألفاظ لما استدعتها المعانى عفقة مع ذلك ضربا من الموسيقى يزيد التأثير فيبلغ الكلام بإجماع الطرفين غايته من البلاغة حتى ليرقى بذلك إلى حد الإعجاز كما فى القرآن ، وليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ، إذ لو كان الأمر على ذلك لكان كل أديب من الأدباء سجاعا ، وليس السجع كما يقع فى الوهم بيداء يركب منها اعتسافا بلا تبصر ولا تفكر ، ولكن طريق لاحب تحفه الحدود الواضحة الدقيقة ، وتنتظمه الصوى المرشدة ، والمعالم الهادية ، وهو مع ذلك ليس سيراً على بساط مخمل منقوش بالأزهار يتهادى عليه من شاء كيف شاء مزهوا مختالا ، ولكنه خطا بطيئة تثقلها الأصفاد فوق شوك حاد نافذ يحتاج إلى إعمال الفكر ، وإنعام النظر قبل نقله كل قدم .

يقول الباقلانى : (قد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل ، متدانى المقاطع ، وبعضه مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه ، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير - يقول الباقلانى : - وهذا فى السجع غير مرضى ولا محمود) . وينظر لذلك بالشعر فيقول : إنه متى وقع أحد مصراعى البيت مخالفا للآخر كان ذلك تخليطا وخبطا ، كذلك فإنه لما اضطرب أحد مصراعى السجع وتفاوت كان خبطا) .

وظاهر من هذا النص أن الرجل يشترط فى السجع التماثل فى الوزن وفى الصوت الأخير من الفقرتين أو الفقر ، ومتى لم يتحقق ذلك فإنه لا يعد الكلام مسجعا . والذى حمله على تضييق ما وسعته اللغة ، وارتضاه الجمهور

فى الأسجاع أنه اعتنق أولا فكرة نفى السجع عن القرآن فإذا هو يضيق دائرته حتى لا يكون منه فيه . وما صدق عليه تعريفه إياه – وهو قليل، يخرج هو الآخر بأنه جاء غير مقصود إليه مثل كلمات اتزنت بأوزان الشعر فى القرآن ، فإنه لا يقال فيها من أجل الوزن : إنها شعر.

لكننا نرد على الباقلانى مذهبه ، ونقول بأن فى القرآن سجعا – على اصطلاح النقاد والبلاغيين ، والسجع أوسع بابا وتصرفا ، وأكثر صورا وقوالب . وليس محصورا فى تمام التماثل وكمال التناظر فى الوزن والجرس .

وقد عرفه جمهرة النقاد بما يتسع لما جاء فى القرآن الكريم من صوره وأفانينه ، واستخلص الأستاذ على الجندى فى كتابه « صور البديع – فن الأسجاع » أنه تواطؤ الفواصل فى حرف الروى ، أو فى الوزن ، أو فى مجموعهما » . وهذا التعريف يسمح بدخول جميع الصور التى تتفق بالوزن دون الروى ، أو بالروى دون الوزن ، أو بهما معا تحت باب السجع .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، فمن المتماثل فيهما قول أبى تمام :

تدبير معتصم بالله منتقم
لله مرتقب فى الله مرتغب

ومن المتماثل فى الوزن دون الروى قوله تعالى: « ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » والمراد بالوزن: الوزن فى اصطلاح العروضيين، وهو ما نلحظ فيه مقابلة المتحرك بالمتحرك، وإن اختلف نوع الحركة ، والساكن بالساكن ، وليس المراد الوزن التصريفى.

ومن المختلف بالروى قوله تعالى: « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة .... » وهكذا .

فإذا استقر فى الأذهان أن السجع يمكن أن يتفاوت فى الوزن والروى والمساحة ، ولا يخرج بذلك عن بابه ، يمكن أن يرد ما ذهب إليه الباقلانى من أن « السجع له منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم وقع الخلل فى كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المقصود كان مخطئا ، وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعرا وشتان بين منهج السجع وطريق الشعر.

بل نحن – فيما أرى – لا نجاوز حد الصواب إذا قلنا : إن التوسع فى الأسجاع بالمغايرة فى الوزن وفى الجرس ، وفى المساحة هو سر جمالها بل هو سر جمال الموسيقى فى القرآن .

إن التنقل من وزن إلى وزن ، ومن فاصلة ذات جرس إلى فاصلة أخرى ذات جرس مغاير هو سر عدم الإملال فى ترداده أو السأم

لتكراره ، وحين نستمع إلى القرآن الكريم أو ندرسه ونستعرض آياته وسوره ، ونقف فى أثناء ذلك كله عند ما نعده سجعا فإنا نراه لا يتقيد بالطول ولا بالقصر فى الفقر والآيات ، ولا يلتزم جرسا بعينه . ولا صوتا بذاته ، وإنما يقود المعنى فيه ، والتوفق الفنى فى نظمه إلى أجمل ما يمكن أن يتصور وأكثره امتاعا للنفس والحسن بما يجيء فى رأس الآية من صوت قد يتلوه شبيه إذا استدعى المعنى ، وبذلك يتم مع جمال الفكرة حلاوة التوقيع فيكون للأذن كما للقلب من أطراف الحسن نصيب .

وإذا كان المعنى هو ما يستهدفه القرآن فإنه لا يهمل الجرس إذ من هذين يكون الانسجام بين الفكرة واللفظ المعبر به عنها وكل كلام إنما هو سلسلة من الانسجامات تتابع فى النثر على غير نظام دقيق كالذى نجده فى الشعر .

وإذا كان السجع مقيدا بالتماثل فإن التماثل فيه غير مشروط بالتكامل ، ولا ملتزم فيه التمام ، وإنما يكتفى من ذلك كله بالتقريب ومن ثم جاء السجع فى القرآن ، ولم تلتزم فيه وحدة المساحة الصوتية ، ولو أنها التزمت لخرج الكلام من باب الاسجاع إلى تفاعيل الشعر ، وعلى ذلك جاءت الآيات والفواصل طويلة وقصيرة ، متقاربة ومتباعدة ، متشابهة ومتخالفة ، وفى جميع ذلك لا تحس تكلفاً ولا تصنعاً ، ولا استكراها اللفظ على معنى ولا إخلالا بمعنى ، من أجل لفظ .

ثم هذا التخلف بالوزن وبالمقطع والجرس فى رءوس الفقر والفواصل ليس خللا ولا اضطرابا ، وإنما هو سر الجمال ، ذلك أن التنقل بالقارىء بين ضرب وضرب ووزن ووزن ، ونغم ونغم ، وهيئة موسيقية وأخرى ، ذلك مما يكسب الأسلوب طرافة ، ويضفى عليه جدة مستمرة وحداثة تجعله لا يخلق على كثرة الترداد » .

ومثل السجع حين تتخالف أطرافه ، ويتردد بين أنغام وأوزان ومساحات شتى على نحو ما نجد فى القرآن الكريم مثل اللحن الذى يبدع فيه صاحبه بما يحشد له من آلات العزف التى تعطى ألوانا شتى من الأصوات والموسيقى . يقول بوالو : « إذا شئتم أن تكونوا موضع حب القراء وجب عليكم أن تدأبوا على تنويع أساليبكم ؛ فإن الكتابة على نمط واحد مهما تكن طلاوتها تسبب ركود الفكر » .

« والقارىء يسأم مطالعة إنتاج الكتاب الذين يدخلون الملل على نفسه بسبب جمودهم أمام أسلوب واحد ذى نغمة واحدة متماثلة » .

« فنعم الشاعر الذى يستطيع أن ينوع أسلوبه » .

« فيعبر أودية الرهبة إلى شاطئ الدعة » .

« ويمر من لحظات السرور إلى ساعات الحزن » .

« ولا يغيب عن أذهانكم أن الملل مصدره التماثل ! ! » .

فهذا رجل ناقد خبر الأساليب وأدرك ما يسببه التماثل الملتزم ، والتشابه المكرور في الأصوات والأنغام والأوزان .

ونحن - النقاد العرب - حين نتصدى لاختلاف الموضوعات - تأتي في السورة الواحدة - نجعل من مبررات ذلك ، التنقل بالقارئ بين فكرة وفكرة حتى لا يسأم أو يستطيل الحديث في سورة طويلة عن موضوع واحد شريطة ألا تنقطع أوصال السورة ، وإنما تترابط أجزاؤها ، ولو من طرف خفي ودقيق .

ومثل ذلك ما نقول : حين نعرض لتخالف الأساليب وترددها بين مرسل ومقيد أو بين وعظ وتعليم ، وسهرة وقصص ، وهكذا في كل ما يتراءى أنه تفاوت من إحدى الجهات .

إن ذلك جميعه يرد على الباقلاني مذهبه الذي يذهب فيه إلى أن للسجع طريقا مرتبا ومنهجا مضبوطا متى أخل به أحد أخل بالنظم والكلام .

عبد الرءوف مخلوف

البلاغـــة

البلاغة ما حط التكلف عنه ، وبنى على التبيين ، وكانت الفائدة أغلب عليه من القافية ، بأن جمع مع ذلك سهولة المخرج مع قرب المتناول ، وعـــذوبة اللفظ مع رشاقة المعنى ، وأن يكون حسن الابتداء كحسن الإنتهاء وحسن الوصل كحسن القطع في المعنى والسمع ، وكانت كل كلمة قد وقعت في حقها وإلى جنب أختها ... ثم ألبس بهاء الحكمة ونور المعرفة وشرف المعنى وجزالة اللفظ .

الرماني

زهر الآداب

هل أتمّ الفخر الرّازى كتابه فى التفسير...؟

للأستاذ على العمارى

— ٣ —

هذا . وربما وقعت شبهة فى بعض الأوهام ذلك أن الرازى يقول كثيرا فى تفسيره السور الأخيرة من القرآن : (قال صاحب النظم) .

ومن أمثلة ذلك :

١ — فى تفسير قوله تعالى : « تلقون إليهم بالمودة » من سورة الممتحنة : (وقال صاحب النظم : هو وصف النكرة التى هى (أولياء) . قاله الفراء) .

٢ — وفى تفسير قوله تعالى : « فطلقوهن لعدتهن » من سورة الطلاق : (وقال صاحب النظم : صفة الطلاق ، كيف يكون ؟ . وهذه اللام تجىء لمعان مختلفة : للإضافة ، وهى أصلها ، ولبيان السبب ، والعلة) .

٣ — فى تفسير قوله تعالى : « قد علمنا ما فرضنا عليهم » من سورة الأحزاب » : (قال صاحب النظم : إذا وصل بعلى لم يحتمل غير الإيجاب ، وإذا وصل باللام احتمل الوجهين) .

* * *

والذى يتبادر إلى الذهن ، وقد وقع لى ، لا سيما أن التعليقات كلها نحوية ، أن المراد بصاحب النظم هو الإمام محمد بن مالك صاحب الألفية ، وهذا الإمام جاء بعد الفخر الرازى فقد كانت وفاته سنة ٦٧٢ هـ ، فالنقل عنه — على ما يتبادر للذهن — يؤكد أن المفسر لهذه السور عالم جاء بعد الفخر ، وبعد ابن مالك ، أو على الأقل معاصر لهذا الأخير .

لكنى وجدت الفخر الرازى يقول فى أواخر تفسير سورة النساء : (قال الجرجانى صاحب النظم) . فهو — إذن — ليس ابن مالك ، ولكنه عالم من جرجان (لم أقف على اسمه) سبق الرازى .

* * *

ثم نجيب عن السؤال :

لقد ترجح عندى بعد هذا التردد الطويل بين أخبار أصحاب التراجم ، والتفسير الكبير للفخر الرازى أن هذا الإمام الجليل أتم تفسير القرآن كله ، ثم لأمر لعله من صنع التتار الذين أغاروا على خوارزم فى سنة ٦١٧ هـ ، أى بعد وفاة الرازى بإحدى عشرة سنة ضاع جزء من هذا الكتاب ، يغلب على الظن أن يكون تفسير سور متفرقة

من السور الأخيرة، كسورة الواقعة، فجاء شمس الدين الخوبى، ووضع تفسيراً لهذه السور، وربما كان وضع تفسيرا كاملا للقرآن أدخل بعضه فى تفسير الرازى.

وقد أشرت فيما سبق إلى أن أول من قال أن للخوبى تكملة على تفسير الفخر هو صاحب عيون الأنباء، ولهذا المؤلف اعتبار خاص فى هذا الموضوع فهو تلميذ للخوبى، قرأ عليه بعض الكتب، وصحبه زمنا، غير أنه فى الوقت الذى يصرح فيه بقصة تتمة تفسير الفخر فى ترجمة الخوبى، لا يشير إلى ذلك أية إشارة فى ترجمته للفخر، مع أنه تعرض لتفسيره، وقال: إنه رآه.

ومن المعاصرين لصاحب عيون الأنباء وإن كانت وفاته أسبق، الوزير جمال الدين القفطى صاحب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وعبارة هذا العالم: ومن تصانيفه - يريد فخر الدين - كتاب تفسير القرآن الكبير سماه مفاتيح الغيب، سوى سورة الفاتحة، وأفرد لها تصنيفها، اثنى عشر مجلدا بخطه الدقيق.

فهذه العبارة تفيد أن القفطى رأى التفسير وأنه رآه كاملا، إذ لو كان ناقصا لكان من البدهى أن يشير إلى ذلك، فهو يستثنى تفسير سورة الفاتحة، فكان طبيعا - إذا كان التفسير ناقصا - أن يستثنى - أيضا - الجزء الناقص منه، وإلا لم يقم بالأمانة العلمية، بل إن هذه العبارة تشعر أن القفطى يشير إلى ضخامة هذا التفسير، وكأنه موضع تعجب منه، إذ يذكر أنه بلغ اثنى عشر مجلدا، ثم أردف ذلك بأنه بخط الرازى الدقيق، فكان مقتضى هذا أن ينوه بأن التفسير مع ذلك لم يتم ليكون أدعى إلى التعجب.

ثم نعود إلى ابن أبى أصيبعة صاحب عيون الأنباء، وهو - كما قلت - أول من نسب إلى الخوبى تتمة تفسير الفخر، وعنه أخذ كل من جاءوا بعده، فنرى أنه شديد الإعجاب بشيخه هذا، وربما كان هو الذى روج تلمذة الخوبى للرازى، وهذه التلمذة بمعناها الحقيق موضع شك، فابن أبى أصيبعة يذكر أن شيخه الخوبى مات فى سن الشباب، وقد ذكر ابن السبكى أن الخوبى ولد سنة ٥٨٣ هـ وعلى هذا يكون عمر الخوبى حين توفى سنة ٦٣٧ هـ أربعا وخمسين سنة، ويبعد أن يقول عن هذه السن: إنها سن الشباب، فنرجح أن الخوبى ولد سنة ٥٩٣ هـ وعلى ذلك تكون سنه عند وفاة الرازى ثلاث عشرة سنة وهى سن لا تسمح بأن يوصف بالتلمذة الحقيقة للفخر.

وقد شك التاج السبكى فى هذه التلمذة فقال فى ترجمة الخوبى: دخل خراسان، وقرأ بها الكلام على الإمام فخر الدين - فيما قال بعضهم - وقيل إنما قرأ على القطب المصرى تلميذ الإمام.

ولعل ابن السبكى يقصد بكلمة (بعضهم) ابن أبى أصيبعة ، فهو الذى ساق القضية مساق المسلمات .

لقائل أن يقول : إن ابن أبى أصيبعة شافه الخوبى ، وعاش معه زمنا ، فروايته أوثق ، ولكن قد يكون من المقبول أن العلماء كانوا يفخرون بالأخذ عن كبار المشايخ ، فلا يبعد أن يكون شمس الدين نزل بالرى فى هذه السن المبكرة ، وحضر مجلسا أو مجالس للإمام فخر الدين فاعتمد ذلك تلمذة له ، ثم أتم علومه على القطب المصرى .

فلما استحصف فكره ، واتسعت معارفه رحل إلى الشام ، والدليل على ذلك أنه حين نزل دمشق وكان صاحبها ، إذ ذاك ، الملك المعظم عيسى بن الملك العادل استحضره هذا السلطان ، وسمع كلامه فوجده أفضل أهل زمانه فى سائر العلوم ـ هكذا يقول تلميذه ابن أبى أصيبعة ـ .

وصاحب عيون الأنباء ـ فوق ذلك ـ يبالغ فى مدح الخوبى ، فيقول ـ مثلا ـ : كان أوحد زمانه فى العلوم الحكمية ، وعلامة وقته فى الأمور الشرعية ، عارفا بأصول الطب ، وغيره من أجزاء الحكمة .

ويقول عنه : وكان حسن العبارة ، قوى البراعة ، فصيح اللسان ، بليغ البيان ، وافر المروءة ، كثير الفتوة ، وكان مع ذلك كثير التواضع ، لطيف الكلام ، يمضى إلى الجامع ماشيا للصلوات فى أوقاتها ، وكان رحمه الله ملازما للصلاة والصوم ، وقراءة القرآن .

وأبعد من ذلك فى وصفه قوله فى مقدمة الترجمة : هو الصدر الإمام ، العامل الكامل ، قاضى القضاة شمس الدين ، حجة الإسلام ، سيد العلماء والحكام .

ويقول عن تصانيفه : إنها لا مزيد عليها فى الجودة .

وكل هذا ينم عن حب عميق . فهل يسوغ لنا : أن نقول إن هذا المؤلف بالغ فى تلمذة الخوبى للرازى ، وبالغ ـ كذلك ـ فى اعتبار تفسيره لسورة (الواقعة) التى ربما يكون تفسير الرازى لها قد ضاع لأى سبب من الأسباب ، أقول : بالغ فى اعتبار هذا التفسير حتى جعله (تكملة) لتفسير الفخر .

ولو قارنا ما قاله (ابن أبى أصيبعة) بما قاله (أبو شامة) ـ مثلا ـ فى (الروضتين) وما قاله (ابن السبكى) فى (الطبقات) لأدركنا إلى أى مدى بالغ المؤلف فى امتداح شيخه الخوبى .

فأبو شامة ـ وهو معاصر أيضا ـ لا يزيد عن قوله : (وكان رحمه الله حسن الأخلاق ، لطيفا ، كثير الإنصاف ، عالما فاضلا فى علوم متعددة جمة ، محققا ، عفيفا ، متواضعا ، كثير المداراة ، محببا إلى الناس) .

وله شهاب الدين أبو شامة بدمشق سنة ٥٩٦ هـ ، وتوفى سنة ٦٦٥ هـ .

وابن السبكى يقول : (وكان فقيها أصوليا متكلما ، مناظرا ، دينا ورعا ، ذا همة عالية ، حفظ القرآن على كبر ، وكان - وهو قاضى القضاة - يجئ إلى الجامع بدمشق ، وربما بالطيلسان يتلقن على من يقرئه القرآن ، وللقاضى شمس الدين مؤلفات كثيرة ، ونظم كثيرة) .

اتفق الجميع على أنه عالم فاضل ، غير أن تلميذه جمله (الصدر الإمام) . وإذا صح أن تفسيره سورة (الواقعة) الملحق بتفسير الفخر الرازى له ، فإنه يدل على سعة علمه ، وحسن بيانه ، وبليغ تقليده للفخر فى طريقته ومنهجه .

* * *

أما نجم الدين القمولى - وهو العالم الثانى الذى ذكروا أن له تتمة على تفسير الفخر - فهو عالم مصرى ، تقلب فى كثير من الأعمال ، وتوفى عن نيابة القضاء بمصر والجيزة ، وكان صدر الدين بن المرحل يقول عنه : ليس بمصر أفقه من القمولى ، وكان - مع جلالته فى الفقه - عالما بالنحو ، وكان رجلا صالحا متورعا ، لا يفتر عن قول : لا إله إلا الله .

ولسنا نجد فى هذا الجزء الأخير من تفسير الرازى أثرا بارزاً للدراسات الفقهية ، والدراسات النحوية التى امتاز بها هذا العالم ، فكل ما فيها من هذين العلمين لا يختلف عما نجده فى تفسير السور التى تأكدنا من تفسير الرازى لها .

ويبدو أن أول من ذكر عمله فى تكملة تفسير الرازى هو تاج الدين السبكى ؛ فقد قال - وهو يترجم له فى الطبقات - : (وله تكملة على تفسير الإمام الرازى) . ثم تبعه (ابن حجر) فى (الدرر الكامنة) .

وكما لم يذكر صاحب عيون الأنباء فى ترجمة الرازى أمر نقصان تفسيره ، مع أنه ذكر فى ترجمة الخوبى أنه له تكملة على هذا التفسير ، كذلك أهمل ابن السبكى فى ترجمة الرازى هذه المسألة ، مع ذكره أن القمولى تكملة .

وكما ذكر القفطى أن تفسير الرازى فى اثنتى عشرة مجلدة ، ذكر صاحب عيون الأنباء ، ولم يذكر شيئا بعد إيراد العبارة ، مما يدل على أن التفسير كان كاملا .

ويحضرنى فرض آخر ، وهو أقرب الفروض - عندى - إلى الصواب ، ولهذا الفرض ما يبرره . هو أنه كان للرازى تلاميذ كثيرون ، يصحبونه فى غدوه ورواحه ، وبعض المؤلفين يذكر أنهم كانوا نحوا من ثلثمائة ، وقد قيل : إن الرازى كان يملى تفسيره ، فإذا افترضنا أن الذين كانوا يكتبون من هؤلاء التلاميذ خمسون تلميذا كان لنا من

الكتاب خمسون نسخة ، ثم إنا قد عرفنا أن هؤلاء التلاميذ كانوا من جهات مختلفة ، فمن المقبول أن يكون بعضهم رحل من (الرى) ولم يكتب عن التفسير إلا النصف الأول ، وبعضهم كتب إلى سورة الأنبياء ، وبعضهم إلى سورة الواقعة ... وهكذا . ثم تفرقت هذه النسخ الناقصة فى الأقطار ، فأتم الخوبى نسخة ، وأتم القمولى النسخة التى وقعت إليه فى مصر ، وكان ممن وقعت لهم نسخة ناقصة السيد مرتضى الذى تحدث عنه الشهاب الخفاجى ، وقد نقلنا هذا الحديث فيما سبق.

ثم ظهرت نسخة الرازى التى كتبها بخطه ، وبعض النسخ الكاملة التى كتبها بعض تلاميذه ، وكتب الوراقون نسخا من هذا التفسير ، بعضها -ولا شك- كان نسخة كاملة من تفسير الرازى ، وبعضها فى تفسير سورة أو أكثر لعالم آخر ، كهذه النسخة التى بين أيدينا .

وقد وجدنا الدليل القاطع على أن تفسير سورة الواقعة الملحق بتفسير الرازى الذى بين أيدينا ليس من تصنيف الرازى ، وربما قام دليل أو أدلة على تفسير بعض سور أخر فى هذه النسخة المطبوعة ، أو فى نسخة أخرى مخطوطة على أنه ليس من عمل الرازى ، وحينئذ لا نجد لذلك تفسيرا - على ما ترجح الآن - إلا الذى قلناه .

ولعل مما يدلنا على أن نقصان تفسير الرازى لم يكن أمرا مشهورا بعد وفاته بخمسين سنة على الأقل أن (أبا شامة) - وهو مؤلف يعنى بتحرير ما يقول - ذكر فى كتابه : (الذيل على الروضتين) أنه ورد عليهم بالشام جماعة من كبار تلاميذ الرازى ، ولم يشر أية إشارة إلى قضية نقصان التفسير الكبير ، وهذه قضية ليست بالهينة حتى يغفلها مثل هذا المؤلف لو كانت معروفة بينهم ، والتفسير نفسه لم يكن مجهول المكانة بين علماء دمشق فى ذلك التاريخ .

* * *

هذا ما أمكن أن أطمئن إليه فى شأن هذه القضية . أما الكلمة الفاصلة فيها فلا تزال فى زاوية مجهولة من زوايا التاريخ ، لعل الله يوفق أحد الباحثين للكشف عن مكانها المجهول .

ويعلمكم الله ، وهو ذو الفضل العظيم ؟

على العمارى

أثر الفتوة الإسلامية في الحضارة الإنسانية

للأستاذ محمد رجب البيومي

كثرت الكتب التي تتحدث عن الفروسية الأوربية ، وما أسدته للأجيال المتعاقبة من معانى الأريحية والمروءة والكرم والوفاء وكان مما يدهش القارئ أن أصحاب هذه الكتب في أكثر أبحاثهم - يشوهون الحقائق الواضحة حين يهملون أثر الإسلام البارز في تكوين مروءة إنسانية عالمية ، وهو أثر واضح جهير ينادى على نفسه بالأسانيد الصائبة والبراهين الملموسة ، لأنك إذا بحثت جاهداً عن شاهد واحد لهذه الفروسية النبيلة تقف بعيداً عن تأثير الإسلام ، فلن تجد ، حتى إن الذين يتحيفون الإسلام بأفكار فضائله ، يشقون على أنفسهم كثيراً في التمويه والتلفيق ثم يفاجئون بمن يدحض آراءهم من ذوى ملتهم ، لأن الحق لا يعدم النصير .

لقد كتب الأستاذ (واصف غالى) وزير الخارجية المصرية الأسبق سفراقيا بالفرنسية يعلن سبق الإسلام إلى دعم الفضائل النبيلة في الشرق والغرب ، بعد أن قرأ كثيراً من البحوث المموهة الكاذبة عن الفروسية الغربية ، فجاء بالأدلة الحاسمة مؤيدة بوقائع التاريخ وشواهد الأحوال لتسفر عن وجه الحقيقة ، وقد ترجم كتابه إلى العربية تحت عنوان (تقاليد الفروسية العربية) ليقرأ أبناء العربية صحائف الحق والخير والجمال يسطرها قلم نزيه ، يمحو اللغو الآفك فدحضه بالتي هي أحسن .

والحديث عن الفروسية شرقية وغربية إحدى مفاخر الإسلام دون مراء ، فقد تواطأ أكثر الكاتبين في لغات الغرب على إنكار يده البيضاء في خلق الروح الإنساني المترفع ، والسمو بالناس إلى دنيا من الوفاء والشرف والكرامة ! مع أن كتاب أوربا أنفسهم يعلنون في أسف حار أن فروسية الغرب - قبل أن ترتفع بها روح الإسلام - كانت فروسية جبروت وإقطاع ، إذ يحرص كل نبيل إقطاعى على المحافظة على سلطانه فيضم حوله نفراً من الفرسان المرتزقين لاهم لهم غير الاهتمام بشئون النبيل ، ثم تطورت الفروسية الإقطاعية إلى تقليد كنسى حين خرجت كتائب الحروب الصليبية زاحفة إلى الشرق متأثرة بصيحات مزمجة تسكرها المسيحية في لبابها الصميم وفي كلا العهدين لم تكن للفروسية الأوروبية آداب خلقية تتجه إلى النبل والتسامح والوفاء والشرف ، حتى وقف هؤلاء المعتدون على ألوان راقية

من صفات العرب وأخلاق الإسلام ، فرأوا لدى فرساننا الأبطال من روائع المروءة والبطولة والعفة والتسامح ما لفت أنظارهم إلى الفروسية الحقيقية ، ورجالها النبلاء ، أولئك الذين جعلوا البطولة الأصلية بطولة شرف ووفاء ، لا بطولة غدر ودماء.

بهذه الحقيقة الصريحة تنطق فصول الكتاب مؤيدة بالشـــواهد المواثل ، وقد أحسن الأستاذ واصف غالى التعبير عن هذه الحقيقة حين قال ص ٢٦ .

« إن هؤلاء الذين كانوا يلقبونهم بالكفار عن كانت الكنيسة تأمر بمقاتلتهم دون هوادة ، (يريد بهم المسلمين) إنما هم أبطال كرام فى معاملة الخصم سرت إليهم الرأفة وأصبحوا أشد إنسانية ، وهكذا تعلم أولئك الفرسان فى مدرسة العرب أن يكونوا سمحاء كبار النفس فى مخاصمة العدو ، لقد رأوا كيف يرعى العهد أولئك الذين لم يتلقوا المعمودية فتعلموا أن يصونوا جميع عهودهم لا تلك العهود التى قطعوها رسميا وأقسموا على الوفاء بها فحسب ، ورأى الفرسان لدى أعدائهم ذلك الازدراء العيوف للثروة والغنى ، ولمسوا فيضا من كرم ضيافتهم وجوداً لم يتخيلوا مثله فتعلموا أن يغدقوا فى صدقاتهم وأن يسخوا فى هباتهم ، ورأوا رعاية العرب لحرمة النساء بل ولحرمة أقلهن شأناً ـ أولم تصبح بعض الجوارى أميرات ـ فتعلموا الشهامة والرقة ، لا نحو السيدات النبيلات فحسب ، بل نحو النساء جميعا على اختلاف طبقاتهن وهكذا تهذبت أخلاق العصور الوسطى الجافية وتطورت عند ما اتصلت بالعبقرية العربية فلانت ولطفت ورقت وصحت وذلك فى عبارة موجزة هو أثر العرب فى الفروسية الغربية » .

وإذا كان عماد الفروسية العالية هو النبل الخلق الأصيل فإن الأستاذ واصف غالى قد بسط من وقائع التاريخ ما يؤكد نبل الفروسية الإسلامية ، فضرب الأمثلة على ذلك ببعض ماذاع واشتهر فى سجلات العرب والإسلام فهو يذكر مثلا سماحـــة الأمير الأندلسى عبد الرحمن الثالث حين أذن لعدوه « سانن » أمير (ليون) أن يفــد إلى قرطبة فيستشير أطباءها المسلمين فى علاجه ثم يرجع معززاً محفوفا بالرعاية الإسلامية فى حين يستضيف ملك قشتالة المسيحى أباسعيد ملك غرناطة فتعجبه جواهره ، وإذ ذاك تدفعه الأنانية اللئيمة إلى قتله غدراً وهو فى ضيافته ليستولى على ذهبه وفضته ! ! ثم يستطرد المؤلف إلى موقف ملك مراكش المسلم من الملك الفونس الحكيم حين استغاث به مستنصراً ، فعبر إليه الملك المراكشى البحر ملبيا نداءه عن شرف وشهامة وقد أراد الفونس أن ينزل عن منزلة الصدارة والشرف لهذا الباسل الذى خف إلى نجدته فقال له

الملك المسلم : « إن لك مجلس الشرف ما دمت مغلوبا على أمرك ، ولقد أتيتك لأهينك على تأديب عاق غادر ! فمن أديت هذا الواجب وأصبحت قويا مهابا نازعتك كل شيء وناصبتك العداء من جديد » !

ولا يترك المؤلف مواقف الأريحية والبطولة لدى قادة الإسلام فى الحروب الصليبية إذ يتحدث فخوراً عن موقف نور الدين محمود حين امتنع عن انتهاز فرصة موت (بودوان) فلم يشأ أن يستعيد عسقلان إذ ذاك قائلا : « إنى لو فعلت ذلك لأهدرت قيم الإنسانية واستهنت بآلام شعب يبكى مولاه ولأخللت بشرف الحرب حين أهاجم منكوبين لم يتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ثم يقرن ذلك بما فعله ريتشارد قلب الأسد عند ما دفعه جبنه إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا سنة ١١٩١ رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحرياتهم » ! ! وقارىء كتاب الأستاذ واصف يلمس سمو الروح الإسلامية لدى أبطال مسلمين لا يدرى كيف بلغت مثاليتهم الرفيعة هذا المبلغ من التعاطف الإنسانى ! هذا الذى ماتت لديه رغبات الانتقام والثأر وعاشت معه نوازع الصفح والإغضاء ! وشيوع هذه المثالية النادرة بين المسلمين فى الشرق العربى وفى الغرب بالأندلس دليل لا يخطىء على أن معين الهداية لديهم قد جمعهم على أندر خصال المثالية والنبل ...

وإذا كنا نعرف ما اقترفه الصليبيون حين فتحوا بيت المقدس من استئصال العجزة من النساء والأطفال والشيوخ حتى كانت الخيل تخوض إلى بطونها فى مسيل من الدماء فإننا نقرن هذه الوحشية الدنسة بنماذج مختارة مما سطره الأستاذ واصف وهى من التيقن والثبوت بحيث اعترف بها كبار الخصوم من مؤرخى الغرب المسيحى ! ولعلهم كانوا يمسحون عرق الخزى من وجوههم حين يقرنون توحش فرسانهم الضارى بسماحة المسلمين العادلة ، لو أصاخوا إلى الحق مجردا عن الأهواء والظنون .

ففى ميدان الحروب الصليبية ، نجد الأمثلة الكثيرة ، صلاح الدين الأيوبى يظهر روح التسامح نحو خصيمه ريتشارد قلب الأسد حين يسمع بمرضه ، فيرسل إليه ما طلبه من الدواء والكمثرى والخوخ والثلج وهو يهذى فى سكرات الحمى متناسيا ما صنعه بأسرى عكا من قبائح ، كما نجد الملك الكامل يقابل قائد الحملة الصليبية على دمياط (جان دى برين) فيجده متفطر القلب من البكاء وإذ ذاك يسأله عن سر بكائه فيقول فى ضراعة : من حق يا مولاى أن أبكى وقد رأيت الشعب الذى عهد الله به إلى يهلك بين البرد والماء جوعا ، فيتأثر الملك الكامل ويرق واحما ثم يأمر بإرسال ثلاثين ألف رغيف للصليبين ويفعل ذلك بضعة أيام متتاليات ! !

أما فى ميدان أوربا بالأندلس فيذكر الأستاذ واصف غالى عنه من نوادر الوفاء والنبل مايفوح عبيره فى صفحات الكتاب دالا على كال المروءة ، ونبالة الأريحية ، ومن ذلك على سبيل المثال ما روى عن (المنصور بن أبى عامر) حين حضر يوما فى شعب ضيق فرقة كبيرة من جنود الأسبان وأصدر إليهم الأمر بالتسليم ، ولكنهم صمموا على الهلاك والاستئصال دون أن يجيبوا إلى الاستسلام ! فأمر المنصور فى مروءة أن يفتح لهم الطريق رافعا عنهم الحصار مؤثرا فى همامة نادرة أن يرسل لعدوه نجدة كبيرة على أن يأمر باستئصال هؤلاء وقد وقعوا فى المأزق الكريه ، ولقد حكى المؤرخ الأسبانى (موسدن) عنه أنه كان يدمر المدن بالحديد والنار حين تنهض لمقاومة جيوشه ولكنه لم يسمح بأهون شر يحيق بمدينة تستسلم دون عصيان ! أما موقف حاكم قرطبة المسلم من زوجة الفونس الثامن فقد كان نادراً حقا ! إذ أنه اتجه إلى غزو طليطلة رداً على مكيدة الفونس فى حصار بعض المدن الإسلامية ، وندع الأستاذ واصف يتحدث عن هذه الخارقة النادرة إذ يقول عن القائد الشهم .

«ودار فى حذر حول معسكر المسيحيين وأمعن فى السير حتى بلغ أسوار طليطلة حيث كانت الملكة (بيرانجير) تقبع فى عقر دارها وتعوزها وسائل المقاومة ، فخطر لها وهى فى تلك الضائقة أن ترسل إلى القائد العربى من يهيب به أنه لو كان يريد مقاتلة المسيحيين فليذهب إليهم تحت أسوار العريجة حيث ينتظره زوجها ، أما أن يشن حربا على امرأة فذلك ما لا يجدر بفارس باسل كريم أن يقدم عليه ونجحت خطتها فاستسلم القائد العربى المدقق إزاء هذا الدفاع الغريب ، واعتذر عن خطئه ، وود لو يحظى بتحية الملكة قبل رحيله ، فطالعتهم (بيرانجير) وسط حاشيتها فوق الأسوار ومر أمامها الفرسان العرب وهم آخذون فى الرحيل ، وكأنهم فى مباراة بينما كان فى هذا الوقت نفسه وفى أثناء هذا الاحتفال الودى قد استولى الفونس على قرية العريجة » .

هذا وشل من محيط يثبت نبالة الفروسية الإسلامية فى مضمار الحروب ، أما ميادين الفروسية الأخرى فقد بلغ بها فرسان الإسلام مبلغا مازال مضرب المثل فى صحائف التاريخ ! وإذا كانت فروسية أوربا ترى احترام المرأة وتقديرها أنبل ضروب الفتوة والأريحية ، فلننظر مع الأستاذ واصف غالى إلى مكانة المرأة فى الإسلام لئن كان إنصاف الإسلام للمرأة مما يفهمه دارس الشريعة الإسلامية بوضوح ، فإن أعداء الإسلام من غلاة المتعصبين يحرفون الكلم عن مواضعه إذ يزعمون أن الإسلام مصدر تأخر المرأة وانحطاطها ، وقد اضطر الكاتب أزاء ذلك

أن يذكر أن هذا الدين المفترى عليه قد منح المرأة منذ القرن السابع الميلادى حقوقا وامتيازات مازالت أوربيات القرن العشرين ينزعن إليها إذ أن المسلمة فى شريعة الإسلام أهل لأن ترث وتشهد فى القضاء ولها أن تزاول التجارة فتبيع وتشترى وتوصى دون حاجة إلى رضا الزوج ثم أصاب المؤلف مقطع الصواب حين قال ص ١٥٤ .

« ولكننا ينبغى أن نعترف بأن ما ينسب إلى الإسلام من مسئولية تأخر المرأة، ليس كله من قبيل الخطأ ، بشرط ألا نخلط هنا بين الشريعة الإسلامية ، وبين التأويلات المغرضة المشئومة التى تفتقت عنها عقول الناس فى عصور الفساد والانحطاط ، فقد ظهر التطبيق الخاطىء على المبادىء ، وتقدم العرف السقيم على تعاليم القرآن ومن هنا راح الناظر إلى العادات المنحرفة يتهم الدين زورا وبهتانا » .

وهذا كلام صريح يدفع الذين يحكمون على المسلمين ببعض أعمال الجهلة من المنتسبين إلى الدين دون الرجوع إلى مصادر الإسلام الصحيحة من كتاب وسنة وإجماع وقياس ، وقد كرره المؤلف بعبارات مختلفة تزيد دفاعه المنصف قوة ورسوخا وكان من أصوب ما قاله فى ذلك ص ١٤١

« ولما كان الرجل هو الأقوى فقد استسلم لغرائزه الأمارة بالسوء ومضى فى عصور الانحطاط يردع ويذل تلك التى كان من حقها عليه أن تصبح رفيقته ، وواصل ذلك حتى جعل منها كائنا يقل عنه قدرا ، لا شخصية له ولا لون من ألوان الكرامة ، وحينما نبهه الرجل صوت ضميره يؤنبه على جوره وطغيانه تسلح بالكتاب الشريف فطفق يؤول ويعلل ويحلل ويقسو على النصوص فى تفسيرها ليثبت أنه يصدع بأمر رسول الله ، وهكذا حدث يوم راحت أوربا تتساءل عن تخلف المرأة المسلمة أن كان الجواب معدا ، وكان من البساطة بحيث أقرته فى حماس : جواب يزعم أن الإســـلام هو السبب الوحيد فى انحطاط المرأة وذلك لما يتيحه للرجال من تعدد الزوجات ومن الطلاق وبما يفرضه على النساء من الحجاب والانزواء » .

وكان هذا الإجمال السريع بحاجة إلى تفصيل كاشف فكتب الأستاذ واصف غالى فصولا قوية تتحدث عن المرأة كما اعتبرها القرآن مؤيداً أقواله بأحاديث الرسول وأحكامه الثابتة بالسنة الصريحة ، وقد بسط مسألة تعدد الزوجات بسطا عادلا يعرفه فقهاء المسلمين ويشهدون بصحته دون نقد ثم تعرض للطلاق فى الإسلام موضحا أسباب مشروعيته وطرق تلافيه إذا وجد التلافى العادل مذهب معقول ، ولم يغفل القول عن الحجاب

فى الإسلام ضاربا الأمثلة بما وقع من أمثال عمر وعائشة ، والجديد علينا معشر المسلمين فى ذلك هو المقارنات اللطيفة التى عقدها المؤلف بين المرأة المسلمة والمرأة الفرنسية فى القرن الثانى عشر ، فقد نقل من تقاليد المجتمع الأوربى إذ ذاك ما يندى له الخلق خزيا ! أجل نقل الأستاذ واصف عن الكاتب الفرنسى ما نرويه مثل قوله ص ٩٠

« كثيراً ما تذكر قصص الفروسية أن العرف كان يقضى بأن تعدم المرأة أو الفتاة التى تتهم بسوء السمعة ، ولقد كان من النافع فى أثناء القرن الثانى عشر إلى الرابع عشر وهى عصور اضطراب وانحلال فى العائلة . أن يوضح الآباء للأبناء عبرة ذلك العقاب الذى خص به الأجداد الحب الآثم ، ويبدى المؤرخون والشعراء أسفهم وحسرتهم على حياة ربات العصور المنحلة ، فهنا فتيات يتبعن عشاقهن إلى خيامهم ، وهناك سيدات عريقات يستضفن فرسانا ويصلنهم كلما أغفى أزواجهن ، ولقد كانت تتردد فى كل مكان أغنية تقول (تبا للزوج الذى يدوم شهرا أو شهرين طويلين) .

ثم ينقل بعد عدة سطور عن الكاتب الفرنسى . ب مايرء قوله : « كان التدليك أثناء الرقاد عنصرا من كرم الضيافة قديما ، وكانت شئون الضيافة من نوم واستحمام متروكة للنساء . ولكننا نستطيع أن ندرك كيف أدت تلك الحفاوة - التى كانت فى الأصل عناية صحية خالصة إلى العبث فى مجتمع كان أقل من مجتمعنا تحرجا إزاء بعض الأمور » .

والسؤال الذى يمكن أن نوجهه إلى المسيئين إلى الإسلام باتهامه الصارخ بظلم المرأة من ناحية الحجاب : أيهما أشرف للمرأة أن تحتجب عن الأجنبى المتوقح أم تقوم له بالتدليك والاستحمام كما كان ذلك تقليدا تتبعه نساء القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر دون استحياء !

وفى مجال الاستشهاد بعظمة المرأة العربية : جاهلية وإسلامية أفاض المؤلف الكبير فى سرد أمثلة ذائعة عن أم سيار وليلى العفيفة وجهيئة بنت عوف وزينب بنت محمد وأسماء بنت أبى بكر ، ثم يمضى باستشهاده إلى مضارب الخيام فى القرن العشرين فينقل عن شهامة المرأة العربية فى الصحراء ما سجله مدونو الرحلات من الأوربيين ، وكم كان جميلا منا أن نقدم للقراء بعض هذه النوادر الرائعة فى دنيا البطولة والشرف والكرم والأريحية للمرأة المسلمة حديثا وقديما ، ولكن ضيق المجال يدعو إلى التنويه الموجز دون التحليل المقنع ، وفى كل ما قدمه كتاب الفروسية ما يجب أن يقرأه أبناء الإسلام غيورين .

أما الحديث عن الوفاء بالعهد والكرم وحماية الضيف ، فتلك ثلاثة فصول ابتدأت بصحيفة ٢١٠ إلى ص ٢٨٢ وكل سطر من هذه الصفحات جدير بالقراءة إذ هو يضيف إلى الفائدة العلمية لذة مشــــوقة حين يروى طرائف الشجاعة والكرم والعفو والمروءة لدى العرب فى الجاهلية والإسلام !

ويضرب الأمثلة بروائع حنظله بن عوف وامرىء القيس وحاتم وحاجب بن زرارة وهانىء بن مســـعود وكليب فى الجاهلية وبمواقف على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن جعفر وابن عباس وعبد الملك ابن مروان والكميت الأسدى ومعن بن زائدة والرشيد والمعتصم وسواهم من أعلام التاريخ وهى طرائف مغرية تطلب لذاتها حتى لدن من لا يمنون بربطها ربطا وثيقا بأخلاق الإسلام، فكيف إذا كان نعى فى حقيقتها الأصيلة استجابة لدين فاضل يسمو بالخلق ويحث على الرحمة والعفو والإيثار ! لقد برهن المؤلف الكبير على إخلاصه العظيم الحقيقة فى ذاتها حين قدم كتابه المنصف لقراء اللغة الفرنسية فآتى أكله ، وبلغ بعض ما يريد من تصويب الخطأ ومناقشة الحجة حتى قال عنه الدكتور طه حسين كلمة الحق صريحة مخلصة إذ أعلن فى مقدمة الطبعة العربية مثل قوله :

« لقد قرأ المنصفون من الغربيين هذا الكتاب فأصلحوا من آرائهم وترجمة الأستاذ أنور لوقا ترجمته هذه المتقنة وسيقرؤها العرب فيعرفون أن صاحب هذا الكتاب لم يكن كما كان يظن بعيدا عن اللغة العربية وآدابها وإنما كان قريبا منهما أشد القرب آلفا لهما أحسن الإلف وأبقاه وأنه قد أبلى فى خدمة الإسلام والعروبة بلاء لا يحسنه إلا أولو العزم والإخــلاص فى حب الوطن إخلاصا لا تشوبه شائبة من إيثار النفس أو رغبة فى الثناء، أو حرص على الاعتراف بالفضل »

* * *

ومما لا شك فيه أن نفرا كثيرا من قراء العربية قد قرءوا الكتاب كما توقع الدكتور وقد عرفوا أن المؤلف من أولى العــزم الصادق قد أبلى فى خدمة العروبة والإسلام بكتابه أحسن البلاء ! ولعلنا بمقالنا هذا المتواضع نجزيه إنصافا بإنصاف !

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

حاجة الخلق إلى هداية الخالق

للأستاذ عبد الرحيم فوده

كلمة الخلق تطلق وتصدق على كل مخلوق، وقد بين الله فى كتابه الكريم أن كل مخلوق وجد بتقدير وحكمة ليؤدى فى هذا الوجود وظيفته كما أرادها الله منه، وذلك بعض مايفهم من قوله تعالى: «إنا كل شىء خلقناه بقدر»، وقوله سبحانه: «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون»، كما يفهم من قوله جل شأنه: «الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى»، أن كل شىء خلقه الله مزود بما يهدى ويحقق الغرض من وجوده.

ونحن نعرف - من واقع ما نرى ونشاهد - أن كل حيوان تهديه غرائزه إلى ما تقوم عليه حياته وإلى مايصون به حياته، وأن الإنسان من بين سائر أنواع الحيوان - يتمتع بأجل نعمة وأعظم مكرمة وهو العقل الهادى. والتفكير الرشيد والشعور المتجدد بالتطلع إلى حياة أكمل وأفضل وأجمل من حياته التى يحياها، فإن هذا الشعور يدفعه - فى هدى عقله وتفكيره - إلى السعى والعمل وكسب الطيبات. وبذلك تعمر الأرض، وتخصب الحياة، ويتجلى السر فى أن الله - تبارك وتعالى آثره دون غيره بالخلافة، وفضله على كثير ممن خلق، كما يفهم من قوله تعالى: «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا».

لكن هل يكفى العقل والغرائز والشعور المتجدد بالتطلع إلى حياة أفضل فى تنظيم المجتمع الإنسانى وتحقيق أمنه واستقراره ورخائه..؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضى قبل التسرع بها أو الشروع فيها أن نعرف معنى الهداية ومراتبها وأثر العقل فيها، وتأثير الغرائز فى نشاط الإنسان وسلوكه واتجاهه بصفة عامة، فإن ذلك هو السبيل إلى معرفة حاجة المجتمع وحاجة كل إنسان فيه هداية الدين.

لقد قيل فى تعريف الهداية إنها «الدلالة بالرفق على ما فيه الخير والحق»، وهذا التعريف مع صدقه لا يفسر معنى الهداية كما يفهم من القرآن الكريم، فإن مجرد المعرفة والعلم لا يكفى فى تحقيق معناها، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم»، إذ يفهم من ذلك أن العلم لا ينجى من الضلال، وأن معنى العلم

قد يختلف من بعض الوجوه عن معنى الهداية وإنما يكون العلم هداية إذا أدى إلى العمل به والسير على مقتضاه ،أو بعبارة أدق وأحق إذا بعث على فعل الخير واتجه بصاحبه إلى طريق الحق ، فالهداية انبعاث نفسي راشد إلى طريق الخير والرشاد أو هي كما ذكر البيضاوى فى تفسيره « دلالة بلطف » ولهذا تستعمل فى الخير دون الشر ، أما قوله تعالى فى مصير الكافرين : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » فقد ورد - كما قيل -على سبيل التهكم والسخرية والاستهزاء..

والهداية - كما ذكر الإمام محمد عبده أنواع ومراتب يكمل بعضها بعضا ، فنها، أو أولها : هداية الوجدان والإلهام الفطرى : وأظهر مظهر لها ما نراه من الطفل الوليد الجديد حين يحس الحاجة إلى الغذاء . فإنه يتجه بهدى وجدانه وفطرته أو غريزته إلى ثدى أمه ليمتص ما فيه من غذاء ، ومنها هداية الحواس كالسمع والبصر . والذوق والشم واللمس ، ويشترك فيها مع الإنسان غيره من بقية أنواع الحيوان ، وهذه الحواس نوافذ العلم كما يذكر علماء النفس وكما يفهم من قوله تعالى «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .

ثم تأتى بعد ذلك هداية العقل لتتمم هداية الحواس ، أو تصحح خطأها إذا انحرفت إلى الخطأ ، فإن حاسة الإبصار - مثلا - وهى العين ترى الشىء الكبير على البعد صغيرا والعود المستقيم فى الماء أعوج ، وحاسة الشم وهى الأنف ينحرف حكمها إذا أصيب صاحبها بزكام وما إليه ، وحاسة الذوق كذلك وكما قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

ولهذا كان من أجل ما أنعم الله به على الإنسان أن زوده بالعقل ليصحح به خطأ الحواس ، ويميز به بين النافع والضار ، ويعرف على هداه ما أودع الله فى الكون من حقائق وأسرار ..

ولكن العقل محدود ، ومجال نشاطه محدود ، وهو يخطىء كما تخطىء الحواس ويخضع لمؤثرات نفسية ومادية كالهوى والمرض والبيئة والعادات ، فلا يستقيم حكمه مع الحق . ولا يلتقى اتجاهه مع الخير بل يزل ويضل . ويقود صاحبه إلى مواطن الزلل والضلال ، وكثيراً ما تستخدمه الغرائز ويحكمه الشيطان ، فيكون فى عمله الشر وفى نفعه الضر . وفى هديه الضلال ، ومن ثم كان من فضل الله على الناس ورحمته بهم أن يبعث فيهم رسله بهداية الدين ليصححوا بها خطأ العقل والحواس ، ويقوموا بها انحراف الفطر والغرائز .

فأنا، وأنت. وهو، وكل فرد بإزاء فرد فى مجتمع، وكل مجتمع بإزاء مجتمع فى أمة، وكل أمة بإزاء أمة فى هذا العالم تمسكنا غرائز فردية وجماعية لا تحصى فى أثرة جائعة دائمة، طامعة دائماً، لا تقنع ولا تشبع، إلى حب استعلاء يتحيف أقدار الضعفاء. ويستهدف استذلالهم واستغلالهم، إلى حرص على البقاء يثير التدافع والتنازع، ويوقد بين الأفراد والجماعات والشعوب نار العداوة والبغضاء وما ينشأ عنهما من كروب وحروب وخطوب.. إلى آخر ماركب فينا من ميول وشهوات تدفعنا إلى التماس ما يشبعها ولو من طريق الإثم والجور والعدوان على حقوق الغير.

هذه الغرائز لا يكفى العقل وحده فى صدها وردها إلى الحد الذى يرتفع فيه الجور ويسود فيه العدل، بل قد يكون العقل كما ذكرت أو أشرت مطيتها الذلول إلى إرضاء ميولها المنحرفة وأهوائها المختلفة.

وإذا افترضنا — مع ذلك — عاقلا فاضلا أو جماعة من العقلاء الفضلاء استوحوا حاجة المجتمع إلى العدل والنظام، فوضعوا قوانين تمنع الطامع أن يجمح، والكادح أن يضيع، والمجرم أن يجرم، والحاكم أن يظلم، لكان الخضوع لهذه القوانين فى منطق المنحرفين — وما أكثرهم — خضوعا لعمل بشرى أو قوة مماثلة لا يقبلونه إلا مرغمين عليه كارهين له، فإذا حانت لهم الفرصة والانتقاض — وكثيراً ما تحين — تمردوا واستأسدوا، وانطلقوا بكل قوام يعصفون بكل القيم والمثل وقواعد الأخلاق والقوانين ويروعون دون ورع أمن الآمنين، ومن ثم كانت معجزات الأنبياء — مع ما تدل عليه من صدقهم فى التبليغ عن الله — تذكيراً لهؤلاء بالقوة التى يتساوى الناس جميعاً فى العجز عن مناهضاتها أو معارضتها، وكانت الشرائع التى بعث بها الأنبياء من عمل هذه القوة التى تحكم ولا تظلم، بل من رحمة الله وفضله على الناس أجمعين، كما يفهم من قوله فى خاتم النبيين «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

فليست النبوة لنوع الإنسان بمنزلة العقل للأفراد كما ذهب إلى ذلك الإمام محمد عبده فى رسالة التوحيد وإنما النبوة أمس بحاجة الناس مجتمعين ومنفردين من العقل، فهى للمجتمع نظامه وقوام صلاحه، وهى لكل فرد فى المجتمع نظامه وقوام صلاح أمره، ذلك لأنه دائماً بين حاجات تدفعه. وآمال تخدعه أو تنفعه، وبين هذه الحاجات المتجددة المتزايدة. والآمال التى يرجو تحقيقها لتلبية هذه الحاجات يجد الطرق أمامه تختلف قرباً وبعداً. ويسراً وعسراً، واستواء والتواء وقد تتعارض الطرق وتتناقض المصالح فتشتبه أمامه السبل ويلتبس عليه الحق والباطل والخير والشر، وقد يكون الشر

فيما يراه خيراً والخير فيما يراه شراً . ومن ثم كان لابد له وللمجتمع الذى يعيش فيه من هداية الدين ، فإنها الخير الذى لايشوبه شر والحق الذى لا يأتيه باطل ، لأنها من عند الله وهو جل شأنه متصف بكل كمال منزه عن كل نقص فلا يصدر عنه باطل ، ولا يخطىء فى قول أو فعل ، وهو أعلم بما تستقيم عليه الحياة فى كل زمان ومكان ، وبما يصلح عليه أمر الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، فلا يعترى أحكامه ما يعترى أحكامنا من شوائب العجز أو القصور .

هذا إلى أن هداية الدين تمثل رحمة الله بعباده ونعمته عليهم ، وقد كملت هذه النعمة بالإسلام كما يفهم من قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » وقوله سبحانه « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

ولا شك أن هداية الدين تلتمس من القرآن الكريم . لأنه كما يقول الله فيه : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، ثم من سنة خاتم الأنبياء والمرسلين لأنه كما يقول الله : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

وقد قرن الله هديه صلى الله عليه وسلم بهدى كتابه حيث قال : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

ونخلص من هذا — على إيجازه — بأن حاجة الخلق إلى هداية الخالق أقوى من حاجتهم إلى قلوبهم وعقولهم ، وأن هداية الدين نعمة كبرى تتوج نعم العقل والحواس والغرائز الهادية إلى الحياة الطيبة ، ثم إن هذه النعمة الكبرى وجدت منذ وجد الإنسان والمجتمع الإنسانى على ظهر هذه الأرض كما يفهم من قول الله لآدم وزوجه وذريتهما « قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

عبد الرحيم فوده

نشأة القراءات ورسم المصحف

للدكتور عبد العال سالم علي مكرم

يرى المستشرق « جولد تسيهر » أن نشأة الكثرة من القراءات ترجع إلى رسم المصحف حيث يقول إن « اختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات... كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطا أصلا، أو لم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه » (١) وعجبت لم ينفرد « جولد تسيهر » بهذا الرأي العجيب؟ ومن أين استقاه، وعن أي مصدر أخذه؟

ولما وقفت على رأي الزمخشري في قراءة ابن عامر للآية في سورة « الأنعام » « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » (٢) - تأكد لي أن مصدر الوحي بهذا الرأي هو الزمخشري حيث وقف من قراءة ابن عامر لهذه الآية موقف الناقد.

وبيان ذلك أن ابن عامر كان يقرأ « قتل أولادهم شركائهم » برفع القتل، ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما في غير ظرف.

وكان من رأي الزمخشري أن هذه القراءة مردودة، لأنها مخالفة للقواعد النحوية التي لا تجيز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير ظرف.

وأرجع الزمخشري خطأ ابن عامر في هذه القراءة إلى رسم المصحف حيث قال: « والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء » (٣) فالسبب إذن في هذه القراءة في رأي الزمخشري هو رسم المصحف، ومعنى ذلك أن ابن عامر اعتمد على المصحف، ولم يعتمد على الرواية. ومن هنا فتح الباب أمام هذا المستشرق فقال ما قال.

أما الزمخشري فلم يسكت الباحثون عن رأيه فنقدوه وناقشوه، فأبو حيان الأندلسي يقول عنه في كتابه البحر ما نصه: « وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا.

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: جولد تسيهر ص ٨.

(٢) الأنعام آية ١٣٧.

(٣) البحر المحيط: أبو حيان حـ ٤ صـ ٢٢٩

وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم، وفهمهم، ودياناتهم » [١] .

وأما « جولد تسيهر » فقد تكفل بالرد عليه الدكتور المرحوم عبد الحليم النجار إذ قال معقبا على رأيه فى تعليقه على كتابه «مذاهب التفسير الإسلامى» ما نصه : «لم يكن الخط العربى سببا فى اختلاف القراءات ، بل كان مساعدا على استيعاب القراءات الصحيحة بحالته التى كان عليها عند كتابة المصاحف العثمانية من إهمال النقط والشكل ، فليست العبرة بالخط ، وإلا لاعتمدت قراءات يسمح الخط بها » [٢] .

ولم يكتف الدكتور النجار بهذا الرد على المستشرق بل تعقب أدلته التى أستدل بها على رأيه ليفندها ، ويعلن زيفها . فقد قال المستشرق : إن الآية : «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه» [٣] كان حماد يقرؤها «أباه» بالباء الموحدة فرد عليه الدكتور النجار قائلا هذه قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا الأربع عشرة ولو كان مجرد الخط كافيا لاعتمدت (٤) » .

ويرى المستشرق أن الآية «ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم . قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون» قرأها بعضهم تستكثرون بالثاء المثلثة فرد عليه الدكتور «النجار» قائلا : «لم تعتمد هذه القراءة فى القراءات السبع ولا الأربع عشرة بل هى منكرة ، ولا يعرف على وجه التحديد من قرأ بذلك ؟ وحسبك هذا دليلا على أن الخط لم يكن هو العمدة فى صحة القراءة» [١] .

وربما كان من أكبر الأدلة على بطلان رأى جولد تسيهر «أن هذه القراءات رويت وشاعت القراءة بها قبل تدوين المصاحف.. ثم حين دونت المصاحف لم يكن النقط عرف ، ولا الشكل اخترع ، فظهرت حركة القراءات قبل النقل والضبط ، فكانت قراءتهم للكلمة على حسب ما يروون وينقلون ، لا على حسب ما يقرءون فى المصاحف» [٢] .

وفى رأيى أن (جولد تسيهر) تورط فى هذا الرأى ، لأنه لم يجد دليلا واحدا يعتمد عليه اللهم إلا رأى الزمخشرى فى قراءة ابن عامر التى أشرت إليها وهى - كما بينت - قراءة صحيحة لا تتعلق برسم المصحف ، وإنما تتعلق بالرواية والنقل .

ولو كان ما ذهب إليه المستشرق صحيحا لاضطربت المصاحف وغيرت الآيات وبدلت

---

(١) المرجع نفسه والصفحة .
(٢) مذاهب التفسير الإسلامى ص٨ (هامش)
(٣) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٨ .
(٤) نفس المرجع ص ٩ «هامش» .

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) القراءات واللهجات ص ١٨٣ بتصرف للأستاذ عبد الوهاب حموده .

كلماتها القرآنية بكلمات أخرى لا تمت إليها بصلة ، وحينذاك يضيع كتاب الله ، وتضيع معالمه، ذلك لأن القارئ الذي لم يتلق القرآن من طريق المشافهة والسماع يعز عليه في كثير من الأحيان أن يقرأ صحيحا ، ومن ثم تعترى قراءته التصحيف، ولا نبالغ إذا قلنا: إن هذه التصحيفات وقعت من رجال لهم شهرتهم الأدبية ومقدرتهم اللغوية كالمبرد الذى تحدث عن تصحيفه أبو القاسم على بن حمزة فى كتابه (التنبيهات على أغاليط الرواة) فقال :

قال (١) فى قول الفرزدق.

وقد مات بسطام بن قيس بن خالد
ومات أبو غسان شيخ اللهازم (٢)

يعنى بسطام بن قيس بن خالد الشيبانى وهو فارس بكر بن وائل . ثم قال : وقتل بالحسن وهو جبل . وهذا غلط منه مركب من تصحيف ، إنما الحسن شجر ، سمى الحسن لحسنه بكثيب من رمل ، ينصب الكثيب إليه فيقال : نقا الحسن ، ويقال اليوم قتل بسطام (يوم النقا) قال الفرزدق :

خالى الذى ترك النجيع برمحه
يوم النقا شرقاً على بسطام (٣)

ثم قال - والقائل أبو القاسم - : وكان أبو العباس (المبرد) صحفيا ومن نقل اللغة عن الصحف صحف ، وإنما وجده جبل رمل فقال : جبل ، وأسقط الرمل (١) .

فإذا كان نقل اللغة عن الصحف تصحيفا فالأمر كذلك بصدد المصحف فمن نقل القرآن عنه ، وأغلق أذنه دون الرواية والنقل وقع فى التصحيف ، فحماد الراوية حفظ القرآن من المصحف ، وقد أخذ عليه أنه كان يقرأ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه (بالباء الموحدة) (٢) .

وروى أن حمزة الزيات ،كان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ يوما - وأبوه يسمع - الم . ذلك الكتاب لا زيت فيه ، فقال أبوه : دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال ، وحدث إسماعيل بن محمد اليسرى قال : سمعت عثمان بن أبى شيبة يقرأ (وجعل السقاية فى رجل أخيه) فقلت له : ما هذا؟ قال تحت الجيم واحدة [٣] .

وأخبر ابن عمار قال : (انصرفت من مجلس عبد الله بن عمر بن إبان القرشى ... فررت بمحمد بن عباد بن معرش فقال : من أين أقبلت؟ فقلت: من عند أبى عبد الرحمن شكدانه فقال : ذاك الذى يصحف على جبريل —

(١) القائل : أبو العباس المبرد .

(٢) اللهازم : لقب تيم الله به بن ثعلبة (أقرب الموارد ج ٢ ص ١١٦٥) .

(٣) ديوان الفرزدق ج ٢ ص ٨٥٠ من قصيدته التى يناقض بها جريرا .

(١) التنبيهات على أغاليط الرواة ص ١٤٧ أبو القاسم على بن حمزة مخطوط ٢٢ لغة مكتبة الشنقيطى .

(٢) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٩

(٣) التصحيف والتحريف للعسكرى ص ٩ .

يريد قراءته : (ولا يغوث ، ويعوق وبشرا وكانت قد حكيت عنه) (١) .

ومن أجل هذه التصحيفات التي تخل بمنطق الآيات قالوا : (لا تأخذ القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي) (١) .

والتصحيف في القرآن من أهم الأسباب التي جعلت أولي الأمر يهتمون بتنقيط المصحف وذلك أن الناس «غبروا يقرءون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف ، وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات (٣)

ومن عجيب إن هذه التصحيفات عدها ذلك المستشرق قراءات ، وبين أنها نشأت من خط المصحف ، وغاب عن ذهنه أن القراءات مصدرها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقينها لأصحابه ، وهؤلاء لقنوها غيرهم حتى وصلت إلينا وستصل إلى غيرنا بالطريقة نفسها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإلى هذا الوقت نجد معلم الكتاب يبتدىء مع التلميذ الصغير أول ما يبتدىء بتحفيظ القرآن الكريم قبل أن يجيد القراءة والكتابة لإيمانه أن قراءة القرآن أمر لا يؤخذ من الخط أو الرسم .

وإذا نظرنا إلى الأمصار الإسلامية وجدنا أن كل مصر التزم قراءة قارىء بعينه مع احتمال رسم المصحف لهذه القراءة ، وأن القراء انتشروا في الأمصار ليعلموا الناس قراءة القرآن إيمانا منهم بأن المصحف وحده لا يغني شيئا في مجال القراءة ففي مصر مثلا أول من أقرأ القرآن بها « هو أبو أمية عبيد بن مخمر المغافري ، وكل القراءات بمصر رواية عن نافع نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش . ويحدثنا السيوطي أن عمر بن عبد العزيز أرسل نافعا إلى مصر ليعلم المصريين فأقام نافع بمصر مدة طويلة . .

وأخـــذ الأندلسيون قراءة نافع عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري المتوفى سنة ١٣١ هـ » (١)

وبعد ، أفلم يكن أيها المستشرق - لدى المصريين أو الأندلسيين مصاحف يقرءون فيها ، ويستغنون بها عن نافع وغيره من القراء ؟ إذا كان الأمر يتعلق بقراءة القرآن الكريم حيثما اتفق لصح ذلك ، ولكن قراءة القرآن الكريم دعامتها الرواية والمشافهة كما بينت لك .

عبد العال سالم علي مكرم

---

(١) نفس المرجع

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) وفيات الأعيان : ابن خلكان جـ ١ صـ ١٢٥ ط ١٣١٠ .

(١) أدب مصر الإسلامية ص ٣٦ بتصرف : للدكتور محمد كامل حسين .

الجبال في القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي

- ٧ -

من الآيات التسع التى وصفت فيها الجبال بالرواسى فى القرآن الكريم ثلاث اقترن فيها ذكر الرواسى بمد[١] الأرض ، وثلاث بجنع ميدان [٢] الأرض ، وثلاث أطلق الذكر فيها فلم يقترن بذكر ظاهرة خاصة فى الأرض كالتى ذكرت فى الآيات الست الأخرى .

هذه الآيات الثلاث الأخيرة هى حسب ترتيب نزول الوحى بسورها :

الآية (٢٧) من سورة المرسلات « وجعلنا فيها رواسى شامخات » تتبعها الآية (٢٨) « وأسقيناكم ماء فراتا » .

والآية (٦١) من سورة النمل : « أمّن (أم من) جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون » .

والآية (١٠) من سورة فصلت : « وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، فى أربعة أيام سواء للسائلين » .

وقد جاء ذكر الأرض صريحا فى آية النمل كما ترى ، وبالضمير فى آيتى المرسلات وفصلت فإن الضمير فى (فيها) فى كل منهما راجع إلى الأرض المصرح بها فى أولى الآيتين (٢٥، ٢٦) من سورة المرسلات : « ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا » وفى الآية (٩) من سورة فصلت : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ؟ ذلك رب العالمين » .

وآية سورة المرسلات أول آية قرآنية ذكرت فيها الجبال بالوصف لا باللفظ ، وقبلها نزل الوحى بثلاث آيات ذكرت فيها الجبال باللفظ هى آية سورة المزمل : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » وآية سورة التكوير : « وإذا الجبال سيرت » وآية سورة القارعة ، ثانية الآيتين « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش » وكلها كما ترى تتعلق بأمور هائلة تقع بالجبال بين يدى الساعة أو عند قيامها . وإذن فآية المرسلات هى أولى الآيات القرآنية التى ذكرت فيها الجبال من حيث علاقتها بهذه الحياة ، أى من حيث وجودها لا فنائها ، ومن حيث دلالتها على الله

---

(١) المقال الخامس عدد شعبان .

(٢) المقال السادس عدد رمضان .

الذى فطرها وحقق بها ما حقق من منافع الناس . ومن هنا تتبين حكمة ذكرها باسمها فى آيات التذكير بهول يوم القيامة ، وذكرها بوصفها فى أول آية لفت الله بها عباده إلى مظهر من مظاهر قدرته فى خلق الجبال .

وفى الآية الكريمة وصفان للجبال كما ترى : أنهن رواسى وأنهن شامخات على التنكير لا على التعريف ، تنبيها إلى قبيل خاص من الجبال . فلئن كانت الجبال كلها رواسى [١] من حيث الثبوت والرسوخ فى الأرض وهو المعنى الذى يعرفه كل أحد ، فليست كلها شوامخ بالغة الارتفاع ، وإن كان تقدير الشموخ نسبيا عند الناس . لكن مهما يكن اختلافهم فى التقدير فالكلمة فى اللغة تدل على امتياز فى الارتفاع ، ففى القاموس (شمخ الجبل علا وطال) . ولعل فى العلم حداً لا يعتبر الجبل شامخاً دونه عند علماء الجغرافيا الطبيعية أو الجيولوجيا أو الأرصاد الجوية ، فإن لم يكن فالآية الكريمة تلفت إلى بحث هذه الناحية فيما تلفت إليه من بحث الكيفية التى رفع الله بها الجبال من ناحية ، وخالف بين ارتفاعاتها من ناحية أخرى حتى كان منها الشامخ الممتاز فى ارتفاعه عند أهل كل إقليم ، إذ الآية تتحدث عن الأرض عامة لا أرض العرب خاصة ، والضمير فى (وأسقيناكم) من قوله تعالى « وأسقيناكم ماء فراتا » ضمير خطاب للناس فى عصر نزول القرآن أولا ، ثم فى كل عصر يأتى بعد أن نزل القرآن ولأن الماء العذب ضرورى للحياة فى كل زمان ومكان .

وقد جاءت آية الماء الفرات تتلو فى السورة الكريمة آية الرواسى الشامخات ليدل التتالى على أن بين الأمرين صلة ، وأن شموخ الجبال له دخل كبير فى نزول الماء يسقاه الناس وما لهم من صنوف الزروع والحيوان . ودخلها هذا حق يقرره علمـــاء الجغرافيا الطبيعية والأرصاد ، ويعرف بعض وجوهه كل مثقف بين الناس ، فمن المعلومات العامة بين المثقفين أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال والماء الفرات ، أى العذب جداً كما يقول القاموس ، يدل أول ما يدل على ماء المطر ، لكن تنكيره فى الآية الكريمة يفيد العموم ، فهو يشمل كل ماء عذب فى الأرض سواء أكان ماء نهر أم بئر أم مطر . بل إلى الأمطار فى النهاية مرد مياه الأنهار والعيون والعذب من الآبار .

والمطر فى العلم يشمل كل ما ينزل من السماء من ماء أو ثلج أو برد طبق سنة الله سبحانه فى دورة الماء العـــذب بين البحار الملح والمحيطات وبين اليابسة فكل عذب على الأرض أصله الماء الأجاج . ومنه سبحانه على الناس بالماء الفرات فى آية المرسلات لا يخلو بهذا الوصف من إشارة إلى هذه الحقيقة الكبرى عند من يلحظ ضمير الجلالة

(١) فى المقال الخامس دلالات أخرى لهذا الوصف.

فى الآية ويعلم أن البحار والمحيطات ، التى فى مجموعها تغطى نحو واحد وسبعين فى المائة من مساحة الكرة الأرضية ، يتبخر ماؤها باستمرار طبق سنن الله فى تبخر الماء فى مختلف الظروف ، حتى إذا حملت الرياح البخار إلى أعالى الجو تكاثف سحابا ، وتكاثف السحاب مطراً طبق سنن الله فى ذلك كله حتى إذا جرت الأنهار خلال الأرض منصبة نحو البحار عاد مُعظم الماء إلى المصدر الذى منه جاء ، وهكذا دواليك بإذن الله فى دورة تتوقف عليها الحياة فى الأرض من غير أن يضيع فيها من الماء العذب شىء . فإن مايظن الإنسان ضياعه ، ذهابا فى جوف الأرض أو فى الجو ، مصيره أن يختزن فى باطن الأرض ليتفجر حيث يشاء الله عيونا طبيعية وآبارا ارتوازية ، أو أن يتكثف إلى سحاب ليعود مطرا من جديد .

وشوامخ الجبال ركن مهم فى تكثيف البخار سحابا ، والسحاب ماء . فهى من ناحية تحول مجرى ما يصطدم بها من الرياح الأفقية المتحملة بالبخار إلى أعلى حتى تصل إلى مناطق التكثيف الباردة من أعاليها وأعالى الجو ، وهى من ناحية أخرى تكثف مايلاقى أعاليها من السحاب الذى تحمله الرياح. فهى فى الواقع تعمل عمل مكثفات عظمى فى عمليات تقطير هائلة دستها البحار والمحيطات ونارها الشمس وإن من أعلى ، وحوامل بخارها الرياح ، وقوابل قطرها الأودية ومجارى الأنهار .

ويتضمن وصف الرواسى بالشامخات فى آية المرسلات حقيقة أخرى فى الفطرة وظاهرة معجبة ، تلك هى ظاهرة الثلج الدائم يكلل هامات الجبال التى تكون درجة الحرارة فى قممها دائماً تحت الصفر إذا زاد ارتفاعها عن حد خاص يتوقف على موقعها من خط الاستواء ، حيث الحد الأعلى لارتفاع بدء منطقة الثلج أو خط الثلج الدائم كما يسمونه . فهو فى خط الاستواء بين ستة عشر وسبعة عشر ألف قدم أى نحو خمسة آلاف متر فى المتوسط . وهو يقل عن ذلك بالتدريج كلما بعد الموقع عن خط الاستواء ، أى كلما قلت درجة الحرارة الجويه فى المنطقة . ففى مدار السرطان مثلا ، أى شمال خط الاستواء بنحو ٢٣ درجة ، يكون ارتفاع خط الثلج الدائم نحو ثلاثة عشر ألف قدم ، ويصغر ارتفاعه إلى نحو ستة آلاف قدم عند خط عرض ٥٠° شمال خط الاستواء ، ونحو أربعة آلاف قدم عند خط عرض ٦٠° ، وهلم جرا حتى ينمحى تماما عند خط عرض ٧٠° إذ يكون الثلج دائماً على مستوى سطح البحر كما يدل عليه الرسم البيانى لخط الثلج الدائم فى نصف الكرة الشمالى فى دائرة معارف (هتشنسن) المصورة وانمحاؤه هذا يحول دون اتخاذه معيارا عاما

لشموخ الجبال فى كل منطقة ، لكن من الممكن اتخاذه معيارا للشموخ فى المنطقتين الحارة والمعتدلة فيكون الجبل الشامخ فى المنطقة ما ابيضت هامته بالثلج على الدوام.

وكثير من الجبال يزيد ارتفاعه عن ارتفاع خط الثلج الدائم فى منطقته . فإذا كان الفرق بين الارتفاعين كبيرا كان لتراكم الثلج فيا بينهما فضل فى تغذية الأنهار بالماء نتيجة لذوبان بعض الثلج باستمرار لضغط الطبقات العليا على السفلى ، ولا نزلاق ما علا على ما ذاب من أسفل ليتعدى حد خط الثلج شيئا فشيئا ، ولا يكاد يتعداه حتى يسيل . ولن تنفد الثلوج على قمم الجبال باستمرار ذوبان أطرافها الدنيا ، لأنها كما تسيل هكذا باستمرار تتجدد أيضا باستمرار . ولولا هذه الظاهرة العجيبة لجفت الأنهار التى تجرى فى وديان تحفها الصحراء إذا انقضت فصول الأمطار عند منابعها .

وينبغى أن نتذكر أن الرياح التى تضع حمولتها من الماء على شوامخ الجبال تهب على ما وراءها ولا ماء فيها . لكن الله سبحانه يرسل الغيث على ما وراءها عن طريق آية أخرى له فى الخلق هى الكهربائية الجوية التى يلفت الله عباده إلى ما أودعه فيها من مظاهر قدرته ورحمته فى الآيات التى تذكر الرعد والبرق فى كتابه العزيز . وسنبين فى مقال آت إن شاء الله طرفا من هذا الموضوع الجليل عند ما نتأمل الآية (٤٣) من سورة النور . لكن لا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن العموم الذى أفاده تنكير الماء فى آية المرسلات يشمل ماء الطريقين جميعا : طريق الكهربائية الجوية وطريق شوامخ الجبال . وقد تكرر ضمير الجلالة المتكلم ثلاث مرات فى آيات المرسلات : عند ذكر الأرض ، وعند ذكر الرواسى الشامخات ، وعند ذكر الماء الفرات ، للدلالة على جلال ما أودع الله فى كل من أسرار قدرته وحكمته ورحمته مما ذكرنا بعضه ومما لا يستطيع استقصاءه أحد ، ولكن لا يستكثر أحد على الآية منها أن تدل على ما علم الله أن سيهدى أهل العلم الحديث إليه من أسرارها . وما كشفه أو يكشفه العلم الحديث من تلك الأسرار إن هو إلا تفصيل لما أجملته كل آية من حجة الله على الناس ألا يعبدوا إلا إياه .

أما آية النمل فقد أقام الله حجته على عباده فيها بالأرض أيضا ولكن من حيث إنها قرار ، وبالماء ولكن من حيث إنه إنهار ، وبالرواسى من غير تخصيص بالشامخ منها ، وبآية رابعة له سبحانه فى الخلق تتصل اتصالا وثيقاً بالأنهار ألا وهى الحجز بينها وبين البحار الأجاج التى تصب فيها أن تطغى البحار عليها ، لأن البحرين المذكورين من غير

وصف فى قوله تعالى : (وجعل بين البحرين حاجزاً) هما عين البحرين المذكورين فى قوله تعالى من سورة الفرقان : (وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخا وحجراً محجوراً). وسورة الفرقان قد نزل بها الوحى قبل سورة النمل وهى كذلك أيضا فى ترتيب المصحف ، وهذا يفسر ذكر البحرين فى آية النمل من غير وصف بعد أن تبين وصفهما فى آية الفرقان . وكذلك الأمر فى ذكر حاجز بين البحرين مجردا فى آية سورة النمل ، كأنه تلخيص للبرزخ والحجر المحجور وبيان لحكمة الله فيه . وليس هذا موضع بيان كيف أن سنة الله فى جذب الأرض لما عليها إلى أقرب نقطة من مركزها هو الحاجز بين البحر أن يطغى على النهر ، لأن سطح البحر أقرب إلى مركز الأرض من سطح اليابسة الذى يجرى عليه النهر . فبسنة الله العامة فى الجاذبية ينزل الله الأمطار ، ويجرى الأنهار ، ويحفظها من أن تطغى عليها البحار .

وللأنهار تاريخ طويل فى ماضيها وحاضرها يبحث عنها كيف نشأت وشقت مجاريها وتشقها فى الأرض ، وقد أشير إليه فى الآية الكريمة بكلمة واحدة هى قوله تعالى «خلالها» أى خلال الأرض . وعلماء طبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية هم الذين يدركون جلال ما تدل عليه هذه الكلمة القرآنية الفذة .

أما الرواسى فى الآية الكريمة فينبغى تقدير آيات الله فيها من حيث علاقتها بجعله سبحانه الأرض قرارا لمن عليها ، وذلك ليس فقط لأن السياق يقتضى هذا ، ولكن أيضا بقرينة لفظة فى الآية قليلة الحروف كبيرة الدلالة هى قوله تعالى (لها) بدلا من (فيها) فى الآية الكريمة « وجعل لها رواسى » . وأول ذلك ما تبين فى هـــذا المقال من صلتها بالأنهار أو صلة الشرائح منها . وثانى ذلك حفظ الله الأرض بها أن تميد بالناس ، وهو الجانب الذى نبه الله إليه فى آيات كانت موضوع المقال السادس من هذه السلسلة . أما علاقة الرواسى بمد الله الأرض فقد تأملنا آياتها فى المقال الخامس ، وهو فيما نبين فى ذلك المقال نفس موضوع إنشاء الجبال فى أهم أنواعهـــا .

وتبقى آية فصلت من الآيات الثـــلاث المذكورة فى صدر هذا المقال . وواضح منها ومن الآية قبلها أن ذكر الرواسى فيها كان طورا من أطوار خلق الأرض تمهيدا للطور الرابع الذى بارك الله فيه الأرض وقدر فيه أقواتها . والدليل على الأمرين جميعا جمعه سبحانه يومى الطورين الأول والثانى مع يومى الطورين الثالث والرابع فى قوله تعالى : « وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام » ، بعد قوله تعالى فى الآية قبلها : « قل أئنكم لتكفرون

بالذى خلق الأرض فى يومين ، وقوله فى ثانية آيتين بعـــدها : « فقضاهن سبع سموات فى يومين » .

فهذه ثمانية أيام فى مجموعها لو أخذت مستقلا بعضها عن بعض . لكن الله سبحانه قد أخبر فى آيات متعددة أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام . فلا مناص من أن الأربعة الأيام فى ثانية آيتى فصلت تشمل حتما اليومين فى أولاهما واليوم هنا ليس من أيام الدنيا ولكن من أيام الله . والله سبحانه يقول : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » ويقول سبحانه : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . فالله أعـــلم بطول اليوم فى كل من أيام خلق الأرض والسموات .

وقد ثبت فى علم الفلك الحديث أن الأرض انفصلت عن الشمس استناداً على الأخص إلى ما ثبت فى علم الكيمياء من أن المشترك من العناصر بين الأرض والشمس لا يقل بل يزيد عن ستين ، وأن الارتفاع الهائل فى درجة حرارة باطن الشمس كاف فى تحليل ما زاد عن الستين والنيف من ثقيل عناصر الأرض ، وهى العناصر التى لم يكشفها التحليل الطيفى فى الشمس . وإذن فاليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الحقبة التى تم فيها انفصال جزء الشمس الذى صار فيما بعد أرضاً . واليوم الثانى هو الحقبة التى تم فيها تبريد نفس الجزء حتى جمده . واليوم الثالث هو الحقبة التى خلق الله فيها الجبال فى الأرض بما سلط على قشرتها من القوى الهائلة التى لا يعرف قدرها إلا هو ، والتى عرف علماء طبقات الأرض كثيراً عنها . ومن عجائب الإعجاز العلمى البيانى فى آية فصلت أن دل الله سبحانه على التداخل بين آخر طور التبريد والتجميد وأول طور خلق الجبال بجمعه يومى الطورين الأول والثانى إلى يومى الطورين الثالث والرابع ودل عليها جميعاً بقـــوله « فى أربعة أيام » . كما دل بذلك أيضا على أن خلق الجبال كان ضروريا لخلق الحياة وتقدير الأقوات فى الأرض ، فقد أخـــبر سبحانه فى سورة الأنبياء أنه جعل من الماء كل شىء حى ، ودل بذكر الأنهار أو الزروع فى أكثر آيات الجبال فى القرآن الكريم على أن الجبال ضرورية لسقيا الأرض وأهلها وزروعها وحيوانها بالماء الفرات . وهذا فيما يتعلق بالإنسان هو الحكمة الأولى الكبرى فى خلق الجبال الرواسى ؟

محمد أحمد الغمراوى

حول طبيعة الشعر الجاهلى

للأستاذ كامل السيد شاهين

دواعى السهولة

ونريد بالسهولة هنا ما يشمل البعد عن الجساوة والغلاظة ، بحيث يكون أدخل فى الدماثة والجزالة .

وقد قلنا فى مقال سالف : إن جامعى الشعر الجاهلى كانوا من المؤدبين الذين يرمون إلى تحفيظ مسائد من اللغة ، فكانوا يتحرون من القصائد مايعينهم على تحقيق هذا الغرض ، كما نرى فى المفضليات والأصمعيات وغيرهما من مختارات المؤدبين ، وقد لمح ذلك الباقلانى فى إعجاز القرآن ، فقال :

وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام الذى يجمع الغريب والمعانى مثل : أبى عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والأصمعى ومنهم من يختار الوحشى من الشعر كما اختار المفضل المنصور من المفضليات ، وقيل : إنه اختار ذلك لميله إلى هذا الفن . ا هـ

بل كانوا يضعون القصص (التى صارت فيما بعد مقدمة للمقامات) على لسان الأعراب فى البوادى .. وأكثر ما جاء من أحاديث ابن دريد فى كتاب الأمالى من هذا القرى

حتى إن كثيراً من المتأدبين فى هذا العصر يزعم أنها مقامات باعتبارها قصصا خيالية انتخب لها أبطال من نوع خاص ، وإن لم تجتمع لها مشخصات المقامة بعد أن استوت فناً أدبياً من حيث وحدة البطل والراوى ، ومن حيث دورانها حول غرض عام واحد هو الكدية ولطف الحيلة .

ولعل أصحـــاب المعاجم أنفسهم كانوا يلمحون ذلك فيعنـون بالغريب النادّ أكثر مما يهمهم الواضح المستبين ... وربما كان صاحب القاموس مشيرا إلى هذا المبدأ الذى بنى عليه كتابه عندما سماه (القاموس المحيط والقابوس الوسيط ، فيما ذهب من لغة العرب شماطيط) (١) ؛ فإن الذى يراجع القاموس يؤمن بأن الفيروزبادى قد اهتم اهتماما خاصا بالغريب النادر ، ونحن لا نجد مثل هذه الحفاوة فى بعض كتب اللغة كالأساس ، ومقاييس اللغة ، وغيرهما .

وليس كل اللغويين يستريحون إلى هذا المنهج ؛ بل ربما ضاق به فريق منهم كالرازى صاحب مختار الصحاح فهو يقول فى تقدمته :

واقتصرت على ما لابد لكل عالم فقيه أو

(١) راجع شرح ديباجة القاموس ، للعلامة نصر الهورينى .

حافظ أو محدث أو أديب من معرفته وحفظه ، لكثرة استعماله وجريانه على الألسن بما هو الأم فالأم خصوصا ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية ، واجتنبت فيه عويص اللغة وغريبها طلبا للاختصار وتسهيلا للحفظ ... انتهى .

وكأنه لا يجد كبير فائدة فى تتبع الغريب واقتناص الشوارد، والاحتفال بما هو نادبائد .

ولقد ظل إجلال الغريب أمرا سائدا فى رواية المؤدبين ، ومحاضرات اللغويين ، وتأليف أصحاب المعاجم دهرا طويلا ... وذلك هو ما ورط نقاد الأدب فى القديم فى أحكام بعيدة عن الصواب حتى إن يونس ابن حبيب وأبا عبيدة كانا يفضلان الفرزدق على جرير على حين كان بشار يفضل جريرا على الفرزدق ، ويرى أن يونس وأبا عبيدة ليسا أهلا للحكم على الشعراء .

ولقد كان ثعلب يقدم مسلم بن الوليد على أبى نواس ، وكان البحترى يفضل أبا نواس... وزعم أن ثعلبا لا يحسن الحكم على الشعراء .

وإذا كان المؤدبون ، فيما يقول الباقلانى، قد اختاروا مختاراتهم لغرض يخص كتفسير ما يشتبه على غيرهم ، وإظهار التقدم فى معرفته ، وعجز غيرهم عنه ، فلا ينبغى أن يخدعنا ذلك عن طبيعة الشعر الجاهلى ونظن به جسارة فى اللفظ ، وميلا إلى الحوشية ، وقد ظن ذلك بعض المتعاطين للأدب فى القديم وزعموا للناس أن التقعر فصاحة وقدرة حتى دمغهم ابن قتيبة فى مقدمة أدب الكاتب ، وسخر منهم سخرية حادة ، وعلى آثاره جاء علماء البلاغة فهجموا على متتبعى الغريب وأسقطوا كلامهم عن درجة الفصاحة ، وبذلك اعتدل الميزان بعد ذبذبة طويلة .

* * *

ولقد تورط الناقد الباحث الدكتور طه حسين فى بعض أحكامه على الشعر الجاهلى ، فجعل السهولة واللين سببا لإسقاط بعض القصائد أو نفيها ... وجعل القرآن الكريم هو المعيار الذى يضبط ما يمكن قبوله من ذلك الشعر وما يمكن رده .

ولعلنا نستطيع أن نقرر الأصل الذى يقاس إليه الشعر الجاهلى ، ليعرف صحيحه من مدخوله فى مقال مستقل ...

والباحث فى هذا الشعر يجد فيه قوة المتن وشدة الأسر ، ويجد فيه الغلاظة والوعورة أيضاً .

والملتمس للسهولة واليسر يجد أنهما يظهران فى شعر الفرسان ، وفى شعر النساء ، وفى شعر الشعراء المتاخمين للعراق والناجعين بها ، وفى بعض الأغراض التى تغلب عليها العاطفة غلبة ظاهرة كشعر الرثاء ، وأسفار النياحة والتهييج والإلهاب ...

شعر الفرسان

ولقد يكون من الصعب على الباحث تحديد الفارس في العصر الجاهلي ، إذ كان كل أفراد القبيلة من المحاربين ، ومن يستطيع منهم أن يملك فرساً أو جواداً يخوض به الغمرات فهو فارس .

غير أننا لا نستطيع أن ندفع أن الفرسان يتفاوتون بلاء في الحرب ، وقدرة على إحراز النصر ، وإعمال الحيلة .. ومن هنا يمتاز بعضهم على بعض ويتقدم بعضهم بعضا ، فيشتهر أمثال: عنترة، وعمرو بن معد يكرب، ودريد بن الصمة ، والمهلهل ، والحارث بن عباد ، وعامر بن الطفيل ، وربيعة بن مكدم ومالك بن نويرة، وعتيبة بن الحارث بن شهاب. على أن الذي دفع هؤلاء إلى الشهرة ليس هو المهارة في ملاعبة الأسنة ومقارعة السيوف ليس غير؛ بل يضاف إلى هذا انطلاق ألسنتهم بالشعر يقولونه فخراً وتوعداً وتحميساً ورثاء للأعزة الراحلين .

ولابد أن يكون هناك فرسان لم يشتهروا لأنهم لا يقولون الشعر ؛ فليس أحد يدعي أن الفروسية والشعر متلازمان بحيث لا يكون المرء فارساً إلا انطلق لسانه بالشعر فهناك فرسان مفحمون قد يكون لهم من النكاية في العدو والضراوة في الحرب ما ليس لهؤلاء الفرسان الشعراء .

ولو أننا تتبعنا شعر الفرسان لوجدنا مسحة عامة تشمله هي طابع البعد من الوعورة وقرب المعاني والتجافي عن التنقيح ، ثم يتفاوت هذا الشعر بعد ذلك جزالة ودماثة أو ليناً ويسراً ولعل السبب في ذلك أن الفارس معجل عن معاودة شعره بالصقال ، إذ يقوله عند ثوران العاطفة وتأججها ويلقيه إلى قوم مثله فاترى العواطف ، ثم هو مطمئن إلى أن مكانه في القبيلة يعوضه عن التنقيح والصقل ويطمئنه إلى قبول قوله مهما يدن من الإسفاف .

ولعل من أبعد القصائد المأثورات يسراً وسهولة قصيدة المهلهل :

وهمام بن مرة قد تركنا
عليه القشعمين من النسور
على أن ليس عدلا من كليب
إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلا من كليب
إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلا من كليب
إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب
إذا خيف المخوف من الثغور

وهكذا يمضي أشواطا طوالا .

وقصيدة الحارث بن عباد :

قربا مربط النعامة مني
قرباها وقربا سربالي

وهي مشهورة متداولة .

ويبدو لي أن السر في هذه السهولة التي تدنو من حدود اللين والركاكة أن المهلهل والحارث كانا يقولان قصيدتيهما ارتجالا وعلى عجل وكانا يستعينان بالتكرار على استحضار المعنى وابتغاء الوسيلة إلى إصابة القافية ، وشعرهما هذا أشبه بالخطب الإلهابية منه بالشعر الذي يقوم على اللمح وتخفى فيه الإشارة ، بل هو أشبه بترديد النائحات وراء النادبة حيث يكررون مقطعا واحداً بعد كل كلام جديد .

ولعلك تقول: أين يذهب بك ؟! هذا شعر تغلب وبكر ومحلتهما قريبة من السواد أو فيه ، فلعل اللين جاء إلى شعر القبيلتين من هذه السكنى .

ولكننا إذا راجعنا معلقة طرفة بن العبد البكري ، والحارث بن حلزة اليشكري ، عرفنا أن سر هذه السهولة أحرى أن يكون راجعا إلى خصوص القائل وأنه فارس لا يعنيه اختيار لفظ أو تنقيح معنى أو لجاجة أسلوب .

ويؤيد هذا أننا نرى هذه الدماثة نفسها في كلام الفرسان من سكان شرق الجزيرة . وبحسبك أن تقرأ معلقة عنترة وتقرنها إلى المعلقات الأخرى (حاشا معلقة عمرو بن كلثوم فهي كذلك من شعر الفرسان) لترى فرق ما بين كلام وكلام من حيث الحزونة والتسهيل .. ويمكنك أن تراها في عبسي آخر هو : قيس بن زهير إذ يقول في رثائه لقتيله حمل بن بدر الفزاري :

تعلم أن خير الناس ميت
على جفر الهباءة ما يريم
ولولا ظلمة ما زلت أبكي
عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر
بغى والبغي مصرعه وخيم
أظن الحلم دل على قومي
وقد يستجهل الرجل الحليم

وإذ يقول :

شفيت النفس من حمل بن بدر
وثأري من حذيفة قد شفاني
فإن أك قد بردت بهم غليلي
فلم أقطع بهم إلا بناني

* * *

وإذا أريناك ذلك في شعر شرق الجزيرة مما يلي العراق ومما يلي البحرين ، فإننا نستطيع أن نريك ذلك كذلك في شعر آخرين من وسط الجزيرة وغربها هناك حيث تسكن قبائل قيس وعيلان من هوازن وثقيف وعامر ابن صعصعة وكنانة . .

ولننتخب لذلك قصيدة دريد بن الصمة التي قالها تمجيدا لربيعة بن مكدم حامي الظعينة التي حماها من فارس بعد فارس ، فهو يقول :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
حامي الظعينة فارسا لم يقتل

أردى فوارس لم يكونوا نهزة
ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللا تبدو أسرة وجهه
مثل الحسام حلية كف الصيقل
يزجى ظعينته ويسحب رمحه
متوجها يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مهابة رمحه
مثل البغاث خشين وقع الأجدل
ياليت شعري من أبوه وأمه ؟!
ياصاح من يك مثله لا يجهل

وفي ذلك يقول ربيعة :

إن كان ينفعك اليقين فسائلي
عني الظعينة يوم وادي الأخرم
إذ هي لأول من أتاها نهزة
لولا طعان ربيعة بن مكدم
إذ قال لي أدنى الفوارس منهم
خل الظعينة طائعا لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه
عمدا ليعلم بعض ما لم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل إهابه
فهوى صريعا لليدين وللفم

وليس عندي شك في أن هذا اللون أدخل في الجزالة من شعر الحارث والمهلهل، ولكنه بعد لم يزايل السهولة واليسر، ولم يقارب اللون الذي قدمه المفضل والأصمعي. أغنتني ذلك عن الأدب الجاهلي، وتذهب نفسك في أمره لأن صحته تخالف سمة المختارات. ذلك مذهب بعيد عن التحقيق.

* * *

ولا يتم لنا ما نريده من الاستشهاد حتى نسوق لك أيضا بعض الشعر الذي هتف به القحطانيون اليمانيون الذين كانت ديارهم في الجنوب الشرقي، ونختار منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي والذين ارتحلوا إلى أجا وسلمى من شمال الجزيرة ونختار منهم حاتما الطائي :

قال عمرو يتحدث عن فرسه ، على طريقته من الصدق والفكاهة ، وهو مذهب في الإدلال والثقة بالنفس :

ولقد أجمع رجلي بها
حذر الموت وإني لفرور
ولقد أعطفها كارهة
حين للنفس من الموت هرير
كل ما ذلك مني خلق
وبكل أنا في الروع جدير
وابن صبح سادرا يوعدني
ما له في الناس ما عشت مجير

وقال حاتم :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى
كما الدهر في أيامه العسر واليسر
كسبنا صروف الدهر لينا وغلظة
وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة ... غنانا، ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وقدما عصيت العاذلات وسلطت ... على مصطفى مالى أنامل العشر

وماضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمى ... يجاورنى ألا يكون له ستر

بعينى عن جارات قومى غفلة ... وفى السمع منى عن حديثهم وقر

على أننا لا ننكر أن شيئا من الغريب قد يجرى فى بعض القصائد ، كما نجد فى قول عمرو بن معد يكرب يعتذر عن هزيمته بعدم صدق قومه فى القتال :

ولما رأيت الخيل زورا كأنها ... جداول زرع أرسلت فاسبطرت

فجاشت إلى النفس أول مرة ... فردت على مكروهها فاستقرت

علام تقول الرمح يثقل عاتقى ... إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت

لحى الله جرما كلما ذر شارق ... وجوه كلاب هارشت فازبأرت

فلم تغن جرم نهدها إذ تلاقتا ... ولكن جرما فى اللقاء ابذعرت

ظللت كأنى للرماح دريئة ... أقاتل عن أبناء جرم وفرت

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم ... نطقت ولكن الرماح أجرت

فكثير من قوافى هذه القصيدة خشن غريب (اسبطرت، ازبأرت، ابذعرت) ولكن ذلك لا يعنى أن الغريب مسحة عامة فى القصيدة .. ولا أنه لون طبيعى فى شعر عمرو بن معديكرب.

والقضية على كل حال ليست أن شعر كل فارس فارس نأى عن الغلاظة ، وانتهى إلى اليسر والسماحة .. كلا ، ولكننا نريد أن شعر الفرسان فى الأعم الأشيع على هذا الأصل جاء . وبروز هذه الكلمات الغرائب فى هذه القصيدة لا يعنى أنها تميل عن الفصاحة كما قد يظن بعض معلمى البلاغة ، بل إن للكلام حاجات قد تطلب الغريب ، ولا يغنى غناءه اللفظ المأنوس ، وقد تناول هذه القضية ابن الأثير ، وأطنب بها فى بعض المقالات .

وبعد : فالشواهد لشعر الفرسان كثيرة تستطيع أن تجدها فى ديوان الحماسة ، وأن تلتقطها من أيام العرب ، وكلها على هذا الروح الذى تخالطه بشاشة العاطفة الحارة ، وسماحة الفروسية الكريمة ، وينبو عن التجهم والوعورة .

على أنه ينبغى ألا نظن أن الشعر الجاهلى خلا من المدخول ، فهناك شعر غريب دخل

الأدب الجاهلي ، وهناك شعر يميل إلى الدمائة دخل الشعر الجاهلي أيضاً .

فنحن لا نستطيع أن نقبل من الرواة ما نسبوه إلى المهلهل في رثاء أخيه :

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها
إن أنت خليتهـــا فيمن يخليها

نعى النعاة كليبا لي فقلت لهم :
مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها

ليت السماء على من تحتها وقعت
وانشقت الأرض فانجابت بمن فيها

لا أصلح الله منا من يصالحكم
ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

فهذه بشعر المعلمين ، والناشئين في الشعر ، المتقرزمين به أشبه منها بشعر شاعر متدفق حار العاطفة كالمهلهل .

وعلى الجملة ، فإن مقياس الوعورة والسهل في الشعر الجاهلي مقياس خادع ، وغير هذا المقياس أولى باعتبار العلماء .

• • •

وربما تيسر لنا تتبع أسباب السهولة في الشعر الجاهلي في مقالات مقبلة إن شاء الله تعالى ؟

كامل السيد شاهين

فقهاء المدينة السبعة

كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علم المدينة ، وقد ذكرهم عبيد الله في أبيات رقيقة في الغزل، وهم بعد عبيد الله هذا: أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعروة ابن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب بن حزن ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد ابن ثابت الأنصاري ؟

المؤلفات العربية لعلماء الهند المسلمين

للأستاذ محيي الدين الألوائي

(٤)

من أجل المؤلفات العربية لعلماء الهند ، كتاب « الدين الخالص » تأليف العالم الكبير السيد « محمد صديق حسن خان » القنوجي الشهير « بنواب بهوبال » المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م . وقد جعل المؤلف الكتاب جزأين وعبر عنهما « بالنصيب الأول » و « النصيب الثاني » وخصص النصيب الأول بمباحث التوحيد ، والنصيب الثاني بمباحث الاعتصام بالسنة واجتناب البدع وجاء الكتاب حافلا بمباحث التوحيد والسنة وسماه المؤلف « الدين الخالص »(١) مقتبسا اسمه من قوله سبحانه وتعالى « ألا لله الدين الخالص » .

وكانت الهند من أسبق البلاد فى مناصرة علم التوحيد والاعتصام بالسنة والدعوة إليهما بدليل مسارعة علمائها فى نشر وتأليف كتب عديدة بمختلف اللغات فى هاتين الدعامتين اللتين يقوم عليهما صرح الإسلام . ولم يدع المؤلف آية من آيات التوحيد الواردة فى القرآن إلا أتى عليها بالبيان الوافى لإثبات التوحيد الخالص ، ونفى الشرك بجميع أنواعه وأصنافه ، وكان غاية فى الترغيب فى اتباع السنة ورد البدعة بأقسامها وأطرافها مع الرد على تحريف الغلاة وتأويل الجاهلين وإفراط المتعصبين وتفريط المبطلين . فيقول فى مقدمة الكتاب : « ... هذا كتاب ناطق ببيان ما دلت عليه كلمة الإخلاص والتوحيد وأفهمته من رد أنواع الضلال من الشرك والبدعة والتقليد وهى التى جعلها إبراهيم الخليل عليه السلام كلمة باقية فى عقبه موصلة أصحابها إلى دار السلام . طالما كان يخطر إلى بالبال أن أحرر فى تيك الدلائل صحيفة كاملة وأحبر لهذه المسائل رقيمة حافلة . ولكن يعوقنى الزمان الحاضر الحائز للفتن عن البلوغ إلى هذا المرام ولا يساعدنى الدهر الماشى على خلاف المراد على سلوك هذه السبل : سبل السلام .

وكنت دائماً بالمرصاد لانتهاز الفرص تحصيلا لهذه البغية على ما يراد إلى أن وجدت — بحمد الله وحسن توفيقه — فرصة نزرة اختطفتها من أيدى آناء الليل والنهار ، وزمانا يسيراً سرقته من حركات الفلك المحدد الدوار مع هجوم الأشغال وتشتت البال من كثرة الأسقام والاعتلال واختلاف الرجال ،

(١) طبع فى مصر فى أربعة أجزاء .

لجعلتها وقتا لزبر هذا المرقوم على سبيل الارتجال وجناح الاستعجال بالتفصيل والإجمال ، لجمعت — حسب ما تمكنت وقدر ما تحصلت — آيات بينات وأحاديث شريفات وردت فى إثبات التوحيد ونفى الإشراك واتباع السنة ورد البدعات مع تفسيرها الذى حرره العلماء الفحول ، وشرحها الذى أذعن له سلف الأمة وأئمتها بالتلقى والقبول ضاما إليها من مقالات أهل العلم المتقدمين منهم والمتأخرين ، ماوقفت عليها ، جامعا لأشتات هذه الأبواب المتفرقة فى الدواوين المؤلفة إليها ، لجاء — بحمد الله — أجمع ما جمع فى هذا العلم ... » .

ويجد القارىء ما اشتمل عليه هذا الكتاب من المباحث الهامة من عناوين أبوابها العامة المقسمة إلى موضوعات يحتوى عليها كل باب ، فدونك نماذج من ذلك :

(١) باب فى الآيات القرآنية الدالة على توحيد الله تعالى :

ا ـ أعظم آية فى القرآن وأفضلها :

حيث قال : عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم سأله : أى آية من من كتاب الله أعظم ؟ قال : « آية الكرسى » ليهنك العلم أبا المنذر [١] ، أخرجه أحمد ومسلم وقد ورد فى فضلها غير هذا ، لاشتمالها على أصول التوحيد ... الخ .

(ب) ـ دليل وجود الصانع :

سئل بعض الأعراب : ما الدليل على وجود الصانع الواحد ؟ قال : إن البعرة تدل على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوى بهذه اللطافة ، ومركز سفلى بهذه الكثافة أما يدلان على وجود الصانع الخبير ؟

وفى القرآن من دلائل التوحيد كثير طيب وتكرير قوله تعالى : « لا إله الا هو » للتأكيد وفائدة تكريرها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه ، وفيه حث العباد على تكريرها والاشتغال بها ، فإنه من اشتغل بها اشتغل بأفضل العبادات ، وبالاشتغال بها ترسخ قدم التوحيد فى قلوب العباد ... الخ .

(ج) رد التثليث والتقليد :

وقال تعالى : « وما من إله إلا الله » فيه رد على من قال بالتثليث من النصارى ، وقال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً » وذلك أن النصارى عبدوا غير الله ، وهو المسيح ، وأشركوا به ، وهو قولهم : أب وابن وروح القدس ، لجعلوا الواحد ثلاثة « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم ، وإزراء على من قلد الرجال فى دين الله لحلل ما حللوه وحرم ما حرموه عليه ، فإن

---

(١) قوله : ليهنك العلم ، بصيغة الأمر الغائب أى ليكن العلم هنيئا لك ، وفى رواية ليهنئك العلم ، وأبو منذر كنية أبى بن كعب رضى الله عنه .

من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربا ، ومنه : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ... الخ

(د) أرجى آية لأهل التوحيد :

وقال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » وهى أرجى آية لأهل التوحيد ، فإنه سبحانه لم يؤيسهم من المغفرة . عن على قال : (ما فى القرآن أحب إلى من هذه الآية « ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » . وعن جابر قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ قال : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، ومن مات يشرك به دخل النار ، أخرجه مسلم ... إلخ

(هـ) جواز إطلاق الأخ على الرسل :

وقال تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا » قال المفسرن: سماه أخا لكونه ابن آدم مثلهم وبه قال الزجاج . والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم . وفيه دلالة على جواز إطلاق لفظة (الأخ) على الرسل والأنبياء بناء على المثلية فى البشرية والصحبة ، خلافا لمن يزعمون أن فى ذلك استخفافا لهم وتدفعه هذه الآية .. إلخ .

(و) الآية حجة قطعية لا إقناعية .

وقال تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » أى لو كان فى السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لبطلتا بما فيهما من المخلوقات وخروجنا عن تطلعهما المشاهد ، وهلك من فيهما لوجود التمانع من الآلهة على العادة عند تعدد الحاكم من التمانع فى الشىء وعدم الاتفاق عليه ، لأن كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام ، ويدل العقل على ذلك .

قيل : هذا دليل إقناعى بحسب ما يفهمه المخاطب وبحسب مافرط منهم قاله الحفناوى والتفتــــازانى .

والصحيح أن الآية حجة قطعية الدلالة ، والقول بأنها حجة إقناعية قول منكر ... وأضاف يقول :

وأقول: الأدلة القرآنية والحجج الفرقانية على توحيد الله تعالى تغنى عن البراهين الكلامية والمسائل العقلية والدلائل الفلسفية فى هذا المقصود ، وليس وراء بيان الله بيان، ودونه خرط القتاد .

قال الرازى : القول بوجود إلهين يفضى إلى المحال . ثم ذكر دلائل ذلك وقال : هذه حجة تامة فى مسألة التوحيد ، والفساد لازم على كل التقديرات التى قدروها . وإذا وقفت على هذا عرفت أن جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات والكائنات فهو دليل على وحدانيته تعالى . وأما الدلائل السمعية على التوحيد فكثيرة طيبة فى القرآن وفى الأحاديث .

(٢) باب فى الأدلة الدالة على توحيد الله أيضاً، وأورد فى هذا الباب مايلى من المسائل:

معنى الطاغوت . أنواع التوحيد . معنى الإله . أقسام التوحيد . معنى توحيد الربوبية معنى توحيد العبادة . أنواع الشرك . الشرك فى الربوبية . اجتماع الشركين فى العبد . مراتب التوحيد . التشبيه . تحريف المشركين تصوير حال المشركين . جواب الإشراك . جواب التحريف . ضلالة اليهود . تحريف اليهود . الفرق بين الكافر والفاسق فى كل ملة. إطلاق الابن على المحبوب . ضلالة النصارى. تحريف النصارى لمعنى (الفارقليط) أقسام المنافقين . نفاق العمل والخلق . توحيد الفلاسفة . توحيد الجهمية . توحيد الجبرية . توحيد الاتحادية . توحيد الرسل . وغيرها من المسائل المهمة .

(٣) باب فى بيان أن من حقق التوحيد دخل الجنة . وأورد فيه المسائل المتعلقة بالتوكل والدعاء ووحدة الوجود وحكم العقل .. الخ .

(٤) باب فى الكلام على معنى كلمة التوحيد والتحقق به ، ويتناول المؤلف فى هذا الباب المسائل الآتية :

إطلاق الكفر على المعاصى . إطلاق الشرك على الرياء . إطلاق الإله على الهوى. فضائل كلمة التوحيد . فضائل لا إله إلا الله. كلمة التوحيد هى الفارقة بين الكفر والإسلام الكفر مقرون بتوحيد الربوبية . الشرك الذى تسرب إلى المسلمين فى العصور الأخيرة أغلظ من شرك الجاهلية . الاستغاثة بغير الله شرك . الشرك محبط للأعمال .

(٥) باب فى بيان درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين .

(٦) باب فى الآيات الواردة فى ذكر المشركين والمشركات من أهل الكتاب وغيرهم.

(٧) باب فى إقرار بنى آدم بالتوحيد فى عالم الذر .

(٨) باب فى رد الإشراك فى العلم .

وهكذا أفاض المؤلف فى إسهاب أبواب التوحيد فى النصيب الأول من الكتاب لرفع شأنه فى الإسلام ، ولكونه الأساس الذى تتركز عليه قبول الأعمال وجعلها مقبولة عند الله تعالى ، كما صرح به فى مقدمته بقوله: « وإن كان إخلاص التوحيد لله عز وجل وقطع علائق الشرك — كائنة ما كانت — لا يحتاج إلى أن ينقل فيه أقوال الرجال أو يستدل عليه بالأدلة ، فإنه الأمر الذى بعث الله لأجله رسله وأنزل فيه كتبه . ومن شك فى هذا فعليه بالتفكير فى القرآن الكريم ، فإنه سيجده من أعظم مقاصده وأكبر موارده ... » .

وقد بدأ المؤلف « النصيب الأول » فى

بيان اثبات التوحيد ونفى الإشراك، مفتتحا بسورة الفاتحة ، حيث استدل بثلاثين دليلا من فاتحة الكتاب وحدها على إخلاص التوحيد لله تعالى بأسلوب خاص ، وبطريقة خاصة اتبعها . وأورد هذه الأدلة كما يلى :

« فاعلم أن فاتحة الكتاب العزيز التى يكررها كل مسلم فى كل صلاة مرات ، ويفتتح بها التالى لكتاب الله والمتعلم له . فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد فى ثلاثين موضعا .

الأول: قوله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم» فإن علماء المعانى والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متأخرا ليفيد اختصاص البداية باسم الله تعالى لا باسم غيره . وفى هذا المعنى ما لا يخفى من إخلاص التوحيد .

الثانى والثالث : الاسم الشريف أعنى لفظ « الله » فإن مفهومه — كما حققه علماء هذا الشأن — الواجب الوجود ، المختص بجميع المحامد ، فكان فى هذا المفهوم إشارتين إلى إخلاص التوحيد : أحدهما تفرده بوجوب الوجود . وثانيهما اختصاصه بجميع المحامد. فاستفيد من الاسم الشريف الذى أضيف إليه لفظ « اسم » هذان الأمران .

الرابع : تحلية الرحمن باللام فإنها من أدوات الاختصاص ، سواء كانت موصولة كما هو شأن آلة التعريف إذا دخلت على المشتقات أو لمجرد التعريف كما يكون إذا دخلت على غيرها من الأسماء والصفات . وقد أوضح هذا المعنى أهل البيان بما لا مزيد عليه .

الخامس : اللام الداخلة على قوله «الرحيم» والكلام فيها كالكلام فى الرحمن .

السادس : اللام الداخلة على قوله « الحمد لله » فإنها تفيد أن كل حمد له ومقصور عليه لا يشاركه فيه غيره رفى،هذا أعظم دلالة على إخلاص توحيده .

السابع : لام الاختصاص الداخلة على الاسم الشريف فإن مقتضى هذا أنه لا حمد لغيره أصلا ، وما وقع منه لغيره فهو فى حكم العدم . وقد تقرر أن الحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى لقصد التعظيم، فلا ثناء إلا عليه ولا جميل إلا منه ولا تعظيم إلا له . وفى هذا من أدلة إخلاص التوحيد ما لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه وما ليس عليه بمزيد .

الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر : قوله «رب العالمين» فإن لفظ الرب — باعتبار معناه اللغوى — مشعر أتم إشعار بإخلاص توحيده . هذا باعتبار معناه الإفرادى دون الإضافى ، ثم فى معناه الإضافى فى دلالة أخرى ، فإن كونه « رب العالمين » يدل على ذلك أبلغ دلالة . ثم فى لفظ « العالمين » معنى ثالث ، فإنه قد تقرر

لغة وشرعا — أن العالم هو اسم لمن عدا الله عز وجل وسواه ، فيدخل فى هذا كل شىء غير الله سبحانه ، فلا رب غيره ، وكل من عداه فهو مربوب . ثم فى تعريفه باللام معنى رابع بمثل ما قدمنا ؛ فإنها تفيد زيادة الإخلاص ، وتقرر ذلك المفهوم فى هذا الموضع . ثم فى صيغة الجمع معنى خامس بزيادة تأكيد وتقرير ، فإن العالم إن كان اسما لمن عدا الله لم يمكن جمعه إلا لمثل هذا المعنى، وعلى فرض انهدامه باللام فهو لا يقتضى ذهاب هذا المعنى المستفاد من أصل الجمع .

الثالث عشر والرابع عشر : قوله «الرحمن الرحيم» وتقرير الكلام فيهما كما سلف .

الخامس عشر والسادس عشر : قوله «مالك يوم الدين» فإن لفظ «مالك» ومعناه الإفرادى — من غير نظر إلى معناه الإضافى - يفيد استحقاقه بإخلاص توحيده ، ويفيد أنه لا ملك لغيره ، فلا ينفذ إلا تصرفه لا تصرف أحد من خلقه ، من غير فرق بين نبى مرسل وملك مقرب وعبد صالح .

وهكذا معنى كونه «ملك» على القراءة الأخرى وهما السبعيتان ، فإنه يفيد أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ليس لغيره معه أمر ولا حكم ، كما أنه ليس لغير ملوك الأرض معهم . أمر ولا حكم ، ولله المثل الأعلى ، ثم فى معناه الإضافى إلى «يوم الدين» معنى ثان ؛ فإن من كان له الملك فى مثل هذا اليوم الذى هو يوم الجزاء لكل العباد وفيه يجتمع العالم ، أولهم وآخرهم ، سابقهم ولا حقهم ، جنهم وإنسهم ، وملائكتهم ، فهو المستحق لإفراده بالعبادة وفيه إشارة إلى استحقاقه إخلاص توحيده . وقد فسر الله هذا المعنى الإضافى المذكور فى فاتحة الكتاب هذه فى موضع آخر من كتابه العزيز ، فقال : «وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله» ومن كان يفهم كلام العرب ونكته وأسراره كفته هذه الآية عن غيرها من الأدلة واندفعت لديه كل شبهة .

السابع عشر : ما يستفاد من نفس لفظ «الدين» من غير نظر إلى كونه مضافا إليه .

الثامن عشر : ما يستفاد من تعريفه ، فإن فى ذلك زيادة إحاطة وشمول ، فإن ذلك الملك إذا كان فى يوم هو «يوم الدين» الذى يشتمل على كل دين ، كان من له هذا الملك حقيقا بأن يخلص العباد توحيده ويفردونه بالعبادة ، كما تفرد بملك يوم له هذا الشأن .

فإن قلت: هذان المعنيان الكائنان فى لفظ «الدين» باعتبار أصله وباعتبار تعريفه أخذا فى معنى الإضافى حسب ما ذكرته سابقا .

قلت : لاتزاحم بين المقتضيات ، ولا يستنكر النظر إلى الشيء باعتبار معناه الإفرادى تارة وباعتبار معناه الإضافى أخرى . وليس ذلك بممنوع ولا محجور عند من يعرف العلم الذى يستفاد منه دقائق العربية وأسرارها ، وهم أهل علم المعانى والبيان .

التاسع عشر والعشرون والحادى والعشرون : قوله : « إياك نعبد » فإن تقديم الضمير معمولا للفعل الذى بعده قد صرح أئمة المعانى والبيان ، وأئمة التفسير أنه يفيد اختصاص العبادة به سبحانه وتعالى ، ولا يشارك فيها غيره ولا يستحقها ، ومن اختص بالعبادة فهو الحقيق بإخلاص توحيده وقد تقرر أن الاستغاثة والدعاء والتعظيم والذبح والتقرب من أنواع العبادة ، ثم مادة هذا الفعل — أعنى لفظ « نعبد » — تفيد معنى آخر ، ثم المجىء بنون الجماعة لسكون هذا الكلام صادراً عن كل من تقوم به العبادة من العابدين كذلك ، فكانت الدلالات فى هذه الجملة ثلاثة : الأولى ، فى « إياك » مع النظر إلى الفعل الواقع بعده . الثانية ، ما تفيده مادة « نعبد » مع ملاحظة كونها واقعة من ذلك الضمير عبارة عنه ، وإشارة إليه الثالثة ، ما تفيده النون مع ملاحظة الأمرين المذكورين ، ولا تزاحم بين المقتضيات .

الثانى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون : قوله : « وإياك نستعين » فإن تقديم الضمير هاهنا معمولا لهذا الفعل له معنى وهو يقتضى أنه لا يشاركه غيره فى الاستعانة به فى الأمور التى لا يقدر عليه غيره ، ثم مادة هذا الفعل لها معنى آخر ، فإن من كان لا يستعان بغيره لا ينبغى أن يكون له شريك ، بل يجب إفراده بالعبادة وإخلاص توحيده ، إذ وجود من لا يستعان به كعدمه . وتقرير الكلام فى الثلاث الدلالات كتقريره فى « إياك نعبد » فلا نعيده . وصيغ الحصر — إذا تتبعها ؟ من كتب المعانى والبيان والتفسير والأصول — بلغت ثلاث عشرة صيغة فصاعدا ، ومن شك فى هذا فليتتبع كشاف الزمخشرى فإنه سيجد فيه ما ليس له ذكر فى كتب المعانى والبيان كالقلب فإنه جعله من مقتضيات الحصر ، ولعله ذكر ذلك عند تفسيره للطاغوت وغير ذلك مما لا يقتضى المقام بسطه ... » .

محيى الدين الألوائى

دروس من فريضة الحج

للدكتور سعد الدين الجيزاوى

إن المتأمل فى أسرار هذه الفريضة يجد أن وراءها كثيراً من الدروس القيمة التى تنفع الناس فى حياتهم ، وترسم لهم طريق النجاة يوم يعرضون على ربهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وإن أول درس يطالعنا فى هذه الفريضة هو « التيسير » وأعظم به من درس يحل كثيراً من مشكلات الحياة وعقدها ، وقد دعانا إليه كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، فما خير الرسول عليه الصلاة والسلام بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً . .

وأهم مظاهر التيسير فى هذه الفريضة تتمثل فى أمرين :

أولهما : أن أداءها لا يكون إلا بالقدرة عليها ، فقد يعيش المسلم ما يعيش دون أن يؤديها ثم يموت غير آثم ، ولا تارك لأحد أركان الإسلام لأنه لم يترك أداء هذه الفريضة متعمداً ولا متهاوناً ولا منكراً ، بل إنه عجز عن القيام بها لعجزه عن تكاليفها فاقتضت رحمة الله ألا يكون هذا من المذنبين ما دام غير مستطيع .

ولأئمة المسلمين توجيهات كثيرة فى تفسير هذه الاستطاعة ترغيباً فى أن يحاول كل مسلم أن يهيء لنفسه الظروف التى تمكنه من أداء هذه الفريضة ما استطاع إلى ذلك سبيلا فإن نفدت طاقاته دون الاستطاعة فإن رحمة الله واسعة ، ومن كان فى سعة من المال وعجز لمرض أقعده ، اقتضت رحمة الله أن يقبل حجه بالإنابة . أما من أخر أداء هذه الفريضة مع قدرته عليها ثم مات فهو آثم ، وبقى عليه الحج فى تركته ، ليُنيب ورثته من يقوم به من ماله ولو لم يوص بذلك . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج وهو يستطيع إليه سبيلا)(١) .

أما ثانى الأمرين من مظاهر التيسير : فهو أن هذه الفريضة تلزم المسلم مرة واحدة فى العمر على ما قد يكون فيه من سعة ويسر ، ذلك لأن الله تعالى يريد من عباده أن يظهروا الخشوع والامتثال لأوامره لا أن يشق عليهم ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن فى هذه

---

(١) إحياء العلوم للغزالى ج ١ ص ٢٢٠ طبعة الحلبى سنة ١٣٤٦ . . .

المألوف المؤلفة من المسلمين الذين تجب عليهم هذه الفريضة كل عام فى مشارق الأرض ومغاربها ، ما يكفى لبعث الحياة فى مناطق الحجاز حول الحرم ويعود على أهلها بالخير العميم، ثم إن القيام بهذه الرحلة الروحية بشوق ولهفة ، وما يصحبها من تغيير فى نظام الحياة المألوف فترة من الزمن ومشاهدة تلك البقاع الطاهرة وأداء مناسك الحج وما يصحبها من خشوع . كل ذلك كفيل بأن يترك فى النفس من الآثار والصور ما يجعلها تتذكره دائما ، وقد يكفى الإنسان القيام به مرة فى العمر ، ومع ذلك فما أكثر من يعاودون الكرة بعد الكرة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا متطوعين راغبين فى الاستزادة من تلك المتع الروحية ، والاستفادة بما فى ذلك من دروس .

وقد روى أن أحد الصحابة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . « الحج علينا كل عام؟ » فأعرض عنه الرسول الكريم حتى كرر السائل ثلاثا . فقال له صلى الله عليه وسلم : (ويحك مايؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت: نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بأمر فخـــذوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه).[1]

وهكذا رسم الرسول الكريم سبيل التيسير واضحة وقد نزلت آية المائدة تؤيد الرسول الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » [2] .

وهكذا كانت الدعوة إلى تيسير الأمور والبعد عن تعقيد الحياة،درسا من الدروس العديدة التى تستفاد من فريضة الحج .

ومن الدروس التى نتعلمها من فريضة الحج: هذه التجارب العملية لتهذيب النفس والسمو بالروح ، وتطهير القلب .

بالإحرام ينتقل الإنسان إلى نظام فى حياته غير مألوف فى سائر الأيام ، إذ يجد نفسه فى ثياب لاتدل على أبهة ، ولا تحتاج إلى تنسيق أو تنميق أو أى مظهر من مظاهر التجميل ، بل إن الاهتمام بالتجميل ينتقل من الظاهر إلى الباطن فيشعر الإنسان أنه بحاجة إلى تنقية نفسه أشد من حاجته إلى نظافة ثيابه المألوفة وتنسيقها ، وهذا يبعث فى النفس

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٧ طبعة المكتبة التجارية ١٣٥٤ .

(٢) سورة المائدة: ١٠١، ١٠٢ .

معان بعيدة الأثر إلى قيمة زخارف الدنيا ، وأن الإنسان إذا تجرد منها لا يشعر بنقص فى إنسانيته ، بل إنه يحس بقيمته كإنسان مهذب.

وفترة الإحرام أيام الحج تقيد الإنسان بقيود تكبيح جماح النفس فلا تستطيع أن تستمتع بما هو مباح كالتطيب أو التزين أو مقاربة زوجته . . أو اللهو بالصيد ...

وإذا كان الإنسان يشعر بقيد وهو قائم يصلى فلا يكلم غيره ولا يتلفت . . شعوره بقيد الإحرام أيام الحج عند الوقوف بعرفه والطواف ومنى . . قد يكون أشد وقعا على نفسه من شعوره بقيد الصلاة . وهذا يدعو إلى تعويد النفس الصبر وامتثال أوامر الله تعالى .

وفى اختلاط الجنسين أثناء القيام بهذه الفريضة ما يعتبر من أروع الدروس فى المجتمعات العامة ، وضبط النفس وكبح جماح الشهوات ، ذلك أن الحجاج يختلطون رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، فى مزدحمات دونها كل المزدحمات : فى الطواف حول الكعبة ، وفى منى ، وفى عرفات . والعبرة هنا أن كلا من الرجال والنساء يكون فى أشد الحذر من تلاصق الأجساد، ولاسيما عند الطواف حول الكعبة حيث تتجمع الألوف المؤلفة فى مدار محدود ، ويسعى كل لأن يكون قريبا من بنية الكعبة ليستطيع لمس الحجر الأسود ..

ولسائل أن يسأل : لم جعل ترتيب النسوة عند صلاة الجماعة فى صفوف خلف الرجال ولم يخصص وقت للرجال ووقت للنساء أو مكان دون مكان مع ما هو معلوم من شدة الزحام فى الحج ؟

والجواب : أن الصلاة تتكرر فى كل يوم وليلة خمس مرات أما الحج فمرة واحدة فى العمر ، وأن أكتاف المصلين فى الصفوف ينبغى أن تكون متلاصقة وهذا أمر لا يمكن الاحتراز منه ، وهو لذلك مدعاة إلى إثارة الشعور الجنسى إذا أبيح الاختلاط فى الصف الواحد ، أما فى الطواف فإن الاحتراز ممكن، وأول إمكانياته هو خلوص النية وعزم الحج على ألا يحاول الالتصاق أو النظر بشهوة وهو يرى نساء من جنسيات مختلفة ، وقد يكون فيهن من هى أكثر جمالا وفتنة وأشد جاذبية من نساء وطنه ، إن شعور المرء فى هذا المقام بأن شيئاً من الملاصقة أو النظر الخارج قد يفسد عليه حجه ويخرجه من سعادته الروحانية التى يضفيها عليه ذلك المقام الكريم وهو متجرد إلى الله ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، إن الشعور بذلك يعيد المرء إلى صوابه ، ويجعله ينفر من لذة عاجلة إلى سعادة آجلة وهذا هو المقصود من بقاء الاختلاط هنا فيتعود الإنسان فى حياته العادية أن يكبح جماح نفسه ويتجنب الاستمتاع بما ليس من حقه فيحتاط إن هو اضطر إلى الوجود فى مزدحم .

وفى توقيت الوقوف بعرفة من بعد زوال اليوم التاسع إلى قبيل فجر اليوم العاشر من ذى الحجة درس فى احترام الوقت ، وتقدير قيمته ، والمحافظة عليه ، فقد يقيم الحاج شهراً أو سنة بالحجاز ثم يغيب هذه اللحظة فى تلك الفترة المحددة فلا يقفها بعرفات ؛ فإنه لايتم حجه ويضيع ما قضاه من وقت طويل .

وما أحوجنا فى حياتنا العادية إلى مثل هذا الدرس والمحافظة على الأوقات ، ولاسيما عندما يكون أحد مستأجراً على عمل فى وقت محدود كوقت الموظف ، فإنه ليس من حق هذا الأجير أن يقضى لحظة من وقته فى غير ما يعود على المؤجر بالمنفعة ، وما أحوج أولئك الذين يعبثون بأوقات وظائفهم فيقضون بعضها فى المحادثة إلى الأصدقاء أو قراءة الصحف . . . ما أحوج هؤلاء إلى الانتفاع بمثل هذا الدرس الذى يتكرر فى تحديد أوقات الصلاة وأوقات الصوم .

فليتنا نعتبر !

كذلك فى تحديد منطقة عرفات ، إن هنا درساً فى احترام الأماكن فلو أن الحاج وقف خارج المنطقة المحددة فى الزمن المحدد فإن ذلك لا يجزيه ؛ بل يعتبر تاركا لأحد الركنين الأساسيين للحج مهما كان قريبا أو محاذياً لمنطقة الوقوف .

نعم هنا درس قيم ، فكثيراً ما تحدث منازعات فى حياتنا العادية بسبب تخطيط الأراضى وتحديد الأماكن ، كذلك اقتضت إرادة الله تفضيل بعض الأماكن على بعض فينبغى أن نلزم حدود الله رب العالمين .

ومن الدروس التى نتعلمها من فريضة الحج : التعاون ، نعم ، فإن كل حاج يشعر فى تلك الأماكن بأنه أخ لغيره فإذا ما احتاج لمعونة فإن أخاه سرعان ما يلبى نداءه ، وما أكثر ما يشاهد فى موسم الحج من ظاهرة المساعدات والمعاونات التى تبدو بين الحجاج فما أن يحس أحدهم بمرض الآخر أو نفاد زاده أو عجزه على أية صورة حتى يسارع إلى معونته إن استطاع ودعوة من يكون أكثر مقدرة على رفع الأذى إن هو عجز .

ومن تلك الدروس إظهار قوة المسلمين بطريقة عملية ؛ فموسم الحج يثبت أنه فى الإمكان تجميع المسلمين فى صعيد واحد إذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو .

ولو تدبر المسلمون ما فى هذه الفريضة من دروس وما ترمى إليه من حكم بالغة وإرشادات سامية لحرصوا عليها ، وسارعوا إلى أدائها ، واعتبروها من نعم الله الكبرى عليهم ، والله ذو الفضل العظيم .

اللهم بصرنا ، ووفقنا ، وانفعنا بما نعلم ، واهدنا إلى صراطك المستقيم .

الدكتور

محمد عبد المنعم الجيزاوى

نائلة امرأة عثمان

للأستاذ محمد الأحمدي أبو النور

ما أكثر من عاشوا فوق هذا الكوكب منذ ملايين السنين ثم مضوا دون أن يفيدوا الحياة بشيء، أو يتركوا حتى مجرد ذكرى..

وإذا نقبت بين جنبات التاريخ فلن ترى لهم أثراً، ولن تسمع لهم ركزاً..

ذلك أن التاريخ لا يعنى إلا بذوى القيم والمبادىء الذين عاشوا لها وبها وكافحوا ونافحوا من أجلها، أو أولى المناقب والسجايا الذين مثلوها بسلوكهم الرائد، وإيجابياتهم البناءة، وتفاعلهم الخلاق مع الأحداث والزمن ومع المجتمع والحياة.

من هؤلاء: نائلة امرأة عثمان بن عفان رضى الله عنهما التى وعى لها التاريخ كفاحا باهراً، ووفاء نادراً، وبطولة فائقة.

نشأت «نائلة» هذه فى كنف أسرة عربية عريقة، تؤمن بحرية الاعتقاد وبإمكانية التعاطف والتواد بين أبناء الملل المختلفة، فى ظل البيت الواحد وتحت سقف الأسرة الواحدة.

وقد كانت هى وأبوها مسيحيين بينما كان أخوها «ضب» قد شرح الله صدره للإسلام، فلم يقطع ذلك بينهم رحما، ولم يمنع لهم وداً، وإنما جرت مياه الحياة بين ثلاثتهم رائقة صافية وسرت رياح التعاطف بينهم رخية وادعة.

لحين خطبها عثمان إثر مخاطبة بينه وبين سعيد ابن العاص اغتبط أبوها وأمر ابنه «ضبا» أن يتولى عقد نكاحها قائلا: أنت على دينه. ولم يكتف بذلك بل أوصى «نائلة» بما يحببها إلى بعلها ويجعلها مكينة عنده أثيرة لديه حتى كانت بعد أحظى نسائه وأحبهن إليه.

ويروى أبو الفرج الأصفهانى فى ذلك أن سعيد بن العاص تزوج — وهو على الكوفة — هند بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمر بن ثعلبة فبلغ ذلك عثمان فكتب إليه: «أما بعد: فإنه قد بلغنى أنك تزوجت امرأة من كلب فاكتب إلى بنسبها وجمالها». فكتب إليه:

أما بعد: «فإن نسبها أنها بنت الفرافصة ابن الأحوص، وجمالها أنها بيضاء مديدة»

فكتب إليه : إن كان لها أخت فزوجنيها . . فزوجها إياه . وكان «ضب» مسلماً وكان الفرافصة نصرانيا ، فلما أرادوا حملها إليه قال لها أبوها: يا بنية : «إنك تقدمين على نساء من نساء قريش هن أقدر على الطيب منك فاحفظي عني خصلتين فتكحلي وتطيبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر[1] » .

وتهادت مع أخيها إلى عثمان ـ رضى الله عنه ، ولعلها تعلمت الكثير عن الإسلام من قبل إذ كان أخوها ولا شك ـ يمارس شعائر دينه على مرأى منها ومسمع .

ولعلها لم تتردد في أن تسأله عن الكثير مما جال بخاطرها عن الشرائع والأديان وتراءى لها أن تقف على وجه الحق واليقين فيه .

ولعلها بعد هذا وذاك قد وضحت أمامها الرؤية وبان لها من الإسلام ما يقنع العقل ، ويهدى الفكر ، ويهذب الوجدان ويوائم الفطرة ويصلح شأن الفرد والجماعة «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» ، «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

فما عتمت أن شرح الله صدرها للإسلام وكأنما كانت تتهادى إلى عثمان على نور من ربها ، وقد أمسى الإسلام أعز أمانيها فأسلمت على يديه عقب قدومها .

وقد روى البيهقي في سننه أن عثمان بن عفان رضى الله عنه نكح ابنة الفرافصة (١) وهى نصرانية ـ على نسائه ـ ثم أسلمت حين قدمت عليه .

وروى كذلك أن عثمان بن عفان تزوجها وهى نصرانية (أى) ملك عقدة نكاحها وهى على دينها حتى حنفت حين قدمت عليه (٢)

وذكر الطبرى في تاريخه أن ذلك كان عام ٢٨ هـ وأنها تحنفت قبل أن يدخل بها . (٣)

وأياما كان فلا ريب أنه قد أتيح لها في بيت الخلافة أن تعلم عن الإسلام مالم تكن

---

(١) الأغانى ١٥/٧٠ نسب قريش ص ١٠٥ والشن : قربة الماء .

(١) الفرافصه من أسماء الأسد وبه سمى الرجل لشجاعته . قال النضر بن شميل : الفرافصة بالضم الصغير من الرجال ، ورجل فرافص وفرافصة شديد ضخم شجاع . والفرافصة: هو أبو نائلة صاحبة الترجمة واسمه فى ضبطه يمتاز بميزتين الأولى أنه ليس فى العرب من تسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره . والثانية أن كل ما في العرب فرافصة بضم الفاء ما عداه فإنه يفتحها لا غير هذا وقد كان بنو الفرافصة بنى قومهم وساداتهم . انظر لسان العرب ٨/٣٣٣ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٥٦، ٤٥٧ .

(٢) السنن الكبرى ٧ / ١٧٢ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ٥ / ٥٤ .

تعلم ، وأن تحفظ من القرآن مالم تكن تحفظ وأن تسمع من السنة مالم تكن تسمع حتى اجتمع لها من ذلك كله ما صقل فكرها وقوم لسانها وجعل منها مثلا حيا ورائعا في البطولة المجيدة والرأى النضيج ، والوفاء العزيز .

وقد ذكر الزركلى فى (الأعلام) أنها كانت خطيبة شاعرة من ذوات الرأى والشجاعة وأنها حين ابتدأت شرارة الثورة واندلعت ألسنة الفتنة على عثمان رضى الله عنه أشارت عليه بالصلح مع على بن أبى طالب وكان قد جاء وحذره ، وأن عثمان عمل بمشورتها فأرسل إليه بدعوة ، غير أنه قال : قد أعلمته أنى لست بعائد . (١)

وتسور القتلة الدار ، ووثبوا على عثمان فضربه أحدهم بالسيف فما أخذها الروع ، ولا استولى عليها الجزع ، ولاساورها حديث الهرب ، ولكنها تحولت طاقة بطولة وشهامة ، فألقت نفسها على عثمان فداء له ، بل فداء للأمة كلها وهى تستشعر أن هلاكه هلاك للأمة .. كما أن هلاك الرأس هلاك للجسد. ثم صاحت بخادمها (رباح) فقتل الرجل وهجم آخر فوضع ذباب السيف فى بطن عثمان فأمسكت نائلة بالسيف فحز أصابعها وقتل عثمان وصرخت فلم يسمع صراخها للجلبة التى امتلأت بها الدار فخرجت تخبر الناس وتستغيث بهم ففر القتلة ودخل الحسن والحسين وغيرهما فوجدوه مذبوحا (١) ثم دفن ـ رحمه الله ـ وانتحبت عليه نائلة ، وأخذت تقول :

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة
قتيل التجيبى(٢) الذى جاء من مصر

وما لى لا أبكى وتبكى قرابتى
وقد ذهبت عنا فضول أبى عمرو (٣)

ولم ينته ما بين نائلة وبين عثمان باستشهاده ، بل لعله بدا أكثر روعة وإشراقا وتألقا..!

لقد خرجت منتقبة إلى المسجد النبوى ـ وهو مجلس الأمة و « برلمان » المسلمين يومئذ ـ لجمعت جمهورهم وخطبتهم خطبة بليغة ترثى فيها عثمان وتستحث فيها العزائم على الانتصار له والضرب على أيدى القتلة المارقين الذين حاربوا الله ورسوله وخرجوا على خليفته وعاثوا فى الأرض فسادا ، ثم بعثت بقميص عثمان وبأصابعها المخترطة وبكتاب يتضمن ما خاطبت به المسلمين إلى

---

(١) الأعلام ٨ / ٣٠٣ ، ٣٠٤

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/١٣٨.

(٢) نسبة إلى قبيلة عربية نزلت بمصر وكانت محلتها بالفسطاط .

(٣) الأغانى ١٥/٧١ ونسب قريش ص١٠٥

معاوية بالشام مع النعمان بن بشير رضى الله عنهما (١) .

ودل كتابها وخطبتها على مدى ما امتازت به من قوة فى الحجة، وبلاغة فى القول، وجزالة فى التعبير ، وروعة فى الاقتباس ، وعظمة فى الوفاء لبعلها الذى أسلم روحه بين يديها بعد إذ هداها الله ، وأسلمت هى على يديه من ذى قبل !! .

ثم لم يقف الأمر بوفائها النادر عن هذا المستوى؛ بل تعداه إلى ماهو أروع وأسمى.

لقد كانت تدرك أنها مطمح أنظار الرجال بعد عثمان لما حباها الله به من جمال وفتنة فضلا عما لها من نسب وجاه فعمدت إلى أبرز مواطن الإغراء فيها وكانت كما ذكر الذهبى مليحة الثغر فأزالت ثناياها بحجر وهى تقول : والله لا يجتلينكن أحد بعد عثمان (٢) . فلما هدأت الثائرة وسكنت الفتنة وخرجت إلى الشام خطبها معاوية وهو يومئذ من هو ! وهى من ذكرنا فى ميعة الصبا وشرخ الشباب .

وخطبة رجل كمعاوية لها بريق يكاد سناه يختطف الأبصار .

(١) أنظر الخطبة فى بلاغات النساء ص ٧٠ والكتاب فى الأغانى فى الموطن السابق .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبى ٢/١٤٨ .

بيد أن نائلة كما تجسدت من قبل فداء تجسدت الآن وفاء فأبت وبعثت إلى معاوية بثنيتها قائلة : إنى رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب وأخاف أن يبلى حزنى على عثمان فيطلع منى رجل على ما اطلع عليه عثمان(١).

وقد ذكر ابن حبيب ذلك تحت عنوان : « الوافيات لأزواجهن اللواتى لم يتزوجن بعدهم ، وأن معاوية ألح عليها فقلعت ثنيتها وبعثت بهما إليه فأمسك عنها »(٢) .

رحم الله نائلة امرأة عثمان وما أروعها يوم تهادت إليه فهداها الله للإيمان على يديه!

وما أشجعها يوم وقفت بجانبه فى محنته تمده برأيها وتفتديه بروحها وتتفاعل مع الأحداث فتخطب خطبتها وتكتب كتابها!

وما أنبل وفاءها يوم أبت خطبة معاوية فرفعت بين الناس من قدرها وأرضت بذلك زوجها ، وفرضت على التاريخ وجودها ثم عاشت فى ضمير الوجود رمزاً للكفاح والبطولة والوفاء ، وكانت من الخالدين ؟

محمد الأحمدى أبو النور
معيد بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

(١) الأعلام للزركلى ٨/٣٠٤ .

(٢) المحبر ص ٢٩٤ .

الحشيش قديماً وحديثاً

للأستاذ علي الجندي

آراء العلماء فيه :

لم ينقل عن الإمام أبي حنيفة وأصحابه رأي فيه ، لأن أكله لم يظهر في زمانهم بل كان مستوراً يتعاطاه الناس في السر ، وظل سكوت السلف عنه إلى زمان المزني تلميذ الإمام الشافعي – وكان أكله قد شاع وشره قد ذاع ، وتنافس الناس في تناوله ، فأفتى المزني بحرمته على مذهب الشافعي ، وكان المزني – إذ ذاك في بغداد ، وكان أول ظهور الحشيش في عراق العرب .

وحين بلغت فتيا المزني ، أسد بن عمرو من تلاميذ أبي حنيفة – وكان في عراق العجم – لم يتابعه على التحريم . ولكن حينما رأى علماء ما وراء النهر أن بليته قد عمت الناس ، ومضرته شملت البقاع ، وحتى ظهرت السفاهة على الحكماء ، وغلبت البلادة على العقلاء ، وافقوا بأجمعهم على ما أفتى به الإمام المزني من حرمة أكله ، وإحراقه ، وتأديب بائعيه ، والتشديد على آكليه ، بل أفتى جماعة من العلماء بوقوع طلاق السكران من الحشيش أسوة بالسكران من الخمر زجراً له ، كما أفتوا بأن من يقول بأن أكله حلال ؛ فهو زنديق مبتدع فاسق مخترع !!

ضرر الحشيش :

لقد أفاض الأطباء في بيان ضرر الحشيش على متعاطيه ، وبقي أن نعرف أن الشعراء القدامى لم يسكتوا عن هذا (الكيف) الملعون ، فهذا القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر أحد رؤساء دواوين الإنشاء في دولة المماليك البحرية ، يصور لنا فعله بصاحبه ، وتلونه في جسمه تلون الحرباء ، وأنه بلاء محض ، يسلب المبتلى به – والعياذ بالله – عافيته ورشده وصوابه !! يقول :

ما للحشيشة فضل عند آكلها
لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء في وجهه ، خضراء في فمه
حمراء في عينه ، سوداء في جسده

وفي تصوير ضحاياه المساكين ؛ وقد همدت أجسامهم ، وخدرت أعصابهم ، وسكرت أبصارهم ، فلاهم أيقاظ ولاهم نيام ، يقول ابن أبي حجلة المغربي – مضمناً شعراً للمتنبي – :

وقوم بالحشيشة ذاب منهم
« فؤاد ما تسليه المدام »
« أرانب غير أنهم ملوك
مفتحة عيونهم نيام »

ضرر الحشيش بالنساء أكبر !! .

وتكون المصيبة أعم، والبلية أدهى وأمر حينما يكون سمير الحشيش من الجنس الناعم اللطيف !! فهناك يطير الحياء - وهو وكاء العفة، وقيد الصيانة، وعقال الطهارة — وإنك لتجد مصداق ذلك فى هـذا الحوار الرشيق بين الشيخ صلاح الدين الصفدى، وبين إحدى الشاعرات المليحات الحشاشات! قال عفا الله عنه وعنها !! .

مليحـة مصطولة
إن لمنها فيما جرى
تقول : كل ظبية
ترعى «الحشيش الأخضرا»

أرأيت كيف ألهمها شيطان الحشيش : أن تحسن الجدل عن نفسها، وأن تغالط فى الحقيقة إلى أبعد الغايات، وأن تلق فى وجوهنا بهذه الحجة الناصعة فى ظاهرها «كل ظبية ترعى الحشيش الأخضر» حتى لتكاد تخدر عقولنا بعقلها المخدر، فنسلم لها دليلها ونقبل عذرها !! .

وقد كان أستاذنا الفـرزدق يبغض الشاعرات لسبب لا أعرفه، وكان يقول إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فاذبحوها ! يعنى إذا قالت الشعر.

فما الظن إذا كانت هذه الدجاجة ممن يبخر عقله فى «لفافة» أو يحرقه فى «جوزة» أو يغرقه فى «فنجان».

الحشيش أنكى من الخمر !!

وقد كنت أظن - كما يظن غيرى - أن الخمر أشد فتكا من الحشيش، حتى سمعت ابن الصائغ المصرى يقول :

عاطيت من أهوى وقد زارنى
كالبدر وافى ليلة البدر
والنيل قد مد على متنه
شعاعه جسرا من التبر
«خضراء» كافورية رنحت
أعطافه من شدة السكر
يفعل منها درهم فوق ما
تفعل أرطال من الخمر
فراح نشوان بها غافلا
لا يعرف الحلو من المر

ياطيف، ألطف !! ياسلام، سلم !! أسمعت؟ لا يعرف شاربها الحلو من المر !! وتستطيع أنت أن تقول - دون أن يغضب الخليل ابن أحمد - : لا يعرف التمر من الجمر !! لا يعرف الدر من البعر !! لا يعرف الخير من الشر !! فعلمت من شعر هـذا الشاعر الحشاش المجرب : أنه لا شيء أقتل للعقل، ولا أفتك بالحشمة، ولا أذهب بالتصون، ولا أدعى للفجور من الحشيش !! .

الخمر بدل الحشيش :

وأذكر بهذه المناسبة : أنه كان عندنا فى زمن «الاحتلال» المقيت رجل إنجليزى

بوجه أحمر وطربوش أحمر يدعى «رسل باشا» يشغل حكمدارية العاصمة : أى القاهرة حاضرة الإسلام الكبرى وعاصمة العرب ، وعروس إفريقية وزينة الشرق الأوسط ! !

كان هذا الإنجليزى يدعو إلى نشر الخمر بين الحشاشين ، حتى يستبدلوا بالزمردة الخضراء ، العقيقة الحمراء ! ! على نهج من يقول : « بعض الشر أهون من بعض » ، وربما كان الرجل مخلصا فى دعوته ، فالحكيم يقول فى الشر خيار ، والشاعر يقول :

والكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

ولكننى كنت لا أرى هذا دراء ناجعا عملا بالحديث الشريف الذى أخذ به الإمام مالك بن أنس « ما جعل الله شفاء أمتى فيما حرم عليها » .

وكنت من جهة أخرى أخشى أن يكون مريدا من وراء ذلك ترويج « الويسكى الإنجليزى » والله أعلم بالنيات .

الحشيش بدل الخمر :

وفى العهد المملوكى الأول حرمت الحكومة شرب الخمر ، فماذا يفعل المدمنون ؟ لجئوا مع الأسف — إلى بنت الغاب ، عوضا عن بنت الأكواب فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وقد اتخذ بعضهم من المساجد « عرزا » للحشيش ! ! وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

رب ليـــل قطعته ونديمى
شاهدى وهو مسمعى وسميرى

مجلسى مسجد وشربى من خضراء
تزهى حسنا بلون نضير

قال لى صاحبى وقد فاح منها
نشرها مزريا بنشر العبير

أمن المسك قلت ليس من المسك
ولكنها من الكافور

فأمر السلطان بإبطال الحشيشة أيضا :

وقد كتب فى ذلك رئيس الديوان القاضى محى الدين بن عبد الظاهر يقول ... والجماعة التى كانت ترضع ثدى الكاس قد ارتمت بعد ما فطمت ، وإن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نصرت ، وأنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر ، أخرج لها من الحشيش مرعاها بالأمر ، وأنها استراحت من الخمار واستغنت بما تشتريه بدراهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار ، وإن ذلك فشا فى كثير من الناس ، فعرف فى عيونهم ما يعرف من الاحمرار فى الكاس ، وصاروا كأنهم خشب مسندة سكرى ، وإذا مشوا يقدمون لفساد أذهانهم رجلا ويؤخرون أخرى . ونحن نأمر أن تجتث أصولها وتقتلع ، ويؤدب غارسها حتى

بحصد الندامة مما زرع ، وتطهر منها المساجد والجوامع ، ويشهر مستعملها فى المحافل والمجامع ، حتى تقتحمه العيون من هذا الوسن ، وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ، ولا خضراء الدمن .

وهذا النص الأدبى الحكومى يعترف صراحة بأن الحشيش كان يتناول حتى فى بيوت الله التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

ونفهم منه فوق ذلك - أن الناس لجئوا إلى الحشيش حينما حرمت عليهم الخمر ، وأنه كان أرخص منها .

وفى استبدال الحشيش بالخمر يقول ابن الصائغ المصرى :

عاطنى خضراء كافورية
تحسب الخمر لها من جندها

أسكرتنى فوق ما تسكرنا
وربحنا أنفسا من حدها

يقصد بالحد : حد السكر وهو ثمانون جلدة .

ويقول البدر المنجى :

ولما خلونا - والمسرة بيننا -
وقد عز شرب الراح فينا على الشرب

تعوض كل بالحشيش عن الطلا
ومن لم يجد ماء تيمم بالترب

إعدام من يتعاطى الخمر والحشيش :

وفى العهد المملوكى الثانى انتشر الخمر والحشيش انتشارا ذريعا ، وبخاصة بين الجنود الذين هم حصن الدولة وسياج البلاد ، وحماة البيضة ، وذادة العدو ، فأصدر السلطان « الظاهر بيبرس » مرسوما بإحراق الحشيش وإراقة الخمور فى مصر والشام - أعاد الله وحدتهما - ولم يقف عند ذلك فأمر بصلب من يتعاطاهما أو توسيطه بالسيف - قطعه نصفين - فقضى على هذين المنكرين قضاء مبرما ، وإن الله ليزع بالسلطان ، ما لا يزع بالقرآن ، كما قال الخليفة عثمان بن عفان .

كيف سجل الشعر هذا الحادث الخطير ؟ :

وقد انقسم الشعراء إزاء هذا الحادث قسمين كما ينتظر منهم .

قسم أشاد بهذا العمل الصالح من السلطان الصالح ، ورجا منه للشعب الخير الكثير .

من هؤلاء قاضى الإسكندرية ابن المنير الذى يقول :

ليس لإبليس عندنا طمع
غير بلاد الأمير مأواه

تحريمه الخمر والحشيش معا
أفقده ماءه ومرعاه

وناصر الدين بن النقيب الذى يقول :

منع « الظاهر » الحشيش مع الخمر
فولى إبليس من مصر يسعى

قال : مالى وللمقام بأرض
لم أمتع فيها بماء ومرعى

وقسم أوجعه هذا العمل ، فهب يبكى الخمر ويندب الحشيش !! ويشق عليهما الجيوب ، ويلطم الخدود ، وينادى بالويل والثبور ، وعظائم الأمور !!

من هؤلاء « شمس الدين بن دانيال » ولعل آباءه كانوا يهوداً أو نصارى كما يشير اسم أبيه !! فقد كان تفجعه عليهما عظيما ، ونواحه أشبه بنواح الثكالى المتسلبات ! يقول من قصيدة طويلة :

مات يا قوم شيخنا إبليسُ
وخلا منه رَبعه المأنوسُ
هو لولم يكن - كما قلت - مَيْتاً
لم يغيّر لأمره ناموس
أين عيناه والحشائش قد حرقن
بنار تُراع منها المجوس
قلعوها من البساتين إذ ذا
ك صغاراً خضراء وهى عروس
أين عيناه تنظر «المزر»[1] قد أُر
حش منه «الماجور» و«القادوس»
وذوو القصف ذاهلون وقد كا
دت على سيلها تسيل النفوس
أين عيناه تنظر الخمر إذ عُطل
منها راووقها والكئوس
ومواعينُها تكسرن والخمّا
رُ من بعد كسرها محبوس

الحمد لله !!

من زمن بعيد كنت أحث الحكومات الاحتلالية فى العهود البائدة على الاقتداء بأسلافنا فى سن عقوبة الإعدام لتجار الحشيش ، حتى يقضى على هذه الآفة التى عمت وطمت فى هذا الوقت حتى غزت المعاهد والمدارس وأكواخ الفلاحين ودور الصناعة وهددت البلاد بالخراب والدمار !! ولكننى لم أجد أذناً واعية ولا نفساً صاغية !!

وها هى ذى حكومة « ثورتنا البيضاء » فى العهد الناصرى المجيد ، ترتفع بعقوبة الحشيش إلى حد الإعدام فى بعض الحالات ؛ فتسد على إبليس طرائقه الشريرة ، وتفسد على بنته إسرائيل ذرائعها اللئيمة فى توريد الحشيش المسمم لنا ؛ فتحفظ بذلك أجسام الشعب ، وعقول الشعب ، وأخلاق الشعب ، وأموال الشعب !! إنه لا أحد أكثر منى غبطة بهذا العمل العظيم الكريم الصالح ، فالحمد لله والشكر له أنْ وفق ولاة أمورنا إلى ما فيه خيرنا وسعادتنا وقوتنا ورفعتنا !! ونسأله المزيد من فضله آمين .

علي الجندي

---

(١) المزر : شراب يتخذ من الشعير أو القمح

أدبُ الكُديَة

للأستاذ محمد كامل الفقي

الكدية بالضم شدة الدهر ، كالكادية ، والأرض الغليظة، والصفاة العظيمة الشديدة، والشيء الصلب بين الحجارة والطين ، وحفر فأكدى صادفها . وسأله فأكدى وجده مثلها، وأكدى بخل أو قل خيره ، أو قلل عطاءه. وكدى كرضى (١) .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى) : أكدى قطع عطيته وأمسك ، وأصله إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كدية . وهى صلابة كالصخر فيمسك عن الحفر ، ونحوه أجبل الحافر ثم استعير فقيل أجبل الشاعر (٢) .

فالمعنى الذى تدور عليه هـذه المادة هو الحاجة وشدة الحال، ومن ثم سموا الأدب الذى يقوم على الاستجداء والتكفف وبذل شتى الحيل لنيل العرف: أدب كدية ، أوأدبا ساسانيا ، كما سمى التسول بهذه الأساليب تكديا . . وأدب الكدية أخو أدب الصعلكة، والمكدون والصعالكة أشباه ونظائر ، وسنجلو وجه الشبه والفرق بينهما . عندما يحين موضع ذلك من البحث . .

البيئة التى نشأت فيها الكدية أو أدب الكدية :

أدب الكدية وليـد الغبن الاجتماعى ، والظروف التى منحته الحياة ظروف لم تتكافأ فيها الفرص،وتباينت الفوارق فى هذا المجتمع تباينا ملحوظا ، فإن من يدرس الحال السياسية والاجتماعية للأقطار الإسلامية فى العصر العباسى، يجد البذخ والثراء فى جانب ، والفقر والبؤس فى جانب . ليست هناك مقاييس مفهومة توزع عليها الأرزاق ، ولا معايير معلومة ترد إليها أقواتهم ومظاهر حياتهم . فالخلفاء والأمراء وحاشيتهم والمستظلون بهم من العلماء والأدباء والحاشية فى ترف وبلهينة ، ونعيم مقيم ، أما من عداهم من الناس فإنهم فى سغب من العيش وضر موجع .

---

(١) القاموس المحيط .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى، وفى صبح الأعشى سطر ٦ (ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع) . وفى عيون الأثر فى فنون المغازى والسير، لابن سيد الناس بصدد بيان معجزات النبى (ص) (وعرضت الكدية بالخندق من أن يأخذها المعول، فضربها النبى (ص) فصارت كثيبا أهيل) أى رملا سائلا.

ولقد بالغ الخلفاء وأشباههم فى بناء القصور وإنشاء الحدائق حتى شارفوا حد الخيال . وحشدوا ألوان الطعام ، واستكثروا من الجوارى والقيان ، وانتشرت مجالس الخمر حتى وضعت لها القواعد والقوانين ، كالذى فعله كشاجم فى كتابه (أدب النـــديم) . وافتنوا فيما يكتب من الشعر على القنانى والكئوس ، واعتاد الخلفاء والوزراء والأمراء مجالس الشراب ، وبالغوا الإسراف ، فيها .

وكما وضعت قوانين لهذه المجالس وضعت قوانين للظرف والظرفاء ، وألفت فى ذلك الكتب كالموشى للوشاء و (حدود الظرف) له أيضا ، و (مايقدم من الأطعمة ومايؤخر) للرازى ، و (ترتيب أكل الفـــواكه) ، و (آداب الحمام) له أيضاً ، و (الوبنة) لحنين بن إسحق ، و (الهدايا والسنة فيها) لإبراهيم الحربى ، و(النبيذ وشربه فى الولائم) لقسطا بن لوقا .

هذه بعض مظاهر الإسراف والتبذل ، وتلك إشارات هادئة لما انتهى إليه الأمر فى جو الخلافة والإمارة والوزارة والحاشية .

وقد بالغ الفاطميون فى ذلك وغلوا غلوا شديدا ، حتى إذا نفد مال الخلفاء والأمراء كروا على الأغنياء يستصفون أموالهم لينفقوها فى شهواتهم ، ومن ثم أخفى كل ذى يسر يسره وتظاهر الموسرون بالفقر والحاجة ونأى كثير من الناس عن الخلفاء وخاصتهم وظهر فى الأدب العربى شعر يحمد الفقر ويحث على مجانبة السلطان وذوى الشأن ، وغلبت نزعة التصوف على كثير من الناس .

هذا الترف المغدق ، وذلك الإسراف المفرط ، يقابله عند غيرهؤلاء فقر وحرمان وضيق وشقاء ، مما أدى إلى شيوع الحقد والتحاسد ، والكذب والخديعة ، والدس والرشوة .

وأعجب ما فى الأمر أن العلماء كغيرهم من سائر الطبقات ، إذا لم يعيشوا فى كنف خليفة أو فى بلاط حاكم ، مسهم الضر ، وهانوا على الدولة .

فعبد الوهاب البغدادى المالكى الأديب الشاعر المؤلف الفقيه ، يهجر بغداد إذ لم يجد قوت يومه .

و (أبو حيان التوحيدى) العالم الأديب الفيلسوف يضطر فى كثير من الأحيان إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم [1] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٣١ .

و (أبو علي القالي) تدفعه الحاجة إلى أن يبيع كتبه (على الضن بها) فقد باع نسخته من كتاب الجمهرة (وهو أشد ما يكون حرصاً عليها) للشريف الرضي ، وقد وجد الشريف مكتوبا فيها بخط (القالي) :

أنست بها عشرين حولا وبعتها
فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها
ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية
صغـار عليهم تستهل جفوني
فقلت ، ولم أملك سوابق عبرة
مقـالة مكوى الفؤاد حزين
(وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
ودائع من رب بهن ضنين)

فقد كان الافتقار والحاجة دافعاً ملحاً لأبي علي العالم الجليل أن ينزل عن نسخته وهو بها ضنين لقاء ثمن بخس دراهم معدودة .

والزمخشري ، العالم المحقق المفسر صاحب الروائع الخالدة ، حين يعف عن مماثلة السلطان تضيق به وعنه الحياة حتى ليقول :

غني من الآداب لكنني إذا
نظرت فما في الكف غير الأنامل
فياليتني أصبحت مستغنيا ولم
أكن في خوارزم رئيس الأفاضل
ويا ليتني مرض صديق ، ومسخط
عدوي وأني في فهـاهة باقل

وما حق مثلي أن يكون مضيما
وقد عظمت عند الوزير وسائلي

ويقابل هؤلاء من الأدباء والعلماء والفلاسفة الذين لم يتمحضوا لبلاط السلطان وصانوا وجوههم عن الملق والمداهنة فعبست لهم الحياة ، طائفة أخرى مثل هؤلاء ، اتصلوا بالبلاط وذوي الجاه ، فعاشوا في صحاف من ذهب ، ورأينا كثيراً من هؤلاء ، يطلبون نعمة الحياة ونعيمها بالزلفى للخليفة والأمير والوزير فكانت أكثر المؤلفات في هذا العصر منسوبا الجهد في إخراجه والتوفيق إليه إلى الأمير أو الوزير مصدرا باسمهما ، منوها بتشجيعهما للعلم والعلماء .

وكان طبيعيا أن الآداب والفنون لا تجد نماء وصقيا إلا في بلاط الخلفاء والأمراء والوزراء ، وأن كل شاعر يتوفر على الإحسان والتجويد لينال المكافأة ، وأن ذوي الفنون يجيدونها ليأكلوا من يد القادرين على المثوبة ، وقل من الشعراء من كان يغني لنفسه ، فاصطبغ الشعر بلون الاستجداء ، ورأى الشعراء والأدباء أنهم لا يحيون إلا في ظل حاكم أو أمير ، فاتخذوا وسيلتهم في كسب العيش المتسول عن طريق الأدب الشعبي ، وشاع مذهبهم . وكانت لهم موهبة ذات فنون بارعة في الاحتيال على الناس ، وهم كالذين يسمون (الأدباتية) في عصرنا الحاضر ، وما أقدر حيلتهم على ابتذاذ المال بالإقناع وغزو العواطف

وسمي المتكسبون بذلك الساسانيين . أو (بني ساسان) . أو (أهل الكدية) (١) .

من هم الساسانيون ؟

نقل المرحوم الأستاذ (أحمد أمين) في ظهر الإسلام ما قاله (أبو منصور الثعالبي) في اليتيمة من أن (ساسان هذا قد رووا فيه أقوالا مختلفة ؛ فمن قائل: إنه ساسان بن اسفنديار ، كان من حديثه أنه لما حضرت أباه الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته ، وأنف ساسان من ذلك ، واشترى غنما وجعل يرعاها وعيره بأنه راعي الغنم . فقيل ساسان الراعي ، وساسان الكردي ، ثم نسب إليه كل من تكدى فيقال : فلان من بني ساسان .

وقيل: ساسان هذا كان ملكا من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له ، واستولى على ملكه ، فصار رجلا فقيراً يتردد في الأحياء ويستعطي ، وهام على وجهه متكديا فضرب به المثل .

وقيل: كان رجلا فقيراً بصيراً في استعطاء الناس والاحتيال ، فنسبوا إليه . .

ويقول المرحوم الإمام الشيخ (محمد عبده) : إن الساسانيين شراذم دولة بني ساسان التي قضى الإسلام عليها ، وشردوا في كل مكان ، فصارت نسبتهم إلى الساسانيين نسبة ذل وعار ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد (١) .

(١) راجع في ذلك كتاب «ظهر الإسلام» الجزء الأول .

الكدية تقوم على المهارة وسعة الحيلة

لا تظن أن الكدية عمل ساذج يأتيه صاحبه من ذكاء قليل ، وتصرف مرتجل ، إن الكدية تقوم على فن ابتزاز الأموال ، وخلق ألوان من الحيل تنم عن دهاء . ومهارة فائقة ، إلى جانب ما لا يغفله الباحث من خلابة المنطق ، والقدرة على البيان .

وقد تحدث الجاحظ عن أهل الكدية حديثاً شيقا وصف فيه وشتى حيلهم ، وطريفا من نوادرهم .

وقال : (إبراهيم بن محمد البيهقي) في كتابه (المحاسن والمساوىء) في فصل عقده بعنوان محاسن السؤال : (٢)

قال الجاحظ : (سمعت شيخا من المكدين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة ، فسأله الشيخ عن حاله فقال : لعن الله الكدية ولعن أصحابها من صناعة ما أخسها وأقلها ، إنها ، ما علمت ، تخلق الوجه وتضع من الرجال ، وهل رأيت مكديا أفلح ، قال فرأيت الشيخ قد غضب والتفت إليه ، فقال يا هذا أقلل من الكلام فقد أكثرت ، مثلك لا يفلح لأنك محروم ، ولم تستحكم بعد ، وأن للكدية رجالا ، فالك ولهذا الكلام ، ثم التفت فقال: اسمعوا بالله يحيينا كل نبطي قرنان ، وكل

(١) شرح الإمام مقامات البديع .

(٢) الجزء الثاني ص٢١٧ ط مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦م .

حائك صفعان ، وكل ضراط كشحان ، يتكلم سبعا فى ثمان، إذا لم يصب أحدهم شيئا ثاب الصناعة ووقع فيها، أو ما علمت أن الكدية صناعة شريفة، وهى محببة لذيذة ، صاحبها فى نعيم لا ينفد، فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب ،حيثما حل لا يخاف البؤس يسير حيث يشاء ، يأخذ أطايب كل بلدة ، فهو أيام النرسيان والهيرون بالكوفة ، ووقت الشبوط وقصب السكر بالبصرة ، ووقت السرقى والأزاذ والرازقى والرمان المرمر ببغداد ، وأيام التين والجوز الرطب بحلوان ، ووقت اللوز والرطب والسختيان والطبرذد بالجبل ، يأكل طيبات الأرض ، فهو رخى البال حسن الحال ، لا يغتم لأهل ولا مال،ولا دار ولا عقار ، حيثما حل فعلفه طبلى .أما والله لقد رأيتنى وقد دخلت بعض بلدان الجبل . ووقفت فى مسجدها الأعظم وعلى(فوطة) قد ائتزرت بها . وتعممت بحبل من ليف . وبيدى عكاز من خشب الدفلى. وقد اجتمع إلى عالم من الناس كأنى الحجاج ابن يوسف على منبره . وأنا أقول .

يا قوم : رجل من أهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المصيصة ، من أبنـــاء الغزاة ، المرابطين فى سبيل الله ، من أبناء الركاضة وحرسة الإســـلام ، غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة ، سبعاً فى البحر ، وسبعاً فى البر ، وغزوت مع الأرمنى، فقولوا : رحم الله أبا الحسن ، ومع عمر بن عبيدالله، فقولوا رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع البطال ابن الحسين ، والربرداق بن مدرك ، وحمدان ابن أبى قطيفة ، وآخر من غزوت معه يا زمان الخادم ، ودخلت قسطنطينية ، وصليت فى مسجد مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمى فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا أعرفه بنفسى ، أنا ابن الغزيل ابن الركان المصيصى المعروف المشهور ، فى جميع الثغور ، والضارب بالسيف ، والطاعن بالرمح ، سد من أسداد الإسلام ، نازل الملك على باب طرسوس فقتل الذرارى ، وسبى النساء ، وأخذ لنا ابنان . وحملوا إلى بلاد الروم ، فخرجت هاربا على وجهى ، ومعى كتب من التجار ، فقطع على ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فإن رأيتم أن تردوا وكنا من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده . . فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت على الدراهم من كل جانب ، وانصرفت ومعى أكثر من مائة درهم ، فوثب إليه الشاب وقبل رأسه ، وقال : أنت والله معلم الخير، فجزاك الله عن إخوانك خيراً) .

هذا الذى نقله البيهقى عن الجاحظ يرسم صورة واضحة عن حيل المكدين وبراعتهم ، وفنونهم المختلفة فى خداع الناس واستلاب أموالهم ، مع اتكاء على قوة البيان واعتماد على فصاحة اللسان . (يتبع)

محمد كامل الفقى

اللغة بين اللفظ والفكر

للأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر

« نحن لا نفكر إلا بلفظ ، ولا نلفظ إلا بفكر »

شيخ الكتاب « الزيات »

إذا كانت اللغة « أداة تعبير » فإن أصواتها ذات الدلالات المختلفة يجب أن تصور الفكر . وإن اختلاف الألفاظ من حيث الهمس والجهارة - مع مراعاة مخارجها - يقصد به « تصوير » ما فى النفس من معان مارة تحتاج إلى تبيان حقيقتها ، وتبيان الحقيقة مختلف باختلاف القدرات .

واللغة قد تكون « سلوكا » إذا انعدمت أداة التعبير « اللسانية » كإشارة الأخرس التى تختلف قوة ، وضعفا دلالة على ما يدور فى نفسه ، وقد تتخذ درجات صوته تعبيراً عن استفهام، أو تعجب ، أو حزن وسرور ، وتكون اللغة فى انفعالات « مرئية » على الوجه ، وإن تجردت عن اللفظ .

لكن القضية الكبرى فى التعريف « المنطق » من أن الإنسان : « حيوان ناطق » . فالنطق ميزة؛ لأنه يحدد التعبير تحديداً مقربا مايدور فى النفس ، ولا ضير فى أن يكون « غير جامع مانع » لكنه يصور الحقيقة على أية حال مع تفاوت درجات التصوير . و« النطق » المميز يرجع إلى القدرة على « ترطيب » اللسان بالمحادثة التى تراعى حاجات النفس منذ تتفتح العين على الحياة .

ولذلك يرجع النفسيون لغة الطفل إلى أمه ، ويحكمون على بيته بأداة تعبيره ودرجات صوته ، واختيار ألفاظ تخاطبه ؛ فتكوين النطق مرتبط « بتوجيهه » إلى ما يدور بخلجاته ؛ فيساعد على التعبير عنه باختيار اللفظ المناسب لكل خالجة تعتمل فى نفسه . ومن هنا كان قطع الكلمات ، والتصرف فيها ، ومقاربتها إلى طبيعته ، والإكثار من « قاموسه » من الألفاظ التى تبتدىء بالفتح والسكون بعد أن يكون قد كون صورة لفظية عن نداء أمه بالميم ، وأبيه بالباء ! .

ومن عجيب الأمر أن للطفولة « قاموساً » فطرياً يتعلم ألفاظه الكبار حتى يمكنهم الاستجابة إلى متطلباتها ، وقد يجرى على الألسنة الصغيرة كلمات تعود إلى المعانى الكائنة فى النفس - وأذكر أن طفلا كان يردد كلمة « قبح » تعبيراً عن كل شىء يكرهه - بضم القاف وفتح الباء مشددة - لكنه يقلب القاف كافا ، وكنا نعمل على إبعاد ما يثيره

حتى غير الكلمة إلى مايعجبه فكانت «أمح» - بتشديد الميم مفتوحة - ومن عجيب المصادفة أنه ما زال يردد اللفظ الأول عند الاستنكار بعد أن أحال اللفظ إلى «قبيح» وقد بلغ الآن السابعة عشرة .

يتبين من هنا ، أن الفكر مرتبط باللفظ ، و «اللفظ مرتبط بالفكر» وهذا التلازم يتطلب العمل على «المؤاخاة» بينهما ، فلا تقع النفرة ، ويتحقق التماثل «البالغ» غاية القصد من التعبير ، وهذا - في اعتقادي - مدلول «البلاغة» في سذاجتها ! .

وحين تطلب مراعاة مقتضى الحال مع «الإفصاح» عن المراد يكون القصد كون الألفاظ على «قدود المعاني» ، وعلى هذا القياس يصبح التفاوت الأدائي في القرب من الفكر ، أو البعد عنه .

. . .

وثمة اتجاه آخر متصل باختيار الألفاظ فلغتنا من أغنى لغات العالم بالترادف ، والاشتقاق ، والاشتراك ، والتجوز . ولقد كان لهذه الخصائص أثرها في «سعة» الدلالة عما في الفكر ، ومطاوعة لتوضيح المضمون» على صورة جليـــة ، أو مبالغ فيها . تارة بالتشبيه وتارة بالاستعارة ؛ بل إن «الرمز» بالكناية له اتجاه يعبر عن رغبة النفس في مداراة ما تريد الإفصاح عنه بلازم المعنى المراد ، وهي أفعل من التصريح لتحقق صدق التعبير ! . لكن استعمال «الحقيقة» في مرحلة «نشأة الفكر» يدعو إلى اختيار الألفاظ الموحية بهذه الحقيقة حتى يقتدر «الفهم» على استيعاب ما يراد إيصاله بحسب «النمو» الفكري . ومن هنا نشأت «الصعوبة» التي تبدو «مظهرية» في تكوين الحاسة اللغوية عند الصغار ؛ فالموائمة ليست كائنة بين «اللفظ والفكر» ومن ثم كان التباعد الذي أوجد الآلية في تلك اللغة .

على أن هناك حقيقة جديرة بالاعتبار ؛ مؤكدة أثر «المشافهة» الصحيحة في تكوين «النطق السليم» ، ولذلك كان خلفاء بني أمية يرسلون أبناءهم إلى مشارف البادية لتلقى اللغة من الألسنة التي لم «ترتطن» باللحن أو هجنة العجمة توقياً من أن يفسد اللسان ! وللسمع أثر كبير في المحاكاة ؛ لأن لغة التخاطب تفرض «وحدة» النطق ومن هنـا برزت المفارقة بين لغة «اللسان» ، ولغة «الكلم» حين تمازجت العناصر الدخيلة بالعنصر العربي الأصيل ؛ وعلى هذا القياس كانت هناك لغة «شارع» . ولغة «مدرسة» ، ونحن نعمل دائما على أن «يعرب» القائمون على تعليم هذا الجيل الألسنة بمحاولة نقل لغة المدرسة إلى خارجها حتى ترتقي بلغة التخاطب ؛ فنحد الحدة الواضحة في سوقية العامية .

إن دراسة اللغة العربية تحتاج إلى تبديل من حيث « المنهجية » ، وطريقة العرض ، والكتاب المقرب ـ ولقد استخدمت طرق اتجهت إلى «مثالية» من حيث العناية «بالتعبير عن الفكرة جملة » من دون رعاية حق اللفظ وحده مع أنه الأصل الأول ، وبالتعرف على دلالته «الواحدة» يمكن تجميع وحدات لها دلالاتها ، وتتحقق بها قاعدة : «التفكير باللفظ ، واللفظ بتفكير » التى صدرنا بها هذا المقال .

إن هذه « المثالية » ـ فى التعبير عن الفكر جملة ـ أوجدت حفظ كلمات وأضاعت « تصور » كلمة ، ومن ثم بطل التطبيق الذى هو صورة التصديق فرع التصور ! .

إن « الأبجدية » وحدها لا تكفى مجردة ، والكلمات لا تصلح محفوظة مجمعة . لكن الأمر يتطلب دراسة طبيعة « الطفولة » ، وحاجاتها واتجاهات « اللسان » فى مراحل النمو المختلفة ، ثم معالجة المنهج على أساس الربط بين حاجة الطفل إلى التعبير باختيار ألفاظ « معينة » تحيا معه ، وتعايش وجوده ، وتنبض بحياته ! .

إن لغتنا لا يصح أن تكون صورة «ممسوخة» للغة أخرى لها طرقها بل لابد من « التعرف » لنوائم بين ما عليه لغتنا من أصالة وبين ما عليه العالم من تطورات ، وقد قدرت هذه اللغة على حمل الحضارة إلى أوربة فى طواعية لا مثيل لها ، فكيف ندعى «جفاف» لغتنا فى طريقة تعلم أبجديتها مع أن ملاءمتها لكل لغة تقدرنا على إعداد أبناء الجيل إعداداً يباعدهم بين « الرطانة » التى تؤذى أسماعنا حتى بدا التناقض العجيب بين « الكتابة السليمة » ، و « النطق الملحون » ! !

لسنا ندرى إلى أى منطق يحال الكاتب الذى ينشىء ثم يخطىء فى قراءة ما أنشأ ؟ ! .

لكننا نحيل ذلك إلى « رداءة » التكوين اللغوى ، فهو قد حفظ تعابير ، واستظهر كلمات من دون أن يتعرف مدى « حياتها » مع نظائرها فى العبارات التى يكتبها أو أنه بمعنى أوضح قد تعلم اللغة على اعتبار أنها ألفاظ فرده ، أو قواعد مجردة لا تتصل بالعقل ، ولا بالنفس ، ولا بالحياة ! .

ولقد أشار أستاذنا « الزيات » فى مقولته إلى أن العقل يربط اللفظ بالفكر والنفس فى ربطه بالشعور حتى يكون التأثر ببدائع الأساليب ، وروائع التصاوير .

إن هذه الاتجاهات الثلاثة فى الربط الوثيق مؤدية إلى ما يهدف إليه الراغبون فى إصلاح الحال ، أما « أثر الذوق فى اللغة » فله مقال آخر إن شاء الله ؟ .

أحمد عبد اللطيف بدر
مفتش اللغة العربية ببور سعيد

ما يقال عن الإسلام

المسيح في القرآن

للأستاذ الدكتور احمد فؤاد الاهوانى

Jesus in the Quran. By Geoffrey Parrinder
London, 1965

الاتجاه المعاصر نحو التقريب بين الأديان وإجراء البحوث فيما يسمى فى الوقت الحاضر بالدين المقارن ، وهذه موجة تسود الغرب فى أمريكا وأوربا ، يرجع سببها إلى أمور مختلفة نذكر منها : شيوع الإلحاد فى القرن التاسع عشر وفى هذا القرن مما دفع المتدينين إلى ضم صفوفهم لمواجهة تيار الكفر ، ومنها ذيوع المعرفة مع انتشار التعليم والثقافة وتيسير وسائل الإعلام من إذاعة وتليفزيون وسينما ومواصلات سريعة يسرت الاتصال بين الشعوب ، فلم تعد الحقائق خافية عن الأعين حتى يتهم المتدينون بعضهم بعضا بالكفر ، ومنها أن عقدة المسيحيين من المسلمين ، والتى نشأت فى العصر الوسيط وأدت إلى الحروب الصليبية قد انحلت وشرع المفكرون ينظرون إلى الإسلام نظرة إخاء لا عداء ، ولم تعد اتهامات المستشرقين المغرضة تلك التى كانت بوقا يمهد للاستعمار تجوز على أحد ، ولذلك عدل المستشرقون من موقفهم وخففوا من غلوائهم ، وأخذوا يبحثون عن الحقيقة التى تدور حول الإسلام ، خالصة من كل شائبة ، خالية من الهوى .

ومن أمثلة هذه البحوث المقارنة الناظرة إلى الإسلام بعين موضوعية منصفة ، وفى الوقت نفسه علمية ، هذا البحث الطيب الذى كتبه الاستاذ : (جوفرى بارندر) بعنوان « المسيح فى القرآن » ، الصادر بلندن سنة ١٩٦٥ ، وصاحبه مدرس الأديان المقارنة بجامعة لندن ، ويبدو أنه يعرف اللغة العربية كما يعرف كثيرا من اللغات السامية ، ولما كان كتابه مؤلفا باللغة الإنجليزية فإن الآيات القرآنية التى اعتمد عليها فى بحثه مترجمة كذلك إلى الإنجليزية ، وهذه أول ملاحظة نسجلها على الكتاب ، لأن القرآن لا يترجم ، فقد أنزل بلسان عربى مبين ، وحين اتهم الكفار النبى عليه الصلاة والسلام بأن قرآنه مستمد من الإسرائيليات أو النصرانيات ، نزل الوحى بأن اللسان الذى ينطقون به أعجمى ، أما هذا فلسان عربى مبين .

أدرك المؤلف هذه الحقيقة عن القرآن ، ولذلك اضطرب فى الأخذ عن المترجمين ،

فهو يؤثر مرة ترجمة بل "Bell" ، ومرة أخرى ترجمة أربرى "Arberry" ، ومرة ثالثة لا تعجبه أى ترجمة فيضع اللفظة القرآنية كما هى بالعربية .

وقد اطلع المؤلف على أشهر التفاسير القديمة وبخاصة البيضاوى ، كما اطلع على مؤلفات الدكتور كامل حسين فى كتابه: « قرية ظالمة » ، وعبد الحميد جودة السحار فى كتابه : « المسيح بن مريم » ، وغيرهما من المصريين ، فضلا عن مؤلفات كثير من المسلمين المعاصرين فى الهند والباكستان .

المنهج العام الذى اتبعه المؤلف يبدأ بالرجوع إلى القرآن ، ثم إلى التفاسير العربية كالبيضاوى والرازى والزمخشرى ، وينتقل من ذلك إلى الموازنة بين ما جاء فى القرآن والأناجيل ، وقد رتب بحثه على سبعة عشر فصلا تدور حول خمسة أمور: الأول: أسماء عيسى الواردة فى القرآن، والثانى: زكريا ويحيى ومريم والبشارة، والثالث: من ميلاد المسيح إلى موته، والرابع : العقائد المسيحية وبخاصة أنه ابن الله والتثليث، والخامس: عن الإنجيل والنصارى .

٢ — أسماء المسيح الواردة فى القرآن هى: عيسى : بن مريم ، المسيح ، العبد ، النبى ، الرسول ، كلمة الله ، روح ، آية ، رحمة ، وقد تتبع المؤلف هذه الأسماء فى مواطنها من السور التى وردت فيها ، ودون إحصاء دقيقا بالآيات القرآنية .

هذا البحث الأكاديمى يجانب الروح القرآنية ، لأن القرآن لا يتبع منهجا تحليليا يشرح فيه الموضوع ، ويقطع أوصاله ، ولكنه يسلك منهجا تركيبياً يصور الموضوع على نحو كلى تصويرا يلائم المعرفة التى يشتاقها الإنسان لبلوغ الحقيقة. وموضوع عيسى عليه الصلاة والسلام جاء فى القرآن لا لذاته، بل للدلالة: على أن عيسى حلقة فى سلسلة النبوات والرسل. لذلك جاء ذكره على الأغلب عقب إبراهيم وموسى وغيرهما . ومن جهة أخرى: للدلالة على قدرة الله تعالى على الخلق من عدم . ومن جهة ثالثة : على تنزيه الله عن الشريك والولد ، والإقرار بالوحدانية المطلقة ، وإثبات البشرية للمسيح .

إن عرض قصة المسيح سواء فى سورة آل عمران أم فى سورة مريم يحقق الأغراض الثلاثة التى ذكرناها ، فسورة مريم نظمت فى صياغتها البلاغة بطريقة فريدة رائعة ، مع الترفع عن الإسفاف ، والسمو إلى أعظم الآفاق العلوية . لهذا لا يملك المؤلف إلا أن يردد فى أكثر من موضع من كتابه أن : « عيسى يرد ذكره دائما فى القرآن مقرونا بالاحترام ، ولا نجد أى أثر لنقد . ولا عجب فى ذلك فإنه مسيح الله» .

ومع ذلك فلا بأس بمنهج المؤلف ما دام يروقه ، ولكن لنا اعتراضات أساسية منهجية على ترتيب هذه الفصول الخاصة

بالأسماء ووضع عناوينها . فهو يبتدئ في الفصل الثاني بالحديث عن « عيسى » أول أسماء المسيح . ويسمى الفصل الثالث « ابن مريم » ، وكتب العنوان بالعربية بحروف لاتينية ، كما فعل في « عيسى » ، وإذا بنا في الفصل الرابع نجـــد هذا العنوان : (أسماء المسيح Names of Jesus تكلم فيه عن : المسيح ـ العبد ـ النبي ـ الرسول ـ الكلمة ـ الروح . ثم يعقب في آخر هذا هذا الفصل بعنوان فرعي هو ألقاب أخرى للمسيح ther titls وهي : آية ـ مثل ـ شاهد ـ رحمة ـ وجيه ـ من المقربين ـ مبارك .

ومن الخطأ في اللغة العربية الخلط بين الاسم والصفة والنعت واللقب والكنية . ذلك أن اسم المسيح في القرآن هو « عيسى » لا غير ، وكل ما سوى ذلك صفات أو نعوت أو ألقاب له . وكيف لعمري يكون « عبد » اسما للمسيح ، وكلنا عبيد الله . ومحمد عبد الله ، كذلك جاء في القرآن عن سليمان « نعم العبد إنه أواب » ، فالعبد صفة شائعة المقصود منها أن الإنسان عبد الله ، وفي هذا يقول عيسى في سورة مريم : « إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا » .

من المفيد ولاريب رد لفظة عيسى إلى أصلها السرياني ، ثم رد السرياني إلى العبري ، فهي في السريانية يشوع ، وفي العبرية يشواه ، كما أن موسى في العربية هو موشى في العبرية ؛ وهذا نموذج من الاستطراد في البحث إلى الأصول اللغوية والتاريخية والمقارنة بين اللهجات واللغات والعقائد مما يشيع في كل باب من الكتاب .

أما « ابن مريم » ففي رأينا أنه ليس اسماً لعيسى ، بل نسبته إلى أمه دون أبيه . ولذلك جاءت هذه النسبة مقرونة في الأغلب بالاسم عيسى ، ولم ترد وحدها إلا في موطنين ؛ أحدهما في سورة المؤمنون (٥٠) : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية ... » وفي الزخرف (٥٧) : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ... » ؛ وقد فطن المؤلف (ص٢٣) إلى أن القول بأن اسم أبيه يوسف النجار الذي يذكر في بعض الأناجيل ، ليس له ذكر البتة في القرآن . وهذا الإغفال مقصود ، لأن المسيح حسب الرواية القرآنية « كلمة » مثله عند الله مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . قالت مريم : « أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر » ؛ وذهب المفسرون بسورة (المؤمنون) إلى أن قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » إلى أن الآية فيهما واحدة وهي الولادة بغير رجل ، ولذلك لم يقل « آيتين » ؛ فهذا معنى أن المسيح « آية » ، ولو كان من أب وأم ما كان

اية للناس ؛ وروى فى أسباب نزول آية الزخرف ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : ليس أحد يعبد من دون الله وفيه خير ؛ فقالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا صالحا وقد عبد من دون الله ؛ فأنزل الله : « ولما ضرب ابن مريم مثلا .. » الآية ؛ فابن مريم فى هذا الموضع تأكيد لمولده من مريم ، وأنه عبد من عباد الله .

قال المؤلف : إن ابن مريم اسم كعيسى تماما ، وأن المألوف فى الشعوب السامية أن يسمى الشخص بأبيه ، وهناك بعض الأحوال يسمى فيها الشخص باسم أمه مثل ابن عائشة . ونحن نقول : إن النسبة إلى الأب أو الأم ليست اسما ، كل ما فى الأمر أن بعض الناس قد يشتهر بهذه النسبة للتخفيف ، ويغفل ذكر الاسم .

• • •

٣ — كنا نود أن يبرأ كتاب الأستاذ جوفر بارندر من هذه المطاعن الصريحة أو الخفية ، والتى درج المستشرقون أن يشككوا بها فى القرآن . فقد ورد فى صفحة ٩٦ بصدد الحديث عن أقوال المسيح ، وما جاء عنه من أنه بشر بنبي يأتى بعده اسمه « أحمد » فى سورة الصف (٦) : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » .

قال المؤلف بعد أن أورد ترجمة الآية السابقة ما نصه : هذا آخر قول وأكثره أهمية يضعه القرآن على لسان عيسى . ولكن هناك رواية أخرى يقدمها أحد كتبة الرسول وهو « أبى بن كعب » ، ليس فيها اسم « أحمد » ، غير أن الرواية الأولى هى الرواية الرسمية ، وقد فسرت عادة بأن المقصود بأحمد هو محمد الذى بشر عيسى بنبوته » .

ولسنا نعرف أن ثمة روايات مختلفة للقرآن :

إنه قرآن واحد ، كتاب لا ريب فيه ، كتب فى حياة الرسول ، وجمعه أبو بكر جمعاً أول ، وأشرف عثمان بن عفان على كتابة أربعة مصاحف وزعها على الأمصار حتى لا يختلف المسلمون فى قرآنهم ، كما اختلف اليهود فى توراتهم والنصارى فى إنجيلهم ، ولا يزال القرآن منذ ذلك الحين حتى اليوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد باءت سائر محاولات المستشرقين للتشكيك فيه بالفشل . وما كان يجدر بالمؤلف وهو خبير بالإسلاميات أن يسمح فى كتابه بمثل هذه المفتريات التى لا سند لها ، ما دام يعرف أن القرآن المتداول بين أيدينا اليوم هو الصحيح ، وقد أورد فى صفحة ١٤٧ كلاما

عن جمع القرآن يخلو من الدقة التي تعودناها في صفحات الكتاب الأخرى . يقول ما نصه : « ويعتقد المسلمون أيضاً أن محمداً كان أمياً ، ولذلك فإن القرآن المكتوب قد سجله أتباعه إذ جمع كتبة الوحي كزيد بن ثابت الآيات المكتوبة من الرقاع والعسب وصدور الرجال » ، والصواب أن الذي أمر بالجمع عثمان ، وأن الصحف كانت موجودة عند حفصة منذ موت النبي وخلافة أبي بكر وعمر ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يأمر كاتب الوحي كلما نزلت عليه آية أن يضعها بعد آية كذا ، في سورة كذا .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للإنجيل وللكتاب المقدس . وفي الوقت الذي نزل فيه القرآن كانت التوراة والإنجيل - أو الأناجيل - تذهب إلى أن عزيرا ابن الله، وأن عيسى ابن الله ، وهذه مقالة تتنافى بتاتاً مع الوحدانية ، والإنجيل كما يقرر القرآن يعد محرفا ، ففي آل عمران ٧٩ : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله .. » ، قيل : إن هذه الآية نزلت لما قال نصارى نجران للنبي: إن عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً .

يقول المؤلف صفحة ١٤٦ ما فحواه : إن المتأخرين من مفكري الإسلام تحدثوا عن « تحريف » اليهود والنصارى للكتب المقدسة ، ثم أورد آراءهم المختلفة ، فالبيروني مثلا يصرح بأن اليهود والنصارى قد بدلوا فعلا نص الكتاب المقدس ، ولكن غيره كالطبري وابن خلدون وغيرهما يقولون: إنهم أخطأوا في تأويل ألفاظ الكتاب المقدس ، وقيل : إن « التحريف » يعني تبديل طبيعة الشيء الأصلية ، ولكن أحداً من البشر لا يستطيع تحريف كلام الله ؛ ولذلك فإن المسيحيين حين يحرفون إنما يخطئون في تأويل كلام الله ، وقد يفعل المسلمون ذلك بقرآنهم ، واليهود بتوراتهم ... .

ومن الواضح أن المؤلف نقل التحريف من تغيير النص إلى مجرد تأويله ، وليس هذا المقصود ، لأن التحريف تغيير وتبديل ، لا تفسير وتأويل ، ففي سورة النساء : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » أي يحرفون الكلم الذي أنزله الله في التوراة، فالتحريف تغيير نص كلام الله .

ومن الواضح أن نص القرآن لفظاً وترتيباً وترتيلا وتلاوة ، بل ورسماً - أي الرسم العثماني - لم يحرف ، وهذا من جملة الأسباب التي نرفض من أجلها ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ، لأنه كلام الله أنزل بهذا اللسان ، وخشية التحريف ، أما التأويل فليس بمستنكر ، لأنه شيء آخر خلاف التحريف ،

أما التوراة وكذلك الإنجيل فإن القرآن يقرر تحريفهما فى بعض أجزائهما ، وبخاصة فيما يختص ببنوة عزير وعيسى لله .

يعترف المؤلف بالأناجيل الأربعة المقررة منذ القرن الرابع الميلادى : متى ومرقص ولوقا ويوحنا ثم يتابع الكنيسة فى رفضها لسائر الأناجيل الأخرى ، واعتبارها منتحلة غير صحيحة ، ولا شك أن نصارى شبه الجزيرة فى الجاهلية كانوا يتداولون إنجيلا خلاف هذه الأربعة ، بل لقد ظهر أخيراً إنجيل برنابا ، يبشر فيه المسيح بنبى يأتى من بعده اسمه محمد ، مما يؤيد ما جاء فى القرآن ، غير أن الآية فى سورة الصف تسمى النبى المرتقب « أحمد » وقد حاول بعض المستشرقين تأويل « أحمد » بأنها صفة وليست اسما ، ولكن الأساليب العربية لا تحتمل مثل هذا التأويل .

صفوة القول : إذا سلمنا بأن عيسى كان حلقة فى سلسلة النبوات ، وأن محمداً كما جاء فى القرآن خاتم النبيين ، فلا جرم يبشر عيسى بمن يأتى بعده ، كما جاء مصدقا بمن جاء قبله ، وهذه هى الحقيقة القرآنية التى أكدها الله فى أكثر من آية ، والقرآن كلام الله ، كتاب لا ريب فيه أنزل بلسان عربى مبين ، وحياً على محمد النبى الأمى ، الذى كلف بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ؟

أحمد فؤاد الأهوانى

قول الحق الذى فيه يمترون

« وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب .

ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد .

إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .



بحوث فى تفسير القرآن
«سورة المدثر»

للأستاذ مصطفى عبد الواحد

مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ جمال الدين عياد وهذا هو العمل الثانى للمؤلف فى مجال دراسات تفسير القرآن ، وكان الأول هو تفسير سورة العلق الذى صدر فى عام ١٩٦١ .

وهذه البحوث تقوم على منهج أشار إليه المؤلف فى مقدمة سورة العلق ، وهو يتلخص فى التزام قواعد البحث العلمى إذ لا فرق بين العلم والدين فى نطاق البحث ، ومن هذه القواعد :

١ — قراءة كل ما يتصل بالآيات من أبحاث ، قديمة وحديثة عربية وغير عربية .

٢ — دراسة آراء المفسرين قديما وحديثا والنظر فى الآراء والوجوه المختلفة .

٣ — ويأتى بعد ذلك الترجيح وتمحيص الروايات ، فمن « واجب المفسر فى العصر الحديث أن يكشف عن الآراء الضعيفة مبينا عوامل الضعف والفساد فيها دون أن يكتفى بكلمة التضعيف » .

وهذا التفسير كما يرى المؤلف للخاصة لا للعامة بحيث يصلح مرجعا للباحثين الدارسين .

وقد أثار تفسير المؤلف لسورة العلق جدلا حول ما رآه الكثيرون إقحاماً للقرآن فى تفاصيل علمية لا يقصد إليها وليست موضوعه فهو كتاب هداية وإيمان لا يهدف إلى معالجة مسائل العلم أو السبق فيها .

وتأتى هذه الحلقة الثانية فى تفسير سورة المدثر فنراها أقوم سبيلا وأعدل منهجا ، فليس فيها شىء من إقحام القرآن فى بحوث أو نظريات تثير الجدل ، وتكاد تكون تلخيصا لآراء المفسرين الاقدمين ومحاولة لاختيار الرأى من بينها .

وقد سار المؤلف على تقسيم سورة المدثر إلى أجزاء يعالج كل منها موضوعا واحداً. فالفصل الأول: بعثة محمد رسولا من الآية الأولى إلى الآية السابعة. والفصل الثانى: إنذار الكافرين من الآية الثامنة إلى الآية العاشرة. والفصل الثالث: عناد الوليد من الآية الحادية عشرة إلى الآية السادسة والعشرين. والفصل الرابع: سقر اللواحة من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الحادية والثلاثين. والفصل الخامس: المجرمون فى سقر من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الثامنة والأربعين.

والفصل الأخير: آيات القرآن تذكرة للناس.

وهذا التقسيم مبالغة فى الترتيب، فالسورة كلها وحدة واحدة، تعالج موضوع رسالة الرسول صلوات الله عليه فى مبدأ أمرها وتواجه الكافرين المكذبين بما يتهددهم من عقاب.

وينهج المؤلف نهج الأقدمين فى التقديم للآيات بذكر سبب النزول، ثم يعالج الألفاظ اللغوية ويجعل ذلك وسيلة لبيان المراد من الآيات، ثم يعرض للقراءات ودلالاتها.

وفى خلال ذلك نجد فيه بحوثا موجزة ومسائل من العلم القديم تمثل الثقافة العربية والإسلامية المعهودة فى التفاسير.

١ — ففيه نقول نحويه، مثل حذف المفعولين فى قوله سبحانه: «قم فأنذر» ومعانى الفاء فى قوله: «وربك فكبر» وإعراب قوله: «نذيرا للبشر» وغيرذلك.

٢ — وفيه عرض لمسائل من علم الكلام لم يكن من الضرورى لمن تعرض لتفسير القرآن الإشارة إليها فلها مواضعها من البحث والجدل، مثل عرض الخلاف حول الهداية والضلال فى قوله سبحانه «كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء» وينتصر المؤلف لرأى أهل السنة وهو أن العبد مختار، وأن اختياره لا ينفذ بغير مشيئة الله، وهى نفس النتيجة التى ارتضتها الأمة الإسلامية من قرون كثيرة فلم يكن لإثارة هذا الجدل مناسبة فى التفسير. ومثل عرضه لتعذيب الكفار بالفروع وأدلته موافقا فى ذلك رأى ابن حزم.

ومثل مناقشته بتوسع لموضوع الشفاعة والخلاف فيه بين أهل السنة والمعتزلة وحجج كل منهم فى تفسيره لقوله سبحانه: «فما تنفعهم شفاعة الشافعين».

وفى رأيى أن الاستطراد فى تفسير القرآن بمعالجة قضايا علم الكلام توسع لا مقتضى له، فالقرآن لا يفسر بالآراء والخلافات،

ولا يتلاءم مع هذا الجدل العقلي الفلسفي الذي حدث في البيئة الإسلامية بعد اتصال الفكر العربي بالثقافات المترجمة ، فللقرآن دلالته وله اتجاهه في الهواية والبيان .

٣ — كما نجد فيه لمحات فقهية استطرادية ، كبيانه لتقسيم الفقهاء للطهارة وأحكامها ، والأصل في ذلك من الكتاب والسنة في تفسيره لقوله سبحانه : « وثيابك فطهر » .

وهكذا نجد أن هذا التفسير يتخذ من الآيات القرآنية مناسبة لذكر ما يتصل بمعناها من موضوعات تستقل ببيانها علوم أخر ، كعلم الكلام والفقه والنحو .

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى أن الجانب الذاتي للمؤلف لا يظهر في هذا التفسير فهو مرتبط بالمنهج القديم ارتباطا كاملا بمعنى النظر في الآراء واختيار أصحها عن طريق المناقشة بالوسائل القديمة أيضا من النحو والرواية والنظر في الأسانيد .

فليس هناك تذوق جديد الآيات أو نظر إليها من خلال الفكر الطليق ولا عناية بما يمكن لعصرنا أن يهتدى إليه فيها من سنن اجتماعية وحقائق إنسانية .

فالآيات التي تعرض لموقف الوليد بن المغيرة من الإسلام كانت تتسع لكثير من النظر الذي يستخرج منها حقائق اجتماعية ومواقف تتشابه في كل عصر ومكان . .

فقوله سبحانه : « ثم يطمع أن أزيد » تكشف عن خصيصة من خصائص الطغيان وترسم صورة نفسية للمكذبين المستكبرين الذين لا يشبعون من المال ولا توقظهم النعمة ولا تفتح عيونهم على اليد الممدودة إليهم بالعطاء ، فلا يشكرون ولا يؤمنون حتى تأتيهم القارعة ، هذه الآية لا يعلق عليها المؤلف إلا بقوله : « والذى غمره الله بالنعم لخلقه من العدم وآتاه المال ممدودا والبنين شهودا ومهدله تمهيدا خليق بأن يشكر ويقنع .. لكنه لا يشكر ولا يقنع وإنما يطمع أن أزيد وهو سلوك عجيب مخالف لمنطق الأمور .[1] ثم يعدل سريعا إلى بيان الآراء في الزيادة التي طمع فيها الوليد .

فقد كنا نرجو من المؤلف أن يكشف في تفسيره عن مواصفات عصره وطريقته في الفهم والتذوق في حدود الدلائل اللغوية والأدلة الدينية ، فنحن بحاجة إلى كشف منابع الهواية في القرآن على مستوى التخصص أكثر من حاجتنا إلى اجترار المناقشات السالفة والنظرات القاصرة على الإعراب الواقفة عند حدود الألفاظ .

ولكن الأستاذ جمال الدين عياد — الذى درس التفسير في الجامعة الأمريكية — ينظر إلى هذا المنهج القديم معجبا أشد الإعجاب لأنه ميدان جديد عليه ، وهو منهج مفيد بلا شك

(١) ص ٨١

فى مجال الدراسات اللغوية والدينية ، لكنه لا يفيد فى الوصول إلى الغاية الجوهرية من تفسير القرآن والاهتداء إلى حقائقه والانتفاع بها فى الحياة .

مرشد المزكى

تأليف داود صبرى سليمان
مطبعة العانى ببغداد ٨٤ صفحة

هذه رسالة موجزة أراد بها المؤلف تعريف المسلمين بتلك الفريضة المحكمة من فرائض الإسلام ، فريضة الزكاة والتى شاع إهمالها فى بيئات كثيرة من المجتمع الإسلامى منذ تخلت الحكومات عن تطبيق النظم الإسلامية .

وهى تسير على النهج الفقهى المألوف المقرون بالأدلة الشرعية مع الإشارة إلى جانب حكمة التشريع والترغيب والترهيب .

فنى القسم الأول يتناول أحكام الزكاة من حيث فرضيتها والحكمة منها وما يصيب المسلم من الخير بأدائها وما يحيق به من السخط والعقاب حين يهملها وعلى من تجب الزكاة .

وفى القسم الثانى يعرض للأنواع التى تجب فيها الزكاة والمقادير التى فرضت فى كل منها .

وفى القسم الثالث يبين مصارف الزكاة والأصناف والذين لا يجوز إعطاؤهم منها ويختم الرسالة بالترغيب فى الصدقات وآدابها ، وعز التعفف وذل السؤال ويتبع المؤلف فى هذه الرسالة منهج الإيجاز وتلخيص الآراء الفقهية والتعويل على الراجح منها .

مصطفى عبد الواحد

يغتفر فى المخاطبة ما لا يغتفر فى المكاتبة

الكتاب يتصفح أكثر مما يتصفح الخطاب ؛ لأن الكلام متخير ، والمخاطب مضطر ومن يرد عليه كتابك فليس يعلم أأسرعت فيه أم أبطأت ؟ وإنما ينظر أأخطأت أم أصبت ؟ فإبطاؤك غير قادح فى إصابتك ، كما أن إسراعك غير مغط على غلطك .

زهر الآداب ١٢٣

أنباء وآراء

● أصدر قسم المصاحف وفحص الكتب التابع لمجمع البحوث الإسلامية بيانا بنشاطه عن عام ١٩٦٦ جاء فيه :

إن القسم صدّر ١٩٢٨١٨ مصحفا لسبع وأربعين دولة هي : السعودية والسودان ، والأردن والمغرب والكويت والجزائر وليبيا ولبنان واليمن والعراق وقطر والهند وجزيرة كومورو وأوغندا ونيجريا وتنزانيا وسيراليون وليبريا وغانا . والكاميرون وأمريكا وألمانيا وأندونسيا والدنمارك ويوغسلافيا واليونان وانجلترا وسوريا وأفغانستان وكندا وفولتا العليا وعدن والصومال وتايلاند وغرب إفريقيا وجنوب إفريقيا وسيلان والحبشة وفرنسا وتركيا وترنداد وماليزيا والكونغو والسنغال وكينيا والباكستان وأسبانيا .

وبلغ مجموع الأجزاء المفردة من القرآن الكريم التى صدرها القسم ٢٤٧٣٦٠ جزءا وزعت على ثمانية أقطار آسيوية وإفريقية وأمريكية هى : السعودية والسودان والأردن والمغرب وليبيا وسيراليون وكندا وعدن .

وبلغ عدد الكتب الدينية والثقافية التى صدرها القسم ١٥٥٠٣ كتابا انتفعت بها إحدى وثلاثون دولة هى : السعودية والسودان والأردن والمغرب والجزائر ولبنان واليمن والعراق وقطر والهند وجزر كومورو وأوغندا ونيجيريا وسيراليون وغانا واستراليا وألمانيا وأندونسيا وأمريكا وانجلترا والدولة القعيطية وكندا والصومال وسيلان وترنداد وماليزيا والفلبين وغزة ودبى والباكستان .

كذلك صدر القسم ٦١٥٠٠ لوحة قرآنية إلى السعودية ، ٢٤٠٠٠ لوحة إلى السودان ، ومصحفين مرتلين لنيجيريا ، ومصحفا مرتلا للباكستان .

وقد أتم القسم فحص خمسة عشر نوعا من حجوم المصاحف وأصدر بها قرار تداول من مجمع البحوث الإسلامية فيما بين

١٩/١/١٩٦٦ ، ٢١/١٢/١٩٦٦ بأرقام مسلسلة تبدأ برقم ٧٢ وتنتهى برقم ٨٦ .

كذلك أصدر القسم بيانا عن المصاحف المصادرة خـــلال العام نفسه ، منها طبعة شركة تاج الهندية التى سبق للمجلة أن وضعت بيانا كاملا بالأخطاء التى وردت فى طبعتها ومنها طبعة تمت بأديس أبابا ، وثالثة فى ألمانيا وذلك للسبب نفسه .

وقد قدم للفحص خلال السنة الماضية خمسة عشر موضوعا بين : « سيناريو » ومجلة وكتاب أجـــيز منها ثلاثة عشر موضوعا .

* * *

● زادت بعثات مجمـــع البحوث الإسلامية بالأزهر زيادة ملحوظة هذا العام ، وقد أدى المجمع واجبه نحو المعاهد العلمية التى يشرف عليها بالخارج فزودها بحاجتها من المدرسين وهذه المعاهد هى :

معهد غزة الدينى ، ومعهد القويرى بليبيا ، ومعهدا مقديشيو وبرعو بالصومال ، ومعهدا صنعاء وتعز باليمن ، ومعهد أسمرة بأريتريا والمعهد الدينى بالقعيطية ، ومعهد دبى الدينى ويشرف المجمع من الناحية الفنية على :

معهد الدراسات الإسلامية بالصومال ، ومعهد ألورن بنيجيريا ، وجميع المعاهد الدينية بالجزائر ، ومعهد الكويت .

* * *

● لبى مجمع البحوث الإسلامية طلبات الهيئات والجمعيات الإسلامية فى كل من : الجزائر والصومال وإريتريا والفلبين ، ونيجيريا . وسيراليون ، وأندونسيا ، ودبى ، وليبيا واليمن فأرسل إليها الكتب الدراسية والمصاحف فى حـــدود خمسمائة نسخة لكل منها .

* * *

● أصبح مقررا اختصار مدة الدراسة بالمعاهد الثانوية الأزهرية إلى أربع سنوات بدلا من خمس ، انتهت اللجنة المشكلة لتعديل برامج الدراسة فى المعاهد الأزهرية إلى هذا القرار .

* * *

● تسلمت كاية السيدات المسلمات بسيلان ثلاثة آلاف كتاب هدية من مجمع البحوث الإسلامية .

* * *

● صرح السيد غالب وزير التربية والتعليم فى الحكومة اليمنية بأنه تقرر إنشاء أول جامعة فى تاريخ اليمن باسم : جامعة سبأ ستبدأ بخمس كليات فى مقدمتها : الهندسة ، والزراعة ، والطب ، وستوزع الكليات على المدن اليمنية وقال : إن تمويل إنشاء الجامعة سيعتمد إلى ـ حد كبير ـ على مساهمة أفراد الشعب اليمنى .

* * *

● جاء من الهند أن رئيس الأوقاف الإسلامية فى الهند رغبته فى وقف الأراضى والعقارات اللازمة لتمويل معهد دينى ومركز إسلامى يتبع الأزهر الشريف فى (كلكتا) يتولى التدريس فيه علماء أزهريون .

* * *

● أصدر مكتب استعلامات الهند كتابه : (الهند ١٩٦٦) وفى الكتاب فصل كامل عن « الدراسات العربية فى الهند» وآخر عن « المسلمون فى الهند اليوم » ويخطط الفصل الأول لتاريخ الثقافة العربية بالهند والمعاهد العلمية التى تحتضنها حكومتها ، وفى هذا الفصل تنوية بنشاط دائرة المعارف العثمانية ،وما أدته من خدمات للثقافة الإسلامية والعربية ؛ وتشمل الكتب الهامة التى أصدرتها هذه الدائرة : (كتاب الهند) للبيرونى الذى يتناول التاريخ والثقافة الهنديين ، و « صور الكواكب » للصوفى ، و... « الأسطرلاب» فى الفلك و « الحاوى الكبير » للرازى فى الطب ، وقانون المسعودى للبيرونى فى الرياضيات وكتاب « الأنواء » لابن قتيبة وغير ذلك .

على الخطيب

such as the delight of 'succumbing to temptation; and those painful for the present but of future benefit such as curbing souls' desires. Then he puts under sixteen headings. Then in conclusion of his tract he throws light on the reasons that turn people from thanksgiving. They are ignorance, heedlessness, succumbing to passion, and Satan's conequest of men.

Allah has connected thanksgiving with remembrance in His wise Book. " Remember Me, then, and I will remembre you. Give thanks to Me and never deny Me "

Hence, on account of the sublime standing of thanksgiving, Satan did not find a way to lead people astray worse than making them forgetful of it. Satan said to Allah: " I will waylay your servants as they walk on your straight path and spring upon them from the front and from the rear, from their right and from their left. Then you shall find the greater part of them ungrateful."

Even the Prophet who has been forgiven his past and future sins was discovered by his compani ns praying long, worshipping Allah and weeping a lot out of thankfulness to Allah. How truthful was Ibn Massoud, then, when he said : " Faith is two divisions, thanksgiving as much as patience" ; and how sober and intelligent is the Prophet who said of the believer : " In prosperity he gives thanks to Allah, which promotes his benefit ; and in adversity - he takes patience, which promotes his benefit also ".

(Continued from page 12)

Qur'an came to stay and survive to control the world until its end - The religion is entirely complete as well as it is the final link of literature that encycles humanity with knowledges, theories and experiments till doomsday. Its plasticity makes it fit for all generations to come. It is the religion for all human beings, for the sound bodies and the sick, the residents and the travellers, the youths and the advanced ages, men and women ....

It assists the creatures as a group with kindness and leniency to Heavens in the eternity.

« إن الدين عند الله الاسلام »
(آل عمران)

(Lo ! religion with Allah (is) The Surrender (Al-Islam) : to His will and guidance. (III : 19)

In fact, it is the sole religion of all Prophets and Almighty God's messengers.

illustrated by the errors of the tongue. Among these errors Al-Ghazaly mentions backbiting, lying, hypocrisy, self-praise, wounding jest, insult and defaming the dead. On account of their repetition and familiarity, he considers them the worst offences.

As to misfortunes which man can ward off, man is said to have taken to patience if he abdicates vengeance or reward. Al-Ghazaly throws light on evidence of the necessity of such a type of patience in the verses of the Wise Book, the Tradition of the Prophet and the syings of the Prophet's companions. After all, Allah will help the patient in both the life of this world and particularly, the life to come.

Endurance of such calamities as the death of dear kinsmen, the loss of property, or as blindness is the most exalted degree of patience. It is the stock of the truthful. In a Holy Speech of His, Allah has said: "If I match an affliction against one of my servants, in his body, his property or his offspring, and yet he conducts himself with becoming patience, I will be too coy of him on the doomsday to hold for him a balance or open a record of deeds." And in His Lightgiving Book He has said: "Say 'Nothing will befall us except what Allah has ordained. He is our Guardian. In Allah let the faithful put their trust'.

As to thanksgiving, it is based on three pillars:

a) knowledge of the favour, of the ground of its being so considered, and of the Donor Himself without Whom the favour would have not been;

b) joy, not with the favour or the act of being favoured, but with the D nor, submission to Him, and considering the favour a means of advance to Him, to abiding under His protection and to seeing His face;

c) the believer should also cherish benevolence for all creation, declare thenks and use the favours of Allah in acts of obedience and not of disobedience.

With reference to favour, Al-Ghazaly says it is every source of good, pleasure and happiness, and even everything wanted that will have an effect. However, he is of opinion that favour is genuinely the happiness of the other life. In demonstration of the sources of pleasure, he distinguishes them into many classes among which are: those useful in both this life and the next, such as knowledge and good manners; those harmful in both lives such as ignorance and bad manners; those useful for the present but which are harmful in consequence

latter. No wonder, then, that the Muslim Falasifa exuberated in their treatment of these two praise-worthy traits.

According to Al-Ghazaly, patience is the firmness of the religious motive, by which man is distinguished from beasts, on confronting motive of passion. With the variation of situations, patience is termed different names. In adversity it is called patience of which the contrary is despondency or consternation. With abdominal and sexual appetite, it is called chastity. With riches and abundance it is termed self-control, contradicted by wantonness. In war and strife it is given the name courage or bravery, the opposite of cowardice; and with anger it is called clemency; the contraposition of which may be either grumble or indignation. If it is with a wearisome misfortune, patience is called large-heartedness, its opposition being weariness, boredom or depression. In the same way Al-Ghazaly goes on with the demonstration of various circumstances and the terms to be applied in each to patience and its counteract. Thus he mentions reticence, contentment and renunciation of wordly vanities, in face of disclosure or betrayal of secrets, greed and covetousness. Most Islamic morals are, then involuted in patience.

Al-Ghazaly then classifies patience into: a decreed precept, when it is connected with interdicts; an additional service - or Nafl - when it is with a misfortune; and a prohibited or hated passivity when connected, respectively, with prohibited or hated harm. Patience, however, is both necessary and unescapable; for not all that a man meets is after his heart. In any case, misfortune may be: connected with his own conduct, as is the case of his disobedience of a Divine decree; having no regard of his option, as is the case of a calamity; or that he can ward off remove or avenge himself for, as is the case of aggression on his security or his property.

The great authority of Islam says that compliance with Divine commandments and interdicts is by no means less severe than patience with calamities; for, by nature, man averts submission and has a liking for lordship. This is why a man may dislike prayer to Allah seemingly out of laziness, almsgiving out of avarice, and pilgrimage or fight out of both sluggishness and cupidity. Indecency, wickedness and oppression which Allah forbids are, according to him, the outcome of the motive of passion. Patience is most fell when passion and habit back up one another, which is best

From the Tradition of the Prophet:

" Thanksgiving and Patience "

BY

SOLIMAN BARAKAT

Muhammad, Allah's apostle, may blessing and peace be on him, said: "Wonderful are the ways of the true believer. They are all good for him, which occurs to no one but a true believer. For in prosperity he gives thanks, which promotes his benefit, and in adversity he takes patience, which promotes his benefit also."

Life is a chain of connected links of weal and woe, and of joys and sorrows, and consequently faith shows in both thanksgiving and patience. Innately, man is spoilt by ease and transported with the joy of abundance, while he is shocked and his heart is broken at a misfortune's befalling him. A faithful believer, however, is not like that. To him both fortune and misfortune are trial from which he emerges nobler and nearer and dearer to the One above, through praise to Him and acceptance of His will, Who sees all, and who has said: " He that thanks has much to gain, but he who is ungrateful. . . Allah is all-sufficient and bountiful."

The exclamation with which the Prophet initiates his Hadith is an intelligent allusion to the magic effect of faith that inundates hearts and breathes confidence into souls. Rather than success, affluence and good health and the like, on one hand, and failure, want, illness and the like, on the other, by prosperity and adversity is probably meant the general course of days, months and years. In other words, the faithful are incessantly in a state of acceptance of Allah's will, whether with pleasure or with endurance. Thus, instead of levity or dismay, faith puts the believer in continual contact with Allah and His pleasure and distinguishes the believer by all good and salvation. "Allah holds the rewards of this life and of the next"

As for thanksgiving, it implies both the acknowledgement of Allah's favour and its diffusion through the execution of His ordinances and the avoidance of His prohibitions. Hence, the terms " patience " and " thank ", their derivatives and their various forms of usage - not to mention their equivalents - are adduced in the Wise Book as frequently as in more than one hundred positions of the former and than sixty positions of the

we commended unto Abraham and Moses and Jeses (XLII : 13).

Almighty God commands mankind to religious unity and denounces racialism, colour and influence of positions.

• قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله • (آل عمران ٦٤)

(Say : O People of the Scripture! Come to an agreement between us and you : that we shall worship none but Allah, and we shall ascribe no partner unto Him and that none of us shall take others for lords beside Allah. (III : 64).

Heavenly faithful unity is teaching basically the ten commandments in Torah, in the Bible and in the Qur'an. (1)

• قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ... وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه •
(الأنعام ١٥١ — ١٥٥)

Muhammed the Prophet has an indefinite reverence to old Scriptures as well as the Qur'an defends, praises and esteems them boundlessly.

• إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . . •
(المائدة ٤٤)

This is an open confession of Islam in praising Torah of Moses and the Bible of Gesus, nevertheless, calling on the Hebrews, Christians and all religions existing to follow Muhammad's message, not only because their correct books had established and described the forthcoming of Muhammad, as well as ordered the following races to embrace his faith during his appearance, but because the Qur'an is the last book from Allah that copes with the future to come.

• والذين هم بآياتنا يؤمنون والذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . . •(1)
(الأعراف ١٠٧)

The signs of the truth which acquainted Muhammad the Prophet were effective on the warm hearts of the nobilities and sagacious Christians who recollected and understood the truth carried from one Prophet to another and from one era to another until it settled on the forthcoming final Muhammad the prophet. They all pinned their faith in Islam and the Qur'an.

• ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين • .

(المائدة ٨٢ — ٨٣)

(1) Read the commandments.

(1) See Old Seriptures in The Torah.

(Continued on page 16)

effectively with ease and certainty.

The development of human faculties enticed people of various nations to break the natural barriers and come in contact with one another to form one linked whole with a variety of teachings that were taken from one and the same source, and taught one and the same truth.

Muhammad, the last Prophet with a masterly hand, came at this period to restore Islam by a Sacred Book-El-Qur'an - which renewed the old teachings and restored them to their original form, with necessary additions to meet the requirements of the age and the following ages of the world.

«وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (سبأ ٢٨)

(And We have not sent thee (O Muhammad) Save as a bringer of good tidings and a warner unto all mankind ; but most of mankind know not.) (XXXIV : 28)

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب ٤٠)

(Muhammad is not the father of any man among you, but he is the messenger of Allah and the Seal of Prophets.) (XXXIII : 40)

The Almighty Fair Wisdom is marked amongst the Prophets who believe and entrust each other. Any Prophet undertakes to manifest and pave the way practically to the following Prophet.

The Qur'an came to reveal and teach the previous religions. This holy final Book has recapitulated the old truths in their unalloyed form with requisite additions necessary for the development of present and future human faculties.

The Almighty God has taken the pledge and convenance on every Prophet to believe and assist the contemporary Prophets.

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » (آل عمران)

(When Allah made (His) covenant with the Prophets, (He said) : Behold that which I have given you of the scripture and knowledge. And afterward there will come unto you a messenger confirming that which ye possess. Ye shall believe in him and ye shall help him). (III : 81)

For this cohesion and unity of heavenly rules and regulations, religion in all periods, and with every Prophet is originally one, with difference in forms and not in principles, in order to be in harmony with various environments of different eras.

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » (الشورى ١٣)

(He hath ordained for you that religion which He comended unto Noah, and that which we inspire in thee (Muhammad), and that which

the prophet was treating his followers, his character, his behaviour and his morale.

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » (الأحزاب ٢١) .

(Verily in the messenger of Allah ye have a good example for him who looketh unto Allah and the Last Day) (XXXIII : 21).

Stages of Islam : Islam appeared with Adam and will eventually commence till the Doomsday. It is the righteous sole religion the Almighty God has bestowed upon all the people of the universe.

The Prophets from Adam's era to Muhammad are commanded by the Almighty God to announce and preach Islam. The faithful true believers are attested to be rewarded in the altitude of the two abodes, and the unfaithful disbelievers to anticipate their punishment in the second survival abode.

The Almighty God has duly harmonised Islam to the faithful believers and enabled them to perform their prayers at ease to suit their environment both socially and in various cultural aspects.

Islam has made its appearance with so much simplicity as to suit Adam, Eve and their children in order to fit their life.

At the era of Noah, people increased comparatively in number and Islam extended and became more collective in order to harmonise with theories, culture and life with its enormous experiences.

People, by the laws of nature which submit to the Almighty Power, occupied the whole earth. They scattered and formed disconnected races and separated by natural barriers in the form of oceans, high mountains and vast barren deserts. These barriers hindered meetings of people to exchange their culture and knowledges. The advent of a Prophet in every area which is remote from the other areas, took place.

Muhammad the Prophet in charge of preaching God's message, was chosen by Almighty God, a kin of his tribe, and not a pure stranger to them in order to facilitate his duty of delivering his message amongst his own people, preach in the way they understand most and explain all their enquiries.

«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»
(ابراهيم ٤)

(And We never sent a messenger save with the language of his folk, that he might make (the message) clear for them.) XIV : 4

The Qur'an announces that every Prophet is sent to his own people for his acquaintance with their customs, and knowledge of their weakness. The Prophet remedies them

UNIVERSALITY OF ISLAM

BY : ALY OMAR FADEL

Islam in its real and apparent forms reveals its glistening superb merit to the eminent and refined humanity.

Definition of Islam : It is a thorough headway to Almighty God by submission of mankind; core and soul, to God by following His orders and avoiding His prohibitions.

Real trust in God means the full submission to the faith, and execution of His commandments in full.

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » النساء ٦٥ .

(But nay, by thy Lord, they will not believe (in truth) until they make thee judge of what is in dispute between them and find within themselves no dislike of that which thou decidest, and submit with full submission). (IV : verse 65)

The importance of the prophet is conspicuous, due to his colossal responsibilities to Islam which is inspired by the Almighty God through revelation.

« وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » سورة النجم ٣ — ٤ .

(Nor doth he speak of his (own) desire. It is naught save an inspiration that is inspired) (LIII : 3—4.)

For many reasons, the prophet is the vicegerent to God on earth; by preaching and executing His regulations as they come to him. His integrity is developed as high as to infuse his spirit in Godliness which leaves no vacancy in his sincere heart to any but God, and that is due to his extreme devotion that surmount his own life and existance.

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء ٨٠ .

(Whoso obeyeth the messenger obeyeth Allah . . . (IV : 80).

The companions and followers of the Prophet represent his spirit in themselves, and between one another, and with people, in peace and at war. They were Kind considerate and brave warriors.

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » الفتح ٢٩ .

(Muhammad is the messenger of Allah. And those with him are hard against the disbelievers and merciful among them selves).

(XLVIII : 29)

One cannot be a true muslim unless he is in compliance with the laws and regulations of God ; by following the prophet, in the way

the **Abbasids**, then the Tulunids and Fatimids. It was during the Fatimids dynasty that Al-Kuds was captured by the Crusaders in 1099. The famous Muslim, Saladin, recaptured the city in 1187 and he carried out the restoration of the Aksa Mosque at this time. In 1229 the Aiyubid Caliph, Al-Kamil, concluded a treaty with the Emperor Frederick whereby the Christians took possession of Al-Kuds except for the Muslim sacred places on the Haram. Shortly after this the Mamluks came into power and took control of all Syria and Palestine, and so of Al-Kuds.

The rule of the Mamluks lasted for three centuries, after which the Ottoman Empire came into being. No. events of geats importance occured in Al-Kuds during this time and its inhabitants remained in comparative peace, leading the lives of their forefathers Arab with Arab.

In recent years, after the first world war and the disintegrations of the Ottoman Empire, Al-Kuds became the capital of Palestine. This state changed with the formation of Israel in 1948, it became a city torn in two but held together by its sense of religious significance.

Al-Kuds of today still retains its original place in the Faith of Islam and the passing years only increase the respect and reverance in which it is held by all Muslims.

(Continued from page 5)

Malik bin Habib settled in Kodankalur and built a mosque there. Afterwards Malik bin Habib moved to Kollam, (Quilon) where he built a mosque. Leaving his family in Kollam, he travelled to Hubli Mawari. After building a mosque there, he visited Pakanoor, Mangalur and Kanjerkode. He erected mosques in all these places and returned to Hubli Mawari.

There he stayed for three months. He then went to Shaliyam, Darmafatan and walapatanam. After building mosques in these places he returned to Kodunkalur. Accompanied by his uncle Malik bin Dinar, He visited all these mosques and said prayers in them. They finally returned to Kodunkalur, and thanked their Lord for bringing the light of Islam to a land that was the meeting-place of world Religions and Cultures.

Long afterwards, Malik bin Dinar and Malik bin Habib went to Shahar and visited the grave of the departed King. Later, Malik bin Dinar travelled to Khurasan where he died. Malik bin Habib, returned to Malabar. He left some of his children in Kollam and settled in Kodunkalur with his wife where they died.

From this account it is clear that it were Arabs who first took the light of Islam to South India. They were the pioneers in this field and the first Muslims that settled there.

freedom of worship and the security of the churches. The entrance of Umar into Al-Kuds was a remarkable event of a remarkable man. It is well known that when he was offered the Church of the Resurrection in which to say his prayers, he refused because this might have lead his followers to turn the church into a mosque. Instead he perfomred his prayers on the entrance steps of the church.

It is said that when Umar asked to be taken to David's mosque, he was first shown the Church of the Holy Sepulchre and the Church of Sion. On his insistence that this was not the true place he was finally taken to the site of the mosque. This he recognised by the description given to him by the Prophet who had been there during his famous night journey, when he placed his foot on the the Rock to ascend to heaven.

Upon finding the correct place he had it cleared of all the debris with which it was covered, he then built a simple but large mosque which we are told could hold 3,000 men. This fact is confirmed by Bishop Arculfus (I tinera Hierosolymitana). Due to the fact that the Christians would not build a church on what they considered pagan ground, this was thus satisfactory to both sides and the Muslims acquired the desired place held sacred by them.

During the Umaiyads the prestige of Al-Kuds increased. This was mainly due to political reasons, also it was easier to reach from Damascus than Medina or Mecca. Mu'awiya even had himself proclaimed Caliph there in 40 A. H. The Umaiyads' plans were further helped by the holiness accorded Al-Kuds by the Prophets and the tradition, recorded by Al-Zahri, in which Muhammad classed Mecca, Medina and al-Kuds as of equal value to pilgrims. In facts, according to the hadith, Al-Kuds was placed first in precedent above the other two sanctuaries.

The Caliph Abdul Malik further presuaded his people in this matter as he did not want them to visit Mecca while Ibn Zuhair was in control of it, he thought they might be coaxed or forced to join the anti-caliph, Ibn Zuhair. It was at this time that Abdul Mulik built the remowned dome over the Rock, the Kubbat Al-Sakhra, around which the tawaf was performed and which surpassed all else in its beauty.

During the following centuries the religious significance of Al-Kuds gradually declined and came to be of less importance for the Muslims. Its history and fortunes being similar to other towns and cities in Syria and Palestine at that time

After the Umaiyad period came

The Sacred places of Muslims :

JERUSALEM (AL-KUDS)

BY

RASCHIED AL-ANSARI

• سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير • (١- الإسراء)

(Glory be to Him, who carried His servant by night from the Holy Mosque to the Farther Mosque the precincts of which We have blessed, that We might show him some of Our signs. Lo ! He only He, is the Hearer, the Seer.)

The old and beautiful city of Al-Kuds, venerated by Muslim, Christian and Jew, has a long and often bhoody history stretching back to antiquity. All three religions claim a special interest in this ancient city. The Muslims for the following reasons :

1) Here is the place of the sacred rock, Al-Sakhra.

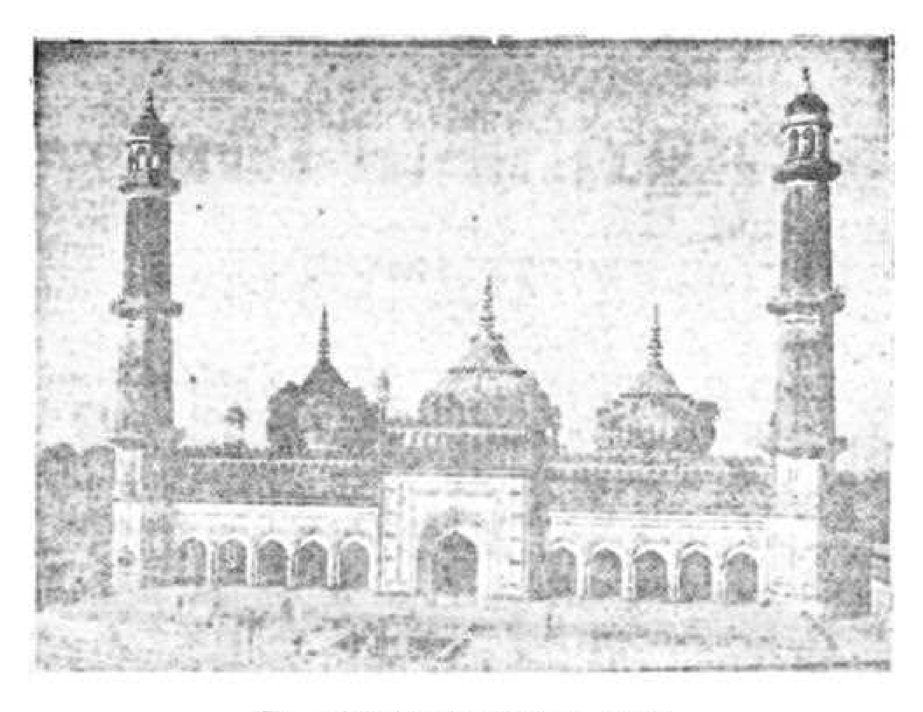
2) It is on this rock that Muhammad (may peace be with him) placed his foot when he ascended to heaven.

3) The above verse from the Qur'an.

The Arabic name for Jerusalem is Al-Kuds, but there is a still older name of 'Bait Al-Makdis' Here it was that the wisest king of the ages, Soloman, built his famous mosque to the glory of the One God, Allah. It is on this site of Solomon's mosque where the Rock, Al-Sakhra, is located and over which the Caliph Abdul Malik built the Dome in the year 70 A.H.

The Christians' interest is due to the belief that their saviour, Jesus Christ, was crucified here. Marking the place of his death and sufferings are to be seen many beautiful churches belonging to the different sects of Christianity ; Coptic, Roman Catholic, Greek Orthodox, etc. During the Crusades the city changed hands at different times, usually with much bloodshed, the Crusaders turning the mosques into churches.

Al-Kuds first came under Muslim influence at the time of Umar. In 17 A.H., during the seige of Al-Kuds, a treaty was signed granting the Christians their lives and property,



The mosque of Lucknow (N. India)
one of the earliest Muslim monuments in India.

to rule the Kingdom during his absence and wrote down their duties in clear terms.

The ship sailed with them. They spent the night and the following day in 'Fandarina'. They then sailed till they reached 'Darmafatan' where they spent three days. They again sailed and reached Shakar. Here they stayed for many days during which period, they arranged to send a mission to Malabar, to call people to Islam and build mosques there. At this time, the King fell seriously ill. He gathered around him the members of the mission and urged them to go ahead with their duties. They Said :

"O King, we know not your country, we had decided to go there because you are with us". The King thought for a moment. He then wrote a letter in Malayalam to his relatives. He gave it to them and asked them to go to Kodunkalur, Darmafatan and Fandarina. He asked them not to speak about his illness. Shortly after this the king died.

Two years after the death of the king, Sharaf Bin Malik member of the mission started for Malabar with his brother, nephew, and his wife and children. Soon after their arrival in Kodunkalur they presented the royal epistle to the Governor who granted them lands, gardens and fields as per the King's order.

Malik bin Dinar and his nephew

(Continued on page 8)

"Arab traders used to go to Ceylon for business. Some of them settled there with their families. When some of them died and their families had no one to take care of them, the King of Ceylon sent them by sea to 'Al-Hajaj Bin Yusuf' at Kufah. He gave them costly presents from his privy purse. When the ship reached Dibal in Sindh, a gang of pirates attacked the ship and took away the presents. When this sorrowful news reached Al-Hajjaj he decided to attack Sindh in Retaliation". ('Futuh Al-Buldan' p 436 ; History of Farishta, second part.)

These events that took place durin the reign of Walid bing Abdul Malik (705 - 715) signify that the people of Ceylon knew about Islam and that Arab traders had settled there during the first century of the Hijrah.

At this period, some arab traders also settled in Malabar.

In his " Tuhfat Al-Mujahidin ", Sheikh Zain Al-din Bin Abdel Aziz relates to us how Islam found its way in Malabar. He says that since time long past, Jewish and Christian communities had settled in Kodunkalur (Cranganore) in the capital of Malabar. The Jews settled here were probably those who Kaikhusur, the King of Iran, had banished from the land. They crossed the Arabian Gulf, and settled in Cochin.

Forester had a slightly different account of the jewish settlement in Malabar. He says "In 369 A.D. a group of Jews migrated from the island of Miorea in Spain. They were about seven or eight thousand persons. They reached the coast of Malabar and settled in Cohin. As for the Christians, history records that St. Thomas preached in Malabar, and that Nestorian Christians, from- Syria and Chaldea also, came there.

Years after this a group of Muslims passed by Malabar on their way to Ceylon to visit the footprint of Adam, when the news of their arrival reached the King, he received them and made inquiries about the Prophet. An elderly man replied to his questions and gave him an account of the Prophet's life and teachings, and the miracle of the splitting of the moon.

The King believed him and embraced Islam. He confided to the man that on their way back home, he would accompany them to Arabia to visit the Prphet. He asked his arab friends not to speak about it to any one in Malabar.

After their return from Ceylon the King embarked along with his visitors. He then sent for his members of his household and his ministers and told them that he would spend a week in contemplation. He appointed his ministers

Once again these relations suffered a rupture which provided an opportunity for the Arabs to take up the business.

So when the Portugese reached India, they found trade in the hands of the Arabs. It was the habit of the Arabs to start their voyage to the southern and western coasts of India during the months of July and August when the wind blows to the east. They would stay there for about four months and return to their country in the months of December or January. This voyage would last about thirty to forty days.

After the migration of the Prophet to Medina, hundred of Arab Tribes entered the fold of Islam, in a short period. Great men sent their deputies to prphet to announce their acceptance of the new faith. In the 9th and 10th years, after the Hijra the people of Yemen and Hadramaut embraced Islam in large numbers. Those were all traders. Their trade at that time had reached the peak of progress. They were exporting their goods to the Gulf of Arabia, Egypt, Sindh, Konkaram, Malabar, Ma'bar. Ceylon, Sabij (Java) China and other far off countries. In every country they visited they preached the new faith.

Thus came the voice of Islam to India and Ceylon in the first century of Hijrah.

During the reign of Caliph Abdel Malik bin Marwan (65 - 86) a group of Muslim traders came to Ceylon and settled there. There lived in Harmaz, a town in the Gulf of a Arabia, a persian sailor by name 'Buzurg bin Shahriyar'. In his book : "The Wonders of India" which is an account af his voyage, he writes as follows :

"When the people of Ceylon heard about the Prophet, they sent a distinguished man to Arabia to enquire about the new prohet and to bring them news about him. The man arrived in Arabia in the reign of Caliph Umar (634-644 A.D.). He met the caliph and discused with him the mission of the new prophet. He started for Ceylon with complete information about the new faith. But he died in Makran and his indian servant who was with him returned to Ceylon and told the people all that he had seen and heard.

He conveyed to the people wath information his master had gathered about Islam, the prophet of Islam and the caliphs Abu Bakr and Umar. About Umar, he sayes, he is a brave and pious man. He puts on patched clothes and sleeps in the mosque (wonders of India, p. 156).

Speaking about the causes of the Conquest of Sindh, the famous historian Ahmad Al-Baladhuri (892 A.D.) writes" :

The Arab had contact with the west coast of India many centuries before the advent of Alexander the great.

Indian produce was exported to coasts of Arabian peninsula from where Arab traders carried it to Todmar in Syria, and to Alexandria in Egypt, through Hejaz and Yemen. Western traders would buy the goods from Syria and Alexandria and export it to markets in their countries.

Arabs and Egyptians in those days acted as the media between India and Rome and Greece in commercial relations. The godown of Indian produce was 'Safar' in Hedramaut. Traders from this place had direct business contact with South India. That why we find coconut-tree and 'betel plant' growing there. These trees were imported from Malabar and grown there.

Roman traders living in Egypt began to pour into India. They made Malabar their business centre. Pleny says, "Ships from Egypt would reach india in two months and ten days".

The towns of Moserus and Fohar were the chief ports in those days. From these ports goods were exported to Rome in Roman ships. During the first and second centuries before Christ many Romans settled in these port-towns. They built a big temple in Moserus and called it Caesar Augustus.

These Romans are referred to in ancient Tamil works as 'Yuvaness'. The main items of export were pepper and pearl.

Pepper' is chiefly grown in Malabar and Peal is abundantly found in the Indian ocean even to-day. As for Bana, it is a precious stone resembling emerald. The romans liked it very much.

When king Alark defeated the Romans, he demanded from them an indemnity which included three hundred pounds of pepper. The two great Roman writers, Pleny and Ptolemy knew well the ports and commercial centres on the west coast of India. A Roman trader visited these places eighty years before the birth of Christ, and compiled an account of his travels and named it Barbalas. This account contains valuable information about India and the Roman Traders living there.

Commercial relations between Rome and Malabar were as best as they could until two centuries after Christ. These relations later grew in strength, thanks to the efforts of the Ptolemian kings and Alexandria became the centre of this trade.

In 215 A. D. Karda resorted to a massacre in Alexandria. This resulted in the rupture of trade relations with India for some time, and they were resumed later on.

MAJALLATU'L AZHAR

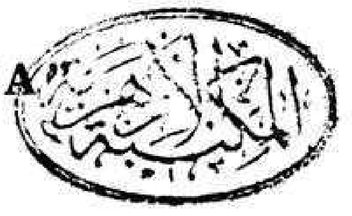
(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Shawwâl 1386	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	January 1967

Spot Light on the History of



"ISLAM IN INDIA"

BY

A. M. Mohiaddin Alwaye

Any study of Islam in India has two different aspects ; the first aspect is the Muslim conquest of India, and the second one deals with the entry of Islam in India, and the efforts of the many individuals to spread the faith of Islam in this new land.

The last aspect of study is more extensive, more glorious and has left more lasting marks in the history of India. Islam does not own its spread in the length and breath of the country to the Kings, the Emperors, and the Conquerors ; but it owes its spread to the Arab individuals and their tremendous efforts.

These individual efforts began before the first conquest of India at the hands of Muhammad Bin Qasim (91 A. H.). Historical research has brought to light the following facts: the first, the coming of Muslims to India was not a colonial movement nor was it a wave of military conquest ; secondly, the small groups that entered India as conquerors, were not Arabs except, of course, the army that conquered India under the leadership of Muhammad Bin Qasim ; and thirdly, nowhere in India did Islam spread by force or coercion.

The following account of Islam in India will, it is hoped, throw some light on the spread of Islam in the sub-Continent of India, and the factors that helped in its spread.

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
« العنوان »
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مدير المجلة
عبد الرحيم فوده
« بدل الاشتراك »
٤٠ قرشاً في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزآن التاسع والعاشر - السنة الثامنة والثلاثون - ذى القعدة وذى الحجة سنة ١٣٨٦هـ - فبراير - مارس سنة ١٩٦٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة من حياة الأفغاني

بمناسبة ذكرى وفاته السبعين

بقلم

أحمد حسن الزيات

فى اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٨٩٧ م قضى السرطان فى عاصمة الخلافة على الحكيم الثائر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغانى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ومسح عن عيون الشرقيين ما فترها من همود الكرى ، وجلا عن قلوب المسلمين ما غشاها من صدأ الجهل ، فاطمأن الاستبداد وأمن الاستعمار ، وظن الذين ينقضون أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أديانهم ليملأوا كروشهم ، أن الصوت قد خفت ، وأن المشعل قد انطفأ ؛

ولكنهم نسوا أن الرسل يبلغون والله يثبت ، وأن المصلحين يبذرون والدهر ينبت ، وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق وإشراقة الهدى انبعثتا فى يومهما الموعود كما ينفجر المكظوم فيدوى ويحولك الليل فيصبح .

وهل كانت الثورات الديمقراطية التى شبها العرابيون ثم المهديون ثم الاتحاديون ثم السعديون ثم الهاشميون ثم القهلويون إلا أقباساً من تلك الشعلة المباركة التى حملها الأفغانى وتنقل بها فى ممالك الشرق ، يحرق ويضىء ؛ وينضج

ويحمى، ويقبس ويشعل، وساعده مرفوعة لا تكل، وعزيمته ماضية لا تكل؟

ومن القوة فى هذا الرجل أنه كان صاحب رسالة لا طالب ملك: هاجم السياسة الإنجليزية فى (العروة الوثقى) أعنف الهجوم أيام الثورة المهدية، فدعى إلى لندن ليلوح له اللورد سالسبرى بملك السودان ليطفىء الثورة ويقترح الإصلاح، فما كان جواب الأفغانى إلا أن قال: «إن السودان لأهله، وهل تملكونه حتى تملكون عليه؟»[1]، وأراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الإسلام فأباها وقال: إن وظيفة العالم فيما يزاول من تعليم، وإن رتبته فيما يحسن من علم[2].

أما كيف تهيأت نفسه لرسالة البعث والتجديد على فترة من رسل الهدى وأئمة الإصلاح لجر فيها الحاكم وكفر المحكوم، فذلك من علم الله الذى يصطفى من يشاء كما يشاء لنصرة حقه وهداية خلقه. وكل ما نظنه معيناً على هذا التهيؤ أنه ولد فى بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين، سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية؛ وأنه درج فى بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة؛ وأنه درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا، وفنون اللسان والعقل، على منهاج محيط شامل؛ وأنه حذق فى مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألم بالإنجليزية والروسية فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث؛ وأنه طوف ماشاء الله أن يطوف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وانجلترا وفرنسا وروسيا، فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب؛ وأن موقع أفغانستان بين الهند وإيران أمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار المدل المذل تتواثب عليها قوى الإنجليز والروس ظاهرة وباطنة، فهاله منذ شب عدوان الأجنبى على استقلال أمته وجيرته.

كل أولئك الذى ذكرت من كرم المحتد، وشرف المولد، وبداوة البيئة، وعمق الثقافة وحذق اللغات، وإدمان الرحلة، ومعاناة الاستبداد، ومكابدة الاستعمار، لم يخلق وحده الرجل المصلح فى جمال الدين، وإنما كان مساعداً لسر العبقرية الذى أكنه الله فيه على أن يظهر مهيأ الأسباب مستكمل الوسائل.

* * *

كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جرىء الصدر لأنه حر، ندى الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشى، أبى الضيم

---

(١) خاطرات جمال الدين للمخزومى ص ٥٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠.

لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل .

ولم يبتغ من وراء هذه الصفات - كما قال - إلا سكينة القلب . وكان بحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول [1] . ومن نماذج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض ، وامتد أمامه الأفق ، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله ، والشرق الإنسانى كله ، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر ، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرة المستبد .

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة [2] وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قصر جهده فى تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة ؛ والواقع الذى لا شك فيه أنه فكر ثم قدر ثم دبر ؛ ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم ، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم .

تولى الوزارة وهو فى ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم ، فجمع نفسه على الاستقلال وأدار أمره على الشورى ، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة ، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير .

وخرج السيد إلى الهند يبتغى السكينة عند تاجر صديق ، فاستقبله الإنجليز على الحدود ، وأنزلوه بالإكراه ضيفا على الحكومة . فسألهم الإقامة شهرين ، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه ، وإصغاءهم الشديد إليه ، قصروا هذه المدة وأمروه بالخروج . وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال للزعماء الهنود وهو راحل : « وعزة الحق وسر العدل ، لو أن ملايينكم مسخت ذبابا لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند ، ولو انقلبت سلاحف ، وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » .

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة . ثم عين عضوا فى مجلس المعارف ، فرأى فى التعليم رأيا ، وخطب فى الصناعة خطبة ، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم ، وإخوان الضلال من شيوخ الدين ، وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة فى نفسه ، فافترى على الرجل الأباطيل ، وبس حواليه النمائم ، فلم يجد الأفغانى بدا من النزوح إلى القاهرة ، وهنا وجد الصدر

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣ .

الأرحب فى رياض باشا . فتجلت عبقريته فى التعليم والتنبيه والتوجيه ، وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة فى البيت وفى القهوة فعشا على ضوئها الهادى طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة .

ثم اتخذ من المحفل الماسونى الذى أنشأه منارة لهذه الشعلة ، فقسم الإخوان العاملين فيه شعبا ، لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة . فشعبة الحربية تنظر فى ظلامة المصريين ، وتنذر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة ؛ وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم فى العمل والمرتب . وراع أولى الأمر ما قرأوا فى تقارير الشعب ، وما سمعوا من لغط الموظفين ، وما رأوا من قلق المثقفين ، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه فى ذلك ، فقال له فيما قال : « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب فى حكم البلاد عن طريق الشورى » .

ثم ازداد جمال الدين إمعانا فى حملته ، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقا لدعوته ، حتى انتهى الأمر بعد جهاد ثمانى سنوات إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه ، فزينوا للخديو أن يخرجه من مصر فأخرجه .

* * *

وانتقلت الشعلة إلى باريس ، وسطعت فى العروة الوثقى ، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهرا تومض فى جنبات الشرق كما تومض المنارة فى ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره ، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه ، واستزاره قيصر الروس واستخبره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الأمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوى عبد الحميد ما بين عينيه ، ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع ، وظل على إكرامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور !

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهادا مضنيا فى سبيل الله والعلم والحرية والشورى.
كان أينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود.
وأينما رحل ارتجفت العروش واضطربت القيود !

طيب الله ذكرى هذا الإمام العظيم وأجزل له ثواب المصلحين المخلصين فى جنات النعيم ! .

أحمد حسن الزيات

"لا" التى قيل إنها زائدة، وليست كذلك

درء مظاهر من الجرأة فى تفسير الكتاب العزيز

لصاحب الفضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج

القسم الثانى

« ما وقعت فيه (لا) مع أن المصدرية بعد فعل منع »

(١) من هذا القسم آية الأعراف قوله تعالى: « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

هذه الآية تحمل سؤال إنكار وتبكيت ، موجه إلى إبليس الذى أمره الله بالسجود تحية وتكريما لآدم عليه السلام ، فأبى أن يسجد استكباراً وأنفة ، متعللا فى ذلك بأنه خير من آدم ، إذ خلقه الله من مادة أفضل من مادة خلق آدم ، فقد خلق هو من نار ؛ أما آدم فقد خلق من الطين .

هذا هو المضمون المقصود من الآية ؛ وهو شىء أجمع عليه العلماء : « القدماء والمحدثون » من غير خلاف من أحد منهم فى شىء منه .

لكنهم اختلفوا فى طريقة أخذ ذلك المعنى من الآية اختلافا كبيراً ، فإن ظاهر الآية لا يعطى ذلك المعنى بالسهولة التى يمكن أن يستغنى معها الناظر الباحث ، أن يبذل فى ذلك جهده أو يعمل فكره .

ومن هنا يقول الإمام « فخر الدين الرازى » : « ظاهر الآية يقتضى أنه تعالى طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود ، وليس الأمر كذلك ، فإن المقصود طلب ما منعه من السجود » . وقد عبر الرازى عن هذا بأنه إشكال اختلف فى طريقة حله العلماء [1] .

ومن قبله الإمام « ابن جرير الطبرى » يقول: إن « ما منعك » معناه أى شىء منعك؟ و« ألا تسجد إذ أمرتك » معناه أن تدع السجود لآدم ، إذ أمرتك أن تسجد له . ثم يعقب بقوله :

« فإن قال قائل » : أخبرنا عن إبليس : ألحقته الملامة على السجود ، أم على ترك السجود ؟ فإن تكن لحقته الملامة على ترك السجود ، فكيف قيل له : « ما منعك ألا تسجد ؟ وإن كان النكير على السجود ، فذلك خلاف ما جاء به التنزيل فى سائر القرآن ، وخلاف ما يعرفه المسلمون » ، ثم أجاب بقوله :

« قيل » : « إن الملامة لم تلحق إبليس إلا على معصيته ربه بتركه السجود لآدم ، إذ أمره بالسجود له . غير أن فى تأويل قوله :

---

(١) التفسير الكبير ج ٤ ص ١٨٦ المطبعة الشرقية .

« ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » بين أهل المعرفة بكلام العرب اختلافا »[١].

« أقوال العلماء فى الآية » :

إن الناظر فى أقوال العلماء فى كلمة « لا » الواردة فى آية الأعراف : « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » ، وما أوردوه فى ذلك من مختلف الوجوه والاحتمالات ، يجد أن كثيراً من هؤلاء العلماء - ولا سيما النحويون منهم - قد اتفقت كلمتهم على أن « لا » فى « ألا تسجد » زائدة .

ونحن نذكر هنا ما أوردوه من الآراء والأقوال ، وما وجهوا به كلا منها ، ثم نتبع ذلك بما نرى أنه الوجه المختار .

« رأى النحاة فى الآية » :

يسند « الفخر الرازى » إلى « الكسائى » و « الفراء » و « الزجاج » وكثير غيرهم ، أنهم يقولون : إن « لا » فى هذه الآية زائدة ، وكذلك يحكى « ابن جرير » عن بعض نحاة البصرة ، وبعض نحاة الكوفة ، القول بزيادة هذه الكلمة .

فمن النحاة البصريين يقول : إن « لا » فى الآية عندهم زائدة ، وأن « ما منعك ألا تسجد » معناه « ما منعك أن تسجد » ، وأن ذلك كما قال الشاعر :

أبى جوده لا البخل واستعجلت به
نعم من فتى لا يمنع الجود قاتله

قال : وقد فسرته العرب بأن معناه : « أبى جوده البخل » ، وأنهم جعلوا « لا » زائدة حشوا وصلوا بها الكلام »[١].

وهذا بظاهره يعنى أن « لا » فى الآية جاءت كالتى فى هذا البيت ، وأن نحاة البصرة الذين نقل عنهم « ابن جرير » ذلك ، يرون أن « لا » فى الآية زائدة حشو ، لا تحقق فائدة أى فائدة ، وأنها ليست إلا شيئا قد وصل به الكلام ، كما قالوا فى البيت .

وهذا الظاهر قد جاء على شاكلته ما أثبته « أبو على الطبرسى » فى « مجمع البيان » فى تفسير آية الأعراف إذ قال ما نصه : « ما » فى قوله : « ما منعك » مرفوع الموضع ، والمعنى أى شىء منعك ، و « لا » ملغى فى قوله : « ألا تسجد » ، والمعنى : ما منعك أن تسجد ؛ ومثله قوله . سبحانه : « لئلا يعلم » ومعناه لأن يعلم . وقال الشاعر :

أبى جوده لا البخل واستعجلت به
نعم من فتى لا يمنع الجود قاتله

قالوا معناه : « أبى جوده البخل » اهـ[٢] .

---

(١) جامع البيان : تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ دار المعارف .

(١) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٣٢٤ دار المعارف .

(٢) تفسير مجمع البيان للطبرسى فى تفسير آية ١٢ من سورة الأعراف جـ ٤ ص ٤٠١ .

فقد عبر هنا عن « لا » بأنها ملغاة ؛ وفيما نقله ابن جرير عن بعض نحاة البصرة ، عبر عنها فى الآية بأنها زائدة ، وفى التنظير هناك بالبيت ، عبر عنها بأنها زائدة حشو ، وأنها لوصل الكلام .

فهل وصف الكلمة بأنها حشو وملغاة أو صلة ، يرادف وصفها بأنها زائدة ، ويكون المراد بهذه الأوصاف كلها التعبير عن مطلق الزيادة ؛ سواء أكانت لفائدة أم لم تكن كذلك ، ويكون ذلك اصطلاحا لا يقصر الحشو والملغى - كما فى اصطلاح آخر - على ما لا فائدة فيه أصلا ؟ (١) .

إن كان الأمر كذلك فقد هان الخطب ، وسلمت « لا » الواقعة فى كثير من آيات الكتاب العزيز ، من أن تكون شيئاً لا يعطى فائدة أى فائدة ؟ لأنه ما دامت هذه الأوصاف لمطلق الزيادة ، فقد أمكن أن تكون « لا » التى تجىء زائدة فى بعض آيات القرآن الكريم من قبيل الزائد لفائدة .

ولكن هذا التخريج لا يساعد عليه ما صرح به الطبرى ، الذى حكى عن بعض نحاة الكوفة ، أنهم يفترقون عن نحاة البصرة ، بأنهم يجعلون زيادة « لا » فى قوله تعالى : « ألا تسجد » لفائدة الاستيثاق من النفى وتأكيده . وإليك نص عبارته قال :

« وقال بعض نحويى الكوفة نحو القول الذى ذكرته عن البصريين ، فى معناه وتأويله غير أنه زعم أن العلة فى دخول «لا» فى قوله : « ألا تسجد » ، أن فى أول الكلام جحداً - يعنى بذلك قوله : « لم يكن من الساجدين » فإن العرب ربما أعادوا - فى الكلام الذى فيه جحد - الجحد كالاستيثاق والتوكيد له » . ا هـ (١) (٢) .

---

(١) يقول ابن يعيش فى شرح المفصل جـ٨ ص١٢٨ : إن الصلة والحشو من عبارات الكوفيين ؛ والزيادة والإلغاء من عبارات البصريين .

(١) تفسير الطبرى جـ ١٢ ص ٣٢٤ دار المعارف .

(٢) هذا الذى نقله ابن جرير عن بعض الكوفيين - فى قولهم بزيادة « لا » فى مقام الإثبات فى مثل آية الأعراف ، وطريقتهم فى تعليل هذه الزيادة ، وقولهم : إن العرب قد يعيدون الجحد فى الكلام الذى سبق فى أوله جحد للاستيثاق والتأكيد - يشبه كثيراً ماجرت به اللغة الفرنسية فى العصر الحديث من استعمال كلمة "ne" فى مواطن خاصة ليس المعنى فيها على النفى ، وإنما هو على الإثبات مع أن الكلمة موضوعة فى أصل اللغة لافادة النفى .

=

إن هذا الصنيع يفيد أن الكوفيين إذا كانوا يوافقون البصريين فى القول بزيادة «لا» فى الآية الكريمة فهم يخالفونهم إذ يجعلون زيادة «لا» لفائدة هى الاستيثاق من تحقق النفى المستفاد من قوله تعالى: «لم يكن من الساجدين» وتأكيده. ومعنى هذا أن ذلك شىء لا يقول به نحاة البصرة، فإذا كان الأمر كذلك كان رأى أولئك البصريين فيه من البشاعة ما يجب أن يستغفر منه ويبرأ إلى الله من قبحه كل من له عقيدة صحيحة فى القرآن الكريم وأن أسلوبه لا يمكن أن يشتمل على شىء يقال فيه: إنه زائد خال من الفائدة.

ثم إن الاستشهاد بالبيت على أن «لا» فى الآية زائدة إنما يكون له وجه من الصحة إذا كانت زيادتها فى البيت أمرا مسلما به مفروغا منه، فأما والحال على غير ذلك

= ويجمل القول فى ذلك أن هذه الكلمة الموضوعة للنفى لا تستعمل غالبا لإفادة هذا النفى إلا مصحوبة بكلمة من كلمات معينة مثل: Pas, point, rien, jamais, وقلما تستعمل الآن منفردة غير مصحوبة بشىء من مثل هذه الكلمات حيث يكون الحكم بالنفى.

لكن ذلك قد كان جاريا فى اللغة فى القرن السابع عشر. فكانت كلمة "ne" تستعمل فى ذلك العصر وإن كانت منفردة لإفادة النفى.

ثم لم يكن معروفا فى ذلك العصر أن تستعمل هذه الكلمة المنفردة فى موطن يكون الحكم فيه بالإثبات.

وقد جد ذلك فى العصر الحديث وأصبحت تستعمل فى مواطن يكون الحكم فيها ثبوتيا ولكنها على كل حال مواطن خاصة ومحدودة:

(١) فمن ذلك أن يقال: J'ai peur que cela ne vous incommode ومعنى ذلك: أنا أخشى أن ذلك يضايقك.

لكن الترجمة الحرفية للجملة هى: أنا أخشى أن ذلك لا يضايقك! وهذا غـــير المراد بالضرورة.

(٢) وكذلك يقال:

" Aucun n'est content de son sort " ومعناه لا أحد راض بحظه (فى الحياة). =

= ولكن الترجمة الحرفية للجملة هى: لا أحد غير راض بحظه (فى الحياة)، وذلك نقيض المقصود.

(٣) ويقول الفرنسيون عن موليير Molière الممثل الفرنسى المشهور

"Nul ne peut être comparé à Molière dans le genre Comique" ومعناه: لا يوجد من يمكنه أن يضارع موليير فى الرواية الهزلية.

ولكن الترجمة الحرفية للجملة هى: لا يوجد من لا يمكنه أن يضارع موليير فى ذلك وهو نقيض المقصود.

فيهات أن يثبت أمر هو فى محل الشك بأمر آخر هو أيضا محل نظر واختلاف .

إن البيت قد رواه أبو عمرو بن العلاء على غير ذلك الوجه : رواه بكسر لام البخل فتكون الكلمة مجرورة بإضافة « لا » إليها ؛ فإن «لا» حينئذ تصير اسما ، فتكون مضافة إلى البخل ومنسوبة إليه ، لأن البخيل شأنه أن يقول «لا» عندما يسأل شيئا من العطاء ، فاشتهرت « لا » بأنها « لا » البخيل ؛ لأنها علامة البخل ؛ وهذا كما يقال لام الأمر ، وواو العطف ، وفاء الفصيحة وهكذا .

فالشاعر يصف ممدوحه بالكرم وسعة الجود ، وأنه لا يبخل بالعطاء حتى على من يقصده يريد قتله ؛ وإذا فهو يأبى بالضرورة فى مقامات السماحة والسخاء أن يقول « لا » هذه التى تستعمل فى البخل ومنع العطاء .

ثم إنه على رواية فتح لام البخل لا يلزم أن تكون « لا » زائدة وأن يكون البخل هو المفعول المباشر لفعل الإباء ، فإنه يجوز أن تكون « لا » هى المفعول المباشر لذلك الفعل ، ويكون البخل بدلا منها . والمعنى : أبى جوده النطق بكلمة « لا » التى هى البخل من حيث إنها علامة له ، فكأنها علم عليه . ويكون المآل : أبى جوده البخل .[1]

وجاء فى اللسان [1] أن البيت يروى بنصب البخل وجره ؛ فمن نصب فعلى ضربين : أحدهما : أن يكون بدلا من «لا» لأن «لا» موضوعها للبخل ، فكأنه قال : أبى جوده البخل ؛ والآخر : أن تكون « لا » زائدة ، والوجه الأول أعنى البدل أحسن ، لأنه قد ذكر بعدها « نعم » و « نعم » لا تزاد فكذلك ينبغى أن تكون « لا » ههنا غير زائدة . قال: والوجه الآخر على الزيادة صحيح . ومن جره فقال : « لا البخل » فبإضافة «لا» إليه ؛ لأن « لا » كما تكون للبخل فقد تكون للجود أيضا ، ألا ترى أنه لو قال لك الإنسان: لا تطعم ولا تأت المكارم ولا تقر الضيف فقلت أنت « لا » لكانت هذه اللفظة هنا للجود ، فلما كانت « لا » قد تصلح للأمرين جميعا أضيفت إلى البخل لما فى ذلك من التخصيص الفاصل بين الضدين » اهـ

هذا ـ ومما هو جدير بالذكر أن المقابلة فى البيت بين « لا » و « نعم » فى قوله : « واستعجلت به نعم » ترجح كثيرا أصالة « لا » ؛ بل لعلها تجعل هذا الوجه هو المتعين .

على أنا لو سرنا على ذلك الاحتمال الذى أراده فى البيت أنصار فكرة الزيادة وقلنا معهم : إن « لا » فى البيت زائدة ، وزيادتها هى من غير شك من قبيل الحشو الذى لا يعطى معنى ولا يفيد شيئا إلا وصل الكلام

---

(١) يراجع تفسير الطبرى ؛ وكذا مجمع البيان للطبرسى ج ٤ ص ٤٠١

(١) فى مادتى : « نعم » و « لا » .

وضبط وزن البيت على البحر المخصوص فغاية ما نصل إليه من ذلك هو أن « لا » قد تزاد فى الشعر ، وأنه قد تكون زيادتها من الحشو الذى لا يفيد معنى ولا يؤكد إثباتا ولا نفيا ؛ لكن ذلك كله لا يمكن أن يكون له أثر فى موضوع « لا » التى معنا فى آية الأعراف ، فإنها ليست من ذلك فى قليل ولا كثير ، ولا تدل زيادتها فى البيت على أنها زائدة فى الآية بوجه من الوجوه .

« خلاصـــة »

يتلخص مما قدمناه ـ مما حكاه ابن جرير عن بعض نحاة البصرة وبعض نحاة الكوفة ، وما أورده (الطبرسى) فى تفسيره ـ أن هؤلاء العلماء متفقون على زيادة «لا» فى الآية آية الأعراف .

غير أن منهم من يقتصر على الحكم بالزيادة فلا يبدى لها تعليلا ولا يبين لها حكمة ؛ بل هو يجعلها كالزيادة فى ذلك البيت ؛ « أبى جوده لا البخل » على ما يرى فيه ، ولا يبالى بأن الزيادة التى على هذه الشاكلة تكون حشوا لغوا لا معنى له ولا فائدة منه .

ومنهم من يجعل هذه الزيادة فى الآية لعلة الاستيثاق من حكم النفى وتأكيده .

« رأى الإمام الزمخشرى »

والآن ننتقل إلى وجه آخر من وجوه التخريج والتعليل لتلك الزيادة ، وهو ما سار عليه (الزمخشرى) وتبعه فيه جمع من العلماء ، ولا سيما النسفى الذى اقتصر مثله على القول بالزيادة وعلى طريقة توجيهها . قال جار الله : إن « لا » فى « ألا تسجد » صلة ، بدليل قوله : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » ومثلها « لئلا يعلم أهل الكتاب » بمعنى ليعلم . ثم قال : « فإن قلت » : ما فائدة زيادتها ؟ « قلت » توكيد معنى الفعل الذى تدخل عليه وتحقيقه ، كأنه قيل « ليتحقق علم أهل الكتاب » « وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك » ؟ (١)

هكذا يقرر الزمخشرى فى آية «الأعراف» أن «لا» زائدة فى قوله سبحانه : « ما منعك ألا تسجد » ويقول : إن الدليل على زيادتها هنا أنها لم ترد فى آية «ص» وهى قوله تعالى : قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » مع أن المعنى المقصود فى الآيتين واحد ، والغرض المسوق له الكلام فيهما متحد أيضا .

إذاً هى فى رأيه زائدة فى آية «الأعراف» ، كما هى ـ فى رأيه أيضا ـ زائدة فى آية «الحديد» : « لئلا يعلم أهل الكتاب » ، فإن قوله تعالى : « لئلا يعلم » هو ـ عند الزمخشرى ـ بمعنى « ليعلم » .

يقرر الإمام الزمخشرى ذلك ثم يتساءل

---

(١) الكشاف جـ ١ صـ ٤٨٠ .

عن فائدة زيادتها فى آية « الأعراف » وكذلك فى آية « الحديد » .

« ويجيب » بأن هذه الفائدة هى توكيد معنى الفعل الذى دخلت عليه كلمة النفى « لا » وتقويته وتحقيقه . فكأنه قيل فى آية « الحديد » بسبب زيادة « لا » : ليتحقق علم أهل الكتاب ؛ وفى آية الأعراف كأنه قيل - بسبب تلك الزيادة أيضا - « ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك » ؟

يعنى أن آية الحديد وردت لبيان الحكمة من الوعد الجميل الذى وعد الله به فى الآية السابقة المؤمنين الثابتين على الإيمان والتقوى - من أنه سبحانه يجازيهم أحسن الجزاء : يضاعف لهم الرحمة ويتفضل عليهم بالنور والهداية والمغفرة وأن هذه الحكمة هى إرادة أن يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، أى أنهم لا يملكون شيئا من أمر هذا الفضل ليخصوا به من يشاءون ويحرموا منه من يشاءون .

ثم إن غاية ما كانت تفيده الآية فى بيان حكمة ذلك الوعد : أنها هى إرادة أن يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله ؛ ولكنه يكون مجرد علم لا توكيد فيه ولا تحقيق لو قيل فى الآية : « ليعلم أهل الكتاب » على الإثبات من غير زيادة « لا » . لكن زيادة « لا » هذه قد حصلت تأكيدا لذلك العلم وتثبيتا له وتقوية لمعناه ، وصارت الآية كأنه قيل فيها - بسبب تلك الزيادة - : « ليتحقق ويتأكد علم أهل الكتاب بأنهم لا يقدرون على ذلك » .

وكذلك الحال فى آية « الأعراف » : « ما منعك ألا تسجد » فأنها - عند « الزمخشرى » - بمعنى : « ما منعك أن تسجد » ، غير أنها بدون زيادة « لا » إنما تفيد سؤال إبليس ، سؤال تبكيت وتوبيخ ، عن المانع الذى منعه من السجود لآدم ، من غير أن يكون فى ذلك تقوية ولا توكيد لفعل السجود . فلما زيدت « لا » أفادت تقوية ذلك الفعل وتوكيده ، فكأنه قيل - بسبب هذه الزيادة - على ما يرى « الزمخشرى » - ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ! ! .

هذا كلام « الزمخشرى » عمدة أهل التحقيق من العلماء ، ومرجع جمهرة عظيمة ممن عنوا بتفسير كتاب الله المجيد . وهو كلام لا ندرى كيف استساغه عقله الكبير ، وكيف رضيته واطمأنت به معارفه الواسعة وعلومه الغزيرة وخبرته بمذاهب القول وأصول اللغة وفنون الفصاحة وأساليب البلاغة ؟ .

لا ندرى كيف أن الكلام المشتمل على فعل مثبت لا يفيد إلا ثبوت معنى هذا الفعل من غير تقوية ولا تأكيد ، فإذا زيدت عليه

« لا » - وهى التى ليس لها فى أصل وضعها اللغوى معنى غير النفى والسلب والإزالة - فإنه يفيد بذلك معنى جديدا ، هو تقوية ذلك الفعل المثبت وتأكيد ثبوته ؟ .

من الذى يمكنه أن يقول ويقبل منه قوله إن لا يعلم ، مؤكد لمعنى يعلم ، أو ان لا تسجد مؤكد معنى « تسجد » ؟ .

إن الإثبات والنفى أمران متنافيان متعارضان ، بل إن النسبة بينهما هى كنسبة المتناقضين، فكيف يؤكد الثبوت بالنفى مع ورودهما على مورد واحد ؟ .

كيف يقال - فى الكلام الذى جاء على صورة انتفاء حكم - إن معناه هو ثبوت ذلك الحكم ، بل ثبوته بقوة وتأكد لم يكونا حاصلين له من قبل ؟ .

ثم كيف يمكن إقناع من يعادى القرآن ويخالفه ويدعو إلى مناهضته ومحاربته والوقوف فى سبيل دعوته - كيف يمكن إقناعه بصحة قضايا القرآن وسلامة أحكامه إذا قلنا له - على طريقة « الزمخشرى » ومن تابعه - إن هذه القضايا قد يكون فيها ما تكون صورته صورة الحكم بالنفى ، لكن معناه - فى باطن الأمر - على الإثبات ؟ .

ألا إن هذا الذى ذهب إليه الإمام « الزمخشرى » لا يسلم له دليل ، ولا ينهض له شاهد من لغة أو عرف ؛ بل إن الشواهد كلها واللغة والعرف على خلافه .

« نظرة فى أقوال العلماء فى آية الأعراف »

قدمنا الكلام على القول بزيادة « لا » فى آية الأعراف ، وعقبنا ببيان ما يلزم على هذا القول - على اختلاف وجهات النظر فى تطبيقه عند القائلين به - مما لا يصح أن يكون مثله فى القرآن الكريم .

وبينا أن السؤال فى الآية هو - فى الحقيقة - سؤال عن المانع من السجود ، وأن آية أخرى ورد فيها السؤال عن المانع من السجود أيضا ولكن لم ترد فيها كلمة « لا » وهى آية (ص) التى يقول الله سبحانه وتعالى فيها: (قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) .

وقد قلنا - ونعيد القول هنا - إن هذا لا يحتم أن تكون « لا » فى آية « الأعراف » زائدة .

إنه لا يحتم هذه الزيادة ، ولا يكون بحال علامة عليها ، ولا يبيح القول بأن « مامنعك ألا تسجد » معناه « ما منعك أن تسجد » .

إنه لا يجوز أن يجازف هكذا - من غير بينة - بالقول بزيادة كلمات فى الكتاب العزيز ، ولا سيما إذا كانت هذه الزيادة مما يوجب الاضطراب ، واختلاط الأمر بين السلب والإيجاب ، كالقول بزيادة « لا » فى مقام الإثبات .

ومن هنا نجد « ابن جرير » - بعد ماعرض

آراء بعض نحاة البصرة والكوفة ، وهى الآراء التى تدور على اعتبار (لا) فى آية الأعراف زائدة ، وبعد ما بين وجهى نظر الفريقين ـ نجده يصرح برجحان القول بأصالة الكلمة ويقول : إن هذا القول هو الصواب لأنه غير جائز أن يكون فى كتاب الله شىء لا معنى له ؛ فالقول بأن (لا) فى الآية وقعت حشواً لا معنى لها قول فاسد .

وقد ذكر فى توجيه أصالة الكلمة أنه يلزم تقدير فعل يصح معه المعنى ويدل عليه المقام وسابق الكلام ، وقال : إنه بذلك يصير حاصل معنى قوله تعالى : (ما منعك ألا تسجد) ، (ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد) (١) .

وكذلك نجد (الفخر الرازى) ـ بعد ما أورد القول بالزيادة ، وقال : إنه القول المشهور ، وهو قول الكسائى والفراء والزجاج والأكثرين ـ نجده يعقب بقول آخر يرى : أن كلمة (لا) فى الآية مفيدة ، وليست لغوا . ثم يقول : وهذا هو الصحيح ؛ لأن الحكم بأن كلمة من كتاب الله لغو لا فائدة فيها مشكل صعب .

وقد عرض الفخر طريقة لتوجيه ذلك القول الصحيح ، قال فيها : (إن الله ذكر المنع وأراد الداعى ؛ فكأنه قال : (ما دعاك إلى أن لا تسجد) ؛ لأن مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعى إليها) (١) .

وهذا ظاهر فى الحكم بأن فى الكلام مجازاً مرسلا بعلاقة اللزوم .

وسنعرف بما سيأتى فى بيان الوجه المختار أن الآية من التضمين وليست من قبيل المجاز .

والعلامة أبو السعود ـ بعد ما أورد القول بالزيادة على نحو ما عند الزمخشرى ـ قال : (وقيل الممنوع عن الشىء مصروف إلى خلافه ؛ فالمعنى : ما صرفك إلى أن لا تسجد) ؟ (٢)

وهذا القول يميل أيضاً كسابقه إلى أن فى الآية مجازاً مرسلا علاقته اللزوم .

أما أبو حيان فإنه ـ بعد ما قدم القول بالزيادة كما فعل غيره ـ قال ما نصه : (وقال قوم : (لا) فى (ألا تسجد) ليست زائدة ، واختلفوا فقيل يقدر محذوف يصح معه المعنى وهو (ما منعك فأحوجك ألا تسجد) ـ وهذا هو ما سار عليه الطبرى ، وقيل يحمل قوله : (ما منعك) معنى يصح معه النفى ، فقيل معنى

---

(١) تفسير الطبرى جـ١٢ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ دار المعارف .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٤ ص ١٨٦ المطبعة الشرفية .

(٢) تفسير أبى السعود المطبوع على هامش التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٤ ص ٣٥٩ .

(ما منعك) . من أمرك ومن قال لك ألا تسجد) ؟ (١)

وظاهر هذا الرأى الثانى أن المراد به المجاز المرسل بعلاقة اللزوم ، ويحتمل - ولكن على بعد - أن المراد به معنى التضمين .

« الوجه المختار فى آية الأعراف » :

إن آية (الأعراف) التى معنا ، قد اشتملت على سؤال إبليس سؤال تبكيت وتوبيخ عن سبب تمرده وعصيانه أمر ربه وإبائه السجود لآدم عليه السلام سجود التحية والتكريم .

وقد وردت فى هذا المقام ثلاث آيات من القرآن الكريم جاءت بأساليب مختلفة :

(الأولى) قوله تعالى : (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) (آية ٧٥ من سورة ص) فإن السؤال فيها واضح أنه عن المانع الذى منع إبليس من السجود . وقد اتبع بسؤال آخر فصل فيه - على سبيل التبكيت والتوبيخ - ما عسى أن يكون ذلك المانع، وهو قوله تعالى: (أستكبرت أم كنت من العالين) ، أى هل الذى منعك من السجود هو الكبر والتعالى الكاذب أو هو أنك من العالين حقيقة ؟

(الآية الثانية) قوله تعالى : « قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين » (آية ٣٢ من سورة الحجر) .

والسؤال فيها واضح أيضا أنه ليس عن مجرد المانع من السجود ، وإنما هو عن السبب الباعث على ترك السجود ، فهو فى معنى أى شىء حصل لك حتى حملك على ترك السجود مع الساجدين ؛ ولا شك أن السبب الباعث والدافع على ترك الفعل أقوى فى التأثير من مجرد المانع من الفعل ، فهما أمران متغايران وإن كانا متقاربين .

(الآية الثالثة) آية الأعراف التى معنا : قوله تعالى : « قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » .

فإن فيها سؤالا صريحا عن المانع ، لكن الفعل (منع) لم يعد إلى المفعول الذى عدى إليه فى آية (ص) وهو السجود ، بل عدى إلى عدم السجود .

فهل مجرد هذا يكفى للحكم بزيادة (لا) فى آية الأعراف إذ قد جاءت بدونها تلك الآية الأخرى؟ لا . لا . إنه لا ينبغى أن يرسل القول هكذا سريعا وجريئا ، وأن يحكم بزيادة الكلمة بغير موجب ولا ضرورة ، ولا سيما تلك الزيادة الغريبة التى توجب اختلاط الأحكام، والتى تبرز الحكم الثبوتى فى صورة الحكم بالنفى .

إن القول الذى يلزم عليه أن صورة النفى تأتى لإثبات المعنى المنفى او لتأكيد ثبوته هو قول لا ينبغى أن يصار إليه ؛ وليس

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ح ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

هناك ضرورة تحتم القول بزيادة (لا) فى آية الأعراف حتى تأتى هكذا فى تلك الصورة التى تأباها بلاغة القرآن .

بل إن ههنا مجالا رحبا، ووجها سديدا سهلا، يصرف عن القول بتلك الزيادة ، ويعفى من محاولة اقتحام مآزقها الضيقة الصعبة .

إن الآيتين الأخريين من سورة (الحجر) وسورة (ص) تشيران إلى ذلك المجال الرحب وتوجهان لذلك الوجه السديد السهل، وترشدان إلى سر ذلك التعبير الخاص الذى جاءت عليه آية الأعراف . إنه التضمين الذى هو من أقوى ما امتازت به بلاغة القرآن وأجمله وأبرعه .

ذلك التضمين قد جمعت به آية الأعراف ما اشتملت عليه الآيتان الأخريان من المعنى :

جمعت به السؤال عن المانع من السجود ، والسؤال عن الباعث على ترك السجود ، بطريقة يدركها من يعنى بمراعاة الدقة والتعمق فى تفهم الآيات القرآنيـــة ولا سيما فى مثل هذا المقام .

هذا التضمين إما أن يكون تضمينا نحويا لفعل (منع) يصير به مشربا معنى فعل آخر يفيد (الحمل والبعث) بحيث لا يفقد الفعل الأول معناه ولا عمله ، وبذلك يتعدى إلى مفعوله الخاص الذى كان له قبل التضمين ، ويتعدى أيضا إلى مفعول آخر يناسب معنى الفعل الثانى بسبب التضمين .

غير أن التضمين يقتضى طى المفعول الذى كان للفعل الأول ، للعلم به ودلالة المقام عليه ؟ كما يقتضى التصريح بالمفعول الذى يتطلبه الفعل الآخر بعد أن يطوى هذا الفعل ويحمل الأول الفعل معناه ، ويكون تقدير الكلام حينئذ : « مامنعك من السجود وما حملك على ألا تسجد » ؟

فالفعل (منع) الذى أشرب معنى حمل أو بعث لم ينسلخ عن معناه الأصلى ، بل صار - بإشرابه معنى الفعل الثانى - يدل على المعنيين جميعا .

ومن أجل ذلك يبقى متعدياً إلى مفعوله الأصلى المطوى ، ثم يتعدى إلى مفعول الفعل الآخر الذى هو فى باطن ذلك الفعل الأول بسبب التضمين (١) .

---

(١) التضمين يكون فى الأفعال والأسماء . وقد اختلف فيه : هل هو قياسى أو سماعى ؛ والظاهر أن اختلاف النظر فيه راجع إلى أنه كثير فى اللغة كثرة خولت لفريق من العلماء أن يقولوا بقياسيته ، لا بل أكثر العلماء على أنه قياسى كما فى الارتشاف لأبى حيان وغيره .

وقد اختلف العلماء أيضا فى المعنى الذى يدل عليه اللفظ بالتضمين ، فقال بعضهم : إن المعنى المراد من اللفظ المضمن معنى لفظ آخر هو معنى ذلك اللفظ الآخر ، قد دل عليه بطريق المجاز المرسل ؛ فاللفظ المضمن لا يفيد =

وإما أن يكون تضمينا بيانيا يصاغ فيه من الفعل الثانى اسم فاعل يكون حالا من فاعل الفعل الأول ، مع طى مفعول هذا الفعل الأول كما فى التضمين النحوى ، ثم يكون المفعول المصرح به مفعولا لاسم الفاعل(١) وتقدير الكلام على ذلك : « ما الذى منعك من السجود حاملا لك على ترك هذا السجود؟

وبما قدمناه ـ من أن الفعل « منع » فيه تضمين وأنه لم ينسلخ بهذا التضمين من معناه الذى كان له قبل ذلك ـ يعلم أن ما نقله الشيخ «الألوسى» عن «السكاكى» من أن فعل المنع فى الآية مجاز عن الحمل ، وكذلك ما نقله عن

= حينئذ غير هذا المعنى . ولكن المرجح الذى عليه الجمهور الغالب من العلماء أن اللفظ بالتضمين يفيد معنيين اثنين : المعنى الحقيقى للفظ المضمن ومعنى اللفظ الآخر . غير أنهم اختلفوا مع ذلك : هل يكون اللفظ باقيا على حقيقته مفيدا معناه الأصلى أو يتحول إلى نوع من المجاز أو الكناية ؟ فقال بعضهم إن دلالته على المعنيين حينئذ تكون بطريق المجاز بعلاقة الجزئية والكلية ، فإنه كان دالا على معناه الأصلى وحده ، فإذا أريد به مع هذا المعنى معنى آخر كان ذلك من طريق المجاز . وقال آخرون : إنه يدل على كل من المعنيين بطريق الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وممن قال بهذا العز بن عبد السلام . والذين يمنعون الجمع بين الحقيقة والمجاز يقولون : إن اللفظ يدل على المعنيين جميعا ولكن من طريق عموم المجاز ، وذلك بأن يراد به ـ بطريق التجوز ـ معنى واحد عام ينطبق على كل من المعنيين . وقال بعضهم : إن دلالته على المعنى الثانى بطريق الكناية ، فتكون دلالته على المعنى الأصلى للانتقال منه إلى المعنى الثانى . وقال السيد الجرجانى : إن اللفظ باق = على حقيقته دالا على معناه الأصلى ثم يفيد معنى اللفظ الآخر بطريق الاستتباع ، أى الدلالة الجانبية ، يفهم فيها المعنى من عرض الكلام وجانبه ، ولا يكون اللفظ حقيقة فى ذلك المعنى الجانبى ولا مجازا ولا كناية . ويرى السيد أن ذلك جائز وأنه يمكن أن يمثل له بقولك لشخص : آذيتنى فستعرف إذ هو يدل على التهديد ، وقولك : إن زيدا لقائم فى دلالته على إنكار المخاطب .

ونحن نقول : إن منه قول الله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن » فى دلالته على أن النسب يكون للآباء لا للأمهات . وقوله سبحانه : « إذا جاء نصر الله والفتح » الآية فى دلالته على قرب أجل الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) إذا كان العلماء مختلفين فى التضمين النحوى من حيث قياسيته فهم متفقون فى التضمين البيانى أنه قياسى ، لأنه من قبيل حذف العامل بدليل ، وذلك شىء لاشبهة فيه .

بعض العلماء غير « السكاكى » من أنه مجاز عن الإلجاء والاضطرار ليس بوجيه ؛ فإن المجاز - كما هو معلوم - لا يصح فيه إرادة المعنى الحقيقى للفظ ، بل لا بد أن تكون هناك قرينة تمنع من إرادة هذا المعنى .

وإذاً يكون الصواب هو ما أفادته عبارة « الألوسى » التى أتى بها عقب ما تقدم ؛ وهى قوله : « وجوز أن يكون ذلك من باب التضمين » ؛ وذلك على رغم أنه أرسلها سريعة عابرة وجد مختصرة (١) .

هذا - ويمكن أن يقال : إن التضمين الذى معناها فى آية الأعراف قد اشتمل على ما يسمى الاحتباك أو ما هو شبيه بالاحتباك ، وهو أن يكون فى الكلام عبارتان يحذف من كل منهما ما ترشد إليه الأخرى .

والعبارتان اللتان تضمنتهما آية الأعراف هما : « ما منعك ان تسجد » (وما اضطرك أو ما دعاك ألا تسجد) ؛ فحذف من العبارة الأولى المفعول ، وهو (أن تسجد) ، لأن العبارة الثانية - وهى للتوبيخ على ترك السجود - تدل على ذلك المحذوف الذى سئل فى العبارة الأولى عن المانع منه .

وحذف من العبارة الثانية الفعل (دعاك او اضطرك) ، لأن السؤال عن المانع من السجود فى العبارة الأولى يدل على أن ترك السجود فى العبارة الثانية لابد أن يكون له داع وسبب ، فهو المسئول عنه فيها .

وإذا كان هذا كله قد أصبحت تؤديه - بعد التضمين - جملة واحدة فقد صار لازما أن يكتفى فى ذلك بأداة استفهام واحـــدة . والله أعلم (آية طه) .

ومن القسم الثانى هذه الآية من سورة (طه). وهى قوله تعالى : (قال ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) .

« أقوال العلماء فى الآية » :

فى هذه الآية يسأل سيدنا موسى أخاه هارون عليهما السلام سؤال تأنيب وتعنيف إذ أنه لم يتبعه حين رأى القوم قـــد ضلوا وانحرفوا بعبادة العجل عن سبيل الإيمان عاب عليه أنه - حين رأى ذلك منهم - لم يتبعه ولم يلحق به بمن بقى على الإيمان من القوم .

لكن الآية - فى ظاهرها - تعطى أنه يلومه ويعنفه ويسأله عن المانع الذى منعه من عدم اتباعه ؛ وهذا بالضرورة غير مراد ، بل هو نقيض المراد .

وطريق فهم الآية على الوجه المطلوب هو عين الطريق الذى فهمت به آية الأعراف: (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) ؛ فإن أسلوب الآيتين واحد ، لا يختلف فى شىء من حيث إنه قد جمع فيه بين فعل المنع وأداة النفى على ذلك الوجه الخاص .

ولذلك اختلف العلماء فى هذه الآية من

(١) تفسير روح المعانى للألوسى جـ ٨ ص ٨٨ المطبعة المنيرية .

سورة « طه » كما اختلفوا فى آية الأعراف.

فمنهم من يرى أن (لا) زائدة ، ويقتصر على هذا الوجه (كالزمخشرى) .

ومنهم من يجيز أيضا أن تكون أصلية ؛ على أن يقدر فى الكلام فعل يستقيم به المعنى مع أداة النفى ، أو يحمل الفعل : (منع) على معنى آخر بطريق المجاز ليستقيم الأمر مع ذلك النفى .

قال (الزمخشرى) : (لا) مزيدة ، والمعنى ما منعك أن تتبعن فى الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصى؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ؛ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدا ؛ أو مالك لم تلحقنى ؟ الكشاف (جـ ٢ ص ٣٣) .

وقال (النسفى) : « قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا » بعبادة العجل (ألا تتبعن) أى ما دعاك إلى أن لا تتبعن ؛ لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشىء وبين الداعى إلى تركه .

وقيل: (لا) مزيدة ، والمعنى أى شىء منعك أن تتبعن حين لم يقبلوا قولك وتلحق بى وتخبرنى . أو ما منعك أن تتبعن فى الغضب لله ؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ، ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً ؟ (جـ ٣ ص ٤٩) .

وقال (الفخر الرازى) : أما قوله : « ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن » ففيه وجهان:

(الأول) : أن (لا) صلة ، والمراد ما منعك أن تتبعن .

و (الثانى) : أن يكون المراد ما دعاك إلى أن لا تتبعن فأقام (منعك) مقام دعاك . التفسير الكبير (جـ ٦ ص ٦٨) .

وقال (الألوسى) : (ألا تتبعن) أى تتبعن ، على أن (لا) سيف خطيب ، كما فى قوله تعالى: « ما منعك ألا تسجد » . . . ، ثم قال : وقال على بن عيسى : إن (لا) ليست مزيدة ، والمعنى ما حملك على عدم الاتباع ، فإن المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابله . (روح المعانى جـ ١٦ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ المنيرية) .

وقال أبو السعود: (ألا تتبعن) أى أن تتبعن ، على أن (لا) مزيدة . ، وقيل المعنى : ما حملك على ألا تتبعن ؛ فإن المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابله . (جـ ٧ ص ٥١ الشرفية)

وقال أبو حيان : (لا) زائدة كهى فى قوله : « ما منعك ألا تسجد » . وقال على بن عيسى : دخلت (لا) هنا لأن المعنى: (ما دعاك إلى أن لا تتبعن) وما حملك على أن لا تتبعن) . (البحر المحيط جـ ٦ ص ٢٧٢)

وظاهر من هذه الأقوال أن من يرى أن (لا) فى الآية يمكن أن تكون أصلية فإنه يجعل فعل المنع من باب المجاز المرسل بعلاقة اللزوم : ففعل (منعك) هو بمعنى دعاك أو حملك ؛ فهو مستعمل فى اللازم ، ولكن على غير طريقة الكناية ، فإنه لا بد فى المجاز من قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقى للفظ ، والكناية ليست كذلك كما هو معلوم .

غير أن ههنا ملاحظتين :

(الأولى) أن (النسفى) فى آية (الأعراف) قد تابع (الزمخشرى) فى القول بزيادة (لا) مع الاقتصار على ذلك الوجه ؛ لكنه هنا فى آية (طه) يجيز أيضا كونها أصلية ، بل لعل صنيعه فى عرض الاحتمالين يفيد أنه يرجح القول بالأصالة ، وهذا قد يبدو غريباً من حيث إن الآيتين - كما قلنا - لا تختلفان فى شىء ما من الناحية التى هى محل الكلام .

(الملاحظة الثانية) أن الألوسى الذى قال هناك فى آية الأعراف : إنه يجوز أن تكون العبارة من باب التضمين قد سكت هنا عن أن يعرض بشىء لهذا التضمين ، كأن معنى التضمين لا يروقه كثيراً فى هذه الآية أو فى الآيتين جميعاً على تفاوت فى الدرجة والله أعلم .

(الوجه المختار فى آية طه) :

إن ما يقال هنا - على أنه الوجه المختار لحل الإشكال الظاهرى فى الآية - هو عين ما قيل فى آية الأعراف ؛ فإن الأسلوب فى الموطنين واحد ، لا يختلف بوجه من الوجوه :

(ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) ؛

(ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) .

هاتان هما الآيتان اللتان يدور عليهما الكلام ، فهل يستطيع أن يدعى مدع أن بينهما فرقا أى فرق من حيث الجمع بين فعل المنع وأداة النفى ، ذلك الجمع الذى يقتضى - فى ظاهره - أن السؤال هو عن المانع من عدم السجود فى الآية الأولى ، وعن المانع من عدم الاتباع فى الآية الثانية ، على حين أنه من المحال أن يكون الأمر كذلك .

وإذاً يكون الحل أن الآية هنا فيها تضمين كالذى هناك ، وأن فعل (منع) قد طوى مفعوله ، لكنه يكون مقدراً ومقصوداً غير محذوف متروك كما أن فعلا آخر قد طوى بعد أن حمل فعل (منع) بمعناه وعدى إلى مفعوله . وعلى هذا يكون تقدير الكلام :

(ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن تتبعن) وما حملك على (ألا تفعل) أى على ألا تتبعن ؟

فطوى من العبارة الأولى مفعول (منعك) وهو (أن تتبعن) للعلم به : إذ أن العبارة الثانية تدل عليه ؛ فإن السؤال الذى فيها عن الحامل على عدم الاتباع يعلم منه أنه حين يسأل عن المانع يكون المراد المانع من الاتباع نفسه .

كما أنه قد طوى من العبارة الثانية فعل الحمل بعد أن حمل بمعناه فعل المنع ؛ فإن العبارة الأولى تدل عليه ؛ فإنه ما دام أن السؤال فى هذه العبارة هو عن المانع من الفعل الذى هو الاتباع فقد لزم فى العبارة الثانية التى صرح فيها بعدم الاتباع أن يكون السؤال فيها عن الحامل على ذلك ، وبهذا يكون فى الكلام تضمين ، ويكون فيه أيضاً ما يشبه الاحتباك ؟

(يتبع) عبد الرحمن تاج

مثل عليا من سيرة عمر بن الخطاب

للأستاذ محمد محمد المدنى

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه آية فى حب العدل ، والمساواة بين الرعية ، وتحرى كل ما يقوم عليه صلاح الأمة ، واستقامة أمرها ، واعتدال ولاتها وعمالها .

وما يشاء ولى للأمر فى عصر من العصور ، ولا عامل من العمال ، ولا قاض من القضاة ، ولا قائد من القواد ، أن يستهدى فى عمله بهدى صالح ، ويستن فيه بسنة واضحة ؛ إلا وجد ذلك فى هدى عمر ، وسنة عمر ، اللذين هما من هدى رسول الله ، وسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ولذلك تمر الأحقاب والدهور ، وتتوالى النظم والدول فى مختلف العصور ، ولا يزال العدل العمرى هو المقياس السليم للعدل الإسلامى ، ولما يجب أن يكون عليه العدل البشرى .

ولقد كان القرآن الكريم ينزل أحيانا بتصويب رأى عمر فيما كان يعرض من مشكلات تحتاج إلى حلول ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » ، ويقول : « لقد كان فيمن كان قبلكم محدثون ـ أى ملهمون بالصواب ـ فإن يكن فى أمتى أحد منهم فعمر بن الخطاب » .

وما ذاك إلا لأن عمر أيقظ رأيه ، وأنام هواه ، وحشد مواهبه كلها فى خدمة الدين والأمة ، احتسابا لله وإخلاصاً وصدق نية ، فلم يعد بينه وبين الحق والصلاح حجاب يحجب عنه رؤيتهما ، ويسر الله له أن يعيش حياته بين الرسول وأصحابه حراً كريما طليق النفس من عقد تعقده ، أو عقد يعقده ، ثم يسر له أن يعيش فى منصب الإمامة الكبرى عشر سنين بعد صاحبه أبى بكر رضى الله عنه ، وقد سكنت ثائرة الفتنة التى تشبت بعد وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وقضى عليها أبو بكر القضاء الأخير ، بمواقف حزمه التى حفظها له التاريخ ، ولاسيما فى حروب الردة : لقد تولى عمر مركز القيادة الأعظم ، والأمور الداخلية مستقرة ، والعرب كلهم مجتمعو الكلمة ، فتفرغ للإصلاح والفتح والتولية على الأمصار وتدوين الدواوين ، وتوطيد نظام الدولة فى كل شأن من الشئون ، دينياً كان أم دنيوياً ، حتى أصبحت الدولة الإسلامية دولة قائدة يخشى بأسها فى العالم ، ودولة رائدة ما يزال التاريخ يحتفظ لها فى المثالية الحكمية بمرتبة الصدارة .

ومن الخير لأمتنا العربية ، وقد تحدثنا فى الفصول السابقة عن وجوه التوافق بين

أهدافنا وأساليبنا الحكمية ، وأهداف الإسلام وإصلاحاته ، أن نعرض لبعض الصور التطبيقية لعدل الإسلام كما نراه فى سيرة عمر ، ليرى فيها كل منا ما ينبغى أن يتعشقه من مثل عملية ، وأن يأخذ به نفسه حيث كان ، وحيث أقامه الله فى عمل من الأعمال ، فإن من أقرب وسائل الإصلاح والاستقامة ، أن تكون المثل العليا رائدة ، وصور الكمال حاضرة شاهدة .

فمن ذلك ما روى فى كتاب (الإصابة فى أخبار الصحابة) من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يوما لأصحابه ومستشاريه : دلونى على رجل استعمله على أمر قد أهمنى - أى أجعله عاملا لى على أمر هام من أمور الأمة - قالوا : فلان ، قال: لاحاجة لنا فيه . قالوا : فمن تريد ؟ قال : أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس رئيسهم كان كأنه رئيسهم ، وإذا كان رئيسهم كان كأنه رجل منهم . قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا فى (الربيع ابن زياد الحارثى) ، قال صدقتم : فولاه . (٥٠٤ جـ ١ من الإصابة) .

إن هذه الكلمات الموجزة تفصح أيما إفصاح عن صفة (العامل) للدولة ، أو (الموظف الكبير) فى شأن من شئونها ، فإن هناك رجالا خلقهم الله تعالى مهيئين بصفات خلقية عملية تجعلهم صالحين للصدارة فى الأعمال ، بحيث تبدو منهم هذه الصلاحية واضحة تراها كل عين ، ويتحدث بها كل لسان ، وإن لم يكونوا رؤساء أو متصدرين ، فهم يخلصون للمصلحة حدبا عليها ، وحبا لها ، وحرصا على أن تسود وترتفع رايتها ، ولا يهمهم أن تكون سيادتها ورفعتها على أيديهم أو على أيدى غيرهم ، فيتجرد إخلاصهم لها ، طبعا لا تطبعا ، وصنعا لا تصنعا ، فهم فى الحقيقة ولاتها أو أولياؤها وإن لم يتولوها بقرار يصدر ، أو رسم يرسم ، فإذا عهد إليهم بأمر ، وكانت لهم فيه رياسة وصدارة ، لم تنسهم رياستهم وصدارتهم أنهم خدام المصلحة ، الذين يقومون بها ولها ، فتراهم يفنون فى سبيلها ، ويلقون بأنفسهم فى تيارها ، لا يعرفهم الناظر إليهم ، المراقب لعملهم ، إلا بأنهم (عاملون) ولا يكاد يلتفت إلى مالهم من رياسة أو صدارة ، ذلك بأنهم اندمجوا فيما حولهم ، وفيمن معهم ، فلم يعد أحد يعرف : من الرئيس منهم ومن المرءوسين ؟ ومن القائد فيهم ومن المقودون ؟ وهذا الصنف من الرجال معروف فى كل بيئة وفى كل ديوان من دواوين الوزارات والمصالح والمؤسسات ، وليس البحث عنه والوصول إليه بعسيرين على من شاء ، وأمثالهم هم الذين تصلح بهم وعلى أيديهم شئون الأمة ، وتستقيم أحوالها .

فعمر رضى الله عنه تأمل وفكر ، ورسم وحدد ، ثم سأل واستشار ، فانتهى إلى المعرفة والهداية إلى ما يريد ، فنفذ .

وإذا رجعنا إلى (الربيع بن زياد) الذى رضى به عمر وولاه ، لم نجده إنسانا متظاهرا بالصلاح والتقى ، أو متزلفا يدعى ما ليس فيه ، أو متوسلا بذى جاه ونفوذ يقدمه ويثنى عليه ، ولكنه كان رجلا صارما فى الحق ، حريصا على المصلحة ، مستقيما لا يعرف له انحراف ، ولا ركون إلى هوى نفس ، لذلك ولى هذا الأمر فصلح له ، وصلح به .

ومن ذلك ما رواه (ابن الجوزى) وغيره « من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يجلس فى بيته ، وعنده رجل يريد أن يوليه أمرا من أمور الرعية ، فجعل يملى الكاتب نص العهد أى القرار ـ بتوليته ، فجاء صبى من آل عمر فجلس فى حجره ، فجعل يلاطفه والرجل يتعجب من ذلك ، كأنه يرى أن أمير المؤمنين لا ينبغى أن يكون على هذه الرقة والاشتغال بأمر صبى فى مجلس كهذا فقال : يا أمير المؤمنين إن لى عشرة من الولد مثله ما دنا أحد منهم منى ! قال عمر : فما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك : وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ثم قال لكاتبه : مزق الكتاب ـ أى القرار الذى كان يكتبه بتوليته ـ فإنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية؟» (ابن الجوزى ص ١٠٤) .

وهذا المعنى الذى لا حظه أمير المؤمنين عمر ، هو مقتبس من أدب النبوة ، فقد حدث مثل ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فإن (الأقرع بن حابس) رآه يقبل ابن بنته الحسن رضى الله عنه ، فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من لا يرحم لا يرحم » .

فإذا كان (الأقرع بن حابس) وهو عظيم من سادة العرب . يتفاخر بأنه رجل مهيب يترفع عن العطف على أولاده ، فإن رسول الله صلى الله عليه يزجره عن هذا المبدأ ويشير إليه أن هذه قسوة لا يحبها الله ولا يرحم صاحبها ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلاعب الأطفال ويلاطفهم ولا يترفع عن مخالطتهم ، وأنه حمل طفلا وهو يصلى . وأنهض طفلا من عثرة عثرها وهو يخطب ، وأنه غسل بيده وجه أسامة وهو صبى ؛ وأنه قال « من كان له صبى فليتصاب له » أى فليكن معه كما يكون الصبى مع الصبى ، ملاطفة له وإيناسا .

هذا هو المبدأ السليم الموافق للفطرة والحكمة فى معاملة الأطفال ، لا مبدأ (الأقرع بن حابس) وأمثاله .

ولذلك عرف عمر هذا الدرس النبوى ووعاه وطبقه على نفسه ، فعطف على ولده ولاطفه ، وزجر الرجل الذى سأله فى ذلك وقال له مثل ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم الآخر .

والعبرة التى نريد أن نلتفت إليها من ذلك هى أن عمر رضى الله عنه كان صاحب ذوق إدارى ، وبصيرة حكمية ، إلى هذا الحد ، حتى إنه لما فهم عن الرجل قسوته وشدته على أولاده ، أدرك أن مثل هذا لا يمكن أن يرحم الرعية ، بل سيكون معها على مثل هذه القسوة ، وأن قسوته عليها لأشد لأنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

وقد يكون عمر معروفا بالشدة والقوة ، ولكن شدته وقوته كانت فى سبيل الحق والمصلحة ، وكان إلى جانب ذلك فيه رحمة بالضعيف وكان يقول : (اللهم إنى شديد فلينى لأهل طاعتك) ، فللشدة مقام ، وللرحمة مقام ولذلك كان عمر يجوس خلال الديار ليلا ليعرف أخبار الرعية ويرحم ضعفاء الناس ، وحوادث ذلك فى تاريخه كثيرة معروفة ، مع أنه هو صاحب الدرة التى كان يحملها فى يده ويخيف بها من حاد عن سواء السبيل فى شىء ما .

ومما يدل على ما فى طبيعة عمر من الرقة ما عرف به من الخوف من الله ، فكان هذا الخوف هو الذى يدعوه إلى أن يفنى فى أمور الرعية ، ويتحرى الحق والعدل ، وكان يقول : (والله لو عثرت دابة فى طريق البصرة لرأيت أن الله سائلى عنها : لم لم أمهد لها الطريق ؟) ! وسمع بكاء طفل رضيع ذات ليلة وهو يعس فى الظلام ، فسأل عن سبب هذا البكاء فأعلموه أن أمه قد فطمته قبل أوان فطامته لكى يفرض له أمير المؤمنين نصيبه ، فإنه كان لا يفرض للرضعاء إلا بعد الفطام ، فجزع عمر جزعا شديدا ، وعلم أن الله سائله عن ذلك ، فما لبث أن أمر منادياً ينادى فى الناس : أن أمير المؤمنين يفرض للرضعاء عطاء ، ولا ينتظر بهم حتى الفطام ، فلتشبع الأمهات بعد اليوم أطفالها !

إلى هذا الحد كان عمر رقيق القلب ، شديد الخوف من الله فى شئون الرعية .

وقد روى الحسن أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يصلى ، فقرأ قوله تعالى : « إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع » فربا لها ربوة عاده الناس منها عشرين يوما ! أى أصيب بربوة فى صدره من شدة الخوف حتى مرض بسببها ، وجعل الناس يعودونه ـ أى يزورونه فى مرضه ـ عشرين يوما .

وعن عبيد بن عمير قال : صلى بنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه صلاة الفجر ، فافتتح سورة يوسف فقرأها ، حتى إذا بلغ

قوله تعالى - عن سيدنا يعقوب عليه السلام - « وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » بكى حتى انقطع ، وفى رواية لما انتهى إلى قوله تعالى «إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله» بكى حتى سمع نشيجه - أى صوت بكائه - من وراء الصفوف » (الاعتصام للشاطبى ص ٣٨٤ ج ١) .

وهذه الرقة والخشية لله تعالى مبعثها قوة الإيمان ، وهى عصمة المؤمن ؛ فإن الله تعالى يصف عباده المتذكرين بأوصاف منها قوله جل شأنه « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

وقد حدث بعض الصحابة رضوان الله عليهم فقال: انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل (يعنى من البكاء) - والأزيز صوت يشبه غليان القدر .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى بشره ربه بقوله « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » - يبكى خشية من ربه ، فحق لعمر ولغير عمر - ولا سيما الذين يحملون أمانات الأمة - أن يبكوا من خشية الله ، فإن هذه الخشية تعصمهم من أن يزلوا أو يضلوا وتضىء لهم سبيل الرشاد .

ولقد نعلم أن رجالا من أمتنا العزيزة قد أنعم الله عليهم ، إذ وسد لهم الأمر ، وحملهم أمانة الحكم ، وأن منهم من لا يبيت ليله إلا متدبرا متفكرا خائفا من ربه، حريصا على أداء أماناته ، تغرورق عيناه بالدموع إذا ذكر نعمة الله عليه . ويسائل نفسه ماذا فعل فى سبيل شكرها . وماذا هو فاعل، وإن بدا أمام الناس ، قوى الشكيمة ، شديد المراس !

وهذه الخشية هى منبع الشعور بالمسئولية وبالرقابة الذاتية ، وهما المبدآن اللذان يقوم عليهما صلاح الأمم ، وقوة الشعوب ، وإن اشترا كيتنا الرشيدة لتنشدهما وتناشد فى شأنهما كل فرد من أفراد الأمة ، حتى يحس بذلك العامل فى عمله، والموظف فى وظيفته ، والعضو المسئول فى جماعته ، والأستاذ فى جامعته ، والزارع فى زراعته ، وكل راع فيما استرعاه الله .؟

محمد محمد المدنى

نفحات القرآن

من قبسات الهداية :

فى الموازنة بين المبطلين والمحقين

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون » ١٥ هود .

١ ــ هنا عشر آيات ـ أولها : ماذكرنا . وآخرها : مثل الفريقين ـ رقم ٢٤ .

والآيات العشر : فيها موازنة بين الجانبين . وفيها وقوف بنا عند هذه الموازنة لنرى : كيف تكون جناية الأحمق على نفسه ؟ ؟

وكيف تكون عدالة الله بين خلقه ... وكيف تكون العبرة لمن كان بصيراً بعواقبه : فى الدين ... أو فى الدنيا .

ومعلوم لنا أن توجيهات القرآن عامة ، ولا تقف عند جانب واحد .

(١) يقول ـ تعالى ـ : « من كان يريد الحياة الدنيا ، وزينتها ، نوف إليهم أعمالهم فيها ... » ، وهذا فى ظاهره وعد من الله لمن جنح إلى الدنيا مسرفا فيها ، وعلق بها كل آماله ، وأفرغ فيها جهده ، وتجاهل الآخرة فلم يدخر لها عملا ولا إيماناً ...

وذلك الوعد الظاهر أن الله ـ تعالى ـ يوفيه حظه بكل ما طمحت إليه نفسه ، وأن الله لا يبخسه فى دنياه شيئاً مما تعلقت به آماله .

ونحن نؤمن بأن الله لا يخلف وعده .

فهل يكون حقيقة أن الكافر ، ومن فى معناه ظافر ، فى دنياه بكل أمانيه ؟ ؟

ذلك ظاهر لا يستقيم على أصل من الصواب .

فإن الأمر منوط بمشيئة الله ، وميزان حكمته ، وليست المسئلة مسئلة العبد ولا مجاراة لشهواته .

وعلى هذا يكون الوعد الكريم فى الآية استدراجا لأصحاب الأهواء ، ومطاولة لهم

فى تمنياتهم ... وكأنه ـ تعالى ـ يقول لهم : من جعل همه دنياه ، وحصر آماله فى زينتها : أمكن أن نعطيه ما تعلقت به آماله ، وألا نبخسه شيئاً مما يكون مرجواً فى زعمه ... ولكن : لا يكون له إلا ما قسمنا له فيها ، وليس له فى الآخرة إلا النار ، وضاعت جهوده ، وحبطت آماله فى الآخرة وهذا توجيه يتلاقى مع قوله ـ سبحانه ـ « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها ، مذموماً ، مدحوراً » .

فالعطاء من جانب الله مقدور بتقديره هو ، ومقيداً بإرادته لمن يريد عطاءه من خلقه .

وبذلك يتبين واضحاً أن نصيب المرء فى الدنيا وزينتها ليس بتقديره ، وإن صادف رغبته ، وحسبانه أحيانا .

فالوعد الفسيح الذى فى الآية ينطوى على التهديد المزعج : بأن أولئك الذين يشترون دنياهم بآخرتهم قد اختاروا صفقة غير رابحة .

٢ ــ وهذا قدر من البيان يكفى لذى العقل أن يتعقل ، ولصاحب البصيرة أن يتبصر ، ومع ذلك : فقد توافر فى الآيات الكثيرة أضعاف هذا التنبيه ، ولا يزال الإنسان فى كثير من غفلاته ، وحجة القرآن قائمة علينا بالحق ، وليس لنا على الله حجة بعد .

٣ ــ ولكننا ـ بعد ذلك ـ نتذكر أن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

وفى هذا أن الكافر إذا عمل فى دنياه عملا طيبا ولو قليلا ينال جزاءه فى الآخرة ، وأن عمله محسوب له عند ربه ، حيث يوفى كل فاعل للخير جزاءه ، وإن كان عمله مثقال ذرة .

والجواب المعروف عند العلماء ـ أن جزاءه يكون فى الدنيا ، لأن كفره يحبط ثوابه فى الآخرة .

ولا يبعد عن الصواب أن نقول : إن الله يجعل الكافرين جميعا فى جهنم خالدين فيها ، أبداً ، ولكنه تعالى جعل جهنم طبقات متعددة وجعل أنواع العذاب فيها على درجات مختلفة .

وعدالة الله لا تسوى بين كافر كان يرتكب مع كفره مآثم أخرى ، وكافر كان يحسن عمله مع الناس كثيراً ، فكلاهما خالد فى النار ـ ولا شك ـ ولكن المسىء لا يستوى مع المحسن ولا يكونان فى طبقة واحدة ، والعذاب فى إحدى الطبقات يخالف العذاب فى غيرها : نوعا .

وعلى سبيل المثال : أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يناصره ، ويذود عنه كفار قريش ، ومع ذلك مات كافراً ولم يستجب لدعوة الإسلام تعصبا للجاهلية .

وأبو لهب عم النبي كذلك ، وكان أشد أعدائه إيذاء له ، ومات كافراً ، وخصماً عنيداً .

فهل يكون أبو طالب فى عذابه على درجة واحدة مع أبى لهب ؟

أظن العدالة تتجلى فى التفريق بينهما ، وإن كان الخلود فى النار للجميع .

وهذه العدالة فى الآخرة تزيدهم ندما ، وحسرة على ما ضيعوا وما فرطوا ، حتى ترى هذا واضحاً فيما يحكيه القرآن عن مساجلاتهم وتأوهاتهم «يا ليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين» ، «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون» .

وانظر : حينما ينادون اهل الجنة : «أن أفيضوا علينا من الماء ، أو مما رزقكم الله» ! فيكون الجواب : «إن الله حرمهما على الكافرين» .

وحينما يشمت فيهم أهل الجنة ، ويقولون لهم : «... قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا : نعم» يعنى هو العذاب الذى كنا نكذب به ثم يسمعون مناديا من جانب الله يؤذن فيهم . «أن لعنة الله على الظالمين» .

٤ — ثم تنتقل بنا الآية الثالثة من الآيات العشر إلى الطرف الثانى من طرفى الموازنة ، فتحدثنا عن المؤمنين بعد الكافرين .

« أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ؟ » :

وهنا استفهام من جانب الله سبحانه ـ وهو بالهمزة ، وهل هو للانكار والنفى ، فيكون المعنى : لا يستوى الكافرون المذكورون ، والمؤمنون الذين هم على بينة من ربهم فلا يكون المحقون بالإيمان فى وضع كوضع الذين كفروا بالحق ، وعبدوا دنياهم وحدها ، وشتان بين مشرق ومغرب .

أو تكون الهمزة للاستفهام التقريرى ... والمعنى : آمنوا ، وأقروا بأن من كان فى تدينه على حجة صادقة ، وشريعة بينة من عند الله : هو المستجيب لدعوة ربه ، دون أولئك الظالمين لأنفسهم وكلا الغرضين فى الاستفهامين قريب من الآخر .

وغايته أن الانكار فى الأول نفى للمساواة بين الجانبين ، لإثبات ضمنى لرفعة درجة المؤمنين ...

وأما الاستفهام التقريرى فإنه تأكيد من أوله ، وقصد هادف إلى تزكية المؤمنين على سواهم ، بعد الإعراض عن ذكر المعرضين عن دعوة الدين الحق والبينة التى عليها إيمان المؤمنين هى القرآن ـ لا شك ـ وزيادة عن كونه فى ذاته حجة بينة من

عند الله فله شاهد من نفسه يزكيه ، ويؤكد حجيته ، وذلك الشاهد الذاتى هو قوة إعجازه لمعارضيه ، وإحاطته بما أودع الله فيه من معلومات شاملة ، لا تناقضها العقول الواعية ولا يمسها الباطل فى قليل ولا كثير فالقرآن فيه اكتفاء ذاتى ، كما نقول ، وهو الشاهد لنفسه وقديما كان يسمعه الكافرون من الانس أو الجن فتجذبهم روحانيته ويسحرهم بيانه ، وتستقر فى قلوبهم حقيته فيؤمنون به غير مترددين ، ويعودون إلى قومهم معجبين وداعين مخلصين له « يا قومنا أجيبوا داعى الله ، وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم » .

٥ — وكذلك للقرآن شاهد آخر من عند الله . . وهو المعجزات التى أيدتم من عند الله ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنصره بها على أعدائه ، وأقام له حجته رغم معارضيه ، حتى ملأ بها الدنيا ، وصار للإسلام علم خفاق على المشارف بعد أن لم يكن .

وعلى أى حال فللقرآن شاهد يتبعه : فى تعزيزه ، ودفع أعوانه ، وتركيز معالمه سواء : أكان الشاهد المذكور هو ذاتية القرآن أم كان المعجزات المقارنة له فى تأييد الرسالة المحمدية .

٦ — ثم يذكر الله تعالى شيئا آخر يتابع القرآن فى تأييده « ومن قبله كتاب موسى ، إماما ورحمة » ، وكتاب موسى : هو التوراة . . وكانت سابقة على القرآن ، وسابقة على الإنجيل قبل القرآن . . والتوراة كتاب تشريع . . وكانت حافلة بالأحكام ، والقصص وكانت إرهاصا متقدما للقرآن . . وعرف أهل التوراة من معالمها كثيرا من الأنباء عما يكون من رسالة النبى الخاتم ، حتى كان الأحبار يتنبئون بما يعرفونه سلفا عن النبى العربى الأخـــير .

فكانت التوراة مع أسبقيتها فى الزمن مؤيدة للقرآن من قبل ، وتابعة له فى تصديقه وهذا معنى « ومن قبله كتاب موسى إماما ، ورحمة » . . كما تعلم أنت الشىء مقدما ثم تراه تمهيدا لشىء كان مؤجلا بعده .

ولذلك عاب الله على اليهود الذين عرفوا من التوراة جانبا من أمر محمد ورسالته ، بعد أن عاش منهم من عاش حتى نزل القرآن فكذبوه وكفروا بما كان فى التوراة قديما ، ومعلوما لهم « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » .

٧ — وإذا كانت التوراة شاهدة للقرآن فلماذا لم يذكر مثل ذلك عن الإنجيل ، مع أنه أشاد بمحمد ، وبرسالته ؟

قالوا : إن التوراة معترف بها عند اليهود

والنصارى . فالاحتجاج بها قائم على الفريقين أما الإنجيل فلا يقول به اليهود ، وإنما يقول به النصارى فقط فالاحتجاج به لا يكون مأخـــوذا به عند اليهود لعدم إجماعهم مع النصارى على ذلك ونحن ـ المسلمين ـ نعتز بالقرآن، وبشهادة التوراة له وبشهادة الإنجيل .

والقرآن بعد ذلك كله : فوق متناول الشبهات ، وإن رغمت أنوف الكافرين به .

ولا يسبق إلى ذهنك أن القرآن فى منزلة دون منزلة الكتب التى شهدت له من قبل بل القرآن مصدق لما فيهما ، وهو شاهد بحقيقتهما من عند الله ، وأنهما تناولتهما يد التحريف والتبديل ، وأنه هو المسيطر على التشريع بعدهما ، ولم يعد الدين إلا إسلاما قرآنيا « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

وقد أكد الله لنا أن التوراة نزلت على موسى ، وأنها كانت هدى وموعظة للمتقين .. وأكد لنا كذلك أن الإنجيل نزل على عيسى ، وأنه كان مصدقا لما بين يديه من التوراة .

ثم أكد لنا أن القرآن نزل مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل جميعا ... بل أكد لنا أن القرآن نزل بالحق « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه » يعنى مصدقا لجنس الكتب السماوية كلها ، وقائما بالتشريع بعدها .

وهو الكفيل بكل ما جاء من عند الله من تشريع تحتاجه الإنسانية إلى نهاية دنياها .

* * *

٨ ـ وتنتقل بنا الآيات بعد شىء من المقارنة : إلى تكرار التهديد ، وتسجيل الإثم الخطير على الكفار ، وظلمهم لأنفسهم بالكذب على الله .

ثم تذكر لنا مشهداً من مشاهدهم فى الآخرة لتردعهم عن الإمعان فى غيهم ، فيقول تعالى : « أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم .. ألا لعنة الله على الظالمين » .

فهناك عرض للناس جميعا على ربهم ، لتوفيتهم جزاء أعمالهم « وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم » وحينذاك ينهض الشهداء : من الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنين فيعلنون شهادتهم على الكفار ، ويقررون سخطهم عليهم بالكذب الذى كانوا يفترونه على الله ربهم ، ثم يقولون : لعنة الله على الظالمين » .

وهذا تذكير لنا بما نخشاه على أنفسنا من التخلف عن دعوة الله .

ولندخل فى حيز وعده الكريم بقوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأخبتوا إلى ربهم ـ آمنوا واطمأنوا إلى دينه وطاعته ـ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

وهذا قبس موجز ، من قبس الهداية والتبصرة ، نجدد به الذكرى لأنفسنا بما يكرره القرآن من توجيهاته لنا ، وتوعيته لعقولنا حتى لا نستسلم للغفلة ، وتذهلنا الدنيا كما أذهلت المعرضين ، حتى لم تدع لهم سانحة من الفكر ، ولا هاتفا من الخواطر ، نحو ما يستقبلونه فى أخراهم .

وماذا رضوا لأنفسهم يوم يخسرون الدنيا والآخرة ؟ ؟

٩ — وبعد تلك المقارنات بين الجانبين ، وما يتخللها من وعيد للكفار ، ومن وعد كريم للمؤمنين ، يختم الله تلك الموازنة بمثل يصور به شأن الفريقين فى صورة نحسها ، ولا يتخطاها نظر المرء دون تنبه إلى بعد ما بينهما .

وذلك قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم . . والبصير والسميع » .

فتلك أوصاف متناقضة : بعضها ذميم بغيض إلى كل حى من الإنسان والحيوان ، وهو العمى ، وعدم السمع - الصمم - فانظر ما فيهما من قبح ، وتشويه ، وما لهما من أثر فى حرمان المبتلى بهما أو بأحدهما .

وبعضها كريم على النفس ، ومشوق إلى كل حى ، وهو البصر ، والسمع : ففيهما الجمال للخلقة ، وتمام الحسن للوجه ، وفيهما منفعة الحياة إلى غير حدود

فإن يكن الكفار والمنحرفون عن مسالك الرشد غير مستشعرين بقبح شأنهم ، وحطة منزلتهم فلينظروا بأعينهم إلى دمامة العمى ، والصمم ، وما يشهدونه من نقص عند ذى العمى والصمم .

ثم لينظروا إلى ذوى البصر والسمع ، وما لهما من أثر فى جمالهم ونفع فى حياتهم ،

وبهذه المفارقات المحسوسة يدركون بعد منزلتهم عن منازل المؤمنين .

ويتفهمون من هذا المثل أن حياتهم فى دنياهم حساب عسير عليهم فى أخراهم ، وأن شقاءهم يستقبلهم ، فأين يكون لهم متاع ، وكيف يكون لهم خلاص ؟

هم الذين استحبوا العمى على الهدى فظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله .

ومع هذه الزواجر فى القرآن ... ومع تكرارها من مقام إلى مقام ، فالإنسان سادر فى نسيانه ، ومن يهدى الله فهو المهتدى ؟

عبد اللطيف السبكى

عقيدة المرشدة للمهدى بن تومرت

للأستاذ عبد الله كنون
عضو مجمع البحوث الإسلامية

طغى الجانب السياسى على الجانب العلمى من ترجمة المهدى بن تومرت صاحب دعوة الموحدين حتى كادت شخصيته العلمية تذوب فى شخصيته السياسية ، وبالفعل فإن المؤرخين والكتاب الذين تناولوا ترجمته بالنقد والتحليل لم يعنوا إلا بأعماله السياسية ومعاركه الحربية ، والخطط التى وضعها لتأسيس الدولة التى قضت على دولة المرابطين ، وفى ظنى أنهم لو عنوا بالناحية العلمية من حياته وقدروا جهوده فى نشر المعرفة ، ودرسوا إنتاجه الفكرى حق الدراسة ، لخرجوا بنتائج رائعة فى التعريف بالرجل وتجلية شخصيته وإنصافه من الأحكام المبتسرة التى تسجل عليه من غير ترو ولا تحقيق ، وإن كان العلامة ابن خلدون لم يغفل هذه الناحية ، ولذلك جاء رأيه فى المهدى على جانب من العدل والإنصاف .

على أن السياسة حقا قد طغت على أعمال المهدى بعد انصرافه للدعوة واشتغاله بتدبير أمر أتباعه وأنصاره وتورطه فى حرب المقاومة ، ولولا ذلك لأتانا منه علم غزير وإنتاج كثير ، لأنه كان إماما من أئمة العلم والدين ، ذا ملكة راسخة وقوة على النظر والجدل بحيث يضاهى كبار الشخصيات العلمية البارزة التى ظهرت فى المشرق لعهده من أصحاب المقالات والمدارس فى علمى الأصول والكلام فضلا عن تضلعه فى الفقه والحديث .

وقد خرج لطلب العلم من بلده سوس سنة ٥٠٠ هـ وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولا شك أنه توقف فى مراكش وأخذ بها عن بعض شيوخها ، إن لم يكن قد مر بفاس واشتغل فيها على علمائها العديدين ، ثم دخل الأندلس فنهل بها ما بل من ظمئه ، العلمى وجاز البحر من المرية فى مركب إلى المشرق كما يقول ابن القطان ، وهناك تعمق فى الطلب وأشبع نهمته من العلم ولقاء المشايخ

وكان ممن لقى من كبار العلماء فى الإسكندرية أبو بكر الطرطوشى ، وفى بغداد الكيا الهراسى (١) وأبو حامد الغزالى على ما جزم به أكثر المؤرخين وزاد ابن أبى زرع أنه

---

(١) بكسر الكاف وفتح الهاء مع تشديد الراء أبو الحسن على بن محمد الطبرى نقل ابن خلكان عن عبد الغافر الفارسى قوله فيه إنه كان ثانى الغزالى بل آصل وأصلح .

لازمه ثلاث سنين ، وحج وأقام بمكة مدة ، ودامت رحلته ما يزيد على عشر سنوات .

ولسنا بصدد التعرض لما يتعلق بعمله السياسي فيما بعد ، وإن كانت الروايات عن نشأته ورحلته لا تفتأ تربط بين أحواله فى هذا الطور من حياته وبين ذلك العمل العظيم .

على أن اهتمامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومجازفاته فى سبيله هو فى نظرنا مما يرجع إلى غيرته الدينية ويقظة ضميره أكثر مما يرجع إلى نزعة سياسية ، كما نبهنا عليه فى غير هذا المقام ، فأحرى بنا أن لا نعدل به عن هذا التوجيه ونحن لا نستعرض إلا الجانب العلمى من ترجمته .

ويشير ابن خلدون إلى عودة المهدى من رحلته المشرقية وما جناه فيها من الثمار اليانعة وما صار له من شفوف فى العلم والمعرفة بالآراء والمذاهب ، وما قام به من دعوة صادقة لتنبيه مواطنيه المغاربة إلى الاشتغال بالعلوم العقلية والنظر فى أقوال علماء الكلام وخاصة الأشاعرة منهم إذ كان مذهبهم غير رائج فى المغرب ولا يبلغ إليه صدى المناظرات العظيمة القائمة بين أئمته فى بلاد المشرق ، وذلك فى فذلكة عظيمة القيمة بالنسبة إلى بحثنا هذا وهى قوله :

(وانطوى هذا الإمام راجعا إلى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين ، وكان لقى بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة فى صدر أهل البدعة وذهب إلى رأيهم فى تأويل المتشابه من الآى والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم فى التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف فى ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت ، ففطن أهل المغرب لذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية فى كافة العقائد وأعلن بأمامتهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة فى التوحيد وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأى الإمامية من الشيعة وألف فى ذلك كتابه فى الإمامة الذى افتتحه بقوله « أعز ما يطلب) الخ .

ففى هذه العبارات الموزونة تقدير شخصية الرجل العلمية وتحديد لنوع الدعوة التى جاء يحمل لواءها حتى ذاعت وانتصرت وتنصيص على الجنوح الذى ارتكبه فى هذه الدعوة ومال به عن رأى أهل السنة من أشاعرة وغيرهم .

أما الشخصية العلمية التى أثبتها للرجل فقد قلنا كلمتنا فيها وبأتينا مزيد تقرير لها وتأكيد عليها .

وأما دعوته التى قام بها وروج لها من الأخذ بمذهب الأشعرية فى العقائد والاحتجاج عليها بالعلوم النظرية فالأمر فيها يحتاج إلى شىء من البيان والتوضيح . ذلك أن أهل المغرب لعهد المهدى ورجوعه من رحلاته المشرقية ، كانوا إلا قليلا منهم على مذهب السلف فى الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا صرف لها عن مدلولها اللغوى مع التنزيه للخالق عز وجل وذاته العلية عن أن تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين . وذلك هو المذهب الذى عبر عنــــه الإمام مالك متبوعهم فى الفقه والأحكام الشرعيــة بقوله للذى سأله عن الاستواء المذكور فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ـ الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عن هذا بدعة . وكذا القول فى الوجه واليد والعين والنزول والمجىء والضحك وغيرها مما ورد إطلاقه على الله سبحانه وتعالى فى الكتاب أو السنة . فإنهم يمرونه على ظاهره ولا يؤولونه بالذات أو القدرة مثلا فراراً من الافتيات على الشارع الذى عبر بذلك ، ولكنهم يعتقدون التنزيه ومخالفته تعالى للحوادث فلا يلزم على الإيمان بظواهر تلك النصوص أى محظور .

هذا هو الموقف الذى كان المغاربة يلتزمونه فى العقائد إبان ذلك . وهو كما علمت مذهب السلف الصالح من أئمة المسلمين . فالقول بأن المهدى وجد علماء المغرب على حالة من الجمود وعدم استخدام العقل ونبذ النظر ، كما يقع فى كلام بعضهم هو من الغلو والمجازفه وإلقاء الكلام على عواهنه . فإن هذا المذهب أيضاً قائم على الحجة ونظار العقل وترجيح أنه مقصد الشرع ومراده وأن العدول عنه بالتأويل والتوجيه مخالفة لذلك المقصد وعدول عن ذلك المراد .

نعم لما انتشرت المذاهب الفلسفية فى المشرق وكثر الجدال بين أهل الملل والنحل غير الإسلامية وبين المسلمين وكان المنكرون من علماء الإسلام على الوثنيين وعباد الأصنام يسخرون من عقولهم ويعيبونهم بعبادة آلهة مخلوقــــة مثلهم لا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً ، فإن هؤلاء جعلوا يتهمون المسلمين بالتجسيم وعبادة إله على مثال المخلوقات ذى وجه ويد وعين ، وتطرأ عليه الانفعالات النفسية من الرضى والغضب وما إلى ذلك ولا يخلو من الأغراض الجسمية كالحركة والسكون ، وتسربت هذه الوساوس إلى عوام المسلمين ولم يستطيعوا التخلص من بوائقها ، فقام أئمة الدين وحفظة العلم من الأشاعرة والماتريدية وبقية علماء الخلف السنيين برد هجوم هؤلاء الملاحدة والمتنطعين والدفاع عن حقيقة الدين وبيضته الإسلام

ومجادلة أرباب المذاهب الفلسفية والدعوات المناهضة للحق بمثل الطرق التى يستعملونها فى الطعن على الإسلام والأساليب النظرية التى يهاجمون بها عقائده . وكان مما استحدثه الأشعرى ومن أخذ بطريقته تأويل بعض الصفات والأقوال الموهمة التى لا تستطيع العامة أن تتخلص من اعتقاد لوازمها ، فقالوا فى الاستواء على العرش : إنه الاستيلاء والظهور والغلبة أخذا من قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهراق

كما قالوا فى الوجه: إنه الذات، وفى العين: إنها الرعاية والحفظ، وفى اليد: إنها القدرة، وفى النزول: إنه الامتنان إلى غير ذلك مما هو معروف . وقصدهم ، أولا وبالذات ، إنما هو المحافظة على عقائد العامة والمسلمين الذين دخلوا فى الإسلام حديثا من أهل الملل المجسمة وأشباههم . وهو اجتهاد على كل حال أوجبته الضرورة وأملاه الموقف الذى كان عليه أمر الاعتقاد فى المشرق الإسلامى .

أما فى المغرب فلم تدع لذلك ضرورة ولا وجد موقف غير الذى كان عليه الحال أيام السلف ، فلم يكن ثم لزوم ولا مبرر لرواج هذه البدعة ولذلك قاومها العلماء المغاربة بنصح وإخلاص .

وقلنا آنفا: إن أهل المغرب إلا قليلا منهم كانوا على مذهب السلف ونحن نعنى ما نقول . فلم يكن المهدى هو أول من تكلم فى مذهب الأشعرى أو دعا إلى تأويل النصوص فى المغرب بل سبقه بعض أهل العلم لذلك ولاسيما فى (سبتة وفاس) على ما بيناه فى غير هذا البحث ، ولكن هذا المذهب لم ينتشر ويسد على مذهب السلف إلا بعد قيام المهدى بدعوته التى جند لها جنوده وحمل الناس عليها حملا بدون رفق ولا هوادة وساعده على ذلك أنه كان قد انتشر فى المشرق وأصبح المذهب السائد الذى هزم مذهب أهل الاعتزال على ما كان له من التمكن والسلطان .

ومما هو محتمل أن المهدى قبل رحلته رأى ما تعرض له كتاب (الإحياء للغزالى) من الإحراق والإتلاف فى المغرب والأندلس أو على الأقل وعى الحملة الشعواء التى شنها عليه علماء الأندلس والمغرب والتى تزعمها القاضى ابن حمدين قاضى قرطبة وهو أكبر شخصية علمية فى مملكة المرابطين يومئذ . وكان مما ينكر على ذلك الكتاب مسائل فى العقيدة خالف فيها كثيرا من (المسلمات) عند أهل السنة ، فكان من وكده فى رحلته التحقق من هذه المسائل والتعرف على الحياة العلمية والاتجاهات العقدية فى المشرق ، وهذا فى نظرى مما يرجح لقاء المهدى للغزالى . وهذا أيضا ما غرس فى نفس ابن تومرت بذور الثورة على الواقع

المغربى وجعله يقوم بدعوته المكتسحة لكل مخلفات تلك الحملة التى أحرق بموجبها كتاب الغزالى من مذهب السلف فى العقائد ومذهب الإمام مالك فى الفقه ، وإن كان قد نجح فى الانتصار على الأول ولم ينجح فى الانتصار على الثانى .

بقى الكلام على النقطة الثالثة من مقالة فيلسوف المؤرخين : وهى المتعلقة بجنوح صاحبنا إلى مذهب الشيعة الإمامية فى القول بعصمة الإمام وهو أمر محير حقا ، فإن المذهب العقدى الذى التزمه وهو الأشعرية ، والعلماء الذين أخذ عنهم واتصل بهم فى رحلته وحياته العلمية وسلوكه فى الدعوة من أول ما بدأ ، كل ذلك كان حريا أن يجافى بينه وبين هذه النظرية ويجعله إلبا عليها لا معها ، ولكن قبح الله السياسة ، فهذا الرجل الذى كان همه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أينما حل وارتحل ، وكان ينكر على الولاة وأولى الأمر تعاظمهم وتعاليهم على الناس والذى قامت دعوته على التوحيد الخالص المدعم بالأدلة النظرية والحجج العقليه يتورط فى هذه العضيهة ويدعى لنفسه ما لم يسلم لمن هو أكبر منه شأنا وأعظم قدرا ، ثم يزيد فيزعم أنه المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا على حسب ما ورد فى الحديث الشريف ، وذلك لتكبر الأتباع والأنصار والتأثير على عقول السذج والعوام لما رأى أنه لا مفر له من مصاولة خصومه ومنازلتهم فى ميدان الحرب والقتال .

فالأمر إذن يتصل بحركته السياسية وتمهيد الدولة التى عنى بإنشائها لما قوى عزمه على مقاومة المرابطين بالسلاح . فلندع السياسة جانبا ولنعد إلى بساط العلم الذى يعنينا . ولكن لابد أن نشير إلى أن أخذه بهذا الرأى الشيعى قولا وعملا كان متأخرا جدا عن المدة الأولى التى ظهر فيها بدعوته المتمحضة للأمر والنهى والتوحيد ، بدليل أنه فى مجادلاته ومناظراته للعلماء بالمجلس الذى عقده له أمير المسلمين على بن يوسف فى مراكش وغيره لم يفه بشىء من ذلك ولا حكى عنه أحد ما تشم منه رائحة التشيع أو دعوى المهدوية .

ثم إن رسالته فى الإمامة التى صرح فيها بهذا الرأى وأكده بمختلف العبارات هى أيضا مما يدل على ذلك ، لأنها جاءت مقترنة بالدعوة إلى القتال لنصرة الحق وإظهار السنة مع الإمام المهدى القائم بالحق والناصر لدين الله ووجوب طاعته واتباعه وعدم مخالفته فيما قل أو جل إلى آخر الالتزامات المشددة التى تقررها الرسالة . وهذا أمر لم يرد فى كتبه ورسائله السابقة عليها ، فدل ذلك على أنه أمر محدث أوحت به السياسة واقتضاه الموقف الجديد الذى أدى بابن تومرت إلى إعلان الحرب على خصومه .

وهذه الرسالة التى تناولت قصة الإمامة والعصمة والمهدوية هى رسالة مستقلة عن كتاب: أعز ما يطلب ..الذى لاشك أنه كان من أوائل تآليفه . ولذلك فإنه يعد كتابا تعليميا خاليا من الشعوذة كسائر كتبه التى وضعها فى مبدأ أمره . وقد نوه فيه بقدر العلم وحث على طلبه وتعرض لمسائل من طرق العلم وأبواب من أصول الفقه ، وبناه على المناظرة التى جرت له بأغمات، وليس فيه كلام على الإمامة وما يتعلق بها . فقول ابن خلدون فى النص المتقدم عنه: « وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأى الإمامية من الشيعة وألف فى ذلك كتابه فى الإمامة الذى افتتحه بقوله أعز ما يطلب » فيه تساهل كبير؛ لأنه يعتبر مجموع تآليفه المبدوءة بكتاب أعز ما يطلب والذى من ضمنه رسالة الإمامة هذه كتابا واحدا ، وليس الأمر كذلك ، فإن هذا المجموع كما طبعه (كولد زهير) يحتوى على عدة كتب ورسائل المهدى ، ولا يمكن أن يعد كتابا واحدا ، فمن نتيجة التفريق بين هذه المؤلفات اهتدينا إلى أن إعلانه برأيه هذا فى الإمام وعصمته كان متأخرا عن مبدأ قيامه وظهور دعوته وتلك نتيجة ليست بقليلة الأهمية .

ومما يجب التنبيه إليه أن القول بوجوب نصب الإمام وعصمته كان هو نصيبه من التشيع أو من مذهب الشيعة الإمامية على الأصح ، وبعده لا نجد له أى صلة بهذا المذهب ولا ميل إلى التشيع فى قول ولا فعل.. فتشيعه هذا كان سياسيا واستغلالا لقول من أقوال الشيعة يتعلق بالحكم أكثر مما يتعلق بالعقيدة والأحكام ، ولذلك قال ابن خلدون فيه « ولم تحفظ عنه فلتة فى البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة فى القول بالإمام المعصوم » وهى كلمة صحيحة إلى أبعد حد .

ويقتضينا التعرض لحياة ابن تومرت العلمية أن نلم بذكر مؤلفاته التى وصلت إلينا والتى يشكل أكثرها إملاءات صدرت منه أيام تصديه لتعليم أصحابه وتثقيف طلبة الموحدين من عبد المؤمن خليفته الذى لقيه بقرية « ملالة » وهو بصدد الرحلة فى طلب العلم فقال له: لقيت علما وشرفا إلى من دونه، وهى ما بين كتب ورسائل صغيرة تؤلف المجموعة الآتية .

(١) أعز ما يطلب ، وقد ذكرناه وبه تسمى المجموعة .

(٢) كتاب الصلاة ، وضمنه أحكام الطهارة بتفصيل واف من الحديث والأثر ، ولذلك أمر المنصور الموحدى بجمع أحاديث فى الصلاة على النحو الذى فعله ابن تومرت فى الطهارة .

(٣) رسالة الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل ، أو هى رسالة القياس وفيها رد على المعتزلة فى تحكيمهم العقل ، وبذلك ينتفى عنه ما نسب إليه من الاعتزال ، وأثبت القياس الشرعى وبها حكمنا أن الموحدين لم يكونوا ظاهرية كما ينسبهم من يتساهل فى تحقيق أمرهم.

(٤) رسالة فى العموم والخصوص وبعض المباحث الأصولية .

(٥) رسالة فى طرق العلم .

(٦) رسالة فى تقسيم المعلومات .

(٧) رسالة المحدث (بفتح الدال) وهى مباحث من علم الكلام .

(٨) رسالة العبادة والاحتجاج على وجوبها .

(٩) عقيدة التوحيد .

(١٠) عقيدة المرشدة ، وتمتاز الأولى عن الثانية باشتمالها على الدلائل العقلية بطريقة الأشاعرة وهى أكبر منها .

(١١) رسالة الإمامة وقد ذكرناها وهذه الرسالة والتى بعدها هما مما دونه بالعربية والبربرية حسب كتاب (الحلل الموشية) .

(١٢) رسالة القواعد وفيها كليات صالحة فى الشريعة ولكنها تشتمل على أمور منكرة من التشديد فى الدين ووجوب الإيمان بالمهدى وعصمته .

(١٣) رسالة فى بيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين ، وأمرها واضح.

(١٤) رسالة فيما بشر به النبى صلى الله عليه وسلم من أن طائفة من أمته لا تزال على الحق .

(١٥) رسالة فى فضل التوحيد والاستدلال عليه من طريق النقل .

(١٦) كتاب الطهارة ويتضمن بعض أحكامها من الحديث النبوى ، ويظهر لنا أن الموضوعين الأخيرين وما يتلوهما فى المجموع إلى ص ٣٦٢ من حديث رفع العلم والأمانة وغير ذلك هو ما عبر عنه فى طالعة المجموع باختصار مسلم وإن أوهمت العناوين المتميزة أنها إملاءات مستقلة ، وعلى كل حال فهو اختصار موجز على مثال ما فعل ابن أبى جمرة فيما بعد عند اختصاره لصحيح البخارى .

(١٧) رسالة فى ذم الخمر وعقوبة شاربها .

(١٨) كتاب الجهاد وما ورد فيه من الثواب وهو رسالة متوسطة الحجم .

هذا ما ضمنه مجموع أعز ما يطلب من تآليف المهدى بن تومرت كتبا ورسائل يتخللها بعض الإملاءات الصغيرة فى التحميد والتسبيح والثناء على الله عز وجل مما لا يمكن عده من التآليف بالمعنى العلمى .

وقد نشر هـذا المجموع فى الجزائر سنة ١٩٠٣ م بعناية المستشرق (كولد زهير) مع مقدمة له بالفرنسية .

(١٩) وما وصلنا أيضا من تآليف المهدى كتاب الموطأ المعروف به والمنسوب إليه .

وهو كتاب اختصر فيه موطأ الإمام مالك بحذف سند الحديث وضم إليه أبوابا متفرقة وأحاديث كثيرة مما لم يخرجه الإمام ، وقد طبع فى الجزائر أيضا سنة ١٩٠٧ م ويقع فى ٧٣٨ صفحة .

هذه آثار ابن تومرت العلمية التى إذا أضيفت إلى مجهوده فى نشر المعرفة بالتدريس وتعليم الجماهير من أبناء القبائل المغربيه ، أزرت أو كادت بأعماله السياسية وما بذله من مجهود فى إنشاء دولة الموحدين . ونحن يهمنا فى هذا البحث من تآليفه عقيدة المرشدة التى لقيت رواجا كبيرا فى حياته وبعد مماته وتلقاها أئمة العلم بالقبول وحكموا عليه من خلالها بسلامة العقيدة وصحة المذهب .

ولا شك أنها كانت من أول ما أملى من تآليفه ولقن أصحابه من العقيدة على مذهب الإمام الأشعرى لأنها بمثابة المقدمة فى هذا الصدد من حيث الاختصار وعدم الاحتواء على الأدلة العقلية التى لا يدركها العموم كما فى عقيدة التوحيد ولأنها جاءت خالية من كل شبهة على ما كانت عليه دعوته أولا قبل أن يدعى المهدوية والإمامة والعصمة ويتجرد للعمل السياسى الذى أقام به بناء الدولة الجديده وقضى على دولة خصومه المرابطين .

ومن الغريب أن الاشتباه فى أمر المهدى وعدم التفرقة بين العهد الأول من حياته الذى كان فيه منقطعا للعلم لم يتلبس بشىء من البدع التى أوبقته فيها السياسة ، وبين العهد الثانى الذى هو بخلاف ذلك ، حمل بعض العلماء على إنكار نسبة المرشد إليه لأنها عقيدة سنية خالصة من البدعة التى كان عليها ابن تومرت ، ونسوق القضية بجميع ملابساتها كما وردت فى (الطبقات الكبرى) للتاج السبكى .

قال : (وجدت بخط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائى رحمه الله . . رأيت بخط شمس الدين الذهبى رحمه الله أنه شاهد بخط سيف الدين أحمد بن المجد المقدسى ، لما دخلنا بيت المقدس ، والفرنج إذ ذاك فيه ، وجدت مدرسة قريبة من الحرم أظنها الصلاحية والفرنج بها يؤذون المسلمين ويفعلون العظائم ، فقلت : سبحان الله ترى أى شىء كان فى هذه المدرسة حتى ابتليت بهذا ؟ حتى رجعت إلى دمشق فحكى لى أن الشيخ فخر الدين بن عساكر كان يقرىء بها المرشدة ، فقلت : بل هى المضلة . انتهى ما نقلته من خط العلائى رحمه الله ونقلت من خطه أيضا - وهذه العقيدة المرشدة جرى قائلها على المنهاج القويم والعقل المستقيم وأصاب فيما نزه به العلى العظيم ، ووقفت على جواب لابن تيمية سئل فيه عنها ، ذكر فيه : أنها تنسب لابن تومرت ، وذلك بعيد من الصحة

أو باطل لأن المشهور أن ابن تومرت كان يوافق المعتزلة فى أصولهم وهذه مباينة لهم . انتهى ، وأطال العلائى فى تعظيم المرشدة والإزراء بشيخنا الذهبى وسيف الدين بن المجد فيما ذكراه . فأما دعواه أن ابن تومرت كان معتزليا فلم يصح عندنا ذلك ، والأغلب أنه كان أشعريا صحيح العقيدة أميرا عادلا داعيا إلى طريق الحق . وأما قول سيف الدين المجد أن الذى اتفق إنما هو بسبب إقراء المرشدة ، فمن التعصب البارد والجهل الفاسد وقد فعلت الإفرنج داخل المسجد الأقصى العظائم فهلا نظر فى ذلك؟ نعوذ بالله من الخذلان ؟ ونحن نرى أن نسوق هذه العقيدة ، وهى . . ولما ساقها قال . . هذا آخر العقيدة وليس فيها ما ينكره سنى) .

هذا كلام السبكى المتعلق بالمرشدة مع نقوله المتضاربة حولها مدحا وذما . فأما العلائى فإنه مدحها وأبلغ فى ذلك لحد أنه أزرى بالذهبى وابن المجد لطعنهما فيها إلا أنه ارتاب فى نسبتها لابن تومرت لأنه كان يوافق المعتزلة فى أصولهم وقد رد عليه السبكى فى ذلك وقال : إنه كان أشعريا صحيح الاعتقاد .

والمفهوم من كلام العلائى أن شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه كان يشك فى نسبتها لابن تومرت فربما لهذه الشائعة عنه من ميله إلى الاعتزال وهى ليس فيها شىء من ذلك .

والجواب عن شكه هذا هو ما أجاب به السبكى عن تشكك العلائى سواء بسواء إلا أن المعروف من مذهب ابن تيمية أنه لا يرضى عن هذه العقيدة سواء كانت لابن تومرت أو لغيره .

وأما الذهبى وابن المجد فلا ينتظر منهما أن يثنيا على المرشدة ولا أن يقولا فيها غير ما قالاه ، للخلاف بين الحنابلة والأشعرية الذى كان هو عين الخلاف بين أهل المغرب وابن تومرت لما ظهر بمذهبه الجديد . وما ألذع ما رد به السبكى قول ابن المجد فى المرشدة والبلاء الذى أصيبت به المدرسة بسببها فإنه رد يوافق ذلك القول التافه .

لكن أعظم ما يستفاد من كلام السبكى ونقوله هذه هو أن المرشدة كانت تدرس فى مدارس المشرق ويقوم عليها علماء مثل الإمام فخر الدين بن عساكر شيخ الشافعية فى وقته بالشام . إن هذا مما يبين قيمة هذه العقيدة وأهميتها ويدل على سيرورتها وانتشارها باعتبارها مقدمة صغيرة فى هذا العلم وخلاصة مفيدة لمذهب الأشعرى رحمه الله . ولاشك أنه قرأها عدد كبير من الطلبة وانتفعوا بها وأنه كان عليها إملاءات وشروح للعلماء الذين أقرءوها، فإن شهرتها التى جعلت جملة من أعلام الإسلام يتحدثون عنها ويبدون آراءهم فيها وفى صاحبها كيفما

كانت هـذه الآراء ، تعطى أنها ملأت فراغا فى هـذا المقام وشغلت كثيراً من الناس مدة غير قصيرة من الزمن .

ويوجد عندنا شرح عليها فى كراسة ضمن مجموع ، اسمه الأنوار المبينة المؤيدة لمعانى عقد عقيدة المرشدة لمؤلفه أبى زكريا يحيى بن الشيخ المدرس أبى حفص عمر بن أبى بكر المشهور بالتنمسى ثم الهتيني ؛ على ما جاء فى طالعته ، وهو مغربى فيما يظهر ، مما يدل على أنها كانت تدرس فى المغرب أيضا لاسيما وهو قد وضعه جوابا لسؤال سائل[1] وهذا ما يقوله فى ذلك .

« وبعـــد : كسانا الله وإياك لباس التقوى ، وزحزحنا بمنه عن نار الشهوات والهوى ، فإنك سألتنى أن أقيد لك على كلام الإمام أبى عبد الله محمد المهدى رحمه الله تعالى فى المرشدة ما يحلو سماعه ويروق دليله . فأجبتك إلى ذلك مستعينا بالله ، وعادة لا يهتم الناس بأى كتاب ويشرحونه إلا إذا كان متداولا مقروءا ولو بين طبقة خاصة وأهل ناحية معينة .

ويقول : هذا الشارح بأثر العبارة السابقة « لما اجمعت على صحة هذه العقيدة لا غير وأنها مرشدة رشيدة ولم يترك المهدى أحسن منها وسيلة نفعنا الله وإياه (بالأصل وإيانا) بعقد عقيدته الجميلة » .

وكلامه هذا يفيد أنه لم يكن من الطائفة التى تعتقد المهدى ، وقد بقيت هذه الطائفة موجودة إلى زمن اليوسى ، وكانت تتمثل فى الشيخ عبد الرحمن اللجائى المتصوف المعروف دفين الجاية وأتباعه على ما بينه اليوسى فى محاضراته . كما يفيد أنه كان يعلم ما طرأ على دعوة المهدى من الجنوح عن السبيل وما يشوب تآليفه العقائدية من الشبهة باستثناء المرشدة . فهو يتفق مع علماء المشرق فى هذا الأمر ويسلك نفس النهج الذى سلكوه فى قبول آثار المهدى التى سلمت من الريبة وترك ما عداها أخذا بمبدأ الإسلام المعبر عنه فى الحديث الشريف بهذه العبارة الفذة الجامعة (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) وهو المبدأ الذى يقضى على التعصب ويعترف بالحق إذا ظهر .

ويهمنا أن ننقل من هـذا الشرح ما كتبه مؤلفـه على قول المرشدة : (جميع الخلائق مقهورون بقدرته) وهـذا نصه (الخلائق هم العوالم المذكورة وغيرهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وقوله مقهورون بقدرته أى مغلوبون أذلة لعزة قدرته ، والقهار المستولى ، والقدرة صفته فهو تعالى قادر بقدرة قديمة . وفى كلام الإمام رد على المعتزلة الذين ينكرون الصفات) الخ .

---

[1] (١) يشير هذا الشارح إلى أن هناك من شرح المرشدة غيره ، فقد جاء فى أثنائه عبارة تقول (نقل بعض من شرح هذا العقيدة .) الخ

وقد نقلنا هذه العبارة المبينة لكلام ابن تومرت قصداً لتصحيح الخطأ الذى وقع فيه السبكى أثناء ترجمته للمهدى . فإنه بعد ذلك الدفاع المجيد الذى نفى عنه ما رمى به من الاعتزال عاد فرماه به هو نفسه فى الترجمة التى عقدها له فى الطبقات قائلا: (ثم صنف لهم تصانيف فى العلم: منها كتاب سماه أعز ما يطلب وفى عقائد على مذهب الأشعرى فى أكثر المسائل إلا فى إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة فى نفيها) .

وها نحن أولاء نرى أن المهدى لا ينفى الصفات وأنه يقول:(جميع الخلائق مقهورون بقدرته) ويعلق شارحه على ذلك بقوله: إنه رد على المعتزلة الذين ينكرون الصفات . فيظهر أن السبكى لم يتأمل المرشدة على الرغم من كونه أورد نصها فى الطبقات ، ونفى عنه الاعتزال فى رده على العلائى، وقال فى المرشدة: ليس فيها ما ينكره سنى يعنى أشعرى . فلعله ذهل عن هذا الاتهام الذى ضمنه ترجمة المهدى التى هى فى نظرنا ترجمة منصفة لو خلت من هذا التناقض [1] .

(١) وجاء فى الشرح أيضا ، تعليقا على قول المرشدة ، (ليس عليه حق ولا عليه حكم) ما يلى : (وفى هذا رد على المعتزلة القائلين بمراعاة الصلاح والأصلح ووجوب الرزق) ولم ننقله فى الصلب لأن كلام السبكى قاصر على اتهام المهدى بنفى الصفات .

بقى أن نشير إلى أن أبا سالم العياشى نقل فى رحلته خلاصة كلام السبكى فى الرد على العلائى على أنه من الفوائد التى علقها من الطبقات الكبرى ولم يعقب عليه بكلمة .

ونقول: إن اسم المرشدة مأخوذ على ما نعتقد من قول صاحبها فى إفتتاحها : (اعلم أرشدنا الله وإياك) وقد وقفنا على ست نسخ من المرشدة تتماثل فيما بينها إلا واحدة منها هى نسخة مجموع أعز ما يطلب ، وسنبين ما فيها من الخلاف تعليقا :

(الأولى) نسخة الطبقات (الثانية)نسخة أعز ما يطلب (الثالثة) نسخة الحلل الموشية فإن هذا الكتاب أثبت المرشدة من جملة ما أثبته من كلام المهدى (الرابعة) نسخة كتاب سعادة الدارين للنبهانى فإنه أيضا أثبتها معجبا بها (وهذه النسخ الأربع كلها مطبوعة (الخامسة) نسخة الشرح الذى تحدثنا عنه ، وهى أصح النسخ فى نظرنا لأن ألفاظها مفسرة مشروحة فهى بعيدة عن الخطأ والتصحيف (السادسة) نسخة مخطوطة من الحلل الموشية خاصة . فالجميع ست نسخ اثنتان منها مخطوطتان . قابلناها جميعا وأخرجنا منها النص الآتى :

اعلم ، أرشدنا الله وإياك ، أنه يجب على كل مكلف أن يتعلم أن الله واحد فى ملكه ، خلق العالم بأسره: العلوى والسفلى والعرش والكرسى والسموات والأرض وما فيهما وما بينهما ،

جميع الخلائق مقهورون بقدرته ، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه (١) ليس معه مدبر فى الخلق ولا شريك فى الملك ، حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا ، يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين. أحاط بكل شىء علما، وأحصى كل شىء عددا، فعال لما يريد قادر على ما يشاء له الملك والغنى (٢) وله العزة والبقاء وله الحكم والقضاء وله الأسماء الحسنى (٣) لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى يفعل فى ملكه ما يريد ويحكم فى خلقه بما يشاء [٤] لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا، ليس عليه حق ولا عليه حكم ،وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون موجود قبل الخلق ليس له قبل ولا بعد ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا كل ولا بعض ولا يقال متى كان ولا أين كان ولا كيف كان ، كان ولا مكان [١] كون المكان [٢] ودبر الزمان لا يتغير بالزمان ولا يتخصص بالمكان ولا يشغله شأن عن شأن [٣] ولا يلحقه وهم ولا يكفيه عقل ولا يتخيل فى الذهن [٤] ولا يتمثل فى النفس ولا يتصور فى الوهم ولا يتكيف فى العقل ، لا تلحقه الأوهام والأفكار، جل عن النظير والشبيه (٥) وليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

عبد الله كنون

(١) تختلف هنا نسخة أعز ما يطلب فتقول: ليس له قبل ولا بعد إلى قوله ولا كل ولا بعض. ثم تقول : لا يتخصص فى الذهن إلى قوله وهو السميع البصير. ثم تعود إلى ما هنا من قوله ليس معه مدبر. وقد اعتمدنا ما فى بقية النسخ .

(٢) فى كل النسخ والغناء بالمد وهو تصحيف.

(٣) فى نسخة الشرح : وله الحمد والأسماء الحسنى، وشرح عليها. ولكنها زيادة لا توجد فى بقية النسخ .

(٤) سقط من نسخة أعز ما يطلب قوله: يفعل ما يريد ويحكم فى خلقه بما يشاء وهو ثابت فى بقية النسخ .

(١) سقطت (كان) هذه من نسخة الطبقات وسقطت الجملة كلها من نسخة النبهانى .

(٢) فى نسخة الطبقات والنبهانى كون الأكوان .

(٣) ثبتت هذه الجملة فى نسخة الطبقات فقط.

(٤) فى الطبقات، وأعز ما يطلب: لا يتخصص. وفى النبهانى: لا ينحصر. وفى الحلل: لا يتحصل. وآثرنا ما فى نسخة الشرح لدقتها .

(٥) انفردت النبهانية بهذه الجملة وهى فى نظرنا مناسبة هنا .

الإسلام والكرامة الإنسانية

للأستاذ الدكتور محمد غلاب

مما لا ريب فيه أنه بقدر ما تتوالى الوثبات التقدمية فى المدنية ، وبقدر ما تشعر المرء بالواجبات التى تفرض عليه وتلح على عاتقه ، كالواجبات الأسرية والاجتماعية والسياسية بأنواعها ، لا يستطيع أن يتخلى عن أن يدرك فى الوقت ذاته فكرة رفيعة عن نفسه ودوره فى الحياة ، وعن قيمته كفرد منحته السماء نعمة العقل والتفكير بغض النظر عن منزلته الاجتماعية وثروته ومولده .

ومما لا ريب فيه أيضا أن هذا الشعور هو الذى يدفعنا إلى إعلان استحقاقنا للاحترام أمام أنفسنا قبل كل شىء ، ثم إلى المطالبة بالظفر به لدى الآخرين ، ولكن لا بدافع الأنانية ، بل بدافع احترام الإنسانية المثالية فى أشخاصنا .

هذه المشاعر العالية كلها كانت مجهولة فى الغرب إلى عهد قريب ، ولم تنتعش وتقو إلا منذ القرن الثامن عشر الذى أطلق عليه فى أوروبا اسم « عصر الأنوار » ويحلل « كانت » هذه الأحاسيس بتعمقه المألوف فيقول :

« إن الإنسان هو فوق كل تقدير حين ينظر إليه على أنه موضوع للأخلاق العملية ، لأنه من هذه الوجهة لا يمكن أن يعتبر وسيلة لأية غاية من غايات الآخرين ؛ بل لأية غاية من غاياته هو . ولكن يجب أن ينظر إليه على أنه غاية فى ذاته ، أى على أنه يحتوى على كرامة محترمة ، وقيمة مطلقة نابعة من ذاته نفسها . وعن طريق هاتين الصفتين الرفيعتين ، يلزم كل الكائنات العاقلة باحترام شخصيته ، وهما اللتان تسمحان له بأن يقيس نفسه بكل واحد منهم ، وبأن يعتبر نفسه معهم على قدم المساواة » . (نظرية الفضيلة) .

وأيا ما كان ، فإن هذه المشاعر ـ ولو أنها شخصية محضة ـ كانت لها نتائج اجتماعية خطيرة الأثر ، لا سيما عندما تخلصت من غواشى العوامل الأخر ، وأصبحت واضحة لا تشوبها أية شائبة أجنبية ، إذ جعلت تتعطف شيئا فشيئا نحو الحرية ونحو العدالة التى تحقق احترام حقوق الجميع على صورة يطبعها النمو ، ويميزها الاطراد . وما زالت تسير على هذا النحو حتى نشأ منها النظام الديمقراطى الحديث الذى يبدو أنه هو النظام الوحيد الذى يتفق مع مطالب الكرامة البشرية .

ومن مميزات هذا العصر الراهن أن المناداة بالديمقراطية تكاد تصم الآذان ، وأن الجميع لا يكفون عن التحكك بها . ولكن هذا من جانب الأكثرية الساحقة من الغربيين نظرى فحسب ، بل هو رياء ونفاق ، لأننا نشاهد أن الاستعمار والتسلط فى كل ساعة من ساعات النهار والليل يدوسان بأقدامهما الحديدية تلك الديمقراطية المسكينة بلا رحمة ولا إشفاق، بل دون أدنى علامة من علائم الإنسانية .

ومما يسترعى الانتباه فى هذا الصدد ، أن أعنف المقاومين الآن لهذه الإهانات الماثلة فى الاستعمار هم المسلمون الذين عندما استيقظوا من سباتهم الذى ألق بهم فيه استعمار قديم ، ونفضوا عن أنفسهم غبار السنين ، لم يجدوا أقل عسر فى استكشاف الكرامة الإنسانية ممزوجة بكل مبادىء دينهم وتعاليمه . ومن ثم فإن المسلمين لم يكونوا فى حاجة إلى التنقيب عن هذه الكرامة وتلك العزة فى أصول دينهم، بل لم يكونوا فى حاجة إلى كثرة التأمل فيه لاستخلاصهما منه ، إذ أن الوحى الإسلامى قد وضعهما للجميع دفعه واحدة ، وفى نور وضاء متلألىء «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» . (آية ٨ من سورة : المنافقون) .

ولذلك أجمع المسلمون وغير المسلمين من الذين درسوا الإسلام ، على تقرير أنه دين الكرامة والعزة بأكمل هذين المعنيين . ولقد عنى القرآن فى كثير من آياته عناية فائقة بأن يوقظ البشرية ، وأن يغرس فى نفوس أفرادها بلا استثناء شعورا واحدا شاملا ، مؤداه أن العزة والكرامة متأصلان فى عنصرهم الأساسى «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (آية ٢٩ من سورة الحجر) . «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » (آية ١١ من سورة الأعراف) . «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون» . (آيتا ٧٢ و ٧٣ من سورة ص) . «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (آية ٧٠ من سورة الإسراء) .

ولم يقتصر البارى جل وعلا - بإزاء هذا الإنسان - على تكريمه وتفضيله اللذين أشرنا إليهما آنفا ، بل تفضل عليه بخلقه فى أحسن صورة ، وسواه أحسن تسوية وكذلك تكرم عليه بأن يخضع له كثيرا من خلقه إخضاعا واقعيا وأن يسخره له تسخيرا عمليا ، وأن يجعل بعض مبدعاته الباهرة وسائل لغاياته وأهدافه ، بل لسعادته وهنائه ، وأن ينبهه إلى ذلك كله ليشعره بقيمته ، ويخطره بمكانته «هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت

لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . (آيتا ١٠ و ١١ من سورة النحل) . « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . (آية ٢٠ من سورة لقمان)

وعندما أحس المؤمنون الذين اهتدوا إلى الإسلام بهذه الكرامة التى نبأهم بها القرآن والأحاديث القدسية والنبوية ، كان لها على نفوسهم وقع عظيم الأثر . ومن يريد التحقق من هذا التقدير لدى المسلمين ، وأثره فى نفوسهم ، فلينظر مثلا إلى مسلمى إفريقيا المركزية ، وليقرأ كتب الرحالة الأوربيين فى أوصافهم لسكان هذه الأصقاع ، فهم يحدثوننا عن مقدار ما أحدثه هذا الأثر ، ولا يزال يحدثه من تدفق هذا القسم من البشر على الإسلام جماعات وأفواجا بسبب ما وجدوه فى مبادئه من العزة والكرامة والعدالة والمساواة . ولقد وصفت جريدة « الموند » الفرنسية هذا التدفق فنشرت فى ١٦ يناير من سنة ١٩٥٧ « أن عدد المسلمين فى إفريقيا ، قد زاد فيما بين سنتى ١٩٣١ و ١٩٥١ من أربعين مليونا إلى ثمانين مليونا ، وأن الأرقام تتزايد فى كل يوم » .

ولقد لفتت هذه الزيادة المطردة أنظار الباحثين الغربيين الذين لا يكفون عن الملاحظة ، ودفعتهم إلى التنقيب عن أسبابها ، فألفوا — بعد الدراسة الدقيقة — أن فى مقدمة هذه الأسباب ذلك الشعور بالكرامة الذى يغرسه الإسلام فى نفوس معتنقيه ، والذى يمثل فى حياتهم الفردية والاجتماعية أهم الأدوار وأجدرها بالعناية والاعتبار .

ولم يفت أولئك المؤلفين من الرحالة أن يسجلوا فى كتبهم أن هؤلاء المهتدين الجدد إلى الإسلام يدركون ويقدرون صعودهم المتواصل على درجات السلم الاجتماعى ، فمن ذلك تلك المحاضرة الشائقة التى ألقاها الأستاذ الفرنسى « شيليه » فى دكار عام ١٩٥٩ والتى يقول فيها ما يلى : « إن الإسلام يمثل — بالنسبة إلى الفرد الذى يتخلص من تأثير القبيلة — تماسكا رفيعا ومستوى من الحياة عاليا ، وثقافة سامية وجوازا مشروعا للرحيل إلى أى مكان ، وللتغلغل فى أجناس أخر » .

وكذلك الأستاذ « روندو » مدير الدراسات العليا فى أفريقيا وآسيا الحديثتين يسجل فى كتابه « الإسلام ومسلمو اليوم » ما نصه :

« إن تقبل الأمة الإسلامية للمهتدى الجديد تام ، فهى تمنحه الشعور برقيه الاجتماعى ، وفوق ذلك ، فإن العامل أو التابع لأى رئيس مسلم ، يتحرر فى رحوبة من انخفاضه

البدائى بمجرد اعتناقه الإسلام الذى يعلم المساواة الأساسية بين جميع المؤمنين دون أى امتياز جنسى ، وأن حياته المعنوية تتغير تماما عند ما يدخل فى « الأمة » . ومنذ تلك اللحظة ينقطع عن أن يكون وحيداً منعزلا » (ص ٤٦ من الجزء الثانى) .

وهكذا يكشف الإسلام للمهتدى الجديد كرامته كمؤمن مهما كانت حالته الاجتماعية متواضعة . ولكن هذا الصعود بالكرامة الإنسانية ، يجعل التعارض مع السقوط وفقدان الكرامة هائلا حين يترك الصراط المستقيم الذى وضعه الله عليه بكثير من التشريف ، وإذن فعليه وحده أن يحتفظ بتلك المنزلة بوساطة تطبيق الفضيلة وملاحظة القانون الأخلاقى القرآنى ، بل القانون الأخلاقى فحسب ، لأن جهود الفكر البشرى المبذولة فى التنقيب عن الخلقية الفطرية المودعة فى الإنسان عن طريق الدين الفطرى قد انتهت بالعثور على القاعدة الجوهرية للقانون الإلهى كما نستطيع أن ندركه حين نوازن بينه وبين الوحى الإسلامى ، ففى الواقع أننا نشاهد فى النصوص الإسلامية آيات وأحاديث حازمة حاسمة ، ضد كل من ينحرف عن الطريق السوى ويهوى - بسبب فعل الشر - عن منزلته كإنسان ، وهكذا نجده خليقا بوصف القرآن : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (آيات ٤ و ٥ و ٦ من سورة التين) ، « ولهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » ، (آية ١٧٩ من سورة الأعراف) .

ونحن إذا نظرنا فى الأخلاق الحديثة نظرة فاحصة ، ألفينا أنها تشارك القرآن فى وجهة نظره هذه ، دون أن تعرف ذلك ، إذ أن كل الذين يسيئون إلى الكرامة البشرية كاللصوص والفجار والسكيرين والجشعين والقساة الذين يعدون على إخوتهم فى الإنسانية فيصيبونهم فى حياتهم ، أو فى حريتهم أو فى ثروتهم ، هى تحكم عليهم بالسقوط المعنوى ، وتدينهم بالانفصال عن كل ما يربط « الحالة البشرية » بالنبل والرفعة .

ومما يزيد هذه الفكرة إيضاحا أننا إذا أردنا أن نتحدث اليوم مع أحد المعاصرين باللغة التى تتفق مع زماننا هذا ، فإنه يجب علينا أن نتحدث معه عن الظفر بالكرامة الإنسانية عن طريق الكفاح ضد الطغيان والاستعمار لنيل الحريتين : الداخلية والخارجية ، وعن طريق العمل المشرف الذى يعيد للأناسى عزتهم التى أساءت إليها البطالة الناشئة عن الاعتماد على الغير ، والتى

صارت موضع الفخر والمباهاة لدى «العاطلين بالوراثة». ولكن ينبغي أن نعلم أنه لا كرامة للمرء الذى يعمل دون أن يعرف لماذا يعمل أو بعبارة أوضح: لا كرامة لمن يعمل بلا غاية ولا هدف، فيكون مثله كمثل الأنعام أو هو أضل سبيلا. وإنما يجب أن يتخذ العمل معنى خاصا، ودلالة محددة أو بالحرى يجب أن يصير العمل لوجه الوطن العزيز المحبوب الذى يتحقق فيه مقر اشتراكية معتدله كتلك الاشتراكية التى حققناها الآن فى مصر بعد أن انتزعنا عناصرها كلها من قانوننا الأخلاق الإسلامى الذى يدين فى قوة عنيفة جميع الذين يصيبون الإنسان فى حريته وكرامته أو يعتدون على أى شىء يخصه: «ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين». (آية ١٩٠ من سورة البقرة).

بيد أننا ـ مع الأسف الشديد ـ نشاهد أن إخواننا من الأمة الإسلامية، لم ينتهوا بعد من التخلص من تلك السيادة البغيضة التى تعمل فى نشاط على تحليل أخلاقهم، وتفكيك روابطهم، وتحطيم وحدتهم، وتستبقيهم تحت سيطرتها الاستغلالية المفسدة. ولاريب أننا نحن الذين قد تخلصنا من هذه الرواسب المخجلة ـ بوساطة ثورتنا الراهنة ـ ولله الحمد أولا وأخيرا، نستطيع وحدنا قبل الجميع أن نقدر وزن الكفاح الذى ينبغى القيام به فى هذا الصدد، وأن نقيس الطريق الذى يجب قطعه قبل الوصول إلى الهدف الأسمى الذى يحقق للأمة الإسلامية كلها تلك العزة المثالية التى نادى بها القرآن فى وضوح وجلاء مرات عدة، وعلى صورة متنوعة.

ونحن إذا رجعنا بأفكارنا إلى حقبة السيادة الأجنبية والطغيان الداخلى، وهى حقبة ليست بعيدة عنا كثيرا، وإن كانت تبدو لنا الآن ـ لبغضها وسماجتها ـ منغمسة فى أعماق عهد قد باد وانقرض. وأصبح فى خبر كان غير مأسوف عليه ألبتة. إذا استعدنا إلى أذهاننا هذه الذكرى، أحسسنا برعدة تملك علينا كياننا كله من هول الحكم الذى كان يصدره الناس علينا من أننا إما نيام لا ندرى بما يمر بنا وإما أننا مفقودو العزة لا نحس بما يجرح كرامتنا، ويهين إنسانيتنا.

ولقد سألنى رئيس تحرير مجلة «الجيل» مرة بمناسبة أحد أعياد الثورة قائلا:

ما أعظم مكاسب الثورة فى رأيك؟

فأجبته بما يلى:

إن مكاسبنا فى رأيى تتركز على الأخص فى الكرامة والعزة اللتين حصلنا عليهما، وهما تتقدمان كل المكاسب المادية، ولو لم يكن للثورة إلا أننا أصبحنا مطلوبين لا طالبين، ومقصودين لا قاصدين، وأصبحنا يؤخذ عنا ولا نأخذ عن أحد. لو لم يكن

للثورة غير هذا لكنى ، لأننى لا زلت أذكر كيف كان وزراؤنا يحجون إلى لندن فى كل عام ليستجدوا من انجلترا مقاعد الوزارة ، أو ليستعدوها على الملك الظالم إلى حد أن مستر (إيدن) سئل مرة فى مجلس العموم : لماذا تحتقرون الوزراء المصريين ؟ فأجاب بقوله :

« ماذا تصنع لوزير حقير ذليل إذا رأى انجليزيا خفض رأسه حتى كاد طربوشه يلمس الأرض ؟ فهل نحن إله نمنحه الكرامة ؟ » .

وها نحن أولاء ـ بعد تلك العهود المظلمة ـ نسترد كرامتنا كاملة ، وهى الشىء الوحيد الذى يميز الإنسان على كل ما عداه من الكائنات الأخرى .

ومن تداعى المعانى فى هذا الشأن أن مطالعتنا فى المؤلفات الأوربية ، تعيد إلى ذكراتنا من حين إلى آخر ما كنا نقرأه فى العهود البائدة فى حزن مرهق وأسى مرير وتدفعنا إلى أن نستعيد الآن ـ بعد التخلص من تلك المآسى المقيتة ـ فى مرح وسرور ما كان يكتبه عنا بعض الذين يحبوننا من أصدقاء الإسلام الغربيين كالكاتب الروائى الفرنسى (بيير لوتى) حين كان يتأمل فى حالة مصر الخاضعة للسيادة الاستعمارية فى أوائل هذا القرن إذ يقول فى كتابه : « موت فيليه » ما يلى :

« يوجد من بين هؤلاء الشبان المسلمين والأقباط الذين يتخرجون فى المدارس ، كثير من العقليات الممتازة ذوات الذكاء الرفيع ، وكنت أود أن أهتف بهم قائلا : اعملوا على تحقيق رد الفعل قبل أن تفوت الفرصة ، ودافعوا عن أنفسكم ضد الغزو المقتت المذيب ، واحتقروا هذه « البضائع » الغربية الرديئة التى يغرقونكم فيها بعد ما تبور وينصرف الناس عنها عندنا [1] . وحاولوا أن تحتفظوا بتقاليدكم ولغتكم العربية الجديرة بكل إعجاب ، لأن الأمر يتعلق بكرامتكم القومية ... إنكم شرقيون (وإننى أنطق باحترام هذه الكلمة التى تتضمن ماضيا ذا حضارة نضجت قبل الأوان وعظمة نقية) بينما أنكم ــ بعد بضعة أعوام ــ إذا لم تأخذوا حذركم ، سيجعلون منكم سماسرة أفاكين لا تنشغلون إلا بتقييم أثمان الأرض ، وارتفاع أسعار القطن ...

---

(١) كان بيير لوتى ـ بهذه العبارات الخالدة ـ كأنه يقرأ من وراء حجب الغيب ما سيحدث فى النصف الثانى من القرن العشرين بإزاء الوجــــودية السارترية الملحدة التى أصبح السطحيون المتحللون من المصريين يتعلقون بها بعد أن ماتت ودفنت فى مهدها ، أو أصبحت خلقة بالية مهلهلة على أقل تقدير .

ثم يتحدث عن فلاح مصر فيقول :

« مسكين ذلك الجنس المتين الذى لا يتعب. إنه كان فيما مضى يمتلك نور العالم، وها هو ذا قد هوى فى نوع من النوم المتهالك الذى يسر مهمة الغزاة فى الماضى والمستغلين فى الحاضر . . . لقد حان الوقت لإيقاظ ذلك النائم منذ عشرين قرنا ، لنرى ما لا يزال قادرا على إعطائه اليوم ، وأية مفاجأة لا يزال يحتفظ لنا بها بعد هذا النوم .

ومهما يكن من شىء - إذا حدث ذلك الاستيقاظ - فإن هذا النوع البشرى الذى هو الآن فى طريقه إلى الانحدار بسبب الإرهاق ، سيجد لدى هؤلاء المغنين على الشادوف والحارثين بذلك المحراث المغرق فى القدم رءوسا لم تكد تمسها القحول، ورصيدا عظيما من الجمال والاتزان البدنى ، وطاقات قوية بلا بهيمية » .

ولقد كانت هذه العبارات الصادرة من قلب نظيف صديق ، كأنها نبوءة لم تلبث أن تحققت، إذ قد وضعت السماء مصر - بوساطة هذه الثورة المباركة - على رأس البلاد الإسلامية والعربية . وليست هذه المكانة بالنسبة إلينا مصدر فخر ومباهاة نستفيد منها المجد والتشريف ، وإنما هى مسئولية عظيمة وواجب ثقيل يستدعى التنبه الدائم، والعمل المستمر ، والشعور بجدية الموقف لا على مر الشهور والسنين، بل على مر الأيام والساعات .

ولا ريب أن هذا الشعور بالمسئولية، لا يخلو من لذة رفيعة تستوجب بديا شكر البارى على نعمة هذا الامتياز، ثم تقدير ذلك الزعيم العظيم الذى منت به السماء على أرض الكنانة والأسرار ، فأنقذها بعون الله وتوفيقه من مخالب الاستعمار وعملائه وسماسرته ، والذى يقود هذا الوطن العزيز فى طريق الأحرار الأعزاء وعلى صراط المؤمنين الذين يتخذون الحق نبراسهم والخير غايتهم . ؟

الدكتور محمد غلاب

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

(الآية ٧٠ من سورة الإسراء)

منهج الرّازى فى تفسيره

للأستاذ على العمارى

أول ما يواجه القارئ فى تفسير الفخر المبالغة فيما يمكن أن يستخرج من القرآن، بل من آية واحدة، بل من حرف واحد منه .. ما يمكن أن يستخرج من ذلك من آلاف المسائل.

فقد ابتدأ بقوله : (اعلم أنه مر على لسانى فى بعض الأوقات أن هذه السورة - يريد سورة الفاتحة - الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغى والعناد).

ثم أخذ يضرب الأمثلة، وينتهى إلى قوله : (فثبت بهذا الطريق أن قولنا : «أعوذ بالله» مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد).

ويقول : (الباء فى «بسم الله» باء الإلصاق، وهى متعلقة بفعل، والتقدير باسم الله أشرع فى أداء الطاعات، وهذا المعنى لا يصير ملخصا معلوما إلا بعد الوقوف على أقسام الطاعات، وهى العقائد الحقة، والأعمال الصافية، مع الدلائل والبينات، ومع الأجوبة عن الشبهات وهذا المجموع ربما زاد على عشرة آلاف مسألة).

وهكذا يأخذ فى تأييد رأيه.

وكل هذا يدلنا على الروح التى صدر عنها الرازى فى تفسيره، فقد أكثر من الاستطراد وتصريف الأقوال، والإبعاد فى الجدل والنقاش.

ومن هنا قال أبو حيان صاحب كتاب (المحيط) فى التفسير، عن كتاب (مفاتيح الغيب) للرازى. قال : (فيه كل شئ إلا التفسير).

غير أنى رأيت الفخر يفرق بين الاستطراد فيما يتصل بمعنى الآية، أو ألفاظها، وبين الاستطراد إلى الأخبار التى تلصق إلصاقا بتفسير الآيات، ولا سند لها من مدلول الآية، أو من الروايات الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم، أو عن صحابته الأكرمين.

ونضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ - (فقلنا اضربوه ببعضها) : اختلفوا فى ذلك البعض الذى ضربوا به القتيل : ما هو ؟.

وبعد أن ساق خلافهم فى أنه اللسان أو الفخذ اليمنى أو الذنب قال : ولا شك

أن القرآن لا يدل عليه ، فإن ورد خبر صحيح قبل ، وإلا وجب السكوت عنه .

وله فى ذلك سلف هو المفسر الكبير محمد ابن جرير الطبرى ؛ فقد أشار إلى ما قاله الرازى فى ذلك الموضع نفسه فقال ـ أعنى الطبرى ـ معقبا على اختلافهم فى (البعض)(١) الذى ضرب به القتيل : (ولا يضر الجهل بأى ذلك ضربوا القتيل . ولا ينفع العلم به ، مع الإقرار بأن القوم ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها ، فأحياه الله ، وعرف القاتل) .

ويتعرض الطبرى لتحديد بعض المفسرين (الثمن) الذى بيع به سيدنا (يوسف) عند تفسير قوله تعالى : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة » ، ثم يقول : (والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة ، ولم يحدد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد ، ولا وضع عليه دلالة من كتاب ، ولا خبر من الرسول ، وقد يحتمل أنه كان عشرين ، ويحتمل ذلك أن يكون كان اثنين وعشرين أو أن يكون كان أربعين ، وأقل من ذلك ، وأكثر ، وأى ذلك كان فإنها معدودة غير موزونة ، وليس فى العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع فى دين ، ولا فى الجهل به دخول ضر فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فوضوع عنا تكلف علمه) .

وكذلك فعل الفخر الرازى :

٢ ــ ففى ذلك الموضع من تفسير سورة (يوسف) يذكر روايات عن طريقة بيع يوسف وعن عدد الدراهم المذكورة فى الآية ، وعن اسم من اشتراه ، وعن اسم امرأة العزيز ، ثم يقول : (واعلم أن شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ، ولم يثبت أيضاً فى خبر صحيح ، وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شىء من هذه الروايات ، فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها) .

٣ ــ وفى تفسير قوله تعالى : « وجعلت له مالا ممدوداً » من سورة (المدثر) يقول : (ومن المفسرين من قدر المال الممدود . فقال بعضهم : ألف دينار ، وقال آخرون : أربعة آلاف ، وقال آخرون : ألف ألف) ثم قال : (وهذه التحكمات مما لا يميل إليها الطبع السليم) .

فهو يزيد هنا منافرة هذه الأخبار للطبع السليم ، بعد أن ينفى أنها وردت فى كتاب أو فى سنة ، وأن يؤكد أن الآية لم تشر إليها من قريب ، ولا من بعيد .

٤ ــ وفى تفسير قوله تعالى : « ويصنع الفلك بأعيننا » من سورة : (هود) يذكر اختلافهم فى صفة السفينة ومساحتها ، فمن قائل:

(١) يمنع جمهور فقهاء اللغة إدخال (أل) على كلمة (بعض) ، وقد أجازه بعضهم ، ويجىء استعمال (البعض) و (الكل) فى عبارات المؤلفين كثيرا .

كان طولها ثلاث مائة ذراع وعرضها خمسون ، وطولها فى السماء (ارتفاعها) كان ثلاثين ذراعا ، وأنها كانت من خشب الساج ، ومن قائل : كان طولها ألفاً ومائتى ذراع وعرضها ست مائة) ، ثم يقول : (واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبنى ؛ لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا ، وكان الخوض فيها من باب الفضول ، لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح .

والذى نعلمه أنه كان فى السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ، ولما يحتاجون إليه ، ولحصول زوجين من كل حيوان ، لأن هذا القدر مذكور فى القرآن ، فأما غير ذلك القدر فغير مذكور) .

وبهذا الصنيع الواعى المتزن تجنب الفخر كثيراً من الفضول ، ورسم لمن جاءوا بعده طريقا قويما ينبغى اتباعه فى التفسير ، وإن كان بعض المفسرين - بعده - ضرب عن كلام الرازى ، وعن كلام ابن جرير صفحا ، وملأ تفسيره بما لا ينفع العلم به ، ولا يضير الجهل به ضاراً .

والفخر وإن كان بذلك نزه كتابه عن ترهات وأباطيل لا سند لها ، ولا يستسيغها طبع سليم ، دفعه عقله الفلسفى إلى أن يضيف إلى التفسير ألوانا من الغرائب كان يحسن به أن يضرب - أيضا - عن ذكرها صفحا ، لكنه قدح زناد فكره فاستخرجها أو رآها فى كتاب سبقه ،فرضى عنها ، ونقلها فى كتابه من ذلك - مثلا - تعليله لجعل عدة أصحاب النار (تسعة عشر) فهو يقول فى تفسير سورة (المدثر) : (ذكر أرباب المعانى فى تقدير هذا العدد وجوها .

(أحدها) : وهو الوجه الذى تقوله أرباب الحكمة : أن سبب فساد النفس الانسانية فى قوتها النظرية والعملية هو القوى الحيوانية والطبيعية .

أما القوى الحيوانية فهى الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة ، والشهوة والغضب ، ومجموعها اثنتا عشرة .

وأما القوى الطبيعية فهى : الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، والغاذية ، والنامية ، والمولدة ، وهذه سبعة ، فالمجموع تسعة عشر .

فلما كان منشأ الآفات هو هذه التسعة عشر (١) لاجرم كان عدد الزبانية هكذا .

(وثانيها) : أن أبواب جهنم سبعة ، فستة منها للكفار ، وواحد للفساق ، ثم إن الكفار يدخلون النار لأمور ثلاثة : ترك الاعتقاد ، وترك الإقرار ، وترك العمل ، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة والمجموع ثمانية عشر .

---

(١) تعريف الجزء الأول من العدد المركب إذا أريد تعريفه هو مذهب البصريين ، أما الكوفيون فيعرفون الجزأين .

وأما باب الفساق فليس هناك زبانية بسبب ترك الاعتقاد، ولا بسبب ترك القول بل ليس إلا بسبب ترك العمل ، فلا يكون على بابهم إلا زبانية واحدة ، فالمجموع تسعة عشر .

و(ثالثها) :أن الساعات أربعة(١) وعشرون. خمسة منها مشغولة بالصلوات الخمس ، فيبقى منها تسعة عشر غير مشغولة بغير العبادة ، فلاجرم صار عدد الزبانية تسعة عشر .

ومن ذلك ـ أيضا ـ تعليله لجعل الشعب ثلاثا فى قوله تعالى : (إلى ظل ذى ثلاث شعب) من سورة : (المرسلات) .

فقد قال : (وثالثها . قال قتادة : بل المراد الدخان، وهو من قوله: (أحاط بهم سرادقها: سرادق النار هو الدخان ، ثم إن شعبة من ذلك الدخان على يمينه ، وشعبة أخرى على يساره ، وشعبة ثالثة من فوقه) .

(وأقول : هذا غير مستبعد ، لأن الغضب عن يمينه . والشهوة عن شماله ، والقوة الشيطانية فى دماغه ، ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الإنسان فى عقائده وفى أعماله ليس إلا هذه الثلاثة ، فتولدت من هذه الينابيع الثلاثة ثلاثة أنواع من الظلمات).

(ويمكن أيضا أن يقال : هنا درجات ثلاثة : وهى الحس ، والخيال ، والوهم وهى مانعة للروح عن الاستنارة بأنوار عالم القدس والطهارة ، ولكل واحد من تلك المراتب الثلاثة نوع خاص من الظلمة) .

· · ·

أليس يقال فى هذه التعليلات ما قاله هو فيمن اختلفوا فى (بعض البقرة) أو فى (طعام المائدة) أو فى (عدد الدراهم) التى بيع بها يوسف عليه السلام .

أليست عارية مما يؤيدها من الكتاب الكريم ، أو من الخبر الصحيح ، أو من الطبع السليم ؟

على أن فى آية : (المدثر) أمراً كان على الفخر ، وعلى كل من وافقه ، أو كان سلفا له فى هذا أن يراعيه ، وهو أن الآية نفسها صرحت بأن ذلك العدد مما لا ينبغى أن يبحث له عن علة فى قوله تعالى : (وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) .

فالآية واضحة وصريحة فى أن هذا العدد لا تعليل له ؛ والفخر نفسه ذكر أن أحد سببى الفتنة فى هذا العدد أن الكفار يستهزئون ويقولون : لم يكن . لم لم يكونوا عشرين ؟ وما المقتضى لتخصيص هذا العدد بالوجود؟

(١) هكذا النص بتأنيث أربعة . . الخ

على العمارى

إنسانية الحب فى أدب المهجر

للأستاذ حسن جاد

الحب فى أسمى صوره ، وأوسع معانيه ، وأقدس عواطفه ، عنصر هام من عناصر الحياة عند المهاجرين، وسمة بارزة من سمات أدبهم . فقد ارتفعوا به إلى سماء الحب الإنسانى الصوفى ، الذى يفيض السلام على الكون ، ويفجر السعادة فى النفوس ، ويخلع الجمال على الحياة ، ويفتح مغالق الحقائق ، وينير الطريق إلى الله .

إنه الحب الرحب الشامل الذى لا يقف عند حب الرجل للمرأة ، ولا يقتصر على التحاب بين الأفراد ، بل يرفرف بأجنحته الملائكية على البشرية كلها ، ويغمر بأضوائه القدسية الوجود كله .

لقد اعتنقوا الإيمان بوحدة الحياة والطبيعة والوجود ، فرأوا أن (أصغر ما فى الحياة يتمم أكبر ما فيها ، وأن أكبر ما فيها يخدم أصغر ما فيها ، وبلغوا إلى قلبها ، فوجدوا الجمال فى كل شىء حتى فى العيون المتعامية عن الجمال) .

لذلك أحبوا كل ما فيها ، لأنه بهم ولهم ؛ وعشقوا الوجود ومظاهره فى الأرض وفى السماء ، عشقا نابعاً من إيمانهم بوحدته ، وإدراكهم لقيمة كل شىء فيه ، وإحساسهم بجماله ، وتقديرهم لرسالته .

أحبوا الطبيعة نبتا وطيرا وحيوانا ، حتى (الدودة الصغيرة) التى يرى ميخائيل نعيمة أنها ليست أقل شأنا من العقبان والنسور ، وليست بالدميمة فى عين الحياة التى لا تعرف الفروق بين التبر والتراب ، ولا تحرق عوسجة لتغرس مكانها زهرة ، فجوهر الحياة واحد ، وبذرتها متساوية .

وأحبوا الإنسانية كلها : رجلا وامرأة ، محبا ومبغضا ، قويا وضعيفا، خيراً وشريرا ، حبا مطلقا لا يعرف الحدود والفوارق ، متسامحا يتسامى على العصبيات والمذاهب .

يقول جبران : « إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك القلوب . أما المحبة المتناهية فلا تطلب غير ذاتها » .

ويقول : « أحبك يا أخى ساجدا فى جامعك ، وراكعاً فى هيكلك ، ومصليا فى كنيستك ، فأنت رفيقى على طريق الحياة المستترة وراء الغيوم » .

ويقول نعيمه : « ألا وسعوا أبواب أرواحكم كيلا يظل أحد خارجا ـ لا تبغضوا أحدا من الناس . وإذا نسجتم كساء لإنسان فحذار أن تنسجوا فيه خيطا واحدا من بغضائكم ـ إنما الأرض كلها تحيا فيكم . وإنما السموات وكل أجنادها حية فيكم ، فأحبوا الأرض وكل الراضعين من ثديها إن أنتم شئتم أن تحبوا أنفسكم ، وأحبوا السموات وكل أجنادها إن أنتم شئتم أن تكون لكم حياة ـ لا تبغضوا الشرير ، وابغضوا الشر ـ إن شئتم الخلاص من الألم فعليكم أن تحبوا ذواتكم ، غير أنكم إن أحببتم كل ما فى الكون إلا دودة واحدة فإنكم ما برحتم تكرهون ذواتكم بقدر كرهكم لتلك الدودة ، وسيبقى لكم فى كرهكم ينبوع ألم » .

يقول أمين الريحانى : « إن فى تلك الذرا زهرة من أزهار الحب الدائم العميم ، وفى الحب الدائم العميم تتلاشى العصبيات كلها » .

ويقول وليم كاتسفليس : « ما عمر الأكوان إلا المحبة . والقلب إن لم يسع الدنيا فهو وعاء صغير ، وإن لم يفهم أنغام الكائنات فهو أوتار ميتة لا تحركها أغانى الأرواح المتآخية ؛ فليحدث كل جرح فى قلوبكم جرحا » .

ويرى إيليا أبو ماضى أن الحب نور يكشف حقيقة النفس ، ويهدى الإنسان إلى الله :

إن نفسا لم يشرق الحب فيها
هى نفس لم تدر ما معناها

أنا بالحب قد وصلت إلى نفسى ، وبالحب قد عرفت الله بل هو نور خالد متجدد :

فالحـــب نور خالد متجدد
لا ينطوى إلا ليسطع نور

والمحبـــة عنده توقظ الشعور ، وتضىء الكون ، وتنبت الزهر ، وتجعل الكوخ الحقير كونا منيرا ، والسراب الخادع ماء نميرا :

أيقظ شعورك بالمحبة إن غفا
لولا شعور الناس كانوا كالدمى

أحبب فيغدو الكوخ كونا نيرا
وابغض فيمسى القصر سجنا مظلما

كره الدجى فاسود إلا شهبه
بقيت لتضحك منه كيف تجهما

لو تعشق البيداء أصبح رملها
زهرا ، وصار سرابها الخداع ما

لا تطلبن محبة من جاهـــل
المـــرء ليس يحب حتى يفهما

فالمحبة عنوان العقل ، ومرآة الفهم والمعرفة ، والجاهل الغبى لا يحب لأنه لا يفهم ؛ والحب عندهم يستوى فيه العـــدو والصديق ، بل لا يكون حبا حقيقيا إلا إذا وسع المحبين والمبغضين على السواء ، ولو لم يثمر من المحبوبين إلا البغض ، كما يقول نعيمه :

قدمت حـــبى لمبغضيا
لقاء ما قدحنوا عليا

فكان حظى من مبغضيا
أن عاد حظى بغضا إليا

وفى هذا المعنى يقول أبو ماضى :

أحسن وإن لم تجز حتى بالثنا
أى الجزاء الغيث يبغى إن همى ؟
من ذا يكافىء زهرة فواحة ؟
أو من يثيب البلبل المترنما ؟
يا صاح خذ علم المحبة عنهما
إنى وجدت الحب علما قيما
لو لم تفح هذى ، وهذا ما شدا
عاشت مذممة ، وعاش مذمما

إنه الحب الإنسانى الكبير فى رحابته وسموه ، يسع الكون كله ، ويغمر البشرية جميعها ، ويرتفع عن الأغراض ، كما يصوره جبران فى (المواكب) :

والحب فى الناس أشكال ، وأكثرها
كالعشب فى الحقل لا زهر ولا ثمر
والحب إن قادت الأجسام موكبه
إلى فراش من الأغراض ينتحر

هو الحب الذى يشمل المحسن والمسىء ، والصديق والعدو ؛ وينشر جناحه الرحيم على البائسين والمحرومين . فكما يقول نعيمه : « إن رأيتم أعمى وكنتم مبصرين فاعلموا أنكم عميان مثله ما لم تعيروه من بصركم بصرا ، فما دامت طريقه مظلمة فطريقكم مظلمة ؛ لأن طريقه وطريقكم واحدة » .

يقول رشيد أيوب :

وإذا عينى رأت أعمى فقير
فى طريق باسطا إحدى يديه
دق قلبى دقة العطف الكثير
لضرير ضاقت الدنيا لديه
ثم نادى الله كالطفل الصغير
ضع إلهى نظراً فى مقلتيه
إن قلباً ملؤه الحب الصحيح
دق حتى رق من فرط الشعور
هو حى ولئن زار الضريح
دق يا قلبى إلى يوم النشور

« إن من يحب يعطف ويرحم من أعماق قلبه ، ويندفع ليضمد جراح الإنسانية ؛ ومن يحب يبذل بسخاء ، ولو كان البذل من روحه . من يحب يصبح أكثر من إنسان ، بذلك هتف المسيح ، وهكذا يهتف الشاعر القروى :

هو الحب حتى ليس فى الأرض مجرم
ولا مدمع يجرى عليها ولا دم
فقل للذى لا يعرف الحب قلبه
ولم يلف إلا شاكيا يتألم
أيا صاحبى إن العداء جهنم
وما فيه من عز لتحلو جهنم
ويا صاحبى إن التجهم يقتضى
من الجهد مالا يقتضيه التبسم
إن الحب نفحة قدسية من نفحات الخالق

تشع فى النفوس ، فتدفع الزارع إلى العمل ، وتسهر الأم على طفلها ، وتلهم الطير بناء الأعشاش ، كما يقول ندرة حداد :

ما الحب يا صاح سوى نفحة
قدسية بين الورى تسطع
يحصده الزارع إن أخصبت
فى الموسم الأرض التى يزرع
من أسهر الأم على طفلها
صابرة تشقى ولا تضجر ؟
من علم الطير على ضعفها
أن تبتنى الأعشاش فوق الغصون ؟
أخى ما حرك هذه النفوس
فى الخلق من ناس ومن طير
إلا الذى يجرى كخمر الكئوس
فى كل نفس دون أن تدرى
دعوه بالحب ، وكم عاشق
أوصله الحب إلى ما أراد
ذا نعمة من نعم الخالق
لولاه كان الخلق بعض الجماد

والحب يرتفع بمستوى الوطنية عندهم ، حتى يكون الوطن جزءا من الوجود الشامل ، وتكون الأرض كلها وطنا . كما يقول جبران : « الأرض كلها وطنى ، والبشرية كلها عائلتى أحب مسقط رأسى ببعض محبتى لبلادى ، وأحب بلادى بقسم من محبتى الأرض ، وأحب الأرض بكليتى لأنها مرتع الإنسانية » .

كما أن أمين الريحانى كان يقول : « لا تنسوا الإنسانية فى نزعتكم الوطنية » .

هكذا تتفتح النفوس الكبيرة بالحب ، فتحتضن الإنسانية كلها ، وتفعمها بالمحبة ، وتأسو جراحها ، وتهدهد شجونها ، وتحمل المشاعل لتنير لها الطريق إلى الحق والخير والسلام .

وهكذا نقرأ لجبران :

« تأملت فى الطبيعة مليا ، فوجدت فيها شيئا لا حد له ولا نهاية ، شيئا لا يشترى بالمال . . . شيئا لا تمحوه دموع الخريف ، ولا يميته حزن الشتاء . . . شيئا لا توجده بحيرات سويسرا ، ولا متنزهات إيطاليا . . . وجدت فيها المحبة » .

كما نقرأ له : « الحب كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الأرواح القوية ، فيجعلها تتعالى متمجدة أمام كواكب الليل ، وتسبح مترنحة أمام شمس النهار ـ الحب معرفة علوية تنير بصائرنا ، وشعاع سحرى ينبثق من أعماق الذات الحساسة ، وينير جناتها ، فترى العالم موكبا سائرا فى مروج خضراء ، والحياة حلما جميلا ـ المحبة هى الحرية الوحيدة فى العالم ، لأنها ترتفع بالنفس إلى مقام سام لا تبلغ إليه قوانين البشر وتقاليدهم ، ولا تسود عليه نواميس الطبيعة وأحكامها » . . ؟

محمد جاد

من حديث الحج فى القرآن الكريم

للأستاذ محمد الدسوقى

١ — ترد كلمة « الحج » فى المعاجم اللغوية بمعنى القصـــد للزيارة ، ففى لسان العرب لابن منظور : الحج : القصد ، ويقال حج إلينا فلان : أى قدم ، ورجل محجوج : أى مقصود ، وفى معجم مقاييس اللغة لابن فارس : الحاء والجيم أصول أربعة ، فالأول القصد ، وكل قصد حج ، وفى مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى ، أصل الحج ، القصد للزيارة .

وأما معنى الحج من الناحية الشرعية فهو وثيق الصلة بمعناه من الناحية اللغوية ؛ إذ هو القصد فى أشهر معلومات إلى البيت الحرام للنسك والعبادة فرضا كانت أو سنة ، وقد افترضه الله على المكلف المستطيع مرة فى العمر . وزعم بعض الفقهاء أنه يجب مرة فى كل خمسة أعوام ، والصحيح الأول ؛ لما روى عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يأيها الناس كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع .

٢ — وقد تحدث القرآن الكريم عن الحج فى آيات كثيرة ، بعضها يتعلق بفرضيته ، وبعضها الآخر يتعلق بمناسكه وآدابه ، كما سميت سورة من سور القرآن بسورة (الحج) والكلام عن كل ما يتصل بالحج فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يحتاج إلى بحث مستفيض لا تفى مقالة واحدة به ؛ لذلك آثرت أن أقصر حديثى على آية واحدة جاءت فى سورة البقرة وهى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » ؛ لأن هذه الآية الكريمة اختلفت حولها الآراء وتباينت المذاهب . وهى مع هذا تشتمل على بعض التوجيهات الربانية التى تحض الإنسان على الطاعة والاستزادة منها ؛ ليظل دائما عارفا بربه ، متجها إليه يرجو رحمته ويطلب مغفرته ويخشى عذابه .

٣ — الصفا والمروة : علمان للجبلين المعروفين بمكة ، ومعنى كونهما من شعائر الله : أنهما من أعلام مناسكه ومتعبداته ، قال الرازى : كل شىء جعل علماً من أعلام طاعة الله فهو من شعائر الله . قال الله تعالى :

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله » أى علامة للقربة . وقال : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » وشعائر الحج والعمرة معالم نسكهما،وقد سبق تعريف الحج ، أما العمرة فهى:القصد إلى زيارة البيت فى أى وقت من العام ، فالفارق بين الحج والعمرة : هو أن للحج موسما معينا ، يعتبر موعدا لانعقاد المؤتمر الإسلامى السنوى بخلاف العمرة فإنها تؤدى فى أى وقت من العام ، وهى كالحج فى جميع أركانه ، غير أنه لا وقوف فيها بعرفةوهى كذلكمثله فى جميع السنن والواجبات المتعلقة بهذه الأركان ماعدا ما يتعلق بالوقوف بعرفة منسنن وواجبات .

والجناح بالضم : الإثم والتضييق والمؤاخذة. وأصل الطواف المشى حول الشىء والمراد السعى بينهما .

٤ — وقبل التعرض لدراسة هذه الآية نتعرف على سبب نزولها فنى هذا توضيح لبيان مدلولها وإزالة بعض الشبهات حولها. من المعروف أن الحج إلى البيت قديم من زمن إبراهيم عليه السلام ، وكان الطواف بين الصفا والمروة من مناسك الحنيفية دين إبراهيم غير أن الوثنية حينما بسطت سلطانها على شبه الجزيرة العربية،وضع أهل الجاهلية صنما على الصفا يقال له : « أساف » وآخر على المروة يقال له : « نائلة »وعدوا الطواف بين الصفا والمروة تعظيما لهذين الصنمين المعبودين ، وكان أهل يثرب لا يدينون إلا « لمناة » يعبدونها ويهلون لها ،ويعتبرون الطواف بين (أساف)،(ونائلة) إشراكا بها ، ولذا تحرجوا فى جاهليتهم من الطواف بين الصفا والمروة .

وأخرج الإمام مسلم فى رواية يونس عن الزهرى عن عروة بن الزبير أن السيدة عائشة رضى الله عنها أخبرته أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا هم وغسان يهلون (لمناة) ، فتحرجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، وكان ذلك سنة فى آبائهم ،من أحرم (لمناة) لم يطف بين الصفا والمروة ، وأنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلموا فأنزل الله عزوجل فى ذلك : « إن الصفا والمروة » الآية

ويروى عن الشعبى أن وثنا كان فى الجاهلية على الصفا يسمى (أساف) ووثنا على المروة يسمى (نائلة) فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت مسحوا الوثنين فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان قال المسلمون : إن الصفا والمروة إنما كان يطاف بهما من أجل الوثنين وليس الطواف بهما من الشعائر فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ... » الآية .

٥ — من هذا يتضح أن بعض العرب،وهم سكان (يثرب) ، كانوا يتحرجون من الطواف بين الصفا والمروة فى الجاهلية ؛ لتعظيمهم

صنما خاصا بهم واعتقادهم بأن هـذا الطواف يعد إشراكا بإلههم (مناة) ، وكان غير أهل (يثرب) يطوفون بين الصفا والمروة ، تعظيما للصنمين اللذين وضعا فوقهما ، فلما أشرق نور الإسلام ، ودخل الناس فى دين الله ، كسرت الأصنام ، وطهرت مكة من معالم الوثنية والشرك ، غير أن المسلمين من الأنصار وغيرهم تحرجوا من الطواف بين الصفا والمروة ؛ لما علق بهما من ذكريات الوثنية ، فضلا عن أنه لم يرد قرآن ولا سنة بإبطال شعيرة الطواف ، وقد ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة ، وقد توجه المسلمون إلى الرسول وسألوه فى ذلك فأنزل الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ... » الآية .

وقد توهم بعض الصحابة أن قوله تعالى : « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » أن الطواف بين الصفا والمروة ليس من أركان الحج ، فقد روى البخارى عن عروة ابن الزبير قال : سألت عائشة رضى الله عنها فقلت لها :

أرأيت قول الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » فوالله : ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة . قالت : بئسما قلت : يابن أختى إن هـذه لو كانت كما أولتها عليه ، كانت : لا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها أنزلت فى الأنصار . الحديث . .

ثم قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحـد أن يترك الطواف بينهما .

٦ ـــ الطواف بين الصفا والمروة إذن من مناسك الحج ، وبهـذا جاء الإجماع والعمل المتواتر ، وهو عند أبى حنيفة واجب وعند مالك والشافعى وابن حنبل ركن ، والسر فى التعبير بنفى الجناح الذى يصدق بالمباح ، الإشارة إلى بيان خطأ المشركين الذين كانوا ينكرون كون الصفا والمروة من الشعائر ، وأن السعى بينهما من مناسك إبراهيم وذلك لا ينافى الطلب الجازم .

قال الإمام الطبرى فى تفسيره : « فأما قوله فلا جناح عليه أن يطوف بهما فجائز أن يكون قيل لكلا الفريقين للذين تخوف بعضهم الطواف بهما من أجل الصنمين اللذين ذكرهما الشعبى ، وبعضهم من أجل ما كان من كراهتهم الطواف بهما فى الجاهلية على ما روى عن عائشة . وأى الأمرين كان فليس فى قوله تعالى ذكره فلا جناح عليه أن يطوف بهما . الآية دلالة على أنه عنى به وضع الحرج عمن طاف بهما من أجل أن الطواف بهما

كان غير جائز بحظر الله ذلك ، ثم جعل الطواف بهما رخصة ؛ لإجماع الجميع على أن الله تعالى ذكره لم يحظر ذلك فى وقت ثم رخص فيه بقوله : « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

فكل ما يدل عليه التعبير القرآنى هو أنه لا إثم على من فعل الطواف ، وهذا القدر مشترك بين الفرض والسنة والمباح ، فلا وجه إذن للاستدلال به على أن الطواف بين الصفا والمروة ليس من أركان الحج .

٧ — أما قول السيدة عائشة رضى الله عنها: (وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما) فإنه لا ينهض دليلا على سنيته ، بمعنى عدم توقف إتمام الحج على أدائه ؟ لأن السنة فى لسان الحديث معناها الطريقة التى كان يسير عليها الرسول الكريم ، وهى تشمل الفرض وغيره ، وقد بينت السيدة عائشة نوع السنة بقولها . عقب ذلك مباشرة : « فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » وهذا يدل على أن السيدة عائشة إنما تريد بقولها « سن » معنى « شرع » ولا يمنع مانع لغوى من ذلك .

وأخرج الإمام مسلم من حديث جابر : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما دنا من الصفا قرأ : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » . أبدأ بما بدأ الله به . فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك فقال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة . حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا) .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينا لما فى القرآن ومفسراً لآياته ، فإنه لا جدال بعد ذلك فى أن الطواف شعيرة من شعائر الحج ، وليس فى تلك الآية الكريمة دلالة على تركه .

وهذا الطواف سبعة أشواط ، ويشترط فيه البدء بالصفا، والانتهاء بالمروة، ويشترط كذلك الموالاة بين الأشواط ، والمشى للقادر عليه ويسن له الطهارة ، والموالاة بينه وبين الطواف بالبيت ، كما يسن فيه أن يصعد على الصفا والمروة ، وأن يهرول أو يسعى على الأقل بين الميلين الأخضرين ـ وهما عمودان أحدهما تحت منارة على ، والآخر قبالة رباط العباس ـ وأن يكبر ويهلل ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدعو بما شاء مستقبلا الكعبة على الصفا والمروة .

٨ — والطواف بين الصفا والمروة مأخوذ

من طواف السيدة (هاجر) أم سيدنا إسماعيل عليهما السلام ، فقد روى أنه لما تركت أم إسماعيل ، ومعها ابنها الرضيع فى ذلك المكان الذى لا زرع فيه ولا ماء ، جعلت ترضع إسماعيل وتشرب من ماء كانت تحمله فى السقاء فلما نفد الماء عطشت ، وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، ونظرت : هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : (فذلك سعى الناس بينهما) ، أما السيدة (هاجر) فإنها حين أشرفت فى المرة السابعة على المروة سمعت صوتا ، فتسمعت فإذا هى بالملك عند موضع (زمزم) ، فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء .

قال ابن كثير : لما ترددت (هاجر) فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة ، تطلب الغوث من الله ، متذللة خائفة ، مضطربة ، فقيرة إلى الله عز وجل ، كشف الله تعالى كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها ، وأنبع لها (زمزم) .

فالساعى بين الصفا والمروة ينبغى له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله فى هداية قلبه ، وصلاح حاله ، وغفران ذنبه ، وأنه يلتجىء إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه ـ من الذنوب والمعاصى ـ إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل (بهاجر) عليها السلام .

٩ ـ وأما الشطر الأخير من الآية وهو « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » . فمعناه أى ومن أكثر من الطاعة بالزيادة على الواجب فإن الله يجازيه على الإحسان إحسانا ، وهو العليم بمن يستحق هذا الجزاء .

ولبعض المفسرين والفقهاء آراء فى معنى هـذا الشطر من الآية ، فيرى بعضهم أن المقصود بالتطوع هنا ، التطوع بالحج والعمرة بعد أداء الفريضة ، ويرى آخرون أن التطوع مقصود به أن الطواف سنة ، وليس من الأركان ، ولكن مثل هذا التأويل ـ فيما أرى ـ ليس سديدا ، فالآية عامة فى التطوع بعمل الخير أيا كان نوعه ، فلماذا نقصرها على معنى معين لا ينهض دليل على قبوله؟ على أن فى هذا

الجزء من الآية إشارة إلى فضل الله السابغ ، ورحمته التى وسعت كل شىء ، وكرمه الذى لا يعد له كرم ، فالله تبارك وتعالى فرض علينا الفرائض لمنفعتنا وسعادتنا فى الدارين ، وهو سبحانه غنى عنا وعن عبادتنا ، ونحن الفقراء إليه ، غير أن الآية الكريمة تقول بأن الله شاكر لمن تطوع بالخير ، فما أعظم فضل الله، وما أجل نعمه التى لا تعد ولا تحصى، وما أخلق بالإنسان وهو يرى نعم الله الجزيلة أن يشكر الله فى كل حالة،وأن يعبده ويذكره فى كل وقت ، وأن يؤمن بأن شكر النعم يزيدها والكفر بها يمحقها ويزيلها ، وأن الإنسان إذا تخلى عنه الله فقد باء بالخسران المبين .

وأجمل ما فى هذا التعبير من توجيه للخلق الرفيع والأدب القويم والمعاملة الحسنة ، هو أن يقدر الإنسان عمل سواه ، وأن يسدى إليه الشكر والثناء إذا ما قدم إليه معروفا ، فبهذا يبقى التعاون بين الناس قويا متصلا ويظل المجتمع فاضلا مترابطا ؛ والنفس الإنسانية فطرت على حب الثناء وسماع كلمة الشكر والتقدير وهذه الكلمة تفعل فعل السحر وتشجع على عمل الخير ، وتبعث فى الهمة روح النشاط الوثاب والكفاح الدائب ، وإهمال هذه الكلمة قد يدفع إلى الكفران بالقيم الإنسانية ، وتثبيط الهمم الخيرة ، فلا يقدم إنسان على إحسان ، وتشيع فى المجتمع روح الأثرة والفردية وتكون المنفعة الذاتية هى معيار العلاقات الاجتماعية ، والمجتمع الإسلامى بقيمه الخالدة ، وفضائله الكريمة لا يعرف أثرة بين أفراده ولا جحوداً لمعروف مهما يكن مقداره .

١٠ — وبعد: فالحج موسم سنوى يلتقى فيه المسلمون على كلمة الله ؛ ليشهدوا منافع لهم ، وليذكروا اسم الله فى أيام معلومات،وهذه آية من كتاب الله تتعلق بشعيرة من شعائر الحج والعمرة عرضتها ودرستها بقدر ما أتيح لى من توفيق فى ذلك ، والله أسأل أن يرعى حجاج بيته وزوار حرمه وأن يجعل هذا اللقاء السنوى بين المسلمين خيرا وبركة على العالم الإسلامى والبشرية جمعاء ؟

محمد الدسوقى

المحرر بمجمع اللغة العربية

أثر المسلمين فى الحضارة الإنسانية

التجارة . القانون التجارى . القانون الدولى

للأستاذ الدكتور محمد مختار القاضى

كان للعرب صلات تجارية فى العصر الإسلامى مع الصين والهند وأوربا وإفريقيا . وكانت الطرق التجارية بين العرب وأوربا هى طريق جبال البرانس وطريق البحر المتوسط ، وهذان الطريقان كان يسلكهما عرب الأندلس وطريق الفولجا المؤدية إلى شمال أوربا والتى تجتاز روسيا وكان يسلكها عرب المشرق ، وقد فتح الطريق الأخير فى القرن الرابع الهجرى . ومع ذلك فقد كانت هنالك صلات تجارية سابقة بين الروس والعرب . وقد وصف ابن خرداذبة التجارة الروسية مع العرب بقوله : فأما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من الصقالبة ، فإنهم يحملون الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومى ، فيعشرهم[1] صاحب الروم .

وإن ساروا فى تنيس ، مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ، ثم يصيرون إلى بحر جرجان ، فيخرجون فى أى سواحله أحبوا ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ، ويدعون أنهم نصارى ، فيؤدون الجزية .

وفى سنة ٣٠٩ هـ حدث اتصال بين الخليفة وبين ملك الفلجا ، وفى العام التالى أسلم هذا الملك وأسلم أهل بلاده[1] . وقد ضمن السامانيون للتجار الأجانب ربحا هادئا . . ومعظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوربا ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ، وأكثر من ثلثيها من نقود السامانيين .

وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر إلى ما بعد الحروب الصليبية هى الطريق بين شمال أوربا وبين الشرق[2] .

وقد نشأ من ازدهار الجاليات الإسلامية فى كثير من البلاد التى تغلب عليها غير المسلمين شأن جعل لهم استقلالا ملحوظا فى شئونهم ،

---

(١) يعشرهم أى يأخذ منهم العشور أى الضريبة . وهذا النص ورد فى المرجع المذكور ص ١٥٤ .

(١) مروج : الذهب ج ٢ ص ١٥ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : لآدم متز - ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ج ٢ ص ٣٦٧ الطبعة الثالثة .

فكان يرأسهم مسلم، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا المسلمون، وإن قلوا، وذلك مثل بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وصيمور (الهند) (١).

وكان العرب يرسلون إلى جميع الموانى الأوربية المحيطة بهم منتجاتهم الصناعية والزراعية كالقطن والزعفران والورق والحرير الغرناطى والجلد القرطبى والنصال الطليطلية، والعنبر والفراء والقصدير.

وكانت الموانى الأسبانية: قادس ومالقة وقرطاجنة وغيرها مراكز لنشاط تجارى عظيم على عكس ما هى عليه الآن.

وتدل النقود العربية التى كشفت عنها أعمال الحفر الحديثة على أن العرب وصلوا إلى أقصى الشمال من أوربا؛ فوصلوا إلى بحر البلطيق وشواطىء أسوج وفنلاندا والدانيمارك وبروسيا.

ويرى الأستاذ (لوبون) أن بعض الحلى الموجودة فى متحف (استكهولم) على أنها من مصنوعات اسكنديناڤية إنما هى قد جلبت من الشرق، إذ أن كثيراً من هذه الحلى ذو طابع شرقى. (٢)

أما الطريق الشرقى البرى فالراجح أنه اضمحل فى القرن الحادى عشر الميلادى، فأحدث نقود وجدت كانت مضروبة سنة ١٠٤٠م، وبنو العباس هم أكثر من ذكروا فيها. وسبب اضمحلال هذا الطريق كان كثرة الفتن الداخلية فى آسيا والاضطرابات السياسية فى روسيا (١). ولكن أهم سبب يرجع إليه التقليل من أهمية هذا الطريق هو أنه بسبب وجود الحروب الصليبية والمعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين تحولت تجارة المسلمين البرية عن الطريق السابق إلى تجارة بحرية عن طريق البحر المتوسط (٢).

وإذ تحولت التجارة إلى البحر الأبيض أصبحت البندقية فى القرن الرابع الهجرى تمد العرب بخشب السفن، الأمر الذى جعل الإمبراطور البيزنطى يحتج لدى الدوق فأمر الدوق بوقف بيع الخشب للعرب (٣).

«ولم يكن لأوربا سلطان على البحر الأبيض خلال القرن العاشر الميلادى بل كان بحراً عربياً، وكان لابد لمن يريد أن يقضى لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب كما فعلت نابلى وغيتـــه وأما لفى. ويظهر أن الملاحة الأوربية نفسها كانت فى ذلك العصر

(١) ابن حوقل ص ٢٢٥ وما بعدها.
(٢) حضارة العرب ص ٥٦١.

(١) ابن حوقل ص ٢٨١.
(٢) وهذه الطريق البحرية اضمحلت بدورها بعد أن اكتشف رأس الرجاء الصالح.
(٣) آدم ميتز - ص ٤٢٣ ويقصد بالدوق دوق البندقية.

على حال يرثى لها من الضعف ، فني سنة ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيد الله المهدى الفاطمى أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه ، وأن تفعل مثل هذا بمدينة بيزا بين عامى ١٠١١ - ١٠١٤ م (١) .

ولما استرد الصليبيون سردينية سنة ١٠٢٢ م وكرسيكا سنة ١٠٩١ م من المسلمين فتح مضيق مسينا والبحر المتوسط للملاحة الأوربية ، كما استردت الحرب الصليبية الأولى معظم الثغور الجنوبية فى البحر المتوسط وربطت أوربا بشبكة من الطرق التجارية بينها وبين الشرق .

وسمح مركز إيطاليا المتوسط بين الشرق والغرب بأن يكون لثغورها كالبندقية ورافنا وريمين وأنكونا وبارى وبرنديدى وتارنتو وكروتون ورجيو وسالرنو وأملفى ونابلى واستيا وبيزا ولوكا سمح لهذه الثغور بأن يكون لها تجارة مع فلسطين وبلاد المسلمين (٢) .

وقد أثرت الشريعة الإسلامية فى القوانين التجارية فى أوربا تأثيرا ملحوظا ، ذلك بأن نظرية العقد فى الشريعة الإسلامية تقوم على الرضائية ، بينما كان القانون الرومانى شديد التعقيد ، لأنه قانون يقوم على الشكلية ويقول الأستاذ دوسانتيلانا (٣) إن أوربا اقتبست بالتأكيد بعض نظمها القانونية من قوانين العرب كالشركات وغيرها من مسائل القانون التجارى الفنية . وإن المستوى الراقى الذى بلغته تلك القوانين فى بعض نواحيها أثر تأثيرا حسنا فى تقدم الفكر الأوربى حتى فى غير ما ذكر (أى فى غير المسائل التجارية) ، وبذلك سجلت تلك القوانين فضلها الخالد » .

ويقول الأستاذ ليريبور (١) (بيجونيير) فى مقدمته على شرح القانون الإنجليزى « إن العادات التى أدخلها التجار الإيطاليون فى كل مكان يتكون معظمها من عناصر مستمدة من القانون الرومانى ، ولو أن منها عناصر مأخوذة من عادات العرب أو الأتراك » . (٢)

وفى بحث صغير أجراه العالم (جرسهوف) سنة ١٨٩٩ عن الحوالات المالية ، انتهى فيه إلى أن هذه الحوالات لم يعرفها العالم القديم ، وأن أول من عرفها العرب ، وعنهم أخذتها أوربا فى القرن العاشر الميلادى عن طريق إسبانيا وإيطاليا . وانتقلت مع هذا النظام الجديد المصطلحات اللازمة ، له وهى

---

(١) نفس المصدر ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .
(٢) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٤ ص ٧٤ و ٥٤
(٣) The Legacy of Islam P. 310

---

(١) ص ١٥ .
(٢) الواقع أن معظم هذه العادات مأخوذ من العرب ، والقليل منها هو المأخوذ من القانون الرومانى .

إما فارسية وإما عربية . وما زالت متداولة إلى اليوم . فكلمة أفال Aval مأخوذة من اللفظ العربى حوالة . ولفظ شيك فارسى كثيراً ما ذكره الفردوسى (١) .

ولقد دخل على اللغات الأوربية كثير من المصطلحات التجارية العربية مثل كلمة founds أى فندق فيقال fonds de commerce أى محل تجارى و Magazin أى مخزن وهو الدكان. ويعدد الأستاذ (سيديو) كثيراً من الألفاظ البحرية الأوربية أخذها الأوربيون من العرب الذين كانوا سادة البحر المتوسط منذ القرن الثامن الميلادى .

وفى محيط القانون الدولى نرى أن الحروب الصليبية . ولو أنها فشلت فى غرضها الأصلى ، إلا أنها خدمت أوربا . فبسببها نمت التجارة وبسببها توطدت روابط الإخاء الدينى بين الدول الأوربية بوضع المسيحيين تحت سلطة دينية عليا واحدة (٢).

لقد تقدمت بسبب الحروب الصليبية مبادىء القانون الدولى . وذلك بسبب نشاط التجارة بين الدول المسيحية . فنشأ بين أمم سواحل بحر الشمال وبحر البلطيق وبين المدن الإيطالية فى البحر الأبيض . الاتحاد المعروف بالهانس La Hanse ، وتقررت عادات ثابتة دونت فى محررات شهيرة ، فظهرت قوانين أوليرون Law of Oléron, Le Rôle d'Oléron لتنظيم التجارة البحرية على شواطىء الإطلانطى فى غرب أوروبا ، وقواعد وزبونسز Leges Wesbumenses فى بحر الشمال وبحر البلطيق ، وقنصليات البحر المتوسط Consulato del Mare ، وكانت هذه القواعد أكثرها أهمية . فهى وحدها التى بحثت فى الغنائم البحرية أثناء الحرب ، ولئن كانت أصولها الأولى نشأت فى رودس من عادات يونانية قديمة ، إلا أنها طبعت لأول مرة فى برشلونة سنة ١٤٩٤ (١) .

كانت الحروب الصليبية سببا فى تقدم التجارة . وبسببها أيضاً تقدمت قواعد القانون الدولى ، ولم تكن الفكرة السائدة عند الإغريق ولا عند الرومان لتساعد على ما أحرزه القانون الدولى من تقدم .

أما عن اليونان فقد كانوا يعدون أنفسهم أرقى الشعوب ويعدون من عداهم برابرة ، لا حرمة لهم ولا عهد ، حتى إن (هوميروس) فى شعره كان يحل لصوصية البحر وأسلاب

---

(١) Grasshoff : Das Wechselrecht der Araber, 1899.
وانظر أيضاً ول ديورانت مجلد ٤ ج ٤ ص ٦٩ .

(٢) على ماهر ـ فى القانون الدولى العام ص ٦٢ طبعة ١٩٢٤ .

(١) Encyclopaedia Bnitanica الطبعة الثانية تحت لفظ Consulate of Sea. .

البر، وكان (أرسططاليس) يرى أن الخالق أوجد البرابرة ليكونوا أرقاء، ويعد من الأعمال الشريفة محاربتهم لسلب ثروتهم واسترقاقهم (١).

أما روما فقد ضنت على شعوب أمبراطوريتها العظمى بأحكام القانون المدنى الرومانى، اعتقادا منها بأن الرومان (أهل مدينة روما) هم أيضا أرقى الأجناس، وأخذت تعامل سكان الإمبراطورية بقانون الشعوب Jus gentium، وهو إن كان يصلح أساسا للقانون الدولى لأنه مستمد من القواعد المشتركة بين الشعوب، إلا أن روما ذاتها ما كانت تعترف لغير سكان الإمبراطورية بالامتيازات الواردة فى هذا القانون، فكانت تأمر بمحاربة الشعوب الخارجة على الإمبراطورية الرومانية

(١) على ماهر - ص ٥٥.

وبتذبيحهم، وتقتيلهم إن قاوموا بطش الأمبراطورية، ومن لم يمت منهم بالسيف وقع فى الرق.

ويقول البارون توبة (١) «إن فضل العالم الإسلامى فى تنمية أو تقدم القانون الدولى كان عظيما فى ناحيتين: ناحية الحرب وناحيه التجارة الدولية.

وأنت لا شك قد قرأت يوما ما عن تعاون المسلمين مع الصليبيين أثناء الهدنة وإرسالهم الأطباء لهم، كالذى فعله (صلاح الدين الأيوبى) مع (ريتشارد) قلب الأسد ومعاهدات الهدنة ومعاهدات الصلح والمعاهدات التجارية، كل أولئك يؤيد بحرارة ما قاله البارون توبة.

محمد مختار القاضى

(١) محاضرات البارون توبه فى المعهد الدولى بلاهاى سنة ١٩٢٦ (مجموعة المعهد ج ١ ص ٣٩١.

طبيعة الشعر الجاهلي

شعر النساء

للأستاذ كامل السيد شاهين

— ٣ —

الدماثة على شعر النساء أغلب، غير أنها تتفاوت من واحدة إلى واحدة تفاوت الطباع رقة وخشونة، والجنوح إلى الرقة فى المرأة أمر فطرى، فإن الصبي والصبية يتلقيان من أهلهما ويجتمعهما لغة واحدة ولكن الفتاة تميل بطبيعتها إلى لحن فى القول يخالف لحن الفتى، وميلها إلى الترنم ومط اللفظ شيء مدرك فى كل لغة، وفى كل لهجة..

ونحن حين نعرض لشعر النساء، ينبغى أن ننحى الرثاء، فالحزونة بعيدة عنه، فى شعر الرجال والنساء على السواء، وإنما تكون شواهدنا فى مجالات تغلب عليها القوة حتى يتبين لنا فرق ما بين شعر وشعر، فنحن نعرض عن رثاء (جليلة بنت مرة) لزوجها كليب، ونعرض عن رثاء السلكة لولدها السليك، ونعرض عن رثاء الخنساء لأخويها صخر ومعاوية. فربما كان مرد السهولة فى هذه المراثى وأشباهها خصوص الغرض لا خصوص الجنس.

وإذا ما استعرضنا شعر النساء فى التحميس والإهاجة، ألفينا امرأة من غامد تسخر من قومها حين هزمهم ربيعة بن مكدم وحده. فتقول:

ألا هل أتاها على نأيها
بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتى فارس
فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيو
ل ضانا لها حالب قاعد

الشعر فى ذاته ساخر هازئ بالغ غاية الروعة بهذا التهكم على القوم يتبهنسون فى خيلاء لا يرون قوة تكسرهم، فيلقاهم فارس واحد، فيهزم الجمع ويولون الدبر، وبهذا التمنى المرير، وهو أن يكون لغامد بدل خيلها المرتبطة للحرب معزى وشاء، تروح عليهم الحلبة فيكون للقبيلة بها لبنا وسمنا..

وألفينا الخنساء تفدى فارساً من بنى جشم ثأر لها من هاشم بن حرملة، قاتل أخيها معاوية فتقول:

فدى للفارس الجشمى نفسى
أفديه بمن لى من حميم
أفديه بكل بنى سليم
بظاعنهم وبالأنس المقيم
كما من هاشم أقررت عينى
وكانت لا تنام ولا تنيم

خصصت بها فتى الأحرار قيساً
فتى فى كل مكرمة كريم

والقارئ الكريم يدرك التهافت والركاكة فى هذه الأبيات جملة وتفصيلا، ومهما يقل النقاد فى فحولة الخنساء، فإن سقم هذه الأبيات لا يغفر لشاعرة تنافس الرجال ولا ترضى إلا أن تعد فى ذؤاباتهم.

وقد جمعت الخنساء إلى غثاثة المعانى وتفاهتها ارتباك القافية بترديد المجرى (أى حركة الروى) بين الكسر والضم.

وليت شعرى عن الخنساء كيف طابت نفسها بمدح هذا الفارس الجشمى، وتفديته بنفسها وبأحمائها، وبكل قبيلتها، وقد سبق لها هجاء بنى جشم كاهن أجمعين، أن خطبها دريد ابن الصمة، ومال أخوها معاوية (لعهد بينه وبين دريد) أن ينفذ خطبته، إذ تقول: —

ولو أصبحت فى جشم هديا
إذن أصبحت فى دنس وفقر
قبيلة إذا سمعوا بذعر
تخنى جمعهم فى كل جحر!

فإذا نحن رجعنا إلى شعر الرجال فى التحميس والإهاجة، ألفينا لامرئ القيس، وتأبط شرا، والشلم بن عمرو التنوخى، وزيادة الحارثى شعرا آخر ينبض بالقوة والجلالة.

وأدمث ما عرفنا من أشعار الامتنان التى تشبه فى موضوعها موضوع شعر الخنساء، قول ربيعة بن مقروم يثنى على مسعود بن سالم الذى خلصه من الإسار:

لما تشكت إلى الأين قلت لها
لا تستريحين ما لم ألق مسعودا
ما لم ألاق امرأ جزلا مواهبه
سهل الفناء رحيب الباع محمودا
وقد سمعت بقوم يحمدون فلم
أسمع بمثلك لا حلما ولا جودا
ولا عفافا ولا صبرا لنائبة
وما أنبىء عنك الباطل السيدا (١)
لا حلمك الحلم موجود عليه ولا
يلفى عطاؤك فى الأقوام منكودا

انظر إلى هذا التخلص البارع، ثم إلى هذا النفس الطويل المتدفق، ثم إلى هذا الوشى الحبرة ثم اقرن هذا إلى كلام الخنساء الذى رويته آنفا، لترى فرق ما بين الإسماح والكزازة، وبين السير المرتب فى الطريق المأنوس، والظلع بين الحصى والجنادل.

. . .

(ب) وشعر المرأة فى الهجاء قليل،

---

(١) هو الجد الأعلى للمادح والممدوح، يقول: إن قومنا من آل السيد يعلمون حقيقتك فلا يجوز عليهم الباطل إذ أنا قصدت ترويجه.

مع ضحالة وقصر نفس ، ولقد قرأت فى هذا الباب للخرنق أخت طرفة بن العبد ، هجاء لعبد عمرو بن بشر إذ وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند فقتله ، قالت :

ألا ثكلتك أمك عبد عمرو
أبا لخزيات واخيت الملوكا
هم ركلوك للوركين ركلا
ولو سألوك أعطت البروكا

وهذا كما ترى شعر وضيع مسف ، برىء من متانة اللفظ ، ونخارة المعنى ، ولطافة السخرية . ونظلم الحق إذا ادعينا أن شعر النساء فى الهجاء قد جاء كله على هذا النهج ، فهذه أم ثواب الهزانية ، تقول فى عقوق ابنها ، ولؤم عرسه :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه
أم الطعام ، ترى فى ريشه زغبا
حتى إذا آض كالفحال شذبه
أباره ونفى عن متنه الكربا
أنشا يمزق أثوابى ويضربنى
أبعد شيبى يبغى عندى الإربا
قالت له عرسه يوما لتسمعنى :
مهلا فإن لنا فى أمنا أربا
ولو رأتنى فى نار مسعرة
من الجحيم لزادت فوقها حطبا

فهذا شعر غنى بصوره ، مصبوب فى قالب ينزع إلى الفحولة ، ولكنا نظلم الحق أيضا إذا ادعينا أنه هجاء صرف ، فإذا نحن قسناه إلى ما جاء للنابغة والحطيئة ألفيناه أقصر نفسا وأخف وقعا ، وألين مسا .

وأشبه ما جاء من هجاء بشعر أم ثواب ، قول فرعان بن الأعرف فى ابنه منازل :

ربيته حتى إذا آض شيظما
يكاد يساوى غارب الفحل غاربه
فلما رآنى أبصر الشخص أشخصا
قريبا وذا الشخص البعيد أقاربه
تغمد حقى ظالما ولوى يدى
لوى يده الله الذى هو غالبه
وكان له عندى إذا جاع أو بكى
من الزاد أحلى زادنا وأطايبه
وربيته حتى إذا ما تركته
أخا القوم واستغنى عن المسح شاربه
وجمعتها دهما جلادا كأنها
أشاء نخيل لم تقطع جوانبه
فأخرجنى منها سليبا كأننى
حسام يمان فارقته مضاربه
أألآن أرعشت كفا أبيك وأصبحت
يداك يدى ليث فإنك ضاربه ؟!

والقوة والفحولة فى شعر فرعان أبرز ، وأدعو القارىء الكريم إلى المقارنة بين هذه القوافى المطلقة فى شعر أم ثواب ، وهى تناسب رنة النياحة ، وبين قوافى فرعان التى يختمها بهذه الهاء الساكنة التى نحس معها

بالتأوه المكظوم ، لتتبين فرق ما بين الرجل والمرأة فى التناول .

* * *

(ح) وإذا افتخرت المرأة ففخرها بقومها وما لهم من شرف ورياسة وبلاء فى الحرب ، وهيبة فى النفوس ، وأيام غر .

وشعر الجاهليات متفاوت ، وأمتن ما قرأت منه قول عاتكة بنت عبد المطلب :

سائل بنا فى قومنا
وليكف من شر سماعه
قيساً وما جمعوا لنا
فى مجمع باق شناعه
فيه السنور والقنا
والكبش ملتمع قناعه
بعكاظ يعشى الناظريـ
ـن إذا هم لحوا شعاعه
فيه قتلنا مالكا
قسراً وأسلمه رعاعه
ومجدلا غادرنه
بالقاع تنهسه ضباعه

ومع سلامة هذا الشعر من الضعف واللين ، فإننا لا نستطيع أن نقرنه إلى شعر لبيد إذ يقول :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل
منا لزاز عظيمة جشامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها
ومغذمر لحقوقها هضامها

فصوت عاتكة رطب ندى برغم هذه القافية الموصولة بهاء ساكنة ، ولا يخلو من ثرثرة وضيق نفس ، جاءه من هذا البحر القصير ، أما قول لبيد ففيه الرزانة والثقة ، وفيه القوة والفحولة ، وفيه العتو والكبرياء ، وفيه فخامة جشاء تزيده جلالة وهيبة .

كما لا نستطيع أن نقيسه إلى الفخر الذى نقرؤه لعنترة أو لسلامة بن جندل .

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع
كان الصراخ له قرع الظنابيب
وشد كور على وجناء ناجية
وشد سرج على جرداء سرحوب

فهذا من أروع ما يقال فى المبادرة ، ولئن كانت فيها خشونة وقساوة إلا أنها تلك الخشونة الحبيبة التى يدعوها المقام .

* * *

ولقد تعلم أن كثيرا من الشواعر انحرفن عن الطبيعة النسوية ، ونزعن منازع الرجال فى سلوكهن وعواطفهن ، فأضفى ذلك لونا مذكرا على شعرهن ، وأخص من نذكره فى هذا الباب الخنساء ، فالمرأة السوية يمنعها الحياء من أن تقف موقفا شرساً من رجل جاء يخطبها مهما يكن رأيها فيه ، والخنساء قد ردت دريد بن الصمة ، وأوجعته هجاء والمرأة السوية لا تغاضب أخاها لأنه يرى فى زواجها رأيا ، وقد رأى معاوية بن الشريد كفاءة دريد وأراد أن يقف إلى جانبه ،

ولكن الخنساء لم تطق هذا الجنوح وراحت تسفه أخاها وتبين فياله رأيه، والمرأة السوية لا تخرج إلى الأسواق لتنشد الأشعار وتنال شهادة التفوق على الرجال، والخنساء كانت تذهب إلى عكاظ، وتعرض شعرها على النابغة، ويقدمها النابغة على سائر النساء، فتأبى إلا أن تكون أشعر الرجال والنساء، فإذا رأينا فى شعر الخنساء شيئا من القوة وشدة الأسر فلأنها انسلخت عن طبيعتها، وانخرطت فى سلك آخر فاكتسبت بعض خصائصه.

وليست الخنساء فذة فى هذه الناحية. فهذه ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب قد كسبت من أهلها، وكلهم فرسان شجعان، بعض روحهم، فكانت تخرج معهم فى الحروب حتى أسرها الصمة الجشمى، وأولدها دريدا وإخوته، ولطبيعتها المذكرة ظلت تلح على دريد فى طلب الثأر لأخيه عبد الله حتى استقرأ غطفان حياً حياً ثم جاءها آخر الأمر بذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب. فقتله بفناء أمه ريحانة، وقال لها: هل بلغت ما فى نفسك؟، قالت: نعم، متعت بك!

فإذا لم تكن غلظة الرجولة قدمست قلب هذا المرأة، حتى زخر بهذا الحقد كله، فماذا عسى أن نفسر هذا الموقف الحاد، الذى أسلفناه؟.

وما كانت أختها كبشة بنت معد يكرب دونها خشونة وقساوة، فإنه عندما قتل أخوها عبد الله، جنح أخوه عمرو بن معد يكرب إلى قبول الدية من قاتليه، حسما للصراع، فهاج هائج كبشة، فتحدثت إلى قومها بلسان القتيل، تبعث حميتهم، وتنهى عن قبول رأى عمرو أخيها، فقالت:

وأرسل عبد الله إذ حان يومه ... إلى قومه، لا تعقلوا لهم دمى

ولا تأخذوا منهم إفالا وأبكرا ... وأترك فى بيت بصعدة مظلم

ودع عنك عمرا إن عمرا مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم

فإن أنتم لم تثأروا واتديتمو ... فمشوا بآذان النعام المصلم

وبهذا الروح المذكر كانت ليلى الأخيلية. فهى تجوب الأسواق وتمدح الأمراء وتقصد دار الخلافة، وتتحدث عن حبيبها توبة بن الحير وترثيه، وليس هذا شأن من احتفظ بشيمه النساء وطبيعتهن.

. . .

وبعد، فإذا ظفرت بشعر نسوى هادر، متسم بالفحولة والقوة، آخذ بنصيب من طبيعية الرجال، فانظر حياة الشاعرة لعلها تنكبت السلوك النسوى الناعم، وتشبثت بمنازع الرجولة، فصدر عنها شعرها المستحصف .؟

كامل السيد شاهين

تولستوى والوحدانية

للأستاذ محمد رجب البيومى

لعل حرية (تولستوى) الفكرية أول سمة تتسم بها شخصيته . فقد رزق كثير من الكتاب سلاسة أسلوبه وروعة إبداعه ، ولكنهم لم يرزقوا هذا الطموح القوى إلى ارتياد المعرفة ، والولوع باكتناه أسرار الحقائق على وجه ينأى عن الترهات الجدلية ، والأباطيل المتوارثة فى الصحف الأثرية دون تمحيص ونقد ! وقد كانت هذه الحرية الفكرية مثار الإعجاب لدى معاصريه من شتى الملل والعقائد والأجناس ، فكثر أنصاره فى كل مكان يقدس الكرامة الفكرية ويدعو إلى الاستقلال العقلى فى دراسة العقائد والمذاهب ، حتى رأينا عالماً كبيراً كالأستاذ الشيخ محمد عبده يكتب إليه كتاب المعجب المقدر ، ويعلن فى إعجاب وإكبار مايراه فى حريته حين يقول فى خطابه الشهير إلى المفكر الروسى : أيها الحكيم الجليل .

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك إذ سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التى هدى البشر إليها فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه ، وسعياً يبقى به ويرقى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وبما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت إلى الدين نخرقت حجب التقاليد ووصلت إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هادياً للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون كان مثالك فى العمل إماما يقتدى به المسترشدون ، ويهمنا الآن فى خطاب الأستاذ الإمام ما أشار إليه من جهاد تولستوى فى إزاحة حجب التقاليد والوصول إلى حقيقة التوحيد ، لأن الأديب الروسى العظيم قد درس المسيحية دراسة ناقدة ووازن بين ما تراه الكنيسة الرسمية وما وصل إليه شخصياً من دراسه الإنجيل ، فكفر بكثير من المعتقدات ، ونادى بالتوحيد نداء صريحاً لايقبل التلميح ، وكان بذلك من حيث لايعلم

يعلن حكم الإسلام فى المسيح كما جاء به القرآن وأثبته نبى الإسلام ! ولم يعرف عن تولستوى ، وهو الذى احترم الحقيقة العلمية مجردة من التعصب المغرض ، أنه فى هجومه المفرط على معتقدات الكنيسة فى المسيح عليه السلام كان يصدر عن دافع مغرض ؛ بل كان الحق رائده فى دروب البحث فإذا التقى بعد هذا الطواف الجاهد مع الإسلام فى أكثر حقائقه عن المسيح وعن حقيقة التوحيد فهو التقاء يقابله المسلمون بالبشاشة والترحيب !

لقد نشأ تولستوى نشأة مترفة ناعمة ، فقد كان سليل إحدى الأسر الكبيرة المثرية فى بلده ، وقد كان كاتباً نابهاً ترن الدنيا بآثاره ، وينال الحظوة الكريمة من صفوة المثقفين فى عصره ! وكان الذى يراه فى صيته المدوى وأدبه الحافل وأسرته الشهيرة وثرائه الجم يحسبه هادىء البال قرير الجفن بما بلغ من الشهرة والجاه والأدب فى عالم يهتف باسمه ويتحدث عنه أدباؤه وقراؤه حديث الإعجاب والتقدير ، ولكن الرجل الكبير كان مخدوعا عن نفسه حين اعتقد فى شبابه أنه خلق للقصص الفنى يلج مواجه فى حلبة الروائيين والقصاص ؛ فإن بذور المفكر المصلح كانت مستترة فى البقاع السحيقة من نفسه ، ومرور الأيام يمدها بعناصر البقاء والنمو حتى تجاوزت الأغوار إلى السطح فى سن الخمسين فبدأ الكاتب الكبير يسأل نفسه عن وجوده فى هذه الحياة ؟ وعن مصيره المحتوم فى نهايتها ؟ وقد راعه أن تكون خاتمة الإنسانية على هذا النحو المجهول الفاجع !

وكثير من المفكرين قد أحسوا إحساسه ثم صرفتهم الأيام عن الإيغال فى هذا المنحى الدقيق ، فقبلوا الحياة على سننها ولكن تولستوى كان من الحساسية بحيث شاهت الدنيا بعينه ، وأخذ عليه التفكير كل مأخذ ! وقد كتب اعترافاته الشهيرة ليصور حقيقة اضطرابه الخانق فى هذه الأزمة الحالكة وليقول فى أسى وحرقة بالغين .

« هناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج فى أحد السهول فلجأ هذا السائح هربا من الوحش إلى جب ناضب ، ولكنه وجد فى قاع الجب غولا قد فغرفاه ليلتقمه ، ولما رأى السائح التعس أنه لا يستطيع النزول إلى قاعة مخافة أن يلتهمه الغول فقد أمسك بفرع من النبات انبثق من صدع فى الحائط وتعلق به ، وأحس بالتعب يدب فى يديه شيئا فشيئا ، وشعر أنه سوف يسلم نفسه عما قليل لا محالة إلى الهلاك الذى يتربص به من فوقه ومن أسفل منه ، ولكنه لن يزال متعلقا بالغصن ثم ما لبث أن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وقد دارا حول ذلك

الغصن وأخذا يقرضانه ، وأيقن السائح أن الغصن لن يلبث حتى يقطع فيسقط هو فى فم الغول ، وبينما يرى ذلك ويعلم أنه هالك لا محالة إذ أبصر بقطرات من الشهد على بعض أوراق الغصن ، فأخذ يلعقها بأسنانه » يقول تولستوى : وهكذا أتعلق أنا بغصن الحياة وإنى لأوقن أن غول الموت يتربص بى وأنه سوف يمزقنى كل ممزق ، ولست أستطيع أن أدرك لماذا وقعت فى مثل هذا العذاب ولقد حاولت أن ألعق الشهد الذى كان لى سلوة من قبل ولكنى لم أعد أجد فى الشهد ما يلذنى، وما برح الفأران الأسود والأبيض وهما الليل والنهار يقرضان الغصن الذى تعلقت به ،ورأيت الغول فى وضوح ولم يعد للشهد طعمه الحلو ، وليس أمام ناظرى إلا الغول الذى لا مهرب منه والفأران ولن أستطيع أن أدير عينى عن ذلك ، وليس ذلك حديث خرافة وإنما هو الحق الذى لا ينكر والذى يفطن إليه كل إنسان . »[1]

إن عقلا كبيرا يرهقه التفكير فى مصيره لا بد أن يتلمس أبواب الهداية فى كل سبيل حتى يجد المطمأن الهادى لروحه . لقد أقبل تولستوى على الفلسفة يتبطن مسائلها ويسبر أغوارها ، ويقف مع كل فيلسوف قديم أو حديث وقفات مطيلة يسأله رأيه فى الحياة والفناء والغيب والروح ثم يفىء إلى نفسه فلا يجد لدى عباقرة الفلسفة ما يطمئن ، فالنظريات تتعارض،والآراء تتصادم ولكن الفلسفة فى النهاية تكون «واضحة مفهومة حين تبتعد عن مشاكل الحياة المباشرة فى رأى تولستوى ولكنها تتعقد وتلتوى وتغمض حين تصل إلى الصخرة العاتية التى تقف فى وجه الحياة وهى الموت؟فما جدواها إذن؟

ثم يترك الأديب الفلسفة إلى الدين يزور الكنائس ، ويناقش الأساقفة ويعكف على الصلاة والصوم ، ويقرأ الكتاب المقدس ولكنه بعد ذلك كله يجد أصول عقيدته كما يقررها أساقفة الكنيسة تتعارض مع حرية تفكيره فيهتف من أعماقه هتافه الشهير « اللهم هبنى إيمانا قويا أملأ به قلبى وأهدى إليه غيرى » !

لقد قرأ الإنجيل كثيرا ، ثم تعلم العبرية ليقرأه فى لغته الأصليه ، ولكنه وجد الأساقفة يفسرون نصوصه كما يشاءون ! ويلزمونه بأفكار وعقائد لا يقول بها صاحب فكر حر متطلع !

وهو لابد مفند هذه الآراء ، ومحطم أصولها الراسخة فى أذهان أناس يعتقدون أولا ثم يفهمون الخيالات العائمة كأنها حقائق ثابتة تؤيد الاعتقاد الموروث ؟

---

(١) تولستوى ص ٢٧٣ لمحمود الخفيف

لقد عجز الرجل أن يفهم عقيدة التثليث وأعلن ذلك فى كتابه الشهير (نقد للدين القائم على النصوص !) فكيف يكون الأب والابن وروح القدس إلها فى عقل تولستوى ثم كيف يصير المسيح البشر الآكل الشارب المتنقل إلها ؟ وإذا كان كذلك فكيف يصبح قدوة للبشر وهو من جنس إلهى وهم آدميون بشريون ! إن النبى يكون قدوة لإنسان مثله يراه يتعذب ويصبر ويجاهد ويكافح وهو ذو طاقة محدودة من عصب ودم ولحم فيهتدى بمثاله ويحتذى حذوه ولكن كيف يهتدى تولستوى بصبر المسيح وكفاحه والمسيح إله وتولستوى بشر ! ؟ ثم ما معنى الفداء ؟ كيف يولد الإنسان مخطئا دون أن يعمل شيئا يحسب عليه به ذلك الخطأ ؟

ثم يجئ عيسى فيصلب ليخلص الإنسان من خطأ لم يرتكبه ؟ ولماذا يتحمل تبعة غيره إن كان هناك خطأ ؟ ثم ما هذا العشاء الربانى الذى يدعو إليه الأساقفة كل عام فى إصرار ويقين ، فيأكل النصارى الخبز ويشربون الخمر ليتحول الخبز والخمر معا إلى دم يجرى فى جسم المسيح ؟

كيف يعقل هذا ؟ ثم ما المراد بتعميد الأطفال وقسمة الناس إلى أشقياء وسعداء ؟ إن ذلك كله فى منطق تولستوى لا يعد باطلا ونفاقا فحسب ، بل هو فسوق وكفر بالروح القدس وآفة المصائب أن يقوم بالدعوة إليه المرتزقون باسم المسيح المتمتعون بالجاه والمال والأبهة ، وهم يجلسون على كرسى بولس الرسول ! إن المسيحية فى خلاصة رأى تولستوى : ليست كما صورتها الكنيسة مجرد تعاليم سماوية نائية عن العقل ! ولكنها دين يخضع للتفكير المعتدل ! وكل ما يشذ عن هذا التفكير بعد عن الإنجيل فى لبابه الأصيل ، وإذا كان من المناسب هنا أن ننقل بعض أفكار الرجل فى سياقها المطرد فليسمع القراء رأيه فى بولس الرسول الذى خلع على المسيح ما لم يكن له . بعد تمهيد يسير تقدم به الأديب الخطير حين قال :

إنه ينبغى لفهم تعاليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفقهها عليه السلام هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الطويلة الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعاليم المسيح بل حمله على محمل آخر ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم ، وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم أو رسول الجدال والمنازعات الدينية .

وكان يميل إلى المظاهرات الخارجية الدينية كالختان وغيره فأدخل ميوله هذه على الدين المسيحى فأفسده ، ومن عهد بولس ظهر

اليهود فى المجتمع الإسلامى

للأستاذ محمود محمد شبكه

لا نعرف دينا يحارب التعصب ويبغضه ويحذر منه ، ويدعو إلى السماحة ويحبب إليها مثل الدين الإسلامى الخالد ، وإنك لتجد فى كتاب الله الآيات الواضحة التى ترسم الطريق المستقيم وتضع المنهج السليم فى معاملة غير المسلمين فنقرأ قول الله سبحانه (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

التعود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح الأصلى الحقيقى فخدر صفته الإلهية الكمالية بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحى التى أولها منذ ابتداء العالم وآخرها فى عصرنا الحالى والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع إلها دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار موسى والزبور وأعمال الرسل ورسائلهم وتآليف آباء الكنيسة مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله [1] .

هذا رأى تولستوى فى ألوهية المسيح ! يلتقى به التقاء صريحا مع القرآن حين يقول « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .

ولعل هذا بعض ما عناه الأستاذ الإمام حين كتب للفيلسوف الكبير مثنيا عليه حين مزق عن الدين حجاب التقاليد ، ووصل به إلى عقيدة التوحيد ؟

محمد رجب البيومى

مدرس أول بدار المعلمات بالفيوم

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٨٩ للأستاذ محمد أبو زهرة .

يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فهذه دعوة صريحة إلى البر وحسن المودة والمعاملة الكريمة مع غير المسلمين ما داموا فى سلم وتفاهم وألفة ، كما أمرنا الله سبحانه وتعالى باللين والرفق فى الدعوة إلى الإسلام ومناقشة المخالفين بالحسنى فقال : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . كما أمر الله نبيه الكريم أن يجير المشرك ويؤمنه إذا طلب الحماية والأمان فقال سبحانه (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) . وتلك سماحة لاتعدلها سماحة كما أن طبيعة الإسلام تبدو ظاهرة جلية فى سلوك المسلمين وتصرفاتهم مع اليهود والنصارى فى مختلف العصور اتباعا لما جاء به القرآن الكريم وما سنه الرسول صلوات الله عليه . وسنعرض فى هذا المقال صوراً فى السماحة وحسن المعاملة مع اليهود فى عصر العباسيين والفاطميين برغم ما عرف عن اليهود من خسة الطبع ودناءة الأصل وما ركز فى طباعهم من حب للقتل وإراقة للدم وما شهر عنهم من كيد للإسلام ، وحقد على أهله فلقد عاش اليهود فى ظل العباسيين عيشة كريمة فيها المودة والمحبة والإخلاص وكانوا منتشرين فى أنحاء المملكة الإسلامية فقد جاء : فى ضحى الإسلام أن بنيامين أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا سنة ١١٦٥ م أى نحو سنة ٥٦٠ هـ ذكر أن عدد اليهود فى المملكة الإسلامية عند العرب كانوا نحو ثلاثمائة ألف وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات وفى جزيرة ابن عمر والموصل وعكبره وواسط وفى بغداد والحلة والكوفة والبصرة ، وفى كثير من بلاد فارس فى همزان وأصفهان وشيراز ، وكانوا فى غزنة وسمرقند ، وكان فى فارس بلدتان تسمى كل منهما اليهودية إحداهما بجرجان والأخرى بأصبهان وكان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودى وكان فيها درب يسمى درب اليهود وكان أغلب الماليين فى الشام يهودا واشتهر اليهود بحرف خاصة كالصيرفة ودباغة الجلود والصياغة .

وكان فى القاهرة سبعة آلاف يهودى وفى الإسكندرية ثلاثة آلاف وفى الوجه البحرى ثلاثة آلاف وفى الوجه القبلى ستمائة . . . وقد استمتع ذلك العدد الكبير من اليهود فى ذلك الجو الإسلامى بالحرية والكرامة بعيدين عن الإكراه والضغط وقد عاشرهم

المسلمون معاشرة حسنة وأخلصوا لهم ؛ بل واتخذوا منهم أصدقاء من اليهود :

أما فى أيام الفاطميين فقد زاد نفوذهم واتسع سلطانهم ووجدوا من الحكام كل عناية ورعاية ووصلوا فى هذا العهد إلى أرقى المناصب وأعلاها وملكوا أمور المسلمين ولم يكن ذلك التسامح مقصورا على اليهود وحدهم بل شمل كذلك النصارى فقد ولى العزيز نزار الوزارة عيسى بن نسطورس النصرانى وجعل منشا بن إبراهيم الفرار اليهودى واليا على الشام فكان واضحا أن يظهر ابن نسطورس ومنشا المحاباة لليهود والنصارى ويشغلوا كثيرا من المناصب فى الدولة بعد إقصاء المسلمين عنها فازداد سخط المسلمين وضجوا بالشكوى وقدموا الاحتجاجات على تلك المحاباة التى أظهرها الخليفة لغير المسلمين حتى بلغ الأمر بأولئك الساخطين أن صنعوا صورة من الورق على هيئة امرأة وبيدها شكاية فيها « بالذى أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتى » وأقعدوا تلك الصورة فى طريق العزيز والرقعة بيدها فلما رآها أمر بأخذها فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من الورق علم ما أريد بذلك فقبض عليهما وأخذ من عيسى ثلثمائة الف دينار ومن اليهود شيئا كثيرا .

أما يعقوب بن كلس فقد جاء فى وفيات الأعيان : (أنه كان يهوديا من أهل بغداد . خبيث إذا مكر وله حيل ودهاء وفيه ذكاء وفطنة ، حضر إلى مصر أيام كافور الأخشيدى فأعجب كافور بذكائه ودرايته فعينه فى ديوانه الخاص ، ولم تزل منزلته ترتفع وقدره يعظم حتى أمر كافور أصحاب الدواوين ألا يتصرف شىء من المال ألا بتوقيع ابن كلس ، ثم بلغ إعجاب كافور به حدا جعله يقول (لو كان مسلما لوليته الوزارة) فطمع فى الوزارة فأسلم ، ولما مات كافور وجد الوزير ابن الفرات الفرصة المواتية للانتقام من ابن كلس فاعتقله ، غير أنه سار مختفيا حتى وصل إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع المعز وخرج معه إلى مصر ، وولى الوزارة للعزيز نزار وعظمت منزلته عنده وأقبلت عليه الدنيا وانثال عليه الناس ولازموا بابه ومهد قواعد الدولة وساس أمرها أحسن سياسة ولم يبق لأحد معه كلام .

وتولى الوزارة سنة ٤٣٦ هـ للمستنصر بمصر صدقة بن يوسف وكان يهوديا فأسلم وكان معه أبو سعد التسترى اليهودى يدير الدولة ويسوس أمورها ، وبعد مقتل التسترى أسند الخليفة المستنصر ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر ، وقلد ابنه أحد الدواوين الحكومية ولقد كان التسترى مكروها لدى المسلمين إذ أنه بدا يقرب أبناء ملته ، ويقلدهم كثيرا من المناصب التى فى الدولة وقد كانوا بعيدين

عنها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل بدءوا يستغلون مناصبهم فى اضطهاد المسلمين وإهانتهم وإذلالهم حتى دفعت هذه الحالة شاعرا من الشعراء المعاصرين يسمى الرضى إلى كتابة هـــذه الأبيات :

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم ، والمال عندهم
ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لكم
تهودوا فقـــد تهود الفلك

هذه صورة واضحة للتسامح المطلق الذى وصل باليهود إلى المناصب الكبيرة الدقيقة فى الدولة وأضفى عليهم كل هالات التقدير وجعل لهم هـذه الحظوة الكاملة فى نفوس الخلفاء والرؤساء حتى مكنوا لهم وأطلقوا أيديهم فى أمور الدولة يديرون دفتها ، ويتحكمون فى المسلمين مع أن الخلفاء الراشدين كانوا يحسنون معاملة أهل الكتاب ولكنهم لا يسمحون باستخدامهم فى شئون الدولة ، فقد روى أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من (الحيرة) وكان نصرانيا فقيل له : لو اتخذته كاتبا ؟ فقال عمر : « لقد اتخذت ، إذا ، بطانة من دون المؤمنين » ومع ذلك استخدمهم المسلمون فى أعمال الدولة من عهد معاوية بن أبى سفيان وأولاهم المسلمون فى مختلف العصور ثقتهم وألقوا إليهم بالمقاليد بل وائتمنوهم على أرواحهم ، ويكفى أن نعلم أن حاكما من حكام الأندلس هو عبد الرحمن الثالث كان طبيبه يهوديا يسمى حسداى بن شبروط .

نذكر ذلك كله ثم ننظر ما كان من اليهود فى فلسطين وما ارتكبوا من مذابح سفكوا فيها الدماء وقتلوا الأبرياء ، وما دنسوا من أرض طاهرة، وما شردوا من أنفس لم ترتكب معهم جرما ولم تقترف ذنبا ، ثم نذكر تحينهم الفرص للقضاء على العروبة والإسلام غير عابئين بما قدمه لهم أسلافنا وأجدادنا من عطف ومودة وإحسان ، وماذا نفعل فى قوم وصفهم أنبياؤهم فى كتبهم المقدسة بأنهم: شعب غليظ القلب صلب الرقبة وبأنهم أبناء الأفاعى وقتلة الأنبياء .

إن المعركة بيننا وبينكم يا أبناء صهيون لقريبة وفاصلة وعلى الباغى تدور الدوائر وسوف نلقنكم بإذن الله درسا قاسيا لن تنسوه كما قال رئيسنا المفدى: (إن المعركة بيننا وبين الصهيونية لم تنته بعد بل ولعلها لم تبدأ بعد فإن لنا ولها غدا قريبا أو بعيدا نغسل فيه عارا ونحقق أمنية ونسترد حقوقا ؟

محمود محمد شبكة
المدرس بدار المعلمين بطنطا

مزائر العزاء الأدبي على كتاب
الحركة الرومانتيكية في إنجلترا
للدكتور محمد سعيد عبد الحميد

— ٦ —

٨ — قصة نبي خراسان المقنع :

لم يكد حماس المعجبين ببطولة ثعلبة يفتر بمرور الزمن حتى ظهرت في الأفق عام ١٨١٧ قصيدة : « نبي خراسان المقنع » .

The Veiled prophet of Khorasan

وكاتبها هو Thomas Moore من أشهر شعراء الحركة الرومانتيكية الذين استجابوا لنداء الشرق فكسبوا شهرة واسعة وغنموا مالا كثيرا ، وقصة « المقنع » هذه إحدى أربع قصص شعرية يربطها ببعضها إطار خارجي على نسق حكايات (ألف ليلة وليلة) ، والقصة النثرية التي تسبق القصيدة تصف لنا الرحلة التي قامت بها (لالاروك Lalla rookh) بنت الأمبراطور (أورانج زيب) من دلهي إلى كشمير لتتزوج من الملك الشاب حاكم بخارى وفي الطريق يسامر الأميرة وحاشيتها شاعر من كشمير اسمه « فرمورز » يقص عليهن أربع قصص شعرية ، وتقع الأميرة في حب ذلك الشاعر الشاب الجميل الرقيق ؛ ولكنها تكتشف آخر الأمر عند وصولها إلى بخارى أن « فرمورز » الشاعر ما هو إلا ملك بخارى نفسه الذي تخفى ليدخل على قلبها البهجة والسرور قبل زواجها منه .

ومجموعة القصص تدعى Lalla rookh وتشمل بجانب « النبي المقنع » قصة :

— Paradise and the Peri.
— The Fire Worshippers.
— The Light of the Haram.

وكلها قصص عاطفية تصور رقة الشرق وسحر أجوائه .

وعلى الرغم من أن مفهوم الشيطان لدى (توماس مور) قد تأثر بمعتقدات الشرق ، وكذلك بفكرة الرعب الرومانتيكي التي انتشرت بين كتاب الجيل السابق ، فإن تعبيره الأبلسة وشخصية الشيطان كان مبتكرا لأنه اختلف عن كل ما سبق ، ففي صورة المقنع نرى الرذيلة مجسمة والشيطان ممثلا ، أي أن فكرة الشيطان — وهو مصدر الشر — قد تجسمت في شخصية أنسي وهو هنا ذلك الأفاق الدعي

أو « النبى المقنع » وله كل صفات إبليس التى تدل على أنه حقا عدو الله والبشر فهو حقود ومضلل ودنىء وشرير وقاس ومحب للوقيعة وبذر الشقاق بين الناس .

ولقد اتبع هذا المفهوم كاتبان آخران هما: R. Maturin فى قصته الطويلة Melmoth the Wanderer (1820) وكذلك Lord Byron فى مسرحيته التى لم تتم ، وعنوانها : The Deformed Transformed (1824)

وموضوع قصة « نبى خراسان المقنع » مأخوذ من نبذة عن حياة ثائر دجال عرف باسم المقنع وجدها المؤلف فى موسوعة الكتب الشرقية المسماه Bibliotheque Orientale التى سبق الإشارة إليها وإلى مؤلفها D'Herbelot عند الكلام عن قصة بكفورد « الواثق » . فنقلا عن هذا المرجع ظهر هذا الساحر الأفاق فى ولاية خراسان فى القرن الثامن الميلادى ، وادعى كذبا وبهتانا أن الوحى هبط عليه وكلفه برسالة يؤديها نحو البشر فى كافة أرجاء العالم ، ولذلك سيعمل مكافحاً للقضاء على كل أنواع الظلم والاستبداد والخرافات التى تعانيها البشرية - ووعد أتباعه ومن يؤمنون به جنات النعيم . ورحمة بأبصار مريدية من قوة النور الربانى الذى يشع من جبينه كان يغطى وجهه دائما بقناع من شاش فضى اللون - وعندما انكشف أمره وتبين أمير المؤمنين الخطر من وجود رسول الشر وعبد الشيطان أرسل حملة عسكرية فتكت به وبكل أتباعه

على هذه الخلفية التاريخية نسج المؤلف من خياله قصة غرامية بين عاشقين فى مقتبل العمر ، هما: حازم وزليخة . وهذه الفتاة الشابة الجميلة تفقد رشدها عندما تسمع أن حبيبها حازم قد قتل أثناء المعركة ، وتلجأ ، لسوء حظها حظها ، إلى هذا الدجال تسأله المعونة ، فيضللها ويعتدى على شرفها ويقنعها أن تنضم إلى المئات من أمثالها اللائى لقين نفس المصير على أمل أن سيشفع لهن حين ينعمن بجنة الخلد بعد الموت . وعلى فجأة يظهر حازم فى قصر المقنع وتحاول زليخة بناء على أمر المقنع أن تغريه بالبقاء معها ويتنكر لدينه الحنيف - كما تحاول النساء الأخريات بشتى الطرق - وهن يتنزهن فى الجنة الدنيوية التى تذكرنا بجنة العلويين فى قصة Thalaba - أن ينضم لأتباع المقنع ويهجر حبه لزليخة . وينعم بكل أنواع الملذات الحسية والجنسية ، ولكن عقيدته وإيمانه الراسخ لا يتزعزعان - وبمجرد ظهور جيوش أمير المؤمنين التى جاءت لتطهر البلاد من شر الأفاق ينطوى حازم تحت رايتهم . وقبل الهزيمة المنكرة التى لحقت المقنع ذلك النبى الدجال يدعو من بقى من أعوانه إلى حفل كبير يدعوهم قبيل نهايته أن يشربوا نخب مستقبل سعيد فى عالم آخر . ويميط اللثام عن أبشع وجه وقعت عليه عين إنسان ، ويكشف لهم

أخيراً عن طبيعة أمره وحقيقته، وفى مرارة الألم من شدة الصدمة عند ما تبينوا أنهم لم يعبدوا إلا شيطاناً رجيما يندمون ، ولات ساعة مندم فقد قضى الأمر والموت منهم قاب قوسين أو أدنى لأن الخمر كانت قد مزجت بالسم الزعاف وفى هذه الحالة يستمعون على رغم أنوفهم إلى ما ينصب عليهم من إهانات ولعنات متتالية جزاء الضلالة وبئس المصير . .

Dreadful as it was to see the ghastly stare,
The stony look of horror and despair,
Which some of these expiring victims cast
Upon their soul's tormentor to the last ;
Upon that mocking Friend, whose veil, no rais'd,
Show'd them, as in Death's agony they gaz'd,
Not the long promis'd light, the brow, whose beaming
Was to come forth, all conquering, all redeeming,
On its own brood. . . . . .

ولننظر إلى اقتباس آخر يتضح منه كيف أن هذا الشيطان فى صورة إنسان لا يكتفى بإراقة الدماء مهما كثرت ولكن كان همه دائما أن يغرر بالنفوس البريئة ويفتك بها حتى يملأ الدنيا بؤساً وتعاسة - وها هو فى خلوة من نفسه يصرح بهذه المعانى فيقول .

Soon shall I plant this foot upon the neck
Of your foul race, and without fear or check,
Luxurianting in hate avenge my shame,
My deep-felt, long-nurst loathing of a man's name :
Soon at the head of myriads, blind and fierce
As hooded falcons, through the universe
I'll sweep my dark'ning, desolating way,
weak man my instrument, curst man my prey..

وبمجرد سماعه بالهزيمة الساحقة التى منى بها أتباعه يقفز إلى وعاء كبير مملوء بالقار المغلى فيموت توا ويذوب كل جسمه ؛ فتبقى ذكراه - كما كانت حياته - سوادا فى سواد .

أما زليخة فتأبى كرامتها إلا أن تثأر من نفسها بسبب ما لحقها من عار وبمجرد أن يقع نظرها على حازم تضع النقاب الفضى الذى كان يستعمله المقنع فيقتلها حبيبها حازم ولا يدرك خطأه إلا بعد أن تقع جثة هامدة بين ذراعيه .

لقد نجح مور أكبر نجاح فى حبك تلك القصة ومثيلاتها من قصص فى مجموعة lalla Rookh بالطابع الشرقى فنال الثناء والإعجاب من قارئيه ومن النقاد الذين شهدوا له بذلك على صفحات الجرائد والمجلات ويقول فى ذلك بايرون Byron فى رسالة خاصة أرسلها كتهنئة :

"You have caught the colours as if you have been in the rainbow and the tone of the east is perfectly preserved. (1)

والفضل فى ذلك يرجع إلى قوة خيال المؤلف وقوة ملاحظته فقد نجح فى تصوير المناظر والعادات والطابع المحلى بشكل يفوق كثيرا بعض المؤلفين الذين زاروا الشرق ذاته

ولقد شهد بذلك الرحالة فى عصره وبعض المستشرقين ـ وكان أسطع برهان على ذلك أنها ترجمت إلى الفارسية وكان الشعب يتغنى بها فى شوارع أصفهان ولقد ظهر منها ما لا يقل عن عشرين طبعة . وترجمت إلى عدة لغات أوروبية منها : الألمانية والإيطالية والفرنسية ، فلا عجب إذ علمنا أن المؤلف تقاضى من الناشر مبلغ ثلاثة آلاف جنيه إنجليزى وهو أكبر مبلغ دفعه ناشر لأى مؤلف فى ذلك الحين . وفى كل هذا دلالة واضحة على مبلغ تقدير الشعب ، واستجابة الشعراء والأدباء لحركة الاستشراق التى ارتبطت منذ البداية بالحركة الرومانتيكية أو حركة التحرر من جمود الأدب الكلاسيكى وبجانب Lalla Rookh كتب Moor قصتين بالشعر هما :

The Epicurean (1827) ;
The Loves of the Angels (1823)

وهما قصتان شرقيتان رومانتيكيتان ، وقد أخذ مادتهما من مصادر شرقية .

وعلى الرغم من أن مور Moore لم يزر الشرق بنفسه ، فإنه كان شغوفا جدا ببلاد الشرق، وبحياة أهلها الفكرية والأدبية، وكان هذا دافعاً له على البحث والتحصيل الدائم الذى مكنه من إعطاء صور حية وحقيقية عن أهل تلك البلاد وحياتهم . وكان مولعا بإعطاء تفاصيل كثيرة عن كل شىء يذكره فى قصصه الشعرية يتعلق بعقائد وعادات الشرقيين فى شكل تفسيرات ومذكرات ولقد استعان فى كتابه Lalla Rookh بما لا يقل عن ثمانين كتاباً عن الشرق ـ وهذا الإخلاص مع الدقة فى البحث والاطلاع الواسع حقق ما لمجموعة قصصه النثرية من أمانة فى الرأى وحيوية فى التعبير ، وأضفى على إنتاجه الأدبى طابعاً شرقيا ممتازاً .

ولنقرأ ما قاله المؤلف : ت . مور نفسه فى هذا الصدد :

"... My own cheif work of fiction (Lalla Rookh) is founded on a long and laborious collection of facts. All the customs, the scenery, every flower from which I have drawn an illustration, were inquired into by me with the utmost accuracy and I left no book that I could find on the subject unransaked.

---

(1) Letters and Journals of Lord Byron (1904)
IV, p. 148. (ed.) R. E. Prothrio.

Hence arises that matter-of-fact adherence to Orientalism from which Sir George Ousley, Colonel Wilks, Carne and others, have given me credit." (1)

لورد بايرون وتأثره بالشرق :

الشاعر الذى أختتم به هذا البحث هو: لورد بايرون، وهو كما نعلم، من أشهر شعراء الحركة الرومانتيكية فى انجلترا . إن معرفته بالشرق لم تعتمد على الكتب الكثيرة التى كان مولعاً بقراءتها منذ طفولته فحسب ؛ بل على تجاربه فى ربوع تلك البلاد التى كان يشير إليها دائماً كبلاد السحر والجمال. لقد قام برحلة عام ١٨٠٩ وكان شبه جزيرة البلقان فى ذلك الوقت ضمن الامبراطورية العثمانية ، ولذلك التقت ألبانيا وغيرها بآثار الثقافة الإسلامية التى كان رعاها الأتراك فى ذلك الحين، ولقد أثرت مشاهداته فى تلك الرحلة على خياله وفكره وانعكس ذلك الأثر العميق فى مؤلفاته الشرقية التى أكسبته الشهرة والمجد فيما بعد.

وأهمها قصصه الشعرية المشهورة وأولها :

The Giaour عام ١٨١٣ .

The Bride of Abydos عام ١٨١٣ .

The Corsair عام ١٨١٤ .

The Siege of Corinth عام ١٨١٦ .

واهتمامه بالشرق وشغفه الشديد بكل ما يتعلق به استمرا حتى ألف أشهر قصصه الشعرية Daon Jaun التى امتدت فصولها من عام ١٨١٩ إلى عام ١٨٢٣ . وكان العنصر الهام فى كل هذه القصص هو العنصر الرومانتيكى الخاص بالحب والمغامرة ، مغامرات خياله أحياناً ، ومغامرات الحب الذى لايعرف حدوداً ، ولقد لاقت كل هذه القصص الشرقية التى عبر فيها ببساطه وإخلاص عن ذكرياته العزيزة وتجاربه العجيبة فى بلاد تختلف عيشة أهلها اختلافا كليا عن عيشة التحفظ والرياء والدبلوماسية والأرستقراطية وغير ذلك من القيود التى كان بايرون يضيق بها جميعاً فيلجأ إلى الشرق الهادىء الوديع لينعم، ولو فى أحلام اليقظة ، بنسيم الحرية بعيداً عن حقائق الحياة المرة .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى السرعة المدهشة التى كان بايرون يكتب فيها هذه القصص ، وإلى الإقبال المدهش على قراءتها من شعب كان ينتظر هذا النوع من القصص الرومانتيكية التى تجرى حوادثها فى بلاد السحر والجمال ، ويكون بطلها شخصا جريئا يعشق الحرية فى كل معانيها ويقدر جمال الطبيعة وجمال النساء ويخاطر بحياته للحصول على ما يريد ـ رجلا غامضا له مبادىء تبدو غريبة من وجهة نظر الإنجليز الذين يقدسون تعاليم الكنيسة ويطيعون أوامرها طاعة عمياء بدون تفكير ، ولكن البطل

(1) J. Russell, The Memoirs of Thomas Moore (1853), VII, 2.

البيرونى TheByronic Hero يختلف كلية عن هذا النوع من الرجال ، ففيه كل صفات المؤلف الذى قضى حياته مكافحا فى سبيل الحريةو العدالة، ثائرا ضد الاستعمار والاستبداد والنفاق — ولهذا غضبت عليه الكنيسة وحاربه السياسيون ورجال الأعمال بينما صفق له مهللا ومكبرا جيـــل الشباب الوثاب فلا عجب أن قصته الأولى The Giaour طبعت أربع عشرة مرة فى ثلاث سنوات وظهرت الطبعات الثمانى الأولى فى السنة الأولى .أما قصته The Corsaur فبيع منها عشرة آلاف نسخة فى أسبوع واحد، وهذا يعطينا فكرة عن تعطش الشعب الإنجليزى لقراءة قصص تصور الشرق ومعيشة أهله سواء كانت مؤلفة أم مترجمة وسواء كانت ملتزمة الحقيقة أم مسرفة فى الخيال .

هذا الإعجاب الشديد لم يكن من جانب جمهور القراءوحدهم؛ بل أعجب به كثير جداً من الرحالة الذين زاروا مناطق الشرق الأوسط وكذلك النقاد والأدباء ـ وها هو سير (والترسكوت)الشاعر القصصى المشهور يشهد على ذلك بقوله :

"Exquisitely beautiful in themselves, these tales received a mew charm from the romantic climes into which they introduced us, and from the Oriental customee so strictly preserved and so picturesquely exhibited." (1)

أما المصادر التى اعتمد عليها فى الحصول على المادة والمعلومات عن الشرق وتعاليمه وعادات أهله وتراثهم الأدبى والفكرى فكان يأخذها من كتب الرحالة والمستشرقين أمثال **W. Jones, S. Ockley** والقصص الشرقية المترجمة خصوصاً مجموعة قصص ألف ليلة وليلة والقصص الشرقية الإنجليزية وأهمها قصة بكفورد (الواثق) التى سبق الكلام عن تأثيرها فى أعمال لورد بايرون .

هذا التقدير وهذا النجاح الباهر الذى لقيته قصص بايرون الشرقية امتد بعد ذلك إلى مؤلفاته الأخرى التى لم تكن تخلو هى الأخرى من آثار انطباعاته الشرقية وحبه لحياة الشرق وعاداته .

ولكن من حيث المادة والموضوع والجو العام لانستطيع الحكم بأنها شرقية فى جوهرها فلايسعنا هنا إلاالإشارة إليها فقط وهذه هى:

Manfred (1817) Cain (1821), The Deformed Transformed (1824)

والحقيقة أن هذه المؤلفات تحتوى على كثير من الأبلسة وفكرة الصراع بين الشر ممثلا فى الشيطان وأعوانه وبين الخير ممثلا فى الشخص الذى يكافح ليحمى نفسه من إغراء قوى الشر والظلام .

* * *

(1) Works of Lord Byron, (ed.) T· Moore (1838) X 9.

١٠ – خاتمـــة :

يتبين مما سبق أن التراث العربي فيما يختص بالأبلسة وعبادة الشيطان ما هو إلا أحد روافد الاستشراق Orientalism الذي ظهرت آثاره خلال عصور الأدب الإنجليزي منذ البداية حتى نهاية الحركة الرومانتيكية .

وهذا التراث كان يزدهر وتقوى آثاره كلما ازداد الشغف والاهتمام عنـــد الشعب الإنجليزي بوجه عام بحياة الشرق وثقافته ، فالحروب الصليبية والعصور الوسطى وقصص ألف ليلة وليلة في أوائل القرن الخامس عشر واتساع رقعة أمبراطورية الهند في أواخر هذا القرن وازدياد التبادل التجاري مع الشرق في القرن التاسع عشر هي أمثلة حية لفترات وظروف توضح قوة الاهتمام بهـذا التراث نتيجة للاتصال والاهتمام المباشر بحياة الشرق وأهله .

ومنذ القدم تسالت آثار هذا التراث الشرقي عن طريقين ، أولهما : جاء نتيجة لتأثير مجموعة العقائد الدينية الشرقية (وأهمها الديانة المصرية القديمة والديانة الإيرانيـــة) على التعاليم المسيحية فيما يختص باللاهوت والشياطين والحياة بعد الموت ، وثانيهما : جاء عن طريق الانتقال الشفوي للمأثورات والحكايات الشرقية بواسطة الصليبيين والتجار والرحالة . بعد ذلك كانت آثار التراث الشرقي تأتي عن طرق أخرى ، إما عن طريق مؤلفات إنجليزية ترتد إلى مصادر شرقية فيما يختص بالأبلسة والأعمال الخارقـة للطبيعة أو عن طريق التأثر المباشر بالأدب الشرقي ذاته :

ومما لاحظناه أثناء بحثنا هـذا وجود خيوط الحركة الرومانتيكية التي التقت منذ البداية بخيوط الحركتين الأخريين وهما : حركة الاستشراق وحـركة الأبلسة وعبادة الشيطان ، وهكذا نشأت هذه العلاقة الثلاثية بين الرومانتيكية Romanticism والاستشراق Orientalism والأبلسة Satanism وصارت تبدو واضحـة في مؤلفات ثلاثة من مشاهير الحركة الرومانتيـكية وهم : بكفورد، ومور وبايرون William Beckford, Thomas Moore, Byron

والعامل الرئيسي الذي يفسر لنا هذه الظاهرة الهامة هو التميز في طبيعة ما هو شرقي في الأدب أي أن المادة المأخوذة من بيئة شرقية تمتاز بصفات الغرابة والخيالية وأنها أجنبية منقولة من أجواء بعيدة ، وهذه الخصائص هي ما يعبرون عنه بهذه الصفات :

strange, fantastic, exotic

وكانت هذه الخصائص بذاتها هي ما يتجاوب بسرعة مع عواطف الموالين لروح الثـورة الرومانتيكية الجـــديدة وخيالهم ومزاجهم وكانت حـركة الاستشراق Orientalizing Movement والاهتمام بالـكتابة عن

الموضوعات والأفكار والتقاليد الشرقية التى بدأت فى الأدب الإنجليزى منذ ظهور ترجمة كتاب (ألف ليلة وليلة) فى أوائل القرن الثامن عشر قد وصلت أوجها (بعد ظهور الواثق) فى قصص اللورد بايرون الشعرية . ولكن الواقع أن المأثورات الشرقية الخاصة بالأبلسة وعبادة الشيطان أكثر من أى شىء آخر فى تراث العرب الأدبى هى التى ساهمت بأكبر قسط فى إنماء ثروة القصص الخيالية Stories dealing with the Supernatural التى تتابعت فى الظهور فى المدة ما بين ١٧٨٥ - ١٨٢٥ وهى الفترة المعروفة بالعصر الرومانتيكى .

وختاما - بعد هذا السرد الطويل لآثار تراث الأدب العربى فى مؤلفات بعض الكتاب الإنجليز إبان الحركة الرومانتيكية ، نستطيع أن نقرر فى إيجاز الحقائق التالية :

أولا: أن تأثير هذا التراث العربى فيما يختص بالأبلسة والتعاقد مع الشيطان واضح فى المؤلفات الهامة لبعض الكتاب الإنجليز البارزين فى الفترة المذكورة .

ثانيا : أن قصص ألف ليلة وليلة - وقد كانت حلقة الاتصال - ساعدت على تدعيم العلاقة الثلاثية المتبادلة بين هذه الاتجاهات الثلاثة :

Orientalism - Romanticism-Satanism

ثالثا : أن نجاح المؤلفات الشرقية ساهمت إلى حد كبير فى ازدياد شهرة المؤلفين الإنجليز وبالتالى فإن هذه المؤلفات نفسها دعمت مكانة التراث الشرقى فى الأدب الإنجليزى .

رابعا : إن القيمة الكبيرة للتراث الشرقى يمكن ملاحظتها حتى عند الكتاب الذين لم يهتموا بحياة الشرق ومعتقداته لأنهم اضطروا أن يجاروا تيار الاستشراق القوى لإرضاء الأغلبية العظمى من جمهور القراء .

خامسا: أن المؤلفات التى اعتمدت على التراث الشرقى كمصدر المادة والموضوع قد ساهمت على اختلاف أنواعها فى زيادة رصيد الأدب الإنجليزى بوجه عام والحركة الرومانتيكية بوجه خاص . (تمت)

دكتور محمد سمير عبد الحميد

المؤلفات العربية لعلماء الهند المسلمين

للأستاذ محيي الدين الألوائي

— ٥ —

نتناول هنا كتابا جديدا فى نوعه هو الكتاب النادر « مشكلات القرآن » للعالم الهندى الكبير الشيخ محمد أنورشاه الكشميرى، المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م . ويتناول هذا الكتاب بالبحث أهم ناحية من نواحى تفسير القرآن ، وهى حل وإيضاح مشكلات القرآن ، إذ يشتمل كتابه هذا ، على مائة وتسعين آية من القرآن الكريم مأخوذة من ٤٨ سورة، ثم فسرها تفسيرا تحليليا دقيقا، وألقى ضوءا جديدا على وجوه الإعجاز فيها بفكره العميق ورأيه السديد . ومن هنا كانت لهذا الكتاب أهمية فى علوم القرآن ، حيث يضيف لونا جديدا من البحث إلى محراب خدمة القرآن .

وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من سلسلة مطبوعات « المجلس العلمى » بدابيل بمدينة « سورت » بالهند سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م ، وهو يشتمل على ٢٧٨ صفحة ، مع مقدمة قيمة كتبها الشيخ محمد يوسف البنورى ، الأستاذ بجامعة دابيل الهندية . وقد بين فى مقدمته المشتملة على ٨٤ صفحة ، ترجمة وافية عن حياة الشيخ أنور شاه ، ولمعات من خصائصه العلمية ومزاياه فى البحوث والتحقيقات التى قام بها فى مختلف الميادين العلمية والأدبية .

وتقتضى منا أمانة البحث أن نلقى ضوءا على حياة هذا العالم الإسلامى الكبير ومؤلفاته ومقالاته قبل أن نتناول بالتفصيل ما جاء فى كتابه « مشكلات القرآن » من بحوث :

ولد الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٧٥ م بمدينة « ودوان » بكشمير ، وتلقى العلوم الابتدائية فى قراءة القرآن ومبادئ اللغة العربية من والده وبعض علماء بلدته ، وسافر وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره إلى مدينة (ديوبند) للالتحاق بمدرسة (دار العلوم) فواصل دراسته فى الحديث والمنطق والفلسفة والهيئة على أيدى كبار علماء عصره مثل شيخ الهند مولانا محمود الحسن ، والمحدث الكبير الشيخ محمد إسحاق المدنى .

وتوجه المرحوم وهو فى السادسة عشرة إلى مدينة « دهلى » عاصمة الهند ولم يلبث

أن طار صيته فى أنحاء البلاد ، بسعة علمه وقوة بيانه وحدة ذكائه ، ثم أسس بنفسه مدرسة عربية فى « دلهى » وسماها « المدرسة الأمينية » وما زالت حتى الآن تؤدى رسالتها فى خدمة العلوم الإسلامية والعربية ولو فى نطاق محدود . وبعد بضع سنوات انتقل الشيخ إلى مسقط رأسه « كشمير » وبدأ يحارب البدع والخرافات الشائعة بين المسلمين ويدعوهم إلى اتبـــاع التعاليم القرآنية والإرشادات النبوية الحقة ، وأسس فيها أيضا مدرسة دينية وسماها « الفيض العام » .

ثم عين الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى أستاذا التدريس الحديث وعلومه فى « دار العلوم » « بديوبند » التى تخرج فيها ، وفى أخريات حياته آثر حياة العزلة والتعبد واتخذ « كجرات » مقرا له وقد توفى رحمه الله سنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م بعد حياة حافلة من الخدمات العلمية والأدبية والدينية .

وله ، رحمه الله ، مؤلفات عديدة فى مختلف العلوم الإسلامية والآداب العربية ، وكان يجيد التأليف باللغة العربية إلى جانب براعته فى اللغتين الفارسية والأوردية . ومن مؤلفاته فى اللغة العربية :

١ ــ « عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام » وهو كتاب حافل ببيان حياة عيسى عليه السلام ويحتوى على أدلة وافية من القرآن والحديث وآثار الصحابة وأقوال العلماء فى هذا الشأن .

٢ ــ « تحية الإســـلام » وجاء هذا الكتاب بمثابة تعليق أو استطراد على كتابه « عقيدة الإسلام » مع إضافة مباحث أخر دقيقة .

٣ ــ « التصريح بما تواتر فى نزول المسيح » وهو يحتوى على جميع ما ورد من الأخبار المرفوعة والآثار الموقوفة فى نزول عيسى عليه الصلاة والسلام [1] .

٤ ــ « ضرب الخاتم على حدوث العالم » وهو قصيدة تشمل نحو (٤٠٠) بيت أتى فيها بدلائل حـــديثة وبراهين فلسفية لإثبات حدوث العالم ووجود الصانع الحـــكيم المريد المختار .

٥ ــ « إكفار الملحدين فى ضروريات الدين » وهو كتاب فريد فى بابه يبحث فيما عليه مـــدار الإيمان والكفر وما وقع فيـه من الالتباس على الناس والخبط فى مسائل إكفار المسلم ، وغيره من الفوائد العلميـة .

٦ ــ « فيض البارى على صحيح البخارى » [2] .

---

(١) وأعيد طبعه حاليا بدمشق مع تحقيق للأستاذ عبد الفتاح أبى غدة .

(٢) طبع بمصر فى المطبعة الحجازية فى أربعة مجلدات .

٧ — «العرف الشذى على جامع الترمذى».

٨ — «بسط اليدين لنيل الفرقدين» ويتناول المؤلف فيه مسألة الاختلاف بين الأئمة فى رفع اليدين، وأتى فيه بأدلة كل فريق، ثم بين أن الاختلاف بينهم فى الأفضلية فقط لا فى سنيته أو حرمته.

٩ — «فصل الخطاب فى مسألة أم الكتاب» وهو رسالة حاوية لما فى هذا الباب من الأدلة على مسألة قراءة الفاتحة خلف الإمام.

١٠ — «كشف الستر عن صلاة الوتر» وهو بحث رائع فى حقيقة صلاة الوتر، ومذاهب الأئمة فيها مع بيان أدلة كل منها، ومنشأ الخلاف فيما بينهم وكشف فوائدها ومغزاها.

وتبلغ مؤلفاته فى اللغة العربية وحدها عشرين مؤلفا [١]. وكلها بحوث قيمة تدل على سعة علمه ودقة نظره فى مسالك الأئمة فى مختلف المسائل الفقهية، وأما براعته فى علم الحديث فواضح من شرحيه على الصحيحين ومؤلفاته الأخر فى شتى نواحى علم الحديث بمختلف اللغات. وقال عنه العلامة الشيخ «شبير أحمد العثمانى» شارح صحيح مسلم: «لم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه». وكان متبحرا فى علوم الرواية والدراية، وعالما فى علوم القرآن والسنة والفقه والكلام والبلاغة والأدب والتاريخ.

ومن منظوماته فى اللغة العربية: أرجوزة فى ضوابط الفقه الحنفى وأخرى فى معارف الحديث ومنظومة قيمة فى مسألة إثبات وجود الصانع الحكيم. وقصيدة طويلة فى مدح الرســـول، وله منظومات أخر فى الحكم والأمثال والمراثى لبعض شيوخه. وقد استمد ذوقه الشعرى من والده الذى كان شاعرا مجيدا فى الفارسية ثم ارتوى الشيخ من كتب الشعر العربى، ولما زار السيد رشيد رضا دار العلوم بديوبند أثناء زيارته الهند التقى بالشيخ محمد أنور شاه وتباحث معه فى مختلف المسائل العلمية والدينية، وقد أثنى الشيخ رشيد، على مهارة المرحوم أنور شاه فى علوم القرآن والحديث، فى المقالات التى نشرها فى القاهرة بعد عودته من الهند.

ويكتب الشيخ محمد يوسف البنورى فى مقدمته للكتاب التى سماها «يتيمة البيان لمشكلات القرآن» فى معرض تعريفه به

---

(١) قام الدكتور محمد رضوان الله، الأستاذ بجامعة عليكرة الإسلامية بالهند بإعداد رسالة عن المزايا العلمية للشيخ محمد أنور شاه الكشميرى ونال بها درجة الدكتوراه عام ١٩٦٦، وهو الآن يعد بحثا عن مؤلفات الشيخ العربية لتقديمه إلى جامعة الأزهر لنيل درجة (الدكتوراه).

وبيان الكيفية التى تم فيها تأليفه : « ثم إنه اشتدت عنايته فى أواخر عمره بالتنزيل العزيز وكان يقول : والقرآن المجيد أحق بحل المشكلات من الحديث وإن مشكلات الحديث لا تبلغ مشكلات القرآن فالعناية بها أحرى أن تكون أشد وأقوى » .

... وكان من شريف دأبه فى شهر رمضان أنه كان يتلو القرآن المجيد بغاية تدبر وإمعان فكان يقضى يومه كله من بعد صلاة الفجر إلى أن تغرب الشمس فى تلاوة جزء واحد ، فهكذا كان يختم القرآن مرة فى شهر رمضان . ثم فى أثناء تلاوته إذا تنبه على مشكل كان يتوخى ويتفقد أولا حله من مظانه من أسفار أعيان الأمة من زبر التفاسير أو غيرها ، إن لم يكن له شيء فى خزانة حافظته الجامعة لنفائس الدرر ، فإن ظفر فى كلامهم بشيء مفيد قيده بلفظه وهو قليل ، أو لخصه فى عبارته وهو كثير ، أو أحال على المراجعة إليه برمز الصفحة وهو أكثر ، وإن زاد عليه شيئا أو تعقبه برأى مصيب ضمه إليه . ولما كان من غزارة المادة وسعة الاطلاع فى منزلة قاصية لا يدرك منتهاها ربما أكثر من حوالات الكتب ، وكثيراً مايلتبس الغرض الذى أحيل عليها ، وربما ضاق نطاق المقام بإكثار الحوالات ، فكتب الحوالة بعيدة عن الموضع الذى نيطت به فيشتبه الأمر على الناظر ويظنها متعلقة بالموضع الأقرب وهو بعيد، وإن لم يظفر بشيء تنحل به العقدة فى كلام الأعلام كان يطيل النظر ... فإذا سنح له سانح استفاده فى تذكرته تحت الآية .

فهكذا قد استفاد أوابد من الأبحاث الغزيرة النادرة واصطاد شوارد من المشكلات التى أقفلت أبوابها على جهابذة القوم حتى اجتمعت(له) ذخيرة وافرة ومادة غزيرة بعدة آيات مشكلة . ولكن كان الشيخ رحمه الله دقيق النظر قوى الحدس سريع الانتقال غامض المسلك واسع الباع رحيب العلم يتنبه لمشكل قلما يتنبه لمثله إلا أفذاذ من الأعلام ، فتوسعت مشكلاته بسعة معلوماته ، ثم مع هذا كان مولعاً بالإيجاز والاختصار .

لم يكن دأبه أن يسترسل القلم فى الإيضاح والتفصيل نعم كان يسترسل قلمه فى بسط المادة ، وإذا كانت المادة غزيرة والأبحاث مشكلة والعبارة موجزة جداً ، يفتقر الناظر إلى إنفاد الوسع واستفراغ الجهد فى جملة جملة لاجرم لا تستأنس الطبائع العامة بأمثال هذه التأليفات فى العصر الحاضر ، وتقصر الأذهان عن شأوها البعيد » . وأضاف يقول مشيراً إلى حاجة هذه المقدمة الإيضاحية : « فلم يكن من دأبه إيضاح الإشكال وتصوير المقال ، بل كان يبدى رأيه جوابا لما كان يحسه هناك

من الإشكال . فهذا الأمر أصبح منشأ لإخفاق الطلبة ، بل أماثل العصر عن أن يستفيدوا من مؤلفاته التى ملئت جواهر قيمة ولآلىء غالية ، لكنها فى مطاوى البحور ومعادن الصخور . فكان يتكلم بما يليق برتبته السامية لا ينزل عنها كثيراً ، وكان رأيه فى الإيجاز والاكتفاء بالمقصود ، كما قال ابن النديم : « النفوس أطال الله بقاءك تشرئب إلى النتائج دون المقدمات وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات » .

وأنهى مقدمته ، بعد أن أثنى على جهود المجلس العلمى المذكور فى إخراج هذه الذخيرة إلى حيز الوجود ، بقوله : « وأمرنى بتأليف مقدمة تلائم هذا المؤلف الجليل بما يحتوى على أشياء تفيد بصيرة فى هذا الكتاب وفى هذا الفن ، وأن أذكر فيها ما وصل إليه علمى من فوائد الشيخ ما يليق بهذا الموضوع ... » .

وذكرنا أن كتاب « مشكلات القرآن » يحوى تفسيرا وتحليلا لمعانى مائة وتسعين آية من ٤٨ سورة ، وها هى تلك السور :

(١) الفاتحة (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٦) الأنعام (٧) الأعراف (٨) الأنفال (٩) التوبة (١٠) يونس (١١) هود (١٢) يوسف (١٣) النحل (١٤) الكهف (١٥) مريم (١٦) الأنبياء (١٧) الحج (١٨) المؤمنون (١٩) النور (٢٠) الفرقان (٢١) النمل (٢٢) القصص (٢٣) العنكبوت (٢٤) الروم (٢٥) لقمان (٢٦) الأحزاب (٢٧) يس (٢٨) الصافات (٢٩) الشورى (٣٠) الزخرف (٣١) الفتح (٣٢) الحاقة (٣٣) الجن (٣٤) المزمل (٣٥) القيامة (٣٦) الطارق (٣٧) الأعلى (٣٨) الكافرون (٣٩) الطلاق (٤٠) السجدة (٤١) الحجرات (٤٢) ق (٤٣) الذاريات (٤٤) النجم (٤٥) القمر (٤٦) الرحمن (٤٧) الحديد (٤٨) القلم [١] .

ومن الغريب أن الشيخ المؤلف قد فسر بعض الآيات باللغة الفارسية ثم أحالها إلى عبارات كتب التفاسير التى يعتمد عليها فى توضيح معانى تلك الآيات وحل مشكلاتها مع أن معظمها قد فسرها وحل مشكلاتها باللغة العربية مباشرة . وإليك نموذج من أسلوبه فى تفسير الآيات وتحليلها .

قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، قال فى البحر ، وفى مصحف عبد الله : (رسل) بالتنكير وبها قرأ ابن عباس وقحطان بن عبد الله ووجهها أنه موضع تبشير لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وتنظير تيسير لأمته فى معنى الحياة (أى للذين تحيروا بسماع خبر موته) ومكان تسوية بينه وبين البشر فى ذلك وهكذا يتصل فى أماكن الاقتضاء بالشىء الاقتفاء به ، ومنه

---

(١) هذا الترتيب تابع لانتخاب الآيات الواردة فى كتاب المؤلف .

« وقليل من عبادى الشكور . . . » وما آمن معه إلا قليل » إلى غير ذلك .

ذكر هذا الفرق بين التعريف والتنكير فى نحو هذا المساق ، أبو الفتح ، أما التسلية فى المثالين فظاهر لأنه لما كان من سنة الله تقليل بسط الهداية ففيه تسلية للهداة ، وأما فيما نحن فيه فيحوج إلى عناية واعتبار مفهوم أى ، خلت من قبله رسل ، وبقى قليل ، كعيسى عليه السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم واحد منهم ، وبالجملة هو كقولنا خرج من هذه البلدة علماء ، لا نحو جاءنى علماء ، فالمراد رسل من بنى آدم ، لا رسل من بين المرسلين ، ويحتمل أن يريد أنهم كانوا قليلين ، فإن الكرام قليل ، وهذا منهم ، والتسلية كما يكون بكون كثير على شأنه يكون بأن الخيار قليل ، كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة ، فقد ميزه الله بأن جعله منهم ، وهذا يكفى فى التسوية ثم فى التسلية .

ولو قرر مراد أبى الفتح ، « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك » حيث قيل : ونكر رسل لكثرتهم وشياعهم ، (ومن قبلك) متعلق بكذب لكان أوضح ، فكأنه أراد الشياع ولا يحوج إلى اعتبار الكثرة ، وهو أحسن مما فى تلخيص المفتاح ، أى ذوو عدد كثير وذوو آيات عظام ، أو أراد أبو الفتح أن المعروف فى رد الكلية الإلحاق بأمثلة وعدة وعدد منها ، أى مضت بخلافها عدة من الأمثلة وهذه هى المحاورة فى إلحاق شىء بشىء لا تجشيم كلية مقابلها ، فإن المخالف إذا زعم كلية فالأحسن نقضها لا غير من معارضة ، ثم أنه لا يحوج تنكير رسل إلى اعتبار مفهومه المخالف بأن لا يخلو بعضهم ويكون بالنسبة إلى بعضهم الآخرين ، بل هو حكم على رسل غير معهودين ولا مفهوم له فى أنفسهم ، ودعوى كون جزئى تحت كلى قد تكون لا دليل عليها بخلاف التمثيل فقد لا يحوج إلى تجشيم ، ويكون إلحاقا ، وكلاهما طريقتان من الحجة عند النظار ، والأول : قياس شمول ، وليس مفيدا إلا بضم الصغرى والثانى قياس علة ، وهو كدعوى الشىء ببينة وثبت » .

ثم بين المؤلف الفرق بين قوله تعالى فى حق محمد عليه الصلاة والسلام . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وبين قوله تعالى فى حق عيسى عليه السلام : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » .

فقال : ثم محصل الآية تجويز الموت عليه صلى الله عليه وسلم ووقوعه على من خلا . وخاطب بمثلها فى حق عيسى عليه السلام من المائدة فقال : ما المسيح

ابن مريم إلا رسول الآية . فخاطب فى زمانه صلى الله عليه وسلم الموجودين إذ ذاك بما يجوز وقوع الموت على المسيح عليه السلام ومضيه على من خلا ، فإذن اتحد زمانهما عليهما الصلاة والسلام . ووقع حكم تحقق الموت على من خلا من ذلك الزمان وهو واحد لا أنه بالنسبة إليه عليه السلام زمان كونه على الأرض ، كما أنه كذلك بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه مبنى على فرض موته عليه السلام وأخذه من هذه الآية نحو مصادرة على المطلوب ، وبناء على شيء قبل إثباته وأخذه فى الدليل مسلما من قبل ، وهو من أغلاط الوهم ، ولو كان بناء الآية الثانية على موته عليه السلام قبل ذلك لكان العدول إلى نحو الاستدلال بأكل الطعام وغيره من سمات البشرية فى غاية السماجة والركة ، وجعل البديهى نظريا وإيقاع الناس فى أمر موته عليه السلام فى مغالطة لا يتخلصون منها أبدا ، كما تقول فى رجل قد مات ، أنه يمكن موته كيف يكون مغلطة ومهملا ؟ ! فنى الآيتين إمكان الموت لمن قبلنا له ، ثم لو كان فى آية « وما محمد إلا رسول » لوقوعه على عيسى كانتا متنافيتين، فإذا كان زمانهما واحدا جمعنا بينهما وقلنا : خلا من كان قبل كلبهما ، ثم إن الخلو هو من الأيام الخالية وهو باعتبار الزمان ، وقد مضى زمانه عليه السلام ، وإذا دلتا على حياتهما فى زمان لفقنا كلا من جزأين وقلنا وما محمد الآية ما المسيح الآية قد خلت من قبلهما .... » .

واختتم الشيخ كتابه بتفسير بليغ بقوله تعالى : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون » فقال : قد كثر الكلام فى وجه التكرار فى سورة الكافرين ، ولقد أطال فيه فى روح المعانى وبدائع الفوائد ، وكتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، والذى سنح للقلب الكسير هو هذا فاحفظه ولا تنسنا ـ يريد : (لا أعبد) فى المستقبل (ما تعبدون) فى الحال يعنى من جهة العزم والتصميم لا من جهة الإخبار عن الواقع ، وهو عدم الفعل فقط ، فإن هذا أدون من الأول وهو أبلغ وآكد فصار الكلام من جانبه صلى الله عليه وسلم هو الأشد لا يتوهم من خلافه من أجل أنه صدر كلامهم بالاسم ، وقيل : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، وإنما صدر به على حد قوله :

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع
ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر

مما ينتقل فيه من نفى فعل المتكلم إلى نفى فعل المخاطب ، مثلا فيقدم الاسم أى لا كان هذا ولا هذا على طريقة جعل القصر فى حيز النفى كما فى حديث : (إن هذا الدين متين

عالم الملائكة

للأستاذ أحمد نصار القوصي

الملائكة جمع ملك : عالم من العوالم العلوية الغيبية ، التى لا يصل الإنسان إلى معرفة شىء عنها بإدراكه البشرى ، وإنما قصارى ما يعرفه عنها معرفة صحيحة ، هو ما كان عن طريق الخبر الصادق ، من مصدر العقيدة فى الشئون الغيبية ، عن الله ورسوله من القرآن الكريم ، أو السنة النبوية . ونحن - المؤمنين - مطالبون بالتصديق بما أخبرنا الله به ، مما غاب عنا ، ولا تدركه بحواسنا ، قال تعالى : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ... » وقال : « والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله » وعلى هذا فنحن مكلفون بالإيمان بالملائكة ، بنص القرآن ، والحديث الصحيح ، وقد قال الله تعالى : « ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا » .

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

فأوغلوا فيه برفق ؛ فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » أى لا فعل هذا فقط ولا هذا فقط ، ويريد من جانب الكافرين : الإخبار عن عدم الفعل فى الحال فقط ، لا الإخبار عن العزم فى المستقبل ، فإن مستقبلهم لا يدرى فصار هذا من جانبهم غير أبلغ ، ثم قوله : ولا أنا عابد ما عبدتم ، أى حالى فى الحال أنى لا أعبد ما عبدتم فى الماضى ، يريد أنى فى الحال أيضا لا أوافقكم على ما كنتم عليه ، فذكر ما ضيهم لأنه قد تحقق من جانبهم بخلاف جانبه صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه إما حال وإما مستقبل ، وماضيه كالحال عندهم تحت البحث ، وقوله « ولا أنتم عابدون ما أعبد » حال بحال كقولهم الأول سواء لكن الكلام هناك بحسب الأزمنة ، وها هنا بحسب تعيين المعبود ، ولا دخل فيه للزمان من جانبه صلى الله عليه وسلم وإنما كرر قولهم لتتم القرينة وإلا لم تتم وبقيت ناقصة ، وعندهم فى النفى المكرر أحكام خاصة لفظية ومعنوية لتكرار (لا) فى نحو قوله « فلاصدق ولاصلى » والبناء فى نحو « لا حول ولا قوة إلا بالله » فصار بمجموع الكلام من جانبه صلى الله عليه وسلم مؤسسا بخلاف جانبهم فإنه معاد وإخبار عن الواقع فقط لا عن عزم مؤكد » ؟

(يتبع)

محيى الدين الألوائى

وحقيقة الملائكة : أنهم أجسام من نور ، مبرأة من الكدرة النفسانية، والظلمة الحيوانية. روى الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . وقد فطرهم الله ، وجعلهم ذوى أجنحة ، مثنى ، وثلاث ، ورباع . ومن خصائصهم القدرة على سرعة الانتقال ، وعلى التشكلات المختلفة ، ولكن بالصورة الشريفة ، التى لا تحط من قدرهم ، وأصدق دليل على صحة ذلك ، أن جبريل ، عليه السلام ، كان يجىء إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى بعض الأحيان فى صورة (دحية الكلبى) ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول إذ يتحدث عن كيفيات الوحى: « وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى ، فأعى ما يقول » . ولكن الصورة التى يتشكلون بها لا تحكمهم ، ولا يجرى عليهم ما يجرى على جنسها ، أى خصائصهم الملكية لا تفارقهم بتغير الصورة ، كما هو الحال بالنسبة لعالم الجن .

والملائكة بفطرتهم ، لا يأكلون ، ولايشربون ، ولاينامون ، ولا يتناسلون . وهم معصومون من المعصية ومخالفة الله ، كما أخبر الله ، عز وجل ، بذلك حيث يقول : « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » . ولا يعلمون إلا ماعلمهم الله « قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا » . وهم متفاوتون فى الدرجات عند الله ، روى البخارى : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « جاء جبريل ، فقال : ماتعدون من شهد بدراً فيكم ؟ قلت : خيارنا ، قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة ، هم خيار الملائكة » . ولا يحصى أقسام الملائكة ، ولا مدة أعمارهم ، ولا كيفيات عبادتهم ، إلا بارئهم العليم الخبير : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

والمقربون منهم ، شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق ، جل جلاله ، والتنزه عن الاشتغال بغيره ، وقد قال الله سبحانه : « يسبحون الليل والنهار ، لا يفترون » . كما حكى القرآن عنهم « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ... » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم ، إلا وفيه ملك ساجد أو راكع » .

وقد أنبأنا الله أن الملائكة يصلون على الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ويستغفرون للذين آمنوا ، « إن الله وملائكته يصلون على النبى » . « هو الذى يصلى عليكم

وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات إلى النور » الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا .... »

ومن الملائكة طائفة، يدبرون الأمر ، من السماء إلى الأرض ،وفق ما سبق به القدر وجرى به القلم ، ومنهم الموكلون بالرياح والسحاب والمطر ، وأمور الناس ، وما يتصل بحياتهم ، وأرزاقهم ، روى الامام مسلم فى صحيحه أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « إن النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك الذى يخلقها (أى يسقط عليها) فيقول : يارب : أذكر أو أنثى ، فيجعله الله ذكرا أو أنثى ، ثم يقول يارب : أسوى أو غير سوى ، فيجعله الله سويا أو غير سوى ، ثم يقول : يارب ، مارزقه ؟ ما أجله ؟ ما خلقه ؟ ثم يجعله الله شقيا أو سعيدا » :

ومنهم الوسائط بين الله ورسله ، يبلغونهم الوحى برسالات الله إلى الناس ، وبين الله والصالحين من عباده ، بالإلهام ، أو الرؤيا الصالحة ، أو الرسالات الخاصة : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك ، لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » . « ينزل الملائكة بالروح من أمره ، على من يشاء من عباده » . « إن الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ، ألا تخافوا ، ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة ، التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة . . . » وقد أرسل الله جبريل عليه السلام ، لمريم ابنة عمران ، أم عيسى ، عليهما السلام : « فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا . . . . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » . كما أوحى الله إلى أم موسى بما أوحى ، على ما ذكر فى القرآن الكريم، فى قصة موسى عليه السلام ، وإنجائه من فرعون ، وقد صدقها الله وعده ، فى قوله : « إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين » .

وجاء فى القرآن الكريم ، أن الله جل جلاله ، أيد رسوله محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، بالملائكة فى حنين : « فأنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها » وقال تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا » . « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم ، أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . « بلى إن تصبروا ، وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة ، مسومين » . وروى الإمام مسلم ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لحسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

« إن روح القدس (جبريل عليه السلام) لايزال يؤيدك ، ما نافحت عن الله ورسوله » .

ومن الملائكة من يقوم على تدوين أعمال العباد فى الحياة الدنيا ، حتى تعرض عليهم فى أخراهم : « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون » . « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ... » ، ومنهم من يحفظون الإنس من سطوات الجن، لأنهم أعداء بنى آدم بالجنس ، وأقوى على إيصال الأذى إليهم بخصائصهم وخفائهم ، ومنهم السيارة فى الأرض ، فنى الصحيحين أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : (إن لله ملائكة ، سياحين فى الأرض ، فضلاعن كتاب الناس، يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله ، تنادوا : هلموا إلى حاجاتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا ...) .

ومنهم من يرسله الله ، برحماته لعباده المؤمنين : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها . بإذن ربهم من كل أمر . سلام هى حتى مطلع الفجر » . كما أن منهم من يرسله لإهلاك الأمم المكذبين بالله ورسله ، قال تعالى : « قالوا يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك . فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا ، جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد » .

وهم يدخلون بيوت المؤمنين ، ويجوسون خلالها ، فنى الصحيحين أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة » . ولا يتعارض فحوى هذا الحديث مع ما جاء فى القرآن الكريم : « قل لو كان فى الأرض ملائكة . يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » . لأن هذا لا يكون ، إذا ما ظهر الملائكة للناس ، وعاشوا معهم ، وخالطوهم مع اختلاف الجنس ، أما والملائكة فى خفاء من البشر ، فذلك واقع ، ولا جدال فيه .

ومن الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ، « قل يتوفاكم ملك الموت ، الذى وكل بكم » . « إن الذين توفاهم الملائكة ، ظالمى أنفسهم ... » ومنهم الموكلون بسؤال الأموات فى قبورهم ، ومنهم أشياع إسرافيل عليه السلام ، الذى ينفخ فى الصور ، ومنهم خزنة الجنان ، ومنهم الزبانية الغلاظ الشداد : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » . « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم

(البقية على الصفحة التالية)

ابن الهيثم

دائرة معارف عربية

للأستاذ أحمد أبو الخضر منسي

علامتنا ابن الهيثم هو : أبو على محمد ابن الحسن بن الهيثم ، ولد بالبصرة سنة ٣٧٠ هـ الموافق ٩٨٠ م . وارتفع شأنه حتى بلغ مرتبة الوزارة فى العراق فى دولة بنى بويه

وكان ابن الهيثم يقول: إنه لو كان من أهل مصر ، مقيما بها ، لجعل طرقا للرى تتعدل بها مياه النيل فى سنى الفيضان الزائد ، وفى سنى الفيضان القليل؛ فيكون من عمله ما يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان ، فبلغ قوله مسامع الحاكم بأمر الله . فاشتاق الحاكم إلى تحقيق ذلك ، وبعث إليه سراً سيبا من مال ، وآذنه برغبته فى الحضور ، فهبط ابن الهيثم مصر وقابل الخليفة ، فأرسله إلى أسوان لكى يجرى فيها أعماله لتعديل الرى ، ولكنه لما وافى النيل عند شلال أسوان ، ورأى المياه المتدفقة المنحدرة . فى شلال أسوان والصخور الضخام الصم على جانبيه ، وجد أمره لا يسير على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ فيما وعد به . فانقلب خجلا منخذلا ، واعتذر بما قبل الحاكم عذره ، وأبدى الموافقه على بيانه ظاهرا ، ولكنه فى طويته وباطنه كان ناقما عليه فائر الغضب .

وهكذا فارق ابن الهيثم ذلك السمو الذى اقتعد مرتبته فى العراق بذات يده وأميط عنه ما كان فيه من عز وسؤدد ، وحاقت به آنئذ شوائب، وضيقات بالغة . وقد خشى

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » . ومنهم خزنة النار : « عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا . . »

وبعد ؛ فهؤلاء هم الملائكة ، عالم النور ، عباد الله المكرمون ، وجنده المعصومون على ما ورد عنهم فى النبأ العظيم عن الله ، والخبر الصادق عن رسول الله ، وهو كما يقول الله فيه « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

أحمد نصار القوصى

الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى كان مريقا للدماء بغير سبب ، أو بأضعف سبب من خيال يتخيله. لم يجد ابن الهيثم بدا من إظهار الجنون والخبال فلا يكون كالباحث عن حتفه بظلفه بهذه المدحضة التى وقع فيها على غير ما توقع ، ولم يزل على ذلك حتى تحقق من وفاة الحاكم سنة ٤١٣ هـ . فأظهر العقل بعد ما أميط عنه ما كان فيه من أذى وضر وعاد يثنى إلى العلوم انصبابه كحاله فى سيرته الأولى ، وخرج من داره ، فاستوطن قبة على باب الجامع الأزهر مشتغلا بالتصنيف والنسخ والإفادة ، منصرفا بكليته إلى العلم وإلى البحث عن الحقيقة التى كان مخلصا لها كل الإخلاص كان ينسخ ثمت الكتب ويبيعها ليعيش ويرزق ، فنسخ أصول (أقليدس) ، (والمجسطى البطليموسى) وغيرهما وهكذا عاش إلى وفاته بالقاهرة سنة ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م

مات ابن الهيثم عن ٦٠ عاما قضاها معتكفا فى خلوته نهاره وليله . نومه غرار كحسو الطائر ، قد أشرب فى قلبه العلم ، وكلف به ، فما هو بمزحزحه عنه شىء من أعراض الدنيا وزخارفها . يستعذب الكد بهمة مستعرة غير نازلة ، فجلى للعالمين ما أوتى من علم متشعب فائض . وكنا نحن المصريين ، بنزوله فى ديارنا وعيشه معنا ، وما أنتج من مصنفات نفيسة جليلة إلى يوم وفاته ، نفتخر به ونعتز.

كان ابن الهيثم منهلا عذبا لعلماء أوروبا فى علم البصريات مثل: كروجر ، وكوبرنيكس وباكون وغاليليو ، وغيرهم ممن جاء بعدهم . ولقد تحقق أن أبحاث ابن الهيثم فى الضوء أوحت إلى من جاء بعده من علماء أوروبا اختراع القطارات . وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية : أن ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات.

أجل ؛ فإن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم . فقد أخذ العلامة الفلكى الألمانى (كبلر) معلوماته فى الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بالانكسار الضوئى فى الجو من كتب ابن الهيثم .

لقد وضع ابن الهيثم لبعض مسائل تتعلق بالضوء حلولا واضحة مطابقة للواقع المعلوم من زمانه . فهو بحق رائد علم الضوء فى عصره . وكتابه فى (المناظر) وهو من أهم مصنفاته ، بسط فيه وشرح موضوعات انكسار الضوء ، وتشريح العين ، وكيفية تكوين الصور على شبكة العين . وقد أحدث انقلابا فى علم البصريات جعل منه علما مستقلا له أصوله وقوانينه . يمضى فيه نظام علمى قائم على المشاهدة ، والتجربة . ولقد كان علماء أوروبا عالة على هذا الكتاب عدة قرون ، واستقوا جميع معلوماتهم منه فى الضوء ، وهو أول من كتب فى أقسام العين ، وأول من رسمها

بوضوح تام ، ووضع أسماء لبعض أقسامها أخذها عنه الإفرنج وترجموها إلى لغاتهم ، كالشبكية ، والقرنية ، والسائل المائى ، والسائل الزجاجى . وبحث فى قوى تكبير العدسات فمهد بهذا ؛ السبيل إلى استعمال العدسات فى إصلاح عيوب العين .

كان تاج العلماء ابن الهيثم عبقريا ، متوقد القريحة ، صبورا وقورا ، خصب الإنتاج . أربت مصنفاته على المائة ، فى الرياضيات : الحساب والهندسة ، والطبيعة ، والفلك . نذكر منها ؛ كتاب (شرح أصول إقليدس فى الهندسة والعدد،وكتاب (الجامع فى أصول الحساب) ، وكتابا فى المساحة على جهة الأصول ، وكتابا فى تربيع الدائرة ، وكتاب استخراج ما بين البلدين من البعد بجهة الأمور الهندسية وكتاب مساحة الكرة، وكتابا فى المرايا المحرقة ، وكتاب الأرصاد الكلية، وكتابا فى الفجر والشفق ، وكتاب صورة الكسوف ، وكتاب رؤية الكواكب ، وكتاب مناظر القمر ، وكتاب التنبيه على ما فى الرصد من الغلط . أما فى البصريات فقد جمعت أبحاثه فى سبعة مجلدات، وترجمت إلى اللاتينية، وطبعت هذه الترجمة فى مدينة (بازل) من أعمال سويسرا .

هذا هو ابن الهيثم مفخرة الشرق العربى . وفريدة درر علومه . كما هو فخر مصر ، وجانب من وجوه مجدها الخالد . بما قدم وأسبغ من آثار باقيات ، ومحدثات باهرات ، وخدمات جلت أقدارها ، فيما حبر ونشر من أنواع المعارف الإنسانية ، وما أسدى من أبحاث مبتكرة كان هو أبا عذرتها ، ورثتها الأجيال من بعده إلى يومنا هذا وما تلاه ؟

أحمد أبو الخضر منسى

العــلم

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

من أخلاق الرسول : المكافأة على الجميل

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

لئن كان فى البشر قوم يمتازون بكبر العقل ، وأصالة الفكر ، وسماحة الطبع ، وسمو الفطرة وطهارة القلب ، وصفاء النفس ، ومكارم الأخـــلاق ، ومحاسن الأفعال ، ومقابلة الإحسان بالإحسان .

فنى الذروة من هؤلاء أنبياء الله ورسله الكرام ، ولا سيما خاتمهم وصفوتهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فقد وهب من المكارم والفضائل ، والأخلاق العالية ما لم يؤت غيره ولا غرو ، فإن من كانت رسالته عامة للناس جميعا عربهم وعجمهم ؛ وأبيضهم وأسودهم ، وتصدى لهداية الخلق على تباين فطرهم ، وأذواقهم وطبائعهم وبيئاتهم لا بد أن يكون فى خلقه رحابة لهؤلاء جميعا ، ونحن لا ننكر أن بعض هذه الأخلاق أو الكثير منها قد أوتيه بعض الصفوة من الخلق لكن اجتماعها فى شخص واحد ، وعلى حال من الكمال والجلال لم يكن إلا لنبينا محمد ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولذا نجد أصحابه على كثرتهم ، واختلاف مشاربهم وطبائعهم وأخلاقهم كانوا يحبونه حبا جما نادرا ، ويجدون فى بحره العذب الواسع ما يشفى أنفسهم ، ويروى غلتهم ، وفى موقف من المواقف المشرقة لبعض الصحابة قال أبو سفيان بن حرب - وذلك قبل أن يسلم : ما رأيت أحدا يحبه أصحابه كحب أصحاب محمد محمداً ! .

ولا يمكننا أن نتناول جوانب النبي الخلقية فى مقال ، فذلك يحتاج إلى كتاب جزل ، ولكنى سأتناول جانبا من أخلاقه صلى الله عليه وسلم وهو « المكافأة على الجميل » :

ولا نكاد نعرف أحداً كان أعرف للجميل وأعظم مكافأة عليه مثل ما عرفنا ذلك لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكيف وهو القائل فيما رواه الإمام أبو داود فى سننه عنه : (من أسدى إليكم معروفا فكافئوه عليه ، فإن لم تستطيعوا فادعوا له) ، وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله به يوم القيامة ، وما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وإن صاحبكم خليل الله) ، وإذا أجلنا النظر فى سيرته صلى الله عليه وسلم وجدنا مثلا عليا ، وأدبا فى هذا الباب يجب أن يحتذى .

ففى غزوة بدر الكبرى التى كانت أولى المشاهد فى الإسلام، والتى نصر الله فيها الحق على الباطل، والهدى على الضلال لم ينس النبى - وهو يعبىء القوى ويشحذ الهمم، ويثير العزائم للقتال - وصاته بأناس خرجوا مكرهين إلى القتال بحكم العصبية الجاهلية، وكانت لهم مواقف مشكورة فى منع النبى صلى الله عليه وسلم وحمايته من أذى قومه، أو مساع حميدة فى رد الظلم والطغيان، فقال لأصحابه يومئذ: (إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا مكرهين لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى ابن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يقتله فإنه إنما خرج مستكرها). ولا تحسبن أن الرسول بهذه الوصاة أراد أن يحابى أهله، وذوى قرباه، فقد كانت نفسه الشريفة أسمى من ذلك وأرفع وإنما هو عرفان منه للجميل، فقد عرف لبنى هاشم منعهم له ثلاثة عشر عاما، وانحيازهم لأجله فى الشعب ثلاثة أعوام عجاف، حتى جهدوا وأكلوا ورق الشجر، مما يؤكد أن خروجهم إلى بدر كان على سبيل الاستكراه إذعانا لحكم العصبية الجاهلية آنئذ، ولذلك لما قال أحد القرشيين لطالب بن أبى طالب: والله لقد عرفنا يا بنى هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد. تعلل طالب بهذه الكلمة فرجع مع من رجع إلى مكة من القرشيين لما بلغهم أن العير قد أفلتت.

وذكر لعمه العباس موقفه المشرف فى بيعة العقبة الثانية، واستيثاقه لأمر ابن أخيه فقد حرص على أن يحضر العقبة الثانية وهو على دين قومه مع النبى صلى الله عليه وسلم، وكان أول متكلم فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج لخزرجها وأوسها - إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عزة من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده فقالوا: قد سمعنا ما قلت؛ فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ القرآن، ودعا إلى الله، ورغب فى الإسلام، وقال: (أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم فوالذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، ورثناها كابرا عن كابر، فقام

أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال اليهود ـ حبالا ـ يعنى عهودا إنا قاطعوها ، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم) ثم قال : (أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم) فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، فقال لهم : أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى !!

وذكر لأبى البخترى أنه كان له ضلع كبير فى نقض الصحيفة الظالمة ، وهى التى كانت تعاهدت فيها قريش على مقاطعة بنى هاشم وحصرهم فى الشعب حتى يسلموا لهم محمدا ويتخلوا عنه ، وعلقوها فى جوف الكعبة وهى حسنة لا ينساها النبى قط ، ولم يكن أبو البخترى من بنى هاشم ولا تربطه بالنبى قرابة قريبة ، وإنما هو السمو الخلق والإنسانى يأبى إلا أن يقابل الجميل بخير منه .

وبلغ من سمو أدبه صلى الله عليه وسلم فى هذا أنه لما قدم وفد للنجاشى قام النبى صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك هذا ! ، فقال : (إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم) !!

ولما جئ بأخته من الرضاع ـ وهى الشيماء بنت السيدة حليمة السعدية ـ فى سبايا هوازن وتعرفت له ، وتعرف عليها بسط لها رداءه وقال لها : (إن أحببت أقمت عندى مكرمة محببة أو متعتك ورجعت إلى قومك) فاختارت أن ترجع إلى قومها ، فأعطاها وأرجعها معززة مكرمة .

وقال أبو الطفيل : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ـ وأنا غلام ـ إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت من هذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته !!

وعن عمرو بن السائب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً يوما فأقبل أبوه من الرضاع فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه .

وكان صلى الله عليه وسلم يبعث إلى ثويبة مولاة أبى لهب ـ وهى مرضعته قبل قدوم السيدة السعدية ـ بصلة وكسوة ، فلما ماتت سأل : (من بقى من قرابتها) ؟ كى يصلهم فقيل : لا أحد .

وفى سفر الهجرة لما خرج النبى هو والصديق من الغار وتوجها ومن معهما إلى المدينة مروا بخيمة أم معبد ، وكانت امرأة تخرج إلى الرجال وتتحدث معهم مع التصون

والعفة ، وكانت تحتبي بفناء قبتها ، ثم تسقي وتطعم من يمر بها من المسافرين ، فهي مثل مشرف للمرأة العربية ، ولم تكن قد أسلمت حينذاك ، ولم تكن تعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنها توسمت فيه البركة والخير ، ووصفته وصفاً ينم عن الفطنة ، وسعة العقل ، وبعد النظر فسألها النبي : هل عندها لحم أو لبن يشتريه منها ؟ فقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى. وأخبرتهم أن القوم مجدبون مرملون فنظر النبي فى جانب خيمتها فقال : (ماهذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم ،قال : فهل بها من لبن) ؟ قالت: هي أجهد من ذلك قال: (أتأذنين لى أن أحلبها)؟ قالت : إن كان بها حلب فاحلبها ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ، ومسح ضرعها وذكر اسم الله ودعا بإناء لها لحلب فيه ثجا حتى ملأه وأرسله إليها ، فسقاها وسقى أصحابه ، حتى إذا رووا شرب آخرهم وقال: (ساقى القوم آخرهم) ، ثم حلب فيه ثانيا عوداً على بدء ، فغادره عندها ثم ارتحل هو وأصحابه ، فلما جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً هزالا قال لها : من أين هذا اللبن يا أم معبد؟ ولا حلوبة فى البيت والشاة عازب . فقالت: لا والله إنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت قال : صفيه لى فوالله إنى لأراه صاحب قريش الذى نطلب . فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعبه ثجلة - ضخامة البطن - ولم تزر به صعلة - صغر الرأس - قسيم وسيم - فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل - بحة خفيفة - أكحل أزج أقرن ، فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثاثة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، أبهى الناس ، وأجمله من بعيد ، وأحسنه من قريب ، ربعه لا تنساه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قداً ، له رفقاء يحفون به . إن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره ، فقال زوجها : هذا والله صاحب قريش الذى تطلب . وتسوقها الأقدار هى وابنها إلى المدينة ، فتعرف ابنها على الصديق ، وقال لها : هذا هو الذى كان مع المبارك - يريد النبي - فسألت الصديق عنه ، فدلها عليه فأسلمت وحسن إسلامها ، وقد وهبت لرسول الله شيئا من أقط ومتاع الأعراب ، وعرف لها رسول الله هذه اليد فى الهجرة فكافأها عليها أحسن مكافأة وكساها ، وأعطاها عطاء من لا يخشى الفقر ، وأكرمها وابنها إكرام من يجازى الإحسان بالإحسان ويكافىء على الجميل بخير منه ، وهذا قليل من كثير من مكافآته صلى الله عليه وسلم على حسن الصنيع؟

محمد محمد أبو شهبة

الدّميرى وحياة الحيوان

للأستاذ محمّد جاد البنّا

— ٢ —

الزاعم أن « الجاحظ » هو الرائد الأول لتصنيف أول كتاب فى التاريخ الطبيعى لا يكاد يجانب الصواب ، ذلك أن نظرة إلى كتاب « الحيوان » كافية للتدليل على هذا الزعم ، وإن كان الكتاب قد اهتم بفقه اللغة والنحو ، ومعانى الأسماء أكثر من عنايته بالناحية الوصفية لأنواع الحيوان (١) .

ولقد كان على الشيخ كمال الدين الدميرى ـ وهو يجمع مواد مؤلفه حياة الحيوان من مصادره المتعددة ، والتى بلغت على ما ذكر فى مقدمة الكتاب تسعة وتسعين ديوانا من الشعر العربى ، وستين وخمسمائة من الكتب العامة ـ أن لا يغفل كتاب الجاحظ ، بل كثيراً ما يلمع إليه ، ويشيد به فى مواضع مختلفة من كتابه ، ولكن الدميرى لإحساسه باختلاف منهجه عن سواه لم يشر إلى أنه سيكمل مابدأه الجاحظ أو أنه سيستأنس بمنهجه عند تأليف كتابه ، ذلك أنه أدرك تميزه عن الجاحظ بالاعتماد على استقرائه المتتابع لما حوله ، ومشاهداته الفنية التى استفادها من أسفاره العديدة ، فضلا عن هضمه لكل معارف زمنه وسنتابع الآن منهجه كى ندرك الفرق بينه وبين منهج الجاحظ .

منهج الدميرى فى حياة الحيوان :

مع أن الدميرى حرص منذ البداية أن يدفع عن كتابه قضية الشمول والاستيعاب حتى يجبر ما يقع فيه من نقص أو خلل فقد رماه المحدثون بالتقصير ، وأخذوا عليه أنه أغفل ذكر بعض المواد ، وأوجز القول فى بعضها مثل مادة « البهثة » ومادة « القرعوش » فلم يزد على أن قال فى الأولى : إنها البقرة الوحشية ، وعن الثانية إنها القيراد الغليظ ١) .

كما أخذوا عليه النقص الواضح فى (البرمائيات)

---

(١) هكذا لاحظ جايكار ـ أحد أساتذة كلية بمباى بالهند ـ ويضيف الدكتور حسين فرج زين الدين : أن الكتاب يشتمل إلى جانب ما ذكره جايكار على تجارب خاصة أجراها الجاحظ على الحيوانات المختلفة وكان فى كل تجربة يسير على نهج خاص ـ دائرة معارف الشعب ـ مادة حياة الحيوان .

(١) الدكتور حسين فرج زين الدين فى ـ مقدمة طبعة التحرير لحياة الحيوان ـ .

التى لم يتناول منها سوى الضفدع والعلجوم: « ذكر الضفادع ، والشفدع : « الضفدع الصغير » (١) .

وأظنهم تغافلوا عن منهج الرجل الذى أوضحه فى سبب تأليفه للكتاب حينما قال فى المقدمة : « وبعد: فهذا كتاب لم يسألنى أحد تصنيفه، ولا كلفت القريحة تأليفه ، وإنما دعانى إلى ذلك أنه وقع فى بعض الدروس ، التى لا مخبأ فيها لعطر بعد عروس ذكر « مالك الحزين » و « الذيخ المنحوس » (٢) ، فحصل فى ذلك ما يشبه حرب البسوس ، ومزج الصحيح بالسقيم ، ولم يفرق بين نسر وظليم . إلى أن يقول : - والكلام فى المقدمة - « فقلت عند ذلك : فى بيته يؤتى الحكم ، ويا معطاه القوس باريها يتبين الحكم ، وفى الرهان سابق الخيل يرى ، وعند الصباح يحمد القوم السرى ، واستخرت الله تعالى، وهو الحكيم المنان ، فى وضع كتاب فى هذا الشأن ، وسميته « حياة الحيوان » .

الدميرى ، إذن ، لم يمكن من جهابذة هذا اللون، ولا هو ممن يدعون فهمه وحذقه كذلك فأسس هذا العلم « التاريخ الطبيعى » لم تكن قد اتضحت بعد، وكتاب الجاحظ، كما أوضحنا، لم يكن يعنى بالنواحى التى نحاها الشيخ الدميرى فى كتابه - وإن كان الكتابان قد اتفقا فى بعض النواحى مثل بث الأشعار ، ورواية الأخبار ، وقص الأحداث ، والنص على ما يعرفه العامة والخاصة من الكلمات والاستعمالات . . تناسى علماء الحيوان المحدثون النظر إلى معارف القرن الثامن الهجرى الذى عاش مع أيامه الدميرى وفيه ألف كتابه(١) أليس فى هذه الأسباب مفردة ومجتمعة ، ما يدفع عن الدميرى وصمة النقص وإثم الغفلة ، وعلى أية حال يكفى الدميرى أنه غير مسبوق - بغير كتاب الجاحظ - فى هذا الباب وأنه كان رائدا لها كما تردد

---

(١) الدكتور محمد رشاد الطوبى فى بحث له بتراث الإنسانية ٧٧٩ - ١٠ المجلد الثالث .

(٢) مالك الحزين : قال الجواهرى : إنه من طير الماء . قال الدميرى : وهذا الطائر لما كان يقعد عند المياه التى انقطعت عن الجرى وصارت مخزونة سمى مالكا ؛ ولما كان يحزن على ذهابها سمى بالحزين . وهو طائر طويل العنق والرجلين وهو ينشل الأسماك من الماء فيأكلها ، وهى طعامه وهو لا يحسن السباحة ٥٦٤ ح الحيوان ثان ط التحرير .

أما الذيخ بكسر الذال وأنثاه ذيخه والجمع ذيوخ وأذياخ وذيخه فهو ذكر الضباع الكثير الشعر نفس المصدر ص ٦٤٢ أول .

(١) ينظر عدد رمضان ١٣٨٦ هـ من - مجلة الأزهر - مقالنا عن الدميرى .

علماء الغرب على مائدته الحافلة كما سنبين فيما بعد . وبالرغم من أن الدميرى نفى عن نفسه قضية الشمول والعموم ـ كما أوضحنا ـ فقد استطاع أن يضمن كتابه كل المعلومات التى زخر بها عصره عن الحيوان ، ولكى يتحقق له ما أراد لجأ إلى الترتيب المعجمى فبدأ بالهمزة، مثلا، مستوعبا كل ما بدأ بهذا الحرف من الحيوانات والطيور والحشرات. وهكذا فعل مع بقية حروف المعجم الأبجدى وبرغم أنه وعدنا منذ البداية أنه عقد هذه الفصول كى يكشف اللثام عن بعض المعلومات التى تتعلق ببعض الحيوانات والطيور التى خفى على الدارسين أصلها وأنواعها وخصائصها، إلا أنه استطرد إلى أشياء كثيرة ، خرجت به عن منهجه الذى ارتضاه وحدده فى مقدمة كتابه ، ولعله أراد أن يتبل كتابه ـ كما هو شأن الموسوعات العربية العامة ـ بأشتات مختلفات من القصص والسير والأشعار والأمثال واللغويات والفوائد مما أعطى كتابه قيمة أدبية غير قيمته العلمية التى اشتهر بها فى الأوساط الأوربية والعربية على السواء .

وها نحن تاركون عرض المنهج العلمى ونقده للمتخصصين [1] من علماء الحيوان ملتفتين إلى ناحية طالما أغفلها الذين تعرضوا للكتاب بالدراسة ، تلك هى الناحية الأدبية التى ترقرقت بين فصول الكتاب ، وسنعرض صورا موجزة منها قبل أن ننتقل إلى قضية إحياء الكتاب وبعثه والتى من أجلها عقدنا هذا البحث منذ بدايته .

صور أدبية من حياة الحيوان .

أزاح الدميرى الستار عن مشاهد وصفية جديدة صورها الشعر العربى مما غفلت عنه بعض الكتب والدواوين الشائعة فى العربية. ذلك لأننا تعودنا أن نقرأ فيها شعر النسب والغزل وأهازيج الحنين إلى الديار والأطلال وعقود المديح للحكام والأمراء ، والتفاخر بالأنساب والأحساب وكريم الخصال وأغنيات الطبيعة ، ووصف ما بها من محاسن الخلق ، وآيات الجمال ، ودموع الرثاء ؛ كل هذا نقرؤه ونستظهر بعضه ونغفل عن بعض ولكننا قليلا ما كنا نقرأ فى هذه الدواوين الشائعة أمثال هذه المقطوعات بل والقصائد الكاملة التى ساقها الدميرى بين طيات كتابه فى وصف الحيوان وتسجيل شىء من عاداته وطبائعه ، فهو مثلا يمثل بهذا البيت عند ذكر البازى :

وكم طيب يفوح ولا كمسك
وكم طير يطير ولا كبازى

---

(١) فى ـ بحث تراث الإنسانية ـ الذى أشرنا إليه عرض مفصل لهذا المنهج للدكتور الطوفى فليرجع إليه من أراد .

وفيه إشارة واضحة إلى سرعة طيران هذا الطائر ، وهو يستدل ، على أن الحيوانات عديمة الفائدة تكون كثيرة النتاج ، بالبيت الذى يقول :

بغاث الطير أكثرها فراخا
وأم الصقر مقلاة نزور

وهو يدلل على تصور الشعراء لصوت البلبل وتغريده :

وبلبل الدوح تصيح على اا
أيكة والشحرور تمتام

ثم هو يدلل على أن الأشرار من الناس فى مرتبة الأفاعى والثعابين :

من استنام إلى الأشرار نام وفى
قميصه منهم صل وثعبان

ومن الطرائف الشعرية التى اتحفنا بها ما كتبه على قصر المأمون أعرابى جائع يعبر فيه عن حقده على الترف الذى يموج به هذا القصر بينما هو لا يجد ما يتبلغ به من القوت الضرورى :

ياقصر جمع فيك الشوم واللوم
متى يعشش فى أركانك البوم

يوم يعشش فيك البوم من فرحى
أكون أول من ينعيك مرغوم

فلما علم المأمون بقصته أرسل إليه وسأله عما فعل فقال : أو ما علم أمير المؤمنين بما قال الشاعر ؟ قال : وما قال الشاعر ؟ قال:

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ
نصيب ولاحظ تمنى زوالها

وما ذاك من بغض لها غير أنه
يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون : اعطه يا غلام ألف دينار ثم قال : هى لك فى كل سنة ما دام قصرنا عامرا بأهله .

ويقول الدكتور حسين فرج زين الدين : والدميرى إذ يستشهد بالشعر المتصل بالمادة إنما يؤيد العلم بالأدب ـ فى مادة (الضب) يقول : إن بينه (يعنى الضب) وبين (العقارب) مودة ولذلك يؤويها فى جحره لتلسع المتحرش به إذا أدخل يده ، ثم أورد قول الشاعر :

وأخدع من ضب إذا جاء حارس
أعد له عند الذنابة عقربا

فهذا البيت من الشعر يحمل ما يؤيد المعنى العلمى لنظرية التكافل أو التعايش .

أما القول بأنه يورد أبياتا من الشعر لا تمت إلى الحيوان بصلة ، مثل ما أورد من قول ابن دريد :

جمعت له كفى بالرمح طاعنا
كما جمع الخلفين فى الضب حالب

فإن الدميرى إنما أورده ليؤيد به معنى آخر لكلمة (الضب) وهى أنها تعنى أيضا أن يجمع الحالب خلفى الناقة فى كفيه عند حلبها . وهذا من المعلومات المطلوبة . ثم إن

الدميرى حين يتكلم عن الطاووس يورد وصف شكله الظاهرى أى « المورفولوجيا » فى أبيات عذبة حيث يقول الشاعر :

كأنه فى نقشه عروس
فى الريش منه ركبت فلوس
تشرق فى داراته شموس
فى الرأس منه شجر مفروس
كأنه بنفسج يميس
أو هو زهر حرم يبيس [1]

ومن الشعر اللاهى ما رواه عن أبى الحسن ابن سكرة الهاشمى فى مليح يعرف بابن برغوث :

بليت ، ولا أقول ، بمن لأنى
متى ما قلت من هو يعشقوه
حبيب قد نفى عنى رقادى
فإن أغمضت أيقظنى أبوه

ولم يكن اختيار الشيخ الدميرى قائما على الذوق الفقهى الذى اشتهر به كعالم من علماء الشافعية ، أو الذوق العلمى الذى ارتضاه منهجا لكتابه ، وإنما هو ذوق الشاعر الذى قال الشعر وإن يكن نظما والذى خاض بحوره زمناً مؤلفاً عنه ومغترفا منه [2] فهو القائل فى الشعر الأخلاقى أو التعليمى مضمنا من الكتاب الكريم :

بمكارم الأخلاق كن متخلقاً
ليفوح من ثنائك العطر الشذى
واصدق صديقك إن صدقت صداقة
وادفع عدوك « بالتى » « فاذا الذى »

قضية أحياء الكتاب :

تعرض كتاب حياة الحيوان فى نسخته الكبرى لعدة طبقات مختلفة من منتصف القرن التاسع عشر إلى اليوم وهذه الطبقات كلها تتفق فى الرداءة وعدم النظرة العلمية عند التحقيق وسنعطى من النصوص ما يؤيد ذلك بعد أن نبين طبعات الكتاب فى العالم العربى

طبعات الكتاب فى العالم العربى :

كانت أولى الطبعات فى العالم العربى هنا فى القاهرة سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٨م) فى المطبعة الأميرية ببولاق وعليها مقدمة بقلم مراجعها محمد العدوى . ثم أعيد طبعة سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧م) وقد راجع هذه الطبعة وصححها أحمد الصباغ ، وكلا النسختين مودعتان بدار الكتب والوثائق القومية ثم طبعت هذه النسخة الكبيرة بالمطبعة الميمونية فى سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨ م) وقد ذكر المؤرخ هوارث فى سنة ١٩٠٣ أن هذه النسخة الكبرى طبعت بالقاهرة ست مرات ، وتقول دائرة معارف الشعب ـ مادة حياة الحيوان ـ « ولا شك

---

(١) ص ١٦ ح الحيوان ط التحرير .
(٢) فى مقالاتنا السابقة ذكر لجلة مؤلفاته .

فى أنها طبعت بعد سنة ١٩٠٣ م أكثر من مرة» ـ كنت لا أجد فى دار الكتب المصرية ، ولا فى المكتبة الأزهرية ولا فى المكتبات العامة المبثوثة فى القاهرة وضواحيها غير الطبعات المذكورة التى طبعت خلال القرن التاسع عشر ، ونكون غير منصفين إذا وجهنا نقداً أو لوما إلى مراجعى هذه الطبعات ؛ فلقد كان القرن التاسع عشر معنى بحركة الإحياء العامة متمثلا هذا الإحياء فى الطبع والمراجعة ؛ أما القرن العشرون فطالب بما هو فوق هذا الإحياء ، من التحقيق العلمى ، والمراجعة الدقيقة ، والدراسات العميقة حول النصوص ، وسنرى فيما بعد أن الكتاب طبع خلال السنة الماضية (فى النصف الأخير من القرن العشرين) طبعة لا تكاد تختلف فى جملة الأغلاط مع طبعات القرن التاسع عشر .

الطبعات فى غير البلاد العربية

ورد فى معجم سركيس (طبعة ١٩٢٨م) أن كتاب حياة الحيوان طبع فى بلاد فارس سنة ١٢٨٥ هـ مع صور ورسوم جميع الحيوانات الواردة فيه وكذلك صور بعض الآدميين ممن ذكروا فى الكتاب . وترجم الكتاب كما روى حاجى خليفة فى كشف الظنون ـ إلى الإنجليزية بقلم الكولنيل جايكار أحد أساتذة كلية بمباى بالهند وطبع فى لندن ١٩٠٦ ـــ ١٩٠٨ م .

مختصراته

تعرض الكتاب فى نسخته الكبرى إلى جلة من العلماء والمتخصصين فى أنحاء العالم الذين هذبوه واختصروه من ذلك ـ كما ذكرت دائرة معارف الشعب مختصر تحت عنوان ـ حاوى الحسان من حياة الحيوان ـ أقول : ولعلها النسخة الصغرى إذ أن فهارس مكتبة باريس للمخطوطات العربية ـ على ما ورد فى الدائرة ، تذكر أن هذه النسخة الموجزة (١) من تأليف الدميرى دون أن تشير إلى أنه مختصر من المختصرات .

وثمة مختصر آخر عنوانه (عين الحياة) من عمل أحد تلامذة الدميرى وهو محمد بن أبى بكر عمر بن أبى بكر بن محمد المخزومى الدمامينى المالكى ، وقد وضعه بعد خمسة عشر عاما من موت الدميرى ٨٢٣ هـ . وقد ذكر أنه استمع إلى أصول الكتاب من فم مؤلفه . وقال : إنه مع الاحتفاظ بالتبويب الأصلى للمواد ، وبالعناوين الواردة تحت كل مادة ،

(١) قال الدميرى : إنه فرغ من مسودة النسخة الكبرى فى شهر رجب الفرد من سنة ٧٧٣هـ ومن النسخة المبيضة فى شعبان من سنة ٨٠٥ هـ . ومن المعروف أنه توجد نسختان من حياة الحيوان ، كبرى وصغرى ، والكبرى هى التى اهتم بها العالم العربى واعتمد عليها وتواتر طبعها عدة مرات .

فإنه قد حذف من الأصل كل البحوث الفلسفية، والدينية، والاقتباسات الشعرية، والقصص الأدبية، بحيث أصبح المختصر - على صورة موجزة - فى متناول الجميع.

وذكرت الدائرة أيضا - أن (وستنفلد) يقول: إنه يوجد مختصر للكتاب كما توجد منه مخطوطات فى برلين وباريس - وإن كان وستنفلد لم يذكر اسم كل مختصر واسم واضعه - وثمة عدة مختصرات يضيق الوقت عن ذكرها. فالذى يعنينا من ذلك كله أن الكتاب ظل منذ وضعه الدميرى إلى اليوم محل عناية من علماء الغرب والشرق الذين أدركوا قيمته العلمية، وفائدته الأدبية، فهذبوه واختصروه وحققوه، وأضافوا إليه أحيانا. ولكن مما يؤسف له أن هذه المختصرات والطبعات المهذبة المحققة لم تصل إلى خزائن مكتباتنا العربية، فقد قدر للكتاب أن تتفرق مختصراته ومخطوطاته بين مكتبات أوروبا بينما حرمت مصر مهد المؤلف من نسخة محققة حتى اليوم [1].

لاجدال أن الكتاب محتاج إلى التحرير مما به من خرافات. لست أقول بالحذف فذلك ما لا تقتضيه الأمانة العلمية، وإنما بالتنبيه فى الهوامش والمقدمات على ما يتفق مع روح التجريب العلمى وما لا يتفق - ولا ضير أبداً على الشيخ الدميرى من هذا التحقيق الذى يخضع لنظرة جديدة تفرضها معارف الزمن الذى نحياه. فلقد كان الرجل - يرحمه الله - مرآة صادقة لمعارف عصره وها قد انتهى عصره، فلماذا يفرض علينا؟ ثم لماذا نفرضه على غيرنا من الأجيال المقبلة؟ هذه واحدة أما الأخرى، فإن الكتاب محشو بالأحاديث الضعيفة، والموضوعة، ولو ذهبنا نستقصى ما جاء منها منقولا عن كتاب الدعوات وحده لأتينا ببحث حول الموضوع جديد. ولا جدل أن مثل هذه الأحاديث الموضوعة والأسمار الإسرائيلية محتاجة هى الأخرى إلى نظرة واعية فاحصة تنبه على الضعيف والسقيم والمعتل، حتى لا يختلط الطيب بغير الطيب، ويطغى الزبد على ما ينفع الناس.

محمد رجاء البنا

---

(١) من الإنصاف أن نذكر بالخير مختصراً من وضع لجنة فى وزارة الإرشاد القومى يسمى بالمختار من حياة الحيوان للدميرى، وحبذا لو أضيف إليه مختارات أخرى محققة ومهذبة.

ما يقال عن الإسلام

الإسلام والعرب

للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الإهوانى

ISLAM AND THE ARABS — BY ROM LANDAU

ظهور العرب على المسرح العالمى فى هذا القرن حدث من أخطر الأحداث التاريخية، غير ميزان القوى بين الشرق والغرب. ويتميز العرب فى الوقت الحاضر بثلاث صفات أساسية : التحدث باللغة العربية ، والتدين بالإسلام ، والاعتماد على تراث حضارى مشترك. والعرب بهذا التعريف ينتشرون فى دول تمتد من المغرب على المحيط الأطلسى إلى الكويت على الخليج الفارسى ، وتضم هذه الدول ما يبلغ المائة مليونا من السكان ؛ يعيشون على ثروات هائلة من زراعة ومعادن وبترول .

وكان العرب المسلمون فريسة للاستعمار الأجنبى منذ القرن التاسع عشر ، فوقعت معظم بلادهم تحت براثن الاستعمار الإنجليزى والفرنسى. وكانت هذه الدول جميعا قبل ذلك، ومنذ القرن السادس عشر واقعة تحت حكم الأتراك العثمانيين ، بعد انتصار السلطان سليم على الغورى فى مصر ، ونقل الخلافة الإسلامية إلى اسطنبول . وحملت تركيا راية الإسلام ، ولكنها حكمت العرب حكما استعماريا ، حتى لم يكن يسمح للعرب أن يتولوا مناصب الحكم أو الجيش ، فقصت أظافرهم ولم تبدر منهم بادرة للخروج على حكم الأتراك وضربت الدولة العثمانية على العرب حجابا كثيفا يمنعهم من الاتصال بالتطور الحاصل فى أوربا فى أثناء القرون من السادس عشر إلى التاسع عشر، وهو تطور خطير يعد انقلابا بل ثورة فى العلم والصناعة والثقافة . وفى الوقت نفسه اكتفى العرب بترديد ما كان معروفا عندهم من علوم وفنون ، لم يحدثوا فيها أى تقدم ، على العكس سارت فى طريق التأخر والجمود .

ثم إن تركيا نفسها أدت دورها التاريخى، ودبت الشيخوخة فى أوصالها ، حتى أصبح الغرب يسميها بالرجل المريض . وتوجهت أنظار الغربيين إليها تريد الانقضاض عليها ، وتقسيم التركة فيما بينهم ، وبدأ ذلك

بغزو نابليون لمصر فى ختام القرن الثامن عشر .

ولما كان الاتجاه العالمى المعاصر نحو التحرر والاستقلال ، فلا جرم تسعى الدول العربية إلى تحقيق هذا الهدف ، وبذلت فى سبيل ذلك دماء ، وقامت ثورات ، وانتهى الصراع الدامى إلى انتصار الثورة العربية ، ولا تزال المعركة دائرة بين المستعمرين وبين العرب حتى الآن .

ومن الطبيعى أن يسعى المفكرون فى الغرب إلى بحث هذه الظاهرة التاريخية وتحليل العناصر التى تتكون منها قوة العرب ، ومن جملتها بل على رأسها الدين الإسلامى ، حقاً كان العرب موجودين فى الجاهلية قبل الإسلام ، ولكنهم لم يكونوا شيئا مذكورا ، حتى نزل الإسلام فى قلب الجزيرة العربية ، ومنها انتشر إلى أرجاء العالم بسرعة سريعة ، فكان الإسلام هو الدفعة الحيوية التى نفخت الحياة فى العرب فلا غنى للباحث عن حقيقة وضع الدول العربية من الخليج إلى المحيط فى الوقت الراهن من أن يرجع إلى تاريخ هذه الدول منذ ظهور الإسلام .

وهذا ما فعله الأستاذ روم لانداو فى كتابه عن الإسلام والعرب ، الصادر سنة ١٩٥٩ ، والذى يقع فى زهاء ثلثمائة صفحة ، ومن أسف أننى لم أطلع على هذا الكتاب إلا الآن بعد صدوره بسبع سنوات . يقول فى صفحة ٢٣٧ وبحق : « إن مشكلات العالم العربى الحديث إنما يمكن فهمها فى ضوء ماضيها التاريخى ، وصلتها بتعقيدات عالمنا الحديث ، ولو أن هذه الحقيقة بديهية تنطبق فى جميع الأحوال ، غير أن هذه القاعدة تحتاج إلى تأكيد عند ما تنظر فى أمر العرب الذين ارتبط مصيرهم بمشكلتين عظيمتين فى عصرنا الحاضر ، وهما : انتقال الشعوب التى كانت ذات يوم مستعمرة إلى السيادة الوطنية ، ثم الصراع بين إيديولوجية الشيوعية والغرب ، ولا يمكن التماس حل فى الدول العربية لأى مشكلة من هاتين المشكلتين دون الرجوع إلى ماضى العرب نفسه » .

وهذا الكتاب لم يؤلفه صاحبه أساساً للقراء العرب بل لبنى جنسه ، أراد أن يبصرهم بالمشكلة الراهنة فى الشرق الأوسط ، فاضطر إلى عرض تاريخى سريع للعرب والإسلام منذ ظهوره حتى اليوم ، فتحدث عن العرب قبل نبوة محمد وعن النبى والقرآن والإسلام ، وعن عصر الخلافة أى الأمويين والعباسيين ومن الخلافة إلى نهاية العثمانيين ، ثم أفرد فصلا خاصا للحروب الصليبية ، وفصلين عن شمال أفريقيا والأندلس ، وتحدث فى خمسة فصول عن الشريعة والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وأنهى الكتاب بالعالم العربى كما هو عليه فى الوقت الحاضر .

حقاً إن كتاباً فى هذا الحجم لا يمكن أن يستوفى البحث فى هذه الأحداث التى تقلبت على مسرح الزمن أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولكن براعة المؤلف ذللت العرض ، مما جعله يستخلص الزبدة واللباب، ويقع على الأصول دون الفروع ، فهو بجرة قلم يذهب إلى أن الإسلام دين بساطة وتوحيد مطلق ، وأن الصلاة استسلام لإرادة الله ، وأن الحج قوة موحدة للسلمين المتناثرين على سطح الأرض من الصين إلى أمريكا ، وأن الزكاة ضريبة على الأغنياء تعطى للفقراء ولا يمكن أن تتسع الصفحات إلا لذكر بضعة سطور عن كل موضوع ، وكان من الطبيعى أن تعقد موازنة بين الإسلام والمسيحية فى أكثر من موضع ، نظراً لأن الدين الجديد حين ظهر فى القرن السابع الميلادى انتشر على حساب دول مسيحية كثيرة ، حتى أصبح العالم فى الوقت الحاضر موزعا بين هذين الدينين فيما عدا البوذية والكونفوشيوسية المنتشرتان فى الهند والصين واليابان ، وقد انتصر الإسلام حينا من الدهر ، واستمر بضعة قرون حتى الحروب الصليبية ، عند ما أراد المسيحيون استعادة الأراضى المقدسة ونزلوا بالفعل فى فلسطين ، وظل النزاع طوال قرنين انتهى إلى انحسار هذه الموجة الصليبية التى وضع لها صلاح الدين الأيوبى حدا .

كان المؤلف منصفاً فى حكمه على أن انتشار الإسلام لم يكن لغاية اقتصادية ولا بغية الاستعمار ، بل العمل على نشر الدين الجديد وما جاء به من تعاليم تقدمية على رأسها تحرير الفرد من العبودية ، سواء عبودية الأصنام والوثنية ، أم عبودية لغيره من البشر الذين كانوا يسترقونه ، ويبيعونه فى الأسواق كما تباع الأغنام .

لجوهر الإسلام أنه لا عبودية لأحد من الناس لأن الله وحده هو المستحق للعبادة .

ترك الإسلام للمواطنين الحرية الدينية ، ما داموا من أهل الكتاب ، بشرط أن يدفعوا الجزية ، التى كانت تقل كثيراً عما كانوا يدفعونه حين كانوا يخضعون للدولة البيزنطية .

ثم ترك لهم حرية الاختيار بأن يدخلوا ، إن شاءوا ، فى الإسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ولم يلبث أن دخل الرعايا المسيحيون بمحض إرادتهم فى الإسلام هربا من دفع الجزية ، وحتى يكونوا على قدم المساواة فى المواطنة مع رفاقهم ، فضلا عن اقتناعهم ببساطة تعاليم الدين الخالية من تعقيدات العقيدة المسيحية فى التثليث والأقانيم وغير ذلك .

حرص المؤلف أن يعرض وجهة نظر المسلمين أنفسهم ، دون إبداء رأى فيها ، وهل

يوافق عليها أم لا يوافق، كما أنه عرض وجهة نظر المسيحيين، حتى يكون موضوعيا .

هناك بالطبع نقط التقاء بينهما تتعلق بالإيمان بالله ورسله والخلق والبعث فى اليوم الآخر . ولكن ثمة نقط كثيرة للافتراق، على رأسها المفهوم الخاص بالله وصفاته . ذلك أن وحدانية الله أساس الإسلام ، وتتخذ هذه الوحدانية فى المسيحية صورة التثليث، الآب والابن والروح القدس . والإسلام وحى من الله فى قرآنه الذى هو كلام الله، والمسيحية وحى من الله عن طريق الابن عيسى المسيح .

المسيحية تقوم على محبة الله .

والإسلام يستند إلى الإيمان بقدرة الله .

ومن ثم لا يشعر المسيحى بأن الخضوع لله ضرورى للنجاة والخلاص، وإنما المطلوب منه اعتقاد بالله ومحبته ليبلغ درجة الاتصال به.

على هذا النحو من الموازنات يمضى المؤلف فى تقرير سائر وجوه الخلاف بين الملتين الكبيرتين، بهذه النظرة الصائبة النافذة، مع روح الإنصاف .

كل هذه المقدمات التاريخية تمهيد لتفسير موقف الدول العربية فى الوقت الحاضر، كيف ظفرت بالاستقلال ، وانتزعت هذا الاستقلال من براثن الاستعمار على الرغم مما كانوا عليه من تخلف شديد . وهذا التحرر دليل كما يقول المؤلف على وجود حيوية خارقة وصلابة عجيبة ، كما أنه دليل على استمرار بقائهم فى المستقبل .

فمن أين جاءت هذه الحيوية والصلابة؟ لا شك من العنصر الأساسى الذى منه يتكون العرب وهو الإسلام فى بساطته ودعوته إلى الحق والتقوى وطهارة النفس . كان ذلك زمان قوة المسلمين فى صدر الإسلام، وسيكون ذلك اليوم بعد التجديد فى الدين ، والدعوة إلى الاجتهاد، والملاءمة بين تعاليم الإسلام والأفكار العلمية والفلسفية الجارية ، وهما دعوة بدأت منذ القرن التاسع مع جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده. ومحمد بن عبد الوهاب، والسنوسى .

حقا هذه النهضة ليست على حد سواء فى كل الدول العربية، إذ من الطبيعى أن تتأثر بالبيئة الخاصة فى كل دولة وبظروفها، فليست الجزائر مثلا كالعراق، ولكن الهدف واحد هو السير بعد الاستقلال فى طريق التقدم الاجتماعى ، واضعين أيديهم معا ، فى منظمة واحدة نبتت بعد الحرب العالمية الثانية، هى جامعة الدول العربية ، التى تنسق بينهم ثقافيا واجتماعيا وسياسيا .

ولم تكد تلوح فى الأفق منذ القرن التاسع عشر نزعة العرب التقدمية والتحررية ، حتى فكر الغرب ، وبالذات فرنسا وانجلترا اللتين اقتسمتا الدول العربية فيما بينهما ،

فى إنشاء محور ارتكاز للاستعمار يكون شوكة فى ظهر العرب وموئلا يعتمد عليه ، فكانت تلك الشوكة إسرائيل ، التى دبر أمرها فى آخر القرن التاسع عشر ، وأخذت وعدا بوجودها فى أثناء الحرب العالمية الأولى ممثلا فى وعد (بلفور) المشهور ، واستقرت بالفعل دولة اعترفت بها الدول الكبرى ومنها روسيا السوفيتية سنة ١٩٤٨ .

إن إنشاء دولة إسرائيل فى قلب الوطن العربى صرفهم عن التفـــرغ للمشكلة الثانية التى ينبغى عليهم حلها ، وهى التقدم الاجتماعى وقطع مسافة التخلف الشاسعة بينهم وبين التقدم العالمى الهائل فى العـــلوم والمعارف والصناعات . فهم فى شغـــل شاغل بصد عدوانها ودفع أطماعها فى التوسع ، والدول الاستعمارية تعمل من ورائها وقد انكشف أمر هذه المساعدات العدوانية سنة ١٩٥٦ .

كان أمام العرب مشكلتان : إحداهما سياسية هى مكافحة الاستعمار والتخلص من آثار التبعية ، والأخرى اجتماعية وهى العمل على الرقى وتغيير المجتمع . واختلف المفكرون والمصلحون والساسة أيهما تسبق الأخرى المشكلة السياسية أم الاجتماعية .

وذهب البعض إلى القول بأن التقـدم الاجـــتماعى من تعليم وتغيير فى النظم البالية وتدريب على الصناعات كل ذلك ينتهى بالتحرر السياسى ، لأن التقـدم الاجتماعى يكسب الأمة قوة تستطيع بها أن تقف فى وجه الاستعمار . غير أنه اتضح من التجربة التاريخية أن وجـود الاستعمار نفسه عقبة كئود فى سبيل التقدم المنشود . ولذلك انتهى أمر المفكرين إلى أن الأولى حل المشكلة السياسية أولا . وقد اتبعت مصر والجزائر والعراق وسوريا ، هذا الأسلوب الثانى ، وتخلصت أولا من سيطرة الاستعمار لتتفرغ بعد ذلك إلى إصلاح أحوالها الداخلية وإحـداث التغيير الاجتماعى المنشود . ونجحت بالفعل إلى حد كبير فى صنع هذا التغيير ، تعبيراً عن الإرادة الحرة للدولة ، حين تحررت بالفعل من تدخل الأجنبى وسلطانه . ولكن المؤلف يرى أن العكس هو الصحيح ويلوم فى ص (٢٣٩) الدول العربية إلقاءها كل الحل نحو عدوها الأكبر وهو إسرائيل وعدم التفرغ الكافى لحل مشكلة القضاء على التقاليد البالية والأخذ بالتقـدم العلمى والصناعى الحاضر ، أو على التخلف بين أهل الريف والمدن ، أو مشكلة الهوة السحيقة بين جماعة كبار الملاك وبين جمهور العمال والفلاحين وما يقع عليهم من فقر وظلم اجتماعى .

وقد غاب عن ذهن المؤلف أن وجود إسرائيل نفسه ، هذا الخطر الداهم المستمر ، هو الذى يعوق إلى حد كبير التفرغ لحل

هذه المشكلات ، والعرب لا يمكن أن يغيب عن بالهم عدوان تلك الدولة على (سينا) طمعا فى الاستيلاء عليها لولا تكاتف العرب جميعا فى رد ذلك العدوان .

وقف المؤلف فى كتابه إلى سنة ١٩٥٩ ، وقد تمخض التاريخ عن أحداث خطيرة منذ ذلك الوقت حتى الآن ، لم تكن فى حسبان صاحب الكتاب ، فهو يقول فى الخاتمة (ص ٢٧٦) : إنه على الرغم من أن خطوات التقدم العربى الحاضر أسرع بكثير مما سبق ، فلا مناص من مرور أجيال متعددة قبل أن يحقق الشرق الأدنى التوازن المطلوب . بل إنها لمعجزة أن العرب بعد مئات السنين من الحكم الأجنبى ومن الاضطهاد لا يزالون باقين أصلا كحقيقة قومية وثقافية . إن هذا البقاء وحده يوحى بأنهم يملكون صلابة وحيوية فريدتين .

إن هذه المعجزة التى يتحدث عنها المؤلف من استمرار العرب فى البقاء كأمة لها قوميتها هى هى المعجزة التى ستيسر لهم النصر والتقدم واستعادة ما كان لهم من دور تاريخى فى الحضارة العالمية . وسيكون ذلك بأسرع مما يتصور بعد أن انطلق المارد العربى واستعاد وعيه بنفسه وإيمانه بذاته ؟

أحمد فؤاد الأهوانى

« العرب »

هم قومى ، وهم أصلى وهم نسبى إذا أنسب

وهم مجدى ، وهم شرفى وهم حصنى إذا أرهب

وهم رمحى ، وهم ترسى وهم سيفى إذا أغضب

أنباء وآراء

دأب السيد أمين هويدى وزير الدولة لشئون الأزهر على عقد اجتماعات مع كبار المسئولين فى الأزهر للنهوض برسالته .

وقد تقرر فى أحدهذه الاجتماعات الانتقال إلى مراكز العمل لمعرفة مشاكل المعاهد الدينية على الطبيعة ، وضم عدد من المعاهد الحرة إلى الأزهر، واستكمال وتجهيز المعاهد بما ينقصها من أدوات فى حدود الميزانيات المقررة لهذا الغرض وقدرها ثمانية ومائةألف جنيه .

كذلك دراسة موضوع لامركزية الإشراف على المعاهد والمدارس الأزهرية وبحثه تمهيدا للنظر فى تقسيم الجمهورية إلى عدد من المناطق حسب كثافة الخدمات بها ، وتناول الاجتماع بحث مدة الدراسة والمناهج الدراسية فى المعاهد الأزهرية .

كما تقرر قصر القبول فى العام الجامعى القادم فى جميع كليات جامعة الأزهر على الطلاب الحاصلين على الثانوية الأزهرية بقسميها : العلمى والأدبى ، وإلغاء معهد الإعداد والتوجيه بعد تخريج هذه الدفعة سنة ١٩٦٦ — ١٩٦٧ ، وضرورة إجراء امتحان حقيقى للحاصلين على الشهادة الثانوية العامة بقسميها بدلا من الامتحانات الشكلية التى كانت تتم تحقيقا للتعادل بينهم وبين الحاصلين على الشهادة الثانوية الأزهرية .

وتطبيقا لنصوص قانون تطوير الأزهر تقرر: عدم إنشاء شعب جديدة، أو أقسام جديدة تتبع الجامعة إلا بعد الدرس وتوفير الوسائل .

كذلك تقرر دراسة تصحيح أوضاع معهد الدراسات العربية والإسلامية الذى أنشىء فى الأزهر ، وتحويل الطلاب فى شعبتى الصيدلة وطب الأسنان إلى كلية طب جامعة الأزهر ، واعتماد ثلاثين ألف جنيه لتجهيزات كلية الطب ، وبالنسبة لمشاكل هيئات التدريس تقرر :

النظر فى مشكلة الترقيات بوضع الحلول العاجلة التى تؤدى إلى إنصاف العلماء وغيرهم وإنجاز مبانى الجامعة .

وأصدر سيادته التوجيهات التالية فى شأن سياسة الأزهر :

● المشاكل الموجودة هى من طبيعة خطة الإنشاء لكن يجب عدم زيادتها بعدم المواجهة الفورية لها ولا ينبغى - عند المقارنة - القياس بمشاكل الآخرين .

● لابد من مداولة اجتماعات عمداء الكليات فيما بينهم لإيجاد وحدة فكرية بينهم .

● يجب الإعداد لمواجهة العام الدراسى القادم من الآن على أن تكون كل الكليات مستعدة فى موعد أقصاه شهر مارس .

● إعلان سياسة القبول فى الجامعة ومناهجها وشروطها فى كتيب خاص يوزع على الطلاب وعلى المتقدمين ، ويتضمن جميع نظم الدراسة وقواعد القبول .

● ربط سياسة التعليم بالأزهر . وقبول الطلاب بالسياسة العامه للدولة .

● توحيد التنسيق بين مكتب التنسيق فى جامعة الأزهر ، ومكتب تنسيق الجامعات الأخرى اعتبارا من العام الدراسى القادم .

وأعد سيادة الوزير تقريراً هاما عن خطوات المرحلة الجديدة لتطوير جامعة الأزهر ومعاهده .

وكان من نتيجة جهوده المثمرة أن :

● وافقت وزارة التعليم العالى على مبدأ استخدام هيئات التدريس فى الجامعات بتخصصاتهم المختلفة وتحريكهم كوحدة واحدة لخدمة كل الجامعات بما فيها جامعة الأزهر ، وتخصيص عدد من الدرجات بميزانية الأزهر الجديدة لهيئات التدريس بالكليات الأزهرية .

● تخصيص ٦٠٠ ألف جنيه لاستكمال حاجة كليات الجامعة من المعامل .

● وافقت وزارة التربية على اعتبار طلاب المدارس الابتدائية الأزهرية ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم وعددها نحو ١٠ آلاف مكتب فى قرى الريف طلابا ملزمين كتلاميذ مدارس الوزارة تماماً . كما وافقت على ضم بعض المدارس الابتدائية الموجودة فى القرى إلى الأزهر لتوسيع قاعدته فى الريف .

● تخريج أكبر عدد من الحاصلين على الشهادة الثانوية الأزهرية بحيث يكون القبول فى جامعة الأزهر مقصوراً عليهم مستقبلا .

وقد اشترك فى المؤتمر الذى أقر خطوات التطوير مع سيادة الوزير فضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون والسادة : كمال رفعت أمين الدعوة والفكر الاشتراكى ، والسيد يوسف وزير التربية ، والدكتور النبوى المهندس وزير الصحة ، والدكتور عزت سلامة وزير التعليم العالى ، والدكتور لبيب شقير وزير التخطيط ومحمد فايق وزير الإرشاد القومى ، وحسن صبرى الخولى الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية ، وكبار المسئولين فى الأزهر .

وأعلن السيد أمين هويدى أنه كان لابد - حرصاً على مستقبل الأزهر - من مراجعة خطة التعليم فيه وتقييم تجربة التطوير التى مر عليها نحو ست سنوات منذ صدور قانون التطوير عام ١٩٦١ لكى يمكن وضع أفضل النظم لاستمرار تقدم الأزهر ، وكان لابد من مواجهة صريحة للمشاكل وبخاصة مشكلات المعاهد الأزهرية التى تعتبر (المنبع) الحقيقى الذى يغذى الجامعة .

وقال : ولذلك تقرر أن نمر بمرحلتين :

الأولى : محاولة العلاج .

والثانيه : تقديم الإمكانيات اللازمة للمستقبل ، وانطلاقا بهذه السياسة تقرر :

حل المشكلات الخاصة بالإسكان والمعامل والتجهيزات، ودرجات هيئات التدريس.

وأهم ما اتخذ من قرارات فى هذا الشأن:

● تحقيق التوازن بين الأعداد المقبولة للعام الجامعى الجديد، والإمكانيات المتاحة حالياً. وتقرر قبول ٢٢٢٠ طالباً مستجداً من حملة الثانوية الأزهرية والناجحين فى معهد الإعداد والتوجيه مع تخصيص نسبة معينة للطلاب الوافدين.

● وقف أى إنشاءات جديدة فى الأقسام إلى أن تستكمل كل منها كافة التجهيزات والتحضيرات اللازمة.

● الانتهاء هذا العام من المبانى التى شرع فيها وفى مقدمتها مبنى كلية البنات بمدينة نصر لنقلهن من المعادى إليه، وكذلك مبنى كلية الهندسة والورش التابعة لها. والجناح الأخير لكلية الطب بمدينة نصر، واستكمال المبانى الأخرى.

● تسليم مستشفى الدراسة الذى قرر رئيس الجمهورية تخصيصه لكلية الطب بعد تجهيزه.

● نقل كلية المعاملات والإدارة إلى مقرها الجديد، وشغل مقرها الحالى فى الدراسة بإدارة جامعة الأزهر.

● دعم مجالس كليات الأزهر بإضافة عدد من ذوى الخبرة، وإصلاح النظام والجهاز الإدارى ومسايرة التطور العلمى فى الجامعة والمعاهد للحياة المعاصرة لتقدم جامعة الأزهر نوعاً جديداً من الخريجين غير منعزل عن الحياة

● الإبقاء على الصفات المميزة للأزهر فى الدراسات الدينية والعربية وتذويب الفوارق بين خريجى معاهده وجامعته وبين خريجى المعاهد والجامعات الأخرى.

● وفى المعاهد الأزهرية طلب دراسة تطوير السلم التعليمى تطويراً شاملا ابتداء من العام الدراسى القادم وخفض سنوات الدراسة لمدة سنة فى كل من المرحلتين الإعدادية والثانوية وتطوير المناهج والكتب مع الاهتمام بالمواد الدينية والعربية والثقافية بما يكفل مطالب الأزهر فى المستوى المعقول غير المرهق - من التعليم الدينى والثقافى على أن يتم ذلك كله قبل بدء العام الدراسى.

كما تقرر الاهتمام بالتدريب العملى للطلبة وإدخال التدريب المهنى بالمعاهد الأزهرية لمواجهة احتياجات الجمهورية العربية والبلاد الإسلامية فى الخارج من الفنيين.

● وفى المسائل العامة: تقرر منح الأزهر كل الإمكانيات ليظل أكبر جامعة إسلامية وتمكينه من تخريج علماء وخبراء فى الثقافتين: الدينية والدنيوية.

وتقرر تنفيذ خطة التطوير الكامل فى مدة لا تتجاوز خمسة عشر شهراً، وإعداد لجان مسئولة لتهيئة الإمكانيات المطلوبة على اختلاف أنواعها.

وسوف يفتتح سيادة الوزير الدورة التدريبية لمبعوثى رجال الأزهر إلى البلدان الإسلامية والعربية يوم الثالث من شهر مايو المقبل.

على الخطيب

فهرس أبجدى عام

للمجلد الثامن والثلاثين من مجلة الأزهر

حرف (ا)

(ب)

(ت)

(ق)

(ك)

(ل)

«م»

فات المجلة أن تضع رقم (٤) لمقال : من أثر الرومانتيكية ص ٩٦٦ ووضع بدلها رقم (٦) خطأ فنلفت إليه النظر .

« إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » .

(If a sin be committed on earth, he who hath witnessed it and condemned it, will he be absolved of its sin ; and he who hath not witnessed it and yet approved of it, will he be made a party thereto).

• • •

« لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم يلعنكم كما لعن بنى إسرائيل » .

(Let ye enjoin the good and forbid the evil, prevent the iniquity of the unjust and force him back to the truth, lest hatred of one another be engendered in your hearts and ye be accursed as were the sons of Israel).

the least misrepresentation or ambiguity they elucidate to him and speak out th his face even the defects he has of his qualities. Sincerity and courage rather than hypocrisy and fear prevail and shape their life-long course. On the contrary, if they are bad intimates of corrupt consciences, never will they care about the good of the community that has been afflicted with them, or mind the close of their indiscretion. Along of such malicious intents as they are always bent on, they hide from him that which is right instead of declaring it to him, screen his shortcomings instead of criticising them, make evil seem fair in his eyes, and even turn him sometimes into an instrument for their illegal enterprises. So, his response to their evil plotting will result in nothing but his deviation from the right path and his bringing disaster on men first then on himself in the last. For evil shall recoil on those that plot evil; thus Allah has said in His Wise Book, and to this history, literature and folklore bear witness.

However, we should not be misled by the superficial impression on shallow minds of the Prophet's saying that it is only those whom Allah protects that are preserved. Experience has been always teaching us that Allah helps those who do their duty, particularly those who do it will. As regards the everprevalent belief in the immaculateness of prophets, we should never forget that strengthened by Allah as they were, they also had their faults for which He blamed them and conditions in which He threatened them hard, even Muhammad himself, the last prophet and dearest to Him ! To trace this point further needs another separte essay. For the present we claim that it is both short-sightedness and thinking tremendously of Allah to lay blame on Him for one's failure without having done one's duty

A ruler, or in fact any guardian of any sort, should then be prudent and ingenious enough to be able to discriminate between the good and the bad, to know when to disclose and when to hide and how to make his decision on sound lines. He should cause truth to triumph, bring truthful men near unto him and exterminate who call for falsity. On the other hand, his advisers should be intent upon faithfulness to truth, particularly when they are men of high standing whose opinion is sought to be followed. In this way they will be almost as inapt to be affected by instigation to wickedness as the prophets, our beau ideal of mankind.

Every guardian and his intimates should then receive the admonition in this Hadith and mend his ways so that intrigue and insurrection are eradicated and the banners of salvation are raised high.

From the Tradition of the prophet :

Two Sorts of Intimates

BY
SOLIMAN BARAKAT

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصمه الله .

" No Prophet Allah has ever sent forth or man He has ever made master but has had two sorts of intimates: the one enjoining on him that which is right and urging him on it, and the other enjoining on him that which is evil and urging him on it. It is only those whom Allah has protected that are preserved."

In this Hadith the Prophet, may Allah's blessing and peace be on him, handles a social phenomenon of great weight in the lives of communities, and of undeniable effect on the construction, order and security of societies. Hardly is a man entrusted with a momentous affair when gathering round him becomes the urgent demand and fervent desire of those who pursue boast and empty vaunt, those who look forward to donation, and those who seek the shelter of his broad shoulders, even though from his own authority. Then, it is inevitable that he brings some of these men near unto him; in them he reposes his trust and to them he discloses his heart. Having marked them with such distinction, it spontaneously follows that he prefers them above others in a multitude of other affairs. In short, they are his intimate retinue; and of a retinue whom he asks for help and with whom he consults what to do in face of currents of events and opinions, neither a prophet nor a commander has been deprived.

After all, over the conduct of these intimates dominate the natural inclinations and whims of flesh and blood. So these men may make good or wicked suite. If they are good and righteous, it will be to their pleasure that he follows the path of right and does all in his power for those over whose lives he commands. To achieve this end, they enlighten him on both that which is sound and that which is defective or unhealthy, and without

impressive example ot equality among muslims; he was the best ruler who did not take care of grandeur; he considered ruling people as an assignment or a mandate. He looked after the muslims and visited their houses so as to see their living conditions. He said : Any man who happens to be a ruler on the muslims and does not do justice, God will send him to hell.

Islam, however, calls for justice and equality, and considers that governing has its duties which must be preserved, and that the Governed have their rights which they must obtain.

This was emphasized by the Declaration of Man's Rights issued on December 10th, 1948, and by putting the U.N. Charter on June 26th., 1945.

When Abu Bakr - the First Caliph in Islam - was selected for that post, he said : O, Muslims, I have been chosen as your ruler, and I am not the best amongst you. If I do good, then help me; if not, correct my mistakes.

Omar ben El-Khattab advised his governers to be merciful and kind towards the citizens and to avoid toughness and violence; he said : I select you as governers only to do justice and equality and to observe prayers, do not be little the muslims and preserve their rights.

It is necessary, therefore, to preserve human rights and dignity. Violence and suppression are contrary to moral and ethical values and to human rights, and he who practises these methods, violates God's orders and wrongs people.

When Islam came into being, it put an end to many of the crimes that prevailed during the pre-Islamic era such as infanticide, eating the dead animals and enslavement. These crimes prevailed in ancient Greece and Rome. Plato, in his Idea, allowed the annihilation of sick people who could not be cured, he allowed the slaying of the weak; Spartans killed their weak children with cold blood.

With the appearance of Islam, all these crimes were attacked and eliminated. This religion called for justice, freedom and equlity - before the declaration of Human Rights signed in Lake Success. And if this declaration called for the right of Man in life, freedom, security and well-treatment, Islam was - and still is - the real origin for all these human principles.

do so, had you did what he asked you to, I would reward you later on . . . .".

Thus, we can see, that man by doing good to others, he obeys God's orders, and that his favour and help to others are made for God's sake and to obtain his mercy and blessing. Islam, moreover, calls on Muslims not to confine their good actions to their fellow Muslims, it also urges them to help others.

It is also been said that Prophet Muhammad had said that all creatures are God's family and He loves most those who benefit this family.

Once a controversy occured between Abu-Dhurr El-Ghaffari and a negro in the presence of Prophet Mohammad, the first was enraged and said : you negro ! Muhammad frowned and was very angry, he said : this is a back lash, a white man is not different from a black man except in his piety and good action. Abu-Dhurr put his cheek on the ground and asked the negro to tread on it.

This respectful treatment, as a matter of fact, which was prevalent centuries ago in the Islamic socíéty, differs greatly from racial discrimination towards the negroes in America and elsewhere practised by the white people who proclaimed Man's rights and commemorafe this declaration of Man's rights annually.

However, if the U. N. Security Council is doing its utmost to preserve peace and stability all over the world, although it succeeded in solving a great deal of International disputes and easing world tensions, but failed to do anything positive in the case of the Vietnam problem and stop this bitter war, Islam has found the best way to settle disputes, in this sense the Glorious Qur'an says : "if two groups of the faithful clashed with one another, try to conciliate them; if one group attacked the other, then fight the attacking group till it accepts God's judgement; if it does so, then make conciliation in accordance with justice, and be fair, for God loveth those who are fair and just. The faithful are brothers, try to conciliate them unto each other".

This, every appeal for putting an end to the Vietnamese war, and mobilizing world opinion against the inconvenieces of this war, and giving the Vietnamese people the right for self-determination - fits in with the teachings of Islam. For this religion is the religion of peace.

Hundreds of years before, the U. N. had called for man's rights ; Prophet Mohammad set the most

Islam : the Origin of Human rights

By Dr. : Gamal El-Din El-Ramady

The United Nations holds an annual celebration in commemoration of the Human Rights Day. This dates back to the day when a declaration of man's rights was issued which stipulated that all human beings are equal regardless of race, colour or religion. This declaration states the right of every man to culture and education.

All nations in the world welcomes this declaration and described as a great victory for humanity, and a continuance of a very long struggle into which all countries sacrificed dearly.

On July 9th., 1776, a declaration was issued in the U. S. A. It stated that all human beings are born equal, and that God gave them fiwed and unchangeable rights : the rgiht of living that of freedom and happiness; and that it is the duty of governments concerned to preserve these rights in accordance with the authority given to them by the ruled.

No one can deny of this reality that these are great gains for humanity, yet there is a limitless source of all these victories which can satisfy all our aspirations namely, Islam. For this religion is the first origin of man's right. It really preserves the rights of mankind; there is no discrimination between Arabs and non-Arabs except in piety and purity for God only interested in our souls and actions not in our bodies and faces. Man's action is his only means to require God's acceptance and forgiveness.

Islam urges its followers to show mercy towards one another to be merciful and fraternal to each other. God, in this respect says: "O, Man, I fell ill and you have not visited me". Man replies : "O my Lord ; how this happened and how can I visit You and You are the Lord of the world ? " God says : "One of my creatures was ill, you did not visit him. Had you done that, you would have found me there ! O man, I asked you food but you offered Me none". Man says : " O Lord of all people how can I feed you and everything is at Your disposal ? " Allah says : "Did not you know that one of your fellow citizens asked your help and you refused to

The following is the prayers of Abraham from the Holy Qur'an : "My Lord, make this land secure and turn me and my sons away from serving idols; my Lord, they have led astray many men. Then whoever follows me belongs to me; and whoever rebels against me, surely Thou art All-forgiving, All-Compassionate. Our Lord, I have made some of my seed to dwell in valley where is no sown land by Thy Holy House (Ka'ba) ; Our Lord, let them, perform the prayer, and make hearts of men yearn towards them, and provide them with fruits; happly they will be thankful. Our Lord, Thou knowest what we keep secret and what we publish; from God nothing whatever is hidden in earth and heaven. Praise be to God, who had given me, though I am old, Ismail and Isaac; surely my Lord hears the petition. My Lord, make me a performer of the prayer, and of my seed. Our Lord, and receive my petition. Our Lord, forgive Thou me and my parents, and the believers, upon the day when the reckoning shall come to pass".

Indeed, it was this man and his son, who rebuilt the first sanctuary on earth, the Ka'ba at Mecca. It is to this holy place that all Muslims turn at the time of prayer and it is the stone from which spreads out the eternally vibrant rays of Islam. The faith which Abraham taught, the faith that all the prophets taught, the faith that Muhammad (may peace be with him) taught; the last prophet of all. The faith of the One God, Allah. There is no other true faith and never can be, for anything else is bound to be false and hypothetical. Islam is fact. If one follows the logical and simple proofs set out in the Qur'an, follows them to their ultimate conclusion, then one comes up against the irrefutable fact that there IS a supreme being, infinite and transcendent, above and beyond all we know. . . yet, in some miraclous way, we can know Him for He is our Creator and the breath of life He blew into us is His divine gift to His creation, Man.

The sacrifice then, at Eid Al-Adha, is very important. For at this time should remember why we are performing this sacred act. The act is not a pagan rite inherited from the past, but an act of deep religous significance; which if we study it sincerely will strengthen our faith. Why do we perform this sacrifice?

What for? Ask yourself these questions and never do anything without knowing fully what you are doing, or else the act becomes empty and foolish. The Qur'an instructs you to learn, not to be ignorant. Therefore then, it is imperative that one knows fully the true significance of this most important day, Eid Al-Adha.

by the hand of Allah. At his birth his mother, Usha, had to hide in a cave to escape the soldiers of king Namrod who, because of a certian dream, had ordered the killing of all newborn children who were male. The Quran tells us that when still a youth he had a great spiritual experience and which gave an indication of his future holy life.

One day, while he was walking to his father's house, the day gradually faded, night came and a star appeared. When he saw this star he said : " That is my Lord ". But when it set he said : "I do not love those things that set !". Then he saw the moon appeared and said : "That is my Lord". When this also set he said : "Surely, if my Lord does not guide me I shall go astray and become one of the lost". Then the sun rose and he said : "That is my Lord who is the greatest of all". But this also set and when it did so he said : "O my people, I am free from your idolatry. See, I turn my face to the Creator of heaven and earth". Such perception in one so young is truly unusual.

Later, when he became a man, the Quran tells of another happening in his life. One day Abraham asked his people : "What are these idols you worship ? You are wrong in doing so". They replied: "Our fathers did so, so do we". After this there came a time when the people left the town and Abraham remaind behind, while they were gone he took an axe and went to the temple where the idols stood. There he broke them into pieces and scattered them, all except one large idol into whose hand he put the axe. When the people returned and saw what had happened in their temple they accused Abraham of the deed and questioned him, saying : "Are you the man who did this to our gods?". Abraham answered them : "Surely, the largest of them has done this thing. Ask them, if they are able to speak !". The people were confused and replied : "You know well that they cannot speak". Then Abraham replied : "Do you then, disregarding Allah, worship those things that cannot help or harm you ? Shame on you and your worship of idols". The people could not answer and were furious with him. As punishment they threw him into a furnace, but Allah protected him and he left the fire completely unharmed.

There is much to know about this wonderful man, who is called Khalil Allah, "the friend of the One God". His life was very long and spent in the service of Allah, his name becoming known to all people. When he died at the age of 175, he was buried in the family tomb at Khabrun.

Eid Al-Adha

(The Sacrificial Feast)

By : Raschid Ansari

This is the second major festival which all Muslims celebrate. It takes place on the 10th. Dhul-Hijja, the day on which the pilgrims make their sacrifice in the Valley of Mina. On this day all Muslims, no matter where, sacrifice an animal, preferably a ram or sheep. As may be expected there is great rejoicing on this happy occasion, which starts with the 'Salat El-Eid' (the Eid prayer) and ends 3 days later.

It is at this time that we especially remember the great prophet Abraham, who was the first Muslim to make this particular sacrifice.

Many, many years ago the prophet Abraham was about to make a supreme sacrifice, he was going to sacrifice his son, Ismail, because in a dream he was commanded by Allah to do this. When he told his son of this dream he understood and told his father that he must do what he thought he had to do.

Together they went to a certain place in the Valley of Mina and there prepared a place for sacrifice. When it was ready Ismail laid himself down on the altar and exposed his throat to his father's knife. Abraham stood over his son, knife in hand, about to give the life of his beloved son. What courage and faith this father and son had, for this was no easy thing to do for either of them, for the one to take the life of his son and for the other to submit himself to his father's wish ; both of them submitting to the will of Allah. Then, just as Abraham's knife was about to descend to his son's throat, he heard the bleating of a ram and suddenly saw the animal with its horns tangled in abush. " This animal will be sacrificed and not your son", a Divine Voice commanded him. Trembling with relief and happiness Abraham embraced his son, then taking the ram which had miraclously appeared, he obediently made a sacrifice to his Lord who had put him to such a hard and severe test.

Abraham is a fine example for all of us. He shows us that we must submit to the will of Allah, no matter what it may cost, and often this submission is a form of testing for us that we may prove ourselves. In the process strengthening our faith, and character.

Abraham's life from the very beginning was separated from others

of the body as a whol. These groups and classes had little or nothing to do in determining social status of individuals.

(O mankind ! Lo ! We have created you male and female, and have made you nations and tribes that ye may know one another. Lo! the noblest of you, in the sight of Allah is the best in conduct S.XLIX: V. 13) is the clear mandate of the Holy Quran in this respect. Names of individuals and classes were for identification but not for determination of social status. The caliphs, the supreme head of the society, enjoyed no social preference and they were addressed by a common Bedouin as he would address a brother by bare names but not as a monarchs and other dignitaries are addressed in these days with highsounding forms of address like His Holiness, His Majesty or His Excellency. The only difference between a Caliph and a common man was that a Caliph was entrusted with special duties and responsibilities peculiar to that office and he enjoyed social respect only when he faithfully discharged his resposibilities. This sense of brotherhood was so real, so unique and so living that the Caliphs themselves had no sense of socail superiority or artificial sense of prestige and dignity of office. When the proud Persion' Satorap Harmuzan' was brought to Caliph "Umar" as a prisoner, he found the Caliph, his victor, comfortably sleeping like a humble common man with his head on the bare steps of the mosque of the Holy Prophet. This was the miracle of the kalimah.

No state or society is a Muslim state or society in which this standard of equality and brotherhood is not visibly present. To compare the much vaunted equality, fraternity and liberty of western democracy with the equality and brotherhood of the early Muslim society of Medina would be to compare the ridiculous with the sublime, and hypocrisy and mockery with truth. "Zainub", a daughter of a proud Quraish, a close relation of the Holy Prophet himself was married to "Zaid", a slave. By this the age-ald pride and vanity of birth and heritage was completely destroyed. The famous Negro slave "Bilal" by dint of his own personal merits got a distinction which any man on earth would covet. The white guardians of modern conscience and knowledge do not even sit with a Negro free man in the same church to offer prayers to God who is the common Creator of all-the white, the Black, the yellow and the Brown[1].

(1) The creed of Islam..

Faith in the unity of God suggests the law of nature that seeks and creates unity in every diversity. Faith in the kalimah without active faith in the brotherhood of man is in effect negation of the kalimah. In the social order which the kalimah prescribes the status of man is determined not by his descent, inheritance or acquisition of meterial wealth, possession of political power or by ones vocation and occupation of life but by his personal character and behaviour, that is Guna and karma. Women not only get a social status but they get a status equal to the status of men. Faith in the unity of God summarily rejects all sence of false and artificial dignity. Caliphs of Islam inspired awe and admiration of the then world not by the grandeur and glamour of a royal court but by their nobility of character. This human aspect of the kalimah, namely, the brotherhood and equality of man was so carefully and zealously nourished that the Holy Prophet Muhammad (peace be on him) did not even tolerate any tendency of his disciples to show any spscial social preference to him and to the members of his family.

The kalimah revolutionised the social life of the Arabs. They not only broke all artificial distinction between man and man but they composed all their differences, rooted out mutual hatred and jealousy and loved one another not merely as comrades but as real brothers. The Ansars or the helpers of Medina divided up all their belongings equally with the refugees who came to Medina from Mecca as brothers would divide their father's assets equally amongst themselves. Faith in the kalimah made it clear to the early Muslims that a real and active sense of brotherhood and its opposite vanity and pride of personal distinction both originate in the mind and not in any external material circumstances. By a classless society they meant a social life in which there was no class conflict and in this sense the Arab Muslim society was a real classless society.

This classless society was created not through class struggles but by an active faith in the brotherhood of man. There were groups classes - vocational classes, economic classes, family and tribal classes and lots of other classes but the kalimah retained such of the classes and groups as was needed for harmonious development of the social organism but class distinction and class consciousness were effectively removed. These classes and groups were the limbs of the same body functioning harmoniously for the healthy development

Teachings of the "Kalimah"
(There is no god but Allah)

By : Abul Hashim

....In this dark context the stern and compassionate Voice of God, "There is no deity but God" was heared. It was stern because it uncompromisingly and definitely commands dissolution of all man-made distinctions between man and man and compassionate because it teaches the sweet relation of man with God and his relation with his fellow men. The Kalimah removes effeictively all barriers that divide a brother from a brother and pres cribes a social order which makes equality and brotherhood of man a living reality.

Faith in the Oneness of God is senseless if it does not mean faith in the oneness of man.

(We did not create man except as one nation (S. X : V. 19) is the message of the Holy Qur'an. If God has created man as one Nation, man has no right to create arbitray distinction between man and man. Equality of man which the Kalimah preaches is not, however, mathamatical but is social. One cannot be an equal of another in all respects; some are black and some white, some are tall and some short, some are diligent and some idle, some are intelligent and some stupid and some are gentle and some wild. Quite naturally some by their personal qualities acquire distinctions over others but such distinctions, according to the teachings of the Kalimah, are not permitted to interfere with or to disturb in any manner or degree the social equality of man. An intellectual gaint may be an intellectual aristocrat, a fortunate possessor of weath may be a financial aristocrat, although this arist eracy, in Islam, is very carefully and cautiously circumscribed; and again a "Hercules", a "Rustum" or a "Bhim" may be a physical aristocrat but there is no such thing as social aristocracy in Islam.

God is one and He is the Creator of the Universe. Faith in the unity of the Creator suggests unity and the composite nature of the Universe and faith in the unity and the composite nature of the human species.

(the law of) Allah's creation. That is the right religion, but most men know not). This is quite clear in Islam's attitude to war and fighting. It stresses peace as an ideal for which Muslims should strive as is indicated in the very name of Islam. However, it has permitted Muslims to fight when their faith and freedom of worship are threatened or when they are actually attacked.

Islam, therefore, lays certain rules which govern both the causes and the conduct of war. According to the strict orders of the Prophet Muhammad, and the wise caliphs to their army personal, it was forbidden to kill women, children, old and weak people, priests and monks. They did not allow their forces to kill animals or cut trees. Some Muslim Jurists have even prohibited killing enemy horses in the battle-field. The Prophet strictly prohibited any kind of mishandling of enemy women. In the point of view of Islam fighting is not a thing to be liked or sought, and peace should be clung to as far as possible. This idea is embodied in many verses of Qur'an.

God says : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » (Fighting is enjoined upon you, although it is something disliked by you).

Also : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » (But if they lean towards peace, you also lean to it (peace).

Our knowledge of a certain religion or a certain community should be based on a study of its institution and laws. It is a great pity that some learning scholars of the west have not got the right idea of the term "Jihad" in Islam.

In the Encyclopaedia of Islam, Dr. A. B. Macdonald refering to jihad, says : "The spread of Islam by arms is a religious duty upon Muslims in general." If such scholars had taken the trouble to consult an ordinary dictionary of the Arabic language or to study the teaching of the Holy Qnr'an, they could have avoid such misrepresentation. "Jihad" is far from being synonymous with war in the Arabic Language and the conception of the Qur'an.

in the different parts of Arabia and then to the rulers of Persia, Abyssinia, Egypt, etc.

The Qur'an declared the uuivessality of the Islamic faith in many verses. God says : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (And We have not sent you but as mercy to the world). Also, "And We have not sent you but as a bearer of good news and as a warner to all mankind" Again, "O mankind ! Surely I am the messenger of God to you all."

Then, the Holy Qur'an has stated that the message of Prophet Muhammad is intended for all nations till the end of the world. The early Muslims belived that they were rendering a great service to other people by guiding them to a faith which secures for whoever adheres to it happiness in this world and the next. Although they were ready to sacrifice their lives to propagate their faith, they tried to do this by preaching and by conveying to the people the message of God in a peaceful way. The use of force to spread Islam is contrary to the very spirit of the Qur'anic principles. . As already noted, God says : «لا إكراه في الدين».

(There is no compulsion in religion). As a result of the universality of Islam, it was carried outside the boundaries of Arabia by different means. All those means, however, were based on the idea of spreading Islam in a peaceful way. For further evidence in support of this historical fact, one can refer to certain territories in the Far East, and in Central and west Africa. A muslim army never went to these places to spread Islam or to support its propagators there. It is reportet that the introduction of Islam into Europe was the work of a Muslim scholar, who was taken prisoner in one of the wars between the Byzantines and the Muslims.

Spreading Islam by force is a thing of which we cannot find any trace either in the Qur'an or in the teachings of the Prophet. A single instance is not recorded in the whole history of the Prophet showing the conversion of an individual to Islam under pressure. Nor do we find any recrod of an espedition led or sent by him to convert unbelivers. It is in the nature of Islam to face the realities of life, because the true religion should regard man's nature. God says :

«فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

(So set thy purpose for religion as a man by nature upright, the nature (framed) of Allah, in which He has created man. There is no altering

(Sanction is given unto those who fight because they have been wronged...). again: "And (it is) for the poor fugitives who have been driven out from their homes and belongings...".

In one of those Meccan verses, in which "Jihad" is mentioned, God says : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً »

(So Obey not, the disbelivers, strive (Jihad) against them herewith, a great endeavour). This verse obviously refers to the Qur'an as a means of striving, and not to the sword. In another Meccan verse, God says :

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »

(O prophet ! Strive against the disbelievers and the hypocrites, and be stern with them). The word "Jihad" in this verse cannot possibly mean fighting because the prophet never fought against Muslim hypocrites. God also says :

« ومن يجاهد فإنما يجاهد لنفسه »

(And whosoever striveth (Jihad), striveth only for himself). The word "Jihad" is used here to indicate persistence in the face of persecution.

Even in the Medina period, when the Muslims were not presecuted but where strong both politically and militarily, the Qur'an categorically denounces the idea of using force to propagate Islam. In one of the verses of this time the Qur'an clearly states that the role of Muhammad was only to convey the message of God.

"Obey Allah and obey His messenger, but if ye turn away, then the duty of our messenger is only to convey (the message)".

Many of the Prophet's sayings represent "Jihad" as a desirable struggle in different fields. This conception of "Jihad" was emphasised by the Prophet, when he said to his companions, after returning from a military operation : "Now we have returned from the minor "Jihad" to the major "Jihad". When asked about the major "Jihad" he defined it as thus : "It is striving against temptation". This notion of "Jihad" was also emphasised by him when he told a man who supported his parents, and who was anxious to take part in a war that Muslims fought for self-defence that he was actually engaged in a "Jihad" by striving to support his elderly parents.

Islam was not meant for Arabs alone but for all people of world. This universal faith is a complate system of life suited to all times and climes and acceptable to everybody. Prophet Muhammad and his successors belived in the universality of Islam, and tried to spread it throughout the world. The Prophet put this general call into practice by sending envoys to convey the message of Islam, first to Arab chfefs

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

CHIEF EDITOR :

AHMAD HASSAN AL - ZAYAT

Dhu'l-hijjah 1386	ENGLISH SECTION EDITED BY : A. M. MOHIADDIN ALWAYE	March 1967

THE CONCEPT OF 'JIHAD' IN ISLAM

By A. M. Mohiaddin Alwaye

" Jihad " is one of the much misconceived words in Islam. The traditional idea of western people and even of some Muslims about "Jihad" is that of fighting or holy war. This interpretation implies two notions about "Jihad" in Islam. First that it means only fighting. Secondly that it aims at converting non-Muslims to Islam by force. Many of the Muslims who come into contact with western people are aware of these trends of thought in their minds towards this institution. In fact, the term "Jihad" is not correctly interpreted by Muslim Scholars. The Qur'an categorically denounces the idea of using force to propagate Islam. God says : « لا إكراه في الدين » (There is no compulsion in religion). Muslim's duty then is to understand rightly the conception of "Jihad" in Islam and to present it to others in its true lights.

The word "Jihad" was mentioned many times in the Qur'an and in the sayings of Prophet Muhammad. In none of them can it be said to mean mere fighting. In them, as in Arabic lexicography in general, it means "striving" or desirable struggle" in different fields of life. The term "Jihad" is used in verses revealed in "Mecca" before Muslims migrated to Medina where they were powerful enough to defend themselves. It is a historical fact that Muslims were first allowed to fight back, after they had been persecuted and turned out of their home-town by the people of Mecca. God Sayes :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ..